A B D U L L A H   I B R A H I M

دراسات
STUDIES

د. عبد الله إبراهيم

عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين



مكتبة التنوير



عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين / دراسات
د. عبد الله إبراهيم / مؤلف من العراق
الطبعة الثانية ، 2007



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
الخطوط ولوحة الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان
التنفيذالطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN:978-9953-36-966-6



د. عبد الله إبراهيم

عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين



توطئة

المرويَّات والتمثيل السردي للآخر

أنتجت القرون الوسطى الإسلامية مرويات كبرى رسّخت تصورات شبه ثابتة للأعراق، والثقافات، والعقائد. وكانت تلك التصورات تمثّل معيار قيمة لرفع أو خفض أي مجتمع أو ثقافة، أو عقيدة؛ فالحكم المسبق على ظاهرة اجتماعية أو ثقافية أو دينية سيؤدي إلى نتيجة تضفي مكانة رفيعة عليها أو تسلبها مكانتها الحقيقية. والصور التخيلية المتشكّلة في أذهان المجتمعات، بفعل الخلافات الدينية، والصراعات السياسية، وتباين المنظومات القيمية، والأنساق الثقافية، أدّت خلال تلك الحقبة الطويلة إلى ترسيخ صور منقوصة لبعضها. ومادامت تلك المرويَّات توجّه أفكار المؤرّخين، والجغرافيين، والرحّالة، والمفكّرين، والفقهاء، وكل مَنْ يصوغ الصور الجماعية الذهنية الخاصة بالآخر، وبخاصة المدونات الوصفية والسردية والعجائبية، فمن المنتظر الحصول على سلسلة متواصلة من الأحكام غير المنصفة بحق الآخر المختلف. والعودة إلى مرويات الثقافة الإسلامية (نقصد بالمرويّات كل تعبير يقوم بوظيفة تمثيلية للمرجعيات الثقافية والعرقية والدينية، بغض النظر عن صيغته الأسلوبية) تبين أن صورة الآخر مشوّشة، الأمر الذي يؤكد أن المخيال الإسلامي- المعبّر رمزيا وتمثيليا عن تصور المسلمين للعالم- أنتج صورا تبخيسية للآخر؛ فالعالم خارج دار الإسلام – كما قامت تلك المرويَّات بتمثيله- غفل، ومبهم، وبعيد عن الحق، وبانتظار عقيدة صحيحة لإنقاذه من ضلاله. ولا تخفى التحيّزات الكامنة في طيات ذلك التمثيل، فهي مكشوفة، وواضحة.

وكانت صورة الآخر الدونية مثار قبول واحتفاء في كثير من الأحيان لدى المؤرخين والجغرافيين، ولم يجر- في حدود علمنا- نقد معمّق لها، ولا كشف التنميطات الثقافية الجاهزة للآخر. ولم يكن الأمر خاصا بالمرويّات في دار الإسلام وحدها؛ فالقرون الوسطى كرّست ثبات المعايير وتكرارها، والنظام الفكري الشائع خلالها نظر إلى الظواهر الطبيعية، والبشرية، والثقافية، نظرة ساكنة، والإحساس بالتغيّر كان محدودا جدا، وثمة ثقة كاملة بضرورة اخضاع الظواهر البشرية والثقافية لتفسيرات مركزية مطلقة، وغير خاضعة للتغيرات الزمنية، وكان النظام الفكري يستعين بطرائق تحليل تقليدية تفتقر إلى الاستنتاج والتعليل، وترتب على ذلك أن أصبحت المعرفة الخاصة بتلك الحقبة هشّة، وغير متماسكة، وفيها تناقضات كثيرة، لم تصمد بوجه النقد؛ لأنها قائمة على التنميط الجاهز، وفصل الظواهر عن سياقاتها التاريخية. ولما كانت تلك المعرفة تقوم على ركائز ناقصة، وغير متكاملة، ومتعالية على شرطها التاريخي، فمن الطبيعي أن تتّصف بالنقص وعدم الإحاطة بموضوعاتها، والاختزال الواضح في الأسس التي تقوم عليها. وكان هذا التصور التقليدي للآخر إبان تلك الحقبة يقيم معرفة تخيلية ملتبسة مع نفسها، يتم تعميمها وفرضها استنادا إلى السجال، وليس المعاينة، وقد لا

تراعى في كل ذلك الجدوى المستخلصة منها، ولا الهدف المراد تحقيقه، سوى الامتثال للفكرة الراسخة القائلة بالتفاضل، فالأنا مفعمة بقيم سامية، والآخر يفتقر إليها. الأنا فاعل، والآخر منفعل.

وتضافرت المرويَّات من أجل تمثيل الذات والآخر استناداً إلى آلية مزدوجة الفاعلية أخذت شكلين: ففيما يخص الذات أنتج "التمثيل" ذاتاً نقيّة، وحيويّة، ومتضمّنة الصواب المطلق، والقيم الرفيعة، والحق الدائم؛ فضخّ جملة من المعاني الأخلاقية المنتقاة على كل الأفعال الخاصة بها، وفيما يخص الآخر أنتج التمثيل"آخر"يشوبه التوتر والالتباس والانفعال أحياناً، والخمول والكسل أحياناً أخرى، وذهب بالنسبة للأقوام النائية إلى ما هو أكثر من ذلك، حينما وصفها بالضلال، والحيوانية، والتوحش، والبوهيمية، فأقصى عنها كل المعاني الأخلاقية المقبولة، وحُمِّل الآخر، من خلال تفسير خاص، بقيم رتّبت بتدرّج لتكون في تعارض مع القيم الإسلامية، فاصطنع "التمثيل" تمايزاً بين الذات والآخر، أفضى إلى متوالية من التعارضات التي تسهّل إمكانية أن يقوم الطرف الأول في اختراق الثاني، وتخليصه من خموله، وضلاله، وبوهيميته، ووحشيته، وإدراجه في عالم الحق. وباستثناء حالات محدودة خاصة بالعالم الشرقي، فمن النادر الحديث عن تمثيل محايد، لأن المرويَّات الكبرى لا تنقطع عن مرجعياتها الثقافية، وهي سرود شاملة لا تعرف البراءة في التمثيل، وليست شفافة، إنما تشتبك مع مرجعياتها في نوع من التمثيل الكثيف، وتصوغها صوغاً رمزياً، فترشح من تضاعيفها كل المواقف القيمية والثقافية.

هذه الآلية التي وفرت اعتصاماً بالذات وتحصناً وراء أسوارها المنيعة، وإقصاء للآخر وتشويه حالته الإنسانية، هي من نتائج ثقافة التمركز حول الذات داخل دار الإسلام، والتمركز نمط من التفكير المترفّع الذي ينغلق على الذات، ويحصر نفسه في منهج معين، ينحبس فيه ولا يقارب الأشياء إلا عبر رؤيته ومقولاته. ويوظف كل المعطيات من أجل تأكيد صحة مقولاته. ويحتاج هذا النمط من التفكير إلى نقد متحرر من أية مرجعية ثابتة، سواء كانت عرقية أو دينية أو ثقافية، فالمرجعية التي يمكن اعتبارها الموجِّه لعمله هي الممارسة النقدية التحليلية الجريئة التي تتعرّض لفك التداخل بين الظواهر التي تلازمت فأوجدت هذا التفكير الذي يقوم على الرغبة والحاجة، وليس على جمع المعطيات الكلية التي توفر له درجة من الموضوعية، والحياد، والصدق. وكان هذا النموذج الفكري مهيمنا في القرون الوسطى، فتغلغل في تضاعيف التصورات العامة، وتحكّم في توجيه الأفكار وصوغها، وركد مطمورا، ولكن بفاعلية كبيرة، تحت أكداس الخطابات، والتصورات، والتخيّلات، فحجب، ولمدة طويلة، إمكانية البحث في أمر تعديلها. وذلك يلزم إعادة النظر في كثير مما اعتبر من المسلّمات الثقافية في ذلك العصر لكشف فداحة الأوهام، وخطورة المصادرات، ثم طرح القضية الملتبسة دائماً، قضية "الأنا" و"الآخر" ليس بوصفها قضية تاريخية انقضى عصرها، وانتفت أهميتها، إنما باعتبارها ممارسة فكرية نقدية متجدّدة، تقوم بتحرير الذات من أوهام التمركز، والتفوّق الهوسي، والأفضلية التخيليّة، عبر نقدها في أصولها، وتحريرها من الأوهام، وفكّ الالتباس القائم على علاقة غير صحيحة مع الآخر. يكشف أثر المرويّات أن الأصول ما زالت تمارس ضغطا شديدا في تحديد مجال الأفكار، ونمط المواقف، ونوع التصورات.

تمثل المرويَّات ذاكرة يصار إلى استعادة حمولاتها طبقا لحاجات الوعي الجماعي في ظروف تاريخية محددة من أجل أهداف مشتركة، والبحث في الصور المتشكّلة في المخيال الإسلامي للآخر ليس موضوعا أغلق عليه كتاب الماضي، إنما هو قضية تتصاعد بفعل الظروف المعاصرة، ويجري استخدامها لإعادة التوازن، إذ يُدفع بالماضي ليكون جزءا من نزاعات الحاضر. واستخدام المرويَّات يجعلها وسيلة للرهان في كل موضوع يستعصي على الحل، وذلك، فيما نرى، يحجب النظر عن القضايا الحساسة، ويتسبب في عماء دائم، يحول دون التفكير الموضوعي بالواقع. وينبغي أن نؤكد أن كل مركزية تقوم على فكرة الاختلاق السردي الخاص لماض مرغوب يشبع تطلعات آنية، ويوافق رغبات قائمة، فهذه سُنن المركزيات، وبمواجهة الحاجة إلى توازن ما تُصطنع ذاكرة توافق تلك التطلّعات، أو يتم تعويم صور من الماضي، لغايات خاصة. وقد ذهب"إدوارد سعيد"إلى مضمون هذه الفكرة، حينما أكد أن"ثمة منهجا لاستخدام الذاكرة بشكل انتقائي من خلال التلاعب بقطع معينة من الماضي، وذلك بطمس بعضها وإبراز بعضها الآخر بأسلوب يؤدي وظيفة من نوع ما..ومن هنا ليست الذاكرة بالضرورة أصيلة، بل هي على الأصح، ذاكرة نافعة.. وذلك يعود إلى أن الاهتمام بالذاكرة من أجل ماض مرغوب فيه يمكن استعادته هي ظاهرة محمّلة مشحونة، وقد برزت إلى الوجود حديثا نتيجة التغيرات المربكة في مجتمعات كبيرة تفوق التصور، مجتمعات بشرية ضخمة، واسعة الانتشار، وقوميات متنافسة، ولعل الأمر الأكثر أهمية، فيما يخص ظهور الذاكرة التي يمكن الانتفاع بها لأداء وظائف تحتاجها الأمم والمجتمعات، في واقعها المعاصر، هو تناقص فعالية الأواصر الدينية والعائلية والروابط السلالية، ويتطلع الناس الآن إلى هذه الذاكرة المتجدّدة، سيما في شكلها الجمعي، ليمنحوا أنفسهم هوية متماسكة، وسرداً قومياً، ومكاناً في العالم".

إنّ الأمثلة في عالمنا المعاصر أكثر من أن تحصى في مجال اختلاق ذاكرات تاريخية، وعرقية، ودينية، والبحث المسكون بأوهام كبرى للانتساب إلى ماض عريق كمعادل موضوعي لوهن قائم، أو لانتزاع شرعية في عالم محتدم بصراع الهويات، والتطلعات، والآمال، ومشبع في الوقت نفسه بحالات انكسار للقيم التقليدية الموروثة، وانهيار لنسق العلاقات القديمة، وهذا التوتر يضخّ رغبات دائمة تريد استخدام الماضي استخداما أيدلوجيا بما يضفي على الأنا سموّا ورفعة، وعلى الآخر خفضاً ودونية. وإعادة قراءة المرويَّات في ضوء هذه الحاجات، يسهم في هذا الضرب من الصراعات، فالأمم تتساجل فيما بينها-أيضاً- عبر الصور الإكراهية التي تشكلها بواسطة السرود لغيرها. وقوامها إن هو إلا نسيج متشابك من التصورات والمرويَّات الخاصة بها عن نفسها، وعن الأمم الأخرى، وغالباً ما تحمل تلك التصورات عبر التاريخ مدوَّنات وصفية أو تخيلية، تتوارى فيها الصور الكلية للمشاعر والتطلعات والتجارب، والقيم الدينية والنفسية والأخلاقية. واستنطاق تلك المتون هو استنطاق لذاكرة، ونقدها هو محاولة لوقف استخدامها كأيدلوجيا حيّة في نزاعات معاصرة. ولم يثمر تشويه الآخر عن فائدة حقيقية، ولن يكون ممكنا وقف ذلك إلا استناداً إلى رؤية نقدية تكشف ذلك النسغ المتصاعد في الفكر والسلوك المعاصرين. وكشف صورة الآخر في أعين المسلمين، خلال القرون الوسطى (هنالك اختلاف حول الدلالة الزمنية لهذا المفهوم بين المؤرخين بحسب الأمم، والثقافات، كما هو معروف) لا

يراد منه سوى تفريغ الأوهام المستبدة بنا، والتأكيد أن النظر النقدي إلى الماضي، وصورته في أذهاننا، يسهم في كشف انخراط فكرنا التقليدي في عمل خطير. وهذه النظرة النقدية تريد ألا نظل أسرى التطابق مع صور بعينها من الماضي، إنما التفكير في نوع من الاختلاف، وهذا الاختلاف يقتضي النظر للذات والأخر بعيدا عن التحيُّزات الأيدلوجية الجاهزة.

يطمح هذا الكتاب إلى عرض الرواية الإسلامية للآخر، مؤكداً فكرة أساسية، وهي أن المركزيات تصاغ استناداً إلى نوع من التمثيل الذي تقدمه المرويَّات الثقافية (= الدينية، والأدبية، والتاريخية، والجغرافية، والفلسفية، والأنثروبولوجية) للذات المعتصمة بوهم النقاء الكامل، والآخر المدنّس بالدونية الدائمة، فالتمركز هو نوع من التعلق بتصوّر مزدوج عن الذات والآخر، تصوّر يقوم على التمايز والتراتب والتعالي، يتشكّل عبر الزمن، بناء على ترداف متواصل ومتماثل لمرويات تلوح فيها بوضوح صورة انتقيت بدقة لمواجهة ضغوط كثيرة. إن النظر إلى المركزيات الكبرى في التاريخ الإنساني من زاوية كونها نتاج مرويَّات ثقافية متنافسة يوسع المجال أمام الدراسات المخيالية التي استبعدت بتأثير من فكرة الحداثة الغربية، وقوام هذه الحداثة عرض رواية من نوع خاص للتاريخ أنتجها المخيال الغربي المتخفّي تحت غطاء العقلانية في ظل ظروف خاصة، وهذه النظرة إلى المركزيات تسعى لإعادة الاعتبار إلى المرويّات الثقافية التي تتوارى أحيانا وراء الستار السميك للمفاهيم والمناهج فتأخذ شكل تحليلات موضوعية، وتتجرد غالبا عن ذلك فتكون مرويَّات سردية، فيما هي تخفي درجات من التمثيل السردي الذي يتدخل في صوغ العلاقات الإنسانية، والمفاهيم الفكرية، والتصورات الخاصة بالأنا والآخر.

لعل أكثر ما حرص هذا الكتاب على صونه، هو: إيراد نصوص متكاملة، ومتنوعة، ومطولة، ومستوفية الشروط، تضافرت فيما بينها لكشف مختلف الأوجه للعالم خارج دار الإسلام طوال القرون الوسطى. وكان ذلك العالم يحيط بدار الإسلام من جميع الجهات تقريبا، وقد خصّت أقوام الشرق والشمال والجنوب بأجزاء خاصة بها ضمن هذا الكتاب؛ لأنّ نظرة المسلمين لهم تباينت تبعا لتباين المنظومات الثقافية التي ينتمون إليها، وتبعا لمناطقهم الجغرافية وأعراقهم أيضا. ويهدف الكتاب إلى توفير المادة الأصلية التي يمكن الاستناد إليها في رسم صورة الآخر في أعين المسلمين خلال تلك الحقبة الطويلة والمتقلّبة، إلى ذلك فكثير من النصوص أدرجت كمصادر موثوق بها في كشف الأبعاد الاثنوغرافية للمجتمعات الوسيطة. وتتضمن الطبعة الثانية من الكتاب مزيدا من النصوص الجديدة، والتنقيحات الأساسية، والإضافات الضرورية، بما يوسع هدف الكتاب الذي يراد منه رسم صورة تمثيلية للعالم خارج دار الإسلام في القرون الوسطى، مع الأخذ بالحسبان أن تخوم تلك الدار كانت متغيرة، وأحوال الأمم فيها متقلبة، لانعدم إشارات كثيرة عن مجتمعات تعيش في تلك التخوم، أو ضمن "دار الصلح". وفي جميع الأحوال حرصنا على استيفاء وضع تلك المرويَّات، على الرغم مما نجده من تكرار، لنضع تحت التصرف رؤى كاملة لمؤرخين، ورحالة، وجغرافيين، صدروا عن تصورات ثقافية ودينية متقاربة في رؤيتهم لأعراق وعقائد مختلفة عما هو معروف في عالمهم.

مدخل
مركزية دار الإسلام في القرون الوسطى

1. دار الإسلام: انبثاق عالم جديد

يصعب، من ناحية تاريخية، تحديد اللحظة التي بدأ يتداول فيها مصطلح "دار الإسلام" ليس لأن هذا المصطلح غير قادر على الإفصاح عن مضمونه، إنما لأن قيمته الحقيقية تكمن في دلالته الثقافية، فدار الإسلام لم ترتهن أبدا لمعنى جغرافي مباشر محدّد؛ لأن تلك الدار كانت تتوسّع وتنحسر على وفق درجة حرارة البعد الثقافي للإسلام كمنظومة ثقافية يوجهها بعد ديني لتفسير العالم. ووحدة دار الإسلام كانت ثقافية بالدرجة الأولى، وجرى باستمرار تهميش للعوامل العرقية والجغرافية، ولكن هذا لا يقصد منه طمسها، إنما هي انتماء طبيعي، فيما العقيدة انتماء ثقافي. و لم تكن دار الإسلام في أي وقت من الأوقات أرضا تحتكر السيطرة عليها دولة واحدة. ويبدو لنا- وهذا أمر يحتاج إلى اختبار خاص- أن هناك تعارضا شبه دائم بين المفهومين السياسي والثقافي لدار الإسلام. وفي حدود علمنا نشأ المفهوم إثر انحسار السيطرة العربية على جزء كبير من العالم القديم؛ فمنذ العقد الأخير من القرن الأول الهجري (= بداية القرن الثامن) وقع أمران لافتان للنظر: أولهما توقف الفتوحات في أقاصي الشرق داخل الأراضي الصينية عند (كاشغر) وظهور بوادر تقهقر دائم في تلك النواحي، انتهى بعد أكثر من خمسة قرون بوصول الأقوام المغولية إلى بغداد، القلب الثقافي النابض لدار الإسلام آنذاك، وثانيهما اندفاع الفتوحات الغربية إلى أوربا عن طريق الأندلس، ثم توقفها شبه المفاجئ، بعد فترة قصيرة. ولعلّ العقد الأخير من ذلك القرن، والعقد الأول من القرن الذي تلاه، هما البداية التي شهدت اللحظة الفاصلة بين اندفاعين يصعب تفسيرهما، وبداية تقهقرين لا يقلان عنهما غموضا. هذان الأمران كانا دائما مثار خلاف في التفسير، وتقاطعت حولهما المواقف، وبخاصة حينما خلع عليهما الغطاء الديني، فكان المفسر الوحيد لصعود الممالك وانهيارها.

احتل الحديث عن دار الحرب مكانا بارزا في الأدبيات الفقهية الإسلامية منذ القرن الثاني الهجري، وزاد الاهتمام به في القرون اللاحقة، وأسهم فيه نخبة من الفقهاء، إذ كان العالم حسب المفهوم الإسلامي، ينقسم إلى قسمين: دار الإسلام التي تضمّ المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية التي رضخت للسيادة الإسلامية، ودار الحرب. أما دار الإسلام فتشمل فئة المؤمنين، والفئات التي حالفت المسلمين من أهل الكتاب الذين آثروا البقاء على ديانتهم مقابل دفع الجزية. وجميع الساكنين في دار الإسلام يعدّون رعايا الإمام أو الخليفة، ولهم حق الحماية في الداخل وحق الدفاع عنهم في حال اعتداء خارجي. أما دار الحرب فضمّت العالم المحيط بدار الإسلام، وجمعت الشعوب والأقاليم غير الخاضعة للسيادة الإسلامية. ودار الحرب هي الهدف الذي كان الشرع يسعى إلى ضمّه إليه، فمن واجب كل حاكم مسلم أن يسعى لإخضاع دار الحرب للسيادة الإسلامية

عندما تتوافر له القوة الضرورية لذلك. وعدّ سكان دار الحرب أقواما على سجيتهم الأولى البدائية تنقصهم الكفاءة الشرعية التي تؤهلهم للدخول في مفاوضات مع المسلمين على قدم المساواة، وعلى مبدأ العدالة بالمثل، لأنهم عاجزون عن الانسجام مع المستوى الخلقي والشرعي لدى المسلمين، وعلى هذا فالمعاهدات معهم لم يكن معترفا بها ضمنا طبقا للشرع الإسلامي[1].

وقع خلاف بين الفقهاء المسلمين فيما يخص هذا التقسيم للعالم، ومع أن الغالبية قبلته كأمر واقع فإنّ فئة منهم – ولاسيما فقهاء المذهب الشافعي- افترضت وجود عالم آخر هو دار الصلح، أو دار العهد. وحسب هذا المذهب فالإسلام اعترف بالشعوب غير الإسلامية التي أبرمت معاهدة أو صلحا مع المسلمين على أن تدفع الجزية، لكن فقهاء الحنفية لم يقبلوا بهذا، وما اعترفوا أبدا بالصلح، وحجتهم أنه متى عقد سكان الإقليم معاهدة سلام، ودفعوا الجزية؛ فإنهم يصبحون بذلك ضمن دار الإسلام، وعلى الإسلام أن يضمن لهم الحماية. وكانت دار الإسلام – من ناحية نظرية – في حالة نزاع مع دار الحرب، لأن الهدف الأخير للإسلام هو أن يكون العالم بأسره تحت سيطرة المسلمين، وإذا أفلح المسلمون في ذلك، فإن حالة السلم التي يفرضها الإسلام تحلّ محل كل تدبير سلمي آخر، وتصبح الشعوب غير المسلمة إمّا جزءا من الدولة الإسلامية، أو خاضعة لسيادتها كأقليات دينية معترف بها، أو كوحدت ذات استقلال ذاتي تربطها بالدولة الإسلامية معاهدات تنظّم العلاقات بينهما[2]. وطبقا لهذا التصور فإن الفكر السياسي الإسلامي أوجد دولة بمقتضى عقد مقدّس قائم على الشريعة، ولا انفصال بين الدولة والمجتمع ولا بين الدولة والدين[3]. وحسب "شاخت" فالشريعة هي نموذج للقانون الديني[4]. والخليفة أو الإمام هو الشخص الأعلى المسؤول عن حماية الشريعة، ثم أن مسؤوليته لا تقتصرعلى صون حدود دار الإسلام، إنما توسيعها لتهيئة العالم لقبول الشريعة بما يجعله كله معتنقا للإسلام؛ فالله هو المصدر النهائي للسلطة، والجماعة الإسلامية أمّة الله، وممتلكاتها مال الله، بما في ذلك الغنائم، وأعداؤها هم أيضا أعداء الله[5].

وقد وضع ابن فضل الله العمري لدار الإسلام تخوما مبهمة تأخذ بالحسبان العقائد أكثر من أي شيء آخر، فقال"ممالك الإسلام واقعة، بحمد الله، في أحَسن المعمور شرقاً وغرباً وجنوباً وَشمَالاً، لأنها لا تنتهي إلى غاية الحَرارَة المفرطَة ولا إلى غَايَة البَرد المفرط، إلا فيمَا قل، ولا يخرجُ عن حد المُستَطاب.. فغاية معمور الجنوب مساكن السودَان من عُبَّاد النيران والأصنام، بما تغلغل من جزاير الهند وَأطرافه، والنصارى بأطراف الحبشة، وعبَّاد الحيَّات، والهمج في سُودَان المغرب جنوب غَانه. وغاية معمور الشمال من النصارى والهمج ببلاد الصقلب، في شماليها أحد قسمي إيران المسَّماة ببلاد القبجاق، وما سامت ذلك الخط من القسطنطينية، وما وراءها إلى جليقية والأرض الكبيرة وجزاير البحر الرومي. وغاية معمور الشرق من عُباد النيران والأصنام بثالث أقسام توران من بلاد الصين إلى المحيط، وأمَّا الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط"[6]. فدار الإسلام تكشف قيمتها وأهميتها وموقعها المرموق من الناحية الطبيعية والبشرية، فهي في أحسن المعمور من الأرض، فمن الجنوب والشرق عبّاد النيران والأصنام، ومن الشمال الهمج، ومن الغرب محيط الظلمات.

ونُظر إلى الشعوب خارج دار الإسلام على أنها جماعات وقبائل ضالة ينبغي أن تمتثل للشريعة الإلهية، ويجب أن يبسط الإسلام قيمه في ربوعها لترتقي إلى مستوى الأهلية البشرية الحقيقية، وعلى هذا فهناك حرب بين دار الإسلام ودار الحرب، حرب معلنة أو مضمرة أو مؤجلة، وهي لا تنتهي إلا حينما يدخل الجميع إلى الإسلام أو يخضعون له؛ فالسلام بين الدارين غير ممكن من ناحية شرعية لأنه مصالحة بين نقيضين: حق وباطل، هدى وضلالة، إيمان وكفر. ووجود هدنة لا يعني أن تضع الحرب أوزارها إلى الأبد، فهي مؤقتة لا تزيد على عشر سنوات، وللمسلمين حق نقضها من طرف واحد، ومواصلة الجهاد، متى وجدوا ذلك ممكنا وضروريا[7]. وهذا يشمل كل الممالك المتاخمة لدار الإسلام، باستثناء الحبشة التي استثنيت من ذلك لأسباب تتصل بموقفها من الإسلام في مرحلته الأولى. يتضح مما سبق أن النظرة إلى الآخر كانت تقوم على أسس دينية وقيمية، فالدين هو الذي يمنح المعنى النهائي للأشياء، وللظواهر، وللبشر، لذلك فالبحث عن ملامح الآخر يفترض العودة إلى النص المرجعي الأول إلى القرآن الذي يجهز النظر ببعض عناصر الإدراك والوعي، ويطعّم المتخيّل بما يحتاج إليه من صور وأشكال ورموز.. ومادام الإسلام يحمل تصورا للعالم وللإنسان، ويمثل النص القرآني تكثيفا للكلام الرباني، وتعبيرا عن تجلّيات المقدّس، فهو يشكل مصدرا للرؤية، وقاعدة معيارية للجماعة الإسلامية[8]. لم يستطع المسلمون الحفاظ على هذه الوحدة المتماسكة التي توجهها الشريعة وتنظمها، فسرعان ما تفكّكت أواصر الوحدة السياسية داخل دار الإسلام، وظهرت مراكز سياسية تدّعي احتكار الإسلام الحقيقي، وتصارعت تحت ستار امتلاك الشريعة بصورتها الصحيحة، وقُسِّمت دار الإسلام سياسيا، وإن ظلت موحدة عقائديا، ولهذا فدار الإسلام كانت ذات طابع ثقافي أكثر مما هو سياسي، ومع الزمن تمّ قبول الجوار كأمر لابد منه، فمادام التنوع قُبِل داخل دار الإسلام، فقد امتد ليشمل العالم كله، لكن واقع الحال هذا لم يفرض نفسه إلا في وقت متأخر، بعد أن تعددت الكيانات السياسية داخل دار الإسلام.

لم تثبّت أبداً حدود جغرافية لدار الإسلام، ولكن ليس هذا ما نريد الإشارة إليه هنا، إنما الأمر الرئيس الواجب إثارته هو عدم إمكانية ظهور دلالة ثقافية لهذا المصطلح في ظروف فتوحات كاسحة. وما إن توقفت إلاّ وجرى شبه تثبيت عقائدي، لعب دوراً بالغ الأهمية في ظهور مفهوم دار الإسلام. لم تكن الحدود الجغرافية بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة لها في يوم ما ثابتة، و لم يجر طوال القرون الوسطى في أي مكان من العالم الاتفاق النهائي على حدود ثابتة معترف بها بصورة كاملة. والقول بحدود شرعية فكرة تمخضت عن النزاعات الدائمة بين الدول الأوربية في القرن السابع عشر، وظل الشك يلازم تطبيقها إلى الآن. فلم يحدث أن أخذت دولة قوية خلال القرون الوسطى أمر سيادة الدول المتاخمة لها بعين الجد، فعنصر القوة، وليس الحق، هو المهيمن في العلاقات السياسية بين الدول، وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على مجموعة الدول التي كانت تتنازع السلطات ضمن دار الإسلام فيما بينها أو مع الدول المتاخمة لها. وهو يفسر لنا جزئيا ظهور مجال فاصل بين دار الإسلام ودار الحرب، مجال فرضه التنازع الدائم، وشكل دارا ثالثة، هي(دار العهد)أو(دار الصلح). وغني عن البيان تفصيل القول في أن هذه الدار المزدوجة الولاء بين الدارين المذكورتين كانت هشة التكوين،

ضبابية الهوية، مخترقة دائما من إحدى القوتين المحاذيتين لها، تقوم بدور التخوم الفاصلة، حينما تغيب التخوم الطبيعية المانعة لتقدّم هذا أو ذاك، ومن هنا كانت سهلة الاختراق، فنسيجها الاجتماعي والثقافي والعقائدي خليط مستعار من هذا وذاك. وهي دار رمزية يتزحزح مكانها بصورة دائمة، لا تعرف الثبات أبدا، وكثيرا ما ينعدم وجودها.

وبداية من مطلع القرن الخامس الهجري (= الحادي عشر الميلادي) كانت العلاقة بين المجال السياسي والمجال الثقافي فيما يسمى بـــ"دار الإسلام" هي علاقة عكسية؛ فكلما تراجعت السيطرة السياسية، تقدمت السيطرة الثقافية. وبعبارة أكثر تحديدا، فقد حالت التنازعات الداخلية في دار الإسلام دون القدرة على إبقاء قوة كاملة في تخومها تؤمِّن حدودها بشكل دائم. وعلى هذا فقد امتصت تلك المنازعات القوة المطلوبة، وظلت حدود دار الإسلام غامضة، يتحكم بها عامل القوة الذي ينبثق هنا أو هناك، بسبب سلطان طموح، أو إمارة قوية، ثم يعيدها الضعف إلى سابق عهدها. ولكن بالمقابل فإن المسلمين المتاخمين لدار الحرب، والذين تتلاعب بهم رهانات القوة، فيكونون مرة ضمن دار الإسلام، ومرة ضمن دار العهد، وثالثة داخل دار الحرب، نجحوا على نحو منقطع النظير في تشكيل هويتهم الثقافية الإسلامية كائنا ما كان وجودهم داخل هذه الدار أو تلك، وكائنا ما كانت قراءتهم للإسلام. وعلى هذا فقد تتراجع الحدود السياسية لدار الإسلام، ولكن الحدود الثقافية شبه ثابتة، إن لم نقل إنها تتوسع (= ظهر هذا في جنوب آسيا ووسط إفريقيا حيث تمددت دار الإسلام بوسائل غير عسكرية في كثير من الأحيان) ومع التراجع المطّرد للحدود السياسة، نشأ وضع جديد في ظل هذا التوتر المستمر؛ فقد نشأت إمارات غير خاضعة للمركز التقليدي السياسي لدار الإسلام، لكنها تدين بالعقيدة نفسها، والحق فإن هذه الكيانات السياسية، لعبت الدور الرئيس والفاعل في إضفاء التنوع الخصب ثقافيا وعقائديا على دار الإسلام طوال قرون وقرون، وفيها نشأت فكرة الإسلام المتنوع الذي لا يتعارض مع وحدته العامة. وعلى هذا لم تكن دار الإسلام كتلة ثقافية متطابقة التصورات تماما، ومتماثلة التفسيرات على نحو مطلق، إنما اتصفت بالتنوع الذي أضفى خصبا ثقافيا لا يمكن إهماله. كان الإسلام يمثل هوية ثقافية أكثر منه كيانا سياسياً.

لقد فرضت المفاهيم القديمة للعالم تباينا في التصورات، أدت إلى تركيب صور إكراهيّة للآخر. صور سادت لفترة طويلة توجهها منظومات قيم متباينة. إن الآخر في الفكر القديم هو المختلف قيميا بالدرجة الأولى. وتثير قضية الآخر في أذهان المسلمين موضوع القيم الإسلامية وضرورة تعميمها على العالم بأجمعه، فالآخر موضوع ينبغي أن يُغزى بالقيم الإسلامية لكي يصلح أمره. وكان التصور الشائع عن الذات والآخر يستمد حيويته من المركزية الدينية، أي تلك البؤرة التي تنبثق منها قيم الحق إلى الأبد، وبما أن التصور الديني عدّ الله مصدراً لقيم الحق، وأنه حلّ هنا "دار الإسلام" ولم يحل هناك "دار الحرب" فالنتيجة المنطقية هي أن قيم دار الإسلام هي الحقيقية والصائبة، أما قيم الآخر فمحتقّرة، ومدنّسة، ويلزم تطهيرها من النجاسة الوثنية. قيم الآخر هي موضوع لحكم القيمة، وندر أن استأثرت بوصف وحكم موضوعيين؛ ففي عصر يتصدّر فيه الشعور الديني

أي شعور آخر، لا مكان للمصالحة في القيم والأخلاقيات. ولكي يظلّ ذلك الشعور حيّا، ومتوهجا، ومتّقدا بالتنازع القيمي لابد من تفريق يقوم على ثنائية الحق والباطل بين قيمـــ(نا) وقيمـــ(هم). هذه الثنائية تصوغ وعي لاوعي المجموع، وتجعله يبني تخيلاته ومواقفه وأحكامه واختياراته على أساس فكرة التفاضل والتراتب التي تقود إلى الإعلاء من شأن الذات وخفض قيمة الآخر. لقد تم تخطّي الإنسان كذات، وصار التركيز عليه كموضوع للقيم، وأهميته لا تتحدّد من كونه بشراً، إنما في اعتناقه ضربا من القيم دون غيره.

سلّم القيم الذي صاغه الإسلام، وتحول إلى جزء مكمّل من العقيدة حسب الفهم الشائع لها سيتدخّل في تركيب صور مشوّهة للآخر. وبالإجمال فصور الآخر منتقصة، يشمل الانتقاص بالدرجة الأساس القيم الشائعة لديه، ويمتد ليشمل الإنسان حامل تلك القيم. هنالك تشويه لحقيقة الآخر ذهنيا وجسديا وعقائديا، ففضلا عن البلادة والجهل والضلال والسفه والبوهيمية، يتراوح الأخر بين تصغير يشوش إنسانيته، كما هو الأمر بالنسبة لأقوام أقصى الشمال حيث يفترض أن تكون بلاد يأجوج ومأجوج، أو تضخيم مقصود كما هو الأمر في حالة الزنوج والصقالبة وكثير من الأقوام الشمالية.

تتصف القيم الدينية بالثبات، وكان الفهم الديني للحياة يقوم دائما بمراجعات دقيقة كيلا يخرم الزمن ثبات القيم، فتصاب بالفساد بسبب التحوّل، بعبارة أخرى فالقيم الدينية تتخطّى البعد التاريخي، ولها قدرة الشمول والديمومة والثبات؛ لأنها قيم مكانية وليست زمانية. فهي لاتقرّ بالتحول، ثابتة، ساكنة، دائمة الصحة، تريد للإنسان أن يتكيّف معها، فيظل في حالة تصحيح دائم لمساره، لكي يمتثل لها. هي المركز المشع الدائم، وهو يدور في فلكها. قربه وبعده عنها هو الذي يحدد قيمته. ومادامت القيم الدينية هي التي تحدد أهمية الإنسان فمن الطبيعي أن تجرد قواها كاملة لتضمّه إلى عالم الحق. فحيثما تكون ثمة حقيقة مطلقة الصواب ينبغي نشرها، يسود العنف والقسوة كوسيلتين لذلك. أصبحت القيم جوهراً، وصار الإنسان عرضاً.

تُستمد القيم من طبيعة المجتمع الذي رسمه الإسلام، تلك القيم هي المعيار الوحيد لصواب المسار الذي ينبغي على المرء أن يسلكه، وذلك سيفضي لا محالة إلى وجود نقيض؛ النقيض يسوغ صيانة القيم من جهة، والعمل على نشرها لتعمّ العالم من جهة ثانية، ففي المجتمع النصّي القرآني تمثل الثنائيات الضدّية دوراً حاسماً في شطر العالم إلى عالمين. ثمة تعارض دائم بين الحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والكفر. ولا يمكن أن يظل الصراع منحبساً في المصحف، واستناداً إلى مركزية كلام الله بوصفه المرجعية الكلية لكل شيء، فإن العالم بتناقضاته قد صيغ على غراره. المجتمع الأرضي المنشود إنما هو محاكاة للمجتمع النصي، كما قرر ذلك علم الكلام ثم الشريعة الإسلامية. وفي النهاية لا بد من انتصار وظفر، فكل من أهل الباطل والشر والكفر يتآكلون؛ لأنهم زاغوا عن الحق والخير والإيمان، والصراع محكوم بالثبات والديمومة، وأهل الحق هؤلاء أنيطت بهم مهمة خالدة: نشر كلمة الله في أرجاء الأرض، إذ ليس ثمة حدود نهائية تحول دون ذلك، وبالنظر إلى اختلاف العقائد، والأديان، والثقافات. فمن المنتظر أن يتعثر أهل الحق في مهمتهم، ولكن ينبغي عليهم الالتفاف حول كلمة الله، والتمسك بها، ونشرها، وذلك هو الجهاد. فالجهاد إذن وسيلة لحسم التناقض العقائدي، وإحلال الوحدة محل

التعدد. وما دام نسق الثنائيات الضدية قائماً في صلب التفكير الديني فالجهاد لن يتوقف. إنه فعل محكوم بنظام لاهوتي عام. والحق فإن فعل الجهاد كممارسة تهدف إلى تحويل البشر إلى عقيدة واحدة، سيصطدم مع فرضية انشطار العالم إلى عالمين: دار الإسلام ودار الحرب. ولمّا كان الصراع يُعبّر عنه بتجليات مباشرة، فالمؤمنون يوضعون دائماً في تضاد مع الكافرين، وبينهم يتحرك المنافقون حركة مكوكية خادعة.

لقد أشار "جاك بيرك" إلى هذا التضاد الذي يحكم هذه الأطراف بالصورة الآتية "المؤمنون يتعارضون مع مختلف أجناس الخصوم، ويتعارضون حسب أنماط الغيرية. ويقف المؤمنون إزاء الوثنيين والمشركين موقف التضاد المنطقي، وتنخفض حدة هذا التناقض إلى تعاكس بسيط .. في حال المنافقين الذين يظهرون وكأنهم مؤمنون، لكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة .. تتحرك سلوكياتهم المراوغة بين جميع اللايقينيات والتقسيمات الناجمة عن ازدواج الوجود والفعل والكلام، وفي النهاية فهم ينضمون إلى جانب الباطل .. غير أن هنالك خصوماً آخرين سبق أن لمسهم الحق وبُلّغوا به، لكنهم يرفضونه ويخفونه. إنهم الكفار، وهؤلاء الكفار لا يقدمون أنفسهم إذن كمنافقين، وإنما كتضمين للاعتقاد من ناحية الباطل"[9]. العالم طبقا للتصور العقائدي يحتاج إلى الانقسام أولا من أجل أن تكون الوحدة هي الهدف المنشود فيما بعد، ومادام الحق ينبثق من دار الإسلام فلابد أن تكون تلك الدار هي المركز، بكل المعاني الثقافية والدينية والجغرافية والأخلاقية. وهذا فيما نرى الدافع وراء مركزية دار الإسلام طوال القرون الوسطى حسب التصورات الإسلامية. من الصحيح أنها تمدّدت جغرافيا في قلب العالم القديم، ولكن اعتبارها مركز الحق فاق المكون الجغرافي في تثبيت مركزيتها. ظهرت الجغرافيا لتسوغ كل ذلك.

2. مركزية دار الإسلام: تأسيس نسق ثقافي

من الطبيعي أن تجد المنظومات الثقافية تعبيرا لها في التواريخ والآداب والفلسفات، وفي نظُم التفكير والمواقف، وفي كل هذه تتجلّى المركزية الإسلامية بدرجة أو بأخرى، ولكن من الواضح أن الجغرافيا هي الوسيلة الأكثر فاعلية في تحديد الأطر العامة للحدود الرمزية لتلك المركزية الإسلامية، فـــ "دار الإسلام"– كمصطلح – لعبت الأدبيات الجغرافية دورا مباشرا في صوغه، مع أنها تدرك بوضوح أن الحدود السياسية كانت مثار تنازع وعدم استقرار. فكرة دار الإسلام هي التعبير الأكثر وضوحا لمفهوم المركزية الإسلامية. وقد سلّم الجغرافيون بهذه الحقيقة، وجعلوها موجها لتصوراتهم. لم ينج أحد من ضغطها الواعي وغير الواعي في بناء فرضياته، وتحديد منطلقاته في النظر إلى الذات والآخر.

تبدو صورة الأرض التي رسمها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (= العاشر الميلادي) أول محاولة جادة وتفصيلية لتقريب صورة الأرض في الثقافة الإسلامية. فالأرض كرة، تقع ديار العرب في قلبها تماماً، وفي المحيط الضيق للإطار المائي حول الأرض، بالكاد تظهر من ناحية المشرق والمغرب ممالك الكفار. ثمة تضخيم متعمد للصورة خاص فقط بدار الإسلام. وكتاب ابن حوقل بكامله خصص لتلك الدار، وكأنها

هي الأرض كلها. لم يبذل هذا الجغرافي المشغول بالتفاصيل الكثيرة والمتنوعة جهداً بدار الحرب المحصورة بين عالم هو المركز ومياه مظلمة. ولم يعن بالعوالم الخارجة عن مجال العقيدة الإسلامية. مدونته الضخمة لم تتطرق إلى غير العناصر المكونة لدار الإسلام. بدأها بديار العرب، ثم توسع إلى الغرب أولاً: المغرب، الأندلس، صقلية، مصر، ثم شمالاً: الشام، الجزيرة، العراق، واتجه شرقا: خوزستان، فارس، كرمان، السند، أرمينية وأذربيجان، والران، الجبال، الديلم وطبرستان، مفازة خراسان، سجستان، خراسان، ما وراء النهر، ولم يهمل البحار التي تربط أطراف هذا العالم: بحر فارس، بحر الروم، بحر الخزر. ما سوى ذلك لا وجود له في تصوّر ابن حوقل. في الصفحة الأخيرة من كتابه يؤكد، لآخر مرة خطته الجغرافية، فما أن يصل إلى آخر المدن الصغيرة في منطقة ما وراء النهر، حتى يذكر مدينتين هما "شلاث" و"استياكند" ويقررهما ثغران، وإنما يذكران لمحلهما في الجهاد، وأنهما آخر الإسلام"[10]. هذا التصور سرعان ما اتخذ طابعا ثقافيا، فليس ثمة مايرتجى منه خارج دار الإسلام. المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" يؤكد أنه معني بدار الإسلام، وأهل هذه الدار غير معنيين بدار الكفر، وإنه لن يكلّف نفسه عناء البحث في ممالك الكفار، ولا يرى فائدة من ذكرها[11]. حافظ كثير من الجغرافيين على هذا الميثاق الضمني، لكنّ الرحالة خرقوه، كما سنرى في تضاعيف هذا الكتاب، وعلى الرغم من أنهم امتثلوا لشروطه ذهنيا، لكنهم تمردوا على قيوده الجغرافية. قلة قليلة جدا منهم ظهر لديهم تحفّظ على ذلك، لكنها تحفظات كادت تذوب في النسيج شبه المغلق للرؤية الثقافية العامة التي يتحركون في مجالها.

يُظهر ابن حوقل معلومات غزيرة فيما يخص أقاليم دار الإسلام، وفي الوقت نفسه يفاخر بجهل لا يُقبل فيما يخص الأقاليم الأخرى، وإذا كان معياره يقوم على أساس أن"انتظام الممالك بالديانات، والآداب، والحكم، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة."[12] فإنه يرى أن هذه المكونات منعدمة إلا في دار الإسلام، وذلك يؤدي به إلى استبعاد كل ما يتصل بالعوالم: الرومية، والصينية، والهندية، والإفريقية جنوب الصحراء، والأقوام الشمالية من إفرنجة، وصقالبة، وبلغار، وأتراك، وغيرهم. البصيرة العقائدية الضيقة تسبب خطأ ثقافياً لا يغتفر، وينبغي طبقاً لمنظور ابن حوقل طمس الآخر واستبعاده، فكل مَنْ لا يتنفس رحيق العقيدة الإسلامية يعدّ فاقداً للخصال الإنسانية التي تجعله مقبولا في "أرض" ابن حوقل. تتأسس على هذا التصور نظرة مشوبة بالتبخيس إلى الآخر الذي يفتقر إلى مقومات دار الإسلام، وهي: الديانات، الآداب، الحكم، السياسة المستقيمة. هذه المكونات المميزة لدار الإسلام، كما صاغها ابن حوقل، استنادا إلى موروث ديني وقيمي، ستظهر بتجليات متعددة، وستلعب دورا حاسما في التفريق بين البشر، فتضفي على أهل دار الإسلام قيمة سامية، وتسلب من سواهم ذلك الامتياز. يكثّف ابن حوقل رؤية عرقية -دينية – ثقافية- جغرافية، يجعل منها أساساً لقانون صارم، يرتب في ضوئه أهمية أقاليم الأرض، وينزّل "ديار العرب" في قلب الدائرة، إنها المركز المشع إلى الأطراف. يقول "بدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً لأن الكعبة فيها، ومكة أم القرى، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي، واتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال

والرمال والطرق، وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس؛ لأنه يحفُّ بأكثر ديارها، ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرّباً إلى مكة، وإلى القلزم، عن خمسين فرسخاً من عمان، ويدعى ذلك رأس الجمجمة"[(13)] ثم يتوسع في أوصافه غرباً وشرقا. وبالنسبة له فالأقاليم المجاورة لديار العرب، إنما هي تخوم لها. أما ممالك الكفار فهي تخوم دار الإسلام. وتلازمه فكرة المركزية، فيعود لتأكيدها في فصول كتابه، لكنه ليبرز هذه المرة، فضلاً عن الجانب الديني، الصفاء العرقي "ابتدأت بديار العرب لأن القبلة بها، ومكة فيها، وهي أم القرى، وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناهم غيرهم"[(14)].

وينتقي الهمداني ما يجده مناسبا من أراء "بطليموس" بخصوص الأقاليم وعمرانها، لينتهي إلى تقرير ما يرغب فيه حول كون ديار العرب أفضل المعمور في الأرض، فلما"كانت الكواكب مشتركة التدبير في بقاع الأرض خالطة بين الوسط والطرف؛ كان من حسن التأليف وانسياق النظام أن نذكر الكل لِيُعرف ما لجزيرة العرب من الطبائع الخاصيِّة والعاميَّة، وأن يظهر ما وسمها به الحكماءُ مما في أهلها موجود ومعاين". فمن يسكن من البشر على خط الاستواء أو بجواره "تكون أبدانهم سوداً، وشعورهم سوداً جعدة كثيفة، ووجوههم قحلة، وجثثهم قصيفة، وطبائعهم حارة، وأخلاقهم في أكثر الأمر وحشية لدوام الحر في موضع مسكنهم واتصاله بهم". وأما أقوام أقاصي الشمال، فإنهم "لبعدهم عن حرارة الشمس بعداً كثيراً صار البرد عليهم أغلب، ولما كان ما يصل إليهم من الرطوبة شيء كثير غزير الغذاء، ولم يكن هناك حرارة تنشفها، صارت ألوانهم بيضاء، وشعورهم سبطاً، وأبدانهم عظيمة مخصبة، وطبائعهم مائلة إلى البرد، وأخلاق هؤلاء القوم أيضاً وحشية لدوام البرد في مواضع مساكنهم اتصاله". وأما الذين يسكنون في الوسط" فإن الشمس لما كانت لا تصل إلى موضع سمت رؤوسهم.. صارت ألوان هؤلاء متوسطة، ومقادير أبدانهم معتدلة، وطبائعهم حسنة المزاج، ومساكنهم متصلة وأخلاقهم أنيسة". وبعد هذا التقسيم العام ينتقل الهمداني إلى تفصيل خصائص"جماعة الوسط "فيقول" ومن كان من هؤلاء يميل إلى ناحية الجنوب فهو في أكثر الأمر أذكى، وأحيل، وأقوى على العلم بأمور الآلهة لقرب فلك البروج والكواكب المتحيرة من موضع سمت رؤوسهم، وحركات أنفسهم تليق بحركات الكواكب في سرعة وقوفها على الشيء، وإنها ذوات فحص ونظر في العلوم التي تسمى التعليمية.. ومن كان منهم بالجملة مائلاً إلى ناحية المشرق فهم أكثر تذكّراً، وأقوى أنفساً، ويظهرون جميع أمورهم؛ لأن ناحية المشرق من طباع الشمس، وهي ناحية نهارية مذكرة ومتيامنة.. وأما الذين يميلون إلى ناحية المغرب فهم أكثر تأنيثاً وأنفسهم ألين ويخفون أمورهم في أكثر الأمر ويستروها؛ لأن هذه الناحية قمرية، ومن شأن القمر أبداً أن يكون أول طلوعه وظهوره بعد الاجتماع من ناحية مهب الرياح الغربية المسماة بالدبور، ولذلك يظن بهذه الناحية أنها ليلية مؤنثة متياسرة ضد الناحية الشرقية، وكل واحدة من هذه النواحي الكلية يلزم أن يكون فيها أحوال جزئية من أحوال الأخلاق والسنن الطبيعية".

وضمن هذه "الوسطية المشرقية" توجد أفضل البلاد المعمورة، وهي جزيرة العرب، لوقوعها في المكان المناسب الذي أراده الهمداني طبقا لحسابات بطليموس الفلكية، فهي تقع في "الوسط" من كل شيء، كما أنها

تتميز بكونها شرقية يغلب عليها التذكير المضاد للصفة الأنثوية التي يتميز بها الغرب، وعلى هذا يكون أهلها قد حازوا الخصال الأولى في مملكة الإنسانية، ولكن لابد من دعم ذلك بفرضية أخرى، فرضية خاصة بالجزيرة نفسها، فهي إلى ذلك الأفضل بين البلاد المعمورة في العالم، لأن "بها البيت الحرام، والبيت الذي جعله الله مثابة للناس، وأمنا، ومقام إبراهيم عليه السلام، وأم القرى، ومخرج النبوة، ومعدن الرسالة، ومتبوأ إبراهيم، منشأ إسماعيل، ومولد محمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين، ومقطن آل الله، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعتَّاب بن أسيد "إني مستخلفك على آل الله"، وإليها كان يسير آدم، وبها كان قطونه، وبها أرض يثرب مُهاجر النبي عليه السلام، وحرمه، ومركز الإسلام، ومقام الإمامة، وقطب الخلافة، ودار العز، ومحل الإمرة، وبها الوادي المقدس طوى، وطور سينا، ومسجد إيلياء، وآثار الأنبياء، ومنابت الأتقياء، ومحافد الأصفياء، وعرصة المحشر، وجبال الرحمة، ومتعلّق السِّياحة، والعبادة، والسراة القاطعة من أعلى اليمن إلى أسفل الشأم، وبها بقاع الفصاحة والصباحة، واعتدال المزاج، وحسن الألوان، لا الصهبة ولا الزرقة، ومتوسط النبات في الشَّعر، لا القطط، ولا السَّبط، واسوداد الأحداق، واحورار المقل، مع الحميّة، والأريحيّة، والسخاء، والكرم، والجود بما تشح به الأنفس، والصبر بساعة البأس، وبها أفرس من ركب الخيل فهم لها حزم وحلاس، وأحسن من امتطى الإبل فهم لها أرباب وأقباس، وأوفى من تقلد ذمة، وأبرع من نطق بحكمة"[15].

إن تخصيص ديار العرب بالأسباب المذكورة دون غيرها من الأقاليم، إنما يضفي عليها رفعة ذات مستويات متعددة ومتراكبة: التلازم الشديد بين مركزية دينية وعرقية وجغرافية، وبين عوالم إن هي إلا امتداد لممارسة النفوذ المركزي بوجوهه المتنوعة تلك. فالاتصال بين ديار العرب من جهة، والأقاليم الأخرى المكونة لدار الإسلام من جهة، والانفصال بين دار الإسلام بأجمعها، ودار الكفر، يقوم على سلسلة معقدة من التبعية والاختزال والاستبعاد. فثمة مركز يضيء بأنواره عالماً محاذياً، يظل ممتداً إلى أن تضعف شدة النور في تخومه، فيسقط كل ما وراء ذلك في ظلام دامس. هنالك تدفّق دائم للقيم العليا من بؤرة ما إلى أطراف محيطة. اكتسبت قيمتها من تيار القيم النابع من ديار العرب. دار الإسلام مدينة للعرب، ودار الحرب مدينة للمسلمين.

من المعلوم أن ابن حوقل نسخ الاصطخري في "المسالك الممالك" واحتذاه بألفاظه وتراكيبه، والتوسعات البسيطة التي تأتي كإضافات محدودة للغاية هنا وهناك، لا تؤكد إلا أن الكتابين كتاب واحد. ومَن يطّلع على مقدمة كتاب "صورة الأرض" يصاب بالعجب، لأنه تخطّى الاصطخري، وأغفله، ولم يأت على ذكر له. والحال، فابن حوقل، لا يستمد كتابه بكامله من كتاب الاصطخري، فحسب، إنما يستعير الرؤية ذاتها التي ترتب شؤون الأقاليم لتحقيق فكرة التمركز حول الذات، فديار العرب هي "واسطة الأقاليم" ومن سمائها انبثقت، أول مرة، الحقيقة الإلهية، وبالنسبة للمسلم، فكل الأشياء تتوارى خلف هذه الحقيقة. كان الوعي، بإشكاله البسيطة الأولى، يتدفق عارماً في تيار ينطلق من المكان الذي لمست فيه كلمة الله وجه الأرض. الحجج التي يوردها ابن حوقل لتقديم العرب وديارهم، يأخذها بالحرف من الاصطخري[16]. إنه يستأثر لنفسه بذخيرة المعلومات التي جهزها له الآخرون. فكرة الأقاليم بذاتها كانت شائعة من قبل، كما سنبيّن بعد قليل.

ويمنح ابن خرداذبه، وهو من المؤسسين الأُول للجغرافيا الإسلامية في القرن الثالث الهجري (= التاسع الميلادي) أهمية استثنائية للبعد الديني، جاعلاً من مكة مركز الأرض، وإليها تتجه قلوب المؤمنين ووجوههم عدة مرات كل يوم. إنه لا يستخدم كلمة "مركز" أو"وسط"، ولكنه يركز فهماً مجازياً غايته الإعلاء من شأن التمركز. فالكعبة، قلب مكة، وقلب ديار العرب، ثم دار الإسلام، وهي تستقطب اهتمام المسلمين. إنها "القبلة" التي تتكثف فيها، بوصفها مركزاً، كل أدعية الخلاص والتطهر والرغبة في نيل رضا الخالق. إنها بمثابة شمس تجذب إليها الكواكب، وترسل بأشعتها إلى العوالم المجاورة. يقول ابن خرداذبه "فقبلة أهل أرمينية، وأذربيجان، وبغداد، وواسط، والكوفة، والمدائن، والبصرة، وحلوان، والدينور، ونهاوند، وهمذان، وأصبهان، والري، وطبرستان، وخراسان كلها، وبلاد الخزر، وقشمير الهند، إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها، وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق. وأما التبت، وبلاد الترك، والصين، والمنصورة، فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء لقرب قبلتهم من الحجر الأسود. وأما قبلة أهل اليمن فصلاتهم إلى الركن اليماني، ووجوههم إلى وجوه أهل أرمينية إذا صلوا. وأما قبلة أهل المغرب، وإفريقية، ومصر، والشام، والجزيرة، فوسط المغرب، وصلاتهم إلى الركن الشامي، ووجوههم إذا صلّوا إلى وجوه أهل المنصورة (= تقع في شمال غرب الهند أعلى مدينة الديبل) إذا صلوا. فهذه قِبل القوم والنحو الذي يصلون إليه"[17] تتقاطع على أركان الكعبة تطلعات المؤمنين من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب، هي مركز استقطاب وجذب، ومركز إشعاع.

صاغت المدونات الجغرافية وعي المسلمين بعالمهم وعالم غيرهم، والحق فإنها مستندات على غاية من الأهمية في ترسيخ صورة (الأنا) وصورة (الأخر) لفترة طويلة جدا. ومع أن المرويّات والمدونات الجغرافية المباشرة ككتب البلدان، والمسالك والممالك، وكتب الأقاليم بخاصة، قدمت معلومات ثمينة عن دار الإسلام، وأحيانا مررت معلومات عابرة وسريعة عن دار الحرب؛ فإن المعلومات الأكثر أهمية عن العالمين قدمتها كتب الرحلات التي خصت العالم القديم بأجمعه تقريبا بملاحظات مباشرة ثمينة. إلى ذلك فكتب الجغرافيا والتاريخ والرحلات قدّمت مرويات عجائبية كرّست صورا منقوصة عن الآخر. وينتقد أبو الفداء الموروث الجغرافي الذي تراكم إلى زمنه في القرن الثامن الهجري (= الرابع عشر الميلادي) بادئاً بابن حوقل الذي يسجّل عليه عدم ضبطه للأسماء والأطوال والعروض الأمر الذي قاد إلى جهل في مواقع الأقاليم، لكن من الواضح أنه لم يكتشف أن كتاب ابن حوقل استنساخ لكتاب الاصطخري، لكنه يشير إلى أن الإدريسي وابن خرداذبه وغيرهما حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرض إلى تحقيق الأسماء، دون أن يلاحظ أن ابن خرداذبه متقدم على ابن حوقل بحوالي قرن من الزمان، ثم يتجاوز هذه الملاحظة التي تكشف أن بعض الجغرافيين يستعيدون المعلومات ذاتها، وينتقل إلى نقطة جديرة بالملاحظة، وهي اقتصار أولئك الجغرافيين على وصف دار الإسلام "إن جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل إلا على القليل إلى الغاية، فإن إقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع إلينا من أخباره إلا الشاذ النادر، وهو مع ذلك غير محقق. وكذلك إقليم الهند فإن الذي وصل إلينا من أخباره مضطرب، وهو غير محقق، وكذلك بلاد البلغار، وبلاد الجركس، وبلاد الروس، وبلاد السرب،

وبلاد الأولق، وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني إلى المحيط الغربي، فإنها بلاد كثيرة وممالك عظيمة متسعة إلى الغاية، ومع ذلك فإن أسماء مدنها وأحوالها مجهولة عندنا، لم يذكر منها إلا القليل النادر، وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب، فإنها أيضاً بلاد كثيرة لجنوس مختلفة من الحبش، والزنج، والنوبة، والتكرور، والزيلع، وغيرهم، فإنه لم يقع إلينا من أخبار بلادهم إلا القليل النادر، وغالب كتب المسالك والممالك، إنما حققوا بلاد الإسلام"[18].

يمهد هذا النقد إلى أن أبا الفداء سيتخطى عثرة أسلافه، بأن يسدّ ذلك النقص الذي أصبح ظاهرة لافتة للنظر، خاصة وأن دار الإسلام تمزقت إلى أشلاء سياسية متناثرة في عصره، وفعلاً سيسعى إلى ذلك بدرجة ما، لكنه ما أن يفرغ من العموميات التقليدية الخاصة بأجزاء الأرض، وأقاليمها، ومقاساتها، وبحارها، وأنهارها، وجبالها، إلا وتقوده الحاجة المباشرة للوقوف على التفاصيل إلى حيرة واضحة في كيفية ترتيب الأماكن، ولا يستطيع أن يعثر على حل لاختيار البداية المناسبة إلا باللجوء إلى ابن حوقل نفسه"أما ترتيب الأماكن وتقديم بعضها على بعض في الذكر فإنه لم يتهيأ لنا فيه ترتيب يرضينا، فتبعنا فيه ابن حوقل، وابتدأنا بجزيرة العرب لكون بيت الله الحرام، وقبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فيها"[19]. يتبنى أبو الفداء ترتيب ابن حوقل القائم على ترتيب الاصطخري، وهو الترتيب المستند إلى أسس دينية، وعرقية، وثقافية، لكنه في الوقت نفسه يوسّع المجال في التفاصيل الداخلية للترتيب، فما أن يفرغ من ذكر جزيرة العرب، ويتجه غرباً للحديث عن مصر والمغرب والأندلس، كما فعل أسلافه، إلا ويفرد صفحات قليلة لـــ "الجانب الجنوبي من الأرض وهو بلاد السودان" ثم مثلها لـــ "جزائر بحر الروم والمحيط الغربي" ثم يقف على "الجانب الشمالي من الأرض" وذلك قبل أن يتابع ترتيب الأوائل في المشرق فيتمكن من الوقوف على "الهند" و"الصين" و"جزائر بحر الشرق"، ثم "بلاد الروم". والملاحظ أنه يزيد في تفاصيل البلاد الإسلامية المشرقية، فيضيف إلى قائمته"زابلستان والغور" و"طخارستان وبذخشان" و"خوارزم". هذه التفاصيل تكشف عن التفكك السياسي لدار الإسلام؛ فالأقاليم الثلاثة الأخيرة كانت تدرج من قبل ضمن "خراسان". ولا تظهر في مدونات السابقين عليه. بلاد ما وراء النهر،آخر الأقاليم الإسلامية المشرقية، انبثق فيها بلد هو "تركستان". وهكذا فإن أبا الفداء المتأخر بأكثر من أربعة قرون في الأقل عن اللحظة التي صيغت فيها مركزية دار الإسلام، وجد نفسه أمام واقع مختلف، فقد ذابت تخوم دار الإسلام، تلك الثغور كان جهادها كافياً لإدراجها في تلك الدار، كما هو الأمر عند الاصطخري وابن حوقل، وثمة قوى أخرى فرضت حضورها خارج دار الإسلام. وعموماً لم تعد دار العقيدة الإسلامية عالماً مقفلاً محاطاً بأعداء فقط، فالعداء انتقل إلى الداخل أيضاً.

لم يمتلك أبو الفداء الجرأة الكافية لنقض سنّة القدماء، فمضى يعمل في هديها، لكنه، في كل مرة كان يصطدم بحقائق جديدة لم تكن ظهرت من قبل. وعلى العموم فقد شذّ نسبياً عن الحدود الموروثة، وأضاف إلى قائمته معظم البلاد التي كان يُحذّر من قبل الخوض في تفاصيلها، باعتبارها دار حرب، لكنه اختزلها إلى مجرد أقاليم شبه خالية من الإنسان، إذ لم يلتفت إلى المكونات الثقافية الخاصة بهذه البلاد، إلا بصورة خاطفة، لا

تغني، ولا تترك أثراً لدى المتلقّي. ففي كتابه الكبير الذي يربو على خمسمائة صفحة، لم يستأثر الآخر، بشروح تفصيلية تزيد على نسبة 5% من حجم الكتاب، وهي نسبة خصص معظمها لتقويم الأسماء والقياسات. وسيتكفل الرحّالة بسد هذا النقص. تحدثنا عن مركزية دار الإسلام كمجال للقيم الثقافية والعقائدية، ولكن ليس من الصواب إهمال الموجهات السياسية، فحيثما يكون المركز السياسي لدار الإسلام تكون البلاد هي المركز، وهكذا فان الوجود العباسي في بغداد سرعان ما جعل من العراق البؤرة الأكثر أهمية داخل دار الإسلام، وقامت الأدبيات الجغرافية بتسويغ ذلك. العامل السياسي الذي هو أحد تجليات المنظومة القيمية يتدخل ولمدة طويلة، في اعتبار العراق قلب العالم بأجمعه، الأمر الذي يكشف أن الجغرافيين يدمجون بالمعطيات الدينية أخرى سياسية. سنرى فيما يلي كيف تتم إعادة تكييف المرويّات والمعطيات من أجل تسويغ فكرة التمركز. فداخل المركزية الكبرى تتربع مركزية أخرى أكثر فاعلية.

3. مركزية العراق: تثبيت نسق إيديولوجي

نُظر إلى العراق، طوال العصر العباسي، على أنه مركز العالم، وأفضل الأقاليم. ولا تخفى الأسباب السياسية والثقافية والإيديولوجية الكامنة وراء موقف الجغرافيين والمؤرخين هذا. والواقع فإن عوامل كثيرة توجّه عمل هؤلاء، وتؤثر في رؤاهم ومواقفهم، والقول بمركزية الإقليم الرابع هي في الأصل إيرانية[20]. ولم يكن موقفهم من مركزية العراق بمنأى عن التأثيرات النافذة في ذلك العصر. ولا يتردد ابن خرداذبه من جعل بغداد مركزاً سياسياً واقتصادياً للعالم القديم، لأنها عاصمة دار الإسلام في زمنه، وغالباً ما تمارس الجغرافيا إكراها مقصوداً، فترتّب أقاليمها، ليكون العراق في أفضل تلك الأقاليم، وبغداد في أفضل الأقسام منها. وهذا الأمر هو الذي يدفع ابن خرداذبه للحديث عن سواد العراق، وذلك قبل أن ينتقل لتثبيت بغداد واسطة جغرافية للعالم القديم، فيبدأ بتقدير المسافات بينها وأقاليم المشرق إلى خراسان، بما في ذلك الوقوف على المدن المهمة الواقعة على الطريق الموصل إلى بغداد، وينصرف بعد ذلك إلى الحديث عن الطريق منها إلى المغرب، وهكذا الأمر بالنسبة لمكة وغيرها.

بغداد هي المركز الذي يستقطب اهتمام الجميع، إنها بالنسبة لذلك العصر، البؤرة المشعة على الأطراف، وعليه فكتاب ابن خرداذبه "المسالك والممالك"يجعلها المكان الذي منه يتجه وإليه يصل كل ماله علاقة بدار الإسلام، إلى ذلك فهو دليل سفر بالمسافات بالنسبة للرحالة، والمسافرين، والجند، والتجار، والحجّاج، وكل من يرهن حياته بالأسفار والارتحال. من يبتغي الجد، ويستأثر بالاهتمام، عليه الاتجاه إلى دار السلام. وليس من المصادفة أن يُلحق بالكتاب المذكور، كتاب "الخراج وصنعة الكتابة"لـــ"قدامة بن جعفر". فهو مكمّل له، لأنه، فضلاً عن اهتمامه بالطرق والمسافات يعنى أساساً بـــ"الخراج"أي خراج البلاد المكونة لدار الإسلام. ولكنه ينطلق أيضاً من مركزية بغداد "نبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة، وهو المنسك الأعظم وبيت الله الأقدم"، فبالنسبة له، يحتل الأمر أهمية استثنائية "لأن قصبة مملكة الإسلام بلد العراق"[21]. ولهذا فإن

قدامة بن جعفر، بعد أن ينتهي من الطرق والمسافات يبدي حرصا شديدا على ذكر كميات الخراج المتحصّلة من كل إقليم ومدينة وقصبة، ويقدم إحصاءات دقيقة يوردها بالدينار والدرهم تبيّن الموارد المالية لدار الإسلام، وهي تصب في بغداد، وبعد ذلك تأتي "ثغور الإسلام والأمم والأجيال المطيفة بها"[22]. ويفرد لها مكاناً للحديث عن مواردها المالية، ومقدار ما تدفعه لدار الإسلام. تظهر بغداد، ومن بعدها دار الإسلام لدى ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر بوصفها مركز الاتصال والتداول المالي في القرن الثالث. ويفرد ابن حوقل مكانة خاصة للعراق في كتابه "صورة الأرض". ويركّب له صورة مضخّمة، مؤكداً موقعه الاستثنائي في ذهنية الكتّاب والمؤرخين والجغرافيين القدامى، فالعراق"أعظم أقاليم الأرض مترلة، وأجلّها صفة، وأغزرها جباية، وأكثرها دخلاً، وأجملها أهلاً، وأكثرها أموالاً، وأحسنها محاسن، وأفخرها صنائع، وأهله فأوفرهم عقولاً، وأوسعهم حلوماً، وأفسحهم فطنة في سالف الزمان والأمم الخالية، وبمثله تجري أمور أمة الآخرة، يقرّ بذلك لهم أهل الطاعة والفضائل، ولا يمتري فيه أهل الدراية والحصائل"[23].

يلاحظ أن الجغرافيين المسلمين في الوقت الذي يقدّمون فيه تفصيلات كثيرة عن العراق ومدنه، فإنهم غالباً ما يعتذرون بأنهم لم يكونوا مبالغين فيما أوردوه من ناحية، وإن كل ما في العراق شائع ومعروف في زمانهم من ناحية ثانية. وكأنهم يريدون إبراز الفكرة القائمة بعدم ضرورة التعريف بالمعـــروف، وهو أمر يظـــهر بوضوح عند الاصطخري وابن حوقل[24]. مدينة السلام، تحظى باهتمام بالغ في الجغرافيا القديمة، وهو أمر متصل باعتبارها عاصمة دار الإسلام. وما ينطبق على العراق، يكاد ينطبق على بغداد، فالاصطخري يشعر بحرج وهو يعرّف بها، لأنها المدينة المفتّحة والمعروفة للجميع "لم نُكثر من وصف بغداد لاشتهار وصفها عند الخواص والعوام، فاكتفينا من وصف بغداد بجملة يسيرة ذكرناها لئلا يطول به الكتاب"[25].

ويحشد اليعقوبي في كتاب "البلدان" جملة من الأسباب التي تجعله يرى في العراق، وبغداد، المركز الأول للعالم المعمور في عصره، فيقول "وإنما ابتدأتُ بالعراق لأنها وسط الدنيا، وسرّة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة، وكبراً، وعمارةً، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية؛ وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم، فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة، ومتجر، ومتصرف، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا. ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان: دجلة والفرات، فيأتيها التجارات والمير براً وبحراً، بأيسر السعي؛ حتى تكامل بها كل متجر، يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام، فإنه يحمل إليها من الهند، والسند، والصين، والتبت، والترك، والديلم، والخزر، والحبشة، وسائر البلدان؛ حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها؛ ويكون مع ذلك أوجد وأمكن حتى كأنما سيقت إليها خيرات الأرض؛ وجمعت فيها ذخائر الدنيا؛ وتكاملت بها بركات العالم. وهي مع هذا مدينة بني هاشم، ودار مُلكهم، ومحل سلطانهم، لم يبتد بها أحد قبلهم، ولم يسكنها ملوك سواهم، ولأن سلفي كانوا القائمين بها وأحدهم تولى أمرها؛ ولها الاسم المشهور والذكر الذائع".

ثم يستطرد إثر هذه المقدمة التفصيلية إلى إيراد أدلة الطبيعة على أن مركز دار الإسلام هي الأفضل"ثم هي وسط الدنيا، لأنها على ما أجمع عليه قول الحساب، وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الإقليم الرابع، وهو الإقليم الأوسط، الذي يعتدل فيه الهواء، في جميع الأزمان والفصول؛ فيكون الحر بها شديداً في أيام القيظ، والبرد شديداً في أيام الشتاء، ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في أوقاتهما ويكون دخول الخريف إلى الشتاء، غير متباين الهواء؛ ودخول الربيع إلى الصيف غير متباين الهواء، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء إلى هواء، ومن زمان إلى زمان؛ فلذلك اعتدل الهواء، وطاب الثرى، وعذب الماء، وزكت الأشجار، وطابت الثمار، وأخصبت الزروع، وكثرت الخيرات، وقرب مستنبط معينها وباعتدال الهواء، وطيب الثرى، وعذوبة الماء، حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم، وانفتقت أذهانهم، حتى فضلوا الناس، في العلم، والفهم، والأدب، والنظر، والتمييز، والتجارات، والصناعات، والمكاسب، والحذق بكل مناظرة، وأحكام كل مهنة، وإتقان كل صناعة. فليس عالم أعلم من عالمهم؛ ولا أروى من روايتهم؛ ولا أجدل من متكلمهم؛ ولا أعرب من نحويهم؛ ولا أصح من قارئهم؛ ولا أمهر من متطببهم؛ ولا أحذق من مغنيهم؛ ولا ألطف من صانعهم؛ ولا أكتب من كاتبهم؛ ولا أبيَن من منطقهم؛ ولا أعبد من عابدهم؛ ولا أورع من زاهدهم؛ ولا أفقه من حاكمهم؛ ولا أخطب من خطيبهم، ولا أشعر من شاعرهم، ولا أفتك من ماجنهم".

ولبيان كيفية اختيارها عاصمة لدار الإسلام فلابد من رواية تاريخية تفاضلية تقوم على ركني المدح والقدح "لما أفضت الخلافة إلى بني عم رسول الله، صلى الله عليه وآله، من ولد العباس بن عبد المطلب، عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم، وكمال آرائهم، فضل العراق، وجلالتها، وسعتها، ووسطها للدنيا؛ وإنها ليست كالشأم الوبيئة الهواء الضيقة المنازل، الحزنة الأرض، المتصلة الطواعين، الجافية الأهل، ولا كمصر المتغيرة الهواء، الكثيرة الوباء التي إنما هي بين بحر رطب، عفن، كثير البخارات الرديئة التي تولد الأدواء، وتفسد الغذاء، وبين الجبل اليابس الصلد، الذي ليبسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ولا ينفجر منه عين ماء. ولا كإفريقية البعيدة عن جزيرة الإسلام، وعن بيت الله الحرام، الجافية الأهل، الكثيرة العدو، ولا كأرمينية النائية، الباردة الصردة الحزنة التي يحيط بها الأعداء. ولا مثل الجبل كور الحزنة الخشنة المثلجة دار الأكراد الغليظي الأكباد. ولا كأرض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس التي يحيط بها من جميع أطرافها عدو كلب ومحارب حرب. ولا كالحجاز النكدة المعاش الضيقة المكسب التي قوتُ أهلها من غيره ا.. ولا كالتبت التي بفساد هوائها وغذائها، تغيرت ألوان أهلها، وصغرت أبدانهم، وتجعدت شعورهم. فلما علموا أنها أفضل البلدان، نزلوها، مختارين لها". فلما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة" صار إلى بغداد، فوقف بها، وقال: ما اسم هذا الموضع؟ قيل له: بغداد. قال: هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أني أبنيها، وأنزلها، وينزلها ولدي من بعدي. ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام، حتى يتم تدبير الله لي وحكمه فيَّ، وتصح الروايات، وتبين الدلائل والعلامات، وإلا فجزيرة بين دجلة والفرات؛ دجلة شرقيها، والفرات غربيها؛ مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة، من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وعمان واليمامة، والبحرين،

وما يتصل بذلك فإليها ترقى، وبها ترسى. وكذلك ما يأتي من الموصل، وديار ربيعة، وآذربيجان، وأرمينية، مما يحمل في السفن في دجلة. وما يأتي من ديار مضر والرقة، والشأم، والثغور، ومصر، والمغرب، مما يحمل في السفن في الفرات، فيها يحتط ويترل، ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان. فالحمد لله الذي ذخرها لي، وأغفل عنها كل من تقدمني، والله لأبنينها، ثم أسكنها أيام حياتي، ويسكنها ولدي من بعدي؛ ثم لتكونن أعمر مدينة في الأرض"[26]. ولاغرابة، في ضوء كل ذلك، أن ينتهي الأمر بابن الوردي إلى اعتبار بغداد إحدى غرائب العالم "هي جنة الأرض، وواسطة الدنيا، وقبة الإسلام، ومدينة السلام، وغرة البلاد، ودار الخلفاء، ومعدن الظرفاء واللطائف، وبها أرباب النهايات في العلوم والدرايات والحكم والصناعات، هواؤها ألطف من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرق من كل نسيم"[27].

يمكن عدّ مدونات ابن خرداذبه، وقدامة، واليعقوبي، والاصطخري، وابن حوقل، ممهدات أساسية بلورت فكرة وضع العراق في المركز، لكن المسعودي، وقد عُرف بتوسعاته الثقافية، يعالج تلك المركزية من منظور أشمل؛ إنه يدرج أسبابا متعددة لها، ويعيد ترتيب المعطيات الشخصية والموضوعية بكل تنوعاقما ليجعل من العراق مركز استقطاب استثنائي في القرن الرابع الهجري، ومدخله سيكون ذاتيا؛ إذ يعلن اعتزازه بالبلد "وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به" وما يختص به "كثرة مرافقه، واعتدال أرضه، وغضارة عيشه، ومادة الرافدين إليه، وهما دجلة والفرات، وعموم الأمن فيه، وبُعد الخوف عنه، وتوسطه الأقاليم السبعة، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد؛ لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعّبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب، وبذلك اعتدلت ألوان أهله، واقتدرت أجسامهم، فسلموا من شُقرة الروم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر، ومن جفا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار، وكما اعتدلوا في الجبلة كذلك لطفوا في الفطنة، والتمسك بمحاسن الأمور، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام"[28].

كتب المسعودي هذا الكلام في مصر، وهو بعيد من العراق. ومن الواضح أن نبرة الحنين إلى مسقط رأسه، كانت تعمل خفية على ترتيب أفكاره وأحكامه، وشأنه شأن معظم الجغرافيين القدامى فهو يمنح الموقع الجغرافي قيمة عليا في تحديد الطبائع البشرية وسلوك الأفراد وصفاهم، وهي فكرة ظلت فاعلة في مسار الفكر الإنساني حتى العصر الحديث، وتعزى أصولها النظرية الأولى إلى اليونان. لكن أرسطو طرحها كنظرية ضمن كتابه "السياسة"[29]. واصطلح عليها نظرية"الكيوف الطبيعية"وهي فرضية تربط بشكل مباشر بين المناخ والطبع، وتضفي تفوقا وقيمة على الأقوام بحسب اعتدال المناخ. وكنّا وقفنا بالتفصيل على نقد هذه النظرية وتجلياقما في الفكر الغربي الحديث[30]. وكما نظر أرسطو إلى بلاد اليونان باعتبارها مركز العالم، نظر المسعودي إلى العراق باعتباره قلب العالم. إنه المكان الذي توافرت فيه كل الأسباب التي تؤهله لكل ذلك: الاعتدال، غضارة العيش، الماء، الأمن، الطمأنينة، توسط أقاليم الأرض، الحكمة، ولذلك اعتدل أهله في ألوانهم، وأفكارهم، وأجسامهم. باختصار- وحسب المسعودي- فقد اجتمعت في العراق وأهله محاسن جميع الأقطار. لم يذكر المسعودي أية مساوئ على الإطلاق، ودفع به شغفه بموطنه للنظر إلى العراق كأنه بلد في

الأثير!. ومن الصعب فصل العلاقة الوثيقة بين المسعودي والعراق، فهو لم يترك أية مسافة بينه وبين موضوعه للنظر المحايد، وتقديم الأحكام النهائية. من الواضح أن غربته في مصر شحذت أفكاره بشفافية الحنين إلى مسقط رأسه، وجعلته يغض الطرف عن أشياء كثيرة. إلى ذلك فإن حالته النفسية حجبت عنه المساوئ، وكان يذعن لمؤثرات الثقافة السائدة. لم ينظر المسعودي إلى العراق إلا بوصفه نموذجاً مثالياً لكل شيء، على أن هذه الأحكام لم تكن منفصلة عمّا استقر لدى معظم الجغرافيين والمؤرخين من تصور بخصوص مركزية العراق قبل القرن الرابع كما أشرنا قبل قليل.

يلحّ المسعودي في إيراد البراهين على هذه المركزية؛ ويقدّم في كتابه "التنبيه والإشراف" براهين مضافة، ففي سياق حديثه عن الأقاليم السبعة يصل إلى العراق الذي هو أوسط تلك الأقاليم، ولذلك فهو "شرف الأرض وصفوتها" وموضعه، هو "الموضع الذي ينقسم فيه الزمان إلى أربعة أقسام، فلا يخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع، ولا صيف إلى شتاء حتى يمرّ بهم فصل الخريف. ولما ذكرنا توسطه، كانت ملوك سالف الأمم تحلّه، إذ كان نسبة الملك إلى المملكة التي هو عليها نسبة القلب إلى البدن الذي هو فيه. فكما كان الله عزّ وجلّ بلطيف حكمته إذ خلق القلب أشرف الأعضاء، أحلّه من البدن أوسطه، كانت هذه سبيل الملك من مملكته. وكانت قدماء الملوك تقول الملك الأعظم مركز لدائرة ملكه، بعده من محيطها بعد واحد، وتدّ مركوز، وعلم منشور، منه يُستمد التدبير، وإليه تردّ الأمور. لذلك يقال إن الملك الأعظم والمدبّر الأكبر ينبغي أن يكون متزله الواسطة من هذه الأقاليم"واستنادا إلى كل هذه الحجج، يعتبر "العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم"[31].

مادمنا نتحرك في مجال خاص بالمسعودي، فمن المفيد الوقوف تفصيلياً على وثيقة غاية في الأهمية يوردها في "مروج الذهب" ويؤكد أنها تعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ومع أن أفكارها وأحكامها شديدة الشبه بما كان شائعاً خلال عصر المسعودي، فإن تأكيد المسعودي على أنها متصلة بصدر الإسلام، وأنها مكتوبة خصيصاً من أحد "حكماء" ذلك العصر، جواباً عن سؤال وجهه إليه عمر بن الخطاب، يضفي عليها أهمية استثنائية لأنها تكشف أن النظر إلى العراق باعتباره مركزاً قد تشكّل في وقت مبكر جداً، وقد ركّبت عناصر الوثيقة طبقا لأيدلوجيا التمركز المتأخرة، ومضمون الوثيقة يوافق مناخ التفكير السائد في العصر العباسي. تكشف ما سوف نصطلح عليه بـــ "وثيقة عمر" جملة من الأمور الأساسية، ولعل أهمها على الإطلاق أن الحكيم الذي كتبها وبعثها إلى عمر، كان ينظر إلى العالم على أنه ثلاثة عوالم، أولها: العالم العربي، وفيه: الشام، ومصر، والحجاز، والمغرب، والعراق، والجزيرة، وثانيها: العالم الإيراني، وفيه: الجبال، وخراسان، وفارس، وخوزستان، وثالثها: الهند، والصين، وبلاد الروم. وهو التقسيم التقليدي الشائع آنذاك: دار العرب، ودار الإسلام، ودار الحرب. لكن نظرته كانت ترتب هذه العوالم حسب أهميتها، وحسب أهمية البلدان فيها، وهذا يكشف أن هذه الوثيقة، تضع العراق في المركز ثم تنضّد البلاد الأخرى إلى جانبيه شرقاً وغرباً، فهو المركز بالنسبة لها كما سيتضح.

يسند المسعودي الخبر الخاص بـــ "وثيقة عمر" إلى "ذوي الدراية" الذين ذكروا أن الخليفة الراشدي الثاني حين تم له فتح العراق والشام ومصر، وبلاد أخرى، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنّا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها. فكتب إليه ذلك الحكيم: "بأن الله قسّم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضر سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضّر ببرودته وقرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة". وبعد أن ينتهي الحكيم من مقدمته المنطقية هذه التي تستعيد في تضاعيفها أفكار بطليموس وجالينوس، ينتقل ليصف القطع المسكونة من الأرض، وعلى الوجه الآتي"أما الشام فسحب وآكام، وريح وغمام، وغدق وركام، ترطب الأجسام، وتبلّد الأحلام، أما أرض مصر فأرض قوراء غوراء، ديار الفراعنة، ومنازل الجبابرة، تحمد بفضل نيلها، وذمّها أكثر من حمدها، هواؤها راكد، وحرّها زائد، وشرها وارد، تكدّر الألوان، وتجنب الفطن.. وفي أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء وخديعة، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن، لترادف فتنها، واتصال شرورها. أما اليمن فيضعف الأجسام، ويذهب بالأحلام، أما الحجاز فهواؤه حرور، وليله بهور، ينحف الأجسام، ويجفف الأدمغة، ويشجع القلب، ويبسط الهمم، أما المغرب، فيقسّي القلب، ويوحش الطبع، ويطيش اللب، ويذهب بالرحمة، ويكسب الشجاعة، ويقشع الضراعة، وفي أهله غدر، ولهم خبث ومكر. ديارهم مختلفة، وهممهم غير مؤتلفة. أما العراق فمنار الشرق، وسرّة الأرض وقلبها، إليه تحادرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم، واحتدت خواطرهم، واتصلت مسراتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم، وثبتت بصائرهم. وقلب الأرض العراق، وهو المجتبى من قديم الزمان، وهو مفتاح الشرق، ومسلك النور، ومسرح العينين، ومدنه المدائن وما والاها، ولأهله أعدل الألوان، وأنقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل، وفوائد المبرات، وفضائله كثيرة؛ لصفاء جوهره، وطيب نسيمه، واعتدال تربته، وإغداق الماء عليه، ورفاهية العيش به".

ما أن ينتهي حكيمنا من العالم العربي، إلا وينتقل إلى العالم الإيراني، ليستأنف أوصافه التبخيسية التي خصّ بها الشام، ومصر، واليمن، والحجاز، والمغرب، باستثناء العراق الذي ركّب له صورة تبجيلية شفافة. وهنا نلاحظ مرة أخرى ظهور أحكام القيمة السلبية؛ فـــ "الجبال" تخشن الأجسام وتغلظها، وتبلد الإفهام وتقطّعها، وتفسد الأحلام، وتميت الهمم. وأما خراسان فتكبر الهمم، وتعظم الأجسام، وتلطف الأحلام، ولأهلها عقول وهمم طامحة، وفيهم غوص وتفكير، ورأي وتقدير. أما فارس فخصب الفضاء، رقيق الهواء، متراكم الماء، معتم بالأشجار، كثير الثمار، وفي أهله شح، ولهم خب، وغرائزهم سيئة، وهممهم دنيئة، وفيهم مكر وخداع. أما خوزستان فهي كدرة الأهواء، تفسد الأحلام، وتبلد الإفهام، وتخبث الهمم، وتستأصل الكرم، يساق أهله سوق

الأنعام، وهم الهمج الطّغام. ثم يمر على "الجزيرة" ويتقدم بوصيته الثمينة للخليفة: واعلم، يا أمير المؤمنين – أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساماً، فضّل بعضها على بعض، فأفضل أقسامها العراق، فهو سيد الآفاق، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال. وأخيراً في سطر واحد يجمل كل ما يتصل بدار الحرب: وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك؛ لأنها منازل شاسعة، وبلدان نائية، كافرة وطاغية[32].

وقبل أن ننتقل إلى تحليل هذه الوثيقة، يحسن أن نردفها بجواب كعب الأحبار عن سؤال تقدم به إليه عمر بن الخطاب عن العراق، فكان جوابه: يا أمير المؤمنين، إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك. فقال المال: وأنا لاحق بالشام، فقالت الفتن: وأنا معك. فقال الخصب: وأنا لاحق بمصر، فقال الذل، وأنا معك. فقال الفقر: وأنا لاحق بالحجاز، فقالت القناعة: وأنا معك. فقال الشقاء وأنا لاحق بالبوادي، فقالت الصحة: وأنا معك[33]. تكشف هذه الوثيقة مجموعة من الإكراهات التي تهدف إلى تثبيت فكرة يستبعد أنها كانت موجودة في العقد الثاني من القرن الهجري الأول، والحقيقة فإن الشرعية الجغرافية والثقافية القائلة بمركزية العراق في العالم الإسلامي بدأت مع العباسيين، وإن كانت الفكرة موجودة في الفكر الإيراني القديم، لكنها نشطت وقوّت حججها في القرنين الثالث والرابع، ولهذا فإن المسعودي من القرن الرابع كان مشبعاً بأسس تلك الفكرة إلى درجة لم يشكّك بها، لكن النقد الداخلي لهذه الوثيقة سيضعف منطقها وحججها، وأول ما يلاحظ أن الوثيقة تتحدث عن بلاد المغرب بصفتها جزءاً من العالم الإسلامي، والحقيقة أنها لم تفتح في خلافة عمر، ومحاولات عثمان بن عفان الأولية لم تفلح في فتحها إلى أن قام معاوية بن أبي سفيان، بعد انقضاء الخلافة الراشدية بعشر سنين، أي في عام 50 هجرية الموافق 670 ميلادية، بتكليف عقبة بن نافع بأمر الفتح، وهو الذي بنى القيروان.

لم يستتب الأمر للمسلمين في المغرب، أو ما كان يسمى آنذاك بإفريقيا، بسهولة، فبعد أن عزل عقبة بن نافع جرى تمرد واسع، فما كان من الأمويين إلا إعادة عقبة ثانية. والسيطرة النهائية على هذه البلاد لم تتم إلا قرب نهاية خلافة عبد الملك بن مروان (=حكم 65-86هـ = 685-705م) حينما تم القضاء على "الكاهنة" التي تلقب بـ "ملكة البربر" حوالي سنة 83هـ = 702م. ليس ذلك فحسب، بل أن المصادر تورد أن عمر بن الخطاب نفسه كان منع عمرو بن العاص من الإقدام على فتح إفريقيا، فقد كتب إليه "لا تدخل إفريقيا؛ فإنها مفرّقة لأهلها غير مجمّعة، ماؤها قاسٍ ما شربه أحد من العالمين إلا قست قلوبهم"[34]. إلى ذلك فالمصادر كانت تصفها دائماً بأنها بلاد البربر. والأمر الثاني الذي له الدرجة نفسها من الأهمية هو الحديث خراسان وخوزستان وبلاد فارس والجبال، أو ما اصطلح عليه بـ "العالم الإيراني" فلا يمكن الادعاء أن هذه البلاد فتحت جميعها في خلافة عمر، ذلك أن الحدود الشرقية والشمالية لهذه البلاد تقع بعيداً في وسط آسيا. والصحيح أن أجزاء منها فقط تم فتحه، وبعد مدة طويلة تم استكمال السيطرة عليها. وهنا يظهر الأمر الثالث الخاص بتقسيم كل البلاد التي أشار "الحكيم" إليها: دار الإسلام ودار الحرب، كما هو واضح من وصفه للصين والهند وبلاد الروم بأنها "كافرة طاغية".

يرجّح أن هذا التقسيم متأخر، وقد عُرف بعد بزوغ التخوم الفاصلة بين الدارين المذكورتين. وعلى الرغم من أن هذه الطعون تضعف الأهمية التاريخية للوثيقة، لكنها لا تمس القيمة الإيديولوجية التي تتشبّع بها، فهي تريد دمج جملة من المعطيات المتفرّقة: الجغرافية، التاريخية، والثقافية، والعرقية، للإعلاء من شأن قضية معينة، ومع أنه لا يستبعد أن التنافسات والسجالات السياسية بين العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب- وقد بدأت تتشكّل في بعضها كيانات سياسية - وجهّت هذه الوثيقة وجهتها المذكورة، وهي سجالات كانت حامية كما هو معروف في الأدبيات التاريخية، فإن معظم مضامينها مشتقة من المعلومات الجغرافية التي كانت بدأت بالشيوع في القرن الثالث. فكرة دار الإسلام ومركزها العراق تشكّلت بسبب من تثبّت المنظومة العقائدية الإسلامية، بعد أن توقف المسلمون عن الفتح والتوسّع، وقد كانت دارا شعورية تغذّيها الثقافة الإسلامية، وتنشط فيها منظومة قيم متماسكة تقبل أحيانا تفسيرات متقاربة، ولكنها تنظر إلى الآخر بتوجّس، ولكن الأمر الذي يستأثر بالاهتمام هو صورة الآخر خارج المجال المشبع بالعقيدة الإسلامية كما ظهرت في المدونات الجغرافية. فعن كل تمركز لابد أن تتأدّى صورة مشوّهة الآخر.

4. صور إكراهية: بعث نظرية الكيوف الطبيعية.

إن الصور الإكراهية التي ركبتها الأدبيات الجغرافية والتاريخية والأدبية القديمة للآخر، خلال القرون الوسطى، ما زالت فاعلة في التصور الثقافي العام، ومتحكمة في المخيال الإسلامي، وفي كيفية انتاجه للصور النمطية الخاصة بالشعوب غير الإسلامية. وذلك متصل بالمركزية الإسلامية ونظرتها إلى الآخر. وقد أفرد أبو الفداء بابا في كتابه للحديث عن الزنوج في الجزء الجنوبي من الأرض، وهو ما يعرف بــ "بلاد السودان" (=علما أن الجغرافيين يتحدثون عن الزنج، والسودان، والأحباش، والنوبيّين، وهم موزعون في الجنوب الشرقي لإفريقيا، والمناطق الوسطى والغربية منها، ثم السواحل الشرقية العليا، وأخيرا ضفاف النيل العليا، وذلك على التوالي) ولكنه منذ اللحظة الأولى يتبنى الأحكام الشائعة، فاعتماداً على ابن سعيد المغربي (= الذي يروي عن ابن فاطمة) يرى بأن السودان عراة، وهم مهملون، وأنهم كالبهائم، وعادتهم أنهم يأكلون من وقع إليهم من الناس[35]. وحينما يواجه بضرورة ذكر التفاصيل، فإنه استناداً إلى ابن سعيد يجد أن سكان أعالي النيل "مذمومون بين أجناس الحبشة، وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم. ويدفعون ذكور الآدميين في صدقاتهم ويفتخرون بذلك"[36].

وتبدو المعلومات التاريخية والاجتماعية والدينية ضحلة جداً في كتاب أبي الفداء، فيما يخص الآخر، ففي أحاديثه المقتضبة عن جزائر المحيط، وبلاد الروم، والقسم الشمالي من الأرض، والهند، والصين، يتجنّب الخوض في المنظومات القيمية والثقافية، ويعنى فقط بالمسافات والأسماء، وكأنّ هذه البلاد خالية من الجنس البشري، ولو انتخبنا مثالاً على ذلك حديثه عن بريطانيا، لوجدناه يعرفها بالصورة الآتية" من جزائر البحور المتفرّعة عن البحر المحيط الغربي جزيرة بريطانية في بحر برديل، وهو البحر الخارج في شمال الأندلس. وليس بهذه الجزيرة ماء

إلا من الأمطار، وعلى ذلك يزرعون. وجزائر بريطانية إحدى عشرة جزيرة، ومن الجزائر المشهورة جزيرة انكلطرة، ويقال انكلترة..وفي هذه الجزيرة مدينة ليندرس (= لندن).. وفي هذه الجزيرة معدن الذهب، والفضة، والنحاس، والقصدير، وليس فيها كروم لشدة الجمد، وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن إلى بلاد إفرنسة، ويتعوضون به الخمر. فصاحب فرنسة إنما كثر الذهب والفضة عنده من ذلك.. وفي شمالي جزيرة انكلترة وبعض شمالي بريطانية جزيرة ارلندة.. وهي مشهورة بكثرة الفتن، وكان أهلها مجوساً ثم تنصّروا اتباعاً لجيرانهم"(37).ما الذي سيرتسم في المخيال عن الإنجليز سوى: استبدال الخمرة الخسيسة بالمعادن النفيسة، والفتن، والعقائد الوثنية التي بالكاد ثلمها التنصّر؟.

و لم يكن المسعودي بمنأى عن السقوط في هوة الحكم القيمي بحق الآخر، فأهل الشمال بسبب الأحوال المناخية الباردة "عظمت أجسامهم، وجفت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلّدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم. ومَن أوغل إلى أقصى الشمال، فالغالب عليه الغباوة، والجفاوة، والبهائمية. ومَن كان في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم"(38). من المعروف أن الجغرافيا الإسلامية ورثت عن الإغريق والفرس والهنود فكرة الأقاليم، وفكرة الطبائع، والعلاقة بينهما(39). وهما في الجغرافية البشرية الإسلامية مترابطتان، فالموقع الجغرافي هو الذي يحدد طبائع البشر وأخلاقهم وعقلياتهم وألوانهم، فالتلازم بينهما تلازم نتيجة بسبب. إذ الظروف المناخية للإقليم – حسب اعتقاد القدماء- تتدخل في تشكيل الطبائع، والعادات، والأشكال، وطرائق التفكير، والرغبات. أخذ الجغرافيون بهذه العلاقة وبنوا عليها تصوراتهم، وتصنيفاتهم للأجناس البشرية. وقد نقد كراتشوفسكي خضوعها للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل(40). وكنّا أشرنا إلى أنها وظّفت معطيات نظرية الكيوف الطبيعيّة في مجال رؤية الآخر، وقد وجّه نقد إلى جغرافيا الأقاليم وما ترتب عليها؛ لأن التقسيم الذي تعتمد عليه تعسفي، ولا يولي أهمية للعوامل الجغرافية مثل التشابه في الظروف المناخية والثقافية والبشرية وغيرها. وقد تضمنت تكرار بلاد مختلفة في أكثر من إقليم(41).

معروف أن تلك النظرية كانت تتردد منسوبة إلى بطليموس وجالينوس وأبقراط؛ فالأول عُدّ المرجعية الأساسية لفكرة الأقاليم، أما جالينوس وابقراط فهما الموجّهان الأساسيان لفكرة الأعراق والطبائع. وربطت الجغرافية الإسلامية الفكرتين ربطا محكما، وكيّفتهما في نظرتها للذات والآخر، منذ دخول الفكر اليوناني إلى الثقافة العربية الإسلامية في القرن الثالث الهجري. وقد ظهرت لنا في مناقشة "وثيقة عمر" تجليات واضحة للفكرتين المذكورتين "فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضر سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضرّ ببرودته وقرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة". ولكن الظاهرة تطورت فيما بعد، وأصبحت محورا أساسيا في الفكر الجغرافي، ويعنينا الجانب المتصل بالآخر منه، بعد أن رأينا كيف استقامت مركزية دار الإسلام في جانب منها عليه.

من المفيد الوقوف على أمثلة دالة على مدى تحكم هذه الفكرة في مجمل الصورة التي أنتجها المسلمون للأجناس البشرية. وعلى الرغم من الترابط الوثيق بين البيئة والطبائع فالملاحظ أن الجغرافيين المسلمين خصّوا البشر باهتمامهم الرئيس. وقد كان أندريه ميكيل مصيبا حينما أكد هذه الحقيقة، فموضوع بحث الرحالة والجغرافيين كان البشر، ووظيفة الجغرافيا البشرية عند المسلمين هي كشف علاقات دار الإسلام بالبلدان المجاورة، وتصوّر المسلمين عن شعوبها، وتصورهم عن الأرض باجمعها[42]. يربط المسعودي بين البيئة والطبائع البشرية، وينتهي إلى تثبيت نتائج وصفية غير محايدة تترتب عليها أحكام قيمة بالغة القسوة، ويحسن الوقوف على ذلك. فالأرض كما يقول أربعة أقسام عنده، وهي:

1. **شرقي مذكّر**، يتصف أهله بـــ"طول الأعمار، وطول مدد الملك، والتذكير، وعزة الأنفس، وقلة كتمان السر، وإظهار الأمور والمباهاة بها، وما لحق بذلك؛ وذلك لطباع الشمس، وعلمهم الأخبار، والتواريخ، والسير، والسياسات، والنجوم.".
2. **غربي مؤنّث**، يتصف أهله بـــ"كتمان للسر، وتديّن وتألّه، وكثرة انقياد إلى الآراء والنِحل، وما لحق بهذه المعاني إذ كان من قسم القمر.".
3. **شمالي غبي**، تأثّر أهله بالبرد فـــ"عظمت أجسامهم، وجفّت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلّدت إفهامهم، وثقلت ألسنتهم، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت... ولم يكن في مذاهبهم متانة؛ وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة. ومَنْ كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة، والجفاء، والبهائمية، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال... وأما مَنْ كان خارجاً عن هذا العرض.. فإنهم في عداد البهائم."
4. **جنوبي متوحش**، ضربت الحرارة أهله فـــ "اسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم، وتوحّشت نفوسهم؛ وذلك لالتهاب هوائهم، وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم، وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس"[43].

يقوم المسعودي بتنميط البشر حسب الأقاليم، وهو تنميط جنسي، وأخلاقي، وعقلي، وشكلي، يراد منه حبس الأجناس في طبائع ثابتة، وهو تقسيم اختزالي يهدف إلى بسط سلسلة من الانطباعات الشائعة كأحكام نهائية يروم من خلالها إلغاء طرف وتبجيل آخر، وليس تقديم وصف موضوعي، وتلك التقسيمات ليست غريبة عن الأفق التاريخي الذي تترتب فيه، كما أنها ليست خاصة بالمسلمين وحدهم، لكنها معهم اتخذت طابعا قيميا واضحا، فقبل ذلك بمدة طويلة كانت الشعوب تشكّل الصور الإكراهية بعضها لبعض، ولم ينج أحد تقريبا من ذلك؛ فأرسطو قبل المسعودي بأكثر من ألف عام كان دشن ذلك بتركيز الصفات الحميدة في اليونان وحدها استنادا إلى الحجة البيئية، قال "الشعوب التي تقطن الأقطار الباردة حتى في أوربا هم على العموم ملؤهم الشجاعة لكنهم على التحقيق منحطون في الذكاء، وفي الصناعة. من أجل ذلك هم يحتفظون بحريتهم، لكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام، ولم يستطيعوا أن يفتتحوا الأقطار المجاورة. وفي أسيا الأمر على ضد ذلك فشعوبها أشد ذكاء وقابلية للفنون، لكن يعوزهم القلب، ويبقون تحت نير استعباد مؤبّد. أما العنصر الإغريقي، الذي هو

بحكم الوضع الجغرافي وسط، فإنه يجمع بين كيوف الفريقين، فيه الذكاء والشجاعة معا. إنه يعرف أن يحتفظ باستقلاله، وفي الوقت نفسه، يعرف أن يؤلّف حكومات حسنة جدا. وهو جدير إذا اجتمع في دولة واحدة بأن يفتح العالم"[44]. كان هذا التصور شائعا، وقد ظلّ لفترة طويلة بعد ذلك مهيمنا على أفكار الجغرافيّين في العالم، وانتقل إلى كثير من العلوم الإنسانية، وبخاصة الاجتماع، وقسّمت الشعوب حسب مواقعها من الأقاليم، واعتمده الجغرافيون والمؤرخون الإسلاميون بوصفه حقيقة أبدية.

يمايز المسعودي بين الشعوب على أسس تفترض التضاد المطلق فيما بينها، وهي: الذكورة والأنوثة من جهة، والبوهيمية والوحشية من جهة ثانية. ويلحق بالزوج الأول الشرقيّين والغربيّين، وبالزوج الثاني الشماليّين والجنوبيّين. وتوزيعه يقتضي التنافر التام، فالذكورة الحقة تضادّ الأنوثة حسب تصوره، وتضاد بالطبع البوهيمية والوحشية. إنها فحولة التميّز والقوة والتفكير، وعلى النقيض من ذلك تظهر الأنوثة كمنقصة لأنها سلوك معوج يقوم على الغموض والكتمان والتصديق العاطفي السريع، ثم التعلّق بشيء والتخلّي عنه، فتختلط الآراء والمواقف، وتكثر النحل. وهو يرفع من شأن الذكورة إذ يجعلها معيارا للتفوق في الطبع، ويخفض من شان الأنوثة إذ يجعلها معيارا لنقص الطبع. أما نظرته إلى الشماليين والجنوبيين، فلا تستحق معايير بشرية، ولهذا يستعير عناصرها من عالم الحيوان البوهيمي (= البهيمة) والمتوحش، وينضّد سلسلة طويلة من الأحكام القاسية بحقهم. يضع المسعودي أمامنا تقسيماً بشرياً وحيوانيا، فأفضل بني البشر، هم الشرقيون لأنهم ذكور في جملة طباعهم، والأسوأ هم الغربيون لأنهم مؤنثون في طباعهم، أما أهل الشمال والجنوب فهم خارج ذلك، إنهم أشبه بالحيوانات المتوحشة، والتراتب بينهم غائب إذ هم في الدرك الأخير من الحيوانية، لاتمايز عنده بين ذكور الحيوانات وإناثها، ولابين وحشيها وأليفها. ومادام التصنيف يقوم على التفاضل، فالمهم هو منزلة الفاضل. يسبب هذا التصنيف صدمة إذ يصدر عن المسعودي الذي سلخ عمره في مخالطة الأغيار، ولكنه كان جزءا جوهريا من ثقافة القرون الوسطى، كما أشرنا، وظل مستبدّا بالتفكير البشري إلى العصر الحديث، وقد وضع الفكر الغربي تمايزا لايقل قسوة عن تقسيم المسعودي بين الشعوب وإلى وقت قريب[45]. ولكن الفكر الغربي قلب أوصاف المسعودي، وعكس الأحكام تماما، الأقوام الشمالية هم نخبة بني البشر، وبعدهم يبدأ انحطاط الطباع بالتدريج إلى أن ينتهي بالزنوج والهنود الحمر. تفرض المركزيات قوانينها الصارمة والمغلقة على الجنس البشري، وتحجزه ضمن تصنيفات تستند إلى أسس ثقافية، لكنها تتذرع بحجج العلم. هذه الفكرة كانت مثار اعجاب ابن خلدون – وغيره كثر– فتبناها، وجعلها الركيزة التي تستند إليها فكرته عن العمران البشري.

5. الآخر: مواقع دونية.

أكد ابن خلدون في "المقدمة" أهمية التدرج في ترتيب الأقاليم، وربط الخصائص البشرية والقيمية بذلك التدرج، فذهب إلى أن: المغمور من الأرض إنما يوجد في الوسط لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما

إلى الوسط فيكون معتدلا؛ فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما. والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم، والصنائع، والمباني، والملابس، والأقوات، والفواكه، بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنما في غالبيتها توجد فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم، قال تعالى(كنتم خير أمة أخرجت للناس) وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله.

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم، وملابسهم، وأقواتهم، وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجّدة بالحجارة المنمّقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير، ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم، وهؤلاء أهل المغرب، والشام، والحجاز، واليمن، والعراقين، والهند، والسند، والصين، وكذلك الأندلس ومَنْ قرُب منها من الفرنجة، والجلالقة، والروم واليونانيين، ومَنْ كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة؛ ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات.

وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال، مثل: الأول والثاني والسادس والسابع؛ فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا، وكذا الصقالبة؛ والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبوءة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام، وما بعده لهذا العهد. ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة. ومثل مَنْ دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم. ويخلق ما لا تعلمون. ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن، وحضرموت، والأحقاف، وبلاد الحجاز، واليمامة، وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني؛ فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث...فكان لرطوبتها أثر



في رطوبة هوائها، فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر"[46].

أوردنا النص كاملا لأنه يحمل في طياته الحجج بجلاء. ويلاحظ أن صاحب "المقدمة" يصدر أحكاما مطلقة، ولكنه سرعان ما يقيدها حينما تلحق ضررا بالعالم الذي ينتمي إليه: دار الإسلام. يتضح ذلك في استثناء أهل اليمن وعُمان وجزء من بلاد الحجاز، وبعضهم ضمن الإقليمين الأول والثاني اللذين ينبغي أن يتصف ساكنوه وفق التصنيف الذي يقول به، بأنهم "أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم" وأن "أخلاقهم ... قريبة من خلق الحيوانات العجم" لكنّ أهل هذه البلاد لايشملهم الحكم الذي شمل غيرهم؛ لوجود الرطوبة في الهواء فنقص بسبب ذلك اليبس والانحراف، فالمناخ يصلح بحسب هذا التصور أن يكون دليلا على ذم جنس وإعلاء آخر. يدمج ابن خلدون بين المعطيات المناخية والربانية، فقد اختار الله أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة المخصوصة بالاعتدال، وسكانها من أعدل البشر أجساما وألوانا وأخلاقا، فخصّهم بالأديان، حتى النبوات فإنما هي فيهم. ويلاحظ ابن خلدون أنه لم يقف على خبر بعثة نبوية في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم، وقد أعاد تكييف دلالة الآية القرآنية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) لدعم حجته، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. لقد ربط ابن خلدون بين البيئة، والطبع، وإرادة الله، ليسوّغ موقفا يقوم في أساسه على خفض قيمة جماعة من البشر، ورفع قيمة جماعة أخرى. ولأننا نهدف إلى إبراز فكرة العلاقة بين الطبائع والبيئة فينبغي علينا مرافقة ابن خلدون في ترتيبه لضروب تلك العلاقة استنادا إلى المؤثّر المناخي الذي عدّ في ذلك الزمن العنصر الحاسم في تحديد الألوان والأشكال والطبائع. ومن الصعب إقامة براهين على فرضية تدفع بها منظومة ثقافية لها شروط مغايرة عن شروط الأقوام الموصوفة. لقد حذّر روسو من أنه عندما يجري البحث في أمور عامة كالأعراف وطرق معيشة شعب ما، ينبغي توخّي الحذر لئلاّ يصار إلى تقليص أمر الرؤية على أمثلة خاصة[47].

حاول ابن خلدون نقض الأسطورة الشائعة حول الألوان، وبها استبدل القول بالنظرية المناخية، فيذهب إلى أن بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات توهم أن السودان، وهم ولد حام بن نوح، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة، وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير[48]. بعد هذه المقدمة التي يظهر فيها ابن خلدون مبدّدا لخرافات القصّاص، سرعان ما يتزلق إلى خرافة المناخ، فيقول: في القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء، وفيما يتكون فيه من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب؛ فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم، وتسودّ جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض

من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال؛ إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين، أو ما قرب منها، ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول؛ فتبيض ألوان أهلها، وتنتهي إلى الزعورة، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون، وبرش الجلود، وصهوبة الشعور[49].

المسعودي وابن خلدون يصدران في موقفهما من خضم الثقافة المتمركزة حول نفسها، الثقافة التي تقول بقيم، وتؤمن بها، وتدعو إليها، وتنفي كلّ منْ لا ينصاع لها، فالاختلاف في منظومات القيم يقود إلى التراتب، والتراتب نوع من التفاضل القائم على ترجيح قيم وتبخيس أخرى. لم يبرأ مجتمع من هذا الداء، مهما ادّعى من تسامح؛ فالتسامح في القرون الوسطى كان رغبة دفينة بالامتثال وليس التعايش. ولا يخفى أن هذه الأحكام تقود إلى أيدلوجيا الإحساس بالتفرّد القائم على المفاضلة. ويشعر البيروني بالافتخار، وهو الذي أمضى شطرا طويلا من حياته بين الهنود، لأنه "لم يَسُمنا التهنّد، والانتقال إلى رسومهم" لأنهم "يباينوننا في الرسوم والعادات" و"يباينوننا بالديانة مباينة كلية لا يقع منّا شيء من الاقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا"[50]. هذا السلوك الذي يبدو طبيعيا أول وهلة، بسبب الانحباس ضمن إطار الهوية الخاصة والثابتة، سيصبح مع الزمن عبئا، إذ لا يمكن التقيّد الصارم بمنظومة أخلاقية مغلقة وسط منظومة أخلاقية مفتوحة مغايرة ومتغيّرة، وهذا النمط من التفكير هو اتصال دوغمائي بنوع من"الهويات القاتلة"[51]. إنه التمركز الذي يكثّف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، فيؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلّبة التي تنتج الذات، ومعطياتها الثقافية، بما في ذلك الدينية والأخلاقية، باعتبارها الأفضل، إستنادا إلى معنى محدد للهوية، قوامه الثبات، والديمومة، والتطابق، بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل، سواء باستكشاف أبعاد نفسها أو بمعرفة الآخر، وذلك سيؤدي إلى تركيب صورة مشوهة للآخر، وانتاج إيديولوجيا اقصائية استبعادية ضده، وإيديولوجيا طهرانية مقدسة خاصة بالذات[52].

لم تكن الصورة المتشكّلة في أعين المسلمين للعالم الوسيط قد تمت بمنأى عن الوسيلة التي وقعت بها معرفة الشعوب في دار الحرب، فمصدر المعلومات، وطرق تداولها، وكيفية ترتيبها، لعب دورا مباشرا في صوغ تلك الصورة، وقد قامت تلك المعرفة إما على احتكاك خارجي مع أفراد ينتمون إلى تلك الشعوب في دار الإسلام أو على احتكاك داخلي، والأول مصدره الحروب والتجارة والارتحال، والداخلي مصدره الرقيق والكتب المنقولة عن لغات الشعوب الأخرى إلى العربية، و لم تكن معرفة المسلمين بالآخر معرفة بريئة، إنما كانت مزيجا من التوقّعات والتصوّرات الشائعة وهي ممزوجة بتخيلات ورغبات[53]. إن المرويّات والأوصاف عن المختلف ثقافيا تؤدي لا محالة إلى رسم صور تطابق رغبة الذي يقوم بها، أكثر مما تعبّر عن الأصل. ومن المؤكد بأن المنظومة الثقافية-العقائدية الإسلامية تدخّلت في إعادة رسم ملامح تلك المعرفة، فمن المعلوم أن صور الآخرين تتشكّل من تداخل المعلومات الحقيقية بالمزيفة، ومن المشاهدات المباشرة المفسّرة على وفق سلّم معين من القيم، ومن الأخبار التي هتكتها الخرافات والأساطير، واقتحمت صلبها، وأخيرا من الرغبة الثابتة في الذات لإنتاج صورة نمطية منقوصة للآخر. وفي حقبة يعدّ الموجِّه العقائدي فيها محفّزا لتشويه الآخر الذي يئنّ

تحت طائلة الضلال، فليس من المنتظر البحث عن نقاء الصورة، فطالما انتجت، ومازالت، الأعراق والعقائد صورا استعلائية لنفسها وتخفيضية لغيرها، وفي الحالين تقوم تلك الصور على تنضيد مرويات لا يركّز الاهتمام فيها على الدقة والتقدير المطلوبين، إنما على اشباع الرغبات الثقافية، ففي مخيال الجماعات الثقافية - البشرية المعتصمة بذاتها ترتسم صورة مُرضية عن ذاتها، ومَرضّية عن غيرها. ومادام الآخر موضوعا للتبخيس في مجتمعات القرون الوسطى، فلم يفلح أحد بصورة مطلقة في تعديل الصور المقلوبة. الدونية سمة تُلصق بالآخر، وتخفض من شأنه، وقد تبيّنت لنا الأسباب التي وُضعت لذلك، وكانت المرويَّات التاريخية والجغرافية قد نهضت بمهمة التمثيل الدوني للأمم خارج دار الإسلام، واستأثرت بمواقع مهمة في صلب عملية التمثيل الخطابي المذكور، وركّبت لهم صور خاصة، ستتضح طبيعتها في النصوص المتنوعة التي تشكل قوام هذا الكتاب.

الهوامش

1. مجيد خدوري، القانون الإسلامي، بيروت، الدار المتحدة للنشر، 1975ص22
2. م. ن. ص23
3. جوزيف شاخت، الفكر السياسي عند المسلمين، انظر تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزوت، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، الكويت، عالم المعرفة، 1978 ق3ص33
4. شاخت، الشريعة الإسلامية، م. ن. ص9
5 برنارد لويس، السياسة والحرب، أنظر تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت، عالم المعرفة، 1978 ق 1ص233 و 235
6. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة، ص2
7. م. ن. ص255
8. محمد نور الدين أفاية، الغرب والمتخيّل، بيروت المركز الثقافي العربية، 2000ص288-289
9. جاك بيرك، حينما كنت أعيد قراءة القرآن، ترجمة وائل غالي، مجلة القاهرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع 154 لسنة 1995 ص29
10. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ، ليدن، مطبعة بريل، 1939، ص 525
11. المقدسي(الإدريسي)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، ليدن ص9
12. صورة الأرض، ص 15
13. م. ن. ص 6
14. م. ن. ص18
15. الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن الأكوع، صنعاء، 1990،ص2
16. الاصطخري، مسالك الممالك، ليدن، بريل، 1927 انظر على سبيل المثال، ص3، 12
17. ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ليدن، بريل، 1889، ص 5
18. أبو الفداء، تقويم البلدان، باريس، دار الطبعة السلطانية 1880ص2
19. م. ن. ص73
20. شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، بيروت، دار الحداثة، 1988ص28. وانظر أيضا: شاكر خصباك، الجغرافيا عند العرب، ضمن "موسوعة الحضارة العربية الإسلامية"بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995، ص488
21. قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج، وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة، ليدن، بريل، 1889 ص185

22. م. ن. ص234
23. صورة الأرض، ص 234
24. مسالك الممالك، ص 88 وصورة الأرض، ص 347
25. مسالك الممالك، ص 89
26. اليعقوبي، كتاب البلدان، بريل، ليدن، ص1-2
27. ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة
28. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1988، 2: 65-66
29. أرسطو، السياسة، ترجمة أحمد لطيف السيد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979ج1: 116
30. عبدالله إبراهيم، المركزية الغربية، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1997ص 229 – 275
31. المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق دي خويه، ليدن، بريل، 1894 ص35-36
32. مروج الذهب 2: 61 – 64
33. م. ن. 2: 65
34. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1995ج1: 229
35. تقويم البلدان، ص151
36. م. ن. ص 154
37. م. ن. ص 187 – 188
38. المسعودي، التنبيه والإشراف، بيروت، 1965 ص 23
39. أندريه ميكيل،جغرافية دار الإسلام البشرية،ترجمة إبراهيم الخوري،دمشق،وزارة الثقافة، 1985، ج1ق1ص11. و كرامرز وآخرون، الجغرافيا عند المسلمين "سلسلة كتب دائرة المعارف الإسلامية" ترجمة أبراهيم خورشيد وآخرون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982ص91-103. وشاكر خصباك "موسوعة الحضارة العربية الإسلامية" ص488-492
40. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ج 1: 23
41. س. م. ضياء الدين علوي، الجغرافيا العربية، تعريب وتحقيق عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، الكويت، جامعة الكويت، 1980ص166
42. جغرافية دار الإسلام البشرية، ج2ق1ص120وج1ق1ص11
43. ، التنبيه والاشراف، ص 21
44. السياسة 1: 254-255
45. المركزية الغربية، ص229-272
46. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حجر عاصي، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1986ص60-61
47. أورده، تودروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دمشق، دار المدى، 1998ص61.
48. المقدمة، ص63
49. م. ن. ص63
50.أبو الريحان البيروني، في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرفوضة، حيدر آباد، مطبعة المعارف العثمانية، 1958ص14-15
51. الإشارة إلى كتاب أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دمشق، دار الجندي، 1999
52. المركزية الغربية ص10
53. عزيز العظمة، العرب والبرابرة، لندن، رياض الريس للكتب والنشر، 1991ص218

كتاب

أقاليم، وبحار، وبشر

النصوص

نظر الجغرافيون والرحالة المسلمون الى العالم باعتباره عالما مسكونا في جزئه الشمالي فقط. واستنادا الى الفكرة القديمة قسّم العالم المعمور الى سبعة أقاليم تبدأ من خط الاستواء صعودا الى أقصى الشمال. وكان الأخذ بنظرية الأقليم شائعا. وفكرة كروية الأرض معروفة بين الرحّالة والجغرافيين، وقدّموا براهين كثيرة على ذلك. وتحتشد الكتب الجغرافية - وأحيانا التاريخية - بسيل من الأدلة على ذلك، كما يلاحظ في النصوص التي انتخبناها للمسعودي، وأبي الريحان البيروني، والصابئي، وابن خلدون، وغيرهم. على أن الأمر الذي نهدف اليه في هذا الكتاب، هو اظهار الربط المحكم الذي حرص عليه الجميع بين معطيات الجغرافية الطبيعية والبشرية، وبين تاريخ المجتمعات خلال القرون الوسطى. وكان الحرص على كشف أثر البيئة في البشر استأثر باهتمام لاغبار عليه، وكما سيتضح في تضاعيف نصوص هذا الكتاب (أقاليم، وبحار، وبشر) فان ابن خلدون - على سبيل المثال - يقدم مادة غنية في هذا المجال. وموضوع الربط بين الخصائص الجغرافية للأقاليم، والطبائع البشرية، يعدّ أبرز المظاهر المميزة للكتابات التي تركها الجغرافيون والرحالة. ويحسن أن نترك لهذه النصوص الأصلية أن تكشف عن نفسها مباشرة، مشيرين الى غزارة المعلومات الأثنوغرافية التي تتدفق من ثناياها، وإلى تكرار بعض المعلومات بين نص ونص، وذلك جزء من عيوب التأليف القديم، وقد رتّبت بحيث يكمل كل نص الآخر، ويعزز الأفكار فيه.

1. ذِكْر الأرض، وشكلها، وطبائع أهلها. المسعودي (346 هـ = 957م) من كتاب (التنبيه والإشراف)

(قال المسعودي: قسّم الله تبارك وتعالى الأرض قسميْن: مشرقاً ومغرباً. فصار المشرق والتيمن وهو الجنوب جوهراً واحداً؛ لغلبة الحرارة عليهما، وصارت جهة المغرب والجربي، وهو الشمال جوهراً واحداً لغلبة البرودة عليهما وشدتها فيهما، وذلك لبعد الشمس من ناحية الجربى، لأن المحور على تلك الناحية، وهي أشدهما ارتفاعاً، فمن أجل ذلك صار الجربى بارداً رطباً، وصار المغرب أقل برداً من الجربى، وأكثر يبساً لانحطاط الفلك هناك؛ وهاتان الجهتان المشرق والتيمن بخلاف ذلك لدنو الشمس منهما. والعالم أربعة أرباع: فالربع الشرقي وهو ما تسافل عن خط الجنوب، والشمال إلى المشرق فهو ربع مذكر يدل على طول الأعمار، وطول مدد الملك، والتذكير، وعزة الأنفس، وقلة كتمان السر، وإظهار الأمور والمباهاة بها، وما لحق بذلك؛ وذلك لطباع الشمس، وعلمهم الأخبار، والتواريخ، والسير، والسياسات، والنجوم. وأما أهل الربع الغربي، فإن الغالب عليه التأنيث إلاّ ما استولت عليه الكواكب المذكّرة، كما يغلب التذكير على المشرق إلاّ ما غلبته عليه الكواكب المؤنّثة. وأهله أهل كتمان للسر، وتديّن وتألّه، وكثرة انقياد إلى الآراء والنِحل، وما لحق بهذه المعاني إذ كان من قسم القمر. وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في

الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد؛ فقل مزاج الحرارة فيهم؛ فعظمت أجسامهم، وجفّت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلّدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت، فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقّت جلودهم، وغلظت لحومهم، وازرقّت أعينهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم، وسبطت شعورهم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب. ولم يكن في مذاهبهم متانة؛ وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة.

ومَنْ كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال، وكذلك مَنْ كان من الترك واغلاً في الشَمال، فلبعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها؛ كثرت الثلوج فيهم وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامهم، وغلظت ولانت فقرات ظهورهم وخرز أعناقهم؛ حتى تأتّى لهم الرمي بالنشاب في كرّهم وفرّهم. وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم، فاستدارت وجوههم، وصغرت أعينهم لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكّنت البرودة من أجسادهم، إذ كان المزاج البارد يولّد دماً كثيراً، واحمرّت ألوانهم إذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة وإظهارها. وأما مَنْ كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيّف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج، وهم في الإقليم السادس، فإنهم في عداد البهائم. وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش، والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس؛ فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة؛ فاسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم، وتوحّشت نفوسهم ؛وذلك لالتهاب هوائهم، وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم، وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس، وكذلك الشعور السبطة إذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض، ثم الانضمام، ثم الانعقاد على قدْر قربها من الحرارة، وبعدها عنها. والأرض قسمان على ما قدّمنا: أحدهما مسكون، والآخر غير مسكون. والعامر المسكون منهما على أقسام: أحدها مفرط الحر، وهو ما كان من جهة الجنوب؛ لأن الشمس تقرب منه فيلتهب هواؤه، والآخر الشمال، وهو مفرط البرد لبعد الشمس عنه. وأما المشرق والمغرب فمعتدلان، وإن كان فضل المشرق أظهر، واعتداله أشهر. وأما الذي ليس بمسكون فعلى قسميْن أيضاً: إما أن يفرط فيه البرد ببعد الشمس عنه أو يفرط فيه الحرّ لقربها منه، فلا يتركّب هناك حيوان، ولاينبت نبات، فالموضع الذي يكون بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستاً وستين درجة لا يمكن أن يكون فيه نشوء لإفراط البرد عليه لبعد الشمس عنه، وإن ما كان عرضه ستة وستين جزءاً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة، ستة أشهر نهاراً لا ليل فيه، وستة أشهر ليلا لا نهار فيه. يبطل نهاره في الشتاء وليله في الصيف. والموضع الذي بعده في الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لإفراط الحر عليه لقرب الشمس منه.

قال المسعودي: فأما بطلميوس فإن أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولي (= مختلف بشأن تحديدها النهائي بين الجغرافيين القدامى، ويرجّح أنها آيسلندا) في أقصى بحر المغرب من

الجهة الشمالية، وأن عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاثة وستون جزءاً. وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب إليه في حدود المعمور من الأرض. وذهب بطليموس إلى أن نهاية العمارة في جهة الجنوبي تحت الموازي الذي بعده من معدل النهار ستة عشر جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة وربع وسدس. وذهب قوم إلى أن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب واحد وعشرون جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة. وإلى هذا ذهب يعقوب بن اسحاق الكندي في كتابه (في رسم المعمور من الأرض). وسواء قيل عرض الموضع، أو قيل بُعده عن خط الاستواء، أو قيل ارتفاع القطب عليه، فمقدار نهاية العمارة في الشمال إلى نهايتها في الجنوب ثمانون جزءا. يكون ذلك عند هؤلاء من الأميال خمسة آلاف ميل، وأقل من أربعمائة ميل. وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسِيلى (=كوريا) إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج، الذي بناه الاسكندر دافعاً ليأجوج ومأجوج عن الفساد في الأرض. والجبل الذي وراءه ووقع في فجه الردم، ومنه كان مخرجهم. بدؤه خارج العمران في الإقليم السابع، طرف مبدئه مستقبل المشرق ثم ينعطف إلى ناحية الجنوب، ويستقيم ممره طولاً إلى أن ينتهي إلى بحر أوقيانس المظلم المحيط (= الأطلسي) فيتصل به. وأقصى عمران المغرب ينتهي إلى بحر أوقيانس المحيط أيضاً، وكذلك ينتهى أقصى عمران الشمال إلى هذا البحر أيضاً، وأقصى عمران الجنوب ينتهى إلى خط الاستواء الذي يكون الليل والنهار فيه سواء أبداً. وجزيرة سرنديب (= سيلان) من البحر الصيني على هذا الخط أيضاً.

قال المسعودي: وذكر من عُني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين الف ميل، وذلك تدويرها مع المياه والبحار، فإن المياه مستديرة مع الأرض وحدُّهما واحد، فكلما نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تم باستدارة الماء وطوله وعرضه، وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد، إحداهما أقل عرضاً من الأخرى، وهما: الكوفة، ومدينة السلام (=بغداد)، فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقلّ من الأكّثر، ثم قسّموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما، فكان نصيب الدرجة مما يحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلاً وثلثي ميل على ما ذكر بطليموس. فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلثمائة وستون درجة، كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل. وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلاً، والميل أربعة آلاف ذراع بالسواء، وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل. والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال، ومنهم مَنْ يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع، والفرسخ أربعة أميال. وكلاهما يؤولان إلى شئ واحد. وفيما ذكرناه من مقدار حصة الدرجة من الأميال تنازع؛ فمنهم مَن رأى أن ذلك سبعة وثمانون ميلاً، ومنهم مَن رأى ذلك ستة وخمسون ميلاً وثلثي ميل. والمعوّل في ذلك على ماحكيناه عن بطليموس.

والأرض من أربعة جواهر: من الرمل، والطين، والأحجار، والأملاح. وجوفها أطباق يتخرّق فيها الهواء، ويجول فيها الماء مواصلاً لها كمواصلة الدم للجسد، فما غلب عليه الهواء من الماء كان عذباً شروبا،

وما امتنع الهواء من التمكّن منه، وغلبت عليه أملاح الأرض وسبخها صار ملحاً أجاجاً. وأن كوْن مياه العيون والأنهار في الأرضين كالعروق في البدن، وأن الحكمة في كون الأرض كرويّة الشكل؛ إنها لو كانت مسطوحة كلها لاغور فيها ولانشز يخرقها لم يكن النبات. وكانت مياه البحار سائحة على وجهها، فلم يكن الزرع و لم يكن لها غدران تفضي مياه السيول إليها، ولا كانت لها عيون تجري تنبع بالماء أبداً؛ لأن مياه العيون لو كانت منها تخرج دائماً لفنيت ولصار الماء أبداً غالباً على وجه الأرض، فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات. فجعل عز وجل منها أنجاداً، ومنها أغواراً، ومنها أنشازاً، ومنها مستوية، وأما أنشازها فمنها الجبال الشامخة، ومنافعها ظاهرة في قوة تحدّر السيول منها، فتنتهي إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها، ولتقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار، وتذيبها الشمس، فيقوم ما يتحلّب منها مقام الأمطار، ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها وأوديتها، فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكنا، ولتكون مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها وما لا يحصيه إلاّ خالقها.

قال المسعودي: وقد تختلف قوى الأرضين وفعلُها في الأبدان لثلاثة أسباب: كمية المياه التي فيها، وكمية الأشجار، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها. فالأرض التي فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان، والأرض العادمة للمياه تجففها. وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار؛ الأشجار التي فيها تقوم لها مقام السترة، فبهذا السبب تسخن. والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار. وأما اختلاف قواها من قبل مقدار علوّها وانخفاضها؛ فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة، والأرض المنخفضة العميقة حارة ومِدَة. ومنهم مَن رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة: أولها النواحي، والثاني الارتفاع والانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها، والرابع طبيعة تربة الأرض؛ وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدمنا. وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية، وإنما تهب فيه الشمالية فقط، ومتى ما كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه. وأما اختلافها لمجاورة البحار لها فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب، وإن كان من البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس. وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت ذلك البلد أبرد وأجف، وإن كانت تربة البلد جصيّـــة جعلته أسخن وأجف، وإن كانت طينيّة جعلته أبرد وأرطب. وبقاع الأرض مختلفة بحسب اختلاف الطبائع، وما تؤثره فيها الأجسام السمائية من النيرين وغيرهما، فغلب طبع كل أرض على ساكنها، كما نشاهد الحرار السود والأغوار؛ وحشها إلى السواد ووحش الرمال البيض على ذلك اللون. فإن كانت الرمال حمر فوحشها عفر، وهو لون التراب. وكذلك وحش الجبال من الأراوي وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمراً وإن بيضاً وإن سوداً. وعلى هذا السبيل تكون القملة في الشعر الأسود سوداء، وفي الشعر الأبيض بيضاء، وفي المشيب

شهباء، وفي الأحمر حمراء. ومن الفلكيين مَنْ يرى أن كل جزء من أجزاء الأرض يناسب جزءاً من أجزاء الفلك، ويغلب عليه طباعه لأن في أجزاء الفلك المضيء والمظلم والفصيح والأخرس وذا الأصوات والمجوف وغير ذلك من نعوت الدرج، فلذلك يكون كلام أهل الموضع الواحد مختلفاً على قدر ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس، ثم يختلف أهل اللسان الواحد في المنطق واللهجات.

قال المسعودي: وقد ذمّ بطليموس القلوذي آراء كثير ممّن تقدمه ممن عنى بعلم معمور الأرض وغايات ذلك ونهاياته مثل مارينوس، وأبرخس، وطيمستانس، وغيرهم، في قبول أقاويل المخبرين من التجار وغيرهم من نهاية المعمور، وأن ذلك قد يدخله الكذب والزيادة والنقصان فيما أخبروا به من وصولهم إلى هذه المواضع النائية، والعمائر القاصية في البر والبحر، ثم اضطر بطليموس لما أراد علم ذلك والوقوف عليه إلى أن يستعمل ما أنكره على مَن ذكرنا من جهة الخبر، فبعث بثقات من رسله في الآفاق ليعرف الغابات من عمران الأرض المسكونة فعمل على أخبارهم مقايساً بها ما وجده بالدلائل النجومية، وهذا دخول منه فيما أنكره. وقد ذكر في كتابه المترجم بـــ (مسكون الأرض) بلداناً ومدائن كثيرة، ووصف أطوالها وعروضها، ورسم للناس صورة معمور الأرض على ما رسم فيها من مواضع الكور والبحار والأنهار في الطول والعرض. وقد قال أرسطاطاليس في المقالة الثانية من كتابه (في الآثار العلوية): لقد أعجبُ من الذي يصورون أقطار الأرض وأبعادها ؛ فإنهم يصورون الأرض المعمورة مستديرة والقياس والعيان يشهدان على أنها على خلاف ذلك، وأنه لايمكن أن يكون ذلك. أما القياس فيثبت أن عرض الأرض محدود وأن طولها ليس بمحدود. أعني أن طول الأرض كلّه يمكن أن يسكن لحال مزاجه، وذلك أن الحرّ والبرد لا يكونان مفرطين في طول الأرض لكن في عرضها، ولو لم يكن البحر يمنع لكان طول الأرض كله مسلوكاً. قال: والعيان يشهد أيضاً على أن طول الأرض يسلك في البر والبحر لأن الطول مخالف للعرض كثيراً.)

يكشف لنا نصّ المسعودي نوع الاهتمام المبذول من قبل الجغرافيين فيما يخص شكل الأرض، وهو اهتمام ينطوي على موقف يتصل بطبيعة النظرة إلى الآخر، وهي منبثقة من السياق الثقافي لعصرها، عصر التمركز حول الذات واقصاء الآخر. إن المسعودي المتنوع الاهتمامات لم يفلح في انتزاع نفسه وفكره من طغيان الثقافة السائدة التي تترك بصمات لا تمحى في تشكيل المنظورات وصوغ الأحكام. والمماثلة واضحة بين الموروث اليوناني الخاص بعلاقة الطبائع بالأقاليم ونص المسعودي الذي يورد تلك الآراء بوضوح، ومادمنا في هذه المرحلة من الكتاب نهدف إلى تقديم صورة العالم الكلية في أعين المسلمين، فينبغي علينا الحذر من الانخراط في التفاصيل التي سيكون مكانها في الأجزاء اللاحقة، وسيقدّم ابن رستة في النص الآتي نظرة شاملة تعزز ما أوردناه للمسعودي، فينصرف إلى جانب اهتمامه بموضوع كروية الأرض إلى الوقوف على أبعادها ومسالكها. ويصدر ابن رستة في نظرته إلى الكون من المعتقد الفلكي القديم الذي يرى أن الأرض هي مركز الكون.

2.كروية الأرض، وأبعادها. ابن رستة (عاش في القرن 4هـ = 10م) من كتاب (الأعلاق النفيسة)

(إن الله جلّ وعزّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة، مصمتة في جوف الفلك، قائمة في الهواء، يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها. فهي في وسطها كالمح في البيضة، وهو يدير على قطبين: قطب في الشمال وقطب في الجنوب. بين القطبين مائة وثمانون درجة، لأن الفلك ثلاثمائة وستون درجة مستديرة تعود آخرها على أولها، وهو يدور في كل يوم وليلة على القطبين دورة واحدة، يبدأ أوله من المشرق فيعود إليه في أربع وعشرين ساعة، يمر تحت الأرض ويسمى وسط السماء القبة، وهو موضع الاستواء من بينه وبين الجهات الأربع: المشرق والمغرب والشمال والجنوب. إلى كل جهة تسعون درجة. ويدور على كل قطب من قطبيه نصفه، فمَن كان تحت القطب دار عليه الفلك كحجر الرحا، ومَن كان تحت القبة جرى عليه كجناح الرحا. والقبة وسط الأرض، من قام فيه أبصر القطبين في الجانبين ليس بعدهما كوكب يراه ولا فلك، فإذا مال عن الوسط غاب عنه أحد القطبين وارتفع له الآخر بقدر انحرافه، حتى يرتفع القطب ويبدو الكوكب من أسفله. وحيث ما وقف واقف، فبينه وبين الفلك مقدار واحد، وأن رأس الحمل والميزان موضع الاستواء مجراهما في قبة الفلك بينه وبين رأس السرطان في الشمال أربع وعشرون درجة، وهو الذي يسمى الميل وبينه وبين رأس الجدي في الجنوب أربع وعشرون درجة يسمى الميل ثم إلى مدار بنات نعش ثلاثون درجة ثم إلى القطب ست وثلاثون درجة.

وإن الناس نزلوا في النصف الشمالي ما بين القبة وبنات نعش من ناحية الشمال وذلك مقسوم على سبعة أقاليم، وباقي ذلك غير مسكون ويترل النصف الجنوبي من شاء الله من الخلق، فمن نزل تحت القبة فالليل والنهار أبداً عليه مستويان؛ الليل اثنتا عشرة ساعة، والنهار اثنتا عشرة ساعة، ثم ما تنحّى بدرجة طال عليه نهار الصيف وليل الشتاء فلا يزال في زيادة حتى إذا يتنحى عن القبة ستاً وستين درجة ينتهي النهار في الطول ما يكون أربعاً وعشرين ساعة، ويذهب الليل في أول الصيف وفي أول الشتاء الليل إلى أربع وعشرين ساعة، ويذهب النهار وما زاد في النهار نقص من ساعات الليل وما زاد في الليل نقص من النهار حتى ينتهى إلى المكان الذي ذكرنا ثم يتغير العمل والحساب، وذلك الموضع لا يسكن ولا يدخل في القسمة. وإن الرجل حيث ما وقف من الأرض أمامه تسعون درجة وخلفه تسعون درجة، وعن يمينه مثلها وعن يساره مثلها، وهو مجال بصره وموضع نهاره وليله؛ لأن نصف الأرض أبداً نهار مضيء، ونصفها ليل مظلم يدورن عليها، وكذلك كل مدورة يدور عليها ضوء مضيء ونور من منير.

قال أحمد بن محمد بن كثيّر الفرغاني في كتابه المترجم بكتاب "علل الأفلاك" إنه لا اختلاف بين العلماء في أن السماء على مثال الكرة، وإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال والآخر في ناحية الجنوب. والدليل على ذلك أن الكواكب تبدو من المشرق فترتفع قليلاً قليلاً على ترتيب واحد في حركاتها ومقادير أجرامها وأبعاد بعضها من بعض إلى أن تتوسط السماء، ثم تنحدر هابطة نحو المغرب على ذلك الترتيب والنظام، وترى حركاتها في استدارات

متوازيات لا تختلف بسرعة ولا إبطاء، كأنها ثابتة ملتحمة في بسيط كرة تديرها جميعاً دوراً واحداً. وأوضح ما استدلوا به وأثبت في أفكارهم أن هيئة السماء كهيئة الكرة، ما يرى من دور الكواكب التي هي ظاهرة أبداً فوق الأرض في الأقاليم الشمالية مثل الجدي والفرقديْن وبنات نعش، وما قرب من هذه الكواكب فإنها تدور في دوائر مواز بعضها لبعض، كأنها جميعاً تدور حول نقطة واحدة، ما كان منها أقرب إلى تلك النقطة فإنه يدور في دائرة صغيرة، وتُرى حركته بطيئة. وما كان منها أكثر بعداً من تلك النقطة، فإنه يدور في دائرة أكبر من دائرة الكواكب الأقرب، وتُرى حركته أسرع من حركته على قدر عظم دائرته وبعده من تلك النقطة إلى أن ينتهي البعد من تلك النقطة إلى الكواكب التي تغيب تحت الأرض. فما كان من الكواكب التي تغيب أقرب إلى تلك النقطة كان مكثه فوق الأرض إلى أن تغيب كثيراً ومكثه في الغيبوبة تحت الأرض إلى أن يطلع قليلاً. وما كان منها أكثر بعداً كان أقل لزمان ظهوره وأكثر لزمان غيبوبته. غير أن دورها جميعاً ما يغيب منها وما لا يغيب في زمان واحد على موازاة لا يغادر بعضها بعضاً، كأن الذي يديرها كرة واحدة فباضطرار أن تكون تلك النقطة هي أحد قطبي الكرة.

فهذا أوضح ما استُدل به على أن السماء على مثال الكرة ودورها كدور الكرة. وبعد ذلك فلو كانت السماء مسطحة على ما يقول بعض الناس لما كان يجب أن يكون بعد نواحي السماء منا على قدر واحد، بل كان يجب أن يكون أقرب مواضع السماء منا ما كان محاذياً لرؤوسنا، وأما ما جاز ذلك إلى نواحي الآفاق فكثير البعد، وكان يجب أن نرى الشمس والقمر وسائر الكواكب عند طلوعها في المشرق صغاراً خفية لبعدها من أبصارنا ثم لا تزال تعظم بحسب قربها إلى وسط السماء؛ لأنها تقرب من أبصارنا ثم كذلك أيضاً تصغر في انحدارها إلى الغروب فتنقص قليلاً قليلاً إلى أن تخفى عن العين فتضمحل. ولسنا نرى شيئاً من ذلك؛ ولكنا نرى أقدارها عند طلوعها وعند توسطها السماء وعند غروبها على أمر واحد، بل نرى مقاديرها في المشرق والمغرب أعظم منها في وسط السماء، ونرى الشمس عند غروبها إذا صار أول جرمها مع الأفق تغيب قليلاً قليلاً كأن الأفق يقطعها حتى يغيب آخر جرمها وكذلك القمر. وليس الذي نرى من زيادة عظمها في المشرق والمغرب أنها هناك أقرب إلينا منها إذا كانت وسط السماء، ولكن البخار الذي يرتفع من الأرض دائماً أبداً يعرض بين أبصارنا وبين الآفاق فيريناها عظيمة، لا سيما إذا عرض في الهواء البخار الكثير الرطوبة الذي يكون في أيام الشتاء، ويعقب المطر فإن الشمس والقمر يُريان عند ذلك في وقت الطلوع والغروب عظيميْن جداً. ولو أن أحدا ألقى شيئاً في قعر ماء صاف لرآه أكبر من مقداره الذي له بالحقيقة، وكلما صفا الماء وكثر عمقه كان أعظم لما يرى في قعره، فهذا سبب عظم الكواكب عند الآفاق.

وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة؛ والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض قبل طلوعها على المواضع المغربية وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية. ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو، فإنه يرى وقت الحادث

الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل كسوف القمر، فإنه إذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً، أقول وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقي على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربي. وكذلك لو نظر في وقت انقضاض كوكب عظيم يعرف وقته في بلدين متباعدين على مثل ما وصفنا، وجد ساعات البلد الشرقي أكثر من ساعات البلد الغربي، ويوجد هذا الاختلاف في الأوقات في جميع ما يسكن من الأرض فيما بين المشرق والمغرب يكون على حسب مسافة ما بين المواضع لا يغادر شيئاً، وكذلك ايضاً يوجد فيما بين المواضع المتباعدة إلى الشمال والجنوب، فإنه إن سار أحد في الأرض من ناحية الجنوب إلى الشمال رأي أنه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التي كان لها غروب، فيكون أبدي الظهور وبحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد، فيدل جميع ما وصفنا على أن بسيط الأرض مستدير، وأن الأرض على مثال الكرة، وبعد فلو كانت الأرض مسطحة لم يعرض شئ مما وصفنا، وكان طلوع الكواكب على جميع نواحي الأرض في وقت واحد، و لم يكن من يسير في الأرض فيما بين الشمال والجنوب يخفى عنه شيء من الكواكب الأبدية الظهور، ولا يظهر له شيء من الكواكب الأبدية الخفاء.

إن الدليل على أن الأرض في وسط السماء؛ هو ما تقدم ذكره من أمر الكواكب وأن جرم كل واحد يُرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد، فيدل ذلك على أن بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، فباضطرار أن الأرض تكون في وسط السماء، وأن من أوضح ما استدل به على ذلك أن الأرض لو لم تكن في وسط السماء، وكانت إلى موضع من السماء أقرب منها إلى موضع آخر، لوجب أن يكون من يسكن بحيال ذلك الموضع القريب من السماء لا يرى من السماء إلا أقل من نصفها أبداً، وكذلك من يسكن بحيال الموضع البعيد من السماء يظهر له من السماء أكثر من نصفها أبدا، وهذا خلاف ما ترى فيها لأن جميع الناس في جميع نواحي الأرض يظهر لهم من السماء أبداً ستة بروج ويغيب عنهم ستة بروج. وهذا هو الدليل على أن الأرض في صغرها عند السماء مثل النقطة؛ لأنه لو كان لها مقدار عظيم عند السماء لكان جميع من على الأرض لا يرون من السماء إلا أقل من نصفها أبداً، وأيضاً فإن الأرض لما كانت في وسط السماء كان السطح الذي يقسم السماء بنصفين هو يمر بمركز الأرض الذي هو مركز السماء، ولما كان الذي يظهر من السماء لجميع من على ظهر الأرض هو نصفها لا يغادر ذلك بشئ محسوس دل ذلك على أن السطح الذي يمر فيه البصر على ظهر الأرض إلى نواحي الأرض ليس بينه وبين السطح الذي يمر بمركز الأرض اختلاف يحس، فلذلك لا يكون مقدار ما بين مركز الأرض وبين ظهرها محسوساً عند قدر السماء فباضطرار أن يكون كرة الأرض كالنقطة عند كرة السماء.

فإذا قدمنا وصف هيئة السماء والأرض فلنتبع ذلك بوصف ما يرى من أوائل حركات السماء فنقول: إن أول الحركات اللواتي ترى في السماء اثنتان، فالأولى منهما هي التي تحرك الكل، وبها يكون الليل والنهار

لأنها تدير الشمس والقمر وجميع الكواكب من المشرق إلى المغرب، في كل يوم وليلة دورةً واحدةً بحال واحدة وأدوار متساوية السرعة، على قطبين ثابتين يسميان قطبي الحركة الأولى، أحدهما مما يلي الشمال.. والآخر مقابلة مما يلي الجنوب، ويجب أن تكون الكواكب بإدارة هذه الحركة لها تجري في دوائر متوازية، فتسمى الدائرة العظمى منها دائرة معدل النهار وهي منطقة الحركة الأولى لأنها تقسم كرة السماء بنصفين وبعدها من القطبين من كل الجهات بقدر واحد. وإنما سميت دائرة معدل النهار لأن الشمس إذا جازت عليها استوى الليل والنهار في جميع الأرض. والحركة الثانية هي التي ترى للشمس والكواكب من المغرب إلى المشرق في خلاف جهة الحركة الأولى، وعلى قطبين آخرين خارجين عن قطبي الحركة الأولى وتسمى الدائرة العظمى التي بعدها من هذين القطبين الخارجين بقدر واحد وهي منطقة الحركة الثانية دائرة وسط فلك البروج وهي التي ترسمها الشمس بسيرها الخاص لها من المغرب إلى المشرق، وهي تنقسم باثني عشر قسماً متساوية، وأسماؤها: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وكل برج ينقسم بثلاثين درجة فيكون جميع الدائرة ثلاثمائة وستين درجة، وكل درجة ستين دقيقة, فباضطرار أن تقطع دائرة فلك البروج دائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين وتميل عنها في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد، فالنقطة التي تجوز عليها الشمس من ناحية الجنوب إلى الشمال عن معدل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي، وهو أول برج الحمل، والأخرى التي تجوز عليها من الشمال إلى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال الخريفي، وهو أول الميزان فتصير ستة أبراج شمالية عن معدل النهار, وهي من أول الحمل إلى آخر السنبلة وستة أبراج جنوبية وهي من أول الميزان إلى آخر الحوت.

ويتشكل في الفلك دائرة ثالثة معترضة من الشمال إلى الجنوب تمر على أقطاب هاتين الدائرتين، تسمى الدائرة المخطوطة على أقطاب الفلكين تقطع كل واحد من فلك معدل النهار وفلك البروج بنصفين، فواجب أن يكون قطعها لفلك البروج على النقطتين اللتين هما في غاية البعد والميل عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب، فتسمى النقطة الشمالية نقطة المنقلب الصيفي، وهي أول برج السرطان، والجنوبية نقطة المنقلب الشتوي وهي أول الجدي والقوس التي من هذه الدائرة المخطوطة على الأقطاب فيما بين كل واحدة من نقطتي المنقلبين وبين معدل النهار هي مقدار أكثر ما يميل فلك البروج عن معدل النهار وهي على ما وجده بطلميوس: ثلاثة وعشرون جزءاً وإحدى وخمسون دقيقة إذا كانت الدائرة ثلاثمائة وستين جزءاً، فأما بالقياس الممتحن الذي قاسه المأمون واجتمع عليه عدة من العلماء فهي ثلاثة وعشرون جزءاً وثلاث وثلاثون دقيقة. يقال والله أعلم ان الأرض كرة، وأن المحيط بها أربعة وعشرون ألف ميل، أعني الدائرة العظمى التي على كرتها وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً بالتقريب. ويقال ان مدن الأرض إحدى وعشرون ألفاً وستمائة مدينة بعدد دقائق الفلك... ويقال إن وسط الأرض، وهو الموضع الذي يسمى القبة مدينة تسمى "أذيْن"وهو الموضع الذي لا تزيد ساعات نهاره على ساعات ليله ولا ليله على نهاره في شئ من الأزمنة،

فيكون نهاره أبداً اثنتي عشرة ساعة، وليله كذلك، فإذا انحدرت عن هذا الموضع، وهو الذي يسمى القبة فأخذت ناحية الشمال والجنوب، تغيرت ساعات الليل والنهار، وزيد فيها على حسب البعد عن القبة...)

يلاحظ نوع الفروض التي يطرحها ابن رستة، وهي مستنبطة من ثقافة ذلك العصر. ومع أنه يقدم حججاً على كروية الأرض، لكنه يستطرد في تفاصيل تخضع بعمومها للأفكار الشائعة آنذاك، بما في ذلك القول بأن الأرض تقع في مركز السماء، ومثل هذه المناقشات التي هي مزيج من الفروض المنطقية والعلمية والحدسية كانت مسيطرة على الوعي العام، وما دمنا نريد متابعة بدايات نظرة المسلمين الى الكون والأرض وكيفية تشكلها، فمن المفيد المضي في اضاءة هذا الجانب، ولعلّ البيروني من أبرز المسعفين لنا في هذا الموضوع، إذ تعتبر مساهمته أساسية، كونها تستند الى أرضية فلسفية مشبعة بالثقافات اليونانية والعربية والفارسية والهندية، وكما يلاحظ في هذا النص الذي يشكّل مدخلا لكتاب (القانون المسعودي) فان البيروني يقدّم مناقشة معمّقة لآراء بطليموس حول كروية الأرض. ومن الواضح إنها مناقشة تستفيد من الأفكار النظرية – المنطقية، لكنها مدعمة أيضا بالفكرة التجريبية التي تستند إلى معطيات واقعية معروفة. ويصلح أن يكون البيروني أنموذجا ممتازا للمفّكر الإسلامي الشامل، الذي تشكّلت لديه صورة معمّقة عن عالم القرون الوسطى بثقافاته ومجتمعاته. ويبرهن النص على سعة الاهتمام المبذول آنذاك في موضوع كروية الأرض، وعلاقتها بالأجرام الأخرى، وهي بداية (كوسمولوجية) ضرورية لكل من الفلسفة والفلك والجغرافيا.

3. الأخبار عن الموجودات في العالم،البيروني (440هـ = 1048م) من كتاب (القانون المسعودي)

(العالم بكليته جرم مستدير الشكل متناه في حواشيه، بعضه ساكن في جوفه. وإذا نقل جزء من نوع ساكن إلى نوع مكان آخر منه، تحرك على استقامة نحو حيّزه حركة عرضية، وما حول هذه الساكنات في أطرافه فهو متحرك حركات مستديرة مكانية حول الوسط الذي هو حقيقة السفل ومركز الأرض– وجملة هذا الجرم الموجود يسمى عالماً بالإطلاق، وربما فصّل فسمي المتحرك منه على استدارة عالماً أعلى، والمتحرك على استقامة عالماً أسفل، وربما جعلت العوالم ثلاثة بالوضع – وبسبب اتصال هذه الألقاب في بعض الأحوال بالمذاهب والاعتقادات، نريد أن نقتصر من جملة المتحرك باستدارة على اسم الأثير، فهو مشتهر بين الأوائل وقل ما نحتاج ها هنا إلى ذكر المتحرك باستقامة، فإن اضطررنا إليه ذكرنا جملته بالعناصر الأربعة أعني الأرض والماء والهواء والنار. والذي احتجنا إليه من أحد هذه الأنواع المنضودة بعضها فوق بعض حول وسط العالم إلى تقعير الأثير، الذي هو نهايته الأدنى إلينا يتحرك ثقيلها إلى المركز وخفيفها عن المركز. والناس في الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى السفل، يرون السماء فوقهم كقبة لازوردية لا يحسون منها أينما كانوا إلا ما يقارب نصف الكرة بالقدر، وهم مختلفو الحالات في وجود النهار والليل ومقدار ولوج أحدهما في الآخر بالتكافؤ في المدارات المتساوية الميل المختلفة الجهة، وفي أبعاد مرور الشمس والقمر والكواكب عن سمت رؤوسهم مقدار وجهة، حتى تختلف لها ارتفاعات أنصاف النهار وأظلاله

وارتفاع القطب وانحطاطه واتساع ما بين المشارق الصيفية والشتوية ومغاربها وتضايقها وذلك بحسب الإمعان في جهتي الشمال والجنوب المسمى عرضاً، ومنه ومن المسير نحو المشرق والمغرب المسمى طولاً يختلف الطلوع والغروب بالزمان على حسب ما يوجبه الانفراد والازدواج في الطول والعرض.

ثم إن الأثير منقسم لكواكبه السبعة إلى أكر سبع طباق متماسة يحيط عاليها بسافلها فيختص كل كوكب بواحدة منها، فيما إليه من حركاته في الطول إلى التوالي وإلى خلاف التوالي، وفي العرض إلى الشمال والجنوب وفي السمك بالصعود والهبوط، ثم تعلوها كرة ثامنة فيها جميع الكواكب الثابتة مركوزة وحركتها وحركة الأكر التي تحتها نحو المشرق موجودة، وبها تحصل أزمنة أدوارها وتسمى حركة شرقية وثانية، لأن الغربية التي بها يحس النهار والليل المطلقان بالشمس، والمضافان إلى غيرها من الأجرام، والنقط تسمى أولى ولا تأثير لهذه الأولى في الأثير، إلا بالإضافة إلى الأرض وسكانها، كما لا تأثير لحركة الماء في المحمول عليه بالسواء إلا بالقياس إلى شئ غير متحرك معه كحركته أو إلى المحاذاة في الشطوط. وأولى الأكر من جهة السفل هي التي للقمر، والقمر شخص كريٌّ الشكل، مستحصف الجِرم، يُرى النور الواقع عليه من الشمس كما يُرى على الجدار وأبعاضه المقابلة للمنير، ويستر كل ما مر عليه من شمس أو كوكب عن أبصارنا ستر كثيف، لا كما تُخفي الشمس الكواكب بغلبة الضياء المكتنف للأبصار وقوته الباهرة بالنهار وفي طرفي الليل، وكرة عطارد فوق كرة القمر، ثم كرة الزهرة فوقها، ولكل واحد من عطارد والزهرة عن الشمس بُعد معلوم لايتعداه ولكنه يرجع من عنده أو يستقيم، فيعود إليها ثم الشمس فوقهما شمسة للكواكب واسطة في الترتيب موضوعة منها موضع الملك من الممالك؛ لأن أحوال جميع ما سواها وحركاتها منوطة بالشمس مقدّرة بحركاتها. ولسفول الثلاثة عن موضعها سمّيت سفلية، والتثنية فيه واقعة على الزهرة وعطارد دون القمر، ثم الثلاثة الكواكب العلوية أكرها فوق كرة الشمس، أقربها المريخ، وأبعدها زحل، وفيما بينهما المشتري. وهي وإن شاركت السفليين في التحير بالرجوع فإنها باينتهما في استيفاء جميع الأبعاد الكريّة عن الشمس وشاركت القمر في ذلك، وكل منها متحرك لشأن وجادّ لمستقر دائب على ما طبع عليه، فلم يخلق عبثاً بل بحكمة ظاهرة وقدرة باهرة للعالم ناظمة وللخلق على المصالح حاملة..)

كشفت لنا النصوص الثلاثة الفائتة نوع الاهتمام الشامل بموضوع الأرض وشكلها ومسالكها، والكون وأجرامه وأبعاده، وهي في رأينا كافية لتكون مدخلاً مناسباً للانتقال الى صلب الغاية التي نتوخاها من هذا الكتاب بجزئه الأول: بيان الطبيعة الأثنوغرافية للشعوب والمجتمعات خلال القرون الوسطى خارج دار الإسلام، مشفوعة بنظرة الرحالة والجغرافيين المسلمين لها. وبداية من نص البتّاني سيدور الحديث عن العالم المعمور، ويقصد به ذلك الجزء من الأرض المسكون بالبشر، وهو الجانب الشمالي منها، إذ أن بقية أجزاء العالم مازالت مجهولة في ذلك الوقت. إنّ هذا النص المبكّر دشّن لضرب شامل من الاهتمام ظهر فيما بعد، وبلغ ذروته لدى المسعودي، والبكري، والإدريسي، والحسن الوزان، وابن خلدون، وابن سعيد المغربي،

وغيرهم. وستكون لأفكارهم أهمية كبيرة فيما يأتي من أجزاء الكتاب، كونها تؤشّر الجانب الخصب من انشغالهم بالقضايا المثارة في عصورهم.

ويقدّم البتّاني تفصيلات دقيقة عن العالم المعروف، بما فيه اليابسة والأنهار والخلجان والبحار، ومما يلفت الانتباه إنه يحدد القارات الثلاث (= أوربا، آسيا، إفريقيا) بدقة ملحوظة، وهي التي تشكّل العالم القديم قبل الكشوفات الجغرافية، ويرسم حدودها البحرية والنهرية استنادا إلى معلومات في معظمها صحيحة. الأمر الذي يبرهن على ان الحدود الجغرافية للقارات عند المسلمين خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كانت معروفة، وهي عبارة عن تخوم طبيعية تفصل بين القارات، ومازالت هذه التخوم هي الحدود الفاصلة بين القارات التي ذكرها البتّاني. ولعلّ المثير الذي أورده البتّاني هو الإشارة إلى وجود مناطق أخرى في الأرض غير مكتشفة، وغير مطروقة، لكنها طبقا للتفسير الذي يقدمه مسكونة، وهي مناطق شاسعة. ستمر عدة قرون قبل أن تُكتشف. يضعنا النص الآتي في قلب الجغرافية الطبيعية والبشرية التي ستزداد ثراء شيئا فشيئا مع الزمن عند الجغرافيين اللاحقين كما سنرى، فالاهتمام بالبشر يأتي في مقدمة اهتمامات الجغرافيين المسلمين.

4. الأرض المعمورة، البتّاني (317هـ = 929م) من كتاب (الزيج الصائبي).

(قال البتّاني: وأما موضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة في الطول والعرض، فقد أوضحنا بالقياس الذي ذكره بطليموس ووافقه عليه غيره من القدماء أن الأرض مستديرة، وأن مركزها في وسط الفلك، والهواء محيط بها من كل الجهات، وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قِلّة. وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرة التي تسمى الخالدات (= الكناري) التي في بحر أوقيانس الغربي (= المحيط الأطلسي)، وهي ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين. فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة، فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى عمران الصين كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة إنها في بحر أوقيانس الغربي، وإذا غابت في هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين. وذلك نصف دائرة الأرض، وهو طول العمران الذي وقف عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ميل من الأميال التي عملوا عليها مساحة الأرض. ثم نظروا في العرض فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهي إلى جزيرة ثولي (=ثوليه) في برطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة.

وذكروا أن خط الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهند والحبش في جزيرة هناك من ناحية الجنوب من معدل النهار، فتعترض هنالك وتحد مابين الشمال والجنوب. والخط الذي يقطع هذا الخط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب في النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة، أنها في بحر أوقيانس وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما وصفنا وموضعها موضع التقاطع. والعرض من خط الاستواء إلى جزيرة ثولي يكون قريباً من ستين جزءاً، وذلك سدس دائرة الأرض. فإذا ضُرب هذا السدس الذي هو مقدار العرض في النصف الذي هو مقدار الطول، كان ما يظن من العمران من ناحية الشمال مقدار



نصف سدس الأرض وهو جزء من اثني عشر جزءاً. وقدروا بحر الهند (= المحيط الهندي) وقالوا إن طوله يُعدُّ من المغرب إلى المشرق، من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار إلى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل. وله خليج بأرض الحبش يمد إلى ناحية البربر (= مناطق القرن الشرقي لإفريقيا) يسمى الخليج البربري (= الصومالي) وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل. وخليج آخر يخرج نحو أرض أيلة (= خليج العقبة، إيلات) وهو بحر القلزم (= البحر الأحمر) طوله ألف وأربعمائة ميل، وعرض طريقه الذي يسمى البحر الأخضر مائتا ميل وعرضه في الأصل سبعمائة ميل. وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسي (= الخليج العربي) وهو بحر البصرة طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه في الأصل خمسمائة ميل، وعرض طريقه مائة وخمسون ميلاً. ويكون بين هذين الخليجين أعني خليج أيلة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون مابين هذه الخليجين ألفاً وخمسمائة ميل. ويخرج منه خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمائة ميل.

وفي هذا البحر كله، أعني بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وسبعون جزيرة منها جزيرة في اقصاه عند بلد الصين تسمى طبران، وهي سرنديب، يحيط بها ثلاثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق، وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة، منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء، وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة فيها مدن وقرى كثيرة. فأما بحر أوقيانس الغربي الذي يدعى المحيط فإنه لا يعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية، وهو بحر لا تجري فيه السفن والست الجزائر التي فيه مقابل أرض الحبش هي الجزائر العامرة، وتسمى أيضاً جزائر السعداء (= الكناري، الخالدات). وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غديرة عند الخليج، وهذا الخليج يخرج منه. وعرض موضعه الذي يخرج منه سبعة أميال، هو بين الأندلس وطنجة يسمى سبطا (= سبتة) يخرج إلى بحر الروم وفيه أيضاً من ناحية الشمال جزائر برطانية، وهي اثنتا عشرة جزيرة، ثم يبعد عن العمران فلا يعرف أحد كيف هو ولا مافيه.

وأما بحر الروم ومصر (= المتوسط) فإنه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر أوقيانس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق، وطوله خمسة ألاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل، وفي مكان سبعمائة ميل، وفي مكان ثمانمائة ميل. وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريباً من رومية (= روما) طوله خمسمائة ميل يسمى بحر إذريس (= الأدرياتيكي)، وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونة طوله مائة ميل. وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس (= كورسيكا) يحيط بها مائتا ميل، وسردانية يحيط بها ثلاثمائة ميل، وقبرس يحيط بها ثلاثمائة وخمسون ميلاً، وصقلية يحيط بها خمسمائة ميل، واقريطش (= كريت) يحيط بها ثلاثمائة ميل. وبحر بنطس (= الأسود) يمتد من لاذقة (= بلاد اللاز) إلى القسطنطينية العظمى طوله ألف وستون ميلاً وعرضه ثلاثمائة ميل. يدخل فيه النهر الذي يسمى طنايس (= الدون) ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايطس (= بحر آزوف) وهو بحر ضخم وإن كان يسمى بحيرة، طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل، وعرضه مائة ميل.

وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجري كأنه نهر ويصب في بحر مصر (= المتوسط) وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه. وبحر جرجان (= بحر قزوين) وهو بحر الباب (= ممر دربند) طوله من المغرب إلى المشرق ثمانمائة ميل وعرضة ستمائة ميل. وفيه جزيرتان قبال جرجان كانتا فيما مضى عامرتين. وهذه المواضع العامرة من موضوع بحر الأرض المعروف (= البحار المعروفة) والله بذلك أعلم.

وقد قسمت الأرض بثلاثة أقسام: الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذي يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر، ومابين بحيرة مايطس إلى بنطس فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربي، وهو أوقيانس. ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم. ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس. وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أوروف (= أوربا). والقسم الثاني من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش، وحدود هذه الناحية من المغرب البحر الأخضر ومن الشمال بحر مصر والروم، ومن المشرق العريش، ومن الجنوب بحر الحبش. ويسمى هذا القسم لوبيا (= ليبيا، وهو الاسم القديم لإفريقيا). والقسم الثالث جمع ما بقي من عمران الأرض إلى أقصى ذلك، وحدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة، ومن الجنوب بحر اليمن والهند، ومن أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها، ويسمى هذا القسم أشيا (= آسيا) الكبرى. فهذه الثلاثة أقسام قد جمعت الأقاليم والكور وسائر البلدان العامرة. وأما ما لايعرف عمرانه ولا خرابه؛ فهو أحد عشر جزءاً من اثني عشر جزءاً. وأما الجزء الذي فيه العمران المعروف من موضع خط الاستواء ففيه البحور والمفاوز.

فإن قال قائل هل في هذه الأحد عشر جزءاً نبات وحيوان وعمران؟. كان القول فيه من جهة القياس والرأي، وأما ما كان من عمران الأرض قبلنا فإنه لا يجوز الحد والإفراق التي ذكرنا. وأما الذي وراء ذلك فإنه لم يُجره أحد إلينا، ولكن الرأي والظن يقع على ما لا ينكره أحد من ذوي المعرفة على جهة القياس، أن الشمس والقمر والكواكب تجري عندنا فيكون بحركتها وقربها وبعدها صيف وشتاء ونبات وحيوان وعمران. وما يعرفه كل أحد فإن الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب، مثل ما عندنا فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا، وينبغي أن يكون كذلك. وتكون حصة الدرجة الواحدة من هذه الأميال المذكورة قريباً من خمسة وستين ميلاً وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم.)

إلى جوار الاهتمامات الكبيرة التي أبداها الجغرافيون المسلمون لمناقشة كروية الأرض والأجزاء التي يستوطنها الإنسان، وحدود اليابسة، فقد ربطوا بين المؤثرات البيئية والطبائع الإنسانية، وكما سيظهر لنا في النصوص الآتية فإن التلازم بين هذين الجانبين يكاد يكون مهيمنا في معظم المرويَّات الجغرافية. ولهذا الربط أهمية استثنائية في شيوع نظرية الطبائع التي كانت ركنا أساسيا في التمايزات العرقية طوال القرون الوسطى. وتبدو الأحكام القاسية التي يصدرها الدمشقي، في النص الآتي بحق الأقوام الزنجية والشمالية من نتاج ذلك التصور الذي ينطلق من تسليم مطلق بالطبائع الثابتة. وفي نص يستعين بأسلوب التأليف القديم الذي يقوم على جمع الأراء وترتيبها، تظهر بوضوح سلسلة من المصادرات بحق الآخر إذ تتركز القيم العليا والأوصاف في

أقاليم معينة، وتسلب من أخرى. فــ (أخلاق البشر) تتمايز على نحو جذري بفعل المؤثرات البيئية، كما يقرر ذلك الدمشقي.

5. أخلاق البشر، الدمشقي (727هـــ = 1327م) من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر).

(قيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه قال لكعب الأحبار: صِف لي ما تعلم من أخلاق أهل البلاد المحمودة والمذمومة غالباً. فقال: يا أمير المؤمنين أربعة لا تُعرف في أربعة، السخاء في الروم، والوفاء في الترك، والشجاعة في القبط، والغم في السودان. وطلب النجدة الشام، فقالت الفتنة: وأنا معك. وطلب الإيمان اليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وطلب الغنى والخصب مصر، فقال الذل: وأنا معكما. وطلب الشقاء والفقر البادية، فقالت الصحة: وأنا معكما. وطلب النفاق والكبر العراق، فقالت النعمة: وأنا معكما. قال يا أمير المؤمنين وقُسِّمت القساوة عشرة أجزاء: تسعة منها في الترك وواحد في الناس. وقُسِّم الحذق عشرة أجزاء تسعة منها في العرب وواحد في الناس. وقُسِّم البخل عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في الناس. وقُسِّم الحقد عشرة أجزاء تسعة في العرب وواحد في الناس. وقُسِّم الكبر عشرة أجزاء تسعة في الروم وواحد في الناس. وقُسِّم الطرب عشرة أجزاء تسعة في السودان وواحد في الناس. وقُسِّم الشبق عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في الناس.

وقيل حُكي عن الحجّاج أنه قال: أهل اليمن أهل سمع وطاعة، ولزوم جماعة، عرب استنبطوا. وأهل البحرين نبط استعربوا. وأهل اليمامة أهل جفاء وخلاف آراء. وأهل فارس أهل بأس شديد وعزٍّ عتيد. وأهل العراق أبحث على صغيرة وأضيع لكبيرة. وأهل الجزيرة أشجع الناس. وأهل الشام أطوعهم لمخلوق. وأهل مصر عبيد لمن غلب، وأكيس الناس صغاراً وأجهلهم كبارا. وأهل الحجاز أحبهم للمعارف وأسرعهم إلى فتنة، والله أعلم. وسئل الجاحظ عن البقاع التي رآها وطباع أهلها وأخلاقهم العامة، فقال: الهند بحرها درٌّ وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. ولأهل الهند الفكر والوهم والحدس والظن والتخيّل والحيلة والشعبذة. وكرمان ماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وأهلها غُفّل هُمّل. وخراسان ماؤها جامد، وعدوها جائد, وأهلها ما بين عالم وقائد, وذي كبر ومعاند. وعُمان حرها شديد، وصيدها عتيد، وأهلها ما بين قائم وحصيد، لا ينفكون عن قتيل أو شريد. والبحرين كناسة بين المصرين، وأهلها زجاجة بين حجرين. والبصرة ماؤها سبخ، وحرسها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر، وأهلها أهل شقاق ونفاق ومكر وسوء أخلاق. والكوفة ارتفعت عن حر البحرين، وسفلت عن برد الشام، وأهلها أهل وفاء وخفاء مع جفاء. وواسط جنة بين حماة وكنّة، وأهلها قرّاء قابضون على الأعنّة طاعنون بالألسن والأسنّة. والشام عروس بين نساء جلوس، وأهلها ذوو عيشة راضية وقلوب صافية مع طباع جافية، ولا يخفى منهم خافية. ومصر هواؤها راكد، وحرها متزايد، تطول بها الأعمار، وتسود بها الأبشار، وأهلها جهلة عزلة أذكياء ولاعقل وفطن أغبياء.



وحكى أصحاب التواريخ أن عَمْراً بن عامر لّما تحقّق كون سيل العرم، قال لقومه: مَنْ كان ذا شياه وعبيد وجمل شديد فليلحق بشعب بوان. فلحقت به همذان. ومَنْ كان ذا سياسة وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مرّ، فلحقت به خزاعة. ومَنْ كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل، فلحقت به الأوس. ومَنْ كان يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراق، فلحقت به لخم. ومَنْ كان يريد البز والحرير والأمر والتأمير والخمر والنمير، فليلحق بالشام، فلحقت به غسان. ومثله تميّز العرب: بالفصاحة، والاستعارة في الألفاظ، والإيجاز، والاتساع، والتصريف، والسحر باللسان، والخطابة، والنجدة، والوفاء، والذمام، والجود، والقرى. وهذه الفضائل ليست لكل واحد من أفراد العرب بل الشائعة الغالبة على عموم أخلاقهم. كما للروم: الاستنباط، والغوص، والكشف، والاستقصاء. وللهنود ماتقدم ذكره. وللفرس: الرويّة، والأدب، والسياسة، والرسوم الملوكية، والترتيب، والمعبودية، والربوبية. واعتبار الشرف والفضل معتبر على ما خص به قوم دون قوم في أول الخلق ومبدأ الفطرة، ومما يكتسبه قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار الجيد والردي، والرأي الصائب وضده. ولكل أمة فضائل، ورذائل، ومحاسن، ومساوئ، وكمال، ونقص، إذ الخيرات والشرور والفضائل والنقائص مفاضة على جميع الخلائق. ولا تخلو كل فرقة وطائفة ممن وصفوا بالحلم والعقل وأوصاف الكمال من جاهل خال من الأدب، داخل في الرعاع والهمج ولا الموصوفون بالشجاعة من جبان جاهل طيّاش بخيل غني. فالحكم للأغلب في كل أمة وكل طائفة والله أعلم.

وسنورد ما قيل في سكان الأقاليم السبعة من الخَلق والخُلق والسبب الموجب له: فالأول: من خط الاستواء وإلى ما وراءه وما خلفه، وفيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود سوادهم من قبل الشمس، فإنه لما كان حرّها شديداً، وطلوعها عليهم ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ولا تزال قريبة منهم أسخنتهم إسخانا محرقا، وصارت شعورهم التي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة أشبه شئ بشعر أدني من النار حتى يشيط، وأدلّ دليل على أنه متشيط؛ لأنه لا ينمو ولا يطول. جلودهم زعرة ناعمة؛ لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك. فلذلك كانت عقولهم خسيفة، وأفكارهم قصيرة، وأذهانهم جامدة. ولا يوجد منهم الشئ وضده كالأمانة والخيانة والوفاء والغدر. ولم يوجد فيهم النواميس. ولم يُبعث فيهم رسول؛ لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدين. والشرعية إنما هي أمر ونهي، ورغبة ورهبة. فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلم، أُخرج ذلك الأمر منها من القوة إلى الفعل، كما توجد الشجاعة في الأسد، والحيل في الذئب، والخبث في الثعلب، والجزع في الأرنب، والملق في الكلب، والخيل في الفرس، وليس يوجد في هذه الحيوانات أضداد هذه الأفعال. وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هو لإقامة الأحكام فيهم والسياسات كما ترى ذلك في الوحوش.

قال جالينوس: إن في الأسود عشر خصال لا توجد في غيره من البيض: تفلفل الشعر، ودقة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسوء الخُلق، وتشقق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرب. والخصي متى خصى صلب عظمه، وعظمت رجلاه، وقصرت بشرته، وطالت فخذاه، واعوجت أصابع كفيه، وأمن من السلع. وفي أي سنٍّ كان من أسنان عمره خُصي انحفظ عليه حال ذلك السن من الأفعال السياسية والحيوانية والطبيعية مع رقة صوته، وتأنيث شمائله، وشدة اغتلامه. وسواء في ذلك الأسود والأبيض. ولكن الأبيض يسوء خلقه أكثر، ويظهر عليه التأنيث بسرعة. ولما كان الإنسان شبيهاً بنخل مقلوبة جذوعه، وطلعه وحمله في الأسفل إلى جهة الأرض، وذلك أنثياه وذكره الذي هو شبيه برأسه وعنقه وفمه ومنافذ رأسه، كان أصله وعروقه التي يتغذى منها ويمتص بها الهواء والماء في السماء إلى جهة العلو وهو رأسه ويداه ومنافذ رأسه من الفم والأنف والأذنين والعينين، وذلك شبيه النخلة الراسخة في الأرض، وبه تمتص غذاءها، وبها تعيش، ومتى قطع هذا منها عدمت الحياة، وتعطل حملها، وأكلها. وكأن الإنسان كذلك إن قطع رأسه الذي في الهواء مات، وإن قطع ذكره الشبيه برأسه عدم النسل، وكثير من الأخلاق الإنسانية، والله أعلم.

الثاني: دون الأول في إفراط الحر ببلاد السند والهند ومن شاكلهم من الآدم دون السودان، وإنما سموا آدما لأن حر الشمس لم تبلغ بهم أن تشيط رؤوسهم وشعورهم ولا تسودّ جلودهم، بل تغيرهم تغييراً أقل من السواد، وهذا اللون سمي الدكونة. وهم أصحاب نشاط، ولا يكاد يوجد فيهم حب اللهو والشراب واتباع الملاذ؛ وذلك لحر قلوبهم ويبسها. وليسوا بأهل نواميس؛ لغلبة الإفراط. وكذلك الزنج أقل احتراقاً من النوبة؛ وسبب ذلك أن الزنج واغلون في شرق يضربهم هواء البحر الهندي والجامد، والنوبة واغلون في غرب لاتزال يهب عليهم الريح السوداء والسموم واليحموم؛ فاحترقت أبدانهم واسودت وتفلفلت شعورهم. وكذلك الحبشة متوسطون على جبال، ومجاورون المياه الحلوة؛ فكانوا خضرا وسمرا وسودا كذلك.

الثالث: دون الثاني في إفراط الحر، وهم أهل الحجاز وتهامة واليمامة والنجد ومن شاكلهم وسامتهم فيما بين المشرق والمغرب، ويسمون السمر؛ وإنما كانوا سمراً لأنهم كانوا في أطراف الحر، طباعهم ممزوجة، وإذا رتبوا على ملة ونحلة صارت في طباعهم وغريزتهم كالخُلق. وفيهم: الأنفة، والحمية، وفيهم الوفاء والعفة. ومن عفَّ لم تستعبده المطامع، ومن لم تستعبده المطامع لم يحرص، ومن لم يحرص لم يذل، ولم يُستعبد؛ وذلك يرى كل واحد أنه كفؤ للآخر، ولا يجدون التعمق في العلوم العقلية ولا المعقولات دون المحسوسات والله أعلم.

والرابع: هو الوسط، وهو القريب إلى اعتدال المزاج واستواء البشارات والأخلاق الكاملة الجامعة للفضائل وأضدادها، وأهله بيض بحمرة، ولهم غالب الصناعات العلمية والعملية، وفيهم أساطين الحكمة، ومظهر كل فن من فنون العلوم العقلية والفعلية. ويكاد كل واحد من أهل هذا الإقليم أن يكون واحداً في غيره يشار إليه بالفضل والفضيلة مع السياسة والتدبير والشجاعة، ووضع كل شئ في موضعه. وكان ثمار هذا الإقليم أعدل الثمار، وأشجاره أنضر الأشجار؛ وسيما ما كان منه بالوسط واعتبر بحد الشام ومصر وجنوب الأندلس وبخارى وسمرقند وما وراءها كذلك والله أعلم.

والخامس: في إفراط البرد ما أخرجه عن مزاج الرابع، وفيه: الروم، والأرمن، والروس، واللان، وفيه شمال الأندلس، وشمال خراسان، وما سامتهم من الشرق. ويسمون البيض بشقرة وهؤلاء لإفراط البرد وبُعد الشمس؛ ساءت أخلاقهم وقست قلوبهم وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غالبة عليهم، والشهوة، والغضب، وحدة النفس. والله أعلم.

والسادس: أشد إفراطاً في البرد، واليبس، والبعد عن الشمس مع غلبة الرطوبة أيضاً، وفي هذا الإقليم: الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد، ومن سامتهم وهؤلاء يسمون الشقر. ونسبة هذه الأمة إلى الصقالبة كنسبة السند إلى السودان. وألوانهم بالطبع بيض، وهم كالوحوش؛ لايعتنون بغير الحروب، والقتال، والصيد. ولايعرفون عرفانا، ولا يفرقون فرقانا والله أعلم. والسابع: فيه الصقالبة. وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة كما قلنا في سودان أهل الإقليم الأول، ولا يكادون يفقهون قولاً إلا أنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلا.)

6. الهياكل المقدسة عند الأمم، ابن فضل الله العمري (749هـ = 1348م) من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار).

(.. وهي سبعة بيوت في الأرض. يرون أن كلا منها هيكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة: لاعتقادها أن الكواكب أجسام حيّة ناطقة، تجري بأمر الله في كل ما يحدث في العالم، فقرّبوا إليها القرابين، لتنفعهم. فلما رأوها تخفى في النهار وبعض أحايين الليل، عملوا لها تماثيل، وبنوا لها البيوت والهياكل: ظنّاً أنهم إذا عظموا تلك التماثيل الموضوعة لها تحرّكت الأجسام العلوية بمرادهم. وقد قال الله تعالى، حكاية عن قولهم (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفى). والأبيات السبعة التي كان إليها حجُّهم: أوّلها البيت الحرام. كان يأتيه منهم من يتقرّب بزُحَل. قلتُ: وإن صحَّ قولهم من قصد هؤلاء البيت الحرام من تعظيم، فلا عجيب. فإنه ما زال معظما في الإسلام وقبل الإسلام، تحجُّ إليه طوائف الأمم في كلِّ الأوقات. زاده الله إبقاء وأدامه، ووصل شرفه بيوم القيامة! وثانيها بيت فارس، على رأس جبل أصفهان. وبينهما ثلاثة فراسخ. كان يأتيه منهم من يتقرَّب بالمُشتري. ثم جعله يستأشف "لما تمجَّس" بيت نار. فعظمه المجوس. وثالثهما بيت مندرسان، ببلاد الهند. كان يأتيه منهم من يتقرَّب بالمرّيخ. وقد ذكره أبو عبيد البكريّ وقال: إن به من القوى الدافعة والجاذبة والمنفردة، أوصافا لا يسع ذكرها. ثم قال: وهو بيت مشهور من أراد البحث عنه، فليبحث.ورابعها بيت كاوسان. بناه كاوس الملك، بمدينة فرغانة. كان يأتيه منهم من يتقرّب إلى الشمس. قال أبو عبيد البكريّ: وهدمه المعتصم..وخامسها بيت غُمْدَان. بناه الضحاك بمدينة صنعاء. كان يأتيه منهم من يتقرّب بالزُّهرة. وخرّبه عثمان بن عفان، رضي الله عنه. والآن مكانه بُركة. وآثاره كالجبل الضخم.. وسادسهم بيت بأعلى بلاد الصين. بناه ولد عامور بن سويل بن يافث بن نوح. يأتيه منهم "من" يتقرّب لعطارد خاصة، ولسائر الكواكب السبعة السيارة عامة. وهو سبع أبيات، في كل بيت سبع كوى، يقابل كلَّ كوَّة صورة على صورة كوكب من الخمسة والعشرين، ولهم فيها أسرار بزعمهم. وسابعها بيت النُّوبَهار. بناه متوشر الهنديّ بمدينة

بلخ. وكان يأتيه من الصابئة من يتقرَّب بالقمر. وكان يُسمى المتولّي لسدانته "بُرمُك". وكانت ملوك الفرس تُعظمه وتعظم متوليه. وآلت ولايته إلى أبي خالد البرمكيّ، فلهذا قيل "خالد بن برمُك" ولهذا قيل"البرامكة". وكان من أعلى المباني تشييدا. وكان يُلبَّس بالحرير الأخضر، تُنشر عليه شقاق منه. طول كل شُقَّة مائة ذراع. فيُقال أن الريح حملت بعض تلك الشِّقاق فرمت به على مسيرة خمسين فرسخا. وهذا يدل على علوّه الزائد وكان قد كتب على باب النوبهار بالفارسية: "قال سوراشف الملك: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، وصبر، ومال". ثم لما ملك الإسلام مدينة بلخ، كُتب تحت هذه الكتابة بالعربية: "كذب سوراشف. الواجب على الحرّ إذ كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان".

أما بيوت اليونان فهي ثلاثة هياكل، وهي مشهورة في العالم: أوّلها "بيت بانطاكية"، داخل مدينتها، على يسرة المسجد الجامع. وخربه المسلمون. ولما أتى ثابت بن قرّة بن زكريا الحرانيّ مع المعتضد سنة تسع وثمانين ومائتين، أتى هذا الهيكل وعظَّمه.وثانيها هو "الهرم" الذي على بُعد من الفسطاط. وثالثها "بيت المقدس". كان قد شُرع في بنائه. ثم شرع داود "عليه السلام" في تكميل بنائه مسجدا. ثم تمّ على يد ابنه سليمان، عليه السلام. قال البكريّ: فأما الصنم الذي ذكره الله عز وجل في الإنجيل، فكانت اليونانية اختارت له جبل لبنان. فاتخذوا له هناك هيكلا له فيه نقوش عجيبة، في الحجر. لا يتأتّى مثلها في الخشب. وأما بيوت الصَّقلب فهي بيوت ثلاثة، وفيها مخاريق مصنوعة يسمع لها أصوات استرقَّت عقولهم. فأولها بيت فيه آثار مرسومة تدلُّ على الكائنات. قال البكريّ: وهذا البيت على الجبل الذي كان للفلاسفة أنه أحد جبال العالم. "قلت: لعله يكون على الجبل المستدير وهو المسمَّى في الشمال بجبال قاقونا". وثانيها على الجبل الأسود. تحيط به حبال عجيبة، ذوات طعوم مختلفة. وفيه صنم كبير، على صورة رجل شيخ، بيده عصا يُحرّك به عظام الموتى. وتحت رجله اليسرى غرابيب سود من صور الغُدَاف وغيرها، وثالثهما يحيط به خليج من البحر، في وسطه قبة عظيمة، بها صنم على صورة جارية.

وأما ما كان للصابئة. فكان لهم هياكل تسمى بأسماء، وهي: هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل الصورة، وهيكل النفس. مستديرات الأشكال. وهياكل الكواكب والنيرين على أشكال مختلفة من التسديس والتثليث والتربيع. وكانت لهم فيها دُخَن وقرابين يطول وصفها. قال البكريّ: والذي بقي من هياكلهم، بيت بحرّان، في باب الرقّة. يُعرف بمعلميشا. وهو هيكل آزر أبي إبراهيم، عليه الصلاة والسلام. ولهم في آزر وأبيه كلام كثير. قال البكريّ: ولهم في هياكلهم مخاريق قد وصلت: تقف السَّدَنَة من وراء الجُدُر وتتكلم بأنواع الكلام، فتجري الأصوات في تلك المنافخ والمخاريق إلى تلك الصور المجوّفة فيظهر لها نطق على حسب ما دُبِّر على هيئة هندسية. ثم قال: والصابئة حشويّة اليونان. وإنما يضافون إلى الفلسفة، إضافة نسب لا إضافة كلمة. لأنهم يونانيون، وليس كلّ يونانيّ بحكيم. قال أبو عبيد البكريّ: وعلى باب حرَّان كتابة بالسريانية نسبة قول في النفس نسبة قول أفلاطون: الإنسان نبات سماويّ. قال: والصابئة تُقرّب في بعض الأوقات ثورا أسود. تُشَدّ عيناه ويُضرب وجهه بالملح، ثم يُذبح ويُنظر في أعضائه. وما يظهر منه في الجراحات والاختلاج، فيُستدلّ به

على أحوال السنة. ولهم في قرابينهم أسرار ومُخبّآت. وهيكل في أقاصي الصين. وهو بيت مدوّر له ستور وأبواب. في داخله قبة مسبَّعة عظيمة البنيان. وبه بئر مسبّعة الرأس، متى أكبّ إنسان على رأسها تهوَّر على رأسه فيها. وعلى رأس البئر، شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم، قلم السند هند"هذه البئر تؤدّي إلى مخزن الكتب الأولى وتاريخ الدنيا وعلوم السماء لما كان ويكون، وتؤدّي إلى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل إلى الدخول إليها والاقتباس مما فيها إلا من وازت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا". قلتُ: هذا ما ذكره البكريّ ذكرته كما ذكره. والعهدة عليه فيما نقله.

وأما بيوت النيران، فأوّل من ذكرها أفريدون. قال: لأنه زعم أنها من جنس الكواكب النورية. وبالنور صلاح العالم. لأنها عندهم أصل كل حيّ ومبدأ كل تمام. لأنها تجذب الحيوان إليها كالفراش الطائر بالليل، وما يصاد بالليل بالسُّرُج من الوحش والطير والسمك كما يُصاد في البصرة بإيقاد السُّرج في الزواريق، فيطلع السمك من الماء حتّى يقع في الزواريق. ويبطل أقوال المجوس في اجتذاب النار للحيوان أن الحيوان ينام الليل لاحتباسه عن الإسفار، فإذا رأى النّار ظنّه فُرجة إلى النهار، فقصده. وليس هذا موضع ذكر شبهتهم والأجوبة عنها. وإنما ذكرنا هنا ما هو لائق به وبيوتهم المشهورة خمسة: فأوّلها، بيت بطُوس، بناها أفريدون. وثانيها، بيت ببخارى، بناها أفريدون. وثالثها، بيت دار ابجرد بأرض فارس. "كان زرادشت نبيّ الفرس، على ما زعموا، قد أمَر يستاشف الملك أن يطلب نارا كان يعظمها جمٌّ، الملك؛ فوجدت بخوارزم. فنقلها يستاشف إلى دار ابجرد. قال البكريّ: والمجوس تعظم هذه النار، وهي أكرم نيرانهم". ورابعها، بيت بإصطخر، من فارس. ويقال أنه كان مسجد سليمان، عليه السلام. وقال المسعوديّ: وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة اصطخر. فرأيت بنيانا عجيبا وهيكلا عظيما، وفي أعلاه صور من الصخر محكمة، عظيمة المقادير: من الخيل وسائر الحيوان. يحيط بذلك كله سور من الحجر، فيه صور الأشخاص، قد شُكّلت وأُتقنت. ويزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء، عليهم السلام. وفي جوف هذا الهيكل الريح غير خارجة منه في ليل ولا نهار: لها هبوب وحفيف. يذكر من هناك من المسلمين أن سليمان حبس الريح فيه، وأنه كان يتغدّى ببعلبكَّ، من أرض الشام، ويقيل بمدينة تدمُر، في الملعب المُتَّخذ فيها "وهي في البرِّيَّة بين العراق ودمشق من أرض الشام. وبين تدمر والشام ستة أيام" ثم يتعشّى بهذا المسجد. وبتدمر خلق من العرب من قحطان. وخامسها، بمدينة جُور التي يضاف إليها الماورد. بيت نار بناه أردشير له يوم عيد. وهو على عين هناك، عجيبة. وإليه متنزَّهاتهم. وفي وسط جور بنيان كانت تُعظّمه الفُرْس، يُعرف بالطربال. خرّبه المسلمون. وإنما فُضِّل ماء وردهم، لصحة التربة وصفاء الهواء. وألوان سكانها في غاية الحسن، من اعتدال الحمرة والبياض. وبين جور وشيراز "وهي قصبة فارس" عشرون فرسخا. فسبحان الذي منَّ علينا بالإسلام، وهدانا إليه وعلّمنا ما لم نكن نعلم، وفضَّلنا على كثير من خلقه، تفضيلا..)

في النصين الآتيين لابن خلدون تتجلى الأهمية الإستثنائية لقضية التلازم بين طبيعة البشر والأقاليم، ويترتب ذلك استنادا الى فكرة ابن خلدون عن العمران التي وضع اسسها الكاملة في مقدمته الشهيرة. وقد

حرصنا، غاية الحرص، على أن ندرج نصيّن متعاقبين لابن خلدون في هذا السياق كونهما، فيما نرى، أفضل ما يمكن الاستعانة به في مجال الربط بين الأقاليم المسكونة، وخصائصها الطبيعية والمناخيّة من جهة، والطبائع البشرية للمجتمعات من أشكال وعادات وثقافات وعقائد من جهة ثانية. إنهما نصان غزيران بالأفكار، والحجج، ويكشفان بوضوح أمرين متلازمين، الأول: فكرة ابن خلدون عن العمران البشري، والثاني: نظرته إلى العلاقة بين البيئة والإنسان.

7. في المسكون من الأرض وما فيه من الأقاليم. ابن خلدون (808هـ = 1406) من كتاب (المقدمة)

(اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أنّ شكل الأرض كروي، وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها؛ لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها، وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم مِن ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما النحت الطبيعي قلب الأرض، ووسط كرتها الذي هو مركزها، والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها. وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض، وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط، ويسمى أيضا لبلايه بتفخيم اللام الثانية، ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية. ويقال له البحر الأخضر والأسود. ثم أن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار، والخلاء أكثر من عمرانه، والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال. وإنما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى خط كروي. ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصر الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج، وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق. وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة. وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل، والمعمور منه مقدار ربعه، وهو المنقسم بالأقاليم السبعة.

وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق، وهو طول الأرض، وأكبر خط في كرتها. كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك. ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة، والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخا، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهرا لبطن. وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض. وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة؛ لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة، والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود. كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر... ثم إن المخبرين عن هذا المغمور وحدوده، وعمّا فيه من: الأمصار، والمدن، والجبال، والبحار، والأنهار، والقفار، والرمال، مثل بطليموس في

كتاب"الجغرافيا" وصاحب كتاب"زخار" (=رُجار، ويقصد به الإدريسي صاحب كتاب"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وقد أُهدي للملك روجار؛ فسمّي باسمه) من بعده قسموا هذا المغمور بسبعة أقسام، يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول.

فالإقليم الأول أطول مما بعده. وهكذا الثاني إلى آخرها. فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض. وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي. وفي كل جزء الخبر عن أحواله، وأحوال عمرانه. وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف، يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف يسمى الزقاق (= مضيق جبل طارق) ثم يذهب مشرقا وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخره الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدأه. وعليه هنالك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب، أولها: طنجة عند الخليج ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية. ومن جهة الشمال: سواحل القسطنطينية عند الخليج، ثم البنادقة، ثم رومة، ثم الإفرنجة، ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر الرومي والشامي. وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل: أقريطش، وقبرص، وصقلية، وميورقة، وسردانية.

قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين، أحدهما مسامت للقسطنطينية، يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم، ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية، ثم ينفسح في عرض أربعة أميال، ويمر في جريه ستين ميل، ويسمى خليج القسطنطينية، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش (=نيطس، بنطس، البحر الأسود) وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته، وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثاني من خليجَيْ هذا البحر الرومي، وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال، فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة. وينتهى إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدأه. وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم، ويسمى خليج البنادقة.

قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق، وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء، بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي إلى الإقليم الأول، ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبداه، ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي (= المحيط الهندي) وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد يوبر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب، ثم بلد مقديشو ثم بلد سفالة (=موزمبيق أو مدغشقر) وأرض الوقواق (= مختلف بشانها، فمن قائل إنها سومطرة، أو مدغشقر) وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء. وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدأه، ثم الهند، ثم السند، ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيد وغيرها، ثم بلاد الزنج عند نهايته، وبعدهم الحبشة.

قالوا: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب، فيبدأ متضايقا ثم يمر مستبحرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبداه، ويسمى بحر القلزم (= الأحمر) وبحر السويس. وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل. وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن، ثم الحجاز، وجدّة، ثم مدين، وأيلة، وفاران عند نهايته. ومن جهة الغرب سواحل الصعيد، وعيذاب، وسواكن، وزيلع، ثم بلاد الحبشة عند مبداه، وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش، وبينهما نحو ست مراحل. وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما، ولم يتم ذلك. والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي، ويسمى الخليج الأخضر (= العربي) يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن، ويمر إلى ناحية الشمال مغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأيلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبداه، ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند، ومكران، وكرمان، وفارس، والأبلة، عند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين، واليمامة، وعمان، والشحر، والأحقاف عند مبداه. وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب، كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق، وتفضي إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما. وهنالك الكوفة، والقادسية، وبغداد، وإيوان كسرى، والحيرة. ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي. قالوا:وفي هذا المغمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان (= قزوين) طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم، وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبيه طبرستان، وفي شماليه أرض الخزر واللان. هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

قالوا: وفي هذا الجزء المغمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار، وهي: النيل، والفرات، ودجلة، ونهر بلخ المسمى جيحون. فأما النيل فمبدأه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول، ويسمى جبل القمر (= جبال شرق إفريقيا) ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه. تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك، وبعضها في أخرى، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل. ويخرج من هذه البحيرة نهران ذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته، ويمر ببلاد النوبة، ثم بلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا، وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه. ويذهب الآخر منعطفا إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط، وهو نهر السودان. وأممهم كلهم على ضفتيه. وأما الفرات فمبداه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس، ويمر جنوبا في أرض الروم وملطية إلى منبج، ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة إلى

أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط. ومن هناك يصب في البحر الحبشي، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة، ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة. وأما دجلة فمبدأها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضا، وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط، فتتفرّق إلى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة، وتفضي إلى بحر فارس. وهو في الشرق على يمين الفرات، وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب. وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة. وأما نهر جيحون فمبدأه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة، وتنجلب إليه أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان، ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها، وهي مسيرة شهر في مثله. وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك، وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم، وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ وسمرقند. ومن هنالك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية، وأمم الأعاجم...

إن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي، ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المغمورة أقل عمرانا مما بعدهما، وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما، وأمم هذين الإقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة، وأمصاره ومدنه كذلك. والثالث والرابع ومابعدهما بخلاف ذلك، فالقفار فيها قليلة، والرمال كذلك أومعدومة، وأممها وأناسيها تجاوز الحد من الكثرة، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عددا، والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله. وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر، وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس. فلنوضّح ذلك ببرهانه، يتبيّن منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع، فنقول: إن قطبي الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب، وتسمى دائرة معدل النهار. وقد تبين في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الأفلاك في جوفه قهرا، وهذه الحركة محسوسة. وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق، وتختلف آمادها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء. وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين، وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجا. وهي على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان، فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال، وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة، ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت. وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض؛ كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق، ويسمى خط الاستواء.



ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. والعمران كله في الجهة الشمالية يرتفع عن آفاق هذا المغمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة. وهنالك ينقطع العمران، وهو آخر الإقليم السابع. وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار على الأفق، وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية، وستة تحت الأفق وهي الجنوبية، والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة، لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين. فإذا الشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان، ثم تميل عن المسامتة إلى رأس السرطان ورأس الجدي، ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة، ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة، وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد. وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوهما إلى رأس السرطان، وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه. فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية، وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس؛ وذلك حيث يكون عرض البلد أربعا وعشرين في الحجاز وما يليه. وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتا، فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة، ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعا وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك، وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر. ثم إن الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الأشعة قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة، وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة؛ فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لأن الضوء سبب الحر والتسخين.

ثم إن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان، وإذا مالت فغير بعيد، ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي، إلا أن صعدت إلى المسامتة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم، فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها. وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض أربع وعشرين فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقريب من إلحاحها في خط الاستواء وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات؛ إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة، ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال، أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد. بيد أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد؛ لأن الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد،

فلذلك كان العمران في الإقليم الأول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء، وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان الحر. وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر إذ لا تجفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع؛ فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر، وأوفر، والله أعلم.

ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه، وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية إنما أداهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر، والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقل، وهو كذلك، فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا. وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل، وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال، فيعمر منه ما عمر من هذا. والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين، ولما امتنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه، لأن العمران مندرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع. وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر، والله أعلم.

اعلم أن الحكماء قسّموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب، يسمون كل قسم منها إقليما. فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء يحدّه من جهة الجنوب، وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال، وبعض عمارة إن صحت فهي لا عمارة. ويليه من جهة شمالية الإقليم الثاني، ثم الثالث كذلك، ثم الرابع، والخامس، والسادس، والسابع، وهو آخر العمران من جهة الشمال. وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب، إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك، وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول، وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي للّيل وبرأس السرطان للنهار، كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة. وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال، فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان، وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة، ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي، ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار، وهي دورة الفلك الكاملة. وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة، وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة، وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة، وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف، وإلى آخر السابع إلى ست عشرة ساعة. وهنالك ينقطع



العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم، يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال، موزعة على أجزاء هذا البعد.

وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم، وهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه، وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل. والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية، ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك. ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان، والأنهار، والبحار، في كل جزء منها، ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب "نزهة المشتاق" الذي ألفه "العلوي الأدريسي الحمودي" لملك صقلية من الإفرنج وهو "زخار بن زخار (=رُجار) عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة... ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها.

الإقليم الأول وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد، وليست في بسيط الإقليم، وإنما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث. ويقال إنها معمورة. وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة (القرن 8هـــ = ق14م) وقاتلوهم، فغنموا منهم، وسبوا، وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى، وصاروا إلى خدمة السلطان، فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم، وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضيهم، وعيشهم من الشعير، وماشيتهم المعز، وقتالهم بالحجارة ويرمونها إلى خلف، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت، ولا يعرفون دينا، و لم تبلغهم دعوة. ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها؛ لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي يمر ذلك المهب، وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر، والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها، ومهاب الرياح، وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها"الكنباص". وعليها يعتمدون في أسفارهم. وهذا كله مفقود في البحر المحيط، فلذلك لا تلج فيه السفن؛ لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقلّ أن تهتدي إلى الرجوع إليها، مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة المانعة للسفن في مسيرها، وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها، فلذلك عسر الاهتداء إليها، وصعب الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبداه عند جبل القمر كما ذكرناه، ويسمى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أولئك. وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة، وكلها لهذا العهد (= العصر الذي عاش فيه ابن خلدون) في مملكة ملك مالي من أمم السودان. وإلى



بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين (= الطوارق) ومفاوز يجولون فيها. وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم، وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم، ويسبونهم، ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب. وكلهم عامة رقيقهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضا، وليسوا في عداد البشر. وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل: توات، وتكدرارين، وووركلان. فكان في غانة - فيما يقال - ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح. وقال صاحب كتاب "زخار" إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن، وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي. وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك، ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني. ي وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته، وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك دولة مالي..وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان. وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه، وفي شرقي بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم.

وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبداه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال، ومخرج هذا النيل من جبل القَمَر (= أو القُمْر) الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة... فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال، ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال، وينقسم ماؤهما بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط، ويخرج الشرقي منه ذاهبا إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما، وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول. وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان. وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة، وهي في غربي هذا النيل، وبعدها علوة وبلاق، وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة، فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد إلى فوق الجنادل. وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة، والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة. وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر، وقد وَهَم فيه كثير من الناس، وزعموا أنه من نيل القمر. وبطليموس ذكره في كتاب"الجغرافيا"وذكر أنه ليس من هذا النيل. وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين، ويغمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران

إلا ما كان في الجزائر التي في داخله، وهي متعددة يقال تنتهي إلى ألف جزيرة، أو فيما على سواحله من جهة الشمال، وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال، وهما: بحر قلزم وبحر فارس، وفيما بينهما جزيرة العرب، وتشتمل على بلاد اليمن، وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما، كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده. فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة، ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال، في هذا الجزء خليج باب المندب، يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتدا مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب. وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريبا من مصر. وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك. وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن. ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب. وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا. و ينعطف من جنوبيه إلى آخر الجزء السادس، ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج، ثم بلاد سفالة. من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط.

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل، وبها الجبل المشهور. يقال ليس في الأرض أعلى منه، وهي قبالة سفالة. ثم جزيرة القمر، وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة الأرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين، ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد، وفيها أنواع الطيب والأفاويه. وفيها يقال معادن الذهب والزمرد، وعامة أهلها على دين المجوسية، وفيهم ملوك متعددون. وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا، وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها. فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمعجم وتهامة اليمن، وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي. وفيما بعد ذلك مدينة عدن، وفي شماليها صنعاء. وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار، وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس. وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشفت عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى، وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين. ومن مدنه الشهيرة خانكو، وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان.

الإقليم الثاني، وهو متصل بالأول من جهة الشمال، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها، وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في

جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان. وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة. وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة. وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان، ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق. وبعدها من هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض وذان، وعلى سمتها شرقا أرض سنترية، وتسمى الواحات الداخلة. وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباحويين. ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبداه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما: جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه. وعليه من أعلاه بلد أسنا وأرمنت، ويتصل كذلك حافاته إلى أسيوط وقوص ثم إلى صول، ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص، وفيما بينهما أعالي ديار مصر. وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس، وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال. وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم إلى بلاد يثرب. في وسط الحجاز مكة شرفها الله. وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر.

وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر، وتحتها أرض اليمامة. وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب، ثم أرض الشحر. وينتهي إلى بحر فارس، وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي وإلى الشمال كما مر. ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات، وهي ساحل الشحر، ثم تحتها على ساحله بلاد عمان، ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء. وفي الجزء السابع في الأعلى: من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس، ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله، وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران، ويقابلها بلاد الطوبران، وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء، وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند. ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب. وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهر وتحتهما في الجانب الأسفل أرض كابل، وبعدها شرقا إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم. وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى، ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر. وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون. ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط.

الإقليم الثالث، وهو متصل بالثاني من جهة الشمال. ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره، ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ... وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط مماسة،

ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول، وعلى سمتها شرقا بلاد درعة، ثم بلاد سجلماسة، ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء، وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي. وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة، ثم هنتانة، ثم تينملك، ثم كدميوه، ثم مشكورة، وهم آخر المصامدة فيه، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة. وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة. ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس، وهو جبل كتامة. وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة. ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى، وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش، وأغمات، وتادلا، وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى، ومدينة سلا، وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس، ومكناسة، وتازا، وقصر كتامة. وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عُرف أهلها. وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان: أصيلا والعرايش. وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط، وقاعدتها تلمسان. وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين، ووهران، والجزائر، لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع، ويذهب مشرقا، فينتهي إلى بلاد الشام، فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا، فدخل في الإقليم الثالث والخامس، فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده، ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر، ثم قسطنطينية في الشرق منها.

وفي آخر الجزء الأول، وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعا إلى جنوب المغرب الأوسط، بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب، وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر، وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق. والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين، ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله، فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز، وفي الشرق منها بلد عذامس، وفي سمتها شرقا أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر، والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأوبس. وعلى ساحل البحر بلد بونة، ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد إفريقية. فعلى ساحل البحر مدينة تونس، ثم السوسة، ثم المهدية. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد: توزر، وقفصة، ونفزاوة. وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان، وجبل وسلات، وسبيطلة. وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي. وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن. وفي مقابلة عذامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية. وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر. وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضا فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال، ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن، فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان



ومجالات العرب فيها، ثم زويلة ابن خطاب، ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق. وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر، ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب، ثم أجدابية، ثم برقة عند منعطف الجبل، ثم طلمسة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب، ورواحة إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم، وفي الأعلى من غربيه، صحارى برقيق. وأسفل منها بلاد هيب، ورواحة. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء، فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى، ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم. وعلى سمته شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشعب افتراقه ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتي، وينقسم الأيمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي، فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية، وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط. وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية، كلها محشوة عمرانا وفلجا.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف، وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب، وفي الغرب منه عند السويس لأنه في ممره مبتدىء من البحر الهندي إلى الشمال ينعطف آخذا إلى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه. في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس، وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها. ومن هنالك ينعطف بساحله إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه، وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش، وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك، وبقي شبه الباب مفضيا إلى أرض الشام. وفي غربي هذا الباب فحص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة، كما قصه القرآن. وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الإقليم الرابع كما نذكره. وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش، وهو آخر الديار المصرية وعسقلان، وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك إلى الإقليم الرابع عند طرابلس وغزة، وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق. وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام: ففي شرقه غزة، ثم عسقلان، وبانحراف يسير عنها إلى الشمال بلد قيسارية، ثم كذلك بلد عكا، ثم صور، ثم صيدا، ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع، ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة.

في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء، ويسمى جبل اللكام، وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة

والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا، وفي شرقه هنالك بلد الحجر، وديار ثمود، وتيماء، ودومة الجندل، وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى، وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها، وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك. وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام، ثم الأردن، ثم طبرية. وفي شرقيها بلاد الغور إلى أذرعات، وفي سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز. وعند منعطف جبل اللكام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية، وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك، ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر، ومجالات البادية إلى آخر الجزء.

وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان إلى البحرين وهجر على بحر فارس، وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات، وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والأبلة من أسافل الجزء من شماله، ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة، وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه، وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر الأحساء، وفي غربها أخطب والصمان، وبقية أرض اليمامة، وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها، وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقا ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان، وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودارأبجرد ونسا وإصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها، وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها: الأهواز وتستر وصدى وسابور والسوس ورام هرمز وغيرها، وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان جبال الأكراد متصلة إلى نواحي أصبهان، وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم.

وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص، ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران. ومن مدنها: الرودن والشيرحان وجيرفت ويزدشير والبهرج. وتحت أرض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله، ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان في الجنوب، وأرض كوهستان في الشمال غربا ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان، وفي وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها. ومن مدن سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان، ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء.

وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الجلج من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند.



وفي آخر الغور من الشمال بلاد أستراباذ، ثم في الشمال غربا إلى آخر الجزء بلاد هرات أوسط خراسان وبها أسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجورجان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جيحون، وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ، وفي شرقيه مدينة ترمذ، ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك، وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا إلى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب، ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره. ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كناه له. ومن هذه الأنهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب، في هذا الجزء مشرقا بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء، فيجوز بلاد التبت إلى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل، وليس فيه إلا مسلك واحد، في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبنى فيه بابا كسد يأجوج ومأجوج، فإذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل، فيمر تحته في مدى بعيد إلى أن يمر في بلاد الوحش، ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ، ثم يمر هابطا إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان. وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش، ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت، ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه، فيتصل عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه، منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال، ونهر بلخ يخرج من جبال البتم مبداه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه. وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان. وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسر وشنة من بلاد الترك. وفي شرقها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا. وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم إلى شمالها.

وفي الجزء التاسع من غربه أرض التبت إلى وسط الجزء وفي جنوبيها بلاد الهند، وفي شرقيها بلاد الصين إلى آخر الجزء، وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقا وشمالا، ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا، ومن شرقيها أرض التغرغر من الترك إلى الجزء شرقا وشمالا. وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضا إلى آخر الجزء شرقا. وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كثمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك والصعود

إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية، وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية بما يلهمهم الله إليه، وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى، وهم ظواعن رحالة أهل إبل وشاه وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل، وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم إلا خالقهم، وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون، ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية، فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق.

الإقليم الرابع يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا إلى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا، ويذهب مشرقا إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم وينفسح في ذهابه بتدريج إلى أن يغمر الأربعة الأجزاء، وأكثر الخامس من هذا الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره. ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا، وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ما يرقة (= مايوركا) ثم منرقة (= ماينوركا) ثم سردانية ثم صقلية، وهي أعظمها، ثم بلونس ثم أقريطش ثم قبرص. كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها، ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه.

وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس خليج البنادقة يذهب إلى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه ويمر مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس، ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس وينعطف إلى في بحر نيطش ذاهبا إلى الشرق في الجزء الخامس كله، ونصف السادس من الإقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه، وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس، ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج إلى الثالث. وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه، وهي كلها بلاد الأندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي، أولها طريف عند مجمع البحرين، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنقب ثم المرية، وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ثم لبلة، وقبالتها فيه جزيرة قادس، وفي الشرق عن شريش ولبلة إشبيلية ثم أستجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة، وتحت هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا. وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رياح. وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة، وفي الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور، ثم قنطرة السيف. ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات، يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنة ثم طليطلة ثم وادي الحجارة

ثم مدينة سالم، وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلمرية، وهذه غربي الأندلس، وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لفتة ثم دانية ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رياح من غرب الأندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء، ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب، ثم أفراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها، ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب، ثم سرقسطة، ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا، والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل، وتسمى أرض غشكونية، وفيه مدينة خريدة وقرقشونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني. وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضا بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيردة والشرقية من بلاد البنادقة. والجزء الرابع من هذا الإقليم غمور أيضا بالبحر كما مر، وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث، والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية، وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه. والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال، وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه. وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا إلىالقطرالشرقي الشمالي، ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة، ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس، ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى أخر الجزء من الشمال، وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن، وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام، وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال، فعلى ساحل البحر بلد أنطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على



ساحله من الإقليم الثالث، وفي شمال أنطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم، وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الإسماعيلية، ويعرفون لهذا العهد بالفداوية، ويسمى مصيات وهو قبالة أنطرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سَلمية في الشمال عن حمص، وفي الشمال وفي مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة، وفي شمال أنطاكية المصيصة، ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام، ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام.

وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان، وسلطانها ابن عثمان. وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي. ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا إلى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية، ويمر نهر سيحان موازيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف إلى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه. ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمران في بلاد الأرمن جنوبا إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة ويخرج إلى الجزء السادس ويمر دجلة في شرق آمد وينعطف قريبا إلى الشرق فيخرج قريبا إلى الجزء السادس.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة، وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء، ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا إلى الغرب فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا إلى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية، ففي الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس وفي شماليها مخرج دجلة منه. أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف إلى الجنوب فيمر بقرب الخابور إلى غرب الرحبة ويخرج منه جداول من هنالك يمر جنوبا ويبقى صفين في غربيه، ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعا في جنوب الجزء إلى الإقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية، ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته إلى هيت من شمالها يمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما



ثم يصب في دجلة عند بغداد، وأما نهر دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر بجزيرة ابن عمر على شمالها، ثم بالموصل كذلك وتكريت، وينتهي إلى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفي غرب القادسية إلى أن ينتهي إلى بغداد، ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث، فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان. وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه، وينتهي إلى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقا، ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث، ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلد جلولاء، وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة. وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقا إلى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان من الغرب والشمال عن أصبهان، وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء، وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه. وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبيدقان. وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس، وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث، وفيها هنالك أصبهان، ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك، وإنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ويخرج إلى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها. وتحته هنالك قاشان ثم قم، وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا إلى آخر هذا الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين، ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدأهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان، وهي في شرقي قاشان. وفي آخرها عند هذا الجبل بلد أستراباذ وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان.

ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء. وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا، وكل هذا تحت الجبل. وفي الشمال عنها بلاد نساو يحيط بها عند زاوية الجزئين الشمال والشرق مفاوز معطلة.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب إلى الشمال، ففي عدوته الغربية رمم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم، ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أستراباذ المعترض في الجزء السابع قبله، ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية، وفيها بقية بلاد هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك. وفي شرقي نهر جيجون من هذا الجزء، وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم سردارا وأشنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقا، وفي الشمال عن سمر قند وسرداد وأشنه أرض إيلاق ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقا، ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة، ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس، ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث، وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد إسبيجاب وطراز. وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب، وأرض الخليجة في الشمال، وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك، وهو جبل يأجوج ومأجوج، وهذه الأمم كلها من شعوب الترك.

الإقليم الخامس الجزء الأول منه أكثر مغمور بالماء إلا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم، فأما المتكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالأندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث، ففيها من بقية غرب الأندلس سعيور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقا عنها، وفي جوفها سمورة، وفي الشرق عن سلمنكة أيلة آخر الجنوب وأرض قستالية شرقا عنها، وفيها مدينة شقونية. وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية (= أقليم الباسك) إلى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو ومعناه يعقوب، وفيها من شرق بلاد الأندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقا عن قستالية، وفي شمالها وشرقها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقا وشمالا، وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت، ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم



محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب، ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الأندلس من جهة الشرق. وثناياه لها أبواب تفضي إلى بلاد غشكونية من أمم الفرنج، فمنها من الإقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال، ومنها من الإقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة، وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقا، وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد نيونة، وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما، وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي، دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة إلى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر، وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة، وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمته أرض برغونة، وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه نيش، وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الإفرنجة ومسكن البابا بطركهم الأعظم، وفيها من المباني الضخمة والهياكل الهائلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار. ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين، وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أقرنصيصة إلى آخر الجزء. وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية (= كلاباريا) من بلاد الفرنج، وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى إلى نحو الثلث منه، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد إنكلاية في الإقليم السادس.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي، يحيط بها من شرقيه يصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء في شرقي بلاد قلورية بلاد أنكبردة (= لومبارديا) في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا إلى سمت الشمال ثم ينعطف إلى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي، ويخرج على سمته من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه إلى الشمال ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكلاية من أمم اللمانيين كما نذكر. وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة، فإذا ذهبا إلى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الألمانيين عند طرف الخليج.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما، وفي آخر



الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي، ويذهب على سمت الشمال إلى أن يدخل في الإقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مسرقا إلى بحر نيطش في الجزء الخامس، وبعض الرابع قبيله والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر. وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال، وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة، وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث، والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين، ومنها ابتداء ملكهم. وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس، وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة، وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية، وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى ممره في الإقليم الرابع، وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما. وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته، وفي مؤازرته حتى يخالطه عند بغداد. وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه، وأسافلها إلى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه. والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات. وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب، وهي عريضة. وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد حرشنة. وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق، وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل، وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة في جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية، ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع، وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد أرمينية. في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان، وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان. ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ويخرج إلى الإقليم الرابع عند آمد، ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر، وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالأبواب تفضي من الجانبين ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان، وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد

أرمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان، وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير، في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية، وقد مر ذكره. ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أطرابزيدة، وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقا إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر، وعند آخرها مدينة صول، ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا.

والجزء السابع من هذا الإقليم غربية كله مغمور ببحر طبرستان، وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم إلى قزوين، وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع، ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا. وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل (= الفولغا) في هذا البحر. ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغزّ من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه إلى بقيته في الإقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياة، ويذهب مغربا إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ثم يرجع جنوبا إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس، وهذا الطرف منه، وهو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر. واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه، كما سيأتي.

والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس كله مجالات للغزّ من أمم الترك، وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل، ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات. وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو. وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار، ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء. وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئا يسمى عرعون، وبه سميت البحيرة، وينحلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية، ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج بعترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغربا إلى آخره، وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه، وفي الأعلى منه وانعطف قريبا إلى الشمال وذهب على سمته

إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس، وفيه السد هنالك كما نذكره، وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب، وهي من بلاد يأجوج ومأجوج. وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض يأجوج، متصلة فيه كله إلا قطعة من البحر غمرت طرفا في شرقيه من جنوبه إلى شماله إلا القطعة التي يفصلها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه، نذكرهم في أماكنهم نذكرهم في أماكنهم وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية، ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا، وهي كلها أرض بريطانية(= إقليم بريتاني في فرنسا) وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس.

والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء، وفيه هنالك قطعة من جزيرة إنكلترا، وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرمندية (= نورماندي) وبلاد أفلادش متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء، وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لأمم الإفرنجة وبلاد الليمانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لأمم اللمانيين.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب، وبلاد شطونية في الشمال، وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية(=بولونيا)في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع، ويمر مغربا بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي.

وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية، وتحتها في الشمال بلاد الروسية، ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرقي. وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه.

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس، ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج من سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله، وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبداه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر

مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض البيلقان من الإقليم الخامس، وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش، وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا أرض ترخان، وشرقا بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر، وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم.

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش، وينحرف قليلا إلى الشمال، ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفي جنوبه منفسحا إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس، وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر. وفي شرقها أرض برطاس. وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار، وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياكوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده، ويذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الأبواب، وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان، وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا، وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياة في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس،وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب (= بشجرت، باشغرد) وبخناك (= البجناك، البوشناق)، وهم أمم الترك.

وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولخ من الترك في الناحية الشمالية غربا والأرض المنتنة، وشرق الأرض التي يقال إن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد، وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الأثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الإقليم الخامس في الجزء السابع منه, وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم فينعطف شمالا إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع, ويذهب مغربا غير بعيد, ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب, ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس, ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب, وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر, ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية.

والجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد من خنشاخ الترك وهم قفجاق وبلاد السركس منهم أيضا. وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع، ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال، ويفارقه مغربا وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس، فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب، وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الإسكندر ثم يخرج على سمته إلى الإقليم

السابع. وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقى البحر المحيط في شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه، وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الإسكندر كما قلناه... وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد ياجوج ومأجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق.

الإقليم السابع والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج، فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة إنكلترا التي معظمها في الثاني، وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميل، ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة (= ايسلندا) مستطيلة من الغرب إلى الشرق.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها، وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس، وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة برعاقبة وفي نسخة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق.

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمازك (= كيماك) من الترك، وفي شرقها بلاد طست، ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقا. وهي دائمة الثلوج، وعمرانها قليل، ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه. وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية، وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل، وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال، وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من الترك وفي نسخة التركمان إلى آخره.

وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية، وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية، وهي جامدة دائما لشدة البرد إلا قليلا في زمن الصيف، وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الإقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغر التي كان مبدؤها في الإقليم السادس، وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه، وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغر منعطف نهر أثل القطعة الأولى إلى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه إلى شرقه. وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في غربه بقية أرض يخناك من أمم الترك، وكان مبدؤها من الناحية الشمالية

الشرقية من الجزء السادس قبله، وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج إلى الإقليم السادس من فوقه، وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحرب ثم بقية الأرض المنتنة إلى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه إلى شرقه.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض المنتنة وفي شرقها الأرض المحفورة، وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الإفطار ممتنع الوصول إلى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفى وربما رئي فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال، وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد، وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق إلى الغرب. وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ، وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط، ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله. والجزء العاشر غمر البحر جميعه.)

أشرنا في تقديمنا للفقرة السالفة إلى ما تتضمّنه فكرة ابن خلدون عن العلاقة بين الخصائص الطبيعيّة للأقاليم، والخصائص البشرية لسكانها. وندلف في هذه الفقرة إلى تضاعيف الفكرة من خلال هذا النص الذي يقدم فيه صاحب (المقدمة) تفسيرا للعلاقة بين الطبائع البشرية والمناخ، وهو يعمم الفكرة ويوسعها لتشمل المظاهر الجسمية والعقلية، فاعتدال المناخ يتبعه اعتدال في جسد الإنسان وبنيته الذهنية، ولونه وطاقاته الروحية. وكما سنلاحظ فابن خلدون طبقا لهذه النظرية، التي تحدّرت إليه من موروث يوناني وردت بعض تفاصيله عند جالينوس وبطليموس سينتهي إلى حصر القيم البشريةالأساسية في أهل الأقاليم الوسطى المعتدلة (= الثالث، والرابع، والخامس). وهو، شأنه في ذلك شأن نخبة من المشتغلين في هذا المجال، ينتهي إلى أن أهل الإقليم الرابع هم الجماعة التي تتجسد فيها الفضائل الجسدية والعقلية والروحية، وصفوة هؤلاء أهل العراق والشام. وينكشف تحيّز هذه النظرية بالمقارنة، وهي تكتفي هنا للإشارة فقط، فقد تبنّى ارسطو الفكرة ذاتها، لكنه انتهى إلى أن أهل الجزر اليونانية هم الجماعة التي تركزت فيها أفضل مزايا بني البشر، للأسباب نفسها التي ذكرها ابن خلدون. وتبنَّى الفكرة الفرس القدامى، ومهما كان الأمر فابن خلدون وغيره كانت كثير من أفكاره في موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة تترتّب في ضوء الأفكار التي كانت شائعة في عصره. وهذه الإشارات تسهل لنا الاقتراب بسهوله إلى النص الآتي.

8. في المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثير ذلك في أحوال البشر.ابن خلدون، من كتاب (المقدمة)

(قد بينّا أن المغمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من

كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما. والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم، والصنائع، والمباني، والملابس، والأقوات، والفواكه،بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما، وألوانا، وأخلاقا، وأديانا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. و لم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم، قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم، وملابسهم، وأقواتهم، وصنائعهم. يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية. وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير. ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم، وهؤلاء أهل المغرب، والشام، والحجاز، واليمن، والعراق، والهند، والسند، والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة، والجلالقة، والروم، واليونانيين.

ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الاقاليم المعتدلة، ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس. وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، حتى لينقل عن الكثير من السودان، أهل الإقليم الأول، أنهم يسكنون الكهوف والغياض، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا، وكذا الصقالبة؛ والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبؤة، ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر، مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية، فيما قبل الإسلام، وما بعده لهذا العهد. ومثل أهل مالي، وكوكو، والتكرور، المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة. ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة، والإفرنجة، والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم. ويخلق ما لا تعلمون. ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن، وحضرموت، والأحقاف، وبلاد الحجاز، واليمامة، وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني؛ فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من

الجهات الثلاث، كما ذكرنا، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر.

وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات، أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصّاص، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء، وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب؛ فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها، ويلح القيظ الشديد عليهم، وتسودّ جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها، ولا ترتفع إلى المسامتة، ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول، فتبيض ألوان أهلها، وتنتهي إلى الزعورة. ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون، وبرش الجلود، وصهوبة الشعور. وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس، والرابع، والثالث، فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر. والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه، فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم، وتبعه من جانبيه الثالث والخامس، وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف.

وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم، فالأول والثاني للحر والسواد، والسابع للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماءمترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد، وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم، وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء... وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده، ووجدنا سكانه من الترك، والصقالبة، والطغرغر، والخزر، واللان، والكثير من الإفرنجة، ويأجوج ومأجوج، أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة. وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خَلْقِهم، وخُلُقهم، وسيَرهم، وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن، والصنائع، والعلوم، والرئاسات، والمُلك، فكانت فيهم النبؤات، والمُلك، والدول، والشرائع، والعلوم، والبلدان، والأمصار، والمباني، والفراسة،



والصنائع الفائقة، وسائر الأحوال المعتدلة، وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب، والروم، وفارس، وبني إسرائيل، واليونان، وأهل السند والهند والصين.

ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها؛ حسبوا ذلك لأجل الأنساب، فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام، وارتابوا في ألوانهم، فتكلّفوا نقل تلك الحكاية الواهية. وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث. وأكثر الأمم المعتدلة، وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام. وهذا الزعم، وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء، فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود، وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك؛ فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب، وبني إسرائيل، والفرس، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج، والحبشة، والصقالبة، والسودان، ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات، وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده.

قد رأينا من خلق السودان على العموم: الخفة، والطيش، وكثرة الطرب. فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم، فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا، فتكون أكثر تفشيا، فتكون أسرع فرحا وسرورا، وأكثر انبساطا. ويجيء الطيش على أثر هذه. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية؛ لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة. وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول، واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها، كيف غلب الفرح عليهم، والخفة، والغفلة، عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم، ولا شهرهم، وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول

الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره. وتتبّعْ ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم.

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش؛ بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب، والأدم، والحنطة، والفواكه؛ لزكاء المنابت، واعتدال الطينة، ووقور العمران، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش، مثل أهل الحجاز، وجنوب اليمن، ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان؛ فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة، وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم. ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الإقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض، وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم، فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه، وبين الملثمين، وأهل التلول، يعرف ذلك من خبره؛ والسبب في ذلك، والله أعلم، أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بعد إقطارها في غير نسبة، ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم، كما قلناه، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الردية، فتجيء البلادة، والغفلة، والانحراف عن الاعتدال بالجملة. واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال، والنعام، والمها، والزرافة، والحمر الوحشية، والبقر، مع أمثالها من حيوان التلول، والأرياف، والمراعي الخصبة، كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها، وحسن رونقها وأشكالها، وتناسب أعضائها، وحدّة مداركها، فالغزال أخو المعز، والزرافة أخو البعير، والحمار والبقر أخو الحمار والبقر، والبون بينها ما رأيت؛ وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الردية والأخلاط الفاسدة مما ظهر عليها أثره، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء، واعتبر ذلك في الآدميين أيضا..).

رأينا غزارة المادة الجغرافية والبشرية التي خلّفها الأسلاف، والصور التي ركّبوها للمجتمعات، وهم يقلّبون صفحات الأقاليم والطبائع البشرية فيها، ولكن ليس هذا كل شيء، فقد انصرف جزء كبير من اهتمامهم الى كشف البحار، والجزر، وكانوا ينظرون الى البحار باعتبارها واسطة عقد بين المناطق المعمورة من الأرض، وإن كانت النظرة العجائبية لهذه العوالم شبه المجهولة تتخلل تضاعيف تلك الأوصاف. والنصوص التي سنمرّ عليها تقدّم تصورا عن طبيعة المعلومات الجغرافية - البحرية، وتندرج فيها كثير من التصورات

الشائعة في القرون الوسطى. إن كلمة بحار غامضة ومثيرة، وهي، بالنسبة للمسلمين في ديارهم الواسعة خلال القرون الوسطى، تعبّر عن حقيقة لايمكن تخطّيها، فالبحار تحيط بدار الإسلام، في ذلك الوقت، إحاطة السوار بالمعصم. فمن أقاصي الشرق الى أقاصي الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب تحاذي البحار تلك الدار، فضلا عن البحار الداخليّة كالمتوسط، والأحمر، والعربي، والخزر. باختصار كانت كثيرا من تخوم دار الإسلام بحرية، فلاغرابة أن يخصص لها وصف مفصّل في المرويَّات الجغرافية والتاريخية، لأنها وسائل ربط بين أطراف العالم القديم، وعلى الرغم من كل ذلك فقد امتزجت في أوصاف الرحالة والجغرافيين نبذ من المعلومات الحقيقية بالغرائب، ذلك أن جانبا من الجغرافيا الإسلامية اتسم بالطابع الأدبي التخيّلي،وهو أمر طالما أشار اليه كراتشوفسكي واندريه ميكل وآخرون من العرب والمستشرقين. بيد أن هذه السمة بحد ذاتها تدعم الفكرة التي نسعى إليها، وهي طبيعة الصورة المركبّة في الذهنية الإسلامية للعالم، بحره وبرّه.

9. ذكر البحار، ياقوت الحموي (626هـ = 1229م) من كتاب (معجم البلدان)

بحر الزنج: (هو بحر الهند بعينه، وبلاد الزنج منه في نحو الجنوب تحت سُهيل، وله بر، وجزائر كثيرة كبار واسعة فيها غياض كثيرة وأشجار لكنها غير ذات أثمار وإنما هي نحو شجر الآبنوس، والصندل، والساج، والقَنا. ومن سواحلهم يلتقط العنبر ولا يوجد في غير سواحلهم، وهم أضيق الناس عيشاً. وحدثني غير واحد ممن شاهد تلك البلاد أنهم يرون القُطب الجنوبي عالياً يقارب أن يتوسط السماء وسهيل كذلك، ولا يرون الجديَ قط ولا القطب الشمالي أبداً ولا بنات نَعش، وإنهم يرون في السماء شيئا في مقدار جرم القمر كأنه طاقة في السماء أو شبه قطعة غيم بيضاء لايَغيب قط ولا يَبرح مكانه.. ولهم هناك مُدُن أجلها مَقدشو، وسكانها غرباء واستوطنوا تلك البلاد، وهم مسلمون طوائف لا سلطان لهم، لكل طائفة شيخ يأتمرون له، وهي على بر البربر، وهم طائفة من العربان غير الذين هم في المغرب بلادهم بين الحبشة والزنج .. ثم يمتد بر البربر على ساحل بحر الزنج إلى قُرابة عَدَن، وأقصى هذا البحر يتصل بالبحر المحيط.

بحرُ فارس: هو شعبة من بحر الهند الأعظم .. وحده من التيز من نواحي مكران على سواحل بحر فارس إلى عبادان وهو فُوهُ دجلة التي تصب فيه، وأول سواحله من جهة البصرة وعبادان أنك تنحدر في دجلة من البصرة إلى بليدة تسمى المحرزَة في طرف جزيرة عبادان، تتفرق دجلة عنده فرقتين، إحداهما تأخذ ذات اليمين فتصب في هذا البحر عند سواحل أرض البحرين، وفيه تسافر المراكب إلى البحرين وبر العرب, وتمتد سواحله نحو الجنوب إلى قَطَر وعُمَان والشحر ومرباط إلى حضرموت إلى عَدَن، وتأخذ الفرقة الأخرى ذات الشمال وتصب في البحر من جهة بر فارس وتصير عبادان لانصباب هاتين الشعبتين في البحر جزيرة بينهما. وعلى سواحل بحر فارس من جهة عبادان من مشهورات المدن مهروبان، قال حمزة: وههنا يسمى هذا البحر بالفارسية زراه أفرنك، قال: وهو خليج منخلج من بحر فارس متوجهاً من جهة الجنوب صعُداً إلى جهة الشمال حتى يجاوز جانب الأبلة، فيمتزج بماء البطيحة.. ثم يمر من مهروبان نحو الجنوب إلى جنابة بلدة القرامطة، ومقابلها في وسط

البحر جزيرة خارك، ثم يمر في سواحل فارس بسينيز، وبوشهر، ونجيرم، وسيراف، ثم بجزيرة اللار إلى قلعة هُزُو ومقابلها في البحر جزيرة قيس بن عُميرة تظهر من بر فارس، وهي في أيامنا هذه أعمر موضع في بحر فارس، وبها مقام سلطان البحر والملك المستولي على تلك النواحي، ثم هرموز في بر فارس، ومقابلها في اللجة جزيرة عظيمة تعرف بجزيرة الجاسك، ثم تيز مُكران على الساحل، فبحر فارس وبحر البحرين وعمان واحد على ساحله الشرقي بلاد الفرس وعلى ساحله الغربي بلاد العرب وطوله من الشمال إلى الجنوب.

بحرَ القلزُم: وهو أيضاً شعبة من بحر الهند أوله من بلاد البربر والسودان الذين ذكرنا في بحر الزنج وعَدَن ثم يمتد مغرباً وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر، وبذلك سمي بحر القلزم، ويسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب، فالداخل إليه يكون على يساره أواخر بلاد البربر ثم الزيلع ثم الحبشة، ومنتهاه من هذه الجهة بلاد البجاء..وعلى يمينه عَدنُ، ثم المَنْدَب، وهو مضيق في جبل كان في أرض اليمن يحول بين البحر وامتداده في أرض اليمن فيقال: إن بعض الملوك القدماء قدّ ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجاً صغيراً يهلك به بعض أعدائه فقدّ من ذلك الجبل نحو رَمية سهمين أو ثلاث ثم أطلق البحر في أراضي اليمن فطفا و لم يكن تدارُكُهُ، فأهلك أمماً كثيرة واستولى على بُلدان لا تحصى وصار بحراً عظيماً، فهو يمرُ بساحله الشرقي على بلاد اليمن، وجدة، والجار، ويَنبُع، ومَدَين مدينة شَعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وأيلة إلى القلزم في منتهاه وهو الموضع الذي غرق فيه قوم فرعون وفرعون أيضاً. وبين هذا الموضع وفُسطاط مصر سبعة أيام، ثم يدور تلقاء الجنوب إلى القُصَير وهو مرسى للمراكب مقابل قوص بينهما خمسة أيام، ثم يدور في شبه الدائرة إلى عَيذاب وأرض البجاء، ثم يتصل ببلاد الحبش، فإذا تُخُيل الخليج الضارب إلى البصرة والخليج الداخل إلى القلزم، كانت جزيرة العرب بين الخليجين يُحيطان بثلاثة أرباع بلاد العرب.

البحرُ المُحيطُ: ومنها مادة سائر البحور المذكورة ها هنا غير بحر الخزَر، وقد سماه أرسطاطاليس في رسالته الموسومة ببيت الذهب، أوقيانوس، وسماه آخرون البحر الأخضر وهو محيط بالدنيا جميعها كإحاطة الهالة بالقمر، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمغرب والأخرى بالمشرق، فأما التي بالشرق فهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج..والشعبة الأخرى في المغرب تخرج من عند سَلاَ فيمر بالزقاق الذي بين البر الأعظم من بلاد بربر المغرب، وجزيرة الأندلس، ويمر بإفريقية إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينية..وهذا البحر المحيط لا يُسلَك شرقاً ولا غرباً إنما المسلَكُ في خليجيه فقط، واختلفوا هل الخليجان ينصبان في المحيط أم يستمدان منه فالأكثر أن الخليجين يستمدان من المحيط، وليس في الأرض نهر إلا وفضلته تصب إما في الشرقي أو في الغربي، إلا في مواضع تصب في بُحيرات منقطعة نحو جَيحون وسَيحُون، فإنهما يصبان في بحرية تخصهما والأردُن يصب في البحيرة المنتنة.

بَحرُ المغرِب: وهو بحر الشامِ والقسطنطينية، مأخَذُه من البحر المحيط ثم يمتد مشرقاً فيمر من شماليه بالأندلس..ثم ببلاد الأفرنج إلى القسطنطينية، فيمر ببنطس.. ويمتد من جهة الجنوب على بلاد كثيرة أولها سلاَ



ثم سَبتة وطَنجة وبجَاية ومَهدية وتونس وطرابلس والإسكندرية، ثم سواحل الشام إلى أنطاكية حتى يتصل بالقسطنطينية، وفيه من الجزائر المذكورة: الأندلس، وميورقة، وصقلية، وأقريطش، وقبرص، ورودس، وغير ذلك كثيرة، وقرأت في غير كتاب من أخبار مصر والمغرب أنه ملك بعد هلاك الفراعنة ملوك بني دَلُوكة. منهم دركون بن مَلُوطِس وزَمِطرة وكانا من ذوي الرأي والكيد والسحر والقوة، فأراد الروم مغالبتهم على أرضهم وانتزاع الملك منهم فاحتالا أن فتقا البحر المحيط من المغرب وهو بحر الظلمات؛ فغلب على كثير من البلدان العامرة والممالك العظيمة وامتد إلى الشام وبلاد الروم وصار حاجزاً بين بلاد الروم وبلاد مصر وهذا هو البحر الذي وصفناه قبل، وعلى هذا فبحر الأندلس، وبحر المغرب، وبحر الاسكندرية، وبحر الشام، وبحر القسطنطينية، وبحر الأفرنج، وبحر الروم جميعه واحد ليس لهذا اتصال ببحر الهند إلا أن يكون من جهة المحيط، وأقربُ موضع بين البحر الهندي وهذا البحر عند الفَرَما وهي على ساحل بحر المغرب، والقلزُم وهو على ساحل بحر اليمن سوى أربعة أيام، ولو أراد مريد أن يسير من سلاً إلى إفريقية ثم سواحل مصر والشام ثم الثغور إلى طرابزندة، ويقطع جبل القبق ويدير من أطراف بلاد الترك إلى القسطنطينية فيصير البحر على جهته الجنوبية بعد أن كان من جهته الشمالية، ويمر بسواحل الأفرنج حتى يدخل الأندلس فيقابل سَلا التي بدأ بها من غير أن يقطع بحراً أو يركب مركباً ويمكنه ذلك إلا أن المسافة بعيدة والمشقة في سلوكه صَعبة ولمروره بين أمم مختلفة الأديان والألسنة وجبال مشقة وبَواد موحشة.

بحرُ الهندُ: وهو أعظم هذه البحار وأوسعها، وأكثرها جزائر وأبسطها على سواحله مُدُن ولا علم لأحد بموضع اتصاله المحيط محدوداً لعظم اتصاله به وسعته وامتزاجه به وليس كالمغربي؛ لأن اتصال المغربي من المحيط ظاهر في موضع يقال له: الزقاق بين ساحله الجنوبي الذي عليه بلاد البربر وساحله الشمالي الذي هو بلاد الأندلس أربعة فراسخ بين كل ساحل من الآخر وليس كذلك الهندي، ويتشعب من الهندي خلجان كثيرة إلا أن أكبرها وأعظمها بحر فارس والقلزم اللذين تقدم ذكرهما ، وقد كنا ذكرنا أن أول بحر فارس التيز آخذاً نحو الشمال فأما أخذه نحو الجنوب في بلاد الزنج وينعطف من تيز الساحل مشرقاً متسعاً فتمر سواحله بالديبل والقس وسومنات وهو أعظم بيوت العبادات التي بالهند جميعه، وهو عندهم بمنزلة مكة عند المسلين ثم كنباية ثم خور تدخل منه إلى بروَص، وهي من أعظم مدنهم، ثم ينعطف أشد من ذلك حتى يمر ببلاد مَليبار التي يجلب منها الفُلفُل، ومن أشهر مدنهم منجَرُور وفاكنور ثم خور فوفَل ثم المعبر، وهو آخر بلاد الهند ثم بلاد الصين، فأولها الجَاوة يركب إليها من بحرٍ صَعب المسلَك سريع المهلك ثم إلى صريح بلاد الصينَ، وقد أكثر الناس في وصف هذا البحر وطوله وعرضه وقالوا فيه أقوالاً مفاوتة يقدَح في عقلِ ذاكرِها، وفيه من الجزائر العظام مالا يُحصيه إلا الله، ومن أعظمها وأشهرها جزيرة سيَلاَن وفيها مُدُن كثيرة، وجزيرة الزابج كذلك، وجزيرة سَرَنْديب كذلك، وجزيرة سُقطرَى، وجزيرة كولَم وغير ذلك..)

10. بحـــــــــار، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهــر).

(قال أهل العلم: إن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشفّ جرمه، طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي يكون تحت كرة الهواء وفوق الأرض، وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار، ولا يعرف له ساحل، وله أسماء في الجهات، سماه بها اليونان ومن قبلهم، فأسمه في الجهة المغربية أوقيانوس، والبحر الأخضر، وفي جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات، والبحر الزفتي والجامد، وفي جهة محض الجنوب البحر الأحمر، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة، وبحر ورنك (= البلطيق)، والمحيط الشمالي، وفي شمال الأندلس اللبلابة، وبحر قادس. وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الأرض مالح، وسائر البحار التي بوجه الأرض غيره فإنها خلجان منه متصله به فائضة عنه، والذي هو منها غير متصل به ففي اتصالها به وعدم اتصالها خلاف بين المعتنين بتحقيق ذلك، والفحص عنه كبحر الخزر الذي هو وحده غير متصل ببحر آخر. يزعم بعض القدماء أنه متصل ببحر الروس المسمى بحر طرابزندة، وأن بحيرة خوارزم منه، وأن بحيرة زغر من بحر القلزم، وأن بحر هجر من بحر فارس. والصحيح خلاف ذلك، وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووهدات الأرض المغمورة بمياهها، ومعنى الانسجار منها أنها كريّة الشكل في دورانها وكرية مع الأرض في تحدبها الكرّي. فكل جزء منها مكفوف الأطراف كصورة نصف سدس دائرة وهذا في صورته الخاصة، وأما ما في صورته العامة فإنها، أعني البحار، مستديرة باستدارة كرة الأرض وكهيئتها في التدوير، والانكفاف هو الانسجار؛ ولذلك الراكب في البحر إذا توغّل فيه غابت عنه الأرض، وإذا ما استشرف على السواحل فأول مايظهر له رؤوس الجبال العالية، ثم لا يزال يرى شيئاً بعد شئ إلى أن يقرب إلى الساحل فيرى الأرض في الساحل كما يراها ساكنها.

ومما يدل على أن الماء شكل كرّي في ذاته وفي صورته العامة أننا إذا أرسلناه بالهواء بالحذق تشّكل أشكالاً كريات بمقدار البيضة وأصغر وأكبر، وكذلك يكون عند كونه مطراً أو جمداً في الهواء خارجاً من خلال السحاب. وأما ما هي صورته العامة فالماء فلك مماسّ لمقعر فلك الهواء، ولذلك أن راكبه حيث كان من ظهره كان على ذروة محدّبة، وكانت جهات البحر المحيط به من كل ناحية منحطّة عنه غائبة أطرافها لانحطاطها، وكلما وصل الراكب له إلى نقطة واستوى عليها كانت هي الذروة كذلك، وكان حكمه في البحر كحكمه في البر من حيث العروض والأطوال وارتفاع القطب الشمالي وانحطاطه وظهور كواكب ما لم تكن تظهر له واختفاء كواكب كانت ظاهرة له، وإذا نظر الإنسان إلى كرة مخروطة من الخشب وفرض أن محيطها هو جهة العلوّ لها وأن مركزها هو جهة السفل منها فحيث وضع أصبعه منها كان أعلاها، وكان ذلك الموضع ذروة لنصفها الأعلى المفروض. وإنه أجاج لمصالح العالم جعله الله مفيضاً للأنهار، ومعبراً للسيول والأمطار، ومركباً لرفاق البحار، ومضرباً لمصالح الأمصار. يخرج عنه الدر والمرجان، وينبع من الملح الأجاج عذباً فراتاً، ويغذو للآكلين لحماً طرياً، ويحمل للاّبسين جواهر وحلياً، ولا يوجد مصر جامع قريب من الاعتدال عامر بعيداً عن الماء ثلاث أسابيع إلا نادراً.



وتكلم العلماء بعلمهم في الشئ الذي كان عنه الماء، فمنهم من زعم أن المياه من الاستحالة فطعم كل ماء على قدر تربته، ومنهم مَن يزعم أن البحر بقية الرطوبة التي جففت أكثرها جوهر النار وبإحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة، ومنهم مَن زعم أن البحار عرق الأرض لما ينالها من إحراق الشمس باتصال دورانها، ولهذا قالوا ليس ببلاد الصقالبة بحر مالح، وذكروا أن العلة في ذلك بعد الشمس عن مسامتها. ويزعم قوم أن أصل الماء العذوبة واللطافة وإنما لطول مكثه جذبت الأرض مافيه من العذوبة لملوحتها، وجذبت الشمس مافيه من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة، ولهذا قال"أرسطو"المالح أثقل من الماء العذب لأن المالح كدر غليظ والعذب صاف رقيق. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت طبخه بمخالطة الأرض المحرقة لأنْتَن وأجن وأفسد مايكون فيه من الحيوان، بل إن الله سبحانه وتعالى خلق البحار ملحاً أجاجاً كما أخبر في كتابه العزيز"وهذا ملح أجاج". على ماهي به من الوصف وصلاحاً لجوهر الهواء وحفظاً لنظام أبدان الحيوان وتعديلاً لأمزجتها، ولو كانت حلوة مع طول الزمان والدهر، لفسدت وأسنّت وفسد بفسادها جوهر الهواء وأنواع المتولدات الثلاث، وكذلك أيضاً قلّ أن يكون في المعمور بحر مالح ببقعة الشمال أو الجنوب إلا وبالقرب من سواحله جبال محيطات كالحاجز والسياج الحاف به من حوله وغالبها مشجّرة كثيرة الأندية والأمطار، وذلك من صلاح الأرض به وصلاح متولداتها، ولأن جوهر الملح فيه قوة حافظة للأشياء الرطبة من التغير، وهذه الملوحة تلي الدهانة كأنها غطاء على مياه البحار تمنعها من الفساد والتحليل، ومن سرعة الانقلاب إلى الهواء كما ينقلب الماء العذب للطافته، ولجذب الشمس به بحرارتها، والله أعلم.)

11. البحر المحيط بالشرق (= المحيط الهادئ) الدمشقي، من كتاب (نخبة الدهر)

(قال أهل العلم: البحر المحيط الجنوبي، والبرزة العظمى المسماة البحر الجامد، وبحر الظلمات، وبحر أصطيفون، وهو أعظم بحار الدنيا الثلاثة، وأهولها، وأسرعها هلاكاً للداخل فيه، و لم يُعرف من سواحله إلا ما تاخم أقصى المعمور، ومن سواحله المشرقية ساحل صين الصين حيث مصب نهر حمدان... ثم ساحله المحادّ جزيرة القُمر الكبرى من جنوبها، وطول هذه الجزيرة أربعة أشهر ولا عمارة في جنوبها ولا فيما وراءها، ولا مسلك في هذا البحر إلا من جبال اصطيفون فيما هو داخلها منه، وهذه الجبال كصورة جبل واحد داخل في البحر عن نحو من مائتي ميل، وهو جبل شاهق متصل ممتد سحابي من أقصى المشرق إلى أوائل جبال القمر، وأرض دغوطة، ثم إلى محاذاة وسط الأرض حيث فيه أرين. ويقال أن هذا الجبل هو الذي دخله الخضر بجيش ذي القرنين. وفي هذا الجبل خليج عظيم الدفع لا يستطيع مركب صغير أو كبير يدخله لشدة حركته وسرعة جريانه بالمد والموج والغليان دافع أبداً من الجنوب إلى الشمال، وسعته نحو مائة ميل، ومده وجزره هناك عظيم يرتفع هناك في الأماكن المحصورة عن ست قامات، وينفرش في الأماكن المبسوطة نحو يوم، يفعل ذلك في اليوم والليلة أربع مرات، فإذا خرج هذا الخليج انفرش في ملأ الأرض حتى ينتهي إلى جبال القمر وجبال دغوطة (=على السواحل الشرقية لإفريقيا، قبالة جزر القمر) ويمتد منه لسان وهو بحر دغوطة ثم يخرج منه نهران عظيمان



يحاذيان جزيرة القمر من جهتيْ مشرقها ومغربها وخليج بحدِّ جزيرة أنفوجة، وسريرة بينهما وبين جزيرة القمر، وهذه الخلجان الثلاثة تصب في بحر الهند المسمى بأسماء نواحيه، وبأطراف هذا البحر من وراء خط الاستواء جزيرة الدجّال، وجزيرة القشمير، وجزائر السحاب والبرق والمطر، وجزائر الواقواق من وراء جبل اصطيفون.

وجزيرة القامرون بالقرب من جزيرة سريرة، والقامرون اسم ملك الملوك كما يسمى ملك الصين بغبور، وملك الصنف مهراج، وملك الهند قندهار، وملك الفرس كسرى، وملك اليمن تبّع، وملك الروم قيصر، وملك مصر فرعون، وملك الحبشة نجاشي، وملك الشام هرقل، وملك الفرنج الباب، وملك الساحل البربر، وملك التتر الخان. فأما جزيرة القمر ففيها من الأنهار الجرّارة أربعة تسمّى الأغباب، وفيها من المدن نحو عشرين مدينة، ومدينتها العظمى دهمى، ومدينة الملك لقمرانه والمصر الجامع أغنى. وأما سريرة يحيط بها ألف ومائتا ميل وفيها مدن كثيرة أجلّها سريرة ومنها يُجلب الكافور الجيد، وجزيرة أنفوجة مستطيلة جداً يحيط بها نحو ألفي ميل وبها قفار وبرارٍ، وسكانها في طرفها الشمالي بين البحريْن على جبل هناك بحيث يرون هذا ويرون هذا.

وأما جزائر الواقواق الداخلة في المحيط فإنها خلف جبل اصطيفون بالقرب من ساحل البحر، ويوصل إليها من بحر الصين، والواق شجر صيني شبيه بشجر الجوز وخيار الشنبر، ويحمل حملاً كصورة الإنسان، فإذا انتهت الثمرة منه سمع السامع منه واقواق مرات ثم يسقط. وأهل الجزائر وأهل الصين لهم من ذلك تفاؤل وزجر بتلك الأصوات. وأما جزيرة الدجّال فيزعم نَقَلَة الآثار أنه بها مسجون. وقد ورد في الخبر أن تميم الداري اختطفه الجان، ووصل إليه، ورآه بها، وسأله مسائل عن أشراط الساعة، وخروجه، والقصة مشهورة (= المرويّات الخاصة بالجساسة والدجّال التي رواها تميم الداري للرسول). وأما الجزائر الثلاث فيزعم من وصل إليهنّ من جزيرة القشمير هم طائفة من الترك هربوا في وقعة كانت بينهم وبين عدوهم، وركبوا البحر ومرّوا إليها، فسكنوها واستوطنوا بها، فعرفت بهم. والأولى من الثلاثة لا تزال مطمورة ليلاً ونهاراً أبداً، وإن الثانية من جهة جنوبها لاتزال مغشاة بالسحاب والضباب، والثالثة بالقرب منها لايزال البرق يلوح عليها دائماً من غير مطر ولا سحاب. وبأطراف جبل اصطيفون بالقرب من الخليج الخارج من المحيط أطمة، من أعظم آطام النار يصعد لهبها في السماء فراسخ وترى في مسيرة أيام وتسمى سراج البحر في الظلمات، وأما جزيرة القمر فسيأتي وصفها فيما بعد. وإذا تجاوز الماء جزيرة القمر وانفرش سُمي بأسماء كثيرة بحسب نواحيه وجهاته وبقاعه بحراً بحراً، والكل ماء واحد متصل طوله الأطول من حدود مدينة مقدشو أو سفالة الزنج وبربر السودان غرباً إلى حدود سواحل صين الصين، ومدينة الصنف (= مطلة علة خليج آسام) ونواحي المهراج شرقاً وإلى غاية الطول فيما هو جنوب الصين صين حيث مصب نهر حمدان الأكبر، ومسافة ذلك بالدرج مائة وأربع درج هي من طول ستة وسبعين وإلى تمام مائة وثمانين بأرض حمدان وصين الصين الواغلة فيه الداخلة خلف خط الاستواء... جملة عرضه من الخلجان الخارجة منه كخليج فارس والقلزم وخليج المعبر وغير ذلك، وهذا العرض مختلف متفاوت أعرضه ألفا ميل وسبعمائة، وأنقصه عرضاً ألفا ميل والله أعلم.

وأما مروره بسواحل نواحيه وجهاته وأسمائه فنبتدئ به من أول طوله الجنوبي، فيمر به من فوق خط الاستواء إلى أسفل جزيرة القامرون، إلى أعلى جزيرة سرنديب، وأسفل الراهون، إلى أسفل أرض أرين، وقبة أرين (= مركز العالم حسب التصور الهندي) ثم يمر بساحل أراضي دغوطة وبلاد زنج الزنج، ثم إلى أرض مقدشو الحمراء، ثم إلى أرض كلبة زنج المسلمين. وهناك آخر طوله الممتد بامتداد خط الاستواء، ثم ينعطف عطفة وهي من حدود مقدشو، فيمر قاصداً جهة الشمال مع الغرب، ثم من جهة الشمال مع الشرق، ثم جهة الشمال مع غرب، ثم جهة الشمال مع شرق، ثم جهة الشمال مع غرب، ثم جهة الشمال، وذلك كصورة دائرتين ملتحمتين مع بيان فرقهما كذا التشكيل. وتسمى هذه بحيرة بربر أو البحر الأحمر لشدة هوله وقلة سلامة راكبه، وحده من الشمال جبل عظيم أسود داخل في البحر يسمونه أهل البحر جبل خافوني (=الرأس الإفريقي المواجه لباب المندب)، ونادر أن يمر بهذا الجبل مركب إلا ينكسر، وإذا قربوا من الجبل أنذروا النذور، وتضرعوا لله عز وجل في الدعاء. وقلّ أن يسلموا إلا مَن شاء الله.

ثم يمر بساحله بعد تجاوز جبل خافوني بأرض الهاوية، وسميت الهاوية تشبيهاً بجهنم في حرها ونارها، ثم بأرض بربراً وبعض بلاد دمدم والحبش السفلي، ثم بأرض جبرة، ثم بأرض باضع، ثم بساحل زنجبار وأرض الزيْلع، ثم بأرض أوتل، وهناك يخرج منه رِجْل تسمى شعبة القلزم، وبحر قلزم وبحر موسى وبحر المندم وبحر عدن، ومخرجه فيما بين أوتل وعدن بين جبلين فيمر بساحل هذا الرّجْل المسمى خليج القلزم شمالاً ببر العجم لأن البر الشرقي منه هو بر العرب، ومرور ساحل بر العجم على بلاد خاسة ثم على بلاد ناكة السفلى، ثم بلاد خاسة السفلى ثم بلاد البجة، وهناك جزيرة به تسمى جزيرة دهلك منسوبة إلى مدينة بها ملك البجه، ثم إلى جزيرة سواكن مدينة لها ملك ثانٍ وهي قريبة من البر، ثم يمر إلى عيذاب مدينة فرضة لمصر اليمن، ثم يمر بأرض الوَضَح والمريس إلى القصير إلى السويس إلى أيلة والقلزم ومَدْيَن. وهناك ينعطف هذا الرجل عطفةً بأرض الشام فتمر بسواحل أهل العرب إلى الينبع إلى الجار إلى رابض إلى جدة إلى سرَّين إلى المهجم إلى زبيد إلى عدن. وهناك تنتهي عدوة هذا الرجل التي هي بحر القلزم، ثم يمر بساحل البحر الذي خرجت منه من عدن إلى أبْيَن إلى الشحر إلى ظفار إلى حضرموت إلى الأحقاف إلى قلهات وأرض مَهْرة إلى أرض هجر والبحرين إلى عمان، وهناك جبل أسود شاهق ممدود يسمى الجُمْحة هو حد بحر فارس، فيمر بأوله مع اتصاله بالبحر وكونه بحراً واحداً إلى البصرة إلى سلماباذان إلى خوزستان إلى بلد فارس إلى كرمان إلى مكران وطوران، وهناك آخر حدود بحر فارس، ثم يمر السواحل من طوران إلى سيراف إلى المند إلى بلاد السند ومهران إلى المنيبار إلى كنباية إلى صومنات إلى المعبر إلى سندان إلى صندابولات إلى الصوليان إلى بلوص إلى الجزرات، ثم يتجاوز إلى جبال أبواب الصين إلى أرض تاجه إلى أرض خانقو، ثم إلى أرض خالفور، ثم ينعطف من هناك طالباً بلاد الصنف مبارياً أرض صين الصين ونهر حمدان، ثم يصل إلى الموضع الذي ابتدأنا منه تحديده.

وقد قسّم القدماء السالكون لهذا البحر قطعاً قسمات عرفوها بأسماء نواحيها، ليقرب عليهم بعيده ويقصر متطاوله، فالذي يمر منه بأرض الصين يسمى بحر الهركند (= خليج البنغال) وبحر الغيض، وبحر الصنف

نسبة إلى مدينة على ساحله من بلاد الصين، وهو بحر كثير الموج خبيث شديد الهول، ويلي هذه القطعة من البحر قطعة تسمى بحر الصنجي (= بحر الصين) وفيه مملكة المهراج، وتدخل المراكب إليها من ستة طرق بين جبال سبعة تسمى جبال الكافور، وأكثر شجر الكافور بها، ولابد للمراكب من العبور بها، وهي شديدة الأهوال. وصنجى مدينة تنسب نسبةً إليها هذه القطعة، والمدينة بجزيرة صنجى. ثم يليها قطعة تسمى بحر كَله منسوبة إلى جزيرة كله، وكله مدينتها الكبرى إذ بها أربع مدن، ثم يلي هذه القطعة قطعة رابعة تسمى بحر صندابولات، وصندابولات أوائل بحر الصين وهذا البحر لايُدرك قعره. ثم يليها قطعة تسمى بحر الهند وهو أسلم هذه القطع وأصغرها موجاً وهولاً. ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروي، وقطعة تليها من شمال البحر تسمى بحر الرانج، وبها جزائر الرانج هو النارجيل المسمى جوز الهند، ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر المعبر وسيلان، وسيلان مدينة بحرية بها تعرف، ويلي هذه القطعة قطعة من جنوب البحر الهندي تسمى بحر سرنديب وبحر الراهون وهو الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام من الجنة، وبهذه الجزيرة التي هي سرنديب مدينة أغنى ومدينة بلجرا. ويلي هذه القطعة من شرقها قطعة تسمى بحر القمر وبحر القمار وبحر لقمرانه، ويلي ذلك بشمال البحر قطعة تسمى بحر كنباية منسوبة إلى مدينة بساحل البحر الشمالي. ويليها قطعة أخرى تسمى بحر المنيبار، وسواحل الخيزران والفلفل. وهذه القطعة ساحلية شمالية ثم يليها قطعة تسمى بحر السند وبحر السندمند وبحر مند، وهي أيضاً ساحلية شمالية من بحر الهند فيه، ثم تلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر فارس، وهذه القطعة متصلة بالبحر من ناحية ومحاطة بالأرض من ثلاث نواحي. ويليها قطعة تسمى بحر اليمن وأوّلها من رأس الجُمحة من بلاد مهرة إلى عدن. ويلي هذه القطعة قطعة من جنوب البحر تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا، ويسمى ساحلها الزنجبار. وجميع هذه بحر واحد وماء واحد بالاتصال، ومختلف بالرياح والحرارة والغزارة والحيوان والعجائب، والجزائر بارزة فيه ثابتة في وجهه من أوله إلى آخره، ويقال أن فيه ما يزيد على أربعة آلاف جزيرة معمورة مشهورة، والله أعلم بخلقه.)

12. البحر المحيط بالغرب (المحيط الأطلسي) الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر).

(قال أهل العلم بذلك: إن البحر المحيط محيطٌ بجملة جهات الأرض، ويسمى البحر المغربي منه بشمال بحر الظلمة، والبحر الأسود الشمالي. وسمي أسود ومظلماً لأن ما تصاعد عنه من الأبخرة لا يحللها الشمس؛ لأنها لا تطلع عليه فيغلظ ماؤه، ويتكاثف بخاره فلا يدرك البصر ماهية مائه. ولعظم أمواجه وتكاثف ظلمته وعصوف رياحه وكثرة أهواله، لم يعلم العالم إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور، وامتداد سواحله المغربية فإنها من حدود برزة منه من خلف خط الاستواء تسمى بحر سفاقس وتميم السودان. طول هذه البرزة نحو شهر وعرضها نحو عشرة أيام، وبها ثلاث جزائر كبار يأتي وصفها، وتمتد بسواحل المحيط المغربية من هذه البرزة إلى برزة دونها في المقدار تسمى بحر كوغة وورهم، وفيها تصب بحيرة غانة والأحابيش السودان. وطول هذه البرزة نحو خمسة عشر يوماً وعرضها نحو عشرة أيام، وبها جزيرتان ثم تمتد إلى برزة عظمى تقال بحر

اللبلابة.. ومن هذه البرزة مخرج زقاق البحر الرومي، وطولها من حدود السوس الأقصى إلى حدود طرسوس بالأندلس، ولا عرض لها يُعرف سوى بالجزائر الخالدات الست...ثم تمتد إلى برزة منه صغيرة تسمى بحر قادس بجوار الأندلس من الشمال طولها نحو شهر وعرضها الأعرض نحو ستة أيام وإلى أربعة أيام، وبها جزيرة كان عليها صنم من النحاس الأحمر المطلي بالذهب تسمى قادس. ثم تمتد سواحله من حدود بحر قادس إلى حد برزة منه دقيقة طويلة كصورة الدائرة وأعرض. عرضها ثلاثة أيام، وأما طولها فلم يعلم من أهل العلم به. تسمى هذه البرزة بحر نكلطرة ثم تمتد بسواحل المحيط من حدود هذه البرزة وإلى أن تعطف في جهة الشمال بغرب وهناك البرزة الكبرى التي تسمى بحر الورنك (= البلطيق). وورنك اسم طائفة غتم لايكادون يفقهون قولاً يسمّون ورنك وهم صقلب الصقالبة. وهذه البرزة هي بحر الظلمة الشمالي، وبالقرب من سواحله خمس جزائر... ثم تمتد سواحله في الشمال والغرب حتى تدخل إقليم الظلمة، ولا علم بما هناك.

ولهذا المحيط مد وجزر كما للمحيط المشرقي، ويقذف ساحله العنبر الخام من غالب جهاته ولا سيما من خلجانه، والعنبر ينبع من عيون من جبال بقعر البحر المالح الفارسي والحبشي والهندي والمغربي والصيني والموسوي، فيركب بعضه بعضاً وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة، فإذا لاقى برد الماء جمد على أحجار وصار جماجم صغاراً وكباراً فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه الماء البارد فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يهيج البحر في زمن الشتاء فيقتلعه قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمي به الأمواج إلى الساحل، وأجوده الذي يقع إلى ساحل الشحر من بلاد المهرة، فيلتقطه الجلاّبون وربما ابتلعه سمك يسمى أوال، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فترميه الأمواج أيضاً فيشق عنه جوفه ويستخرج منه، وله رائحة زهمى ويسمى المبلوع. والآخر الخام والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكله منه حيوان إلا مات، ولاينقر منه طائر إلا انفصل منقاره، وإذا وضع عليه رجليه نصلت أظفاره فإن أكل منه شيئاً مات.

قال أهل العلم بذلك: إن أعظم بحار الدنيا ثلاثة، الأول أوقيانوس المحيط، ثم بحر نيطس، ثم بحر الخزر. وأما أوقيانوس فهو محيط بجميع جهات الأرض، والذي علم منه من الجزائر ستة في جهة الغرب تسمى جزائر السعادات والخالدات. قال أبوعبيدة البكري في كتاب "المسالك والممالك" بإزاء طنجة جزائر السعادات وتسمى باليونانية "قرطيانس" غمرها الماء إلا واحدة وهي تسمى السعيدة، وسميت بذلك لأن في شعرها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة دون غراسة ودون فلاحة، وكذلك أصناف الرياحين تنبت فيها بدلاً من الشوك، وما لا نفع لبنى آدم فيه. وبواقي الجزائر الست منها غربي بلاد البربر متفرقة متقاربة. وإن بعض المراكب عصفت عليه الريح فعجز من فيه عن تلاقيه، فسار به إلى أن ألقاه في الجزيرة الواحدة، فنزل من فيه من الركاب إليها وأقاموا بها، وعلموا حال الجزائر البواقي منها، وحملوا ما فيها من الغرائب والرغائب وسقهم، وتعجّب أهل الجزيرة منهم. وقالوا لم نر أحداً قبلكم جاءنا من الجهة المشرقية غيركم، وكما نظن أن ليس بها غير الماء المحيط، ولما وصل المركب بعد إشرافه على الغرق مرات، ودخل بلاد الأندلس، سأل أهل ملكها من أين جئتم؟ ومن أين لكم ما معكم؟ فأخبروه بأمرهم. فجهز مراكب وسيّرها فلم يقعوا على جزيرة



منها، وهلك أكثر تلك المراكب بعظم البحر وشدة عصف الريح، وأخذ أولئك مقياس ما بين الجزيرة وبين أول ساحل الأندلس فكان عشر درج.

وفي هذا البحر مما يلي بلاد الصقالبة جزيرتان كبيرتان، إحداهما جزيرة أرميانوس الرجال والأخرى جزيرة أرميانوس النساء، لايسكن الأولى غير الرجال فقط، والأخرى لايسكنها غير النساء فقط. وهم كل زمان في أيام الربيع يجتمعون شهرين يتناكحون ثم يفترقون. وهاتان الجزيرتان لايكاد من يروم الدخول إليها يقع طرفه عليهما لكثرة الغمام وظلمة البحر وعظم الأمواج. وهذه العجائب المبثوثة في الآفاق قلّ ما ترى إلا في الاتفاق. وفي جهة الغرب من هاتين الجزيرتين جزيرتان عاليتا الشجر والجبال مغلقتان بالأشجار والأثمار وغالب طيرها السناقر البيض والشهب. وحكى "السمرقندي" في كتابه أن الاسكندر لمّا فُتحت البلاد والأنهار والجبال والبحيرات والجهات وعرضت لديه أمثلتها، أراد أن يعلم ساحل المحيط الأقصى، فجهز عدة مراكب مقببة لاتكاد تعرف، وحمّلها الماء والزاد، وأمرهم أن يسيروا سنةً كاملة على مجرى واحد ليأتوه بخبر، فساروا متفرقين في بحار متفرقة على نوء واحد متقارب المجرى حتى أكملوا السنة، لم يروا إلا سطح الماء، ومايخرج منه من حيوان عظيم الخلقة كالمنارة المشهورة والستان المعروف والتن، وما يشاهما من دواب البحر الكبار، ثم رجعوا على أعقابهم إلا مركب واحد، فإن أهله قال بعضهم لبعض نسير شهراً آخراً فعسى نطّلع على شئ نبيّض به وجوهنا عند الملك، ونقلّل أكلنا وشربنا في الرجوع، فساروا دون الشهر فإذا هم بمركب فيه أناس، فالتقى المركبان و لم يفهم أحد منهم كلام الآخر فدفع قوم الإسكندر إليهم امرأة وأخذوا منهم رجلاً، رجعوا به إلى الاسكندر وأزوجوه بامرأة في المركب ممّن معهم، فأتت بولد يفهم كلام أبويه. فقالوا لها وقد تكلّمت الإمرأة بكلام الرجل وتكلم الرجل ببعض كلامها، سلي زوجك من أين جاء؟ قال: من ذلك الجانب. فقالوا: لأي شئ؟ فقال: بعثنا ملكنا لنعلم بحال هذا الجانب. فقالوا له: وهل هناك ممالك وملوك؟ قال: نعم، أوسع من هذه، وأعظم ملكاً. قالوا: وماكنا نعلم أن هاهنا إلا الماء. والله أعلم بصحة ذلك.

13. بحر الروم (= المتوسط) ابن حوقل (توفي بعد 367هـ = بعد 977م) من كتاب (صورة الأرض)

(قال ابن حوقل واصفاً بحر الروم: إذ هو خليج من البحر المحيط، عليه أكثر هذه الديار، وقد أتيت به على التقريب لا على الحقيقة؛ إذ بعضه أشبه شئ بالدائرة المحددة، ومخرجه بين أرض الأندلس وأرض طنجة وسبتة. وهذه الناحية محاذية من الأندلس لجزيرة جبل طارق واشبيلية. وعرض هذا المخرج بهذا المكان المعروف باشبرتال، وهو جبل عال ويمتد جنوبياً إلى سله، ويحاذيه من العدوة الأندلسية جبل الأغر، ويمتد إلى لبلة بناحية الشمال من الأندلس، فيكون نحو اثني عشر ميلاً، ثم لايزال يتسع ويعرض ويمتد على سواحل المغرب ومما يلي شرقي هذا البحر حتى ينتهي إلى أقاصي أرض مصر، ممتداً على أرضها إلى الشام، متصلاً عليها إلى الثغر الذي يُعرف بطرسوس، ويعطف إلى بلدان الروم من جبال إقليمية إلى أنطاكية، ثم يصير إلى خليج القسطنطينية ويمضي على سواحل أثيناس، وسواحل قلورية (= كالاباريا) والانكبرذة (= لومبارديا) إلى افرنجة



ورومية، ويصير البحر حينئذٍ جنوبيا لأرض جليقية ويكون على ساحله الافرنجة، إلى أن يتصل بطرطوشة من بلاد الأندلس.. ويجاوز المريةَ وأعمال الجزيرة واشبيلية، ويمضي على البحر المحيط إلى شنترين، وهي آخر بلاد الإسلام من ناحية الأندلس وجانب بلد الروم. ولو أن امرءاً سار من سبتة وطنجة على ساحل هذا البحر المغربي مؤمّلاً أن يعود إلى مايحاذيه من أرض الأندلس لدار على جميع بحر الروم، من حيث لايمنعه مانع إلا نهر يلقى إليه أو يفرع فيه أو خليج القسطنطينية، فإنه يفضي إليه من البحر المحيط أيضاً، وذلك أنه انفصل به من الأرض فاصلةً حازت شطر بلد الصقالبة وبعض بلد الروم، فسميت الأرض الصغيرة والذي تحوز من البلاد مهما ذكرته أرض قلورية وجليقية وافرنجة والأندلس، فجعل ذلك جزيرةً ليست مع الأرض الكبيرة ولا متصلة بشئ منها، لأنها قائمة بنفسها و لم يحتج إلى أن يدلّه دليل إن أمكنه ذلك.

وسمعت أبا الحسين محمد بن عبدالوهاب التل موزني، وكان رجلاً قد أناف على مائة سنة، ثابت العقل صالح الأدب يقول: سُيِّرتُ من كمخ وهي مدينة الروم صالحة القدر عامرة على بريد الملك إلى القسطنطينية مائةً وستة وثمانين بريداً، فلما عدت من القسطنطينية حين خروجي عنها عدت على أنقرة، وهي مدينة كبيرة خراب إلى مَلطية مائة وثمانية وعشرين بريداً. فكان من كمخ إلى صارخة يومان وإلى مدينة خرشنة يومان. وسُيِّرتُ علىِ مدنٍ لا أعرف أسماءها عامرةً إلى صاغرة. وهي على نهر ألس فعبرناه بمركب وسرنا في المركب بالبحيرة ستة فراسِخ، وسرنا يوماً آخر على الظهر إلى مدينة تُعرف بنقموذية، وركبنا منها في البحر يومين وصرنا إلى مدينة تعرف بخلقذونية فبتنا بها وسُيرنا في السحر، فركبنا في الخليج وصبّحنا القسطنطينية والبريد عندهم فرسخ؛ قال: وكنت أسمع أن للملك أربعة حبوسٍ دون دار البلاط التي يحبس بها أسراء الملك في رساتيق لهم. فأحدها يعرف بالطرقسيس، والآخر بالابسيق، والآخر بالبلقلار، والآخر بالنومرة، قال: والطرقسيس والابسيق أرفههما لأنهما لاقيود فيهما، والبلقلار والنومرة ضيقان ومن حبس في دار البلاط فبالنومرة ابتداء حبسه، ثم ينقل وهو حبس ضيق مؤلم مظلم. قال: وكانوا يسيرون بنا في كل يوم من عشرين بريداً إلى خمسة عشر بريداً فصرنا إلى القسطنطينية في نحو عشرة أيام من كمخ. والذي أعرفه أنا أن بين كمخ وملطية عشر مراحل، وبين ملطية وأنقرة عشرون مرحلة، ومنها إلى القسطنطينية عشر مراحل فيصير جميع الطريق أربعين مرحلة. قال: وألفيتُهم وإن الملك يتبعه في المترلة اللغثيط وهو الوزير والفرخ من بعده، وللفرخ من المترله أنه يلبس خفّيْن أحدهما أحمر والآخر أسود، ولا يتزيّى غيره بهذا الزي بوجه، وذلك أن الحكم والقطع والضرب والقَود والأدب من مؤامرة للملك إليه، ثم الدّمُستق من بعده ثم البطارقة وهم اثنا عشر رجلاً لاينقصون ولا يزيدون بوجه، وإذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له، ثم الزراورة وهم كثرة لايُحصَون كالقواد اللاحقين بالأمراء، ثم الطراخة وهم التُناء وأرباب النعم من أهل القسطينطينية. ومنهم يكون الارتفاع إلى الزرورة والبطرقة. وكل مولود يولد بالقسطنطينية للطراخة، فللملك عليه جراية من وقت يولد إلى آخر عمره، يدرّج في أسباب الزيادة والنقصان في أعطيته وأرزاقه عند درج بلوغه وتكهّله، وبقدر استحقاقه للزيادة

عند تعلقه بأسباب الرياسة من علم سياسة أو صعلكة، وتقدم في أسباب شجاعة، أو ترسّم بالرأي والفهم، إلا أن يترهّب فيستعفى من العطاء فيُعفيه الملك منه ...

وأما حد بلد الروم فإن مشارق بلدالهم المضمومة إليهم والمضافة على مر الأوقات إلى متملكيهم ما واجه من ناحية الثغور الشامية والجزرية إلى آخر حدود أرمينية وشمالها من نواحي البجناكية وبشجرت(=الباشغرد)، وبعض بلاد الصقالبة، ومغربها بعض البحر المحيط وما حادّ جليقية وافرنجة من جزيرة الأندلس وبعض بحر المغرب، وجنوبيّهم بقية بحر المغرب وبعض ساحل الشام ومصر. والمدن النفيسة قليلة في مملكتهم وبلادهم مع سعة رقعتها واتصال أيامها وحالها، وذلك أن جلها جبال وقلاع وحصون ومطامير وقرى في الجبال، منحوتة وتحت الأرض منقوبة. وقد استولى الخليج الآخذ من القسطنطينية إلى اطرابزندة على أكثرها، وليس هناك مدينة مشهورة إلا ماوصفته وحددته. ومياههم كثيرة غزيرة وليس تمر على وجه الأرض مراً مستقيما، وإنما تتغلغل بين الجبال على غير قصد ولا استقامة سير...

وقد ذكرت هذا البحر وماعليه من المدن والبقاع من حد طنجة ونواحيها إلى أرض مصر وإلى آخر الشام من الثغور إلى أولاس، مما كان في أيدي المسلمين ولهم وشكّلت ذلك إلى أطراف بلد الروم وما دون الخليج وبعده من الأرض الصغيرة، وأثبت فيه أكثر ما بعد الخليج من أرض القسطنطينية ونواحي بلبونس وجون البنادقين، وأرض قلورية والانكبرذة وافرنجة وروميه وجليقية وما يحادّ من نواحي الأندلس. وعلى هذا البحر وفي بلد الروم جبال لا تحد لكثرتها ومنها جبال إقليمية، وإقليمية مدينة كانت للروم قديماً أتى عليها المسلمون وكان بعض أبواب طرسوس يدعى بباب إقليمية وينسب إليها، وهذه الجبال آخذة ببلد الروم يميناً وشمالاً. وإذا جزت إقليمية وكانت بعيدة من شط البحر بنحو مرحلة نزلت المكان المعروف باللامس قرية على شط البحر، كان الفداء يقع فيها بين المسلمين والروم، فيكون الروم في مراكبهم والمسلمون في البر يفادون. وتتصل هذه الناحية بإقليم أجيا معدن الميعة التي تجلب إلى جميع الأرض في البر والبحر من هذا الرستاق والناحية، ويمتد البحر إلى أنطاكية وبينهما أربعة أيام في البحر بطاروس جيد ومثلها في البر. وأنطاكية حصن منيع ورستاق عظيم مضاف إلى حصن أنطاكية وليس للملك عليه دخان ولا كلفة من صغير ولا كبير، وبه مرتبون للخرائط والبريد بالبغال والبراذين في البر ومرتبون في البحر، لنقل الحوائج والمتاع المختص بالملك. ومن آجيا المذكورة إذا أقلع في البحر ملجّج إلى مصر أربعة أيام، وبين أنطاكية والقسطنطينية ثمانية أيام في البر على البريد، وفي البحر على الطاروس خمسة عشر يوماً، والأرض التي بينهما عامرة مأهولة مسكونة لا تنقطع سابلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها، وهو رستاق كثير الخير والمير إلى خليج القسطنطينية، وعلى الخليج سلسلة ممتدة لا تعبر عنها سفن البحر إلا بإذن وعلامة وعليها مرصد، ويقع هذا الخليج في بحر الروم من البحر المحيط على ما قدمت ذكره من نفس الشمال على طرف البرية التي لا تسلك برداً، فيمضي بقتر من أقتار ياجوج وماجوج ثم يخترق بلاد الصقالبة ويقطعها قطعتين ويتوسط بلد الروم.

ومن ورائه إلى المغرب بلاد أثيناس وورومية، وكلاهما ذوات أعمال ورساتيق وبلدان ومدن مضافة إليها وبرسمها، وقرى ومزارع وقصور وحصون وملوك على قدر صالح. وورومية وأثيناس مدينتان بهما مجمع النصارى وتقربان من البحر. فأما أثيناس فهي دار حكمة اليونانيين وبها تحفظ علومهم وحكمهم، وورومية ركن من أركان ملك النصارى، وبها كرسي النصارى ككرسي أنطاكية وكرسي الاسكندرية. والكرسي الذي ببيت المقدس محدث لم يك في أيام الحواريين، واتخذوه بعدهم لتعظيم بيت المقدس، ثم تتصل أرض قلورية بأرض الانكبرذة، وأول ذلك أرض شلوري ثم نواحي ملف. ومدينة ملف أخصب بلدان الانكبرذة وأنظفها وأجلها أحوالاً وأكثرها يساراً وأموالاً، وتتصل أرض ملف بأرض نابل، وهي مدينة صالحة الحال دون ملف في أكثر أحوالها. وأكثر أموال أهل نابل من الكتان وثياب الكتان، وبها منه ثياب ليس بسائر الأرض مثلها ولا ما يشاكلها ولا يستطاع. ولهم ثوب يعمل طوله مائة ذراع في عشر أذرع، ويباع الثوب منها بالدون فمن مائة وخمسين رباعي الثوب إلى ما فوق ذلك بقليل وأنقص بكثير. وتتصل ارض نابل بأرض غيطة، ثم تتصل ديارهم بالافرنجة على ساحل البحر إلى أن تحاذي صقلية، وتجاوزها إلى أن تتصل بطرطوشة من أرض الأندلس.

وفي هذا البحر جزائر صغار وكبار، وجبال غامرة وعامرة للروم والمسلمين. فأما المعمور بالإسلام والناس فصقلية، وهي أكبرها وأكثرها عدةً وأشدها بأساً بمن حوته من ناقلة المغرب، وهي ناحية قريبة من الافرنجة... وكان للمسلمين في هذا البحر غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة نبيلة، فاستولى العدو عليها كقبرس واقريطش، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة، والوارد منها والصادر إليها رائج. وكان أخذهما أحد الأسباب الزائدة في أطماع الروم لأنهما بما كان فيهما من الرجال والعدة والعتاد كالنار، لهيبها لا يفتر وأوارها لا يقصر، ينكون في بلد النصرانية صباح مساء نكايةً بينة ظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم للروم في مساكنهم، فصمدت النصرانية صمدهما ووكدت وكدهما إلى أن فتحتا جميعا وملكتا. وكانت قبرس على غير ما كانت اقريطش عليه من مواقفه كانت بين أهلها فيها، وذلك أنها لم تزل قسمين، نصف للروم ونصف للمسلمين بها لهم أمير وحاكم، وأيدي المسلمين مبسوطة على من جاورهم من النصارى والنصارى بهم شقّين. وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت وفتحت في أيدي المسلمين، ولم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج، وأهلها في غاية الجهاد، وفي حين الهدنة والمسالمة مصونة في شرائط بينهم غزيرة مقرونة بالقهر والاستظهار. وميرقة جزيرة خطيرة لصاحب الأندلس، وكذلك جبل الفلال مضاف إلى ذلك العمل، وليس ميرقة بالمدانية لصقلية في حال من الأحوال وإن كانت ذات خصب ورخص وسائمة ونتاج وخير؛ فإنها تقصر عن صقلية في العدة والعتاد والقوة على الجهاد وكثرة التجارة ووفور العمارة.

ومن الجزائر المشهورة غير العامرة جزيرة مالطة، وهي بين صقلية واقريطش، وبها إلى هذه الغاية من الحمير التي قد توحّشت والغنم الكثير الغزير، وبها من العسل أيضاً ما يقصدها قوم بالزاد لاشتياره ولصيد الغنم والحمير، فأما الغنم فتكسد والحمير فيمكن الورود بها إلى النواحي فتباع وتعتمل. والذي سبب هلاك الجزيرتين بعد قصد العدو لهما ما صار إليه أهلها من البغي والحسد والنكد، حسب ما خامر أهل الثغور من



ذلك إلى استباحة الفساد والفسوق والغدر والغيلة والتضاد والعناد، فجُعلوا عبرةً للمعتبرين وموعظة للسامعين الناظرين... وقد ذكرت أن من جبلة إلى قبرس يومين ومنها إلى جانب بلد الروم مثله، وبقبرس المصطكي الجيد والميعة الكثيرة والحرير والكتان، وبها من القمح والشعير والحبوب والخصب مالا يوصف كثرة. والجبل الفلال الذي بنواحي افرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراض تقوت من لجأ إليهم، فلما وقع إليه المسلمون عمروه وصاروا في وجوه الإفرنجة والوصول إليهم ممتنع، لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين.

وليس في البحار أعمر حاشية من هذا البحر، لأن العمارات من جنبتيه ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة، وسائر البحار تعترض في شطوطها المفاوز والمقاطع. وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر، ومن للمسلمين بناظر، والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالباطل على ما يبلع، ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً، والفقية ذئب أدرع، في كل بلية يشرع، وبكل ريح يسري ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، لا يعاف حراما ولا مطمعاً، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة، والأملاك مغتصبة مصطلمة، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة؛ وهذه جمل صفة بحر الروم وجزائره وما عليه مما يحتاج إلى علمه.)

13. بحر الروم (= المتوسط) الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر).

(قال الدمشقي: زعم المؤرخون أن الاسكندر حفر الزقاق (=مضيق جبل طارق) وأجراه من المحيط غصباً على أهل البلاد والأقاليم التي أغرقها به. وزعم قوم منهم أنه حفره ليكون فارزاً بين أهل الأندلس والبربر، وأهل بر العدوة والأشبان، يمنعهم من الغارات التي يغاروها بعضاً على بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه. وزعم آخرون أنه لم يحفره ولكنه أراد أن يعمّر عليه جسراً على قناطر ففعل ذلك ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر، وإنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عند سكون الريح وهدوء الموج ونقص مدّه وجزره. وطول عرض الزقاق ثمانية عشر ميلاً الآن، والجسر الذي بناه الاسكندر في أضيق مكان أمكنه البناء وهو أربعة آلاف خطوة وذلك طوي ميل واحد وقسّمه سبعين قنطرة باثنين وسبعين برجاً قاعدة، مابين كل حنيّة منها مع برج خمسون ذراعاً. وابتدأ العمل من الساحلَيْن حتى ختم بالوسط.

قال أهل الهندسة وكيفية بناء ذلك أنه بنى في الطرفَيْن ما أمكنه ارتكاكاً ردماً حتى وصل إلى الماء العميق المتحرك بالموج، فاتخذ عليه مراكب كالجسر، وأوصل بعضها ببعض بالجبال حتى اتصلت ولزمت بعضها ببعض بالحبال والإيثاق، ثم أوصل كعاب سلاسل الحديد المحكمة كعباً إلى كعب، وعلقها في المراكب شيئاً بعد شئ حتى أوصلها سلسلةً واحدة من البر إلى البر، ثم أوثق أطرافها من الناحيتَيْن، ثم إنه مد ثلاث سلاسل أخرى كذلك، وجعل بين كل سلسلتَيْن مراكب منظومة جسراً محكماً، وجعل بين هذين الجسرتين فضاء في البحر نحو أربعين ذراعا. ثم فرش في الفضاء على وجه البحر طوال الخشب المحكم التداخل بعضها ببعض

بالدسر والقلفاط حتى صار الفرش كمثل الحصير المفروش على وجه الماء، وهو ملأ ذلك الفضاء بين تلك السلاسل وجعل مثل الواحد المفروش مفارش بعدد الأبرجة التي بين الحنايا، فلما كمل أقام على كل مفرش منها حائطاً من الخشب المحكم والتصفيح بالحديد نحو قامة، ثم بنى في وجه كل مفرش مدماكاً بالحجارة والكلس، ثم رفع الحوائط بالخشب كذلك، ثم بنى مدماكاً فوق مدماك حتى وصل المفرش إلى أرض البحر، وهو برج من حجارة محكم البناء له غلاف كالصندوق من الخشب المدسر المحكم التصفيح بالقلفاط، فلما استقر كل مفرش وصار برجاً قائماً في الماء ممسوكا بين السلاسل، بنى عليه مداميك ارتفع بها عن ضرب الموج وعن زيادة المد، ثم ترك ذلك سنة على تلك الحالة، ثم يفقده بإصلاح. ثم بنيت أوائل القناطر على رؤوس تلك الأبرجة ثم جعلت لها القوالب وعقدت عليها فكملت، ثم تركت سنة ثانية، ثم ركب بالعمارة جسراً طوله أربعة آلاف ذراع وزيادة مئتي ذراع، واستمر حتى طغى البحر فركب الجسر وفاض عليه وعم ما حوله حتى وصل إلى ما وصل إليه من البلاد. وتحيّر بعض أهل البحر المسافرين فيه أنهم بعض الأحيان يتوقف الريح ويسكن البحر فيرون في قرار البحر أسواراً وعمارات قائمة فيه تحت الماء. وهذا الزقاق صعب شديد تلاطم الموج تجد السالكون فيه مشقة من هوله وصعوبته لمجاورته من البحر المحيط ومبدأ جريه هذا الزقاق من ارتفاع ست وثلاثين درجة عرضاً من الإقليم الرابع.

قال أهل العلم بذلك أن بحر طنجة وسبتة والروم المسمى بحر مانيطس المذكور إذا خرج من الزقاق انفرش فيما بين جبلين، واندفع إلى جهة المشرق في نحو طول ثمان وخمسين درجة وهي بالفراسخ ألف فرسخ وستة وعشرون فرسخاً، وهي بالأميال ثلاثة آلاف ميل وستة وسبعون ميلاً، وعرضه الأعرض وهو من عرض ثلاثين إلى ثلاث وأربعين درجة، وهي بالفراسخ مائتا فرسخ وسبعة وثلاثون فرسخاً، وهي بالأميال سبعمائة ميل وأحد عشر ميلاً، وهو بين العلايا واسكندرية. ومسافته بالمراحل سبع وثلاثون مرحلة، وطبيعة هذا البحر حارة رطبة بالنسبة إلى بحر الجنوب الحار اليابس وإلى البحر الشمالي البارد الرطب، وييس بحر الجنوب لغلبة ملحيته وحرارته. واعمق عمقه ثلاثمائة باع إلى ما دون ذلك. وأول انفراشه من الزقاق بأرض البربر على سفلى سبة وقصر الجواز، ويسمى قصر عبدالكريم وإلى المزمة. وهناك ينفرش بحراً كصورة الخرطوم المعقّف يسمى بحر المزمة، ثم يمتد منفرشاً في أرض افريقية إلى برقة إلى اسكندرية. وهناك يكون عند انعطافه كصورة الدائرتين متلاصقتين، ثم ينعطف إلى شمال أرض التيه، ثم يأخذ بحر الشام صدره ماراً بأرض فلسطين وسواحل الشام إلى أن يتصل بذيل لبنان الغربي، فيمر بطرابلس الشام إلى اللاذقية وإلى أنطاكية وذيل جبل الأقرع إلى السويدية وأذنة، ثم ينعطف في آخر بلاد سبس إلى جهة المغرب ويمر ببلاد الروم إلى العلايا وأنطالية وإلى الأشكري إلى بلاد الجلالقة إلى بلاد الخرياط إلى أرض المصطكي إلى الساعد المسمى خليج قسطنطينية، ثم يمر بها مغرباً إلى بلاد جنوة إلى بندقية إلى بيزان إلى بلاد سردانية إلى بلاد برسلونة إلى جزيرة بلنسية إلى بلاد الأندلس. فيمر بجبال ميرقة ثم بالجزيرة الخضراء إلى الزقاق الذي ابتدأ انفراشه منه.

ولهذا البحر الرومي مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه، وله مد وجزر في كل يوم وليلة، كما للبحر المحيط منه. اختلفوا في الساعد الخارج منه عند قسطنطينية فزعم قوم أنه داخل إليه من بحر نيطس الذي هو البحر الأسود، يسمى بحر الروس متصل ببحر ورنك والصقالبة. وزعم قوم أن هذا البحر الرومي هو الذي يصب من الساعد في بحر الروس وأن بحر الروس غير متصل ببحر ورنك لاتصال الأرض الكبيرة من الأندلس إلى ما وراء النهر وإلى صحارى القبجق لا يقطع السير منها إلا نهر الحلوة فقط. وقيل إن طوله الأطول من الزقاق إلى اصقلية إلى رودس إلى شمال قبرس إلى أنطاكية خمسة آلاف ميل. وإن فيه مايزيد على مئة وسبعين جزيرة عامرة بطوائف الفرنج، فأخرب المسلمون أكثرها بالمغار في صدر الإسلام، فبقي بعضها خرابا، وبعضها استرجعوه بنو الأصفر، والله أعلم. فمن جزائر البحر الرومي جزيرة اصقلية، وهي حيال افريقية؛ فلما كانت في أيدي المسلمين كانت كثيرة العلماء والأدباء والفضلاء مضاهية الأندلس، وشكلها مثلث يحيط بها خمسمائة ميل كثيرة الجبال والشجار والثمار والأنهار والمدن والحصون على السواحل منها ومن مدنها المشهورة بلرموه، وبها يكون الملك، ولها ربض، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الرأس منها إلى الخالصة، وهي محدّثة بنيت في أيام القائم أبي القاسم المهدي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. ومدينة قطانية وكانت عظيمة فأحرقها البرقان الذي في الجزيرة، فبنى الأنبرور مدينةً عوضها وسماها غسطارة.

ومدينة مسينة هي على أحد أركان الجزيرة، ومدينة سرقوسة وهي على الركن الآخر، والبحر يحدق بها من ثلاث جهاتها، ولها قنطرة يجاز عليها إليها. ومن بلاد الجزيرة البرية الشاقة ومازر وكركنت ونوطس وشكله وطبرمين وقصريانة ورغوش وغنطة ورمطة واميش ويرتيه، وغيرها مما لافائدة في ذكرها. وهذه الجزيرة أربعة عشر رستاقاً كباراً. وبالقرب من الجزيرة جزيرة أخرى ملاصقة لها، وهي أطمة البركان ترمي من نارها حذفاً إلى السماء بأجسام كأجسام الناس بلا رؤوس فتعلوا بالهواء ثم تسقط في البحر على وجه الماء، وفيها حجارة حك الرجل. وقبالة هذه الأطمة جبل بالجزيرة ويسمى بجبل اللكام، وهو شامخ مطل على البحر وفي ذيله أشجار البندق والآرز والقصطل وفي أعلاه منفس للنار مثل منفس الأطمة يخرج منه النار ترى ليلاً من بعد بعيد في البحر وترى دخاناً في النهار، وكذلك وحولها رماد عظيم نعيم قد أحاط بها لايطاق خوضه لأحد لنعومته وحرارة أعاليه القريبة من وقع النار، ويخرج من هذا المنفس أيضاً حجارة أصغر من حجارة الأطمة، وربما مالت وسالت منه إلى بعض جهاته فتحرقها وتحرق ما تمر عليه وتجعله كخبث الحديد. وركاب البحر يزعمون أن النار التي بين هذين الجبلين قتال وحرب بينهما، وأنه لا ينفك الحرب عنهما. وكان اليونان يسمون هذا الجبل جبل الذهب لما فيه من معادن الذهب ومعادن الكبريت والزيبق وغير ذلك.

جزيرة يابسة وهي جبال جزيرة الأندلس وطولها وعرضها يومان في يوم وبها مدينة صغيرة مسورة، وجزيرة بلنسية ثلاث أيام في يومين وبها مدينتان عامرتان، وجزيرة ميرقة عامرة وهي يومان في مثلها، وجزيرة مانورقة وطولها وعرضها يومان في نصف يوم وبها مدينة عامرة، وهذان الجزيرتان للكاطلان. وجزيرة رودس حيال بلاد افرنجة يحيط بها ثلاثمائة ميل وفيها حصنان. وجزيرة سردانية طولها مئتا ميل وثمانون ميلاً عرضها



مائة وثمانون ميلاً وبها ثلاث مدن وبها معدن فضة وسكانها روم متوحشون أولو أبدان صبورة على الشقاء والكد يخالفون الفرنج في المذهب. وجزيرة بلبونس دورها ألف ميل ولها مجاز إلى البر الطويل عرضه ستة أميال، وفيها ما يزيد على خمسين مدينة القواعد منها خمس عشرة مدينة اشهرها عند الافرنج. وجزيرة مالطة طولها سبعون ميلاً وعرضها ثلاثون ميلاً وبها مدينة مسماة باسمها. وجزيرة قوصرة جزيرة كبيرة وبها مواضع متوحشة غير مسكونة، ويزعم أهلها أن بها جان ظاهرون للناس وأن كل واحد منهم يسمى شيطانا. وجزيرة جالطة وتعرف بجزيرة الغنم وبها غنم كثير سائبة يرعون ويتوالدون ولا أحد يذبح منها شيئاً إلا نادرا، وهذه الأغنام كالوحش نفورا. وبهذه الجزيرة دير الغنم كذلك.

وجزيرة اقريطش وهي حيال برقة طولها ثلاثمائة ميل وثلاثون ميلاً، وفيها مدينتان إحداهما تسمى الخندق والأخرى ربض الجبن، وفيها معدن الذهب. والبنج الاقريطشي منها. وكذلك الأفتيمون الجيد منه يجلب. وجزيرة قبرس، وقبرس اسم النحاس لأن بها معدنه ويحيط بها ألف وخمسمائة ميل، وفيها من المدن الجليلة النمسون ومدينة الفاف والماغوصة والأفقسية، وهي مستقر الملك، وهي في وسط الجزيرة، والبواقي في السواحل. وسهولها شبيهة بأرض مصر وطينها إبليز وجبالها شبيهة بجبال الشام والروم، وبها جبل فيه صنم منحوت ودير عظيم عنده وصليب يسمونه صليب الصلبوت خشب مغلف الأطراف بالحديد المطلي بالذهب محمول الأطراف بالمغناطيس في الهواء بين قواعد كبار من حجارة مغناطيس صنعه شياطين النصارى لجهلهم. وجزيرة أرواد بالقرب من ثغر أنطرسوس وهي ستة أميال طولاً وعرضاً، وبها حصن فتحه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أول غزوه لبحر الروم وبنى ثغر أنطرسوس على أثر بناء قديم قبل بنائه له.

وجزيرة النخلة بحيال طرابلس الشام صغيرة متصلة بها ثلاث جزائر صغار فيما بينها وبين الساحل، وجزيرة الموت جزيرة صغيرة لايسكنها أحد؛ لأنّ بها نباتاً وأشجاراً تقتل بشم ريحها وبطلّها وبأكل شئ منها، وورق هذا الشجر يشبه ورق الحمص والسذاب. وجزيرة الغراب بالقرب من ساحل سردانية بها كنيسة على رأس جبل بها قبة عالية على رأس القبة غراب يرى ليلاً ونهاراً يطير ويحط فيها ويدور حولها، وإذا صعد الإنسان إليه لا يراه ويكون رفيقه من أسفل يراه. وفي القبة بأعلاها كوة تسع الغراب، وكلما قصد الكنيسة زائر أو زوار صاح الغراب بعددهم إعلاماً لأهلها بالزائرين. وجزيرة دير وهي ببحر قسطنطينية بشعاب بحرها ووعره طولها ميلان في نصف ميل، والدير الذي سميت به الجزيرة لايزال مغموراً بالماء طول السنة إلا يوم واحد وهو رابع عشرون حزيران فإنه ينكشف الماء عن الدير والناس يقصدونه للزيارة ووفاء النذر فإذا كان يوم ظهوره انحسر الماء عنه وبقي مكشوفاً إلى بعد العصر ثم يشرع الماء يغمره قليلاً قليلاً إلى وقت المغرب فيتوارى مغموراً بالماء إلى مثل ذلك اليوم من السنة المقبلة. وجزيرة لزقة جزيرة صغيرة وبها مدينة تعرف بها.

قال أهل العلم بذلك يخرج من بحر الروم خليجان: أحدهما يسمى خليج البنادقة والآخر يسمى قسطنطينية. فأما خليج البنادقة فخليج متسع ليس له فوهة وإنما هو جون له ركنان سعة مابينهما سبعون ميلاً ويحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج البنادقة، وهي ذوات حط وإقلاع وحصون، وفيه ست جزائر



ثلاث في صف وثلاث في صف. بها مدن عامرة وثلاث معرضة من ركنية مهملة. وأما الخليج الثاني فساعد ممدود عند اصطنبول، التي هي قسطنطينية تسمى باليونانية مانيطس، وفوهته مقابلة لجزيرة قبرس من الشمال وسعته رمية سهم. ويقال إنه كان عليه سلسلة طرفاه من برجين تمنع الراكب من الدخول إلا بإذن الموكلين بها، ويمر هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلاً إلى البحر المسمى الأسود وبحر طرابزندة والروس. وتكون اصطنبول من غربيّه يحيط بها من جانبيه ومن شرقيها أرض المصطكي، وهي شعراء وجبال مستحرمة. وعرض الخليج عندها ثلاثة أميال ثم يمر إلى ثلاثين فرسخاً حتى يصب في بحر مانيطس، وعرض فوهته هناك ست أميال. وذكر ابن حوقل أنه يخرج من المحيط خليج ثالث في شمال الصقالب، ويمتد إلى قريب من بلغار المسلمين، وينحرف نحو الشرق. وبين ساحلة وبين أقصى بلاد الترك أراضي وجبال مجهولة خراب. . .

قال المعتنون بتدوين العجائب إن في بحر الروم من الحيوان العجيب سمكة كصورة رجل أحمر اللون كبير الجثة، رأسه مثل رأس القرعة أبيض كأنه رأس إنسان محلوق وجهه طويل، وفمه مكون كتكوين فم القرد، وله ودجان من لحيته إلى أصول رقبته كالزرّيْن بارزين، وليس له رجلان وله يدان صغيرتان وبدنه من نصفه الأسفل بدن سمكة بذنب مفروش يظهر بوجه الماء نصفه الأعلى، ويلتفت برأسه يميناً وشمالاً وعيناه كبيرتان كعين البقر مستديرتان في وجهه ثم يغطس على رأسه في الماء كالمتقلب سفلاً في العلو، وكثيرا ما يرى هذا الحيوان بالقرب من السواحل بأذيال الجبال ذوات المغائر والمداخل، ومنها موضع وجه الحجر بالقرب من طرابلس الشام. وسمكة لها وجه آدمي بلحية بيضاء ولون جسده كلون الضفدع، وهي في قدر العجل ويسمى الشيخ اليهودي، يخرج من البحر ليلة السبت قبل غروب الشمس إلى البر ولايزال إلى غروب الشمس ليلة الأحد فيدخل البحر. وسمكة أيضاً كصورة رجل محارب بيده سيف قصير وبالأخرى ترس مدوّر، وعلى رأسه بيضة برفرف، وذلك كله قطعة واحدة، حيوان واحد، جسم حي واحد، السيف عضو والترس عضو، والخوذة عضو، يسمى: سيّاف البحر. وأكثرها يوجد ببحر سردانية وبرشلونة والله أعلم. وحيوان كهيئة الرجل والمرأة بالوجوه، وأبدانها أبدان السمك. وهذا النوع يوجد كثيراً قريب زقاق سبتة، وفيه وفي البحر المحيط منه بكثرة، وربما حمله البحر إذا مدّ فيلقيه في الساحل عند جزره يتخبط فيصاد بسرعة قبل عود المد إليه. وسمكة طولها نحو شبرين أو أقل مكتوب على ظهرها بالعربية: لا إله إلا الله ومكتوب بين أذنيها من خلف: محمد رسول الله. وهذه السمكة توجد حول مياه قسطنطينية حيث يوجد السمك الذي يسمونه سقنقورا، وهو نوع من القرش وفي الساعد ويتبارك بها الصيادون ويردوها إلى البحر إذا صادوها. وسمكة تسمى البغل وهي بحرية برية صوتها كشهيق البغال إذا خافت أو حدث لها حال.

وسمكة تعرف بحوت موسى طولها أكثر من ذراع وهي جانب ملآن لحم وجانب فارغ من اللحم، الجلد على العظم، والصيادون أيضاً يتباركون بها ولا يأكلونها، ويقولون هذا من نسل حوت موسى ويوشع عليهما الصلاة والسلام. وسمكة كصورة القلنسوة، شفافة الجسم كشفوف الزجاج شبيهة بالبيضة يعني الخوذة، ولها أربعة أجرام من وسطها ترى في الليل مضيئة كالقمر إذا حجب بالسحاب الرقيق، ولها ضوء



يشرق على ماحولها في البحر ولونها أزرق سماوي يقال لها قنديل البحر، وإذا أحست بالإنسان يعوم حولها أو أراد مسكها، خرج لها رشاش لذاع يحرق الجسد مثل شرار النار من سميته، وهو يلقيه البحر بساحله كثيراً. وسمكة تعرف بالمنارة تخرج من الماء كصورة المنارة الرفيعة تلقي نفسها حيث اتفق، فربما صادفت سفينة فتغرقها إذا أصابتها لعظم جثتها. وبالبحر طائر أبيض لايكاد يرى في البر، ومن شأن هذا الطائر إنذار المراكب من العدو متى رأوه علموا أنهم ملاقوا عدواً. وسمكة لها أجنحة تطير بها على وجه البحر ومنقار طويل نصف شبر. وسمكة يقال لها السيفياص، ظهرها الذي يأخذونه الصاغة يقلبون فيه الخواتم وأعمدة الحوائص يسمونه زبد البحر. وهذه الأسماك تأتي إليها الأسماك ليأكلوها فتذرق عليهم في الماء حبراً أسود يحول بينهم وبينها فتذهب لسبيلها. فسبحان الخلاق العليم القادر على كل شئ.)

15. ذكر البحر الرومي، المقريزي (845هـ = 1441م) من كتاب (المواعظ والاعتبار)

(..مخرج البحر الرومي من جهة الغرب، وهو يخرج في الإقليم الرابع بين الأندلس والمغرب سائراً إلى القسطنطينية، ويقال: إن إسكندر الجبار حفره وأجراه من البحر المحيط الغربيّ، وإن جزيرة الأندلس وبلاد البربر كانت أرضاً واحدة يسكنها البربر والأشبان فكان بعضهم يغير على بعض إلى أن ملك إسكندر الجبار بن سلقوس بن اعريقس بن دوبان فرغب إليه الأشبان في أن يجعل بينهم وبين البربر خليجاً من البحر يمكن به احتراز كل طائفة عن الأخرى فحفر زقاقاً طوله ثمانية عشر ميلاً في عرض اثني عشر ميلاً، وبنى بجانبيه سكرين وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها وجعل عندها حرساً يمنعون البربر من الجواز عليها إلا بإذن وكان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة وساق بين يديه بلاداً كثيرة وطغى على عدّة بلاد. ويقال: إن المسافرين في هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور وبين حائطين ثم عظم هذا الزقاق في الطول والعرض حتى صار بحراً عرضه ثمانية عشر ميلاً ويذكرون أن البحر إذا جزر ترى القنطرة حينئذ. وهذا الخبر أظنه غير صحيح فإن أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل ذكره في الدهر الأوّل قبل إسكندر بزمان طويل، فإما أن يكون ذلك قد كان في أوّل الدهر مما عمله بعض الأوائل، وإما أن يكون خبراً واهياً وإلا فزمان إسكندر حادث بعد كون هذا البحر، واللّه أعلم.

وهذا الزقاق صعب السلوك شديد الهول متلاطم الأمواج، وإذا خرج البحر من هذا الزقاق مرّ مُشرقاً في بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين، والسواحل من بلاد الشام، ثم يعطف من هناك إلى العلايا وأنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حتى ينتهي إلى البحر المحيط الذي خرج منه، وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل، وقيل: ستة آلاف ميل، وعرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة ميل، وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة..منها صقلية وصورقة وأقريطش. وقبالة البحر الهنديّ من جهة المغرب بحر خارج من المحيط في مغرب بلاد الزنج ينتهي إلى قريب من

جبل القمر وفيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة، وفي أسفله جزائر الخالدات التي هي منتهى الطول في المغرب، ويقابل البحر الشاميّ من ناحية المشرق بحر جرجان وقيل: إنه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة وبحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الإقليم السادس، والإقليم السابع، وهو متسع وفيه جزائر كثيرة، ومنها جزيرة الأندلس إلا أنها تتصل بالبرّ الكبير، وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البرّ عند برشلونة، ولهم بحر يُعرف يأجوج ومأجوج غزير وفيه عجائب..ويقال: إن مسافة هذا البحر الروميّ نحو أربعة أشهر.

وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونيّ، في كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن: وقد كان حرّض بعض ملوك الفرس في بعض استيلائهم على مصر على أن يحفروا ما بين البحرين القلزم والروميّ ويرفعوا من بينهما البرزخ، وكان أوّلهم شاسيس بن طراطس الملك ثم من بعده دارنوش الملك فلم يتمكن لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر، فلما كانت دولة اليونانيين: جاء بطليموس الثالث ففعل ذلك على يد أرسمدس بحيث يحصل الغرض بلا ضرر. فلما كانت دولة الروم القياصرة طموه منعاً لمن يصل إليهم من أعدائهم. وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان في قديم الزمان أرضاً تنبت الجميز وكانت مسكونة وخمة، وكان أهلها من اليونانية، وأن الإسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض، وكان بها فيما يزعمون: الطائر الذي يُقال له قفنس، وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح، وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت قفنس في تلك الحال فخشي إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسدّ أذنيه سدّاً محكماً ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئاً بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه في أوّل مرّة فيأتي عليه، وزعموا: أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه، وعلى رهطه بالليل في الأوكار فلم يبق له بقية، ويقال: إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحاً فيه سمّ ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرّة وفرح فقال له: ما هذا أيها الحكيم؟ فقال: هل أعجز أن أكون مثل قفنس.

16. البحر الحبشي (= المحيط الهندي)، المسعودي. من كتاب (مروج الذهب)

(قال المسعودي: قدّروا بحر الهند، وهو الحبشي، وأنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين، ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع، ويكثر كذلك... وليس في المعمور أعظم من هذا البحر، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة، ويسمى الخليج البربري، طوله خمسمائة ميل، وعرض طرفيه مائة ميل. وليست هذه بربرى التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض افريقية؛ لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الإسم، وأهل



المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري - وهم يعرفونه ببحر بربري، وبلاد جفوني- أكثر مسافة مما ذكرنا، وموجه عظيم كالجبال الشواهق؛ فإنه موج أعمى، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لاينكسر موجه، ولايظهر من ذلك زبَد، كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر، ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم، فيرتجزون ويقولون:

بـــربرى وجفوني	ومـــوجك المجنون
جـــفوني وبربرى	وموجها كما ترى

وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو، وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج، والأسافل من بحرهم، ويقطع هذا البحر السيرافيون. وقد ركبتُ أنا هذا البحر من مدينة سنجار، من بلاد عمان (= وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب، مثل محمد بن الريدوم السيرافي، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة، وفي هذا البحر تلف ومَنْ كان معه في مركبه، وآخر مرة ركبتُ فيه في سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك في مركب أحمد وعبدالصمد أخوي عبدالرحيم بن جعفر السيرافي، بميكان، وهي محلة من سيراف، وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما، وكان ركوبي فيه أخيراً والأمير على عمان أحمد بن هلال بن أخت القيتال. وقد ركبتّ عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره. وفيه السمك المعروف بافال، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه، فيكون كالقلع العظيم، وهو الشراع، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم، والمراكب تفزع منه في الليل والنهار، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه، وقد فَغَر فاه، وذلك السمك يهوي إلى جوفه جرياً، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص، فتطلب قعر البحر، وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم. وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمركب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة، إذ كانت آفة له وقاتلته.

وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون في ساحل النيل وجزائره، وذلك أن التمساح لا دبر له، وما يأكله يتكون في بطنه دوداً، وإذا آذاه ذلك الدود خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فاغراً فاه، فيقيّض الله إليه

طير الماء كالطيطوي والحصافي وغير ذلك من أنواع الطيور وقد اعتادوا ذلك منه، فيأكل ماظهر في جوفه من ذلك الدود، وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل تراعيه، فتدب إلى حلقه، وتصير في جوفه، فيخبط بنفسه في الأرض فيطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشوة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج، وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عرس، ولها قوائم شتى ومخالب. وفي بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى، ولولا أن النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار، ومافيها من الحيتان والدواب، وغير ذلك من عجائب المياه والجماد.

فلنرجع الآن إلى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه، ودخوله في البر ودخول البر فيه، فنقول: إن خليجاً آخر يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي إلى مدينة القلزم من أعمال مصر، وبينها بين فسطاط مصر ثلاثة أيام، وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن، وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرض طرفيه مائتا ميل، وهو أقرب المواضع من عرضه، وعرضه في الوسط سبعمائة ميل، وهو أكثر العرض فيه، ويلاقي ماذكرناه من الحجاز وبلاد أيلة من غربيه من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقى وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة، ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان إلى أن يتصل ذلك بأقاصي أرض الزنج وأسافلها، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج، ويتشعب من هذا البحر خليج آخر، وهو بحر فارس، وينتهى إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة، وعرضه في الأصل خمسمائة ميل، وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميل. وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهي أحد زواياه إلى بلاد الأبلة، وعليه مما يلي المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس وماهر بان ومدينة حسان، وإليها تضاف الثياب الحسانية، ومدينة نجيرم ببلاد سيراف، ثم بلاد ابن عمارة، ثم ساحل كرمان، وهي بلاد هرموز، وهرموز مقابلة لمدينة سنجار من بلاد عمان، ثم يلي ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران، وهي أرض الخوارج الشراة، وهذه كلها أرض نخل، ثم ساحل السند، وفيه مصب نهر مهران. وهناك مدينة الديبل، ثم يكون ماراً متصلاً بساحل الهند إلى بلاد بروض، وإليها يضاف القنا البروضي، براً متصلاً إلى أرض الصين ساحلاً واحداً.

ويقابل ما ذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند: بلاد البحرين، وجزائر قطر، وشط بني جذيمة، وبلاد عمان، وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة إلى أرض الشحر والأحقاف، وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك، وهي بلاد جنابة، لأن خارك مضافة إلى جنابة، وبينها وبين البر فراسخ، وفيها مغاص اللؤلؤ المعروف بالخاركي، وجزيرة أوال فيها بنو مَعْن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب، بينها وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم، بل أقل من ذلك. وفي ذلك الساحل مدينة الزارة والعقل والقطيف من ساحل هجر، ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة، منها جزيرة لافت، وتدعى جزيرة بنى كاوان، وقد كان افتتحها عمرو بن العاص وفيها مسجده إلى هذه الغاية، وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة، وتقرب هذه الجزيرة إلى جزيرة هنجام، ومنها يستسقي أرباب المراكب الماء، ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير، ثم الدردور



المعروف بدردور مسندم، ويكنيه البحريون بأبي جهرة، وهذه مواضع من البحر، وجبال سود ذاهبة في الهواء لا نبات عليها ولاحيوان يحيط بها مياه من البحر عظم قعرها وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرفت عليها، وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لا بد للمراكب من الجواز عليها والدخول في وسطها، فتخطئ وتصيب. وهذا البحر هو خليج فارس، ويعرف بالبحر الفارسي عليه ماوصفنا من البحرين وفارس والبصرة وكرمان وعمان إلى رأس الجمجمة، وبين هذا الخليج وخليج القلزم أيلة والحجاز واليمن. ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل، وهي داخلة من البر في البحر، والبحر يطيف بها من أكثر جهاتها على ماوصفنا. فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند ومَن في جزائره ومن قد أحاط به من الأمم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم ولا عددهم ألا من خلقهم سبحانه وتعالى، ولكل قطعة منه اسم يفردها من غيرها، والماء واحد متصل غير منفصل.

وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، وفيه العقيق والباديج، وهو نوع من البجادى، وأنواع الياقوت والماس والسنباذج، وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة، وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان، ونحاس بأرض عمان، وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران، وكل ما ذكرنا من الجواهر والطيب والنبات ففيه وحوله، وسائر ماذكرنا من هذا البحر يدعى بالبحر الحبشي، ورياح ما وصفنا من قطعة التي تدعى كل واحدة منها بحراً- كقولنا: بحر فارس، وبحر اليمن، وبحر القلزم، وبحر الحبش، وبحر الزنج، وبحر السند، وبحر الهند، وبحر كلة، وبحر الزابج، وبحر الصين- فمختلفة، فمنها ما ريحه من قعر البحر يظهر فتغليه ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار، ومنها ما ريحه والآفة فيه من قعره والنسيم، ومنها ما يكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره، وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح فذلك تنفسات من الأرض تظهر في سطحه..)

17. جزائر المحيط الهندي، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر).

(فمن أول جزائر بحر الهند بالجنوب وراء خط الاستواء جزيرة أصرار يحيط بها نحو ألف ميل وبها مدينة سميت الجزيرة باسم المدينة، وفي طرفها جبل شاهق مطل على البحر فيه نوع من القرود كبار الجثة وأحدهم كالبقرة أو الحمار، ولهم شعور من رقابهم إلى أكتافهم طوال ناعمة سبطة شبيهة وبر السرسينا، وهي ملونة ألواناً طاؤوسية وليس لهم أذناب ومقاعدهم حمر شديدة الحمرة وخصيانهم زرق ولايطاقون شراً وفساداً لمن ظفروا به، ويعومون في البحر كعوم الناس يصيدون السمك منه. وبهذه الجزيرة وادي الهول به معدن الياقوت الأحمر البهرماني جليل جداً، وهذا الوادي به حيوان أشبه الناس بالأبدان ورؤوسهم رؤوس سباع يراهم الإنسان من بُعد وإذا قرب منهم لم يرهم، ولايؤذون ولايمنعون الداخل إلى ذلك المعدن، ويقال إنهم جـــان. وببحر هذه الجزيرة طائر النور، وهو طائر بحري بري وسيَّما أن طار على المركب أو قاربه، وبهذه الجزيرة وبغيرها طائران أحدهما تابع والآخر متبوع يسمى التابع كركر والمتبوع خرشنة، وليس للتابع غذاء إلا ما



يسقط من ذرق المتبوع حال طيرانه. وبهذا البحر وبالقرب بنواحي سرنديب ولقمرانه وبجنوب هذه الجزيرة دابة من دواب البحر برية بحرية عظيمة الهامة لها أنياب معقفة وجناحان وأربع رؤوس في عنق واحد يسمى باسم معناه، دابة الهلاك، تقتات بما وجدته من حيوان بحري أو بري وبأي رأس افترست أكلت. ولهذا البحر أيضاً سمكة يقال لها اللطم لها وجه خنزير وبدن إنسان وفرج إمرأة وبدنها مشعّر كثير، يزعم أهل الصين والهند أن شحمها إذا دهن بها إنسان بدنه حمله الماء كما يحمل الخشب، وهذه الدابة لا تزال طائفة على وجه الماء.

قال صاحب "تحفة الغرائب" وبجنوب بحر الصين والهند سمكة تسمى شيلان تصاد وتبقى ستة أيام أو سبعة أيام ملقاة على وجه الأرض لا تموت، وإذا جعلت في القدر طرية وطبخته فما لم تثقل القدر بما يمنع قطعها من الهروب طفرت منها قطعة قطعة إلى خارج القدر، ويزعم البحريون أن لحمها طيب وفيه منافع. ولهذا البحر سرطان يكون مقداره شبراً أو أكثر يخرج من الماء سرعة ويسير إلى البرية فيجمد حجراً وتزول حيوانيته، وهو معروف عند الناس يعمل في الأكحال يقال له السرطان البحري.. ولبحر الهند هيجان وسكون، وابتداء هيجانه من حين نزول الشمس الحوت وإلى نزوله السنبلة ولايزال في تموج واضطراب. وأسكن ما يكون إذا كانت الشمس في القوس.

ومن جزائره جزيرة برطائيل متاخمة لجزيرة الرانج، بها قوم أشبه بالأتراك لهم شعور كأذناب الخيل طوال وبها جبل يسمع منه في الليل أصوات طبول ومعازف وصنوج وضجات منكّرة. والتجار يزعمون أن ذلك رهج الدجال، وقوم يزعمون أن ذلك رهج إبليس اللعين، ويزعمون أن الدجال يخرج من جزيرة إلى هذا الجبل ثم يعود. وجزيرة القصر لها قصر من البلور وإنه يرى في البحر عن بعد كالكوكب، ويسمى قصر النوم وأهل جزيرته الهنود براهمة. تزعم التجار أنه من استظل بظله من الغرباء غشيه النوم فلا يكاد يفيق أبداً ولا يصيب أهل الجزيرة مثل ذلك. ويقال إنه مطلسم لحراسة أهل الجزيرة يأوون إليه في المخاوف فمن دنا منه غشيه النوم فأخذوه أهلها وتمكنوا منه. وجزير كندولاي طولها ست فراسخ في أربعة فراسخ بها بركان عظيم اللهب شديد الأموات، بها أنواع الطيب، وأنواع الصنف. وأهلها كفار يعبدون النار ويقع بسواحلها من العنبر الأشهب كثير.

وجزيرة سيلان طولها ستمائة ميل وعرضها مائتا ميل وبها البنفش والماذنبي والبلخش، وأنواع أحجاره ثمينة كالبجادي وغيرها، وإليها ينسب العود السيلاني. وجزيرة ملى منسوبة إلى المدينة بالساحل، وبها من الفلفل ما يوسق مراكب التجار إذا اجتمعت في يوم واحد، وبها أنواع البهار والصنف. وجزيرة كرموه يحيط بها ثلاثمائة ميل، وبها ثلاث مدن كبار وبها سكر العشر يترل على شجرة كبيرة هناك ويتخذ من حملها شبيه بالحرير الأبيض برّاق يغزل وينسج. وجزيرة صندابولات طولها ثلاثمائة ميل، وبها من شجر الساج والعنبا مالا بغيرها. والعنبا ثمر كبار له نوا كبار لفاف الطعم مثلث الشكل ذو ثلاث نوايات من داخل الثمرة، وشجرة تشبه شجر الأرك في الطول لا في اللون، وشجر الفوفل كثير شبيه بشجر النخل أو الموز يحمل أفنانها الفوفل، و لم يكن بغير أرض الهند. ومن دقاق أغصانه الزبطانة التي ينفخ فيها الصيادون ببندق الطير على قدر الحمص فيصرعون بها العصافير وبها طير القاوند. وجزيرة أنداميان وجزائرها ويقال إن عدتها سبعمائة جزيرة متقاربات

صغار وكبار معمورات بقوم من الهنود والزنج قباح الوجوه صغار الجثث لا مراكب لهم وإذا وقع إلى أطرافهم غريق أكلوه. وجزيرة المند يحيط بها سبعمائة ميل، وبها ثلاث مدن، وخيرات حسان. وجزيرة التنين عامرة متسعة، بها جبال معدنية، وأشجار مثمرة بأنواع البهار والطِيب، وبها قطاط الزباد كما بالحبشة. وزباد الحبشة خير من الهندي، ولهذه الجزيرة حصون منيعة، ومدينة تعرف بالتنين يزعم أهلها أن الاسكندر ملكها، وأنها من بنائه، وأن سبب بنائها تنين كان بها عظيم الخلقة والفساد، وعلم به الملك فأرسل من وضع للتنين سلوخ غنم ومعز دموية ملطوخة بالدماء مملوءة كلساً حياً بلا طفئ وكبريتاً فوضعت في مدرجة التنين ليلاً فخرج التنين سحراً على عادته فالتقف بعضها وأكله فسخنت في معدته فعطش وورد الماء فطفئ النورة فأحرقت أحشاءه وجسده فهلك وبنيت المدينة بعده. والله أعلم.

وجزائر الديبا وهن جملة جزائر متقاربات وأهلها قبائل من العرب بها والكبيرة منهن تسمى جزيرة الديبي والدياب أيضاً، ويحيط بها أربعمائة ميل، وبها الموز وقصب السكر، وبها النارجيل والكاذي، وهو مقصد التجار في ممرهم إلى كيش والهرمز وإلى الهند وإلى اليمن وإلى مقدشو الزنج وإلى الحبش. وجزيرة سرنديب بجنوب البحر يحيط بها ألف ومائة ميل يشقها جبل الراهون وهو الذي أهبط عليه آدم عليه السلام، وهو متصل في البحر بجزيرة بلجرام وفيه أودية الياقوت والماس والسنبادج، وطول الجبل مائتا ميل وستون ميلاً. ومدينة سرنديب العظمى يسكنها مسلمون ونصاري ويهود ومجوس وكفرة لا ينقادون لملّة، ولكل طائفة حاكم لا يبغي بعضهم على بعض، وكلهم راجعون إلى ملك المسلمين يسوّسهم ويجمع كلمتهم. ولهذه الجزيرة بحيرة حلوة نحو سبعين ميلاً، وتصب فيها أربعة أودية تسمى الأغباب، وقيل الأغباب، بأسماء أنهر القمر وبها الزرافة خلقها عجيب، لها عنق الجمل وجلد النمر والأيل وقرن الظبي وأسنان البقر ورأس الجمل وظهر الديك، وهي طويلة اليدين والعنق جدا حتى يكون في مجموعها عشرة أذرع وأكثر، قصيرة الرجلين جداً وليس لها ركب وإنما الركب ليديها كسائر البهائم، وإذا أكلت مما على الأرض يقصر عنقه عن يديها. ومن عادتها أنها تقدم عند المشي اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الأربع، وفي طبعها التآلف والتودد والتأنس بأهلها وهي تجتر وتبعر. والزرافة الجماعة لغة والله أعلم. وبالجزيرة شجر القرنفل، وهو كشجر الياسمين وزهره غليظ أسود، وهو كباش القرنفل. ومنه ذكر ومنه أنثى، والذكر منه ثمراته كنواة الزيتون وأطول نوله علك كعلك البطم وقرفة القرنفل قشر شجرته، وبها أيضا قصب الذريرة وفي مضغه حراقة وقبض، والله أعلم.)

18. بحر الصين، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(وهذه البرزة بأقصى مشرق الصين، قال أهل العلم بذلك إن في جهة أقصى المشرق ساحل البحر المحيط المشرقي، ويسمى البحر الزفتي لشدة ظلمته وسواده، ولايعرف له طرف غير هذا الساحل، ومبدؤه من المشرق برزة زائدة على حدوده المحيطة. حد هذه البرزة من أرض تبرى وبحيرتها العظمى الحلوة وجبال بلهرا وانتهاءها حيث اتصالها بالبحر الجنوبي الهندي الصيني المعمور المسمى بأسماء جهاتها ونواحيه، وذلك فوق خط الاستواء وورائه في الجنوب بنحو من ثلاث عشرة درجة، كل درجة مسافتها ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل. وهذه



الجهة هي آخر بلاد حمدان وصين الصين داخل خط الاستواء وبها مصب نهر حمدان الأكبر في عرض ثمانية وعشرين ميلاً يدخل في البحر المحيط نحو يومين لا يغلب عليه ماء البحر بغزارته ولا يوافقه المد منه والجزر كما يوافق غيره من الأنهار. وطول ساحل هذه البرزة من الشمال إلى الجنوب وعلى هذا الساحل عشرة أجبال بعشرة أودية ينجر فيها الماء الحلو والمالح ويسمى أخوار الصين، وجبال النشادر يكون النشادر المعدني فيها كثيراً، وكذلك الكبريت الأحمر. وبجبال النشادر شجر الكافور وشجر البقم والأبنوس كثير، وهو شجر السلم الحجازي ولكنه هناك أسود متلزز بخلاف الحجازي، وهو أيضاً السنط أو يشبهه. ومراكب الصين لا تدخل إلى البحر الزفتي إلا من هذه الأخوار، ولايجدون مشقة أعظم مما يجدونها فيها من كثرة الشعاب والأهوال واضطرام الأهوال، وطول هذا الساحل لهذه البرزة من بحيرة تبرى وإلى أقصى العطفة في الجنوب نحو سبعمائة فرسخ وخمسين فرسخا.

قال بطليموس وغيره إن في هذا البحر ست جزائر تسمى جزائر السيلى وسيلانها أنواع الياقوت والجوهر، وهي عامرة مأهولة. وقل أن يدخلها أحد فيختار الخروج منها، لما يرى من صحة الهواء وحلاوة الماء وجمال الصورة وكثرة الخيرات، وإن بساحل هذا البحر في شماله ثلاثة أصنام من الحجارة هائلات الصور منحوتات في بقاعهن نابتات من جبالهن ويد كل واحد منهم مشيرة إلى جهة البحر بأنه ليس فيه مسلك، كالذي بجزائر قادس، وكالذي بجزائر السعادات داخل بحر اللبلابة من الأصنام الثلاثة المشيرة بأيديها كذلك إلى داخل المحيط الأخضر المغربي هناك. وإذا اعتبر المعتبر هذه البرزة وجدها ممتدة الساحل في الشمال إلى حدود جبل بلهرا، ثم من هناك تمتد ساحلاً أبداً ممتداً محيطاً متصلاً ببلاد القرقز في أقصى المشرق الشمالي، وتبرز هناك منه أخرى طولها شهر ونصف في عرض عشرين يوما بها جزائر مسكونة بطوائف من الناس تقدم وصفهم كأهل جزيرة تولى وجزيرة رفاعة ثم ينصب داخله ويمتد شمالا من وراء جبل ياجوج وماجوج، وتلتحق جبالهم من الجنوب والشمال والشرق به، ثم تبرز منه برزة في شمال ياجوج وماجوج وتسمى بهم ثم تمتد به سواحله حتى إذا تجاوز جبل قافونيا عند بحيرة هناك حلوة يملح ماؤها ويحلو وهي متصلة به، وهناك تدخل سواحله في إقليم الظلمة الذي لا مسلك فيه للناس؛ وذلك تحت مسامتة القطب الشمالي. والمد من هذا البحر المحيط المشرقي عظيم عالي إذا مدّ تبلغ زيادته نحو من أربع قامات مع سعة هذا الفرس العظيم، ويطّرد في الأرض ماشاء الله ثم يجزر حتى تبلغ حدوده الأولى كذلك في اليوم والليلة أربع مرات، وهذا دأبه على طول الزمان. والله أعلم.

قال أهل العلم بذلك إن في البحر الزفتي المشرقي مما هو وراء جبال النشادر والأخوار قريب من سواحله ست جزائر كبار تسمى بالسيلى لما فيه من الياقوت والجواهر بالمعادن والمغاصات وفي جر السيول. ودخلها قوم من العلويين ودفعوا فيها لما فروا من بني أمية، فاستوطنوا وملكوا وماتوا بها. وهذه الجزائر لم يدخلها أحد من الغرباء فطاوعته نفسه إلى الخروج منها، وإن كان منها في عيش قشف، وهي في جهة الشمال من هذا البحر. وبجبال بحيرة تيرى جزيرة القلعة المضيئة، وأهلها حسان الصور حسان الصناعة لما يصنعونه ويصورونه،

وقلعة هذه الجزيرة بيضاء من حجارة البلور أو حجر أشف وأشد بريقاً ولمعانا منه حتى يقال إنها فضة وليس كذلك. ويقال إنها من بناء الجان وهي على خط الاستواء من حدود الجزائر الخالدات التي إحداهن جزيرة السعادة وبها جابرقا وهو قصر الذهب، فكان جزيرة القلعة المضيئة المشرقية، وجزيرة السعادة المغربية من الأرض بجملتها كموضع غرابي الخراط في نصبه للخرط بكرة خشب يحملانها من ههنا وههنا على مثل هذا المثال بخط نصف الكرة الأعلى. ومن وراء هذه الجزيرة بنحو مائة ميل جزيرة صبح المعروفة بالعلوية وفيه معدن للياقوت ليس مثله. ومن ورائها بنحو من عشرين ميلاً على جبالها أرض اصطيفون، وهي مسكونة بأناس من أرض الصين كفار يعبدون الشمس، ومعادن الذهب والياقوت عندهم كثيرة، وأرضهم متصلة بجبال اصطيفون الواغلة الفاصلة الحاجزة بين هذه البرزة وبين البحر المحيط الجنوبي المشرقي وبحر الظلمات، وبها من الشجر أنواع ما في الصين والهند... ومن جزائر السيلى ثلاث جزائر تسمى جزائر سلا، يعني من دخلها سلا وطنه وطابت له سكنى وسلا ماعداها من البلاد. والله أعلم.)

19. جزائر بحر الصين. الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر).

(فمن ذلك جزيرة سريرة يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل، وفيها مدائن كثيرة، وأجلّها التي تنسب الجزيرة إليها ومنها يجلب الكافور الجيد. وجزيرة أنفوجة يحيط بها ألفان ومائتا ميل، وعمارتها غير متصلة بها وبجنوبها براري موحشة وقفار مهلكة. جزيرة الصنف طولها ألف ميل وستمائة ميل وعرضها قريب منه وبها العود الرطب المعروف بالجودة وأصناف الطيب وبها شجر الكاذي والجوز الهندي ودارصيني. والكاذي ثمر شجرة تشبه النخل ولكن لا يطول طول النخل وإذا أطلعت الشجرة منه طلعها قطعت الطلعة قبل أن ينشق ثم تلقى في الدهن وتترك حتى يأخذ الدهن رائحتها فتطيب وتسمى دهن الكادي وإن تركت حتى تنشق صار الكبش بلحاً وتتناثر وذهبت رائحته ورائحة الكاذي لايشبهها رائحة في اللذة وخاصيتها التبريد والتسكين لحرارة الدم وشراب الكاذي معروف. وجزيرة سلامط محيط بها ثلاثمائة ميل كثيرة الجبال والأشجار وبها النارجيل كثير ويسكنها حيوان أشباه الناس لا يفقه أحد كلامهم، على أبدانهم شعور تجللهم وتستر سؤاقهم يسكنون الشجر كالطير ويأكلون الثمار طول الواحد منهم أربعة أشبار إلى ثلاثة أشبار وشعورهم حمر وأرجلهم كأرجل الطير وإذا أحسوا بالناس هربوا وارتفعوا إلى أعلى الأشجار ومثل هذا الحيوان موجود في غالب جزائر الصين. وجزيرة رامني يحيط بها خمسمائة ميل وغالب شجرها البقم وهو شبيه بشجر الخروب الشامي ويحمل مثل حمله ولكنه مر شديد المرارة وبها شجر الكافور والفلفل والقرنفل والدارصيني وبها الببغات الحمر والخضر والبيض الغبر. والببغا طائر هندي حبشي نوبي غاني صيني، ومن ألوانه الأغبر الفاختي والأسود والأصفر والأبيض وذو ذوابة فستقية على رأسه، أسود المنقار والرجلين يتناول طعامه بكفه كما يتناوله الإنسان، وله فهم ثاقب يحاكي الأصوات ويقبل التلقين ومنقاره معقف يكسر به الصلب وينقب به ما تعسر عليه وله عفة مأكله ومشربه ومنكحه وهو بمثابة الإنسان الظريف الشريف. وبهذه الجزيرة أيضاً حيوان كالجاموس أبلق كبير الجثة لا ذنب له.

وجزيرة الصنحى أحد جزائر المهراج مملكة متسعة وهي جزائر متقاربات كبار وصغار، وبهذه الجزيرة منهن أنواع الطيب والبهار وبها الكافور والنارجيل العجيب الكبار الزايد في الكبر. ومن صفته أنه شجر كالنخل ولكنه أغلظ جذوعاً من النخل وأكثر طلعا وحملا وحمل الشجرة لا ينقطع بل في كل وقت يجد الإنسان على الشجر ثمراً منها وهو النارجيل، فأوله ماء حلو زلال وماء لبني حلو ولبن خالص شديد البياض لذيذ الطعم مسكر لمن شربه، خاثر وليس حامض كالقارص من الألبان والجوز الدسم الرطب ودهن الجوز ودبسه وسكره والخل الجيد. وبهذه الجزائر البسباسة وجوزبوا وجوز الطيب وكباش القرنفل والدارصيني والشاه صيني وورقها هو التنبل وصمغها هو اللبان الجاوي وبهذه الجزيرة العود والصندل. والداخل إلى جزائر المهراج لا يمكنه أن يدورها في سنة. وجزيرة المهراج هي أم الجزائر المهراجية وطولها اثنا عشر يوما وعرضها خمسة أيام، ولها أطمة عظيمة ترمي بشرر كالحجارة ويسمع لها باللهب أصوات كالرعود وهذه الأطمة بجبل في طرف الجزيرة وقد حمى حوله السكنى والمرور حماية بالنار نحو فرسخ وهذا البركان من أعظم نار في الدنيا وليس كمثله نار، ويسمى بقعته جزيرة البركان وشكلها من باقي الجزيرة كشكل القدم من الساق.

وإذا دخلت إليها المراكب وكان ذلك الوقت أول هياج البحر ظهر لهم منها أشخاصاً سود طول الواحد نحو خمسة أشبار وأقل من ذلك كأنهم أولاد الحبوش فيصعدون المركب ولا يضرون أحداً، فإذا رآهم السفار أيقنوا بالهلاك والدمار، وإذا أراد الله لهم النجاح والنجاة من تلك الشدة أراهم على رأس الدقل طائراً أبيض كأنه مخلوق من النور فيتباشرون به، فإذا ذهب عنهم الروع فلا يرونه. وجزيرة قمار وإليها ينسب العود القماري دورها شهر وبها مدن كثيرة، وهي جزيرة عباد أهل الصين والهنود وعلمائهم، وبها الملك المسمى قامرون، وبها بدود وأصنام لم ير أبلغ تحريراً من تخطيطها حتى أن المصورين لها يفرقون بين نظرة الراحم بنظره والناظر شزراً أو الباكي والضاحك والمختلس.وبها معدن الذهب وبها الأبنوس والطاووس وبها الفيلة منقولة والكرك.. وجزيرة لنكاوس كبيرة متسعة ألوان أهلها إلى البياض وهي قريبة من خط الاستواء، وبها معدن الحديد الشبيه بالفضة في لونها وبها أشجار الكافور كأنما ساق الشجرة رق مملوء إذا نقرت من أعلاها سال منها ماء الكافور ثم يؤخذ منها في الجرار ثم ينقر وسطها وسفلها فتسيل بقطع الكافور فإذا خرج منها ماتت ويبست كموت شجرة الموز إذا قطع منها عرقها. وبالجانب الشرقي من جزيرة قمار قصر المملكة يدخله نهر فيه مركب مطلسم وهو من معادن مصنوع موثوق بسلسلة من خارج القصر فمن نهشته حية أو أصابه عارض من صرع أو غيره، حمله أهله ووضعوه في المركب وأطلقوا المركب به، فإن دخل المركب بالعليل القصر وخرج من الناحية الأخرى يبرأ العليل، وإن لم يدخل به القصر مات فلم يبرأ من علته.

وجزيرة زايلي وجزائرها المتقاربة ويقال إنها نحو من تسعمائة جزيرة صغار وكبار وهي أم الجزائر ومعدن الذهب بكثرة ظاهرة، ومع كثرة الذهب عندهم فإن بيوت أموالهم الودع المعروف والحديد والذهب عندهم في القيمة سواء. وجزيرة كله وإليها ينسب البحر وهي جزيرة خطرة طولها ثمانمائة ميل وعرضها ثلاثمائة وخمسون ميلاً وبها من المدن فنصور والجاوة وهلابر ولاوزى وكلا وبها الفيلة منقولة من البر المتصل

تتوالد وتتربى عند ملوكها والفيل ضربان، فيل زند، والزند صغير وفيل كبير كما يقال فار وجرذ وبقر وجاموس ونمل وذر وفرس وبرذون، وإذا حملت أنثى الفيل لا يقربها إلى ثلاث سنين وحملها سنتين وله غيرة شديدة على أنثاه، والضعيف منه يخضع للقوي ويذل له كفعل الإنسان. وإذا أرادت الفيلة الحاملة أن تضع الولد دخلت الماء الغزير ووضعته لئلا يقع إلى الأرض الصلبة فيهلك لأنها لا تنام على جنبها لكون قوائمها مصمته من غير ركب ولا مفاصل وخصيتا الفيل داخل بدنه قريبتان من كليتيه ولذلك يسفد سريعا كالطير لكونهما داخلة وقريبة من القلب فينضج المنى بسرعة. والفيل حقود كالجمل ويحفظ الذي يكرهه من سيّاسه ثم يختله ويقتله إذا تمكن منه. ويقال في كيفية صيده إن القاصدين صيده يحفرون في الأرض خندقاً واسعاً ويجعلونه منحدرا من وجه الأرض في نزول أبداً إلى أن يكون أزيد من قامة في العمق، ويكون اتساعه بمقدار ما يدخل الفيل فيه لم يمكنه الخروج منه ولا الرجوع ولا الالتفات، ثم يبذرون له الرز وغيره مما يأكله الفيل حول ذلك الحفير، ويكثرونه بالقرب من بابه، ثم يزيدون قليلاً قليلاً إلى نهاية الحفير، ثم يتركونه ويذهبون عنه، فيأتي الفيل الصغير فيأكل ما وجده هناك، ثم يتبعه شيئاً فشيئاً حتى يدخل الحفير فيرعاه بنهم وتمكن لكثرته، ثم لايزال حتى ينتهي إلى نهايته فيقف حيرانا، فيأتي إليه واحد من أولئك الصيادين وعليه لباس أحمر وأزرق وأصفر فيضربه بخشبة معه ضرباً مبرحاً، والفيل يتخبط لايستطيع حراكا، ثم يأتون رفاقه بعده لابسين لباسه، فيضربون الفيل أشد ضرب، وهم على ذلك إذ يأتي بعدهم آخر وعليه البياض ومعه الطعام والماء، فيطردهم ويهزمهم عن الفيل، ثم إذا راحوا رمى له العلف، وقرّب منه الماء، وجلس بالقرب منه يؤانسه، ولا يزال كذلك إلى قرب أوان علفه مرة ثانية، فيذهب عنه، وحين يغيب يأتون أولئك فيضربون الفيل حتى يكاد يموت، فيأتي ذلك فيطردهم، ويضربهم، ثم يطعم الفيل، ويسقيه، ويؤانسه، ولا يزال هذا دأبه ودأب رفاقه حتى يصل إلى الفيل بيده ويجبسه ويركبه ويأنس الفيل إليه، فيفتح له أمامه حفرة أخرى إلى وجه الأرض، ويخرج الفيل مذللا منقاداً. وقد جعل الله للفيل عدواً مسلطاً عليه محباً لقتله، وهو حيوان أكبر من الجاموس، وأدور وأغلظ قوائم، وأكبر رأساً، وأخشن بشرة، وأحد نفساً، وله قرنان في جبهته أحدهما سلاح كالسنان في الرمح والآخر نابت من أصل قصبة أنفه كالدعامة للقرن الأعلى، يطعن به الفيل في جنبه يخسفه، وربما إذا قتله حمله إلى أرض غير أرضه على قرنه حتى يموت من نتن جثة الفيل ومن سيلان صديد الفيل، وسيما إذا كان الفيل صغيرا.

وجزيرة بلغرام من خلف جزيرة سرنديب نحو أربعين فرسخاً، وهذه الجزيرة طولها ستون فرسخاً وعرضها قريب من طولها، وبها من أصناف الياقوت بكثرة وبها قدم آدم عليه السلام لما نزل من الجنة. وذكر من وصل إليه أن طوله نحو من اثني عشر شبراً وعرضه ثلاث أشبار وعمقه شبر، وأنه لم يزل مضّمخاً بالطيب ملآناً من أنواع الحجارة الثمينة صدقة مبذولة لمن يزوره والله أعلم. وجزيرة ملاي شرقي جزيرة القمر يحيط بها سبعمائة ميل، وأهلها طائفة يتحرمون في البحر، ويعصون على ملكهم يسمون الآن بمارية، وبها خشب الساج يغلظ ويطول ويعملون منه مراكب قطعة واحدة نقيراً طوله أربعون ذراعا وعرضه سبعة أذرع.)



20. بحر الخزر (= قزوين) ابن حوقل: من كتاب (صورة الأرض)

(وبحر الخزر فإن شرقيّه بعض الديلم وطبرستان وجرجان وبعض المفازة التي بين جرجان وخوارزم، وغربيّه الران وحدود السرير وبلاد الخزر وبعض مفازه الغزية، وشماليّه مفازة الغزية بناحية سياه كوية، وجنوبيّه الجيل والديلم وما دانى ذلك. وهذا البحر ليس له اتصال بشئ من البحار التي على وجه الأرض بطريق المادة والاختلاط إلا ما يدخل إليه من نهر الروس المعروف بآتل، وهو متصل بشعبة تفضي منه إلى الخليج الخارج من أرض القسطنطينية إلى البحر المحيط. ولو أن رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع إلا نهر يجذب إليه ويقع فيه، وهو بحر مالح ولا مدّ له ولا جزر، مظلم قعره بخلاف بحر القلزم وغيره؛ لأن قعره طين آجن آسن، وبحر فارس يتبين في كثير من بقاعه أرضه لصفو ما تحته من الحجارة البيض، ولا يرتفع من هذا البحر شئ سوى السموك، ويُركب فيه للتجارة من أراضي المسلمين إلى أرض الخزر، وهو فيما بين الران والجيل وطبرستان وجرجان. وليس فيه جزيرة مسكونة فيها عمارة كما في غيره جزائر فيها سكان ومياه ومدن، والذي فيه من الجزائر فيها مياه وأشجار و لم يسكنها في الإسلام أحد؛ منها جزيرة سياه كوية، وهي كبيرة بها عيون وأشجار وغياض ودوابٌّ وَحْش، وإليها جزيرة تجاه الكُرّ وبالقرب من الباب، وهي كبيرة أيضاً فيها غياض وأشجار ومياه، ويرتفع منها الفُوَّة، ويخرج إليها من نواحي برذعة منتجعة لإثارة الفوة، والعمل فيها الأيام الطويلة الكثيرة، ويحملونها إلى ورثان وبرذعة فينالون منها خيراً، ويحمل إلى جزيرة الباب الدواب من نواحي برذعة وورثان وكثير من المواضع فتسرح فيها وتسمن لكثرة كلائها ومرعاها.

وليس من ابسكون إلى الخزر عن اليمين على شط البحر قرية ولا مدينة سوى موضع من ابسكون على خمسين فرسخاً منها يسمى دهستان كالقرية، فيها قوم قلة وفي مائهم غور، وماء البحر بهذه الناحية قصير القعر، وهي كالدخلة في البحر فترسي فيها السفن في هيجان الريح والبحر. ويقصد هذا الموضع خلق كثير من النواحي، فيقيمون به للصيد ولا أعرف غيره مكاناً يقيم به أحد إلا سياه كوية فإن به طائفةً من الأتراك الغُزية، وهم قريبو العهد بالمقام به لاختلاف وقع بين الغزية وبينهم فانقطعوا عنهم واتخذوه داراً ومأوى، وفيه مراع واسعة ولديهم عيون. وهذا المكان عن يمين هذا البحر من ابسكون. ومن ابسكون على اليسار إلى الخزر عمارة متصلة إلا شيئاً يسيراً بين باب الأبواب والخزر، وذلك أنك إذا أخذت من ابسكون على حدود جرجان وطبرستان والديلم والجيل تدخل في حدود الران إذ جزت على موقان إلى ناحية باب الأبواب على مسيرة يومين من بلاد شروان شاه، وعمله إلى نواحي سمندر أربعة أيام عمارة أيضاً، ومن سمندر إلى أتل سبعة أيام مفاوز. ولهذا البحر زنقة بناحية سياه كوية يخاف على السفن إذا أخذتها الريح هناك أن تنكسر، وإذا انكسرت السفن هناك لم يتهيأ جمع شئ منها من غلبة الأتراك عليها فإنهم يستولون على ما فيها.

وأما الخزر فاسم الإقليم وقصبته تسمى أتل، وأتل اسم النهر الذي يجري إليهم من الروس وبلغار ويفيض في بحر الخزر. وقيل منبع هذا النهر من الظلمات لا يعرف أحد أوله ولا وصل إلى منبعه. والبلد قطعتان: أحداهما

من غربي النهر المسمى أتل، وهي أكبرهما، والأخرى من شرقيه. والملك يسكن في الغربية منهما وتسمى خزران، والشرقية تسمى أتل، ويسمى الملك بلسانهم باك. وتكون القطعتان في الطول نحو فرسخ ويحيط بهما سور غير أنها مفترشة البناء وأبنيتهم كالخركاهات من خشب وقد غشيت بلبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين، ولهم أسواق وحمامات وفيهم خلق من المسلمين، ويقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم وبها نحو ثلاثين مسجداً، وقصر ملكهم بعيد من النهر وهو من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره ولا يسوغ الملك ذلك لغيره. ولسور البلد أبواب أربعة منها باب يلي النهر وآخر إلى ما يلي الصحراء على ظهر المدينة. والملك يهودي ويقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل. وبهاتيْن الناحيتيْن مسلمون ونصارى وعبدة الأوثان، وأقل الفرَق فيهم اليهود، وأكثرهم المسلمون إلا أن الملك وخاصته يهود. والغالب على أخلاق أهل الأوثان من سجود بعضهم لبعض عند التقائهم وأحكام يمضونها على رسوم قديمة تخالف دين الإسلام واليهود والنصارى.

ويقال إن جميع جيش خزران اثنا عشر ألفاً مثبتين بالراتب إذا مات منهم رجل أقيم مكانه غيره، وليس لهم جراية دارة ولا أرزاق معلومة في شهر معلوم بل يوصل إليهم اليسير في المدة الطويلة والأوقات المتراخية، إذا حزبهم خوف أو لزمهم حرب اجتمعوا له. وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق سابل إليهم، وله وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف ما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك. وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وعبدة الأوثان. وإذا عرض للخاصة والعامة أمر حكم فيه هؤلاء الحكام ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه، وإنما يصل إلى هؤلاء فيخاطبون في الحوائج وفيما يعرض؛ وبين هؤلاء النفر وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري ويشجر بينهم ويطلعونه على ما يكون منهم، فيرد عليهم أمره عند ذلك بما يعملون عليه. وربما جرى في أحكامه أشياء كالخرافة؛ ومنها ما حكاه المعتضد وقد ذكر بين يديه فازدراه ذاكره، فقال المعتضد: كلا إنه لمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله جل اسمه لم يُوَلّ رجلاً قوماً إلا وأيّده بضرب من التسديد وإن كان كافراً. ومن ظريف ذلك أن رجلاً من أهل خزران كان له ولد قد تصرف في التجارة ومهر في الأخذ والعطاء، فأخرجه إلى بلغار الداخل، ولم يزل يجهز عليه التجارة، وتبنّى بعد إخراج ابنه عنه عبداً كان له، فخرّجه وبصّره فحسُنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالبنوّة لقربه من طاعته وقلبه، وطالت غيبة الابن ومقام الغلام في خدمة الأب إلى أن هلَك الرجل، وأقبل الابن على الجهاز ولم يُعلم بموت أبيه، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عوضاً مما يرد إليه. وكاتَب الابن الغلام لينفذ إليه الجهاز على رسمه، فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده، فورَد على الابن ما أسرع به إلى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك والحجاج بالبيّنات، فكان إذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافياً من الحجة جاء الآخر من الشبهة بما وقف حاله، وأكثر أحكامهم مبني على مثل ذلك. وطال بهما التنازع حولاً كاملاً، وإذ طالت الخصومة وصارت الأمر في التشاجر والمنازعة إلى حال الوقوف أتلى الملك الحكم بين الخصمين، فجلس لهم وأحضر جميع الحكام وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة، فلم ير الملك لأحدهما على

الآخر سبيلاً لتكافؤ البيّنات عنده فقال الملك للابن: أتعرف قبر أبيك على الحقيقة؟ فقال: عرفته و لم أشهد دفنه فأحقه. فقال للغلام المدعي: أنت تعرف قبر أبيك؟ فقال: نعم، أنا تولّيت دفنه. فقال: عليٌ منه برمة إن وجدتموها؛ فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه البالية وجيئ بها إليه، فقال للغلام المدعي بنوّة التاجر: أفصد نفسك! ففصد ثم أمر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه و لم يعلق بشئ منه، وفصد الابن وطرح دمه على ذلك العظم فنشقه وعلق به، فأدب الغلام وعزّره ودفعه وماله إلى الابن.

وليس لهذه المدينة كثير قرى غير أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف بأجمعهم إلى ما يرومون زرعه فيحرثونه ويفلحونه، ويكون بالقرب وبالبعد إلى نحو عشرين فرسخاً فإذا حصدوا زرعهم ضموه بالعجل إلى النهر وإلى مواضع تقرب منه، وينقلون ما اجتمع إلى النهر في السفن وما قرب من البلد نقل بالعجل إلى البلد. والغالب على قوتهم الأرز والسمك، والذي يحمل من عندهم من العسل والشمع والوبر إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار، وكذلك جلود الخز التي تحمل إلى الآفاق ولا تكون إلا في تلك الأنهار الشمالية التي بناحية بلغار والروس وكويابة. والذي بالأندلس من جلود الخز شئ من الأنهار التي بنواحي الصقالبة وتشرع إلى الخليج الذي بلد الصقالبة عليه...وأكثر هذه الجلود وجُلها يوجد في بلد الروس ويترل إليهم وإلى ناحيتهم من ناحية ياجوج وماجوج، وقد يصعد إلى بلغار. و لم يزل كذلك سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فإن الروس أخربوا بلغار وخزران. وقد يخرج الخز والأوبار النفيسة إلى خوارزم لكثرة دخول الخوارزمية البلغار والصقالبة وغزوهم إياها والغارات عليهم وسبيهم.

ومصب تجارة الروسية على دائم الأوقات إلى خزران، وكان عليهم فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم. وقد مر أن الملك يسكن في النصف الغربي من الجانبين وحاشيته وجنده الخزر الخلّص معه، ولسان الخزر غير لسان الترك ولسان الفارسية، ولا يشاركهم في لغتهم لسان من ألسنة الأمم. ونهر أتل له شعبة من جانبه الشرقي فتخرج من ناحية خرخيز وتجري فيما بين الكيماكية والغزية، وهي حد ما بين الكيماكية والغزية ثم يذهب مغرباً على ظهر بلغار، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر. ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ويبقى عمود النهر جارياً إلى خزران حتى يقع في البحر. ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجتمعة بأعلاه في نهر واحد، زاد على جيحون كثرةً وغزر ماء وفسحة على وجه الأرض. ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر عن أماكن تتساقط إليه يقرب بعضها من بعض، ويجري في البحر داخل مائه مسيرة يومين، ويغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء في وسطه لعذوبتها وحلاوتها، ويتبين في البحر لونه من لون ماء البحر.

وللخزر ناحية ولها مدينة تسمى سمندر، وهي فيما بينها وبين باب الأبواب..وكان يسكن هذا البلد المسلمون وطبقات أهل الملل والوثنيون فجلوا ولفضل أرضهم وحسن ريعهم فلن تمضي ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان. وكان بسمندر مساجد وبيع وكنائس فأتوا في خرجتهم هذه على جميع ما كان على نهر أتل من خزر وبلغار وبرطاس، واستولوا عليهم فلجأ أهل أتل إلى جزيرة باب الأبواب وتحصنوا بها وبعضهم في

جزيرة سياه كوية وهم مقيمون خائفون. وكانت منازل سمندر خركاهات وأبنيتهم من خشب قد نسج وسنمت سطوحهم، وملكهم قرابة لملك الخزر وبينهم وبين حد السرير فرسخان، وبين صاحب السرير وملك سمندر هدنة. وأهل السرير نصارى ويقال إن هذا السرير كان لبعض ملوك الفرس، وهو من ذهب ولما زال ملكهم حمل إلى هذا الموضع مع ذخائر تشاكله، وكان حامله من ولد بهرام والملك إلى يومنا هذا باسم هذا السرير فيهم. ويقال أنه سرير عمل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة وبين أهل السرير والمسلمين هدنة. وليس بجميع بلاد الخزر مجتمع للناس غير سمندر. وبرطاس أمم متاخمة للخزر ليس بينهم وبين الخزر لسان غيرهم، وهم قوم مفترشون على وادي أتل وبرطاس اسم الناحية، وكذلك الروس والخزر، والسرير اسم للمملكة والناحية لا للناس والقبيل.

وليس يشبه الخزر الترك إذ الخزر بأجمعهم سود الشعور وهم صنفان: فصنف يسمون قراخزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال. والذي يقع من رقيق الخزر فهم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض. فأما اليهود منهم والنصارى فإنهم يتدينون بتحريم استرقاق بعضهم لبعض. وليس يرتفع من بلد الخزر نفسه شئ يحمل إلى القرب أو البعد غير غرى السمك، فأما الرقيق والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوبة إليهم. ولباس الخزر ومن داناهم القراطق والأقبية وليس عندهم شئ من الملبوس يزيد على كفايتهم، وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأذربيجان والروم وما يصاقبهم من الأعمال الملبوس. فأما سياستهم وأمر المملكة فيهم فإنها تنتهي إلى عظيمهم المسمى خاقان خزر، وهو أجل من ملك الخزر لأن ملك الخزر به ينعقد وهو الذي يقيّمه ويثقّفه، وإذا أرادوا أن يقيموا ملكا بعد هلاك ملكهم جاء هذا الخاقان به، فذكّره الله ووعظه وعرّفه ما عليه وله من حقوق الملك وأثقاله، وما ينوبه من الإثم والوزر فيما يتكلّفه إن قصّر فيه أو عمل بغير الواجب منه وأتى غير الصواب والحق في أحكامه، فربما لم يجبهم من عملوا على ولايته إذا سمع ذلك القول ورعاً وزهداً ورغبة عما يسمعه مما يناله، فيما يزعم أن الله يجعله له بتركه الولاية وضعفه عن القيام بها ويقبلها غيره بما يحسن في نفسه وعقله، فإذا جاءوا به ليقعدوه في المملكة ويسلموا عليه بها خنقه خاقان الخزر بحريرة، فإذا قارب أن ينقطع نفسه قالوا له: كم تحب أن تكون مدة ملكك؟ فيقول كذا وكذا. فإن مات دون تلك المدة فبقضاء الله مات، وإن بقي بعد ما ذكره بلسانه قتل بعد بلوغه الأجل.

ولا تصلح الخاقانية إلا في أهل بيت معروفين وليس لخاقان من الأمر والنهي في الخزر شئ غير أنه يعظم ويسجد له الجميع حتى الملك إذا دخل إليه، ولا يصل إليه أحد إلا لحاجة وإذا دخل عليه المرء تمرغ له في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالقعود. وإذا حزبهم أمر عظيم أو حرب أخرج فيه الخاقان فلا يراه أحد من الأتراك وغيرهم ممن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف له و لم يقاتله تعظيما له، وإذا مات خاقان ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجل له وسجد ولا يركب ما لم يغب عن قبره. ويبلغ من طاعتهم لملكهم أن أحدهم ربما وجب عليه القتل ويكون من أكرمهم عليه وأوجبهم حقاً وحرمة، وهو من أكبرهم منزلة لديه ولا

يحب الملك قتله ظاهراً فيأمر الملك أن يقتل نفسه فينصرف إلى مترله ويقتل نفسه. وقد ذكرت أن الخاقانية في أهل بيت وقوم معروفين لا تتعداهم، وفيه الموسر والمعسر المقتر فإذا بلغته الخاقانية عقد له ولا ينظر إلى ما حاله عليه. ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز فإنهم كانوا يقولون أن هلك خاقانهم فليس أحد أحق بالخاقانية منه، وكان مع ذلك مسلما ولن تنعقد الخاقانية إلا لليهود. ولهم سرير في قبة ذهب ولا يضرب إلا لخاقان عند بروزه ومضاربه إذا برزوا لحرب أو أمر يدهمهم فوق مضارب الملك ومسكنه في البلد أرفع من مسكنه، وله جرايات وقوانين تصل إليه من رسوم على جميعهم.

وبرطاس إسم الناحية وهم أصحاب بيوت خشب وهم مفترشون في نواحيهم لكثرتهم وقوّتهم. وبشجرت إسم الناحية أيضاً، وهم صنفان: فصنف في آخر الغزية على ظهر بلغار ومبلغهم نحو ألفي رجل ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم وهم في طاعة بلغار، ولبشرت ديار متاخمة لبجناك وهم وبجناك أتراك في جوار الروم. ولسان البلغار كلسان الخزر ولبرطاس لسان آخر وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس. وبلغار إسم للناحية وللمدينة وهم مسلمون، وفي البلد مسجد جامع وبقربهم مدينة أخرى تسمى سوار وفيها مسجد جامع. وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار عدد الناس بهاتيْن المدينتيْن نحو عشرة آلاف رجل، وأبنيتهم من خشب يأوونها في الشتاء وفي الصيف يفترشون الأرض في الخركاهات. وأخبرني الخطيب بها أن النهار بها في وقت الشتاء لا يتهيّأ للإنسان أن يسير فيه فرسخين، وفي الصيف يطول النهار ويقصر الليل حتى يكون ليل الصيف مثل ليل الشتاء. وشاهدت ما يدل على ذلك عند قربي من ديارهم أن النهار بقدر ما صلينا الأربع صلوات، وكل صلاة في عقب الأخرى مع ركعات بين الآذان والإقامة ليست بالكسرة.

والروس ثلاثة أصناف: فصنف هم أقرب إلى بلغار وملكهم بمدينة تسمى كوباية، وهي أكبر من بلغار. وصنف أعلى منهم يسمون الصلاوية وملكهم بِصلا مدينة لهم. وصنف منهم يسمون الأرثانية وملكهم مقيم بأرثا مدينة لهم. ويبلغ الناس في التجارة معهم إلى كويابة ونواحيها، فأما ارثا فلم أسمع أحداً يذكر أنه دخلها من الغرباء لأنهم يقتلون كل مَن وطئ أرضهم من الغرباء، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون ولا يخبرون بشئ من أمرهم ومتاجرهم، ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم. ويحمل من أرثا السمور الأسود والثعالب السود والرصاص وبعض زيبق. والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ويحترق مع مياسيرهم الجواري منهم بطيبة أنفسهن كما يفعل الهند وأهل غانة وكوغة وغيرهم. وبعض الروس يحلق لحيته وبعضهم يفتلها كمثل أعراف الدواب أو يضفرها ولباسهم القراطق الصغار، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة. ولم تزل الروس يتجرون إلى الخزر وإلى الروم. وبلغار الأعظم متاخمون للروم في الشمال وهم عدد كثير وقد ضربوا قديما على ما يليهم من بلد الروم الأخرجة والضرائب. وببلغار الداخل نصارى ومسلمون، ولم يبق في وقتنا هذا للبلغار ولا لبرطاس ولا للخزر أهل الروس بقية إلا شعثة ناقصة قد جاسوها، وذلك بقصدهم الجميع وبلوغهم في سائر مجاوريهم فوق آمالهم. وقد بلغني أن كثيراً منهم رجعوا إلى أتل وخزران بإعزاز محمد بن



أحمد الأزدي صاحب شروان شاه لهم، وتأييدهم برجاله وقومه، وهم راجون مؤملون أن يعاهدوهم ويكونوا تحت طاعتهم بشئ من البر يقيمونه لهم.

21. بحر الخزر، أبو حامد الغرناطي (565هـ = 1170م) من كتاب (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)

(وأما بحر الخزر الذي عليه طبرستان ويمتد إلى ناحية جرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر، ويمتد إلى باب الأبواب، فإنه بحر صغير يقال إن دوره ثلاثمائة فرسخ أو نحوها، ومادته من الأنهار العظام. وفيه جزائر جماعة منها جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شئ من الحيوان، وجزيرة أيضاً يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيات والطير يفرخ بين الحيات ولا يضر فراخ الطير، وكنا نعبر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة ويأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والثعابين ولا تؤذي أحداً. وهناك جزيرة سوداء كالقير، يخرج منها ماء مر مالح منتن، ويخرج مع ذلك الماء حجارة مربعة كأنها الصفر الأصفر الجيد، يأخذها الناس مثاقيل للموازين. وفي مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقير ينبت فيها الحشيش، وفيها أنواع من الوحوش، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفط الأسود والأبيض. وهي قريبة من باكو، من عمل شروان، ويظهر في الليل في تلك الأرض، والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء تشعل ولا تحرق الحشيش، ولا حرارة لها. وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت، يراها الناس من بعيد، وليس لها في النهار أثر. يُصطاد الغزلان في تلك الأرض فيقطعون لحم الصيد ويجعلونه في جلده ويشدون الجلد عليه على أنبوبة قصب مثقوبة ويدفنون الجلد باللحم في ذلك التراب الأسود، فيغلي ويخرج الزبد من تلك الأنبوبة، كما يخرج من القدر. وإذا نفذ الزبد نضج اللحم، فيُخرجون ذلك الجلد صحيحاً، واللحم نضجاً حاراً كما يكون في القدر ولا حرارة في تلك الأرض. وهذه من عجائب الدنيا، وتلك النار تشبه نار المعدة.

ويوجد على ساحل البحر وجزائره حجارة محك الذهب أنواعاً. وكان لي صديق من أهل استرباذ يقال له أبو الحسن علي بين عبيدان، وهو رجل معروف. دخل غلامه إلى جزيرة من تلك الجزائر التي فيها محك الذهب فأخرج منها حجارة كثيرة وكان منها حجراً واحد مكتوب فيه محمد وعلي بخط أبيض من أحسن الخطوط، وبذلت له فيه وزنه من ذهب فلم يفعل. وينصبُّ في ذلك البحر نهر عظيم يسمى إِتِلْ، يجئ من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل الدجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه إلى البحر سبعون فرعاً، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه في زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشي الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألف وثمانمائة ونيف وأربعين خطوة، وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبهه الآخر، السمكة فيها مائة مَنٍّ وأكثر وأقل، وهو طويل له خرطوم فيه فمه صغير يسع الأصبع، ليس فيه شوك وليس له سن ولا له عظم، يخرج من معدته الفراء يحمل إلى جميع الآفاق ويشوى ويطرحون تحت الأرز، كما يكون تحت اللحم الأرز، كما يكون تحت الحمام، فيكون أطيب من كل لحم يؤكل في جميع الدنيا، وكذلك الأرز الذي يكون تحته أعذب من جميع الأرز الذي يكون تحت الدجاج المسمّن، ودهنه ولحمه لا زفر



فيه ولا رائحة البتة، وهو من عجائب الدنيا. ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين وخمسمائة، اجتمع إلي الناس من أهل العلم وغيرهم، وفي جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة، فألقى عندي سوار ذهب وزنه أربعون مثقالاً، وقال: ما أصنع بهذا السوار؟ فقلت لا أدري ما تصنع به لست بصائغ حتى أعلم ما تعلم به. فقال: اشتريت سمكة بطسوج فوجدت هذا السوار في بطنها. فقلت: عرّفه، فقال: قد عرّفته ثلاث سنين أشده عكازي وأدور به في المساجد والأسواق والبيوت والطرقات وفي دور الأمراء فلا أجد له من يدعيه. فقلت: خذه أنت، فإنه مال حلال وانفقه على نفسك. فغضب من كلامي وقال: والله لا تراني آكله. فقلت لماذا تقول هذا الكلام؟. قال: لأنني رجل صانع أعمل الخفاف وآخذ ما يكفيني، فقلت له: افتد به الأسرى من أيدي الترك. ففرح، فقال: بارك الله عليك، فرّجت عني كربة. فقلت: وليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟. فقال: ها هنا من أهل العلم من يقول أعنّا إياه، ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله.

وسمعت ببلغار، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال، وهي فوق سخسين بأربعين يوماً، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة، والنهار أربع ساعات. ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد، ولا يمكن أن يحفر فيها قبره. ولقد مات لي بها ولد، وكان في آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه، ويبقى الميت كالحجر. ويخرج التجار من بلغار إلى ولاية من الكفار يقال لهم إيسوى منه يجئ القندر الجيد، ويحملون إليهم السيوف التي تتخذ في أذربيجان نصالاً غير مجلية تشتري في أذربيجان أربعة سيوف بدينار ويسقونها سقياً كثيراً حتى إذا علقوا النصل بخيط ونُقر، طنَّ كثيراً. فذلك الذي يصلح لهم فيشترون بها القندر. ويذهب أهل إيسوى بتلك السيوف إلى ولاية قريبة من الظلمات مشرفة على البحر الأسود، فيبيعون تلك السيوف منهم بجلود السمور، ويأخذون تلك النصول فيلقونها في البحر الأسود، فيخرج الله تعالى سهم سمكة كالجبل تتبعها سمكة أكبر منها أضعافاً تريد أكلها فتلقي نفسها قريباً من البر بحيث لا يمكنها الرجوع، فيدخلون إليها بالسفن ويقطعون من لحمها شهوراً حتى يملئوا بيوتهم ويدخرون من لحمها، ويقددون ما لا نهاية له ودهنها، وربما يكبر البحر فترجع تلك السمكة إلى البحر وقد ملأت مائة ألف بيت أو أكثر من لحمها. وإذا كانت السمكة صغيرة يخافون أن تصيح إذا وصلوا في موضع القطع من لحمها إلى عظامها، يخرجون أولادهم ونساءهم إلى موضع بعيد من البحر حتى لا يسمعوا صوتها.

وقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها يستر حيها وجسدها كالأزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها، وتصيح، وتفعل كما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت في أيديهم..)

22. بحر نيطس (=الأسود)، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(قال المعتنون بعلم ذلك إن بحر الروس وسرداق بحر مظلم، كثير الاضطراب، كبير الموج مهول سريع تغريق المراكب فيه لشدة غليانه واضطرابه واختلاف الرياح العواصف فيه، وليس فيه كثير ينفع الناس غير السمور ووبر القندس وما يجلب من بلاد الترك من الرقيق. وبه سبع جزائر للروس والحرامنة لايزالون يتحرمون بأطرافه المغربية... وبجزائره أمة تسمى الروسية نصارى. وجزائره عامرة بالمدن والقرى والكروم والمواشي، وهي كثيرة الأخوار والجبال والحروث والبروش وكذلك سواحله، وقيل إنه بحر مستقل بنفسه يخرج منه خليج قسطنطينية ويصب في بحر الروم. وقوم يقولون إنه خليج يخرج من المحيط على ظهر بلاد الصقالبة وظهر بلاد البلطمية وبلاد العامانية وبلاد الأزكشية وبلاد التركشية وأرض برجان واللان، وكلهم يدينون بالنصرانية، وعليه للمسلمين فرضتان يدخل منهما إلى بلاد الروم إحديهما طرابزون المسماة قبل طرابزندة، وكانت في صدر الإسلام عامرة كثيرة المتاجر لاجتماع الروم والمسلمين فيها للتجارة ثم خربت. وخلف عنها صنوب وهي الفرضة الثانية وبها سمسون مينا مستجد وليمونه كذلك، وكثيراً ما يظهر بهذا البحر التنين الذي يزعم من لا علم عنده أنه حيوان حي، وأنه ينقله الملائكة من البحر إلى جهنم عند عتوه وطغيانه على دواب البحر وأنه يكون في جهنم من جملة حياتها وأنواع العذاب فيها.

وزعم آخرون أن التنانين دواب تكون في قعر البحر فتعظم وتؤذي ما فيه من دابة، فيبعث الله السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتلقيها في أرض يأجوج ومأجوج فيأكلوها. والتنين يوجد في البحر الرومي وببحر الخزر وببحر ورنك بكثرة وكذلك في سواحل المحيط بالأندلس، ويخرج من هذا البحر من شماله جون عرضه نحو من عشرة أميال وطوله نحو ثلاثين ميلاً كالخليج فيصب في بحر سرداق وسقسين والقبجق وهو بحر مستدير طوله وعرضه نحو مئتي ميل في مثلها وعليه مدينة سرداق ومدينة كفا ومدينة قرم. وبسواحله طوائف من الترك كالأزكش واللان وبرطاس والكلابية. وذكر صاحب "تحفة الغرائب" أن بأرض اللان شمالي هذا البحر معدنا للفضة ليس على وجه الأرض مثله وذلك أن أرضه مخصوصة نحو من مئة ذراع في مثلها زرقاء ندية برازة ويثيرونها أهلها بالحرث والنكاش ثم يجمعون ترابها ويجففونه ثم يجعلونها كثيباً ثم يلقون عليه الحطب الجزل بكثرة، ثم يتخذون فيه من تحته مجاري أخاديد في الأرض ويوقدون النار، فإذا سبكت النار ذلك التراب المجموع سال منه فضة سيلاً في تلك المجاري مختلطة بإقليميّاها، فيصفّونها كالعادة فتبقى فضة خالصة.)

23. بحر فارس (= الخليج العربي)، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(قال أهل العلم بذلك: بحر فارس مبارك مأمون كثير الخير لم يزل مركوباً، وهياجه واضطرابه أقل من سائر البحار، وهو شعبة من بحر الهند، ومن أعظم شعبه وأنه كان متصلاً به مخالف له في الهيج والسكون فإن فيه من الماء سبعين باعاً إلى ثمانين باعاً، وفيه مغاص اللؤلؤ الصافي والدر الجيد، وفيه معادن العقيق والبجادي والماذبني والذهب والفضة والحديد وفيه أنواع الطيب والبهار، ومده وجزره مع طلوع

القمر ومع توسطه بوتد الأرض وطوله أربعمائة فرسخ وستون فرسخاً وعرضه مائة وثمانون فرسخا، وهو مثلث الشكل على هيئة القلع أحد أضلاعه من البصرة إلى رأس الجمحة من بلاد مهرة، والآخر من البصرة إلى تيز مكران، والثالث يأخذ من رأس الجمحة ويمتد على سطح البحر طوله خمسمائة ميل وطول الضلعين الآخرين، حيث يبتدي من تيز مكران وإلى أن ينتهي إلى الحسا والقطيق بالبصرة ثم ينعطف إلى رأس الجمحة تسعمائة ميل ودردور فيه مما يلي عبادن. وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار، تسعة منها أربعة عامرة، وهي جزيرة خارك يحيط بها عشرون ميلاً، وبها مدينة لها جامع حسن. وجزيرة كاس تسمى جزيرة قيس يحيط بها اثنا عشر ميلاً وهي عامرة مأهولة بها بساتين كثيرة وهي لصاحب عمان وله فيها مراكب تغزو جزائر الهند وبها وبجزيرة خارك مغاص اللؤلؤ. وجزيرة أوال وهي تجاه البحر بساحل بلاد البحرين وبينهما يوم، وبها مدينة لها جامع أيضاً. وجزيرة يافت تعرف بجزيرة بني كافان طولها اثنا عشر ميلا وعرضها تسعة أميال وهي آهلة عامرة. وأوال اسم دابة من دواب البحر يكون طولها مائة ذراع وأكثر وأقل، وهذا كثير الوجود بناحيتها.

وجزيرة فارس واغلة فيه بإزاء خوزستان مسكونة لقوم من السراق لهم جلادة على العوم وعلى القتال في الماء. يزعم أهل جزيرة قيس أن هؤلاء من نسل الجان، وذلك أن بعض ملوك الهند أرسل تحفاً إلى ملك فارس وجوارياً حساناً وأن المركب أرسى بساحل الجزيرة و لم تكن مسكونة وباتوا بسواحلها، وأن الجواري بتن بها عند ما نزلن من المراكب، فاختطفهن الجان وأسروهن ووطئوهن حتى حملن وولدن، وأولاد هؤلاء من نسلهن هم وذرياتهم أبداً. وبهذه الجزيرة من النخل مالا بغيرها فإنه ينبت بنفسه، ومن المعبر الكبير يسار إلى جزائر الوقواق، وأهلها يتعاملون بالحديد كما يتعامل الناس بالذهب، حتى أن أطواق كلابهم من الذهب وسلاسل دوابهم لكثرة الذهب والحديد عندهم أعز منه وأغلى، كما أن أهل غانة يحبون القصدير ويستخيرونه على الذهب وكذلك أهل الحبشة العليا يختارون الصفر على الفضة ويتحلون به دونه ودون الذهب.)

24. بحر القلزم، المقريزي، من كتاب (المواعظ والاعتبار)

(القلازم: الدواهي والمضايقة، ومنه بحر القلزم لأنه مضيق بين جبال.. هذا البحر إنما عرف في ناحية ديار مصر: بالقلزم لأنه كان بساحله الغربيّ في شرقيّ أرض مصر مدينة تسمى: القلزم، وقد خربت.. فسُمي هذا البحر باسم تلك المدينة، وقيل له: بحر القلزم على الإضافة، ويقال له بالعبرانية: ثم تسوب، وهذا البحر إنما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذي يقال له: بحر اقيانس، ويعرف أيضاً: ببحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه، وضعف الشمس عن حله فيغلظ وتشتدّ الظلمة، ويعظم موج هذا البحر، وتكثر أهواله، و لم يوقف من خبره إلا على ما عرف من بعض سواحله، وما قرب من جزائره، وفي جانب هذا البحر الغربيّ الذي يخرج منه البحر الرومي الجزائر الخالدات وهي فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون، وفي جانب هذا البحر الشرقيّ مما يلي الصين ست جزائر أيضاً تعرف: بجزائر السبلي نزلها بعض العلويين في أوّل الإسلام

خوفاً على أنفسهم من القتل، ويخرج من هذا المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان: وهما اللذان عناهما اللّه تعالى بقوله "مرج البحرين يلتقيان" وقوله "وجعل بين البحرين حاجزاً" فأحدهما: من جهة الشرق، والآخر: من جهة الغرب. فالخارج من جهة الشرق يقال له: البحر الصينيّ، والبحر الهنديّ، والبحر الفارسيّ، والبحر اليمنيّ، والبحر الحبشيّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلدان. وأما الخارج من الغرب فيقال له: البحر الروميّ.

فأما البحر الهنديّ الخارج من جهة الشرق فإن مبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة، ويجري إلى ناحية الغرب فيمرّ على بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كنبانة وإلى التبير من بلاد كمران، فإذا صار إلى بلاد كمران ينقسم هناك قسمين: أحدهما يسمى: بحر فارس، والآخر يُسمى: بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج في البر يُسمى هذا الركن: رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار، ويسير إلى المسجر وساحل بلاد حضرموت إلى عدن وإلى باب المندب، وطول هذا البحر الهنديّ ثمانية آلاف ميل في عرض ألف وسبعمائة ميل عند بعض المواضع، وربما ضاق عن هذا القدر من العرض، فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج إلى بحر القلزم، والمندب جبل طوله اثنا عشر ميلاً وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البرّ تجاهه، فإذا فارق باب المندب مرّ في جهة الشمال بساحلي زبيد والحرون إلى عثر. وكانت عثر مقر الملك في القديم، ويمرّ من هناك على حلى إلى عسفان وأنمار وهي فرضة المدينة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، ومنها على ما يقابل الجحفة حيث يسمى اليوم رابغ إلى الحوراء ومدين وأيلة والطور وفاران ومدينة القلزم، فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب ومرّ إلى القصير وهي فرضة قوص ومن القصير إلى عيذاب وهي فرضة البجه، ويمتدّ من عيذاب إلى بلد الزيلع، وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل ببربر.

وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل وعرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها، وهو بحر كريه المنظر والرائحة، وفي هذا البحر مصب دجلة والفرات وعلى أطرافه بلاد السند، وبلاد اليمن كأنها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث وهو: يردع نهر مهران كردع البحر الرومي لنيل مصر وفيه فيما بين مدينة القلزم، ومدينة أيلة مكان يعرف: بمدينة قاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدّة اختلاف الريح وقوّة ممرّها من بين شعبتي جبلين وهي بركة سعتها ستة أميال تعرف: ببركة الغرندل، يقال: إن فرعون غرق فيها، فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، ويُقال: إن الغرندل اسم صنم كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضباً للملك أو فاراً منه، وأنّ موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر وسار بهم مشرقاً أمره اللّه سبحانه وتعالى: أن يترل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون ظنّ أنّ الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير كما يعهدونه منه، فخرج بجنوده في طلب موسى وقومه ليأخذهم بزعمه، فكان من غرقه ما قصه اللّه تعالى.. وفي بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة منها: أربع عامرات وهي: جزيرة دهلك، وجزيرة سواكن، وجزيرة النعمان، وجزيرة السامريّ ويخرج من هذا البحر خلجان: خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الأعظم، وخليج يحول بين بلاد السودان، وبلاد اليمن عرض دقاقه نحو من فرسخين، ويقرب هذا البحر من البحر الرومي في أعمال بلاد الشام وديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم.



25. بحر اليمن، وبحر القلزم (= البحر العربي، والبحر الأحمر). الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(قال المعتنون بتدوين مثل ذلك في الكتب:أول بحر اليمن من جهة المشرق رأس الجمحة، وهو جبل معترض في البحر ببلاد مهرة، وهو حدود بحر فارس أيضاً... وجزائر دبيجات، جزائر صغار وكبار متقاربات ولهن جزيرة وسطها هي الديبجات، وهي أعجب جزائر هذا البحر كله، أهلها سود شديد سوادهم وكل ما عندهم أسود من تراب وحجارة ودواب حتى أن القصب السكر عندهم أسود، وغالب نبات عندهم خضرته إلى السواد وكذلك الذرة سوداء والكافور.وببحر اليمن القرش ويسمى سبع البحر أخضر اللون بزرقة خشن البشرة حتى أن رقبته وظهره شبيه بالمبرد، يتخذون منه الناس جلوداً لقبضات السيوف، وله خرطوم عظيم أقصر من ذراع وبدنه أطول ما يطول أربعة أذرع وخرطومه شبيه المنشار وخدان يضرب بهما يمنة ويسرة. وحيوان مستدير الشكل كهيئة البطيخة الخضراء في التدوير ولونه أصفر منقّط بسواد وخضرته كلون الضفدع الترابي ولا يبين لهذا الحيوان رأس ولا ذنب، فإذا وقع في شبكة الصياد وألقاه إلى الأرض انتفخ بما في أقطاره حتى يكون أضعاف ما كان من المقدار ثم يضمر ثم ينتفخ ثم يضمر ثم ينتفخ ثم يضمر إلى أن يموت أو يرجع إلى الماء ولا يؤكل لحم هذا الحيوان لسميّة فيه.

وحيوان كصورة طبق أو ترس وهذا شكله كأنما هو جردقة أو سفرة أدم مفتوحة ولونه أزرق إلى الخضرة منقط بأحمر وله ذنب طويل شبر فما دونه إلى شبرين، وذلك الذنب أبيض وأسود وفي رأس ذنبه حمة يلدغ بها من لدغه نسر عليه وغفبر لحمه ولا يزال حتى يموت، وليس لهذا الحيوان ريش كريش السمك ولا يدان ولا رجلان بل سفرة مبسوطة وذنب يخفق بطرفيه فيمشي سريعا وبطيئاً وله فم من تحت بطنه في وسطه ومخرج بالقرب من فمه، وبطنه مقدار شبر في شبر، ووسع جمجمته كله من ذراع إلى ذراعين..وحيوان طوله نحو ذراع، ومنه خارج أحساك كصورة ريش القنفذ عظيمات التحديد تنضم إلى بدنه وتقوم في رباطات بدنه، وبدنه بدن سمكة ووجهه وجه بوم، يقتل من يمسه بتلك الأحساك نخساً وهذا شكله ولونه أزرق إلى الخضرة، وريش ذنبه أبيض وأسود. وحيوان يسمى البسة طوله نحو عشرين ذراعاً، وظهره عظيم أسود موشى بأصفر حسن التوشية رقيق وهو سطح جلده وهو الذبل الذي يصعنون منه الناس أمشاطاً ونصب السكاكين والخواتيم وغيرها. ولحم هذا الحيوان طيب سمين دهن شهي لذيذ الأكل ليس فيه زفارة، وتزعم الصيادون أن البسة تلد ولادة، والقاعدة أن كل حيوان ليس له أذن ناتيه يبيض بيضاً ويفقس فراخاً، وكل حيوان له أذن ناتية يلد ولادة والله أعلم، وحيوان طويل دقيق يسمى قطن البحر يصاد ويجفف فيصير لحمه مثل القطن يغزل غزلاً ويتخذ من نسجه ثياب تسمى سمكين لونها أغبر..

وهو خليج دقيق يشبه في امتداده باللسان، خارج من بحر اليمن، ومخرجه من المندم جبل طوله اثنا عشر ميلاً من المشرق إلى المغرب وسعة فوهة الخليج عنده مقدار مايرى الإنسان البر الآخر منه، فإذا فارق المندم - ويقال المندب - يكون سعته عند مدينة عوان من بر الحبش والعجم نحو ستين ميلاً، وأهل عوان حبوش سكان بها، ثم يمتد إلى جهة الشمال بغرب يسير يدق ويعرض حتى ينتهي إلى مدينة أيلة والقلزم وهما خراب الآن،



وطوله ألف وخمسمائة ميل وعرضه من مئتي ميل إلى أربعمائة ميل، وفي هذا البحر أغرق الله فرعون وجنوده، وهو بحر صعب قليل الخير شقي الساكن قليلة. وإذا ركبه الراكب رأى أهوالاً ووجد شدائد لا يجدها في غيره، وبه شجرة المرجان أبيض ظاهره وباطنه، وفيه السلحفات مقدار الكبيرة منهن عشرة أشبار في ستة أشبار فما دون ذلك، وبه السرنباق وحلزون طويل كبير نحو شبر وأكثر. والحيوان الذي فيه الطيب، ويجمع من هذا البحر دم الأخوين وبه أعاجيب، أعرضنا عن ذكرها ليست كباقي أعاجيب البحر، والله أعلم. .)

26. جبال، ابن فضل الله العمري، من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)

(إنّ الجبال كلّها متشعِّبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض. وهو المسمّى بجبل قاف، وهو أُمّ الجبال. كلُّها تتشعب منه، فتتصل في موضع، وتنقطع في آخر. وهو كالدائرة، لا يُعرف له أوّل على التحقيق. إذ كانت الحلقة المستديرة، لا يُعرف طرفاها. وإن لم تكن استدارته استدارة كُريَّة، ولكنّها استدارة إحاطة، أو كالإحاطة. فلمّا لم نقف له على أوّل التحقيق، قدّرنا له أوّل، وهو: كتف السدّ الجنوبيّ. ونديره بالمعمور. يتّصل في موضع اتّصاله، وينقطع في موضع انقطاعه، إلى كتف السدّ الشماليّ: حيث الفرجة التي ساوى الاسكندر ذو القرنين فيها، كما قال تعالى (بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ)وأقام السدّ وعمل الباب، على ما هو مرسوم في لوح الرسم. ومجموع هذا الجبل "متّصلة ومنقطعة في كل مكان، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا" وهو جبل قاف. وهذا هو المستفيض على الألسنة، الطائر بين العالم، بما يعبر عنه به عند كلٍّ منهم، على ما يقتضيه اختلاف الألسنة واللغات.

وقد زعم بعضهم أن أُمّهات الجبال جبلان: خرج أحدهما من لدن البحر المحيط في المغرب، وأخذ جنوبا؛ وخرج الآخر من لدن البحر الروميّ وأخذ شمالا؛ حتّى تلاقيا عند السدّ. وسمَّوا الجنوبيَّ قاف، وسمَّوا الشماليَّ جبل قاقونا. والأظهر "والله أعلم" أنه جبل واحد محيط بغالب بسيط المعمور لا كما هو البحر، محيط بجميع كرة الأرض، وأنّه هو الذي تصدق عليه التسمية بجبل قاف في كل قطر ومكان؛ ولا يُعرف في الجنوب إلاّ بهذه التسمية، ويُعرف في الشمال بجبل قاقونا. وبهذا تزول شبهة من ضنَّ أنّ كلاًّ منهما غير الآخر. والله أعلم. والذي نقول، وبالله التوفيق! إنّ هذا الجبل المحيط بغالب المعمور مبدؤه من كتف السدّ آخذا من وراء صنم الخطا المحجوج إليه، إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين، آخذاً على غربيّ صين الصين، ثُمَّ ينعطف على جنوبيّه مستقيماً في نهاية الشرق، على جانب البحر المحيط، مَع الفُرْجة المنفرجة بينه وبين البحر الهنديّ الداخلة، ثم ينقطع عند مُخْرَج البحر الهنديّ مع خطّ الاستواء، حيثُ الطولُ مائة وسبعون درجة.. ثم يتّصل من شعبة البحر الهنديّ الملاقي لشعبة المحيط الخارجة على بحر الظلمات من المشرق، بجنوب كثير من وراء مُخْرج البحر الهنديّ في الجنوب؛ وتبقى الظلمات بين هاتين الشُّعبتين: شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا بغرب، وشعبة البحر الهنديّ الجائية على الظلمات شرقا بغرب، حتى تتلاقى الشعبتان عند مُخرج هذا الجبل، كتفصيل السراويل. ثم ينفرج رأس البحرين المتلاقيين شعبتين على مبدإِ الجبل، ويبقى الجبل بينهما كأنّه خارج من نفس الماء. ومبدأ هذا الجبل قه هنا وراء قبَّة أرِين، عن شرقها. وبعده منها خمس عشرة درجة.

وقد علّم صاحب جغرافيا قُبالة مبدأ هذا الجبل في القسم الشرقيّ طولا. وذلك بعد أن انتهت درجات القسم الغربيّ عند قبَّة أرِين إلى تسعين درجة، ويقال لهذا الجبل في أوّله المُجَرَّد. ثمّ يمتدُّ حتّى ينتهي في القسم الغربيّ إلى طول خمس وستين درجة من أوّل المغرب. وقد علّم عليها في لوح الرسم سه. وهناك يتشعَّب من الجبل المذكور جبل القمر، وينصبُّ منه النيل. ويقال إنّ به أحجارا برّاقة كالفضة البيضاء، تتلألأ، تسمى صَنْجَة الباهت: كلٌّ من نظرها، ضحك والتصق بها، حتّى يموت. وتسمى مغناطيس الناس. قال صاحب جغرافيا، وقد ذكره أرسطو في كتاب الأحجار. وتتشعَّب منه شعب تسمى آسيفي. يقال إنه مسكون، وإن أهله كالوحش. والله أعلم بصحة ذلك. ثمّ ينفرج منه فُرجة، ويمرُّ منه شُعب إلى نهاية المغرب في البحر المحيط، تسمّى جبل وحشيّة: به سباع لها قرون طوال، لا تطاق. وينعطف دون تلك الفُرجة من جبل قاف شُعب، منها شعبتان إلى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل، من الشرق والغرب. فالشرقيّ، يُعرف بجبل قاقولي، وينقطع عند خط الاستواء. والغربيّ، يُعرف بأدمدمة. يجري عليه نيل السودان، المسمّى في جغرافيا ببحر الدمادم. وينقطع تلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينتي سمغرة وجيمي. وراء هذه الشعبة، تمتدُّ شعبة منه، هي الأُمّ من الموضع المعروف فيه الجبل بآسيفي المتقدِّم الذكر إلى خط الاستواء، حيث هو الطول هناك عشرون درجة. وقد علّم عليها في لوح الرسم "ك". ويُعرف هناك بجبل كرسقانة. وبه هناك وحوش ضارية. ثم ينتهي إلى البحر المحيط وينقطع دونه بفُرجة مفروجة. وذلك وراء التكرور، عند مدينة قلتبو.

ووراء هذا الجبل هناك سودان، يقال لهم تمتم، يأكلون الناس .. ثمّ تتَّصل الأُمُّ من شاطئ البحر الشاميّ في شماله، شرقيّ رومة الكبرى، مسامتا للشُّعبة المسماة آدمدمة المنقطعة بين سمغرة وجيمي لا تكاد تخطيها، حيث الطول خمس وثلاثون درجة علامتها في لوح الرسم له. ويقع منشأ اتِّصال هذه الأُمّ في رسم خط العروض على ف. رسمها في لوح الرسم. وكذلك تقع شعبتها آخذا في الجنوب إلى الخط المُعلَّم عليه الأطوال في لوح الرسم، عند أخذها ما بين سردانية وبلنسية على ف. وتتناهى وصلة هذه الأم إلى البحر المحيط في نهاية الشمال، قُبالة جزيرة بِرطانية. وتبقى سوسية داخل الجبل. ثم تمتدُّ هذه الأُمّ بعد انقطاع لطيف وتنعطف مع انعطاف خرجة البحر المحيط في الغرب بشمال على الصقلب المسماة ببحر الأنقليشين ممتدّاً إلى غاية المشرق. ويُسمّى هناك بجبل قاقونا. وتبقى وراءه البحرة الجامدة لشدَّة البرد. ثم ينعطف من الشمال المُشرِّق جنوبا بتغريب إلى كتف السدّ الشماليّ. فيتلاقى هناك الطرفان. وبينهما في الفُرجة المنفرجة، ساوى الإسكندر بين الصَّدَفين.

ونحن نذكر هنا ما في لوح الرسم من الجبال، ونقسمه على أربعة أقسام، تتجزأ بها المعمورة طولا وعرضا. ففي العرض ممَّا وراء خط الاستواء من المعمورة المقدَّر عرضه بإقليم ونصف إقليم ممّا أُخذ له عرض لارتفاع الحَمَل والميزان، وهو جزء مقدَّر بنصف إقليم فيكون ذلك تتمَّة إقليمين من وراء خط الاستواء، حيث انتهى أخذ العرض هناك ممَّا ابتُدئ من قبَّة أرِين جنوبا عشرين درجة، وقد علّم عليها في لوح الرسم "ك" إلى حيث نهاية المعمورة وراء الروسيَّة الثانية، خارج الإقليم السابع في الجزء المقدَّر بنصف إقليم مارّا مع الإقليم السابع من أوّل المشرق إلى آخر المغرب حيث انتهى أخذ العرض هناك إلى خمس وسبعين درجة..وقد علّم

عليه في لوح الرسم عه قاطعا في الطول على خطٍّ مستقيم من المشرق إلى المغرب يقع وسطه على خط العروض في جزء أخذ عرضه على خمس وثلاثين درجة وهو ما بين خُوز وعبّادان. وقد علّم عليه في لوح الرسم له. ووقع هذا الخط في المشرق آخذا على جنوب السدّ، مارّاً على جنوب كرمان إلى أن ينتهي إلى البحر الشاميّ حيث مُخرج الخليج القُسطنطيني منه ما بين قبرس ورودس إلى آخر المغرب. وموقع هذا الخط على وسط الأقاليم السبعة المقسَّمة. فيكون على خط نصف الإقليم الرابع مقسومة عليه الأقاليم السبعة نصفين على جانبين. وموقع هذا الخط الوسط منها. "..

أرباع الجبال

فالربع الأوّل من هذه الأرباع المقسومة الآن، وهو الربع الشرقيّ الآخذ إلى الجنوب. وبه من الجبال في جزر القُمْر العظمى من المعمور الخارج عن خط الاستواء: جبل يعرف بجبل قدم آدم، يقال أنّ آدم "عليه السلام" أُهبط عليه. وهو جنوبيّ جزيرة سَرَنْديب. ووراءه جبل كأنّه باء محذوفة الذيل "ب". ذكر صاحب جغرافيا في لوح الرسم أنّ أهله سود يأكلون الناس. تقع حذفة ذيله على خط الاستواء، على جزء بلغ طوله مائة درجة وخمس درجات. وقد علّم عليه في لوح الرسم مه من حساب الجُمَّل. ووراءه ثلاثة جبال منقطعة، صغارا. يتلو بعضها بعضا. أوّلها جبل، شرقيّ هذا الجبل عند قائمته الأولى المشبهة برأس ياء متلوٍّ كتلوّي الأرقم "ء". في سفحه مدينة عَلما؛ ويليه من شرقيّه الثاني وهو جبل آخذ على مدينتي ملاي وسمردي. ذكر صاحب جغرافيا أن الذهب والحديد به كثيران؛ ويليه من شرقيّه، الثالث، وهو: جبل هو أصغر الثلاثة، غربيّ مدينة مَعْلا. ثمّ ما هو داخل تحت خط الاستواء جبل كثير الشهرة، وهو المشهور في أواخره بجبل الديْلَم. ومنشؤه من البحر الهنديّ غربيّ المنيبار. ويأخذ ممتدّا إلى الشمال على وِرابٍ. في ذيله الغربيّ كابُلُ. ثمّ يخرج إلى قسم هذا الربع الآخذ إلى الشمال، ويقع هناك على أصفهان، وتنتهي شعبته على منبع نهر مكران، المادّ إلى السند. وعليه من ذلك الميل في شرقيّه، المُحَمّديَّة. ذكرناها هنا علامة لهذا الجبل. وإذ قد ذكرنا هذا الجبل بمجموعه هنا، لم يبق حاجة إلى ذكره في قسم هذا الربع. ومن ذلك جبل آخذ على مستقيم هذا الخط الواقع وسط الأقاليم السبعة المُخرجة هذه الأرباع عليه. ويمتدُّ هذا الجبل مُشرِّقا على تلوٍّ في أوله، مارّاً، إلى مسامته باب الصين على جنوبيّه. وهناك يتّصل بالأمّ. وتمتدُّ منه شعبة آخذة بالجنوب إلى البحر الهنديّ ممّا وراء المعبر، مدينة ازهونة. وذلك جميعه خارج عن الأمّ منقولا من لوح الرسم.

والربع الثاني من هذه الأرباع المقسومة الآن هو الربع الغربيّ الآخذ إلى الجنوب. به من الجبال تحت الأمِّ الخارجة من شعبتي البحر المشبهة بتفصيل السراويل المقدّمة الذكر، ثلاثة جبال: "الأول" منها وهو الشرقيّ جبل آخذ عن الأُمّ على جانب فرجة بينهما، ممتدّا إلى خط الاستواء حتّى وقع عليه وينقطع عنده. وتقع مدينة لقمرانة في ذيله على شرقيه، وبوشة في ذيله على غربيه.ويليه "الثاني" على غربيه وهو جبل آخذ إلى مدينة نسويه. وينقطع هناك. ويليه "الثالث" على غربيه وهو جبل يعرف بجبل حاقولي. ذكر صاحب جغرافيا في لوح الرسم

أنه معروف عند المسافرين. يأخذ على شرقيّ النيل حتى ينتهي إلى مدينة فرقوة حيث آخر خرجة البحر الهنديّ.. وعن يسرته جبل آخذ على شرقيّ النوبة. ومن ذلك جبل يقع منه جنوبا مع تغريب كثير كأنه "لا" معلقة بالخط المغربيّ ".لا". ومن ذلك جبل آخر منقطع ما بين خاخة وجيمي. ومن ذلك دونهما جبلان آخران أحدهما يأخذ على الواحات والآخر يأخذ وراء غربيّ بحيرة نافون، وشرقيّ بحيرة كوكورة. ومن ذلك وراءه في غربية جبل كأنه رأس صاد بالخط المغربيّ "ص" وسطه بطحاء سهلة، لا وصول إليها من كل جهة، إلا بعد صعود الجبل والنزول إليها جانبه الداخل. يجري منه النهر الواصل إلى القيروان المنتهي إلى البحر الشاميّ.

وسليه جبل يُرف باللمّاع كأنه فردة صولجان. عليه حصن الملح وجَزولَةُ. وتنصبُّ منه أنهار إلى المحيط. ومن ذلك جبل يأخذ بين فاس وسجلماسة وينصبُّ منه نهر بين أَسَفِي والمزمَّة حتى يصب في البحر المحيط، شرقيّ طنجة. ومنذ لك جبل منقطع ينشأ في أواخر خط الاستواء غربا، حيث الطول من الغرب خمس عشرة درجة، علّم عليها في لوح الرسم به من حساب الجُمَّل. ويأخذ جنوبا إلى البحر المحيط. ومن ذلك جبلان يُعرفان بجبل كرسقانة وجبل وحشية..

والربع الثالث لغربيّ الآخذ إلى الشمال به من الجبال جبل آخر في جزيرة الأندلس، في جنوبيّها من البحر الشاميّ من أشبيليّة إلى بَطَلْيَوْس، وانصبَّ منه نهران: أخذ أحدهما على أشبيليّة مارّا بينها وبين مالقة حتى صبَّ في البحر الشاميّ، والثاني منهما أخذ على البيرة وصبَّ في البحر المحيط. وفي شرقيّه جبل آخذ من قورة إلى وادي آش، عليه هيكل الزُّهَرَة، وانصبَّ منه نهر مرّ على وادي آش وأخذ شرقيّ غرناطة إلى قُرْطُبة، وصب في البحر الشاميّ. وفي شرقيّه جبل خرج من البحر المحيط، من شمال مغرِّبا وأخذ مارّا في الأندلس إلى بَلَنْسيَة وانتهى إلى البحر الشاميّ. وهذه الجبال كلها وراء وصلة الأُمّ الخارجة على شرقيّ رومة الكبرى. ولولا مُخرَج الأُمّ هنا، لما امتنع سبيل الأندلس في البرّ إلى بلاد القسطنطينيّة الكبرى واللاّن والأص والصقلب، ولوصل منه إلى جميع الأرض شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، من غير بحر حائل ولا لُجٍّ مانع. فلمّا لم يبق للأندلس سبيل إلاّ في البحر، بقيت كأنّها داخلة هذا الجبل المحيط بالمعمور، وإن كان موقعه وراءه من غربيّه. ذكرنا هذا هنا لمقتضيه، إذ لم يمكن السكوت عنه. ثم نعود إلى تتمَّة الجبال الواقعة في هذا الربع الثالث. فمن ذلك جبل يأخذ على بحر بُنْطس المتَّصل بالبحر الشاميّ من شرقيّ هرَقْلَة ويمتدّ إلى أنطاكِيَة وحلب ويمتد في الشأم على شمالي بعلبك ودمشق. ويحصر هذ الجبل البحر الشاميّ آخذا معه إلى الجنوب، على فرجة بينهما تلك الفُرجة هي موقع مدائن الروم وهي المسماة الآن ببلاد الروم، مثل: قُونية وقيصرية وأنطاكية. ومن ذلك جبل يمتد على ماردين وشَهْرَزُور وأخلاط. ينقطع ويتصل بجبل أذربيجان. وتنصبُّ منه أنهار كبيرة: منها ما يصبُّ في البحر الشاميّ، ومنها ما يصبُّ في بحر بنطس، ومنها ما يصب في البحر الهنديّ، ومنها ما يصبّ في البحيرة البلاّعة المقاربة للسَّدّ. ويتصل هذا عن فرجات بجبل طبرستان المار بين أذربيجان وغزنة. وكذلك يتّصل به جبل طوس الآخذ بينها وبين جرجان، حيث يخرج خطٌّ أخذ العروض.ومن ذلك جبلان منقطعان، وراء بحر بنطس، من شماله بشرق. آخذان على بحيرة الجارس عن شرقها وغربيّها..



والربع الرابع من هذه الأرباع المقسومة، هو الربع الآخذ إلى الشمال، وبه تمامها. به من الجبال، جبل منقطع ما بين جبال السند وبين بوار. وشماليّ القموج يجري نهر مُكْران حيث يقطع مدى الصحراء على ذيله ويخرج هناك. ومن ذلك جبل يترل به غُرْغُر النار. به باب الصين. ومن ذلك جبال الخطا المحيطة بها على باش بالق، وآل بالق، وخان بالق. ومن ذلك جبل منقطع. كأنه صليب ذهب أحد شعبه. ومدينة ظفار في ذيله المغترب. وشعبته الخارجة تقع في بلاد الياش في ذيلها. ومن ذلك جبل منقطع مُتلوّ كالأرقم، من غربيّ بلاد أسحرت إلى نهاية العمارة في الشمال. ومنه ينصب فرع نهر جيحون. ومن ذلك جبل في صحراء القباج، آخذ على منعطف النهر المتّصل بالبحيرة الجامدة من شدّة البرد. ومن ذلك جبل منقطع ينصبُّ منه فرع إلى نهر أَتيل في شرقيّ صحارى القبجاق آخذا بشرق مدينة أوتنا. ووراءها عبدة الشياطين. على ما رسم صاحب جغرافيا في لوح الرسم. ومن ذلك شعبة آخذة من الأُمّ إلى جنوب مُغْتَرب، ينصبُّ منه ماء إلى النهر المنتهي إلى البحيرة الجامدة..)

ونختم بما يفرضه التخيل القائم في غالبه على اضطراب المعرفة، أقصد بذلك العجائب والغرائب، وخير من يتكفل بذلك ابن الوردي، الذي اخترنا هذا النص من كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) وكما يلاحظ فكثير من المعلومات فيه وردت مفرّقة في نصوص أخرى حول البحار، وفي كتاب (الشرق) وغيره، وتكمن أهمية الأخبار التي جمعها ابن الوردي في أنها تمزج الحقائق البسيطة بالمتخيلات المضخمة، وذلك يعطي فكرة عن كيفية ارتسام عالم الآخر في المرويّات الجغرافية، وفي المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى.

27. جزر عجيبة، ابن الوردي (749 = 1348) من كتاب (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)

(بحر الظلمة: وهو بحر المحيط الغربي، ويسمى المظلم، لكثرة أهواله وصعوبة متنه فلا يمكن أحداً من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي وظلامه كدر، وريحه ذفر، ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى ولا وقف منه بشر على تحقيق خبر، وفي ساحل هذا البحر يوجد العنب الأشهب الجيد، وحجر البهت وهو حجر من حمله أقبل الخلق عليه بالمحبة والتعظم وقضيت حوائجه وسمع كلامه وانعقدت عنه ألسنة الأضداد. ويوجد أيضاً بساحله حجارة مختلفة الألوان يتنافس أهل تلك البلاد في أثمانها ويتوارثونها ويذكرون لها خواص عظيمة. وفي البحر من الجزائر العامرة والخراب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد وصل الناس منها إلى سبع عشرة جزيرة. فمنها الخلدتان: وهما جزيرتان فيهما صنمان مبنيان بالحجر الصلد طول كل صنم مائة ذراع، وفوق كل صنم صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف، يعني: ارجع فما ورائي شيء. بناهما ذو المنار الحميري من التبابعة، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن. ومنها جزيرة العوس: بها أيضاً صنم وثيق البناء لا يمكن الصعود إليه بناه أيضاً ذو القرنين المذكور. وبهذه الجزيرة مات الباني وقبره بها في هيكل مبنى بالمرمر والزجاج الملون. وبهذه الجزيرة دواب هائلة تنكرها المسامع. ومنها جزيرة السعالي: وهي جزيرة عظيمة بها خلق كالنساء إلا إن لهم أنياباً طوالاً بادية، وعيونهم كالبرق

الخاطف ووجوههم كالأخشاب المحترقة، يتكلمون بكلام لا يفهم ولا فرق بين الرجال والنساء عندهم إلا بالذكر والفرج، ولباسهم ورق الشجر ويحاربون الدواب البحرية ويأكلونها. وجزيرة حسرات: وهي جزيرة واسعة فيها جبل عال، وفي سفحه أناس سمر قصار لهم لحى طوال تبلغ ركبهم، وجوههم عراض ولهم آذان كبار وعيشتهم من الحشيش، وعندهم نهر صغير عذب. وجزيرة العرر: وهي جزيرة طويلة عريضة، كثيرة الأعشاب والنباتات والأشجار والثمار. جزيرة المستشكين: وتعرف بجزيرة التنين. وهي عظيمة بها أشجار وأنهار وثمار، وبها مدينة عظيمة، وكان بها التنين العظيم الذي قتله الاسكندر.

وكان من حديثه أنه ظهر بها تنين عظيم، فكاد أن يهلك الجزيرة وما بها من السكان والحيوان، فاستغاث الناس منه إلى الإسكندر. وكان الإسكندر قد قارب تلك الأرض، وشكوا إليه أن التنين قد أكل مواشيهم وأتلف أموالهم وقطع الطريق على الناس وأن له عليهم في كل يوم ثورين عظيمين ينصبونهما فيأتي إليهما كالسحابة السوداء وعيناه تتوقدان كالبرق الخاطف، والنار والدخان يخرجان من فيه فيبتلع الثورين ويرجع إلى مكانه. فسار الإسكندر إلى المدينة وأمر بالثورين فسلخا وحشا جلودهما زفتاً وكبريتاً وزرنيخاً وكلساً ونفطاً وزئبقاً، وجعل مع ذلك كلاليب من حديد وأقامهما في المكان المعهود، فجاء التنين من الغد إليهما على العادة فابتلعها، فأضرمت النار في جوفه وتعلقت الكلاليب بأحشائه، وسرى الزئبق في جسده ورجع مضطرباً إلى مقره. فانتظروه من الغد فلم يأت ولم يخرج، فذهبوا إليه فإذا هو ميت وقد فتح فاه كأوسع قنطرة وأعلاها. ففرحوا وشكروا سعي الإسكندر إليهم، وحملوا إليه هدايا عجيبة منها دابة عجيبة يقال لها المعراج مثل الأرنب، أصفر اللون وعلى رأسه قرن واحد أسود لم يرها شيء من السباع الضواري والوحوش الكاسرة إلا هرب منها.

جزيرة قلهات: وهي جزيرة كبيرة وبها خلق مثل خلق الإنسان، إلا أن وجوههم وجوه الدواب يغوصون في البحر فيخرجون ما يقدرون عليه من الدواب البحرية فيأكلونها. جزيرة الأخوين الساحرين: أحدهما شرهام والآخر شبرام، وكانا بهذه الجزيرة يقطعان الطريق على التجار، فمسخا حجرين قائمين في البحر، وعمرت الجزيرة بعدهما. جزيرة الطيور: ويقال إن فيها جنساً من الطيور في هيئة العقبان، حمر ذوات مخاليب تصيد دواب البحر. وبهذه الجزيرة ثمر يشبه التين، أكله ينفع من جميع السموم. حكى الجواليقي أن ملكاً من ملوك فرنجة أخبر بذلك فوجه إليها مركباً ليجلب له من ذلك الثمر ويصاد له من تلك الطيور، لأنه كان عالماً بمنافع تلك الطيور ودمها وأعضائها ومرائرها، فانكسرت المركب في البحر وهلكت السفينة ومن فيها ولم يعد إليه أحد. جزيرة الصاصيل: طولها خمسة عشر يوماً في عرض عشرة. وكان بها ثلاث مدن مسكونه عامرة وكان التجار يسيرون إليها ويشترون منها الأغنام والأحجار الملونة المثمنة، فوقع الشر بين أهلها حتى فني غالبهم وبقي منهم قليل، فانتقلوا إلى بلاد الروم. جزيرة لاقة: وهي جزيرة كبيرة وبها شجر العود كالحطب وليس له هناك قيمة ولا رائحة حتى يخرج من تلك الأرض فيكتسب الرائحة؛ وكانت عامرة مسكونة والآن قد خرجت فيها حيات كبار وتغلبت على أرضها فخربت بمثل ذلك. جزيرة ثورية: بها أشجار



وأنهار ولكنها خالية الديار، وبهذا البحر دواب عظيمة مختلفة الأشكال هائلة المنظر، يقال إن السمكة يمر رأسها كالجبل العظيم الشامخ ثم يمر ذنبها بعد مدة، ويقال إن مسافة ما بين رأسها وذنبها أربعة أشهر.

بحر الصين وجزائره وما به من العجائب والغرائب: ويسمى هذا البحر بأسماء عديدة: بحر الصين وبحر الهند صنجي، وهو متصل بالمحيط من المشرق: وليس على وجه الأرض بحر أكبر منه إلا المحيط، وهو كثير الموج عظيم الاضطراب بعيد القعر، فيه المد والجزر، كما في بحر فارس؛ ويستدل على هيجان هذا البحر بأن يطفو السمك على وجهه قبل هيجانه بيوم واحد، ويستدل على سكونه ببيض طائر معروف يبيض على وجه الماء في مجتمع القذى، وهو طائر لا يأوي الأرض أبداً ولا يعرف إلا لجة البحر، في هذا البحر مغاص اللؤلؤ يطلع منه الحب الجيد الذي لا قيمة له، وفي هذا البحر من الجزائر ما لا يعلمه إلا الله عدداً إلا أن بعضها مشهور يصل إليه الناس، قيل إن فيه اثني عشر ألف جزيرة عامرة مسكونة وبها عدة ملوك، وفي بعض جزائره ينبت الذهب ويكثر في بعض السنين ويقل في بعضها كالنبات. فمن جزائره جزيرة زانج وتشمل جزائر كثيرة في آخر حدود الصين وأقصى بلاد الهند، عامرة خصبة ليس فيها خراب، يسافرون فيها بلا ماء ولا زاد لكثرة الخصب والعمارة، وهي نحو مائة فرسخ. قال محمد بن زكريا: وملك هذه الجزيرة يسمى المهراج، وله جباية تقطع في كل يوم ثلاثمائة من من الذهب، في كل من ستمائة درهم فيتحصل له في كل يوم ما يزيد على مائة ألف مثقال وخمسة وعشرين ألف مثقال، يتخذ منها لبناً ويطرحه في البحر وهو خزانته. وقال ابن الفقيه: بهذه الجزيرة سكان تشبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحوش أشبه، ولهم كلام لا يفهم، وعندهم أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة وبها نوع من السنانير الوحشية حمر منقطة ببياض، أذناها كأذناب الظباء؛ وبها أيضاً نوع من السنانير المذكورة ولها أجنحة كأجنحة الخفاش، وبها أبقار وخشية حمر منقطة ببياض أيضاً ولحومها حامضة وبها دابة الزباد وهي كالهرة، وفأرة المسك، وبها جبل يقال له النصان مشهور به، وبه حيات عظام تبتلع الفيلة، وبه قردة كأمثال الجواميس والكباش الكبار؛ ومن القردة ما هو أبيض ومنها ما هو كالقرطاس، ومنها ما هو أبيض الظهر أسود البطن وبالعكس؛ ومنها ما هو أسود كالفأر. وبها من الببغاء وهي الدرة شيء كثير بيض وحمر وصفر وخضر، ويتكلمون مع الناس بأي لسان سمعوه منهم. وبها خلق على صورة الإنسان وهم بيض وسود وشقر وخضر يأكلون ويشربون ويتكلمون بكلام لا يفهم، ولهم أجنحة يطيرون بها.

حكى ابن السيرافي قال: كنت ببعض جزائر الزانج فرأيت ورداً كثيراً أحمر وأبيض وأزرق وأصفر وألواناً شتى، فأخذت ملاءة وجعلت فيها شيئاً من ذلك الورد الأزرق. فلما أردت حملها رأيت ناراً في الملاءة فأحرقت جميع ما كان فيها من الورد، ولم تحترق الملاءة، فسألت الناس عن ذلك فقالوا: إن في هذا الورد منافع كثيرة ولا يمكن اخراجه من هذه الغياض بوجه أبداً. وفي هذه الجزيرة شجر الكافور وهو شجر عظيم هائل تظل كل شجرة مائة انسان وأكثر. وفي هذه الجزيرة قوم يعرفون بالمخرمين، مخرمة أنوفهم. وفيها حلق بها سلاسل إذا جاءهم عدو لمحاربتهم قدموا أولئك المخرمين متسلحين، ويأخذ كل رجل بطرف سلسلة من تلك الرجال المخرمة، يمنعه بها من التقدم إلى العدو، فإن انتظم صلح بين العدو وأهل الجزيرة فلا يفلتون من

السلاسل وإن لم ينتظم صلح لفت تلك السلاسل في أعناقهم وأطلقوهم على العدو فيحطمون العدو حطمة واحدة ويأكلون منهم كل من وقعت أعينهم عليه، ولا يثبت لحطيمهم أحد أبداً.

جزيرة رامي: وهي جزيرة عظيمة طويلة عريضة طيبة التربة معتدلة الهواء أبداً، بها معاقل ومدن وقرى وطولها سبعمائة فرسخ. قال ابن الفقيه: بهذه الجزيرة عجائب كثيرة. منها أناس حفاة عراة، رجال ونساء، على أبدانهم شعور تغطي سوآتهم، ومآكلهم من الثمار، ويستوحشون من الناس وينفرون منهم إلى الغياض، وطول أحدهم أربعة أشبار، وبشعرهم زغب أحمر، وهم لا يلحقون لسرعة جريهم. وبساحل هذه الجزيرة قوم يلحقون المراكب في البحر سباحةً، وهي تجري في تيارها فيبيعونهم العنبر بالحديد، ويحملون الحديد في أفواههم ويرجعون إلى الجزيرة ولا يدرى ما يصنعون به. وحكى الجهاني: أن بهذه الجزيرة الكركند، وهو حيوان على شكل الحمار إلا أن على رأسه قرناً واحداً وهو منعقف. وفيه منافع كثيرة منها أنه يصنع منه أنصبة لسكاكين الملوك وتحط على المائدة، فإن كان الطعام مسموماً عرق ذلك النصاب واختلج، ويصنع منه حلية للمناطق تبلغ قيمة المنطقة المحلاة بقرن الكركند أربعة آلاف مثقال من الذهب. وأكثر هذه المناطق تعمل ببلاد الصين، وفي رقبة هذا الحيوان اعوجاج كاعوجاج رقبة الجمل أو دونه؛ وبهذه الجزيرة جواميس بغير أذناب؛ وبها شجر الكافور والبقر والخيزران وعرقه دواء من سم الحيات والأفاعي، وبها طيب عطر ومعادن كثيرة.

جزيرة الرخ: وهذا الرخ الذي تعرف به هذه الجزيرة طير عظيم غريب مهول الهيئة حتى قيل إن طول جناحه الواحد نحو عشرة آلاف باع؛ ذكر ذلك الحافظ ابن الجوزي رحمه الله في كتابه المسمى بكتاب الحيوان، وكان قد وصل إليه رجل من أهل الغرب ممن سافر إلى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة وحضر بأموال عظيمة وأحضر معه قصبة ريشة من جناح فرخ الرخ وهو في البيضة لم يخرج منها للوجود، فكانت تلك القصبة من ريش ذلك الفرخ تسع قربة ماء، وكان الناس يتعجبون لذلك، وكان هذا الرجل يعرف بالصيني لكثرة اقامته هناك، واسمه عبد الرحمن المغربي وكان يحدث بالغرائب، منها ما ذكر أنه سافر في بحر الصين فألقتهم الريح في جزيرة عظيمة كبيرة واسعة فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم القوس والحبال والقرب وهو معهم، فرأوا في الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مائة ذراع، فقصدوها ودنوا منها فإذا هي بيضة الرخ فجعلوا يضربونها بالقوس والصخور والخشب حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل راسخ فتعلقوا بريشة من جناحه و لم تكمل خلقة الريشة فقتلوه. قال: وحملوا ما أمكنهم من لحمه وقطعوا أصل الريش من حد القصبة ورحلوا. وكان بعض من دخل الجزيرة قد طبخ من اللحم وأكل، وكان فيهم مشايخ بيض اللحى فلما أصبح المشايخ وجدوا لحاهم قد اسودت و لم يشب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا فكانوا يقولون إن العود الذي حركوا به ما في القدر من لحم فرخ الرخ كان من شجرة الشباب والله أعلم. قال: فلما طلعت الشمس والقوم في السفينة وهي سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوي كالسحابة العظيمة، وفي رجليه قطعة جبل كالبيت العظيم وأكبر من السفينة، فلما حاذى السفينة من الجو

ألقى ذلك الحجر عليها وعلى من بها، وكانت السفينة مسرعة في الجري فسبقت الحجر فوقع الحجر في البحر، وكان لوقوعه هول عظيم في البحر، وكتب الله لنا السلامة ونجانا من الهلاك.

ومنها جزيرة القرود: وهي كبيرة وبها غياض، وقرود كثيرة، وللقرود ملك تنقاد إليه ويجعلونه على أكتافهم وأعناقهم، وهو يحكم عليهم حكماً لا يظلم به أحداً، ومن وصل إليهم في المراكب عذبوه بالعض والخمش والرجم، ويتحيل عليهم أهل جزيرة خرتان ومرتان فيصيدونها ويبيعونها بالثمن الغالي. وأهل اليمن يرغبون فيها ويتخذونها في حوانيتهم حرساً كالعبيد، وهم في غاية الذكاء. وجزيرة البيمان: وهي جزيرة عامرة وبها مدينة كبيرة، وأهلها ذوو بأس وشدة؛ ومن سننهم أنه إذا خطب الرجل عندهم امرأة لا يزوجونه حتى يذهب فيأتيهم برأس مقطوع فحينئذ يزوجونه امرأة بغير صداق ولا مهر، وإن أتاهم برأسين زوجوه بامرأتين، وإن أتى بثلاث زوجوه ثلاثة، وإن أتى بعشرة فعشر، فيصير عندهم معظماً مهيباً جليلاً. وبها من شجرة البقم والخيزران وقصب السكر ما لا يوصف، وبها مياه جارية وأنهار عذبة وثمار مختلفة.وجزيرة الواق واق: وهي جزيرة كبيرة، وعندهم ذهب كثير بلا وصف حتى إنهم يتخذون سلاسل الكلاب والدواب من الذهب، وأما أكابرهم فيصنعون لبناً من الذهب ويبنون به قصوراً أو بيوتاً باتقان وإحكام.

ومن جزائرها جزيرة البنات بها قوم عراة الأبدان بيض الألوان حسان الصور يأوون إلى رؤوس الأشجار ويتصيدون الناس فيأكلونهم، ووراء هذه الجزيرة جزيرتان عظيمتان فيهما أناس عظام الأجسام حسان الوجوه سود الألوان، شعورهم مسلسلة مختلفة وأقدامهم أطول من ذراع، لهم أخلاق صعبة عادية. وهذه الجزيرة متصلة بالزانج والمسير إليها بالنجوم، وهي ألف وسبعمائة جزيرة عامرة والذهب بها كثير.وملكة هذه الجزائر امرأة تسمى دمهره، وتلبس حلة منسوجة بالذهب، ولها نعلان من ذهب، وليس يمشي في هذه الجزائر أحد بنعل غيرها. ومتى لبس غيرها نعلاً قطعت رجليه. وتركب في عبيدها وجيوشها بالفيلة والرايات والطبول والأبواق والجواري الحسان، ومسكنها جزيرة تسمى أنبونة، وأهل هذه الجزيرة حذاق بالصنائع حتى إنهم ينسجون القمصان قطعة واحدة بأكمامها وأبدانها، ويعملون السفن الكبار من العيدان الصغار ويعملون بيوتاً من الخشب تسير على وجه الماء. هذا ما نقله الجواليقي.

وأما ما ذكره عيسى بن المبارك السيرافي فإنه قال: دخلت على هذه الملكة فرأيتها عريانة على سرير من الذهب، وعلى رأسها تاج من الذهب، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة أبكار حسان، وهن على مذهب المجوس وهن مكشوفات، ومنهن من تتخذ الأمشاط، اثنين وثلاثة وأربعة إلى عشرين. ولهذه الملكة جبايات كثيرة تتصدق بها على صعاليك أرضها ويتحلون بالودع ويدخرونه عندهم وفي خزائنهم. وبهذه الجزيرة شجر تحمل ثمراً كالنساء بصور وأجسام وعيون وأيد وأرجل وشعور وأثداء وفروج كفروج النساء، وهن حسان الوجوه، وهن معلقات بشعورهن، يخرجن من غلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسسن بالهواء والشمس يصحن: واق واق، حتى تتقطع شعورهن فإذا انقطعت ماتت. وأهل هذه الجزيرة يفهمون هذا الصوت ويتطيرون منه. وفي كتاب الحوالة أنه من تجاوز هؤلاء وقع على نساء يخرجن من الأشجار أعظم منهن قدوداً وأطول منهن

شعوراً، وأكمل محاسن وأحسن أعجازاً وفروجاً، ولهن رائحة عطرة طيبة، فإذا انقطعت شعورها ووقعت من الشجرة عاشت يوماً أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحضر قطعها فيجد لها لذة عظيمة لا توجد في النساء. وأرضهن أطيب الأراضي وأكثرها عطراً وطيباً، وبها أنهار أحلى ماءً من العسل والسكر المذاب، وليس بها أنيس ولا عامر إلا الفيلة وربما بلغ ارتفاع الفيل في هذه الجزيرة أحد عشر ذراعاً. وبها من الطير شيء كثير. وليس يعلم ما وراء هذه الجزيرة إلا الله تعالى. ويخرج من بعض هذه الجزائر سيل عظيم يسيل كالقطرة يصب في البحر فيحرق السمك في البحر فيطفو على الماء.

وجزيرة جالوس: وهي جزيرة بها قوم مستوحشون عراة يأكلون الناس وليس لهم ملك ولا دين، وأكلهم الموز والنارجيل وقصب السكر. وفي هذه الجزيرة جبل ترابه فضة كالبرادة الناعمة. وجزيرة الموجة: وهي جزيرة عظيمة وبها عدة ملوك. وأهلها بيض شقر مخرومون الآذان كأهل الصين، وعندهم الخيول البحرية يركبونها. وعندهم دابة المسك ودابة الزباد؛ ونساؤهم أجمل النساء وأحسنهن خلقاً وخلقاً، وأرحامهن كالحلقة لاصقة، وإذا وقفت المرأة الطويلة على قدمها ومشت تسحب شعرها خلفها على الأرض. وهذه النساء من أعظم النساء أعجازاً وأدقهن خصوراً، باديات الوجوه ساحبات الشعور، لا يستترن من أحد أصلاً. وجزيرة السحاب: وهي جزيرة كبيرة سميت بهذا الاسم لأنه يطلع عليها سحاب أبيض ويعلو عن المراكب في البحر، ويخرج منه لسان طويل دقيق مع ريح عاصف حتى يلتصق ذلك اللسان بالبحر فيغلي البحر كالقدر الفائر ويضطرب كالزوبعة الهائلة، فإذا أدرك المراكب ابتلعها، وبهذه الجزيرة تلول إذا أضرمت فيها النار سالت منها الفضة الخالصة.

وجزيرة هلائي: وهي جزيرة كبيرة من أعظم الجزائر وأوسعها قطراً وأعظمها عمارة، وهي معترضة من المشرق إلى المغرب، ولأهلها قصور وبيوت يتخذونها من الخشب على وجه الماء وأرحاء تدور بالريح على الماء؛ وبها أنواع الطيب والعطر الفاخر وعندهم الموز والأرز والنارجيل وقصب السكر؛ وبها معدن الذهب والفيلة البيض والكركند؛ ولها ملك عظيم مهيب كثير الجيوش والجنود؛ وله المراكب البهية من الخيل والفيلة العجيبة. جزيرة القمر: وهي جزيرة طويلة عريضة، طولها من المشرق أربعة أشهر؛ وبها مدينة تسمى: لان؛ وهي سكن الملك، وهي مخصبة؛ بها أشجار وثمار وأنهار وغياض؛ وبها النارجيل وقصب السكر؛ وبهذه الجزيرة تصنع ثياب الحشيش الغريبة النوع التي لا نظر لها في الدنيا ولا بهجة للحرير والديباج عندها، ويصنع بها نوع من الحصر المرقومة المنقوشة التي تأخذ بالأبصار وتذهب بالعقول حسناً وبهجة، تلبسها الملوك فوق البسط الحرير ويعمل بها مراكب منحوتة من قطعة واحدة وخشبة واحدة؛ وطول كل مركب ستون ذراعاً بالرشاشي، تحمل مائتي مقاتل وتسمى السفينات. وحكى بعض التجار أنه رأى هناك مائدة يأكل عليها مائة وخمسون رجلاً وهي قطعة واحدة مستديرة. وملك هذه المدينة لا يقوم بخدمته إلا المخنثون ويلبسون الثياب النفيسة، ويتحلون مثل النساء واسمهم النتيانة. ويتزوجون بالرجال كالنساء؛ يخدمون الملك بالنهار ويرجعون إلى أزواجهم بالليل من غير أن يعارضوا في ذلك.



جزيرة السعالي: وهي جزيرة عظيمة بها شخوص مشوهة الخلق منكرة الصور لا يدرى ما هم، وزعم قوم أنها شياطين تتولد من الجن والإنس تأكل من وقع لهم من الإنس. جزيرة التمسح: وهي جزيرة بها قوم أذنابهم كالكلاب وأبدانهم كأبدان الإنسان، ولهم ملك منهم. جزيرة أطوران: وهي كبيرة وبها أنواع من القردة كالحمر عظماً، وبها الكركند الكثير. ذكر أن مراكب الإسكندر وصلت إليهم وإلى جزيرة أخرى بها قوم على أشكال أبدان الإنسان، ووجوههم ورؤوسهم كالسباع، فلما قربوا منهم غابوا عن أبصارهم ولم يعلموا كيف ذهبوا؟. جزيرة النساء: وهي جزيرة عظيمة وليس بها رجل أصلاً. ذكروا أنهن يلقحن ويحملن من الريح ويلدن نساء مثلهن. وقيل إن بأرض تلك الجزيرة نوعاً من الشجر فيأكلن منه فيحملن وإن الذهب في أرضها عروق كعروق الخيزران، وترابها كله ذهب ولا التفات للنساء إلى ذلك. وذكر بعضهم أن رجلاً ساقه الله إلى تلك الجزيرة فأردن قتله فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة وسيبته في البحر فلعبت به الأمواج فرمته في بعض بلاد الصين فأخبر ملك تلك الجزيرة بما رأى من النساء وكثرة الذهب، فوجه مراكب ورجالاً معه فأقاموا زمناً طويلاً في البحر يطوفون على تلك الجزيرة فلم يقعوا لها على أثر.

جزيرة سرنديب: وهي جزائرة كثيرة، وفي هذه الجزائر مدن كثيرة، وفيها الجبل الذي أهبط عليه آدم عليه السلام، ويسمى جبل الراهون وعليه أثر قدم آدم عليه السلام؛ وعلى القدم نور لماع يخطف البصر. وأسفل هذا الجبل توجد سائر الأحجار الثمينة النفيسة. ولهذه الجزائر بحر فيه مغاص اللؤلؤ الفاخر ويجلب منها الدر والياقوت والسنباذج والألماس والبلور وجميع أنواع العطر؛ وتسافر المراكب فيها الشهر والشهرين بين غياض ورياض. ولملك هذه الجزائر صنم من الذهب مكلل بالجواهر وليس عند أحد من الملوك ما عنده من الدر والجواهر النفيسة لأن أصنافها كلها في بلاده وجباله، ويحمل إليه الخمس من كل ما يوجد ويستخرج من عراق العجم وفارس، ويقال إن بهذه الجزائر مساكن وقباباً بيضاً تلوح للناس من بعد فإذا قربوا منها تباعدت حتى ييأسوا منها.

وأما عجائب هذا البحر: فمنها ما ذكروا أنه إذا كثرت أمواجه ظهرت أشخاص سود طول كل واحد منهم أربعة أشبار كأنهم أولاد الأحابيش، يصعدون إلى المراكب من غير ضرورة ولا أذى، وظهورهم يدل على خروج ريح مهلك يسمى الخب. وحكي أيضاً أنهم يرون في هذا البحر طائراً يطير وهو من نور لا يستطيع أحد النظر إليه، فإذا ارتفع على صاري المركب سكنت الريح وهدأت أمواج البحر وهو دليل السلامة، ويفقدونه ولا يعلمون أين يذهب ؟. ومن العجائب: أن طائراً في هذا البحر يسمى خرشنة أكبر من الحمام، ذكر في كتاب تحفة الغرائب أن هذا الطائر إذا طار يأتي طائر آخر يقال له كركر ويطير فاتحاً فاه يتوقع ذرق خرشنة ليقع في فيه فيأكله، وليس له قوت سواه ولا يذرق خرشنة هذا إلا وهو طائر. ومنها دابة المسك البحري، وهي دابة تخرج من البحر كل سنة في وقت معلوم بكثرة عظيمة، فتصاد وتذبح فيوجد المسك في سرتها كالدم، وهذا المسك هو أفخر الأنواع غير أنه في مكانه وبلده لا ريح له أبداً، فإذا خرج من حد بلاده ظهر ريحه وكلما بعد زاد ريحه. ومنها دابة تسمى ملكان تستوطن جزيرة هناك لها رؤوس كثيرة



ووجوه مختلفة وأنياب معلقة ولها جناحات وهي تأكل دواب البحر، ومنها سمكة تزيد على خمسمائة ذراع توجد عند جزيرة واق واق المذكورة، إذا رفعت جناحها كانت كالجبل العظيم، يخاف على السفن منها، فإذا رأوها صاحوا وضربوا الطبول وأضرموا المكاحل النفطية حتى تهرب عنهم. ومنها سلاحف كبار، استدارة كل سلحفاة أربعون ذراعاً بذراعهم، تبيض كل واحدة ألف بيضة وظهرها الدبل الفاخر، وأهل اليمن يتخذون من ظهورها قصعاً كباراً وجفاناً هائلة لغسلهم ومأكلهم. ومنها سمكة تسمى سيلان تقعد على البر يومين حتى تموت، فإذا جعلت في القدر وكان رأس القدر مغطى نضجت واستوت، وإن كان رأس القدر مكشوفاً طارت منه وتختفي فلا يعلم أين تذهب. ومنها سمكة تسمى الأطم ووجهها كوجه الخنزير، ولها فرج كفرج المرأة، ولها مكان الفلّوس شعر، وهي طبقة لحم وطبقة شحم، ويرغبون في أكلها لطيب لحمها. ومنها سرطانات قدر كل واحد كالترس الصغير، يخرج من الماء بسرعة، فإذا سار في البر انعقد حجراً في الحال.

ومنها حيات عظام تخرج من البحر فتبتلع الفيل العالي الهائل، وتنطوي على شجرة عظيمة تجذبها أو على صخرة فتنكسر عظام الفيل في بطنها وتسمع قعقعة ذلك على بعد. ومنها سمكة تسمى هبير، من رأسها إلى صدرها مثل الترس، ولها عيون كثيرة تنظر بها وباقي بدنها طويل مثل الحية في مقدار ثلاثين ذراعاً، ولها أرجل كثيرة، ومن صدرها إلى ذنبها مثل أسنان المنشار كل سنة منها في طول شبر كالحديد في الصلابة أو الفولاذ في القطع، ولا تتصل بشيء من المراكب إلا شقته ولا تضرب شيئاً إلا قطعته نصفين ولا تنطوى على شيء إلا أهلكته وتسمى أيضاً القرش، وفي هذا البحر الدردور، وهو إذا وقعت فيه سفينة لا تنجو منه. حكى بعض التجار قال: ركبنا في هذا البحر ومعنا جمع من التجار فهبت علينا ريح عاصفة صرفت المركب عن القصد، وكان رئيس المركب شيخاً أعمى إلا أنه حاذق بالرياسة، وكان معه في السفينة حبال كثيرة فكان رجاله يقولون له: لو كان موضع هذه الحبال ركاب لانتفعنا بأجرتهم، وكان يسأل التجار في كل وقت ماذا ترون فيقولون: ما نرى شيئاً. ولم يزل كذلك حتى قالوا له: نرى طيوراً سوداً على وجه الماء، فصاح الشيخ ولطم وجهه وقال: هلكنا والله لا محالة؛ فلما سألناه عن السبب قال: سترون ذلك عياناً. فما كان مقدار ساعتين حتى وقعنا في الدردور، وإذا بالذي كنا نراه كالطيور السود مراكب وبها أناس موتى؛ قال: فتحيرنا وانقطع رجاؤنا من الخلاص والحياة؛ فقال الشيخ: هل لكم أن تجعلوا لي نصف أموالكم وأنا أتحيل في خلاصكم إن شاء الله تعالى ؟ فقلنا: نعم قد رضينا ! قال: فأعطانا قنينتين قد ملئتا بالدهن فأدليناهما في البحر فاجتمع عليهما من السمك ما لا يعد ولا يحصى ثم أمرنا أن نطرح تلك الموتى الذين في المراكب إلى البحر بعد شدهم بالحبال التي كانت عنده في المراكب ففعلنا ورمينا بهم وأطراف الحبال مشدودة بمركبنا؛ فابتلع السمك الموتى ثم أمرنا بالصياح وضرب الطبول والصنوج والأخشاب ففعلنا ذلك فتفرقت الأسماك وأطراف الحبال في بطونها مشدود بها الموتى، وإذا بالمركب قد تحرك من مكانه وأقلع وجرى ولم يزل يجري حتى خرجنا من الدردور، فصاح الرئيس: اقطعوا الحبال عاجلاً فقطعناها ونجونا بقدرة الله من الهلاك، فقال الرئيس للجماعة: تلومونني على حمل هذه الحبال فانظروا كيف كانت سبباً لحياتكم وسلامتكم، فحمدنا الله تعالى وشكرنا الرئيس لنظره في العواقب.

ومنها بحر الهند: وهو أعظم البحار وأوسعها وأكثرها خيراً ومالاً، ولا علم لأحد بكيفية اتصاله بالبحر المحيط لعظمته وسعته وخروجه عن تحصيل الأفكار، وليس هو كالبحر الغربي، فإن اتصال البحر الغربي بالمحيط ظاهر. ويتشعب من هذا البحر الهندي خليجان أعظمهما بحر فارس ثم بحر القلزم، فالآخذ نحو الشمال بحر فارس والآخذ نحو الجنوب بحر الزنج. قال ابن الفقيه: بحر الهند مخالف لبحر فارس، وفي هذا جزائر كثيرة وقيل إنها تزيد على عشرين ألف جزيرة وفيها من الأمم ما لا يعلمه إلا الله تعالى فأما ما وصل إليه الناس فأقل قليل.

فمن جزائره جزيرة كله: وهي جزيرة عظيمة بها أشجار وأنهار وثمار، ويسكنها ملك بني جابة الهندي، وبها معادن القصدير وشجر الكافور وهو شبيه بالصفصاف وهي تظل مائة رجل وأكثر، وبها الخيزران، وفي عجائب هذه الجزيرة ما يقع واصفها في حد التكذيب. جزيرة جابة: وهي كبيرة وبها الموز والنارجيل والأرز والقصب السكري الفائق، وبها العود، ويسكنها قوم شقر وجوههم، على صدورهم شعورهم، وأبدانهم كالناس. وبها جبل عظيم يرى عليه في الليل نار عظيمة ترى من خمسة عشر فرسخاً وبالنهار دخان، ولا يدنو أحد من ذلك الجبل على خمسة فراسخ إلا هلك. وملك هذه المدينة اسمه جابة، وهو يلبس من الحلل حلة الذهب وتاجاً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت والجواهر النفيسة، ودراهمه ودنانيره مطبوعة على صورته وهيئته، وهو يعبد صنماً، وصلاتهم غناء وتلحين وتصفيق بالأكف واجتماع الجواري الحسان ولعبهن بأنواع من التكسر والتخلع بين يدي المصلي، والكنيسة التي فيها الصنم فيها جوار حسان راقصات متخلعات معدودة لذلك، وذلك إن المرأة إذا ولدت عندهم بنتاً حسنة أخذتها أمها إذا كبرت وألبستها أفخر الملابس والحلي وذهبت إلى الكنيسة، وتصدقت بها على الصنم وحولها أهلها وأقاربها من النساء والرجال، ويسلمها الخدمة إلى أناس عارفين بالرقص، والتخلع والتكسر فيعلمونها. ولهذا الملك جزائر كثيرة منها جزيرة هريج وجزيرة سلاهط وجزيرة مايط. فأما جزيرة هريج: فإن بها خسفة متسعة نحو عشرة أميال مستديرة لا يعرف أحد قعرها ولا وقف أحد على قرارها وهي من عجائب الدنيا. وجزيرة سلاهط: يجلب منها الصندل والسنبل والكافور. وذكر المسافرون أن بجزائر الكافور قوماً يأكلون الناس ويأخذون قحوفهم فيجعلون فيها الكافور والطيب ويعلقونها في بيوتهم ويعبدونها، فإذا عزموا على أمر وقصد سجدوا لتلك القحوف وسألوها عما يريدون ويقصدون، فتخبرهم عن كل ما يسألونها عنه من خير أو شر. وبهذه الجزيرة عين يفور منها الماء وينزل في ثقب في الأرض فيطلع له رشاش فأي شيء وقع من ذلك الرشاش على وجه الأرض صار حجراً، فإن كان ليلاً صار حجراً أسود، أو بالنهار صار حجراً أبيض، وبآخر هذه الجزيرة خسفة أخرى كالبيكارة، دورها نحو الميل تتقد ناراً وتعلو نارها نحو مائة ذراع بالليل، ولها بالنهار دخان.

وجزيرة برطابيل: وهي قرية من جزائر الزنج وبها أقوم وجوههم كالأترسة، وشعورهم كأذناب الخيل، وبها القرنفل الكثير وبها الكركند، وإن التجار إذا نزلوا بها وضعوا بضائعهم كوماً كوماً على الساحل ويعودون إلى المراكب فإذا أصبحوا جاؤوا إلى بضائعهم فيجدون إلى جانب كل بضاعة شيئاً من القرنفل، فإن رضيه صاحب البضاعة أخذه وانصرف، وإن لم يرض ترك القرنفل والبضاعة وعاد في اليوم الثاني فيجده قد

زيد فيه، فإن رضيه أخذه وإلا تركه وعاد من الغد أيضاً، ولا يزال كذلك حتى يرضى. وذكر بعض التجار أنه صعد إلى هذه الجزيرة سراً فرأى بها قوماً صفر الوجوه وهي كوجوه الترك وآذانهم مخرمة، ولهم شعور كشعور النساء. فلما رآهم غابوا عنه وعن بصره. ثم إن التجار بعد أن ترددوا إلى تلك الجزيرة بالبضائع مدة طويلة فلم يأتهم شيء من القرنفل فعلموا أن ذلك بسبب الرجل الذي نظر إليهم ورآهم ثم عادوا بعد سنين إلى ما كانوا عليه من المعارضة بالقرنفل. وخاصية هذا القرنفل أن الإنسان إذا أكله رطباً لا يشيب ولا يهرم ولو بلغ مائة سنة. ولباس هذه الأمة ورق شجر يقال له اللوف، وأكلهم من ثمره، ويأكلون السمك أيضاً والنارجيل. وبهذه الجزيرة جبال يسمع فيها طول الليل أصوات الطبول والصنوج والدفوف والمزامير المطربة والصياح المزعج وغير ذلك من الأصوات العجيبة. وقيل إن الدجال بها، وقيل إنه بغيرها..

جزيرة القصر: وهو قصر عظيم مرتفع أبيض من بلور شفاف يظهر لمن في المراكب من مسافة بعيدة. فإذا شاهدوه تباشروا بالسلامة. ذكر قوم من الزنج أنه قصر مرتفع شاهق لا يدري ما داخله. وحكي أن بعض الملوك وصل إلى هذه الجزيرة وشاهد القصر هو ومن معه من جنوده، فلما صاروا في الجزيرة أخذهم الخدران في مفاصلهم وغلب عليهم النوم، فبادر بعضهم إلى المراكب فنجوا وتأخر البعض فهلكوا. وذكر أن أصحاب ذي القرنين رأوا في بعض هذه الجزائرة أمة رؤوسهم رؤوس الكلاب، ولهم أنياب خارجة من أفواههم حمر مثل الجمر، يخرجون إلى المراكب ويحاربونهم. ورأوا بجزيرة تلك الأمة نوراً ساطعاً فإذا هو القصر الأبيض البلوري، فأراد ذو القرنين التوجه إليها ورؤية القصر فمنعه بهرام الفيلسوف الهندي من ذلك وقال: يا ملك الزمان لا تفعل فإن من وصل إلى هذا القصر غلب عليه الخدران والنوم والثقل وقلة الحركة فلا يقدر على الخروج ويهلك. وذكر بهرام المذكور أن بهذه الجزيرة شجرة إذا أكلوا من ثمرها زال عنهم النوم والخدران، وإذا كان الليل ظهر لذلك القصر شرفات تسرج مثل المصابيح، الليل كله فإذا كان النهار خمدت.

وجزيرة الورد: ذكر القاضي عياض رحمه الله تعالى في كتاب الشفا في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم أن بهذه الجزيرة ورداً أحمر مكتوباً عليه بالأبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله، والكتابة بالقدرة الإلهية.

الجزائر الثلاث: قال صاحب تحفة الغرائب: هي ثلاث جزائر متجاورات، في احداهن برق الليل كله، وفي الأخرى تهب رياح شديدة، الليل كله، وفي الأخرى يمطر السحاب الليل كله صيفاً وشتاء على ممر الليالي والأيام أبداً. ومنها جزيرة في هذا البحر بها أقوام أبدانهم أبدان الآدميين ورؤوسهم رؤوس الدواب يخوضون في البحر فيخرجون ما يقدرون عليه من البحر فيأكلونها. وجزيرة صيدون الساحر: وكان صيدون ملكاً ساحراً، وطول هذه الجزيرة شهر في شهر، وبها عجائب كثيرة: ومنها: أن في وسطها قصراً عظيماً في عمد عظيمة من مرمر ملون، ومجلسه من ذهب مرصع بأنواع الجواهر العظيمة، يشرف على جميع تلك الجزيرة. قيل إن هذا الملك صيدون كان ساحراً ماهراً وكانت الجن تطيعه وتعمل الأعمال المعجزة العجيبة. فدل عليه بعض الجن نبي الله سليمان عليه السلام فغزاه وقتله وخرب بلده وقتل أهلها وأسر جماعة منهم. وأما عجائب هذا البحر فكثيرة جداً: منها: سمكة تخرج من البحر وتصعد إلى جزيرة سلاهط وتصعد إلى أشجارها فتمتص فواكهها

وثمارها ثم تقع كالسكران فيأخذها الناس. ومنها: سمكة خضراء رأسها كرأس الحية من أكل لحمها اعتصم من الطعام والشراب أياماً لا يشتهيه. ومنها: سمكة مدورة يقال لها كرماهي، على ظهرها شبه عمود محدد الراس قائم لا تقوم لها سمكة في البحر إلا ضربتها بذلك العمود وقتلتها. ومنها: سمكة يقال لها الباقة، طولها مائة ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وعلى ظهرها حجارة صدفية كالقرابيص، إذا تعرضت للسفينة كسرتها، وإذا طبخوا من لحمها في القدر يذوب حتى يصير كله دهناً. وأهل تلك النواحي يطلون بدهنها المراكب عوضاً عن الدهن. ومنها: سمكة يقال لها العمدة، لها جناحان تفتحهما في الجو وتنشرهما وتحمل على السفينة فتقلبها في البحر في الحال، فإذا رأوها ضربوا الطبول والصنوج والزمور وصاحوا فتهرب.)

ينتهي الكتاب الأول، كتاب (أقاليم، وبحار، وبشر) بعد أن ارتحلنا في موضوعاته المتشعّبة التي كنّا نشدّد خلالها على تقديم المعلومة المرفقة بالتصور الذهني الذي يكمن خلفها. لم تأت المعلومات مجردة عن سياقها التاريخي والإجتماعي والديني، فالمسلمون بوصفهم مجموعة هويتها الإسلام في مفهومه الشامل، نظروا إلى العالم في ضوء الأطر العامة التي حددوا معالمها مسبقاً. ومعلوم أن عوالم القرون الوسطى كانت تنقسم بناء على القيم العقائدية والثقافية والشعورية، وتكاد الحدود الواضحة بينها شبه غائبة سوى التخوم الطبيعية من صحارى وجبال وبحار وغابات. وكشفت لنا النصوص هذا الأمر بصورة واضحة، وقد وردت في سياق يهدف إلى التعريف بالخلفيات الثقافية التي تنظّم منظور المسلمين للعالم، وعليه انطلقنا من العام إلى الخاص؛ من الأرض وشكلها إلى أقاليمها ومسالكها، وصولا الى محيطاتها، وبحارها، وجزرها، وفي كل ذلك كان الإنسان حاضرا بشكله، وحياته، وعقائده.

كتاب الشّمال

مدخل (1)
صورة الشمال في أعين المسلمين

1. مرجعيات متباينة، وسوء تفاهم.

يبدو الشمال غامضاً ومخيفاً في أعين المسلمين في القرون الوسطى، ولم تكن قد توافرت لهم معلومات متكاملة عنه، ولهذا قاموا بأنفسهم بتشكيل صورته في أذهانهم بناء على مصادر كثيرة، منها جهود الجغرافيّين والرحالة، والعلاقات المباشرة بسبب الجوار والتجارة وغير ذلك، وتشكّلت ملامح تلك الصورةالغامضة، والمشوبة أحيانا بنوع من الخوف بسبب الصراع العقائدي الذي كان ناشباً بين دار الإسلام وكثير من الممالك الشمالية، وفي مقدمتها بلاد الروم وبلاد الفرنجة، وممالك وسط أوربا، ثم الممالك التي نشأت على التعاقب شمال بحر قزوين، وحول البحر الأسود، وحوض نهر الفولغا كالصقالبة والخزر والبلغار والباشغرد، وكثير من الأمم التي كانت تعرف طوال القرون الوسطى بالأمم التركية، ويقصد بها تلك القبائل التي اندفعت من شمال ووسط آسيا صوب الغرب، وتوغلت في أوربا، فضلا عن الجرمان والأقوام الإسكندنافية – النورمانية وغيرهم، التي كان لها وجود مهدد للأندلس وحوض البحر المتوسط، والأطراف الشمالية من دار الإسلام، والثغور الأخرى.

ظل التوتّر العقائدي موجها أساسيا في طريقة تركيب الصور المتبادلة للشعوب فيما بينها، وكلما شحنت الأجواء بكراهيات الصراع والحروب التي ينتصر فيها هذا الطرف أو ذاك، تتأجج أحقاد في النفوس فتجد طريقها في توجيه طريقة النظر إلى الآخر، ومن ذلك فإنّ الحروب الصليبية لعبت دورا بالغ الخطورة في إعادة تعبئة النفوس بالضغائن، وقد أسهمت فيها، كما هو معروف أغلب الممالك الشمالية المسيحية، وظل التهديد قائما لفترة طويلة، واستمر إلى مابعد الحروب الصليبية، ومابعد إجلاء العرب المسلمين عن الأندلس، فالوجود الأسباني انتعش بعد سقوط الأندلس في حوض المتوسط، وشمال إفريقيا، والوجود البرتغالي الاستيطاني في بحر العرب، والخليج العربي ظهر بكثافة مثيرة للانتباه بداية من القرن السادس عشر، وجاب أسطول "دلبوكيرك" تلك الشواطئ، ودمر كل شئ، وأثار ذعرا هائلا بين الأهالي، والسجل الوثائقي الضخم المعتمد لأعمال "دلبوكيرك" في تلك المناطق والهند يكشف ذلك، وقد تأسس وجود مباشر للبرتغاليين في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الفتوحات الإسلامية في الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، وفتح الأندلس في الجنوب الغربي من أوربا، ووجود المسلمين في معظم جزر البحر المتوسط، فضلا عن تقدمهم شمال بحر قزوين، وحوض البحر الأسود، وسيطرة الأتراك المسلمين فيما بعد على الجزء الشرقي من أوربا، والإندفاع إلى قلبها، كل ذلك جعل الأقوام المتجاورة من الطرفين تتوجس خيفة من بعضها. وترك ذلك آثاراً مباشرة في رسم صورة الآخر بطريقة مفعمة بالكراهية.

ومع ذلك فلا نعدم استثناءات تنقض سُنن الكراهية التي ترسخت لأسباب عقائدية وحربية واستيطانية؛ فقد قدّر المسلمون كثيرا شجاعة أهل الشمال في الحروب، ويندر أن نجد بينهم مَنْ يهمل ذلك، وعلى الرغم من الجراح العميقة التي أحدثتها الحروب الصليبية بين المسلمين والممالك الصليبية، وهي حروب دينية طويلة ومعقدة وذات طابع لاهوتي في بعض مفاصلها، الاّ أن التقدير المتبادل للشجاعة الشمالية والتسامح الإسلامي انبثق من وسط أجواء مشرّبة بدم الضحايا، تثبت ذلك الملاحظات المعّمقة التي تركها أسامة بن منقذ حول شجاعة المقاتلين الصليبيين، وبراعتهم في الحروب، وتثبتها أيضا المرويّات الشعبية الشمالية التي ظهرت في أوربا حول صلاح الدين الأيوبي. وهذا مجرد مثل يكشف أن التقدير العام لبعض مظاهر السلوك قد يجد طريقه للظهور على الرغم من أجواء التوتر العامة. وعلى العموم فان الشعوب المتساكنة حول البحر الأبيض المتوسط كانت تتوافر لديها درجة من المعرفة ببعضها لكون البحر كان حلقة اتصال بينها منذ القدم. ولكنها معرفة لم تسمح، كما ينبغي، في تخطّي التصورات السائدة المعبّأة باحتقان ظل يتغذّى طوال القرون الوسطى.

كان التنازع، ومازال، قائما بين قوى صاعدة وأخرى متراجعة تحيط بهذا البحر، إلى ذلك لعبت العوامل السياسية والتجارية، وتداخل التخوم أحيانا في إبراز الصور المتشكّلة لتلك الشعوب فيما بينها، ولكن كلما توغلنا في وسط القارة الأوربية، واتجهنا شمال وغربا تضاءلت المعلومات وحلّت الأساطير محلّها؛بحيث تبدو الاصقاع الشمالية من أوربا شبه مجهولة، و لم تتوافّر معلومات مؤكدة وتفصيلية حول الأنظمة الثقافية والدينية والأخلاقية والاقتصادية السائدة هناك، وباستثناء حفنة من الرحّالة كالطرطوشي، وابن فضلان مبعوث المقتدر، وسلام الترجمان مبعوث الواثق، وابن بطوطة، وأبي حامد الغرناطي، وأبي دلف الخزرجي، فإن الجغرافيين المسلمين الذين جمعوا مدونات الرحالة مثل ابن خرداذبه والبكري وياقوت الحموي لم يتعاملوا بجد تام مع المعلومات التي جهزها لهم رحالة شبه مغامرين، اتصفوا بقوة الملاحظة وشدّها إلى درجة نلمس فيها حذرا منهم، بصورة أو بأخرى، هذا فضلا عن أن بعض مدوناتهم الأصلية تناثرت في المتون الجغرافية، والمثال الأكثر شهرة في هذا السياق الكيفية التي وظف فيها كل من البكري وياقوت النصوص الأصلية لرحلتي الطرطوشي وابن فضلان إلى معظم البلاد الأوربية من الشرق حتى الغرب. فتلك النصوص خُرِّبت، وجرى تقطيعها حسب المناطق التي اهتم بوصفها البكري في "المسالك والممالك" وياقوت في "معجم البلدان" فقُضي على الترابط النصي فيها، وغاب تطور الرؤية، ومُزّق السياق العام لها، وفي الغالب، وبالنظر إلى فقدان النصوص الأصلية كاملة، فقد جرت إفادة منها على وفق منهجية الجغرافيين، وليس طبقا للأسلوب الذي اعتمده أصحابها.

لقد تشكّك ياقوت في أخبار ابن فضلان بخصوص الصقالبة، وكان يجتزيء معلومات منها بما يخدم غرضه، دون أن يجرؤ على تقديرها، فينسبها لصاحبها، وكأنه بذلك يريد التخلّص من مسؤوليتها، فكيف بالأقوام الساكنة إلى الشمال منهم![1]. أما ابن خرداذبه الذي يذكر خبر ذهاب سلام الترجمان إلى بلاد "يأجوج ومأجوج"، فإنه، وهو يورد عجائب الرحلة بصيغة السرد المباشر على لسان صاحبها، يومئ من طرف خفي إلى أنه غير مسؤول عمّا ورد فيها "فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه عليّ من

كتاب كان كتبه للواثق بالله[2]. إن الطابع العجائبي للنص يجعل ابن خرداذبه في وجل من مصداقية مغامرة سلام الترجمان. والبكرى في "المسالك والممالك" يستفيد من رحلة الطرطوشي في قلب أوربا، لكنه ينثرها نثرا في تضاعيف كتابه. وعلى الرغم من ذلك فأخبار أهل الشمال المشوبة بمبالغات الجهل، وأقصد بالتحديد تلك المناطق النائية والمنعزلة، قد غزت كتب الجغرافيّين، وتحولت مع الزمن إلى جملة من الحقائق الذهنية التي يأخذها الخلف عن السلف دون تغيير يذكر، فملاحظات سلاّم الترجمان استعيدت فيما بعد عند كثير من الجغرافيين والمؤرخين. فابن سعيد المغربي المتأخّر يكرّر المعلومات التي عرفت قبل قرون عدة حول الشمال. ومثال ذلك مايذكره سلاّم الترجمان عن الأرض الواقعة وراء بلاد الخزر، بأنها "أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنّا قد تزودنا قبل دخولها خلاً نشمّه من الرائحة المنكرة[3]. وعلى غراره يذهب ابن سعيد واصفاً تلك البلاد، بأنها"الأرض المنتنة، لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة، وهي خالية[4]. وبينهما طائفة من الجغرافيين المشهورين الذين يوردون المعلومات ذاتها، الأمر الذي يكشف سكون بعض المعلومات، وثباتها، وعدم تجدّدها، وقدمها، واعتمادها في الغالب على المرويّات الشفهيّة التي تختلط فيها الحقائق بالأكاذيب. على أن كل هذا لايقلل بأي شكل من الأشكال من قيمة المشاهدات المباشرة التي تركها الرحّالة، فكثير منها اعتبر من أهم الوثائق عن الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لكثير من البلاد الشمالية، وسنجد في كثير منها عمقا وحيوية كبيرين، لكنها تنتظم في سياق عام يمتثل لرؤية المسلمين آنذاك في النظر إلى الآخر المختلف قيميا وعقائديا، فقد كانت الأحاسيس مفعمة بالمعتقد الديني الذي يسعى إلى إدراج غير المسلمين في منظومته، وكان الصراع يتم باسم الله، فالخارجون عليه- حسب التصورات المتبادلة- يتناحرون بعنف من أجل الاستئثار بالوفاء الروحي لجعل كلمته سائدة في الأرض، فالصراع كان يخضع في كثير من الأحيان إلى الموجّهات الدينية.

2. بلاد الظلام: تحيّزات متواصلة.

يرتسم الشمال في أذهان القدماء باعتباره "بلاد الظلام" كما يقول ابن بطوطة[5]. وهذا الوصف القائم على حكم اختزالي واضح، يخفض من أهمية هذه المناطق، ويجعل الشمال ملتبساً، معتما، بسبب شحة المعلومات حوله. ويحسن أن نستعين مرة ثانية بابن سعيد الذي يجمع من موارد سابقة. فما إن يصل بحديثه إلى الجزء السادس من الإقليم الشمالي الذي يكون نهر "أتل" (= الفولغا) في جزئه الجنوبي، حتى تحلّ الأحكام محل الأوصاف، فسكان الأجزاء العليا "هم من أجناس الأتراك، ولهم اعتناء بالنجوم، واشتغال بأحكامها، وهم يعبدونها" وكل المدن الواقعة هناك "خاملة الأسماء" وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم حيث جبل "البجناك" توجد "أمة من الترك يحرقون أنفسهم، ويحرقون من وقع إليهم" وإلى الشرق تظهر الأرض المنتنة التي يسكنها "كفّار لا يدل إليهم أحد إلا قتلوه" ثم يأتي الجزء التاسع، وهو "الأرض المحفورة" وهي "مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها" وينتهي شمال الأرض، بالجزء العاشر و"جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج وآخره المحيط بالشرق[6].تغيب المعلومة وينشط التخيّل، والملاحظة

التي لاتغيب أبدا، هي: كلما نأت المناطق عن دار الإسلام سقطت في عتمة خاصة بها، فيغيب التمايز، وتنعدم الخصوصيات، وتدور الأحكام في حلقة مغلقة.

يجمع الجغرافيين العرب، فيما يخص الشمال، أمر واحد، هو الحديث عن بلاد "يأجوج ومأجوج" وباستثناء سلام الترجمان، فلا أحد ادّعى الوصول إليها[7]، حتى أن ابن بطوطة حينما يصل في الصين إلى مدينة الزيتون (= شوان شوفو) ثم يعبرها شمالاً إلى مدينة "صين كلان" التي هي آخر مدينة يصل إليها في رحلته، يتوقف قبل أن يعود أدراجه "ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً، فيما ذكر لي، يسكنها كفّار رحّالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا به، ولذلك لا تسلك بلادهم، ولا يسافر إليها، و لم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور، ولا من رأى من رآه[8]. و يحسن بنا أن نرى كيف تترتّب المعلومات حول أقوام الشمال، وذلك لا يتم إلا من خلال تنضيد المعلومات التي ترسم لنا مسارا متصاعدا يبدأ بأقرب البلاد المتاخمة لدار الإسلام ثم ينتهي بنا في فيافي الثلج؛ إذ تنال الشعوب القريبة نوعا من الاهتمام، من ذلك بلاد الروم، وهي الجار المتاخم المرتبط دائما بعلاقة متوترة مع دار الإسلام. إذ يقول المسعودي عن أهلها: و لم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظّم العلماء، وتشرّف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة، أعني: الإرتماطيقي، وهو علم الأعداد و الجومطريقي، وعلم المساحة والهندسة، والاسترنوميا، وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون. و لم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاوم، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته[9].

يقدّم المسعودي وصفا وتفسيرا وحكما في آن واحد، أما الوصف فمداره نظرة تقديرية للثقافة اليونانية التي تنوعت بين الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى، وغيرها مثل الفلسفة والآداب، وكل ذلك كان موضوع معرفة المسلمين في القرن الرابع الذي كتب فيه المسعودي هذا الوصف. والحق فإن الثقافة الإسلامية، والعربية منها بوجه خاص، احتفت بالمكوّن الثقافي اليوناني، وتطلّعت إلى معرفته قبل زمن المسعودى، وتُرجمت إلى العربية كثير من النماذج الممثلة لذلك المكوّن في مجال الجغرافيا والفلسفة والعلوم، أمّا التفسير، فالمسعودي يعزو ذبول الثقافة اليونانية إلى ظهور المسيحية التي أعادت النظر في الموروث اليوناني، وحالت دون أن يكون منافسا لها، وهذا التفسير على غاية من الأهمية ليس فقط لأن المسعودي يقول به، إنما لأنه يطابق الواقع التاريخي؛ فقد نظر اللاهوت المسيحي بعمومه إلى ذلك الموروث باعتباره وثنيا، وجرت محاربته تحت دعاوى دينية، ومع أن بعض كبار اللاهوتيين مثل القديس أغسطين قد حاول الإفادة ضمنا من الموروث اليوناني في صنع لاهوت كنسي، لكنّ ذلك اللاهوت- بما فيه الجانب الذي يُعرف بالفلسفة المسيحية -عارض القيم الكبرى التي أشاعتها الثقافة اليونانية، ودمغها بالوثنية. والمسعودي لا يظهر انقطاعا عن روح السجال الديني المسيحي الذي قام بتصفية من نوع ما لموروث الإغريق، إنما هو على دراية بذلك. وبعد كل هذا يأتي دور

الأحكام. إن الحكم الذي يترشح من تضاعيف الوصف والتفسير يتصل بالتفريق الواضح بين أصل كبير وسام، وفرع غير بار طمس الآثار المجيدة، ومحا تلك الحكمة الرفيعة. فوضع الروم في مقارنة مع اليونانيين الأوائل، فيما يخص الجهود الفكرية والعقلية سيضرب صميم الدور الذي قام به الروم، هذا الدور الذي يتلخّص هنا في إزالة الأمجاد الأولى، ومحو سبلها، وأخيرا يضع المسعودي بصمته التي لا تمحى؛ فالنصرانية التي تظاهرت في تلك البلاد هي السبب وراء ذلك، لقد قوضت مجدا إنسانيا مشتركا، وبالمقارنة فالإسلام هو الذي أحيا ذلك الموروث، واحتفى به، فيما أنكرته النصرانية، وحاربته. دار الروم النصرانية إذن تنكبت عن الوعد اليوناني، وأعرضت عنه، وانحبست في فهم ديني ضيق للماضي والحاضر على حد سواء.

أما حديث المسعودي عن الأقوام الأخرى كالإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر وبرجان واللان الجلالقة، فيتضمن تأكيدا لا خلاف فيه بين أهل البحث والنظر من الشرعيين من أن جميع هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح؛ثم يقدم وصفا لبعض الأقوام: فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عدَّة، وأوسعهم ملكا، وأكثرهم مدناً، وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم، وأكثرهم طاعة ؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً، وأعظم منهم نكاية، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة، متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك[10].

نص المسعودي هذا يحتاج إلى آخر رديف يضفي عليه دلالته الكلية، سواء ماله علاقة بالروم أو الإفرنج، وليكن ذلك الرديف من القزويني الذي يصف بلاد الإفرنج، فيقول بأنها مملكة عريضة في بلاد النصارى، بردها شديد جداً، وهواؤها غليظ لفرط البرد، وهي كثيرة الخيرات والفواكه والغلات، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار، ذات زرع وضرع وشجر وعسل، صيودها كثيرة الأنواع. بها معادن الفضة، وتضرب بها سيوف قطّاعة جداً. وسيوف إفرنجة أمضى من سيوف الهند. وأهلها نصارى. ولهم ملك ذو بأس، وعدد كثير، وقوة ملك، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد الإسلام، وهو يحميها من ذلك الجانب، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطّع. ويحلقون لحاهم، وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة. سُئل واحد عن حلق اللحى فقال: الشعر فضلة أنتم تزيلونها عن سوءاتكم، فكيف نتركها نحن على وجوهنا؟[11].

يطوّر القزويني البنية التي أرساها المسعودي، فهو لا يفسّر كسلفه، إنما يكتفي بالوصف والحكم، وفي الاثنين يذهب إلى أكثر مما ذهب المسعودي إليه، فهو غير مشغول بالمكوّن اليوناني الذي رأينا كيف أن المسعودي خصّه بوصف وتفسير واضحين، إنما الذي يشغله هو قوة الخصوم من الإفرنجة في دار الحرب، الذين أشار إليهم المسعودي، إنهم مقاتلون ذوو بأس، ولا يعرفون الهزيمة، وقد حال ذلك دون فتح كثير من بلادهم لما يتصفون به من عزيمة شديدة في الحرب، ولهم مملكة واسعة وقوية، وهذا تقدير مناظر لتقدير أسامة بن منقذ

لشجاعة الصليبيين، وفي النهاية هو مماثل لتقدير المسعودي لعلوم اليونان، فالتقدير متشابه والموضوع مختلف، لكن القزويني يعنى بوصف واقع الحال في عصره خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وبعد هذه المرحلة تحلّ الأحكام محل الأوصاف، فهؤلاء الإفرنجة فيما يخص القيم والعادات، هم أهل غدر ودناءة أخلاق، ويلحق القذارة والنجاسة بهم باعتبارهما يتعارضان مع قيم الطهارة الإسلامية، فتبدأ ثنائية الوصف والحكم تتأرجح، ثم سرعان ما يتغلّب الحكم على الوصف فيما بعد.

لو أخذنا الطريقة التي يصف بها المسعودي والقزويني أهل الشمال، وتحديدا الروم والإفرنجة لوجدنا أنها تقوم على نوع الثنائية التفاضلية، وهي ثنائية تندرج في مستويين خاص وعام، ويدخل المكون العقائدي، في نهاية الأمر، ليحسم الأمر لصالح إحداهما على حساب الأخرى. فالمسعودي يقارن الجهل الرومي بالمعرفة اليونانية، والقزويني يضع الغدر والدناءة وسوء الأخلاق والقذارة في كفة ميزان والبسالة الحربية الإفرنجية في الكفة الأخرى. ومن الواضح أن الرجحان سيكون للعنصرين الأولين، لأنهما في تصور كل من المسعودي والقزويني هما الموجودان في عالم الروم والإفرنج الآن، وهذا تمزيق لوحدة الصورة، وتخريب لانسجامها العام، فما قيمة المعرفة إذا تم التفريط بها واستبد الجهل !!وما قيمة البسالة إذا عُبِّر عنها بالغدر والدناءة!! وعند هذا الحد تتقوض قيمة تعتبر إيجابية، تحت ضغط قيمة أخرى تعتبر سلبية، بعبارة أخرى ينتقص الروم والإفرنجة لأنهم دون الفضائل العقلية والأخلاقية. هذا هو المستوى الخاص الذي ينظم طرف الثنائيات الضدية في المقارنة، وبعد ذلك يظهر المستوى العام، وهو يتوارى خلف المستوى الأول؛ فالمسلمون هم الذين انتدبوا أنفسهم لإعادة بعث الموروث اليوناني فيما طمسه أحفادهم الروم النصارى، والمسلمون هم المقاتلون الأشداء بلا غدر ولا دناءة ولا سوء أخلاق، هذا لأنهم جعلوا من المعرفة تراثا إنسانيا مشتركا عزيزا، ولأنهم جعلوا من القتال وسيلة للجهاد الذي يتسامى أن يكون غدرا ودناءة. وعلى هذا يتم تمزيق صورة الآخر مرتين: مرة في تضخيم التناقضات الداخلية فيه، ومرة في مقارنته بالمنظومة الثقافية للأنا، المنظومة التي كان ينظر إليها بعين الرعاية والتبجيل.

ينبغي إيراد البراهين الكافية على هذا النسق من التمثيل لصورة الآخر، التمثيل الذي يجري مفاضلة تؤدي إلى تهديم البنى الأساسية التي تشكّل قوام الآخر. إذ يصف ابن جبير مدينة مسينة في جزيرة صقلية، بالصورة الآتية، هي: موسم تجّار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغصّ بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا تُوجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان[12]. واضح أن الزيارة السريعة التي قام بها ابن جبير إلى صقلية، وهو في طريقه إلى الأندلس، بعد مشقّة الضياع في البحر المتوسط عائدا من رحلته المشرقية، قد رسمت له عالما منقسما على نفسه، فيه أمان شخصي لكنّه يعجّ بالاضطراب الروحي والقيمي. ومن المعلوم أن المسلمين في ذلك الوقت يَسمون غير المسلمين بالكفر، كما هو ظاهر في وصف ابن جبير، وفي نظر رحّالة مسلم كابن جبير لم يقيّض له مثل سلفه ابن فضلان أو خلفه ابن بطوطة أن يختبر مباشرة نسق قيم الآخر

عبر المعايشة الطويلة فإن كفّة المعيار العقائدي هي الأثقل، والراجحة دائما. من الصحيح أن مسينة مزدهرة اقتصاديا، والأمن فيها مستتّب، لكنّها تئنّ تحت وطأة القيم الكافرة، يصعب إقامة توازن بين الضلال والكفاية الاقتصادية. فابن جبير الذي يُحتفى به في صقلية يدفعه حنين إلى ماضي هذه الجزيرة التي كانت جزءا من دار الإسلام، وقد بدأ يدبّ فيها الكفر، شأنها في ذلك شأن تخوم دار الإسلام الأخرى في زمنه.

كيف تشتغل ضمنيا داخل النص آلية المفاضلة؟ يقوم ابن جبير بتنضيد الأوصاف على نحو يدفع دائما بترجيح وصف على حساب وصف. مسينة تتصف من جانب بأنها وكر لتجارة الكفار، وبأنها مظلمة الأفاق بالكفر، ولا مكان فيها لمسلم، تموج بعبدة الصلبان، مملوءة نتنا ورجسا، موحشة، ليس ثمة أنيس لغريب فيها. ولكنها من جانب آخر، كثيرة الإرفاق، أسعارها رخية، أسواقها نافقة، أرزاقها واسعة، عيشها رغيد، فيها أمان. خطاب ابن جبير موجّه للمسلمين، وفيه درجة عالية من الحساسية، فيما يخص الصراع المزمن بين القيم الروحية والقيم المادية، ذلك الصراع الذي حسمت العقيدة الإسلامية النصر فيه لصالح الطرف الأول، وابتذلت الثاني، وعدّته من متاع الحياة الفانية، ومكونات الوصف الذي يقدّمه ابن جبير تستحضر تلك الثنائية، إنه يصور عالما منحطّا بضلاله، لا سبيل إلى العيش فيه، فالمسلم غريب الوجه واليد واللسان كما يقول المتنبي، يصعب تماما قبول ذلك العالم الذي جرى فيه تواطؤ بين الكفر والرجس. حتى المتع الدنيوية الخاصة بتوفر العيش الرغيد والأمن تتضاءل أمام عالم شبه مغلق على ضلاله، يشعر المؤمن فيه بالوحشة والغربة والفسق، وكما قرر بعض الفقهاء من قبل لا أمان لمسلم في دار الحرب. تتقهقر أية قيمة لمسينة وأهلها من الصقليين.

ويصف الطرطوشي بلد الجلالقة بأنه سهل جميعه، والغالب على أرضهم الرمل، وأكثر قُوْتهم الدخن والذُّرة، ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتّخذ من الدقيق. وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطّع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب، وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم. ولهم بأس شديد، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب، ويرون الموت دونه. أما البرتونيين ((=أهل مقاطعة بريتاني الفرنسية) فلهم لغة تمجّها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة. ولهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسرقونهم. والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد. ومن البرتونيين والجلّقيّين والبشاكسة كان حشد"طيطش" إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس(13). يعدّ الطرطوشي شاهد عيان من الدرجة الأولى، وهو من القلائل الذين توغّلوا في غرب أوربا ووسطها، ثم شرقها، ويرجّح أنه كان يمخر تلك الأصقاع للتجارة، وإن كنّا لا نعلم على وجه التحديد الكيفيّة التي تعامل معها البكري، وهو يورد نبذا من مشاهداته التي تبدو متقطّعة؛ ذلك أنّ أوصافه وأحكامه تشبه ما سيورده القزويني المتأخّر، كما رأينا، الأمر الذي يؤكد ثبات الانطباعات.عاش الطرطوشي في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ثم زار أوربا في حدود 965م، وأورد البكري المتوفى

484هـ =1094م مقاطع من رحلته يصعب التحقق من دقتها، فالجغرافيون القدماء كانوا يتدخّلون في ترتيب النصوص التي تصل إليهم، ويكيّفونها من أجل أهدافهم، ويكشف المقطع الأخير من نص الطرطوشي الخاص بالحملة الصليبية التي قادها "طيطش" إلى بيت المقدس تدخّل البكري. ولكنّ النص يحافظ على الثنائية التقليدية الشائعة آنذاك، وهي تجاور الوصف والحكم. وهذا الأمر لن يدوم طويلا، فما أن تستبد نظرية الطبائع التي قدّمنا عنها تفصيلات وافية خلال الفصل السابق حتى تدخل عنصر أساسيا في تحديد نوع الأحكام فيما يخص أهل الشمال.

كنّا أوردنا أحكام المسعودي وابن خلدون في سياق الحديث عن العلاقة المستعارة من اليونان بين المناخ والطبائع، ومثّلنا على ذلك بمثال من أرسطو في تفضيل اليونانيين، وتطرّقنا إلى صورة الشماليّين، ويحسن أن نورد نموذجا آخر يدعم تلك الفكرة التي هيمنت على التفكير الخاص بالأقوام الشمالية والجنوبية، فالدمشقي المتأثّر بنظرية الكيوف الطبيعية يذهب إلى أن الروم، والأرمن، والروس، واللان يُسمّون البيض بشقرة لإفراط البرد وبُعد الشمس، وبسبب ذلك ساءت أخلاقهم، وقستْ قلوبهم، وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غالبة عليهم، والشهوة، والغضب، وحدة النفس. أما أهل المناطق الواقعة إلى الشمال منهم، وهي أكثر بردا، وهم: الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد (= باشغرد)، ومَنْ سامَتَهم فيسمّون الشقر، وألوانهم بيض، وهم كالوحوش ؛لا يعتنون بغير الحروب، والقتال، والصيد، ولا يعرفون عرفانا، ولا يفرّقون فرقانا. وإلى الشمال من هؤلاء الصقالبة. وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة، ولا يكادون يفقهون قولاً إلا أنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلا[14].

يتحدث الدمشقي عن أهل الشمال، بوصفهم ثلاثة أجناس من البشر، تتناقص السمات الإنسانية فيهم إلى أن تضمحل في نهاية المطاف، إننا هنا بمواجهة نصوص تختلف في الدرجة عن نصوص المسعودي والقزويني وابن جبير والطرطوشي، فقد كانت تتخلل تلك النصوص مكونات فيها نوع من التكافؤ، لكن السياقات الثقافية تضعف مكونا، وتقوي آخر، تبعا للرؤية التي يصدر عنها النص. بيد أننا مع الدمشقي سنكون في وضع مختلف، إذ يعاد تصنيف أهل الشمال إلى جنسين أساسيين، ومجموعة ضالة لايمكن إدراجها تحت أي مسمّى.

الجنس الأبيض: وهم الروم، والأرمن، والروس، واللان. وهؤلاء بإطلاق ساءت أخلاقهم، واتصفوا بقسوة القلوب، ولا فطنة فيهم، ولا عقل، على العكس لا يمكن العثور إلا على الحيوانية والشهوة والغضب. وذلك يعود إلى أن البرد قد ضربهم.

الجنس الأشقر: وهم الخزريون، والإفرنج، والفرنسيين، والباشغرد، وهؤلاء وحوش، لا يعرفون سوى الإحتراب والصيد، ولا شرائع لهم، ولا عقائد. كون البرد قد بالغ في ضربهم

الصقالبة: وهؤلاء يتعذّر إدراجهم تحت أي مسمّى، لأنهم كالحيوانات السائبة، بل أضل منها.

الدمشقي، وهو مصدر ثراء لا ينضب للغرائب، والنظرة التراتبية للبشر، تُرجّح لديه كفّة الأحكام، وكما لا يخفى فنصوصه بأجمعها تتحرك في مجال عجائبي، وهذا المجال يتدخّل في إضفاء طابع سحري على أوصافه

وأحكامه، فالآخر بالنسبة له هو النقيض المأسور ضمن سياج من القيم الناقصة: سوء الأخلاق، قسوة القلوب، غياب الفطنة، الحيوانية، الوحشية، الفوضى العمياء التي تطمس الحق، الضلال الذي يفوق ضلال الأنعام. هناك تدرّج متصاعد بالأحكام ينتهي بتبخيس عام ينحدر بأبناء الأقاصي الشمالية إلى عالم مادون عالم الحيوان. ليس هذا كل شيء، فالاطّراد في الأحكام يتجاوز كل إمكانية للوقوف قليلا من أجل المراجعة، إذ تأخذ المعلومات طابع الغرابة لمن هم أبعد من ذلك. ابن سعيد المغربي يتحدث عن بلاد البرغار (= يرجّح أنها النرويج، حسب بعض الجغرافيين)، وهي آخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط، وآخر هذا الجزء بالمشرق، وذلك في نهاية المعمور في الشمال، ، وهم أمة عاتية أجهل من الروس، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم. ووجوههم كالكلاب، وذلك دليل على الشجاعة. ويقال إن الواحد منهم، يخرج إلى العسكر، ويقاتل وحده، حتى يُقتل تهوُّرا وإقداماً على الموت[15]، ثم الروس الذين أشير إليهم أكثر من مرة، وصورتهم بشكل عام معتمة، ومركّبة بنوع من التشويه والانتقاص، إذ يصفهم ابن بطوطة بأنهم: نصارى شقر الشعور، زرق العيون قباح الصور أهل غدر[16]. تتشارك تلك الأقوام في الضلالة، وسوء الأخلاق، والجهل، والغدر، والوحشية. وتتقاسم فيما بينها الأحكام، وتفوز بأكثرها قسوة تلك التي تقع في منأى عن المعاينة، ويحيط الجهل بها من كل جانب.

يتحدث الجغرافيون عن المناطق الواقعة أقصى شمال الأرض، أي تلك الأرض المسكونة وراء الإقليم السابع (يلاحظ نوع من الاضطراب في تحديد المواقع) ومن ذلك جبال "البجناك" التي تقع بين نهري الدانوب والدون حيث تستوطن أمة من الترك يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم، وإلى الشرق توجد الأرض المنتنة، التي يكتفي الجغرافيون بالقول إنه لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة وهي خالية. وفي شماليها بلاد سحرت، وهم كفار، لا يدخل إليهم أحد إلا قتـلوه[17]. هذا السياق المتصاعد من الأحكام يتناغم مع درجة البعد عن دار الإسلام، فالجهل يوفّر درجة عالية من البغض، ويوجّه الأفكار بخصوص الآخر وجهة تتخطّى إمكانية تقويم وتقبّل المنظومات الثقافية والقيمية له، وهو ما سنجد له نظيرا في صورة الزنوج، في تضاعيف الفصل الخاص بالإفريقيين السود، فيما ترجّح المعرفة إمكانية كبيرة للتقدير، ولكن الدونية الخاضعة لمبدأ الاختلاف، كما سيظهر لنا في الكتاب الخاص بالشرق.

3. أمم من العشائر الضالة.

تحتاج صورة أهل الشمال إلى تقصّيات تفصيليّة تبيّن التضاريس الداخلية لطبيعة الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وهذه التقصّيات سوف تدعم الصورة العامة التي عرضنا لها قبل قليل. تلك التقصّيات استأثرت بها الأقوام الشمالية في أعالي السهوب الأوربية التي كانت مسرحا لأقوام كثيرة خلال القرون الوسطى، نقول بأنها أقوام تجوّزا، مجاراة للجغرافيين القدامى، وهم قبائل كثيرة نازحة من شمالي آسيا باتجاه شمال وشرق أوربا، كانت تعرف بالقبائل التركية. نجحت في تأسيس كيانات سياسية، كانت تقوم وتنهار بسرعة بالغة. ويقدّم المسعودي بعض التفاصيل عن تلك الأقوام التي تستوطن بين شمال البحر المتوسط وجبل

القبخ (= القبق) الذي يقع بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى الشمال من أرمينيا، وهي أوربا الشرقية، حيث توجد أمة مطيعة منقادة إلى دين المجوسية، ويقول بأنه ليس بين الأمم في هذا الصقع أنقى أبشاراً، ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدوداً، ولا أدق أخصاراً، ولا أظهر أكفالاً وأردافاً، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقي وأبقى على الكَدِّ، يبلغ الثوب عشرة دنانير، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء[18].

تبدأ ملاحظات المسعودي من الواقع المادي: الجمال، وبالتحديد النساء اللواتي يكنّ مثار رغبة خاصة (سنجد لذلك صورة مناظرة في حالة النوبيات في إفريقيا كما يذكر البكري والإدريسي، والهنديات مع ابن بطوطة) ثم تجارة الملابس، ولكن سرعان ما يستبدل المسعودي بالوصف الأحكام في لهجة مختلفة، وغير معهودة منه، حين يتطرّق بحديثه إلى الأمم والأقوام الأخرى، ومنها: السبع بلدان، وهي أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلمُ ملّتها، ولا نمى إليّ خبر في دينها. وتليها أمة عظيمة يقال لها إرم ذات العماد، وهم ذوو خلق عجيب، وآراؤها جاهلية. ولهذا البلد الواقع على البحر خبر ظريف؛ وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها، ثم تعود ثانية فتتوجّه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أُخذ منه أولا، وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار. ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء، وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء، في وسط تلك الصحراء دارة مقوّرة كأنها قد خُطت ببيكار، وشكل دائرتها خسفة مجوّفة في حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا، قطع قائم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفل إلى علو، يكون قعره على نحو من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى، وناس وبهائم، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع، لا يدري من أي الأمم هم، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه. ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده ؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا انه لا لسان له فيعبر بالنطق ؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤوسها بالمذابِّ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب، ويلقى الملك له من طعامه: فإن أكله أكل الملك منه، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة[19].

يتحدث المسعودي بثقة عن خمس من الأمم دون أن يذكر أسماءها، إلا واحدة على سبيل التخمين: الأمة المجوسية التي شغل بجمال نسائها، ثم أخرى مجهولة، لا يعرف دينها، وأمة، يقال لها إرم ذات العماد، ، وأهلها ذوو خلق عجيب، وآراؤهم جاهلية، ثم أمة بين جبال أربعة، وأخيرا أمة مهجّنة من القرود والبشر، تستأثر باهتمامه، وبالمقابل يتجرّأ المسعودي على وصف طرز حياة هذه الأمم، وبعض تقاليدها، وأنماط المعيشة فيها، ويقدم تفصيلات مسهبة عنها. إن الإحجام عن التسمية لا يأتي عن جهل إنما عن قصد، فليس من الممكن معرفة كل تلك التفاصيل الدقيقة، مع جهل تام بأقوامها، إن تنكير الأمم المذكورة، وحجب التسمية عنها يراد به طمس حضورها، فالتسمية بحد ذاتها تضفي قيمة في هذا السياق، سياق التعريف بالآخر، وهي في الفكر القديم والوسيط تشكل حضورا قويا، فتسمية الشيء يعني حضوره، فلا وعي المسعودي، وكذلك القزويني، والدمشقي، وغيرهم يختزل الآخر إلى كتلتين، إما أقوام معرّفة بالاسم لكنها تتشارك بخليط موحد من الخصائص الدونية، كما رأينا مع الدمشقي، وإما أقوام تنتقص في أسمائها، مع إفاضة واضحة في أعرافها وتقاليدها وحياتها. وفي الحالتين تظل تلك الأقوام محجوبة وراء حكم قيمة لم يؤهل بعد ليكون منصفا. ويلاحظ أن الأحكام تتردد بين الذم الذي يتخلله تقريظ خفيف، وهو أمر نجده في الأدبيات الجغرافية، والمسعودي، وهو أكثر من غيره معرفة في الشعوب الواقعة خارج دار الإسلام يتردّد بين أسلوبين في معالجة مسألة الآخر، أسلوب وصفي مرّ بنا حينما أوردنا وصفه للروم، وفيه يحاول أن يقدّم البنية الإثنوغرافية للمجتمعات خارج دار الإسلام، ولكنّ بعض أوصافه مستعارة من الآخرين، كما سيظهر ذلك بوضوح في موضوع الهند والصين في الفصل الخامس؛ إذ يأخذ من سليمان التاجر، وابن وهب، والبحارة الجوّابين في الشواطئ الهندية والصينية، دون أن يعلن عن ذلك، مع أنه نفسه قد طوّف في بلاد كثيرة. وأسلوب الحكم القائم على المصادرة، ومثاله الواضح الذي وقفنا عليه من قبل في أثناء الحديث عن تقسيم الأقوام الشمالية والأقوام التركية، وهو في هذا الجانب يخضع تماما للثقافة السائدة في عصره، مثله في ذلك مثل ابن خلدون وغيره. ومع أنه من الصعب تقبّل هذا الازدواج الظاهر لدى كبار الجغرافيين والمؤرخين الإسلاميين، لكن من الواضح أن المنهجية الفكرية المتّسقة مع نفسها في الرؤية والمنهج لم تكن واضحة في وعي المؤلفين القدامى، وهو أمر لا يقتصر على المسلمين إنما يتجاوزه إلى اليونانيّين كما لاحظنا مع جالينوس وأرسطو على سبيل المثال.

تتخلّل كتابات القدماء تناقضات غير قابلة للحلّ إلاّ إذا عرفنا سرّ التأليف القديم الذي يقوم في أساسه على الجمع أكثر من الابتكار، والأدب الجغرافي في الثقافة العربية —الإسلامية يعتبر مثالا ممتازا على هذا الأسلوب من التأليف. هذه الملاحظة التي دفعنا إليها المسعودي لن تنسينا موضوع الأقوام الشمالية الأخرى التي سيتكفّل الدمشقي بتقديم الوصف الآتي لها، وهي: الخرلخية والخرجزية والكيماكية والغزية والبجناكية والطغزغزية والخلخلية والقلجية والغورية. وجميع هذه الأقوام عند الدمشقي أصحاب قلوب قاسية، وطباع جافية، ونفوس عاتية. ومنهم من يسكن المدن، ومنهم من يسكن الجبال والبراري، يتقلّبون مع الزمان في طلب الكلأ والعشب بالخيل والبقر والغنم، يترلون في بيوت الشعر والخركاوات، وليس لهم عمل غير الصيد،

ويأكلون كل طائر وكل وحش، وليس لهم ملة ولا نحلة وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم[20]. المثير للانتباه هنا، وهو منقصة لاتغتفر عند الدمشقي أن هذه الأقوام لم تكن لها شرائع سماوية إنما قوانين وضعية تنظّم -نياها. هذه الأقوام يختصر الدمشقي أمرها على نحو لانتبين منه غير الإمعان في الضلال، والضياع، ولاتترك تلك الأحكام في التصور العام سوى الأسى على كتل بشرية لم تقترب بعد إلى ضفاف الحقيقة الموجودة في دار الإسلام.

4. تطواف في أقاصي الشمال.

بدو الشمال هؤلاء الذين أشار الدمشقي إلى بعضهم لهم أشباه كثر في الأقاليم الشمالية العليا، وهؤلاء كانوا مثار انتباه رحّالة متقدّم، يقظ الملاحظات هو أبو دلف(=مسعر بن مهلهل) وهو شاهد عيان متميّز ترك رحلتين الأولى إلى الصين والهند والثانية إلى أرمينيا وحوضي البحرين الأسود وقزوين وبلاد فارس، ويرجّح بأنه ولد في سنة 300 وتوفي 390هـ = 913 -1001م، وأوفد إلى الصين حوالي 331هـ = 943م، ويلاحظ أنه اتجه إلى الصين بطريق تمرّ بأقصى الشمال، وفي أثناء مروره قدّم وصفا أخّاذا ومعمّقا للمظاهر الاجتماعية والاقتصادية للشعوب التي مرّ بها، كما قدّم التفاصيل شبه الكاملة للمسالك التي تربط شمال آسيا مع الصين حيث تعيش مجموعة كبيرة من الأقوام التركية، وهذه الرحلة تعتبر من الوثائق المهمة والمبكّرة عن هذه المناطق، وتتصف بالكثافة وقوة الملاحظة، وهي تضفي على النص قيمة خاصة كونه يعنى بالأحوال البشرية من حياة ودين وحكم لهذه الأمم.

من الواضح أن أبا دُلف قد اخترق تلك الفيافي القصية الشمالية متجها صوب الشرق. وأثارته مظاهر الحياة هناك، ولكن كثيرا من المعلومات القيمة التي تضمنتها رحلته القصيرة والكثفة التي حرص ياقوت على إدراجها في معجمه، تختنق وسط إطار صارم من الأحكام العقائدية والثقافية. يقول أبو دُلف، واصفا مساره: ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك، طوال اللحى، أُولو أسبلة، همجٌ، يغير بعضهم على بعض، ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط.فسرنا فيهم اثني عشر يوما، وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال بلد الصقالبة، ولا يؤدون الخراج إلى أحد.. ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط، ولا يذبحون الإبل، ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما. وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسا ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سهيلا وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدي، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطّفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يُطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذا يسكر سكرا شديدا، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم. فقطعنا بلدهم في أربعين يوما في أمن وخفض ودعة..

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى، يعملون بالسلاح عملا حسنا فرسانا ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي وأنه من ولد يحيى بن زيد، وعنده مصحف مذهّب على ظهره أبيات شعر رثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندهم إله العرب، لا يملّكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوي، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون: إن إله العرب يترل منها ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملّكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى، وأنهم قيام الأنوف، عيونهم واسعة، وغذاؤهم الدخن، ولحوم الذكران من الضأن، وليس في بلدهم بقر ولا معز .ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها. فسرنا بينهم شهرا على خوف ووجل، أدّينا إليهم العشر من كل شيء كان معنا..

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس، ويعملون الشراب من الدخن، ولا يأكلون اللحم إلا مغموسا بالملح، ويلبسون الصوف، ولهم بيت عبادة في حيطانه صورة متقدمي ملوكهم، والبيت من خشب لا تأكله النار، وهذا الخشب كثير في بلادهم، والبغي والجور بينهم ظاهر، ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه، فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادى ويفك؛ فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به، يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد في نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه؛ فإن أعجبها إنسان أخذته إلى مترلها، وأنزلته عندها، وأحسنت إليه، وتصرّف زوجها وأخوها وولدها في حوائجه، ولم يقربها زوجها ما دام من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها، ثم تتصرف هي ومَنْ تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج، ومن لا يمكنه رقع ثوبَه برقعة منه، ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق، وإذا طلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظّمونه ويحتكمون عنده، ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقيّ. فسرنا بينهم خمسة وعشرين يوما في أمن ودعة..ثم انتيهنا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البر وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة. ولم أر في جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأي وتدبير، ومن زنى في بلدهم أُحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولي سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ، فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج فإن تزوج قتل[21].

الصورة المركّبة التي قدّمها أبو دلف تلفت النظر إلى وجود أمم من الأتراك الذين يمر بهم رحالتنا في مهمته إلى الصين، لها طرز خاصة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بما في ذلك المنظومات العقائدية، بعضها وثني يعيش لحظات الحرية الأولى قبل أن تتمكّن العقائد من صوغ العلاقات في ضوء نسق عام من

القيم، وبعضها أعاد تكييف العقيدة على وفق تفسير خاص به، فالحقيقة القابعة في دار الإسلام لم تصل إليه كاملة، فاكتفى بمظاهر مجتزأة منها، فصار أحد تقاتها إلها، واحتكرت السلطة السياسية في أسرة واحدة. ليس ثمة شك في أن ملاحظات أبي دلف على غاية من الأهمية، إنه أكثر اهتماما بهؤلاء الأقوام من غيره الذين جردوا أقواما مناظرة من كل شيء، وعلى الرغم من ذلك، فمروره المتعجّل في بلادهم جعله يحكم عليهم في ضوء النسق الثقافي الذي تشبّع به. لقد مر بنا كيف وُصف الصقالبة من قبل، وكيف أُخرجوا من الجنس البشري، والبجناك الذين يمر بهم أبو دلف يصاقبونهم، إنهم همج، مثل أولئك، طوال اللحى، وإباحيون. والجكل الذين يلونَهم يعيشون سفاح المحارم، و لم يبلغوا بعد معرفة الحدود الفاصلة في العلاقات الجنسية، وهم من عبدة الكواكب، والبغراج الذين يأتون بعدهم يؤلّهون علي بن أبي طالب، ويعتقدون بأنه إله العرب، ثم الخرلخ البغاة، الزناة، الوثنيون الذبن ينحرون الأضاحي لأصنام من حجر، الذين يقامرون على نسائهم وأولادهم، والذين يفتقدون الغيرة على نسائهم، فيصاحبن من راق لهن من الرجال الغرباء (كنساء أيولاتن في غرب إفريقيا السوداء اللواتي يثرن استغراب ابن بطوطة، بسلوكهن المماثل، كما سنرى في الكتاب الأخير). وأخيرا الخطلخ الذين يتزوجون الأخوات، لكن البأس فيهم ظاهر، ويحرقون الزناة.

إن قائمة أبي دلف مثيرة حقا، وهو يتخفف، مقارنة بغيره، من نبرة التحامل، لكن وصفه انتقائي، فيه درجة واضحة من التغليب، تتوارى البسالة أمام سيل جارف من المثالب التي لاتنتهي والتي تعرض كحقائق. وقد لايرشح من سرده انتقاص مقصود، بيد أن التركيز على العلاقات شبه الاباحية، والمحرّمة بين الرجل والمرأة، واعراف العبادة، والوثنية الظاهرة تجعل تلك الأقوام بحاجة ماسة إما لتصحيح عقائدها وأنظمتها الاجتماعية، أو لتغيير تلك العقائد والأنظمة. بعد ذلك تزداد النبرة الغرائبية، فكلما نأت الأقوام عن دار الإسلام سقطت في هوة الجهل. يروي الدمشقي عن أبي عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم" أن وراء صين الصين أمماً منهم إذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب، وأمة يلتحفون بشعورهم. وأمة لا شعور لهم، وأكثر ما يأكلون سمك البحر وخشاش الأرض. ويحاذيهم من ناحية الشمال أمة شقر عُراة يتناكحون كما تتناكح البهائم، تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. وبمشرق الأرض عند مطلع الشمس أمة متولّدة بين السباع، والناس ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة ممدّة، وأذناب وأظفار معقّفة بأصابع قصار، يسكنون الجبال، طعامهم الحوت ودواب البحر، ولهم زروع ودواب يركبونها، والله أعلم[22]. أما بلاد يأجوج ومأجوج التي حيّرت الجميع، و لم يصل إليها – فيما يروى – سوى سلاّم الترجمان، فأهلها، كما يتفق الجميع كفار من أكلة لحوم البشر، ولا يجرؤ أحد على الوصول إليها، وهم، كما يقول أبو زيد البلخي: صنف من الناس بين الصين والترك، الغالب عليهم خفش العيون، وفطس الأنوف، وقصر القامة. جنوبهم الصين، وشمالهم الترك، ومغاربهم مشارق قشمير والتبت، فلا يدرى ما في مشارقهم، وهم أسوأ الناس عيشا، وأخبثهم طعما، وأخرقهم خرقة، وأقلهم تمييزا وفطنة[23].

يلاحظ التدرج في طبيعة الصورة التي شكّلها الجغرافيّون عن أهل الشمال، وهي تعنى بالجوانب البشرية أكثر من غيرها، وتقدم أوصافا انتقاصية شبه ثابتة للشعوب، ويصار التركيز فيها على أساليب الحياة الاقتصادية والدينية. ويهتم الجغرافيون المسلمون بالحياة الاجتماعية، وتعتبر كثير من مدوناتهم مصادر إثنوغرافية أساسية في هذا المجال. وسنجد في التحليل الخاص لرحلة ابن فضلان إلى بلاد الشمال مزيدا من التركيز على كل هذه الجوانب. وعلى الرغم من وجود نصوص كثيرة تعنى ببلاد الشمال؛ لكننا حرصنا على تقديم تحليل مفصل لرحلة ابن فضلان باعتبارها وثيقة بالغة الأهمية من القرن العاشر الميلادي تعنى بالصور السائدة بين المجتمعات خلال القرون الوسطى، وتأثرها بالشعور العقائدي، وذلك من خلال كشف رؤية ابن فضلان للعوالم الثقافية المتداخلة والمتجاورة في عصره.

الهوامش

1. ياقوت الحموي، معجم البلدان(بيروت، دار صادر، 1995)1: 88.
2. ابن خرداذبه، المسالك والممالك(ليدن، بريل، 1889) ص 170
3. م. ن. ص 163
4. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي(بيروت، المكتب التجاري، 1970) ص 207.
5. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، شرح طلال حرب(بيروت، دار الكتب العالمية، 1992) ص 350
6. كتاب الجغرافيا ص 207 – 208
7. فيما يخص الحديث عن يأجوج ومأجوج. انظر على سبيل المثال: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص 163- 170. والإدريسي، نزهة المشتاق ص 846 وما بعدها، ورسالة ابن فضلان ص 70. وياقوت الحموي، معجم البلدان1: 87 – 88 وابن حوقل: صورة الأرض 1: 15. والاصطخري، مسالك الممالك، ص 9 وابن سعيد، كتاب الجغرافيا ص 208.
8. رحلة ابن بطوطة ص 635 – 636
9. المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد(بيروت، دار الفكر، 1973) 1: 321
10. م. ن 1: 321
11. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد(بيروت، دار صادر، 1969) ص498
12. ابن جبير، رحلة بن جبير(بيروت، دار صادر)ص266
13. البكري، المسالك والممالك، نقلا عن عبد الرحمن الحجي، جغرافية الأندلس وأوربا (بيروت، دار الإرشاد، 1968)ص80-81
14. الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر(بغداد، مكتبة المثنى)ص275
15. كتاب الجغرافيا، ص202
16. ابن بطوطة، ص350
17. كتاب الجغرافيا، ص207
18. مروج الذهب 1: 177
19. م. ن. ص187
20. نخبة الدهر ص261
21. معجم البلدان441-443
22. نخبة الدهر، ص265-266
23. أبو زيد البلخي، المسالك والممالك، (ليدن، بريل) ص164

مدخل (2)
مسارات ابن فضلان
– عوالم متجاورة، عوالم متداخلة –

1. أسفار وبعوث

تندرج بعثة الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة ضمن سلسلة من البعثات والسفارات بين المسلمين والأمم المجاورة لأغراض متعددة: سياسية، ودينية، واقتصادية، وقد سبقت وتليت بكثير من الوفود والبعوث التي توزعت في أركان العالم المجاور لدار الإسلام ؛ فقد بعث هارون الرشيد بعوثاً إلى الصين وبلاد الإفرنج، وتبادل معهم الآراء حول العلاقات بينهم آنذاك. وفي هذا السياق ترد سفارة الشاعر الأندلسي الغزال إلى بلاد الشمال، ورحلة الطرطوشي إلى بلاد الإفرنج وأوربا أيضاً، ثم سفارة الأهواني إلى بلاد النوبة مبعوثاً من مصر في عهد جوهر الصقلي. ومن السفارات المثمرة ثقافياً: إرسال البيروني إلى بلاد الهند من قبل محمود الغزنوي، وقد أثمرت عن معرفة شاملة ومباشرة بأحوال الهند الثقافية والبشرية والدينية، كما ظهرت في كتابه"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة". وإرسال ابن خلدون في بعثة إلى المغول القادمين لاحتلال بلاد الشام، ومحاولة التوسط لإيقاف تقدمهم إلى مصر، كما عرض لها ابن خلدون نفسه في سيرته الذاتية "التعريف بابن خلدون". هذا إلى جانب قيام بعض الرحالة، كابن بطوطة، في القيام بأدوار مماثلة في بعض الأحيان. وعلى العموم فالثقافة الإسلامية لا تعدم الاهتمام بهذا الجانب المتصل بالعلاقة مع الآخر، دون إغفال الموقف المسبق في النظر إلى الآخر خارج حدود دار الإسلام باعتباره كافراً وضالاً. وهو أمر يلمس وجوده بوضوح في النصوص المعنية بوصف السفارات والبعثات والرحلات، ابتداء من ابن فضلان في وصفه لأهل الشمال، ومروراً بالمسعودي، ثم وصولاً إلى ابن بطوطة. فالمسلم في القرون الوسطى، كما تكشف لنا المدونات الجغرافية، مهما كان مغامراً وجريئاً وموضوعيا، فإنه يتوجس خيفة من الآخر بسبب الاختلافات اللسانية والاجتماعية والعقائدية، وينطوي على فكرة إصلاحية يريد بها إدخال الآخر إلى عالم الحق، وهذا ماسنلمسه في رحلة ابن فضلان.

في نهاية العقد الأول من القرن الرابع الهجري، الذي يوافق بداية العقد الثالث من القرن العاشر الميلادي، انطلق ابن فضلان من بغداد، قلب دار الإسلام آنذاك، مبعوثاً من الخليفة المقتدر إلى يلطوار ملك الصقالبة، وطبقاً للمعايير العقائدية والسياسية الإسلامية في ذلك الوقت، فإن مملكة الصقالبة، وعاصمتها بلغار على نهر الفولغا، في البلاد الروسية الحالية، تندرج ضمن ما يصطلح عليه بـــ"دار العهد" أو"دار الصلح" وهي البلاد الفاصلة بين دار الإسلام ودار الحرب، إنها بلاد مزدوجة العلاقة، يتنازعها عالمان متناقضان، ولاؤها هش، وموقفها متقلّب. وبعبارة أخرى فإن "دار العهد" أو "دار الصلح" إنما هي مجال حيوي يتمدد فيه على التعاقب

نفوذ دار الإسلام مرة، ودار الحرب مرة أخرى. تبدو بشكل من الأشكال مخترقة، بلا هوية، أسيرة قوى متنافرة دينياً وثقافياً وسياسياً. لم يكن ابن فضلان الشخصية المركزية في البعثة، إنه مرشد ديني، لكنه بسبب كونه مدوّن تلك الرحلة، سيكون هو الشخص الأول. في الواقع، يجري تهميش متقصّد، وطمس واضح للآخرين. إن أفراد البعثة القلائل هم من نخبة البلاط العباسي، أولئك الذين تتردد أسماؤهم في المصادر طوال خلافة المقتدر، وبعضهم أسهم مباشرة في تثبيت بيعته، وحامى عنه. وهم ممن رافق الخليفة منذ اللحظة الأولى: نذير الحرمي، سوسن الرّسي، بارس الصقلابي، و تكين التركي، ومعهم سفير الصقالبة في بغداد: عبد الله بن باشتو الخزري. الوحيد الذي تهمل المصادر ذكره بين هؤلاء في البلاط العباسي، هو ابن فضلان، الذي سرعان ما انتزع دوراً أساسيا في البعثة. كانت هذه الرحلة مناسبة ملائمة ليعيد ابن فضلان الاعتبار لنفسه. سيتوارى الآخرون خلف حضوره الكثيف، وسيُبتر وجودهم في اللحظة الحاسمة: لحظة الدخول إلى بلاد الشمال الحقيقية، إلى دار الحرب. ولن يعود إلى ذكرهم بعد ذلك. لا نعرف عن مصائرهم شيئا، بل لن نعرف مصير ابن فضلان نفسه. فكأن البعثة المقدّر لها أن تصل فقط إلى دار الصلح، قد تبعثرت تماما، حينما شرع مُرشدها الديني اختراق دار الحرب، التي هي باستمرار دار كفر حسب المعتقد الديني في القرون الوسطى. آخر عهد ابن فضلان بجماعته، حينما يجبر على الصعود شمالاً إلى ما وراء بلاد الصقالبة.

2. انتهاكُ عوالم وخرمُ نص.

لم يأخذ ابن فضلان في الاعتبار التحذير الذي اتفق عليه الجغرافيون المسلمون القُدامى، والذي سنّهُ بوضوح المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "ومؤدّاه: إن أهل دار الإسلام غير معنيين بدار الكفر، وليس من الحكمة أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في ممالك الكفار، ولا فائدة من ذلك[1]. لم يكن ابن فضلان جغرافياً بالمعنى المعروف، و لم يدخل تلك الدار برغبته، إلاّ أن وضعيته تكشف طبيعة ذلك التحذير التراجيدي؛ فعالم "الآخر" غير عالم "الأنا". ثمة اختلافات جوهرية كانت قائمة في صلب البنية الذهنية والعقائدية للمجتمعات في تلك الحقبة من الزمن، وفاعلة في صميم النموذج الفكري اللاهوتي السائد وقتذاك. كان الاتصال مع الآخر - المختلف عقائدياً- محظوراً أو شبه محرم، لا يجرؤ على ذلك إلا المغامرون من الرحالة والسفراء. الآخر كان دائماً ثمرة محرّمة، وفي أقل الأحوال فهي عسيرة الهضم. العُرف الشائع في عصر ابن فضلان، والعصور اللاحقة، هو: ينبغي الحذر من الآخر. نادراً ما يذكر ابن فضلان بغداد باسمها، إنه يستخدم "دار السلام". دار السلام بالنسبة له معقل العالم القديم، ومركزه، في الوسط من الفضاء الثقافي الواسع المسمى بدار الإسلام. إنها منهل المرجعية الإسلامية الكلية بالنسبة له، وهو من ينتدبه الخليفة ليفقّه أهل دار الصلح في الدين، ويعرِّفهم بشرائع الإسلام[2].

يحرص ابن فضلان على تدوين رحلته، ويظهر في تضاعيفها حرص واضح على ذكر المدن والمسافات والأنهار، وبالدرجة الثانية تستأثر باهتمامه أحوال الناس المختلفة، وبخاصة حينما يغادر دار الإسلام. الكتابة

تلعب دوراً هاماً في تثبيت رؤاه وتصوراته وأحكامه، ما دام يتحرك في مجاله الثقافي، داخل دار الإسلام. وما إن يتزلق إلى عالم الكفّار حتى تتوقف الكتابة. يضيع من المخطوط ذلك الجزء الرئيس الخاص بالآخر كأن ثمة قوة سحرية انتزعت كل ما يتصل بالآخر. لن يُعثر إلى الآن على الأصل العربي الكامل. كل ما يتصل بالآخر، تم ترميمه وتجميعه، وترجمته إلى اللغة العربية استناداً إلى شذرات متناثرة باللغات اللاتينية والألمانية والفرنسية والدنماركية والسويدية والإنجليزية وغيرها (= سنعتمد في القسم الأخير على نص كريكتون، وهو مزيج من الوقائع والتخيلات السردية التي تقتضيها كتابة الرواية، وفي فصوله الأخيرة توجد أحداث متخيلة غير معروفة في الأصول العربية المنشورة، وربما تكون هذه الميزة مفيدة في استنطاق صورة الآخر التي هي في الغالب صورة مخيالية. وقد ادعى كريكتون أنه رمم النص الأصلي، آخذين بالحسبان أن المحقق اثبت الأصل في القسم الأول من الكتاب).

لغات الآخر هي التي أعادت إلينا وجهة نظر ابن فضلان إلى الآخر كما انتهى كريكتون إلى ذلك. والحال أنه ليس كتابته هي وحدها التي ستُفقد، بل لغته وعقيدته. هو نفسه قد ذاب في التضاريس الغريبة لعالم الشمال. تحلّلت مقاومته تدريجياً، ودفع عنوة ليخوض أكثر مغامرات السرد القديم غرابة. ضعفت احتجاجاته، وتطابقت مواقفه مع الآخر، وآل به الأمر لأن يكون موضوعاً لاستكشاف متخيل قام به الآخر، عوض أن يكون الآخر موضوعاً لاستكشافاته. لم يفلح أبداً في تغيير الأنساق الثقافية للآخر، مع أنه نذر نفسه في البداية لذلك، على العكس، هو منْ تغيرت أنساقُه الثقافية. سقط في الشرك الذي كان يحذّر الجميع منه: معايشة عالم الكفر. داهمه نوع من النسيان، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي، أُصيبت ذاكرتُه بعطب عقائدي، لكي يندرج ضمن الآخر عليه أن ينسى، أن يوقف عمل الذاكرة. لم يُشر ياقوت الحموي إلى تفاصيل الرحلة، بعد أن أخذ عنها الشيء الكثير، شكّك في المرويّات الخاصة بالصقالبة، وأعلن براءته منها، وعدم ضمان صحتها[3]. وإذا صحت تلك المرويّات التي عبرت إلينا خلال لغات الآخر، وأُخذت بالحسبان فرادة المغامرة، ومداها الواسع، وأحداثها، وأثرها في شخصية ابن فضلان، يصبح من الممكن ألاّ يُسمح بعرضها على العموم كاملة. إذ ينبغي أن تركّب صورة مشوهة للآخر. يحتمل أن ياقوت الحموي نفسه، بعد مضي ثلاثة قرون لم يكن قادراً على تصديق أحد مصادره عن بلاد الصقالبة.

يفتح غياب المتن الرئيس من رحلة ابن فضلان - بالنسبة لنا - باب الأسئلة الكبيرة، وجميعها متصلة بالحدود الصارمة التي تنظّم العلاقة بالآخر. فنحن والآخر نحرص على تركيب صور سوية لأنفسنا في ذهن الآخر. وإذا كان القدماء، قد قصدوا إتلاف الجانب المهم من رحلة ابن فضلان، بهدف محو صورة الآخر، التي انتهى رحالتنا الفقيه إلى قبولها، والتعايش معها، فإنهم بذلك العمل الشنيع، قد شرعوا نوافذ التخيل. فمنذ وقت طويل سيُبذل جهد جبار، لا هوادة فيه، لإعادة وصل الأجزاء المفقودة، وربطها، والبحث عمّا طُمس منها. إلى جانب ذلك، وكما هو متوقّع، سيتراكم طوال ألف سنة تراث من التضخيم للرحلة وصاحبها، وسيمنح ابن فضلان دوراً استثنائياً ورائداً لكل ما يتصل بعلاقة العالم الإسلامي بالبلاد الشمالية الوثنية في

القرن العاشر الميلادي، سيكون عالم اجتماع، وأنثروبولوجيا، ومحللاً نفسياً، ومؤرخاً، وجغرافياً، ومحارباً، وغريباً وشاهداً. باختصار، ستُضفى عليه شمولية تحيط به إحاطة السوار بالمعصم. لكن الشك أيضا سيظل يحوم حول المدى الذي بلغه ابن فضلان. يبدو مصير كتابته حول الآخر معلّقاً في مكان ما من هذا العالم، فالآخر كالترياق السام الذي طالما جرى التحذير منه. وفي ضوء تلك الفكرة جرى تقسيم العالم القديم. وعلى الرغم من أنه في كل "أنا "يكمن "آخر". فلا يبدو أن كل ما يتصل بـــ"الأنا "مقبول. إذ أن ثقافة البعد الواحد، تحول دون السماح بالتبصّر العميق والجدّي لا بالآخر ولا بالأنا على حد سواء.

لنلاحظ فقط أن أبا حكيمة (= راشد بن إسحاق الكاتب)، وهو معاصر لابن فضلان، قد ترك ديواناً شعرياً في رثاء ذكره. القصيدة الأولى، فاتحة الديوان، التي يصف فيها خرم الأحداث لبدنه وعضوه، هي بالذات التي تخرّمت في أكثر المقاطع أهمية. فما يعتبره الشاعر شيئاً حميما، هو بالضبط الذي تعرض للخرم[4]. ثمة يد خفية، قاسية، باطشة، مهيأة للإمحاء، طالت لبّ كثير من الآثار الأدبية والفكرية. لم تكن رحلة ابن فضلان، بمنأى عن احتمال مثل هذا. إن الضرر الذي لحق بالنص الذي تركه ابن فضلان عن رحلته إلى بلاد الصقالبة والشمال يماثل الضرر الذي لحق بالنصوص التي ظهرت في عصره. والواقع فظروف تدوين تلك الرحلة ما زالت غامضة، ولا نكاد نعرف شيئاً محققاً عن مصائر أبطالها الرئيسيّين، بمن فيهم ابن فضلان نفسه. أما الأضرار فهي جسيمة، وفي مقدمتها ضياع المتن الأصلي، وطمس أكثر الأجزاء أهمية فيما تبقى، وهي المتعلقة بوجود ابن فضلان خارج دار الإسلام. وبالنسبة لموضوعنا تعتبر هذه الأجزاء المفقودة أهم أقسام النص، لأنها تشكّل التصورات الأولى حول الشعوب الشمالية، فطمسها يعني طمس تلك التصورات. والملاحظ أن النص يصون نفسه ما دامت الرحلة داخل دار الإسلام، ودار العهد، لكنه يتحلّل ويضيع مع دخول ابن فضلان دار الحرب. وربما يكون التوتر الثقافي والعقائدي قد تدخل في تخريب المخطوط الأصلي، واقتطع منه الأجزاء المتصلة بـــ "الآخر ". وإذا صح هذا، فيكون ذلك قد وقع بعد عدة قرون من زمن الرحلة، فالشاهد الوحيد بالنسبة لنا، على وجود النص المدون المعروف، هو ياقوت الحموي (625هـــ = 1229م) فيما بدأت الرحلة في الحادي عشر من صفر عام 309هـــ، الموافق للحادي والعشرين من حزيران سنة 921م.

قال ياقوت "وقصة ابن فضلان وإنفاّذ المقتدر له إلى بُلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس، رأيتُ منها عدة نسخ"[5]. ومع أن النص الذي وصلنا لا يصور سوى رحلة الذهاب، فإن ياقوت الحموي يؤكد أن الرسالة تصور خروجه من بغداد إلى بلاد الصقالبة وعودته إلى بغداد[6]. ويلاحظ أيضا، وهو أمر له أهمية قصوى، أن ياقوت الحموي يصف النص بأنه "قصة" وأنها شائعة بين الناس، وأنه رآها، وأنها تصور ذهاب ابن فضلان وإيابه، وأن وظيـــفة ابن فضلان ضمن بعثة المقتدر هي تعليم الصقالبة "الصلوات والشرائع". يقوم ياقوت بدمج مقاطع من النص في معجمه، باعتبارها من المصادر الجغرافية والبشرية عن تلك البلاد، لكنه لا يضمن صحتها، ويتشكك في بعضها، ويعلن براءته منها. ومع أن الجغرافيين القدامى كانوا يدرجون غرائب

كثيرة، بعضها أوهام، في مدوناتهم عن البشر في دار الحرب، إلاّ أن ياقوت الحموي لم يستطع هضم ملاحظات ابن فضلان، ذلك أن النص يتضمن جملة من الأخبار والمغامرات والتقاليد التي يصعب تصورها، الأمر الذي دعاه إلى التحذير من الاعتماد عليها. لم ينفرد ياقوت في كونه الشاهد الوحيد على اكتمال نص ضاعت أصوله فيما بعد، و لم تنجح أية محاولة إلى الآن في العثور عليه، فابن النديم المفهرس الثقة كان أيضاً شاهداً على وجود أصل كامل لكتاب "ألف ليلة وليلة" رآه، كما يقول "بتمامه دفعات، وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث"[7]. ولكن ذلك الأصل الذي اطلع عليه ابن النديم أجزاءً فقد إلى الأبد، كما هو الأمر بالنسبة لنص ابن فضلان. وكلاهما: ياقوت وابن النديم يقفان الموقف نفسه ويصدران الحكم ذاته؛ يطلعان على الكتابين، يعتبران أول شاهدين عليهما، يصدران حكماً سلبياً بحقهما. وكتاب "ألف ليلة وليلة" ورسالة ابن فضلان، المشفوعان بشاهدي عيان من وزن ابن النديم وياقوت الحموي، يقدمان دليلاً على أن بعض الكتب، في ثقافتنا القديمة، تظهر كاملة، لكنها سرعان ما تتعرّض لسوء فهم يفضي بها إلى الضياع. ليس من المصادفة أن يلحق ضرر بهذين الكتابين-وكثير من الكتب المماثلة - فهما يصوران الارتحال العجيب في عوالم الآخر، بما يطعن المتخيّل الذاتي المنضبط عقائديا وثقافياً عنها. تأتي اليد "الآثمة" لقطع "الإثم" الدخيل على الثقافة.

لم يقتصر الأمر على الكتب وحدها، فكثير من الصور التي اخترقت حاجز المنع والتحريم في ثقافتنا القديمة، والتي تصور الإنسان والحيوان، إما أُتلفت، أو أن يداً كارهة للصور قامت بمحو الرؤوس بمهارة بالغة من كل صورة، ومثال ذلك مخطوط عربي في "سان بطرسبورج" مزين بالصور، لم تستطع اليد الآثمة من قطع الرؤوس تماماً، إنما فصلتها عن الأجساد بخط مميز من الحبر، وكما يقول عبد الفتاح كيليطو، فإن الشخصيات الممثلة في المخطوط، أناساً وحيوانات، قد احتفظت برأسها على كتفيها، لكن أعناقها جميعاً مقطوعة بخط من الحبر. خط واضح يرسم حداً بين الرأس وسائر الجسد، وفي تعجّله، فإن كاره الصور قد قطع أحياناً لا الرأس، بل الصدر أو بطن الشخصيات. هذا الخط يشير إلى المحرّم الذي انتهك، وفي الوقت نفسه يقدم نفسه كسيف عقاب[8]. وهكذا فكل ما لا يتوافق مع السُنن الثقافية والعقائدية ينبغي أن يُبتر أو يُطمس، سواء أكان سرداً تخيلياً أم أدباً ارتحالياً أم صوراً توضيحية، فذاكرة العالم مهددة، حينما يستبد بالفكر نوع من التأويل المنغلق على تصوّر مأسور في حقبة تاريخية، وخاضع لموجّه ثقافي- عقائدي لا يأخذ بالاعتبار التطور التاريخي للمجتمعات، الأمر الذي يفرّغ النصوص والصور والتماثيل من بعض المعاني، ويضخ فيها معاني جديدة. فالرسوم المذبوحة، والتماثيل المدمّرة، والنصوص الجريئة المخرومة التي تصوّر الآخر أو الذات، والتي ظهرت في حقب ماضية، لم تعد تهدّد المتخيّل الثقافي، لأنها فقدت وظيفتها الأولى التي ظهرت في ظروف معينة، وأصبحت اليوم شاهدا جماليا على الماضي، وعلى الرغم من ذلك فإن التأويل الضيّق يتعسّف في إضفاء دلالات أخرى عليها. ترحّل الأعمال الفنية أحيانا من حاضرها إلى الماضي لتدرج في سياق فهم معين، فيصبح التخلّص منها مشروعاً.

يقول "كريكتون" الذي أدعى إعادة تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان (= على سبيل التخيّل في معظم الفصول) "يمثل مخطوط ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكنغ ومجتمعهم، ويُعتبر وثيقة بارزة، في وصفه لحوادث وقعت منذ ما ينوف عن ألف سنة، بتفصيل مميز، مفعم بالحياة. ومن الطبيعي ألاّ ينجو المخطوط من عاديات الزمن، خلال الحقبة الطويلة التي مرت عليه. وفي الحقيقة، للمخطوط تاريخه الذاتي، الذي لا يقل تميزاً عن النص نفسه"[9]. الجملة الأخيرة هي التي تعنينا هنا. أجل إن للمخطوطات القديمة تواريخها التي لا تقل عنها تميّزاً. فتاريخ "ألف ليلة وليلة" و"كليلة ودمنة" و"السير الشعبية العربية" على سبيل المثال، يضارع في أهميته النصوص ذاتها. وهو أمر له أكثر من دلالة. فيما يتصل برسالة ابن فضلان، فبعد عصر ياقوت تمزق المخطوط. ياقوت نفسه أسهم بذلك حينما انتزع منه نبذاً وشذرات وأجزاء. لست معنياً هنا بإعادة البحث في موضوع استأثر باهتمام المتخصصين الذين بذلوا جهوداً شاقة وشائقة في تتبع مصير المخطوط، ولمّ شتاته، وتركيب أجزائه[10] إنما أود تأكيد أن النص الذي كان موحّداً في بداية القرن السابع الهجري/ بداية القرن الثالث عشر الميلادي، قد تفرّق الآن في لغات كثيرة جداً منها: اللاتينية والألمانية والفرنسية والدنماركية والسويدية والإنجليزية، وأن القسم العربي المنشور لا يشكل سوى جزء من النص المتداول في اللغات الأخرى. والملاحظ أن ما جاء في اللغات الأخرى، وغاب في العربية هو القسم الخاص برحلة ابن فضلان إلى "بلاد الكفر". فالأصل العربي ينتهي في بلاد الصقالبة التي كانت آنذاك ضمن "دار الصلح" ولا يتعرض بشيء إلى ما سواها، فملاحظات ابن فضلان وارتحالاته في عالم الشمال التي ينبغي أن يكون كتبها بالعربية، لا يتم الوصول إليها، بالنسبة لنا الآن، إلا عبر لغات أخر وسيطة، ليس من بينها العربية. نُفي ابن فضلان من لغته وثقافته، وعاد الآن عبر كلام "الآخر". غزا ابن فضلان الآخر بلغته، فأنتج الآخر عن لغته أدباً بليغاً مثيراً للإعجاب.

3. تماثل وتمايز

يرتحل ابن فضلان في سلسلة متعاقبة من العوالم المتماثلة حينا، والمتمايزة دينياً وعرقياً وثقافياً حينا آخر: العالم العربي، العالم الإيراني، العالم التركي، العالم الصقالبي، العالم الخزري، والعالم الاسكندنافي (=ثمة خلاف في الرحلة بالنسبة لترتيب العالمين الأخيرين بين بقايا الأصول العربية، والترميمات الأجنبية التي تخيلها كريكتون)، لكن علاقته بهذه العوالم تنتظم في ثلاثة فضاءات عقائدية: فضاء مؤمن بالنسبة للعالمين الأولين، وفضاء نصف مؤمن ونصف وثني بالنسبة للعوالم الثلاثة الموالية، وأخيراً فضاء كامل الوثنية فيما يخص العالم الاسكندنافي. ستتضح المطابقة بين هذه العوالم والحدود التقليدية لعوالم العصور الوسطى في الفكر الإسلامي: دار الإسلام، دار الصلح (= أو العهد)، دار الحرب. وهكذا فمسار ابن فضلان سيأخذه من المعلوم إلى المجهول، ومن المألوف إلى الغريب، بعبارة أخرى سينقله من حاضنة الذات إلى حاضنة الآخر. سيندفع كسهم لاختراق هذه المجالات الثقافية المعقدة والمتناصبة العداء. أخيراً سيرتطم بصخرة الوثنية المطلقة، فينكفئ عائداً

إلى نقـــطة الانطلاق. عودته لن تماثل ذهابه. سيصبح ابن فضلان آخر، أقل تشدداً، أقل حذراً، أقل إيماناً. وفي تلك الأصقاع الشمالية النائية سيتوارى إسلامه، وتتجلى عرقيّته، فلا يُعرف هناك إلا بوصفه عربياً. في الواقع لم يكن ابن فضلان عربياً، لكنه، شأنه شأن الجميع، لن يعرف بغير دم وأصل عربيين في عالم ما زال بعيداً في القرن العاشر الميلادي عن ملامسة الحقيقة الإلهية. إذ أن التنصّر النهائي لأوربا الغربية تم بعد ذلك، وتأخر كثيراً قبل أن يتغلغل في الأقاصي الشمالية النائية.

في اعتقاد ابن فضلان، كمبعوث لخليفة المسلمين، أنه يحمل الحقيقة المطلقة والنهائية: التوحيد الكامل، الفكرة الأكثر سمواً وحضوراً في ذهنه، الفكرة التي تثار دائماً حتى في سياق الأحاديث المرحة. إنها فكرة مصقولة وصلبة وشفافة وجاهزة وبسيطة لمن يؤمن بها، لكنها مع مضي الارتحال إلى الشمال ستصبح خشنة وهشة وكثيفة ومعقدة. إلى حد ما سيعيد ابن فضلان نفسه النظر في تلك الفكرة. فالانتقال بين تلك العوالم سيجعله متأرجحاً بين اليقين والشك. إنه بصعوده المنضبط إيقاعياً إلى الشمال، يتناغم والحدود الشعورية لعالم القرون الوسطى وتقسيماته العقائدية، فالتصور يذهب إلى أن دار الإسلام واحدة؛ لأنها تتكون من رعيّة واحدة، وتحكمها دولة واحدة، وترأسها سلطة واحدة، وعليها تقع حماية الرعية بأعراقهم ودياناتهم ومذاهبهم، فقد وقعت تحت حمايتها بالفتح. أما دار الحرب فتتكون من بقية العالم. وبينهما دار الصلح، ذلك المجال الذي تحكمه دولة غير مسلمة، لكنها مرتبطة بعلاقة تعاقدية مع دولة الإسلام، ومن خلالها أذعنت لسيطرة المسلمين، وقامت بدفع الجزية، لكنها تحافظ على شكلها الخاص بالحكم[11]. من أجل معرفة المخاطر المحدقة بابن فضلان، ينبغي معرفة أنه بسبب العداء الديني المستحكم بين دار الإسلام ودار الحرب في تلك الحقبة، فإن الاتصال مع أهالي الدار الأخيرة ممنوع ومحرم. وعلى العكس، يُسمح لمن يريد من أهالي دار الحرب زيارة دار الإسلام بتصريح يطلق عليه "أمان"ويسمّى حامله"المستأمن" وهذا التصريح يمكن أن يمنحه أي"رجل مسلم بالغ حر"، وبالمقابل، فإن هذا الأمان لا يمنح للمسلمين في دار الكفر[12] وعلى هذا فلا ضامن لمن يترلق من الدار الأولى إلى الثانية، فابن فضلان سيعدم كل وسائل الأمان والاتصال، لأنه يغادر فضاءً ثقافياً خاصاً به إلى آخر خاص بأعدائه. إنه لا يعرف لسان الآخر، ترجمانه سيختفي عند تخوم عالم الإسلام، لغته سوف تتعطل، ولسانه العربي سيظل حبيساً إلى النهاية. ليس ثمة وظيفة حقيقية لمرشد ديني بلا لسان. وحسب برنارد لويس، فإن مسلمي العصور الوسطى، كانوا يعتبرون أن تعلم لغة أجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة[13]. ذلك أن الحقيقة القرآنية عربية اللسان.

لم يستطع ابن فضلان أن يجيد بصورة كافية تماما لغة الأقوام الشمالية، والألفاظ المبعثرة في ذاكرته لم تشفع له بأن يستوعب كل شيء الا في وقت متأخّر جدا. يحاول، بجهد مضاعف، أن يلم شتات ألفاظ وعبارات، سينجح بدرجة ما في النهاية، إنه عكس ابن بطوطة الذي يثير العجب بقدرته على تعلم اللغات. يظل معلقاً خلف لسانه الحبيس وطلاسم الآخر، وفي موقف أو موقفين يظهر كطفل يحبو في غابة اللغة المتشابكة، ولحل هذه المعضلة يُنطقه"كريكتون" باللاتينية التي لم ترد إلينا أبداً أية إشارة عربية إلى أنه كان يعرفها، ولهذا سوف يحتاج إلى لسان

آخر، ستكون اللاتينية هي الوسيط في عالم لا علاقة له بها، سيقوم المترجم بدور الشارح والمفسر والمؤوّل والرفيق. وما دام ابن فضلان حياً، ينبغي ألا يختفي ترجمانه. يمثل المترجم الوسيط بين ابن فضلان ودار الحرب، فيما يمثل ابن فضلان الوسيط بين دار الإسلام ودار الحرب. يشوش اسم ابن فضلان على أدواره. ففي دار الإسلام سيتعمّق في الاسم معنى الفضل، فهو قادم من قلب تلك الدار. بشكل ما يحمل النبض الحار الكامن في المركز. إنه، بعبارة أخرى، خارج لتوّه من مجال مشبع بالحقيقة الإلهية، وجوده في عالم بعيد عن ذلك المجال بدرجة ما، يعتبر نوعا من الفضل. هذه الدلالة الخاصة بالاسم ستنقلب في دار الحرب، سيصبح مجرد رقم مكمل، حاشية شبه زائدة، فضلة. وهكذا كلما مضى مرتحلا الى الشمال جري تحول جذري في اسمه ودوره.

4. العالم الإيراني: ألفة فقية، وغربة شاعر.

ينطلق ابن فضلان من بغداد، وهي المركز الاعتباري الأساسي للعالم العربي والأسلامي آنذاك، لن يتحدث عن عالم يغادره، بالمقابل ينتظر الجميع أن يتكلم عن عالم ذهب إليه. أول عالم يمر به: العالم الإيراني. إنه في ذلك الوقت عالم متنوّع ومترامي الأطراف، لكن المدهش أن ابن فضلان يخترقه دون أن يبدي أية تطلعات استكشافية، لا يستوقفه منه شيء إلى أن يبلغ تخومه الشمالية الشرقية في بخارى. النسق الآتي هو المهيمن في أثناء اختراقه العالم الإيراني "رحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة، فأقمنا بالنهروان يوما واحدا، ورحلنا مجدّين حتى وافينا الدسكرة، فأقمنا فيها ثلاثة أيام، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان، فأقمنا بها يومين"[14]. وطبقاً لهذا النسق الذي يخلو من هاجس الاكتشاف يمضي مخترقاً العالم الإيراني: وسرنا، فأقمنا، ثم رحلنا، ثم قطعنا، وعبرنا، وهذا الارتحال المتعجّل الذي يحول دون الوقوف على التفاصيل، له صلة مباشرة بإحساس ابن فضلان الداخلي إنه يتحرك في مجال مستكشف بالنسبة لمعاصريه، وأليف بالنسبة له، فلا حاجة له لإعادة الوصف، كأنه سهم في فراغ. حتى الأزمنة والأمكنة تنضّد للدلالة فقط على مروره. قرابة عشرين مدينة، يمر بها قبل أن يصل بخارى، يوردها على التعاقب، ولا يستغرق منه ذلك إلا أقل من صفحة واحدة. يفاجأ المتلقّي تماماً بأنه قد وصل بخارى، في وسط آسيا، لكي يلتقط هناك، ولأول مرة، أنفاسه. بالنسبة له يبدو العالم الإيراني خاملاً، لا يستثير لديه أي فضول، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بسبب الغطاء العقائدي السميك الذي يتدثّر به، الغطاء الذي يحجب تحته الاختلافات الثقافية والعرقية بين العالمين العربي والإيراني. ولفهم ذلك الاختلاف يلزمنا وضع الفقيه بإزاء الشاعر؛ من أجل كشف طبيعة التباين الثقافي والجغرافي والعرقي بين العالمين.

كان المتنبي (354هـــ = 965م) وهو معاصر لابن فضلان، قد نقض ضمناً ألفة الأخير للعالم الإيراني، ففي قصيدته "شعب بوان" وهي آخر قصائده الكبيرة، عبّر عن ذهول كامل ومترابط بالطبيعة والبشر المختلفين تماماً عمّا ألفه في العالم العربي. ومجازياً عرّف المتنبي نفسه، بأنه "الفتى العربي" الذي فضح الاختلاف غربة وجهه ويده ولسانه. وقد كفّ التماثل عن ممارسة فعله، وتوارى خلف بروز مفاجئ لاختلاف ثقافي

وعرقي. إلى ذلك فإن الشعب، باعتباره البؤرة المصغّرة لفارس، مكان خلاّب، مضاد للصحراء التي تُعد إحدى مرجعيات المتنبي وشعره، فكأنه سقط فجأة في أسر عالم غريب، لكنه جميل ورائع. جمال الغريب يعمّق لديه إحساسا عميقا بالتباين، فالشِعب "ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان" هنا، تتعطل المعرفة اللسانية، سليمان القادر على حل رموز لغة البشر أجمعهم والطيور، يحتاج إلى وسيط فارسي يفك له لغة الطبيعة والبشر. المتنبي في هذا غير ابن فضلان، فإحساسه كشاعر دنيوي بالاختلاف يحول دون المعرفة، فيكتفي بالتعجب. المجاز المنتج للخيال الخلاق في قصيدته لا يمكّنه أيضاً من ذلك، وهو على أية حال غير قادر على تخطّي التباين الثقافي والعرقي. أما ابن فضلان، فإنه يريد بالعقيدة تجاوز تلك الاختلافات ذاتها، وصهرها في فضاء واحد، باعتبارها تماثلات لا ترتقي إلى رتبة التناقض، كما ظهرت عند المتنبي. إنه يفكر بالفضاء الإسلامي الموحد: دار الإسلام. وكأنه ينطق بلسان الاصطخري الذي يقول "إن في مملكة الإسلام ألسنة مختلفة والملك واحد"[15]. في هذه القضية، قضية العقيدة، يظهر المتنبي أكثر حذراً، وأقل تطلّعاً، فهو لم يسمح لنفسه بمد شمول ابن فضلان إلى أقصاه، اكتفى فقط بإبراز حالة الذهول.

من الواضح أن ما يشغل ابن فضلان هو المماثلة العقائدية، أما المتنبي فمسكون بالاختلاف، ولهذا لم يمض إلى ما وراء شيراز. قفل راجعاً إلى الفضاء العربي، ليلقى في أطرافه الشرقية حتفه. أما ابن فضلان فقد مضى كسهم لا يلوي على شيء، كأنه مشدود إلى هدف غامض، يقع بعيداً جداً، إلى ما وراء العالم التركي الذي يقع على تخوم العالم الإيراني. لم تثره أبداً بلاد فارس، وما شُغل قطّ باختلاف العوالم داخل دار الإسلام. وفارس التي حسب بلاشير، طالما "أدهشت، بمشاهدها الطبيعية المتعرّجة، والتباين العنيف في بنيتها، الرحـــالةَ في جميع الأزمنة"[16]. لم تُلفت انتباهه. وإذا قورنت رؤيتا الشاعر والرحالة، فيمكن القول: إن المبالغة الشعرية القائمة على التخيّل الأخّاذ، وهي الوسيلة الناضجة عند المتنبي، قد وسّعت فضاء الارتحال الخيالي بالنسبة له، فهو بالتخيّل يمارس ارتحالاً دائماً. أما تقرير ابن فضلان المقتضب، ومروره المتعجّل في العالم الإيراني، فلا يراد منه إلاّ رسم خط الرحلة، فكأنه يدّخر تخيّله للحظة أخرى، لحظة صدمة التباين الحقيقي في دار الحرب. وبازاء غربة حقيقية ينجزها ابن فضلان، تبدو غربة الشعراء من مالك بن الريب إلى أحمد شوقي، غربة مجازية. فأبو تمام الذي لم يطوّف كثيرا في العالمين العربي والإيراني، يقول:

فغرّبتُ حتى لم أجدْ ذكرَ مشرقٍ وشرّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا

والمتنبي، الذي احتذى سلفه في هذا، و لم يجازف بالتوغل في العالم الإيراني، كان وهو ما زال شبه أسير لدى كافور الأخشيدي، قد قال:

فَشَرَّقَ حَتّى لَيسَ لِلشَرقِ مَشرِقٌ وَغَرَّبَ حَتّى لَيسَ لِلغَربِ مَغرِبُ

وهنا ينبغي الأخذ بالحسبان أن إحساس المتنبي العميق بالغربة حتى في قلب العالم العربي، سرعان ما يتفاقم إذا تخطاه إلى عالم آخر، وكأن الآخر سمّ يلزم الحذر منه، حتى أن رحلته الخاطفة والوحيدة انتهت بها حياته. وإذا عدنا إلى التباين العرقي، فيبدو اندماج ابن فضلان، بالمقارنة مع عناد المتنبي ونشوزه، واضحاً. فهو ذو رؤية شمولية تتجاوز الانتماءات العرقية والثقافية في دار الإسلام. ولم يكن، ابن فضلان، حسب دائرة المعارف الإسلامية "عربي الأصل"[17]. وليس ذلك بمستغرب في الفضاء الاندماجي السائد آنذاك. فابن العميد، قد أذهل المتنبي بفصاحته، فقال فيه:

عربي لسانه، فلسفي رأيه، فارسية أعياده

لم تعد الفصاحة ميزة عرقية، ومن العبث الذهاب إلى أنها حكر لأحد. وتجربة المتنبي البسيطة في معرفة هذه القضية، جعلته يقف عاجزاً عن تفسير فصاحة ابن العميد، كما أن الصحراء لم تجهزه بامتصاص العجب، وهو يتجوّل في شِعب بوان. لقد وجد نفسه يتزلق إلى حيرة شعرية عميقة، غربة بيانية. وكان محمد أركون، قد استنتج طبيعة استنكار المتنبي: كيف يمكن للمرء أن يتكلّم العربية دون أن يكون عربياً؟، ومع أنه يمكن أول وهلة تفسير ذلك بالاندماج، لكن الواقع يكشف كما ينتهي أركون إلى ذلك أن التطورات الثقافية والاجتماعية التي طرأت منذ فتح إيران قد عكست حالة تاريخية جديدة، وهي بداية اضمحلال دور العرب لصالح أقوام آخرين، ذلك أنه، حتى وهم الخلافة، على الرغم من قداسته وهيبته في أعين الناس، قد اختفى، في هذه الفترة، وراحت السيطرة الفارسية (= الديلمية) تفتح آفاقاً جديدة للنفوس[18]. هل يبدو المتنبي مصيباً في تفخيم التباين، أم أنه من طبيعة القول الشعري؟ وهل يبدو مبعوث الخليفة متعالياً على إدراك الاختلافات، ومضحياً بها من أجل صوغ عالم مثالي موحّد؟. فغياب العالم الإيراني أمر يصعب تفسيره في رحلة ابن فضلان إلا إذا تم إدراجه في مضمار القائلين بوحدة دار الإسلام إلى درجة تحول دون رؤية مكونات تلك الدار وتفاصيلها. فابن بطوطة في اختراقه المتمهّل لتلك الدار من التخوم الغربية إلى الشرقية ومن الشمالية إلى الجنوبية، كان معنياً، أكثر من أي شيء آخر، بالخصوصيات الثقافية واللغوية والاجتماعية، وبالمقابل فإن ابن فضلان لا يلتقط أنفاسه ليتبصّر في موقع قدميه، إلا بعد أن يخترق العالم الإيراني. ذلك العالم الذي يصفه "لومبار" بأنه عالم مختلف عن العالم العربي "يسكنه خلق آخرون يتحدثون لغة أخرى، ويعيشون في إطار حضارة تختلف تماماً عن الحضارة الإسلامية السائدة في العالم العربي"[19].

في بخارى سينتبه ابن فضلان إلى العالم المحيط به، وذلك حينما يوقف مساره السريع، ومع أنه يقيم هنا ثمانية وعشرين يوماً، فلا تترسّب في ذاكرته غير صور الدراهم. إنه يستخدم ضمير الجمع في السرد، لكنه لا يأتي على ذكر من يرافقهم، ولكن هنا، في بخارى، ستظهر أولى علائم عدم الانسجام والخلاف في المجموعة: فئة تريد مواصلة التقدّم إلى خوارزم قبل حلول الشتاء، وفئة ترغب المكوث وقضاء الوقت في بخارى. ثمة تغيّر آخر، فيما كانت البعثة متجهة إلى الشرق تقريباً، ستنعطف فجأة إلى الشمال الغربي، إلى خوارزم: بوابة

الدخول إلى الشمال حيث: العالم التركي والعالم الخزري والعالم الصقالبي.أمير خوارزم محمد بن عراق لا يأذن لهم بالدخول إلى بلاد الترك خوفاً عليهم "لا يحلّ إليّ ترككم تغررون بدمائكم". سيرتسم شبح الخوف. وبالنسبة لأمير خوارزم فإن العالم الصقالبي هو "بلد الكفار". وللوصول إليه ينبغي اختراق العالم التركي و"ثمة ألف قبيلة من الكفار" بين العالمين.

5. العالم التركي: ألف قبيلة من الكفار.

يفلح ابن فضلان في إقناع الأمير، فتغادر البعثة إلى "الجرجانية " آخر مدن العالم الإيراني، وهي مدخل إلى العالم التركي. هنا، حيث يجبر الثلج البعثة على البقاء طوال الشتاء، سيجد ابن فضلان أنه وصل إلى عالم مختلف، لا يمكن اخفاؤه عقائدياً. ذلك سيبعث في نفسه ترقباً لما سيأتي. الجرجانية ستفصم علاقة ابن فضلان بجزء كبير من ماضيه وأفكاره وعلاقاته، أنه سيلجأ إلى الأحكام السريعة والجاهزة، فهنا يظهر أمامه "الآخر" بشكل ما. إن الخمسين فرسخاً بين الجرجانية وخوارزم، سيكون تأثيرها مضاعفاً عن كل فراسخ الرحلة الطويلة من بغداد إلى بخارى. أول الأحكام الاختزالية التي يطلقها على أهل الجرجانية، أنهم "أوحش الناس كلاماً وطبعاً، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يقال لها أردكو، أهلها يقال لهم الكردلية، كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع، وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في دبر كل صلاة "[20].

يظهر الاختلاف في اللغة والسلوك والإيمان. هذا الاختلاف سيضرب ابن فضلان في الصميم. إنه بتوجيه من التفاضل الثقافي القديم والمتأصّل في النفوس بين العوالم، سيركّب الصورة الإكراهية اللافتة للنظر: أوحش الناس كلاماً وطبعاً، كلامهم أشبه بصياح الزرازير ونقيق الضفادع، وما زالوا أسرى الأفكار التي أشاعتها الفتنة منذ ما يقارب ثلاثة قرون: الصراع بين علي ومعاوية. لقد نفذت فيهم الأيديولوجية الأموية، هم بالنسبة لابن فضلان مجتمع راكد، تسيطر عليه السجالات الأولى حول الأحقيّة في الحكم. ولا تنحبس ملاحظاته في العادات واللغات، إنما هنا تصدمه الطبيعة بمغايرتها الكلية، فقد تكشفت له أشياء ما كان قط قادراً على تصورها من قبل: نهر جيحون الهادر المخيف يتحول في الشتاء إلى طريق جليدي سمكه سبعة عشر شبراً، والقوافل بدل أن تخترق الجبال والغابات تتخذه طريقاً لها طوال فصل البرد، وهو ثابت لا يتخلخل، وقد لاحظ ذلك فيما بعد ابن بطوطة وأشار إلى أن النهر المذكور يتجمد لخمسة أشهر، وربما يتغافل الناس في نهاية أوان البرد عنه، فيذوب الثلج تحتهم فيهلكون[21]. أما النار، رمز العقاب الإلهي الصارم في الآخرة، والعلامة المخيفة بالنسبة للمسلم، فستُصبح في هذه الديار رمزاً للكرم والبرّ، فإذا أتحف المرء صاحبه، وقرّبه إليه، ورغب في إكرامه، قال له "تعال إلي نتحدث، فإن عندي ناراً طيبة". سوف تنقلب دلالة النار هنا، إنها مرغوبة ومطلوبة. كما أن أول كلمة أعجمية في قاموس ابن فضلان ستظهر في هذا المكان "بكند" وتعني "الخبز". من الواضح أنه لم يدرك وهم الهوية والتطابق المزعوم إلاّ في الجرجانية.

ليست الثقافات والقيم هي المختلفة وحدها، إنما الطبيعة التي ستترك في ذاكرته بصمات لا تمحى: يخرج من الحمام فتجمد لحيته في الحال، وتتحول إلى قطعة من الثلج، ينام في بيت جوف بيت، وسط لبود تركية، مدثر بالأكسية والفرى، فربما التصق خده بالمخدة من شدة البرد. وبسبب الثلج تتشقق الأرض إلى أودية عظام، الشجرة العظيمة تنفلق إلى نصفين، راكب الجمل لا يقدر على التحرك لما عليه من الثياب[22]. لا مبالغة في الوصف، فابن بطوطة أيضاً قدّم وصفاً مطابقاً حينما كان يطوف بأرجاء المنطقة: كنت ألبس ثلاث فروات، وسروالين، أحدهما مبطن، وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان من الرغالي، وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب، وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار، فما تقطر من الماء قطرة إلاّ جمدت لحينها، وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد، فأحركها فيسقط منه شبه ثلج، والماء الذي يترل من الأنف يجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من ثياب حتى يركبني أصحابي[23]. كل الإشارات تؤكد أن ابن فضلان وقف على تخوم عالم انتهى وعالم بدأ، وتجربته الجرجانية دفعت به فعلاً إلى إعادة النظر بفكرة التطابق الذهنية الموجودة لديه. إنها بمقدار ما كانت تجربة مملوءة بالعجائب، فإنها وضعت أمامه بصورة لا تقبل اللبس حالة الاختلاف الكلية للعالم الذي سيصل إليه عما قليل: العالم التركي. سينتهي العالم الإيراني عند جبل عظيم. إنه الحد الطبيعي بين نسقين ثقافيين وطبيعيين، وكما هو معروف، ففي العالم القديم تمارس التخوم دور الحدود في العالم الحديث. يغادر ابن فضلان الجرجانية، ليجد نفسه في عالم أشد اختلافاً. والأيام العشرة الأُول من رحلته ستضعه في عالم غير متوقع، أو في الأقل يفوق كل تصوراته. يبدأ لديه منذ هذه اللحظة داء النسيان"لقينا من الضرِّ والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مرّ بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس"[24].

سيكون تفسيره للبرد، بأنه عقاب إلهي للأتراك، فلو وحّد هؤلاء القوم الله، لكفاهم ذلك. هنا، يغيب التفسير المنطقي المناسب، لأنه يتحرك في مجال غامض، أسبابه خفية، فكل ما يبدو قاسياً، لا تفسير له إلاّ غضب الله. سوف تتدخّل الرؤية العقائدية في ترتيب منظوره لمكوّنات العالم التركي، عالم ما وراء الجبل، وهو الآخر شأنه شأن العالم الإيراني متنوع في كل شيء، وستكون اللهجة الانتقادية عالية ورنانة ومكفهرّة. فهنا سيجتاز تخوم دار الإسلام إلى دار العهد، ولهذا فإن أول قبيلة يواجهها، يجد أنها من البدو، لكنهم "كالحمير الضّالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئا، بل يسمون كبراهم أرباباً. فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له "يا رب إيش أعمل في كذا وكذا "[25]، ولذلك فهم في "شقاء" وبما أنهم في دار العهد، فأهل العالم التركي مهجنون عقائدياً، منقسمون على أنفسهم، مزدوجون في انتمائهم وهويتهم، يظهرون في عيني ابن فضلان بمجموعة منافقة، ضمن عالم متقلب الولاءات. يقول الأتراك "لا إله إلا الله محمد رسول الله" تقرباً إلى المسلمين الذين يجتازون عالمهم، لا اعتقاداً بوحدانية الله، وتأكيداً لنبوة محمد، إنهم لأغراض دنيوية يتمتمون بألفاظ متناثرة، وأكثر ما بلغوه الوصول إلى تشكيل عبارة "بير تنكري"، التي تعني "الله الواحد". هذه أول عبارة في معجم ابن فضلان، بعد لفظة "بكند" التي أشرنا إليها. ومنذ هذه اللحظة، لحظة التوغّل في دار

العهد، سيجد نفسه في مهمة إصلاحية كبيرة. إنه يريد ترميم عالم ممزّق، ولأنه لايستطيع فانه يمضي في إصدار سلسلة طويلة من الأحكام الاختزالية المترابطة، فيسقط على الآخرين أحكاماً قاسية، إنهم "لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، كذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس"[26]. إنه مشغول بالمبادئ الأولى التي يُشغل فيها الفقهاء: الطهارة والاحتجاب. ولتعميق خروجهم على هذه المبادئ التي يراها ابن فضلان أساسية، يورد أمثلة. ثمة حكاية ستنطبع في ذاكرته إلى الأبد: يترل في يوم ما ضيفاً على رجل وامرأته، فبينما هي جالسة تحدثهم إذا كشفت فرجها وحكّته، وفي الحال يستر ابن فضلان وجهه مستغفراً ربه، الأمر الذي يثير ضحك الزوج، فيطلب من المترجم أن يخبر ابن فضلان وجماعته بالحكمة من وراء ذلك "قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه خير من أن تغطيه وتمكّن منه". تكشف الواقعة نسقين ثقافيين، فالعالم التركي آنذاك ما زال طبيعياً، لم تغزه ثقافة الاحتجاب. الفرج ينكشف والوجه يحتجب.

ابن فضلان والمرأة التركية يمارسان دورين لا يُفهمان إلاّ في ثقافتين مختلفتين. وتكون المفاجأة الأخرى هي النظر إليه كعربي دون الإشارة إلى أنه مسلم. وابتداءً من هذه المرحلة، سينظر إليه، هو غير العربي، على أنه عربي، وممثل لملك العرب. لا يبدو أنه سيكون لإسلامه شأن كبير في تقدير الآخرين له، الأمر الذي يرجح أن كلمة "عربي" آنذاك، وفي هذه الأقاصي، كانت محددة الدلالة أكثر من كلمة "مسلم". يسأله أحد الأتراك، بوساطة الترجمان سؤالاً محيّراً، فيه عدة طعون متوالية ضده وضد الله، فيستعظم السؤال، ويطلب المغفرة "قل لهذا العربي: ألربنا عزّ وجلّ امرأة !؟". المرجّح أن وصف الله بالعزة والجلال من إضافات ابن فضلان، فلو عرف الأتراك الإطار العام لصفات الله، لما تقدّم أحد بسؤاله. وفي مكان آخر عند "الباشغرد" يلاحظ ما هو أكثر خروجاً على الدين الذي جاء ابن فضلان مشبّعا بقيمه: فكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ويعلّقها عليه، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبّلها وسجد لها، وقال "يا رب افعل بي كذا وكذا" ولما يستفسر ابن فضلان عبر ترجمانه عن السبب، ولماذا يوصف الذكر بالرب، كان الجواب صريحاً "لأني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقاً غيره"[27]. إلى ذلك فبعضهم يزعم أن له اثني عشر ربّاً: للشتاء ربٌّ، وللصيف ربٌّ، وللمطر ربٌّ، وللريح ربٌّ، وللشجر ربٌّ، بعضهم يعبد الحيّات والثعابين، وبعضهم يعبد الأسماك، وبعضهم يعبد الكراكي. وبمواجهة هذه الديانات الطبيعية، لا يفعل ابن فضلان شيئاً، سوى القول "تعالى الله عما يقول الظالمون".

هذه الملاحظات تمكّنه من تنمية مهاراته الاستكشافية، وتُظهر له يوماً بعد يوم أنه في عالم مختلف، وسوف تستأثر العادات الاجتماعية باهتمامه: علاقات الزواج والحقوق والضيافة والجنس المحرّم واللواط وشؤون الميراث وقضية الطهارة. يحاول أن يفهم كل ذلك، لكنه يكتشف أن هذا العالم البكر، عالم هشّ، يُخترق بالهدايا والرشاوي والخوف. إنه عالم متعاهد مع دار الإسلام لكنه شبه جاهل بحقيقته: المسلم فيه عربي، والخليفة مجرد ملك العرب. هنا في قلب هذا العالم، ينبثق شك واضح حول بعثة ابن فضلان. فيحتجزون، إذ لم يسبق أن وصل عبر بلادهم رسول متوجه إلى الشمال. يُشكّ في أنهم ربما يقومون بعمل

لصالح ملك الخزر اليهودي للهجوم عليهم، ينقسم القوم بشأنهم: قسم يقترح تقطيعهم إلى نصفين، وقسم يقترح سلبهم وتعريتهم وإعادتهم إلى بغداد، وقسم يقترح أن يفادوا بأسراهم لدى الخزر. يغيب عن بال البعثة تحذير أمير خوارزم محمد بن عراق. ولكن ابن فضلان يفككك قوة الخصوم بالهدايا. كما أن انقسام الآراء وتعارضها يفعل فعله، فلا يُتخذ قرار نهائي بشأنهم، فيعجّلون شبه هاربين لا يلوون على شيء. الخوف سيجعل ابن فضلان يكفّ عن توسيع ملاحظاته: فضوله قوبل بسوء فهم، كاد يقوده هو وجماعته إلى التهلكة. يقطع ما تبقى من العالم التركي مذعوراً، وقد تفاقم سوء ظنه، فيعود إلى نسق التتابع في الوصف السريع الخاطف الذي لاحظناه عند خروجه من بغداد: رحلنا ثم وصلنا إلى نهر يغندي، ثم عبرنا جام، ثم نهر جاخش، ثم أذل، ثم أردن، ثم وارش، ثم أختي، ثم تبا، وكلها أنهار كبار، ثم صرنا إلى البجناك (= البشناق، شمال البحر الأسود)، ثم ارتحلنا، ثم سرنا، ثم عبرنا ... إلخ. عدد كبير من الأنهار يقارب عدد المدن الإيرانية قبل بخارى، لن نعرف عنها سوى أسمائها، فإذا كانت المعرفة تمنع التفاصيل في الحالة الأولى، فالخوف والذعر والتعجل يمنع التفاصيل في الحالة الثانية. يبدو بعد هذه المرحلة وكأنه فقد الإرادة، وترك الأحداث تقوده، ولكنه سيدخر حكما قاسياً يصف به آخر تخوم الأتراك، حيث يستوطن "الباشغرد" (= غرب جبال الأورال). فهم "شرّ الأتراك وأقذرهم، وأشدّهم إقداماً على القتل، يلقى الرجل الرجل فيفزر هامته، ويأخذها ويتركه، وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل"[28]. يضيق ابن فضلان بالترك، دينياً وثقافياً، وسيعبر ثمانية أنهر أخرى على عجل، قبل أن يصل أرض الصقالبة على شاطئ نهر الفولغا، حيث الهدف الأخير لبعثه، كما يعتقد.

6. اخفاقات مصلح ديني.

أخيراً يصل ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة، البلاد التي قصدها من بغداد بأمر المقتدر، لا نعرف الآن كيف اخترق بلاد الخزر التي تفصل بلاد الترك عن بلاد الصقالبة. والقطعة الخاصة بالخزر، وهي ليست من أصل النص، إنما منتزعة من "معجم البلدان" لـــ "ياقوت" لا تدل بأية حال من الأحوال على أنه دخل بلاد الخزر علناً، إذ يختفي الحديث بصيغة السرد المباشر، ويخلو النص من الملاحظات العيانية، وترد في تضاعيفه معلومات كانت شائعة قبل القرن الرابع، ومنها ما يورده الاصطخري على سبيل المثال[29]. يظهر الطابع الجُزافي للرحلة، فابن فضلان جاء من بغداد استجابة لنجدة ملك الصقالبة، لحمايته من ملك الخزر، وليس أمامه إلا المرور عبر بلاد معادية للوصول إلى هدفه. ولا ترد إشارة إلى ذلك، ففجأة يظهر في أرض الصقالبة مع ثلاثة من جماعته: تكين وبارس وسوسن. وطوال وجودهم هنا، لا يظهر نذير الحرمي، ولا عبد الله بن باشتو. ستكون مهمة ابن فضلان قراءة كتاب الخليفة وكتاب الوزير وكتاب السفير (= نذير الحرمي) ويُستقبل باحتفاء ظاهر يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة[30] ويحرص على مراعاة الطابع الاحتفالي للقاء؛ فيجلل دابته بالسواد رمز العباسيين، ويطلب إلى الملك الوقوف في أثناء قراءة رسالة الخليفة، ثم ينخرط فورا إثر ذلك في تصحيح الممارسات الدينية الخاطئة، بادئاً بملك الصقالبة نفسه، فيكتشف

للحال أن الملك ليس خائفاً من القوة العسكرية للخليفة المقتدر، ولا هو بحاجة إلى أمواله لبناء الحصون ضد الخزر، إنما هو يخشى البُعد الديني، فبدعاء واحد قد يهلكه. وقد طلب منه المال للتبرك وليس للحاجة.

بعد أيام من تسليم كتابي الخليفة والوزير يُستدعى، ويواجَه بالحقيقة المرّة: أين الأموال التي أرسلها الخليفة؟ تتلبّد الأجواء بغيوم الشك، ويتعرّض ابن فضـــلان لمأزق كبير. يعترف لملك الصقالبة أن المقتدر أمرهم بجمع عطاء إحدى القرى وإيصاله إلى الملك. لكنهم لم يفلحوا في ذلك بسبب الخلافات التي دبّت بينهم في بخارى والجرجانية. وعلى هذا يصل الوفد دون الأموال. يشير كتاب الخليفة بوضوح إلى تلك الأموال، لكنها غير موجودة مع الوفد. في هذه اللحظة، تُضرَب مهمة ابن فضلان في الصميم، فقد جاء من أجل تصحيح الأخطاء، فإذا به يرافق بعثة فاسدة، يحاول أن يوضّح الأمر، لكن من المؤكد أن الثقة به لن تستعاد. حتى الأخطاء الدينية التي قام بتصحيحها يأمر الملك "يلطوار"بإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل. ينجح الملك في وضعهم موضع الشك، وخيانة الأمانة. ولهذا يرفض وعظهم، ولا يقبل منهم النصح الديني. عند هذا الحد سيجد ابن فضلان نفسه بلا دور. لقد سقطت الهيبة التي كانت تحيطه. الادّعاء وحده لا يكفي، فعدم الوفاء كان دليلا حاسماً ضده. و لم تُقبل أبداً أعذاره. والحال أنه باستثناء الفترة الأولى، فإن الملك نفسه لن يعبأ بهم، ولهذا ينصرف ابن فضلان إلى الاستزادة من ملاحظاته الاستكشافية: يتفحص التركيب الداخلي لعالم الصقالبة، والطقوس الدينية، موائد الطعام، المناخ، الوقت، التقاليد الاجتماعية، العلاقة بين الرجل والمرأة. أهم ما سوف يرتسم في ذاكرته الأساطير الروسية التي تغزو أرض الصقالبة من كل أطرافها. لم يدر في خُلده أنه سوف يكون بعد وقت قليل جزءاً من عالم تلك الأساطير الغامضة.

لا يعرف أحد عاقبة تلك البعثة، فعند هذه اللحظة الحاسمة، يتشظّى النص الأصلي، وتضيع الغاية الأساسية، وكل المحاولات فيما بعد، مبنية على جمع نصوص، وإعادة تركيبها أو ترجمة نصوص أصلية لا معرفة لنا بها. إننا، كما أسلفنا، بإزاء شك في نزاهة بعثة المقتدر، وهذا الشك يفضي إلى عدم الاهتمام والتجاهل. فملك الصقالبة ينصرف إلى شؤونه، وابن فضلان يُشغل بملاحظاته وجولاته. ويتحلل وجود البعثة في أرض الصقالبة، دون أن نعرف مكان توجههم. إن الأمر المنطقي هو العودة إلى بغداد، وكشف الأمر للخليفة، ولكننا نفاجأ، على العكس، بأن ابن فضلان وجماعته، قد ظهروا في البلاد الروسية. التي تقع إلى الأعلى، فوق بلاد الصقالبة. إنهم أصبحوا الآن تماماً في دار الحرب. وطبقاً لما يتخيله "كريكتون" فمن المحتمل أن يكون ظهور الروس هنا، باعتبارهم مستوطنين بشكل مؤقّت لأغراض التجارة وغيرها، قد أدّى الى إجبار ابن فضلان الالتحاق بالمجموعة الروسية القتالية المتوجهة شمالاً. وهذايتعارض وما يتخيله "كريكتون" نفسه من إشارات على لسان ابن فضلان من أنه لم يُكمل مهمته في بلاد الصقالبة، فضلاً عن أنهم، حينما يتوجهون شمالاً، يمرون بـــ "بلغار" عاصمة الصقالبة، إذ يحاول ابن فضلان الترول عبثاً، متذرعاً بإكمال مهمته. وذلك كله متصل بسوء ترتيب النص، وتقطّع أجزائه، الأمر الذي يُظهر فيه تناقضات لا تخفى.

7. البلاد الروسية: ضلالة وغموض.

ظل الشمال القصي، وهو المنطقة الواقعة وراء بلاد الصقالبة، مكاناً غامضاً ومجهولاً بالنسبة للجغرافيين والرحالة القدامى، فآخر ما يمكن الاطمئنان إليه نسبياً من حديث هو ما يتعلق بالصقالبة.وكما يقول أبو الفداء فإنه إلى الشمال من ذلك "مفاوز لا عمارة فيها إلى البحر المحيط، ولا يسكن لشدة البرد الذي فيها"[31]. وخلف البلاد الروسية إلى آخر الشمال يتوهم أولئك الجغرافيون والرحالة وجود بلاد يأجوج ومأجوج[32]. في روسيا- طبقا لنص كريكتون المتخيل- يظهر عنف الطبيعة بجلاء، من ثلج واختلاف في أطوال الليل والنهار. ومن الصعب تصور أن أحداً زار هذه البلاد قبل ابن فضلان إنْ صح وصوله إليها. فابن بطوطة، الرحالة البارع والصبور عجز عن ذلك "لعظم المؤونة" و"قلة الجدوى" ولأن "السفر إليها لا يكون إلاّ في عجلات صغار تجرها كلاب كبار" واكتفى - وهو ما ذكرناه من قبل - بأن اصطلح عليها "بلاد الظلام"[33].وكما يقرر ابن سعيد المغربي، فإن مدن تلك البلاد "خاملة الأسماء" وهي في إقليم "ليس فيه بلد مذكور ولا معلم مشهود"[34]. ويلاحظ الجغرافيون، إلى جانب غرابة الطبيعة غرابة التقاليد الاجتماعية، وفي مقدمة ذلك الحرق. فالروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا مع الجواري بطيبة من أنفسهن[35]. وسيُشغل ابن فضلان بملاحظة هذه العادة، ويحضر طقوسها، وهو أمر سيكون مثار اهتمام الرحالة إلى الشرق، وبخاصة إلى الهند والصين: سليمان التاجر، البيروني، ابن بطوطة. لم يكن في حسبان ابن فضلان أنه سيصل إلى دار الكفر الحقيقية، كل توقّعاته وقفت دون تلك الدار، الهاجس الذي يطوف في مخيّلته اقتصر على اصلاح أخطاء دار العهد، ثم العودة إلى دار الإسلام. وحتى مهمته هذه لم يُكتب لها أي نجاح يُذكر، فالقوم غارقون في عاداتهم "ما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك"[36]. وينبغي التذكير بأنه انطلق في بعثة الخليفة كمصلح ديني، لكنه قوّى دوره، واستحوذ على أدوار الآخرين، وكلما مضى في مساره يجري تضخيم له، إلى درجة تضاءلت معها أدوار الآخرين، وهذا جعله يظهر منافحاً عنيداً عن الحقيقة الإلهية. إنه مُشبَع بأوامر الشريعة، وفي ضوئها يتحدّد مجال فعله ودوره، ولا يسمح لأحد العبث بهذا المجال الرمزي الحساس، وكل ما يراه زوغاناً يسعى لتصحيحه، ولكنه لا ينجح دائماً في ذلك، إلاّ إذا اتصل الأمر بأفراد مخصوصين.

لم يفلح ابن فضلان على الاطلاق في تغيير القناعات الجماعية مهما كان خطؤها جسيماً من وجهة نظره الدينية. من الصحيح القول إنه انخرط كفاعل ديني في مجتمع يتصف بالهشاشة الدينية، لكنه، كلما دفعته مهمته إلى مواجهة ذلك المجتمع كان ينتهي إلى الفشل والتراجع. وكان أكثر ما يثيره ملاحظته أن التقاليد الاجتماعية لا توافق سُنن الشريعة، ولكنها على أية حال تقاليد راسخة، ليس باستطاعته تغييرها. الاعتراف بالعجز عن التغيير له معنى واحد لا غير، هو: إن مهمته لا معنى لها، وقد كفّت عن أن تكون ذات قيمة. إلى ذلك فإن مهمة البعثة كلها قد فشلت، فصار هو المرشد الروحي لها بين شك ملك الصقالبة وغضب الخليفة المقتدر، وهذا سيفتح الاحتمال على إحساس عميق بالإخفاق على المستوى العقائدي والسياسي. لقد نُظر إليهم، هو المصلح الديني وفريقه، باعتبارهم مجموعة لا يوثق بها، خانت الأمانة. يقول له ملك الصقالبة إثر مساجلة لإيقاعهم وكشف

أخطائهم "والله إني لَبِمَكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك اني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم (= يقصد البعثة) تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كل وقت، ختنموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلى قوم ضعفى، وختنتم المسلمين، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه". يعقّب ابن فضلان على ذلك "فألجَمَنا، وما أحرنا جواباً، وانصرفنا من عنده"[(37)].

النتيجة المحتملة التي تترتّب على هذا الفشل المزدوج هي استحالة البقاء في بلاد الصقالبة بعد مناظرة الملك، وصعوبة العودة إلى بغداد حاملاً معه فشلاً ينطوي على التباس عميق بمصداقيته في بلاط يمور بالتنافس وصراع القوى، ويُحتمل أنه أسلم أمره لقدر غامض، فبدل إصلاح الأمر، حاول تخطي الفشل بالهرب منه إلى الأمام، أي إلى الشمال، إلى دار الكفر، إلى بلاد الروس، لأن دوره، وعلى كل المستويات، سيكفّ عن أن يكون ذا قيمة بعد مناظرة ملك الصقالبة.سيطعن في الصميم. حتى الممارسات الدينية الخاطئة التي يراها كأنصال جارحة في بدن الإسلام، لم تعد تُؤلمه كثيراً. نبرته الانتقادية تخفّفت من ثقلها الدوغمائي، ولا ينبغي إهمال العنصر الأكثر أهمية: التواطؤ مع الآخر وتقبّل الاختلاف. فالأغيار كثر، لكنهم ضالون. تغلب الكثرة الحق. وما إن يطأ أرض الروس حتى يجد نفسه كائناً أكثر شفافية، وأقل تعلقاً بالدوغمائية الإصلاحية. ففي حفل ماجن حيث الجنس والخمر والدم، يُدفع – دون أن يُبدي مقاومة مقنعة في كتاب كريكتون – لممارسة خرق غير متوقع للسياج العقائدي الذي يحتمي به ؛ يتغنّى بآيات من القرآن في مكان غاص بالسكارى حتى فقدان الوعي. المترجم الذي نهض بترجمة الآيات إلى الروسية كان يترنح سكراً. وبعد أن انتهى ابن فضلان، وقد قوبل بعدم استحسان من المحتفلين المخمورين، انتبه إلى أنه وظّف كلمات الله في غير سياقها "سألت الله غفرانه على هذه المعاملة لكلماته المقدسة، وعلى الترجمة التي أحسست أنها خالية من المعنى، لأن الترجمان في الحقيقة كان سكراناً "[(38)]. وخزة الضمير لم تكن مؤلمة بدرجة كافية، فابن فضلان يتأسّف فقط على فعلته، ويرى أن المترجم المخمور لم يوفّق في نقل المعنى الحقيقي لكلام الله.

وكما هو ظاهر فإنه بدل أن يمتنع عن ذلك، أو يقدم تعليلاً مقنعاً، يفتح باباً معروفاً يخص قراءة القرآن وكتابته بغير العربية. وهو موضوع كان مثار خلاف، قبل أن يُغلق باب الاجتهاد فيه خلال القرون المتأخرة، فقد قيل عن أبي حنيفة: تجوز قراءته بالفارسية مطلقاً. وعن أبي يوسف: إنْ لم يحسن العربية. لكن الزركشي يؤكد أنه صحّ عن أبي حنيفة الرجوع عن ذلك. وقد استقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلّق بها الإعجاز لنقص الترجمة عنه، ولنقص غيره من الألسنة عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة. ويضيف الزركشي: رأيت في كلام بعض الأئمّة المتأخرين أن المنع من الترجمة مخصوص بالتلاوة، فأما ترجمته للعمل به فإن ذلك جائز للضرورة. ويحشد الزركشي الأدلة النصية: إذ تحرم قراءة القرآن بغير لسان العرب، لأن الله قال "بلسان عربي مبين" ولا تجوز قراءته بالعجمية سواء أحسن العربية أم لا، في الصلاة وخارجها، ولقوله تعالى "إنّا أنزلناه قرآناً عربياً"[(39)]. لم يلتفت ابن فضلان بما فيه الكفاية إلى السياق الذي تُليت فيه الآيات

الكريمة، والبرود الذي قوبل به ينبغي أن يكون متوقعاً، فكل كلام - ناهيك عن كلام الله - يُساء تلقّيه إذا أُقحم في سياق لا يوافقه، ولا يستجيب لأغراضه الأساسية. وقد يصعب تفسير هذا الموقف الخاص مهما كانت الأسباب، فهل ثمة رغبة دفينة، يريد ابن فضلان بها الرد الضمني على المجون والإباحية بكلام إلهي؟ ومهما كان الأمر، فينبغي مراقبة النتيجة: لقد أقحم ابن فضلان القرآن في مجال تتعالى فيه شهقات المتعة، فقطع بذلك جزءاً كبيراً من الصلة مع الماضي الثقيل. حينما يكون الحاضر ممتعاً ومسليًّا تنحبس كلمات الله في تاريخها الخاص، وتفقد نفوذها الدائم. وهكذا كلما مضى ابن فضلان إلى الشمال بهتت النواة العقائدية في داخله، وتحللت، واضمحلت، وتوارت. في النهاية ستذوب كجمرة في حقل جليد.

ينطبق على ابن فضلان ما قاله "جون ميسفيلد" في تقديمه لرحلات ماركو بولو "فقدنا كل عجب حين ضاع إيماننا"[40]. ففي الوقت الذي يحتدّ فيه بصره، فيرى كل شيء في دار الحرب، يصاب بنوع من عمى البصيرة، إذ يفقد قدرته التحليلية، فيتزلق إما إلى جهل تام أو إلى خطأ في التفسير. وفي كل خطوة يحتاج إلى مفسر. تكرار ذلك والإلحاح عليه، يدفع المترجم إلى نَهره والسخرية منه، لأنه ملّ أسئلة ابن فضلان "أنتم العرب ترغبون معرفة أسباب كل شيء. إن قلوبكم عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب"[41].لا تسعفه تجاربه السابقة بالمقارنة، فيقع غالباً ضحية فهم قاصر. كل الأشياء بالنسبة له غامضة، غير معللة، لقد أُلقي في عالم مظلم، فكشف جهلَه، ونقصَ حيلته، وعجزَه. حتى المدن، والأنهار، والغابات، تمر بلا أسماء، فلا نعرف نحن بأية مدينة مرّ، وفي أي غابة أقام، وأي نهر عبر. أسماء لا دلالة لها لأن عين ابن فضلان تراها لأول مرة. والعادات والقيم والطقوس لا تُفهم، لأن مرجعيتها غائبة، وظائفها غير واضحة. مكونات دار الحرب بلا أسماء ولا تواريخ ولا دلالة، تمر عليها العين، أما الذاكرة فلا تختزّن شيئاً. وكلما مضى شمالاً، غالبه النسيان المشفوع بسوء التفسير، والوقوع في الخطأ الذي يفتّت مكوناته العقائدية تدرجياً: يعاشق جارية، يتذوق خمرة. بعبارة أخرى يمارس الكبائر التي خرج من بغداد لمحوها. يخرب الشمال الكافر، فجأة مخططاتَ ابن فضلان، يفارق مجموعته على ضفاف نهر الفولغا (= أتل) ويجبر على الالتحاق .بمجموعة مختلفة تماماً، مجموعته تنظّم أفكارها وعقائدها في أفق مألوف بالنسبة له، إنها بعثة سياسية ودينية، أما البعثة الأخرى المتألفة من اثني عشر مقاتلاً، فإنها غريبة عليه، يجد نفسه حالاً في وسط مختلف تماماً. إمام بعثة المقتدر يُلحق كجزء مكمِّل لمقاتلين بواسل. وكما أشرنا من قبل فصاحب الفضل يصبح فضلة. وكان "عاجزاً عن الحديث بلغتهم، أو فهم عاداتهم" فيصاب بالاكتئاب، ويعتبر حاله حال "الشخص الميت"الأمر الذي لم يفهمه إلاّ فيما بعد وهو أن البعثة يجب أن تتألف من ثلاثة عشر شخصاً، وأن واحداً منهم يجب ألاّ يكون شمالياً". القرار الحاسم بالضمّ الإجباري إلى البعثة الذاهبة لإنقاذ مملكة "روثغار" يلجم ابن فضلان. يشعر أن أعذاره لاتُفهم بل يجري تجاهل تام لها. يُدفع في مهمة لا دور له فيها غير سدّ نقص تقتضيه تقاليد الحرب في بلاد الشمال. اعتباراً من لحظة السفر تُقصى العربية وتُستبعد، وتغيب العقيدة الإسلامية. تصبحان جزءاً من الماضي. يفقد ابن فضلان لسانه الأول: لسان الله. يجعل كريكتون اللاتينية الوسيط بينه وبين الآخرين إلى نهاية.

8. الوثنية الإسكندنافية: صخرة القطب.

يتزلق النص في هذه المرحلة إلى منطقة التخيل السردي القصوى، ففي طريقهم إلى البلاد الإسكندنافية، حيث المملكة المهددة، يخترقون البلاد الروسية، وأمام الاختلاف في كل شيء، يستسلم ابن فضلان لعجز واضح. المفاجأة تشلّ قوته فيتحول إلى ملاحظ تتوقف الأشياء عند آفاق بصره، ولا تنفذ إلى عقله. فالزمن يتغير، والليل من القصر بحيث لا يمكن خلاله طهي وجبة طعام. ما إن يغفو حتى يوقظ لمواصلة رحلة لا يعرف هدفها ومصيرها. الأضواء الملونة المتخاطفة في السماء تثير عجبه. يظن أنه سيغرق لأن الهواء مترع بالماء تماماً. يأكل لحماً نيّئاً دون ذبح حلال، فيتمتم في سره "بسم الله". سيتكرر تناول اللحم النيّئ، لكن التمتمة السرية ستختفي. الطبيعة وعنف المقاتلين وغموض الهدف والجهل ستدفعه إلى الاندماج. يتشكّى مرة من برودة المطر، فيسخر منه "هرجر" قائلاً "أنت بارد وكئيب، أما المطر فليس بارداً ولا تعيساً". يتقاطع ظنان: ابن فضلان يظن أن هرجر أحمق، فيما يظن الأخير بأن الأول هو الأحمق. لا ترجيح في حمق ثقافي؛ فالتفسيرات تظل متضاربة. لسانه العربي وكتابته يصبحان موضع شبهة.

رأينا من قبل كيف أنه شبّه كلام الترك بصياح الزرازير ونقيق الضفادع، سينقلب الأمر هنا، يخبره القائد "بوليويف" بأن "أهل الشمال يسمّون كلام العرب ضجيجاً"، ويطلب إليه أن يُحدث صوتاً عربياً، وأن يكتبه على الأرض بأحد الأغصان، فيكتب "الحمد لله" ويتلفظ العبارة، كاختبار. ولمّا يُسأل "أي رب تحمد؟". يجيب انه الله الواحد. فيكون ذلك مثار تعجّب "لا يمكن أن يكفي رب واحد"[42]. معرفته الكتابة ستجعله مثار شك، فكتابة اسم ما، تعني القدرة على القضاء على صاحبه. يضعه هذا الموقف الصعب في حال لا يريدها، فهو لا يقصد الشر بأحد، ويتعهد ألاّ يكتب اسم أي منهم مستقبلاً. تصبح الكتابة وسيلة تهديد مضمرة: يُرعى من القائد، يُعطى طعاماً أكثر، يُسمح له في أثناء الارتحال بالنوم تحت شجرة ضخمة وقت الاستراحات الخاطفة، تجنباً لمزيد من البلل. لونه الأسمر وشعره الفاحم سيظلان دائماً عنصري تمييز، ويحولان دون الاندماج النهائي. الآخر لا يتقبّل عِرقاً مختلفاً بلونه. هو الأسمر يظهر نشازاً بين الشماليّين شاحبي الوجوه كالكتان، ذوي الشعور الشقر. كلما مرّ بقرية، يتقرّب إليه الأهالي، ويحاولون لمس جلده، بعضهم يحاول مسح اللون المُميّز عن جسده معتقداً بأنه طلاء، ويكون تعليقه على ذلك "هنالك في الحقيقة أناس جهلاء، لا يعرفون شيئاً عن اتساع العالم. وكثيراً ما كانوا يخافونني فلا يقتربون مني. وفي مكان لا أعرف اسمه صرخ طفل من الرعب حين رآني، وركض ليتشبّث بأمه"[43].

وهذا أمر يلاحظه كل غريب، حينما ينفصل عن الفضاء الثقافي والعرقي والديني الذي يعيش فيه. وبهذا الصدد يقول أبو الريحان البيروني: إن الهنود"يباينوننا في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوّفوا ولدانهم بنا وبزيّنا وهيأتنا وينسبوننا إلى الشّيطنة". ويطابق ابن فضلان في تعليله، ويعزو ذلك إلى الجهل "إنهم لا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم، وفي الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علماً حتى إنهم إن حُدِّثوا بعِلم أو عَالِم في خراسان وفارس استجهلوا المُخبر، ولم يصدِّقوه للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن

غيِّهم"[44].لن يفلح أول الأمر في إجادة لغة "الوثنيّين". ثم ينتهي به الأمر أخيراً إلى محاولة بطيئة لجمع الألفاظ ونطقها، ويجيدها حينما ينتهي دوره الذي جاء من أجله، ورسالته التي أوصلته إلى هذا المكان. الضباب الذي يخيف الجميع سيكون أحد الأسرار الغامضة عليه، وعلى تخوم الدنمارك، وبعد رحلة طويلة ومضنية، سيعرف سر الرقم الثالث عشر، الرقم الذي حسبه رقما مكملا "علمتُ أن عدد الثلاثة عشر عدد مهم بالنسبة للشماليّين، لأن القمر بتقديرهم ينمو ويضمحل ثلاث عشرة مرة خلال عام واحد، ولهذا السبب يجب أن تتضمن كل الحسابات الهامة عدد الثلاثة عشر". إنه مقطع سحري أو أجنبي، وكل سلسلة من الأشياء المألوفة ينبغي أن تنتهي بشيء غريب ليس من جنسها، وحين يعرف ذلك يعلّق:إنهم قوم مؤمنون بالخرافات، ولا يلجؤون إلى حسن الفهم والعقل. في أرض "الفايكنغ" يفطن ابن فضلان الذي أصبح مخلوقا سرديا في نص كريكتون إلى أنه انقطع عن الصلاة منذ مدة طويلة. يعيده التذكر المؤقت إلى عالم الله المشبع بالتذكر والطاعة، لكنه لن يعود إلى الصلاة. وهنا، حيث يشارفون على الوصول إلى المملكة المنكوبة بغزوات "الوندول" يتضح تماماً قصوره وعجزه عن تفسير المظاهر الطقوسية والطبيعية للشماليّين، فلا يفهم شيئاً عن: الحيتان، الضباب المخيف، رمي الدجاج المذبوح في البحر، رأس الثور المقطوع والمعلّق على عصا، آثار الأقدام الغريبة، نحت المرأة الحامل بلا رأس ولا أطراف. ويصاب بالغثيان والدوار وفقدان الوعي لدى رؤيته الأجساد المقطّعة في بيت المزرعة الملحق بقصر "روثغار". ليس ثمة أحد يفسر له هذه الأشياء.

وكما وقع في خطأ التغني بالقرآن من قبل، فإنه يغني في قصر الملك، وسط طقوس مماثلة للحالة الأولى، وبدل أن يقترف الخطأ نفسه يروي حكاية عن أحذية أبي القاسم، لكن النتيجة تكون نفسها. يتعلق الأمر بسوء تقدير السياق العام، فكل المحتفلين بقدوم المجموعة المقاتلة يوجمون ويعبسون، ويعم صمت رهيب، فالحكاية تؤدي مفعولاً عكسياً. إنها قد تكون مسلية وطريفة في دار الإسلام، لكنها لن تكون كذلك في دار الحرب. ابن فضلان لم يعتبر بكل التجارب، فمرة ثالثة سيروي حكاية الخطيب وسيقابل، كما هو متوقع، بالصمت والوجوم. سيظل يقترف أخطاء ثقافية متتالية. أخيراً سيتوصل إلى إدراك أن الخوف الذي يلاحقه متصل بالجهل "تالله لا يوجد خوف أعظم من خوف الإنسان الذي لا يعرف السبب". سيحاول أن يتخطّى ذلك بمواجهة الوندول مباشرة، وفعلاً ستكون النتيجة إيجابية، يظهر بعد المعركة، ساحراً ومختالاً، لكنه يُتَّهم بأنه عربي وأبله، وأنه لا يفهم عادات الحرب عند "الوندول" ولكنه لا يُستثار من الإهانة، بل يتوجّه حالاً لإشباع رغبته من جارية. وهذه أول رغبة يعلن عنها دونما تأنيب، يأخذها على طريقة أهل الشمال، دون توجّس وتحوّط، ويظهر بتصرفه أنه تجاوز الانحباس في مفاهيمه الثقافية الأولى "اكتشفت أنه إذا كان كل من يحيطون بك يعتقدون بشيء خاص، فإنه سرعان ما يغريك أن تشارك في ذلك الاعتقاد، وهكذا كان الأمر معي"[45].

تثير الممارسات شبه الإباحية استغرابه، يعتقد أن الشماليات لسن عفيفات، لأن لهن علاقات خارج إطار الحياة الزوجية، لكنه لن يهتم بذلك فيما بعد. وسرعان ما يبدي اهتماماً بالنساء، هن بالمقابل سيُعجَبن به كونه عربياً، سينظرن إليه كحصان، يثيرهنّ ذكره الأجرد المختون. وسيغرق هو بالمقابل في استيهامات جنسية

طويلة، فيها مباهاة ونفاج. سيفتخر بما يثيره من شهوة في الشماليات"اكتشفت أنهن كن مذهولات بي شخصياً بفضل جراحتي (=ختانه) غير المعروفة عند الشماليين لكونهم من الوثنيين غير المطهّرين. ويبدون عند اللقاء صاخبات ونشيطات وبرائحة تزكم الأنف إلى حد أكرهني على إيقاف تنفسي لأمد؛ وكذلك أسلمن أنفسهن لعادة الدفع واللي والخمش والعض، مما يعرّض الرجل إلى السقوط من فرسه، حسبما يقول أهل الشمال، وقد وجدت هذا التعامل بكامله مصدر ألم أكثر منه مصدر متعة "[46]. عرف الحب، لكنه لم يفهم طقوسه عند الشماليات. وجد نفسه يتألم، لأنه لا يعرف غير وجه واحد من صور الحياة المتنوعة. ولن يمر وقت طويل حتى يتذوق ابن فضلان الكأس الأولى من خمر "الميد".

في البداية يتحجّج بمقاومة البرد، ولكنه سرعان ما يسرّ بذلك، وفي الليل سيعيد الكَرَّة، ولكنه سيحاول أن يعثر على حكم ديني بالتحليل، فاعتبار أن"الميد "نبيذ، ليس من العنب، يحل شربه، كما ترى بعض المذاهب.ولهذا يناوله "هرجر"جرعة من هذا النبيذ، فيشربها، ويقول"شربتها، وشكرت الله وحمدته على أنها غير محرّمة ولا حتى مكروهة. وفي الحقيقة، أصبح لساني يستسيغ نفس المادة التي كنت اعتبرها كريهة فيما مضى. وهكذا، لأن الأشياء التي كنا نعتبرها غريبة تصبح بالتكرار عادية"[47]. تلعب المشاركة والتجربة والمصير الواحد والمعايشة دوراً حاسماً في تبديل قناعات ابن فضلان، وعقيدته، وأفكاره. تخوّفاته من الجنس والخمر والقتال سيتكفل بها الزمن، وتذوب تماماً، وسوف تتبدل إلى ما يناقضها.بعد المواجهات الدامية مع"الوندول". سيحسم أمره، ويعلن قراره، فهو جزء من عالم الشمال، وقد سر بذلك "كما لو كنت شخصياً من الشمال، وهكذا استقرّت أفكاري في النهاية"[48]. بعد هذه المرحلة يدفع به كريكتون لتعلم "الكلام النرويجي. وفي الاحتفال الأخير، قبل المعركة الحاسمة، يؤكد "أمضيت زمناً طويلاً بصحبتهم، أحسست كأنني واحد منهم، بل بالفعل، شعرت في تلك الليلة كما لو كنت مولوداً بين أهل الشمال" سيعمل القائد "بوليوف" إلى تقديم النصيحة الأخيرة له، إنها نصيحة ثمينة تكشف غير ما يصرح به ابن فضلان مباشرة، فهي تفصح عن رأي الآخر "ابحث لنفسك عن الأمان، ولا تكن شجاعاً حد التهور، إنك ترتدي ما يرتديه رجل الشمال، وتتكلم كما يتكلم، لا كما يتكلم رجل أجنبي، حافظ على حياتك". يرفض ابن فضلان النصيحة، ويربت على كتف القائد للتعبير عن قراره بخوض المعركة الأخيرة، خلال وجوده في الشمال لا يُعرف إلا بوصفه عربياً. ولكنه يصبح عنصراً أساسياً في مجموعة المقاتلين.

9. الاندماج: تعديل نسق ثقافي، وسجال لاهوتي.

يؤدي الانتصار على "الوندول" والاحتفال الذي يعقب الظفر، ووفاة "بوليوف" إلى إنهاء مهمة المقاتلين الذين تقلّص عددهم إلى سبعة بسبب الحروب، وهنا تنبثق فكرة العودة إلى الوطن، لم يعد ثمة ما يقوم به، لكن الملك يريد منه البقاء لأنه أحد الأبطال الذين أسهموا بحماية المملكة. يحاول ابن فضلان العودة، يتردد الملك، وأخيراً تتم الموافقة. وفي غضون التفكير في العودة، يُشغل ابن فضلان في التفكير بالاختلاف. صحيح أنه دُمج

في النشاط الحياتي. بما في ذلك المشاركة بحرق جثة القائد والسفينة التي تحمله، لكن موضوع تعدد الآلهة وعبادتها يظل يثير فزعه العقائدي، لأنه يتهدّد معتقده الديني الأصلي، ورغم ذلك، فابن فضلان، على خلاف كثير من الرحالة المسلمين يستبدل بالتسفيه وإصدار الأحكام القاطعة التعايش والتسامح والمشاركة، وبذلك يتخطّى كل أحكامه الجاهزة التي وقفنا على جانب منها، حينما كان في دار العهد، فالدرس الثمين الذي تعلّمه هو:إن سعة العالم وتنوّع الأعراق واختلاف الثقافات والعقائد تقتضي مشاركة وليس تقاطعاً. فما دام قد اندرج في نسق مباين للنسق الثقافي الذي عاش فيه، فينبغي، لكي يكون فاعلاً، أن يُجري تكييفاً يمكنه من الاتصال بهذا النسق والاندماج فيه، بدل الانفصال عنه، فلا يمكن إصلاح العالم بعقيدة واحدة.

المقطع الطويل الآتي – وهو خاتمة الكتاب ويمثل الرؤية السردية لكريكتون – يكشف مرة أخرى أهمية الاختلاف وضرورته. إنه حوار بين ابن فضلان و"هرجر". ومن المعلوم أنه يتوج فكرة الاندماج، و لم يأت إلاّ إثر تجربة قاسية من القتال والمعايشة، وهو يؤكد أن الاختلاف، لا يمكن إذا تم في ظروف مناسبة، أن يكون تناقضاً، بل إنه ثمرة لتلاقي الرؤى والمنظورات والأفكار والعقائد، ويفضح في الوقت نفسه أمر الاعتصام وراء عقائد نصيّة جامدة، تؤوّل بحيث تحول دون تواصل بني البشر وتفاعلهم"وقفنا يوماً فوق المنحدرات ننظر إلى السفينة على الشاطئ حيث تم إعدادها وتجهيزها بالمؤن. قال لي هرجر"سوف تباشر رحلة طويلة. سنصلّي من أجل سلامتك". سألته لمن سيصلّي، فأجاب "إلى أويدين، وفري، وثور، وإيرد، وعلى عدة آلهة آخرين ممّن يمكن أن يكون لهم تأثير على سلامة رحلتك". وكانت تلك أسماء آلهة أهل الشمال. أجبته "إنني أؤمن بإله واحد هو رب العالمين، الرحمن الرحيم"فقال هرجر"إنني أفهم هذا. ربما يكون إله واحد كافياً في بلادك. أما هنا، فليس كذلك، توجد آلهة كثيرة، ولكل منها أهميته، ولهذا، فإننا نصلي لهم جميعاً لمصلحتك ". شكرتُه على صلواته، لأن صلوات غير المؤمن هي صلوات صالحة بقدر ما هي مخلصة، وإنني لا اشك في إخلاص هرجر.

لقد كان هرجر يعرف منذ زمن طويل أن عقيدتي تختلف عن عقيدته، ولكنه، مع اقتراب رحيلي، كان يسأل مرة تلو المرة عن معتقداتي، ظناً منه أنه يمكن أن يلتقطني على هفوة تخرج في غيبة من الرقابة الذهنية، فيقف بذلك على الحقيقة. كنت اشعر بأن أسئلته الكثيرة كانت نوعاً من الامتحان، كما فعل بوليويف مرة عندما امتحن معرفتي بالكتابة. ولكنني أجبته بنفس الطريقة والمضمون، مما كان يزيد في ارتباكه. في يوم من الأيام، ودون أن يتظاهر بأنه سأل نفس السؤال في مرة سابقة، قال لي هرجر "ماهي طبيعة ربك الله؟". قلت له "إن الله هو الإله الواحد الذي يحكم الكون، ويرى كل الأشياء ويتصرف بها". ولقد سبق أن قلت له هذه الكلمات. وبعد مضي بعض الوقت، قال لي هرجر "ألا تُغضب الله هذا أبداً؟". قلت له "إنني أفعل، ولكنه غفور رحيم". قال هرجر "هل هو غفور عندما يشاء ووفقاً لما يشاء؟". قلت إن الأمر كذلك حقاً. وبعد أن فكر في جوابي، هزّ رأسه قائلاً "إنها مجازفة أعظم مما يمكن احتماله، لا يمكن للمرء أن يضع ثقته كلها في شيء واحد، سواء أكان امرأة، أو حصاناً أو سلاحاً أو أي شيء فريد". قلت"ومع ذلك، فإنني أفعل". أجاب هرجر

"الرأي رأيك. ولكن هناك أكثر من الكثير مما لا يعرفه الإنسان، وما لا يعرفه يدخل في دائرة اختصاص الآلهة". وجدت أنه بهذه الطريقة، لا يمكن إقناعه بمعتقداتي كما لا يمكن أن أقتنع بمعتقداته، فافترقنا "[49].

تعيد هذه المحاورة، روح السجال الديني في القرون الوسطى، حول صفات الله، وصحة المعتقد، لكنها تتم في جو من الحوار والتواصل، وتترفع عن التكفير، ومع أنها تكشف ثبات العقائد وتباينها، لكنها لا تجعل منها عقائد متقاطعة، ولا تتورط في المفاضلة قصد الاختزال والإقصاء، بل على العكس، إنها تعرض انساقاً من العقائد المُدعمة بثقافات مختلفة، لا تسعى أي منها إلى إبطال الآخرى وإلغائها، فابن فضلان وهرجر المختلفان عقائدياً التقيا في نقطة مشتركة، وعاشا تجربة واحدة، جعلت المعتقد مجرد ركيزة لهوية قابلة للتحول والاستمرار وتجاوز الخطوط الوهمية المصطنعة بين العقائد، بهدف الوصول إلى القاسم المشترك الذي يجمع بينهما ولا يفرّق. الآخر هو المرآة الصقيلة التي مع الزمن تكشف بجلاء عن الذات. من الصعب اكتشاف الذات على حقيقتها قبل الانخراط في تفاعل خصب مع الآخر، فالاعتصام بالذات يحول دون كشفها، وهو يماثل خطورة التماهي الأعمى بالآخر ونسيان الذات. فالتواصل يضفي خصوصية وتمايزاً على الذات والآخر، بما يجعل الذات والآخر على حد سواء حالة تاريخية متحولة بشكل دائم.

10. تاريخ مفتوح: مماثلات في الأدوار الثقافية.

تبدو المماثلة واضحة بين ابن فضلان والطهطاوي، والقرون العشرة الفاصلة بينهما لا تكاد تمارس فعلاً حقيقياً في مجال التباين، وكأن الزمن كفّ عن فعله الطبيعي. يُرسل ابن فضلان مرافقاً دينياً لبعثة المقتدر إلى ملك البلغار، باعتباره "فقيهاً وحجة في شؤون الدين"[50] في نهاية الربع الأول من القرن العاشر الميلادي، ويُرسل الطهطاوي مرافقاً لبعثة محمد علي إلى فرنسا في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، كلاهما في الواقع ذو دور ملتبس، ولن يوليا اهتماماً كافياً بما كُلِّفا به، وكأنهما يبحثان عن أدوار خاصة بهما. في الحالتين سيغيب الأبطال الحقيقيون، وسيتفاقم شيئاً فشيئاً دور المرافقين. سيطوي التاريخ المبعوثين الأصليّين، وسيظهر إلى العلن المرافقون فقط. لا نكاد نعرف أو نتذكر شيئاً ذا بال خاصاً بمبعوثي المقتدر ومحمد علي، وحدهما ابن فضلان والطهطاوي سوف يستأثران بالاهتمام، ذلك انهما يخرقان التعاقد الضمني الذي من أجله بعثا كموجَّهين دينيّين، ووسّعا من طبيعة دوريهما، وعاد كل منهما إلى بلاده، ومعه أول تقرير واف عن "الآخر". تقرير تحليلي، استكشافي، حفرّي، يحمل في طيّاته تركيب أول صورة مباشرة وحيّة وقائمة على الخبرة والمعايشة عن الآخر. فكما أن "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" يعتبر أول كتاب حديث في الثقافة العربية يعرض لطبيعة التجربة الغربية ممثلة بفرنسا، في مجال الحقوق والواجبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها. فكذلك تعتبر رحلة ابن فضلان أول ملامسة لعالم الشمال بما فيه من أتراك وصقالبة وبلغار وخزر واسكندنافيين، بالنسبة للعرب في المرحلة الأولى من تكوين دولتهم وحضارتهم. وكلا المصدرين عُدّا مرجعين رائدين في مجالهما، لا يمكن تجاوزهما بأي شكل من الأشكال، وعليهما تشكّلت، وفي عصرين

مختلفين، الصور الأولى للآخر، ونوع الأنساق الثقافية والاجتماعية والعقائدية السائدة. إلى ذلك، فإن كلا من ابن فضلان والطهطاوي يغادر فضاءه الثقافي، لكي يكون مؤثّراً، فإذا به يعود متأثّراً.

إن استيعابهما لتجربة الآخر جعلهما يتأثران به. تذوب المقاومة الداخلية الجاهزة، ويحلّ بدلها نوع من التفهّم ثم الحوار، فالتفاعل، وينتهي الأمر بالتأثر. في البدء يحتاطان لكل شيء، وتبدو النبرة النقدية الغاضبة واضحة، لكن المناقشة تمتص الغلواء العقائدي، فيعودان بغير ما ذهبا به. كلاهما كان يخترق عالماً بكراً، يصيبه بالإعجاب والذهول. وكلاهما ينتهي إلى تثبيت صورة مختلفة للآخر. يواجه ابن فضلان عالماً وثنياً مشبعاً بالضلال، ويندب نفسه لتغيير كل شيء، في النهاية يقتنع بأن مهمته مستحيلة. هو من سيتغيّر، وهو أمر له ما يماثله في التجربة الفكرية الكلية للطهطاوي الذي يستخلص من الآخر الحكمة الآتية: "مخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب"[51]. ولا يُلغي التماثل بعض التمايز بين الاثنين، فابن فضلان متعجِّل، غاصّ بالروح العقائدية الإصلاحية للنسق الثقافي الشائع في القرون الوسطى، يتحرك وسط سياج عقائدي صارم يقوم على منظومة متكاملة وجاهزة من المسلّمات، يريد، بشكل من الأشكال، توسيع دائرة الإسلام، وتضييق دار الكفر. ولكنه ما إن يفقد إرادته، حتى يفقد معها منظومته العقائدية التي تتناثر في عالم وثني شديد الاختلاف عن عالمه. أما الطهطاوي الذي تطوف في ذهنه الفكرة ذاتها، فهو أقل طموحاً إلى تغيير الآخر، إنه، في واقع الحال، لا يختلف عن سلفه بنوع المنظومة العقائدية، ولكن يختلف بدرجتها، على أن تطلّعه أقل، وتفهّمه أكثر، وحواره أعمق. لقد سعى إلى "تخليص" ذهب التجربة الغربية الحديثة بصعوبة بالغة. وأهمل الشوائب، ووضع بين أيدينا وجهة نظر عملية. لكن ابن فضلان شُدَّ إلى سحر القطب الشمالي وغموضه، فلا نعرف نحن المعاصرين كيف عاد إلى بغداد، وكيف قوبل تقريره. وليس لأحد الادّعاء الآن بأنه على معرفة بكامل تقرير ابن فضلان. آخر الشهود الموثوقين هو ياقوت الحموي من القرن الثالث عشر الميلادي الذي قرأه بنفسه، وأقرّ بشهرته وشـــيوعه بين الناس واقتطف منه أجزاء وافية في معجم البلدان[52]. ومنذ ذلك التاريخ اختفت النسخة الأم، وتمزّق الأصل، بتمزق دار الإسلام. كل المحاولات التي بُذلت في هذا المجال، انما هي محاولات لترميم تقرير ابن فضلان، وترميم العالم الذي انبثق فيه. كان ابن فضلان شاهدا ذا حساسية خاصة على تباين الطبائع والأحوال في بلاد الشمال، والعوالم التي ترحّل بينها عُرضت في رحلته بنوع من التدرّج الذي يبدأ بالألفة، وينهي بالعجب، وهذا التدرّج يترافق بأحكام تتصاعد تبعا لتصاعد مساره من دار الإسلام إلى دار العهد إلى دار الحرب.

الهوامش

1. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه(ليدن) ص9
2. ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، جمع وترجمة وتقديم حيدر محمد غيبة(بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1994) 34
3. شهاب الدين أبي عبد الله بن ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان(بيروت، دار صادر، 1995)1: 88

4. راشد بن إسحاق الكاتب، ديوان أبي حكيمة، تحقيق محمد حسين الأعرجي،(ألمانيا، كولونيا، دار الجمل، 1997) ص 25-26

5. معجم البلدان 1: 88

6. م. ن. 1: 484

7. ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد(طهران، 1971) ص 363

8. عبد الفتاح كيليطو، لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي(الدار البيضاء، دار توبقال، 1995) ص 79

9. رسالة ابن فضلان ص 23

10. ينبغي الإشارة بكثير من التقدير إلى جهود كل من: كريكتون، فراوس دولوس، سامي الدهان، وحيدر محمد غيبة الذي عرض تفصيلاً لهذه الجهود، انظر الرسالة: ص 7 – 30

11. برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوربا – ترجمة ماهر عبد القادر. ص 71-73

12. م. ن. ص 74، وأنظر: برنارد لويس، السياسة والحرب، ضمن كتاب "تراث الإسلام" تحرير شاخت وبوزوث، ترجمة محمد السمهوري (الكويت، عالم المعرفة، 1978)1: 257

13. اكتشاف المسلمين لأوربا ص 85

14. رسالة ابن فضلان ص 73

15. أبو الإسحاق الاصطخري، مسالك الممالك(ليدن، بريل، 1927) ص 9

16. ريجيس بلاشير، أبو الطيب المتنبي، ترجمة إبراهيم الكيلاني (دمشق، دار الفكر، 1985) ص 345

17. دائرة المعرف الإسلامية (القاهرة، دار الشعب) 1: 364

18. محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ترجمة هاشم صالح (لندن، دار الساقي ، 1997) ص 155

19.موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي (المغرب، دار الآفاق الجديدة، 1990)ص47

20. رسالة ابن فضلان ص 41

21. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار) شرح طلال حرب (بيروت، دار الكتب العلمية، 1992) ص 375

22. رسالة ابن فضلان ص 43

23. رحلة ابن بطوطة ص 367

24. رسالة ابن فضلان ص 45

25. م. ن. ص 47

26. م. ن. ص 48

27. م. ن. ص 56

28. م. ن. ص 56

29. المسالك والممالك ص 217 - 227

30. رسالة ابن فضلان ص 59

31. أبو الفداء، تقويم البلدان (باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840) ص 2

32. بخصوص مكان يأجوج ومأجوج، انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك ص 192-198 وابن حوقل، صورة الأرض 2: 537، والاصطخري، مسالك الممالك ص 9، ورحلات ماركو بولو 1: 15، وابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا ص 208، ورسالة ابن فضلان ص 70، وياقوت الحموي، معجم البلدان1: 87 – 88، ورحلة ابن بطوطة 635 – 336. وغير ذلك من مصادر الجغرافيا القديمة

33. رحلة ابن بطوطة ص 350

34. أبو الحسن بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي(بيروت، المكتب التجاري، 1970) ص 206 – 207

35. الاصطخري، المسالك والممالك ص 226، وللتفصيل انظر:المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد(بيروت، 66 ورحلات ماركو وبولو 1: 118 - 120

36. رسالة ابن فضلان ص 69

37. م. ن. ص 63

38. م. ن. ص 78 - 79

39. بدر الدين بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم (القاهرة، مكتبة دار التراث) 1:464 - 466

40. ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1995) ص 22.

41. رسالة ابن فضلان ص 103

42. م. ن. ص 101

43. م. ن. ص 104

44. البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحقيق إدوارد سخاو (ليبزك، 1925) ص 10، 11

45. رسالة ابن فضلان ص 148

46. رسالة ابن فضلان: ص 148، 151، 178، 167، 214 – 216

47. المرجع السابق

48. المرجع السابق

49. المرجع السابق

50. دائرة المعرف الإسلامية 1: 364

51. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات، 1973 – 1974)

52. معجم البلدان 1: 88

النصوص

رتبت نصوص (كتاب الشمال) لتقدم تصورا متكاملا عمّا يسمى حاليا (أوربا) فكانت البداية بالأوصاف الجغرافية التي تمثّل القاعدة الأساسية للمعلومات اللاحقة، ثم المعلومات التاريخية التي تضيء الخلفيات الخاصة بالشعوب، وصولا الى التفاصيل الدقيقة التي تكشفها الرحلات المباشرة، وهي رحلات تعرض معلومات مهمة من النواحي الاقتصادية والبشرية والجغرافية، كما يتجلى ذلك عند الطرطوشي، وابن فضلان، وابي دلف، وابن بطوطة، والغرناطي وغيرهم. ويتضح أن منطقة شرق أوربا وجنوبها، استأثرت باهتمام واضح لمجاورتها دار الإسلام، فالأجزاء الغربية من بلاد الترك، وبلادالخزر والصقالبة والروم، يتردد ذكرها في معظم المصنفات الجغرافية والتاريخية الخاصة بهذه الناطق، وبدرجة أقل يتردد ذكر الروس والباشغرد والجلالقة، ثم تتضاءل الأخبار كلما اتجهنا إلى أقصى الشمال كالجزر البريطانية، وايرلندة، والبلاد الإسكندنافية، حيث لايصل إلاّ صدى الأساطير أحيانا. على أن هذه الحقيقة لا تحجب، بأي شكل من الأشكال، أمرا على غاية من الأهمية، وهو أن تلك المصنفات تعتبر في كثير من تلك الأصقاع أول المدونات الموثوقة عن المظاهر الطبيعية والبشرية والثقافية والدينية فيها. ويحسن أن نبدأ بابن ابن سعيد المغربي في كتابه المعروف بـــ (الجغرافيا) الذي خُصص لأقاليم العالم المعمور، وفيما يأتي القسم الخاص ببلاد الشمال، الذي يبدأ بالإقليم الخامس، والسادس ثم السابع، وأخيرا المجال الجغرافي الواقع ماوراء الأقليم الأخير الذي اصطلح عليه بـــ (المعمور في شمالي الأقاليم السبعة). وتلاحظ غزارة المعلومات وتشعّبها، وقد تم الاستغناء عن مقايس الطول والعرض الجغرافية التي تستخدم الدرجة والدقيقة، لعدم جدواها في سياق نص يعنى بالأبعاد الأثنوغرافية لبلاد الشمال.

1. الأقاليم الشمالية وشعوبها، ابن سعيد المغربي (673هـــ = 1274م) من كتاب (الجغرافيا)

الإقليم الخامس (بياض أهله ممتزج بالحمرة، وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال، ولا سيما فيما يلي الإقليم السادس. **الجزء الأول منه:** أول ما يلقاك منه في البحر ثلاث جزائر من جزائر السعادات.. وجزيرة قادس، وهي صغيرة، وبينها وبين البر مجاز عرضه قليل. ومن ذلك المكان يأخذ البحر المحيط في الانحطاط إلى الغرب مع الشمال، فيكون مصب نهر اشبيلية وقرطبة قاعدة الأندلس في مدة بني أمية. وهي على غربي النهر الكبير الذي عليه اشبيلية. وهذا النهر إنما حسن جانباه عند اشبيلية، ويصعد المد فيه من البحر المحيط اثنين وسبعين ميلاً. وتصعد مراكب الفرنج إلى اشبيلية..وفي جنوبيها جبل شلير الذي لا يفارقه الثلج. وحكى ابن اليشع أنه نزل منه نيف على عشرين نهراً، منها نهر الذهب الذي يشق غرناطة ونهر مسيل الذي يمر مع سورها، وكلاهما عليه الأرجاء والبساتين. وهذه المدينة في عصرنا هي قاعدة ابن الأحمر (= دولة بني الأحمر) ملك من بقي من المسلمين في الأندلس. وطول مدينة جيان كطول غرناطة، ومدينة مرسية. وهي على شمالي

نهر مليح عليه النواعير والبساتين، وهو آخر نهر اشبيلية الذي منبعه من جبل شقورة، يخرج من عين واحدة فيشرق عن مرسيه وينصب في بحر الرمان، ويغرب نهر اشبيلية وينصب في البحر المحيط.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه، على بحر الرمان، مدينة دانية وفي شرقيها بلنسية المشهورة بالحسن، والتي تسمى بستان الأندلس. وهي على بحيرة ينصب فيها نهر على شمالي المدينة، وفي شرقيها مدينة طرطوشة شرقي النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ومصبه في بحر الرمان على نحو عشرين ميلاً من طرطوشة. وفي شرقيها في بحر الرمان جزيرة مايرقة (= مايوركا) المشهورة بالخصب. ومسافة الجزيرة ستون ميلاً، وهي آخذة من الشمال إلى الجنوب. وفي شرقيها جزيرة منرقة (= مابنوركا) .. ومسافتها أربعون ميلاً من الشمال إلى الجنوب، بانحراف إلى الشرق..وفي غربي مايرقة جزيرة يابسة، وهي آخذة من الغرب إلى الشرق، ومسافتها واحد وثلاثون ميلاً.. وفي شرقي منرقة جزيرة سردينيا. وفي غربيها يخرج المرجان، والضيق بجهة مرسى الخزر مائة ميل وقليل. وفي شماليها جزيرة قرسقة (= كورسيكا) المقابلة لجنوة، والمجاز الذي بينها وبين سردينيا نحو عشرة أميال. وفي شرقيها جزيرة صقلية المشهورة، ذات المدن والجبال والأنهار، وكانت قد صفت للمسلمين ثم صفت للفرنج.. وتقع مسينة التي تقابل بر الإفرنج عند المجاز. وبها البركان المشهور في جزيرة صغيرة في جهة مسينة.. وصقلية إلى الشرق.. وعند مسينة ميناء يقال إن الاسكندر قد صنعه نقراً في الحجر. وفي شمالي صقلية بلاد قلورية (= كلاباريا) في آخر الجزء الثاني من الإقليم الخامس. وتقع مدينة نابل المشهورة بذلك الساحل. وبالقرب منها سلرن التي يجلب منها البندق الكبير. وفي غربي نابل مدينة روما قاعدة البابا، وهي على جانبي نهر الطبر، وكان قد دعمت جوانبه لأنه ينهار، والمراكب تدخل إليه من البحر إلى ما بين الدكاكين، فيبتاع الناس ما يحتاجون إليه. وهو يأتي من جبل في شماليها، وهي كبيرة جداً، وفي وسطها حصن منيع في ربوة منقطعة. هكذا قال ابن فاطمة وهو المحقق. وقال الخوارزمي: هي داخلة في الإقليم السادس. وفي غربيها بيس المشهورة، من فرض الإفرنج المترددين إلى بلاد الإسلام، وبينها وبين البحر أميال يشقها نهر موصوف بالحسن. وفي غربيها مدينة جنوا المشهورة، وهي على غربي جون كبير. والبحر بينها وبين الأندلس، يدخل إلى الشمال فيضيق ما عليه من الإقليم السادس. وعلى جنوا جبل الانكبردية(=لومبارديا)وفيها يعمل الشرب ويصهر الذهب، ولها ميناء صنعه أهلها بالحجارة، وهو مستدير يرسي فيه الإنسان مركبه عند داره.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه في بحر الزقاق، بلاد بولية التي يجلب منها الإفرنج الزيت إلى الاسكندرية وغيرها. ومن هنالك البحر إلى جزيرة اقريطش (= كريت) المشهورة، التي فتحها المسلمون، أهل رياض قرطبة في مدة المأمون، وملكوها مدة. ثم استرجعها الخرايطة، فهي الآن في أيديهم، وطولها ثلاثمائة وخمسون ميلاً من الغرب إلى الشرق، ويجلب منها إلى الاسكندرية الجبن والعسل. وفي شرقيها جزيرة رودس التي كان معاوية قد فتحها، وجعل فيها رابطة يغزو منها خليج القسطنطينية ثم عَقَل عنهم بريد العطاء، فهربوا إلى الشام، وجلوا عنها فملكها الروم. وهي الآن من جزائر الخرايطة. وطول هذه الجزيرة بانحراف من الشمال إلى الجنوب، نحو خمسين ميلاً، والعرض نصفها. وبينها وبين بر الخرايطة من جهة مدينتها، نحو خمسة عشر



ميلاً. وبينها وبين ذنب اقريطش مجرى، واقريطش في الغرب بجنوب... وفي شرقها جزيرة قبرص التي فتحها المسلمون في مدة معاوية، ومدينتها في وسطها. وطول هذه الجزيرة من غرب إلى شرق مائتا ميل، ولها ذنب دقيق ينظر إلى الشرق إلى ساحل الشام، وعرضها الواسع مائة ميل والضيق أميال.. ومنها يجلب اللاك وهو صمغ. وذكر البكري أن فيها معدن النحاس..

الإقليم السادس: أهله يشتد بياضهم حتى يسري ذلك في شعورهم، وتعمهم الزرقة والشقرة، وكثيراً ما يكون بينهم النمش، ولا تتمشى لهم حال في الشتاء إلا بالبخارات التي يوقدون فيها النار في بيوتهم، وذلك أزْيَد فيما بعده إلى الشمال. **الجزء الأول منه:** أول ما يلقاك منه على البحر المحيط كنيسة الغراب المشهورة عند أهل البحر (= كنيسة الرأس المقدّس). وبينها وبين طرف العرف.. سبعة أميال. ومنها إلى حيث نهر أبو دانس أربعون ميلاً. وعليه القصر المنسوب إليه، كان لعباد الصليب عليه في عصرنا مع المسلمين حرب مشهورة، وكان آخر ثغور الإسلام بتلك الجهة، ومنه إلى مصب نهر لشبونة الكبير أربعون ميلاً، ومن البحر إلى لشبونة ثلاثون ميلاً، وهي على جانب النهر الجنوبي، وأمامها في الشمال بحيرة مالحة، وفي غربيها أخرى. وذكر المسافرون أن عرض مصب النهر يتسع إلى أن يصير عشرة أميال. وفي شمالي هذا المصب على ثلاثين ميلاً، مدينة سنتره التي يوجد العشب كثيراً في ساحلها، وهي كانت قاصية ثغور الإسلام على الساحل قبل الفتنة العمياء. وفي شماليها طرف جبل الشارة الكبير الذي يقسم الأندلس صفيْن. وفي شماليه مدينة منتمنون من بلاد غليسية التي يخرج منها البركان، وهي على شمالي نهر ينصب من الجبل المذكور في المحيط. وفي شمالي ذلك مصب نهر قلمرية، وعلى شماليه مدينة سلمنكه المشهورة بأرض بورتقال، وهي آخر عرض الإقليم السادس. وبينها وبين مدينة قلمرية قاعدة غليسية مرحلتان، وهي في شرقيها. وعلى شمالي النهر، وعلى جبل الشارة الممتد من شرق الأندلس إلى غربيها، حصون كثيرة معجمة، منها في هذا الجزء حصن المائدة الذي يقال ان مائدة سليمان عليه السلام كانت محفوظة فيه. ومنه أخذها طارق بن زياد حين فتح طليطلة، وبينهما مرحلتان، والحصن في الشمال.

وعلى جنوبي جبل الشارة مدينة قورية، وهي كانت ثغر المسلمين في مدة ملوك الطوائف. وفي جنوبيها وجنوب نهر طليطلة، مدينة شونترين. وفي سمتها في الشرق على جنوبي النهر، حصن قنطرة السيف، بينهما ثمانون ميلاً. وفي شرقي ذلك على شمالي النهر مدينة وليد، وهي من المدن الملاح التي يحل بها الفنش في أكثر أوقاته، وهي كثيرة البساتين، ولها ثلاثة أنهار غير النهر الكبير. وفي شرقيها قاعدة الأندلس طليطلة، وهي من أمنع البلاد على جبل عال، والنهر يمر بأكثرها، ونهرها ينزل من جبل الشارة عند حصن يقال له تاجة وبها يسمى. ودخل المسلمون جزيرة الأندلس وسلطانها من القوط يقال له رودريق وقاعدته طليطلة، واسترجعها النصارى بعد ذهاب الدول المروانية. وفي شرقي نهر تاجة، منبع نهر يانه، الذي يمر على بطلميوس. وهو كبير يصعد فيه المد نحو ستين ميلاً في آخر عرض الإقليم السادس. وعلى نهر سنترة مدينة أبلة، وهي مشهورة في الغزوات. وفي شرقي طليطلة مدينة الفرح، ويقال لنهرها وادي الحجارة. وفي شرقيها مدينة سالم، قاعدة الثغر الأوسط.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه منبع نهر شوكر، من جبل الشارة. وهو الذي يمر على جزيرة سومر المشهورة بالحسن، وينصب في البحر بين بالونيه ودانية. وعن قرب منه، منبع نهر سرقسطة الكبير، الذي يمر أولاً على جبل مطله ثم جنوبي سرقسطة، ثم على غربي طرطوشة، وينصب في البحر تحتها. وتقع مدينة تطيلة في جنوبي جبل الشارة. وتقع سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى. وفي شرقيها مدينة لاردة قاصية ثغور الأندلس. وهي على شرقي نهر ينزل في نهر سرقسطة. وفي شرقيها جبل ألبرت (= البيرانس) الفاصل بين جزيرة الأندلس وبين الأرض الكبيرة. ولما أحاطت البحار بالأندلس، و لم يبق إلا هذا المدخل ومسافته أربعة مراحل، سميت جزيرة. وفي هذا الجبل الأبواب التي حفرتها ملكة اليونان ليسهل دخولها إلى الأندلس. وفي وسط الجبل هيكل الزهرة الذي كان يعبده أهل تلك الجبال قبل النصرانية. وفي طرف هذا الجبل مع بحر الزقاق، طرقونة، وهي آخر مدن الأندلس الساحلية بشرقيها وجنوبيها. وفي الطرف الشمالي من أقصى الأندلس، المقابل لطرف طرقونة على البحر المحيط، مدينة بيونية، وهي فرضة مملكة النبري ومنها تخرج القراقر. وفي غربيها خلف جبل الشارة، قاعدة النبري، وهي بنبلون. وفي غربيها، في سمت العرض كستالية، وهي مدينة برغش، وهي دار صناعة السلاح المعمول في بلاد الفنش. وخارج بلاد الأندلس، مدينة برشلونة قاعدة البرشلوني ملك الكطالين، وهو منتسب إلى جبلة بن الأيهم، ملك غسان المنتصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهي على بحر الزقاق ولها مياه وبساتين، وكانت من فتوح المسلمين فاسترجعها المليون. وفي شرقيها قستليون وهي معقل القراصنة.

وفي شمالي برشلونة، مدينة بردال (= بورديو)، التي تنسب إليها السيوف البردالية، وهي على شرقي بحيرة حلوة ينصب فيها نهر وتنصب هي في البحر. وفي شرقي بردال مدينة طلوزة (= تولوز). ويقال إن لصاحبها الفرنجي، في الجبال التي في شماليه وشرقيه، نيف على ألف حصن، وهو قريب من صاحب فرنسة. والنهر في جنوبيها تصعد منه المراكب في البحر المحيط بالقزدير والنحاس اللذان يجلبان من جزيرة انكلترة، وجزيرة ايرلندة، ويحملان على الظهر إلى نربونة، ومنها يحملان في مراكب إلى الاسكندرية. وتقع مدينة نربونة. وفي جنوبيها بحيرة تتصل ببحر الزقاق وإليها انتهى موسى بن نصير في فتوح الأندلس ووجد الصنم في شرقيها، وفيه: يا بني اسماعيل، ارجعوا. وقيل إن ذلك وقع بحيلة من الجند ليرجع، فرجع، وبقيت نربونة أقصى ثغور المسلمين في شرق الأندلس حتى استرجعها الفرنج بالفتن. وفي شرقيها على أميال من جون، مدينة منبلير (=مونتبيليه) وهي مشهورة بالتجار الأغنياء. وإلى الجنوب مدينة مرسيلية، وهي من فرض الفرنج المترددين على بلاد الإسلام. . وفي شرقيها الانكبردية (=لومبارديا) والجبال تحدق بها إلى حد جنوة. وهي مدن وعماير تخترقها أنهار تسير فيها المراكب بالقلوع. وقاعدتها مدينة مِلان (=ميلانو). وفي شرقيها مدينة البندقية على آخر خليج البنادقة. وهي في جزيرة، ومبانيها بالخشب والزوارق تتردد فيها من دار إلى دار، ومركب الإنسان يرسو عند داره. وليس لهم مكان يمشون فيه إلا البساط الذي فيه سوق الصرف، صنعوه لراحتهم إذا احتاجوا للمشي. وملكهم من أنفسهم يقال له الدُّج (=الدوق). وفي نهر من أنهار أرضه، الذهب المائل للخضرة.

وعنده الأخشاب الكثيرة العظيمة. وعلى شط بحر البندقية جبل اشكفونية (=اسكلفونيا) فيه الأخشاب والسناقر والرجال الشجعان الذين يغلب بهم في البحر أهل جنوة. ولهم جزائر كثيرة صغار في هذا الجزء وفي الذي يليه. وعلى شط بحرها عماير كثيرة لعباد الصليب. وفي جنوبي هذا البحر مدينة روما، قاعدة البابا.. وتقع في الجزء مدينة لوشيرة، التي أسكن الأنبرور فيها المسلمين الذين أخرجهم من صقلية.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه، على شمالي خليج البنادق، مدينة سبينقو، وهي للهنكر، وهم ترك على دين النصرانية. وإليها انتهى التتر، فأجمع عليهم بها الهنكر والباشقر والألمانيون، وكسروهم كسرة أيأستهم من العودة إلى تلك البلاد. وفي غربي هذه المدينة على الخليج، جبل اشكفونية. وفي أول الخليج من الجهة الجنوبية برنديس، وهي من الجانب الغربي على فم الخليج، وهو ضيق هنالك ثم يتسع بعد هذه المدينة إلى نحو مجرى ونصف، ولا يزال إلى آخره دائراً على ذلك. وبرنديس مشهورة عند أهل البحر. وعلى شمالي الخليج مدينة أثينة، وهي مدينة أرسطو الحكيم وإليها يبلغ سلطان الأشكري صاحب القسطنطينية. وفي شماليها وغربيها مدينة برشان (= برجان، على البحر الأسود، قرب مصب نهر الدنيبر) كانت قاعدة لأمة استولى عليهم الألمانيون ولم يبقوا لهم ذكراً. ومن هذه المدينة إلى القسطنطينية، من البلاد التي يسكنها الخرايطة، وهم بقايا الإغريقيين، عدد كبير، وهي معجمة خاملة عند المسلمين. وفي هذا الجزء تقع جزيرة لمريا وتعرف بالكتب بجزيرة بيلوبنس. وفيها مدن وعمائر، وهي أكبر الجزائر الرومانية. ودورها على التحقيق سبعمائة ميل، وفيها أجوان وتعريجات وفم إلى البر عرضه أميال عليه من جهة الغرب والجنوب مدينة كوريت (=كورينثا)، وفي وسطها مدينة لمريا وبها يكون صاحب الجزيرة. وبين هذه الجزيرة وجزيرة اقريطش، المجاز الذي يدخل منه إلى الجزائر الرومانية الكثيرة، وقدره ستون ميلاً ولا بد منه للدخول إليها.

وفي شمال هذه الجزيرة، جزيرة النغريب، وهي من أكبر الجزائر الرومانية. طولها من الغرب إلى الشرق بانحراف إلى الجنوب، مائة وخمسون ميلاً، وعرضها من عشرين ميلاً إلى نحو ذلك، وهي مشهورة بخروج السفن والقطائع منها. وفي شرقيها من الجزائر الرومانية جزيرة المصطكي، ومنها يجلب إلى الأقطار وهو صمغ شجر، وطولها من شمال إلى جنوب نحو ستين ميلاً. وبينها وبين النغريب نحو ثلاثين ميلاً، وفي شماليها خليج القسطنطينية. وعلى شرقيه مدينة أبزو، وبها يعرف فم أبزو، وهي للخرايطة، وهم النصارى الذين لا يحلقون لحاهم. وعرض هذا الخليج رمية سهم، وطوله كذلك من بحر الزقاق إلى مدينة أبزو نحو خمسين ميلاً، ثم يأخذ في الاتساع إلى أن يكون بعد ثلاثين ميلاً منها بحيث يقارب ستين ميلاً، فيمر كذلك نحو مجرى، وعليه مدن الخرايطة التي في طاعة صاحب القسطنطينية، التي بناها قسطنطين واضع دين النصارى. وكان مكانها مروج في أرض ملك البرشان، فطلب منه أن يرفع خيله. ثم انه لما انقطعت أخباره بالأمطار والأوحال، بنى هذه المدينة وصيّرها قاعدة القياصرة، فلم يقدر ملك البرشان عليه، ثم فني البرشان.

والقسطنطينية آخر الإقليم السادس، والبحر من جوانبها الثلاثة، وإنما البر من الجهة الغربية. ويمر عنوة الخليج الضيق، فيمتد نحو ثمانين ميلاً يكون في آخره مدينة نيقومدية، وهي كانت قاعدة الإغريقيين. وفي

جنوبيها من البلاد المشهورة عند أهل تلك البلاد، مدينة أسمرة على دخلة من البحر. وفي جنوبيها على دخلة من البحر مدينة الالية، وهي من مدن الحكماء المذكورة في كتبهم. وفي شرقي هذه البلاد جبال التركمان وبلادهم. وهم خلق كثير من نسل الترك الذين فتحوا بلاد الروم في مدة السلجوقيين، وقد مرنوا على الغارة على سكان الساحل من الخرايطة، وأخذ أولادهم وبيعهم إلى المسلمين، وما يصدهم عنهم إلا عضد الهدنة وقهر السلطان. وعندهم تعمل البسط التركمانية المجلوبة إلى البلاد. وبساحلهم جون يقال له جون مقري، وهو مشهور عند المسافرين، يجلب منه الخشب إلى الاسكندرية وغيرها. وينصب فيه نهر البطال(=نسبة للبطل الشعبي الذي تصوره سيرة الأميرة ذات الهمة) وهو عميق وعليه جسر، إذا كانت الهدنة نصب وإذا وقعت الحرب رفع، وهو حد بين المسلمين والنصارى. والبطال الذي ينسب إليه، هو الذي كان يكثر من غزو الروم في دولة بني أمية، والمذكور اسمه في كتب السمر (= السير الشعبية). وهنالك قبره. وفي شمالي أنطاكية المتقدمة الذكر جبال طغورله، يقال ان فيها وفي جهاتها، نحو مائتي ألف بيت للتركمان، وهم الذين يقال لهم الأوج. وهنالك مدينة طغورله، وبينها وبين قلعة خياص التي تعمل فيها القسي الملاح فرسخان. وجبال التركمان متصلة من باب طغورله، بملك الأشكري صاحب القسطنطينية. وبين طغورله وبين الجسر في غربيها، ثلاثون ميلاً. وفي شرقي ذلك نهر هرقلة يترل من جبل العلايا إلى آخر سنوب، وعليه هرقلة قرب البحر، وهي التي خربها الرشيد. وفي شرقيها جبل الكهف عند الروم، ويقال إن فيه الكهف هنالك، وذلك مذكور في تاريخ الواثق، حين أرسل من يقف على الأمر من صاحب القسطنطينية. ومن شرقي ذلك المروج المشهورة التي كان المعتصم حريصاً على أن يرتع خيله فيها من العراق. وهنالك عيون كبيرة، وتسمي الروم ذلك المكان قرنبك.

وفي تلك الجهة مدينة أنكورية (= أنقرة)، ويقال إنها عمورية التي فتحها المعتصم، وهي الآن للمسلمين. وهي على نهر كبير يمر من غربيها. وفي جهاتها جبال، فيها نحو ثلاثين ألف بيت للتركمان. وفي غربي أنكورية على ثمانية فراسخ، مدينة سلطان بولي، والطريق بينهما مزارع وعيون. وفي هذه المدينة حمامين ماؤهما كمياه الحامة لا تحتاج إلى تسخين، وهو جار على الدوام، شديد الحرارة. ومن أنكورية إلى قاعدة البلاد مدينة قونية أربعة أيام، ولها نهر يترل من الجبل الذي في جنوبيها، ويسقيها من جهة غربيها، فتكون عليه بحيرة ومروج. والجبال دائرة بها من كل جهة، وتبعد عنها من جهة الشمال. وعلى بابها الناظر إلى الشمال صورة الحكيم الذي أمر بوضعها هنالك، تشير إلى جهة الشمال، كأنها تقول: الجبال هنا بعيدة، فما عليكم منها ضرر. ومبانيها بالطين وتبيض دور الرؤساء والأغنياء. وفي ديار الملوك والأكابر ألواح الرخام الأبيض، والليمون والأعناب والفواكه فيها وفي غيرها من بلاد الروم كثيرة. ويجلب الفستق الكبير الطيب من بعض جهاتها. وهناك المشمش الكبير المعروف بقمر الدين، وهو لوزي مفضل على مشمش دمشق. وسلطانها من نسل السلجوقية، وهم ترك آمنوا وملكوا من بلاد تركستان إلى بحر الشام، وفتحوا هذه البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم. ويقال لهذا السلطان صاحب القبة والطير، وهو اليوم مدار للتتر بالأموال وبلاده داخلة في بلادهم. ويقال إن سلطنته تحتوي على أربع وعشرين مدينة من المدن الكبار، وفيها الولاة والقضاة، فأصحاب



الأعمال، والجوامع، والبزازون، والحمامات. وأما الضياع فيقال إنها أربعمائة ألف ضيعة، منها ست وثلاثون ألفاً قد خربت. وبها معادن الفضة لا يزال عمالها، وفيها معادن الحديد. وفي شرقي قونية، أقشار، وهي أطول من قونية.. وقونية أعرض.. وهذه المدينة من المدن الملاح الكثيرة السكان والمياه. وأكثر ما فيها التفاح المخضب المليح، والكمثرى الكبيرة، والسفرجل المفضل والخوخ العالي.

وفي شرقيها مدينة أقصرا التي تعمل فيها البسط الملاح.. وهي كثيرة الفواكه أيضاً تحمل على العجل إلى قونية في بسيط كله مزارع وأودية. ويقول أهل تلك البلاد أن مسافة هذه الطريق ثمانية وأربعون فرسخاً، وكذلك من أقصرا إلى مدينة قيصرية. وهي منسوبة إلى قيصر وتسمى في عصرنا قيسارية، وهي مدينة جليلة يحلها سلطان البلاد، ويتنقل منها إلى قونية ومن قونية إليها. والطريق الذي بينها وبين أقصرا كله مزارع وأودية في بسيط تسير فيه العجل بالبقر. وفي شرقي قيصرية مدينة سيواس، وهي من أمهات مدن البلاد مشهورة عند التجار. وهي في بسيط. ويقول المسافرون بتلك البلاد المنقطعون على هذه الطريق، أنهم يجدون فيها أربعة وعشرين خاناً فيها كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما في أيام الثلوج. وفي شرقيها مدينة أرز الروم، وهي آخر بلاد الدروب من جهة الشرق. وفي شرقيها وشماليها منبع الفرات من عيون ومروج وغياض وبنفسج. ويقول أهل تلك البلاد إن أرز الروم من أعالي الأرض. وغالى بعضهم حتى قال إنها أعلى من جميع الأرض بأربعين ذراعاً. وفيها عين عظيمة يخرج منها قسمان، فقسم هو الفرات، وقسم يمر إلى المشرق وهو النهر الكبير الذي ينصب في بحر الباب. وحول تلك العين الكبيرة، عيون كثيرة، وهي ينبت فيما بينها البنفسج.

وذكر ابن فاطمة أن الفرات يأتيه نهر يمده من جبل، ومن هنا جعل بطليموس منبع الفرات. ومن الجبل المذكور منبع نهر أراس، الذي يشق بلاد أذربيجان وينصب نحو الباب. ويقول أهل الروم إن بين سيواس وأرز الروم مدينة أرزنكان المشهورة، وبينها وبين كل واحدة منهما ستون فرسخا. والطريق التي بين أرز الروم وأرزنكان، كلها عيون ومزارع وأودية وبسائط. قالوا: والمسافرين يحملون بضائعهم من توريز (=تبريز) في العجل، وتجرها البقر إلى قونية، في تلك المسافة الطويلة وهي نحو أربعين يوماً. وفي جنوب النهر الذي يمد الفرات من المشرق تقع مدينة شروان وهي قاعدة لبلادها، وجبالها المضافة إلى سلطنة أذربيجان. قال ابن فاطمة: وفي هذا الجزء يقع نهر الكر الكبير، الذي يشق بلاد أران وينصب في بحر طبرستان. وأصله من عين. وعليه قاعدة الكرخ مدينة تفليس، وهي من جانبه. وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدة طويلة، وخرج منها علماء، ثم استرجعها الكرخ وهم نصارى يعرفهم أهل ملتهم، ويقال لبلادهم الأبخاز. وقبل الأبخاز، قلعة لملكهم في الجبل الطويل الذي لا يرام. وفي شرقيها على جنوبي النهر من مدن أران المذكورة في الكتب، شمكور. وفي شرقيها من مدن أران المذكورة بالنسبة إليها، مدينة خترة، وهلي على حنوبي نهر الكر، عبث فيها التتر شر العبث.

الجزء الخامس: أول ما يلقاك منه مدينة برذعة قاعدة سلطنة أران، وهي في جزيرة بين نهرين يخرجان من نهر الكر..وهي بين نهر أراس ونهر الكر. وبين النهرين بطول، أرض الجزيرة وفيها التوت الكثير. وأهلها

مشغوفون بالجميز، فيحمل منها إلى الأقطار. وفي شمالي نهر الكر مدينة نقجوان وهي من المدن المذكورة في شرقي أران، فخربها التتر، وقتلوا جميع أهلها. وفي شرقيها وشماليها مدينة الباب، قاعدة سلطنة الباب، وهي ثلاث قطع على نهر أتِل الكبير (=الفولغا) عند مصبه في بحر طبرستان (=قزوين) فالقطعة الجنوبية كانت للمسلمين، والقطعة الشمالية كانت لليهود والنصارى والمجوس، والقطعة التي في الجزيرة كانت لخاقان الخزر، وكان يهودياً، ثم خربها الروس، وأزالوا سلطنة الخزر منها. وعمرت بعد ذلك بالمسلمين، فخربها التتر. وفي شرقيها في بحر طبرستان جزيرة الباب، وهي كثيرة المروج يرعى فيها أهل الباب مواشيهم. وفي شرقيها جزيرة البركان، فيها جبل لا تبرح النار تتقد فيه بالليل والنهار، ويصعد منه الدخان مثل بركان صقلية وبركان الهند. ويقال إن نفط الطيار الذي عند الملوك يوجد في هذه الجزيرة. وفي شماليها جزيرة شياكو، وهي التي دخل إليها، لما فرّ قدام التتر، خوارزم شاه علاء الدين، وفي شرقي بحر طبرستان جبل شياكو، وهو يستغرق عرض الإقليم السادس، وعرض الإقليم السابع، ثم يدور مع البحر إلى شمال مدينة الباب، وهو لا خير فيه ولا شر. وفي شرقيه مجالات العربة من أجناس الترك إلى جوانب بحيرة خوارزم. وهذه البحيرة ينصب فيها نهر جيحون في هذا الجزء، وينصب فيها نهر سيحون في الإقليم السابع. وبعد هذا لا يطيب ماؤها ولا ينفذ إليها التجار، وقيل إن دورها ستمائة ميل.

الجزء السادس: أول ما يلقاك منه، مدينة خوارزم، هكذا يعرفها عامة العجم، وهو اسمها في الكتب الجرجانية. وهي على جانبي جيحون، ولها بين جيحون وسيحون مدن وعماير معجمة. ويستغرق هذا الجزء، ويمر فيه نهر سيحون. وفي شرقيه نهر الشاش، يترل من جبل في أول عرض الإقليم السابع، ويستغرق عرض هذا الجزء ويمر من سمته في الإقليم الخامس، حتى ينصب في نهر سيحون. وعليه عمائر الشاش الكثيرة ذات البساتين والمياه، وهي معجمة خاملة، وليس في شرقي ذلك كله مدينة مشهورة، ومعظم تلك الأراضي مجالات للتركمان. وفي آخر الجزء من الركن الشمالي، يلتوي نهر سيحون إلى الجنوب، وإلى الغرب.

الجزء السابع: كله خالٍ من مدينة مشهورة. وفي آخر عرضه يمر سيحون، وعليه مجالات التركمان، وفي شرقيه بلاد التبت. **الجزء الثامن**: أول ما يلقاك منه، جبال السهروجية، وهم قوم توالدوا بين القشمير والترك. ومدينة سهروج قاعدتهم، تحدق بها بحيرة حلوة من عيون تفور في داخلها. وفي شرقي هذه البحيرة، بحيرة خرمان، يتربع حولها طوائف من الترك ووسطها، ويمتد من شرقها جبل فرغان، وهو عال طويل من المغرب إلى المشرق وهو مشهور عند الترك. **الجزء التاسع**: يمتد فيه الجبل المذكور ثم يمتد باستدارة حول بحيرة البليعة، التي تبتلع كل ما وقع فيها. وفي شرقيها الجبل الأحمر، ويقال له جبل الجرذان، لأنه يخرج من أثقابه جرذان يتنافس في لباس جلودها ملوك تلك الجهات. وفي شرقي ذلك مدينة بغبورية، من مدن أذْكش، من أجناس التركة. وهي كبيرة. ويمر في شرقيها نهر، وفي شرقيه وجنوبيه أذكشية، وهي قاعدة أذكش المقاربين لسد يأجوج ومأجوج. **الجزء العاشر**: أول ما يلقاك منه سد يأجوج ومأجوج، الذي بناه ذو القرنين، بين الجبلين. وفي شرقيه بلادهم،

ومعظمها على نهر يأجوج الكبير. وعند قرب مصبه في البحر المحيط على جنوبيه مدينة يأجوج. وفي شرقيها وجنوبيها مع مدينة مأجوج، على شمالي نهرهم. وفي شرقي المدينتين البحر المحيط، الذي لا معمور فيه.

الإقليم السابع: الجزء الأول منه: أول ما يلقاك منه على البحر المحيط (=المحيط الأطلسي) مصب نهر سموره الكبير. وتقع سمورة قاعدة غليسية وأكبر مدائن الفنش، في جزيرة بين فرعين من هذا النهر، ولها ذكر في غزوات الناصر المرواني والمنصور بن أبي عامر. وكان المسلمون قد ملكوها، ثم استرجعها النصارى بالفتنة. وفي شماليها بانحراف للشرق مدينة ليون المنيعة، التي خرب سورها العظيم المنصور بن أبي عامر، وهي على نهر ينصب في سمورة. وفي الشمال والغرب شنت ياقو (=سانتياغو)، فيها ياقو الحواريُّ، ولها شأن عظيم عند النصارى، وهي على البحر المحيط، وحولها أنهار تنزل من جبل الفخيرة في شرقيها. ويقع في هذا الجزء على بحر بريطانيا (إقليم بريتاني الفرنسي) الداخلة إلى المشرق من البحر المحيط، مدينة شنترين. وهي من قرى غليسية المشهورة التي تخرج منها القراقر. وفي شرقيها لرمد، وهي من فرض قنسالة التي تخرج منها المراكب القراقر. وفي شرقيها من فرض قنسالة، أُردالس، وفي شرقيها على مرحلة منها منتهى خليج بريطانيا. وتبقى بينه وبين البحر المحيط قدر مرحلة.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه مدينة سنسبين (=سانت سيبستيان)، وهي كثيرة القراقر في دخلة على البحر المحيط، وفي شرقيها ساحل، ثم يدخل البحر المحيط إلى الإقليم السادس. ويرجع الإقليم السابع، فتكون على ساحله بلاد بيطو، وسكانها أحرار الفرنج، ومنها تُختار الملوك لفرنسة إذا عدموا في فرنسة، وهي عادة متوالية. وفي شمالي بيطو، مصب نهر سِن (=السين). وفي وسط هذا النهر وجانبه، مدينة بريس (= باريس) قاعدة فرنسة. وهي ثلاث قطع فالوسط الذي في الجزيرة لفرنسيس، سلطان الفرنج. والجنوبية للجند، والشمالية لسائر تجارهم ورعيتهم. وهذا النهر يترل من جبل دنبوس الكبير، ويقال له في الشمال جبل مليحة. ومن شرقيه منبع نهر دنبوس، الذي يقال إنه أكبر من النيل ومن جيحون، وهو مشهور بنهر دنوبا (=الدانوب)، ويسميه الترك طنا. وعلى جانبيه في جزيرة إلى مصبه في بحر القسطنطينية (= البحر الأسود)كثير من المدن والعمائر إلا أنها معجمة الأسماء خاملة الذكر عندنا. وفي جنوبي هذا النهر وشماليه، بلاد ألمانية الطويلة التي يقال إن فيها أربعين ملكاً، وسلطانها هو المعروف بالامبراطور، ومعناه ملك الملوك، والعامة تقول الأنبرور. وقاعدتها القديمة المذكورة في الكتب بيصة. وفي شماليها جبل الخرواسيا الكبير (=كرواتيا)، وهو يتصل بجبال لومبرديه وجبال اسكفونية، وعليه كثير من المعامل والحصون، وينصب منه كثير من الأنهار التي أسماؤها خاملة عندنا. وفي شمالي هذا الجبل مدينة سيقلو، تصنع فيها السيوف الألمانية المشهورة، ولها معدن حديد يجلب منها. ويقال إنه في مكان فيه معدن حديد مسموم تصنع منه سيوف وخناجر، لا يُبيح الملوك اكتشافها لغيرهم. وفي شرقيها وسمت عرضها مدينة بقصين وهي مخصوصة بعلمائها وحكمائها.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه بلاد الباشقرد. وهم ترك، جاوروا الألمانيين على عهد متوارث. وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني بصّرهم بشرائع الإسلام. وأكثر عمائرهم على نهر دنوبا الكبير، وعلى جنوبيه

قاعدهم. وهي مما دخله التتر وخربوه وأهلكوا أهله. وفي شرقيها، بلاد الهنقر (= المجر)، وهم ترك أخوة الباشقرد، تنصروا بمجاورة الألمانيين، ولهم مدائن وعمائر على النهر الكبير مستعجمة. وقاعدهم مدينة ترنبو، وهذه أيضاً مما دخله التتر. وفي شرقيهم مدائن وعمائر كثيرة داخلة في مملكة الأشكري، صاحب القسطنطينية معجمة الأسماء إلى حد بحرها. وعلى البحر إلى آخر الجزء الثالث ساحل الدروب، وهو للنصارى، وأشهر ما هنالك زاغن وهو حصن على البحر، وعلى مصب نهر البطال، وتسميه الروم الآن نهر زاغن.

الجزء الرابع: أول ما يلقاك منه مدينة هرقلة القديمة، التي خربها الرشيد. وعلى شرقي النهر الذي يترل من جبل العلايا، نهر الحور، لما عليه من شجره. وفي شرقيها من فرض الروم المشهورة مدينة كستيمونية وهي للمسلمين. ويقال إن في جهاتها مائة ألف بيت للتركمان، والخيل والأكاديش والبغال والممالك تجلب من عندهم. وبينها وبين سنوب الفرضة المشهورة في شرقيها، التي في بحرها أسطول سلطان قونية، وفي شرقيها بميلة إلى الجنوب، مدينة أماسيا من مدن الحكماء، وهي مشهورة بالحسن، وبكثرة المياه والكروم والبساتين، وبينها وبين سنوب ستة أيام. والطريق إليها في جبال الصنوبر، كلها أخشاب ومياه تنحدر من هذه الجبال بقطع أخشاب الإنشاء لدار صناعة سنوب. ونهر أماسيا يمر على مدينة أماسيا، وينصب في بحر سنوب. وفي شرقيه سيمسون من فرض الروم المشهورة، يشقها نهر عليه أرجاء كثيرة..وفي شرقيها تمتد من غرب إلى شرق، ومع ساحل البحر جبال جاتيك، فيها قوم عصاة حفاة يدينون بالنصرانية. وفي جنوبي هذه الجبال، أرز الروم، التي تقدم ذكرها في الإقليم السادس. ومن أماسيا إلى مدينة نيكسار في الجنوب والشرق، ثمانية فراسخ، كلها جبال ذات أخشاب، وعيون جارية وأودية. ومن نيكسار إلى كمنة ثمانية فراسخ. ومن كمنة إلى تُقات، وهي من بلاد سلطان الدروب المشهورة، خمسة فراسخ. ومن هذه القلعة إلى سيواس ستة فراسخ.

وفي شرقي جبال جاتيك على نهر سينوب مدينة أطرابزند، وهي فرضة مشهورة يقصدها طوائف العجم لأسواقها من الأقطار، وأكثر سكانها من الكبكز. وفي جنوبيها ممتد إلى الشرق جبل الكبكز الكبير، ويقال له جبل الألسن لكثرة ما فيه من اللغات، وهو جبل متصل بجبل الباب. ومعظم الكبكز (= القوقاز) مسلمون يحجون، وفيهم نصارى. وموضوع مدينتهم أطرابزند، على البحر. وفي شرقيها مدينة الكسا، وهم جنس من الترك تنصروا وتمدنوا. وموضوعها على البحر، وفي شرقيها مدينة أذكشية، يسكنها قوم من الأذكش، وهم من أجناس الترك تنصّروا بالمجاورة. وهي على البحر. وفي شرقيها على البحر (= الأسود) الأبخاز، وهي فرضة الكرج (=الجورجيون) وهم نصارى. وفي شرقيها على البحر علانية، وهي مدينة يسكنها قوم من العلان (=الّلان)، وهم ترك تنصروا. والعلان خلق كثير في تلك الجهة، وخلف باب الأبواب. ويجاورهم قوم من الترك، يقال لهم الأس وعلى مترعهم وعلى دينهم. وفي شرقي علانية على جون في آخر منتهى بحر سينوب مدينة خزرية، وهي منسوبة إلى الذين أفناهم الروس. وقد يسمى هذا البحر ببحر الخزر (= قزوين) نسبة لها، وهي على نهر ينصب في البحر من جهة شماليها.



الجزء الخامس: أول ما يلقاك منه جبل القبق(=جبال القوقاز)وفيه، حيث يمكن التولج منه إلى الشمال، السور الذي بناه أنو شروان ملك الفرس بين بحر طبرستان وبحر سينوب. وفي هذا السور بنى الأبواب التي قيل إنها كانت سبعة لكل أمة من الأمم التي في شمالي هذا السور، وعليه حصن فيه حفظ، كانوا يمنعون تلك الأمة التي تلي ذلك الباب من الدخول إلى بلاد الأكاسرة. وأعظم هذه الأبواب باب الحديد، وهو يعرف إلى الآن كذلك. وعلى دور الجبل إلى جانبه قلعة العلان التي هي إحدى قلاع العالم، وهي ملثمة بالسحاب. ويقال إن التتر قاسوا عليها شدة، ولم يأخذوها إلا بالحيل بعد مدة. وما في شمالي هذا السور اليوم، فهو في حيز ابن بركة من التتر المسلمين. وما في جنوبيه لابن هلاون، سلطان التتر الكفار. وقاعدة هذه الأبواب وسلطنتها هي مدينة الباب. ويستغرق عرض هذا الإقليم السابع نهر أتِل الذي يشق مدينة الباب. وفي شرقيه بحر طبرستان. وفي شرقي هذا البحر مجالات العربة من الترك، وفي شرقيهم من هذا الجزء نصف بحيرة خوارزم. ويقع مصب سيحون فيها في ثلث عرض الإقليم.

الجزء السادس: أول ما يلقاك منه، جبل أصغرون، الطويل العالي، الذي لا يبرح الثلج منه. وهو ممتد حتى يستغرق طول هذا الجزء، وتنحدر منه أنهار إلى نهر أتل الكبير، وهو جار في شماليه، مع آخر عرض الإقليم السابع وخارجا منه. وفي جنوبيه السور الذي بناه المسلمون في وجه الكفار الترك الذين بالشمال. وهو ممتد من عطفة سيحون إلى جبل باب الفضل بن يحيى، نحو سبعة وعشرين يوماً، وعليه ثلاثة حصون في طرفه ووسطه. **الجزء السابع**: ليس فيه مدينة مذكورة، وإنما هو مجالات، لأصناف من الترك على نهر سيحون من جنوبيه، ونهر أتل من شماليه. **الجزء الثامن**: أول ما يلقاك منه، منبع سيحون وهو خارج من بحيرة بعضها خارج الإقليم السابع إلى ما خلفه في الشمال والمنبع عن شرقي البحيرة. والبحيرة مدورة طولها مثل عرضها نحو درجة، وفي شرقيها منبع أتل من جبال الشهروجية، والعرض مع آخر الإقليم السابع. ثم يتقوس إلى ما خلفه، ثم يستقيم ماراً فيه، وله دخلات وخرجات حتى ينصب في بحر طبرستان. وفي شرقه جبال الشهروجية، المتصلة بجبل القشمير، ويميل منها إلى الجبل الكبير الذي يقال له سلسلة الأرض، حتى يستغرق طول هذا الجزء معرجاً فيه من الركن الجنوبي إلى الركن الشمالي، حتى يتصل بجبل قوقايا. **الجزء التاسع**: ليس فيه عمارة، بل يستغرق جميعه البلاد التي خربتها يأجوج ومأجوج قبل بنيان السد. وفي آخره الجبل المحيط بهم. **الجزء العاشر**: جميعه خلف الجبل في بلاد يأجوج ومأجوج. وفي آخره الشرقي ينصب نهر يأجوج الكبير في المحيط بالمشرق.

المعمور في شمالي الأقاليم السبعة

الجزء الأول من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك منه في البحر المحيط، بالمغرب، جزيرة بريطانية. وأولها من جهة الجنوب والمغرب، من سمت الجزائر الخالدات، والعرض مع آخر الإقليم السابع، ثم يدخل البحر فيها نحو درجة وثلث، ثم يرجع إلى خط الإقليم السابع. ويقال لهذا البحر، الخارج من البحر المحيط، بحر بريطانية. وهو مكتنف لهذه الجزيرة من جنوبيها، والبحر المحيط من سائر جوانبها، وبقي لها مدخل إلى بلاد

الأندلس من الجهة الشرقية الجنوبية في آخر هذا الجزء. ومسافة هذه الجزيرة في الطول، ثمانية عشر يوماً من الجانب الجنوبي، واتساعها نحو أحد عشر يوماً في الوسط، ولا مياه فيها، إلا من المطر، ولها ملك منفرد قاعدته مدينة بريستل (=بريست).

الجزء الثاني من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك منه جزيرة بلله وهي صغيرة معمورة تقع الحرب عليها بين صاحب انكلترة وبريطانية، لأنها بين الحدين، وطولها من شمال إلى جنوب، بانحراف إلى المشرق، نحو مائة ميل. ويقال إن فيها شجراً تخرج منه طيور كالدجاج، وهذا مستفيض عند الفرنج، كاستفاضة الخرفان التي تخرج من القرع عند الترك. وفي شرقي هذه الجزيرة، جزيرة انكلترة، وصاحبها الانكتار المذكور في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا، وقاعدته مدينة لندرس (= لندن). وبعض الجزيرة داخل في الإقليم السابع، وفيها مدن كبيرة وعمائر معجمة خاملة الذكر عندنا. وطول هذه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، بانحراف إلى المغرب والمشرق، نحو أربعمائة وثلاثين ميلاً، واتساعها في الوسط نحو مائتي ميل.

وفي هذه الجزيرة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وليس فيها كروم لشدة الجمد، فأهلها يحملون جواهر هذه المعادن في البحر، ويدخلون بها فرنسا، ويتعوضون بذلك بالخمر. وصاحب فرنسا إنما كثرة الذهب والفضة عنده من ذلك. وعندهم يصنع الاسكرلاط العالي. وفي هذه الجزيرة غنم لها صوف ناعم كالحرير فيجعلون عليها جلالاً يقيها من الأمطار والغبار. ومع غناء الانكتار ووسع مملكته، فإنه يقر بالسلطنة للفرنسيس، وإذا كان مجتمع حفل خدمه بأن يحط قدامه زبدية طعام، وهي عادة متوارثة. وفي شمالي انكلترة وبعض شمالي بريطانية، جزيرة ارلندة، وهي داخلة في الجزء الأول وفي الثاني. ومسافة طولها نحو اثني عشر يوماً، وعرضها في الوسط نحو أربعة أيام، وهي مشهورة بكثرة الفتن، وكان أهلها مجوساً، ثم تنصروا اتباعاً لجيرانهم. ويجلب منها أيضاً النحاس والقصدير الكثير. وفي الشمال من هذا الجزء الثاني جزيرة جرمونية طولها اثنا عشر يوماً، وعرضها في الوسط نحو أربعة أيام، ومنها تجلب السناقر الجياد. وفي غربيها جزيرة السناقر البيض. طولها من غرب إلى شرق نحو سبعة أيام، وعرضها نحو أربعة أيام. ومنها ومن الجزائر الصغار الشمالية، تجلب السناقر التي تحمل من هنالك إلى سلطان مصر. ورسم الخارج منها في خزانته ألف دينار، وإن أتوا به ميتاً دفع لهم خمسمائة دينار. وعندهم الدب الأبيض يدخل البحر ويصيد السمك ويخطف ما فضل أو ما غفلت عنه هذه السناقر، ومن ذلك عيشها، إذ لا تطير هناك من شدة الجمد. وجلود هذه الدببة ناعمة. وعلى البحر المحيط في هذا الجزء الثاني، غراز، وهي قاعدة أحد ملوك الصقلب إلى جهة الغرب. وقد استولى جميع بلاد الصقالبة، الألمانوين والهنقر والباشقرد. وهذه المدينة مشهورة، وهي متحصنة في وسط بحيرة مالحة كبيرة، ولا يدخل إليها ألا على جسر مصنوع. وفي شرقيها من القواعد التي كانت للصقلب، فاستولى عليها المذكورون كوياتية. ويقال إنها كانت لأعظم ملوك الصقالبة الموصوفون بالكبر. ومرساها في البحر المحيط، مقصود، تتجمع فيه المراكب الكبيرة، وهو أحسن مراسي تلك الجهة. وقيل إن لها اثني عشر باباً. وفي شرقيها من قواعد ملكهم، صاصين، وهي على البحر المحيط.

الجزء الثالث من المعمور خلف الأقاليم: وعلى عشرة أيام من صاصين للمشرق، مدينة مشقة (=موسكو) وكان صاحبها من الصقلب، واسع الملك، ضخم العسكر. ويقع في هذا الجزء، مدينة النساء، والصحارى محدقة بها، ولا ملك عليهن إلا امرأة. ولهن في تلك الصحارى مماليك، إذا كان الليل طرق كل مملوك باب سيدته وبات معها ليلة، فاذا كان السَّحَر، انصرف إلى مكانه، فإن ولدت المرأة ولداً قتلته، وإن ولدت بنتاً أحيتها، ولا يظهر رجل في بلدهن البتة. وفي البحر المحيط الذي في هذه الجهة الشمالية، جزيرة النساء. طولها من شرق إلى غرب، بانحراف إلى الجنوب، نحو مائتين وخمسين ميلاً وعرضها في الوسط نحو مائة وعشرين ميلاً. وفي شرقيها، جزيرة الرجال، من غرب إلى شرق نحو مائتين وسبعين ميلاً، وعرضها في الوسط، نحو مائة وسبعين ميلاً. ولا تجتمع الرجال بها، ولا النساء المذكورات، إلا شهراً واحداً في السنة، وهو وقت الاعتدال عندهم. تركب الرجال في الزوارق إلى جزيرة النساء، ويعرف كل رجل امرأته، فيحيا معها مدة الشهر، ثم يرجع إلى جزيرة الرجال، فإن ولدت المرأة ذكراً ربته حتى يصير في حد الرجال، فترسله إلى جزيرتهم، وإن ولدت أنثى أسكنتها مع النساء.

وفي شرقي هاتين الجزيرتين، جزيرة الصقلب الكبيرة، التي لا معمور في البحر المحيط خلف شرقيها، ولا شماليها. وطولها نحو سبعمائة ميل، واتساعها في المحيط الوسط نحو ثلاثمائة ميل وثلاثين ميلاً. وفيها جبال وأنهار، ومدن وعمائر، وخلق كثير. ويقال إنهم باقون على التمجس، وعبادة النار، ولا يرون أعظم منها منفعة، ولا سيما حين يترل الجمد عندهم. والزروع في هذه الجزيرة وشبهها لا تبلغها الشمس، وإنما تنبت بالدخان، وقرب النيران. وذكر صاحب جغرافية أجار، أن فيها قوماً قد التصقت رؤوسهم بأكتافهم، وأكثر ما يسكنون في الشجر، يحفرونها ويدخلون فيها. وقاعدة هذه الجزيرة، مدينة برغادنا التي يسمى بها البرغار (=يرجّح انها النرويج) ويقال إن أصلهم من هذه المدينة. وهي على البحر المحيط. وآخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط، هو آخر هذا الجزء بالمشرق، وذلك في نهاية المعمور في الشمال، وبذلك مدينة البروس، وهم أمة عاتية أجهل من الروس، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم. وفي الكتب، إن وجوههم كالكلاب، وذلك دليل على الشجاعة. ويقال إن الواحد منهم يخرج إلى العسكر، ويقاتل وحده، حتى يُقتل تهوُّراً وإقداماً على الموت. وفي هذا الجزء، بلاد كثيرة معجمة على شط نهر دنست، وهو أحد أنهار العالم الكبار، ومنبعه من جبل الصقلب الكبير الملتوي مع البحر المحيط، حتى يتصل بالجبل الأعظم، المعروف بقوقايا. وأول جزيرة في هذا النهر، ويمر مغرباً نحو شهر، ثم يلتوي مشرقاً، فيبقى بين الذراعين جزيرة طويلة عريضة فيها من العمائر والمدن شئ كثير، ولا يزال مشرقاً حتى ينصب في بحر سوداق، وقد بقي بينه وبين تمام هذا الجزء نحو مائة ميل. وأما نهر دنبوس، الذي تسميه الترك طنا، فإنه ينقسم حين يقارب بحر سوداق على ستة فروع، وتنصب جميعها في أماكن متقاربة، وآخرها ينصب إلى الشمال. ودنست يصب في شمالي البحر المذكور، وبعدها يغرب، ثم يشرق.

الجزء الرابع من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك منه من الفرض المشهورة مدينة سوداق. وأهلها أخلاط من الأمم والأديان، والأمر فيها راجع إلى النصرانية. وهي على بحر نيطش، الذي يسافر فيه التجار



منها إلى خليج القسطنطينية. وفي سمتها من الجانب الجنوبي، مدينة سينوب، الفرضة المشهورة. وفي شرقيها مدخل بحر مانيطش وعرضه نحو ثلاثين ميلاً، وامتداده من الجنوب إلى الشمال نحو ستين ميلاً، ثم يتسع البحر فيصير عرضه من غرب إلى شرق نحو مجراوين وثلث، ويصير عرضه من جنوب إلى شمال نحو مائة وستين ميلاً. وفيه جزائر تسكنها الروس، وكذلك يقال له بحر الروس، وهم الآن على دين النصرانية. وينصب في شمالي هذا البحر نهر يخرج من بحيرة طنا الكبيرة. وعلى جانب هذا النهر، من الضفة الغربية روسيا، وهي قاعدة الروس، وهم خلق كثير وفي وجوههم طول، ولها على بحر نيطش ومانيطش مدن كثيرة معجمة. وفي شرقيها بحيرة طوما الكبيرة، طولها من المغرب إلى المشرق نحو ستمائة ميل وثلاثين ميلاً، وعرضها في البر المشرقي نحو ثلاثمائة ميل. وفي وسطها جزيرة أليس، طولها نحو مائة وخمسين ميلاً، وعرضها نحو سبعين ميلاً. وفيها قلعة مانعة على جبل تكون فيه خزائن سلطان بلاد الطومانيين. وفيها اليوم أموال ولد بركة. وينزل إلى هذه البحيرة أنهار كثيرة، ذكر البيهقي أنها نيف على مائة نهر، وأكبرها نهر طنابرس الطويل الكبير المد، الذي عليه كثير من عمائر البلغار والترك. وعلى هذه البحيرة مدن كثيرة وعمائر غزيرة. وأكثر سكانها البلغاريون ومعظمهم مسلمون، وفيهم نصارى. والقاعدة المشهورة في هذا الصقع طوما، التي تنسب إليها البحيرة. وفي جنوبيها إلى بحر نيطش شَعْراء البقس منها تجلب إلى سائر أقطار الدنيا. والعجب أنها قليلة المسافة عرضاً وطولاً. وتعم بلاد الشرق والغرب لما جعل الله تعالى فيها من النمو وسرعة الخلف. وفي شرقي هذه الشعراء على البحر، مدينة مطرخا، لها بلاد وملك منفرد بنفسه، وهي على ركن البحر الشرقي في الشمال. ويقع في شمالي هذا الجزء الرابع، مدينة سقسين المشهورة. وفي شرقيها مدينة سوه، وهي أيضاً مشهورة مضافة إليها. وفي شرقي سقسين مدينة قراغت. وفي شرقيها بلغار، وهي مدينة من أخشاب.

الجزء الخامس من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك في جنوبيه، مدينة السرير، وهي قاعدة بلاد السرير (= داغستان). وكان بعض الأكاسرة قد وضع هنالك سريراً لبعض أقاربه، واستنابه بتلك الجهة، فعرفت ببلاد السرير. وأهلها أخلاط من العرب والترك. وهي على جبل يتصل بجبل الألسن الذي فيه الأبواب. ومن هذا الجبل ينزل نهر الغنم الذي ينصب في بحر خزريه، وفي شرقي مدينة مطرخا، وهو كبير يحمل في الشتاء، وتعبر الدواب عليه. وفي جنوبيه، ينصب نهر أتل الصغير، يأتي من نحو أتل الكبير، ويمر في جنوبي نهر الغنم، فيبقى بينهما جزيرة عرضها نحو ثلاث مراحل. وكان عسكر هلاون قد عبر هذين النهرين إلى قتال عسكر بركة، فكسرهم عسكر بركة، وغرقوا في رجوعهم في نهر الغنم الأول، ثم غرق الذي خلصوا في النهر الآخر، وكانوا قد جازوا عليه في الثلج فانخسف بهم. ويقال إن الدروع والجواسق تخرج من هذه النهرين إلى الآن. وفي شرقي مدينة السرير، مدينة برطاس قاعدة هذا الجنس من الأتراك. وهي على طرف جبل قرمانيا الكبير(=أرمينيا)، الدائر من شماليها نحو ثمانية وثلاثين يوماً إلى جانب نهر طنابرس، ومنه تنزل أنهار كثيرة إلى بحيرة طوما. ولبرطاس مجالات كثيرة على نهر أتل الذي في شرقهم وجنوبيهم. وفي شرقي برطاس دخلة من بحر طبرستان كبيرة. وفي شرقيها بحيرة مازغا، دورها نحو ثمانية أيام، وتنزل إليها أنهار كثيرة من جبل

أصغرون الكبير، المنعطف من الإقليم السابع عليها. ومنه يخرج مازغا الكبير وينصب فيها، ويخرج منها نهر ينصب في نهر أتل الطويل. وعلى هذا الجبل في هذا الجزء، قلعة دندرة، وفيها يجعل ملك برطاس ذخائره، ومنه يغير على العربة، ومن يتربع حول هذه البحيرة من أجناس الترك. وعلى هذا الجبل أيضاً قلعة درمو، فيها يجعل ملك العربة ذخائره، ومنها يغير على البرطاس وغيرهم. وفي شمالي هذا الجزء مجرى نهر طنابرس الكبير، وعليه مدينة سقسين وبها الآن ولد بركة ملك التتر المسلمين، وفيها مدارس ومساجد.

الجزء السادس من المعمور خلف الأقاليم: ليس فيه بلد مذكور ولا معلم مشهور. وفي جنوبيه نهر أتل الطويل، وفي شماليه يمر نهر طنابرس. وفي شرقيه منبع طنابرس الذي ينصب في بحيرة طوما من الجبل الأحدب العالي المتصل بالجبل الكبير الممتد مع آخر العمارة بالشمال. وفي جنوبي هذا الجبل، جبل أرستانا، الممتد من الشرق إلى الغرب، وينزل منه نهران كبيران إلى نهر أتل.

الجزء السابع من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك منه جبل أسقاسيا، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وينزل منه ثلاثة أنهار إلى نهر أتل الطويل. وفي جهات هذا الجبل بلاد القمانية، وهم من أجناس الترك، ولهم اعتناء بالنجوم واشتغال بأحكامها، وهم يعبدونها. ولهم في هذا الجزء بحيرة عنقور، طولها من المشرق إلى المغرب بانحراف للجنوب، أحد عشر يوماً، وعرضها أربعة أيام. ويدور بها من جهة المغرب جبل طغورا قاعدة القمانية، وبها مدن، على الأنهار النازلة من هذا الجبل وعلى البحيرة، خاملة الأسماء.

الجزء الثامن من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك منه جبل البجناك(=بلاد تقع بين نهري الدانوب والدون)، وهو معترض من الشمال إلى الجنوب، يخرج منه نهران، والشمالي يغرب ويكون عنه بحيرة دورها نحو مائة ميل، وعلى جانبها الغربي، بجناكية، وهي قاعدة خاقان البجناك. وهم أمة من الترك يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم. وهي واقعة في آخر الجزء السابق. وللبجناك جبل ثان ينعطف من الإقليم السابع، ويمر متصلاً بجبل الشهروجية، وينحدر منه نهر إلى بحيرة يكون عرضها مائة ميل، وكذلك طولها. وعليها وعلى النهر المذكور مدن للبجناك خاملة الأسماء. ويخرج من هذه البحيرة نهر يمر مغرباً إلى بحيرة أخرى على مدينة طيغوا، وهي لملك من البجناك يحاربه صاحب بجناكية، مع أن الخاقانية عندهم متوارثة في عقبه. وشرقي البجناك الأرض المنتنة، لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة وهي خالية. وفي شماليها بلاد سحرت، وهم كفار، لا يدخل إليهم أحد إلا قتلوه.

الجزء التاسع من المعمور خلف الأقاليم: أول ما يلقاك في جنوبيه الأرض المحفورة، وهي مدورة، عرضها أربعة أيام وكذلك طولها، وزعموا أنها مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها. ويشقها الجبل الكبير، المعروف بسلة الأرض. وحدها الجنوبي، في آخر عرض الإقليم السابع. وفي شماليها بلاد الخفشاق. ذكر البيهقي أنهم الذين صاروا يعرفون بالنقجار وعرجوا إلى بلاد القسطنطينية. وكان لهم ملوك كثيرة في المغرب، ففرق التتر شملهم ورأوا شجاعتهم فصيّروهم يركبون معهم. وفي آخر هذا الجزء انعطاف الجبل المحيط بيأجوج ومأجوج، واتصاله بالجبل المعروف بسلسلة الأرض.

الجزء العاشر من المعمور خلف الأقاليم: جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج وآخره المحيط بالمشرق.)

2. ذكر أولاد يافث بن نوح، المسعودي، من كتاب (أخبار الزمان)

وأما ولد يافث بن نوح، فقال أصحاب التاريخ إن جميع اللغات اثنان وسبعون لغة منها سبع وثلاثون في ولد يافث: وثلاث وعشرون في ولد حام، واثنتا عشرة في ولد سام، فذكروا ان ولد يافث من ظهره سبعة وثلاثون لكل واحد منهم لغة يتكلم بها هو ونسله. وكان في قسم ولد يافث أرمينية وما جاوزها إلى الابواب؛ فمنهم الأشبان والروس والبرجمان والخزر والترك والصقالية ويأجوج ومأجوج وفارس ومزنان وأصحاب جزائر البحر والصين والبلغار وأمم لا تحصى.

ذكر يأجوج ومأجوج: فأما يأجوج ومأجوج فإنه لا يقدر على استقصاء ذكرهم لكثرة عددهم، وقد زعم أن مقدار ربع الأرض مسيرة مائة وعشرين سنة. فذكروا ان تسعين منها ليأجوج ومأجوج واثني عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لبقية الأمم. وسمى أصحاب التاريخ يأجوج ومأجوج أربعين أمة مختلفي الخلق والقدود، في كل أمة منها ملك ولهم زي ولغة، فمنهم من طوله الشبر والشبران وأطول من ذلك، ومنهم المشوهون، ومن يفترش إحدى أذنيه ويتغطى بالأخرى، ومن له ذنب وقرن وأنياب بارزة، ومنهم من مشيه وثب ويأكلون الحيتان والناس والخشاش والطير كله والرخم والحدأة، وبعضهم يغير على بعض. ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة وفيهم شدة وبأس، وأكثر طعامهم الصيد، وكانوا يغيرون على الأمم التي تليهم ويخربون بلدانهم، حتى عمل ذو القرنين السد وهم يستفتحونه آخر الزمان كما قال الله عز وجل. وربما أكل بعضهم بعضاً، والزلازل عندهم كثيرة، وذكر أن عندهم أمم تعرف المناسك. وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك ؟ فقال"جزت ليلة أسري بي عليهم فدعوتهم فلم يستجيبوا".

ذكر الصقالبة: وأما الصقالبة فهم عدة أمم؛ فمنهم النصارى، ومن يقولون بالمجوسية ويعبدون الشمس، ولهم بحر حلو يجري من ناحية الشمال إلى الجنوب، ولهم أيضاً بحر يجري من المشرق إلى المغرب حتى يتصل ببحر آخر يجيء من ناحية البلغر، ولهم أنهار كثيرة، وهم كلهم في ناحية الشمال، وليس لهم بحر مالح لأن بلدهم بعيد عن الشمس، فماؤهم حلو وما قرب من الشمس مالح، وما جاوزهم من الشمال لايسكن لبرده وكثرة زلازله، وأكثر قبائلهم مجوس يحرقون أنفسهم بالنار ويتعبدون لها. ولهم مدن كثيرة وبلاد، ولهم كنائس فيها أجراس معلقة يضربونها كالنواقيس. ومنهم أمة بين الصقالبة والافرنج على دين الصابئين، يقولون بعبادة الكواكب، ولهم عقول وصناعات لطيفة من كل فن، وهم يحاربون الصقالبة وبرجان والترك. ولهم سبعة أعياد في السنة بأسماء الكواكب، وأجلها عندهم عيد الشمس.

ذكر اليونانيين: وأما اليونانيون فهم الروم الأولى من ولد يونان بن يافث بن نوح، وهم حكماء الأمم، ولهم النجامة، والحساب، والهندسة، و الطب، وصناعات المنطق، والصناعات اللطيفة، وكل حكم مذكور.

وكانت الأندلس والاسكندرية ومن جاورهم من الأمم يدينون بطاعتهم إلى أن غلب عليهم رومي بن ديقطون من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، لأن عيصو لما فارق أخاه يعقوب سار إلى العدوة القريبة، وهي مساكن الروم اليوم فغلب عليها، وهم الذين بنوا رومية وإليهم تنسب وهم بنو الأصفر. وكان آخر ملوك اليونانين أيلاوبطره بنت بطليموس صاحب كتاب الحكمة والطلسمات، ثم رجع الملك الى الروم، وقد كان ملك قبلهما منهم كثير. ومنهم الحكماء الذين تكلموا في علم الفلك والهندسة والطب والحساب والموسيقى والمرائي العجيبة والطلسمات والحيل الروحانية والزيجات وكل حكمة. وكان أبقراط منهم، وأبقراط الثاني، وهرمس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطاطاليس، واقليدس، وجالينوس وجماعة يطول الكتاب بذكرهم.

ذكر الصين: وقطع قوم من بني عامر بن يافث الى ناحية الصين، وكان زعيمهم قد عمد الى مراكب على حكاية سفينة جده نوح عليه السلام، فركب هو وأهله وولده فيها، وقطع البحر إلى الصين، فعمروه وبنوا المدن وعملوا الحكم ودقاق الصناعات ولطيفها، وأثاروا معادن الذهب فيها، وملكوا ثلاثمائة سنة. وملك بعده ابنه صاني مائتي سنة، وبه سمي الصين، فجعل جسد أبيه في تمثال ذهب، وأقاموا يطوفون به وهو على سرير من ذهب، فصار ذلك رسم كل ملك يملكهم، وصوروا صورهم في هياكلهم، وهم على دين الصابئين ثم عبدوا الذرة، بعد ذلك اقتداء بالهند ومن ذلك عبدوا ملوكهم، وكانوا يجعلون أجسادهم في تماثيل ذهب ويسجدون لها. ومنهم حكماء تكلموا في الفلك والطب والصنعة وكثير من علوم الهند، وبلد الصين واسع يقال إن فيه ثلاثمائة مدينة ونيفاً عامرة سوى القرى والرساتيق وبها عجائب كثيرة، ومن خرج في البحر قطع سبعة بحار لكل بحر منها ريح ولون سمك ليس لما يليه. أولهما بحر فارس وملكهم اليوم اليعقوفز وهو في مدينتهم العظمى التي يقال لها انصوا، وبينها وبين خانقوا التي تتراءى لها مراكب التجار ثلاثون يوماً. ومن سيرتهم أن عمال الملك وأصحاب خراجه وجيوشه خدم، وذلك أن المرأة إذا لم تكن محصنة وأرادت الفجور رفعت أمرها إلى الملك تذكر حالها فيدفع إليها خاتم نحاس من خواتم الملك فجعلته في عنقها ولبست المصبغات، وعملت ما شاءت علانية، وإذا ولدت الذكور خصوا واستعملهم الملك في داره وأعماله، وان ولدت أنثى كانت على رسم أمها. وأهل الصين بيض الى الصفرة فطس، ومن سنتهم أن احدهم اذا تظلم إلى الملك من بعض عماله كشف عن أمره، فان كان صادقاً أنصفه وعاتب ظالمه، وإن كان كاذباً ضرب بالخشبة ضربا شديداً لاجترائه على عمال الملك بالكذب. ومن سنتهم أنه إذا أراد خادم من خدم الملك شيئا ضرب جرس كبير يدخل الناس دورهم، ويخلون له الطرقات لئلا يرونه.ومن سنتهم ان تقسم المد ينة قسمين، فيكون الملك وأهل بيته وعماله وحشمه في القسم الواحد، والعامة والرعية وأسواقهم في النصف الآخر، لا يدخل احد منهم الى ناحية الملك. ومن سنتهم أن يورثوا الأنثى أكثر من الذكر، ولهم عند حلول الشمس الحمل عيد كبير يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام. وأشرف حليهم من قرون الكركند، وهو الموشان، لأنها إذا استوت ظهر فيها صور عجيبة مختلفة فيتخذون منها مناطق تبلغ المنطقة اربعة آلاف مثقال من ذهب. والذهب عندهم كثير حتى يتخذون منه لجم دوابهم وسلاسل كلابهم، ولهم ثياب الحرير المنسوجة بالذهب.



ذكر الاهتردة: وأما الاهتردة فهم من ولد عامر بن يافث نزلوا بين الروم والافرنج ومملكتهم واسعة، وملكهم جليل القدر ولهم مدن كثيرة وأكثرهم اليوم نصارى، ومنهم من لادين له وهم يحاربون الافرنج والصقالبة الذين يجاورونهم ويطرودونهم، وزيهم زي الروم، ومنهم صنف يحرقون أنفسهم.

ذكر الافرنج: وأما الافرنج فهم أيضاً من ولد يافث ومملكتهم واسعة كبيرة، ولهم ممالك يجمعها ملك واحد ومدينتهم الكبرى يقال لها دريوه، وهم ايضاً نصارى، وهم اليوم أربع عشرة قبيلة، ووراءهم أجناس أخرى وأكثر اعتدائهم الى الصقالبة، ولهم اتساع مملكة، وهم يحاربون الروم والاهتردة، ومنهم متجر، وفيهم نصارى، ومجوس، وزنادقة، ومنهم من يحرق نفسه.

3. ذكر أهل الشمال من الأرض. أبو الفداء (732هـ = 1331م) من كتاب (تقويم البلدان).

(ومن بلاد تلك الجهات مملكة بولية، وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه، وهي تقابل مملكة الباسليسة التي من البر الآخر. وملك بولية في زماننا يقال له الريدشار. ويقال لبولية انبولية أيضاً. وغربي بلاد بولية بلاد قلّفرية. ويقال لها قلّورية، وهي داخلة في مملكة الريدشار صاحب بولية. وأهل قلفرية يونان وهي بلاد على ساحل بحر الروم. ومن تلك الممالك مملكة الباسليسة، وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة تقابل مملكة بولية التي من البر الآخر. وبلاد الباسليسة هي من فم جون البنادقة الى جهة قسطنطينية، والباسليسة امرأةٌ هي صاحبة هذه البلاد في زماننا. ومن تلك البلاد بلاد المرا، وهي مملكة تبتدىء من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً, وتشتمل على قطعة من ساحل بحر الروم وعلى بلاد وجبال خارجة عن البحر. وهذه المملكة مناصفةً بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم القيتلان، ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد الملفجوط، وبلاد الملفجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم، وهي من أعمال قسطنطينية. والملفجوط جنس من الروم لهم لسان يتفردون به، وغربي بلاد الملفجوط بلاد اقلرنس، وهي بلاد أهلها يونان تحت حكم الباسليسة، وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد الملفجوط وهي واقعة بين الملفجوط وبين الباسليسة.

قال الشريف الادريسي: امتداد كنيسة رومية ستماية ذراع في مثله وهي مسقّفة بالرصاص، ومفروشة بالرخام، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية، وفيه ماء جارٍ أبداً. وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه الباب (= البابا) وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة أبواب واحد بعد آخر يفضي الى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى عليه السلام. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولص. وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزين بها في أعيادهم. وفي خارجِ الكنيسة عند ركن من أركانها عمود عظيم على أربع قواعد من نحاس مربعة، كل وجه منها اثنا عشر ذراعاً، وكلما صعد العمود يدق، وفي أعلاه عمود نحاس في أعلاه كرة مذهبة يكون قطرها نحو باع، ولها بريق ولمعان، وتظهر من اثنى عشر ميلاً فيعلم بها موضع الكنيسة.



وغربي بلاد روميه على الساحل بلاد التسقان، وهم جنس من الفرنج ليس لهم ملك بعينه يحكم عليهم، وانما لهم أكابر يحكمون بينهم. وبلاد التســقان هي معدن الزعفران. وعن بعض من رأى تلك البلاد قال: وقبالة روميه في البحر جبلان شامخان لا يزال يظهر منهما الدخان نهاراً والنار ليلاً، واسم أحد الجبلين بركان والاسم الآخر استنبرى ومعنى بركان واستنبرى الرعد والبرق.

وأما الشريف الادريسي فقال بركان اسم لجبلين أحدهما في جزيرة منقطعة في الشمال عن صقلية ولا يعلم في العالم أشنع منظراً منه. والبركان الثاني في جزيرة صقلية في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف.ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارةً والدخان أخرى. وكلما هاجت الرياح اجتمع بتلك الكهوف تلال من الرمل كأنها مادة لتلك النار. وفي تلك الكهوف مواضع للتنفس يسمع لها دوي مثل نباح الكلاب. القِرم اسم للإقليم وهو يشتمل على نحو أربعين بلداً منها صلغات و صوداق والكفا المشهورات. وقد يطلق القرم على صلغات خاصة وصلغات والكفا وصوداق كالأثافي فصلغات عن الكفا شمال بغرب وعن صوداق بشمال بشرق والكفا عن صوداق في سمت الشرق. وبين كل واحدة من هذه المدن الثلاث وبين الأخرى مسيرة يوم، وصارى كرمان عن هذه الثلاث في سمت الغرب وبين صارى كرمان وصوداق نحو خمسة أيام.

قال في "العزيزي" وخليج قسطنطينية إذا جاوزها الى الجنوب ضاق حتى يصير عرضه رمية سهم عند موضع يقال له أندس، ومن هذه الموضع عبر مسلمة بن عبد الملك الى القسطنطينية والموضع المذكور قريب من مصب الخليج القسطنطيني في بحر الروم. وأظنُ أندس الذي ذكره في "العزيزي" هو المسمى في الكتب برنديس. قالوا: وبرنديس في أول الخليج القسطنطيني من الجهة الجنوبية الغربية. قال في"العزيزي" والخليج يطوف بقسطنطينية من شرقيها وشماليها وأما جانباها الغربي والجنوبي ففي البر ولها في هذين الجانبين نحو مائة باب. قال ولقسطنطينية أربعة عشر أعمالاً في غربي الخليج وشرقيه. أقول وكان يقال لمن يتولى عملها الذي في شرقي الخليج الدمستق، وله ذكر في حروب الإسلام مع الروم في أيام سيف الدولة بن حمدان وغيره. ومن تلك البلاد كوماجر وهي مدينة في مملكة تتر بركة قريبة من الوسط بين باب الحديد، والأزق فهي شرقي الأزق وغربي باب الحديد بميلة عنهما الى الجنوب، وبالقرب من تلك البلاد الكزى، وهم جنس يسكنون في الجبل الفاصل بين التتر الشماليين (تتر بركة) وبين التتر الجنوبيين (تتر هلاوو) ومدينتهم تسمى لكز، وفي شمال الكز القيتق. والقيتق جنس أيضاً يسكنون في الجبل المتصل بالكز من شماليهم وهم قطّاع طريق وجبلهم متحكم على باب الحديد، ومما يقع في شمالي العمارة بلاد الروس وهم في شمالي مدينة بلار، وشمالي الروس القوم الذين يبايعون مغايبة.

قال بعض من سافر الى تلك البلاد إنهم يتصلون بساحل البحر الشمالي. قال فإذا وصل القفل الى تخومهم أقاموا حتى يعلموا به ثم يتقدمون الى المكان المعروف بالبيع والشراء ويحط كل تاجر بضاعته معلّمة ويرجعون الى منازلهم فيحضر أولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمّور والثعلب والوشق وما شاكل ذلك يدعونه ويمضون، ثم يحضر التجار فمن أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه حتى يتفاصلوا على الرضى. قال في"العزيزي"إن على يمين بلاد البلغار في نحو الجنوب مملكة الكاساق أمّة بين الابخاز وبين اللان، ثم يصير على

يمين بلاد البلغار، وفي الجنوب مملكة اللان الى آخر حدّ البلغار، ثم يتصل بعد ذلك من نحو الجنوب بمملكة الخزر، وهو آخر حدّ البلغار لافضائه الى امّة يقال لها المروسية، جيل من البلغار شداد عظائم الخلق، لا يقوم للرجل منهم عشرة من أشد غيرهم جاهلية يعبدون الشمس. وفي شرقي المروسية الى بلاد الروسية. وفي شمالي الصقالبة مفاوز لا عمارة فيها الى البحر المحيط ولا يسكن لشدة البرد الذي بها الى نحو الروسية، وهم أمة من الاتراك يتصلون بالشرق بالغزبة من الاتراك.)

تشكّلت لدينا صورة بانورامية للأبعاد الجغرافية والبشرية لبلاد الشمال، بداية من الجنوب المحاذي للبحر المتوسط، وصولا إلى المناطق المجاورة للقطب الشمالي. إنها صورة تصلح لأن نقيم عليها المعلومات اللاحقة، بحيث تتاح لنا معرفة مواقع خطانا الآتية، ونحن نتوغّل في هذه البلاد الغامضة بمناخاتها الطبيعية والبشرية الصعبة والمختلفة عن دار الإسلام في أشياء كثيرة، مانحتاج إليه هو كشف الأعماق التاريخية لشعوب الشمال. ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من المدونات الإسلامية تعتبر الركيزة الأساسية للتواريخ الأصلية لبعض بلاد الشمال. وفيما يخص التعريف الجغرافي المباشر الخاص بأسماء المدن والممالك، فيمكن أن يكون الأدريسي مفيدا، لكن الأحوال الاجتماعية والدينية والثقافية لا تلفت انتباهه، ويتحول القسم الخاص ببلاد الشمال من كتابه"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"إلى قائمة خاصة بأسماء المدن والمسافات الفاصلة فيما بينها. والنصوص التي سيتوالى ظهورها في هذا الكتاب بعد قليل لها أهمية كبيرة من ناحية القدم التاريخي والمعلومات التي تخصّ معظم شعوب الجزء الشمالي من الأرض. ونورد نصين متتالين للمسعودي المولع بالاستقصاءات المعمّقة والمتشعّبة التي تدمج بين الأبعاد التاريخية والدينية والانثربولوجية للمجتمعات التي يكتب عنها.

4. أخبار أمم الشمال من الّلان، والخزر، والترك، والروس. المسعودي. من كتاب (مروج الذهب)

(أما جبل القبخ فهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم. وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها. وهذا الجبل ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شعب من شعابه، بناها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين بحر الخزر، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه ماداً الى البحر، ثم على جبل القبخ ماداً في أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحواً من أربعين فرسخا إلى أن ينتهي ذلك إلى قلعة يقال لها طبرستان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذي جعل الباب من أجله باباً من حديد، وأسكن فيه على كل باب من داخله أمة تراعي ذلك الباب وما يليه من السور، كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر، واللاّن، وأنواع الترك، والسرير، وغيرهم من أنواع الكفار. وجبل القبخ يكون في المسافة علواً وطولاً وعرضاً نحواً من شهرين، بل وأكثر، وحوله أمم لا يحصيهم إلا الخالق عز وجل، أحد شعابه على بحر الخزر مما يلي الباب والأبواب، ومن شعابه مما يلي بحر مايطس الذي ينتهي إليه خليج القسطنطينية.

وعلى هذا البحر طرابزندة، وهي مدينة على شاطىء هذا البحر لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم من بلاد كشك. ولما بنى أنوشروان هذه المدينة المعروفة بالباب والأبواب والسور في البر والبحر والجبل أسكن هناك أمماً من الناس وملوكاً، وجعل لهم مراتب رَتَّبهم عليها، ووسم كل أمة منهم بسمة معلومة، وحدَّ له حداً معلوماً على حسب فعل أردشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان؛ فممن رتب منهم أنوشروان من الملوك في بعض هذه البقاع والمواضع مما يلي الإسلام من بلاد بردعة ملك يقال له شروان، ومملكته مضافة إلى اسمه فيقال له شروان شاه، وكل ملك يلي هذا الصقع يقال له شروان. وتكون مملكته في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - نحواً من شهر؛ لأنه كان تغَّلب على مواضع لم يكن رسمها له أنو شروان فانضافت إلى ملكه، والملك في هذا الوقت.. مسلم يقال له محمد بن يزيد، وهو من ولد بهرام جور، لا خلاف في نسبه، وكذلك ملك السرير من ولد بهرام جور، وكذلك صاحب خراسان في هذا الوقت.. من ولد إسماعيل بن أحمد، وإسماعيل من ولد بهرام جور، لا خلاف فيما ذكرنا من شهرة أنساب من ذكرنا، وقد تملك محمد بن يزيد هذا وهو شروان على مدينة الباب والأبواب، وذلك بعد موت صهر له يقال له عبدالملك بن هشام، وكان رجلا من الأنصار، وكان فيه إمرة الباب والأبواب، وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مسلمة بن عبدالملك وغيره من أمراء الإسلام في صدر الزمان.

وتلي مملكة شروان مملكة أخرى من جبل القبخ يقال لها **الإيران**، وملكها يدعى الإيران شاه، وقد غلب على هذه المملكة في هذا الوقت شروان أيضاً، وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الموقانية، والمعوّل في مملكته على مملكة اللكز، وهي أمة لا تحصى كثرة ساكنة في أعالي هذا الجبل، ومنهم كفار لا ينقادون إلى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون إلى ملك، ولهم أخبار طريفة في المناكح والمعاملات. وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج، فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضاً لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه في الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره، وغلب هذا الرجل المعروف بشروان على ممالك كثيرة من هذا الجبل كان رسمها كسرى أنوشروان لغيره ممن رتب هناك، فأضافها محمد بن يزيد إلى ملكه: منها خراسان شاه وزادان شاه. وتلي مملكة شروان في جبل القبخ مملكة **طبرستان**، وملكها في هذا الوقت مسلم، وهو ابن أخت عبدالملك الذي كان أمير الباب والأبواب، وهي أول الأمم المتصلة بالباب والأبواب.

وببوادى أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها **جيدان**، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان. افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي رضي الله تعالى عنه، فانتقل الملك عنها إلى مدينة آمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام. وآمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس. وهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين، والنصارى، واليهود، والجاهلية. فأما اليهود فالملك

وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهوَّد ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم، في وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وهو أرمنوس، نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم في ملكه في هذا الوقت المؤرخ، فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا.. وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس: منهم الصقالبة، والروس، وهم في أحد جانبي هذه المدينة، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى. وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإن مات منهم أعزب زوج بعد وفاته. والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة. وهذا فعل من أفعال الهند إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة.

والغالب في هذا البلد المسلمون؛ لأنهم جند الملك، وهم يعرفون هذا البلد باللارسية، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جدب ووباء، فانتقلوا إلى ملك الخزر، وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه، وأقاموا في بلده على شروط بينهم: أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان، و ثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم، والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه، وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم رامحة أيضاً على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح، ولهم قضاة مسلمون. ورَسْمُ دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة: اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية؛ فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام. وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم اللارسية، والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده، وفي بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارسية فروا إلى بلاده لعدله وأمنه، ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة.

قال المسعودي: وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان، وذلك أن للخزر ملكاً يقال له خاقان، ورسمه أن يكون في يدي ملك آخر وهو وغيره، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حرمه، لا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئاً، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته، ومعه في حيزه، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم، أو فاجأهم أمر من الأمور، نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر، فقالوا له: قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمنا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله،



فربما سلمه إليهم فقتلوه، وربما تولى هو قتله، وربما رقّ له فدافع عنه؛ لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه...فلست أدري أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث؟ وإنما منصب خاقان هذا من أهل بيتٍ بأعيانهم أرى أن الملك كان فيهم قديماً، والله أعلم. وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها، يقال له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبرغز، يرد هذا النهر من نحو بلاد البرغز، والسفن تختلف فيه من البرغز والخزر.

وبرطاس أمة من الترك على هذا النهر المعروف بهم، ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود والحمر التي تعرف بالبرطاسية، يبلغ الجلد منها مائة دينار، وأكثر من ذلك، وذلك من السود، والحمر أخفض ثمناً منها، وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم، وتتنافس في لبسه، وهو أغلى عندهم من السمور والفنك وما شاكل ذلك، وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف والدواويج ويتعذر في الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود. وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس، وهو بحر "الروس" لا يسلكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله، وهي أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة، وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز وللروس في أرضهم معدن الفضة كثير نحو معدن الفضة الذي بجبل بنجهير من أرض خراسان.

ومدينة **البرغز** على ساحل بحر مايطس، وأرى أنهم في الإقليم السابع، وهم نوع من الترك، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان، ومن خوارزم إليهم، إلا أن ذلك بين بوادي غيرهم من الترك، والقوافل مخفرة منهم. وملك البرغز في وقتنا هذا- وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة- مسلم، أسلم في أيام المقتدر بالله، وذلك بعد العشر والثلثمائة، وذلك لرؤيا رآها، وقد كان له ولد حجَّ، وورد مدينة السلام، وحمل معه للمقتدر لواء وبنوداً ومالا ولهم جامع، وهذا الملك غزا بلاد القسطنطينية في نحو خمسين ألف فارس فصاعداً ويشن الغارات حولها إلى بلاد رومية، والأندلس، وأرض برجان، والجلالقة، والإفرنجة. ومنهم إلى القسطنطينية نحو شهرين متصلين عمائر ومفاوز، وقد كان المسلمون - حين غزوا من بلاد طرسوس من الثغر الشامي مع أمير الثغور ثمل الخادم المعروف بالزلفي ومن كان معه من مراكب الشاميين والبصريين سنة اثنتي عشرة وثلثمائة - قطعوا فم خليج القسطنطينية وفم خليج آخر من البحر الرومي لا منفذ له، وانتهوا إلى بلاد فندية، وأتاهم في البحر جماعة من البرغز ينجدونهم، وأخبروهم أن ملكهم بالقرب، وهذا يدل على ما وصفنا أن البرغز تتصل سراياها إلى ساحل بحر الروم، وكان نفر منهم ركبوا في مراكب الطرسوسيين، فأتوا بهم إلى بلاد طرسوس. والبرغز أمة عظيمة منيعة شديدة البأس، ينقاد إليها من جاورها من الأمم، والفارس ممن أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار، ولا يمتنع أهل القسطنطينية منهم في هذا الوقت إلا بسورها، وكذلك كل من كان في هذا الصقع لا يعتصم منهم إلا بالحصون والجدران، والليل في بلاد البرغز في نهاية من القصر في بعض السنة، ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع ان يفرغ من طبخ قدرة حتى يأتي الصباح، وعلة الموضع الذي يكون الليل فيه ستة أشهر متصلة لا نهار فيه، والنهار ستة أشهر متصلة لا ليل فيه..



والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوذعانة، وهم الأكثرون، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس وورومية وقسطنطينية والخزر، وقد كان بعد الثلاثمائة ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج نيطس المتصل ببحر الخزر، وهنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدّون من يرد من ذلك البحر، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذي شعبه من بحر الخزر تتصل ببحر نيطس، وذلك أن بوادي الترك الغز ترد إلى ذلك البر وتُشتِّي هنالك، فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى خليج نيطس، فتعبر الغز عليه بخيولها، وهو ماء عظيم، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره، فتغير على بلاد الخزر، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد. وأما في الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور، فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا، ويجعلوا للملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر، فأباحهم ذلك، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه، وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء، حتى وصلوا إلى نهر الخزر، وانحدروا فيه إلى مدينة آمل واجتازوا بها، وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزري، ومن مصب النهر إلى مدينة آمل وهو نهر عظيم، وماء كثير فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجيل والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة، ونحو بلاد أذربيجان وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو من ثلاثة أيام، فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنت الغارات، وأخربت، وأحرقت، فضج من حول هذا البحر من الأمم، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار والصيد. وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم مع قائد لابن أبي الساج، فانتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة. وكانت الروس تأوى عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منها، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم، فاستعد الناس، وركبوا في القوارب، ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق ألوف، وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس مهتابون لهم، حذرون منهم لأنه بحر غامر لمن حوله من الأمم، فلما غنموا و سئموا ماهم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبه، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم.

وملك الخزر لا مراكب له، وليس لرجاله بها عادة، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة، وعلم بشأنهم اللارسية ومن في البلاد الخزر من المسلمين، فقالوا للملك الخزر: خلنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين، وسفكوا الدماء، وسبوا النساء والذراري، فلم يمكن الملك منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم، وعسكروا، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها، وصافُّوا المسلمين، وكان مع المسلمين خلق من النصارى

من المقيمين بمدينة آمل، وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم، وأخذهم السيف: فمن قتيل، وغريق، ونجا منهم نحو خمسة آلاف، وركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر؛ فمنهم من قتله أهل برطاس، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغز إلى المسلمين فقتلوهم، وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً، ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا. قال المسعودي: وإنما ذكرنا هذه القصة دفعاً لقول من زعم أن بحر الخزر متصل ببحر مايطس وخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس ونيطس، ولما كان لهذا البحر اتصال بخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس أونيطس لكانت الروس قد خرجت فيه، إذ كان ذلك بحرها على ما ذكرنا، ولا خلاف بين من ذكرنا ممن تجاوز هذا البحر من الأمم في أن بحر الأعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار؛ لأنه بحر صغير يحاط بعلمه، وما ذكرنا من مراكب الروس فمستفيض في تلك البلاد عند سائر الأمم، والسنة معروفة، وكانت بعد الثلاثمائة. وقد غاب عني تاريخها، ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن بحر الخزر هو بحر مايطس ونيطس الذي هو بحر البرغز والروس، والله أعلم بكيفية ذلك. وساحل طبرستان على هذا البحر، وهنالك مدينة يقال لها الهم، وهي فرضة قريبة من الساحل، وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار.

وعلى ساحل جرجان، مما يلي هذا البحر، مدينة يقال لها آبسكون، على نحو من ثلاثة أيام من جرجان، وعلى هذا البحر الجيل والديلم، وتختلف المراكب بالتجارات فيه إلى مدينة آمل؛ فيدخل في نهر الخزر إليها، وتختلف المراكب فيه بالتجارات من المواضع التي سمينا من ساحله إلى باكة، وهي معدن النفط الأبيض وغيره، وليس في الدنيا-والله أعلم- نفط أبيض إلا في هذا الموضع، وهي على ساحل مملكة شروان، وفي هذه النفاطة أطمة، وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تتضرَّم الصعداء. ويقابل هذا الساحل في البحر جزائر: منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من الساحل فيها أطمة عظيمة تزفر في أوقات من فصول السنة فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء كأشمخ ما يكون من الجبال العالية فتضيء الأكثر من هذا البحر، ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر، وهذه الأطمة تشبه أطمة جبل البركان من بلاد صقلية من أرض الإفرنجة، ومن بلاد إفريقية من أرض المغرب. وليس في آطام الأرض أشد صوتاً ولا أسود دخاناً ولا أكثر تلهباً من الأطمة التي في أعمال المهراج، وبعدها أطمة وادي برهوت، وهي نحو بلاد سبأ و حضرموت من بلاد الشِّحر، وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمان، وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء، ويدرك حساً من أميال كثيرة، ثم ينعكس سفلا فيهوى إلى قعرها وحولها، والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت مما قد أحالها من مواد حرارة النار.

وفي هذا البحر جزائر أخرى مقابلة لساحل جرجان، يصاد منها نوع من البُزاة البيض، وهذا النوع من البزاة أسرع الضوارى إجابة، وأقلها معاشرة، إلا أن في هذا النوع من البزاة شيئاً من الضعف، لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك، فإذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف. وقد قال الجمهور من

أهل المعرفة بالضوارى وأنواع الجوارح من الفرس والترك والروم والهند والعرب: إن البازي إذا كان إلى البياض في اللون فإنه أسرع البُزَاة وأحسنها، وأنبلها أجساماً، وأجرؤها قلوباً، وأسهلها رياضة؛ وإنه أقوى جميع البزاة على السمو في الجو، وأذهبها الصعداء، وأبعدها غاية في الهواء؛ لأن فيها من حرف الحرارة وجراءة القلب ما ليس في غيرها من جميع أنواع البُزاة، وإن اختلاف ألوانها لاختلاف مواضعها، وإن من أجل ذلك خلصت البيض لكثرة الثلج في أرمينية وأرض الخزر وجرجان وما والاها من بلاد الترك. وقد حكى عن حكيم من خواقين الترك -وهم الملوك المنقادة إلى ملكهم جميع ملوك الترك- أنه قال: إن بُزاة أرضنا إذا أسقطت أنفس فراخها من الوعاء إلى الفضاء سمت في آخر الجو إلى الهواء البارد الكثيف فأنزلت دواب تسكن هناك فتغذيها بها؛ فلا تلبث أن تقوى وتنهض لإسراع الغذاء فيها، وأنهم ربما وجدوا في أوكارها من تلك الدواب أشلاء.

ومن يلي السور من الأمم وجبل القبخ، وقد قلنا أن شر الملوك ممن جاورها من الأمم مملكة **جيدان**، وملكهم رجل مسلم يزعم أنه من العرب من قحطان، ويعرف بسلفان في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله. وأرى أن هذه السمة يسمى بها كل ملك لهذا الصقع. وبين مملكة جيدان وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية في آجام هناك وغياض وأودية وأنهار كبار من قرى قد سكنوها، وقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذي افتتحت فيه تلك الديار ممن طرأ من بوادي العرب إليها، فهم مجاورون لمملكة جيدان، إلا أنهم ممتنعون بتلك الأشجار والأنهار، وهم على نحو ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب، وأهل الباب يحذرونهم.

ويلي مملكة جيدان مما يلي جبل القبخ والسرير ملك يقال له برزبان مسلم، ويعرف بلده بالكرج، وهم أصحاب الأعمدة وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزبان. ثم يلي مملكة برزبان مملكة يقال **غميق**، وأهلها أناس نصارى لا ينقادون إلى ملك، ولهم رؤساء، وهم مهادنون لمملكة اللان. ثم يليهم مما يلي السرير والجبل مملكة يقال لها **زريكران**، وتفسير ذلك عمال الزرد، لأن أكثرهم يعمل الزرد واليَلَبَ واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع الحديد، وهم ذوو ديانات مختلفة: مسلمون، ويهود، ونصارى، وبلدهم بلد خشن، قد امتنعوا بخشونته على من جاورهم من الأمم. ثم يلي هؤلاء مملكة **السرير** وملكها يدعى فيلان شاه، يدين بدين النصرانية..إنه من ولد بهرام جور، وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد-وهو الآخر من ملوك ساسان-حين ولى منهزم أقدم سريره الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بَهْرام جور ليسير بها إلى هذه المملكة فيحرزها هناك إلى وقت موافاته، ومضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه، فقطن ذلك الرجل في هذه المملكة، واستولى عليها، وصار الملك في عقبه؛ فسمى صاحب السرير، ودار مملكته تعرف بحمرج، وله اثنا عشر ألف قرية يستعبد منهم من شاء، وبلده بلد خشن منيع لخشونته، وهو شعب من جبل القبخ، وهو يغير على الخزر مستظهراً عليهم ؛ لأنهم في سهل وهو في جبل.

ثم تلي هذه المملكة مملكة **اللان** وملكها يقال له كركنداج، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم، وكذلك فيلان شاه، فهو الاسم الأعم لسائر ملوك السرير. ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص، وتفسير ذلك الديانة،

وله قصور ومنتزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى إليها، وبينه وبين صاحب السرير مصاهرة في هذا الوقت، وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر، وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الإسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية. وكانوا قبل ذلك جاهلية، فلما كان بعد العشرين والثلثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية وطردوا من كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين، وقد كان أنفذهم إليهم ملك الروم. وبين مملكة اللان وجبل القبخ قلعة وقنطرة على واد عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان. بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسبنديار ابن يستاسف بن بهراسب، ورتب في هذه القلعة رجالا يمنعون اللان عن الوصول إلى جبل القبخ، ولا طريق لهم إلا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة والقلعة على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من فيها. ولهذه القلعة المبنية على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر في وسطها من أعلى هذه الصخرة، وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمناعة، وقد ذكرتها الفرس في أشعارها، وما كان لإسبنديار بن يستاسف في بنائها، ولإسبنديار في الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم، وهو السائر إلى بلاد الترك، فخرب مدينة الصفر، وكانت من المنعة بالموضع العظيم الذي لا يرام، وبها تضرب الفرس الأمثال، وما كان من أفعال إسبنديار وما وصفنا فمذكور في الكتاب المعروف بكتاب البنكش، نقله ابن المقفع إلى لسان العرب. وقد كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان حين وصل إلى هذا الصقع ووطئ أهله أسكن في هذه القلعة أناساً من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع، وربما يحمل اليهم الرزق وأقوات من البر من ثغر تفليس، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام، ولو كان رجل واحد في هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع؛ لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقنطرة والوادي. وصاحب اللان يركب في ثلاثين ألف فارس، وهو ذو منعة وبأس شديد وذو سياسة بين الملوك، ومملكته عمائرها متصلة غير منفصلة، إذا تصايحت الديوك تجاوبت في سائر مملكته لاشتباك العمائر واتصالها.

ثم يلي مملكة اللان أمة يقال لها **كشك**، وهم بين جبل القبخ وبحر الروم، وهي أمة مطيعة منقادة إلى دين المجوسية، وليس فيمن ذكرنا من الأمم في هذا الصقع أنقى أبشاراً، ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدوداً، ولا أدق أخصاراً، ولا أظهر أكفالاً وأردافاً، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقي وأبقى على الكَدِّ، يبلغ الثوب عشرة دنانير، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء. واللاّن مستظهرة على هذه الأمة، لا تنتصف هذه الأمة من اللان، إلا أنها تمتنع من اللان بقلاع لها على ساحل البحر. وقد تُنوزع في البحر الذي هم عليه: فمن الناس من يرى أنه بحر الروم، ومنهم من يرى أنه بحر نيطس، إلا أنهم يقربون في البحر من بلاد طرابزندة، والتجارة تتصل بهم منها في المراكب، وتتجهز من قبلهم أيضاً، والعلة في ضعفهم عن اللان تركهم أن يملكوا

عليهم ملكا يجمع كلمتهم، ولو اجتمعت كلمتهم لم يُطقهم اللان ولا غيرها من الأمم، وتفسير هذا الاسم وهو فارسي إلى العربية التِّيه والصَّلَفُ، وذلك أن الفرس إذا كان الإنسان تائهاً صلفاً قالوا: كشك.

وتلي هذه الأمة التي على هذا البحر أمة أخرى يقال لبلادهم: **السبع بلدان**، وهي أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها، ولا نمى إلى خبرها في دينها. وتليها أمة عظيمة بينها وبين بلاد كشك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر الروم، وقيل: إلى بحر نيطس، ويقال لدار مملكة هذه الأمة **إرم ذات العماد**، وهم ذوو خلق عجيب، وآراؤها جاهلية، ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها، ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الاخر فيتناولون منها، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولا، وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار. ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء، في وسط تلك الصحراء دارة مقورة كأنها قد خطت ببيكار، وشكل دائرتها خسفة مجوفة في حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع قائم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفل إلى علو يكون قعره على نحو من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى وناس وبهائم، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع، لا يدري من أي الأمم هم، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه.

ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده ؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا انه لا لسان له فيعبر بالنطق؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤسها بالمذابِّ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب ويلقى الملك له من طعامه: فإن أكله أكل الملك منه، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة. إنه يلي بلاد الخزر واللان فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع: ترك ترجع إلى أب واحد في بدء أنسابهم، حضر وبدو، وذوو منعة وباس شديد، لكل أمة منها ملك، مسافة مملكته أيام متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطس، وتتصل عماراتها بمدينة رومية، وما يلي بلاد الأندلس، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة، وكذلك مع صاحب اللان، وديارهم تتصل ببلاد الخزر، فالجيل الأول منهم يقال لها **يجنى**، ثم تليها أمة ثانية يقال لها **بجغرد**، ثم تليها أمة يقال لها **بجناك**، وهي أشد هذه الأمم الأربعة بأساً، ثم تليها أمة ثانية يقال لها **نوكرده** وملوكهم بدو، وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة، أو فيها.

وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها **ولندر**، فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم، ولم يكن

لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والبحر إياهم، ومن في هذه المدينة، وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل: كان نازلا على أرض بعضهم، فاستضافه ناس من الجبل الاخر، فاختلفت الكلمة، وأغار من في ولندر من الروم على ديارهم وهم عنها خُلُوف، فسبوا كثيراً من الذرية، وساقوا كثيراً من الأموال، ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم، فاجتمعت كلمتهم، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء، وعمد القوم جميعاً نحو مدينة ولندر، فساروا إليها في نحو من ستين ألف فارس، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمُّع، ولو كان ذلك لكانوا في نحو من مائة ألف فارس، فلما نمى خبرهم إلى أرمنوس ملك الروم في هذا الوقت- وهوسنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة- سير إليهم اثني عشر ألف فارس من المتـــنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم، فوصلوا إلى مدينة ولندر في ثمانية أيام، وعسكروا وراءها، ونازلوا القوم، وقد كانت الترك قتلت من أهل ولندر خلقاً كثيراً من الناس، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد. ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المتـــنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم، وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار.

فلما تصافَّ القوم وبرزت المتـــنصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قِبَلَ الترك من التجار المسلمين فدعوهم إلى ملة الإسلام، وأنهم إن دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام، فأبوا ذلك، وتواقَفَ الفريقان في ذلك الوقت، فكانت للمتـــنصرة والروم على الترك، لإنهم كانوا في الكثرة أضعاف الترك، وباتوا على مَصَافِّهم، وتشاور ملوك الترك الأربعة فقال لهم ملك بجناك: قلدوني التدبير في غداة غد، فأنعموا له بذلك، فلما أصبح جعل في جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كردوس منها ألف، وكذلك في جناح الميسرة، فلما تصافَّ القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى الميسرة، وخرجت كراديس الميسرة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى موضع من خرج من جناح الميمنة، واتصل الرمى، واتصلت الكراديس كالرحى، والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة، والكراديس تعمل عليها في اللفيق، وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدىء فيرمى في جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهي إلى القلب، وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى في جناح ميمنة الروم، وينتهي إلى الميسرة فيرمى، وينتهي إلى القلب فيرمى، فيكون ملتقى الكراديس في القلب دائراً على ما وصفنا، فلما نظرت المتـــنصرة والروم إلى ما لحقهم من تَشَوُّش صفوفهم وتواتر الرمي عليهم حملوا على القوم مشوشين في مصافهم، فصادفوا صفوف الترك ثابتة، فأخرجت لهم الكراديس، فرشقتهم الترك كلها رشقاً واحداً، فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم، وعقبهم الترك بعد الرشق بالحملة على صفوفهم وهم غير متشوشين عما كانوا عليه من التعبئة، وركضت الكراديس من اليمين والشمال، وأخذ القوم السيف، وأسود الأفق، وكثر صياح الخيل، فقتل من الروم والمتـــنصرة نحو من ستين ألفاً حتى كان يصعد إلى سور المدينة على

جثثهم، فافتتحت المدينة، وأقام السيف يعمل فيها أياماً، وسبي أهلها، وخرج عنها الترك بعد ثلاثة أيام يؤمون القسطنطينية، ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلا وأسرا و سبيا، حتى نزلوا على سور القسطنطينية، فأقاموا عليها نحواً من أربعين يوماً يبيعون المرأة والصبي منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير، وبذلوا السيف في الرجال فلم يبقوا على أحد منهم، وربما قتلوا النساء والولدان، وشنُّوا الغارات في تلك الديار، فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة وررومية، ثم اتصلت غاراتهم في هذا الوقت إلى نحو بلاد الأندلس والإفرنجة والجلالقة، فغارات من ذكرنا من الترك متصلة إلى أرض القسطنطينية وما ذكرنا من الممالك إلى هذه الغاية.

فلنرجع الآن إلى ذكر جبل القبخ والسور والباب والأبواب؛ إذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الأمم القاطنة في هذا الصقع، فمن ذلك أن أمة تلي بلاد اللان يقال لها **الأبخاز** منقادة إلى دين النصرانية، ولها ملك في هذا الوقت، وملك اللان مستظهر عليهم، وهم متصلون بجبل القبخ، ثم يلي ملك الأبخاز ملك **الجورية،** وهي أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى خزران، ولها ملك في هذا الوقت، يقال له الطبيعي، وفي مملكة هذا الطبيعي موضع يعرف بمسجد ذي القرنين. وكانت الأبخاز والخزرية تؤدي الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل؛ فإنه كان بها رجل يقال له إسحاق بن إسماعيل، وكان مستظهراً بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم، وهم منقادون إلى طاعته وأداء الجزية إليه، وعلا أمر من هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثاً فترل على ثغر تفليس، وأقام عليها محارباً حتى افتتحها بالسيف، وقتل إسحاق بن إسماعيل؛ لأن إسحاق بن إسماعيل كان متغلباً على الناحية. وكانت له أخبار يطول ذكرها، وهي مشهورة في أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن عنى بأخبار العالم، وأراه رجلا من قريش من بني أمية أو مولى لاحقاً، فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس من ذلك الوقت إلى هذه الغاية، فامتنع من جاورهم من الممالك من الإذعان لهم بالطاعة، واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس، وانقطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تفليس بين هؤلاء الأمم من الكفار؛ إذ كانت محيطة بذلك الثغر، وأهلها ذوو قوة وبأس شديد، وإن كان ما ذكرنا من الممالك محيطاً بهم.

ثم تلي مملكة خزران مملكة يقال لها **الصمخي،** نصارى وفيهم جاهلية لا ملك لهم، ثم تلي مملكة هؤلاء الصمصخية بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان المقدم ذكرها مملكة يقال لها **الصنارية،** وملكهم يقال له كرسكوس، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم، وينقادون إلى دين النصرانية، وهؤلاء النصرانية يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد من مضر، وأنهم فخذ من عقيل، سكنوا هنالك من قديم الزمان، وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم، ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل محالفة لمذحج، لا فرق بينهم وبين أحلافهم؛ لاستقامة كلمتهم، فيهم خيل كثيرة ومنعة، وليس في اليمن كلها قوم من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل، إلا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار بن معد، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر..ثم تلي مملكة الصنارية مملكة **شكين،** وهم نصارى وفيهم خلق من المسلمين من التجار وغيرهم من ذوي المهن. ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا آزر بن نبيه بن مهاجر. ثم تليهم مملكة **قيلة** وما حوت

المدينة منها مسلمون، وما حولها من العمائر والضياع نصارى. ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الأعور، وهو مأوى اللصوص والصعاليك والدُّعَّار. ثم تلي هذه المملكة مملكة **الموقان**، وهي التي قدمنا ذكرها، وأنها متغلبٌ عليها، وأنها مضافة إلى مملكة شروان شاه، وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو الملك الذي على ساحل بحر الخزر. وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه في هذا الوقت ملك الإيران شاه هو ومن سلف من آبائه، وكان ملك شروان شاه علي بن الهيثم، فلما هلك علي تغلّب محمد على شروان شاه..بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ما ذكرنا من الممالك، وله قلعة لا يذكر في قلاع العالم أحسن منها في جبل القبخ. وللباب أخبار كثيرة من أخبار الأبنية العجيبة التي بناها كسرى بن قباذ بن فيروز- وهو أبو كسرى أنوشروان- في الموضع المعروف بالمسقط من المدينة بالحجارة والحيطان التي بناها ببلاد شروان المعروف بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكي وما يتصل ببلاد برذعة..).

يستخدم المسعودي كلمة (أخبار)، شانه شأن معظم المؤرّخين والجغرافين المسلمين الأوائل، بمعنى (تواريخ). وكما لاحظنا فقد عرض جانبا من تواريخ بعض شعوب الشمال، وبخاصة منها تلك التي استوطنت أقاصي الشمال، لكنه في النص الآتي يلتفت إلى قضية أخرى متصلة بمنطقة أخرى من مناطق الشمال، إنها بلاد الروم وما يجاورها، ليكشف لنا هذه المره أمرا على غاية من الأهمية، وهو انتشار المسيحية في الحدود الجنوبية لبلاد الشمال، قبل أن يعمّ انتشارها في تلك المناطق فيما بعد كاملة في القرن العاشر الميلادي.

5. دخول النصرانية إلى بلاد الروم. المسعودي. من كتاب (مروج الذهب)

(مَلك قسطنطين بعد أن هلك قليطانس برومية، وهو يعبد الأوثان. وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بوزنطيا، وهي مدينة القسطنطينية، فبناها وسمّاها باسمه إلى وقتنا هذا، وكان له في بنائها خبر ظريف مع بعض ملوك برجان؛ لخوف داخله من بعض ملوك ساسان، وكان خروجه من رومية، ودخوله في دين النصرانية، لسنة خلت من ملكه؛ ولتسع سنين خلت من ملكه خرجت أمه (هلاني) إلى أرض الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح عندهم، فلما صارت إليها حلّتها بالذهب والفضة، واتخذت لوجودها عيداً، وهو عيد الصليب، وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول، وفيه تفتح الترع والخلجانات ببلاد مصر، وهي التي بنت كنيسة حمص على أربعة أركان، وذلك من عجائب بنيان العالم، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام، وصرفت ذلك إلى بناء الكنائس، وتشييد دين النصرانية. وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم؛ فإنها بنتها هذه الملكة (هلاني) أم قسطنطين، وجعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها... ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلاني اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم، فأقاموا دين النصرانية. وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة التي يذكرها الروم في صلواتهم ويسمونها القوانين، ومعنى هذه الاجتماعات الستة بالرومية السنودسات، واحدها سنودس. فالأول بنيقية على ما ذكرنا من العدد، وكان الاجتماع فيه على أريوس، وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية من

الملكية والمشارقة، وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية، واتفاق من اليعاقبة على هذا السنودس أيضاً. والسنودس الثاني بالقسطنطينية على مقدونس، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا. والسنودس الثالث بأفسوس وعددهم مائتا رجل. والسنودس الرابع بخلقدونية، وعددهم ستمائة وستون رجلا. والسنودس الخامس بقسطنطينية، وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا. والسنودس السادس كان في مملكة المدائن، وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلا. وسنذكر بعد هذا الموضع في ترتيب ملوك الروم هذه السنودسات، وغلبة دين النصرانية، وزوال عبادة التماثيل والصور.

وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلاني في دين النصرانية والرغبة فيه أن قسطنطين خرج في بعض حروب برجان، أو غيرهم من الأمم، وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من سنة، ثم كانت عليه في بعض الأيام، فقتل من أصحابه خلق كثير، فخاف البوار، فرأى في النوم كأن رماحاً نزلت من السماء، فيها عذاب، وأعلاماً على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس، وأنواع الجواهر والخشب وقيل له: خذ هذه الرماح، وقاتل بها عدوك تنصر فجعل يحارب بها في النوم، فرأى عدوه منهزماً، وقد نصر عليه، وولاه الدبر. فاستيقظ من رقدته، ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا، ورفعها في عسكره، وزحف إلى عدوه، فولوا وأخذهم السيف. فرجع إلى مدينة نيقية، وسأل عن أهل الخبرة عن تلك الصلبان، وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنحل؟ فقيل له: إن بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب، وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قتل النصرانية. فبعث إلى الشام، وإلى بيت المقدس، فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فأتوه وهو بنيقية، فقصّ عليهم أمره، فشرعوا له دين النصرانية. فهذا هو السنودس الأول، وهو الاجتماع على ما ذكرنا، وقد قيل: إن أم قسطنطين هلاني كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا. وكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة، وفي وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمساً وعشرين سنة...

قال المسعودي: ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظم العلماء، وتشرف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة- أعني: الإرتماطيقي، وهو علم الأعداد والجومطريقي، وعلم المساحة والهندسة، والاسترنوميا، وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون- ولم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاوم، سامية البناء إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته. وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم الموسيقى؛ لأنه غذاء للنفس، ومطرب لها، وملهيها، تبتهج عند سماعه، وتحنُّ إلى تأليف أوضاعه، وقد نطقت الحكماء بشرفه، ونبهت على نفاسة محله، فقال الإسكندر: من فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات، وقد قالت الفلاسفة: إن النغم والأغاني فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في قدرته، فلم يقدر على إخراجها، فأخرجتها النفس ألحاناً، فلما أظهرتها سُرَّت بها وعشقتها وطربت إليها. ورتبت الحكماء

الأوتار الأربعة بإزاء الطبائع الأربع، فجعلوا الزير بإزاء المرة الصفراء، والمثنى بإزاء الدم، والمثلث بإزاء البلغم، والبمَّ بإزاء المرة السوداء..

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلاني الملك المتـــنصّر (قسطنطين بن قسطنطين) وهو ابن ملك الماضي، وكان ملكه أربعاً وعشرين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيد دين النصرانية. ثم تملك ابن أخي قسطنطين الأول (لليانس) فرفض دين النصرانية، ورجع إلى عبادة الأوثان، وهو لليانس المعروف بالحنيفي. وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه (لليانس) البزطاط. وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير بن بابك، فأتاه سهْمٌ غرب فذبحه. وقد كان سار إلى العراق في جنود لا تحصى، و لم يكن لسابور حيلة في دفعه ولقائه لمفاجأته إياه، فانصرف سابور عن اللقاء إلى الحيلة في دفعه. وكان من أمره ما وصفنا من سهم الغرب. وكان ملكه إلى أن هلك سنة، وقيل أكثر من ذلك، وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية. ولما هلك لليانس جزع من كان معه من الملوك، والبطارقة، والجيوش، ففزعوا إلى بطريق كان معظما فيهم، يقال له يونياس، وقيل: إنه كان كاتب الماضي، فأبى عليهم أن يتملك إلا أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك و ضايق سابور القوم، وأحاط بعساكرهم؛ فكان ليونياس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة، ثم افترقا، وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور، وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها إليه، وهدايا من لطائف الروم، وشيد هياكل في دين النصرانية، وردها إلى ما كانت عليه، ومنع من الأصنام والتماثيل، وقتل على عبادتها، وكان ملكه سنة.

ثم ملك بعده (أوالس) وهو على دين النصرانية، ثم رجع عنها، وهلك في بعض حروبه، وكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة. وقيل: إن في أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وهذا الموضع من أرض الروم في الشمال، وللناس ممن عنى بعلم الفلك في ازورار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن ذلك فقال (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم) وكانوا من أهل مدينة أفسيس من أرض الروم. ثم ملك بعد أوالس (غراطياس) خمس عشرة سنة، ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية، وهو أحد الاجتماعات فأتموا القول في روح القدس عندهم وأحرقوا مقدونس بطريق القسطنطينية، وهو السنودس الثاني. ثم ملك بعده (تدوسيس) الأكبر، وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية، وعظَّم منها، وبنى كنائس، و لم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم، وإنما كان أصله من الأشبان، وهم بعض الأمم السالفة، وقد كانت ممن ملك الشام ومصر والمغرب والأندلس. وقد تنازع الناس فيهم؛ فذكر الواقدي في كتابه "فتوح الأمصار" أن بدأهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الأولى. وذكر عبيدالله بن خرداذبة نحو ذلك, وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والأخبار. والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح، وهم ملوك الأندلس من اللّذارقة، واحدهم لذريق، وقد تنوزع في دياناتهم: فمنهم من رأى أنهم كانوا على دين المجوس، ومنهم من

رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الأصنام، وقد قلنا: إن الأشهر من أنسابهم أنهم من ولد يافث بن نوح، فكان مدة ملك تدوسيس إلى أن هلك عشر سنين.

ثم ملك بعده (أرقاديس) أربع عشرة سنة، وكان على دين النصرانية. ثم ملك بعده ابنه (تدوسيس الأصغر)، وذلك بمدينة أفسيس، وجمع مائتي أسقف، وهذا الاجتماع الثالث الذي قدمنا ذكره آنفاً ؛ ولعن فيه نسطورس البطرك؛ وقد ذكرنا في كتابنا (أخبار الزمان) الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية من صاحب الكرسي بالإسكندرية، وما كان من نسطورس، ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب، وما كان من يدوقيا زوجة الملك إلى أن نفى نسطورس من القسطنطينية إلى أنطاكية ثم منها إلى صعيد مصر، والمشارقة من النصارى أضيفوا إلى نسطورس؛ لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله، وإنما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيِّرهم وتعييبهم بذلك. وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تدعى بالعباد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة إلى نسطورس، ويكرهون أن يقال لهم نسطورية، وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأي المشارقة في الثالوث، وهو الكلام في الأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد، وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث، وكان ملك تدوسيس الأصغر إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده (مرقيانوس) ثم ملك الروم (بلخاريا) زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه، وفي أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى، ووقوع الخلاف بينهم في الثالوث، فكان ملكها سبع سنين. وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم ملكية، والنوبة والأرمن يعاقبة، ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد. وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات، وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم، وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسي بمصر، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين، وهما مصر وأنطاكية. ثم ملك بعدهما (اليون) الأصغر بن اليون، وكان ملكه ست عشرة سنة، وفي أيامه أحرم مسعرة اليعقوبي بطرك الإسكندرية، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفاً. وفي تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا، وذلك بخلقدونية، وهذا الاجتماع هو السنودس الرابع عند الملكية. واليعاقبة لا تعتد بهذا السنودس. ولهم خبر ظريف في قصة سوارى البطرك، وما كان من أمره، وخبر تلميذه يعقوب البراذعي، ودعوته إلى مذهب سوارى، واليعاقبة أضيفت إلى مذهب يعقوب البراذعي هذا، وبه عرفت وكان من أهل أنطاكية يعمل البراذع. ثم ملك بعده اليون الأصغر ابن إليون، سنة على دين الملكية.

ثم ملك بعده (زينو) وهو من بلاد الأرمينيان، وكان يذهب إلى رأى اليعقوبية، وكان ملكه سبع عشرة سنة، وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه في دار الملك، فظفر بهم. ثم ملك بعده (نسطاس) وكان يذهب إلى مذهب اليعقوبية، وبنى مدينة عمورية، وأصاب كنوزاً ودفائن عظيمة، وكان ملكه إلى أن هلك تسعاً وعشرين سنة. ثم ملك بعده (يوسطاناس) تسع سنين. ثم ملك بعده (يوسطاناس) تسعاً وثلاثين سنة، وقيل: أربعين، وبنى كنائس كثيرة، وشيد دين النصرانية، وأظهر مذهب الملكية، وبنى كنيسة الرها، وهي

إحدى عجائب العالم، والهياكل المذكورة، وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى، وذلك أن يسوع الناصرى- حين أخرج من ماء المعمودية – تنشف به ؛ فلم يزل هذا المنديل يتداول إلى أن قرر بكنيسة الرها، فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها في هذه السنة – وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – أعطى هذا المنديل للروم، فجنحوا إلى الهدنة، وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم. ثم ملك بعده ابن أخيه (نوسطيس) ثلاث عشرة سنة، على راي الملكية. ثم ملك بعده (طباريس) أربع سنين، وأظهر في ملكه أنواعاً من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك. ثم ملك بعده (موريقش) عشرين سنة، ونصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين، فقتل غيلة، وبعث أبرويز غضباً له بجيوش إلى الروم، وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا. ثم ملك بعده (فوقاس) ثمان سنين إلى أن قتل أيضاً. ثم ملك بعده (هرقل) وكان بطريقاً في بعض الجزائر قبل ذلك، فعمر بيت المقدس، وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة شرفها الله تعالى.)

لاحظنا كيف قدّم المسعودي تسلسلا لتاريخ الروم استنادا إلى عهود الملوك، واللافت اهتمامه بالحوادث الدينية، وبخاصة تسليط الضوء على المجمعات الدينية التي بلورت النصرانية، وصاغت قوانينها الكنسية بمحافل كثيرة، تمكنت خلالها من صهر التباينات المذهبية المتعارضة، وإن كانت لم تفلح تماما في توحيدها بصورة نهائية، وهو يشير بوضوح إلى موقع الكنيسة الشرقية التي لها منظور مختلف نسبيا عن الكنيسة الغربية، أقصد المذاهب الكنسية التي نشأت في الغرب، وتأثرت بالسياقات الثقافية والاجتماعية الخاصة بها، الأمر الذي جعل اللاهوت الكنسي الغربي مختلفا عن نظيره الشرقي. وليس من المبالغة القول إن المسعودي قدم تاريخاً مبكراً لهذه القضية، تاريخا يعود إلى القرن العاشر الميلادي، ذلك القرن الذي بالكاد استكمل فيه تنصير أوربا. ومع أن المسعودي تبنّى منهج التاريخ الشائع آنذاك، وهو يعتمد العهود السياسية المتعاقبة للملوك، فإنه لم يغفل الإشارة إلى حوادث لها قيمة كبيرة في سياق التاريخ الروماني، ومنها الدينية التي أشرنا إليها. والواقع أن المسعودي الذي يتميز بموسوعية نادرة في زمنه، لايلتزم هذا المنهج دائما، فهو كثيرا ما يعنى بما هو أهم من ذلك بكثير، قصدتُ وصف المجتمعات بخصائصها الدينية والثقافية والسياسية، كما ظهر ذلك في النصوص التي تظهر في هذا الكتاب. وفي النص الآتي يستطرد ابو الفداء في توسيع الموضوع نفسه.

6. الأمم التي دخلت النصرانية، أبو الفداء، من كتاب (المختصر في أخبار البشر).

(..فمنها أمة الروم.. وهذه الأمة على كثرتها وعظم ملوكها واتساع بلادها، إنما نجمت من بني العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وكان أول ظهورهم في سنة ست وسبعين وثلاثمائة لوفاة موسى عليه السلام، وساروا إلى البلاد المعروفة ببلاد الروم وسكنوها، وحينئذ ابتدأت الروم توجد. ومن كتاب ابن سعيد المغربي إن الروم يعرفون ببني الأصفر، والأصفر هو روم العيص بن إسحاق على أحد الأقوال من

الكامل، وغيره أن الروم كانت تدين بدين الصابئة، ويعبدون أصناماً على أسماء الكواكب، وما زالت الروم ملوكها ورعيتها كذلك حتى تنصر قسطنطين وحملهم على دين النصارى، فتنصروا عن آخرهم. ومن أمم النصارى الأرمن، وكانت بلادهم أرمينية، وقاعدة مملكتها خلاط فلما ملكها المسلمون صارت الأرمن رعية فيها، ثم تغلبت الأرمن على الثغور وملكوا من المسلمين طرسوس والمصيصة، واستولوا على تلك البلاد التي تعرف اليوم ببلاد سليس، وسليس مدينة، ولها قلعة حصينة، وهي كرسي مملكة الأرمن في زماننا هذا. ومنها الكرج، وبلادهم مجاورة لبلاد خلاط، آخذة إلى الخليج القسطنطيني، وممتدة إلى نحو الشمال، ولهم جبال منيعة، والكرج خلق كثير، وفد عليهم دين النصارى، ولهم قلاع حصينة وبلاد متسعة، وهم في زماننا هذا مصالحون للتتر، وبيت الملك عندهم محفوظ متوارث، يليه الرجال والنساء من ذلك البيت. ومنها الجركس وهم على بحر نيطش من شرقيه، وهم في شظف من العيش، والغالب عليهم دين النصارى. ومنها الروس ولهم بلاد في شمالي بحر نيطش، وهم من ولد يافث، وقد غلب عليهم دين النصارى.

ومنها البلغار منسوبون إلى المدينة التي يسكنونها، وهي في شرقي بحر نيطش، وكان الغالب عليهم النصرانية، ثم أسلم منهم جماعة. ومنها الألمان وهي من أكبر أمم النصارى، يسكنون في غربي القسطنطينية إلى الشمال، وملكهم كثير الجنود، وهو الذي سار إلى صلاح الدين بن أيوب في مائة ألف مقاتل، فهلك ملك الألمان المذكور وغالب عسكره في الطريق قبل أن يصلوا إلى الشام.. ومنها البرجان، وهم أيضاً أمة كبيرة، بل أمم كثيرة طاغية، قد فشا فيها التثليث، وبلادهم واغلة في الشمال، وأخبارهم وسير ملوكهم منقطعة عنا لبعدهم، وجفاء طباعهم، ومنها الإفرنج وهم أمم كثيرة، وأصل قاعدة بلادهم فرنجة، ويقال فرنسه، وهي مجاورة لجزيرة الأندلس من شماليها، ويقال لملكهم الفرنسيس، وهو الذي قصد ديار مصر وأخذ دمياط، ثم أسره المسلمون واستنقذوا دمياط منه، ومنّوا عليه بالإطلاق، وكان ذلك بعيد موت الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل محمد ابن أبي بكر بن أيوب.. وقد غلب الفرنج على معظم جزيرة الأندلس، ولهم في بحر الروم جزائر مشهورة مثل صقلية وقبرس وإقريطش وغيرها، ومنهم الجنوية، منسوبون إلى جنوة، وهي مدينة عظيمة، وبلاد كثيرة، وهي غربي القسطنطينية على بحر الروم. ومنها البنادقة، وهم أيضاً طائفة مشهورة، ومدينتهم تسمى البندقية، وهي على خليج يخرج من بحر الروم، يمتد نحو سبعمائة ميل في جهة الشمال والغرب، وهي قريبة من جنوة في البر، وبينهما نحو ثمانية أيام، وأما في البحر فبينهما أمد بعيد أكثر من شهرين، لأنهم يخرجون من شعبة البحر التي على طرفها البندقية، وقدرها سبعمائة ميل إلى بحر الروم مشرقاً، ثم يسيرون فيه مغرباً إلى جنوة، وأما رومية فهي مدينة عظيمة، تقع غربي جنوة والبندقية، وهي مقر خليفتهم، واسمه البابا، وهي شمالي الأندلس بميلة إلى الشرق. ومن أمم النصارى، الجلالقة وهم أشد من الفرنج، وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بدون استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمالي الأندلس، ومنها الباشقرد، وهم أمة كثيرة ما بين بلاد الألمان وبلاد إفرنجة، وملكهم وغالبهم نصارى، وفيه أيضاً مسلمون، وهم شرسو الأخلاق.)



7. ذكر الروم، ابن عبد المنعم الحميري (900 = 1495م) من كتاب (الروض المعطار)

(..واختلفوا في أصل نسبهم، فقال قوم: إنهم من ولد روم بن سماحيق بن هرينان بن علقان بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وقال: اَخرون إنهم من ولد روميل بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق.. وقال ابن الكلبي: وُلد لإسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام والعيص وهو عيصو وهو أكبرهم، وقد وُلدا تَوأمَين وإنما سمي يعقوبَ لأنه خرج من بطن أمه اَخذاً بعقب العيص، فَولِدُ العيص روم القسطنطينية وملوك الروم، وقال: آخرون سمي يعقوب لأنه هو والعيص وقت الولادة تخاصما في الولادة فكل أراد الخروج قبل صاحبه، وكان إسحاق عليه السلام حاضراً وقت الولادة، فقال اعقبْ يا يعقوب، فأما الذين هم الروم فهم بنو رومي بن بُزَنْطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وقال أهل الكتاب إنما سمي عيصو بهذا الاسم لأنه عصى في بطن أمه، وذاك أنه غلب على الخروج قبله مثل ما ذكرناه، وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه، فلذلك سمي يعقوب. قالوا وتزوج عيصو بسمة بنت إسماعيل، وكان رجلا أشقر فولدت له الروم.

قال الأزهري: الروم جيل ينتمون إلى عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقال الجوهري: الروم من ولد روم بن عيص يقال رومي وروم كما يقال: زنجي وزنج فليس بين الواحد والجمع إلا الياء المشددة..وقال: ابن الكلبي عن أبي يعقوب التدمُري إنما سميت الروم لأنهم كانوا سبعة راموا فتح دمشق ففتحوها وقتلوا أهلها. وكان سكانها سَكَرَة للعازر بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام، والسكَرة الفَعلة، واسم السبعة: لَوطان، وشُوبال، وصيفون، وغاود، وبشُور، وآصر، وريضان، ثم جعلوا يتقدمون حتى انتهوا إلى أنطاكية، ثم جاءت بنو العيص فأجْلوهم عما افتتحوا وسكنوه حتى انتهوا إلى القسطنطينية فسكنوها، فسموا الروم بما راموا من فتح هذه الكُور. وبنى القسطنطينية ملك من بني العيص يقال له: بُزَنْطي ويقال: سميت الروم بروم بن بزنطي، وعندي أنهم إنما سموا بني الأصفر لشقرتهم لأن الشقرة إذا أفرَطَتْ صارت صُفرة صافية..

وأما حدود الروم فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر ورس وهم الروس، وجنوبهم الشام والإسكندرية، ومغاربهم البحر والأندلس. وكا نت الرَقة والشامات كلها تُعدُ في حدود الروم أيام الأكاسرة، وكانت دار الملك أنطاكية إلى أن نفاهم المسلمون إلى أقصى بلادهم. قال أحمد بن محمد الهمذاني: وجميع أعمال الروم التي تعرف وتسمى وتأتينا أخبارها على الصحة أربعة عشر عملاً منها ثلاثة خلف الخليج وأحد عشر دونه، فالأول من الثلاثة التي خلف الخليج يسمى طلايا، وهو بلد القسطنطينية، وحدّه من جهة المشرق الخليج الآخذ من بحر الخزر إلى بحر الشام ومن القبلة بحر الشام ومن المغرب سور ممدود من بحر الشام إلى بحر الخزر، ويسمى مَقرُن تيخُس، وتفسيره السور الطويل، وطوله مسيرة أربعة أيام، وهو من القسطنطينية على مسيرة مرحلتين، وكثر هذا البلد ضياع للملك والبطارقة ومروجٌ لمواشيهم ودوابهم. وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر في كتابي هذا، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً فقد أذنتُ له في إصلاحه مأجوراَ، ومن وراء هذا العمل عمل تراقية وحده من وجه المشرق هذا السور الطويل ومن القبلة

عمل مقدونية ومن المغرب بلاد برجان مسيرة خمسة عشر يوما وعرضه من بحر الخزر إلى حد عمل مقدونية مسيرة ثلاثة أيام، ومنزل الإصطرطغوس الوالي حصن يسمى أرقدة على سبع مراحل من القسطنطينية، وجنده خمسة آلاف، ثم عمل مقدونية وحدّه من المشرق السور الطويل، ومن القبلة بحر الشام ومن المغرب بلاد الصقالبة ومن ظهر القبلة بلاد برجان وعرضه مسيرة خمسة أيام، ومنزل الإصطرطغوس يعني الوالي حصن يسمى بابدس، وجنده خمسة آلاف، فهذه الثلاثة بلدان التي خلف الخليج.

ومن دون الخليج أحد عشر عملاً، فأولها مما يلي بحر الخزر إلى خليج القسطنطينية عمل أفلاجونية، وأول حدوده على الأنطماط، والثاني بحر الخزر، والثالث على الأرمنياق، والرابع على البقلار، ومنزل الإصطرطغوس ايلاي وهو رستاق وقرية تدعى نيقوس وله منزل آخر يسمى سواس، وجنده خمسة آلاف، وإلي جانبه عمل الانطماط وحدّه الاول الخليج وجنده أربعه آلاف هذا العمل مخصوصون بخدمة الملك وليسوا بأهل حرب، والى جانبه عمل الأبسيق وحده الأول الخليج ،والثاني الانطماط، والثالث عمل الناطلقوس، والرابع عمل ترقسيس، ومنزل الاصطرطغوس حصن بطنة وجنده ستة آلاف، وإلى جانبه عمل ترقسيس وحده الأول الخليج، والثاني الأبسيق، والثالث عمل الناطلقوس، والرابع بحر الشام ومنزل الاصطرطغوس في حصن الوارثون، وإسمه قانيوس، والوارثون اسم البلد جنده عشرة آلاف، والى جانبه عمل الناطلقوس، وتفسيره المشرق، وهو أكبر أعمال الروم وحده الأول الأبسيق والترقسيس، والثاني عمل البقلار. ومنزل الاصطرطغوس مرج الشحم وجنده خمسة عشر ألفاً ومعه ثلاثة طرموخين، وفي هذا العمل عمُورية، وهي الآن خراب، وبليس ومنبج ومرعش وهو حصن برغوث، وإلى جانبه من ناحية البحر عمل سلوقية، وحده الأول بحر الشام، والثاني عمل ترقسيس، والثالث عمل الناطلقوس، والرابع درُوب طرسوس من ناحية قَلَمية واللامس، واسم صاحب هذا العمل كيليرج، ومرتبته دون مرتبة الاصطرطغوس، وتفسيره صاحب الدروب، وقيل تفسيره وجه الملك، ومنزله سلوقية إلى أنطاكية ثم يتصل به عمل القُباذق، وحده الأول جبال طرسوس وأذَنَة والمصيصة، والثاني عمل سلوقية، والثالث عمل طلغوس، والرابع عمل السملار وخرشَنة ومنزل الكيليرج حصن قره وجنده أربعة آلاف، وفيه حصون كثيرة قوية، ومن بلاده قورية أو قونية وملقونية وجرديلية وغير ذلك، ويتصل به عمل خرشنة وحده الأول عمل القيار، والثاني درب ملطية، والثالث عمل الأرمنياق، والرابع عمل البقلار، ومنزل الكيليرج حصن خرشنة وجنده أربعة آلاف وفيه من الحصون خرشنة وصارخة ورمحسو وباروقطة وما كثيرى ثم يتصل به عملى البقلار وحده الأول عمل الناطلقوس والثاني القباذق وخرشنة والثالث عمل الأرمنياق والرابع عمل أفلاجونية ومنزل الإصطرطغوس أنقرة التي بها قبر امرىء القيس وقد ذكر في موضعه وجندها ثمانية آلاف ومع صاحبها طرموخان وفيه حصون وعدَة بلاد ثم يتصل به عمل الأرمنياق وحده الأول عمل أفلاجونية والثاني عمل البقلار والثالث خرشنة والرابع جلدية وبحر الخزر ومنزل الإصطرطغوس حصن أماسية وجنده تسعة آلاف ومعه ثلاثة طرموخين وفيه عدة بلاد وحصون ثم يتصل به عمل جلدية، وحده الأول بلاد أرمينية، وأهله مخالفون للروم متاخمون لأرمينية، والثاني بحر الخزر، والثالث

عمل الأرمنياق، والرابع أيضاً عمل الأرمنياق، ومترل الاصطرطغوس اقريطة وجنده عشرة آلاف ومعه طرموخان، وفيه بلاد وحصون.

قال الهمذاني: فهذه جميع أعمال الروم المعلومة لنا في البر على كل عمل منها والٍ من قبل الملك الذي يسمى الاصطرطغوس، إلاّ صاحب الأنماط فإنه يسمى الدمستق, وصاحب سلوقية وصاحب خرشنة فإن كل واحد منهما يسمى الكيليرج, وعلى كل حصن من حصون الروم رجل ثابت فيه يسمى برقليس يحكم بين أهله. قلت: أنا وهذا فيما أحسب رسوم وأسماء كانت قديماً ولا أظنها باقية الآن وقد تغيرت أسماءُ البلاد وأسماءُ تلك القواعد، فإن الذي نعرف اليوم من بلاد الروم المشهورة في أيدي المسلمين والنصارى لم يذكر منها شيءٌ مثل قونية وأقصرى وأنطاكية واطرابزُنْدة وسيواس إلى غير ذلك من مشهور بلادهم، وأنما ذكرتُ كما ذكر، والله أعلم، وقال بعض الجلساء سمعت المعتز بالله يقول لأحمد بن إسرائيل يا أحمد كم خراج الروم؟ فقال: يا أمير المؤمنين خرجنا مع جدك المعتصم في غزاته، فلما توسط بلد الروم صار إلينا بَسيل الخرشني، وكان على خراج الروم، فسأله محمد بن عبد الملك عن مبلغ خراج بلدهم، فقال خمسمائة قنطار وكذا وكذا قنطارا، فقال حسبنا ذلك فإذاً هو أقل من ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال المعتصم: اكتب إلى ملك الروم أني سألت صاحبك عن خراج أرضك فذكر أنه كذا وكذا وأخس ناحية في مملكتي خراجها أكثر من خراج أرضك فكيف تنابذني وهذا خراج أرضك. قال: فضحك المعتز وقال: من يلومني على حب أحمد بن إسرائيل ما سألتُه عن شيءٍ إلا أجابني بقصته.)

8. ذكر أجزاء بلاد الروم، وحدودها، ومقاديرها. المسعودي. من كتاب (التنبيه والاشراف)

(أرض الروم أرض واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب، مقسومة في قديم الزمان على أربعة عشر قسماً: أعمال مفردة، تسمي البنود كما يقال: أجناد الشام، كجند فلسطين، وجند الاردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين. غير أن بنود الروم أوسع من هذه الاجناد وأطول. والروم يسمون بلادهم أرمانيا، ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشآم والعراق سوريا. والفرس إلى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية، فيسمون العراق والجزيرة والشآم (سورستان) إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون، ويسمون سريان ولغتهم سورية، وتسميهم العرب النبط.

فالبند الأول يسمى (الافتي ماتى) تفسير ذلك الأذن والعين وهو (بند الناطليق) أعظم بنود الروم فيه عمورية، أوله مما يلي بلاد الاسلام من الثغور الشامية حصن هرقلة، وأول عمل الناطليق رستاق يعرف بغصطوبلى، وفيه يقوم سوق البخور، وهو سوق يقوم في السنة مرة. **والبند الثاني** (بند الابسيق) فيه مدينة نيقية، وأول عمل هذا البند غصطوبلى، وآخره خليج القسطنطينية. فهذان البندان من دار الاسلام إلى خليج القسطنطينية في الطول يكون أميالا أربعمائة ميل وأربعة وثلاثين ميلا. **والبند الثالث** (يسرة الناطليق) ويعرف (بترقسين) وهو بند أفسيس مدينة أصحاب الكهف ومدينة زمرنى، أخرج هذا البند عدة من الحكماء في



سالف الزمان: فلاسفة وأطباء، فمن الأطباء روفس الافسيسي له مصنفات كثيرة في الطب، وجالينوس يمدحه في كثير من كتبه، ويذم روفس الحينيطى، وهذا البند متصل ببحر الروم والشأم. **والبند الرابع** (بند بنطيليا) وهي (دقابلى) يتصل بالبحر الرومي أيضا وفي آخر هذا البند عمل سلوقية، وحصن بوقية واللامس الذي يكون فيه الفداء بين المسلمين والروم، ومنه إلى طرسوس خمسة وثلاثين ميلا، وهو بند ضيق، وحروب المسلمين عليه براً وبحراً. فهذان البندان متصلان من دار الاسلام على البحر الرومي إلى خليج القسطنطينية أيضاً يكون طولهما ثلاثمائة ميل وخمسة وستين ميلا. **والبند الخامس** (بند القباذق) وهو يمنة عمورية فيه قرة وحصن يدقسي وحصن سلندو وذو الكلاع - واسمه بالرومية كربسطرة - وقونية ووادي سالمون ووادي طامسة، وأول عمل هذا البند مما يلي الثغور الشأمية مطمورة تعرف بماجدة من قلعة لؤلؤة على نحو عشرين ميلا وآخره نهر آلس، وتفسير (آلس) بالعربية نهر الملح، وهو نهر مقلوب يجري مما يلي الجنوب مستقبلا للشمال كنيل مصر ومهران السند ونهر أنطاكية المعروف بالارنط. وما عدا ذلك من الأنهار الكبار فمصبها كلها من الشمال الى ناحية الجنوب لارتفاع الشمال على الجنوب وكثرة مياهه. **والبند السادس** (بند البقلاّر) وهو بند عمل أنقرة وأول عمل أنقرة نهر آلس، وهو آخر عمل القباذق، وآخر عمل البقلار بحر الخزر الذي هو بحر مايطس. فهذان البندان متصلان من دار الاسلام إلى بحر الخزر في الطول يكون أميالا أربعمائة ميل وخمسة وأربعين ميلا، وليس للروم طول من بند البقلار هذا، ولا أكثر رجالة منه. **والبند السابع** (بند الافطماط) وهو عمل نقمودية، وهو بند مربع بين البقلار والابسيق، وآخر عمل هذا البند خليج القسطنطينية، وعرض الخليج هناك ميل ويسمي ذلك الموضع إلى هذا الوقت أقروبلى..**والبند الثامن** (بند الارمنياق) يمنة البقلار؛ وهو عمل ماسية، وفي طرف هذا البند عمل خرشنة، وآخره بحر مايطس الذي يسميه كثير من الناس بحر الخزر، وانما هو متصل به لأن بحر الخزر هو الذي عليه دور الاعاجم كالباب والأبواب وموقان والجبل والديلم، وآبسكون ساحل جرجان، والبهم ساحل آمل قصبة طبرستان .. **والبند التاسع** (بند فلاغونية) وهو يمنة الارمنياق وفي طرفه عمل قلونية.

فهذه تسعة بنود دون الخليج مما يلي الثغور الشأمية والجزرية وغيرها من بلاد الاسلام، والخمسة الباقية من البنود وراء الخليج متصلة بالقسطنطينية، وهي: (بند طابلا) ومنه القسطنطينية حده من جهة المشرق الخليج الآخذ من بحر الخزر إلى بحر الشأم ومن القبلة بحر الشأم، ومن المغرب سور ممدود من بحر الشأم إلى بحر الخزر يسمى (مقرون تيخس) تفسيره السور الطويل، طوله مسيرة أربعة أيام وبينه وبين القسطنطينية يومان وأكثر هذا البلد ضياع الملك والبطارقة، ومروج المواشي. و(بند تراقية) و(بند مقدونية) و(بند بلبونيسة) وتفسير ذلك الجزائر الكثيرة، وقيل البلدان الكثيرة وهو غربي القسطنطينية فيه خرقيذية ومثونية وقرنتو واثينس، وهي مدينة ارسطاطاليس بن نيقوماخس وثاوفرسطس، ودار ارسطاطاليس فيها بينة إلى هذا الوقت معروفة معظمة. و(بند سالونيكة) التي افتتحها لاون غلام زرافة في البحر في خلافة المكتفي، وهي مدينة عظيمة بنيت قبل القسطنطينية بناها الاسكندر بن فيلبس الملك. وقد غلبت البرغز وأجناس من الترك بدو يسمون (الوَلندرية)

إضافة إلى مدينة في أقاصي ثغور الروم مما يلي المشرق تعرف بولندر وهم بجناك ويجنى وبجغرد ونوكبردة على أكثر هذه البنود الخمسة وذلك بعد العشرين والثلاثمائة، وخيموا هناك ومنعوا الطريق من القسطنطينية إلى رومية وهو مسافة نحو أربعين يوما، وأخربوا أكثر ما هناك من العمائر، واتصلت غاراتهم بالقسطنطينية فلا وصول لمن في القسطنطينية إلى رومية في هذا الوقت إلا في البحر، وإنما العمارة بينهما مما يلي القسطنطينية مسيرة أيام كثيرة. . .

وكان صاحب رومية منقادا إلى صاحب القسطنطينية مطيعا له ممتثلا لأمره لا يلبس تاجا ولا يتسمّى بالملك، على ذلك جرت رسومهم قديما قبل ظهور الاسلام إلى نحو سنة 340 للهجرة فإن صاحب رومية قوى أمره وكثرت جموعه، فلبس التاج والثياب الفرفير والخفاف الحمر وغير ذلك مما يختص به ملك الروم وتسمى ملكا. فلما بلغ قسطنطين بن أليون الملك على الروم في هذا الوقت ذلك أنفذ اليه الجيوش فعادت اليه منكوبة مهزومة فكاتبه حينئذ ورضى منه بالمسالمة. وقد كان جرى بينهما مصاهرة قبل هذه المنابذة ؛ زوّج ملك رومية ابنته بأرمانوس بن قسطنطين، وحملها إليه، وجهزها بأفخر ما تجهز به بنات الملوك وأعظمه قدرا، فهلكت عنده. وسائر أجناس الإفرنجية من الجلالقة والجاسقس والوشكنس وأرمانجس، وأكثر الصقالبة والبرغز وغيرهم من الأمم دائنون بالنصرانية منقادون إلى صاحب رومية، ورومية دار مملكة الافرنجة العظمى قديما وحديثا. وقد ذكر ذلك ارسطاطاليس في رسالته إلى الاسكندر التي يحرضه فيها على المسير لحرب دارا بن دارا ملك فارس فقال (إنك أيها الملك قد رأيت أمارات الظفر عند مسيرك أولا إلى الافرنجة، فإن مشايخهم الذين كانوا على تخوم بلادهم؛ لما دنوت منهم أسلموا أطراف بلادهم والتجئوا إلى مدينتهم العظمى رومية).

كنا رأينا في النصوص التي مرّت، كيف أن المسعودي ارتحل بنا في فيافي الشمال مؤرخا وجغرافيا يعنى بكل النسيج الاجتماعي الذي يكتب عنه، لكنه يظهر هنا بوصفه عالما متخصصا في الأعراق، ويقدم لائحة بأجناس الصقالبة، والإفرنج، والجلالقة، من سكان شمالي بلاد الأندلس. يبدو أنه من المهم أن نتعرّف عبر المسعودي على أمم الشمال.

9. ذكر الصقالبة، والإفرنجة، والجلالقة، وتفرّق أجناسها. المسعودي. من كتاب (مروج الذهب)

(الصقالبة: من ولد مار بن يافث بن نوح، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة، وبه يلحقون في أنسابهم. هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عنى بهذا الشأن، ومساكنهم بالجدى إلى أن يتصلوا بالمغرب، وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب. ولهم ملوك. ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأى اليعقوبية. ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع. وهؤلاء أجناس: فمنهم جنس كان الملك فيهم قديماً في صدر الزمان، وكان ملكهم يدعى ماجك، وهذا الجنس يدعى ولينانا، وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس الصقالبة؛ لكون الملك فيهم، وانقياد سائر ملوكهم اليه، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانة، وملكهم في هذا الوقت يدعى بصقلائح. وجنس يقال له دلاونة، وملكهم يدعى وانج

علاف، وجنس يقال لهم نامجين، وملكهم يدعى عزانة. وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرس. وجنس يدعى منابن، وملكهم يدعى زنبير. ثم جنس يقال له سرتين، وهو جنس عند الصقالبة مهيب لعلل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها، ونفرتهم من ملة ينقادون إليها. ثم جنس يقال له صاصين. ثم جنس يقال له جروانيق. ثم جنس يقال له خشانين. ثم جنس يقال له برانجابين. وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسمةٌ معروفة لملوكهم، والجنس الذي سميناه المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك والرئيس، ويحرقون دوابه، ولهم أفعال مثل أفعال الهند.. وإن في بلاد الخزر مع الخزر خلقاً من الصقالبة والروس، وإنهم يحرقون انفسهم بالنيران، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالمشرق، ويعبرون من المغرب. فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير، وله مدن واسعة، وعمائر كثيرة، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات، ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأوانج، وله مدن وعمائر واسعة، وجيوش كثيرة، وعدد كثير، ويحارب الروم والإفرنج والنوكبرد، وغير هؤلاء من الأمم، والحرب بينهم سجال، ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صوراً، وأكثرهم عدداً، وأشدهم بأساً. والصقالبة أجناس كثيرة، وأنواع واسعة.

والإفرنجة، والصقالبة، والنوكبرد، والأشبان ويأجوج ومأجوج، والترك، والخزر، وبرجان، واللان، والجلالقة، وغير ذلك ممن ذكرنا ممن حل الجدى، وهو الشمال، لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح؛ فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عدَّة، وأوسعهم ملكا، وأكثرهم مدناً، وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم، وأكثرهم طاعة؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً، وأعظم منهم نكاية، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة، متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك، ولا تحزب، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بويرة، وهي مدينة عظيمة، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور ..

قال المسعودي: ووجدت في كتاب وقع إليَّ بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة أهداه عرماز الأسقف بمدينة جربدة من مدن الإفرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة إلى الحكم بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم ولي عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت في عهده: ياأمير المؤمنين، إن أول ملوك إفرنجة قلودية، وكان مجوسياً فنصرته امرأته وكان اسمها غرطلة، ثم ملك بعده ابنه لذريق، ثم ولي بعد لذريق ابنه دقشرت، ثم ولي بعده ابنه (لذريق)، ثم ولي بعده (قرطان) ابن دقشرت، ثم ولي بعده ابنه (قارله) ثم ولي بعده ابنه (تبين) ثم ولي بعده (قارلة بن تبين) وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس، وقد تدافع أولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم، حتى تفانت الإفرنجة بسببهم، وصار لذريق بن قارلة صاحب ملكهم؛ فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة فحاصرها، ثم ولي بعده

ابنه (قارلة بن لذريق) وهو الذي تمادن مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة، وستة أشهر، ثم ولي بعده ابنه (لذريق) ستة أعوام، ثم وثب عليه قائد الإفرنجة المسمى نوسة، وملك إفرنجة، وأقام في ملكه ثمان سنين، وهو الذي صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنجة إليهم، ثم ولى بعده (قارلة بن تقويرة) أربع سنين، ثم ملك بعده قارلة آخر، ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ثم ولى بعده (لذريق بن قارلة) وهو ملك إفرنجة إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة – وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره.

قال المسعودي: وأشد ما على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة، كما أن الإفرنجة حرب لهم، غير أن الجلالقة أشد بأساً، وقد كان لعبدالرحمن بن محمد صاحب الأندلس في هذا الوقت وزير من ولد أمية يقال له أحمد بن اسحاق فقبض عليه عبدالرحمن لأمر كان منه استحق عليه في الشريعة العقوبة، فقتله عبدالرحمن، وكان للوزير أخ يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس، يقال لها شنترين، فلما نمى إليه ما فعل بأخيه عصى على عبدالرحمن؛ فصار في حيز رذمير ملك الجلالقة، فأعانه على المسلمين، ودلّه على عوراتهم، ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصيد في بعض منتزهاتها، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعوه من الدخول إليها، وكتبوا إلى عبدالرحمن، ومضى أمية بن إسحاق أخو الوزير المقتول إلى رذمير، فاصطفاه، واستوزره، وصيره في جملته، وغزا عبدالرحمن صاحب الأندلس سمورة مملكة الجلالقة.. في مائة ألف أو يزيدون، فكانت الواقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيام، وكانت للمسلمين عليهم، ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين – بعد عبورهم الخندق– خمسين ألفاً، وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحاق، وخوّفه الكمين، ورغبه فيما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبدالرحمن، وتخلص من رذمير، فقبله عبدالرحمن أحسن قبول، وقد كان عبدالرحمن صاحب الأندلس بعد هذه الواقعة جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت– وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة– وكان قبله على الملك أردون، وكان قبل أردون أذبوشن، والجلالقة والإفرنجة تدين بدين النصرانية على رأى الملكية.)

ويستفيد شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي من الصورة التي تشكّلت للأمم الشمالية قبله، ومنها ماأوردناه في النصوص التي مرّت، لكنّ الملاحظ عليه أنه أكثر ميلا لإضفاء الغرابة على مايكتب، فالموجهات الفكرية التي يصدر عنا كانت أقل اشعاعا من سابقيه، ولكنه يقدّم معلومة على غاية من الأهمية، لو تم التثبّت منها، ومفادها أن الصقالبة في الشمال كانوا فيما يخص الجانب العقائدي على قسمين، فمنهم (مَنْ يدين بدين النصرانية، وهم ما قرب من الافرنج)، ومنهم، وهم الأقوام في أقصى الشمال(لا ينقاد الى ملة ولا يرجع الى

نحلة) وهؤلاء (هم ما توغل في الشمال ودنا من البحر المحيط) ومن طقوسهم الشائعة بينهم انهم (يحرقون ملوكهم إذا ماتوا، ويحرقون معهم عبيدهم وأماءهم ونساءهم ومن كان خاصاً بهم كالكاتب والوزير والمديم والطبيب). والأمر هذا بحد ذاته كان معروفا في القرن العاشر، إذ لم تتنصر أوربا بالكامل، كما هو شائع، لكن الدمشقي الذي عاش في القرن الثالث عشر وشطر من الرابع عشر الميلادي يقدم معلومة مهمة لو صحت تكون أقاصي الشمال قد ظلت وثنية إلى وقت متأخر.

10. وصف بعض أقوام الشمال. الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(فأما الصقالبة فذهب قومٌ الى أنهم ولد صقلب بن ليطى بن يونان بن يافث. وقال قوم هو صقلب بن ماراى بن يافث، وسكناهم في الشمال. وكانوا قبل أن تغلب عليهم الروم منبسطين ما بين بحر الروم والبحر المحيط طولاً وما بين المغرب والمشرق عرضاً، ولهذا كان يوجد سبيهم بالاندلس وخرسان، ولما كان بينهم وبين الترك والروم من الحروب ثم تغلبت الروم على كثير من بلادهم التي كانت على ساحل بحر الروم، ولهم ببلادهم مدن وحصون. ومن هؤلاء من يدين بدين النصرانية، وهم ما قرب من الافرنج. ومنهم من لا ينقاد الى ملة ولا يرجع الى نحلة، وهم ما توغل في الشمال ودنا من البحر المحيط. وهؤلاء يحرقون ملوكهم إذا ماتوا ويحرقون معهم عبيدهم وأماءهم ونساءهم ومن كان خاصاً بهم كالكاتب والوزير والمديم والطبيب.

قال أبو عبيدة البكري: الصقالبة ذوو بأس شديد وشدّة وصولة ولولا إختلافهم بكثرة تفرع أعراقهم، وتفرق أفخاذهم لما قامت لهم أمة من الأمم، وإن تجاراتهم تختلف في البر والبحر الى الروس، وبلاد اصطنبول ينتعشون بالبرد ويهلكون بالحر. وحكى صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (=الإدريسي) أن أجناس الصقالبة في عصره أربعة صلاوبة وبراصية وكراكرية وأرثانية، وكلهم ينتسبون الى بلادهم غير الأرثانية يأكلون من وقع إليهم من الغرباء؛ لأنهم يسكنون في غياض وآجام على البحر المحيط كالوحوش. والروس ينتسبون الى مدينة إسمها روسيا على ساحل البحر المنسوب اليهم من شماله. ويقال إنهم ينتسبون الى رؤوس بن ترك بن طوج، ولهم في بحر مانيطس جزائر يسكنونها، ومراكب حربية يقاتلون عليها الخزر، ويدخلون اليهم من خليج يصب في هذا البحر من نهر إتل، فإذا صاروا الى عمود النهر دخلوا من خليج آخر يصب في بحر الخزر فيشنون الغارة عليهم، وكانوا يدينون بالمجوسية ثم تنصروا، وهم يحرقون بالنار موتاهم، وفيهم من يحلق لحيته ومن يفتلها ومن يضفرها. ولهم لسان خاص بهم. قال ابن الأثير في تأريخه ما معناه إن ابني مارمانوس وهما بسيل وقسطنطين، وكانا ملكا قسطنطينية، استنصرا ملك الروس على عدو لهما وزوجاه أختا لهما، فامتنعت من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين؛ فتنصّر. فكان هذا أول دين النصرانية في الروس. فلما تنصّر مكنته من نفسها وكان ذلك خمس وسبعين وثلاثمائة. ويجاور هذه الأمة اللان والبرجان ويقال إنهما أخوان والازكش، وكلهم نصارى. ويجاورهم الارمن وهم من ولد ارمن بن ليطى بن يونان بن يافث، وهم أخوة الروم وبهم سمّي سقع أرمينية، وهم أصناف الساوردية والصاربة والكرج والكتر، وكلهم يدينون بالنصرانية.

وأما الترك فهم ولد عابور بن سويد بن يافث وعلى هذا أكثر النسابين، ومن الناس من يقول إنهم من ولد ترك بن طوج بن أفريدون، وهذا غلط لان أفريدون ولي على عهد الترك الولاية وهذا موجود في تواريخ الفرس. وزعم آخرون أنهم من ولد إبراهيم الخليل، وأمهم أمة كانت لإبراهيم الخليل، تسمى قيطورا وكان أبوها من العرب العاربة يسمى منطور. وقد جاء في الحديث بنو قيطورا، وفسر بأنهم الترك وأن قيطورا ولدت لإبراهيم الخليل ثمانية أولاد سكن منهم ثلاثة وراء النهر، وهم الترك، والصغد، وخرخيز، وعلى هذا يكونون من ولد سام. والترك أصحاب قلوب قاسية، وطباع جافية، ونفوس عانية. ومنهم من يسكن المدن، ومنهم من يسكن الجبال والبراري، يتقلبون مع الزمان في طلب الكلاء والعشب بالخيل والبقر والغنم، يترلون في بيوت الشعر والخركاوات وليس لهم عمل غير الصيد، ويأكلون كل طائر وكل وحش. وليس لهم ملة ولا نحلة وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم، وفيهم قبائل: وهم الخرلخية، والخرجزية، والكيماكية، والغزية، والبجناكية، والطغزغزية، والخلخلية، والقلجية، والغورية. وعدّ صاحب كتاب "نزهة المشتاق" في طوائفهم القامانية، والتركشية، والأزكشية. وعدّ صاحب الأندلس فيهم الخزر، والبلغار، والبرطاس.

فأما الخزر فساكنهم على بحر الخزر، ويسمى الآن بحر القرزم (= قزوين). وقال ابن الأثير إنهم الكرج، وليس بموافق بل هم من الأرمن يدينون بالنصرانية، ولهم أربع مدن: خلميج، وبلنجر، وسمندر، وإتل. ويقال إن جميعها من بناء أنوشروان. وهم طائفتا جند، وهم مسلمون ويهود وهم الرعية، وكانوا من قبل لا يعرفون ملة كالترك وإنما طرأ فيهم ما حكاه ابن الأثير إن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود، فقصدوا بلد الخزر، فوجدوا قوماً عقلاء ساذجين، فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما هم عليه، فانقادوا اليه، وأقاموا زماناً ثم غزاهم جيش من خراسان فتغلب على بلادهم وملكها، فصاروا رعية. وحكى ابن الأثير ايضاً أنهم أسلموا سنة أربع وخمسين ومائتين. وذكر في سبب إسلامهم أن الترك غزوهم فطلبوا من أهل خوارزم نصرتهم عليه، فقالوا لهن أنتم كفار فإن أسلمتم نصرناكم. فاسلموا الا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك. وكانت الخاقانية فيهم في بيت معروف ما يعدل الخاقانية عنه يسمة خاقان خزر، وهو الذي تولى الملك وليس له أمر ولا نهي إلا أنه يعظم ويسجد له ولا يصل اليه أحد إلا الملك ومنْ في طبقته، وأذا دخل اليه تمرّغ في التراب له وسجد ثم يقوم فلا يزال قائماً حتى يأذن له في الكلام والتقرب. وإذا حدث بهم خطب عظيم أخرج فيهم خاقان فلا يراه أحد من الاتراك ومن يصاقبهم من الكفرة إلا انصرف و لم يقابله تعظيماً له، وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجّل وسجد، فلا يركب حتى يغيب القبر عنه. وكانت طاعتهم للملك بحيث أن أحدهم إذا وجب عليه القتل فينصرف الى مترله فيقتل نفسه، وإذا أحبوا أن يولّوا ملكاً خنقوه، وإذا قارب أن يهلك قالواله كم تحب أن تقيم في الملك، فيقول كذا كذا سنة فيكتبوا ذلك ويشهدوا على نطقه، فإذا بلغ تلك السنة و لم يمت قتل.

وأما البلغار فمنسوبون الى السقع، وهم مسلمون أسلموا أيام المقتدر، وبعث ملكهم الى المقتدر يطلب منه فقيهاً يعرفه قواعد الاسلام، فأجابه الى ذلك، ثم وصل جماعة من البلغار الى بغداد يريدون الحج فأقيم لهم

من الدواب والاقامات الوافرة ما استعانوا به، وسألهم سائل من أي الامم أنتم وما البلغار؟ فقال: قومٌ متولدون بين الترك والصقالبة. وأما برطاس فطائفة منفرشة على نهر يسمى بهذا الاسم يصب في نهر إتل، وهم أصحاب بيوت من خشب وخركاوات ومسافة حيزهم خمسة عشر يوما، ولهم لسان خاص بهم. وأما القبجق فمساكنهم في جبال وغياض من وراء دربند شروان مما يلي بحر الروس، ولهم عليه مدينة إسمها سرداق، والبحر ينسب إليها ومنها يمتازون لان التجار تقصدها لبيع ما يجلبونه إليهم من الثياب وغيرها ولشراء الجواري، والمماليك، والقندس، والبرطاس، وأقام الله من هذه الطائفة بمصر والشام:

قوم إذا قُوتِلوا كانوا ملائكة وإن هُمُ قاتلوا كانوا عفاريتا

وهم، أعني طائفة القبجق، طوائف كلهم ترك، وهم بركوا، وطقسبا، وأيثبا، وبرت، والارس، وبرج أغلوا، ومنكور أغلوا، وبمك. وهؤلاء قد صاروا خوارزمية، وفيهم طوائف أصغر مما ذكرنا، وهم طغ بشقوط، وقمنكوا، وبزانكى، وبجنا، وقرابوكلوا، وأزوجرطن، وغير ذلك من أفخاذ يطول ذكرها.

وأما التتار فلم يكن لهم ذكر على ألسنة الناس لأنهم كانوا متاخمين الصين، وكان بين بلادهم وبلاد المسلمين بلاد الخطا، وهي التي تسمى تركستان، وكان الخطا قد استولوا على ما وراء النهر وملكوها عدة سنين. فلما ملك علاء الدين محمد بن خوارزم شاه بلاد خرسان طمحت همته الى ما وراء النهر فقصدهم وأخذها منهم، وجرى بينهم وبينه حروب استأصلهم فيها وملك ما بأيديهم من البلاد، فلما خلت تركستان من الخطا نزلها التتار، وكانوا أعداء لهم والحرب بينهم سجال، فلما ملكوا بلادهم طمعوا في بلاد الاسلام لقربهم منها ومجاورتهم لها، فأراد الله تعالى تمليكهم إياها فحاربهم خوارزم شاه فلم يقف في وجوههم، فانهزم منهم فتبعوه الى أن ألجأوه الى جزيرة في بحر الخزر مما يلي طبرستان فمات بها سنة سبع عشرة وستمائة. ومن هذه السنة خرجوا من بلادهم، و لم يزل أمرهم يتفاخم وسلطانهم يتعاظم الى أن ملكوا بلاد خراسان، وفارس، وبلاد الجبل، وأذربيكان، وآران، وبلاد أرمينيا وما جاورها وتاخمها، ثم العراق، والشام، وأخرجوا جميع ما ملكوه، وقتلوا أهلها. وأنفذ الله جيشاً من الديار المصرية من الترك الذين قدمنا ذكرهم ليدعم بنصره فردوهم على أعقابهم واغمدوا السيوف في رقابهم وتبعوهم الى بلاد الشام، واستخلصوا ما صار في أيديهم منها وغسلوا أوضار آثارهم عنها. وهذا الجيش هم العصابة المحمدية الظاهرون بالحق المؤيدين الى يوم القيامة.

ومن الترك ايضاً يأجوج ومأجوج ويقال إنهم أربعون صنفاً منهم طوال جداً، ومنهم قصار جداً. والطوال يأجوج، والقصار مأجوج. ومنهم ذوو وجوه مستديرة كالتراس والمجان المطرقّة وذوو أنياب بارزات. ويقال إن وراءهم مما يلي البحر المحيط فرقة وهم مسلطون عليهم مشغولون بهم، وكلامهم تمتمة يشبه الصفير. صغار العيون والرؤوس، كبار الاذان، يأكل بعضهم بعضاً. وللترك ما للعرب من معرفة الخيل وأنسابها، وعمل القسى والسهام، ولهم ما لهم من القيافة وهي تتبع آثار الأقدام والخف، وسيما في النظر في أكتاف العظام المسماة الواح الأكتاف من المعز والغنم، والريافة وهي تتبع لمواطن الماء في تخوم الارض بدلائل



من النبات، من لون الأرض ومن حيوانها، والقيافة وهي الفراسة بالأمارات بإلحاق الولد بأبيه... وحكى أبو عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والامم الى معرفة أنساب الامم" أن وراء صين الصين أمماً منهم إذا طلعت الشمس يأوون الى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب، وأمة يلتحفون بشعورهم. وأمة لا شعور لهم وأكثر ما يأكلون سمك البحر وخشاش الأرض. قال ويحاذيهم من ناحية الشمال أمة شقر عُراة يتناكحون كما تتناكح البهائم تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. وقال بمشرق الأرض عند مطلع الشمس أمة متولدة بين السباع والناس ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة ممدة، وأذناب وأظفار معقفة بأصابع قصار، يسكنون الجبال طعامهم الحوت ودواب البحر ولهم زروع ودواب يركبونها، والله أعلم.)

يستقي أبو حامد الغرناطي- في النص الآتي - كثيرا من معلوماته من الملاحظات المباشرة عن الشعوب التي عاش بين ظهرانيها، فلقد طوّف في بعض بلاد الشمال، ووصف ما رأى وما عرف، وكثيرا مما سيرد في النص الآتي إنما هو عن شاهد عيان يقدم براهين شخصية على وجود استيطان إسلامي كبير في الأجزاء الشرقية لأوربا، وإن ذلك الوجود يدخل ضمن التوازنات العسكرية في التراع مع الروم.

11. وصف بلاد البلغار، والصقالبة، والباشغرد، الغرناطي. من كتاب (تحفة الألباب).

(بلاد البلغار: ويوجد في أرض البلغار من عظام قوم عاد، وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة والناب أبيض كالثلج، ثقيل كالرصاص، الواحد مائتا منٍّ وأكثر وأقل. لا يدري من أي حيوان هو. يُقطع ويُحمل إلى خوارزم وخراسان وتتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج، وهو أقوى من العاج لا ينكسر. وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار، ولهم ولاية تؤدي الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر، يقال لها ويسوا، وولاية أخرى يقال لها يورا فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد. والنهار يكون هناك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة. ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق. والقندز حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام، ويتخذ بيوتاً في البر إلى جانب النهر. وسمعتُ ببلغار، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشتاء، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها، حتى إذا مات لأحد ميتاً لا يقدر أن يدفنه ستة شهور. لأن الأرض تصير كالحديد. ولا يمكن أن يحفر بها قبر. ولقد مات لي بها ولد، وكان في آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه، فبقي في البيت ثلاثة شهور حتى أمكن دفنه. ويبقى الميت كالحجر. وأهل البلغار أصبر الناس على البرد وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب. ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلاً جداً. حتى أن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً. وفي الشتاء أيضاً يكون الليل طويلاً مثل ذلك. والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان. ولا يتخذون لها آلة ولا حيلة إلا حديداً كما يخرج من النار. وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا.

وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواشٍ إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل. ويكثر عندهم السمّور جداً. ويأكلون لحمه. والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم، ويأخذون أثمانها جلود السمّور. ولهم في ذلك ربح كثير. والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً. ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها، طول كل لوح باع، وعرضه شبر، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي في رجله، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة. ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة. لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد. وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة. والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها، حتى تكون مثل القطن. وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيضّ جلودها في زمن الشتاء. وتلك السيوف تحمل من بلاد الإسلام إلى بلغار. وفيها ربح كثير. ثم يحملها البلغاريون إلى ويسوا موضع القندز. ثم أهل ويسوا يحملونها إلى "يورا" يشترونها بجلود السمور وبالجواري وبالغلمان. ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات. فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة. تريد أكلها. فتفر الصغرى من الكبرى. فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع منه الى البحر، فتبقى هناك، وترجع الكبرى الى البحر، ويخل أهل يورا الى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها، وليس عند السمكة من ذلك حسّ ولا تتحرك فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها، وهي كالجبل العظيم.

بلاد الصقالبة: لما دخلتُ بلاد الصقالبة خرجت من بلغار، وركبت سفينة في نهر الصقالبة. وماؤه أسود مثل بحر الظلمات. كأنه الحبر. وهو مع ذلك حلو طيب صاف. ليس فيه سمك. وفيه الحيات السود الكبار. بعضها على بعض أكثر من السمك لا تؤذي أحداً، وفيه حيوان مثل السنّور الصغير. له جلد أسود يسمى سمور الماء تحمل جلوده إلى بلغار. ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة. كثيرة العسل، والحنطة، والشعير، والتفاح الكبير، ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه. وللصقالبة سياسات عظيمة. إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدّ بأي شيء من التعدي كان، أخذ من المتعدّي جملة من المال. فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية. فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو. فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت. وبلادهم آمنة. وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره. ويعطى لذلك التاجر دينه. والصقالبة شجعان، وهم على مذهب الروم في النصرانية. نسطورية. وحدّثت عنهم أنهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز

السحرة. فيأخذون كل عجوز في ولايتهم. فيشدّون أيديهن فأرجلهن ويلقينهن في النهر. فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها. وعلموا أنها ليست ساحرة. والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار.

بلاد الباشغرد: هي فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً. وبلادهم تعرف بأنقورية هي ثمانية وسبعون مدينة، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وغياض وبساتين، وفيها من أولاد المغاربة آلاف لا عدد لهم، وفيها من أولاد الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً، وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ويتظاهرون بالنصرانية يكتمون الإسلام. وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا في الحرب. وهم يعلنون الإسلام. ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني، وعلمتهم شيئا من العلم، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرير في فرائض الصلاة وسائر العبادات، وكانوا لا يعرفون الجمعة، فعلموا صلاة الجمعة والخطبة، وعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه الجمعة ظاهراً وباطناً، لأن ولايتهم عظيمة. أقمت بينهم ثلاث سنين، واشتريت جارية مولّدة من سيدها بعشرة دنانير، بنت خمس عشرة سنة، أحسن من القمر، سوداء الشعر والعين، بيضاء كالكافور. تعرف الطبخ والخياطة والرقم. وجاء منها ولد ومات، فأعتقتها وسميتها مريم. وكان ملك باشغرد يخرب بلاد الروم، فقلت لأولئك المسلمين: اجتهدوا في الجهاد مع هذا الملك، فإنه يكتب لكم فيه ثواب الجهاد. فخرجوا معه إلى بلاد قسطنطينية، وهزموا لملك الروم اثني عشر عسكراً. فجاء صاحب القسطنطينية طلباً للصلح. وبذل أموالاً كثيرة. وحدثني بعض الأسارى من المسلمين ممن كان في الروم أن ملك الروم سأل: ما السبب في خروج ملك باشغرد إلى بلادي وتخريبها؟ وما كان له بهذا عادة. فقيل له: ملك باشغرد عنده عسكر من المسلمين، فقد تركهم يظهرون دينهم، فهم الذين أخرجوه إلى ولايتك، وخربوا بلادك. فقال لهم: وعندي مسلمون لا يقاتلون معي. فقيل له: أنت تقهرهم على النصرانية. فقال: لن أقهر مسلماً على ديني أبداً، وأبني لهم المساجد حتى يقاتلوا معي. وملك باشغرد يسمى كزالي. وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة، لا تحصى جنده. وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر. وهو على مذهب الإفرنج ويسبيهم. وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه. ولما سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر، وأبحت الجواري، وأربعة من الحرائر، قال"ليس هذا من العقل؛ لأن الخمر يقوي الجسد، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر. ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل". قال: فقلت للترجمان"قل للملك: شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى. النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر. والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر، فيذهب عقله، ويصير كالمجنون، يزني، ويقتل، ويكفر، ولا خير عنده. وقد يعطي سلاحه وفرسه، ويضيع ماله في سبيل لذاته. والمسلمون هاهنا جندك، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال. لأنه أهلكه في الشراب. وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم، وأيضاً فهم جندك. فإذا كثر أولادهم كثر جندك". فقال "اسمعوا من هذا الشيخ، فإنه عاقل". وقال "تزوجوا ما شئتم، ولا تخالفوه"..).

يعتبر الإصطخري أحد الجغرافيين المتمرّسين الأوائل، وهو شديد الولع بالمسالك وبوصف الممالك، وقد أسهم على نحو ليس لأحد القدرة على التشكيك فيه، في تطوير الجغرافية في الثقافة العربية-الإسلامية. وكتابه مثل بقية كتب المسالك والممالك كان دليلا لمعرفة الآخر. في هذا النص يقدم وصفا قيّما لبلاد الشمال، ويركز في حديثه عن بلاد الخزر على التقاليد السياسية الخاصة بإدارة الحكم، ولكن الحياة الاقتصادية تستأثر باهتمامة على نحو لافت للنظر في هذه البلاد وفي بلاد الروس والسرير وبلغار. ولعل أهم ما يلاحظ على الجغرافيين المسلمين الأوائل انصراف الاهتمام لديهم إلى النواحي الخاصة بالواردات الاقتصادية والضرائب، وفيما يخص البلاد المتاخمة لدار الإسلام بالخراج. وهو أمر تفسره نشأة الجغرافيا الإسلامية التي ارتبطت بهذه القضية، فقد كانت كتب المسالك والممالك تعتبر أدلة للبلدان والمدن والقرى ومسالكها، ولأنواع المزروعات وكيفية جبايتها، ومقاديرها، كما يظهر عند قدامة، وابن خرداذبة، والإصطخري، ومعاصريهم. والمقطع الآتي المأخوذ من كتاب (المسالك والممالك) يبرهن على هذا النوع من الاهتمام.

12. بلاد الخزر، والسرير، والروس، وبلغار. الإصطخري (توفي بعد 340هـ = بعد 951م) من كتاب (المسالك والممالك)

(الخزر: اسم الاقليم، وقصبته تسمى أُتل. وأتل اسم النهر إلذي يجري إليه من الروس وبلغار. وأتل قطعتان، قطعة على غربي هذا النهر المسمى الأتل، وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيه. والملك يسكن في الغربي منهما. ويسمى الملك بلسانهم "بك" ويسمى أيضاً "باك". وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ. ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء، وأبنيتهم "خركاهات" لبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين. ولهم أسواق وحمّامات، وفيها خلق من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجداً. وقصر الملك بعيد من شط النهر، وقصره من آجر، وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر. ولهذا السور أبواب أربعة منها إلى ما يلي النهر، ومنها إلى ما يلي النهر، ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر المدينة. وملكهم يهودي يقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل. والخزر مسلمون، ونصارى، ويهود، وفيهم عبدة أوثان. وأقل الفرق اليهود وأكثرهم المسلمون والنصارى إلا أن الملك وخاصته يهود. والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وأحكام خصوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى. وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل. وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه. وليست لهم جراية دارَّة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة الطويلة إذا كان لهم حرب أو حزبهم أمر يجتمعون له. وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارب على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر، ولهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك.

وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان إذا عرض للناس حكومة قضى منها هؤلاء. ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام. وبين هؤلاء والملك سفير

يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه، فيرد عليهم أمره ويمضونه. وليس لهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف، في الزروع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا ويجمعوا بعضه على النهر، وبعضه على الصحارى فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر. والغالب على قوتهم الأرز والسمك، وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل اليهم من ناحية الروس وبلغار وكذلك هذه الجلود الخز التي تحمل إلى الأفاق لا تكون إلا في تلك الأنهار التي بناحية بلغار والروس وكويابة ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمته.

والنصف الشرقي من الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر، والغربي خالصة للملك وجنده والخزر الخلص. ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية، ولا يشاركه لسان فريق من الأمم. وإنما نهر أتل فإنه فيما بلغني يخرج من قرب خرخيز فيجري فيما بين الكيماكية والغزية، وهو الحد بين الكيماكية والغزية ثم يذهب غرباً على ظهر بلغار، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس، ثم يمر على بلغار، ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر. ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر. ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون، وبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر، فتجري في البحر داخلا مسيرة يومين، وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته. ويبين في البحر لونه من لون ماء البحر. وللخزر مدينة تسمى سمندر فيما بينها وبين باب الأبواب لها بساتين كثيرة. ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير، والغالب على ثمارها الأعناب، وفيها خلق من المسلمين، ولهم بها مساجد، وأبنيتهم من خشب قد نسجت وسطوحهم مسنّمة، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر. وبينهم وبين حد السرير فرسخان. وبينهم وبين صاحب السرير هدنة.

والسرير هم نصارى، ويقال إن هذا السرير هو لبعض ملوك الفرس من ذهب فلما زال ملكهم حمل إلى السرير وحمله بعض ملوك الفرس. بلغني أنه من أولاد بهرام جوبين. والملك إلى يومنا هذا فيهم ويقال إن هذا السرير عُمل لبعض الاكاسرة في سنين كثيرة، وبين السرير وبين المسلمين هدنة. ولا أعلم في عمل الخزر مجمع ناس سوى سمندر. وبرطاس هم أمة متاخمون للخزر ليس بينهم وبين الخزر أمة أخرى وهم قوم مفترشون على وادي أتل. وبرطاس اسم الناحية، وكـــذلك الروس والخزر والسرير اسم للملكة، لا للمدينة ولا للناس. والخزر لا يشبهون الاتراك، وهم سود الشعر. وهم صنفان صنف يسمون قراخزر، وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد، كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال. والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم، واسترقاق بعضهم بعضاً. فأما اليهود منهم والنصارى فإنها تدين بتحريم استرقاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين. وبلد الخزر لا يرتفع شيء منه يحمل الى الآفاق غير الغرى. وأما الزيبق والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوب إليها. ولباس الخزر وما حواليها القراطف والأقبية، وليس يكون عندهم شيء من الملبوس وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان والروم. وأما سياستهم وأمر المملكة بهم فإن عظيمهم يسمى "خاقان خزر" وهو أجل من ملك الخزر إلا أن

ملك الخزر هو الذي يقيمه، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاؤوا به فيخنقونه بحريرة حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه، قالوا كم تشتهي مدة الملك فيقول كذا وكذا سنة، فإن مات دونها وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة. ولا تصلح الخاقانية عندهم إلا في أهل بيت معروفين وليس له من الأمر والنهي شيء إلا أنه يعظم ويسجد له إذا دخل اليه، ولا يصل اليه أحد إلا نفر يسير مثل الملك ومن في طبقته ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثة فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالتقرب، وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف و لم يقاتله تعظيماً له. وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجل وسجد، ولا يركب ما لم يغب عن قبره، ويبلغ من طاعتهم لملكهم إن أحدهم ربما يجب عليه القتل ويكون من كبرائهم فلا يحب الملك أن يقتله ظاهراً فيأمره أن يقتل نفسه فينصرف إلى مترله ويقتل نفسه. والخاقانية في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار فإذا انتهت الرياسة إلى أحدهم عقدوا له و لم ينظروا إلى ما عليه من حال. ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز كانوا يقولون إن خاقانهم إذا مات فليس أحد أحق منه بالخاقانية إلا أنه كان مسلماً ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية. والسرير والقبة الذهب التي لهم لا تضرب إلا لخاقان ومضاربه إذا برزوا فوق مضارب الملك ومسكنه في البلد أرفع من مترل مسكن الملك.

وبرطاس اسم للناحية وهم أصحاب بيوت خشب وهم مفترشون، وبسجرت هم صنفان صنف من آخر الغزية على ظهر بلغار ويقال إن مبلغهم نحو ألفي رجل ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم وهم في طاعة بلغار وبسجرت آخرهم متاخمون لبجناك، وهم وبجناك أتراك، وهم متاخمون للروم. ولسان بلغار مثل لسان الخزر ولبرطاس لسان آخر، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس.

وبلغار اسم المدينة وهم مسلمون وفيها مسجد جامع ويقرب مدينة أخرى تسمى سوار فيها أيضاً مسجد جامع. وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار عدد الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل، ولهم أبنية خشب يأوونها في الشتاء وفي الصيف يفترشون في الخركاهات. وأخبرني الخاطب بها إن الليل عندهم لا يتهيأ أن يسير فيه الإنسان أكثر فرسخ في الصيف وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف. والروس هم ثلاثة أصناف: فصنف هم أقرب إلى بلغار وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابة وهم أكبر من بلغار، وصنف أبعد منهم يسمونه الصلاوية، وصنف يسمونه الأرثانية وملكهم مقيم بأرثا. والناس يبلغون في التجارة إلى كوباية، فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلها من الغرباء لانهم يقتلون كل من وطيء أرضهم من الغرباء وإنما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم، ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم. ويحمل من أرثا السمور الأسود والرصاص. والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن، وبعضهم يحلق اللحى، وبعضهم يفتله مثل الذوائب ولباسهم القراطق القصار. ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة. هؤلاء الروس يتجرون إلى

الخزر ويتجرون إلى الروم وبلغار الأعظم، وهم متاخمون للروم في شماليها، وهم عدد كثير يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على ما يلي بلادهم من الروم وبلغار الداخل هم نصارى...)

وقد كانت القسطنطنية، وقبلها روما أهم مدينتين في بلاد الشمال، روما المدينة العريقة، ثمّ القسطنطينية التي ورثت المجد بعد ذلك، وأصبحت معقل المسيحية الأول طوال القرون الوسطى، وقد كانت كنيستها من المعالم البارزة دينيا وعمرانيا، كثيرا ما استأثرت باهتمام الجغرافيين والرحالة. وهنا يقف ابن رستة على هذين المدينتين، فيقدم عنهما تفصيلات على غاية من الأهمية للمدينتين، وبخاصة للكنيستين الرئيستين فيهما. وتنبثق تلك الأهمية من كون الوصف يأتي من شاهد عيان، هو (هارون بن يحي) الذي أسر وتم ترحيله عبر تلك البلاد.

ووصف الكنيستين لا ينمّ عن ملاحظات تفصيلية ودقيقة، فحسب، إنما عن شعور بالتوقير للطقوس الدينية المسيحية التي بعثت اعجابا لاينكر في نفس هارون. وبالنظر إلى أن هذا الوصف يعتبر وصفا من الدرجة الأولى، يقدمه شاهد عيان بضمير المتكلم، وينقل فيه الحوارات الحية، وأحيانا الكلام الرومي، فإن النص يدرج كأحد أهم المرويّات عن مَعقَلي الروم: القسطنطينية وروما. والمثير في الأمر الدقة المتناهية للطقوس الدينية التي يحضرها البابا في كنيسة روما، ومادامت مدونة ابن رسته موثوقة ومبكرة، فإنها تقدم لنا وثيقة تعود إلى القرن التاسع الميلادي عن الكيفية التي ينظر فيها أسير مسلم إلى الآخر دون أن ترشح منها أية أحكام قاسية، بل نلمس فيها احتفاء بروعة المدينتين والكنيستين، والطقوس الدينية فيهما. ومع أن العداء كان مستحكما بين دار الإسلام وبلاد الروم في هذه الفترة، لكنّ شاهدنا - كما يظهر الأمر في وصفه - لم يقع ضحية المشاعر السائدة، الأمر الذي يؤكد وجود استثناء في القاعدة، وهو أمر لمسناه في (كتاب الشرق) أيضا.

13. بابُ الأبواب، ياقوت الحموي، من كتاب (معجم البلدان)

(قال الإصطخري: وأما باب الأبواب، فإنها مدينة ربما أصاب ماءُ البحر حائطها وفي وسطها مَرسى السفن، وهذا المرسى من البحر قد بُنِيَ على حافتي البحر سدين، وجُعل المدخَل مُلتوياً وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة فلا مَخْرَج للمركب ولا مَدخَلَ إلا بإذن، وهذان السدان من صخر ورصاص. وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخَزَر، وهي مدينة تكون أكبَر من أردبيل نحو ميلين في ميلين، ولهم زروع كثيرة، وثمار قليلة إلا ما يُحمل إليهم من النواحي وعلى المدينة سور من الحجارة ممتد من الجبل طولاً في غير ذي عرض، لا مسلك على جبلها إلى بلاد المسلمين لدروس الطرق وصعوبة المسالك من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين، ومع طول السور فقد مَد قطعة من السور في البحر شبه أنف طولاني ليمنعَ من تقارُب السفن من السور، وهي محكمة البناء موثقة الأساس من بناء أنوشروان، وهي أحد الثغور الجليلة العظيمة لأنها كثيرة الأعداء الذينَ حَلوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير، وإلى جنبها جبل عظيم يعرف بالذئب يُجمع في رأسه في كل عام حطب كثير ليُشعلوا فيه النار إن احتاجوا إليه يُنذرون أهل أذربيجان وأزان وأرمينية بالعدو إن دهِمَهم، وقيل إن في



أعلى جبلها الممتد المتصل بباب الأبواب نيفاً وسبعين أمة لكل أمة لغة لا يعرفها مجاورهم. وكانت الأكاسرة كثيرة الاهتمام بهذا الثغر لا يَفتُرون عن النظر في مصالحه لعظم خَطَره وشدة خوفه، وأقيمت لهذا المكان حفظة من ناقلة البلدان وأهل الثقة عندهم لحفظه، وأطلق لهم عمارة ما قدروا عليه بلا كلفة للسلطان ولا مؤامرة فيه ولا مراجعة حِرصاً على صيانته من أصناف الترك والكفر والأعداء، فممن رتبوا هناك من الحفظة أمة يقال لهم طَبَرسَران، وأمة إلى جنبهم تُعرَف بفيلان، وأمة يعرفون باللكز كثير عددهم عظيمة شَوكتهم، والليران وشروان وغيرهم، وجعل لكل صنف من هؤلاء مركزٌ يحفظه، وهم أولو عدد وشدة رجالة وفُرسان.

وباب الأبواب فرضة لذلك البحر يجتمع إليه الخزر والسرير وسندان وخَيزان وكرج ورُقلان وزَرَنكران وعَميك هذه من جهة شماليها، ويجتمع إليه أيضاً من جرجان وطبرستان والديلَم والجبل، وقد يقع بها شغل ثياب كتان وليس بأران وأرمينية وأذربيجان كتان إلا بها وبرساتيقها، وبها زعفران، ويقع بها من الرقيق من كل نوع، وبجنبها مما يلي بلاد الإسلام رستاق يقال له مسقط، ويليه بلدُ اللكز وهم أمم كثيرة ذوو خَلقٍ وأجسام وضياع عامرة وكور مأهولة فيها أحرارٌ يُعرفون بالخماشرة، وفوقهم الملوك ودونهم المشاق، وبينهم وبين باب الأبواب بلد طبرسران شاه، وهم بهذه الصفة من البأس والشدة والعمارة الكثيرة إلا أن اللكز أكثر عدداً وأوسع بلداً وفوق ذلك فيلان، وليس بكورة كبيرة، وعلى ساحل هذا البحر دون المسقط مدينة الشابران صغيرة حصينة كثيرة الرساتيق، وأما المسافات فمن أتل مدينة الخزر إلى باب الأبواب اثنا عشر يوماً ومن سَمَندر إلى باب الأبواب أربعة أيام. وبين مملكة السرير إلى باب الأبواب ثلاثة أيام، وقال أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني: وباب الأبواب أفوَاهُ شعاب في جبل القبق، فيها حصون كثيرة منها باب صُول، وباب اللأن، وباب الشابران، وباب لازِقة، وباب بارِقة، وباب سَمِسجَن، وباب صاحب السرير، وباب فيلانشاه، وباب طارونان، وباب طبرسران شاه، وباب إيران شاه.

وكان السبب في بناء باب الأبواب على ما حدث به أبو العباس الطوسي قال هاجت الخزر مرة في أيام المنصور، فقال لنا أتدرون كيف كان بناءُ أنوشروان الحائط الذي يقال له الباب قلنا لا قال كانت الخزر تُغير في سلطان فارس حتى تبلُغَ همذان والموصل، فلما ملك أنوشروان بعث إلى ملكهم فخطب إليه ابنته على أن يزوجه إياها، ويعطيه هو أيضاً ابنته، ويتوادعا ثم يتفرّغا لأعدائهما، فلما أجابه إلى ذلك عمد أنوشروان إلى جارية من جواريه نفيسة فوجه بها إلى ملك الخزر على أنها ابنته، وحمل معها ما يحمل مع بنات الملوك، وأهدى خاقان إلى أنوشروان ابنته، فلما وصلت إليه كتب إلى ملك الخزر لو التقينا فأوجبنا المودة بيننا فأجابه إلى ذلك وواعده إلى موضع سماه، ثم التقيا فأقاما أياماً ثم أن أنوشروان أمر قائداً من قواده أن يختار ثلاثمائة رجل من أشداء أصحابه، فإذا هَدَأت العيون أغار في معسكر الخزر فحرق وعقر ورجع إلى العسكر في خفاء ففعل، فلما أصبح بعث إليه خاقان ما هذا الذي بيّت عسكري البارحة، فبعث إليه أنوشروان لم تُؤتَ من قِبلنا فابحثْ وانْظر ففعل فلم يقف على شيء، ثم أمهلَهُ أياماً وعاد لمثلها حتى فعل ثلاث مرات وفي كلها يعتذر ويسأله البحث فيبحث فلا يقف على شيء، فلما أثقل ذلك على خاقان دعا قائداً من قُواده وأمره بمثل ما أمر به أنوشروان، فلما فعل أرسل إليه

أنوشروان ما هذا أستُبيحَ عسكري الليلة، وفُعِلَ بي وصُنعَ، فأرسل إليه خاقان ما أسرَعَ ما ضَجرتَ قد فُعِلٍ هذا بعسكري ثلاث مرات، وإنما فُعِلَ بَك أنت مرة واحدة، فبعث إليه أنوشروان هذا عملُ قوم يريدون أن يفسدوا فيما بيننا وعندي رأي لو قبلتَهُ رأيت ما تحب. قال، وما هو قال: تدَعني أن أبني حائطاً بيني وبينك، واجعل عليه باباً فلا يدخُلُ بلدك إلا من تحب ولا يدخل بلدي إلا من أحب، فأجابه إلى ذلك، وانصرف خاقان إلى مملكته. وأقام أنوشروان يبني الحائط بالصخر والرصاص وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وعلوه حتى ألحقه برؤس الجبال ثم قاده في البحر، فيقال إنه نفخ الزقاق وبنى عليها، فأقبلَت تنزل والبناء يصعدُ حتى استقرت الزقاق على الأرض ثم رفع البناء حتى استوى مع الذي على الأرض في عرضه وارتفاعه وجعل عليه باباً من حديد، ووكل به مائة رجل يحرسونه بعد أن كان يحتاج إلى مائة ألف رجل، ثم نصب سريره على الفنْدِ الذي صنعه على البحر وسجد سروراً بما هيأه الله على يده ثم استلقى على ظهره، وقال الآن حين استرحتُ.

قال ووصف بعضهم هذا السد الذي بناه أنوشروان فقال إنه جعل طرفاً منه في البحر فأحكمه إلى حيث لا يتهيا سلوكه، وهو مبني بالحجارة المنقورة المربعة المهندمة لا يقل أصغرها خمسون رجلاً، وقد أحكمت بالمسامير والرصاص، وجُعِلَ في هذه السبعة فراسخ سبعة مسالك على كُل مسلك مدينة، ورتبَ فيها قوم من المقاتلة من الفُرس يقال لهم الانشاستكين، وكان على أرمينية وظائف رجالٍ لحراسة ذلك السور مقدار ما يسير عليه عشرون رجلاً بخيلهم لا يتزاحمون. وذكر أن بمدينة الباب على بابِّ الجهاد فوق الحائط اسطوانتين من حجر على كل أسطوانة تمثال أسد من حجارة بيض وأسفل منهما حجرين على كل حجر تمثال لبوتَين، وبقُرب الباب صورة رجل من حجر وبين رجلَيه صورة ثعلب في فمه عنقود عنب، وإلى جانب المدينة صهريج معقود له درجة ينزل إلى الصهريج منها إذا قل ماؤه، وعلى جنبي الدرجة أيضاً صورتا أسد من حجارة يقولون أنهما طلسما السور..)

14. حكماء اليونان والرومان، أبو الفداء من كتاب (المختصر في أخبار البشر)

(قال أبو عيسى: المنقول عن أصحاب السير من اليونان، أن اليونان نجموا من رجل اسمه اللنٍ ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى النبي عليه السلام، وكان أميرس (= هوميروس) الشاعر اليوناني موجوداً، في سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام، وهو تاريخ ظهور أمة اليونان واشتهارهم، ولم يُعلموا قبل ذلك. قال: وكانوا أهل شعر وفصاحة، ثم صارت فيهم الفلسفة في زمان بخت نصر. قال: وهذا منقول من كتاب كوولبس الذي رد فيه على لليان الذي ناقض الإنجيل، أقول وقد نقل الشهرستاني أن أبيدقليس كان في زمن داود النبي عليه السلام، وكذلك فيثاغورس كان في زمن سليمان بن داود عليه السلام، وأخذ الحكمة من معدن النبوة، وكانت وفاة سليمان بن داود لمضي خمسمائة وثلاث وسبعين سنة من وفاة موسى، وكان أبيدقليس وفيثاغورس فيلسوفين مشهورين من اليونانيين، فقول أبي عيسى إن الفلسفة إنما ظهرت من اليونان في زمن بخت نصر، غير مطابق لما نقله الشهرستاني فإن بخت نصر بعد سليمان بأكثر من أربعمائة سنة.



ومن كتاب ابن سعيد المغربي: أن بلاد اليونان كانت على الخليج القسطنطيني من شرقيه وغربيه إلى البحر المحيط، والبحر القسطنطيني هو خليج بين بحر الروم وبحر القرم، واسم بحر القرم في القديم بحر نيطش. قال: واليونان فرقتان: فرقة يقال لهم الإغريقيون وهم اليونانيون الأول، والفرقة الثانية يقال لهم اللطينيون. وقد اختلف في نسب اليونان، فقيل أنهم من ولد يافث، وقيل أنهم من جملة الروم من ولد صوفر بن العيص بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وكانت ملوك اليونان.. من أعظم الملوك، ودولتهم من أفخر الدول، ولم يزالوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم..فدخلت اليونان في الروم ولم يبق لهم ذكر. قال: وكانت بلادهم في الربع الشمالي الغربي، متوسطها الخليج القسطنطيني، وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم، مثل العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية والرياضية، وكانوا يسمون العلم الرياضي جومطريا، وهو المشتمل على علم الهيئة والهندسة والحساب واللحون والإيقاع وغير فلك، وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلوسوفاً، وتفسيره محب الحكمة، لأن فيلو محب وسوفاً الحكمة. فمن فلاسفتهم ثاليس الملطي، قال أبو عيسى: كان في زمن بخت نصر ومنهم أبيد قليس وفيثاغورس، اللذين تقدم أنهما كانا في زمن داود وسليمان عليهما السلام، وفيثاغورس من كبار الحكماء، ويزعم أنه سمع حفيف الفلك، وصل إلى مقام الملك. وقال: ما سمعت شيئاً ألذ من حركات الأفلاك، ولا رأيت شيئاً أبهى من صورها. ومنهم أبقراط الحكيم الطبيب المشهور، ونجم في سنة مائة وست تسعين لبخت نصر، فيكون أبقراط قبل الهجرة بألف ومائة وبضع وسبعين سنة.

ومنهم سقراط، قال الشهرستاني في الملل والنحل: إنه كان حكيماً فاضلاً زاهداً، واشتغل بالرياضة، وأعرض عن ملاذ الدنيا، واعتزل إلى الجبل وأقام في غار، ونهى الناس عن الشرك وعبادة الأوثان فثارت عليه العامة، والجأوا ملكهم إلى قتله فحبسه ثم سقاه سمّاً فمات. ومنهم أفلاطون الإلهي، وكان تلميذاً لسقراط المذكور، ولما اغتيل سقراط السم، قام أفلاطون مقامه وجلس على كرسيه. ومنهم أرسطوطاليس وكان تلميذاً لأفلاطون، وكان أرسطو المذكور في زمن الإسكندر، وبين الإسكندر والهجرة تسعمائة وأربع وثلاثون سنة، فيكون أفلاطون قبل ذلك بمدة يسيرة، وكذلك يكون سقراط قبل أفلاطون بمدة يسيرة أيضاً، فبالتقريب يكون بين سقراط والهجرة نحو ألف سنة، ويكون بين أفلاطون والهجرة أقل من ألفي سنة. ومنهم طيماوس وهو من مشايخ أفلاطون، وأما أرسطوطاليس فهو المقدم المشهور، والحكيم المطلق. قال الشهرستاني: ولما صار عمر أرسطو المذكور سبع عشر سنة أسلمه أبوه إلى أفلاطون فمكث عنده نيفاً وعشرين سنة، ثم صار حكيماً مبرزاً يعتمد عليه. ومن جملة تلامذة أرسطو الملك الإسكندر، الذي ملك غالب المعمور، من الغرب إلى الشرق، وأقام الإسكندر يتعلم على أرسطو خمس سنين، وبلغ فيها أحسن المبالغ، ونال من الفلسفة ما لم ينل سائر تلاميذ أرسطو، ولما لحق أباه فيلبس مرض الموت، أخذ ابنه الإسكندر من أرسطو وعهده إليه بالملك. ومنهم يرقلس وكان بعد أرسطو وصنف كتاباً ورد فيه شبهاً في قدم العالم. ومنهم الإسكندر الأفروديسي وكان بعد أرسطو، وهو من كبار الحكماء.

ومما نقلناه من تاريخ ابن القفطي وزير حلب، في أخبار الحكماء قال: فمنهم طيموخارس وهو حكيم رياضي يوناني، عالم بهيئة الفلك رصد الكواكب في زمانه، وقد ذكره بطلميوس في المجسطي؛ وكان وقته متقدماً لوقت بطلميوس بأربعمائة وعشرين سنة. ومنهم فرفوريوس وكان من أهل مدينة صور على البحر الرومي بالشام، وكان بعد زمن جالينوس الذي سنذكره، وكان فرفوريوس المذكور عالماً بكلام أرسطو، وقد فسر كتبه لّما شكا إليه الناس غموضها، وعجزهم عن فهم كلامه. ومنهم فلوطيس وكان فاضلاً حكيماً يونانياً، وشرح كتب أرسطو ونقلت تصانيفه من الرومي إلى السرياني قال: ولا أَعلم أن شيئاً منها خرج إلى العربي. ومنهم فولس الأجانيطي ويعرف بالقوابلي نسبة إلى القوابل جمع قابلة وكان خبيراً بطب النساء، كثير المعاناة له، وكان القوابل يأتينه ويسألنه عن الأمور التي تحدث بالنساء عقيب الولادة، فينعم السؤال لهن ويجيبهن بما يفعلنه، وكان زمنه بعد زمن جالينوس، وكان مقامه بالإسكندرية. ومنهم لسلون المتعصب، وكان حكيماً يونانياً يقرئ فلسفة أفلاطون وينتصر لها، فسمي لذلك بالمتعصب. ومنهم مقسطراطيس وكان فيلسوفاً يونانياً شرح كتب أرسطو، وخرجت إلى العربي. ومنهم منطر الإسكندري وكان إماماً في علم الفلك، واجتمع هو وأفطيمن بالإسكندرية، وأحكما آلات الرصد، ورصد الكواكب، وحققاها، وكان زمنهما قبل زمن بطلميوس صاحب المجسطي بنحو خمسمائة وإحدى وسبعين سنة. ومنهم مورطس ويقال مورسطس، حكيم يوناني له رياضة وحيل، وصنف كتاباً في الآلة المسماة بالأرغن، وهي آلة تسمع على ستين ميلاً. ومنهم مغلس الحمصي من أهل حمص، وكان من تلامذة أبقراط، وله ذكر في زمانه، وله تصانيف منها كتاب البول وغيره. ومنهم مثرود يطوس ولم يذكر زمانه، بل قال عنه: إنه كان طبيباً وحكيماً، وهو الذي ركب المعجون المسمى مثرود يطوس، سمّي معجونه باسمه، وكان معتنياً بتجربة الأدوية، وكان يمتحن قواها في شرار الناس الذين قد وجب عليهم القتل، فمنها ما وجده موافقاً للدغة الرتيلاء ومنها ما وجده موافقاً للدغة العقرب، وكذلك غير ذلك، انتهى كلام ابن القفطي.

وأما بطلميوس وجالينوس فإن زمانهما متأخر عن زمن اليونان، وكانا في زمن الروم وأحدهما قريب من الآخر، وكان بطلميوس متقدماً على جالينوس بقليلا. قال ابن الأثير في الكامل وقد أدرك جالينوس زمن بطلميوس، وكان بطلميوس مصنف المجسطي المذكور في زمن أنطونينوس، ومات أنطونينوس في أول سنة اثنتين وستين وأربعمائة لغلبة الإسكندر، وكان بين رصد بطلميوس ورصد المأمون ستمائة وتسعون سنة، وكان رصد المأمون بعد سنة مائتين للهجرة، فيكون بين الهجرة ورصد بطلميوس أربعمائة وتسعون سنة بالتقريب، وكان جالينوس في أيام قوموذوس الملك، وكان موت قوموذوس في سنة أربع وتسعين وأربعمائة للإسكندر، فيكون بين جالينوس والهجرة أكثر من أربعمائة سنة بقليل، وذلك كله بالتقريب.ومن حكماء اليونان إقليدس صاحب كتاب الاستقصات المسمى باسمه، قال أبو عيسى: وكان إقليدس في أيام ملوك اليونان البطالسة، فلم يكن بعد أرسطو ببعيد قال: وليس هو مخترع كتاب إقليدس، بل هو جامعه ومحرره ومحققه،

ولذلك نسب إليه. ومنهم ابرخس وكان حكيماً رياضياً، ورصد الكواكب وحققها، ونقل بطلميوس عنه في المجسطي، وكان بين رصد برخس وبين رصد بطلميوس مائتان وخمس وثمانون سنة فارسية بالتقريب..)

ويقدم المؤرخ ابن العبري سردا متعاقبا لقياصرة روما خلال الحقبة التي ظهرت في المسيحية في فلسطين، ويكشف العلاقة بين اتباع هذه العقيدة وبين قياصرة الروم وولاتهم في فلسطين، ثم ينتهي المقطع الذي اخترناه بالتعريف الموجز بكل من جالينوس، وبطليموس. والنص بمجمله يوافق الرؤية التي يصدر عنها المؤرخون المسلمون فهو أقرب إلى تاريخ الحوليات المشغول بالملوك، ولكنه يتوسع ليدرج في السياق معلومات مهمة.

15. الروم وبداية ظهور النصرانية، ابن العبري (586هـ = 1286م) من كتاب (تاريخ مختصر الدول)

(الروم هم الإفرنج بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين، ولغتهم مخالفة للغتهم. فلغة اليونانيين الاطيقية ولغة الروم اللاطينية. وحدّ بلاد الروم من جهة الجنوب البحر الرومي الممتد طولاً في المغرب إلى المشرق ما بين طنجة إلى الشام. وحدها من جهة الشمال بعض ممالك الأمم الشمالية من الروس وغيرها. وحدها من جهة الشرق تخوم بلاد اليونانيين. وحدها من جهة المغرب إلى أقصى الأندلس البحر المغربي المحيط المعروف بأوقيانوس. وهذه المملكة ثلاث قطع أولها من جهة المشرق بلاد الامانية ثم وسطها بلاد افرنسة ثم آخرها بلاد الأندلس. وقاعدة هذه المملكة كلها كانت مدينة رومية العظمى من بلاد الامانية إلى أن تغلب اغوسطس أول القياصرة على ملوك اليونانيين وأضاف إلى مملكتهم مملكته، فصارت مملكة واحدة رومية عظيمة الشأن، كما فعلت الفرس بمملكة الكلدانيين حتى استولت عليها، وصيرت المملكتين مملكة واحدة فارسية. وصارت رومية قاعدة هاتين المملكتين إلى أن قام قسطنطينوس بن هيلاني بدين المسيح ورفض دين الصابئة، وبنى مدينة بوزنطيا وعظمها وسماها باسمه القسطنطينية، واستوطنها فصارت حينئذ قاعدة ملك الروم إلى سنة ألف ومائتين واثنتين وستين للإسكندر حتى قوي العامل على رومية وكثرت جموعه، فلبس التاج وسمي ملكاً بكافة ملك قسطنطينية ورضي بسلمه، وتميزت مذ ذاك مملكة اللاطينيين من مملكة الاطيقيين من جهة مغاربها. وبعدت أعمالهم من أعمال رومية بمن توسط بينهما من فرق الترك المخيمة هنالك والمخربة لكثير من عمائرها. فلا يصل أحد اليوم من القسطنطينية إلى رومية إلا في البحر.

وكان للروم بمدينة رومية وغيرها علماء بأنواع الفلسفة إلا أن لليونانيين من المزية في ذلك والفضل ما لا ينكره الروميون ولا سواهم. "أغوسطس قيصر" ملك ستاً وخمسين سنة، وباسمه سمي شهر آب أغوسطس، وكان يسمى أولاً سجاسطيلوس. وفي أيامه جدد هيروذيس مدينة نابلس، وعظّم قصر اسطراطون وسماها قيصرية، وهي المعروفة بفيليبوس، وبنى أيضاً مدينة جبلة. وفي السنة الثالثة والأربعين من ملك اغوسطس قيصر وهي سنة تسع وثلاثمائة من تأريخ الاسكندر ولد السيد المسيح من مريم العذراء ليلة الثلاثاء في الخامس والعشرين من كانون الأول. وفي تلك السنة كان قد أرسل قيصر الملك قورينوس القاضي مع أصحاب الجزية إلى أورشليم. فصعد يوسف خطيب مريم من الناصرة مدينته إلى أورشليم ليثبت اسمه. وعند موافاتهم قرية بيت

لحم ولدت مريم. وأتى المجوس بألطافهم من المشرق فأهدوها إلى المسيح وهي ذهب ومر ولبان. وكانوا قد مروا أولاً بهيروذيس وسألهم عن أمرهم. فقالوا له: إن عظيماً كان لنا وهو قد أنبأنا بكتاب وضعه ذاكراً فيه: سيولد في فلسطين مولود أصله من السماء ويتعبد له أكثر العالم. وآية ظهوره إنكم ترون نجماً غريباً وهو يهديكم إلى حيث هو. فإذا رأيتموه فاحملوا ذهباً ومراً ولباناً وانطلقوا إليه وألطفوه بها واسجدوا له وانصرفوا لئلا ينالكم بلاء عظيم. والآن قد ظهر لنا النجم وأتينا لنتمّ ما أمرنا به. فقال لهم: هيروذيس: قد أصبتم الرأي فانطلقوا وابحثوا عن الصبي نعما. فإذا وجدتموه فأعلموني لأنطلق أنا أيضاً فأسجد له. فمضوا و لم يعودوا إليه، فغضب غضباً شديداً، وأمر بذبح جميع أطفال بيت لحم من ابن سنتين وما دون لعدم علمه بوقت ولادة المخلص. وكانت مريم يومئذ ابنة ثلث عشرة سنة وعمرت إحدى وخمسين سنة.

وكتب اوتغنيوس الفيلسوف إلى قيصر يعلمه عن مجيء المجوس قائلاً في رسالته: إن فرس المشرق دخلوا سلطانك وقربوا القرابين لصبي ولد بأرض يهوذا. فأما من هو وابن من هو فلم يبلغنا بعد. فأجابه قيصر: إن هيروذيس عاملنا على اليهود هو يعلمنا ما أمر هذا المولود وقضيته. وكتب قيصر إلى هيروذيس يستعلمه الخبر. فكتب إليه وعرفه قول المجوس له وإنه ذبح أطفال بيت لحم أجمعين ليكون قد أتى على نفس الصبي معهم. وفي تلك الليلة التي أتت المجوس هرب يوسف مع مريم والمولود إلى مصر ولبثوا بها سنتين. ولما بلغهم موت هيروذيس عادوا إلى الناصرة مدينتهم. وقبل أن يموت هيروذيس قتل امرأته مريم التي كانت ابنة يوحنا الاسكندر ملك اليهود وأخاها وأمها، وبالجملة كل من وجد من نسل الملوك. ثم حدث له استسقاء زقي ونقرس شديد وبقي في عذاب أليم مدة سنتين ثم مات. وولي مكانه ارخيلاوس ابنه تسع سنين. ثم اعتقله اغوسطس وجعل ملك اليهود أرباعاً وولى في الثلاثة الأرباع ثلاثة من أخوة ارخيلاوس وهم هيروذيس وانطيفطرس وفيليفوس. وفي الربع الرابع لوسانيا.

"طيباريوس قيصر" ملك اثنتين وعشرين سنة. وفي السنة الأولى من ملكه عرضت زلزلة عظيمة وسقط فيها مواضع كثيرة ومات خلق من الناس والمواشي. وفي السنة السابعة بنى هيروذيس بن هيروذيس مدينة طبرية على اسم طيباريوس الملك. وفي السنة الرابعة عشرة ولي فيلاطوس القضاء على اليهود ونصب تمثال قيصر في الهيكل واضطرب لذلك اليهود. وبعد ثلاث سنين اعتمد المسيح من يوحنا بن زكريا يوم الأربعاء وقيل: يوم الأحد لستّ خلون من كانون الأخيرة. وكان ابن ثلاثين سنة. ومن هاهنا بدأ بإظهار الآيات الباهرة وإفشاء سر ملكوت الله والحث على العمل بسنة الفضيلة فضلاً عن سنة العدالة. وفي السنة التاسعة عشرة من ملك طيباريوس وهي سنة ثلاثمائة واثنتين وأربعين من تاريخ الاسكندر أرسل ابجر ملك الرها فيجاً اسمه حنان إلى المسيح بكتاب يقول فيه: من ابجر الأسود إلى ايشوع المتطبب الظاهر بأورشليم. أما بعد فإنه بلغني عنك وعن طبك الروحاني وإنك تبرئ الأسقام من غير أدوية فحدست إنك إما إله نزلت من السماء أم ابن الإله. فأنا أسألك أن تصير إلي لعلك تشفي ما بي من السقم. وقد بلغني أن اليهود يرومون قتلك. ولي مدينة واحدة نزهة وهي تكفيني وإياك نسكن فيها في هدوء. والسلام. فأجابه المسيح بكتاب قائلاً: طوباك إنك آمنت بي و لم



ترني. وأما ما سألتني من المصير إليك فإنه يجب أن أتمم ما أرسلت له وأصعد إلى أبي. ثم أرسل لك تلميذاً لي يبرئ سقمك ويمنحك ومن معك حياة الأبد. فلما أخذ حنان الجواب من المسيح جعل ينظر إليه ويصور صورته في منديل لأنه كان مصوراً وأتى به إلى الرها ودفعه إلى ابجر الأسود. وقيل أن المسيح تمندل بذلك المنديل ماسحاً به وجهه فانتقشت فيه صورته. وبعد صعود المسيح إلى السماء أرسل ادي السليح أحد الاثنين والسبعين إلى الرها وأبرأه من سقامه.

وفي هذه السنة تمت الأربعمائة والتسعون سنة التي أوحى الله إلى دانيال النبي أن سبعين أسبوعاً تطمئن أمتك ثم يأتي الملك المسيح ويقتل. وهذا إذا ابتدأنا بتعديدها من آخر سنة عشرين لملك ارطحششت الطويل اليدين وهي السنة التي أرسل فيها نحميا الساقي إلى أورشليم وجدد العهد بتقريب القرابين وكتب عزرا كتب الوحي. وفي هذه السنة اعني التاسعة عشرة من ملك طيباريوس قيصر صلب المسيح يوم الجمعة في الثالث والعشرين من آذار وكان فصح اليهود يوم السبت وإنما أكله المسيح مع تلاميذه ليلة الجمعة لتعذر إتمامه في وقته بسبب صلبه نهار الجمعة. وكان الصعود يوم الخميس لثلاث خلون من أيار. وصار الفنطيقوسطي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من أيار. وفي هذا اليوم سمع كهنة اليهود من داخل الهيكل صوت هاتف يهتف بهم قائلاً: قد أزمعنا على الانتقال من هاهنا. فراعهم ذلك جداً. فمن بدء العالم إلى مجيء المسيح بمقتضى التوراة التي بأيدي اليهود أربعة آلاف ومائتان وعشر سنين بالتقريب. وبمقتضى التوراة السبعينية التي بأيدي الروم وسائر فرق النصرانية خلا السريان خمسة آلاف وخمسمائة وست وثمانون سنة بالتقريب. ينقص التاريخ الأول من الثاني ألف وثلاثمائة وخمس وسبعون سنة. وهذا النقص منسوب إلى أحبار اليهود لأن البشارة بالمسيح قد تقدمت في التوراة والأنبياء أنه يبعث في آخر الأزمان ولم يكن لمن سلف من رباني اليهود حيلة في دفع مجيء المسيح غير أن يبدلوا أعمار الآدميين التي منها يوقف على تاريخ العالم فنقصوا من عمر آدم إلى أن ولد شيث مائة سنة وزادوها في باقي عمره. وكذلك عملوا في أعمار باقي ولد آدم إلى إبراهيم. فصار تاريخهم يدل على أن المسيح ظهر في الألف الخامس وهذا قريب من توسط سني العالم التي هي جميعها عندهم سبعة آلاف سنة. فقالوا: نحن بعد في توسط الزمان فلم يحن حين مجيء المسيح. وأما التاريخ السبعيني فيدل على أن المسيح ظهر في الألف السادس فيكون قد حان حينه.

"غاييوس قيصر" ملك أربع سنين. وفي السنة الأولى من ملكه ولي هيروذيس اغريباس على اليهود سبع سنين. وفي هذه السنة قتل فنطيوس فيلاطوس نفسه وأرسل فيليكوس قاضياً إلى أورشليم وملأ محاريب اليهود أصناماً. فأرسلوا رسولين حكيمين هما فيلون ويوسيفوس العبريان إلى قيصر يتضورون من صنيع الناظر. فمضيا واستعطفاه متقدماً بإزالة ما كره اليهود عنهم. وفي السنة الرابعة ورد فطرونيوس الناظر من رومة إلى أورشليم ونصب صورة زاوس أي المشتري في هيكل الرب. وتمت نبوءة دانيال النبي الذي قال: علامة نجسة قائمة حيث لا ينبغي. "قلوذيوس قيصر" ملك خمس عشرة سنة. وفي السنة الثانية من ملكه ظهر رجل مصري بأرض يهوذا وادعى النبوءة وافسد خلقاً من الناس وأراد أن يكبس أورشليم قهراً. فتوجه إليه فيليكوس البطريق فقتله

وقتل عامة أتباعه. وظهر أيضاً رجل يسمى قورينثوس وكان يقول: إن في ملكوت الله أكلاً وشرباً ونكاحاً. وفي هذا الزمان أمر قلوذيوس قيصر بإحصاء اليهود الذين في سلطانه. فبلغ عددهم ستمائة وأربعاً وتسعين ربوة وأربعة آلاف نفس. وفي يوم عيد الفصح وقع اليهود في الخليطى وضغط الناس بعضهم بعضاً فمات في الزحام ثلاثون ألف نفس. وكان اليهود متفرقين على سبع فرق.

الأولى: الربانيون وهم كتاب الناموس ومعلموه.
والثانية: اللاويون الذين لم يفارقوا خدمة الهيكل.
والثالثة: المعتزلة الذين يؤمنون بقيامة الموتى ويقولون بوجود الملائكة ويصومون يومين في الأسبوع.
والرابعة: الزنادقة الذين يجحدون القيامة والملائكة.
والخامسة: المغتسلون الذين يقولون لا يثاب أحد إن لم يغتسل كل يوم.
والسادسة: النساك الذي لا يأكلون شيئاً فيه روح.
والسابعة: السمرة الذين لا يقبلون من الكتب إلا التوراة وهي المجسمة.

"نارون قيصر" ملك أربع عشرة سنة. وفي السنة الثالثة عشرة من ملكه اضطهد النصارى وضرب عنق فطروس وبولوس وصلبهما منعكسين. وعصى اليهود عليه فغزاهم اسفسيانوس القائد مع جيوش كثيرة وحاصر أورشليم زماناً طويلاً. فلما دنا من فتحها أتاه الخبر بموت نارون وإنه اعتراه جنون في مرضه وقتل نفسه وابنه وزوجته. فنصب اسفسيانوس ابنه طيطوس مكانه في محاربة اليهود ونهض راجعاً إلى رومية وغزا الإسكندرية وافتتحها وركب في البحر وسار إلى رومية وملكها. "اسفسيانوس قيصر" ملك عشر سنين. وهو بنى قوقلس أي منارة الإسكندرية وطولها مائة وخمس وعشرون خطوة وفي السنة الثانية من ملكه افتتح طيطوس ابنه مدينة أورشليم وقتل فيها زهاء ستين ألف نفس وسبى نيفاً ومائة ألف نفس. ومات فيها من الجوع خلق كثير والباقون تشتتوا في البلاد. ودعثرها وأخرب هيكلها. وتمت نبوءة يعقوب حيث قال: لن تفقد هراوة الملك من يهوذا ولا المنذر أي النبي من ذريته حتى يأتي من له الغلبة وإياه تتوقع الشعوب. وتم أيضاً ما أنذر به المخلص مخاطباً لأورشليم: إنه سيأتي أيام تحيط بك أعداؤك ويكبسونك وبنيك فيك. وكان ذلك بعد أربعين سنة من صلب المسيح. وذكر يوسيفوس العبري أنه ظهر قبل خراب أورشليم علامات فظيعة. وذلك أنه ظهر فوق المدينة نجم طويل كسيف من نار يلمع. وفي عيد الفصح جاءوا ببقرة الذبيحة فولدت حملاً في وسط الهيكل. وأبواب النحاس التي كانت على باب الهيكل ولم تكن تغلق وتفتح دون اجتماع عشرين رجلاً وجدت نصف الليل مفتوحة من غير علة. وكانوا عامة السنة يسمعون في الهيكل أصواتاً مختلفة تقول: إننا سننتقل من هاهنا.

"طيطوس قيصر" ملك سنتين. وفي السنة الثاني لملكه انشق جبل بالروم وخرج منه شهب نار أحرقت مدناً كثيرة. ووقع برومية حريق كثير. وخطب بعض الخطباء ذات يوم خطبة في حفل من الناس وفي جملة الانباز التي

نبزها طيطوس اشتق له اسماً من أسماء الله تعالى. ولأنه سر بذلك فاجأه الموت فجأة. "ذوميطيانوس قيصر" ملك ست عشرة سنة. ونفى من رومية المنجمين وأصحاب الزجر والفأل والعيافة والطيرة. وأمر أن لا يغرس برومية كرم البتة. وفي السنة التاسعة لملكه اضطهد النصارى اضطهاداً شديداً ومع هذا كان الناس يدخلون في دين المسيح أفواجاً ويتمسكون به تمسكاً أشد. فقال فطروفيلس المحصل لارسنيوس الحكيم معلمه ما الذي ألجأ ديونوسيوس رئيس حكماء أثيناس وافريقيانوس الإسكندري ومرطيانوس الباذوي إلى أن يسجدوا لرجل مصلوب. فأجابه قائلاً: إن آلهة السماء اقتضوا هذا. فاستنار واختار اتّباع النصارى بالسيرة الحسنة وترك الدنيا وملاذها يفيدهم الأيد بالقول والعمل. وفي هذا الزمان عرف افولونيوس الطلسماطيقي وكان يضاد التلاميذ بأفاعيله المخالفة لأفاعيل المسيح ويقول: الويل لي إن سبقني ابن مريم. وهذا الملك نفى يوحنا الإنجيلي إلى بعض الجزائر. وكتب إليه ديونوسيوس أسقف اثيناس كتاباً يقول فيه: لا يعترينك الضجر والملل فإنه لا يطول سجنك فالمسيح يعمل لك الخلاص فألهم نفسك بالصبر. وبعد قليل قتل دوميطيانوس قيصر على بساطه في مجلسه.

"نارون قيصر الصغير" ملك سنة واحدة. وأمر أن يرد المنفيون. ورجع يوحنا الإنجيلي إلى مدينة افسوس بعد ست سنين لنفيه. ثم جذم نارون ومات في بستان خارج رومية. "طريانوس قيصر" ملك تسع عشرة سنة. وفي السنة العاشرة لملكه اضطهد النصارى. واستشهد شمعون بن قليوفا أسقف أورشليم ويوحنا السليح وايغناطيوس النوراني أسقف إنطاكية رمي للسباع فافترسته. وفيلنيوس صاحب الشرط لما عجز من قتل النصارى لكثرتهم طالع قيصر أن أهل هذا المذهب عاملون بجميع سنن الفلاسفة غير أنهم لا يكرمون الأصنام. فأمر قيصر أن لا يجدّ في أذاهم إلا إذا وجد منهم من يتفوه بسب الآلهة فليدن. وفي آخر سنة من ملكه عصت اليهود الذين بجزيرة قبرس والشام والحبشة. ويهود مصر أيضاً نصبوا لهم ملكاً اسمه لومينوس. فجيش وتوجه إلى فلسطين. فطلبته جيوش الروم وقتلته مع ربوات من اليهود في كل مكان. وفي هذا الزمان ظهر بإنطاكية رجل اسمه سوطرنينوس وكان يقول: إن سبعة من الملائكة خلقوا العالم وإياهم عنى الله بقوله هلموا نخلق إنساناً يشبهنا وصورتنا. وقال: إن التزويج وهيئة أعضاء البضاع للرجال والنساء من فعل الشيطان ولهذا يستقبح الناس كشفها. وظهر أيضاً بسيليذيس القائل بإكرام الحية وتعظيمها لأنها المشيرة على حواء بالمجامعة ولولاها لما تناسل الناس. وظهر أيضاً رجل اسمه قورنثوس وكان يقول: إن العالم خلق الملائكة وإن المسيح ولد من المباضعة. وقيل: أن بيعة الله إلى هذه الغاية التي ظهر فيها هؤلاء المخالفون كانت عذراء من مثل هذه العلوم الشيطانية وخرافات البدع.

"اذريانس قيصر" ملك إحدى وعشرين سنة. وفي أول سنة من ملكه أطلق الديون وأمر المديونين أن لا يقضوا مما عليهم شيئاً البتة وأطلق للناس الاخاريج والأتاوى الديوانية أيضاً. وفي السنة الرابعة بطل الملك من الرها وولي أمرها القضاة من قبل الروم. وأمر اذريانس ببناء مدرسة بمدينة اثيناس ورتب فيها قوماً من الحكماء وحمل إليهم نواميس سولون وذراقون ومن هنالك فاضت الحكم في اثيناس. وفي هذه السنة ظهر بأورشليم رجل يقال له ابن الكوكب وأضل اليهود مدعياً أنه نزل من السماء كالكواكب ليخلصهم من عبودية الروم.

فتبعه خلق كثير منهم. وبلغ الخبر إلى اذريانس فوجه إليه جيوشاً فقتلوه وغزوا أورشليم وأهلكوا اليهود وخربوا أورشليم غاية الخراب وبنوا قريباً منها مدينة سموها هيليا اذريانس وأسكنوها قوماً غرباء. وأمر اذريانس بصرم آذان الذين تخلفوا من اليهود وسنّ لهم سنّة أن لا ينظروا إلى أورشليم ولا من بعيد."طيطوس انطونيانس قيصر" المسمى اوسابيوس ويسمى أيضاً بارّاً وأب البلد. ملك اثنتين وعشرين سنة وأزال عن النصارى الاضطهاد وأباح للناس أن يتدينوا بأي دين شاءوا. وفي هذا الزمان نبغ في البيعة من المخالفين شخص اسمه ولنطيانوس وكان يقول: إن المسيح أنزل معه جسداً من السماء واجتازه بمريم كاجتياز الماء بالميزاب أي لم يأخذ منها شيئاً. وظهر أيضاً رجل يسمى مرقيون وقال: إن الآلهة ثلاثة عادل وصالح وشرير وأن العادل أظهر أفاعيله في الشرير وهو الهيولي فخلق منها العالم. ولما رأى الصالح العالم قد انجذب إلى جهة الشرير أرسل ابنه ليدعو الناس إلى عبادة أبيه الصالح. فأتى ونسخ التوراة المتضمنة سنة العدل بالإنجيل الذي هو متضمن سنَّة الفضل. فهيج العادل عباده عليه فأمكنهم من نفسه حتى قتلوه وبقيامته من بين الأموات سبى الناس وأصارهم إلى عبادة أبيه. فلما أظهر مرقيون هذه الخزعبلة وعظته الأساقفة زماناً طويلاً فلم يرجع عن خزعبلته وتمادى في أباطيله فنفاه الجماعة وصار لعنة.

وفي هذا الزمان اشتهر جالينوس في الطب ووضع فيه كتباً كثيرة. والموجود في أيدي الناس منها الآن زهاء مائة كتاب. وكان شيخه في الطب طبيباً اسمه اليانوس. وهو الذي توجه إلى مدينة إنطاكية في السنة التي وقع الموتان في أهلها ومعه ترياق الفاروق فمن شرب منه قبل أن يمرض نجا والذين شربوه بعد المرض بعضهم نجا وبعضهم هلك. وكان أصل جالينوس من مدينة برغاموس. وكان اشتغاله في الإسكندرية. والدليل على أنه لم يكن في زمان المسيح كما ظن ولكن بعده قوله في المقالة الأولى من كتاب التشريح أنه صنفه في مبدأ ملك انطونيانس في أول مرة صعد إلى رومية. فمن صعود المسيح إلى هذه الغاية ما ينيف على مائة سنة. وقال أيضاً في شرحه لكتاب أفلاطون في الأخلاق وهو المسمى فادن: أن هؤلاء القوم الذين يسمون نصارى تراهم قد بنوا مذهبهم على الرموز والمعجزات وليسوا بأقل من الفلاسفة الحقيقيين بأعمالهم. يحبون العفة ويدمنون الصوم والصلاة ويجتنبون المظالم. وفيهم أناس لا يدنسون بالنساء. أقول: يريد بالرموز الأمثال المضروبة لملكوت السماء في الإنجيل الطاهر. ومات جالينوس بجزيرة سيقيليا وقد بلغ من العمر ثمانياً وثمانين سنة. وقد دلت التواريخ أن بطلميوس القلوذي الرياضي كان في هذا الوقت. وهو أول من سطح الكرة واخترع خط الإسطرلاب الذي بأيدي الناس. وكتبه المشهورة في زماننا أربعة: الكتاب الكبير المسمى سونطاكسيس وهو المجسطي. وكتاب جاوغرافيا في صورة الأرض وأطوال وعروض البلدان. وكتاب الأربع مقالات في أحكام النجوم. وكتاب الثمرة منها أيضاً. ومن ورود ذكر ثاون الرياضي الإسكندري في المجسطي وذكر بطلميوس في القانون يستدل على إنهما كانا متعاصرين. ولثاون من الكتب الزيج المسمى بالقانون. وكتاب ذات الحلق وهي الآلة التي بها ترصد حركات الكواكب. وكتاب الإسطرلاب وكتاب المدخل إلى المجسطي. وممن اشتهر

عند الناس فضيلته في هذا الزمان الاسكندر الافروديسي شارح كتب ارسطاطاليس المنطقية و الحكمية. وقد جرى بينه وبين جالينوس محاورات عديدة. وكان يسمى جالينوس رأس البغل لقوة رأسه في البحث...).

16. وصف القسطنطينية وروما. ابن رستة، من كتاب (الأعلاق النفسية)

(ذكر هرون بن يحيى أنه سُبي وحمل إلى قسطنطينية على طريق البحر في المراكب من عسقلان، فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا مدينة يقال لها أنطالية، وهي مدينة على ساحل بحر الروم، ثم حملوا منها على البريد مسيرة ثلاثة أيام في الجبال والأودية والمزارع، حتى انتهي بهم إلى مدينة يقال لها نقية، وهي مدينة عظيمة بها ناس كثير، حتى انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة، وهي مدينة صغيرة في صحراء ملساء. قال: ثم خرجنا مشاة، فمشينا في الصحراء، ويمنتنا ويسرتنا قرى للروم حتى انتهينا إلى البحر في مقدار يومين، ثم ركبنا البحر فسرنا مقدار يوم حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية، وهي مدينة عظيمة اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخا. وفرسخهم على ما ذكر ميل ونصف. ويحيط البحر مما يلي المشرق منها وغربيَّها صحراء يؤخذ منها إلى الرومية، وعليها حصن، والباب الذي يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب وإلى جانبه ناس من خدمه، ويسمى باب الذهب. وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة، وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة. ولها باب مما يلي الجزيرة يقال له باب بيغاس، موضع يتنزّه الملك اليه، وهو باب من حديد. وبقرب الكنيسة في وسط المدينة بلاط الملك، وهو قصر وإلى جانبه موضع يقال له البذرون، وهو يشبه الميدان يجتمع اليه فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره في وسط المدينة، وقد صور في القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل، والناس، والوحوش، والسباع، وغير ذلك. وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل، وهناك عجلتان من ذهب يشدُّ كل عجلة على أربعة من الخيل، ويركب فوق العجلة رجلان قد البسا ثياباً منسوجة بالذهب، ويتركها تجري بما نيط اليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات فأيُّها سبق صاحبها ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب، وكلّ من في قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون.

وعلى قصر الملك سور واحد يحيط بجميع القصر، ودورانه فرسخ. أحد جنباته مما يلي المغرب متصل بالبحر وله ثلاثة أبواب من حديد يقال لاحدها باب البيدرون، والآخر باب المنكنا، والثالث باب البحر. وأما باب البيدرون فتدخل في دهليز مقدار مائة خطوة في عرض خمسين خطوة وعلى الجانبين من الدهليز أسرّة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربّات ووسائد، وعليها قوم من السودان متنصّرة بأيديهم أترسة ملّبسة ذهباً، ورماح عليها ذهب. وأما باب المنكنا فتدخل إلى دهليز طوله مقدار مائتي خطوة في عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرّة موضوعة في جانبي الدهليز عليها قوم خزر في أيديهم القسُّي، وفي الدهليز أربعة حبوس: حبس منها للمسلمين، وحبس لاهل طرسوس، وحبس للعامّة، وحبس لصاحب الشرط. وباب البحر فانّك تدخل في دهليز طوله ثلثمائة خطوة في عرض خمسين خطوة، وهو مفروش بآجر أحمر. وفي الدهليز



أسرّة يمنة ويسرة عليها فرش متخذة، وعليها قوم أتراك بأيديهم القسُّي والأترسة، فتمضي في الدهليز حتى تنتهي إلى فضاء مقدار ثلثمائة خطوة ثم تنتهي الى الستر المعلّق على الباب الذي يفضي الى الدار، ويسرة الداخل كنيسة الملك ولها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة فضة، وفي المقصورة التي يقف عليها الملك موضع أربع أذرع في أربع أذرع مرصّع ذلك الموضع بالُّدّر والياقوت، وكذلك مسنده الذي يستند اليه مرصّع بالدر والياقوت.

وعلى باب المذبح أربعة أعمدة من رخام منقورة من قطعة واحدة، وطول المذبح الذي يصلى عليه القُسُّ ستة أشبار في عرض ستة أشبار، وهو قطعة خشب عود قماريّ مرصّع بالدرّ والياقوت يقف عليه قُسّ الملك وسائر سقوف الكنيسة كلّها آزاج معمولة من الذهب والفضة. ولهذه الكنيسة أربعة صحون كل صحن منها مائتا خطوة في عرض مائة خطوة، وأما الصحن الشرقي ففيه جرن محفور من رخام طوله عشر أذرع في عرض مثلها، وقد نصب هذا الجرن على رأس عمود من رخام ارتفاعه من الأرض أربع أذرع قد عقد عليه قبّة من رصاص، وأعلى القبّة قبّة من فضة تحمل هذه القبّة اثنا عشر عموداً طول كل عمود أربع أذرع أحد أعمدتها على رأسه صورة بازى، وعلى الثاني صورة حمل، وعلى الثالث صورة ثور، وعلى الرابع تمثال ديك، وعلى الخامس تمثال أسد، وعلى السادس تمثال لبوة، وعلى السابع تمثال ذئب، وعلى الثامن تمثال قبج، وعلى التاسع تمثال طاوس، وعلى العاشر تمثال فرس، وعلى الحادي عشر تمثال فيل، وعلى الثاني عشر تمثال ملك. وبالقرب من هذه القبّة في هذا الصحن على مائتي خطوة صهريج قد أجرى منه الماء الى تلك التماثيل على رؤوس الأساطين، فإذا كان يوم عيدهم مليء ذلك الصهريج بمقدار عشرة آلاف دورق نبيذ، وألف دورق عسل أبيض يطرح على ذلك الشراب، فيطيّب بالسنبل والقرنفل والدراصيني مقدار حمل، ويغطّى ذلك الصهريج الاّ شيئا منه بشيء، فإذا خرج الملك الى خارج ودخل الكنيسة وقع عينه على تلك الصور وما ينبع من أفواهها وآذانها من ذلك الشراب فيجتمع في الجرن حتى يمتليء، فيسقى كلّ من خرج معه من حشمه الى العيد كل واحد شربة، فإذا رفعت الستر ودخلت الدار فهو صحن عظيم طوله أربع مائة خطوة في مثلها مفروش بالرخام الأخضر مزوّق الحيطان بالفسيفساء والوان التزاويق وعلى اليمنى من داخل الدار بيت مال الملك، وفي جوفه تمثال فرس قائم عليه فارس قد اتخذ عيناه من ياقوتتين حمراوين، وعلى شمال الداخل مجلس يكون طوله مائتي خطوة في عرض خمسين خطوة، وفي المجلس مائدة من خلنج ومائدة من عاج، وفي الصدر من المجلس مائدة من ذهب، فاذا انقضى العيد وخرج من الكنيسة جاء الملك الى هذا المجلس فقعد في الصدر على مائدة الذهب، وهو يوم الميلاد ويؤمر فيؤتى بأسارى المسلمين فيقعدوا على تلك الموائد، وتحمل اليه عند قعوده في الصدر أربع موائد من ذهب تحمل كل مائدة على عجلة.

يقال إن إحدى تلك الموائد كانت لسليمان ابن داود عليه السلام مرصّعة بالدّر والياقوت، والثانية لداود عليه السلام مرصّعة أيضاً، والثالثة مائدة قارون، والرابعة مائدة قسطنطين الملك، فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها إنما تترك ما دام الملك على مائدته، فإذا قام رفعت ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحارّ والبارد



أمر عظيم، ثم ينادي منادى الملك فيقول: وحياة رأس الملك، ما في هذه الأطعمة شيء من لحم خترير، وينقل إليهم تلك الأطعمة في صحاف الذهب والفضة, ثم يؤتى بشيء يقال له الأرقنا، وهو شيء متخذ من الخشب المربع على صنعة معصرة، وتغشى تلك المعصرة بأدم وثيق، ثم يجعل فيه ستون أنبوبة من صفر رؤوسها الى أنصافها الى فوق قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب فوق الأدم حتى لا يبين منها الا اليسير على تقارب أقدارها واحدة أطول من الأخرى، وإلى جانب هذا الشيء المربع ثقب يجعل فيه منفخ ككور الحدادين، ويؤتى بثلاثة صلبان فيجعل اثنان منها في طرفيه وواحد في الوسط، ثم يؤتى برجلين ينفخان في ذلك المنفخ، ويقوم الاستاذ فيحسب على تلك الأنابيب فيتكلم كل أنبوبة بحالها على حسب ما يحسب عليه من الثناء على الملك، والقوم كلهم جلوس على الموائد ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلباقات والحلباق الصنج يضربون فيها ما داموا يأكلون ويطعمون على هذه الصفة اثني عشر يوماً، فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم، ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون

خروج الملك الى الكنيسة العظمى التي للعامة.

يأمر بأن يفرش له في طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التي للعامة في وسط المدينة حصر ويطرح فوقها رياحين وخضرة، ويزيّن الحائط يمنة ويسرة من ممره بالديباج، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر مسبلة شعورهم الى أكتافهم ليس عليهم برانس، ثم يجيء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض مشاة كلهم، ثم يجيء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر، ثم يجيء عشرة آلاف خادم عليهم ديباج لون السماء في أيديهم الطبرزينات الملبسة ذهباً، ثم يجيء بعدهم خمسة آلاف خصي أواسط عليهم ملحم خراساني أبيض بأيديهم صلبان ذهب، ثم يجيء بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم صدر مسيّرة بأيديهم رماح واترسة ملبسة كلها ذهباً، ثم يجيء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملّون بأيديهم مجامر من ذهب يبخرون بالعود القماري، ثم يجيء اثنا عشر بطريقاً من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب في يد كل واحد قضيب من ذهب، ثم يجيء مائة غلام عليهم ثياب مشهّرة مرصّعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته، ثم يجيء رجل بين يديه يقال له الرحوم، يسكّت الناس، ويقول: اسكتوا. ثم يجيء رجل شيخ وبيده طشت وإبريق من ذهب مرصّعان بالدرّ والياقوت، ثم يقبل الملك وعليه ثياب الأكسيمون، وهي ثياب من إبريسم منسوج بالجوهر، وعلى رأسه تاج، وعليه خفّان أحدهما أسود والآخر أحمر، وخلفه الوزير، وبيد الملك حقّ من ذهب فيه تراب، وهو راجل كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم "من رمونت ابيابطرا" وتفسيره "أذكروا الموت". فإذا قال له ذلك، وقف الملك، وفتح الحقّ، ونظر الى التراب، وقبّله، وبكى، فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة، فيقدّم الرجل الطشت والإبريق فيغسل الملك يده، ويقول لوزيره "إنّي بريء من دماء الناس كلهم؛ لأن الله لا يسألني عن دمائهم، وقد جعلتها في رقبتك". ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره، ويأخذ دواة بلاطس، وهي دواة الرجل الذي تبرّأ من دم



المسيح عليه السلام، ويجعلها في رقبة الوزير، ويقول له "دن بالحق كما دان بلاطس بالحق". ويدور به على أسواق قسطنطينية، فينادون به "دن بالحق كما قلّدك الملك أمور الناس". ثم يأمر الملك بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة، فينظرون الى تلك الزينة والملك، فيصيحون "أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة" ثلاث مرات. ثم يؤمر فيخلع عليهم، ويساق خلفه ثلاث جنائب شهب عليها سروج ذهب مرصّعة بالدرّ والياقوت، وجلال ديباج مرصّعة أيضاً بمثل ذلك لا يركبها فيدخلونها الى الكنيسة، ولها بها لجام معلّق، يقولون إنه متى أخذت الدابّة اللّجام في فمها ظفرنا ببلاد الإسلام، فتجيء الدابّة، فتشم اللجام، فتراجع إلى خلفها، ولم تتقدّم إلى اللجام. ويقال إن هذه الدوابّ من نسل دابّة كانت لاوسطاط، ثم ينصرف الملك من الكنيسة الى قصره.

وفي غربي الكنيسة، على عشرة خطى، عمود يكون طوله مقدار مائة ذراع، وهو مركّب عمود على عمود قد شبّك العمود بسلاسل من فضّة على رأس العمود مائدة من رخام مربّعة أربع أذرع في أربع أذرع، وفوقها قبر معمول من رخام فيه اسطليانس الذي بنى هذه الكنيسة، وفوق القبر تمثال فرس من صفر، وفوق الفرس صورة اسطليانس وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالدرّ والياقوت. وذكر أنه تاج هذا الملك، ويده اليمنى قائمة كأنه يدعو الناس الى قسطنطينية. وعلى الباب الغربي من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون باباً صغاراً، كل باب شبر في شبر معمولة على ساعات الليل والنهار؛ فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها، وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها. وذكروا أنه اتخذ ذلك بلونيوس، وذُكر أن خيلهم معلّمة لا تبرح من مكانها، ولا يحتاج الى من يمسكها إذا نزل عنها القُوّاد، ولا تصيح ولا تجلب، إنما يقال لها شطه فتقف كذلك الى أن يخرج صاحبها من عند الملك. قال فسألت بعض الناس عن أمرها، فذهبوا بي الى ثلاثة تماثيل من صفر على هيئة الفرس منصوبة على باب الملك عملها بلونيوس الحكيم طلسما للدواب ألا تصهل ولا تشغب بعضها على بعض. وعلى باب الملك أيضاً أربع حيات معمولة من صفر أذنابها في أفواهها طلسما للحيات ألا تضر، يقصد الصبيّ الى حية فيأخذها فلا تضره. ومما يلي باب الذهب من المدينة قبّة قنطرة معقودة في وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير كأنه يقول بيديه هاته، والآخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة، وهما طلسمان فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج، ويذهب رسول يعلم الملك ذلك فإن رجع الرسول، وهم وقوف، ذهب بهم الى الحبس، وإن وافاهم الرسول، وقد جوّز بهم الصنمين، قتلوا ولم يبق منهم على أحد. ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر، يجري اليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما، فينقسم اذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث، فثلث يذهب الى دار الملك، وثلث يذهب الى حبوس المسلمين، والثلث الثالث يذهب الى حمامات البطارقة، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والمالح. وأهل بلغر يحاربون الروم، والروم تحاربهم.

وذكر هارون أن حوالي قسطنطينية ديرات الرهبان. وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا يترله خمسمائة راهب. وهذا النهر الذي يدخل المدينة ينقسم ثلاثة أقسام يجري في وسطه، وعلى فرسخ مما يلي الشمال من المدينة دير يقال له مونس فيه ألف راهب. ومما يلي شرقي قسطنطينية منها على أربعة فراسخ



موضع فيه أربعة ديرات فيها اثنا عشر ألف راهب، أحدها مؤنس، والثاني فسادر، والثالث، قوقياى، والرابع دير مريم. ومما يلي غربيّ المدينة ديران فيهما ستة آلاف راهب، ثم تخرج فتصير في صحراء ملساء فيها مزارع وقرى اثنتي عشرة مرحلة حتى تنتهي الى مدينة يقال لها سلوقية، وهي مدينة عظيمة كبيرة مما يلي مشرق المدينة الجبل، وغربيها البحر، ولها أربعة أنهار تسقيها، وفيها دير يقال له مرقش، فيه اثنا عشر ألف راهب. وتخرج فتسير على ساحل البحر ثلاث منازل في صحراء ليس فيها من العمران شيء. وهي مدينة عظيمة فيها أسواق وحواليها أنهار كثيرة وتسقيها أنهار مطر، وعليها سوران، وخندق يحيط بالمدينة. وتخرج منها فتسير في غياض من الشجر في وسط الصقالبة لهم بيوت من خشب يترلونها وهم نصارى. كانوا يتنصرون على عهد بسوس الملك فهم اليوم على دين النصرانية، فتسير فيهم مقدار شهر في مشاجرهم حتى تنتهي الى مدينة يقال لها بلاطيس، وهي مدينة عظيمة طولها ستة أميال في مثلها، وهي كثيرة الخير، فيها من الزيتون وأنواع الفواكه، ولها نهران جاريان يطّردان فيها، وهي مدينة الأنكبرديين قد نزلوا في صحاريهم على مقدار عشرين خطوة.. وهم على هيئة الأكراد يترلون الصحارى في الخيام. وتخرج من هذه القرية فتسير وسطهم مقدار شهر في غياض وأشجار، وربما يلقاك تلال فيها منهم أصناف حلول، حتى تنتهي الى قرية تدعى البندقيس، وهم نزول في صحراء ملساء ليس لهم قرى ولا مدائن انما بيوتهم من خشب منحوت صفائح وهم على دين النصرانية، فتسير في وسطهم مقدار عشرين يوماً، تترل عليها وترتحل من عندهم، وتمتار من طعامهم، وتتزود منه حتى توافي مدينة الرومية، وهي مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب (= البابا) وطولها أربعون ميلاً في أربعين ميل، يجري اليها نهر من غربي المدينة فيخترق سككها قد فرش أسفل النهر بالصفر وبني ضفتاه أيضاً بالصفر، وقد عقد عليها جسور من صفر.

وفي وسط المدينة الكنيسة العظمى، طول الكنيسة مقدار فرسخين، وعليها ثلاثمائة وستون باباً، وفي وسط الكنيسة برج طوله في الهواء مائة ذراع، وعلى رأس البرج قبة مبنية من الرصاص، وقد اتخذ على رأس القبة تمثال زرزرمن صفر، فإذا كان أوان ادراك الزيتون جاءت الريح فدخلت في الزرزر، فيصيح فيجتمع زرازر تلك المدينة في منقار كل واحد منها زيتونة، فيطرحنها على ذلك البرج، فيؤخذ ذلك الزيتون ويعصر ويستخرج دهنها، فهو يكفيهم لمصابيح الكنيسة الى السنة القابلة من ذلك الوقت. وفي الكنيسة قبر رجلين من الحواريين معمول من ذهب أحدهما في شرقي الكنيسة والآخر في غربيها، يقال لأحد صاحبي القبرين شمعون الصفا والآخر بالوس، فإذا كان فصح النصارى في كل سنة، وهو يوم الخميس جاء الملك ففتح باب القبر ونزل الى القبر ومعه موسى، فحلق رأس شمعون ولحيته، وقلم إظفاره، وصعد، وقسّم لكل رجل من أهل مملكته شعرة، هذا عملهم في كل سنة منذ تسع مائة سنة. وحيطان هذه الكنيسة كلها مغشاة بالذهب، وأبوابها الغربية من نحاس صيني. والأبواب الداخلة التي على بيعة صلاتهم كلها مغشاة بالذهب، والموضع الذي يقعد عليه الكهنة مغشى كله بالذهب. وفي كل ركن من أركان هذه الكنيسة برج، على كل برج قبة مبنية من فضة يضرب عليها النواقيس، وفيها ألف مروحة ذهب عرض كل واحدة ذراع في ذراع مرصعة بالدر

والياقوت ولها مقابض من ذهب ولها ستمائة صليب من ذهب، في وسط كل صليب درة ووزن كل صليب ألف مثقال، ولها اثنا عشر صليباً على عدد الحواريين في كل صليب مائة منّ من الذهب، ولها اثنان وسبعون صليباً على عدد تلامذة الحواريين في كل صليب خمسمائة مثقال من الذهب، وفيها ألف ومائتا كأس من الذهب يجعل فيها الخمر للتقريب مرصعة كلها بالجوهر، وقد بني بيت المذبح أربعاً وعشرين ذراعاً في عرض اثنتي عشرة ذراعاً، وفيها من الشمامسة والقسيسين ثلاثة آلاف ومائتا نفس على كلهم ديباج أبيض قيمة كل ثوب مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً، وعليهم طيالسة منسوجة بالذهب والدر، ولها من السدنة ممن يتولون إشعال القناديل ستمائة.

وفي غربي هذه المدينة البحر الكبير وحوالي المدينة البساتين والزيتون، ويغزو أهلها البربر من ناحية الأندلس وتاهرت على البحر من بلاد إدريس بن إدريس وتاهرت العليا، وأهل الرومية صغيرهم وكبيرهم يحلقون لحاهم كلها لا يتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم، ويحلقون وسط هاماتهم، فسألتهم عن السبب في حلق لحاهم، وقلت لهم"إن زين الرجال في اللحى، فما مرادكم من هذا الذي تفعلونه بأنفسكم"فقالوا"إن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانياً خالصاً؛ وذلك أنه جاءنا شمعون الصفا والحواريون لم يكن معهم عصى ولا جراب، إنما كانوا مساكين ضعفاء، وكنا نحن إذ ذاك ملوكاً علينا الديباج، ونحن على كراسي الذهب يدعونا الى دين النصرانية، فلم نجبهم، فأخذناهم، وعذبناهم وحلقنا رؤوسهم ولحاهم، فلما ظهر لنا صدق قولهم صرنا نحلق لحانا كفّارة لما ارتكبناه من حلق لحاهم". ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر حتى تنتهي الى بلاد ملك **برجان** وتسير منها في جبال وعقاب شهراً واحداً حتى تنتهي الى بلاد **فرنجة**، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر حتى تنتهي الى مدينة **برطينية**، وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب، ويتملك عليها سبعة من الملوك. وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام فلا يمكنه دخولها حتى يأخذه أهل المدينة، فيقفوا على مغزاه ومقصده في دخول المدينة. وهم قوم نصارى، وهم آخر بلاد الروم، وليس وراءهم عمران.

ما وجدناه من صفة مدينة الرومية.

ثلاث نواحٍ منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب، والناحية الرابعة مما يلي البرّ والجربيَّة يعني الشمال، وطولها من الباب الغربي الى الشرقي ثمانية وعشرون ميلا، ولها حائطان من حجارة، وبينهما فضاء ستون ذراعاً، وعرض السور الخارج ثمان أذرع، وسمكه اثنتان وأربعون ذراعاً، وفيما بين السورين نهر يسمَّى فسطيطالس، وهو مغطى ببلاط نحاس طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعاً، وعدد ما فيه من البلاط اثنتان وأربعون ألف بلاطة، وعمق النهر اثنتان وتسعون ذراعاً في عرض ست وأربعين ذراعاً، وفيما بين باب الذهب الى باب الملك اثنا عشر ميلا، وسوق ممتدة من الشرق الى الغرب مثلّثة الاسطوانات وحنيَّتا الاوسط منها بعمد نحاس، وقصبة العمود منها وقاعدته ورأسه مفرّغة، وسمك كل عمود منها ثلاثون ذراعاً، وفوق هذه العمد نقير

من نحاس من المغرب الى المشرق يجري فيه لسان من البحر، وتجري السفن في هذا النقير بحمولتها، وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع فتجيء السفينة بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذي يبتاع منها.

وفي المدينة كنائس، فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة، وكنائس أخر تقام الصلوات فيها كل يوم ألف ومائتا كنيسة وثلاثة وعشرون ألف دير عظام، وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عموداً فيها الرهبان يسهرون الليل كلّه، وفيها أسواق عظام، وفي كل سوق قناتان عظيمتان من ماء، وأسواقها كلّها مبلّطة برخام أبيض، وفيها أربعون ألف حمّام، وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً. وليس فيها من تسع ساعات من يوم السبت حتى تغيب الشمس من يوم الأحد شراء ولا بيع، وهم كلهم في الصلاة إلا ساعتين بعد أخذهم القربان للطعام، ثم ينصرفون اليها. وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعاً، وفي جميع كنائس المدينة من آنية الذهب والفضة عشرة آلاف قنطار وأربع مائة جرّة من ذهب ومائتا جرّة من نحاس شبه الذهب وخمسون وثلثمائة منارة، والذي يظهرون في أيام الشعانين من صلب الذهب واحد وعشرون ألف صليب، ومن صلب الفضّة والحديد والنحاس المنقوشة المموّهة بالذهب عشرة آلاف صليب. وفيها من المصاحف (= الأناجيل) التي تقرأ في الكنيسة مكتوبة بالذهب والفضة ستة آلاف وأربع مائة مصحف، وفيها من الكهنة والشمامسة ممن يجري عليهم الارزاق ثمانية وأربعون ألفاً، لا ينقص عددهم كلما مات أحدهم أقاموا مكانه آخر، وقد تركنا من ذكر ذلك أشياء كثيرة كرهنا ايداع جميعها هذا الكتاب استسرافاً واستكثاراً؛ ولأنها بالكذب أشبه منها بالصدق. وإن كان جميع ذلك مدوّناً في الكتب يدور بين الناس، قد استحسنوه، وقبلوه، واتّفقوا على التصديق به.)

رأينا كيف أن ابن رسته حرص على تقديم الوصف الاستقصائي الذي ذكره شاهد عيان عن بلاد الروم، وكيف ظهرت مدينة روما في القسم الثاني من النص، لكنّ ياقوت الحموي يوسّع الوصف، ويربط المدينة بالتاريخ الروماني، ويعتذر عمّا سيقدمه، إذ قد لا يُصدّق، ولكن ما يشفع له أنه ناقل للوصف وليس واصفا (ورومية من عجائب الدنيا بناء، وعظماً، وكثرة خلق. وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأُ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها، فإنها عظيمة جداً، خارجة عن العادة، ومستحيل وقوع مثلها)، وما إن ينتهي من تقديم وصف روما، حتى يعود للتذكير بالتحذير الي بدأ به (جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة هو من كتاب أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا تقوم مزدرعاتها بميرة أهلها). ولكن يحسن الآن أن نقترب إلى النص.

17. وصف رومـــــا، ياقوت الحموي، من كتاب (معجم البلدان)

(**رُومِيَةُ**.. قال بعضهم: هي مسماة باسم رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. وذكر بعضهم: إنما سمّي الروم روماً لإضافتهم إلى مدينة رومية، واسمها رومانس بالرومية، فعرّب هذا الاسم



فسمي من كان بها رومياً، وهي شمالي وغربي القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر، وهي اليوم بيد الأفرنج، وملكها يقال له ملك ألمان، وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنجية، وهو لهم بمنزلة الإمام، متى خالفه أحد منهم كان عندهم عاصياً مخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل، يحرّم عليهم نساءهم، وغسلهم، وأكلهم، وشربهم، فلا يمكّن أحداً منهم مخالفته. وذكر بطليموس في كتاب"الملحمة"قال: مدينة رومية..فيها جاءت الرواية من كل فيلسوف وحكيم، وفيها قامت الأعلام والنجوم. وقد روي عن جُبير بن مطعم أنه قال: لولا أصوات أهل رومية وضجّهم لسمع الناس صليل الشمس حيث تطلع وحيث تغرب. ورومية من عجائب الدنيا بناء وعظماً وكثرة خلق. وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأُ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها، فإنها عظيمة جداً خارجة عن العادة مستحيل وقوع مثلها، ولكني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية، والله أعلم.

روي عن ابن عباس، رضي الله عنه، أنه قال: حلية بيت المقدس أهبطت من الجنة فأصابتها الروم فانطلقت بها الى مدينة لهم يقال لها رومية، قال: وكان الراكب يسير بضوء ذلك الحلي مسيرة خمس ليال. وقال رجل من آل أبي موسى: أخبرني رجل يهودي قال: دخلت رومية وإن سوق الطير فيها فرسخ. وقال مجاهد: في بلد الروم مدينة يقال لها رومية فيها ستمائة ألف حمّام. وقال الوليد بن مسلم الدمشقي: أخبرني رجل من التجار، قال: ركبنا البحر، وألقتنا السفينة الى ساحل رومية، فأرسلنا إليهم إنّا إياكم أردنا، فأرسلوا إلينا رسولاً، فخرجنا معه نريدها، فَعَلَوْنا جبلاً في الطريق فإذا بشيء أخضر كهيئة اللُّجّ، فكبّرنا فقال لنا الرسول: لم كبّرتم؟ قلنا: هذا البحر، ومن سبيلنا أن نكبّر إذا رأيناه، فضحك وقال: هذه سقوف رومية، وهي كلها مرصّصة، قال: فلمّا انتهينا إلى المدينة إذا استدارتها أربعون ميلاً في كل ميل منها باب مفتوح، قال: فانتهينا إلى أوّل باب وإذا سوق البياطرة وما أشبهه، ثم صعدنا درجاً فإذا سوق الصيارفة والبزازين. ثم دخلنا المدينة فإذا في وسطها برج عظيم واسع في أحد جانبيه كنيسة قد استقبل بمحرابها المغرب وببابها المشرق، وفي وسط البرج بركة مبلطة بالنحاس يخرج منها ماء المدينة كله، وفي وسطها عمود من حجارة عليه صورة رجل من حجارة، قال: فسألت بعض أهلها فقلت: ما هذا؟ فقال: إن الذي بنى هذه المدينة، قال لأهلها: لا تخافوا على مدينتكم حتى يأتيكم قوم على هذه الصفة، فهم الذين يفتحونها. وذكر بعض الرهبان ممن دخلها وأقام بها أن طولها ثمانية وعشرون ميلاً في ثلاثة وعشرين ميلاً، ولها ثلاثة أبواب من ذهب، فمن باب الذهب الذي في شرقيها إلى البابين الآخرين ثلاثة وعشرون ميلاً، ولها ثلاثة جوانب في البحر والرابع في البر، والباب الأول الشرقي والآخر الغربي، والآخر اليمنى، ولها سبعة أبواب أخر سوى هذه الثلاثة الأبواب من نحاس مذهب، ولها حائطان من حجارة رخام، وفضاء طوله مائتا ذراع بين الحائطين، وعرض السور الخارج ثمانية عشر ذراعاً، وارتفاعه اثنان وستون ذراعاً. وبين السورين نهر ماؤه عذب يدور في جميع المدينة، ويدخل دورهم مطبق بدفوف النحاس كل دفة منها ستة وأربعون ذراعاً، وعدد الدفوف مائتان وأربعون ألف دفة، وهذا كله من نحاس، وعمود النهر ثلاثة وتسعون ذراعاً في عرض ثلاثة وأربعين ذراعاً، فكلما همّ بهم عدوّ وأتاهم رفعت

تلك الدفوف فيصير بين السورين بحر لا يرام، وفيما بين أبواب الذهب إلى باب الملك اثنا عشر ميلاً، وسوق مادّ من شرقيها الى غربيّها بأساطين النحاس مسقف بالنحاس وفوقه سوق آخر، وفي الجميع التجار، وبين يدي هذا السور سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعاً، وبين هذه الأعمدة نقيرة من نحاس في طول السوق من أوله إلى آخره فيه لسان يجري من البحر فتجيء السفينة في هذا النقير وفيها الأمتعة حتى تجتاز في السوق بين يدي التجار، فتقف على تاجر تاجر، فيبتاع منها ما يريد، ثم ترجع إلى البحر.

وفي داخل المدينة كنيسة مبنية على اسم مار بطرس ومار بولس الحواريين، وهما مدفونان فيها، وطول هذه الكنيسة ألف ذراع في خمسمائة ذراع في سمك مائتي ذراع، وفيها ثلاث باسليقات بقناطر نحاس، وفيها أيضاً كنيسة بنيت باسم اصطفانوس رأس الشهداء، طولها ستمائة ذراع في عرض ثلاثمائة ذراع سمك مائة وخمسين ذراعاً، وثلاث باسليقات بقناطرها وأركانها، وسقوف هذه الكنيسة وحيطانها وأرضها وأبوابها وكواها كلّها وجميع ما فيها كأنه حجر واحد، وفي المدينة كنائس كثيرة، منها أربع وعشرون كنيسة للخاصة، وفيها كنائس لا تحصى للعامة، وفي المدينة عشرة آلاف دير للرجال والنساء، وحول سورها ثلاثون ألف عمود للرهبان، وفيها اثنا عشر ألف زقاق يجري في كل زقاق منها نهران واحد للشرب والآخر للحشوش، وفيها اثنا عشر ألف سوق، في كل سوق قناة ماء عذب، وأسواقها كلها مفروشة بالرخام الأبيض منصوبة على أعمدة النحاس مطبقة بدفوف النحاس، وفيها عشرون ألف سوق بعد هذه الأسواق صغار، وفيها ستمائة ألف وستون حمّام، وليس يباع في هذه المدينة ولا يشترى من ستّ ساعات من يوم السبت حتى تغرب الشمس من يوم الأحد، وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم وغير ذلك يقال إنها مائة وعشرون موضعاً، وفيها كنيسة تسمى كنيسة الأمم إلى جانبها قصر الملك، وتسمى هذه الكنيسة صهيون بصهيون بيت المقدس، طولها فرسخ في فرسخ في سمك مائتي ذراع، ومساحة هيكلها ستة أجربة، والمذبح الذي يقدّس عليه القربان من زبرجد أخضر طوله عشرون ذراعاً في عرض عشرة أذرع يحمله عشرون تمثالاً من ذهب طول كل تمثال ثلاثة أذرع أعينها يواقيت حمر، وإذا قرّب على هذا المذبح قربان في الأعياد لا يطفأُ إلا يصاب. وفي رومية من الثياب الفاخرة ما يليق به. وفي الكنيسة ألف ومائتا أسطوانة من المرمر الملمّع ومثلها من النحاس المذهب طول كل اسطوانة خمسون ذراعاً، وفي الهيكل ألف وأربعمائة وأربعون أسطوانة طول كل أسطوانة ستون ذراعاً لكل أسطوانة رجل معروف من الأساقفة، وفي الكنيسة ألف ومائتا باب كبار من النحاس الأصفر المفرّغ وأربعون باباً كباراً من ذهب سوى أبواب الآبنوس والعاج وغير ذلك، وفيها ألف باسليق طول كل باسليق أربعمائة وثمانية وعشرون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، لكل باسليق أربعمائة وأربعون عموداً من رخام مختلف ألوانه، طول كل واحد ستة وثلاثون ذراعاً، وفيها أربعمائة قنطرة تحمل كل قنطرة عشرون عموداً من رخام، وفيها مائة ألف وثلاثون ألف سلسلة ذهب معلّقة في السقف ببكر ذهب تعلّق فيها القناديل سوى القناديل التي تسرج يوم الأحد، وهذه القناديل تسرج يوم أعيادهم وبعض مواسمهم،



وفيها الأساقفة ستمائة وثمانية عشر أسقفاً، ومن الكهنة والشمامسة ممن يجري عليه الرزق من الكنيسة دون غيرهم خمسون ألفاً، كلما مات واحد أقاموا مكانه آخر.

وفي المدينة كنيسة الملك، وفيها خزائنه التي فيها أواني الذهب والفضة مما قد جُعل للمذبح، وفيها عشرة آلاف جرّة ذهب يقال لها الميزان، وعشرة آلاف خوان ذهب، وعشرة آلاف كأس، وعشرة آلاف مروحة ذهب. ومن المنائر التي تدار حول المذبح سبعمائة منارة كلها ذهب، وفيها من الصلبان التي تُخْرَج يوم الشعانين ثلاثون ألف صليب ذهب، ومن صلبان الحديد والنحاس المنقوشة المموّهة بالذهب ما لا يحصى، ومن المقطوريات عشرون ألف مقطورية، وفيها ألف مقطرة من ذهب يمشون بها أمام القرابين، ومن المصاحف الذهب والفضة عشرة آلاف مصحف، وللبيعة وحدها سبعة آلاف حمّام سوى غير ذلك من المستغلات، ومجلس الملك المعروف بالبلاط تكون مساحته مائة جريب وخمسين جريباً، والإيوان الذي فيه مائة ذراع في خمسين ذراعاً ملبس كله ذهباً. وقد مثل في هذه الكنيسة مثال كل نبي منذ آدم، عليه السلام، إلى عيسى بن مريم، عليه السلام، لا يشك الناظر إليهم أنهم أحياء، وفيها ثلاثة آلاف باب نحاس مموّه بالذهب، وحول مجلس الملك مائة عمود مموهة بالذهب على كل واحد منها صنم من نحاس مفرغ في يد كل صنم جرس مكتوب عليه ذكر أمة من الأمم وجميعها طلسمات، فإذا همّ بغزوها ملك من الملوك تحرك ذلك الصنم وحرك الجرس الذي في يده فيعلمون أن ملك تلك الأمة يريدهم فيأخذون حذرهم. وحول الكنيسة حائطان من حجارة طولهما فرسخ، وارتفاع كل واحد منها مائة ذراع وعشرون ذراعاً لهما أربعة أبواب، وبين يدي الكنيسة صحن يكون خمسة أميال في مثلها في وسطه عمود من نحاس ارتفاعه خمسون ذراعاً، وهذا كله قطعة واحدة مفرغة، وفوقه تمثال طائر يقال له السوداني من ذهب على صدره نقش طلسم، وفي منقاره مثال زيتونة وفي كل واحدة من رجليه مثال ذلك، فإذا كان أوان الزيتون لم يبق طائر في الأرض إلا وأتى وفي منقاره زيتونة وفي كل واحدة من رجليه زيتونة حتى يطرح ذلك على رأس الطلسم، فزَيت أهل رومية وزيتونهم من ذلك، وهذا الطلسم عمله لهم بليناس صاحب الطلسمات، وهذا الصحن عليه أمناء وحفظة من قبل الملك وأبوابه مختومة، فإذا امتلأ وذهب أوان الزيتون اجتمع الأمناء فعصروه، فيعطى الملك والبطارقة ومن يجري مجراهم قسطهم من الزيت، ويجعل الباقي للقناديل التي للبيع. وهذه القصة، أعني قصة السوداني، مشهورة قلما رأيت كتاباً تذكر فيه عجائب البلاد إلا وقد ذكرت فيه.

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: من عجائب الدنيا شجرة برومية من نحاس عليها صورة سودانية في منقارها زيتونة، فإذا كان أوان الزيتون صفرت فوق الشجرة فيوافي كل طائر في الأرض من جنسها بثلاث زيتونات في منقاره ورجليه حتى يلقى ذلك على تلك الشجرة فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لقناديل بيعتهم وأكلهم لجميع الحول. وفي بعض كنائسهم نهر يدخل من خارج المدينة، في هذا النهر من الضفادع والسلاحف والسراطين أمر عظيم، فعلى الموضع الذي يدخل منه الكنيسة صورة صنم من حجارة وفي يده حديدة معقفة كأنه يريد أن يتناول بها شيئاً من الماء، فإذا انتهت إليه هذه الدواب المؤذية رجعت

مصاعدة و لم يدخل الكنيسة منها شيء البتة. قال المؤلف: جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة هو من كتاب أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا تقوم مزدرعاتها بميرة أهلها، وعلى ذلك فقد حكى جماعة من بغداد أنها كانت من العظم والسعة وكثرة الخلق والحمّامات.)

18. رومة، ابن عبد المنعم الحميري، من كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار)

(رومة: مدينة عظيمة للنصارى هي ركن من أركانهم وكرسي من كراسيهم، وبأنطاكية كرسي، وبالإسكندرية أيضاً كرسي، وببيت المقدس كرسي، لكنه محدث لم يكن في أيام الحواريين، واتخذ بعدهم ليعظم بيت المقدس. ويذكر أن محيطها تسعة أميال ولها سوران من الحجر، وعرض السور الداخل اثنا عشر شبراً وسمكه اثنان وسبعون ذراعاً. وكانت رومة دار مملكة الروم، ونزلها من ملوكهم تسعة وعشرون ملكاً ثم نزل بعمورية منهم ملكان، ثم انتقلت مملكتهم إلى رومة فنزلها ملكان ثم ملك بها قسطنطين الأكبر فانتقل إلى القسطنطينية. ورومة هي مدينة الحكام. وهي في سهل من الأرض تحيط بها الجبال على بعد، عليها منها جبل عوذية بينها وبينه ستة أميال، ودور مدينة رومة أربعون ميلاً وقطرها اثنا عشر ميلاً، يشقها نهر يسمى تيبرس وينقسم قسمين ثم يلتقيان آخرها، وفي وسط هذه المدينة حصن يسمى منت أقوط في صخرة مرتفعة لم يظفر بهذا الحصن عدو قط. ورومة قد تغلب عليها ثلاث مرات، ولها سبعة أبواب، وبين رومة والبحر الشامي اثنا عشر ميلاً، وكذلك بينها وبين البحر الجوفي، وأهل رومة أجبن خلق الله تعالى، ويدبر أمرهم برومة البابه (=البابا) ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه، فلا يزال يقبل رجلي البابه، ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام. وكانت رومة القديمة تسمى رومة بالية، أي عجوز، وكان النهر يعترضها فبنى يوانش الأسقف خلف الوادي مدينة أخرى فلذاك صار النهر يشقها، وفرش النهر بلبن الصفر وألزقه بالقصدير والرصاص، وألبست حيطانه بمثل ذلك.

وفي داخل رومة كنيسة شنت باطر (= القديس بطرس) وفيها صورة قارله من ذهب بلحيته وجميع هيئته، وهو في خلق عبوس قد رفع عن الأرض في خشبة مصلوباً، وفي وسط هذه الكنيسة صورة أخرى لبعض ملوكهم من ذهب أيضاً، ولهذه الكنيسة أربعة أبواب من فضة سبكاً واحداً، وهي كلها مسقفة بقراميد الصفر ملصقة بالقصدير، وحيطانها كلها نحاس أصفر رومي، وأعمدتها وأساطينها من بيت المقدس، وهي في غاية الحسن والجمال، ويزعمون أن تحت هذه الكنيسة أبنية وبيوتاً وسوراً فيها آلات وعدة، وفي وسط صحنها صورة مثقبة من رخام تنساب منها المياه، وصحنها مرتفع جداً يرقى إليه على ثلاثين درجة، ويزعمون أن في هذه الكنيسة مخلبين من مخاليب العنقاء، طول كل مخلب منهما اثنا عشر شبراً، وداخل هذه الكنيسة بيت بني باسم بطرش وبولش الحواريين، وطول هذه الكنيسة ثلثمائة ذراع وسمكها مائتا ذراع. والذي فرش النهر، في مدينة رومة، بلبن الصفر في ملكه على ما ذكر مؤرخو العجم قيصر أكتبيان في السنة الرابعة من

دولته، عهد إلى جميع عماله مع دور الأرض والبحر المحيط بضرب ضرائب الصفر على الناس وأدائها إليه، فلما اجتمع أمر بضربه صفائح وبسط بها قعر نهر رومة وفرش به وذلك مسافة عشرين ميلاً، وبهذا النهر يؤرخ الروم فيقولون: من تاريخ عام الصفر.

ومدينة رومة كثيرة الطواعين وذلك أنهم لا يدفنون موتاهم، وإنما يدخلونهم في مغارات ويدعونهم بها فيستوبئ هواؤهم إذا استحروا، وهم يجتنبون أكثر ثمارها لوقوع ذبان الموتى عليها، والدليل على أن العلة في ذلك أجساد موتاهم، أن الطاعون لا يتعدى رومة وما دونها بعشرين ميلاً. ومما يذكر من الأعاجيب برومة أن فيها كنيسة بها برج طوله في الهواء مائة ذراع، وعلى رأس البرج قبة مبنية بالرصاص، وعلى رأس القبة زرزور من صفر فإذا كان أوان إدراك الزيتون انحشرت إليه الزرازير من الأقطار البعيدة وفي منقار كل زرزور زيتونة وفي رجليه زيتونتان، وموضع الكنيسة لا زيتون فيه، فيطرحها على ذلك البرج، فيستصبح بدهن تلك الزيتون في الكنيسة عامة العوّام، ويقال: إن قسطنطين الملك بناها في شهر حزيران، وهو أول من تنصر، وإن في هذه الكنيسة قبر رجلين من الحواريين. ويزعم النصارى، وهو من تكاذيبهم وفاسد نواميسهم، أن في هذه الكنيسة أو غيرها برومة، قبر حواري يفتح عنه الملك كل عام في يوم فصحهم، ويدخله فيحلق رأس الحواري ولحيته ويقلم أظفاره، ثم يقسم لكل رجل من أهل مملكته شعرة شعرة، ويخص كبارهم بفسيط من قلامة أظفاره.وأهل رومة أجمعون يحلقون لحاهم، ويحلقون أوساط هامهم، ويزعمون أن كل من لم يحلق لحيته لا يكون نصرانياً خالصاً، ويقول علماؤهم إن سبب ذلك أن شمعون الصفا جاءهم والحواريون، وهم قوم مساكين ليس مع كل واحد منهم إلا عصا وجراب، قالوا: ونحن ملوك نلبس الديباج ونجلس على كراسي الذهب، فدعونا إلى النصرانية فلم نجبهم، وأخذناهم فعذبناهم وحلقنا رؤوسهم ولحاهم، ولما ظهر لنا صدق قولهم، حلقنا لحانا، كفارة لما ركبنا من حلق لحاهم.

وإنما صار النصارى يعظمون الأحد لأنهم يزعمون أن المسيح قام في القبر ليلة الأحد وارتفع إلى السماء ليلة الأحد بعد اجتماعه مع الحواريين، وهم لا يرون الغسل من الجنابة ولا وضوء عندهم للصلاة وإنما عبادتهم النية، ولا يأخذون القربان حتى يقولوا: هذا لحمك ودمك، يريدون المسيح، والسكر عندهم حرام، ولا يتكلم أحدهم إذا أخذ القربان حتى يغسل فمه، وإذا تقربوا قبّل بعضهم بعضاً وتعانقوا، ولا يتزوج أحد منهم أكثر من امرأة واحدة ولا يتسرى عليها، فإن زنت باعها وإن زنا باعته، وليس لهم طلاق، ويورثون النساء جزأين والذكور جزءاً، ومن سننهم أن لا يلبس الجباب الحمر إلا ملك، وهم يخففون الحكم عن الشريف ويثقلون على الوضيع حتى يبلغ به البيع، ومن أحكامهم أن من زنا بأمةِ غيره في دار سيدها فعليه حد معروف، فإن زنا بها خارج الدار فلا شيء عليه كأنه لم يأت ريبة، ومن أولد عندهم أمته فولده منها زنيم ولا يجوز لذلك الولد عندهم رتبة القسيسية ولا يرث أباه إذا كان له ولد من حرة، وولد الحرة يحيط بميراثه، وإن لم يكن له ولد غير ولد الأمة ورثه، وهم يفطرون في صومهم يومين من كل جمعة، وهما: يوم السبت ويوم الأحد، وأمر الصوم عندهم خفيف ليس بالشديد اللزوم وإنما أصله عندهم الصوم الذي كان صامه المسيح بزعمهم استدفاعاً

لإبليس، وكان صومه أربعين يوماً موصولة بلياليها في قولهم، وهم لا يصومون يوماً كاملاً ولا ليلة كاملة، ومن كان بين المسلمين منهم يؤخر الفطر حياء منهم، وهم في موضع مملكتهم لا يصومون إلا نصف النهار أو نحوه، والمواظب منهم للصلوات والجماعات من شهد الكنيسة يوم الأحد وليلته وأيام القرابين السبعة، ولو غاب عنها عمره كله لم يطعن عليه بذلك طاعن ولا عابه عائب، وليس يشتمل مصحف النصارى الذي هو ديوان فقههم وكثر علمهم وعليه معولهم في أحكامهم واعتمادهم في شرائعهم إلا على خمسمائة وسبع وخمسين مسألة، ومن هذه المسائل على قلتها مسائل موضوعة لا معنى لها ولا حاجة بهم إلى تقييدها لم تقع في سالف الزمن ولا تقع في غابره. وليست سنتهم مأخوذة من تنزيل ولا رواية عن نبي وإنما جميعها عن ملوكهم، وأيمانهم التي لا بعدها: بالله الذي لا بعده غيره ولا يدان إلا له، وإلا فخلع النصرانية وبرئ من المعمودية وطرح على المذبح حيضة يهودية، وإلا فلعنه البطريق الأكبر والشمامسة والديرانيون وأصحاب الصوامع ومقربة القربان، وإلا فبرئ من الثلثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين خرجوا من بيوتهم حتى أقاموا دين النصرانية، وإلا فشق الناقوس وطبخ فيه لحم جمل وأكل يوم الإثنين مدخل الصوم، وإلا تلقى الله بعمل إسحاق طرى اليهودي.)

كان الوقوف على أهم مدينتين في بلاد الشمال مهما، كونهما من أبرز الرموز الدينية والحضارية في الدولتين الرومانية والبيزنطية، لكن ذلك لايحجب اهتمام الجغرافيّن والرحالة من وصف سواهما، وفي هذا النص يقف القزويني على بعض البلاد والمدن الأخرى.

19. مدن، وبلاد إفرنجية. القزويني (682هـ = 1283م) من كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد).

إفرنجة: (بلدة عظيمة، ومملكة عريضة في بلاد النصارى. بردها شديد جداً، وهواؤها غليظ لفرط البرد. وإنها كثيرة الخيرات والفواكه والغلات، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار، ذات زرع وضرع وشجر وعسل، صيودها كثيرة الأنواع. بها معادن الفضة، وتضرب بها سيوف قطاعة جداً، وسيوف إفرنجة أمضى من سيوف الهند. وأهلها نصارى. ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد الإسلام، وهو يحميها من ذلك الجانب، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم، وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطع. ويحلقون لحاهم، وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة. سُئل واحد عن حلق اللحى، فقال: الشعر فضلة أنتم تزيلونها عن سوءاتكم، فكيف نتركها نحن على وجوهنا؟

أُفْسُوسُ: مدينة مشهورة بأرض الروم، وهي مدينة دقيانوس الجبار الذي هرب منه أصحاب الكهف، وبين الكهف والمدينة مقدار فرسخين، والكهف مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس، فيه رجال موتى لم

يتغيروا وعددهم سبعة: ستة منهم نيام على ظهورهم، وواحد منهم في آخر الكهف مضطجع على يمينه، وظهره إلى جدار الكهف، وعند أرجلهم كلب ميت لم يسقط من أعضائه شيء، وهو باسط ذراعيه بالوصيد كافتراش السباع، وعلى الكهف مسجد يستجاب فيه الدعاء، يقصده الناس، وأهل المدينة يرون بالليل على الكهف نوراً عظيماً، ويعرفون أن ذلك النور من سكان الكهف. **أبولدة**: مدينة بأرض الفرنج عظيمة مبنية بالحجارة. لا يسكنها إلا الرهبان ولا تدخلها امرأة لأنه أوصى شهيدها بذلك، واسم شهيدها باج الب، زعموا أنه كان أسقفاً بافرنجة، فتشاجر أهلها وأتى هذا الموضع، وبنى هذه المدينة. وهي كنيسة عظيمة معتبرة عند النصارى. حكى الطرطوشي قال: ما رأيت في جميع بلاد النصارى أعظم منها ولا أكثر ذهباً وفضة. وأكثر أوانيها كالمجامر والكؤوس والأباريق والقصاع من الذهب والفضة. وبها صنم من فضة على صورة شهيدها، وجهه إلى المغرب، وبها صنم آخر من ذهب وزنه ثلاثمائة رطل، ملصق ظهره بلوح واسع عريض جداً، قد كلّل بالياقوت والزمرد، وهو مفتوح اليدين على شكل المصلوب، وهو صورة المسيح عليه السلام. وبها من صلبان الذهب والفضة وألواح الآثار كلها من الذهب والفضة قد كلّل بالياقوت. **أشت**: مدينة بأرض الإفرنج، حكى العذري أن بهذه المدينة عادة عجيبة، وهي أن أهلها إذا اشتروا متاعاً كتبوا ثمنه عليه وتركوه في دكانهم، فمن وافقه بذلك الثمن أخذه وترك ثمنه مكانه. ولحوانيتهم حراس، فمن ضاع منه شيئاً غرموا الحارس قيمته.

أفش: مدينة في بلاد الإفرنج مبنية بالصخور المهندمة على طرف نهر يسمى نهر أفش. بها جمّة غزيرة الماء جداً. عليها بيت واسع الفضاء يستحمّ فيه أهلها على بعد من الجمة، خوفاً من شدة سخونة الماء الذي يفور من الجمة. **انطرحت**: مدينة بأرض الفرنج عظيمة واسعة الرقعة. أرضها سبخة لا يصلح فيها شيء من الزروع والغراس، ومعاشهم من المواشي ودرّها وأصوافها. وليس ببلادهم حطب يشعلونه بحاجاتهم، وإنما عندهم طين يقوم مقام الحطب، وذاك أنهم يعمدون في الصيف إذا خفت المياه إلى مروجهم، ويقطعون فيها الطين بالفؤوس على شكل الطوب، فيقطع كل رجل منها مقدار حاجته ويبسطه في الشمس ينشف، فيكون خفيفاً جداً، فإذا عرض على النار يشتعل، وتأخذ فيه النار كما تأخذ في الحطب. وله نار عظيمة ذات وهج عظيم كنار كير الزجّاجين، وإذا احترقت قطاعة لا جمر لها بل لها رماد. **إيرلاندة**: جزيرة في شمالي الإقليم السادس وغربيه؛ قال العذري: ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة في جميع الدنيا، ودورها ألف ميل، وأهلها على رسم المجوس وزيّهم، يلبسون برانس قيمة الواحد منها مائة دينار. وأما أشرافهم فيلبسون برانس مكلّلة باللآلئ. وحكي أن في سواحلها يصيدون فراخ الأبلينة، وهو نون عظيم جداً، يصيدون أجراءها يتأدّمون بها. وذكروا أن هذه الأجراء تتولد في شهر أيلول فتصاد في تشرين الأول والثاني وكانون الأول والثاني، في هذه الأشهر الأربعة، وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل. أما كيفية صيدها فقد ذكر العذري أن الصيادين يجتمعون في مراكب، ومعهم نشيل كبير من حديد ذو أضراس حداد، وفي النشيل حلقة عظيمة قويّة، وفي الحلقة حبل قويّ، فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوّتوا، فيتلهى الجرو بالتصفيق ويقرب من المراكب مستأنساً بها، فينضم أحد الملاحين إليها ويحك جبهته حكاً شديداً، فيستلذ الجرو بذلك، ثم يضع النشيل وسط رأسه ويأخذ

مطرقة من حديد قوية، ويضرب بها على النشيل بأتم قوة ثلاث ضربات، فلا يحسّ بالضربة الأولى وبالثانية، والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً، فربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب. ثم يتعاون ركاب المراكب على جذبه حتى يصير إلى الساحل. وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتتبعهم، فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ويخوّضون به الماء، فإذا شمت رائحة الثوم استبعثتها ورجعت القهقرى إلى خلف، ثم يقطعون لحم الجرو ويملّحونه. ولحمه أبيض كالثلج، وجلده أسود كالنقس.

باكويه (= **باكو**): مدينة بنواحي دربند بقرب شروان. بها عين نفط عظيمة تبلغ قبالتها في كل يوم ألف درهم، وإلى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض كدهن الزئبق، لا تنقطع نهاراً ولا ليلاً، تبلغ قبالتها مثل الأولى. من عجائبها ما ذكر أبو حامد الأندلسي أن بها أرضاً ليس في ترابها حرارة كثيرة يجدها الإنسان، والناس يصيدون الغزلان وغيرها ويقطعون لحمها ويجعلونه في جلودها مع الملح وما شاؤوا من الأبازير، ويأخذون أنبوبة من القصب الغليظ النافذ، ويشدون القصب على جلد الصيد ويدفنونه تحت ذلك التراب، ويتركون القصب خارجاً فتخرج مائية اللحم كلها من القصبة، فإذا نفذت المائية علموا أن اللحم قد نضج فيخرجونه وقد تهرأ. وحكى بعض التجار أنه رأى بها ناراً لا تزال تضطرم ولا تنطفئ لأن موضعها معدن الكبريت. وحكى أبو حامد الأندلسي أن بقرب باكويه جبلاً أسود في سنامه شق طويل، يخرج منه الماء ويخرج مع ذلك الماء مثل صناج الدانق من النحاس وأكبر أو أصغر، يحملها الناس إلى الآفاق للتعجب. **باني وأريشة**: مدينتان بأرض الفرنج، سمّيتا باسم بانيهما: أما باني فاسم ملك تلك الناحية في قديم الدهر، وأريشة اسم زوجته. أما مدينة الباني فمدينة شريفة في وسطها سارية من رخام، وعلى تلك السارية صورة باني كأنه ينظر إلى البحر إلى إقبال مراكبه من إفريقية. وعلى ميل من مدينة باني مدينة أريشة، وفي وسط المدينة سارية من رخام عليها صورة أريشة، صوّر جميعاً من رخام تذكرة لهما، وسميت المدينتان باسميهما.

برذيل: مدينة بناحية افرنجة كثيرة المياه والأشجار والفواكه والحبوب. أكثر أهلها نصارى. بها بنيان منيفة على سوار عظيمة، وفي سواحل هذه المدينة يوجد العنبر الجيد. وحكي أنهم إذا أصابهم كلب الشتاء وامتنع عليهم ركوب البحر، مشوا إلى جزيرة بقربهم يقال لها انواطى، بها نوع من الشجر يسمى مادقة، فإذا أصابهم الجوع قشروا هذه الشجرة فوجدوا بين لحائها وخشبها شيئاً أبيض فاقتاتوا بها الشهر والشهرين وأكثر حتى يطيب الهواء. بها جبل مشرف عليها وعلى البحر المحيط وعليه صنم، وذلك كأنه يخبر الناس بترك التعرض لسلوك البحر المحيط، لئلا يطمع أحد ممن خرج من برذيل بركوب البحر الذي عنده طمع في سلوكه. **بُرْطَاس**: ولاية واسعة بالخزر مفترشة على نهر أتل، أهلها مسلمون، لهم لغة مغايرة لجميع اللغات، أبنيتهم من الخشب يأوون إليها في الشتاء، وأما في الصيف فيفرشون في الخرقاهات.)



20. مدن شمالية، الهروي (611هـ = 1215م) من كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات)

(**صقلية**: وبجزيرة إسقلية جبل النار مطل على البحر شاهق في الهواء يُرى في النهار الدخان طالع منه وفي الليل النار. وحدثني رجل من علماء البلاد أنه رأى حيواناً على شكل السمان رصاصي اللون يطير في وسط هذه النار ويعود إليها، وقيل هو السمندل. وأنا فما رأيت إلا حجارة سوداء مثقبة مثال حجر الرجل للحمّام تقع من هذا الجبل إلى ناحية البحر، وقيل بالفرغانة جبل مثله تحرق الحجارة ويباع رمادها ثلاث أواقي بدرهم يبيّضون به الثياب. واجتمعت بجزيرة إسقلية بالقائد أبي القاسم بن حمّود بن الحجر، وذكر لي أنه من ولد عمر بن عبد العزيز، وكنت مرضت في مسجد عين الشفا، وهذه العين تزار، ومنَّ الله عز وجل عليّ بالعافية، وأحسن هذا القائد إليّ، وكتب معي كتباً إلى السلطان تحثه على أخذ هذه الجزيرة، وغرق المركب عند خروجي من هذه الجزيرة، وركبت مع قوم من الروم إلى جزيرة قبرس. **جزيرة قبرس**: ورأيت بجزيرة قبرس مكتوباً على حجر ما هذه صورته بعد البسملة وسورةالإخلاص"هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة". وهذا الحجر مبنيّ في حائط الكنيسة الشرقية. وبها قبر أم حرام ابنة ملحان أخت سُليم رضي الله عليهما. والله أعلم.

مدينة القسطنطانية: في جانب سورها قبر أبي أيوب الأنصاري (رض) صاحب رسول الله (صلعم). واسمه خالد بن زيد، ولما قتل دفنه المسلمون، وقالوا للروم "هذا من كبار أصحاب نبينا، فوالله إن نُبش لا دقّ بناقوس في أرض العرب أبداً". وبها الجامع الذي بناه مسلمة بن عبدالملك والتابعون (رض)، وبه قبر رجل من ولد الحسين (رض). وبها الأصنام النحاس والرخام والعمد والطلسمات العجيبة والمنائر.. والآثار التي ليس في ربع المسلمين مثلها. وبها أيا صوفيا، وهي الكنيسة العظمى عندهم، ويقولون بها ملك من الملائكة مقيم بها، وقد عملوا دائر مكانه دارابزين من الذهب.. وهذه المدينة هي أكبر من اسمها، فالله تعالى يجعلها دار الإسلام بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى. **مدينة صالونيك**: يقصدها الروم والفرنج ويزورونها.

مدينة رومية الكبرى: بها بطرس وشمعون الصفا وبولص من حواري المسيح عليه السلام في توابيت من الفضة معلقة بالسلاسل في هيكل الكنيسة العظمى التي لهم. وبهذه المدينة من الآثار والأصنام والعمد.. أما قول الناس إن لها سبعة أسوار فإذا دخلها الداخل لا يعرف كيف يخرج فلا أصل لهذا الكلام ولا صحة له، بل لها حبس عمارتها على هيئة الحلزون، وإذا حُبس به أحد لا يهتدي للخروج منه.. وحدثني من أثق بقوله إنه دخل جزيرة لويزل أقصى بلاد الفرنج، ورأى هناك كنيسة بها رهبان وسدنة من قبل البابا وبها ثلاث شجرات ورقها أحمر شديد الحمرة وتحمل كل شجرة من الطيور شيئاً كثيراً، ويملّحون الطيور ويهدونها إلى ملوكهم. وسألت غيره عن ذلك فأخبرني بصحته، وحدثني أنه رأى في بلد الريد من بلاد الفرنج نساء ديس المرأة يماس قدميها، وإذا خلّفت المرأة ثديها إلى وراء أكتافها التقت رؤوس أناملها. وهذا جميعه ما رأيته، بل أثق بمن ذكره، والله أعلم بصحة ذلك. وشرقي بحر القسطنطينية البرج الذي بناه مسلمة والتابعون.



مدينة **نيقيا** من أعمال إصطنبول على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملّة المسيحية، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر أباً، ويزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم في هذا الجمع، وهو أول المجامع لهذه الملّة، وبه أظهروا إمانة التي هي أصل دينهم وصورهم وصورة المسيح على كراسيهم بهذه المدينة في بيعتها، ولهم فيها الاعتقاد العظيم. وقبر أبي محمد البطّال على رأس تل في حدّ تخوم البلاد. **عمُّورية** بها قبور جماعة استشهدوا مع المعتصم (رض) وبها آثار عجيبة... سلطان وكي وهو موضع عجيب ويقال له أيضاً الثيرما بالرومي ويقال له اوكرم وهو على تخوم البلاد وحد الكافر. وبهذا الموضع آثار آزاج معقودة وتحتها الماء الذي ليس مثله في البلاد في صفائه وحرارته وحلاوته ومنفعته يقصده أصحاب الأمراض من البلاد... مدينة **قونية** بها قبر إفلاطون الحكيم بالكنيسة التي إلى جانب الجامع. ورأيت في بستان قمر الدين سريراً من الرخام عليه صورة رجل وامرأة نياماً تحت إزار والجميع مستخرج من جسم الرخام وذرعته طولاً وعرضاً.. مدينة **قيصارية**: بها حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (رض). وبها جامع البطّال. وبها البضرم به آثار قديمة، وبه قبّة الخيالة، وبه الحمّام الذي ذكروا أن بليناس الحكيم عمله للملك قيصر يُحمى بسراج والله أعلم. وعنده جبل عسيب به قبر أمرئ القيس شاعر العرب، ولذلك قال:

أجارتنا إن الخُطوب تنوب ... وإني مقيمٌ ما أقام عسيـــب

أجارتنا إنّا غريبان ها هنا ... وكلّ غريب للغريب نسيب

ذكر **الأُبرُوق**: وهو موضع ببلاد الروم يزار من الآفاق، وبلغني أن به شهداء من عهد عمر بن الخطاب (رض) وأنهم لا يبلون ولا يحلقون رؤوسهم ويقلمون أظفارهم، فقصدته لأنظر حقيقة ذلك. وهو في لحف جبل يدخل إليه من باب برج، ويمشي الداخل تحت الأرض إلى أن ينتهي إلى موضع واسع، وهو جبل مخسوف تبين السماء من فوقه، وفي وسطه بحيرة ودائرها بيوت الفلاّحين، وهم قوم من الروم مزدرعهم ظاهر الموضع وبيوتهم داخله. وهناك كنيسة لطيفة ومسجد فإن كان الزائر مسلماً أتوا به إلى المسجد، وإن كان نصرانياً أتوا به إلى الكنيسة، ثم يدخل إلى بهو فيه جماعة قد قتلوا وآثار طعنات الأسنة وضربات السيوف فيهم، ومنهم من قد راح بعض أعضائه وعليهم ثياب من القطن لم يتغيروا. وهناك أيضاً في موضع آخر أربعة قيام قد أسندوا ظهورهم إلى حائط المغارة ومعهم صبي قد وضع راسه على يد واحد منهم طوال من الرجال أسمر اللون وعليه قباء من القطن وكفه مفتوح كأنه يصافح ورأس الصبي على زنده وإلى جانبه رجل على وجهه ضربة، وقد قطعت شفته العليا وظهرت أسنانه وهم بعمائم. وهناك أيضاً تابوت فيه امرأة وعلى صدرها صغير وحلمة ثديها في فيه. وهناك أيضاً خمسة أنفس قيام ظهورهم إلى حائط الموضع وهناك أيضاً في موضع عال سرير عليه اثنا عشر رجلاً فيهم صبي مخضوب بالحنّا يداه ورجلاه. والروم يزعمون أنهم منهم، والمسلمون يقولون إنهم من أصحاب عمر بن الخطاب (رض) ماتوا هناك صبراً. وأما حلق رؤوسهم وتقليم أظفارهم فليس لذلك صحة إلا أنهم قوم قد يبست جلودهم على العظام و لم يتغيروا والله أعلم بذلك. مدينة

أُبْلُستين: قريب منها بلد خراب يقال له أبسس يقال إنه بلد ذقيانوس وبه آثار عجيبة وعمارة قديمة. وغربي هذه البلدة الكهف، وهو كما قال الله عز وجل في كتابه العزيز ووصفه بقوله (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين إذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) .. مدينة ملطية: قيل بناها الإسكندر، ويقال إن جامعها بنته الصحابة والتابعون رضي الله عليهم. والله أعلم بصحة ذلك. مدينة أرز الروم: بها قبر الحجّاج بن علاط.)

كشف الهروي جانبا من المدن الرومية، وزار بعضها، ومروياته عنها مباشرة، لكن بلاد الشمال مترامية، ويحسن العودة إلى بعض أطرافها، و يقدم ياقوت وصفا مفصّلا لبلاد الترك، إنها تلك البلاد الشاسعة في الأواسط الغربية العليا لقارة آسيا حيث تستوطن أقوام كثيرة ومختلفة الأعراق واللغات والعقائد، وياقوت كعادته جامع كبير لمرويات تعود إلى رحّالة، ومبعوثين، وقادة، وهم ممن أتيحت لهم الظروف بالسفر، ومشاهدة البلاد التي كتب عنها. وهو، كما سيتضح في الفقرة القادمة يستند إلى شهادات حية جديرة بالاهتمام.

21. بلاد تركســـــتان، ياقوت الحموي. من كتاب (معجم البلدان)

(**تركستان:** هو اسم جامع لجميع بلاد الترك. وفي الحديث: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: الترك أول من يسلب أمتي ما خوّلوا. وعن ابن عباس أنه قال: ليكونن الملك، أو قال الخلافة، في ولدي حتى يغلب على عزهم الحُمْر الوجوه الذين كأن وجوههم المجانُّ المطرّقة. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين فطس الأنوف حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة. وعن معاوية: لا تبعثوا الرّابضين اتركوهم ما تركوكم الترك والحبشة. وخبر آخر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: اتركوا الترك ما تركوكم. وقيل إن الشاة لا تضع في بلاد الترك أقل من أربعة، وربما وضعت خمسة أو ستة كما تضع الكلاب، وأما اثنين أو ثلاثة فإنما يكون نادراً، وهي كبار جداً، ولها ألايَا كبار تجرها على الأرض. وأوسع بلاد الترك بلاد التغزغز، وحدّهم الصين والتّبّت والخرلخ والكيماك والغزّ والجفر والبجناك والبذكش واذكس وخفشاق وخرخيز. وأول حدّهم من جهة المسلمين فاراب، قالوا: ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة، والتغزغز في الترك كالبادية، أصحاب عمد يرحلون ويحلُّون، والبذكشية أهل بلاد وقرى.

وكان هشام بن عبدالملك بعث إلى ملك الترك يدعوه إلى الإسلام، قال الرسول: فدخلت عليه وهو يتخذ سرجاً بيده فقال للترجمان: من هذا؟ فقال: رسول ملك العرب، قال: غلامي! قال: نعم، قال: فأمر بي إلى بيت كثير اللحم قليل الخبز، ثم استدعاني وقال لي: ما بغيتك؟ فتلطفت له، وقلت: إن صاحبي يريد نصيحتك، ويراك على ضلال، ويحبُّ لك الدخول في الإسلام، قال: وما الإسلام؟ فأخبرته بشرائطه، وحظره، وإباحته، وفروضه، وعبادته، فتركني أياماً ثم ركب ذات يوم في عشرة أنفس مع كل واحد منهم لواء، وأمر بحملي معه، فمضينا حتى صعد تلاً وحول التل غيضة، فلما طلعت الشمس أمر واحداً من أولئك أن ينشر لواءه ويليح به، ففعل، فوافى عشرة آلاف فارس مسلح كلهم يقول: جاه جاه، حتى وقفوا تحت التل وصعد

مقدمهم فكفر للملك، فما زال يأمر واحداً واحداً أن ينشر لواءه ويليح به، فإذا فعل ذلك وافى عشرة آلاف فارس مسلح، فيقف تحت التل حتى نشر الألوية العشرة وصار تحت التل مائة ألف فارس مدجج، ثم قال للترجمان: قل لهذا الرسول يعرّف صاحبه أن ليس في هؤلاء حجّام، ولا إسكاف، ولا خياط، فإذا أسلموا والتزموا شروط الإسلام من أين يأكلون؟

ومن ملوك الترك كيماك دون ألفين، وهم بادية يبيعون الكلأ، فإذا ولد للرجل ولد ربّاه وعاله وقام بأمره حتى يحتلم ثم يدفع إليه قوساً وسهاماً ويخرجه من مترله ويقول له: احتل لنفسك، ويصيره بمترلة الغريب الأجنبي. ومنهم من يبيع ذكور ولده وإناثهم بما ينفقونه، ومن سنتهم أن البنات البكور مكشفات الرؤوس، فإذا أراد الرجل أن يتزوج ألقى على رأس إحداهن ثوباً، فإذا فعل ذلك صارت زوجته لا يمنعها منه مانع. وذكر تميم بن بحر المطوّعي أن بلدهم شديد البرد، وإنما يسلك فيه ستة أشهر في السنة، وأنه سلك في بلاد خاقان التغزغزي على بريد أنفذه خاقان إليه، وأنه كان يسير في اليوم والليلة ثلاث سكك بأشد سير وأحثه، فسار عشرين يوماً في بواد فيها عيون وكلأ وليس فيها قرية ولا مدينة إلا أصحاب السكك، وهم نزول في خيام، وكان حمل معه زاداً لعشرين يوماً، ثم سافر بعد ذلك عشرين يوماً في قرى متصلة وعمارات كثيرة، وأكثر أهلها عبدة نيران على مذهب المجوس، ومنهم زنادقة على مذهب ماني، وأنه بعد هذه الأيام وصل إلى مدينة الملك، وذكر أنها مدينة حصينة عظيمة حولها رساتيق عامرة وقرى متصلة ولها اثنا عشر باباً من حديد مفرطة العظم، قال: وهي كثيرة الأهل والزحام والأسواق والتجارات، والغالب على أهلها مذهب الزنادقة، وذكر أنه حزر ما بعدها إلى بلاد الصين مسيرة ثلاثمائة فرسخ، قال: وأظنه أكثر من ذلك، قال: وعن يمين بلدة التغزغز بلاد الترك لا يخالطها غيرهم، وعن يسار التغزغز كيماك، وأمامها بلاد الصين، وذكر أنه نظر قبل وصوله إلى المدينة خيمة الملك من ذهب وعلى رأس قصره تسعمائة رجل، وقد استفاض بين أهل المشرق أن مع الترك حصى يستمطرون به، ويجيئهم الثلج حين أرادوا.

وذكر أحمد بن محمد الهمذاني عن أبي العباس عيسى بن محمد المروزي قال: لم نزل نسمع في البلاد التي من وراء النهر وغيرها من الكور الموازية لبلاد الترك الكفرة الغزّيّة والتغزغزية والخزلجية، وفيهم المملكة، ولهم في أنفسهم شأن عظيم ونكاية في الأعداء شديدة، إن من الترك من يستمطر في السفارة وغيرها فيمطر ويحدث ما شاء من برد وثلج ونحو ذلك، فكنا بين منكر ومصدق، حتى رأيت داود بن منصور بن أبي علي الباذغيسي، وكان رجلاً صالحاً قد تولى خراسان، فحمد أمره بها، وقد خلا بابن ملك الترك الغزية، وكان يقال له بالقيق بن حيويه، فقال له: بلغنا عن الترك أنهم يجلبون المطر والثلج متى شاؤوا فما عندك في ذلك؟ فقال: الترك أحقر وأذل عند الله من أن يستطيعوا هذا الأمر، والذي بلغك حق ولكن له خبرٌ أحدثك به: كان بعض أجدادي راغم أباه، وكان الملك في ذلك العصر قد شذّ عنه واتخذ لنفسه أصحاباً من مواليه وغلمانه وغيرهم ممن يحب الصعلكة، وتوجه نحو شرق البلاد يُغير على الناس ويصيد ما يظهر له ولأصحابه، فانتهى به المسير إلى بلد ذكر أهله أن لا منفذ لأحد وراءه، وهناك جبل، قالوا: إن الشمس تطلع من وراء هذا الجبل،

وهي قريبة من الأرض جداً، فلا تقع على شيء إلا أحرقته، قال: أو ليس هناك ساكن ولا وحش؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يتهيأ لهم المقام على ما ذكرتم؟ قالوا: أما الناس فلهم أسراب تحت الأرض وغيران في الجبال، فإذا طلعت الشمس بادروا إليها واستكنوا فيها حتى ترتفع الشمس عنهم فيخرجون، وأما الوحوش فإنها تلتقط حصّى هناك قد ألهمت معرفته، فكل وحشية تأخذ حصاة بفيها وترفع رأسها إلى السماء فتظللها وتبرز عند ذلك غمامة تحجب بينها وبين الشمس، قال: فقصد جدي تلك الناحية فوجد الأمر على ما بلغه، فحمل هو وأصحابه على الوحوش حتى عرف الحصى والتقطه، فحملوا منه ما قدروا عليه إلى بلادهم، فهو معهم إلى الآن، فإذا أرادوا المطر حرّكوا منه شيئاً يسيراً فينشأ الغيم فيوافي المطر، وإن أرادوا الثلج والبَرَد زادوا في تحريكه فيوافيهم الثلج والبرد، فهذه قصتهم، وليس ذلك من حيلة عندهم، ولكنه من قدرة الله تعالى.

قال أبو العباس: وسمعت إسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان يقول: غزوت الترك في بعض السنين في نحو عشرين ألف رجل من المسلمين، فخرج إليّ منهم ستون ألفاً في السلاح الشاك، فواقعتهم أياماً، فإني ليوماً في قتالهم إذ اجتمع إليّ خلق من غلمان الأتراك وغيرهم من الأتراك المستأمنة، فقالوا لي: إن لنا في عسكر الكفرة قرابات وإخواناً، وقد أنذرونا بموافاة فلان، قال: وكان هذا الذي ذكروه كالكاهن عندهم، وكانوا يزعمون أنه ينشيء سحاب البَرَد والثلج وغير ذلك، فيقصد بها من يريد هلاكه، وقالوا: قد عزم أن يمطر على عسكرنا بَرَداً عظاماً لا يصيب البَرَد إنساناً إلا قتله، قال: فانتهرتهم وقلت لهم: ما خرج الكفر من قلوبكم بعد، وهل يستطيع هذا أحد من البشر؟ قالوا: قد أنذرناك، وأنت أعلم غداً عند ارتفاع النهار. فلما كان من الغد وارتفاع النهار نشأت سحابة عظيمة هائلة من رأس جبل كنت مستنداً بعسكري إليه، ثم لم تزل تنتشر وتزيد حتى أظلت عسكري كله، فهالني سوادها وما رأيت منها وما سمعت فيها من الأصوات الهائلة، وعلمت أنها فتنة، فنزلت عن دابتي وصليت ركعتين، وأهل العسكر يموج بعضهم في بعض، وهم لا يشكّون في البلاء، فدعوت الله، وعفرت وجهي في التراب، وقلت: اللهم أغثنا فإن عبادك يضعفون عن محنتك، وأنا أعلم أن القدرة لك، وأنه لا يملك الضر والنفع إلا أنت، اللهم إن هذه السحابة إن أمطرت علينا كانت فتنة للمسلمين، وسطوة للمشركين، فاصرف عنا شرها بحولك وقوتك يا ذا الجلال والحول والقوة. قال: وأكثرت الدعاء، ووجهي على التراب رغبة ورهبة إلى الله تعالى، وعلماً أنه لا يأتي الخير إلا من عنده، ولا يصرف السوء غيره، فبينما أنا كذلك إذ تبادر إليّ الغلمان وغيرهم من الجند يبشرونني بالسلامة، وأخذوا بعضدي ينهضونني من سجدتي ويقولون: انظر أيها الأمير، فرفعت رأسي فإذا السحابة قد زالت عن عسكري، وقصدت عسكر الترك تمطر عليهم برَداً عظاماً، وإذا هم يموجون، وقد نفرت دوابهم، وتقلعت خيامهم، وما تقع برَدة على واحد منهم إلا أوهنته أو قتلته، فقال أصحابي: نحمل عليهم؟ فقلت: لا، لأن عذاب الله أدهى وأمرّ. ولم يفلت منهم إلا القليل، وتركوا عسكرهم بجميع ما فيه وهربوا. فلما كان من الغد جئنا إلى معسكرهم فوجدنا فيه من الغنائم ما لا يوصف، فحملنا ذلك، وحمدنا الله على السلامة، وعلمنا أنه هو الذي سهل لنا ذلك وملكناه. قلت هذه أخبار سطرتها كما وجدتها، والله أعلم بصحتها.)

22. أمر قبرس، البلاذري (279هـ = 892م) من كتاب (فتوح البلدان)

(قال الواقدي وغيره: غزا معاوية بن أبي سفيان في البحر غزوة قبرس الأولى، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها. وكان معاوية استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له. فلما ولي عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه في غزوة قبرس، ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها. فكتب إليه أن قد شهدت ما ردّ عليك عمر رحمه الله حين استأمرته في غزو البحر. فلما دخلت سنة سبع وعشرين كتب إليه يهوّن عليه ركوب البحر إلى قبرس. فكتب إليه عثمان: فإن ركبت ومعك امرأتك، فاركبه مأذوناً لك، وإلا فلا. فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة، وحمل امرأته، فأخته بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل ابن عبد مناف بن قصي، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، وذلك في سنة ثمان وعشرين بعد انحسار الشتاء، وبقيا في سنة تسع وعشرين. فلما صار المسلمون إلى قبرس فأرفوا إلى ساحلها، وهي جزيرة في البحر تكون فيما يقال ثمانين فرسخاً في مثلها، بعث إليهم أركونها يطلب الصلح وقد أذعن أهلها به فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدّونها في كل عام، وصالحهم الروم على مثل ذلك فهم يؤدون خرجين. واشرطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم. فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرس، ولم ينصروا عليهم. فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين أعانوا الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين في خمس مئة مركب، ففتح قبرس عنوة، فقتل وسبي ثم أقرهم على صلحهم. وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان فبنى يها المساجد. ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة. وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفى معاوية وولي بعده ابنه يزيد فأقفل ذلك البعث وأمر بهدم المدينة. وبعض الرواة يزعم أن غزوة معاوية الثانية لقبرس في سنة خمس وثلاثين.

وحدثني محمد بن مصفى الحمصي عن الوليد، قال: بلغنا أن يزيد رشي مالاً عظيماً ذا قدر حتى أقفل جند قبرس، فلما قفلوا هدم أهل قبرس مدينتهم ومساجدهم. وحدثني محمد بن سعيد عن الواقدي عن عبد السلام بن موسى عن أبيه قال: لما غزيت قبرس الغزوة الأولى ركبت أم حرام بنت ملحان مع زوجها عبادة بن الصامت. فلما انتهوا إلى قبرس خرجت من المركب وقدمت إليها دابة لتركبها فعثرت بها فقتلتها فقبرها بقبرس يدعى قبر المرأة الصالحة. قالوا: وغزا مع معاوية أبو أيوب خالد بن زيد بن كلب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وعمير بن سعد بن عبيد الأنصاري، ووائلة بن الأسقع الكناني، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت وهو ابن أخي حسان بن ثابت، والمقداد، وكعب بن مانع، وجبير بن نفيرالحضرمي. حدثني هشام بن عمار الدمشقي قال: حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو: أن معاوية بن أبي سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امرأته. ففتحها الله فتحاً عظيماً وغنم المسلمون غنماً حسناً. ثم لم يزل المسلمون بغزوهم حتى صالحهم معاوية في أيامه صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار، وعلى النصيحة للمسلمين وإنذارهم عدوهم من الروم هذا أو نحو. قالوا: وكان



الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقاً إلى الشام لأمرٍ اتهمهم به. فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن عبد الملك إلى بلدهم. وكان حميد بن معيوف الهمداني غزاهم في خلافة الرشيد لحدثٍ أحدثوه، فأسر منهم بشراً، ثم إنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا.حدثني محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده قال: لم يزل أهل قبرس على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار. فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطّها عنهم. ثم لما ولى هشام بن عبد الملك ردها. فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال: نحن أحق من أنصفهم و لم نتكثر بظلمهم. فردهم إلى صلح معاوية.

وحدثني بعض أهل العلم من الشاميين، وأبو عبيد القاسم بن سلام، قالوا: أحدث أهل قبرس حدثاً في ولاية عبد الملك صالح بن علي بن عبد الله ابن عباس الثغور، فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون. فكتب إلى الليث ابن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وموسى بن أعين، وإسماعيل ابن عياش، ويحيى بن حمزة، وأبي إسحاق الفزاري، ومخلد بن الحسين في أمرهم، فأجابوه. وكان فيما كتب به الليث بن سعد "إن أهل قبرسٍ قوم لم نزل نتهمهم بغش أهل الإسلام ومناصحة أعداء الله الروم، وقد قال تعالى "وإما تخافن من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواء" و لم يقل لا تنبذ إليهم حتى تستيقن خيانتهم. وإني أرى أن تنبذ إليهم، وينظروا سنة يأتمرون. فمن أحب اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكون ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك، ومن أراد أن ينتحي إلى بلاد الروم فعل، ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام، فكانوا عدواً يقاتلون ويغزون، فإن في أنظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعدهم". وكان فيما كتب به مالك بن أنس"أن أمان أهل قبرس كان قديماً متظاهرا من الولاة لهم. وذلك لأنهم رأوا أن إقرارهم على حالهم ذلٌّ وصغار لهم وقوةٌ للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة في عدوهم. و لم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرهم عن بلدهم. وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى تتجه الحجة عليهم، فإن الله يقول "فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم" فإن هم لم يستقيموا بعد ذلك ويدعوا غشهم ورأيت أن الغدر ثابت منهم أوقعت بهم، فكان ذلك بعد الإعذار فرزقت النصر، وكان بهم الذل والخزي إن شاء الله تعالى". وكتب سفيان بن عيينة" إنا لا نعلم النبي صلى الله عليه وسلم عاهد قوماً فنقضوا العهد إلا استحل قتلهم غير أهل مكة، فإنه من عليهم، وكان نقضهم أنهم نصروا حلفاءهم على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة. وكان فيما أخذ على أهل نجران أن لا يأكلوا الربا، فحكم فيهم عمر رحمه الله حين أكلوه بإجلائهم. فإجماع القوم أنه من نقض عهداً فلا ذمة له".

وكتب موسى بن أعين"قد كان يكون مثل هذا فيما خلال فيعمل الولاة فيه النظرة. و لم أر أحداً ممن مضى نقض أهل قبرس ولا غيرها، ولعل عاميتهم وجماعتهم لم يمالئوا على ما كان من خاصتهم. وأنا أرى الوفاء لهم والتمام على شرطهم، وإن كان منهم الذي كان. وقد سمعت الأوزاعي يقول في قوم صالحوا المسلمين ثم أخبروا المشركين بعورتهم ودلوهم عليها: إنهم إن كانوا ذمة فقد نقضوا عهدهم وخرجوا من ذمتهم، فإن شاء الوالي قتل وصلب، وإن كانوا صلحاً لم يدخلوا في ذمة المسلمين نبذ إليهم الوالي على سواء "أن الله لا يحب كيد

الخائنين". وكتب إسماعيل بن عياش "أهل قبرس أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم. وقد كتب حبيب ابن مسلمة لأهل تفليس في عهده أنه إن عرض للمسلمين شغل عنكم وقهركم عدوكم، فأن ذلك غير ناقضٍ عهدكم بعد أن تفوا للمسلمين. وأنا أرى أن يقروا على عهدهم وذمتهم، فإن الوليد بن يزيد قد كان أجلاهم إلى الشام فاستفظع ذلك المسلمون واستعظمه الفقهاء، لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك ردهم إلى قبرس، فاستحسن المسلمون ذلك من فعله ورأوه عدلاً".

وكتب يحيى بن حمزة "إن أمر قبرس كأمر عرب سوس فإن فيها قدوة حسنة وسنة متعبة. وكان من أمرها أن عمير بن سعد قال لعمر ابن الخطاب وقدم عليه: إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عرب سوس. وإنهم يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا. فقال عمر: فإذا قدمت فخيرهم أن تعطيهم مكان شاة شاتين، ومكان بقرة بقرتين، ومكان كل شيء شيئين، فإذا رضوا بذلك فأعطهم إياه وأجلهم وأخربها، فإن أبوا فانبذ إليهم وأجلهم سنة، ثم أخرجها. فانتهى عمير إلى ذلك فأبوا. فأجلهم سنة ثم أخربها. وكان لهم عهد كعهد أهل قبرس.وكل أهل قبرس على صلحهم والاستعانة بما يؤذن على أمور المسلمين أفضل. وكان أهل عهد لا يقاتل المسلمون من ورائهم ويجري عليهم أحكامهم في دارهم فليسوا بذمة، ولكنهم أهل فدية يكف عنهم ما كفوا ويوفى لهم بعهدهم ما وفوا ورضوا، ويقبل عفوهم ما أدوا.وقد روى عن معاذ بن جبل أنه كره أن يصالح أحدٌ من العدو على شيء معلوم إلا أن يكون المسلمون مضطرين إلى صلحهم، لأنه لا يدري لعل صلحهم نفع وعز للمسلمين". وكتب أبو إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين"أنا لم نر شيئاً اشبه بأمر قبرس من أمر عرب سوس، وما حكم به فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه عرض عليهم ضعف مالهم على أن يخرجوا منها أو نظرة سنة بعد نبذ عهدهم إليهم، فأبوا الأولى فانظروا. ثم أخربّت وقد كان الأوزاعي يحدث أن قبرس فتحت فتركوا على حالهم وصولحوا على أربعة عشر ألف دينار: سبعة آلاف للمسلمين وسبعة آلاف للروم، ولإنا لنرى أنهم أهل عهد، وأن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، ولا يستقيم نقضهم إلا بأمر يعرف فيه غدرهم ونكثهم".)

وكانت جزيرة صقلية مثار اهتمام المسلمين الذين فتحوها منذ وقت مبكّر، ولمد طويلة ظل وجودهم فيها بارزا، وتركوا بصمات ثقافية عميقة الأثر فيها، وكان هذا أحد أسباب الاشارات الكثيرة التي ترد حولها في كثير من المرويّات الجغرافية، والتاريخية، والأدبية، ويقدّم ابن حوقل وصفا شاملا لها، هو بمثابة تقديم قبل أن نصل إلى معرفتها المباشرة مع ابن جبير.

23. وصف صقلية. ابن حوقل، من كتاب (صورة الأرض).

(**صقلية:** وهي جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة، طولها سبعة أيام في اربعة أيام. وهي في شرقي الأندلس في لجّ البحر وتحاذيها من بلاد المغرب بلاد إفريقية وباجة وطبرقة إلى مرسى الجزر، وغربيها في البحر جزيرة قرشقة، ومن جنوب صقلية جزيرة قوسرة، وعلى ساحل البحر

شرقيها من البر الأعظم الذي عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحي قلورية، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون، وأكثر أرضها مسكونة مزروعة، وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم، قصبة صقلية، وهي على نحو البحر وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة، وإن كانت حدودها ظاهرة بينة. ومنها المدينة الكبرى المسماة **بلرم** وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع، يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الأكبر، وكان بيعة للروم قبيل فتحها. وفيه هيكل عظيم، ويقول بعض المنطقيين إن حكيم يونان، يعني ارسطوطاليس، في خشبة معلق في هذا الهيكل الذي قد اتخذه المسلمون مسجداً، وإن النصارى كانت تعظم قبره وتستشفي به لما شاهدت يونان عليه من إكباره وإعظامه. قال: والسبب في تعليقه بين السماء والأرض ما كان الناس يلاقونه عند الاستسقاء والاستشفاء والأمور المهمة التي توجب الفزعة إلى الله تعالى، والتقرب اليه في حين الشدة وخوف الهلكة، وعند وطء بعضهم لبعض، وقد رأيت خشبة يوشك أن يكون هذا القبر فيها. وتجاهها مدينة تعرف **بالخالصة** ذات سور من حجارة. وليس كسور بلرم يسكنها السلطان وأتباعه، وفيها حمامان ولا أسواق فيها ولا فنادق، وفيها مسجد جامع صغير مقتصد، وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان، ولها أربعة أبواب من قبولها ودبورها وغربها وشرقيها البحر وسور لا باب له. وحارة تعرف بحارة الصقالبة وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجلّ، ومرسى البحر بها وبها عيون جارية بينها وبين صقلية ومياه كالحد بينهما. وحارة تعرف بحارة المسجد المعروف بابن سقلاب وهي كبيرة أيضاً، وليس بها مياه جارية وشرب أهلها من الآبار وعلى طرفها الوادي المعروف بوادي عباس، وهو عظيم كبير ومطاحنهم عليه كثيرة وبساتينهم وأجنتهم غير منتفعة به. والحارة الجديدة وهي كبيرة تقارب حارة المسجد، وليس بينهما فرق ولا فاصلة ولا عليهما ولا على حارة الصقالبة سور.

وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة: كسوق الزّياتين بأجمعهم والدّقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة، وأسواق القمح والطرازيين والسمّاكين و الأبزاريين، وطائفة من القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة، وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة. وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم في المدينة برأس السماط ويجاورهم القطّانون والحلاّجون والحذاؤون وبها غير سوق صالح. ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أني حزرت المجتمع فيه إذا غصّ بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكل منها لا يزيد على مائتي رجل.

وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريهما عامرة، أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيّف وثلاثمائة مسجد، يتواطأ أهل الخبرة منهم في علمها ويتساوون في معرفتها وعددها، وبظاهرها مما حف بها ولاصقها وبين أجنتها وأبراجها، ومحال كانت متصلة بالأقرب فالأقرب منها على الوادي المعروف بوادي عباس، ومجاورة للمكان المعروف بالمعسكر في ضمن البلد

متبددة في فحص عباس، وبعضها في أثر بعض إلى المترل المعروف بالبيضاء، قرية تشرف على المدينة، وبينهما نحو نصف فرسخ وقد خربت؛ هلك أربابها بما دار عليهم من الفتن، يعرف ذلك جميعهم غير مختلفين في مقدارها، وإنها تزيد على مائتي مسجد. و لم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التي تستولي على ضعف مساحتها شبهاً، ولا سمعت من يدّعيه إلا ما يتذاكره أهل قرطبة من أن بها خمس مائة مسجد. و لم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة، وذكرته في موضعه على شك مني فيه، وأنا محققه بصقلية لأني شاهدت أكثره. ولقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد عبدالواحد بن محمد المعروف بالقفصي الفقيه الوثائقي، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري، ومنها شيء تجاه شيء، وبينهما عرض الطريق فقط، وسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم، كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته، وربما كانا أخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان، وقد عمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده. وفي جملة هذه العشرة المساجد التي ذكرتها مسجد يصلي فيه أبو محمد بن القفصي هذا، وبينه وبين دار ولد له يتفقه دون الأربعين خطوة، وقد ابتنى ابنه مسجداً إلى جانب داره وهو أحد حدودها الأول جديداً مغلق الباب أبداً، ويحضر أوقات الصلاة وهو جالس في دهليز داره المجاورة الملاصقة لمسجده، فلا يصلي فيه. وكأن رغبته كانت في ابتنائه أن يقال مسجد الفقيه بن الفقيه، وهو حدث له من نفسه محل عظيم وخطر جسيم، وكأنه لعظم خطره عنده أنه يظن أبو أبيه أو أنه بغير أب لبأوه وصلفه وحسن ركبته وزيّه.

وفي هذه الأربعين خطوة التي ذكرت بين مسجده ومسجد أبيه مسجد آخر مغلق له إمام وفيه مكتب. وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطّالين والفساق، ومتمرّدين شيوخ وأحداث اغثاث رثاث قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات، نقم مترلة وبلايا شاملة وحتوف مصبوبة منصوبة، وأكثرهم يقودون ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة، وأكثرهم بالزور تطوعاً يشهدون مع جهل لا يفرق فيه بين فرض الوضوء وسننه، ويقصدهم من أعوزه المكان لبطالته والموضع لعيارته فيؤونه وربما شاركوه بتافه من المأكول على أحوال يقبح ذكرها... وأحسب تأسيسها كان على غير التقوى حسب ما أسست عليه المساجد المتقدم ذكرها، فهارت وباد أهلها بما جنوه من الفتن والعصيان وشق عصا السلطان، والله أعلم. وكنت قد ذكرت أحوال الخالصة وأبوابها وما فيها، و لم أذكر بلرم وهي المدينة القديمة، وأشهر أبوابها باب البحر، وسمي بذلك لقربه من البحر، ويليه باب أحدثه أبو الحسين أحمد بن الحسن بن أبي الحسين لشكوى أهل هذه الناحية بُعد مخرجهم، فعمله على نشز مطل على نهر وعين تدعى عين شفاء، وبها يعرف هذا الباب وقتنا هذا ولمن قرب منه مرفق بهذه العين. ثم باب يعرف بشنتغات وهو باب قديم وإليه باب يعرف بباب روطه، وروطه نهر كبير يهبط من هذا الباب إليه، وأصله تحت هذا الباب وفيه ماء صالح عليه أرحية كثيرة متقاطرة. ثم باب الرياض وهو أيضاً محدث استحدثه أبو الحسين أحمد بن الحسن، وكان بجواره باب يعرف بابن قرهب في موضع غير حصين، وكانت المدينة قوتلت عليه قديماً فدخل على أهلها منه

معرّة وضرر جسيم، فسدّه أبو الحسين وأزاله. وبجواره باب الأنباء وهو أقدم أبوابها، وإليه باب السودان تجاه الحدادين ثم باب الحديد ومنه المخرج الى حارة اليهود، وإليه باب استحدثه أبو الحسين أيضاً، و لم يسمّ باسم ويخرج منه الى حارة أبي جمين، وجميعها تسعة أبواب.

وهذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقها الى غربها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة، عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة، ويطيف بها عيون كثيرة منصبّة من غربها الى شرقها، ويكون مقدارها ما يدير رحى وعلى مائها غير رحى تطحن في غير مكان، ويجاور مصب ماء هذه العيون من حيث بدء مسيلها الى حيث مصبها في البحر أراضٍ كثيرة، تغلب عليها السباخ وآجام فيها قصب فارسي، وبحائر ومقاث صالحة. وفي خلال أراضيها بقاعٌ قد غلب عليها البربير وهو البردي المعمول منه الطوامير، ولا أعلم لما من البربير نظيراً على وجه الأرض، إلا ما بصقلية منه وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس ولن يزيد على قلة كفايته. وشرب أهل المدينة وهم المجاورون لسورها من نحو باب الرياض الى نحو عين شفاء من مياه هذه العيون، وباقي أهلها وأهل الخالصة وجميع أهل الحارات شربهم من آبار دورهم خفيفاً كان أو ثقيلاً من الماء، ويلذ لهم على كثرة المياه العذبة الجارية عندهم، وذلك لكثر أكلهم البصل. وشرب أهل المعسكر فمن العين المعروفة بالغربال وماؤها صالح. وبالمعسكر عين تعرف بعين التسع دون الغربال في كثرة الماء، وعين تعرف بعين أبي سعيد دونها، وعين تعرف بعين أبي علي، وكان من بعض ولاتهم، فهي مضافة اليه. وشرب الناحية المعروفة بالغربية، فمن العين المعروفة بعين الحديد وهناك معدن للسلطان من الحديد يصرف ما يستثار منه لحاجته في مراكبه وقرسطياته، وكان هذا المعدن لبني الأغلب يجدي عليهم الكثير، وهو بقرب قرية تعرف ببلهرا، وفيها عيون وأنهار تتفجر منها وهي تمد وادي عباس وتقويه وهي كثيرة البساتين والكروم.

ويحيط بالبلد عيون غير مشهورة وينتفع بمياهها كالقادوس في ناحية القبلة، وبها الفوارة الصغيرة والفوارة الكبيرة على أنف الجبل من البلد، وهي أغزر عيونهم ماء وتنصرف هذه المياه الى أجنتهم. ولقرية البيضاء عين حسنة تعرف بالبيضاء وتصاقب الغربال والغربية، وشرب الناحية المعروفة ببرج البطّال من العين المعروفة بعين أبي مالك، وأكثر مياه الدبور من أراضي المدينة لأجنّتهم فبالسواني. ولهم أجنة كثيرة الخير وبساتين أعذاء بخوس لا تسقى كالشأم، وأكثر مياه البلد والحارات من الأبار ثقيلة غير مرئة، وإنما صرفهم الى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب قلة مروآتهم وكثرة أكلهم للبصل، وفساد حواسهم بكثرة تغذّيهم بالنيّ منه وما فيهم من لا يأكله كل يوم أو يؤكل في داره صباح مساء من سائر طبقاتهم، وهو الذي أفسد تخيلهم وضر أدمغتهم وحير حواسهم وغير عقولهم ونقص أفهامهم وبلّد معارفهم، وأفسد سحنة وجوههم وأحال أمزجتهم حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على خلاف ما هي به. ومما يؤيد قولي ويشهد ببرهانه ما حكاه يوسف بن ابراهيم الكاتب في كتاب "أخبار الأطباء" عند نزوله بدمشق على عيسى بن الحكم، وهو المسيح المتطبّب، قال: ذاكرتُه بالبصل فلم يزل في ذمّه ووصف معائبه، وكان عيسى وسلمويه بن بيان يسلكان طريق الرهبان ولا يحمدان شيئاً يزيد في الباءة



ويقولان إن ذلك يتلف الأبدان ويذهب الأنفس، فلم استحسن الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباءة، فقلت قد رأيت منه في سفري هذا منفعة، فسال عنها فقلت إني كنت أذوق الماء في بعض المناهل فأجده كريهاً، فآكل البصل وأعاود شربه فأجد حاله قد نقصت، وكان عيسى قليل الضحك فاستضحك من قولي ثم استرجع بجزع منه وقال: يعزز عليّ أن يغلط مثلك هذا الغلط لأنك صرت إلى أسمج نكتة في البصل، فجعلتها منقبة يا هذا، أليس متى حدث بالدماغ فساد فسدت الحواس حتى ينقص حس الشم وحس الذوق والسمع والبصر؟ فقلت: أجل. فقال: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، وإنما قلّل حسك لملوحة الماء ولكراهيته ما أحدثه البصل في دماغك من الفساد. وهذه قضية عقلية، فأما نتيجتها فليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفنّ من فنون العلم، ولا ذو مروؤة ولا متدين والغالب عليه الرعاع، وأكثر أهله سقّاط أوضاع لا عقول لهم ولا دين كامل، وأكثرهم برقجانة وموال يدعون ولاء قوم افتتحوها وقد هلكوا.

وحدّثني غير إنسان منهم أن عثمان بن الخرّاز ولي قضاءهم، وكان ورعاً قد ركن الى قوم منهم في العدالة والشهادة، ووقف آخرين عن قبولهم فرفعت اليه امرأة اعتورتها مطالبة في دار لها باطلة، فسألها البيّنة وادّعت ملك اليد الى شهود وشهادات معها وأحضرتهم عنده، فاستزادها شهوداً وكان يسكن الى شهادة أبي ابراهيم اسحاق بن الماجلي المعلّم، وكان له بأمرها علم وسألته إقامة الشهادة وهو ينكل عنها، الى أن ضمنت له رشوة رباعيات على إدائها، فشهد لها بذلك واتفق أن عثمان بادر بامضاء تنفيذ الحكم بشهادة اسحاق وعمل على التسجيل لها بذلك، وطلب اسحاق ما ضمنته المرأة له فدفعته وأبت أن تعطيه ما ضمنته له ظناً بحقها، وثقة أن الشهادة قد قامت وأنها لا تحتاج الى اسحاق ولا غيره، وأحضر الحاكم اسحاق ليبدأ بشهادته على نفسه بانفاذ الحكم للمرأة بشهادته فقال: أعزّ الله الحاكم هذه الشهادة أنا راجع عنها لأمور قد أشكلت عليّ منها، وكان الحاكم قد حفظ على اسحاق في الشهادة ما لا يجوز معه على الرجوع، فاستراب قصّته وكشف عنها بالفحص الشديد فظهرت له القصة على وجهها، فكان لا يقبل شهادته ولا شهادة غيره وخرّج جماعتهم وأسقط شهادتهم. وصارت أكثر احكامه جارية على الصلح وشك فيهم فلم تثنه اليهم رغبة ولا رهبة الى أن هلك بينهم وحضرته المنيّة فقال: ليس بجميع البلد من يوصى اليه؛ ودفع ديوانه الى رجل كان بها من الغرباء يعرف بالغضائري من أهل القيروان، وكان يزكيه. وظهرت هذه القصة لأهل البلد فكانت إحدى وسائل ابن الماجلي في إجلابهم واختيارهم له وتصييره حاكماً عليهم وخطيباً لهم، رغبة من بعضهم في مظاهرته على ما يرجوه من الخيانة. وكان اسحاق على قولهم خفيف الوزن شديد الجهل كثير الاعجاب بتخلّفه، غير ركيز ولا مهيب ولا في سمت القضاة، وحسبك بمعلم برقجاني جعل قاضيا.

وحدّثني رجل من المقيمين بها يعرف بأبي الحارث فحل بن فلاح اللهيصي ثم الكتامي، ورأيته يخبر كثيراً من أخبار البلد أنه كان ورجل سمّاه بين يدي اسحاق بن الماجلي بعد أن ولي الحكم بها يوماً وهو في محراب الجامع جالساً وبيده قضية لهما في مهر وهو مقبل على قراءتها، فكلما مرّ له فصل داوم على تقريظه لحسن ما تأتي له من المعاني الجيدة والشروط البديعة واستيفاء أسباب البلاغة، وهما سكوت وهو مع كل فصل يفعل

ذلك إلى أن قام من المحراب وكان فيه متصدراً كالقضاة، فجلس بين أيديهما ولم يزل يقرأه ويعيد وصفه ويقول: ما أراكما تسمعان هذه الحكومة التي ما حكم بمثلها والله أحد على وجه الأرض؟ وأعاد قراءتها ثم رجع الى مكانه من المحراب. قال: وكان ربما مد يده الى الخصوم بالضرب. وأخبرني جماعة منهم أن رجلاً تقدّم اليه بخصم له فراجعه في مناظرته، وكان بين يديه مقصّ كبير فأخذه وأومأ به الى الرجل ليضربه في وجهه، فأقبل الرجل على نعل اسحاق وكانت بين يديه، فتناولها، فقال: ولِمَ مسست نعلي لتضربني بها؟ فقال: لا ولكن خشية أن تقصد بالمقص وجهي لأتقي بها منك. وله أخبار كثيرة في أنواع من الجنون والخباط، كان من مجانين المعلمين وحمقاهم وكان من كبارهم وعليتهم. والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان، وهم فيه على طبقات مختلفة، ومنازل شتى متباينة من الصراع والخباط على ما يفوق جنون معلمي كل بلد وحمق كل ناحية، حتى أنهم المتكلمون على السلطان في سيره واختباراته والاطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعائبه وإضافة محاسنه الى قبائحه. وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم ولم ينقص من ذلك إلا القليل، وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن ولا في بلد من البلدان، وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد. وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحادّ العدو والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً منذ فتحت صقلية، وولاتهم لا يفترونه، وإذا نفروا لم يفتروا بالبلد أحداً إلا من بذل الفدية عن نفسه، أو اقام العذر في تخلفه مع رابطة السلطان، وكان قد سبق الرسم باعفاء المعلمين قديماً بينهم من النوائب، وحملت عليهم المغارم، ففزع الى التعليم بُلههم وحسّنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه؛ فإن فيهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جميع صبيانه وهم كثير عشرة دنانير، فأي منزلة أقبح وصورة أخسّ وأوقح من رجل باع ما اوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزّه بأخس منزلة واوضح حرفة واسقط صنيعة؟ على أنها في أعيان البلاد مع تخريج أولاد السراة وأهل الامكان عنصر الخذلان ومظانُّ الحرمان، وبالاجماع منهم ومن كل انسان أن المعلم احمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفّة وقلة العقل.

ومن أعظم الرزيّة وأشد البلية وأقطع النازلة أن جميع أهل صقلية، لصغر أحلامهم ونقص درايتهم وبعد أفهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصّلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام، وتعقد الاحكام، وتنفذ الشهادات، وهم الادباء الخطباء. ولقد رأيت ولداً كان لاسحاق بن الماجلي المعلم القاضي المتقدم ذكره يخطبهم نحو حولين، يجزم الاسماء مع الصلة، ويجرّ الأفعال من أول خطبته الى آخرها. وخاطبت أديباً كان من أهلها يسعى ويدّعي الدراية بجميع الأحوال، وقد نصب هذا الخطيب ما لم يسم فاعله أو رفع منصوباً، وأظنه كان مفعولاً به فقلت: أما سمعت الخطيب، وما كان منه؟ وذكرته له وقد ذهب عني اللفظ فقال: كأنه والله يا سيدي كما تقول، غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا.

ومن كبائر المذكورين من المعلمين بها في السير والعدالة، وهو بالضد للغباء والجهالة وأشدهم تقدماً عندهم أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مطر، المعلم في مسجد الزهري بالسماط وقد سافر يشرّق، ودخل

المشرق، وكتب الحديث. وأبو الحسن علي بن بانة المعروف بابن ألف سوط وهو إليه في العدالة، ويراه قوم منهم فوقه في العلم والفقه وظلف النفس، وكلاهما غبي عم ناقص رزيُّ المنظر والمخبر. وحدثني أبو عبدالله محمد بن عيسى المعروف بالناشئ القروي المتكلم، وكنا معاً بصقلية قال: بينا أنا واقفاً بالسماط بقرب مكتب ابن مطر أحادث إخواناً لي إذ وقف بهم ابن مطر، فسلموا عليه وسلم عليّ فرددت عليه، وأخذ في صفتي وما اعتقده باقبح عبارة وأبشع لفظ وإشارة، وقال في خلال قوله لي: يعزز عليّ بعدك عن الحق، فقلت: لعن الله أبعدنا عن الحق، وأقلنا علماً به، فالتاث لونه وتغير فقال له القوم: قد انصفك لأنه إنما لعن الابعد من الحق، و لم يقصد إلا الأقل علماً بالله، فقال: الست عراقي المذهب؟ فقلت: لا، وذلك أن أهل العراق يدّعون مرجئة، وإنما وسموا بذلك لتركهم القطع على أهل الكبائر بالخلود، وأخذت أصف المسئلة بيننا وبينهم فقال: ما أرى قولكم إلا قريباً من قولنا. فقلت: يا هذا إنما أصف لك رأي أهل العراق المذموم عندي وأنا ضدهم. فقال: وكيف؟ فقلت: نحن نقطع على تخليد أهل الكبائر في النار. فقال: ما ظننت يقول بهذا غير أهل العراق. وهو يجهله صباح مساء يكفرهم في كل مقعد ومشهد ويكفر المعتزلة ولا يعلم اعتقادها بين الفرقتين التي هي أشهر أهل المذاهب، ويطلق اللعن عليهما وهو لا يفرق بين الوعيدي من المرجئ، وهذه المترلة أعلى منازل البله. ورحم الله ناقلاً فلقد ظلمه نقله الأخبار بقطعهم عليه بالانفراد بالجهل.

وكنت جالساً بصقلية يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة اثنتين وستين (= وثلاثمئة) على دكان المعروف بابن الانطاكي في سماط بلرم، وكان يوماً مطيراً في الساعة السادسة وعلي القيام الى الجامع وابن الأنطاكي معاً، والجامع منا على غلوة، إذ أقبل ابن ألف سوط من نحو الجامع ومترله بالقرب منه فقلنا: إلى أين؟ فقال: قد صلى الناس وأنا أمضي أتقدم لاشهد جنازة الخطيب. وكان ابن الماجلي الخطيب الذي قدمت ذكر تخلفه توفي ليلة الجمعة هذه، ومضى يريد باب البحر وأطال، ثم رجع وقد أئسنا من الصلاة. فقلنا: إلى أين؟ فقال: بلغني أنهم ما صلوا بعد فعدت لعلي الحق الصلاة. ومضى فبقينا حيارى في أمره نتعاود قلة تحصيله وما يدفع الناس اليه في شهادة مثله إذ أقبل فقلنا: هيه! فقال: قد صلّوا وأنا ماض لأصلي في المصلى! وهذا الرجل عندهم أثبت القوم عدالة وأشفههم مترلة وهذه صورته... ومن أرثّ ما رأيته بها وأغثّه خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان، شركاء متشاكسون على باب عين شفاء يرؤسهم شيخ يعرف بالملطاط: جبس ضبس أشقر أزرق من أقدم الناس على شهادة زور، وولدان له ورجل يعرف بابن الوداني، وآخر يدعى بأخي رجاء على مراتب في شركتهم. وخرجت من صقلية وقد مات ابن الوداني فلو شاهدهم أكثر الناس حزناً وأشدهم إخباتاً وسمتاً عند وفاته، وتفجّعهم له وحنينهم عليه وتساكرهم في بكائهم عند عزائهم، لقهقه وضحك أو أبلس لجهلهم كالمرتبك. وأما حال يسارهم فإنهم مع قلة مؤنهم ونزور نفقاتهم وكثرة غلاتهم ليس فيهم رجل ملك بدرة عين، ولا رآها قط إلا عند سلطان إن كان ممن يدخل اليه ومحله محل من يؤذن له عليه. وبالأموال والجبايات واليسار يعتبر أحوال أهل المدن والكور والأقاليم، وكذلك النبل والفضل الى غير ذلك مع أن مال جزيرة صقلية وقتنا هذا وهو أجلّ أوقاتها وأكثره وأغزره بأجمعه من سائر وجوهه وقوانينه خمسها

ومستغلاتها، ومال اللطف والجوالي المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهل قلورية وقبالة الصيود، وجميع المرافق وجهاتها.

فأما غلاّتها وخصبها وما هي عليه في أسباب المآكل والمشارب، فالخصب والسعة قديماً وفيما مضى، ودخلتها وقد استحالت جميع أمورها من الخصب الى الجذب، وخلق أربابها من أهل باديتها فكأرباب الجزائر العجم الغُتم الصم البكم، وسكانها الذين لم يصفهم الأسفار من وراء بهيمة غامرة لألبابهم وغفلة عن الحقوق والمواجب ظاهرة في معاملاتهم، وقول من الحق بعيد وشنآن للغريب والطارئ عليهم عظيم شديد، لا يألفون ولا يؤلفون آخذين لذلك عن حاضرتهم لأنهم أيضاً في بغض التجار والغرباء المجهزين بمنزلة ليست لجيل من أجيال العالم الجُفاة، ولا في أهل الجبال الاجلاف الجساة مع قوام مصالحهم بالجلاّبين وفقرهم وفاقتهم الى المسافرين، لأنها جزيرة لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح والصوف والشعر والخمر وصبابة من القند، الى شيء من ثياب الكتان. والحق فيها أحق أن يتّبع فإنه لا نظير لها الجودة ورخصاً. ويباع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعياً الى ستين رباعياً، فيزيد على ما يشترى من أمثاله بمصر بالخمسين والستين ديناراً كثيراً. وجميع ما تقع اليه الضرورات وتدفع الحاجة اليه من سائر الطلبات مجلوب الى بلدهم ومحمول الى جزيرتهم. وقد جمعت مع فساد عقول أهلها وأديانهم فساد التربة والقمح والحبوب، ولا يحول الحول عليها عندهم إلا وقد فسدت وربما ساست في الأنادر قبل دخول المطامير والأهراء، وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود ولا ظلمة منازلهم وسوادها سواد الأتاتين والأفران، وأجلّهم منزلة يسرح الدجاج على مقعده وتذرق الطيور على مصلاّه ومخدّته.)

كشفت لنا شهادة ابن حوقل واقع الحياة الاجتماعية والتعليمية في صقلية، ومع أنه كان متبرما وهو يصف انهيار القيم العلمية فيها، لكن شهادته الحية المبكّرة التي تعود إلى أواسط القرن الرابع تكتسب قيمة، فلابن حوقل مكانة خاصة بين الجغرافيين المسلمين ووصفه للحياة الفكرية في صقلية يسلط الضوء على جانب مهم من جوانب الحياة في هذه الجزيرة التي نبدأ اعتبارا من نص ابن جبير الآتي في التعرّف إليها برفقة رحّالة كبير، رحّالة أقل ما يمكن وصفه به، أنه يمتاز بقوة ملاحظة نادرة، ونثر أدبي بليغ يتمرد على تقاليد النثر العربي الكلاسيكي الذي ضربه التصنّع في عصر ابن جبير. يكفينا هنا أن نقف على ماكتبه عن صقلية، وسنعود بعد ذلك إلى كشف الأبعاد التي تتصف بها النصوص الأخرى التي خُصصت لمناطق مختلفة.

24. وصف مدن صقلية، ابن جبير (614هـ = 1217م) من كتاب (رحلة ابن جبير)

(مدينة مسينة من جزيرة صقلية: هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا تُوجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه

واليد واللسان، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها، والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها. ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها إلى البر خشبة يتصرف عليها، فالحمّال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في وسقها ولا في تفريغها إلا ما كان مرسيا على البعد منها يسيراً، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها، وذلك لإفراط عمق البحر فيها، وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة، بمقدار ثلاثة أميال، ويقابلها منه بلدة تعرف برية، وهي عمالة كبيرة. وهذه المدينة: مسينة، رأس جزيرة صقلية، وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع، وتسميتها تطول. وطول هذه الجزيرة: صقلية، سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام، وبها جبل البركان المذكور، وهو يأتزر بالسحب لإفراط سموه ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما، وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها، ويرتعون في أكنافها. والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، وقد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها، والله عز وجل يصلح أحوالهم، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم، بمنه. وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والأجاص وغيرها من الفواكه.

وليس في مسينه هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب، وأحسن مدنها قاعدة ملكها، والمسلمون يعرفونها بالمدينة، والنصارى يعرفونها ببلازمة، وفيها سكنى الحضريين من المسلمين، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختص بهم في الأرباض كثير. وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها. لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام (= وليام الثاني ملك صقلية للمدة 1166 - 1189م) أكبرها وأحفلها وبعدها مسينة... وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أهل دولته والمرتسمون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والأتباع. ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة، ولا سيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة. وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر. وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجواري. وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه، ووضع أساليبه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهة الملك، وإظهار زينته بملوك المسلمين، وملكه عظيم جدا. وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى

يسليه عن وطنه، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنّهُ. وسنه نحو الثلاثين سنة، كفى الله المسلمين عاديته وبسطته. ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته، على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به: الحمد لله حق حمده. وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه.

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور، وهو يحيي بن فتيان الطراز، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك: أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة. وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك. فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكينا لهم. وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجّراً، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلّفاً، ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع. وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم. لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح، من وجوههم وكبرائهم، بعد تقدمة رغبة منه إلينا في ذلك، فاحتفل في كرامتنا وبرّنا، وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه. فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام، فأخبرناه، وهو يذوب شوقاً وتحرقاً، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله، ورغب في أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك. وقال لنا: أنتم مدلون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم. ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا، معتقلون في ملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج، واستهداء أدعيتهم، والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة، لنتخذها عدة للإيمان، وذخيرة للأكفان، فتفطرت قلوبنا له اشفاقاً ودعونا له بحسن الخاتمة، واتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه. وأبلغ في مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمناه سائر اخوانه من الفتيان ...

فكان نزولنا في أحد الفنادق، وأقمنا بها تسعة أيام، فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر للشهر المبارك (=رمضان من عام 581هـ) والثامن عشر لدجنبر، ركبنا في زورق متوجهين إلى المدينة المتقدم ذكرها، وصرنا قريبا من الساحل بحيث نبصره رأي العين، وأرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق أهنأ تزجية ،وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في فتن الجبال مشرفة، وأبصرنا عن يمننا في البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة: على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها، تخرج منهما النار دائما، وأبصرنا الدخان صاعدا منهما، ويظهر بالليل ناراً حمراء ذات السن تصعد في الجو، وهو البركان المشهور خبره، وأعلمنا أن خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة تكون عنه النار، وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقي به في الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار

والانتهاء إلى القعر، وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة. وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة، المعروف بجبل النار، فشأنه أيضا عجيب، وذلك أن ناراً تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم، فلا تمر بشئ إلا أحرقته حتى تنتهي إلى البحر فتركب ثبجه على صفحة حتى تغوص فيه، فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته، لا إله سواه..إلى أن حللنا عشي يوم الأربعاء، بعد يوم الثلاثاء المؤرخ، مرسى مدينة **شفلودي**، وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى.

وهي مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة أشجار الأعناب وغيرها، مرتبة الأسواق، تسكنها طائفة من المسلمين، وعليها قنة جبل واسعة مستديرة، فيها قلعة لم ير أمنع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين، نصرهم الله. وكان اقلاعنا منها نصف الليل، فجئنا مدينة **ثرمة** ضحوة يوم الخميس بسير رويد. وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا، فانتقلنا فيها من ذلك الزورق إلى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين الذين صحبونا فيه من أهلها. وهي أحسن وضعا من التي تقدم ذكرها، وهي حصينة، تركب البحر وتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد، ولها قلعة سامية منيعة. وفي أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام. وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية. والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله في الخصب وسعة الأرزاق. فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور، ونحن قد أرسينا في واد بأسفلها ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه. وبتنا بها ليلة الجمعة، ثم انقلب الهواء غربيا، فلم نجد للإقلاع سبيلا، وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفة عند النصارى **ببلارمة** (= باليرمو) خمسة وعشرون ميلا، فخشينا طول المقام، وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل في قطع المسافة في يومين، وقد تلبث الزوارق في قطعها، على ما أعلمنا به، العشرين يوماً والثلاثين يوماً ونيفاً على ذلك. فأصبحنا يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير في البر على أقدامنا، فنفذنا لطيتنا وتحملنا بعض أسبابنا وخلفنا بعض الأصحاب على الأسباب الباقية في الزورق، وسرنا في طريق كأنها عمارة وكثرة صادر ووراد، وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا، فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل، عصم الله جميع أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، من الفتنة بهم بعزته ومنه، فانتهينا إلى قصر سعد، وهو على فرسخ من المدينة، وقد أخذ منا الإعياء فملنا إليه وبتنا فيه.

وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل ولا يزال، بفضل الله، مسكنا للعباد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين: أهل الزهادة والورع، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان، وبإزائه عين تعرف بعين المجنونة، وله باب وثيق من الحديد، وداخله مساكن، وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة، وهو كامل مرافق السكني، وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، مستطيل ذو حنايا مستطيلة، مفروش بحصر نظيفة، لم ير أحسن منها صنعة، وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصفر والزجاج، وأمامه شارع واسع يستدير بأعلى القصر، وفي أسفل القصر بئر عذبة فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه، وسمعنا الأذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه. وأكرمنا القوم

الساكنون فيه. وله إمام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك. وبمقربة من هذا القصر، بنحو الميل إلى جهة المدينة، قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر، وداخله سقاية تفور بماء عذب. وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى، ولهم في مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك، فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر.

فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة فجئنا لندخل، فمُنعنا وحُملنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجي، أراح الله المسلمين من ملكته، وأدينا إلى المستخلف من قبله ليسألنا عن مقصدنا، وكذلك فعلهم بكل غريب، فسلك رحاب وأبواب وساحات ملوكية، وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لأهل الخدمة ما راع أبصارنا وأذهل أفكارنا، وتذكرنا قول الله عز وجل"ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفا من فضة ومعارج عليها يظهرون"وأبصرنا فيما أبصرناه مجلسا في ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان وانتظمت جوانبها بلاطات، والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها، فعجبنا من طوله وأشراف مناظره، فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه. وأهل الخدمة والعمالة أمامه. فخرج الينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله، فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة، فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربي لين، فأعلمناه، فأظهر الإشفاق علينا، وأمر بانصرافنا بعد أن أحفى في السلام والدعاء، فعجبنا من شأنه.

وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه، فلم يكن عندنا ما نعلمه به.. وكان من أغرب ما شاهدناه من الأمور الفتانة أن أحد من كان قاعداً عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور: تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال الممكسين لئلا يقع عليكم. وظن أن عندنا تجارة تقتضي التمكيس. فاستجاب له أحد النصارى، فقال: ما أعجب أمرك، يدخلون حرم الملك، يخافون من شئ، ما كنت أود لهم إلا آلافا من الرباعيات، امضوا بسلام لا خوف عليكم. فقضينا عجبا مما شاهدناه وسمعناه. وخرجنا إلى أحد الفنادق فنزلنا فيه، وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك، والثاني والعشرين لدجنبر، وفي خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة، وهو مسقف، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء. فاعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة.

ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية: هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان، يشقها نهر معين، ويطرد في جنباتها أربع عيون، قد زخرفت فيها لملكها دنياه، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجي أباده الله، تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب، فكم له فيها، لا عمرت به، من مقاصير ومصانع، ومناظر ومطالع، وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها،

ورفه بالأقطاعات الواسعة رهبانها، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها، وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان، فيعيدها دار إيمان، وينقلها من الخوف للأمان، بعزته، أنه على ما يشاء قدير. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه.

ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة، والشئ قد تشبه بالشئ من إحدى جهاته، أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في وسط المدينة الحديثة، وعلى هذا المثال موضوع قرطبة، حرسها الله. وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة لها مناظر في الجو مطلة تحار الأبصار في حسنها. **كنيسة الإنطاكي**: ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي، أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالا ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها، وأعلمنا أن بانيها الذي تنسب إليه انفق فيها قناطير من الذهب، وكان وزيرا لجد هذا الملك المشرك، ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت قبة على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السواري، وهي من أعجب ما يبصر من البنيان، شرّفها الله عن قريب بالأذان، بلطفه وكريم صنعه. وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين: فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر. فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر:

إن منْ يدخل الكنيسة يوماً ... يلق فيها جآذراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، ويؤدي إلى أباطيل اللهو، ونعوذ به من تقييد، يؤدي إلى تفنيد، إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة. فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام، ونزولنا بها في أحد فنادقها التي يسكنها المسلمون، وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثاني والعشرين لهذا الشهر المبارك، والثامن والعشرين لشهر دجنبر، إلى مدينة **أطرابنش**، بسبب مركبين بها: أحدهما يتوجه إلى الأندلس والثاني إلى سبتة،

وكنا أقلعنا إلى الاسكندرية فيه، وفيهما حجاج وتجار من المسلمين، فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة، وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً، فشبهناها بقنبانية قرطبة، أو هذه أطيب وأمتن. وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف **بعلقمة**، وهي كبيرة متسعة، فيها السوق والمساجد، وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون، وقمنا منها سَحَر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك، والتاسع والعشرين لدجنبر، فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة، وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة، وقد فجرها الله ينابيع في الأرض وأسألها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرها، فأجزنا منها واحدة على الطريق، فنزلنا إليها عن الدواب وأرحنا الأبدان والاستحمام فيها.

ووصلنا إلى أطرابيش عصر ذلك اليوم، فنزلنا فيها في دار اكتريناها. وهي مدينة صغيرة الساحة، غير كبيرة المساحة، مسورة بيضاء كالحمامة، مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب، ولذلك يقصد الروم كثيراً إليها ولا سيما المقلعون إلى بر العدوة، فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة، فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفاً إلا ريثما تهب الريح الموافقة، فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب. وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع ما يحتاج اليه من مرافق المدن، لكنها في لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات، واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة، والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات، فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها وإن تراخى مدى أيامها، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لأنها على محرث عظيم، وسكانها المسلمون والنصاري، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس، وبركها من جهة الشرق مائلا إلى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع في أعلاه قنة تنقطع عنه، وفيها معقل للروم، وبينه وبين الجبل قنطرة، ويتصل به في الجبل للروم بلد كبير، ويقال إن حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة، جعلها الله سببا للمسلمين. وبهذا الجبل الكروم والمزارع، وأعلمنا أن به نحو أربع مئة عين متفجرة، وهو يعرف بجبل حامد، والصعود إليه هين من إحدى جهاته، وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة، إن شاء الله، ولا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد إليه، ولذلك أعدّوا في ذلك المعقل الحصين، فلو أحسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه وقطعوا القنطرة. واعترض بينهم وبين الذي في أعلاه متصل به خندق كبير. وشأن هذا البلد العجيب، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره، وأطرابنش في هذا البسيط ولا ماء لها إلا من بئر على البعد منها، وفي ديارها آبار قصيرة الأرشية ماؤها كلها شريب لا يساغ. وألفينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع إلى المغرب بها، ونحن، إن شاء الله، نأمل ركوب أحدهما، وهو القاصد إلى بر الأندلس، والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنّه. وفي غربي هذه البلدة: أطرابنش المذكورة، ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها، وهي صغار متجاورة: إحداها تعرف بمليطمة، والاخرى بيابسة، والثالثة تعرف بالراهب، نسبت إلى راهب يسكنها في بناء أعلاها كأنه الحصن، وهي مكمن للعدو، والجزيرتان لا عمارة فيهما، ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور.

شهر شوال: استهل هلاله ليلة السبت الخامس من يَنَيْر بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكورة بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس، ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها، فعيَّد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور، وكان مُصَلاّنا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلّى لعذر كان لهم. فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب إلى وطنه، وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات، فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه. ونحن قد اتفق كراؤنا في المركب المتوجه إن شاء الله إلى بر الأندلس، ونظرنا في الزاد، والله المتكفل بالتسيير والتسهيل. ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الأسطول الذي يعمّره ويعدّه، فليس لمركب سبيل للسفر إلى أن يسافر الأسطول المذكور، خيب الله سعيه ولا تمم قصده. فبادر الروم الجَنَويّون، أصحاب المركبين المذكورين، إلى الصعود فيهما تحصّنا من الوالي، ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه فأقاموا بمركبيهم ينتظرون هواء يقلعون به. وفي هذا التاريخ المذكور وصلتنا أخبار موحشة من الغرب، منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية، والله لا يحقق ذلك، ويجعل العاقبة والهدنة للمسلمين بمنه وكرمه.

والناس في هذه المدينة يرجمون الظنون في مقصد هذا الأسطول الذي يحاول هذا الطاغية تعميره، وعدد أجفانه، فيما يقال، ثلاث مئة: بين طرائد ومراكب، يقال: أكثر من ذلك، ويستصحب معه نحو مئة سفينة تحمل الطعام، والله يقطع به ويجعل الدائرة عليه. فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية، حرسها الله وعصمها، ومنهم من يقول: إن مقصده ميورقة، حرسها الله، ومنهم من يزعم أن مقصده أفريقية، حماها الله، ناكثا لعهده في السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب. وهذا أبعد الظنون من الإمكان لأنه مظهر للوفاء بالعهد، والله يعين عليه ولا يعينه، ومنهم من يرى أن احتفاله إنما هو لقصد القسطنطينية العظمى بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشان، المهدي للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان، وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بصدق البرهان، وذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفى وترك الملك بعده لزوجه ولها ابن صغير، فقام ابن عم له في الملك وقتل الزوج المذكورة، وثقف الابن المذكور، ثم ابناً للثائر المذكور عطفته الرحم على الابن المعتقل فأطلق سبيله، وكان أبوه قد أمره بقتله، فرمت به الاقدار إلى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه، فوردها على حالة ابتذال، ومهنة استعمال، خادما لأحد الرهبان، مسدلا على شارته الملوكية ستراً من الامتهان، ففشى الأمر، وذاع السر، ولم يغن عنه ذلك الستر. فاستحضر عن أمر الملك الصقلي غليام، المذكور قبل، واستنطق واستفهم، فزعم أنه عبد لذلك الراهب وخديمه، ثم إن طائفة من الروم الجَنويّين المسافرين إلى القسطنطينية أثبتوا صفته وحققوا أنه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لا حت منه: منها، فيما ذكر لنا، أن الملك غليام خرج في يوم زينة له وقد اصطف الناس للسلام عليه وأحضروا الفتى المذكور في جملة الخاصة، فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطوعه عليهم ألا ذلك الفتى فإنه لم يزد

على الايمان في السلام، فعلم أن الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة، فاعتنى به الملك غليام وأكرم مثواه وأذكى عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه...

الفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى محققين له لا شك عندهم فيه، أنبأت به مراكب الروم التي وصلت من القسطنطينية. وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة، عما عتدنا من خبر القسطنطينية، فلم يكن عندنا علم ولا تعرفنا معنى السؤال عنها إلا بعد ذلك. وتحققوه أيضا من جهة ملك هذا الصبي وما كان من اتباع الثائر عليه إياه عيونا يروم اغتياله. فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه، لا يكاد يصل لحظ العيون إليه. وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا، محتدم حمرة الشباب، صقيل رونق الملك، عليه ناظر في علم اللسان العربي وغيره، بارع في الأدب الملوكي، ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته. فالملك الصقلي على ما يذكر يروم توجيه الأسطول المذكور إلى القسطنطينية أنفة لهذا الصبي المذكور، وماجرى عليه، وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد فالله عزّ وجل ينكصه خاسراً على عقبه، ويعرّفه شؤم مذهبه، ويجعل قواصف الرياح خاسفة به، إنه على مايشاء قدير. وهذا الخبر القسطنطيني، حققه الله، من أعظم عجائب الدنيا وكوائنها المرتقبة، ولله القدرة البالغة في أحكامه وأقداره.

شهر ذي القعدة: استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ونحن بمدينة اطرابنش، المتقدم ذكرها، منتظرين انسلاخ فصل الشتاء وإقلاع المركب الجنوي الذي أملنا ركوبه إلى الاندلس، إن شاء الله عز وجل، والله سبحانه يُمّن مقصدنا ويُيسّر مرامنا بمنّه وكرمه. وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس، تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها، دمرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة، وغلظة الملك، الى طوارئ دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم. وربما تسبب إلى بعض اشياخهم أسباب نكالية تدعوه إلى فراق دينه، فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هي حضرة ملكهم الطاغية، ويعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية، ومهر في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية، وربما طرأ حكم إسلامي فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين، وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة، ومع ذلك فاعلمنا أنه يكتم إيمانه. فلعله داخل تحت الاستثناء، في قوله"ألا من أكره قلبه مطمئن الإيمان".

ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم بن حمود، المعروف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر، وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح، مريد للخير، محب في أهله، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى، وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج، إلى مآثر جمة، ومناقب كريمة، فارتجت هذه

المدينة لوصوله، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين أيدهم الله، فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال، فاتفق في هذه الايام رضي الطاغية عنه وأمره بالنفوذ لمهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ الملوك المغلوب على نفسه وماله، وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكي العيون دما ويذيب القلوب ألما. فمن ذلك أنه قال: كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى الحصول في بلادالمسلمين، فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه الى ان يتمنى مثل هذا التمني مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات. فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة. وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدي الله عز وجل. وفارقناه باكيا مبكيا واستمال نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ورزانة حصاته وشمول مبّرته، وتكرمته وحسن خلقه وخليقته. وكنا قد ابصرنا له ولإخوته ولإهل بيته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة الانيقة وشأنهم بالجملة كبير لا سيما هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد، والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الاوفى عليها بمنه.

ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه أو تغضب المرأة على ابنتها فتحلق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصّر ويتعمّد فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم للبنت سبيلا فتخيل حال من يُمنى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مدارات الأهل والولد خوف هذه الحال. وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش من المسلمين في المدة السالفة فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعدالشيء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم، وفرّ منهم من قضى الله بنجاته، وحقّت كلمة العذاب على الكافرين، والله غالب على أمره لا اله سواه. ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أبادهم الله أنهم يزعمون أنه لو تنصّر لما بقي في الجزيرة مسلم الا وفعل فعله اتباعا له، واقتداء به. تكفل الله بعصمته جميعهم ونجّاهم مما هم فيه بفضله وكرمه.

ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغبا في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فإن رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيه وأخوتها طمعا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين فطاب الأب والأخوة نفْسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم إذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك وأعانه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة. وطال عجبنا

من حال تؤدي بانسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها الى يد من يغربها، واحتمال الصبر عنها، ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها كما أنّا استغربنا حال الصبية صانها الله، ورضّاها بفراق من لها رغبة في الاسلام واستمساكا بعروته الوثقى، والله عز وجل يعصمها ويكفلها، ويؤنسها بنظم شملها ويجمل الصنع لها بمنه. واستشارها الاب فيما هم به من ذلك. فقالت: إن امسكتني فأنت مسئول عني. وكانت هذه الصبية دون أم ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها

شهر ذي الحجة: غم هلاله علينا لتوالي الأنواء فأكلمنا أيام شهر ذي القعدة بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة طامعين في قرب السفر مستبشرين بطيب الهواء، والله ييسر مرامنا ويتكفل بسلامتنا بعزته، واتفق أن ابصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيرا فعُلم أنه من ليلة الثلاثاء فانتقل حساب الشهر اليها. وفي ظهر يوم الاربعاء التاسع من الشهر المذكور والثالث عشر من مارس، وهو يوم عرفة، عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات، كان صعودنا الى المركب يمّنه الله ورزقنا السلامة فيه، مبيتين للسفر، قرّب الله علينا مسافته. فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة يوم عيدالاضحى، نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه، ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين، عصم الجميع ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه، إنه سبحانه كفيل بذلك. ورُمنا الاقلاع فلم توافق الريح، فلم نزل نتردد من المركب إلى البرّ، ونبيت السفر كل ليلة اثني عشر يوما إلى أن أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين لذي الحجة المذكور، والخامس والعشرين لمارس، فاقلعنا على بركة الله تعالى في ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب في الجري وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر، فوصلنا إلى جزيرة الراهب..وبينها وبين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا، فتغيرت الريح علينا، فملنا إلى مرساها...).

كشف لنا ابن جبير وقفة متأن على الحياة في صقلية التي بدت ساحرة من وصفه الخلاب لها، والأمر الذي يلاحظه كل قارئ لهذه الرحلة هو الإعجاب الذي يمتزج بالتحسر، الإعجاب بأهل الجزيرة وحياتهم وملكهم، والتحسر على كونها خارج دار الإسلام، فابن جبير يمنّي نفسه بان تنظمّ صقلية ثانية إلى العالم الذي يراه جديرا بها، وحيثما استثاره موقف تنشط في نفسه تلك الرغبة. والواقع فهذا النص يصلح أن يكون مرثاة للأمل الضائع، والتمنيات الخاسرة. وإذا كان ابن جبير قد مخر البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب مارا بصقلية، فإن سلفا له هو الطرطوشي قد قام برحلة في البر الأوربي فقدم وصفا مبكّرا لمساره من الغرب إلى الشرق، إذ اخترق أوربا مارا بوسطها في رحلة لا تدّخر وسعا في التفصيل بكل مايستحق الاهتمام.

لم تحظ رحلة الطرطوشي بشهرة نظيراتها كرحلة ابن فضلان وابن بطوطة، لكنها مثل رحلة أبي دلف التي سنوردها فيما بعد تنطوي على ملاحظات قيّمة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أوربا، ملاحظات دقيقة تبدأ باقليم الباسك وتنتهي ببلاد الصقالبة، ويعرّج في أثناء ذلك على كثير من المناطق والبلدان الأوربية. وتكمن القيمة الفعلية لرحلة الطرطوشي (التي قام بها نحو عام 965م) في بُعدها الوثائقي الدقيق، واهتمامها بتفاصيل دقيقة يجعلها مدونة ثرية لمعرفة قلب الشمال خلال القرن العاشر الميلادي. وهي تورد قوائم بأهم

الأقوام والقبائل والملوك في ذلك القرن، وقد عاش الطرطوشي في الاندلس في القرن الرابع الهجري، ويحتمل أن يكون تاجرا ارتحل في تلك الأصقاع، وعرفها عن كثب، ويلاحظ أن البكري يمزج بين مرويات الطرطوشي وكتّاب آخرين كالمسعودي، ولكن النص يبقى محافظا على قيمته التاريخية التي تؤكدها نظرة الطرطوشي الخاصة لبلاد الشمال.

25. غرب أوربا، ووسطها، وشرقيها. الطرطوشي، عن كتاب (المسالك والممالك) للبكري.

(قال إبراهيم (= الطرطوشي): **بلد الجلّيقيّين** (= الباسك) سهل جميعه، والغالب على أرضهم الرمل، وأكثر قوتهم الدخن والذُّرة، ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتّخذ من الدقيق. وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد. ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب، وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم. ولهم بأس شديد، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب ويرون الموت دونه.

بلاد إفرنجة: في وسط الإقليم الخامس، وهواؤها غليظ لشدة بردها، ومصيفها معتدل. وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار، منبعثة من ذوب الثلج. ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء، وآخر حدودها بحر الشام، وحدُّه آخر البحر المحيط، البحر الشامي بقبلّيها والبحر المحيط بجوفيها. ويتصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية الجوف بلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفّة، مسيرة الأيام الكثيرة، ويتّصل بالشرق أيضاً بالصقالبة ويتصل بالغرب بالبشكنس، ويتصل أيضا ببلاد بيوره وهم الذين يعرفون بالأمانيس، ولهم كلام غير كلام الإفرنج. وتتمادى إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين مع غيرها من القبائل. ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلد الصقالبة في الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين، فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلي الشامي حتى يلتصق بجزيرة رومة وبلد لنقبرذية، ويتمادى مع الجبل المعترض في الجوف الى البحر المحيط. ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالإنقلش، وسيوف إفرنجية تفوق سيوف الهند. **بلد الإنقلش:** وهم جنس من الأتراك نزلوا مصاقبين للصقالبة. وحدّ بلدهم في الغرب بلد بويرة وبلد بويصلاو. وفي الجوف منهم الرّوس، وفي الشرق منهم البجناك وقفار لا تسكن، هي بين بلد البجناك وبين بلد البلقارين من الصقالبة، وفي القبلة بعض بلاد البلقارين ومسافة قفار لا تسكن. وأما **بلاد الروس** فهم في جزيرة حواليها بحيرة، و طول جزيرتهم مسيرة خمسة أيام، وفيها مشاجر وغياض. وملكهم يقال له خاقان روس، وهم في نحو مئة ألف إنسان. وهم يغزون الصقالبة في السفن. وبلقان تبع للروس وموافقون لهم. وليس للروس مزارع ولا كسب إلا بسيوفهم. وقيل: هم ثلاثة أصناف، صنف منهم يترل ملكهم مدينة كودانية، وهي أقرب من بلقان، وهم أقرب الروس الى بلقان، وصنف آخر يسمون الصلاوة، وصنف ثالث يسمون الأوثانية، وملكهم مقيم بأوثان، والتجار إليهم لا

يتجاوزون كويانة. فأما أوثان فلم يجد (= الطرطوشي) أحداً يخبر أنه دخلها لأنهم يقتلون كل من وطيء أرضهم من الغرباء، والله أعلم.

الصقالب: الصقالب من ولد ماذاي بن يافث، ومساكنهم من الشمال الى أن تتّصل بالمغرب. قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي (= الطرطوشي): بلاد الصقالب متّصل من البحر الشامي الى البحر المحيط الى الشمال؛ فتغلّب قبائل الجوف (= الشمال) على بعضها وسكنوا حتى الآن فيما بينهم. وهم أجناس كثيرة مختلفة؛ وقد كانوا فيما سلف يجمعهم ملك سمته ماخا، وكان من جنس منهم يدعى وليناناا. وهذا الجنس معظّم فيهم، ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم، وتحزّبت أجناسهم، وملك كل جنس منهم ملك. وملوكهم الآن أربعة: ملك البلقارين (= البلغار)، وبويصلاو ملك فراغة وبويمة وكركوا (= بولسلاس الأول ملك براغ وبوهيميا وكراكاو في القرن العاشر) ومشقه ملك الجوف (= مسكو الأول ملك بولندا في القرن العاشر) وناقون في آخر الغرب(ناكون أمير القبائل التي استوطنت شمال المانيا في القرن العاشر). وجاور بلد ناقون في آخر الغرب سكسون وبعض مرمان (= نورمان، وهم سكان البلاد الاسكندنافية) وبلده رخيصة الأسعار كثيرة الخيل، ومنها يخرج إلى غيرها. ولهم سلاح شاك من الدروع والبيضات (= الخوذ) والسيوف. فمن فرغ (= براغ) إلى مايليه عشرة أميال إلى الجسر خمسون ميلا، وهو جسر من خشب، في طوله ميل. ومن الجسر إلى حصن ناقون نحو أربعين ميلاً، ويسمى غراد، وترجمته: الحصن الكبير. وفي قبل غراد حصن مبني في بحيرة عذبة الماء، وكذلك تبني الصقالبة أكثر حصونهم. تعمد إلى المروج الكثيرة المياه والآجام فتخطّ فيه خطا مستديراً أو مربعاً قدر ما تريد من شكل الحصن وسعة ساحته، وتحفر حواليه وتردم بالتراب المحفور، وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابي، حتى يبلغ السور إلى الغاية التي تريد. وتذرع له باباً من أي شقّ تشاء ويختلف إليه على جسر من خشب. ومن حصن غراد إلى البحر المحيط أحد عشر ميلا. ولا تنفذ العساكر في بلاد ناقون إلا بالجهد الشديد، لأن بلده كله متمرج وآجام وحمأة.

فأما بلد بويصلاو فطوله من مدينة فراغة إلى مدينة كركوا مسيرة ثلاث جمعات، وهو مجاوز في الطول لبلاد الأتراك. ومدينة فراغة مبنية بالحجر والجير، وهي أكثر البلاد متاجر، تأتيها من مدينة كركوا الروس والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الأتراك الإسلام واليهود والترك بالمتاجر أيضاً والمثاقيل المرقطية، فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الأوبار. وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف وأزكاها معيشة، يباع القمح عندهم بقنشار (= عملة) ما يكفي به المرء شهراً. ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابة، ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار. وبمدينة فراغة تصنع السروج واللجم والدرق المستعملة والمتخذة في بلادهم. ويصنع في بلاد بويمة (= بوهيميا، وهي الأراضي الجيك- سلافية) منيدلات خفاف مهللة النسج على هيئة الشبكة لا تصلح لشيء. وثمنها عندهم في كل زمان عشرة مناديل بقنشار؛ بها يتبايعون ويتعاملون، يملكون منها الأوعية وهي عندهم مال. وأثمن الأشياء يبتاع بها، الحنطة والدقيق والخيل والذهب والفضة وجميع الأشياء. ومن العجيب أنّ أهل بويمة سمر سود الشعور، والشُّقرة فيهم قليلة. والطريق من ماذن برغ (= مغد بورغ، مدينة



المانية) إلى بلاد بويصلاو ومنه إلى حصن قليوي عشرة أميال ومنه إلى نوب غراد ميلان. وهوحصن مبني بالحجارة والصاروج، وهو على نهر صلاوة وفيه يقع نهر بوده. ومن حصن نوب غراد إلى ملاحة اليهود - وهي على نهر صلاوة أيضاً - ثلاثون ميلاً، ومنها إلى حصن بورجين - وهي على نهر ملداوه - ومنه إلى طرف الشعراء خمسة وعشرون ميلاً. ومن أولها إلى آخرها أربعون ميلاً، في جبال وأوعار، ومنها إلى جسر من خشب على حمأة نحو الميلين، ومن آخر الشعراء يدخل مدينة فراغة.

فأما بلد مشقه فهو أوسع بلادهم، وهو كثير الطعام واللحم والعسل والحرث. وجبايته المثاقيل المرقطية، وهي أرزاق رجاله في كل شهر، لكل واحد عدد معروف منها. وله ثلاثة آلاف درّاع، وهم أجناد تعدل المئة منهم عشر مئة من غيرهم، ويعطي الرجال الملابس والخيل والسلاح وجميع ما يحتاجون إليه. وإذا ولد لأحدهم ولد أمر بإجراء الرزق عليه ساعة يولد ذكراً كان أو أنثى. فإذا بلغ، فإن كان ذكراً زوجه ودفع عنه النّحلة الى والد الجارية، وإن كانت أنثى أنكحها ودفع النحلة إلى أبيها. والنّحلة عند الصقالبة عظيمة، ومذهبهم فيها كمذهب البربر، وإذا ولد للمرء ابنتان أو ثلاث فهن سبب غنائه، وإن ولد له ولدان فهو سبب فقره. ويجاور مشقه في الشرق الروس، وفي الجوف بروس (= البروسيون) وسكنى بروس على البحر المحيط، ولهم لسان على حدة لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم. وهم مشهورون في شجاعتهم، إذا أتاهم جيش لا يتوانى أحدهم حتى يلحق به صاحبه، وإنما يخرج لا يلوي على أحد، فيضرب بسيفه حتى يموت. ويغير عليهم الروس في المراكب من المغرب. وفي المغرب من الروس مدينة النساء، ولها بسائط ومماليك. وهن يحملن من عبيدهن، فإذا وضعت المرأة ذكراً قتلته، ويركبن الخيل، ويباشرن الحرب، ولهن بأس وبسالة. قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي: وخبر هذه المدينة حقٌّ أخبرني بذلك هوته (= امبراطور المانيا أوتو الأول) ملك الروم.

وفي الغرب من هذه المدينة قبيلة من الصقالبة يقال لها أمة ولتابه، وهي في غياض من بلاد مشقه مما يلي المغرب وبعض الجوف. ولهم مدينة عظيمة على البحر المحيط، لها إثنا عشر باباً ولها مرسى، وهم يستعملون له شطوراً حرلاً. وهم يحاربون مشقه، وشوكتهم شديدة، وليس لهم ملك ولا يناقدون لأحد، وإنما الحكام فيهم أشياخهم. فأما ملك البلقارين فقال إبراهيم بن يعقوب: لم أدخل بلده، ولكني رأيت رسله بمدينة ماذن برغ، حين وفدوا على هوته الملك يلبسون ملابس ضيقة، ويتمنطقون بأحزمة طوال قد ركّب عليها ترامس الذهب والفضة. وملكهم عظيم القدر يضع على رأسه التاج، وله الكتاب والأزمّة وأصحاب الخطط وأمر ونهي على نظم وترتيب كالمعهود للملوك الأكابر. ولهم معرفة بالألسن ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي، وهم نصارى. قال إبراهيم بن يعقوب: وإنما تنصّر ملك البلقارين، وأغار على بلاد الروم وحاصر مدينة القسطنطينية، حتى داراه ملكها وأرضاه بجزيل العطايا. وكان مما استرضاه به أن زوّجه ابنته فحملته على التّنصُّر. قال المؤلف (=البكري): فيدلّ قول إبراهيم أن تنصره كان بعد ثلثمائة من الهجرة. وقال غيره إنّما تنصر منهم من تنصر على عهد بسليوس الملك وبقوا على نصرانيتهم الى اليوم.

قال إبراهيم: والقسطنطينية من بلقارين في القبلة وتجاورهم أيضاً في الشرق والجوف البجاناكية. وفي الغرب منها بحيرة بناجيه (= خليج البندقية) وهو خليج يخرج من البحر الشامي بين الأرض الكبيرة والقسطنطينية. فيحيط بالأرض الكبيرة سواحل رومة وسواحل لنقبردية (= لومبارديا) وينقطع باقولايه فتصير هذه المواضع كلها جزيرة واحدة قد أحاط بها البحر الشامي من القبلة وذراع بناجيه من جهة المشرق والجوف وبقي منها فتح من جهة المغرب. وتسكن حافتي هذا الخليج من مخرجه في المشرق من البحر الشامي الصقالبة؛ ففي الشرق منهم البلقارين وفي الغرب غيرهم من الصقالب. وهؤلاء الذين يسكنون في الغرب منه أشد بأساً؛ وأهل تلك الناحية يستأمنونهم ويتقون شدتهم. وبلادهم جبال شامخة وعرة المسالك. وبالجملة فإن الصقالب ذوو صولة وبطش، ولولا اختلافهم بكثرة تفرّع أعراقهم وتفرق أفخاذهم ما قامت لهم في الشدة أمة من الأمم. وسكنوا من البلدان أجزلها ريعاً وأكثرها أقواتاً، وهم يجتهدون في الفلاحة وطلب الأرزاق، ويفوقون في ذلك جميع أمم الجوف. وتختلف تجارتهم في البر والبحر الى الروس والقسطنطينية. وجلّ قبائل الجوف يتكلمون بالصقلبية لاختلاطهم بهم، منهم قبائل الطدشكيين (= قبائل المانية) والأنقليين (الهنغاريون) والبجاناكية، والزوس، والخزر. وليس يكون الجوع في بلدان الجوف كلها من القحط وتوالي الجدب، إنما يكون من كثرة الغيث، وتوالي الجمّة (الفيضانات). ولا يكون المحل عندهم مهلكاً لأنه لا يتقيه من أصابه لرطوبة بلادهم وشدة بردها. وهم يزرعون في فصلين من العام، في القيظ والربيع، ويرفعون رفعين؛ وأكثر زرعهم الدّخن. والبرد فيهم سليم وإن تفاقم، والحر مهلك. وهم لا يقدمون على السفر الى بلاد لنقبردية لحرّها؛ لأن الحر يطغى عندهم فيهلكون. والسلامة عندهم إنما تكون فيما يكون فيه المزاج جامداً، فإذا انذاب وفار ذوي الجسد جاءه الموت من قبل ذلك. وتعممهم علّتان لا يكاد أحدهم يسلم من أحدهما، وهما ريحان: الحمرة والنواصير. وهم يجتنبون أكل الفراريج، فإنها تصرعهم بزعمهم ويقوي عليهم ريح الحمرة؛ ويأكلون لحوم البقر والإوز فتلائمهم. وهم يلبسون الثياب الواسعة إلا أن أردان أكمامهم ضيقة. ويحجب ملوكهم نساءهم، ولهن غيرة شديدة عليهم. ويكون للرجل منهم عشرون زوجة فصاعداً. وأكثر أشجار شعابهم التفاح والإجاص والفرشك (= الخوخ). وفيها طائر غريب تعلوه خضرة، يحكي كلما يسمعه من أصوات الناس والدّواب؛ وقد يوجد فيصيدونه، ويسمى بالصقلبية سبا. وفيها دجاج برّيّة تسمى أيضاً بالصقلبية تترا، وهي طيبة اللحم، وتسمع أصواتها من أعالي الشجر على فرسخ وأكثرها صنفان: سود وموشّات، أجمل من الطواويس. ولهم ضروب من المزاهر والمزامير، ولهم مزمار طوله أكثر من ذراعين، ومزهر عليه من الأوتار ثمانية أوتار، وباطنه مسطح لا مقبّب. وأشربتهم وأنبذتهم العسل.

قال المسعودي: والصقالبة أجناس كثيرة؛ فمن أجناسهم الصبرابه (= الصرب) ودولابه (= دولايه) وناجين (= يرجح أنهم الألمان)، وهذا الجنس أشجعهم وأفرسهم، وجنس يقال له سرنين، وهو عندهم مهيب، وجنس يقال له مزاره (= المورافيون) وحيرواس (= الكروات) وصاصين وحشيابين. ومن هذه الأجناس ما هو ينقاد إلى دين النصرانية على مذهب اليعقوبية، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية،

وجنس الملك من هؤلاء. والجنس الذي ذكرنا أنه يدعى سرنين، يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم، ويحرقون دوابهم. ولهم أفعال مثل أفعال الهند. وهم يتصلون بالشرق ويبعدون من الغرب. وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت، ويزعمون أن سرورهم وأطرابهم لرحمة ربه إيّاه ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين. وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة له علقت حبلاً وارتقت إليه على كرسي فتشتد به في عنقها ثم يجذب الكرسي من تحتها فتبقى معلّقة تضطرب حتى تموت ثم تحرق وتلحق بزوجها. ونساؤهم إذا نكحن لم يفجرن، إلا أن البكر إذا أحبت رجلاً صارت إليه وأقامت عنده شهوتها، فإذا تزوجها الزوج فوجدها عذراء قال لها "لو كان فيك خير لرغب فيك الرجال، ولاخترت لنفسك من يأخذ عذرتك"، فيرسلها ويبرأ منها.

وبلاد الصقالبة أشد البلاد برداً، وأقوى ما يكون ذلك عندهم إذا أقمرت الليالي وأصحت الأيام، فحينئذ يشتد البرد، ويقوى الجمد، فتتحجر الأرض، وتجمد الأشربة كلها، وتتقرمد البئر والحياض حتى تأتي كالحجارة. وإذا استنثر الناس على لحاهم صفائح الجمد يكون كالزجاج؛ فيعسر تكسّره حتى يصطلى أو يدخل كنّاً. وإذا كان الليل مظلماً والنهار مغيّماً فحينئذ ينجلي الضّريب (= الثلج) ويفتر البرد. وفي هذا الوقت تنكسر السفن، ويهلك من فيها، لأنه يواجهها من جليد أنهار هذه البلاد قطع كالجبال الرواسي. وربما ظفر من تلك القطعة الشابّ والجلد من الرجال فيسلم عليها. وليس لهم حمّامات وإنما يتّخذون بيوتاً من خشب ويسد خصاصه بشيء يتكون على أشجارهم يشبه الطحلب ويسمونه مخ، وهو مقام الزِّفت لسفنهم. ويبنون كانوناً من حجارة في إحدى زواياه ويفتحون في أعلاه روزنة تلقاءه، لخروج دخانه، فإذا سخن سدّوا تلك الروزنة وأغلقوا باب البيت، وفيه مناصب الماء، وصبوا من ذلك الماء على الكانون المحتمي، وترتفع أبخرته؛ ويكون بيد كل واحد منهم ضغث من حشيش يحرك به الهواء ويجذبه إلى نفسه؛ فتنفتح مسامهم ويخرج فضول أجسامهم فتجري منهم السيول. ولا يكون على أحدهم أثر جرب ولا قرح. وهم يسمون هذا البيت الأطبّا. وملوكهم يسافرون بالعجل العظام العالية الجارية على أربعة أفلاك وقوائم. في زواياها أربعة أعمدة وثيقة وعلّق منها هودج بسلاسل حصينة وكُسي بالديباج فلا يتقلقل الجالس فيه تقلقل العجلة، يعدّونه أيضاً للمرضى والجرحى. والصقالبة تحارب الروم والإفرنج والنوكبرد (= اللومبارديون) وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سجال..)

نصل الآن الى مايمكن اعتباره اكثر الرحلات شهرة إلى بلاد الشمال، رحلة ابن فضلان التي انطلق فيها من بغداد في 309هـ=921م ليصل إلى روسيا شاقا طريقا متعرّجا وصعبا. ومع انه لايعلم أحد بالضبط إلى أين انتهى ابن فضلان، لأن النص عرّض للتخريب، بعد ان كان معروفا إلى زمن ياقوت الحموي في القرن الثاني عشر الميلادي - كما أشرنا في البحث التمهيدي لهذا الكتاب - فإن كثيرا من التفسيرات ترجّح أنه بلغ البلاد الإسكندنافية، لكنّ وصفه لشرق اوربا وشمالها يعتبر تاريخا اجتماعيا أصيلا في وقت كانت فيه الأقوام التي تستوطنها مازال معظمها وثنيا في القرن العاشر الميلادي. وكما سيتضح فإن ملاحظات ابن فضلان ثرية ومتنوعة، وتكشف الأنساق الثقافية والاجتماعية والدينية للشعوب الشمالية في ذلك الوقت.



26. بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة. ابن فضلان. عن كتاب (رحلة ابن فضلان).

(قال أحمد بن فضلان: لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدا، وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك. وكان السفير له نذير الحرمي، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه، وتسليم ما أهدى إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين وسبب له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه وللجراية على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين من أرض خوارزم من ضياع ابن الفرات (= في بلاد تركستان). وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري (= سفير الصقالبة في بغداد) والرسول من جهة السلطان (= سلطان خراسان) سوسن الرسي مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي (= من رجال الخليفة المقتدر) وأنا معهم على ما ذكرت فسلمت الهدايا له ولامرأته ولأولاده واخوته وقواده وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها.

العجم والأتراك: فرحلنا من مدينة السلام (= بغداد) يوم الخميس لأحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمئة (= حزيران/ يونيو 921م) فأقمنا بالنهروان يوما واحدا، ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكرة، فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء، حتى صرنا إلى حلوان فأقمنا بها يومين، وسرنا منها إلى قرميسين (= كرمنشاه) فأقمنا بها يومين، ثم رحلنا فسرنا حتى وصلنا إلى همذان فأقمنا بها ثلاثة أيام. ثم سرنا حتى قدمنا ساوة (= بين همذان والري) فأقمنا بها يومين ومنها إلى الري فأقمنا بها أحد عشر يوما ننتظر أحمد بن علي أخا صعلوك لأنه كان بخوار الري. ثم رحلنا إلى خوار الري فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا إلى سمنان، ثم منها إلى الدامغان، وصادفنا بها ابن قارن من قبل الداعي، فتنكرنا في القافلة، وسرنا مجدين حتى قدمنا نيسابور، وقد قتل ليلى بن نعمان، فأصبنا بها حمويه كوسا صاحب جيش خراسان، ثم رحلنا إلى سرخس،ومنها إلى مرو (= أحدى مدن خراسان) ومنها إلى قشمهان وهي طرف مفازة آمل، فأقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة. ثم قطعنا المفازة إلى آمل، ثم عبرنا جيحون وصرنا إلى آفرير رباط طاهر بن علي، ثم رحلنا إلى بيكند ثم دخلنا بخارا (= تقع حاليا في أوزبكستان) وصرنا إلى الجيهاني وهو كاتب أمير خراسان وهو يدعى بخراسان الشيخ العميد، فتقدم بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضي حوائجنا ويزيح عللنا في كل ما نريد فأقمنا أياما. ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد فدخلنا إليه، وهو غلام أمرد فسلمنا عليه بالإمرة، وأمرنا بالجلوس. فكان أول ما بدأنا به أن قال "كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه؟" فقلنا "بخير" قال "زاده الله خيرا".

ثم قرئ الكتاب عليه بتسلم أرثخشمثين من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي، وإنفاذنا والكتاب إلى صاحبه بخوارزم بترك العرض لنا والكتاب بباب الترك ببذرقتنا وترك العرض لنا. فقال "وأين حمد بن موسى؟" فقلنا "خلفناه بمدينة السلام ليخرج خلفنا لخمسة أيام"

فقال "سمعا وطاعة لما أمر به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه". قال: واتصل الخبر بالفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى، وكتب إلى عمال المعاون بطريق خراسان من جند سرخس إلى بيكند "أن أذكوا العيون على أحمد بن موسى الخوارزمي في الخانات والمراصد، وهو رجل من صفته ونعته فمن ظفر به فليعتقله إلى أن يرد عليه كتابنا بالمسألة "فأُخذ بمرو وأعتُقل. وأقمنا نحن ببخارا ثمانية وعشرين يوما، وقد كان الفضل بن موسى أيضا واطأ عبد الله بن باشتو وغيره من أصحابنا يقولون "إن أقمنا هجم الشتاء وفاتنا الدخول وأحمد بن موسى إذا وافانا لحق بنا". قال ورأيت الدراهم ببخارا ألوانا شتى؛ منها دراهم يقال لها الغطريفية وهي نحاس وشبه وصفر، يؤخذ منها عدد بلا وزن مئة منها بدرهم فضة. وإذا شروطهم في مهور نسائهم تزوج فلان ابن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية، وكذلك أيضا شراء عقارهم وشراء عبيدهم لا يذكرون غيرها من الدراهم ولهم دراهم أخر صفر وحده أربعون منها بدانق ولهم أيضا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بدانق. فلما سمعت كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء، رحلنا من بخارا راجعين إلى النهر فتكارينا سفينة إلى خوارزم والمسافة إليها من الموضع الذي اكترينا منه السفينة أكثر من مئتي فرسخ، فكنا نسير بعض النهار ولا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته إلى أن قدمنا خوارزم، فدخلنا على أميرها محمد بن عراق خوارزم شاه فأكرمنا وقربنا وأنزلنا دارا.

فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا وناظرنا في الدخول إلى بلد الترك وقال "لا آذن لكم في ذلك، ولا يحل إلي ترككم تغررون بدمائكم، وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام "يعني تكين" لأنه كان عندنا حدادا وقد وقف على بيع الحديد ببلد الكفار، وهو الذي غرّ نذيرا وحمله على كلام أمير المؤمنين، وإيصال كتاب ملك الصقالبة إليه، والأمير الأجل "يعني أمير خراسان" كان أحق بإقامة الدعوة لأمير المؤمنين في ذلك البلد، لو وجد محيصا. ومن بعد فبينكم وبين هذا البلد الذي تذكرون ألف قبيلة من الكفار، وهذا تمويه على السلطان. وقد نصحتكم، ولا بد من الكتاب إلى الأمير الأجل حتى يراجع السلطان أيده الله في المكاتبة وتقيمون أنتم إلى وقت يعود الجواب". فانصرفنا عنه ذلك اليوم، ثم عاودناه، و لم نزل نرفق به ونقول "هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه، فما وجه المراجعة فيه؟"حتى أذن لنا، فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية، وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخا.ورأيت دراهم خوارزم مزيفة ورصاصا وزيوفا وصفرا، ويسمون الدرهم طازجة ووزنه أربعة دوانيق ونصف. والصيرفي منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم. وهم أوحش الناس كلاما وطبعا كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يقال لها أردكو أهلها يقال لهم الكردلية كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع، وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دبر كل صلاة. فأقمنا بالجرجانية أياما وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره، وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق، وهو ثابت لا يتخلخل. فأقام على ذلك ثلاثة أشهر، فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة. وإذا أتحف

الرجل من أهله صاحبه وأراد بره قال له"تعال إليّ حتى نتحدث، فإن عندي نارا طيبة"هذا إذا بالغ في بره وصلته إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل. ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول "بكند" يعني "الخبز" فإن أعطوه شيئا أخذ وإلا خرج.

وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذلك أنا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته. ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملا ليحملا عليها حطبا من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد. ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدا ولا يستقبله إنسان. ولقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي، وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار، ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت وفيه قبة لبود تركية، وأنا مدثر بالأكسية والفرى فربما التصق خدي على المخدة. ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوستينات (= عباءات جلدية) من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر فلا يغني ذلك شيئا. ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك. فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة، أخذ الزمان في التغير، وانحل نهر جيحون، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر، واشترينا الجمال التركية، واستعملنا السفر من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج أن نعبرها في بلد الترك، وتزودنا الخبز والجاورس (=الجريش) والنمكسوذ (= اللحم المقدّد) لثلاثة أشهر. وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها، وهولوا علينا الأمر، وعظموا القصة؛ فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا، فكان كل رجل منا عليه قرطق (= معطف) وفوقه خفتان (= قفطان) وفوقه بوستين وفوقه لبادة وبُرنس لا تبدو منه إلا عيناه وسراويل طاق، وآخر مبطن وران وخف كيمخت (= حذاء من جليد سميك) وفوق الخف خف آخر، فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب. وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا معنا من مدينة السلام فزعا من الدخول إلى ذلك البلد، وسرت أنا والرسول وسلف له والغلامان تكين وبارس، فلما كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير قلت لهم "يا قوم معكم غلام الملك وقد وقف على أمركم كله، ومعكم كتب السلطان، ولا أشك أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيبية له، وتصيرون إلى ملك أعجمي، فيطالبكم بذلك "فقالوا" لا تخش من هذا فإنه غير مطالب لنا "فحذرتهم، وقلت "أنا أعلم أنه يطالبكم" فلم يقبلوا.

واستدف (= استقام) أمر القافلة واكترينا دليلا يقال له قلواس من أهل الجرجانية، ثم توكلنا على الله عز وجل وفوضنا أمرنا إليه. ورحلنا من الجرجانية يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمئة، فترلنا رباطا يقال له "زمجان" وهو بباب الترك، ثم رحلنا من الغد فترلنا مترلا يقال له "جيت" وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركبها فيه، فأقمنا بهذا المترل يومين. ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء، ولا يلقانا



أحد في برية قفر بغير جبل فسرنا فيها عشرة أيام، ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس. ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد. وكان تكين يسايرني وإلى جانبه رجل من الأتراك يكلمه بالتركية فضحك تكين وقال "إن هذا التركي يقول لك أي شيء يريد ربنا منا هو ذا يقتلنا بالبرد، ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه". فقلت له "قل له يريد منكم أن تقولوا لا إله إلا الله" فضحك وقال "لو علمنا لفعلنا". ثم صرنا بعد ذلك إلى موضع فيه من حطب الطاغ شيء عظيم، فترلناه، وأوقدت القافلة واصطلوا ونزعوا ثيابهم وشرّوروها.

ثم رحلنا فما زلنا نسير في كل ليلة من نصف الليل إلى وقت العصر أو إلى الظهر بأشد سير يكون وأعظمه، ثم نترل. فلما سرنا خمس عشرة ليلة وصلنا إلى جبل عظيم كثير الحجارة وفيه عيون تنجرف عبره وبالحفرة تستقر الماء، فلما قطعناه أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية (= قبائل انتشرت بين الفولغا والدانوب) وإذا هم بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون ترى منهم الأبيات في كل مكان ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئا، بل يسمون كبراءهم أربابا، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له "يا رب إيش أعمل في كذا وكذا" وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه، وسمعتهم يقولون"لا إله إلا الله محمد رسول الله"تقربا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقادا لذلك. وإذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال "بير تنكري" وهو بالتركية "الله الواحد" لأن بير بالتركية واحد وتنكري الله بلغة الترك، ولا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، كذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس. ولقد نزلنا يوما على رجل منهم فجلسنا وامرأة الرجل معنا، فبينا هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها، فسترنا وجوهنا وقلنا "أستغفر الله" فضحك زوجها، وقال للترجمان"قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه هو خير من أن تغطيه وتمكّن منه".

وليس يعرفون الزنا، ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين؛ وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد إليهما. وقال بعضهم وسمعني أقرا قرآنا فاستحسن القرآن وأقبل يقول للترجمان: قل له "لا تسكت" وقال لي هذا الرجل يوما على لسان الترجمان"قل لهذا العربي ألِربنا عز وجل امرأة"، فاستعظمت ذلك وسبحت الله، واستغفرته فسبح واستغفر كما فعلت. وكذلك رسم التركي كلما سمع المسلم يسبح ويهلل قال مثله. ورسوم تزويجهم وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه إما ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي فإذا وافقه حملها إليه، وربما كان المهر جمالا أو دواب أو غير ذلك. وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه، فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المترل الذي هي فيه فيأخذها بحضرة أبيها وأمها

وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك. وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلا ليلا من حيث لا يرونه وذلك أنهم يغضبون ويقولون هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد تفرس في الماء ويغرمونه مالا. ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقا يترل عليه، ويحمل له من بلد الإسلام ثوبا ولامرأته مقنعة وشيئا من فلفل وجاورس وزبيب وجوز، فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة وحمل إليه من الغنم على قدره حتى يتولى المسلم ذبحها؛ لأن الترك لا يذبحون وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت. وإذا أراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه أو احتاج إلى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي، وأخذ من جماله ودوابه وماله حاجته ورحل، فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله ورد إليه جماله ودوابه. وكذلك لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال أنا ضيفك وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك دفع إليه ما يريد، فإن مات التاجر في وجهه ذلك وعادت القافلة لقيهم التركي، وقال أين ضيفي، فإن قالوا مات حط القافلة، ثم جاء إلى أنبل تاجر يراه فيهم فحل متاعه وهو ينظر فأخذ من دراهمه مثل ماله عند ذلك التاجر بغير زيادة حبة وكذلك يأخذ من دوابه وجماله، وقال ذلك ابن عمك وأنت أحق من غرم عنه، وإن فر فعل أيضا ذلك الفعل وقال له ذلك مسلم مثلك خذ أنت منه، وإن لم يوافق المسلم ضيفه في الجادة سأل عن بلاده أين هو، فإذا أرشد إليه سار في طلبه مسيرة أيام حتى يصير إليه ويرفع ماله عنده وكذلك ما يهديه له. وهذه أيضا سبيل التركي إذا دخل الجرجانية سأل عن ضيفه فترل عليه حتى يرتحل. ومتى مات التركي عند صديقه المسلم واجتازت القافلة وفيها صديقه قتلوه وقالوا أنت قتلته بحبسك إياه ولو لم تحبسه لما مات، وكذلك إن سقاه نبيذا فتردى من حائط قتلوه به، فإن لم يكن في القافلة عمدوا إلى أجل من فيها فقتلوه.

وأمر اللواط عندهم عظيم جدا ولقد نزل على حي كوذركين وهو خليفة ملك الترك رجل من أهل خوارزم، فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم، وكان للتركي ابن أمرد فلم يزل الخوارزمي يداريه ويراوده عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد وجاء التركي فوجدهما في بنيانهما، فرفع التركي ذلك إلى كوذركي فقال له "اجمع الترك" فجمعهم فلما اجتمعوا قال للتركي "بالحق تحب أن أحكم أم بالباطل" قال "بالحق" قال "أحضر ابنك" فأحضره فقال "يجب عليه وعلى التاجر أن يقتلا جميعا" فامتعض التركي من ذلك وقال "لا أسلم ابني" فقال "فيفتدي التاجر نفسه" ففعل ودفع للتركي غنما للفعل بابنه ودفع إلى كوذركين أربعمئة شاة لما رفع عنه وارتحل عن بلد الترك. فأول من لقينا من ملوكهم ورؤسائهم ينال الصغير (= ولي العهد) وقد كان أسلم فقيل له إن أسلمت لم ترؤسنا فرجع عن إسلامه، فلما وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه، قال "لا أترككم تجوزون لأن هذا شيء ما سمعنا به قط، ولا ظننا أنه يكون". فرفقنا به إلى أن رضي بخفتان جرجاني يساوي عشرة دراهم وشقة باي باف (لباس خاص بالمرأة) وأقراص خبز وكف زبيب ومئة جوزة، فلما دفعنا هذا إليه سجد لنا، وهذا رسمهم إذا أكرم الرجل الرجل سجد له وقال "لولا أن بيوتي نائية عن الطريق لحملت إليكم غنما وبرا" وانصرف عنا وارتحلنا. فلما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك دميم الخلقة رث

الثياب قميء المنظر خسيس المخبر، وقد أخذنا مطر شديد، فقال "قفوا" فوقفت القافلة بأسرها، وهي نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل، ثم قال "ليس يجوز منكم أحد" فوقفنا طاعة لأمره فقلنا له "نحن أصدقاء كوذركين" فأقبل يضحك، ويقول "منْ كوذركين؟ أنا أخْرى على لحية كوذركين" ثم قال "بكند" يعني "الخبز" بلغة خوارزم، فدفعتُ إليه أقراصا فأخذها، وقال "مروا قد رحمتكم".

قال وإذا مرض الرجل منهم وكان له جوار وعبيد خدموه ولم يقربه أحد من أهل بيته ويضربون له خيمة ناحية من البيوت فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ، وإن كان عبدا أو فقيرا رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه. وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت، وعمدوا إليه فألبسوه قرطقه ومنطقته وقوسه، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذ، وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت، ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين، وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها فقتلوا منها مئة رأس إلى مئتي رأس إلى رأس واحد، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم والجلد والذنب، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب وقالوا هذه دوابه يركبها إلى الجنة، فإن كان قتل إنسانا وكان شجاعا نحتوا صورا من خشب على عدد من قتل وجعلوها على قبره، وقالوا هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة. وربما تغافلوا على قتل الدواب يوما أو يومين فيحثهم شيخ من كبارهم فيقول "رأيت فلانا" يعني الميت في النوم فقال لي "هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي وشققت رجلاي من أتباعي لهم ولست ألحقهم، وقد بقيت وحدي" فعندها يعمدون إلى دوابه فيقتلونها ويصلبونها عند قبره، فإذا كان بعد يوم أو يومين جاءهم ذلك الشيخ وقال "قد رأيت فلانا وقال عرّف أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني، واسترحت من التعب". قال: والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم، وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين؛ فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس. وملك الترك الغزية يقال له"يبغو"وهو اسم الأمير، وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يسمى، ويقال لخليفته"كوذركين" وكذا كل من يخلف رئيسا منهم يقال له كوذركين.

ثم نزلنا بعد ارتحالنا من ناحية هؤلاء بصاحب جيشهم، ويقال له "أترك بن القطغان" فضرب لنا قبابا تركية وأنزلنا فيها، وإذا له ضبنة (= العيال والأهل) وحاشية وبيوت كبيرة، وساق إلينا غنما وقاد دواب، لنذبح الغنم ونركب الدواب، ودعا هو جماعة من أهل بيته وبني عمه فقتل لهم غنما كثيرة، وكنا قد أهدينا إليه هدية من ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس، فرأيت امرأته وقد كانت امرأة أبيه، وقد أخذت لحما ولبنا وشيئا مما أتحفناه به وخرجت من البيوت إلى الصحراء فحفرت حفيرة ودفنت الذي كان معها فيها، وتكلمت بكلام فقلت للترجمان "ما تقول؟" قال "تقول هذه هدية للقطغان أبي الترك أهداها له العرب". فلما كان في الليل دخلت أنا والترجمان إليه، وهو في قبته جالس، ومعنا كتاب نذير الحرمي إليه، يأمره فيه بالإسلام ويحضه عليه، ووجه إليه خمسين دينارا فيها عدة دنانير مسيبية وثلاثة مثاقيل مسك وجلود أديم وثياب مروية، وقطعنا له منها قرطقين وخف أديم وثوب ديباج وخمسة أثواب حرير، فدفعنا إليه هديته ودفعنا إلى امرأته



مقنعة وخاتما، وقرأت عليه الكتاب فقال للترجمان "لست أقول لكم شيئا حتى ترجعوا، وأكتب إلى السلطان بما أنا عازم عليه" ونزع الديباجة التي كانت عليه ليلبس الخلع التي ذكرنا فرأيت القرطق الذي تحتها وقد تقطع وسخا؛ لأن رسومهم أن لا يترع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعا، وإذا هو قد نتف لحيته كلها وسباله فبقي كالخادم. ورأيت الترك يذكرون أنه أفرسهم. ولقد رأيت يوما وهو يسايرنا على فرسه إذ مرت وزة طائرة فأوتر قوسه وحرك دابته تحتها، ثم رماها فإذا هو قد أنزلها. فلما كان في بعض الأيام وجه خلف القواد الذين يلونه وهم طرخان وينال وابن أخيهما وإيلغز، وكان طرخان أنبلهم وأجلهم، وكان أعرج أعمى أشل، فقال لهم "إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري ألمش بن شلكي، ولم يخير لي أن أطلقهم إلا عن مشورتكم "فقال طرخان" هذا شيء ما رأيناه قط ولا سمعنا به، ولا اجتاز بنا رسول سلطان مذ كنا نحن وآباؤنا، وما أظن إلا أن السلطان قد أعمل الحيلة ووجه هؤلاء إلى الخزر ليستجيش بهم علينا، والوجه أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين ونأخذ ما معهم". وقال آخر منهم "لا بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاءوا"وقال آخر"لا ولكن لنا عند ملك الخزر أسراء فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك "فما زالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام، ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا، ونمضي. فخلعنا على طرخان خفتانا مرويا وشقتين باي باف وعلى أصحابه كل واحد قرطقا، وكذلك على ينال، ودفعنا إليهم فلفلا وجاورس وأقراصا من خبز، وانصرفوا عنا.

ورحلنا حتى صرنا إلى نهر يغندي (= زيندي) فأخرج الناس سفرهم، وهي من جلود الجمال فبسطوها وأخذوا بالأثاث من الجمال التركية لأنها مدورة فجعلوها في جوفها حتى تمتد، ثم حشوها بالثياب والمتاع فإذا امتلأت جلس في كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة وأقل وأكثر ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك (=خشب البتولا) فيجعلونه كالمجاديف، ولا يزالون يجدفون والماء يحملها وهي تدور حتى نعبر، فأما الدواب والجمال فإنه يصاح بها فتعبر سباحة، ولا بد أن تعبر جماعة من المقاتلة ومعهم السلاح قبل أن يعبر شيء من القافلة؛ ليكونوا طليعة للناس خيفة من الباشغرد (= قوم من الأتراك) أن يكبسوا الناس وهم يعبرون. فعبرنا يغندي على هذه الصفة التي ذكرنا، ثم عبرنا بعد ذلك نهرا يقال له جام في السفر أيضا، ثم عبرنا جاخش (سجير) ثم أذل (= أوييل) ثم أردن (=زاكسباي) ثم وارش (=كالدغاييتي) ثم أختي (= آشي) ثم وتبا (=ياك). وهذه كلها أنهار كبار. ثم صرنا بعد ذلك إلى البنجاك (قوم من الأتراك في الأورال، وحوض الفولغا، وضفاف بحر قزوين) وإذا هم نزول على ماء شبيه بالبحر غير جار، وإذا هم سمر شديدو السمرة، وإذا هم محلقوا اللحى فقراء خلاف الغزية لأني رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة ومئة ألف رأس من الغنم، وأكثر ما ترعى من الغنم ما بين الثلج تبحث بأظلافها تطلب الحشيش، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن، فإذا كان الصيف وأكلت الحشيش هزلت، فترلنا على البجناك يوما واحدا. ثم ارتحلنا فترلنا على نهر جيخ (= أحد فروع جيحون) وهو أكبر نهر رأيناه وأعظمه وأشده جرية. ولقد رأيت سفرة انقلبت فيه فغرق من كان فيها،

وذهبت رجال كثير من الناس وغرقت عدة جمال ودواب، و لم نعبره إلا بجهد. ثم سرنا أياما وعبرنا نهر حاخا (=جاغان) ثم بعده نهر أرخز، ثم باجاغ، ثم سمور، ثم كنال، ثم نهر سوخ، ثم نهر كنجلو.

ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد، فحَذَرْناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم، وأشدهم إقداما على القتل. يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته، ويأخذها ويتركه. وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل. يتتبع الواحد منهم درز قرطقة (= الرُّقع في الثياب) فيقرض القمل بأسنانه. ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم، وكان يخدمنا فرأيته وجد قملة في ثوبه، فقصعها بظفره، ثم لحسها، وقال لما رآني "جيد". وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل، ويعلقها عليه. فإذا أراد سفرا أو لقاء عدو، قبّلها وسجد لها، وقال "يا رب افعل بي كذا وكذا". فقلت للترجمان" سل بعضهم: ما حجتهم في هذا؟ و لم جعله ربه؟". قال "لأني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقا غيره". ومنهم من يزعم أن له أثني عشر ربا: للشتاء رب، وللصيف رب، وللمطر رب، وللريح رب، وللشجر رب، وللناس رب، وللدواب رب، وللماء رب، ولليل رب، وللنهار رب، وللموت رب، وللأرض رب. والرب الذي في السماء أكبرهم إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ورأينا طائفة منهم تعبد الحيات، وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكراكي. فعرّفوني أنهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا بعدها هُزموا؛ فعبدوا الكراكي لذلك، وقالوا "هذه ربنا وهذه فعالاته هزم أعداءنا"فهم يعبدونها لذلك.

قال: وسرنا من بلد هؤلاء فعبرنا نهر جرمشان، ثم نهر أورن، ثم نهر أورم، ثم نهر بياناخ، ثم نهر وتيغ، ثم نهر نياسنه، ثم نهر جاوشيز، وبين النهر والنهر مما ذكرنا اليومان والثلاثة والأربعة وأقل من ذلك وأكثر. فلما كنا من ملك الصقالبة، وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة، وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس، وساروا معنا. فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل فخرّ ساجدا شكرا لله جل وعز، وكان في كمه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قبابا فنزلناها. وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة، فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلده سبعين يوما. فأقمنا يوم الأحد ويوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا، حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب. فلما كان يوم الخميس واجتمعوا نشرنا المطردين (= الرايتين) اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه وألبسناه السواد (= شعار العباسيين) وعممناه، وأخرجتُ كتاب الخليفة وقلت له"لا يجوز أن نجلس والكتاب يُقرأ". فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته، وهو رجل بدين بطين جدا. وبدأتُ فقرأت صدر الكتاب فلما بلغت منه"سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو" قلت "ردَّ على أمير المؤمنين السلام" ثم أمرته بالجلوس، فجلس عند قراءة كتاب نذير الحرمي، فلما استتممته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة، ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأته. فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئا شيئا حتى فرغنا من ذلك، ثم



خلعت على امرأته بحضرة الناس، وكانت جالسة إلى جنبه. وهذه سنتهم وزيهم فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم، وانصرفنا.

فلما كان بعد ساعة وجه إلينا فدخلنا إليه، وهو في قبته والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس عن يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي، فدعا بالمائدة فقدِّمت وعليها اللحم المشوي وحده. فابتدأ هو فأخذ سكينا وقطع لقمة وأكلها وثانية وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها إلى سوسن الرسول، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه، وكذلك الرسم لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة، ثم ناولني فجاءتني مائدة، ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة، ثم ناول أولاده فجاءهم الموائد. وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئا، فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى مترله. فلما أكلنا دعا بشراب العسل، وهم يسمونه السجو (= نوع من الخمر) ليومه وليلته فشرب قدحا، ثم قام قائما، فقال "هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه" وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه، وقمنا نحن أيضا، حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ثم انصرفنا من عنده. وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي "اللهم أصلح الملك يلطوار ملك بلغار". فقلت أنا له"إن الله هو الملك، ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما أطْرتْ النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله". فقال لي "فكيف يجوز أن يخطب لي" قلت "باسمك واسم أبيك". قال "إن أبي كان كافرا ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر، وأنا أيضا فما أحب أن يذكر اسمي، إذ كان الذي سماني به كافرا، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟". فقلت "جعفر". قال "أفيجوز أن أتسمّى باسمه؟". قلت "نعم". قال" قد جعلت اسمي جعفرا، واسم أبي عبد الله، فتقدمْ إلى الخطيب بذلك". ففعلت. فكان يخطب له "اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين".

ولما كان بعد قراءة الكتاب وإيصال الهدايا بثلاثة أيام بعث إليّ، وقد كان بلغه أمر الأربعة آلاف دينار وما كان من حيلة النصراني في تأخيرها، وكان خبرها في الكتاب. فلما دخلت إليه أمرني بالجلوس، فجلست ورمى إليّ كتاب أمير المؤمنين، فقال "من جاء بهذا الكتاب؟" قلت "أنا" ثم رمى إليّ كتاب الوزير، فقال "وهذا أيضا؟" قلت "أنا". قال "فالمال الذي ذُكر فيهما ما فُعل به؟" قلت"تعذّر جمعه، وضاق الوقت، وخشينا فوت الدخول، فتركناه ليلحق بنا". فقال "إنما جئتم بأجمعكم، وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إليّ حتى أبني به حصنا يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني، فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها". قلت"هو كذلك إلا أنا قد اجتهدنا". فقال للترجمان "قل له أنا لا أعرف هؤلاء إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم ولو علم الأستاذ أيده الله أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ علي وتقرأ كتابي وتسمع جوابي،

ولست أطالب غيرك بدرهم، فاخرج من المال فهو أصلح لك". فانصرفت من بين يديه مذعورا مغموما، وكان رجلا له منظر وهيبة، بدين عريض، كأنما يتكلم من خابية. فخرجت من عنده، وجمعت أصحابي وعرّفتهم ما جرى بيني وبينه، وقلت لهم "من هذا حذرت". وكان مؤذّنه يثنّي الإقامة إذا أذّن، فقلت له"إن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة". فقال للمؤذن "اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه". فأقام المؤذن على ذلك أياما، وهو يسألني عن المال، ويناظرني فيه، وأنا أؤيّسه منه، وأحتج فيه. فلما يئس منه تقدّم إلى المؤذن أن يثنّي الإقامة، ففعل، وأراد بذلك أن يجعله طريقا إلى مناظرتي، فلما سمعت تثنيته للإقامة نهيته وصحت عليه، فعرف الملك فأحضرني، وأحضر أصحابي. فلما اجتمعنا، قال الترجمان" قل له – يعنيني– ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنّى الآخر، ثم صلى كل واحد منهما بقوم. أتجوز الصلاة أم لا؟" قلت "الصلاة جائزة". فقال "باختلاف أم بإجماع؟" قلت "بإجماع". قال "قل له فما يقول في رجل دفع إلى قوم مالا لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين، فخانوه". فقلت "هذا لا يجوز، وهؤلاء قوم سوء". قال "باختلاف أم بإجماع" قلت "بإجماع". فقال للترجمان "قل له تعلم أن الخليفة – أطال الله بقاءه – لو بعث إليّ جيشا كان يقدر علي؟" قلت "لا". قال "فأمير خراسان؟". قلت "لا". قال "أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟". قلت "بلى". قال "قل له، فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه، فيدعو علي فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه، وترونه في كل وقت خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلي إلى قوم ضعفى، وخنتم المسلمين لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه". فألجمنا، وما أحرنا جوابا، وانصرفنا من عنده.

قال: فكان بعد هذا القول يؤثرني ويقربني، ويباعد أصحابي، ويسميني أبا بكر الصديق. ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة، من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا، وسمعت في الجو أصواتا شديدة، وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضا رجالا ودواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة، ففزعنا من ذلك، وأقبلنا على التضرع والدعاء. وهم يضحكون منا، ويتعجبون من فعلنا. قال: وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعا ساعة ثم تفترقان، فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا. فسألنا الملك عن ذلك، فزعم أن أجداده كانوا يقولون إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم، وهم يقتتلون في كل عشية، وإنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة. قال: ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد– قد وقع إلى تلك الناحية– قبّتي لنتحدث، فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سبع، ونحن ننتظر أذان العتمة فإذا بالأذان فخرجنا من القبة، وقد طلع الفجر فقلت للمؤذن"أي شيء أذنت؟". قال "أذان الفجر". قلت"فالعشاء الآخرة؟". قال

"نصليها مع المغرب". قلت "فالليل؟". قال "كما ترى وقد كان أقصر من هذا إلا أنه قد أخذ في الطول". وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفا أن تفوته صلاة الغداة، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ثم يصلي الغداة وما آن لها أن تنضج.

قال: ورأيت النهار عندهم طويلا جدا، وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار، فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عددا يسيرا ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكبا متفرقة، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم. قال: ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر. وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو (= يرجح أنهم سكان روسيا البيضاء) الليل عندهم أقل من ساعة. قال: ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمرّ كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء. وعرّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له إتل (= لايقصد بها هنا نهر الفولغا، إنما مدينة فولغاغراد) بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء، فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار. ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جدا ويفرحون به ويقولون سنة خصب وبركة وسلامة. ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى إن الغصن من الشجرة لتلتف عليه العشرة منها والأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم، حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع، وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جدا، فوقفت أنظر إليه إذ تحرك فراعني ذلك وتأملته، فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول، فلما رأتني سقطت عنه وغابت بين الشجر، فجئت فزعا، فحدثت الملك ومن كان في مجلسه، فلم يكترثوا لذلك، وقال "لا تجزع فليس تؤذيك". ونزلنا مع الملك منزلا، فدخلت أنا وأصحابي: تكين، وسوسن، وبارس، ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر، فرأينا عودا صغيرا أخضر كرقة المغزل وأطول، فيه عرق أخضر على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة على الأرض مفروش عليها مثل النابت فيها حب ولا يشك من يأكله أنه رمان أمليسي (= لانواة لحبّاته) فأكلنا منه فإذا به من اللذة أمر عظيم فما زلنا نتبعه ونأكله. ورأيت لهم تفاحا أخضر شديد الخضرة، وأشد حموضة من خل الخمر، وتأكله الجواري فيسمن عليه. ولم أر في بلدهم أكثر من شجر البندق. لقد رأيت منه غياضا تكون الغيضة أربعين فرسخا في مثلها. ورأيت لهم شجرا لا أدري ما هو، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق، ورؤوسه كرؤوس النخل، له خوص دقاق إلا أنه مجتمع يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه فيثقبونه ويجعلون تحته إناء، فتجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل، إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر.

وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الدابة على أن الحنطة والشعير كثير، وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور، وإذا أمر سرية بالغارة على بعض



البلدان فغنمت كان له معهم حصة ولا بد لكل من يعترس أو يدعو دعوة من زلّة (= العرس) للملك على قدر الوليمة، وساخرخ (= كمية) من نبيذ العسل، وحنطة ردية لأن أرضهم سوداء منتنة. وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم ولكنهم يحفرون في الأرض آبارا، ويجعلون الطعام فيها فليس يمضي عليه إلا أيام يسيرة حتى يتغير ويريّح فلا ينتفع به. وليس لهم زيت ولا شيرج (= زيت السمسم) ولا دهن بتة، وإنما يقيمون مقام هذه الأدهان دهن السمك. فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفرا، ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجواري والغلمان، وربما طبخوا الشعير باللحم، فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير إلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم. وكلهم يلبسون القلانس، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم، ثم أوموا إليه برؤوسهم وجلسوا، ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس. وكل من يجلس بين يديه فإنما يجلس باركا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك. وكلهم في قباب إلا أن قبة الملك كبيرة جدا تسع ألف نفس وأكثر، مفروشة بالفرش الأرمني، وله في وسطها سرير مغشى بالديباج الرومي، ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال "أنا أحق به من أبيه في حضنه" حتى يصير رجلا، وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده، فعرّفت الملك أن هذا غير جائز، وعرّفته كيف المواريث حتى فهمها.

وما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته، وجميع من فيه من رجال ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمـــان، ويقولون هذا بيت مغضوب عليهم. وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمدا أقادوه به (قتلوه قصاصا) وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقا من خشب الخدنك، وجعلوه في جوفه وسمّروه عليه وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء، ونصبوا له ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلقوه بينها، وقالوا: نجعله بين السماء والأرض يصيبه المطر والشمس لعل الله أن يرحمه. فلا يزال معلقا حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح. وإذا رأوا إنسانا له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا "هذا حقه أن يخدم ربنا". فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلا وعلقوه في شجرة حتى يتقطّع. ولقد حدثني ترجمان الملك أن سنديا سقط إلى ذلك البلد، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه، وكان خفيفا فهما، فأراد جماعة منهم الخروج معهم فنهاه عن ذلك، فاستأذن السندي الملك في الخروج معهم فنهاه عن ذلك، وألح عليه حتى أذن له فخرج معهم في سفينة، فرأوه حركا كيسا، فتآمروا بينهم وقالوا "هذا يصلح لخدمة ربنا فنوجه به إليه". واجتازوا في طريقهم بغيضة، فأخرجوه إليها، وجعلوا في عنقه حبلا، وشدّوه في رأس شجرة عالية، وتركوه ومضوا. وإذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه، وهذا رسم لهم. ومن حطّ عنه سلاحه وجعله ناحية وبال لم يعرضوا له. وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعا عراة لا يستتر بعضهم من بعض، ولا يزنون بوجه ولا سبب. ومن زنا منهم كائنا من كان ضربوا له

أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضا، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة. وما زلت اجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك. ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني.

وفي غياضهم عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب ذلك، فربما وقع عليهم قوما من أعدائهم فقتلوهم. وفيهم تجار كثير يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم وإلى بلد يقال له ويسو، فيجلبون السمور والثعلب الأسود. ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة الآف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم يعرفون بالبرنجار (= يرجح أنهم المنغول) وقد بنوا لهم مسجدا من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلمت جماعة ما يصلون به. ولقد اسلم على يدي رجل يقال له "طالوت" فأسميته "عبد الله". فقال "أريد أن تسميني باسمك محمدا". ففعلت وأسلمت امرأته وأمه وأولاده فسموا كلهم "محمدا". وعلمته: الحمد لله، وقل هو الله أحد. فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه إن صار ملك الصقالبة. وكنا لما وافينا الملك وجدناه نازلا على ماء يقال له خلجة، وهي ثلاث بحيرات منها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة إلا أنه ليس في جميعها شيء يلحق غوره، وبين هذا الموضع وبين نهر لهم عظيم يصب إلى بلاد الخزر يقال له نهر إتل (= الفولغا) نحو الفرسخ. وعلى هذا النهر موضع سوق تقوم في كل مديدة، ويباع فيها المتاع الكثير النفيس.

وكان تكين حدثني أن في بلد الملك رجلا عظيم الخلق جدا، فلما صرت إلى البلد سألت الملك عنه فقال "نعم قد كان في بلدنا، ومات ولم يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضا، وكان من خبره أن قوما من التجار خرجوا إلى نهر إتل، وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون، وهذا النهر قد مد وطغى ماؤه فلم أشعر يوما إلا وقد وافاني جماعة من التجار، فقالوا: أيها الملك قد قفا على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار وليس لنا غير التحويل. فركبت معهم حتى صرت إلى النهر، فإذا أنا بالرجل، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعا، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر. فراعني أمره، وداخلني ما داخل القوم من الفزع، وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا بل ينظر إلينا. فحملته إلى مكاني، وكتبت إلى أهل ويسو، وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه، فكتبوا إلي يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج، وهم منا على ثلاثة أشهر، عراة، يحول بيننا وبينهم البحر لأنهم على شطه، وهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضا. يخرج الله عز وجل لهم كل يوم سمكة من البحر فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيجز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه، وكذلك عياله يشتكون بطونهم، وربما مات وماتوا بأسرهم، فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت ووقعت في البحر، فهم في كل يوم على ذلك. وبيننا وبينهم البحر من جانب والجبال محيطة بهم من جوانب أخر، والسد أيضا قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه. فإذا أراد الله عز وجل أن يخرجهم إلى العمارات سبب لهم فتح السد ونضب البحر وانقطع عنهم السمك". قال: فسألته عن الرجل، فقال "أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات ولا حامل إلا طرحت حملها، وكان إن تمكن من إنسان عصره بيديه حتى يقتله، فلما

رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات. إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها" فقلت "أنا والله أحب ذاك". فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام، فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها فرأيت رأسه مثل القفير الكبير، وإذا أضلاعه أكبر من عراجين النخل، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه، فتعجبت منه، وأنصرفت.

قال وارتحل الملك من الماء الذي يسمى خلجة إلى نهر يقال له جاوشيز، فأقام به شهرين، ثم أراد الرحيل فبعث إلى قوم يقال لهم سواز يأمرهم بالرحيل معه، فأبوا عليه وافترقوا فرقتين فرقة مع ختنه، وكان قد تملك عليهم واسمه ويرغ فبعث إليهم الملك، وقال "إن الله عز وجل قد منّ علي بالإسلام وبدولة أمير المؤمنين فأنا عبده، وهذه الأمة قد قلدتني فمن خالفني لقيته بالسيف". وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك أسكل وكان في طاعته إلا أنه لم يكن داخلا في الإسلام. فلما وجّه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز، وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمسة أذرع وماؤه إلى السرة، وفيه مواضع إلى الترقوة، وأكثره قامة وحوله شجر كثير من الشجر الخدنك وغيره، وبالقرب منه صحراء واسعة يذكرون أن بها حيوانا دون الجمل في الكبر وفوق الثور رأسه رأس جمل وذنبه ذنب ثور وبدنه بدن بغل وحوافره مثل أظلاف الثور له في وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير، كلما أرتفع دق حتى يصير مثل سنان الرمح، فمنه ما يكون طوله خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع إلى أكثر وأقل، يرتعي ورق الشجر جيد الخضرة إذا رأى الفارس قصده، فإن كان تحته جواد أمن منه بجهد وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه ثم زج به في الهواء واستقبله بقرنه فلا يزال كذلك حتى يقتله، ولا يعرض للدابة بوجه ولا سبب. وهم يطلبونه في الصحراء والغياض حتى يقتلوه. وذلك أنهم يصعدون الشجر العالية التي يكون بينها، ويجتمع لذلك عدة من الرماة بالسهام المسمومة فإذا توسطهم رموه حتى يثخنوه ويقتلوه. ولقد رأيت عند الملك ثلاث طيفوريات (= أطباق عميقة) كبار تشبه الجزع اليماني عرفني أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن.

قال: وما رأيت منهم إنسانا يحمر بل أكثرهم معلول، وربما يموت أكثرهم بالقولنج حتى إنه ليكون بالطفل الرضيع منهم، وإذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزميه غسلوه غسل المسلمين ثم حملوه على عجلة تجره وبين يديه مطرد حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه، فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض ثم خطوا حوله خطا ونحوه، ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره وجعلوا له لحدا ودفنوه، وكذلك يفعلون بموتاهم. ولا تبكي النساء على الميت بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الذي مات فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه. هؤلاء للأحرار فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب السوط ولا بد من أن ينصبوا بباب قبته مطردا ويحضروا سلاحه فيجعلونها حول قبره ولا يقطعون البكاء سنتين. فإذا انقضت السنتان حطوا المطرد وأخذوا من شعورهم ودعا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن وإن كانت له زوجة تزوجت، هذا إذا كان من



الرؤساء فأما العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم. وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور، وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع العشر، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأسا. وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر، وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها فاحتج عليه ورده فبعث وأخذها غصبا، وهو يهودي وهي مسلمة فماتت عنده فوجّه يطلب بنتا له أخرى، فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك اسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصنا خوفا من ملك الخزر. قال: وسألته يوما فقلت له"مملكتك واسعة، وأموالك جمة، وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصنا بمال من عنده لا مقدار له؟". فقال"رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها، فالتمست ذلك لهذه العلة، ولو أني أردت أن أبني حصنا من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك".

قال: ورأيت الروسية (= الروس) وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا على نهر إتل، فلم أر أتم أبدانا منهم كأنهم النخل، شقر، حمر، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا، وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية. ومن حد ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك. وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقة مشدودة إما من حديد وإما من فضة وإما من نحاس وإما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره. وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضا، وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقا، وإن ملك عشرين ألفا صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزداد طوقا لامرأته، فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة. وأجل الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه ويشترون الخرزة بدرهم وينظمونه عقودا لنسائهم. وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام بل هم كالحمير الضالة يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتا كبارا من الخشب. ويجتمع في البيت الواحد والعشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة (= الغواني) للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه. ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاها، فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى



الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها.

وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى، يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها ثم يقول لها "يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأسا، ومن السمور كذا وكذا جلدا"حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول "وجئتك بهذه الهدية". ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول "أريد أن ترزقني تاجرا معه دنانير ودراهم كثيرة، فيشتري مني كل ما أريد، ولا يخالفني فيما أقول". ثم ينصرف. فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة، فإن تعذر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية، وسألها الشفاعة وقال "هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه" فلا يزال يطلب إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع، فباع فيقول "قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافيه". فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها، ويتصدق ببعض اللحم, ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها, ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض, فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك , فيقول الذي فعله "قد رضي ربي عني وأكل هديتي". وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه، لا سيما إن كان ضعيفا أو مملوكا، فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير. وإذا أصابوا سارقا أو لصا جاءوا به إلى شجرة غليظة، وشدوا في عنقه حبلا وثيقا وعلقوه فيها، ويبقى معلقا حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار. وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤسهم عند الموت أمورا أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل، فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها. وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثيابا، وثلث ينبذون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها.

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلا ونهارا، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه "من منكم يموت معه؟". فيقول بعضهم "أنا". فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبدا، ولو أراد ذلك ما تُرك. وأكثر من يفعل هذا الجواري. فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره، قالوا لجواريه "من يموت معه؟". فقالت إحداهن "أنا". فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة. فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية

حضرتُ إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره، وجعل أيضا حولها مثل الأنابير الكبار من الخشب، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم، وهو بعد في قبره لم يخرجوه، ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها "ملك الموت". ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا، وهي وليتْ خياطته وإصلاحه، وهي تقتل الجواري، ورأيتها جوان بيرة (=العجوز الشمطاء) ضخمة مكفهرة. فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد اسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا، فأخرجوا جميع ذلك فإذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غير لونه. فألبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه على المضربة، وأسندوه بالمساند، وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه. وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى غرقتا، ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة. ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها، والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم فيجامعها صاحب القبة، ويقول لها "قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك". فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجليها على أكف الرجال، وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها، ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة.

فسألت الترجمان عن فعلها فقال "قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثانية هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودا، وقالت في المرة الثالثة هو ذا أرى مولاي قاعدا في الجنة، والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه "فمروا بها نحو السفينة، فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى "ملك الموت" وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة، وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحا نبيذا فغنت عليه وشربته. فقال لي الترجمان: إنها تودع صواحباتها بذلك، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته، وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه، والدخول إلى القبة التي فيها مولاها. فرأيتها وقد تبلّدتْ وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها، فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت

العجوز التي تسمى "ملك الموت" في عنقها حبلا مخالفا ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت، ومعها خنجر عريض النصل، فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت. ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ووجهه إلى الناس والخشبة المشعلة في يده الواحدة ويده الأخرى على باب استه وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعدما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها.

ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة، فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها. وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معي، فسألته عما قال له، فقال إنه يقول "أنتم يا معاشر العرب حمقى" فقلت "لم ذلك؟" قال "إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم، وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته". ثم ضحك ضحكا مفرطا، فسألت عن ذلك، فقال "من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعة". فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والمولى رمادا مددا، ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك، وكتبوا عليها اسم الرجل، واسم ملك الروس، وانصرفوا. قال: ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمئة يجلسون تحت سريره. وسريره عظيم مرصع بنفيس الجوهر، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا. ولا يترل عن سريره فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد الترول قدم دابته حتى يكون نزوله عليه. وله خليفة يسوس الجيوش، ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته.

فأما ملك الخزر، واسمه خاقان، فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متتره، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها، ويدبر أمر المملكة، ويقوم بها، ويظهر، ويغزو، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعا يظهر الأخبات والسكينة، ولا يدخل عليه إلا حافيا وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان، ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشيغر. ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا، والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به. ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتا ويحفر له في كل بيت منها قبر، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه وتطرح النورة فوق ذلك وتحت الدار نهر والنهر نهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا



إنسان ولا دود ولا هوام. وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ويسمى قبره الجنة، ويقولون قد دخل الجنة. وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب. ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعا أو كرها، وله من الجواري السراري لفراشه ستون ما منهن إلا فائقة الجمال، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج، وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهم خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه، ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها، وانصرف و لم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة.

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل فلا يراه أحد من رعيته إلا خرّ لوجهه ساجدا له لا يرفع رأسه حتى يجوزه. ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته، وقالوا هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه. وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم، فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة. وللملك الخزر مدينة عظيمة على النهر إتل وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له "خز" وهو مسلم، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره.)

وفي هذا السياق يحسن أن نورد رحلة مبكرة قام بها الشاعر الأندلسي الغزال، إنها تصور انطباعات أديب بجانب محدد من بلاد الشمال، لكنها تصلح ايضا أنموذجا للارتحالات التي تعرض بإسلوب أدبي رفيع العلاقات بين الشاعر والمرأة الأجنبية التي تستثير مشاعره.

27. رحلة الغزال إلى بلاد الشمال (250هـ = 864م). أوردها ابن دحية في كتاب (المطرب من أشعار أهل المغرب)

(ولما وفد على السلطان عبدالرحمن رسلُ ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدّة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب، وصحبتُه يحيى بن حبيب، فنهض إلى مدينة شلب (= مدينة اندلسية جنوب باجة)، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حدّ الأندلس في آخر الغرب، وهو الجبل المعروف بألوية، هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة وحصلوا في الحد الذي وصف الغزال في قوله:

قال لي يحيى وصر---- نا بين موج كالجبال
وتولّتنا ريـــــــاح من دبـــور وشــمال
شقّـــت القلعـــين وانـــ----بتّت عُرا تلك الحبـــال
وتمطّى ملك المـــــو----ت إلينا عن حيـــال
فـــرأينا الموت رأى ال----عين حالاً بعد حـــال
لم يكن للقوم فيـــنا يا رفيـــقي رأس مـــال

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار؛ ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها، فاقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم، وأجمّوا أنفسهم. وتقدم مركب المجوس الى ملكهم، فأعلمه بلحاق الرسل معهم، فسرّ بذلك ووجّه فيهم، فمشوا اليه الى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطّردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاث مجار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة، منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشّنار. وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم. فأمر لهم الملك بمترل حسن من منازلهم، وأخرج اليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لرؤيتهم. فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم.

ثم أنهم أنزلوا في كرامة، واقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين الى رؤيته، فاشترط الغزال عليه الاّ يسجد له ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما الى ذلك. فلما مشيا اليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضى اليه، فضيّق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً. والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه، فقال "السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتّع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم، الذي كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع". ففسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال "هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاهم". وعجب من جلوسه الى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، قال "أردنا أن نذله، فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه". ثم دفع إليه كتاب السلطان عبدالرحمن وقرئ عليه الكتاب، وفسِّر له. فاستحسنه وأخذه في يده، فرفعه ثم وضعه في حجره، وأمر بالهدية ففتحت عيابها، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني، فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا الى مترلهم ووســـع الجراية عليهم...

ولما سمعتْ امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجّهت فيه لتراه، فلما دخل عليها سلّم، ثم شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب. فقالت لترجمانها "سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضد ذلك؟" فقال "ما هو إلا أنّي لم أتوهم أن في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا". فقالت لترجمانها "سله أمجدّ هو أم هازل؟" فقال "لا، بل مجّد". فقالت له "فليس في بلدهم إذا جمال". فقال الغزال "فاعرضوا عليّ من نسائكم حتى أقيسها بها". فوجهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعد فيهن وصوّب ثم قال "فيهن جمال، وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميزه كل أحد، وإنما يعنى به الشعراء، وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلت ذلك". فسرّت بذلك سروراً عظيماً وزهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع مِنْ أخذها الغزال، وقال "لا أفعل". فقالت للترجمان "سله، لم لا يقبل صلتي؟ ألأنه حقَرها أم لأنه حقَرني؟" فسأله، فقال الغزال "إن صلتها لجزيلة، وإن الأخذ منها لتشرُّف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها عليّ، فحسبي بذلك صلة، وإنما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً". فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعجباً، وقالت "تحمل صلتُه إليه، ومتى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة". فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف.

قال تمّام بن علقمة: سمعت الغزال يحدِّث بهذا الحديث، فقلت له "وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المنزلة التي صورت؟" فقال "وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلت منها فوق ما أردت". قال تمام بن علقمة: وأخبرني أحد أصحابه، قال "أُولعت زوجة ملك المجوس بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجّه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية، تلطفه بها من ثياب أو طعام أو طيب، حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحُذّر منه الغزال، فحذر وأغبَّ زيارتها. فباحثته عن ذلك، فقال لها ما حُذّر منه. فضحكت، وقالت له "ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأة معه ما أحبت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادة المجوس قبل أن يصل اليهم دين رومة، فألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع، فتعيّر بذلك، ويحجره عليها أهلها". فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس اليه، وعاد الى استرساله.

قال تمام: كان الغزال في اكتهاله وسيماً، وكان في صباه جميلاً، ولذلك سمّي بالغزال. ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد وخطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشُد، ضَرْبَ الجسم، حسن الصورة. فسألته يوماً زوجة الملك - واسمها نود- عن سنِّه، فقال مداعباً لها "عشرون سنة". فقالت للترجمان "ومَنْ هو مِن عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟" فقال للترجمان "وما تنكر من هذا؟ ألم ترقط مهراً ينتج وهو أشهب؟" فضحكت نود، وأعجبت بقوله. فقال في ذلك الغزال بديها:

كلفت يا قلبي هوىً متعباً ... غالبتَ منه الضيغمَ الأغلبا



إني تعلّقتُ مجوسيةً — تأبى لشمس الحسن أن تغرُبا
أقصى بلاد الله لي حيث لا — يلقى اليها ذاهب مذهبا
يا نود يا رُودَ الشباب التي — تُطلِعُ من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخصُ الذي لا أرى — أحلى على قلبي ولا أعذَبا
إن قلتُ يوما إن عيني رأتْ — مشبهَه لم أعدْ أن أكذبا
قالت أرى فودَيه قد نَوّرا — دُعابةً توجب أن أدْعبا
قلت لها يا بأبي إنه — قد يُنتَجُ المهرُ كذا أشهبا
فاستضحكت عُجْباً بقولى لها — وإنما قلت لكي تَعجبا

لما أنشد "نود" الشعرَ وفسره الترجمان لها، ضحكت منه وأمرته بالخضاب. ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب، فمدحت خضابه وحسّنته عنده، ففي ذلك يقول الغزال:

بَكَرَت تُحَسِّنُ لي سَوادَ خِضابي — فَكَأَنَّ ذاكَ أَعادَني لِشَبابي
ما الشَيبُ عِندي وَالخِضابُ لِواصِفٍ — إِلّا كَشَمسٍ جُلِّلَت بِضَبابِ
تَخفى قَليلاً ثُمَّ يَقشَعُها الصَبا — فَيَصيرُ ما سُتِرَت بِهِ لِذَهابِ
لا تُنكِري وَضحَ المَشيبِ فَإِنَّما — هُوَ زَهرَةُ الأَفهامِ وَالأَلبابِ
فَلَدَيَّ ما تَهوينَ مِن شَأنِ الصِبا — وَطُلاوَةُ الأَخلاقِ وَالآدابِ

ثم انفصل الغزال عنهم، وصحبه الرسل الى شنت يعقوب (= سنتياغو) بكتاب ملك المجوس الى صاحبها. فأقام عنده مكرّماً شهرين، حتى انقضى حجُّهم، فصدر الى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج الى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبدالرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً.)

28. يأجوج ومأجوج، القزويني، من كتاب (أثار البلاد وأخبار العباد)

(قبيلتان عظيمتان من الترك من ولد يافث بن نوح.. مسكنهم شرقي الإقليم السابع. روى الشعبي أن ذا القرنين لما وصل إلى أرض يأجوج ومأجوج اجتمع إليه خلق كثير، واستغاثوا من يأجوج ومأجوج وقالوا: أيها الملك المظفر إن وراء هذا الجبل أمماً لا يحصيهم إلا الله، يخربون ديارنا ويأكلون زروعنا وثمارنا، ويأكلون كل شيء حتى العشب، ويفترسون الدواب افتراس السباع، ويأكلون حشرات الأرض كلها، ولا ينمو خلق مثل



نمائهم، لا يموت أحدهم حتى يولد له ألف من الولد ! قال ذو القرنين: كم صنفهم ؟ قالوا: هم أمم لا يحصيهم إلا الله. وأما من قربت منازلهم فست قبائل: يأجوج، ومأجوج، وتأويل، وتاريس، ومنسك، وكمادى. وكل قبيلة من هؤلاء مثل جميع أهل الأرض، وأما من كان منا بعيداً فإنا لا نعرفهم. قال ذو القرنين: وما طعامهم ؟ قالوا: يقذف البحر إليهم في كل عام سمكتين، ويكون بين رأس كل سمكة وذنبها أكثر من مسيرة عشرة أيام، ويرزقون من التماسيح والثعابين والتنانين في أيام الربيع، وهم يستمطرونها كما يستمطر الغيث، فإذا مطروا بذلك أخصبوا وسمنوا؛ وإذا لم يمطروا بذلك أجدبوا وهزلوا. قال ذو القرنين: وما صفتهم ؟ قالوا: قصار ضلع، عراض الوجوه، مقدار طولهم نصف قامة رجل مربوع، ولهم أنياب كأنياب السباع، ومخالب مواضع الأظفار، ولهم صلب عليه شعر، ولهم أذنان عظيمتان: إحداهما على ظاهرها وبر كثير وباطنها أجرد، والأخرى على باطنها وبر كثير وظاهرها أجرد، تلتحف إحداهما وتفترش الأخرى. وعلى بدنهم من الشعر مقدار ما يواريه، وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الكلب، ويتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم.

جاء في بعض الأخبار أن يأجوج ومأجوج ينحتون السد كل يوم حتى يكادون يرون الشمس من ورائه، فيقول قائلهم: ارجعوا سوف ننقبه غداً، فيرجعون فيعيده الله تعالى ليلتهم كما كان، ثم يحفرونه وينحتونه من الغد كذلك كل يوم وليلة، إلى أن يأتي وقت خروجهم فيقول قائلهم: ارجعوا سننقبه غداً إن شاء الله تعالى ! فيبقى رقيقاً إلى أن يعودوا إليه من غدهم فيرونه كذلك، فينقبونه ويخرجون على الناس فيشربون مياه الأرض حتى ينشفوها، ويتحصن الناس بحصونهم فيظهرون على الأرض ويقهرون من وجدوه، فإذا لم يبق أحد لهم رموا بالنشاب إلى السماء، فيرجع إليهم وفيها كهيئة الدم، فيقولون: قد غلبنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ! ثم إن الله تعالى يبعث إليهم دوداً يقال له النغف، يدخل في آذانهم ومناخرهم فيقتلهم، قال، صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن من لحومهم ! روى أبو سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: يفتح سد يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال تعالى: وهم من كل حدب ينسلون. فيغشون الأرض كلها، فينحاز المسلمون إلى حصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، فيشرب يأجوج ومأجوج مياه الأرض، فيمر أوائلهم بالنهر فيشربون ما فيه ويتركونه يابساً، فيمر به من بعدهم ويقولون: لقد كان ههنا مرة ماء ! ولا يبقى أحد من الناس إلا من كان في حصن أو جبل شامخ أو وزر، فيقول قائلهم: قد فرغنا من أهل الأرض، بقي من في السماء. ثم يهز حربته فيرمي نحو السماء، فترجع إليهم مخضوبة بالدم للبلاء والفتنة فيقولون: قد قتلنا أهل السماء ! فبينا هم كذلك إذ سلط الله تعالى عليهم دوداً مثل النغف يدخل آذانهم، وقيل ينقب آذانهم أو أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ولا حركة البتة ! فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء؟ فيتجرد رجل منهم موطن نفسه من القتل فيترل إلى الأرض فيجدهم موتى بعضهم فوق بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ابشروا فقد كفاكم الله عدوكم ! فيخرجون من حصونهم ومعاقلهم. وروي أن الأرض تنتن من جيفهم فيرسل الله مطراً يسيل منه السيول، فيحمل جيفهم إلى البحار. وروي أن مدهم أربعون يوماً، وقبل

سبعون يوماً، وقيل أربعة أشهر. وقال، صلى الله عليه وسلم: هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد، ولا يمرون بفيل ولا خنزير ولا جمل ولا وحشي ولا دابة إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه أيضاً، مقدمتهم بالشام وساقيهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية.)

وتشكّل رحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج حدثا خاصا، لأنه كان مبعوثا من الخليفة الواثق للتحقق خبر من السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين للفصل بين أقوام يأجوج ومأجوج وبقية بني البشر اتقاء شرّهم، كما تورد ذلك كل المرويّات، وكثير منها مشحون بالمبالغات. وقد ارتحل سلام الترجمان بأمر من الخليفة العباسي الواثق الذي حكم بين 227 - 233هـ 841 - 847م. وخبر هذه الرحلة متداول بين الجغرافيين المسلمين. وقد ذكر ابن خرداذبة، وابن فضلان، والإدريسي، وابن حوقل، والإصطخري، وابن سعيد، والحميري، وغيرهم، هذه الأقوام، وأورد بعضهم نص الرحلة، وأشار ابن بطوطة إليهم رحلته، لكنه شكك بوجود السد الذي وصفه سلاّم الترجمان، وقال (لم أر بتلك البلاد مَنْ رأى السد المذكور، ولا مَنْ رأى من رأه). إلى ذلك فقد وردت إشارة في رحلات ماركو بولو إلى هذه الأقوام وبلادها. وتكاد تكون رحلة سلاّم مغامرة من مغامرات الخيال، وابن خرداذبه يوثّقها في كتابه (المسالك والممالك) لكننا حرصنا أن نورد النص كما جاء في كتاب الحميري (الروض المعطار في خبر الأقطار) لأن المعلومات الواردة فيه قبل نص الرحلة المنسوب لسلام الترجمان تلقي ضوءا على تلك الأقوام الأسطورية.

29. بلاد يأجوج ومأجوج، الحميري، من كتاب (الروض المعطار)

(.. وبلاد يأجوج ومأجوج في الإقليم الخامس، وبلاد يأجوج عامرة، وهم عدد كثير وجمع غفير وأمم لا يحصون كثرة، وبلادهم بلاد خصب ومياه جارية ومدائن كثيرة، وهم من ولد سام بن نوح، وهم المفسدون في الأرض، وخلقهم خلق صغار جداً، ولا يعرف ما ديانتهم ولا أي شيء معتقدهم. فأما يأجوج فكلهم قصار جداً، حتى إن طول الرجل منهم لا يتجاوز ثلاثة أشبار، ونساؤهم مثل ذلك، وأوجههم مستديرة في غاية الاستدارة، وعليهم شبه الزغب كثير جداً، وآذانهم كبار مستديرة مسترخية حتى إن أذن الرجل إذا هي تعطفت تلحق طرف منكبه، وكلامهم شبيه بالصفير والشرة عليهم بادية، وهم خفاف الوثوب، وفيهم زنا فاحش، وبلادهم بلاد ثلج وشتاء دائم والبرد عندهم لازم في كل الأوقات. ويقال: إن يأجوج ومأجوج أخوان لأب ولأم، والغالب على ألوانهم البياض والحمرة، ونكاحاتهم كثيرة ونتاجهم فاش، وكانوا قبل أن يصل إليهم الإسكندر ويبني السد عليهم في باب جبلهم الذي كانوا يدخلون منه ويخرجون عليه، يغيرون على من جاورهم حتى أخلوا كثيراً من البلاد والمدن المجاورة لهم من غربي الجبل، وحديث سد ذي القرنين المبني عليهم، وأكثر تلك البلاد خالية لا ساكن بها لكثرة جبالها وغزر مياهها ووحشة أرضها، فلما طغت يأجوج ومأجوج وغلبوا وأكثروا الفساد في الأرض، شكي أمرهم إلى الإسكندر، فلما قصد أرضهم اختبرهم فوجد منهم أمماً عم خيرهم وقل ضررهم هاجروا إلى الإسكندر قبل أن يلحق أرضهم وتبرأوا

له مما يفعل إخوانهم يأجوج ومأجوج، وشهد كثير من القبائل لهم بذلك وأنهم لم يزالوا أبد الدهر يطلبون السلامة، فتركهم الإسكندر خارج السد وأقطعهم تلك الأرض، فسمتهم العرب تركاً؛ لأنهم ممن ترك الإسكندر من يأجوج ومأجوج وأسكنهم خلف السد، فقروا في تلك الأرض، فجميع أصناف الترك، وهم أمم كثيرة، تركهم الإسكندر خلف الردم فانتشروا في الأرض وعمروها وكثرت أنسابهم، وأكثرهم مجوس وعباد نيران، والغالب عليهم الجفاء وغلظ النفوس وقلة الانقياد، وهم بالجملة طائعون لأولي الأمر منهم، وفيهم صرامة لازمة وحمية في طلب الثأر وجبايات الأقطار.

فأما السد، فقال وهب بن منبه: إن ذا القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين، وهو في منقطع أرض الترك مما يلي الشمال، فذرع ما بينهما فوجده مائة فرسخ، فحفر له أساً حتى بلغ إلى الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينته النحاس يذاب ويصب عليه، ثم علاه على الأرض بزبر الحديد والنحاس المذاب، وجعل لذلك عمداً من النحاس الأصفر فصار كأنه برد محبر من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد. ولما بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سراقة بن عمرو إلى الباب، بعد أن رد أبا موسى رضي الله عنه مكانه إلى البصرة، وجعل عمر على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة، وكان من فتح الباب ما كان، فحدث مطر بن ثلج التميمي، قال: دخلت على عبد الرحمن بن ربيعة بالباب وشهربراز وهو كان صاحب الباب عنده، فأقبل رجل عليه شحوب حتى جلس إلى شهربراز فتسارا، ثم إن شهربراز قال لعبد الرحمن: أيها الأمير، أتدري من أين جاء هذا الرجل. هذا رجل بعثته منذ سنتين نحو السد لينظر لي ما حاله ومن دونه، وزودته مالاً عظيماً، وكتبت إلى من يليني وأهديت له وسألته أن يكتب إلى من وراءه، وزودته لكل ملك هدية، ففعل ذلك بكل ملك بينه وبينه حتى انتهى إليه، فلما انتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه كتب له إلى عامله على ذلك البلد فأتاه فبعث معه بازياره ومعه عقابه، فذكر أنه أحسن إلى البازيار، قال: فشكر لي البازيار، فلما انتهينا إذا جبلان بينهما سد مسدود حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده، فنظرت إلى ذلك كله وتفرست فيه ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي البازيار: على رسلك أكافئك، إنه لا يلي ملك بعد ملك إلا تقرب إلى الله تعالى بأفضل ما عنده من الدنيا فيرمي به في هذا اللهب، فشرح بضعة لحم معه وألقاها في ذلك الهوي وانقضت عليها العقاب، فقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء، فخرجت علينا باللحم في مخالبها، وإذا فيها ياقوتة فأعطانيها وهي هذه، فتناولها منه شهربراز حمراء فناولها عبد الرحمن فنظر إليها ثم ردها إليه، فقال شهربراز: لهذه خير من هذا البلد، يعني الباب، وأيم الله لأنتم أحب إلي ملكة من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وأيم الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم أو وفى لكم ملككم الأكبر. فأقبل عبد الرحمن على الرسول وقال له: ما حال الردم وما يشبهه؟ فقال: هذا الثوب الذي على هذا الرجل، وأشار إلى مطر بن ثلج وكان عليه قباء برود يمنة أرضه حمراء ووشيه أسود أو وشيه أحمر وأرضه سواد، فقال مطر: صدق والله الرجل، لقد نفذ ورأى، قال عبد الرحمن: أجل ووصف صفة الحديد والصفر وقرأ: "آتوني زبر الحديد" إلى آخر الآية. وقال عبد الرحمن لشهربراز: كم كانت هديتك؟ قال: قيمة مائة ألف في بلادي هذه، وثلاثة آلاف ألف وأكثر في تلك البلدان.

وذكر ابن عفير أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، أرسل خمسة وعشرين رجلاً إلى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو، وكتب إلى ملك الخزر أن يجوزهم إلى من خلفه، وأهدى إليهم هدايا، ففعل حتى انتهوا إلى الجبلين فرأوا بينهما مثل البصيص وهو بريق الصفر في الحديد وسمعوا جلبة من داخل السور ورأوا درجاً يرقى فيه إلى أعلاه، فصعد فيه رجل منهم، فلما بلغ وسطه تحير فسقط فمات، وانصرفوا بقطعة مسحاة وجدوها عند السد، فأرسل معاوية رضي الله عنه إلى رجل عالم فسأله فقال: يرسل ملك جنده إلى السد، فيهلك واحد منهم ويأتون بحديد ويجمعهم على مائدة فيها طعام، فوافى العالم وهم على تلك المائدة قد جمعهم عليها معاوية رضي الله عنه وخلطهم بغيرهم، فقال هؤلاء هم، فعجب معاوية رضي الله عنه من ذلك.

وقال ابن خرداذبه: حدثني سلام الترجمان، وكان هو الذي يترجم كتب الترك التي كانت ترد على الواثق قال: لما رأى الواثق في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح وجهني وضم إلي خمسين رجلاً وقال لي: عاينه وجئني بخبره، ووصلني بخمسة آلاف دينار وعشرة آلاف درهم وأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة وأعطاني مائتي بغل أحمل عليها الزاد والماء وكتب إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس في انفاذنا، فشخصنا إليه من سر من رأى، فكتب إسحاق إلى صاحب السرير، وكتب لنا صاحب السرير إلى بلد اللان، وكتب ملك اللان إلى فيلان شاه وهو ملك ما يلي الباب والأبواب من خارج، وكتب فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر، فوجه معنا ملك الخزر خمسة أدلاء، وسرنا من عنده خمسة وعشرين يوماً حتى انتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تحملنا شيئاً نشمه ونحجب به نتن ريحها عند دخولها، فسرنا نحو عشرة أيام حتى أفضينا إلى مدن خراب، فسألنا عنها فأخبرنا أن يأجوج ومأجوج خربوها، فسرنا فيها سبعة وعشرين يوماً حتى أفضينا إلى حصن يقرب من الجبل الذي هو أحد الصدفين، تتصل به حصون فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ولهم مساجد، فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فجعلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين؟! فنقول: نعم، فيقولون: أشيخ هو أم شاب؟ فقلنا: شاب، فعجبوا أيضاً وقالوا: أين يكون؟ قلنا: بالعراق في مدينة يقال لها سر من رأى، فيقولون: ما سمعنا بهذا قط ثم سرنا إلى جبل أملس يكاد البصر ينبو عنه، وإذا جبل مقطوع عرضه مقدار مائة وخمسين ذراعاً، وإذا عضادتان مبنيتان مما يلي الجبل من جنبتي الوادي عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعاً في سمك خمسين ذراعاً وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العتبتين، والظاهر منها خمسة أذرع، وهذا الذراع بذراع السواد، وعلى أعلى العضادتين دروند حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعاً، والدروند العتبة العليا، وقد ركب فيها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع، ومن فوق الدروند بنيان متصل بلبن الحديد المغيب في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مدى البصر وفوقه شرافات حديد في طرف كل شرافة قرنان مثنيا الأطراف بعضهما إلى بعض، وللباب مصراعان معلقان، عرض كل مصراع خمسون ذراعاً في ثخن خمسة أذرع، وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع في الاستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمسة



وعشرون ذراعاً، وفوق القفل بخمسة أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف ذراع، وله اثنا عشر دندانجة، كل دندانجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج الهواوين كل واحدة منها معلقة في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار، والحلقة التي في السلسلة مثل حلقة المنجنيق، قال: ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد فيها خمسة أمنان، فيضربون القفل بتلك المرازب ثلاث مرات، فيسمع من وراء الباب الصوت، فيعلم أن هناك حفظة، ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا شيئاً في الباب، فإذا ضرب أصحاب الحصون القفل وضعوا آذانهم فيسمعون دوياً، ومع هذا الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مثلها، بينهما عين عذبة، وفي أحد الحصنين بقية من آلة البنيان التي بني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد والديدكانات، وعلى كل ديدكان أربع قدور مثل قدور الصابون، وهناك بقايا من لبن الحديد قد التصق بعضها ببعض، واللبنة ذراع ونصف في سمك شبر، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير، عشر فراسخ في مثلها تكسيرها مائة فرسخ، قال: وسألت من هناك، هل رأوا أحداً من يأجوج ومأجوج، فذكروا أنهم رأوا مرة واحدة عدداً منهم فوق الشرف، فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم من السد، وكان مقدار الرجل منهم، في رأي العين، شبراً ونصف شبر. قال: فلما انصرفنا أخذنا أدلاء فأخرجونا إلى ناحية خراسان حتى وصلنا إلى سمرقند، وكان أصحاب الحصون زودونا، ثم صرنا إلى عبد الله بن طاهر، قال سلام: فوصلني بمائة ألف درهم، ووصل كل رجل معي بخمسة آلاف درهم وأجرى علينا حتى وصلنا إلى الري، فوصلنا إلى سر من رأى لثمانية عشر شهراً وعشرين يوماً من يوم خرجنا منها.)

وإلى وقت قريب ظلت رحلة أبي دُلف إلى أرمينيا والأجزاء الوسطى من آسيا شبه مجهولة، قياسا برحلته الأخرى المشهورة إلى الصين والهند التي سنأتي على ذكرها في كتاب (الشرق). وهذه الرحلة تكاد تنصرف إلى الأحوال الاقتصادية والطبيعية لهذه المناطق الوعرة. والحق فإن هذه الرحلة تعتبر أغزر النصوص ثراء بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية لعدد كبير من الشعوب التي قيّض لأبي دلف زيارتها. إنه صاحب ملاحظات ثاقبة، ولديه معلومات مثيرة للعجب في مجال المعادن، والصناعات اليدوية، والزراعة، والمناخ، والشعوب، وتضاريس الطبيعة، والقيم الأخلاقية السائدة في المناطق التي يزورها. وهذه الرحلة نص بالغ الأهمية عن لأحوال الاجتماعية في القرن العاشر الميلادي.

30. وصف أرمينيا، وبلاد القوقاز،وأذربيجان، وماجاورها، أبو دُلف (390هـ = 1001م) من كتاب (الرسالة الثانية)

(.. رأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته، وتحيط بأكثر ما عاينته لينتفع به المعتبرون، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة، ويثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض، فأبدأ بذكر المعادن الطبيعية والعجائب المعدنية إذ هي أعم نفعا...فوصلت بالخبر والصفة إلى الشيرز، وهي مدينة بين المراغة وزنجان وشهر

زور والدينور بين جبال، تجمع معادن الذهب، ومعادن الزئبق، ومعادن الأسرب (= القصدير)، ومعادن الفضة، ومعادن الزرنيخ الأصفر، ومعادن للحجارة المعروفة بالجمست، فأما ذهبها فهو ثلاثة أنواع، نوع يعرف بالقومسي (نسبة إلى مدينة قومس جنوب قزوين) وهو تراب يصب عليه الماء، فيسيل ويبقى تبر كالذّر يجمع بالزئبق، وهو أحمر خلوقي (= فاتح) ثقيل، نقي، صبغ ممتنع على النار، لين يمتد. ونوع آخر يقال له الشهرني يوجد قطعا من حبة إلى عشرة مثاقيل صبغ صلب رزين إلا أن فيه يبسا قليلا. ونوع آخر يقال له السجابذي، أبيض، رخو، رزين أحمر المحك يصبغ بالزاج، وزرنيخها مصفح قليل الغبار يدخل في التزابين والتزاويق، ومنه خاصة يعمل أهل اصفهان فصوصا ولا أحمر فيها. وزريقها أجل من الخراساني، وأثقل وأنقى، وقداختبرناه فتقرر من الثلثين واحد في كيان الفضة المعدنية، و لم نجد من ذلك في المشرق. وأما فضتها فإنها تعز لعز الفحم عندهم.

هذه المدينة يحيط سورها ببحيرة في وسطها، لا يدرك له قرار. وإني ارسيت فيه أربعة عشر ألف ذراع وكسورا من ألف فلم تستقر المثقلة، ولا اطمأنت واستدارته نحو جريب بالهاشمي (= وحدة قياس للمساحة قرابة 400م^2) ومتى بل ماؤه بتراب صار لوقته حجرا صلدا، وتخرج منه سبعة أنهار كل واحد منها يترل على رحى ثم يخرج تحت السور، وبها بيت نار عظيم الشأن منه تذكى نيران المجوس إلى المشرق والمغرب، وعلى رأس قبته هلال فضة هو طلسمه وقد حاول قلعه خلق من الأمراء والمتغلبين فلم يقدروا على ذلك (= يقصد بذلك المعبد الزرادشتي المشهور "آذار جوشناسب" في مدينة الشيز). ومن أعاجيب هذا البيت أيضا أن كانونه يوقد منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد البتة، ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمان. وهذه المدينة بناها هرمز بن خسر وشير بن بهرام بحجر وكلس. وعند هذا البيت ايوانات شاهقة وأبنية عظيمة هائلة، ومتى قصد هذه المدينة عدو نصب المنجنيق على سورها، فإن حجره يقع في البحيرة التي ذكرناها، فإن آخر منجنيقه ولو ذراعا. بالمثل سقط الحجر خارج السور.

والخبر في بناء هذه المدينة أن هرمز ملك الفرس بلغه أن مولودا ولدا مباركا يولد في بيت المقدس في قرية يقال لها بيت لحم، وأن قربانه يكون ذهبا وزيتا ولبانا، فأنفذ بعض ثقاته بمال عظيم وأمره أن يشتري من بيت المقدس ألف قنطار زيتا، وحمل معه لبانا كثيرا، وأمره أن يمضي إلى بيت المقدس، ويسأل عن أمر هذا المولود فإذا وقف عليه دفع الهدية إلى أمه، وبشرها بما يكون لولدها من الشرف والذكر وفعل الخير، ويسألها أن تدعو له ولأهل مملكته. ففعل الرجل ما أمر وصار إلى مريم فدفع إليها ما وجه به معه، وعرّفها بركة ولدها. فلما أراد الانصراف عنها دفعت إليه جراب تراب، وقالت له عرّف صاحبك أن سيكون لهذا التراب بناء فأخذه وانصرف. فلما صار إلى موضع"الشيز"وهو إذ ذاك صحراء، مات، وقد كان قبل موته حين أحس بذلك دفن الجراب هنالك، واتصل الخبر بالملك. فتزعم الفرس أنه وجّه رجلا معه، وقال له "إمض إلى المكان الذي مات فيه صاحبنا فابن على الجراب بيت نار". وقال "ومِن أين أعرف مكانه؟". قال "إمض فلن يخفى عليك" فلما وصل إلى الموضع تحير وبقى لا يدري أي شئ يصنع، فلما أمسى وأجنّه الليل، نظر إلى نور عظيم يرتفع من



مكان بالقرب منه، فعلم أنه الموضع الذي يريده. فصار إليه، وخط حول النور خط وبات، فلما أصبح أمر بالبناء على ذلك الخط، فهو بيت النار الذي بالشيز.

وخرجتُ من هذه المدينة إلى مدينة أخرى على أربعة فراسخ تعرف بالران (= في أرمينيا) فيها معدن ذهب ثقيل أبيض فضي أحمر المحك إذا حمل على عشرته واحد من الفضة أحمر، ووجدت معدن الأسرب بها، واستعملت منه مرداسنجا (= مركّب كيمياوي يقصد به أوكسيد الرصاص) فخلص لي من كل مَنٍّ دانقٌ ونصف فضة، ولم أجد فيما سواه من معادن الرصاص. ووجدت بها اليبروح (= مخدّر نباتي) كثيرا عظيم الخلقة يكون الواحد منه عشرة أذرع أو أكثر من ذلك. وفي هذه المدينة نهر من شرب منه أمن من الحصاة، وبها حشيشة تضحك من تكون معه حتى يخرج به الضحك إلى الرعونة، وإن سقطت منه أو شئ منها اعتراه حزن لذلك فبكى، وبها حجارة بيض غير شفافة تقيم الرصاص ويقع بها من السحاب دويبة تنفع من داء الثعلب باللطوخ، وثعالبها قرع الرؤوس بلا شعر البتة. وسرتُ منها إلى وادي اسفندوبة (= يرجح أنه نهر سفيد رود) فوجدت عليها حمامات كثيرة بورقية (= حمامات معدنية) تنفع من الرياح في العصب فقط، وبه حمة تصلح للحفاء. ووصلت منها إلى معدن زاج أحمر سوري ينبت فيه الذهب الأبيض في الصيف، فيحمر من داخل حقه. وخرجت من هناك إلى "الطرم" فوجدت بها "ويزنجان" معادن للزاج شريفة تفوق المصري والقبرسي والكرماني، ووجدت بها معادن بوارق وشبوب البياض والحمرة، ووجدت بها حمة تصلح للجراحة العتيقة فأما الطرية فلا. ووجدت بها عينا تنبع ماء يستحجر إذا ضربه الهواء تنفع من دم الأرحام سيالا، ومن دبر الحمير جامدا. ووجدت بها حجارة بيضاء تقوم مقام الباذزهر.

ووصلت إلى قلعة ملك الديلم المعروفة "بسميران" فرايت في أبنيتها وأعمال فيها ما لم أشاهده في غيرها من مواطن الملوك، وذاك أن فيها ألفين وثمانمائة ونيفا وخمسين دارا كبارا وصغارا. وكان محمد بن مسافر صاحبها إذا نظر إلى سلعة حسناء أو عمل محكم سأل عن صانعه، فإذا أخبر بمكانه وموضعه أنفد إليه من المال ما يرغب مثله فيه، وضمن له أضعاف ذلك إذا صار إليه فإذا حصل عنده منع أن يخرج من القلعة بقية عمره. وكان يأخذ أولاد رعيته ويسلمهم في الصناعات. وكان كثير الدخل قليل الخرج واسع المال ذا كنوز عظيمة فما زال على ذلك إلى أن أضمر أولاده ومخالفته رحمة منهم لمن عندهم من الناس الذين هم في زي الأسارى، فخرج يوما لبعض متصيداته فلما عاد غلقوا باب القلعة دونه، وامتنعوا عليه، فاعتصم منهم بقلعة أخرى في بعض أعماله، وأطلقوا من كان عنده من الصناع وكانوا خمسة آلاف إنسان، فكثر الدعاء لهم بذلك. وأدركت ابنه الأوسط الحمية والأنفة أن ينسبه أبوه إلى العقوق، وأنه إنما رغب في الأموال والذخائر والكنوز. فجمع جمعا عظيما من الديلم وخرج إلى أذربيجان فكان من أمره مالا يخفى على القاصي والداني.

ثم إني رجعت إلى أذربيجان في الجبل إلى "موقان" (= سلسلة جبال في أذربيجان) فكان مسيري ثمانين فرسخا تحت الشجر على ساحل بحر طبرستان العظيم (= بحر قزوين) حتى أثبت موضعا يقال له "باكويه" (=باكو) من أعمال "شروان" فألقيت به عينا للنفط تبلغ قبالتها كل يوم ألف درهم وإلى جانبها عينا أخرى

تسيل نفطا أبيض كدهن الزئبق لا ينقطع ليلا ولا نهاراً يبلغ ضمانه مثل ذلك. وسرت من هناك في بلد الأرمن حتى انتهيت إلى تفليس. وهي مدينة لا إسلام وراءها، يجري فيها نهر يقال له "الكر" يصب إلى البحر وفيه غروب تطحن وعليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحرارة لا توقد ولا يستقى لها ماء وعلتها عند أولى الفهم تغني عن تكلف الإبانة عنها، وأردت أن أمضي إلى مغار الطيس لا نظر إليه فلم يمكن ذلك لسبب قطع عنه وانكفيت إلى الغرض. ومنها إلى أردبيل (= في شمال إيران) فركبت جبال الويزور (= في أرمينيا) وقبان (=كفان) وخاجين (= خاتشين) والربع وحندان والبذين، وبها معدن الشب المنسوب إليها، وهو شب الحمرة المعروف باليماني، ومنها يحمل إلى اليمن وواسط، ولا ينصبغ الصوف بواسط إلا به، وهو أقوى من المصري، وبها وبأردبيل وهذه الجبال التي تقدم ذكرها حمامات تصلح للحرب فقط. وبالبنذين موضع يكون تكسيره ثلاثة أجربة، يقال إن فيه موقف رجل لا يقوم فيه أحد يدعو الله إلا استجيب منه، وفيه تعقد أعلام المحمرة المعروفين بالخرمية (= أحد المذاهب الثنوية الفارسية) ومنه خرج بابك، وفيه يتوقعون المهدي (= ثار بابك الخرمي، ثم قتل عام 837م) وتحته نهر عظيم إن اغتسل فيه صاحب الحميات العتيقة قلعها عنه، وإلى جانبه نهر الرس (= أراكس) وعليه رمان عجيب لم أر في بلد من البلدان مثله، وبها تين عجيب، وزبيبها يجفف في التنانير؛ لأنه لا شمس عندهم لكثرة الضباب. و لم تصح السماء عندهم قط. وعندهم كبريت قليل يجدونه قطعا على المياه ويسمن النساء إذا شربنه مع الفتيت.

ونهر الرس يخرج إلى صحراء البلاسجان، وهي إلى شاطئ البحر، وفي الطول من برزند إلى برذغة (=مدينة قوقازية). ومنها ورثان والبيلقان (= تعرف آثارها الآن بأرين-كالا). وفي هذه الصحراء خمسة آلاف قرية أو أكثر خربا، إلا أن حيطانها وأبنيتها قائمة لم تتغير لجودة التربة وصحتها. ويقال إن تلك القرى كانت لأصحاب الرس الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ويقال إنهم رهط جالوت قتلهم داود وسليمان عليهما السلام، لما منعوا الخراج، وقتل جالوت بأرمية، وبها قبره وكنيسة الفتح وكنيسة العز بأرمية أيضا. وبأرمية أيضا البحيرة المرة التي لا نبات عليها ولا حيوان بقربها، وفي وسطها جبال يقال لها كبوذان، وفيها قرى يسكنها ملاحو سفن ذلك البحر واستدارتها خمسون فرسخا، ويقطع عرضها في ليلة ويخرج منها ملح، يجلو يشبه بالتوتيا (= الزنك) وعلى ساحلها مما يلي المشرق عيون تنبع ويستحجر ماؤها (= يتكون منه الرخام) إذا أصابه الهواء، وعيون تصب إلى البحر ماء مرا وحامضا وملحا إذا صب على الزيبق فتته لوقته وأقامه حجرا يابسا. وهناك حجارة بيض رخوة تبيض الأسرب في الذوب حتى تلحقه ببياض القلعي وقريب من الفضة، وعليها قلاع حصينة. وجانب من هذه البحيرة يأخذ إلى موضع يقال له وادي الكرد، فيه طرائف من الأحجار، وعليه مما يلي سلماس حمة شريفة جليلة نفيسة الخطر كثيرة المنفعة، وهي بالاجماع والموافقة خير ما يخرج من كل معدن في الأرض، يقال لها "زراوند" وإليها ينسب البورق الزرواندي؛ وذلك أن الإنسان أو البهيمة يلقى فيها وبه كلوم، قد اندملت، وقروح قد التحمت، ودونها عظام موهنة وأزجة كامنة وشظايا غالصة فتتفجر أفواهها، ويخرج ما فيها من قيح وغيره، وتجتمع على النظافة ويأمن الإنسان غائلها. وعهدي

بمن توليت حمله إليها وبه علل من جرب وسلغ وقولنج وجزاز وضربان في الساقين واسترخاء في العصب، وهم لازم وحم دائم، وبه سهم قد نبت اللحم على نصله وغار في بدنه، وكنا نتوقعه يصدع كبده صباح مساء، فأقام ثلاثة أيام وخرج السهم من خاصرته لأنها أرق موضع وجد فيه منفذا، و لم أر مثل هذا الماء إلا في بلد "التيز" والمكران، فإني أذكر علته إذا بلغت إلى سلوكي موضعه إن شاء الله وحده.

ومن شرف هذه الحمة أن مع مجراها مجرى ماء عذب زلال بارد، فإذا شرب منه إنسان فقد أمن الخوانيق، ووسع عروق الطحال الرقاق، وأسهل السوداء من غير مشقة، فإذا اكتحل صاحب العشا من مائها باردا أبصر، ومن اشتم من طينها لم تقمر عينه من الثلج، والبهيمة التي تدخلها لا تجرب ولا يجرب لها ولد أبدا، ويصب إلى هذه البحيرة أنهار كثيرة، ولأرمينيه بورق هذه الحمة وبورق البحيرة (= وان) التي يستخرج منها الطريخ (= سمك) وبورق يكون في باجنيس (= منطقة في أرمينيا) وهو بلد بني سليم. وفي هذا البلد ملاحة جيدة الملح، وبها أيضا معدن للملح الاندراني (= بلوري) وبها معدن مغنيسيا، ومعدن نحاس، وهو الذي "بحيزان" (= جوار بدليس) ومنه يكون التوتيا المحمودي والضفادعي وفيه شئ من الزاج الأسود لا خير فيه. وملحها دون ملح "حيزان" وبها نبات الخزامى والشيح الذي يخرج الحبات من الجوف إلا أن التركي خير منه وأقوى. وبها ابسنتين (نبات مر المذاق) جيد "وانيتمون" (= معدن فضي) صالح وبها "أسطو خوذوس" وحشائش كثيرة نافعة، وبها السنبل الرومي، وبينها وبين "أفلوغونيا (= منطقة جبلية في تركيا)" بلد كبير لا يخرج منه عالم ولا خرج فيما سلف وذلك بالطبع. وفي هذا البلد قلاع حصينة منها قلعة يقال لها "وريمان" وهي في وسط البحر على سن جبل لا ترام، وهناك نهر يغور في الأرض يقال إنه نهر "نصيبين". والجذام يسرع إلى أهلها لكثرة أكلهم الكرنب، والغدر فيهم طباع. وقد احتج لهم في ذلك وأقام عندهم بعض إخواني وزعم أنه لا غدر فيهم. وقال إن الرجل منهم إذا كان فقيرا لم يحب أن يراه أهل بلده. وهذه الخلة من كرم الطبيعة، وصفاء الطينة.

وفي أهل هذا البلد خدمة الضيف، وقرى واسع، وحسن طاعة لرهبانهم حتى أن الواحد منهم إذا حضرته الوفاة أحضر القس ودفع إليه مالا واعترف له بذنب مما عمله، والقس يستغفر له وقد تضمن له الصفح والعفو عن سائر ذنوبه، ويقال إن القس يبسط كساءه، فكلما ذكر ذنبا بسط القس يده ثم قبضها، وقال قد أخذته ثم يطرحه في كسائه، فإذا لم يبق له ذنب، جمع القس كساءه وحمله وخرج، وقال قد حملت ذنوبك وأنا ألقيها في الصحراء، ويقرر في نفسه الغفران والتجاوز. وليس هذه السنّة في شئ من الأديان كلها إلا في هؤلاء. وهم ضرب من الأرمن فقط. وأصواتهم في درس إنجيلهم، وإيقاع نغمهم أطيب وأشجى من أصوات غيرهم من فرق النصارى، وترنمهم أبكى لقلب المحزون المائل طبعه إلى المراثي والنوح من رنات العرب بالندب، وألحانهم في البيع أحلى على سمع الطرب الصابر؛ لأن المرح والفرح من ترجيع الأغاني. ويقال إن ترتيب غنائهم بالأوتار لطيب صحيح. وفيها جبل يقال له "ماسيس (= أرارات)" يخرج من أصله عيون كثيرة غزيرة لا تنقص عن حالها ولا تزيد، باردة في الصيف مانعة حامية في الشتاء، ناعمة، لا يفارق الثلج رأسه شتاء ولا صيفا، ويتولد في ثلجه دود عظام جدا يكون الدودة نحو العشرين ذراعا أو أكثر، في استدارته عشرة أذرع.



وبأرمينية عيون يخرج منها ماء حامض مفتح وأكثرها حول هذا الجبل، وبها زرنيخ أصفر كثير في معدن واحد مما يلي المشرق. وبها زاجات وكباريت قليلة. ولا معدن فضة ولا ذهب بها. وأرمينية رخيصة الأسعار، وربما كان القحط بها عظيما جدا. وهي كثيرة الآفات وبها حجارة كثيرة ذوات خواص مذكورات. وتقوم بها عدة أسواق في السنة تباع فيها أشياء كثيرة من الفرس والديباج والبغال والبزبون وغير ذلك. وأرمينية قليلة الآثار وبها معدن مارقشيتا صفراء والذي بارض "الشيز" في القرية المعروفة "بنمراور" خير منه، ولا أظن أني رأيت مثله. ويتصل أرمينية بجبال الحور ثم بجبال "داس" ثم "بالحرانية" "ونريز" و"ونريز" هذه كانت مملكة لحافرة طئ. وكانت طرفا مقصودا قد قصده أبو تمام والبحتري وغيرهما، وكان علي بن مر الطائي صاحبها ممدحا يقصده الشعراء فينصرفون عنه باللهى حتى غلب على البلد صنف من الأكراد يعرفون [بالهذبانية]. فملكوا المدينة، وعطلوا رسمها، وأخربوا رساتيقها، وعقوا آثارها، وتمادت بهم هذه الحال زمانا، فلما ضعف السلطان، وأمنوا طلب الولاه، وقصد الأمراء عمروا ما أخربوا واستعملوا في تلك الناحية مثل من تقدمهم، ووصلوا قراها بالسلق والدينور وأعمال شهرزور.

وشهرزور مدينات وقرى، وفيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال "نيم أزراي" وأهلها عصاة على السلطان، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان. والمدينة في صحراء ولأهلها بطش وشدة يمنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم. وسمك سور المدينة ثمانية أذرع، وأكثر أمرائهم منهم وبها عقارب قتالة أضر من عقارب "نصيبين". وهم موالي عمر بن عبد العزيز وجرأهم الاكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء، وذلك أن بلدهم مشتى سنتين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية، واليابسان، والحكمية، والسولية. ولهم به مزارع كثيرة ومن صحاريه يكون أكثر أقواتهم. وبقرب من هذه المدينة جبل يعرف بشعران، وآخر يعرف بالزلم فيه حب الزلم الذي يصلح لأدوية الجماع ولا أعرفه في مكان غيره. ومنها إلى ديلستان سبعة فراسخ. وهذه قرية كان الديلم في أيام الأكاسرة إذا خرجوا عن بلادهم للغارة عسكروا بها وخلفوا سوادهم لديها وانتشروا في الأرض عائثين، فإذا فرغوا من غاراتهم عادوا إليها، ورحلوا منها إلى مستقرهم، فهي تعرف إلى اليوم بهم. وبشهر زور مدينة أخرى دونها في العصيان والنجدة تعرف "بيبير" وأهلها شيعة صالحية زيدية أسلموا على يد زيد بن علي. وهذه المدينة مأوى كل ذاعر ومأوى كل صاحب غارة. وقد كان أهل نيم أزراي أوقعوا بأهل هذه المدينة وقتلوهم وسلبوهم وأحرقوهم بالنار عصبية للدين وظاهر الشرعية وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. وبين المدينتين مدينة صغيرة يقال لها "دزدان" بناؤها على بناء "الشيز" وداخلها بحيرة تخرج إلى خارجها تركض الخيل على أعلى سور لسعته وعرضه. وهي ممتنعة على الأكراد والولاة والرعية. وكنت كثيرا ما أنظر إلى رئيسها الذي يدعونه الأمير، وهو يجلس على برج مبني على بابها عالي البناء ينظر الجالس عليه إلى عدة فراسخ وبيده سيف مجرد، فمتى نظر إلى خيل من بعض الجهات لمع بسيفه، فانجلفت مواشي أهلها وعواملهم إليها. وفيها مسجد جامع. وهي مدينة منصورة يقال إن داود سليمان عليهما السلام دعوا لها

ولأهلها بالنصرة فهي ممتنعة أبدا عمن يرومها. ويقال إن "طالوت" كان منها وبها استنصر بنو إسرائيل، وذلك أن جالوت خرج من المشرق وداود نم المغرب فأيده الله عليه.

وهذه المدينة بناها "دارا" و لم يظفر الاسكندر بها ولا أقام أهلها له الدعوة ولا تملكها المسلمون ولا فتحوها، وإنما دخل أهلها الإسلام بعد اليأس من طاعتهم. والمتغلبون عليها من أهلها إلى اليوم يقولون إنهم من ولد طالوت، وأعمالها متصلة بخانقين، وكوخ "جدان" مخصوصة بالعنب "السونايا" وقلة رمد لاعين والجدري. ومنها إلى خانقين يعترض نهر تامرا. وبخانقين عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل، وبها قنطرة على واديها عظيمة الشأن تكون أربعة وعشرين طاقا. كل طاق يكون عشرين ذراعا. عليها جادة خراسان إلى الكوفة ومكة وينتهي الطريق إلى طريق قصر "شيرين" وبها أبنية شاهقة بكل الطرف عن تحديدها، ويضيق الفكر عن الاحاطة بها. وهي إيوانات كثيرة متصلة، وخلوات، وخزائن، وقصور، وعقود، ومنتزهات، ومستشرقات، وأروفة، وميادين، ومصايد، وحجرات، ودساكر يطيل ذوو اللب الوقوف عليها، تبني عن طول وقوة وأعمار طويلة يعتبر بها ذوو البصائر. والملك الذي بناها أبرويز. وبحلوان من الآثار قريب من قصر شيرين، ومنها إلى طاق الحجام، وهو عقد من الحجارة على قارعة الطريق في مضيق بين جبلين عجيب البناء عالي السمك، ومنه إلى ماذروستان وهو إيوان واحد عظيم وبين يديه ذكة عظيمة وبستان خراب بناه بهرام جور يقع الثلج على نصفه مما يلي المشرق وخراسان، ولا يقع على النصف الآخر الذي يلي العراق ومنه إلى مرج إلى مرج القلعة وهو مرج أفيح وبه آثار قلعة عادية عجيبة البناء. وماء حلوان وبئ ردئ كبريتي ينبت عليه الدفلي. وبها رمان لم أر في بلد من البلاد مثله. وبها أيضا تين عجيب الأمر يقال له "الشاهنجير" تفسيره ملك التين. وبالقرب منها جبل فيها عدة عيون كبريت ينتفع بها من أدواء كثيرة.

ويقربها أيضاً جبل عليه صومعة تعرف بدير الغار، وسميت بهذا الاسم لأن قوماً يزعمون أن أبا نواس خرج من العراق قاصدا إلى خراسان فوصل إلى هذه الصومعة. وكان فيها راهب شلف حسن الوجه ظريف الهيئة، فأضاف أبا نواس، وقراه، و لم ينو في أمره غاية. فلما شربا دعاه أبو نواس إلى البدال فاجابه، فلما قضى حاجته من أبي نواس غدر به وامتنع عليه، فقتله أبو نواس، و لم يسكن الصومعة إلى يومنا هذا أحد. وهي مركز ظراف حلوان يشربون فيها لهذه العلة؛ ولأن موضعها طيب نزه، وعليها مكتوب بخط يذكرون أنه خط أبي نواس:

ما أنصف الراهب من نفسه   إذ ينكح الناس ولا ينكح

وبمرج القلعة مدينة حسناء باردة الهواء جدا وفيها مياه باردة. وعندها قلعة تشرف على بساتينها إلا أنها خراب يقال إن ابرويز قتل ابنا له فيها، فخربت من ذلك. وقد كان بحكم التركي هم ببنائها فمات قبل ذلك. ومنها إلى الطرز، وهي مدينة ذات جامع في صحراء واسعة، وفيها إيوان عظيم بناه خسر وكرد بن شاهان ولا أثر بها سواه، ويعطف منها يمنة إلى ما سبذان ومهرجان قذق وهي مدن عامرة منها اريوجان، وهي مدينة



حسنة في صحراء بين جبال كثيرة الشجر كثيرة الحمات والكباريت والزاجات والبوارق والاملاح. وماؤها يخرج إلى "البندنيجين" فيسقى النخل بها ولا أثر بها إلا حمات ثلاث وعين إن احتقن انسان بمائها أسهل إسهالا عظيما، وإن شربه قذف اخلاطا كثيرة. وهو يضر أعصاب الرأس. ومن هذه المدينة إلى "الرد" و"البراو" عدة فراسخ، وبها قبر المهدي، ولا أثر بها إلا بناء قد تعفت رسومه و لم يبق منه آثار، ثم يخرج منها إلى "السيروان" وبها آثار حسنة ومواطن عجيبة. ثم يخرج منها إلى "الصيمرة" وهي مدينة حسنة تجمع النخل والزيتون والجوز والثلج وفواكه الجبل والسهل. وبينها وبين الطرحان قنطرة عظيمة تكون ضعف قنطرة خانقين بديعة عجيبة. ومنها إلى قرميسين (= كرمنشاه) وهي مدينة حسنة عجيبة ولا أثر في داخلها إلا أثر دار يقال إنها كانت عجيبة، وقد شاهدنا بها شيئا عجيبا في سنة أربعين وثلاثمائة، وذلك أن رجلا من رؤسائها أراد بناء دار قدرها لنفسه وحرمه وحاشيته وصورها المهندسون له. فلما ابتدأ في حفر الأساس ظهر له بناء فاستقصاه، فافضى به إلى دار على الصورة التي صورت له لا يغار من حجرها ومجالسها وصحونها وقبابها وبيوتها شيئا. وزعموا أن هذه الدار من عمل الذي صور "شبديز".

قال وصورة "شبديز" على فرسخ من مدينة قرميسين وهو رجل على فرس من حجر عليه درع لا يخزم من الحديد شيئا يتبين زرده، والمسامير المسمرة في الزرد لا يشك من نظر إليه أنه متحرك. وهذه الصورة صورة "برويز" على فرسه "شبديز" وليس صورة في الأرض تشبهها. وفي الطاق الذي هذه الصورة فيه عدة صور من نساء ورجال "رجالة، وفرسان". وبين يديه رجل في زي فاعل على رأسه قلنسوة وهو مشدود الوسط بيده بال كأنه يحفر به الأرض والماء يخرج من تحت رجله، وتسير من هذا المكان إلى قنطرة على واد عريض تكون مثل قنطرة خانقين بل أحكم منها صنعة. ومنها إلى جبل يقال له "سميرة" عال مشرف وفيه صور بديعة ونقوش حسنة، يقال إن كسرى أبرويز كلف عملها لفرهاذ الحكيم. ودون هذا الموضع قنطرة عظيمة عجيبة البناء على واد بعيد القعر. ثم تسير من هذه القنطرة إلى قرية كبيرة غناء كثيرة الخير يقال لها "أبا أيوب" منسوبة إلى رجل من "بين جرهم" يكنى أبا أيوب بناها، وفيها دكان عظيم بالصخر، وقد نقض بعض صخره رجل من الأكراد، وبنى به حصنا عظيما يقال له "سرماخ" في جبل مظلل على هذه القرية. وبعد هذا المكان قنطرة أعظم ما تقدم ذكره وألقى صنعه تعرف بقنطرة النعمان، وكان السبب في بنائها أن النعمان بن النمذر في بعض ما كان يفد على كسرى اجتاز بواد عظيم بعيد القعر شاق النزول والصعود. فبينما هو يسير فيه إذ لحق امرأة معها صبي تريد العبور. فلما جاءها موكبه وقد كانت كشفت ثيابها والصبي على عنقها ارتاعت ودهشت، فألقت ثيابها، وسقط الصبي عن عنقها، فغرق، فغم لذلك النعمان، ورقّ لها، ونذر أن يبني هناك قنطرة، فاستأذن كسرى في ذلك فلم يأذن له لئلا يكون للعرب في بلد العجم أثر. فلما وافى"بهرام جوبين"لقتال أبرويز استنجد النعمان، فأنجده على شرائط شرطها عليه، منها أن يجعل له نصف الخراج ببرس وكوني، وأن يبني القنطرة التي قدمنا ذكرها، فأجابه إلى ذلك، فلما انصرف بهرام جوبين بني النعمان القنطرة التي ذكرنا.

وتسير من هذه القنطرة قرية تعرف "بدستجرد كسروية" فيها أبنية عجيبة من جواسق وأيوانات كلها من الصخر المهندم لا يشك الناظر إليها أنها صخرة واحدة منقورة. ومنها إلى قرية أخرى يقال لها "ولا شجرد "ذات العيون يقال إن فيها ألف عين يجتمع ماؤها إلى نهو واحد. ومنها إلى "ماذران" وهي بحيرة يخرج منها ماء كثير مقدار أن يدير مائة رحى متفرقة مختلفة. وعندها قصر كسرى شامخ البناء وبين يديه زلاقة وبستان كبير. ومنها إلى قصر اللصوص. وبناء هذا القصر عجيب جدا، وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعا وفيه ايوانات وجواسق وخزائن تفوق ما تقدم رفعة وعلوا يتحير في بنائه وحسن نقوشه الابصار. وكان هذا القصر معقل أبرويز لكثرة صيده وعذوبة مائه وحسن مروجه وصحاريه. وحول هذا القصر مدينة كبيرة لها جامع. ومنها إلى موضع يعرف بمطبخ كسرى أربعة فراسخ. وهذا المطبخ بناء عظيم في صحراء لا شئ حوله من العمران. وكان أبرويز كما ذكرنا يترل بقصر اللصوص وابنه شاه مروان يترل"بأسد آباد"وبين المطبخ وبين قصر اللصوص أربعة فراسخ وبينه وبين أسد أباد ثلاثة فراسخ، فاذا أراد الملك أن يتغذى اصطف الغلمان سماطين من قصر اللصوص إلى موضع الطبخ وبينهما أربعة فراسخ، فيتناول بعضهم الغضائر من بعض إليه، وكذلك من المطبخ إلى أسد أباد، وبينهما ثلاثة فراسخ. وسميت بأسد أباذ باسد ابن ذي السرو الحميري. ومنها إلى همذان.

وهمذان مدينة دار ابن دارا وفي وسط همذان المدينة العتيقة وهي مدينة كبيرة مبنية على دكة يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعا ولها أربعة أبواب طاقات عالية. وكان "دارا" بناها استحسانا للمكان وكان موضعها أجمة مسبعة فلم تزل حتى غيض الماء عنها وبنى المدينة فيها. وقد قيل أنها كانت قديمة وأن "دارا" لما زحف إليه "ذو القرنين" شاور وزراءه في مدينة حصينة يحرز فيها حرمه وكنوزه، فقال له بعضهم أعرف مدينة خرابا بين جبال شامخة وطرق وعرة إن بناها الملك وأحرز فيها ذخائره ووكل بحفظها أربعة الف من ثقاته امتنعت على كل من رامها. ووصفها له فسار إليها دارا حتى رآها، وعلم أنها تمتنع على من أرادها، فبناها، وجعل فيها خزائن غامضة لأمواله وكنوزه، وجمع فيها حرمه، ووكل بها ثقاته، فلما كان من أمره مع دارا ما كان، أنفذ إليها ذو القرنين جيشا عظيما، فأقام عليها مدة لا يقدر على فتحها، فهمّ صاحب الجيش بالانصراف، فقال له نصحاؤه: كاتب الملك في انصرافك، وعرفه أمرها. فكتب إليه في ذلك، فكتب ذو القرنين إلى مؤدبه ارسطاطليس يعرفه أمرها فأجابه أن صوّرها لي بطرقها وجبالها وأنهارها، ففعل ذلك، وأنفذ الصورة إليه. فكتب يأمره بسد نهرها على نحو الفرسخ سنة، وأن يجعل سده سكرا ويوثقه، فإذا كان بعد سنة فتح ماءه، وقرن البقر والجواميس والبغال والبراذين بعضها مع بعض وأرسلها في الماء؛ فإنها تفتح السكر، وإذا فتحته حمل الماء على المدينة فهدم سورها، وتهيأ له دخولها. ففعل ذلك، فاقتلع الماء بحدته لما انفتح السكر، سور المدينة، وحمل معه صخورا كبارا، هي إلى وقتنا هذا في شوارع مدينة همذان. ودخل أصحاب ذي القرنين المدينة لما اقتلع الماء السور.



وقرية همذان. ذهبية كلها إلا أن الفحم بها قليل وينفق على ذلك مقدار ما يحصل منه ولا ريح فيه. ولا حمة فيها ولا معدن بها إلا معدن حجر "سباذج" قد ظهرهم. ووراء قرية أبي أيوب المعروفة بالدكان قرية على فرسخ فيها بحيرة صغيرة القدر في رأي العين لا يدرك غورها. ويقال إن فيها غرق بعض ملوك الفرس وأن والدته سارت ومعها الأموال، فبذلت لمن يخرجه أو شيئا من عظامه الرغائب، وأن الغواصين اجتهدوا في ذلك فلم يلحقوا لها غوار. فلما رأت ذلك أمرت بطمها فحمل إليها من التراب ما لا يوقف على كثرته، فكان يطرح فيها فلا تيبس، فلما أعياها سده انصرفت وعندها تل تراب عظيم هائل يقال أنه حمل دفعة واحدة تركته ليعلم الناس كثرة ما حملت وطرحت فيها فلم ينفعها ذلك. وماء هذه البحيرة يختلط بماء "الدينور" ويصبان جميعاً إلى واد يمر على حمة مدرجة لها حياض يتبع الماء إلى الحوض الأسف، فإذا زاد ماء الوادي وغمر الحوض الأسفل نبع ماء الحمة في الحوض الذي فوقه فلا يزال على هذا الترتيب إلى آخر الحياض، فإذا نقص الماء من الحوض الأعلى نبع الماء الذي تحته ولا يزال الأمر كذلك من حوض إلى الحوض الأسفل وماء هذا يجتمع وماء الصيمرة ويصبان جميعا إلى "السوس".

وبلغني أن الماء الذي تحت "شبديز" بقرميسين إذا ضربت ألف درهم، وألقيت فيه حرارة السبك زادت ستة دراهم، ولا أدري ما العلة في هذا. وتسير من همذان إلى نهاوند، وبها ثور وسمكة من حجر حسناء الصنعة يقال إنهما طلسم لبعض الآفات التي كانت بها. وبها آثار للفرس حسنة وحصن في وسطها عجيب البناء على السمك. وبها قبور قوم من العرب استشهدوا في صدر الإسلام، وبها قبر عمرو ابن معد يكرب. وماؤها بإجماع العلماء عذب مرى. وبها شجر خلاف تعمل منه الصوالجة ليس في شئ من البلدان مثله صلابة وجودة. ويقال إن رسولا لملك الروم ارسل إلى المأمون وهو بمرو فدفع إليه كتابا، فلما قرأه ضم إلى الرسول جماعة من الجند، وكتب له إلى عامل نهاوند أن يخلي بيته وبيّن ما يريد، فلما صار إليه قال له افعل ما أحببت، فصار إلى بابها الشرقي وذرع ما بين المصراعين ثم حفر في النصف من الذرع نحو العشرين ذراعا، فافضى إلى صخرة عظيمة، فأمر بقلعها فقلعت وإذا تحتها بيت لطيف فيه صندوقا ذهب مقفلان، فاخذهما وانصرف إلى المأمون، فأنفذ معه المأمون قوما بلغوه إلى صاحبه، ولم يدر أحد ما كان في الصندوقين. وبعدها إلى الكراج ولا آثار كسروية بها بل فيها آثار لآل أبي دلف، وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة، ولها حمات وعيون ومنابع، وهي الجادة بين الأهواز ولاري، وبين أصفهان وهمذان...).

ونصل إلى الرحّالة الكبير ابن بطوطة الذي مخر العالم القديم من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب. وقد بدأت رحلته إلى بلاد الشمال من آسيا الصغرى، فاتجه شمالا إلى روسيا، لكن بلاد (الظلمة) صدّته بصعاب كثيرة، فاتجه صوب القسطنطينية، وتجول في المدينة العظيمة، ودار حول كنيستها المشهورة - التي قدمنا عنها نصوصا كاملة من قبل- وقفل راجعا باتجاه الشمال الشرقي، وسرعان ما انعطف إلى أواسط آسيا ثم جنوبها... إن رحلته إلى هذه البلاد تبيّن التنوع الطبيعي والديني والثقافي لما يسمى الآن بشرق أوربا، وآسيا الصغرى، ثم الأجزاء الشمالية من آسيا، ورحلته التي نختم بها نصوص الرحلات في هذا القسم من

الكتاب تتبوأ المكانة الأولى بين الرحلات التي قام بها رحّالة مسلمون، فابن بطوطة أكثر قدرة من غيره على الصبر والمطا ولة في الارتحال، وهو الذي ينطبق عليه مصطلح "الرحّالة" تمام الانطباق، فقد سلخ شطرا كبيرا من عمره في التسيار، ورحلته إلى بعض الاصقاع الشمالية تضع من حيث أهميتها الأثنوغرافية إشارة الختام المناسبة للحديث عن بلاد الشمال.

31. وصف شرق أوربا، والقسطنطينية، والأجزاء العليا من آسيا. ابن بطوطة (779هـ = 1377م) من رحلته الموسومة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

(..وقصدنا مرسى يسمى الكرش (= على البحر الأسود) فأردنا دخوله، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا، فخفنا على أنفسنا، وظننا أن هنالك أجفانا للعدو، فرجعنا مع البر. فلما قربنا قلت لصاحب المركب"أريد ان أنزل ها هنا، فأنزلني بالساحل". ورأيت كنيسة، فقصدتها، فوجدت بها راهبا، ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلدا سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يوقد، فقلت للراهب "ما هذه الصورة؟". فقال "هذه صورة النبي علي". فأعجبت من قوله. وبتنا تلك الليلة بالكنيسة، وطبخنا دجاجة و لم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه معنا في المركب، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه. وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (= الفيافي الروسية) والدشت بلسان الترك هو الصحراء، وهذه الصحراء واسعة قاحلة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب، وإنما يوقدون الأرواث ويسمونها التَّزك، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم، ولا يسافر في هذه الصحراء إلا في العجل، وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره.

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذه المرسى، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى منْ بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق، وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكفا، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون، ولهم أمير يعرف بالدمدير، ونزلنا منها بمسجد المسلمين. ولما نزلنا بهذا الجامع أقمنا منها ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، و لم أكن سمعتها قط فهالني ذلك، وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن، ويذكروا الله، ويؤذّنوا، ففعلوا ذلك فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح، فسلّم علينا، واستفهمناه عن شأنه، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك، وقال "لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم، فجئت كما ترون". ثم انصرف عنا، وما رأينا إلا خيرا. ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاما فأكلناه عنده، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق، وكلهم كفار. ونزلنا إلى مرساها، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة.

ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان، وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور، وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا،

فبعث إلي مع إمامه سعد الدين بفرس، ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخرساني. فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا، وهو معظم عندهم. ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم. وأخبرني هذاالشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد ويكثر الصوم، وأنه انتهى إلى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول، وأنه يكاشف بالأمور. ورغب أن أصحبه في التوجيه إليه فأبيت، ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره. ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية، ولقيت بها قاضي الشافعية، وهو يسمى بخضر، والفقيه المدرس علاء الدين الآصي، وخطيب الشافعية أبا بكر، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمّره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين. وكان الأمير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه، فأكرمنا، وأحسن إلينا. وكان عليّ التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك، فعملت في السير في صحبته، واشتريت العجلات برسم ذلك، وهم يسمون العجلة عربة، وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فرسان، ومنها مايجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أوخفتها، والذي يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التي تجرها، ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها إذاعاجت عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام، ويأكل، ويقرأ، ويكتب، وهو في حال سيره والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبــه البيت كما ذكرنا، وعليها قفل.

وجهزت لما أردت عربة لركوبي مغشاة باللبد، ومعي بها جارية، وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال أحدهما خادم العربة. وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور، وأخيه عيسى وولده قطلو دمور وصاربوك، وسار أيضا معه في هذه الوجهة إمامه سعد الدين، والخطيب أبو بكر، والقاضي شمس الدين، والفقيه شرف الدين موسى، والمعروف علاء الدين خطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه، فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف، ويقول بصوت عال "بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوي والاحكام بسم الله". واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال "بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله". فتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ويقوم إليه ويفسح له في المجلس. وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز. ويرحلون بعد صلاة الصبح ويترلون ضحى ويرحلون بعد صلاة الظهر ويترلون عشيا، وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات سرحوها للرعي ليلا ونهارا، ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره. وخاصية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية؛ ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة. وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس

مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك. فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة.

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وإنما يصنعون طعاما من شيء شبه الانلي، يسمونه الدوقي (= المجروش) يجعلون على النار الماء فإذا غلي صبوا عليه شيئا من الدوقي، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل، وهم يسمونه القمز. وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج يستعملون في بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخاني، وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا، ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدرة، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها. ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره، وهم يرون أكل الحلواء عيبا. ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فأُحضرت لحوم الخيل، وهي أكثر مايأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشتا، وهو شبه الأطرية، يطبخ ويشرب باللبن، وأتيته تلك الليلة بطبق حلوا صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك. وأخبرني الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوم: "كل الحلواء وأعتقكم جميعا" فأبى وقال "لو قتلتني ما أكلتها".

ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور في موضع يعرف بسججان، فبعث إلي أن أحضر عنده، فركبت إليه وكان لي فرس معد لركوبي يقوده خديم العربة، فإذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية، فوجدت الأمير قد وضع بها طعاما كثيرا فيه الخبز، ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه. وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه، وأنا إليه، فقلت له "ما هذا؟" فقال "هذا ماء الدهن" فلم أفهم ما قال، فذقته فوجدت له حموضة فتركته. فلما خرجت سألت عنه فقال"هو نبيذ يصنعونه من الدوقي، وهم حنفية المذهب، والنبيذ عندهم حلال، ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوزه (= البوظة) وإنما قال الشيخ مظفر الدين "ماء الدخن" ولسانه فيه اللكنة الأعجمية، فظننت أنه يقول "ماء الدهن". وبعد مسيرة ثمانية عشر مترلا من مدينة القرم، وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوما كاملا، وإذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة، فذهب الأمير إلى راحلتي، وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لي كتابا إلى أمير أزاق، يعلمه أني أريد القدوم على الملك، ويحضه على إكرامي. وسرنا حتى انتهينا إلى ماء أخر نخوضه نصف يوم، ثم سرنا بعده ثلاثا، ووصلنا إلى مدينة أزاق وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات، وبها من الفتيان أخي بجقجي، وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر. ولما وصل كتاب الأمير تلكتمور إلى أزاق وهو محمد خواجة الخوارزمي خرج إلى استقبالي ومعه القاضي والطلبة، وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزل بموضع أكلنا فيه ووصلنا المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس علهما السلام، وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكي نسبة إلى قرية بالعراق، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة.

وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة، وأعدوا له الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض إحداها من الحرير عجيبة والثنتان من الكتان، وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج، وخارجها الدهليز، وهو على هيئة البرج عندنا. ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمني أمامه ليرى ذلك الأمير مترلتي عنده، ثم وصلنا إلى الخباء الأولى، وهي المعدة لجلوسه، وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الأمير أمامه، وقدم الشيخ مظفر الدين، وصعد هو فجلس فيما بيننا، ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة، ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه الأمير محمد وأولاده في الخدمة، ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها، وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة، وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي، ثم يفسره لهم بالتركي. وفي أثناء ذلك يكرر القرّاء آيات من القرآن بترجيع عجيب، ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي، ويسمونه القوال، ثم بالفارسي يسمونه الململع. ثم أتوا بطعام آخر، و لم يزالوا على ذلك إلى العشي. وكلما أردتُ الخروج منعني الأمير. ثم جاءوا بكسوة للأمير وكساوي لولديه وأخيه والشيخ مظفر الدين ولي، وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس...

وسافرت إلى مدينة الماجر (= على ضفاف نهر كوما) وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير، وبها البساتين والفواكه الكثيرة. نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق، وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه، وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم، ومنهم المتزوج والعزب. وعيشتهم من الفتوح ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء، وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم، ويأتي السطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء ؛ فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرين افعال الخير. وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة. فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه، وعظ وذكّر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها، فقام الشيخ محمد البطائحي فقال"إن الفقيه يريد السفر ونريد له زوادة". ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال"هذه مني إليه"فكان الحاضرون بين منْ خلع ثوبه ومنْ أعطى فرسا ومنْ أعطى دراهم، واجتمع له كثير من ذلك كله، ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي، فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس، وإنه قدم منها في البر و لم يسلك بحرا، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس (= القوقاز). وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر، وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة ما قاله.

ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم، وهن أعلى شأنا من الرجال. فأما نساء الأمراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سَلْطِية في عربة لها، وكلها مجللة

بالملف الأزرق الطيب، وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه، وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها، ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض، ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها، ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة، فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها، وأجلسها إلى جانبه ودار بها جواريها، وجاءوا بروايا القمز فصبّت منه في قدح وجلست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الأمير، وحضر الطعام فأكلت معه، وأعطاني كسوة وانصرفت. وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد. وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن وإحداهن تكون في العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق (= تاج للزينة) وهو أقروف (= زينة) مرصع بالجوهر وفي أعلاه ريش، وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لأن نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية، وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكُلا.

وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ (= في القوقاز) ومعنى بش عندهم خمسة ومعنى دغ الجبل، وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار منْ اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض. وارتحلنا إلى موضع المحلة، فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت، فعدنا إلى الموضع الذي رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه، فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العَلم أمام البيت، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو (= المخيّم) فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان الطبخ صاعد في الهواء، وهم يطبخون في حال رحيلهم، والعربات تجرها الخيل بهم فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة المحمل، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت. واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهي بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها، رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علي وبلغوا سلامها إلي، وهي واقفة تنتظرهم فبعثت إليها بهدية مع بعض أصحابي، ومع معرَف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركا، وأمرتْ أن أنزل في جوارها، وانصرفت، وأقبل السطان فنزل في محلته على حدة.

والسلطان اسمه محمد أزوبك خان (= **سلطان مغولي** من القبيلة الذهبية، توفي في 741هـ = 1342م) ومعنى خان عندهم السلطان. وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة ومدنهم عظيمة منها: الكفا، والقرم، والماجر، وأزاق، وسرادق، وخوارزم، وحضرته السرا. وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم: مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة أيد

الله أمره وأعز نصره (= المغربي أبو الحسن علي بن أبي سعيد) وسلطان مصر والشام، وسلطان العراق، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها، وإذا أراد أن يكون عنده إحداهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له. وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع. ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير، وعن يمينه الخاتون طيطغلي، وتليها الخاتون كبك، وعلى يساره الخاتون بيلون، وتليها الخاتون اردجي، ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشمال ولده الثاني جان بك، وتجلس بين يديه ابنته أيت كجحك. وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طيطغلي، وهي الملكة وأحظاهن عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان. وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب. ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه. ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه وإخوته وأقاربه ويقف مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون، وينصرفون فيجلسون على بعد.

فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها، فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان. وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها. وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد، وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره، وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير وأشاروا على السلطان بإكرامي، وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز، وتلك كرامتهم. وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاءوا بالطعام والمشروبات كما يصنع من الدوقي ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل، وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه و لم يزد على ذلك.

وكل خاتون من الخواتين تركب في عربة للبيت، وفي البيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي

يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي، والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى كجك خاتون ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات، فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجوهر وبأعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت التي يلبسها الروم، وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الأقروف، وفي اعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخّ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار وثيابهن الحرير وعلى رؤوسهن الكلأ، وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وأثاثها وطعامها، ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرناها، فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة، وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولنذكرهن على الإنفراد:

فالخاتون الكبرى: هي الملكة أم ولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما، وليست أم ابنته ايت كجحك وأمها كانت الملكة قبل هذه، وإسم هذه الخاتون طيطغلى وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده.عندها يبيت أكثر لياليه، ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها وإلا فهي أبخل الخواتين. وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها؛ وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر، وذكر لي غيره أنها من سلالة المرأة التي يذكر أن المُلك زال عن سليمان عليه السلام بسببها، ولما عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق، وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقةً وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة. و لم أر بصحراء قفجق ولا غيرها منْ أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا ان بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة، و لم يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة. وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون، وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها، وبين يديها نحو خمسين جارية صغاراً يسمون البنات، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك، وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه، فسلمنا عليها. وكان في جملة أصحابي قاريء يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ، ثم أمرت أن يؤتى بالقمز فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتني إياه، وتلك نهاية الكرامة عندهم. و لم أكن شربت القمز قبلها، ولكن لم يمكني إلا قبوله، وذقته ولا خير فيه، ودفعته لأحد أصحابي. وسألتني عن كثير من حال سفرنا فأجبناها، ثم انصرفنا عنها. وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك.



والخاتون الثانية التي تلي الملكة اسمها كبك خاتون، ومعناها بالتركية النُّخالة وهي بنت الأمير نَغَطي، وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس، وقد رأيته. وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ المصحف الكريم، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا، فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام، وقرأ قارئنا فاستحسنته، وأمرت بالقمز فأحضر، وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها.

والخاتون الثالثة اسمها بَيْلون، وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور (= تقفور) ودخلنا على هذه الخاتون، وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات، منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم. فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة، وأمرت بالطعام، فأُحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر إلينا، ولما أردنا الانصراف، قالت "لا تنقطعوا علينا، وترددوا إلينا، وطالبونا بحوائجكم"وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها، ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد. **والخاتون الرابعة** اسمها أردجا، وأرد بلسانهم المحلة، وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس (= إحدى قبائل المغول الكبيرة) ومعناها أمير الأمراء، وأدركته حيّا وهو متزوج ببنت السلطان ايت كججك، وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن، وهي التي بعثت إلي لما رأتْ بيتي على التل عند جواز المحلة، كما قدمناه، ودخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا، وسألت عن حالنا فأجبناها، ودخلنا أيضا إلى أختها زوجة الأمير علي بن أزرق.

وبنت السلطان المعظم أوزبك اسمها إيت كججك، ومعنى اسمها الكلب الصغير فإن إيت هو الكلب وكججك هو الصغير، وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب، وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك، وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء، وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنتُه زوجة السلطان، فقعد معها على فراش واحد وهومعتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولا. وعلى هذه الصورة رأيت أيضاً الأمير نغطي، وهو أبو الخاتون الثانية. وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك. ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها، وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيرا. وولدا السلطان هما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلي التي قدمنا ذكرها والأكبر منهما اسمه تين بك وبك معناه الأمير وتين معناه الجسد، فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح، وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة، وعهد له



أبوه بالملك وكانت له الخطوة والتشريف عنده، و لم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولي يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له، وولي أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جان بك وأشار علي هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقري حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك.

وكنت سمعت بمدينة بلغار (= جنوب قازان) فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل، وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر، فطلبت منه أن يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه، ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصلينا وصليناها التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا. وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوما، ثم أضربت عن ذلك؛ لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى، والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار؛ فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابه فيها، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد، ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبه فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات فإذا وقف وقفت. وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم وإلا غضب الكلب، وفر وترك صاحبه للتلف. فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه، وإن لم يرضه تركه فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم الإنس ولا يرون أحدا. والقاقُم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون، وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير على طول الشبر، وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله، والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها، ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل. وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفروائهم عند العنق، وكذلك تجار فارس والعراقين. وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان صحبتي فوجدت محله السلطان على الموضع المعروف ببش دغ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان. وحضرت معه صلاة العيد، وصادف يوم العيد الجمعة.

ولما كان صباح العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة، وركبت كل خاتون عربتها، ومعها عساكرها، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها إذ هي الملكة على الحقيقة، ورثت الملك من أمها،

وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره. وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ، فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد. وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان، ومعهم الأطبال والأعلام، فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك، فجلس فيه ومعه خواتينه، ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه و شماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه، ونصبت الكراسي للأمراء وأبناء الملوك، وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به أمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف، فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائه وسبعين ألفا، وعسكره أكثر من ذلك، ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة، ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة، وعندما يلبسها يأتي على أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة، ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه، وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم.

ثم يترل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ولي العهد وتليه بنته الملكة ايت كججك وعن يساره ابنه الثاني، وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب، ويترل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق. والوطاق هو إفراج، وقد نصبت هنالك باركة عظيمة والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب، وفي الأعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع، ، وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارا سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم وهم يسمونه التخت، وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس عليها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته ايت كججك ومعها الخاتون أردوجي وعن يساره مرتبة جلست عليها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسي عن اليمن والشمال جلس فوقها أبناء الملوك الكبار ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا، ثم أتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدي كل أمير مائدة، ويأتي الباروجي وهو مقطّع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ويؤتى

بصفحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعا صغارا، ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطا بالعظم فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل، وهم حنفية المذهب يحللون شرب النبيذ، فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه، ثم تناوله لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب، ثم الخواتين ثم أخته، ويخدم جميعهن، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك، فيسقي كلواحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الصغار، فيسقون ابناء الملوك، ويغنون أثناء ذلك بالموالية.

وكانت قد نصبت قبة كبيرة إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم، فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك، ولا يتصرف في ذلك اليوم من بين يدي السلطان إلا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب. ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس وأتوا الي بعربة منها، فأعطيتها لجيراني من الأتراك. ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل إنه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه. ومن قائل إنه لا يترك الجمعة، فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل. فسلم على السيد الشريف وتبسم له، وكان يخاطبه بآطا، وهو الأب بلسان التركية، ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى منازلهم، وانصرف السلطان إلى الباركة، فبقي على حاله إلى صلاة العصر، ثم انصرف الناس أجمعون، وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته.

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان، ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها، وحرر له السلطان هذا الموضع فصار قرية عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن. عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل (= الفولغا) وهو من أنهار الدنيا الكبار، وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به، ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد. ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل، وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون. ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه، فأذن لها، ورغبتُ منه أن يأذن لي في التوجه بصحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي، فلاطفته وقلت له "إنما أدخلها في حرمتك وجوارك، فلا أخاف من أحد" فأذن لي، وودعناه، ووصلني بألف وخمسمائة دينار، وخلعة وأفراس كثيرة. وأعطتني كل



خاتون منهن سبائك الفضة، وهم يسمونها صوم واحدها صومة، وأعطت بنته أكثر منهن، وكستني وأركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة.

وسافرنا في العاشر من شوال (= 734هـ الموافق 14 حزيران 1334م) في صحبة الخاتون بيلون، وتحت حرمتها. ورحل السلطان في تشييعها مرحلة، ورجع هو والملكة وولي عهده. وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية، ثم رجعن. وسافر الأمير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره. وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين، والباقون من الترك. وكان معها من الجواري نحو مائتين، وأكثرهن روميات. وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة، ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها، وكان معها من الفتيان الروميين عشرة، ومن الهنديين مثلهم. وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي، وقائد الروميين يسمى بميخائيل. ويقول له الأتراك لؤلؤ، وهو من الشجعان الكبار. وتركت جواريها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل، وتوجهنا إلى مدينة أكك (= على بحر آزوف) وهي مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخلوات شديدة البرد، وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشرة، وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس، وهم نصارى شقر الشعور، زرق العيون قباح الصور أهل غدر. وعندهم معادن الفضة، ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواقي.

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة سرداق (= سولديا في جزيرة القرم) وهي من دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه، وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم، وهم أهل الصنائع. وأكثر بيوتها خشب. وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك، وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة، ونفوا أكثرهم، وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن. وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر الدوقي والقمز وألبان البقر والغنم. والسفر في هذه البلاد مُضحى ومُعشى، وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لأن تلك البلاد آمنة. ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق، وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء إلا أنهم يفخمون الباء ويذكرون أن سلطوق هذ كان مكاشفا، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع. وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها، يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات. وكان دخولنا إليها في أيام البرد فلم نحتج إلى كثير من الماء. والاتراك يرفعون الألبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون. وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتجت إلى زيادة أفراس، فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك، وكنت أسلّم عليها صباحا ومساء، ومتى أتيتها تبعث إلي بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لا أذبحها، وكان من معي من الغلمان والخدم يأكلون



مع أصحابنا الأتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وأمرت إلي الخاتون بخمسة عشر فرسا، وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سمانا من خيل المطبخ، وقالت "لا تخف فإن احتجت إلى غيرها زدناك".

ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة، فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة وعشرين يوما وإقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحي ومعشي وما رأينا إلا خيرا والحمد لله. ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولي، وهو أول عمالة الروم. وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا إلى هذا الحصن فاستقبلنا كفالي نقوله الرومي في عسكر عظيم، وضيافة عظيمة، وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية. وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منه إلى القسطنطينية، ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغال، وتترك العربات به لأجل الوعر والجبال. وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة، وبعثت إلي الخاتون بستة منها، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماني مع العربات والأثقال، فأمر لهم بدار، ورجع الأمير بيدرة بعساكره، ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها، وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الأذان، وكان يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير. وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها ولم يبق معها من يصلي إلا بعض الأتراك كان يصلي معنا، وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر. ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالي بإكرامي. ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا.

ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك، وهو بسفح جبل على نهر زخار، يقال له اصطفيلي. ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره وبخارجه قرية كبيرة. ثم سرنا يومين ووصلنا إلى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة، فوجدنا فيه المد فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال، ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال، ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث، وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلا، وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض إلا في القوارب. وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة، وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها والبساتين تحفها، ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى، وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا، والخاتون في قصر لأبيها هنالك، ثم قدم أخوها وشقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين السلاح، ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب، ولبس ثيابا بيضاء وجعل رأسه مظللا مكللا بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب، وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرساً مسرجاً مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيوف وبيده رمح في طرف رأسه راية، وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان، وقسّم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس، لهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا

وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات، وهي الغيطات. وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب والفضة المرصعة، وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر، وعلى رأسها تاج مرصع فرسها مجلل حرير مزركش بالذهب، وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا، وكان التقاؤهما في بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد وترجّل لها أخوها لأنه أصغر منها وقبّل ركابها وقبّلت رأسه وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها، وانصرفت مع أخيها.

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا نثبت الآن اسمها، ذات أنهار وأشجار. نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلا أن الحفل أعظم والجمع أكثر، وتلاقت معه أخته في مثل زيها الأول وترجلا جميعا وأوتي بخباء حرير فدخلت فيه ولا أعلم كيفية سلامها. ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان الغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس، وضربت عند الصبح الأطبال والأبواق والأنفار وركبت العساكر. وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب هذه الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصى طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الورق، وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى، ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي، وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجّلت وقبّلت الأرض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك.

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواقيصها حتى ارتجت الآفاق لاختلاف أصواتها، ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة، وسمعتهم يقولون"سراكنوا سراكنوا"ومعناها المسلمون (= وتطلق على العرب أيضا، والروم تسمي العرب سارقنوس أي عبيد سارة زوجة إبراهيم) ومنعونا من الدخول. فقال لهم أصاب الخاتون "إنهم من جهتنا" فقالوا "لا يدخلون إلا بإذن"فأقمنا بالباب. وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها، فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا، وعيّن لنا دارا بمقربة من دار الخاتون، وكتب لنا أمرا بأن لا نُعترض حيث نذهب من المدينة، ونودي بذلك في الأسواق، وأقمنا بالدار ثلاثا، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغلة والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش. وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان، واسمه تكفور بن السلطان وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة، لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده. وفي اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل



الهندي، فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة، فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل، ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين، ففتشوني لئلا يكون معي سكين، وقال لي القائد: تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي، وكذلك الفعل بأرض الهند، ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب، فأخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي، فدخلوا بي إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد في وسطه ماء ومن جهتها الأشجار، والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم. وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف، أسلمني أولئك الأربعة إليهم، فأمسكوا بثيابي كما فعل الآخرون، وأشار إليهم رجل، فتقدموا بي، وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي "لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان، وأصلي من بلاد الشام". فسألته كيف أسلّم فقال "قل السلام عليكم".

ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه، وأسفل السرير الخاتون وإخوتها، وعن يمينه ستة رجال، وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح فأشار إلي قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة ليسكن روعي، ففعلت ذلك ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار أن أجلس فلم أفعل، وسألني عن بيت المقدس والصخرة المقدسة، وعن القيامة (= الكنيسة) وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبته عن ذلك كله، واليهودي يترجم بيني وبينه. فأعجبه كلامي وقال لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه. ثم خلع علي خلعة، وأمر لي بفرس ملجم، ومظلة من التي يجعله الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان، وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها في بلادي فعيّن لي ذلك ومن العوائد عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس، وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الأسواق. والمدينة هي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت، وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمي، وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها نساء. والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر، وفي أعلاه قلعة صغيرة. وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة، والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة، وأمام القسم الثاني منها فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربة من النهر، وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسا، وحكمهم إلى ملك

القسطنطينية يقدم عليه منهم من يرتضونه ويسمونه القمص، وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا، وجميعهم أهل تجارة. ومرساهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس، وكنائسهم لا خير فيها.

والكنيسة العظمى إنما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده، وهي تسمى عندهم أيا صوفيا، ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام، وهي من أعظم كنائس الروم، وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا، ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبيرة ولا يمنع أحد من دخوله، وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره، وهو شبه مشهور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منظمة عن جهتي الساقية. ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي العنب، وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب، وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم، وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم..وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين: أحدهما يمر بسوق العطارين، والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب. وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقيمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام، وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع، وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا. وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص. وذُكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف، وأن بعضهم من ذرية الحواريين، وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله.

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة، ويأتي إليها البابا مرة في السنة. وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له، وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف، والمانستار (=الدير) على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين، وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها المانستار عمّره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية .. وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة، ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها، وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء، وأحدهما للرجال والآخر للنساء، وفي كل واحد منها كنيسة، وتدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات، وقد حبس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك، ومنها مانستاران عن يسار



الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين، ويطيف بها بيوت، وأحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها، ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك. وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستار، ولبس المسوح وهي ثياب الشعر، وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت. وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء، وهي كثيرة بهذه المدينة.

ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقه نهر، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤوسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد، ولهن جمال فائق، وعليهن أثر العبادة، وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم، فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر، وقال لي الرومي"إن هؤلاء البنات من بنات الملوك، وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة، وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة"ودخلت أيضا إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين، فقال لي الرومي"هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدون بهذه الكنيسة"ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء، وإلى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة، وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا، والنساء لهن عمائم كبار. والملك المترهب جرجيس ولّى الملك لابنه، وانقطع للعبادة، وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها. وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فإذا بهذا الملك ماش على قدميه، وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد، وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز، وفي عنقه سبحة، فلما رآه الرومي نزل وقال لي "انزل فهذا والد الملك". فلما سلم عليه الرومي سأله عني، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه، فأخذ بيدي، وقال لذلك الرومي، وكان يعرف اللسان العربي"قل لهذا السراكنوا، يعني المسلم، أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس، والرِجل التي مشت داخل الصخرة، والكنيسة العظمى التي تسمى قيامة، وبيت لحم، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم، ثم أخذ بيدي ومشيت معه، فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى وأطال السؤال، ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا، ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهو من كبارهم في الرهبانية، ولما رآهم أرسل يدي، فقلت له "أريد الدخول معك إلى الكنيسة". فقال للترجمان قل له "لا بد لداخلها من السجود للصليب الأعظم، فإن هذا مما سنته الأوائل، ولا يمكن خلافه". فتركته، ودخل وحده و لم أراه بعدها.

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتّاب، فرآني القاضي فبعث إلي أحد أعوانه، فسأل الرومي الذي معي فقال له: إنه من طلبة المسلمين، فلما عاد إليه أخبره بذلك فبعث إلى أحد أعوانه، وهم

يسمون القاضي النجشي كفالي، فقال لي "النجشي كفالي يدعوك" فصعدت إلى القبة التي تقدم تقدم ذكرها، فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون، فقام إلي وقام أصحابه وقال "أنت ضيف الملك، ويجب علينا إكرامك". وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر، وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام، وقال لي "لا بد لك أن تأتي إلى داري فأضيفك". فانصرفت عنه، ولم ألقه بعد. ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها، وراغبة في المقام معه، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا، وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أمير يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس، وبعثت إلي فأعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة، وليس بالطيب، وألفي درهم بندقية، وشقة ملف من عمل البنات، وهو أجود أنواعه، وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين، وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة. وودعتها، وانصرفت. وكانت مدة مقامي عندهم شهرا وستة أيام.

وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا إلى آخر بلادهم، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا إلى مدينة بابا سلوق، وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف إلى بلاده، وذلك في اشتداد البرد. وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان من البرغالي وهو من جلد الفرس مبطن بجلد ذئب، وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها، وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج، والماء الذي يترل من الأنف يجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من ثياب حتى يركبني أصحابي. ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه، فسافرنا على أتل وما يليه من المياه ثلاثا، وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدرة حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به. ووصلنا إلى مدينة السرا، وتعرف بسرا بركة، وهي حضرة السلطان أوزبك. ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه، وأمر بإجراء النفقة علينا وأنزلنا مدينة السرا، وهي من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة حسنة الأسواق متسعة الشوارع، وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها. وكان مترلنا في طرف منها، فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعامنا، فما وصلنا إلى المترل إلا عند المغرب. ومشينا يوما في عرضها ذاهبين راجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين، وفيها ثلاثة عشر مسجد لإقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدا، وفيها طوائف من الناس منهم المغل، وهم أهل البلاد والسلاطين، وبعضهم مسلمون ومنهم الآص (= شعب آري) وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى، وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من

أهل العراقيين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجارة. وقصر السلطان بها يسمى الطون طاش، والطون معناه الذهب وطاش معناه حجر.

وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة، وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي أحد الفضلاء، وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته، وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها، وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطو على أهل الدنيا، يأتي إليه السلطان أوزبك زائرا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام، ويتواضع له والشيخ بضد ذلك، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم. وأكرمني جزاه الله خيرا وبعث إلي بغلام تركي، وشاهدت له بركة وكنت أردت السفر من السرا إلى خوارزم فنهاني عن ذلك، وقال لي "أقم أياما، وحينئذ تسافر" فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم، فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي "لا بد لك من الإقامة" فعزمت على السفر فأبقى لي غلام أقمت بسببه. وهذه من الكرامات الظاهرة. ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابه ذلك الغلام الأبق بمدينة الحاج ترخان، فجاء به إليه فحينئذ سافرت إلى خوارزم، وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ، وإنما تجر العربات بها الجمال. فسرنا من السرا عشرة أيام، فوصلنا إلى مدينة سرا جوق، ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة، وهي على شاطيء نهر كبير زخار يقال له ألوصو (= مدينة سرايتشك على مصب نهر أورال) ومعناه الماء الكثير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد، وإلى هذه المدينة إنتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بحساب أربع دنانير دراهم للفرس، وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها لهذه المدينة، واكترينا الجمال لجر العربات. وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك ويقال له أطا، ومعناه الوالد أضافنا بها، ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه.

ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا نترل إلا ساعتين إحداهما عند الضحى والأخرى عند المغرب، وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه، وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن، وكل إنسان إنما ينام أو يأكل في عربته حال السير. وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري، ومن عادة المسافرين في هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها، والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى بعد أن يسمن، والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان .. ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها.. ووصلنا إلى خوارزم (= يقصد الجرجانية على نهر جيحون، عاصمة إقليم خوارزم) وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم، وتموج بهم موج البحر. ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له

الشَّورْ (=حومة السوق) لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الإزدحام، وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا، وبعد جهد شديد رجعت. وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة، وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة. وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك، وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور، وهو الذي عمر هذه المدرسة، وما معها من المواضع المضافة. أما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك. وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام. و لم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاق من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء، ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين. ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان.

وبخارج خوارزم نهر جيحون (= أمودريا) أحد الأنهار الأربعة من الجنة، وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل (= الفولغا) ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا... وأمير خوارزم هو الأمير الكبير قطلودمور، ومعنى اسمه "الحديد المبارك" لأن قطرا هو المبارك ودمور هو الحديد. وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه، وهو واليه على خراسان، وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها، وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة. ولما اتاني القاضي مسلما علي كما ذكرته، قال لي "إن الأمير قد علم بقدومك، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك" فركبتُ مع القاضي إلى زيارته، وأتينا داره فدخلنا مشورا كبير أكثر بيوته خشب، ثم دخلنا مشوارا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب، والأمير على فرش له من الحرير، وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس، وهي فاشية في الترك فسلّمت عليه، وأجلسني إلى جانبه، وقعد القاضي والفقهاء. وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك، وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما، وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله، ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية، والكراكي أفراخ الحمام، وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا (= حلوى محشوة بالتمر والجوز) والكعك والحلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة، ومعه ملاعق الذهب، وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه الملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب.

ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره، ويجلس بمجلس معد له، ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الارغُجية (= مَنْ يفصل في المنازعات الأولية) ويتحاكم الناس إليهم، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة. ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والابزار وأحمال الحطب.

وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم. وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم إذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوه بها ثانية كذلك حتى يتلاشى ... وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا إلا ما كان من بطيخ بخارى، ويليه بطيخ أصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر، وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة. ومن العجائب أنه يقدد وييبس في الشمس، ويجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي، ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه...)

نختم كتاب الشمال، بما ينبغي أن يُختم به، وهي الانطباعات الثرية التي أوردها أسامة بن منقذ عن الصليبيين الذين قدموا من أماكن متفرقة من الشمال، ثم استوطنوا الأرض المقدسة مدة طويلة، وتتشكّل حساسية ابن منقذ من نوع الإختلاف الذي يتصف به (الآخر) الذي قدم من أراض نائية بصورة حملات ذات طابع ديني، لكنها سرعان ماتحولت أهدافها إلى استيطان دائم. وكان ابن منقذ أميرا ومحاربا وقائدا شجاعا ورقيقا، وكل هذا لم يحجب عنه النظرات المتبصّرة بقوة الخصوم وشجاعتهم في الحروب، لكنه وجّه نقدا جذريا لنظام القيم الإجتماعية والدينية الشائع بينهم. لم يكتب ابن منقذ نصا متكاملا حول أهل الشمال من الصليبيين، لكنّ شذرات كثيرة عنهم وردت في تضاعيف كتابه (الإعتبار)، وهي كافية لأعطاء صورة مفصّلة عن تصوراته وموقفه.

32. عادات الصليبين، أسامة بن منقذ (584هـ = 1188م) من كتاب (الاعتبار)

1. فلما وصلنا عسقلان سَحَراً ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا الإفرنج عند طلوع الشمس. فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت، وإلى عسقلان، فقال "ارفعوا، ارفعوا أثقالكم". قلت "تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها؟" قال "نعم". قلت "لا تخف، هم يروننا في البرية ويعارضوننا. إلى أن وصلنا إلى عسقلان ما خفناهم، تخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟". ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة. ثم رجعوا إلى بلادهم. جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم، يريدون منازلة عسقلان. فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان. فدرت على سرب الرجالة وقلت "يا أصحابنا؟ ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم، فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقوننا. وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم". فامتنعوا من الرجوع، فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج، وقد حطوا خيامهم ليضربوها. فاحتطنا بهم وأعجلناهم عن طي خيامهم. فرموها كما هي منثورة وساروا راجعين. فلما انفسحوا عن البلد تبعهم أقوام ما عندهم منعة ولا غناء. فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا. فانهزمت الرجالة الذين ردتهم فما رجعوا، ورموا تراسهم. ولقينا الإفرنج فرددناهم، ومضوا عائدين إلى بلادهم، وهي قريبة من عسقلان. وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون، وقالوا "كان ابن منقذ أخبر منا، قال لنا: ارجعوا، ما فعلنا، حتى انهزمنا وافتضحنا.

2. وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله في جملة من سار معي من دمشق، هو وأصحابه، إلى عسقلان، وكان رحمه الله من فرسان المسلمين، يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالها. فوصلناهم وقاتلناهم. ورأيت، عند رجوعنا على البلد، غلة كبيرة. فوقفت في أصحابي وقدحنا ناراً وطرحناها في البيادر. وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع. ومضى العسكر تقدَّمني. فاجتمع الإفرنج لعنهم الله من تلك الحصون، وهي كلها متقاربة، وفيها خيل كثيرة للإفرنج، لمغاداة عسقلان ومراوحتها. وخرجوا على أصحابنا فجاءني فارس منهم يركض وقال"قد جاء الإفرنج"، فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج، وهم لعنهم الله أكثر الناس احترازا في الحرب. فصعدوا على رابية وقفوا عليها، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء أصحابنا المنقطعون، وأصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا يترل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين. وما زال الإفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا. ثم ساروا إلينا فاندفعنا بين أيديهم، والقتال بيننا، لا يجدون في طلبنا. ومن وقف فرسه قتلوه. ومن وقع أخذوه. ثم عادوا عنا. وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم. ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم، كما نصروا علينا، كنا أفنيناهم.

3. ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين، رحمه الله. وكاتب الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر، وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج. وكتب إليَ يقول"ترجع إلى مصر، وأنت تعرف ما بيني وبينك. وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (= فأسوان ثغر من ثغور المسلمين)، وأسيّر إليك أهلك وأولادك". ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره، فقال "يا فلان! ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج، وأسير من يحضرهم". فأنفذ – رحمه الله – أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر. وسيرت الأمان مع غلام لي، وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح. فسيرهم، في عشاري من الخاص، إلى دمياط. وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصّى بهم. وأقلعوا من دمياط في بطسة (= مركَب) من بطس الإفرنج. فلما دنوا من عكا، والملك – لا رحمه الله – فيها، نفذ قوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس، وأصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل، نهب كل ما فيه. فخرج إليه غلام لي سباحة، والأمان معه. وقال له "يا مولاي الملك! ما هذا أمانك؟ قال "بلى! ولكن هذا رسم المسلمين: إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد!" قال "فتسبينا؟ قال "لا". وأنزلهم– لعنه الله – في دار، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلي أودعه النساء، وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار. فأخذ الجميع ونفذ لهم خمسمائة دينار، وقال"توصلوا بهذه إلى بلادكم!" وكانوا رجالاً ونساءً من خمسين نسمة. وكنت إذ ذاك مع الملك العادل" في بلاد الملك مسعود (= سلطان قونية): رعبان وكيسون. فهوّن علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحُرِمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من



الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة. فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت. فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال. والله – سبحانه – يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته.

4. وشاهدت من الطعنات العظيمة، طعنة طعنها فارس من الإفرنج– خذلهم الله – فارساً من أجنادنا يقال له: بن قنيب، كلابي، قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار، وثلاثة اضلاع من جانبه الأيمن، وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل! ومات لساعته. وطعن رجل من أجنادنا، كردي، يقال له: ميّاح، فارساً من الإفرنج، أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله، ثم إن الإفرنج أغاروا علينا بعد أيام، وميّاح قد تزوج وخرج وهو لابس، وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس، قد تشهّر به. فطعنه فارس من الإفرنج فقتله، رحمه الله. "يا قُربَ مأتمه من العرس". ومن عجائب الطعن أن رجلاً من الأكراد، يقال له: حَمَدات، كان قديم الصحبة، قد سافر مع والدي، رحمه الله، إلى إصبهان إلى دركاه (= بلاط) السلطان ملكشاه (= السلجوقي المتوفى عام 486) فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد. فقال له عمي عز الدين، رحمه الله"يا حمدات! قد كبرت وضعفت. ولك علينا حق وخدمة. فلو لزمت مسجدك (وكان له مسجد على باب دراه) وأثبتنا أولادك في الديوان، ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق، وأنت في مسجدك". قال "أفعل يا أمير". فأجري له ذلك مديدة. ثم جاء إلى عمي وقال "يا أمير! والله، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت. وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي". قال "الأمر لك". وأمر برد ديوانه عليه كما كان.

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى أغار علينا السرداني (= الكونت وليام جورديان) صاحب طرابلس. ففزع الناس إليهم، وحَمَدات في جملة الروع. فوقف على رقعة من الأرض مستقبل القبلة. فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيّه. فصاح إليه بعض أصحابنا "يا حمدات!" فالتفت رأي الفارس قاصده. فرد رأس فرسه شمالا، ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الإفرنجي، فطعنه نفذ الرمح منه. فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه. فلما انقضى القتال قال حمدات لعمي "يا أميرا لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟". وقد كان جرى لنا مثل ذلك: وهو أن فلاحاً من العَلاة جاء يركض إلى أبي وعمي، رحمهما الله. قال"شاهدت سربة إفرنج تائهين قد جاءوا من البرية. لو خرجتم إليهم أخذتموهم". فركب أبي وعماي وخرجوا بالعسكر إلى السربة التائهة، وإذا به السرداني، صاحب طرابلس، في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي (=مرتزقة من أصول مشرقية في خدمة الإفرنج)، وهم رماة الإفرنج. فلما رأوا أصحابنا ركبوا خيلهم وأطلقوا على أصحابنا هزموهم، وتموا (= استمروا) يطردونهم. فأحرف (= مال) عليهم مملوك لوالدي، يقال له: ياقوت الطويل، وأبي وعمي– رحمهما الله– يريانه. فطعن فارساً منهم إلى جانبه فارس آخر، وهما يتبعان أصحابنا. فرمى الفارسين والفرسين!. وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات، لا يزال قد فعل فعلة يجب تأديبه عليها!فكلما هم والدي به وبتأديبه، يقول عمي "يا أخي! بحياتك هب لي ذنبه. ولا تنس له تلك الطعنة!" فيصفح عنه لكلام أخيه.

5. ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب: أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح، رأينا سربة من الإفرنج، نحوا من عشرة فوارس، جاؤوا إلى باب المدينة قبل أن يفتح. فقالوا للبواب "أيَ شئ اسم هذا البلد؟"



والباب خشب، بينهما عوارض، وهو داخل الباب. قال "شيزر". فرموه بنشاب من خلل الباب، ورجعوا وخيلهم تخب بهم. فركبنا، فكان عمي -رحمه الله- أول راكب وأنا معه، والإفرنج رائحون غير مترعجين، و يلحقنا من الجند نفر. فقلت لعمي "على أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين". قال "لا (وكان أخبر مني بالحرب) في الشام إفرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة!". ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق، وقال "امضيا اكشفا تل ملح (= موضع قرب شيزر)، وكان مكمناً للإفرنج. فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه. فاستقبلنا متسرعين نريد الفرصة فيهم، قبل ركود الحرب، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود. وجمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم، فصاح جمعة "يا فرسان الخيل! ولدي!" فرجعنا معه في ستة عشر فارساً. طعنَا ستة عشر فارساً من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم. واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس جمعة تحت إبطه، فخلَص بعض تلك الطعنات. ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه. فوالله لقد سرت مع عمي-رحمه الله- أغرنا على أفامية.

واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة، فسيروها، وعادوا. ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً. ورأيت جمعة النميري-رحمه الله- وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج، وخرج الرمح من البداد إلى فخذه، ونفذ إلى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال "لا بأس! أنا سالم". ومسك سنان القنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان. فقلت "يا أبا محمود! أشتهي أتقرب من الحصن أبصره". قال "سر". فرحت أنا وهو نخبّ فرسينا. فلما أشرفنا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا يترل منه إلا من تلك الطريق. فقال لي جمعة "حتى أريك ما أصنع فيهم" قلت "ما هذا إنصاف. بل نحمل عليهم أنا وأنت". قال "سر". فحملنا عليهم فهزمناهم، ورجعنا ونحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا: نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج. فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن، فما راعنا إلا رويجل (= تصغير) قد طلع علينا من ذلك السند الصعب (=واجهة الجبل)، معه قوس ونشاب، فرمانا، ولا سبيل لنا إليه، فهزمنا. والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة! ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا حسرة، والذي ما كان لنا إليه سبيل. وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

6. وشهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كفر طاب (= شمال حماة)، في قلّة، ففزعا إليهم طامعين فيهم لقلتهم، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم. وانهزم الذين أغاروا، فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد. فخرج إلينا الكمين، ورجع إلينا الذين كنا نطردهم. فرأينا أننا إن انهزمنا قلعونا كلنا. فالتقيناهم مستقلين. فنصرنا الله عليهم فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً: منهم من طعن فمات، ومنهم من طُعن فوقع وهو سالم، ومنهم من طُعن حصانه فهو راجل. فجذب الذين في الأرض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا: كل من اجتاز بهم ضربوه. فاجتاز جمعة النميري -رحمه الله- بواحد منهم، فخطا إليه وضربه على رأسه، وعلى رأسه قلنسوة، فقطعها، وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح. وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة. فلقيته، ونحن فيما نحن فيه من الإفرنج،

فقلت له "يا أبا محمود! ما تعصب جرحك!" فقال "ما هذا وقت العصائب وشد الجراح!" وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء. وهو رمد وفي عينيه عروق حمر. فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه، ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم "فربما صحت الأجسام بالعلل". وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا، بعد ما قتلنا منهم من قتلنا، ووقفوا مقابلنا. فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة، أبو القنا خطام -رحمه الله- فقال "يا بن عمي! معك جنيبتان (= فرس سهلة الانقياد)، وأنا على هذا الفرس الحطم"! قلت للغلام "قدم له الحصان الأحمر"! فقدمه له. فساعة ما استوى في سرجه حمل على الإفرنج وحده، فأفرجوا له حتى توسطهم، وطعنوه ورموه، وطعنوا الحصان، وأقلبوا قنطارياتهم وصاروا يركسونه بها، وعليه زردية حصينة ما تعمل رماحهم فيها. فتصايحنا "صاحبكم! صاحبكم!" وحملنا عليهم فهزمناهم عنه، واستخلصناه وهو سالم. وأما الحصان فمات في يومه. فسبحان المسلم القادر!. وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه. فسبحان القائل "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".

7. وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي، لعلي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين. فعبر علي، في مَن عبر، محمود بن جمعة. فقلت "قف يا محمود!" فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني. ووصلني أوائل خيلهم. فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي إليهم، ملتفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس يطعني. وبين يدي جماعة من أصحابنا. ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل. فندس فرسي بصدرها رجل من أصحابنا، فردت راس فرسي على يساري. فضربتها بالمهاميز ففزت (= قفزت) الحائط. فضبطت حتى صرت أنا والإفرنج مصطفين، وبيننا الحائط! فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر. فظننت أن ما تحته درع، فتركته حتى تجاوزني، وضربت الفرس بالمهاميز، ففزت الحائط. وطعنته، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه، ووقع ترسه والرمح من يده، والخوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا إلى رجالتنا. ثم عاد انتصب في سرجه. وكان عليه زردية تحت التشهير، فما جرحته الطعنة. وأدركه أصحابه، ثم عادوا. وأخذ الرجالة الترس والرمح والخوذة. فلما انقضى القتال ورجع الإفرنج جاءني جمعة -رحمه الله- يعتذر عن ابنه محمود. وقال "هذا الكلب انهزم عنك"! قلت "وأي شئ يكون؟" قال "ينهزم عنك ولا يكون شئ؟" قلت "وحياتك يا أبا محمود ! وأنت تنهزم عني أيضا!" قال"يا شين! والله إن موتي أسهل علي من أن أنهزم عنك". ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة، فأخذوا لنا باقورة (= قطيع أبقار) وحبسوها في جزيرة، تحت الطاحون الجلالي وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة. فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة مولد لنا، وكان رجلاً شجاعاً. فقلت لهما "نعبر الماء ونأخذ الدواب". فعبرنا. فأما ماضي فضربت فرسه نشابة فقتلتها. وبالجهد أوصلته إلى أصحابه. وأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر، فوالله ما رمحت، ولا قلقت، ولا كأنها أحست بالجرح. وأما جمعة فرجع خوفاً على فرسه، فلما عدنا قلت "يا أبا محمود! ما قلت لك إنك تنهزم عني! وأنت تلوم ابنك محمودا!"قال"والله ما خفت إلا على الفرس فإنها تعز علي". واعتذر.

8. ونزل علينا عسكر أنطاكية، في بعض الأيام، مترلا كان يترله كلما نزل علينا. ونحن ركاب مقابلهم، وبيننا النهر. فلم يقصدنا منهم أحد. وضربوا خيامهم ونزلوا فيها. فرجعنا نحن نزلنا في دورنا، ونحن نراهم من الحصن (= حصن شيزر). فخرج من جندنا نحو من عشرين فارساً إلى بندرقنين، قرية بالقرب من البلد، يرعون خيلهم. وقد تركوا رماحهم في دورهم. فخرج من الإفرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم. فصادفا رجلاً على الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته، ونحن نراهم من الحصن. وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح. فقال عمي "أبصروا الساعة ما يعمل". فلما دنا من الفارسين، وهو يركض، كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة. فلما رأى عمي توقفه عنهما، وهو على روشن له في الحصن، يراه، دخل من الروشن مغضبا، وقال "هذا خذلان". وكان توقف جمعة خوفاً من جُورة كانت بين يدي الفارسين، لا يكون لهم فيها كمين. فلما وصل تلك الجورة، وما فيها أحد، حمل على الفارسين، خلص الرجل والبهيمة، وطردهما إلى الخيام. وكان ابن ميمون، صاحب أنطاكية (= بوهيموند) يرى ما جرى. فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف للدواب! ورمى خيمتهما وطردهما، وقال "فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج! ما أنتم رجال، أنتم نساء!" وأما جمعة فوبخه عمي وحرد عليه، لوقوفه عنهما أول ما وصلهما. فقال "يا مولاي! خفت لا يكون لهم في جورة رابية القرامطة كمين يخرج علي. فلما كشفتها وما رأيت فيها أحداً استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما". فلا والله ما قبل عذره، ولا رضي عنه.

9. والإفرنج- خذلهم الله – ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا مترلة عالية إلا للفرسان. ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس (= رينيه)، من الشّعراء، وبيننا وبينهم صلح. وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك (= فولك الخامس ملك بيت المقدس سنة 526)" هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم. فولدت وماتت أولادها. وردها علينا بعد أن أتلفها". فقال الملك لستة سبعة من الفرسان "قوموا اعملوا له حكما". فخرجوا من مجلسه، واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شئ واحد. وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا "قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم". فأمره الملك بغرامة، فتوسل إلي، وثقّل علي، وسألني، حتى أخذت منه أربعمائة دينار، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغيره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك "يا فلان! بحق ديني، لقد فرحت البارحة فرحا عظيما!" قلت "الله يفرح الملك! بماذا فرحت؟" قال "قالوا لي: إنك فارس عظيم. وما كنت أعتقد أنك فارس". قلت "يا مولاي! أنا فارس من جنسي وقومي". وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم.

10. وكان نزل علينا دنكري (= تانكريد) وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون، فقاتلنا ثم اصطلحنا، فنفذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين، رحمه الله. وكان فرساً جواداً. فنفذه له عمي تحت رجل

من أصحابنا كردي يقال له: حسنون. وكان من الفرسان الشجعان. وهو شاب مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري. فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها. وحضر بين يدي دنكري، فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه. وقد عرفوا أنه فارس شجاع. فخلع عليه دنكري. فقال له حسنون "يا مولاي! أريدك تعطيني أمانك، أنك إن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني". فأعطاه أمانه على ما توهم حسنون، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ماندري ما يقولون. ومضى على هذا سنة أو أكثر، وانقضت مدة الصلح (= عام 501)، وجاءنا دنكري في عسكر أنطاكية، فقاتلنا عند سور المدينة. وكانت خيلنا لقيت أوائلهم. فطعن فيهم رجل يقال له: كامل المشطوب، من أصحابنا، كردي. وهو وحسنون نظراء في الشجاعة. وحسنون واقف مع والدي، رحمه الله-على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار، ويأتيه كزاغنده. فأبطأ عليه، وأقلقه طعن كامل المشطوب، فقال لوالدي "يا مولاي! مر لي بلباس خفيف". فقال "هذه البغال عليها السلاح واقفة. مهما صلح لك البسه". وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي، وأنا صبي، وهو أول يوم رأيت فيه القتال. فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال، فما وافقته، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب! فتقدم على حجرته وهو معري، فاعترضه فارس منهم، فطعن الفرس في قطاتها، فعضت على فأس اللجام، وحملت به حتى رمته في وسط موكب الإفرنج. فأخذوه أسيراً. وعذبوه أنواع العذاب. وأرادوا قلع عينه اليسرى. فقال لهم دنكري- لعنه الله- "اقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استرت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً!". فقلعوا عينه اليمنى كما أمرهم، وطلبوا منه ألف دينار، وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة، جواداً من أحسن الخيل. فاشتراه بالحصان، رحمه الله. وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير. فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم. فحرد دنكري وقال "أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم. وهؤلاء سرجند (= راجلون) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم". قالوا "إنما خوفنا على الخيل، وإلا دسناهم وطعناهم". قال "الخيل لي، من قتل حصانه أخلفته عليه". فحملوا على الناس عدة حملات، فقتل منهم سبعون حصاناً، وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم.

11. وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم، يقال له: بدرهوا (= بدروفانت)، فكان أبداً يقول "ترى ما ألتقي جمعة في القتال؟"وجمعة يقول "ترى ما ألتقي بدرهوا في القتال؟". فنزل علينا عسكر أنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله. وبيننا وبينهم الماء ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم. فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم "فيكم جمعة؟" قالوا "لا". والله ما كان حاضراً فيهم. وكان ذلك الفارس بدرهوا. فالتفت فرأى أربعة فوارس منا، من ناحيته: يحيى بن صافي الأعسر، وسهل بن أبي غانم الكردي، وحارثة النميري، وفارس آخر، فحمل عليهم فهزمهم. ولحق واحداً منهم طعنه طعنة فشلة (= واهنة)، ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن. وعاد إلى الخيام. ودخل أولئك النفر في البلد فافتضحوا، واستخفهم الناس، ولاموهم، وازرروا بهم. قالوا: "أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد! كنتم افترقتم له، فكان طعن واحدا منكم، وكان الثلاثة قتلوه. ولا قد افتضحتم". وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري.

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها. فانتخوا، وقاتلوا، واشتهروا في الحرب. وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة. واما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد انطاكية. فخرج عليه الأسد من غاب في الروج (= بين حلب والمعرّة)، في طريقه، فخطفه عن بغلته، ودخل به الى الغاب أكله، لا رحمه الله!

12. ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير: فمن ذلك ان اسباسلار مودود (= القائد مودود بن ألتون تكين حاكم الموصل) رحمه الله نزل بظاهر شيزر، يوم الخميس تاسع ربيع الاول سنة خمس وخمسمائة. وقد قصده دنكري، صاحب انطاكية، في جمع كثير. فخرج اليه عمي ووالدي رحمهما الله وقالا "الصواب أن ترحل (= وكان نازلا شرقي البلد على النهر) وتنزل في البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة! ونلقي الافرنج بعد ان نحرر خيامنا واثقالنا". فرحل ونزل كما قالا له. واصبحا خرجا اليه، وخرج من شيزر خمسة الاف راجل معدين. ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه. وكان معه -رحمه الله- رجال جياد. فصفوا من قِبلي الماء، والافرنج نزول شماليه. فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم، والناس حولهم، فنزلوا على تل التُرمسي، فمنعوهم الورود كما عملوا بالامس. فرحلوا في الليل، ونزلوا على التلول، والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير: فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود. ورحلوا في الليل متوجهين الى أفامية. ففرغ اليهم العسكر واحتاطوا بهم، وهم سائرون. فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم، فقتلوا حصانه واثخنوه بالجراح، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه. ودخل الافرنج أرضهم. وعاد المسلمون عنهم. ومضى اسباسلار مودود -رحمه الله- الى دمشق. فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري، صاحب انطاكية، مع فارس معه غلمان واصحاب، يقول "هذا فارس محتشم من الإفرنج، وصل حجّ ويريد الرجوع الى بلاده. وسألني أن أسيّره إليكم يبصر فرسانكم. وقد نفّذته. فاستوصوا به". وكان شابا حسن اللباس، الا أن فيه آثار جراح كثيره. وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته. فسالت عنه فقالوا "هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود، وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع الى اصحابه". فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الاجل الاحجام ولا يقدمه الاقدام!

13. ومن ذلك: أن دنكري، صاحب انطاكية، أغار على شيزر، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى ونزل على قرية يقال لها: زلين، فيها مغار معلّقة لا يوصل اليها، في وسط الجبل. ما إليها من فوق منزل، ولا إليها من تحت مطلع. إنما ينزل اليها من يحتمي فيها بالحبال. وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الاخر سنة اثنتين وخمسمائة. فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال"اعمل لي صندوقا من خشب، وأنا اقعد فيه، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل اوثقوها في الصندوق، حتى لا يقطعوها بالسيوف فاسقط". فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقات الى المغار، فاخذها وانزل كل من كان فيها الى دنكري. وذلك أن المغار بهو ما فيه مكان يستتر الناس فيه، وذلك يرميهم بالنشاب، فلا تقع نشابة الا في انسان، لضيق الموضع وكثرة الناس فيه!. وكان ممن أُسر، في جملة من أسر في ذلك اليوم، امراة كانت من أصل جيد من العرب، وُصفتْ لعمي عز الدين أبي

العساكر سلطان-رحمه الله- قبل ذلك، وهي في بيت أبيها. فارسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها. وعادت تصفها وجمالها وعقلها، إما لرغبة بذلوها لها، وإما أروها غيرها. فخطبها عمي وتزوجها. فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها: ثم هي خرساء. فوفاها مهرها، وردها إلى قومها، فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم. فقال عمي"ما أدع امراة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج". فاشتراها -رحمه الله- بخمسمائة دينار، وسلّمها إلى أهلها.

14. وكان ما جرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم (= أمير حلب سنة 512)، صاحب حلب، ذلك الوقت. قرر، مع صاحب انطاكية (= روجار): أن يحتال عليهم ويفرقهم، ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم. فأرسل إلى إسباسلار برسق -رحمه الله- يقول "تنفذ لي بعض الأمراء، ومعه جماعة من العسكر، اسلم إليه حلب. فإني أخاف من أهل البلد الا يطاوعوني على التسليم. فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوّى بهم على الحلبيين"فنفذ إليه أمير الجيوش أوزبه (= أوزبك) ومعه ثلاثة آلاف فارس وصبحهم روجار- لعنه الله- كسرهم لنفاذ المشيئة. وعاد الإفرنج - لعنهم الله- إلى كفرطاب عمروها وسكنوها. وقدر الله تعالى أن خلّص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفرطاب. فإن الأمراء اقتسموهم، وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم. إلا ما كان من أمير الجيوش: فإنه تقدم الذين طلعوا في سهمه، ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه إلى حلب. وافترق العسكر- من سلم منهم من دانيث - وتوجهوا إلى بلادهم. فذلك الرجل الذي طلع وحده إلى برج كفرطاب، كان سبب أخذها. ومن ذلك: كان في خدمتي رجل يقال له: نمير العلاروزي، راجل شجاع أيّد (= قوي)، نهض، هو وقوم من رجال شيزر، إلى الرُّوج (= بين حلب والمعرة)، إلى الإفرنج. فعثروا في البلد على قافلة من الإفرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعض "من يدخل عليهم؟" قال نمير "أنا". فدفع إليهم سيفه وترسه، وجذب سكينه، ودخل عليهم فاستقبله رجل منهم. فضربه بالسكين رماه، وبرك عليه يقتله، وخلفه إفرنجي معه سيف. فضربه، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز، فهو يرد عنه! فلما قتل الرجل الذي تحته التفت إلى صاحب السيف يريده. فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا. فتدلى جانب وجهه على صدره. فخرج من المغارة، إلى أصحابه، فشدوا جرحه، ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة. فوصل شيزر وهو على تلك الحالة. فخيط وجهه، وداوى جراحه، فبرأ وعاد إلى ما كان عليه، إلا أن عينه تلفت. وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر.

15. كنت أتردد إلى ملك الإفرنج (= فولك الخامس)، في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملك (= أمير دمشق عام 534) - رحمه الله - ليد كانت للوالد - رحمه الله - على بغدوين الملك (= بلدوين الثاني ملك بيت المقدس)، والد الملكة (= مليسندة) امرأة الملك فلك بن فلك. فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إلي لأشتريهم. فكنت أشتري منهم من سهل الله خلاصه. فخرج شيطان منهم، يقال له: كليام جيبا (=وليام)، في موكب له يغزو، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة: نحو أربعمائة نفس، رجالاً ونساء، فكان يجئ أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدرت على شرائه. وفيهم رجل شاب يسلّم ويقعد، لا يتكلم.

فسألت عنه، فقيل لي: هو رجل زاهد، صاحبه (= مالكه) دباغ. فقلت له "بكم تبيعني هذا؟" قال "وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ، جملة كما اشتريتهما، بثلاثة وأربعين ديناراً". فاشتريتهما. واشتريت لي منهم نفراً. واشتريت للأمير معين الدين (= أمير دمشق السلجوقي) – رحمه الله – منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً، ووزنت ما كان معي، وضمنت علي بالباقي. وجئت إلى دمشق، فقلت للأمير معين الدين، رحمه الله "قد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي. إن أردتهم وزنت ثمنهم، وإلا وزنته أنا". قال "لا! بل أنا أزن، والله، ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم". وكان –رحمه الله– أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة. ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً. وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي. فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها. فركبت إلى داره –لعنه الله– وقلت "تبيعني منهم عشرة؟" قال "وحق ديني ما أبيع إلا الجميع". قلت"ما معي ثمن الجميع. وأنا أشتري بعضهم. والنوبة الأخرى أشتري الباقي". قال "ما أبيعك إلا الجميع". فانصرفت. وقدر الله –سبحانه– أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم. وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين، إذا وصل إليهم الأسير أخفوه، وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلّبهم ذلك الملعون، فما ظفر منهم بأحد. وأحسن الله – سبحانه–خلاصهم. وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي اشتريتها وما وزنت ثمنها، وقد هربت فيمن هرب. فقلت "سلمها إلي وخذ ثمنها!" قال "ثمنها لي من أمس. قبل أن تهرب!" وألزمني بوزن ثمنها فوزنته. وهان علي ذلك لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

16. ومن عجائب السلامة، إذا جرى بها القدر، وسبقت بها المشيئة: أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق (= أمير حصن كيفا في ديار بكر) –رحمه الله– عمل على مدينة آمد (= عاصمة مقاطعة ديار بكر) عدة مرار، وأنا في خدمته، ولا يبلغ منها مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مديونا بآمد، راسله ومعه جماعة من أصحابه. وقرر الأمير أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها، ويطلعهم بالحبال ويملك آمد. فعوّل فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي، يقال له: ياروق، والعسكر كله يمقته ويكرهه الإفرنج – لعنهم الله– نزلوا علينا بالفارس والراجل. وبيننا وبينهم العاصي، وهو زائد زيادة عظيمة. لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا، ولا نقدر نحن أن نجوز إليهم. فنزلوا على الجبل بخيامهم. ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، هملوا خيلهم في القصيل (= الزرع) وناموا. فتجرد شباب من رجالة شيزر، وخلعوا ثيابهم، وأخذوا سيوفهم، وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم. وتكاثروا على أصحابنا، فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية. وفيه رجل يقال له: حسن الزاهد، وهو واقف على سطح في المسجد يصلي، وعليه ثياب سود صوف، ونحن نراه ومالنا إليه سبيل. وقد جاء الإفرنج فنزلوا على باب المسجد "وصعدوا إليه، ونحن نقول "لا حول ولا قوة إلا بالله! الساعة يقتلونه!" فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه! وعاد الإفرنج

نزلوا، ركبوا خيلهم، وانصرفوا. وهو واقف مكانه يصلي! ولا نشك أن الله -سبحانه- أعماهم عنه، وستره عن أبصارهم. فسبحان القادر الرحيم!.

17. ومن ألطاف الله تعالى: أن ملك الروم (= جان الثاني كومنينيوس) لما نزل على شيزر، في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال. فاقتطعهم الروم، فقتلوا بعضا، وأسروا بعضا. فكان، في جملة من أسروا، زاهد من بني كردوس، من الصالحية، من مولّدي محمود بن صالح، صاحب حلب. فلما عاد الروم كان معهم مأسوراً. فوصل القسطنطينية. فهو في بعض الأيام فيها، إذ لقيه إنسان فقال "أنت ابن كردوس؟" قال "نعم!" قال "سر معي أوقفني على صاحبك". فسار معه حتى أراه صاحبه، فقاوله على ثمنه، حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه. فوزن له الثمن. وأعطى ابن كردوس نفقة، وقال "تبلغ بها إلى أهلك! وامض في دعة الله تعالى!"فخرج من القسطنطينية. وتوصل إلى أن عاد إلى شيزر. وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه. ولا يدري من الذي شراه وأطلقه. وقد جرى لي ما يشبه ذلك: لما خرج علينا الإفرنج، في طريق مصر، وقتلوا عباس بن ابي الفتوح وابنه نصراً الكبير، انهزمنا نحن إلى جبل قريب منا. فصعد الناس فيه رجالة يمشون، يجرون خيلهم. وأنا على إكديش، ولا أستطيع المشي. فصعدت وأنا راكب. وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى، كلما وطئه الفرس انهرّ تحت قوائمه. فضربت الأكديش ليطلع فما استطاع. ونزل والحصى والنقارة تنزل به. فترجلت عنه، وأقمته، ووقفت لا أقدر على المشي. فنزل إلي رجل من الجبل فمسك بيدي، وبرذوني في يدي الأخرى، حتى أطلعني. ولا والله، ما أدري من هو ولا عدت رأيته. وقد كان في ذلك الوقت الصعب، يُمتنّ فيه بيسير الإحسان، ويطلب المكافأة عنه ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء أعطيته عنها دينارين وما زال، بعد وصولنا دمشق، يقتضي حوائجه ويتوصل بي إلى أغراضه، لأجل تلك الشربة التي سقانيها! وما كان ذلك الذي أعانني إلا ملكا رحمني الله تعالى، فأغاثني به!

18. ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يقاتلون: للجنة لا لرغبة ولا لسمعة. ومن ذلك: أن ملك الألمان الإفرنجي (= كونراد الثالث) -لعنه الله- لما وصل الشام، اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج. وقصد دمشق. فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي، رحمهما الله. وكانا من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن "ما هؤلاء الروم؟" قال "بلى!" قال "فإلى متى نحن وقوف؟" قال "سر على اسم الله تعالى!" فتقدما قاتلا حتى قتلا -رحمهما الله في مكان واحد!. ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك: أن رجلاً من الأكراد يقال له: فارس، وكان، كاسمه، فارساً وأي فارس! فحضر أبي وعمي -رحمهما الله- وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف بن مُلاعب (= صاحب أفامية)، عمل عليهم فيها، وغدر بهم. وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما درى. وسبب ذلك: أنه راسلهم، وقال "نمضي إلى أسفونا (=جوار معرة النعمان)، وفيها الفرنج، نأخذها". فسبقه أصحابنا إليها، وترجلوا، وزحفوا إلى الحصن نقبوه. وهم في القتال وابن ملاعب وصل. فأخذ خيل من ترجل من أصحابنا، ووقع القتال بينهم، بعد ما كان للإفرنج! واشتد بينهم القتال. فقاتل فارس

الكردي قتالاً عظيماً. وجرح عدة جراح. وما زال يقاتل ويجرح حتى أثخن بالجراح. وانفصل القتال. فاجتاز به أبي وعمي رحمهما الله وهو محمول بين الرجال، فوقفا عليه وهنآه بالسلامة. فقال: والله ما قاتلت أريد السلامة! لكن لكم علي جميل وفضل كثير! وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم. فقلت "أقاتل بين أيديكم، وأجازيكم عن جميلكم، وأقتل قدامكم". وقضى الله سبحانه أنه عوفي من تلك الجراح، ومضى إلى جبلة (= قرب اللاذقية)، وفيها فخر الملك ابن عمار (= صاحب طرابلس عام 501). وفي اللاذقية الإفرنج. فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على اللاذقية. وخرجت خيل من اللاذقية تريد الغارة على جبلة. فنزل الفريقان في الطريق، وبينهما رابية. فطلع فارس من الإفرنج، من جانبهم، يكشف الرابية. وطلع فارس الكردي، من الجانب الآخر، يكشف لأصحابه! فالتقى الفارسان على متن الرابية. فحمل كل واحد منهما على صاحبه، فاختلفا طعنتين، فوقعا ميتين! وبقيت الحصن تتصاول على الرابية، والفارسان قتيلان. وكان لفارس هذا، عندنا، ولد، اسمه علاّن، من الجند. له الخيل الملاح والعدة الحسنة. ولكن ما كان كأبيه. فنزل دنكري، صاحب أنطاكية، يوماً، وقاتلنا قبل ضرب الخيام. وهذا علاّن بن فارس على حصان مليح باغز (= نشيط)، من أحسن الخيل، وهو واقف على رفعة من الأرض. فحمل عليه فارس من الإفرنج، وهو كالغافل، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية. فشب الحصان رمى علاّن. وعاد الإفرنجي، والحصان معارضه والقنطارية في رقبته، كأنه تجنبه، يتمختر بغنيمة حسنة!

19. ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار: أن الإفرنج خذلهم الله أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها (وقع ذلك بقيادة بالدوين الأول في عام 508) فاجتمع منهم خلق كثير. وسار إليهم صاحب الرها وتل باشر (= جوسلين الأول) وصاحب أنطاكية (= روجار) فنزل صاحب أنطاكية علي شيزر في طريقه إلى دمشق. وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها. واشتراها البرجاسيّة (التجار، البرجوازيون)، ووزنوا لهم أثمانها. وما عندهم شك في فتحها وملكها. وكفر طاب إذ ذاك لصاحب أنطاكية. فجرد من عسكره مائة فارس، انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة. فلما سار إلى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب. وأنفذوا رجلا من أصحابنا، يقال له: قنيب بن مالك، فجس لهم كفرطاب في الليل، فوصلها، دارها وعاد، وقال "أبشروا بالغنيمة والسلامة" فسار المسلمون إليهم فالتقوا على مثكير. فنصر الله سبحانه الإسلام، وقتلوا الإفرنج جميعهم، وكان قنيب، الذي جس لهم كفرطاب، قد رأى في خندقها دواب كثيرة. فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق، ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده! فمضى يركض إلى الخندق. فرمى عليه رجل من الإفرنج، من الحصن حجرا فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا، ثم تندب ولدها. فكانت إذا ندبت على ابنها قنيب يتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها. فإذا فرغت من ندبها عليه وسكنت، عاد ثدياها كالجلدتين: ما فيهما قطرة لبن! فسبحان من أشرب القلوب الحنّة (= الحنان) على الأولاد. ولما قيل لصاحب أنطاكية، وهو على دمشق "قد قتل المسلمون أصحابك". قال "ما هو صحيح! قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم!".

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على الإفرنج، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا جميع دوابهم. فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله. والحمد لله رب العالمين. ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بالإفرنج: أنه كان في عسكر حماة أخوان كرديان. اسم الواحد: بدر، واسم الآخر: عنّاز. وكان هذا -عنّاز- ضعيف النظر. فلما كسر الإفرنج وقتلوا، قطعوا رؤوسهم وشدوها في سموط (= السير يشدّ به السرج) خيلهم. وقطع عناز رأسا وشده في سموطه. فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا له "يا عنّاز! أي شئ هذا الرأي معك؟" قال "سبحان الله لما جرى بيني وبينه، حتى قتلته!". قالوا له "يا رجل ! هذا رأس أخيك بدر!"فنظره وتأمله فإذا هو راس أخيه! فاستحيا من الناس، وخرج من حماة. فما ندري أين قصد، ولا عدنا سمعنا له خبرا! وكان أخوه بدر قد قتل في تلك الوقعة. قتله الإفرنج، خذلهم الله تعالى!. وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل، ويضرب البغل، فلا يقدر يخلص رجله من يده! ويأخذ المسمار البيطاري بين أصابعه، وينفذه في دف خشب البلوط! وكان أكله مثل قوّته! لا بل أعظم!

20. وقد ذكرت شيئا من أفعال الرجال. وساذكر شيئا من أفعال النساء، بعد بساط أقدمه: وذلك أن أنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج، يقال له: روجار، فمضى يحج إلى البيت المقدس، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس (= الأمير بالدوين الثاني) وهو رجل شيخ. وروجار شاب. فقال لبغدوين "اجعل بيني وبينك شرطا إن مت قبلك كانت أنطاكية لك. وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي". فتعاقدا وتواثقا على ذلك. وقدر الله تعالى أن نجم الدين إيلغازي بن أرتق (= أمير ماردين) رحمه الله لقي روجار بـــ "وانيث"، يوم الخميس خامس جمادى الأولى، سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، فقتله، وقتل جميع عسكره. ولم يدخل أنطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا. وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلّمها، وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما. وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما! فشرب، بعد كسر الإفرنج وقتلهم، ودخل في الُخمار، فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس إلى أنطاكية بعسكره. فكان المصاف الثاني بينهما على السواء: كسر بعض الإفرنج بعض المسلمين، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج. وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة. وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون وبُلاطنُس (= حصن بين اللاذقية وحماة) وتلك الناحية. وكان صديقاً لأتابك طغدكين، صاحب دمشق ذلك الوقت. وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالإفرنج في أفامية، حين وصل عساكر الشرق مع بُرسق بن بُرسق. فقال هذا روبرت الأبرص لأتابك طغد كين"ما أدري بأي شئ أضيفك! ولكن قد أبحتك بلادي. أنفذ خيلك تغير عليها، وتأخذ كل ما وجدوه. على ألا يسبوا ولا يقتلوا. الدواب والمال والغلّة لهم، يأخذون ذلك مباحا لهم، فلما أُسر روبرت، وأتابك طغد كين حاضر المصاف في معونة إيلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار. فقال إيلغازي "امضوا به إلى أتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة (= الفدية)!" فمضوا به، وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مقبلا قام شمّر أذيال قبائه في البند (= نطاق)، وأخذ سيفه، وخرج إليه ضرب رقبته! فنفّذ إليه إيلغازي يعتب عليه، وقال



"نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان. هذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار، نفّذته إليك تُفزعه لعله يزيدنا في القطيعة، قتلته" قال "أنا ما أحسن أُفزع إلا كذا".

21. ثم ملك بغدوين البرونس أنطاكية، وكان لأبي وعمي رحمهما الله عليه جميل كبير، حيث كان أسَره نور الدولة بَلَك رحمه الله (= صاحب ملطية)، وصار بعد قتل بلك إلى حسام الدين، تمرتاش بن إيلغازي (=وذلك في عام 519). فحمله إلينا، إلى شيزر، ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه. فأحسنّا إليه. فلما ملَك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطيعة سامحنا بها، وصار أمرنا في أنطاكية نافذا. فهو فيما هو فيه، وعنده رسول من أصحابنا، إذ وصل مركب إلى السويدية (= ميناء في الاسكندرونة)، فيه صبي عليه أخلاق (=ثياب بالية). فحضر عنده، وعرّفه أنه ابن ميمون (= بهموند) فسلم أنطاكية إليه، وخرج منها ضرب خيمة في ظاهرها. فحلف لنا رسولنا الذي كان عنده أنه (= بالدوين) اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق. وأهراء أنطاكية ملآى من الغلة، ورجع بغدوين إلى القدس. وخرج على الناس من ذلك الشيطان، ابن ميمون بلية عظيمة، فنزل علينا يوما من الأيام بعسكره. فضرب خيامه، ونحن قد ركبنا مقابلهم. فما خرج إلينا منهم أحد، ونزلوا في خيامهم. ونحن ركاب على شرف نبصرهم وبيننا وبينهم العاصي. فنزل من بيننا ابن عمي، ليث الدولة، يحيى بن مالك بن حميد رحمه الله يسير إلى العاصي. فظنناه يسقي فرسه. فخاض الماء، وعبر، وسار نحو موكب للإفرنج واقف بالقرب من خيامهم! فلما دنا منهم نزل إليه فارس واحد. فحمل كل واحد منهما على صاحبه، وراغ (= حاد) كل واحد منهما عن طعنة الآخر. فتسرعت أنا وأمثالي من الشباب، ذلك الوقت، إليهما. ونزل ذلك الموكب وركب ابن ميمون وعسكره وجاءوا كالسيل، وصاحبنا قد طُعنت فرسه. فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم. وفي أجنادنا رجل كردي، يقال له: ميكائيل، قد جاء في أوائل خيلهم منهزما، وخلفه فارس إفرنجي قد لزَّه. وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عال. فلقيته، فمال على ذلك الفارس الكردي، وزلّ عن طريقي، وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه، فلا يلحقه، ولا الإفرنجي يلتفت إلي، إلا يريد تلك الخيل المجتمعة، إلى أن وصل إلى خيلنا، وأنا تابعه، فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقته، وأصحابه في أثره في جمع ما لنا بهم قوة! فرجع الفارس، وحصانه في آخر رمقه، التقاهم فردهم جميعهم، وعاد، وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون، صاحب أنطاكية، وهو صبيي، قد امتلأ قلبه من الرعب ولو ترك أصحابه هزمونا إلى ان يدخلونا المدينة! كل ذلك وأمه عجوز، يقال لها: بُريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا، يقال له: علي بن محجوب، واقفة بين الخيل على شط النهر، في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس! وأكثر أصحابنا، الذين كانوا على الشّرف، لما رأوا الإفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة. وتلك الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الأمر العظيم. وأنا ذاكر شيئا من أمر هذه بُريكة، وإن لم يكن موضعه. لكن الحديث شجون. كان مولاها (= علي) يتديّن ولا يشرب الخمر. فقال لوالدي يوماً "والله، يا أمير، ما أستحل آكل من الديوان. ولا آكل إلا من كسب بريكة!" وهو الجاهل فنفذتْ أحضرتْ نسيبا لها من الضياع، وأظنه



أخاها، وأخفته في البيت إلى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها علي، عبد ابن أبي الربداء. قتلاه، واحتملا بجميع مالها. وأصبحت عندنا بشيزر. وقالت "غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر!" فأراحت الناس من هذا الشيطان. ورعينا لها ما فعلت، وكانت عندنا في الكرامة والاحترام.

22. وكان في أمراء مصر رجل يقال له: ندى الصليحي، في وجهه ضربتان: الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه، والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه. فسألته عنهما فقال "كنت أنهض وأنا شاب، من عسقلان، وأنا راجل. فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس، أريد حجّاج الإفرنج. فصادفنا قوما منهم. فلقيت رجلا معه قنطارية، وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء. فطعنني الرجل هذه الطعنة الواحدة، وضربته قتلته. فمشت إليَ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي، جرحتني هذا الجرح الآخر! فوسما وجهي". ومن إقدام النساء: أن جماعة من الإفرنج الحجّاج حجّوا وعادوا إلى رَفَنِيّة (= جنوب غرب حماة) وكانت ذلك الوقت لهم وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل، وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور فدخلوا المدينة، وهم في نحو من سبعمائة ثمانمائة: رجال ونساء وصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان، وفخر الدين أبي كامل شافع رحمهما الله ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين، أختين. ووالدي -رحمه الله- في الحصن. فخرج رجل من المدينة في شغل له، في الليل، فرأى إفرنجيا! فعاد أخذ سيفه وخرج قتله. ووقع الصياح في البلد. وخرج الناس فقتلوهم، وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم.

وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا، يقال لها: نضرة بنت بوزرماط، خرجت مع الناس أخذت إفرنجيا أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت وخرجت أخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج. فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم، وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم. ووصل عمّاي والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس، وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد. فصارت الخيل تعثر في الليل، في القتلى، ولا يدرون بماذا تعثر، حتى ترجل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام! فهالهم ذلك، واعتقدوا أن البلد قد كبس! وكانت غنيمة ساقها الله -عز وجل- إلى الناس. فصار إلى دار والدي رحمه الله عدة من الجواري من سبيهم. وهم لعنهم الله جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم فرأى جارية مليحة شابة، فقال لقهرمانة داره "أدخلي هذه الحمام، واصلحي كسوتها، واعملي شغلها للسفر". ففعلت. وسلمها إلى بعض خدامه، وسيّرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك، صاحب قلعة جعبر (=على الفرات)، وكان صديقه. وكتب إليه يقول: "غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفّذت لك سهما منها". فوافقته وأعجبته، واتخذها لنفسه. فولدت له ولدا أسماه: بدران. فجعله أبوه ولي عهده. وكبر ومات والده. وتولى بدران البلد والرعية، وأمه الآمرة الناهية. فواعدت قوما، وتدلّت من القلعة بحبل، ومضى بها أولئك إلى سُروج (= أورفة) وهي إذ ذاك للإفرنج، فتزوجت بإفرنجي إسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر!

23. وكان في أولئك الذين صاروا إلى دار والدي، امراة عجوز، ومعها بنت لها: امرأة شابة حسنة الخلقة، وابن مشتد. فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يرى من صلاته وصومه. وتعلم الترخيم (= تركيب الرخام) من مرخِّم كان يرخِّم دار والدي. فلما طال مقامه زوجه الوالد امرأة من قوم صالحين. وقام له بكل ما احتاج لعرسه وبيته. فرزق منها ولدين، وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين. والغلام راؤول، أبوهما، مسرور بهما. فأخذهما وأمهما وما في بيته، وأصبح بأفامية عند الإفرنج! وتنصّر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين! فالله تعالى يطهّر الدنيا منهم.

24. كان في عسكر الملك فلك بن فلك (= فولك الخامس ملك القدس) فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي، وصار ملازمي يدعوني" أخي "وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي "يا أخي! أنا سائر إلى بلادي، وأريدك تُنفذ معي ابنك، وكان ابني معي. وهو ابن أربع عشرة سنة (= مرهف الذي سيكون من مقرّبي صلاح الدين الأيوبي، فيما بعدّ) إلى بلادي يبصر الفرسان، ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل!". فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل! فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج! فقلت "وحياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه. وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها". قال "وأمك تعيش؟: قلت "نعم" قال "لاتخالفها!".

ومن عجيب طبّهم: أن صاحب المُنطيرة (= شمال لبنان)كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضي من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد ! فقلنا له "ما أسرع ما داويت المرضى!" قال "أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُمّلة، وامرأة قد لحقها نُشاف (=بُله). فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميَت المرأة (=من الحمية) ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شئ يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة! قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا. فحضر الفارس والفأس. وأنا حاضر. فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفاس ضربة واحدة اقطعها! فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة، ما انقطعت! ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وابصر المرأة فقال: هذه امرأة في راسها شيطان قد عشقها! احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل. فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في راسها فأخذ الموسى وشق راسها صليبا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكة بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا: لا! فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!. وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك: كان للملك خازن من فرسانهم يقال له: برناد (= ريرناد)، لعنه الله. من ألعن الإفرنج وأرجسهم. فرمَحه حصان في ساقه. فعمّلت عليه رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعا. والجِراح كلما ختم موضع فَتح موضع. وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم، وجعل يغسلها بالخل الحاذق، فختمت تلك الجراح وبرأ، وقام مثل

الشيطان. ومن عجيب طبهم: أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له: أبو الفتح، له ولد قد طلع في رقبته خنازير (=قروح). وكلما ختم موضع فتح موضع. فدخل أنطاكية في شغل له، وابنه معه. فرآه رجل إفرنجي فسأله عنه، فقال: هو ولدي" قال "تحلف لي بدينك: إن وصفت لك دواء يبرئه، لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة، حتى أصف لك دواء يبرئه؟ فحلف. فقال له "تأخذ له أشنانا غير مطحون، تحرقه وتربّيه بالزيت والخل الحاذق، وتداويه به حتى يأكل الموضع. ثم خذ الرصاص المُحرق وربِّه بالسمن. ثم داوه به، فهو يبرئه" فداواه بذلك فبرأ. وختمت تلك الجراح. وعاد إلى ما كان عليه من الصحة. وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء، فنفعه وأزال ما كان يشكوه.

25. فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا (= استوطنوا بلاد المسلمين) وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم، قبّحهم الله: أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفي الداويّة (= حرّاس المعبد)، وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه. فدخلته يوما فكبرت في الصلاة، فهجم علي واحد من الإفرنج، مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال: "كذا صل، فتبادر إليه قوم من الداويّة، أخذوه أخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة. فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق، وقال "كذا صل" فعاد الداويّة دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إلي، وقالوا "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق". فقلت "حسبي من الصلاة". فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة. ورأيت واحداً منهم، جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة (=جامع الصخرة في القدس)، فقال "تريد تبصر الله صغيرا" قال "نعم!" فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح عليه السلام صغير في حجرها! فقال "هذا الله صغير!". تعالى الله عما يقول الكافرون علوّا كبيرا.

26. وليس عندهم شئ من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث! فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك: أني كنت إذا جئت إلى نابلس (= كانت آنذاك تحت سيطرة الإفرنج) أنزل في دار رجل يقال له: معز، داره عمارة المسلمين. لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها، من جانب الطريق الآخر، دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار. يأخذ قنينة من النبيذ، وينادي عليه ويقول "فلان التاجر قد فتح بتِّية (= دنٌ) من هذا الخمر. من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوماً ووجد رجلا مع امرأته في الفراش! فقال له "أي شئ ادخلك إلى امرأتي" قال "كنت تعبان دخلت أستريح" قال "فكيف دخلت إلى فراشي" قال "وجدت فراشا مفروشا نمت فيه" قال "والمرأة نائمة معك؟" قال "الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟"؟ قال "وحق ديني إن عدت فعلت كذا، تخاصمت أنا وأنت". فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك: أنه كان عندنا رجل حمّامي يقال

له: سالم، من أهل المعرّة في حمام لوالدي، رحمه الله. قال "فتحت حماما في المعرّة أتعيش منها. فدخل إليها فارس منهم. وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام. فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه! فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي. فقال: سالم! فتقربت منه. فمد يده على عانتي وقال: سالم! جيد وحق ديني أعمل لي كذا، واستلقي على ظهره، وله مثل لحيته في ذلك الموضع! فحلقته. فمر يده عليه فاستوطأه (=وجد ناعما) فقال: سالم بحق دينك اعمل للداما! (=المدام) يعني امرأته! وقال لغلام له: قل للداما تجئ! فمضى الغلام وأحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها! وقال: اعمل كما عملت لي! فحلقت ذلك الشعر، وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي". فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة! وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة. ومما يقارب هذا: أنني دخلت الحمام بمدينة صور، فجلست في خلوة فيها، فقال لي بعض غلماني في الحمام: معنا امرأة فلما خرجت جلست على المصاطب، وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي، قد لبست ثيابها، وهي واقفة مع أبيها. ولم أتحقق أنها امرأة. فقلت لواحد من أصحابي" بالله أبصر: هذه امرأة هي؟". وأنا أقصد: أن يسأل عنها فمضى وأنا أراه، رفع ذيلها وطلع فيها فالتفت إلي أبوها وقال: هذه ابنتي ماتت أمها، ومالها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت راسها، قلت جيد ما عملت. هذا لك فيه ثواب.

27. ومن عجيب طبهم: ما حدثنا به كليام دبور (= غوليام دي بور)، صاحب طبرية، وكان مقدما فيهم. واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية، وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر، فمرض واشرف على الموت. فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا، قلنا: تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلانا؟ قال: نعم ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي! فلما رآه قال: أعطوني شمعا فأحضرنا له قليل شمع. فلينه وعمله مثل عقد الإصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فمات الفارس!. فقلنا له: قد مات! قد مات! قال: نعم. كان يتعذب، سددت أنفه حتى يموت ويستريح.

28. حضرت بطبرية، في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان، أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه (=شووه)، وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة، وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها. وشهدت يوماً بنابلس، وقد أحضروا اثنين للمبارزة وكان سبب ذلك: أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين: وقالوا: هو دلّ الحرامية على الضيعة". فهرب فنفّذ الملك فقبض أولاده. فعاد إليه، وقال"أنصفني أنا أبارز الذي قال عني: إنني دَلّلت الحرامية على القرية". فقال الملك لصاحب القرية المُقطع" أحضر من يبارزه. فمضى إلى قريته، وفيها رجل حداد، فأخذه وقال له "تبارز" إشفاقا من المقطع على فلاحيه، لا يقتل منهم واحد، فتخرّب فلاحته! فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوي، إلا أنه قد انقطع، يمشي ويجلس، يطلب ما يشربه. وذلك الآخر الذي طلب البراز، شيخ إلا أنه قوي النفس، يزجر وهو

غير محتفل بالمبارزة! فجاء البسكند (= الفسكونت، قائد المنطقة)، وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة. والتقيا. فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر، حتى يلجئه إلى الحلقة. ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما، وهو يقول بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيا ذلك الشيخ. فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه! ثم قام عنه، وضرب راسه بالعصا حتى قتله! فطرحو في رقبته، في الوقت، حبلا، وجروه شنقوه! وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته (= زرد يلبس تحت القلنسوة)، وأركبه خلفه، وأخذه وانصرف.

29. ومضيت مرة مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى القدس، فترلنا نابلس، فخرج من عنده رجل أعمى، وهو شاب عليه ملبوس جيد، مسلم، وحمل له فاكهة، وساله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق. ففعل. وسالت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوَّجة لرجل إفرنجي، فقتلته. وكان ابنها يحتال على حجاجهم، ويتعاون هو وأمه على قتلهم. فاتهموه بذلك، وعملوا له حكم الإفرنج: جلّسوا بَتّية عظيمة وملؤوها ماء، وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا في كتافه حبلا، ورقوه في البتية: فإن كان بريئا غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل، لئلا يموت في الماء وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء! فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم - لعنهم الله فكَحَلوه (= سملوا عينية بمرود الكحل). ثم إن الرجل وصل إلى دمشق، فأجرى له الأمير معين الدين -رحمه الله- ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانه "تمضي به إلى برهان الدين البلخي - رحمه الله - تقول له: تأمر من يقرئ هذا القرآن وشيئا من الفقه. فقال له ذلك الأعمى "النصر والغلَب! ما كان هذا ظني!" قال "وما ظننت بي؟" قال "تعطيني الحصان والبغلة والسلاح، وتجعلني فارسا!" قال "ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان!".

30. ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريـبي العهد ببلادهم. لكنهم شاذّ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنني نفّذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي (=تيودورس صوفيلانوس)، وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في انطاكية. فقال لصاحبي يوماً" قد دعاني صديق لي من الإفرنج. تجئ معي حتى ترى زيهم". قال: فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العُتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، قد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية مُلك يعيش منه. فأحضر مائدة حسنة، وطعاما في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفا عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج! ولي طباّخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن. ولا يدخل داري لحم خترير. فأكلت وأنا محترز، وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً في السوق، وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم، وما أدرى ما تقول! فاجتمع علي خلق من الإفرنج، فأيقنت بالهلاك، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني. فجاء فقال لتلك المرأة: مالك ولهذا المسلم؟ قالت هذا قتل أخي عرس (= هورس). وكان هذا عرس فارسا بأفامية، فقتله بعض الجند حماة. فصاح عليها، وقال: هذا رجل برجاسي (= تاجر) لا يقاتل، ولا يحضر القتال، وصاح على أولئك المجتمعين فتفرقوا، وأخذ بيدي ومضى. فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل.

كتاب الشرق

مدخل
الشرق: بانوراما أثنوغرافية

1. أطياف شرقية متنوعة

ترتسم صورة خاصة للشرق في أعين المسلمين، إنها صورة تقوم في معظم تفاصيلها على المعرفة، وهي مختلفة كثيرا عن الصورة التي ورثوها عن الأدبيات الجغرافية والفكرية اليونانية عن إفريقيا، والاخرى المشوّشة عن أهل الشمال، التي تشكّلت في ظروف متوترة من المنازعات العسكرية والسياسية والعقائدية. يظهر الشرق، في الغالب، جذاباً ومتنوعاً وغير مستسلم لأحكام مسبقة، لكنّه ممتثل للمفاضلة التقليدية بين دار الإسلام ودار الحرب. ومع أن الجغرافيين والمؤرخين والرحالة يقفون على التباين العقائدي والقيمي المغاير، والمختلف عن نظيره في دار الإسلام، لكنّه لا يستدرج من ذلك تحامل مسبق في غالب الأحيان، على أن ذلك لا يطمس أمر التصور العام الذي يعتبر الصين وجزءا كبيرا من الهند، والبلاد المحيطة بهما ضمن دار الحرب؛ وعليه فهذا العالم مشمول بطبيعة النظرة الدونية للآخر. يمكن القول- مع بعض من التحرّز- بأن صورة الشرق، باستثناء الأقاصي البعيدة والجزر النائية، مقبولة وتكاد تكون منقّاة من التحامل والتشويه المقصودين لذاهما، وقد ركّبت بدرجة من الموضوعية أفضل بكثير من نظيراهما الشمالية والإفريقية السوداء. ومن المعروف بأن الهند والصين يشكّلان قلب الشرق في القرون الوسطى، ولكن تجاورهما من الشمال ممالك، وتنحصر بينهما على ضفاف البحار المحيطة بهما أخرى، وتترامى في المحيط الهندي جزر لا تحصى شكّلت على الدوام مناطق مأهولة.

وبعض أجزاء الهند كانت تندرج ضمن دار الإسلام. إلى ذلك فقد جاور المسلمون كثيرا من تلك البلاد، وادخلوا بعضا منها إلى دار الإسلام، كما ارتحلوا إليها للتجارة والزيارة والمهمات الرسمية، وعرفوا جيدا الطرق البحرية والبرية المؤدية إليها، وكل هذا جعل الشرق، وبخاصة الكتلة الأساسية فيه، وهي الهند والصين، معروفة لديهم، وهذه المعرفة لعبت دورا بالغ الأهمية في تشكيل صورة الشرق في المخيال الإسلامي، وهي صورة غير مسيئة بعمومها، ولكنها في الوقت نفسه غير مُرضية تماما، وتعبّر عن درجة ما من التحفظ فيما يخص العلاقات الاجتماعية والأنساق الدينية والثقافية؛ فالشعوب تتخفف من الأحكام المشوهة كلما اتصلت فيما بينها بروابط طبيعية، وتكاد الهند والصين تستأثران بموقع استثنائي بين كل الصور التي شكلها المسلمون عن الشعوب خارج دار الإسلام. وينبغي تأكيد أن الصورة لن تصبح قريبة من الحقيقة بدون أن تتضمن عناصر متعددة، وأحيانا متناقضة، وصورة الشرق تغلّبت فيها بوضوح ظاهر الأوصاف الـــمُرضية، والأحكام غير المتحاملة، وبرز فيها إعجاب لا يخفى في موضوعات تخص الحكمة والعدالة والتنظيم الاجتماعي والسياسي، ولكن التحفّظ على المنظومة العقائدية التي تمثلها الديانات الشرقية في الهند والصين وغيرهما من البلاد، وهي ديانات أرضية، ظلّ قائما.

2. المفاجأة الهندية: حكمة وعدالة.

تظهر الهند في أعين المسلمين مملكة للحكمة والعدالة، ولا يبدو أن أحدا يضارعها في ذلك، خلال القرون الوسطى خارج دار الإسلام. ويستند هذا الحكم إلى معاينة مباشرة، يصعب التشكيك فيها ونقضها، بصورة كلية؛ فتكاد تصبح حقيقة. والأمر المثير للانتباه هو الربط المحكم بين حكمة وعدالة منبعهما الأرض. و لم يتشكّك رحالة ومؤرخون كبار كالمسعودي، وأبي عبدالله بن إسحاق، واليعقوبي، وابن بطوطة، وأبي دُلف، وآخرين من التجار البحريّين، والقباطنة كالرام هرمزي، وابن وهب، وسليمان التاجر، في ذلك. وعلى الرغم من هذا فينبغي تأكيد القضية المهمة التي لها صلة مباشرة بالصور المتشكّلة للشعوب فيما بينها، وهي أن الموجّه العقائدي يلعب دورا أساسيا في تركيب صورة الآخر، ويحتكر الفضائل للأنا وحدها، ولكن الرحالة والمؤرخين والجغرافيين المسلمين تخطّوا هذا السياج المحكم في مرات ليست قليلة، فيما يخص جوانب الحياة الأخرى، إلى درجة يمكن القول بسبب ذلك إنه سياج مشكوك في فاعليته المعرفية، إذا ما تعلّق الأمر بغير العقيدة، فقد طالما أثنوا على أقوام لسمات اختصوا بها، وفي هذا السياق نذكّر بالتقريظ الذي خصّوا به الشجاعة المميزة للأقوام الشمالية، والتجارب الحية والمثيرة التي دونها أسامة بن منقذ في كتاب "الاعتبار" تترك شاهدا لاشك فيه ضمن هذا المجال، والتنظيم العبادي الذي أثار إعجاب المسلمين في روما والقسطنطينية والحواضر المسيحية الأخرى، وهو ما أشار إليه ياقوت، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن جبير، والطرطوشي، لايمكن إغفاله.

ينتزع التنظيم والشجاعة إعجاب المسلمين حيثما ظهرا، وبسببهما يتم في بعض الأحيان التغاضي عن المهيمن الأساسي في توجيه الأحكام: الدين. والغالب إنه في القضايا الدنيوية، بما فيها أنظمة العبادة (وليس مضامينها) كان المسلمون قد اتصفوا بنزاهة لافتة للنظر، وموضوع الحكمة والعدالة الهنديتين يندرج في هذا السياق. من الصحيح أنهم يتحفّظون على القيم الوثنية، ويحتجون عليها علنا أو سرّا، ولكن بالنسبة لموضوعات خاصة بالعدل والمهارة والشجاعة والصدق فقد اتصفوا بالقدرة الواضحة على تفهم معمّق لذلك. يستثير أمر المُلك اهتمام المسعودي، ففيه إصلاح للرعية، والتشدّد في الشروط التي ينبغي توافرها فيه يحقق مبدأ العدالة، فالمُلك ليس تملّكا عاديا، إنما هو إشاعة أخلاقيات اجتماعية سوية في الحقوق والواجبات، وفساد المالك الأول يشرع الأبواب أمام فساد الآخرين. لايمكن وقف فساد يشرعه سلوك في منأى عن الرقابة، حتى لو كانت الرقابة رمزية، وعليه ينبغي التدقيق في آلية تولّي الملك منصبه، ودوره في متابعة شأن رعيته، ومع أن شرط الاحتجاب الملوكي حفاظا على الهيبة ظل سلوكا شائعا إلى وقت متأخر، فإن المسعودي يلفت الاهتمام إلى الدور الذي يتعهده الملك، وعليه ينبغي اختيار من يكون قادراً على الوفاء بشروط هذه المهمة "والهند لا تملّك الملكَ عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوّامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية؛ لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها، واستخفافا بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياس[1]".

ويعمّق سليمان التاجر الفكرة المذكورة، حينما يعزّزها بملاحظاته المباشرة في جزيرة سرنديب (=سيلان) إذ يصار التركيز على البعد الاعتباري لمقام الملك بعد وفاته، والطقس الخاص بذلك جدير بان يُعرض كاملا كما شاهده (= وقد نسب المسعودي الأمر إليه) حيث تصبح جثة الملك التي تجرّ في الطرقات أمام الناس مثار عظة واعتبار للجميع. "ورأيت في بلاد سرنديب أن الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة مُعدَّة لهذا المعنى، وشعره ينجرّ على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي "أيها الناس، هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده". وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار، ويذرّ رماده في الرياح، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم؛ لغرض يذكرونه، ولهج يتيممونه في المستقبل من الزمان، والمُلك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء، والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل[2]. لايمكن حجب القيم الأخلاقية الكبرى عن الأنظار، وقد استأثر العدل والحكمة باهتمام الرحالة، وبوصفهم غرباء؛ فإن مظاهر العدالة تسترعي انتباههم، وقد لاحظ أبو عبدالله ابن إسحاق أن أحد الملوك- ويقال له الجُرْزة- العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحداً يأخذه من عَدلهم، وبلاده واسعة. والعرب يرحلون إليه في تجاراتهم فيبرُّهم ويشتري منهم، ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري، عليها تمثال صورة الملك، وزنها مثقال فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك، ويحفظ متاعنا فيقول"ليس في بلادي لصٌّ، اخرجوا فان حدث بأموالكم حدث فخذوه مني، وأنا الضامن لكم[3].

ويذهب اليعقوبي إلى أنهم أهل حكمة ومعرفة وعقول مجاوزين بها مقدار غيرهم من الأمم، ويقدم سلسلة متكاملة من الأدلّة على ذلك: والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب "السند هند" الذي منه اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدّم، ولهم فيه الكتاب الذي يسمى "سسرد" فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها، وكتاب "شرك" وكتاب "ندان" في علامات أربعمائة وأربعة أدواء، ومعرفتها بغير علاج، وكتاب "سند هشان" وتفسيره "صورة النجح" وكتاب "فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة" وكتاب "أسماء العقاقير" كل عقار بأسماء عشرة، ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم، منها كتاب "طوفا في علم حدود المنطق" وكتاب "ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم" ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها[4]. لكنّ الدمشقي يفصّل في ذلك، ويأتي بالدليل: والهنود عند سائر الأمم معدن الحكمة الحسية ومعدن الرياضة والعقول الحكمية والآراء الفاضلة والنتائج الغريبة. ومن ذلك براعتهم في الشطرنج الذي هو كشاف لمن تدبر

حركات قطعة وتفكر في صورة وضعه عن سر من أسرار القضاء والقدر ؛وذلك أن الواضع له حكم فيما قدره وقرره وأمضاه وقضاه وسبق به علمه، وجرى بوضعه قدره، ولم يشاركه في اختراعه له مشارك إن وضعه على ما هو عليه. فالشطرنج مثال حكمي، ووضع علمي يجلب به الرأي، ويزداد به العقل، ويلهي عن الهم، ويكشف مستور عن الأخلاق، ويحكي صورة الحرب، ويبين مقدار حلاوة الظفر بالخصم والنصر على العدو ومقدار مرارة القهر والخذلان، ولا يوصل إلى قضاء الحوائج بسبب من الأسباب للفقير الخالي اليدين مثله[5]. تتلازم قيم إنسانية أساسية، وتتفاعل فيما بينها: الاعتبار، والعدل، الحكمة، والدراية، وهي تؤشر أمر الحرص على العدالة المستندة إلى حكمة غنية بالتجارب. وما يلفت الانتباه في هذا السياق هو أن الوصف يمزج بنوع من الاحتفاء، بلا تظهر نبرة انتقاص، كما رأينا- وسنرى - مع المسعودي والدمشقي في الحكم على الشعوب والأمم في الشمال وإفريقيا السوداء.

3. الرعاية الملكية: الصين الساهرة.

يضرب المسعودي مثلا بأحد ملوك الصين المدعو "توتال" على العدالة التي فوائدها مشتركة بين الرعية والملك: وقد استقامت له الأمور، وأحدث من السّنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل وحصن، وشرف، وتوج، ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً ليبني فيه هيكلا، فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الأعتمام بالزهر تخترقه المياه فخطّ الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان؛ فشيد الهيكل، وجعل على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته، وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوى النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل، فرتب لهم سياسة شرعية، وفرائض عقلية، وجعلها لهم رِباطاً، ورتب لهم قِصَاصاً في الأنفس والأعضاء، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان، وتصح بها الأنساب، وجعلها مراتب؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها، ومنها نوافل يتنفلون بها، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً لمعبودهم: منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنهاً بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة، ورسم لهم أعياداً، وجعل على الزُّنَاة منهم حدا، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة، وأن لا يستبحن النكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كنّ عليه تكف الجزية عنهن، وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك عبيداً وجُنْدا، وما يكون من أولادهن إناثاً، فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن. وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن، وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير، وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه، وكثر النسل، فكانت حياته نحوا من مائة

وخمسين سنة، وهلك، فجزعوا عليه جزعا شديداً، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورَصَّعوه بأنواع الجواهر، وبنوا له هيكلا عظيما، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب[6].

النموذج الذي يقدمه المسعودي مثير للاهتمام؛ فالعدالة قيمة تداولية، يتعاقد عليها الملك والرعية، فيجني الطرفان ثمارها، وعلى ذلك التعاقد تشرّع السّنن، وفي ضوئه، تنتظم الأعراف الاجتماعية. ولكي يأخذ التعاقد شكله العملي، يقترح الملك "توتال: مكانا للعبادة والتخشّع، وهذا يقتضي ضم الناس إلى ديانة، فلا ملك بلا شريعة. يحل التنظيم البشري محل الفوضى حينما يتم الإتفاق على شريعة ودين، ولكن تلك السنن الكفوءة، سنن وضعية، هي تهتدي بقيم دينية، لكنها بشرية في طابعها العام، وفي تفاصيلها المتصلة بالمجتمع. وتظهر أهمية الملك "توتال" من أنه أحدث من السّنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من الملوك، ولا يُظهر المسعودي تبرما من ذلك، فما احدثه الملك لم ينظر إليه بوصفه ضلالة، كما كان ينظر لكل محدث آنذاك، ومن الواضح أن المسعودي كان قد تفهّم البعد الأرضي لكثير من الديانات الهندية والصينية كالبوذية والكونفشيوسية، الأمر الذي جعله ينظر إلى ذلك كل بنوع لايخفى من التقدير والانصاف.

وبأسلوب يماثل الإعجاب بالعدالة والحكمة الهنديتين أحتفي الرحالة والجغرافيون بالمهارات الصينية التي عبّرت عن نفسها بالتنظيم الشامل لكل شؤون الحياة، وكانت ملاحظاتهم قد شملت كل ما يتصل بذلك، وبخاصة التنظيم الدقيق في إدارة البلاد، وترتيب المصالح العامة، والسهر على شؤون الناس. وقد لاحظ سليمان التاجر- وهو شاهد عيان مدقّق- التنظيم الصيني، وأثار اعجابه، فبسببه تترتب العلاقة بين الملوك والرعية على نحو جديد، قال: في كل مدينة شيء يدعى الدّرا، وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة، مربوط بخيط ماد على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك. ومن أراد سفرا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصّى، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأما كتاب الخصّى فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح (=نقاط تفتيش مسلحة) ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد عليها فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعا، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، علم كيف ذهب، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده[7].

تقاسم السلطة بين الملك والخصي يحقق الأمن والطمأنينة، ولكن قبل ذلك ينبغي الإشارة إلى الصلة المباشرة بين الملك ورعاياه، إنها علاقة غير مرهنة ببطانة الملك وحاشيته، وهي تتحقق باللقاء بين المتظلّم

والملك، ويبدو تقاسم السلطة في ذلك العصر بالطريقة التي عرضها سليمان التاجر جديرا بالثناء، فسلطة الملك تتصل بالجانب الإنساني الخاص بالمسافر، إنه يتزود ببطاقة ملكية تعرّف به حيثما اقتضى الأمر، أما سلطة الخصي فمتعلّقة بالجانب المادي، وما يمتلكه المسافر، كائنا ما كانت هويته أو تجارته. وهذ الترابط بين السلطتين يتيح حرية وأمنا للمسافر وللغريب. وكان سليمان التاجر قد ذكر نظام التعليم في الصين: فإذا ولد ذكر كتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية، وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا ونجرى عليه شيخا. وفي كل مدينة كتّاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون، ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم، والفقير والغني من أهل الصـــين، والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة[8]. وقد اتصف الصينيون بالمهارات الصناعية كالنسيج والخزف والتصوير، وكان ذلك مثار اهتمام الرحالة، إذ أورد المسعودي أنهم من أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه؛ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج أحد فيه عيبا طرحه و لم يجزه[9].

وذهل ابن بطوطة وهو يرى في أقصى الشمال الشرقي للصين الدرجة العالية من الإتقان في كل شيء، فقد دخل إحدى المدن التي يسكنها عامة الناس، فأعجب بأسواقها الحسان، وبها الحذاق بالصنائع. ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقا يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعة أبدع إلصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق، وتكون هذه الأطباق عشرة واحدا في جوف آخر، لرقتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطي جميعها، ويصنعون من هذا القصب صحافا، ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول، وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها. ولكن الأمر الأكثر عجبا لابن بطوطة هو الآتي، قال: وأهل الصين أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها ؛وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما، ومن عجيب ما شاهدتُ لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط، فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه. وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا، و يصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد، وبحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذه[10].

الحذق والمهارة الصينية في الخزفيات والتصوير تجعل رحّالة مجرب مثل ابن بطوطة يصاب بالذهول. ولكن تلك المهارات لها منفعة تتحقق منها، صورة الغريب تكون وسيلة للتمكن منه إذا ارتكب ذنباً، أو سقط في جرم. ولم يغب عن المعاينة أمر الوعي الصحي الذي لحظه بجوانبه الجسدية والاجتماعية. وأهل الصين مهما وصفناهم يبولون من قيام، وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة، فيقف على رجله إذا أراد البول، ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها (=ترسّب الحجر)، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلا مع القيام لذلك. والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم، أعني الرجال، امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقوّيه كما يستعمل العرب، وقولهم إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حالة التي خلق عليها، وأنه يفسد الحاسة المعروفة، فرؤوسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفى عليها. فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل..ولا يزوج أحد منهم قريباً ولا ذا نسب ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها.. ويدعون أن ذلك أنجب للولد[11]. هذه الملاحظات المترابطة تكاد تشمل الحياة الاجتماعية من نواحي الصحة والتعليم والتربية، وهي تعرض باعتبار ما تتميّز به الصين. وينبغي أن نختمها بالطريقة التي يتظلّم بها الصينيون أمام ملوكهم، وهي مما لفت أيضا انتباه سليمان التاجر الذي روى أن الملك يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسي، وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى "لينجون" إذا زل الملك في شي مما يأمر به وأخطأ رده، وليس يعبئون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ ردّه، فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم، ويكتب الكاتب في الكتاب: كتبه فلان بن فلان، فان كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط[12].

ويؤكد ابن بطوطة على تنظيم الجوانب الاقتصادية في الصين: وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جددا، ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها؛ لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يأخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت، ويشتري به ما أراد. وجميع أهل الصين والخطا(=بلاد شمال شرق الصين) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه فيقدّ كالفحم، وهو أشد حرارة من نار الفحم، وإذا صار رمادا عجنوه

بالماء وييسوه، وطبخوا به ثانية، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى. ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارة سواه[13]. الفحم الحجري، كما يتضح من حديث ابن بطوطة، كان معروفا وشائعا في الصين، وينتفع به في أكثر من أمر، أما التبادلات المالية، وصك النقود، واستبدالها، فتكشف تطور الحياة الاقتصادية التي كانت مثار تقدير كل من يمر بهذه البلاد، ويتوسع في كشف ذلك، فيقول: وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في الترول عند تاجر من المسلمين المتوطّنين معّين أو في الفندق، فإن أحب الترول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيئا منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه، وإن أراد الترول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه، فإن أراد التسرّي اشترى له جارية، وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق، وأنفق عليهما. والجواري رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم، غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم، ولا يمنعون أيضا منه إن اختاروه، وكذلك إن أراد التزوج تزوج، وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه. ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنها أرض فساد وحسن فائت.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر؛ فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل مترل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عيها، وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه، وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المترل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم، و هكذا العمل في كل مترل ببلادهم من صين الصين في خان بالق، وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إلى المسافر من الأزواد وخصوصا الدجاج والأوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم[14]. تظهر الصين أنموذجا للتنظيم الذي يوفر أمنا للجميع: الزائرين والأهالي، فالملك واتباعه في سهر دائم من أجل توفير حالة مثالية في حياتهم، وبغض النظر عن صدق كل ذلك - وهو ليس مهما في سياق بحثنا، إنما المهم طبيعة الصورة المتشكّلة — فإن التمثيل الذي ينهض بمهمة رسم الصورة لا يبدي تحاملا، ولا يقف على المظاهر السلبية، ويمكن تفسير ذلك بعدم وجود موجهات ثقافية تتدخّل تشويه الصورة المركّبة لتلك البلاد.

4. عمران وعقائد دنيوية.

أبدى أبو دلف في رحلته إلى الصين إعجابا كبيرا بالعمران؛ فتلك البلاد مثال للاستقرار والتنظيم والعمران: ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم، فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل

فرسخ مركوب ثم انتهينا إلى وادي المقام فاستؤذن لنا منه، وتقدمنا الرسل فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك، ثم عبرنا الوادي وسرنا يوماً تاماً فأشرفنا على مدينة سندابل، وهي قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعا وعرضه تسعين ذراعا، وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرّق على ستين جزءا كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب، تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك، ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد، فكل شارع فيه نهران، وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم. ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس، وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلا، ومن قَتل منهم شيئا من الحيوان قُتل، وهي دار مملكة الهند والترك معا. ودخلتُ على ملكهم فوجدته فائقاً في فنه كاملاً في رأيه[15].

وتتصل بهذه القضايا مجتمعة قضية المعتقدات الدينية في الصين، التي يشرح أبعادها المسعودي بطريقة واضحة: فأمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع..وحروبهم على عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود دارٌ، والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز، ودينهم دين مَنْ سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجّهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعا. وإن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زُلْفَى، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه. وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم، وهو رأى الهند في العالم والجاهل..ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فتغيرت أحوالهم وبحثوا، وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة[16]. تظهر قضية المعتقد الديني لا بوصفها ضلالة وثنية، كما فهمت فيما يخص بلاد الشمال وإفريقيا السوداء، وإنما باعتبارها نظاما تعبديا يحقق أغراضه الدنيوية. والأسلوب الذي تعرض به مختلف عن نظيره السابق، فالمسعودي يصف أكثر ما يقدم حكم قيمة، وتأخذ العبادة الصينية ثلاثة مظاهر، الأول عبادة الأصنام، كما هو شأن العرب في الجاهلية، وهذا المظهر هو الغالب، ولكن ثمة فئة قليلة، تعبّر عن عبادتها بمظهر مختلف هو التوجه إلى الخالق، وتؤدي الأصنام بالنسبة له مكان قبلة. وأخيرا هناك فريق ثالث يخلط بين الخالق والأصنام. وعلى الرغم من هذا فالمسعودي يقر بأن هذه المظاهر العبادية الدنيوية إنما تهدف في النهاية إلى الاتصال بالذات الإلهية، وطاعتها، والتقرب إليها.

5. التبت: هضاب سعيدة، ومسك فريد.

استأثرت التبت برعاية المسعودي الذي اهتم بتفاصيل تخص أصل أهل التبت، وطباعهم، وعطورهم المميزة. وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر، وفيهم بعض التبابعة.. ولهم حضر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك، وهم معظمون في سائر أجناس الترك؛ لأن الملك كان منهم في قديم الزمان، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم. ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسمائها ومائها وجبلها، ولا يزال الإنسان أبدا ضاحكا بها فرحا مسرورا، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار. ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها، وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام، وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمعاقرة وأنواع إيقاع الرقص، حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب، ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض، والتتيّم فيهم عام، وكذلك يظهر في سائر بلادهم[17].

ولو صح كلام المسعودي يكون أهل التبت أنموذجا للمجتمع السعيد. وهو يرجع أصولهم إلى اليمن السعيد!ويقول: وقد كانوا في قديم الزمان يسمون ملوكهم تبعا اتباعا لاسم تبع ملك اليمن، ثم إن الدهر ضرب ضرباته، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان، وفي بلادهم الأرض التي بها ظباء المسك التبتي الذي يفضل على الصيني بجهتين: إحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التي ترعاه التبتية، والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لإخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش، وأن الصيني أيضا يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية، وإن عدم من أهل الصين الغش في مسكهم، وأودع براني الزجاج، وأحكم عفاصها ووكاؤها، وأورد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار، كان كالتبتي. وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج، وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن، وإنما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب الفيلة، لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان نحو الشبر وأقل وأكثر، فتنصب لها في بلاد التبت والصين الحبائل والأشراك والشِّباك فيصطادونها، وربما رموها بالسهام فيصرعونها فيقطعون عنها نوافجها والدم في سررها حار لم ينضج وطري لم يدرك، فيكون لريحته سهوكة، فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة السهكة الكريهة، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا، وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أبينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها في شجرها واستحكام موادها فيه. وخير المسك ما نضج في وعائه، وأدرك في سرته، واستحكم في حيوانه، وتمام مواده، وذلك أن الطبيعة تدفع



مواد الدم إلى السرة، فإذا استحكم مون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكّه فيفرغ حينئذ إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الخراج والدمل إذا نضج ما فيه عند ترادف المواد عليه، فيجد لخروجه لذة، فإذا فرغ ما في نافجته اندمل حينئذ، ثم اندفعت إليه مواد من الدم، ويجتمع ثانية ككونها بدءًا، فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار، وقد أحكمته المواد، وأنضجته الطبيعة في حيوانه، وجففته الشمس، وأثر فيه الهواء، فيأخذونه، فذلك أفضل المسك، فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم؛ فذلك الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم، ويحمله التجار في النادر من بلادهم[18].

6. حظر الخمور: انضباط عقلي.

وليس مسألة الحكم والتنظيم هي وحدها التي تلفت انتباه الرحالة والجغرافيين، بل قضية الحكمة والعقل، فبسبب توقير العقل، وتقديس الحكمة منع الهنود الخمر، لأنها توهن السيطرة على أفعال البشر، ولهذا تمنع من شرب الشراب، ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري[19].

ولاحظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق في رحلته إلى قُمار (=كمبوديا) الطريقة الرادعة التي يعاقب بها الملك الزناة والمخمورين في مملكته، قال: دخلتُ مدينته وأقمت عنده بها سنتين فلم أر ملكا أغيَر ولا أشدّ في الأشربة منه فانّه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فانه بلغني أنه يشرب، وهو ملك سرنديب، ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها، ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ويَعافُون الخلّ من الأشربة، فخلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمضونه حتّى يصير بمنزلة الخلّ. ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأون به، ويزدَرُونه ويقولون: هذا رجل ليس له قدر في بلاده، وليس ذلك منهم ديانة. وذكر بعضهم، قال"كنتُ ببلاد قمار فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة، لا يكلّم العرب، ومَن دخل بلاده فأهدى له شيئا كافأه بأضعاف ما أهدى له، يكافئ بالجزء مائة جزء. ولم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قُمار. والهند يقولون إن أصل كتب الهند من قُمار. ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن من شرب من قوّاده وجيشه يُحَمّي مائة حلقة من حديد بالنار ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب، فربَّما أتلفت نفسه. وهو ملك شديد الغيرة ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرة وعقوبة منه؛ ومن عقوبته قطع اليدين

والرجلين والأنف والشفتين والأذنين ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند. وأصل العبّاد من بلاد قمار، يقال إن فيها مائة ألف عابد، ولملك قمار ثمانون قاضيا، لو ورّد عليهم وَلد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون ذكرا لهم جمال وهيئة يصلحون للملك[20]. انتبه سليمان التاجر إلى عدم وجود الخمر في الصين: وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها[21]. وأهل الصين أهل ملاه، وأهل الهند يعيبون الملاهي، ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفه، ويقولون: أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكا يقاتلونهم، فيقولون: كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران[22], وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك عند الهنود من البراهمة الذين: ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب، وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين، ومَن شربها من المسلمين حُد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح[23].

7. ديوان الزواني: البغاء المقدّس والمدنّس.

لم يقتصر الأمر على ما ذكرنا، فالرحالة عيون مفتوحة على الظواهر الاجتماعية والثقافية والدينية، ويلتفت التاجر سليمان إلى ظاهرة البغاء، ويقول: إذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده فان فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعا. ويعلّق السيرافي على كلام سليمان التاجر قائلا: إنه ذكر هذه المعلومات، ولكنه يضيف إليها أمرا آخر، وهو طرق عقاب الزناة واللصوص والقتلة، فيقول: إن سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم في القتل، أن تُشدّ يدا من يريدون قتله شدا وثيقا، ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعا من ورائه ويتقبّض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه، ويستغني عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها، وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها، وتختلف ورِكاه، ويتداخل بعضه في بعض، ويضيق نفسه، ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله.

لا يكتفي السيرافي بالتوضيح الخاص بالعقاب إنما يقدم معلومة فريدة تبين طريقة تنظيم الحياة الجنسية في تلك البلاد، ويتعلّق الأمر بالبغاء، فيقرر أن: فيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن في ممارسة البغاء، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع منزلها وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيطا فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني، وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلسا، وإن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها. فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين،

فيقـــمن عندهم وينصرفن بالغدوات[24]. ديوان الزواني الذي ينهض بمهمة تنظيم البغاء في الصين يكشف عن اهتمام في معرفة الحالة الاجتماعية في أدق تفاصيلها. وطبقا لمعلومات السيرافي يكون البغاء قد نظّم في تلك الأصقاع، واستحدث له ديوان يشرف عليه، والبغايا يشهرن رغبتهن في العمل مقابل رسوم معروفة، ويزودن بوثيقة لممارسة المهنة، ويحملن في أعانقهن ختما ملكيا يجيز لهنّ الدعارة، دون أن يتعرّض لهنّ أحد، ويترتب عليهنّ في هذه الحالة الامتناع عن الزواج. ويسمح لهن بالتزيّن الدال عليهنّ، والاتصال بالوافدين من الغرباء والراغبين بهنّ من أهل البلاد. وقد عرف ضرب آخر من البغاء، هو البغاء المقدس في الهند الذي يمارس كطقس تعبدي في المعابد، وتحت ستار الدين، فمن شرائعهم التي يتقرّبون بها إلى الرب: أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة، ويقيم فيه بقّالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون، وذلك عندهم مما يثابون عليه. وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البدّ، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرا وولد لها جارية جميلة أتت بها البدّ، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه سترا، وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل[25].

لم يكتف الرحالة بملاحظات خاصة بطبيعة الحياة الجنسية في الهند والصين والبلاد المجاورة لهما، فقد لفت اهتمام بعضهم أمر النساء والمنشطات الجنسية. وجرّب ابن بطوطة الحياة الجنسية هناك، ومما ذكره عن قبيلة (المالوة) الهندية في مدينة (مره) أن لنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة، ووفور الحظ من اللذة، وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل[26]. والإشارة إلى ضرب من النساء الاستثنائيات في مجال المعاشرة تتردد عند الرحالة، في إفريقيا عند النوبيات، وبلاد الشمال عند إحدى الأمم المجوسية التي لفتت اهتمام المسعودي في سياق حديثة عن الأمم الشمالية حسبما ظهر لنا في الفصل الثالث. وأكد ابن بطوطة إن في جزر تلك البلاد المجاورة للهند نوعا من السمك به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها، ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك، وقال "كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك"[27]. هذا السمك يماثل في تأثيره المنشّط نبات الباه الذي يزرع في بلاد الفرويين في غرب إفريقيا، كما أشار إلى ذلك البكري، وهو ما سيرد ذكره في الفصل القادم. وعلى الرغم من كل هذا فلا نعدم إشارات إلى شيوع اللواط الذي يأخذ كالبغاء طابعا دينيا أحيانا، فقد لاحظ التاجر سليمان، بأن أهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمترلة زواني البددة[28].

وتعامل المرأة الحائض في الهند والصين معاملة مختلفة، فالهنود، طبقا لملاحظات سليمان التاجر لا يأتون النساء في الحيض ويخرجوهن عن منازلهم تقززا منهن. والصينيون يأتوهن في الحيض ولا يخرجوهن. وقد أشار البيروني إلى ظاهرة البغاء: ويظن الناس بالزناء أنه مباح عندهم، كما شرط "أصبهبذ كابل" أيام فتحها، وإسلامه أن لا يأكل لحم بقر ولا يتلوط , وليس الأمر عندهم كما يُظن؛ ولكنهم لا يشددون في العقوبة

عليه, والآفة فيه من جهة ملوكهم، فان اللواتي تكنَّ في بيوت الأصنام هنّ للغناء والرقص واللعب لا يرضى منهن "برهمن" ولا سادن بغير ذلك , ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحا وتوسعة على العباد, وغرضهم فيهن بيت المال ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إليه من الحدود والضرائب, هكذا كان عمل عضد الدولة، وأضاف إليه حماية الرعية عن عزاب الجند[29].

8. حرق الأجساد: فلسفة في التهذيب والإخلاص.

لعلّ طقوس حرق الأجساد هي أشهر ما لفت اهتمام الجغرافيين والمؤرخين والرحالة المسلمين من ظواهر، ليس في الهند والصين وإنما في روسيا وبعض الأقوام الشمالية، ولا يقتصر ذلك على النساء أو العامة، إنما قد يكون من نصيب الملوك كما يظهر ذلك في مملكة بلهرا في الهند، حيث يقوم الملوك بحرق أنفسهم بالنار لقولهم بالتناسخ، وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم. وفي ملوكهم مَنْ إذا قعد للملك طُبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئاً يسيرا فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن أخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر. وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أججّت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ثم يعدو، وبين يديه الصنوج دائرا في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان يملؤه جمرا، ويصب عليه السندروس (=مادة صمغية) وهو مع النار كالنفط، ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتغتّر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رمادا. فذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار، إنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم، ثم زج بنفسه في النار[30].

ويكشف لنا المشهد الآتي الذي ينقله شاهد عيان للرام هرمزي عن القدرة الهائلة في تحمل العذاب، وهو لا يقل فظاعة عن سابقه، قال: وحدثني من أثق لقوله إنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين.. حفر كل واحد منهما بئرا (= في جسده) وملأها، بعد أن قام فيها على رجله سرجينا (= وقف بنفسه على وضع بَعر الجمال فيها)، وجعلا فيه نارا، ووسَّطا بينهما نَردا وجعلا يلعبان بهما، ويمضغان التانبول ويغنّيان، والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت إلى قلوبهما فطفيا، ولم يظهر منهما تألم ولا تغير. وقال إنه لا يعلم هل حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبان إلى اليوم الثاني وماتا فيه[31]. ويعلل المسعودي ذلك عند الهنود، فيقول: والهند تعذِّب أنفسها.. بأنواع العذاب من دون الأمم، وقد تيقنتْ أن ما ينالها من النعيم في

المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلا، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق وقد أُجّجت له النار العظيمة وعليها منْ قد وَكل بإيقادها، ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس؛ فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل... فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى إلى تلك النار، وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا- ويدعى الجريء عندهم- فيضعه في لبته.

ويزعم المسعودي أنه حضر أحد مشاهد الحرق، وهو المشهد ذاته الذي ورد في رحلة السيرافي: وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلثمائة.. فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته، يدعون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجرى، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت؛ فيموت بموته، ويحيا بحياته[32]. ويرجع اليعقوبي أصل حرق الجساد في الصين إلى تعلّق الرعية بالملك "توتال"، الذي أشرنا من قبل إلى دوره في ترسيخ السنن الحسنة، ويقول بأن أهل الصين يقولون إنهم وجدوا مكتوبا على أبواب مدنهم أنه لم يملكهم ملك قط مثله ورضوا به رضا لم يرضوا مثله بأحد قط، وهو الذي سنّ لهم كل سنّة هم عليها في أديانهم وأفعالهم وصناعاتهم وشرائعهم وأحكامهم، وكان ملكه ثمانيا وسبعين سنة. فلما مات أقاموا يبكون عليه زمانا طويلا، ويحملونه على أسرّة الذهب وعجل الفضة، ثم جمعوا له العود والعنبر والصندل وسائر الطيب، وألهبوه بالنار وطرحوه فيها، وجعل خاصته يلقون أنفسهم في تلك النار أسفا عليه ووفاء له، وصار هذا سنة فيهم وجعلوا صورته على دنانيرهم[33].

أما الدمشقي فيقدّم القيمة الاعتبارية للحرق قائلا: ومن شأن البركة أيضا أنهم يتولّون حرق جثث ملوكهم وعظامهم ويدخرون رمادهم في موضع حريز، فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم أثنان بيد كل واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد، ويذرون منه على وجوههم وأبدانهم شيئا فشيئا إشارة إلى أن هذا مصيرك أيها الملك ففكر فيه ولا تظلم ولا تفعل فيه إلا الخير[34]. ويضيف الدمشقي: في كرورا صنم مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها، فمنهم من يمشي على ركبه زحفا أبدا من مكانه حتى يصل إليه، ومنهم من يلقى نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ثم يقوم ويفعل ذلك أبدا حتى يصل أو يموت في طريقه، ومنهم من يظفر شعره قرونا ملفوفة بالمشاق والقطن، ويسقيها بما أمكن من السليط والسمن والدهن، ويأخذ بيده خنجرا ماضيا، ثم يقصد بيت النار ومعه جماعة من

أصحابه ومحبيه، ومن السدنة يزفونه إلى النار، فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ثم يمد يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستا بالخنجر، ويدخل يده إلى كبده ويخرجها ويقطع منها قطعة يعطيها لأخص أصحابه ويلقى نفسه في النار فتحرقه النار، ثم إذا صار رمادا أخذوا رماده وذروه في نهر الكنج أو جعلوه في ماء من نهر الكنج وذروه على أجسامهم يتبركون بذلك، والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ.. يرون أنهم في سجن ضيق في حال حياتهم وأنهم إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى أجساد غير أجسادهم فتنشأ فيها كما نشأت من قبل وتكون أسعد مما كانت، ويرون أن الموت هو الحياة؛ فلذلك هان عليهم القتل[35].

ويعلل البيروني الضليع بالموروث الهندي ذلك بالصورة الآتية: فأما الهند فيرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطّر وتكفّن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر "كنك" وتلقى فيه ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد "سكر" المحترقة فانقذهم من جهنم وحصّلهم في الجنة، وباقي رماده يطرح في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصّص، ولايحرق من الأطفال ما قصر سنّه من ثلاث، ثم يغتسل من يتولّى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميت، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الالقاء في الصحراء أو في الماء الجاري؛وأما حقّ الحي في جسده فلايميل فيه إلى الاحراق الاّ الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي ملّ حياته وتبرّم بجسده من مرض عياء، وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف، ثم لايفعله مع ذلك ذو فضيلة وإنما يؤثره "بيش" أو"شودر" في الأوقات المرجوة الفاضلة طلبا لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولايجوز ذلك بالنص لـــ "برهمن" أو "كتشر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف أو يستاجر من يغرقه في نهر"كنك"ويتولّى امساكه حتى يموت[36].

لكنّ ابن بطوطة، وقد خبر التقاليد الهندية، يعرض بتفصيل ممزوج بالدهشة تلك الطقوس: إني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأمجرى (= في إقليم ماديا- براديش) وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن. وأحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن مَن أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك، ونُسبوا إلى الوفاء، ومَن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على أحراق نفسها. ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة.

وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيتْ كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطِّرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار، وكل إنسان من الكفار يقول لها: ابلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم، وتضحك إليهم. وركبتُ مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة

أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس؛ فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها، ولما وصلن إلى تلك القباب، نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهم من ثياب وحلي فتصدقن به، واتيت كل واحدة منهم بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض، وصبّ عليها "روغن كنجُت" وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حُجبتْ النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها، فرأيتُ إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم "مارا ميترساني أزاطش مَن ميدانم أواطش است رها كُني مارا" وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام "أبالنار تخوفوني، وأنا أعلم أنها نار محرقة؟" ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها، وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها، وجعل الأخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك، وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أن أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي، وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك (= النهر المقدس عند الهندوس) وهو الذي إليه يحجون، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين. وهم يقولون: إنه من الجنة، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه، يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساى (=كريشنا)، وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورمو برماده في البحر المذكور[37].

ويؤكد ابن بطوطة على أن أهل الصين يحرقون موتاهم كما تفعل الهنود، والمشهد الذي حضره ابن بطولة له مايناظره عند ابن فضلان الذي مرّ بتجربة مشابهة في بلاد الشمال، حين شاهد طقوس الحرق في البلاد الروسية.

9. أكلة لحوم البشر: مرويات عجائبية.

يتردد على ألسنة بعض الرحالة أمر أكلة لحوم البشر، ولكن المرويَّات لا تأخذ شكلا موثقا، في كل ما يتصل بهذه الأخبار، لكنها تمثل جانبا من الصورة المتشكلة للأخر في الشمال والشرق وإفريقيا السوداء. فالرام هرمزي الربان الخليجي الذي كان يجوب الشواطئ الإفريقية والهندية، يورد حكاية عن أكل البشر في سفالة الزنج، على السواحل الجنوبية الشرقية من إفريقيا، فقد حكى له مَنْ سمع بعض الربانية يقول: إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس، وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلط؛ لأن الماء والريح يحدرانه (=يدفعانه) فلا يقدر الربان على ضبطه ويغلبهم فيقع إليهم. وبين قنبله وبين

هذا الموضع الذي فيه الزنج الذين يأكلون الناس نحو ألف وخمسمائة فرسخ[38]. هذا في إفريقيا أما في الشرق فتتناثر الأخبار الخاصة بذلك، وقد أورد التاجر سليمان ذلك في أخبار جزيرتين من جزر المحيط الهندي: أهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، فرج أحدهم مثل الذراع، يعني ذكره، عراة ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم، وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفذ ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر[39]. وأهل جزيرة ملجان جوار سرنديب يقومون بذلك، إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا، وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير[40].

هذه المرويَّات ترسم في المخيلة صورة لأقوام لم يتعرفوا بعد إلى الرقي الذي أشار إليه أغلب المؤرخين والجغرافيين والرحالة في الهند والصين. ولكن من المعروف لدينا أنه يستحيل أن تكون صورة الآخر مطلقة النقاء، ولهذا فإن الصور التي تُرسم لأقوام من أكلة لحوم البشر تأتي غالبا في سياق الذم، وإثارة الكراهية، وبما أنه ليس من أهدافنا البحث في صحة هذه المرويَّات، إنما البحث في الكيفية التي تقوم بها المدونات والمرويَّات في تمثيل صورة الآخر في المخيال الإسلامي، وطبيعة الصورة المتشكلة عن العالم خارج دار الإسلام في أعين المسلمين، فإن هذه المرويَّات تمثل مستندات رمزية تعبر عن نوع الثقافة السائدة المتحكمة بكيفية إنتاج الصور، وترتيب العناصر الفاعلة فيها، وقد اتضح لنا في هذا الفصل التمثيل الإيجابي بصورة عامة للهنود والصينيين، وكل ما يتصل بتقاليدهم الدينية والاجتماعية والأخلاقية، إلى درجة يمكن القول فيها، إن المدونة الإسلامية عن هذه البلاد تشكّل أغنى مدونة أثنوغرافية عن المجتمعات البشرية خارج دار الإسلام، إننا أمام تفاصيل وصفية فيها درجة عالية من الموضوعية، وبغض النظر عن كل شئ فالمنظور المستخدم في تركيب الصور لا يتقصد الانتقاص كما لاحظنا في حالة أهل الشمال، وكما سنلاحظ فيما يخص الإفريقيين السود. وعلى أية حال، فإن أخبار أكلة لحوم البشر تأتي على هامش المتون الرئيسة المكرسة لوصف العالم الشرقي والشمالي والإفريقي. وعلى هذا يمكن لنا نردف حكاية ا يوردها الرام هرمزي، بهدف استكمال الصورة من جميع جوانبها، وهي على العموم شأنها شأن كل المرويَّات المتصلة بهذه القضية تندرج في باب العجائب. إنها عن عملاق في جريرة الزابج (= أندنوسيا) كان يقوم بذلك، وهو يشبه العمالقة الذين تتردد أخبارهم في الحكايات الخرافية، وفي الملاحم القديمة، كما هو الأمر في ملحمة كلكامش وملمحة الأوديسة وغيرهما.

قال الرام هرمزي: وسمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة كان يترل في وسط سكة قريش خرج من البصرة قِبَل الزابج أو ما قاربه.. فتخلص ووقع إلى جزيرة قال: فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواربت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي، فلما أصبحت رأيت غنما قد أقبلت نحو مائتي رأس في قدر العجاجيل (= العجول) يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة طويل عريض بشع المنظر، ومعه عصاه يسوق بها الغنم. فقعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين ذلك الشجر، ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار، ثم قام فرمى بنفسه في الماء، واغتسل، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة

تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه، قد جعلها في وسطه كالميزر، ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه، ومصه إلى أن شرب ما فيه، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة، ففي تأمله الشجرة؛ وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم يكذب فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني، فأومى (= أشار) إليَّ بيده أن أنزل؛ فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا. وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب، فلما نتفه أخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به رأسه وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه، ولم يبق إلا عظامه. فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم، بعد أن صاح صيحة أفزعتني؛ فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد، وأوردهم خليجا في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربت، وقد أيقنت بالموت، ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولا وعرضا وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلتُ معها وإذا في وسط ذلك الموضع مثل الغزالة (= ربما يقصد خيمة) في ارتفاع نحو عشرين ذراعا على خشب وثيق، والغزالة شبيه بالبيت، فما عمل شيئا دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها، فدق رأسها بحجر، ثم أجّج نارا وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع، ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار، فأكل كل ما في جوف الشاة نيا، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدد كبير، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخها، وهي تصيح، ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك، ثم صعد فأخذ شيئا كان يشربه، ثم نام فجعل يغظ (= يشخر)كما يغظ الثور.

فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلا إلى موضع النار، وتتبّعت ما بقي من اللحم، فأكلت ما يمسك رمقي وخفت أن تنفر الغنم فينتبه؛ فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة، وبقيت مطروحاً إلى الغد، فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم، ويوحي إليّ بكلام لا أفهمه، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني، وقد صار عليّ شعر عظيم. وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسه، وكان ذلك سبب تأخير أكلي. ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام، يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله، ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين، فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئا من الغنم، وإن اقتصرت (= قلّت) الطيور أكل شاة. وصرت أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب، وأخدمه، وأدبر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهران، وصلح جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور، وفهمت أنه عزم على أكلي.وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمرا ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل، وكنت أرى في تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقه ما قد عمل، والطير يفزع أن يترل إلى هناك فيتعوق في الأشجار.فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام، فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من أغصانها إلى الأرض، ومضيت على وجهي أطلب الصحراء، قد



كنت قد أشرفت عليها من تلك الشجرة. فلم أزل أمشي إلى الصباح ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعددها وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه، فإما أن أدافع عن نفسي وإما أن يقتلني فالموت لا بد منه.

فمكثت يومي في الشجرة فلم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها ونزلت، فمشيت ليلتي إلى الصباح ؛فوجدت نفسي في صحراء وفيها أشجار متفرقة، فمشيت وما أرى أحدا إلا الطيور ووحوشا لا أعرفها وحيات، ورأيت ماء عذبا فأقمت بمكاني، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب، والطيور تطوف بالغوطة فعاينت طيرا منها فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال، و لم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى، فشددت نفسي فلما فرغ من أكله شرب ماء وتحلق في الهواء، فأشرفنا على البحر فاستسلمت للموت على أي حال كان لا محالة، فانحط على جبل في الجزيرة فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف فجعلت أجر نفسي خوفا منه، ونزلت من الجبل فتعلقت بشجرة، وأخفيت شخصي فيها. فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس، فترلت أمشي إلى ناحية الدخان فما مشيت قليلا حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكلموني كلاما لم أعرفه فحملوني إلى القرية، فأدخلوني إلى مترل وحبسوني مع ثمانية أنفس، فسألوني عن خبري فحدثتهم، وسألتهم فخبروني أهم أهل مركب فلان، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج فوقع عليهم الخب فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلا فوقعوا إلى هذه الجزيرة فأخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت. فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح، فجعلت أتأسى بالقوم، وإن كنت أؤكل فقد كان عليّ الموت، وبعضنا يتأسى ببعض.

فلما كان من الغد جاءونا بسمسم أو بشيء يشبهه وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا، فقالوا: هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا، ثم جاءوا فنظروا إلينا وأخذوا أحسننا حالا في جسده، فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض فأخرجوه إلى وسط المترل، ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن، ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا، ونحن نرى، ثم شووه وأكلوه، وطبخوا بعضه وأكلوا بعضه نيا مملحا ثم شربوا شرابا وسكروا فناموا، فقلت لهم قوموا فنقتل هؤلاء فإلهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة، فاختلف رأينا بقية يومنا، وأظللنا الليل وأصبحنا، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة، فلما كان في اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا واحدا ففعلوا به مثل الأول فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم، وأخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم. فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المترل وقد كنا ميزنا بالنهار(=عرفنا المكان)فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة أو ثمانية خوفا من القوم، فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على



الكواكب، وأخذنا نمشي الساحل يومنا، ثم أمنَا القوم فكنا الآن نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيط، وهي كثيرة الموز زمانا طويلا، إلى أن وقعنا في غوطة حسنة، وفيها ماء عذب طيب، فعزمنا على المقام بها أبدا إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة وبقينا أربعة. فبينما نحن في بعض الأيام نمشي، وإذا بقارب خلق (= عتيق) قد قذف به الموج، وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب في الطين والموج يضربه وهو مطروح، فاحتلنا في رميهم إلى البحر، وغسلنا القارب، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغري (=الصلصال) وأصلحنا فيه دقلا من الشجر وسوينا حبالا من خوص النارجيل، وشراعا ليفا، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء، وبعضنا يدري (=يعرف) سفر البحر، وسرنا نحو خمسة عشر يوما، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف. وخبّرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زوادا، وخرج كل واحد منا يقصد بلدا. فرجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته، وقد مات أكثر أهله، ووجد لوالده وِلْدا فأنكروه. وقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسرا وحاله حسن فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك[41].

10. السحر: إغماءات ابن بطوطة.

ولم تكن الحكمة الهندية التي وقفنا عليها خالية من بعض المظاهر السحرية التي سيكون لابن بطوطة فضل في عرض مثال دال عليها. والممارسة السحرية كانت شائعة، وقد لحظها الرحّالة، وعلى العموم كانت من الممارسات المعروفة في ذلك الوقت، قال ابن بطوطة: رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (=نرور) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة. وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا، وكانوا يعجبون في شأن دخوله. وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير، وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه، فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه، وذكروا أنه كذلك فعله بالناس. ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة.

وهذه المرويَّات تشحذ ذهن ابن بطوطة، فيورد نبذا منها تكشف عن وجود تلك الظاهرة: ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم به الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة، ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما، وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركّبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو شهر؛ فلا يحتاج في تلك المدة إلى

طعام ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة، والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون، والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته. وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب، ويقولون أُكل قلبه وأكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار. ولما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط، والسلطان ببلاد التِّلنك (= مملكة هندية عاصمتها وارانكل) نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم، فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا اطعامهم، فكان عندي منهم خمسمائة نفس، فعمّرت لهم سقائف في دارين، وأسكنتهم بها. وكنت أعطيهم نفقة في خمسة أيام، فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم، وقالوا:إنها كفتار، وقد أكلتْ قلب صبي كان إلى جانبها وأتوا بالصبي ميتا، فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب السلطان فأمر باختبارها؛ وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعُلم أنها كفتار. ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار، فأمر بإحراقها بالنار، وأتى أهل البلد رجالا ونساء، فأخذوا رمادها، وزعموا أنه مَن تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار. بعث إلي السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس أباطهم، فأمرني بالجلوس، فجلست، فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا، فعجبت منه وأدركني الوهم فوقعت إلى الارض، فأمر السلطان أن أسقى دواءا عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه، فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه، وهو يترل قليلا قليلا حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل، ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت، فانصرفت عنه وأصابني الخفقان، ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني[42].

11. جزر وتخوم: ذخيرة غرائب.

رأينا كيف جرى تحول في الصورة المثالية المقدمة عن الهند والصين والجزر المتاخمة لهما، بداية من أخبار أكلة لحوم البشر، ثم تطورت مع السحرة الجوكية والكفتار الذين تسببوا في ذعر ابن بطوطة، وسنتابع تطور الأمر مع العجائب التي تغزو المدونات الجغرافية لتقدم شذرات من صور تشبع الحاجة الدفينة في الثقافات المستقرة عقائديا وقيميا، تلك الحاجة التي يدفع بها التخيل والرغبة، بهدف الإنتقاص من جهة، والتنويع السالب الذي يراد منه عرض جوانب متنوعة من الصور الخاصة بالآخر من جهة ثانية. والسحر الهندي هوالذي سيقودنا إلى الغرائب التي شاهدها الرحالة أو سمعوا بها، وكثير منها– وقد اكتفينا بامثلة– تتردد في المخلية كجزء من مرويات عن عالم غريب وبعيد. كثيرا ما أشرنا إلى أن الغرائب تتمدد في كتب الجغرافيا والرحلات، وبخاصة إذا

تعلّق الأمر بأقوام في أقاصي الشرق أو الشمال أو الجنوب. وقد أورد القزويني عن ابن الفقيه قوله عن أندنوسيا أن بها سكانا شبه آدميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه، ولهم كلام لا يفهم، وبها أشجار، وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة. وبها نوع من النسانيس له أجنحة كأجنحة الخنافس من أصل الأذن إلى الذنب. وفيها وعول كالبقر الوحشية ألوانها حمر منقطة بالبياض وأذنابها كأذناب الظباء ولحومها حامضة[43].

أما سليمان التاجر فيورد أخبارا عجيبة عن بعض سكان الجزر في المحيط الهندي، فثمة جزيرة يقال له ملجان فيما بين سرنديب وكَله، وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر فيها قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير، وهم في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيه بالغياض والآجام. وذكروا أن في ناحية البحر سمكا صغيرا طيارا يطير على وجه الماء يسمى جراد الموذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود. إلى البحر. وذكروا: أن في البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجرا، قال: يتخذ منه كحل لبعض علل العين[44]. ولا يقتصر الأمر على أهل الجزر النائية فقد يشمل ذلك أهل البلاد البرية، فبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته[45]. ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمون الجوكية أصحاب مخارق وشعبذة وتخييلات، وطائفة يسمون بوكية أصحاب رياضات وتجريد يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر ولا يمشون حيث مشوا، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبدا إلا وهم أزواج صاحب ومصحوب، ومن خلتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طبا منه وإخراجا للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي، وفي رقبة المصحوب جرس معلق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البُد (=معبد التماثيل المقدسة) ثم يحرك الجرس تحريكا مخصوصا فيتبادر إليه من سبق من سامعيه ويغرف له كشلي، ويناوله أياه فيأتي به إلى صاحبه فيضعه بين يديه ثم يتأخر عنه المصحوب، فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر، فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ثم يقوم ويترك الباقي، فيأتي الدافع له فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله[46].

وفي رحلته من البنغال إلى جزيرة جاوة مرّ ابن بطوطة في بلاد البرهنكار، وهي جزر أندامان التابعة لبورما، فشاهد قوما أفواههم كأفواه الكلاب، وهذه الطائفة من الهمج - كما يقول ابن بطوطة- لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير، ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب، وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبه من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر[47].

12. الشرق: قيم متواشجة.

لاحظنا كيف أن الرحالة والجغرافيين الذين اهتموا بالشرق قد ركزوا اهتمامهم على البشر دون غيره أما الأشياء الأخرى كالطبيعة والحيوانات والنبات فقد جاءت ثانوية، تركّز الاهتمام على النسيج الاجتماعي من مُلك وعدالة ومهارات وعادات وتقاليد وغير ذلك .بما يمكن القول: إن صورة الشرق ممثلة بالهند والصين والبلاد المجاورة لهما قد تشكّلت استنادا إلى معطيات إنسانية متنوعة وشاملة. ولو فحصنا الصورة التي رُكّبت للشرق في أعين المسلمين لوجدنا صورة شاملة لكل جوانب الحياة، وفي مقدمة ذلك الجانب البشري الذي يؤلف لبّ الجغرافيا الإسلامية، ويتنزّل في صلب اهتمام الرحالة، والواقع فأنهم تميزوا بتفهّم لاينكر لتقاليد الشعوب الشرقية، ومع أن كثيرا من عاداتها مختلفة عمّا هو معروف في دار الإسلام من عادات، فضلا عن اختلاف المنظومة العقائدية الاّ أن الرحالة والجغرافيين، باستثناء ملاحظات عابرة، وردت أحيانا في سياق المثير والعجيب، قدموا وصفا مفصلا يكاد يخلو من الأحكام الانتقاصية التي ظهرت في رؤيتهم لبعض الأوقوام الشمالية والإفريقية، وكان بارتولد المتخصص في دراسة المشرقيّات الإسلامية في آسيا الوسطى قد ذهب إلى أنه من العسير العثور على مصنفّات تاريخية تعنى بتلك المناطق قبل الوجود الإسلامي فيها[48]. فتاريخ تلك الأصقاع صاغ جزءا كبيرا منه المسلمون من جغرافيين ورحالة ومؤرخين.

ولعل الشرق كان في كثير من بلاده اتصف بأنه يتضمن باستمرار مَنْ له صلة بعالم المسلمين، وخاصة من التجار الذين كانوا يجوبون بلاد الشرق، إلى درجة تزايد نفوذهم، واصبحت لهم في الصين مستوطنة خاصة بهم، أما الشواطيء الهندية الطويلة والمتعرجة، والجزر المرمية في المحيط الهندي فقد كانت أماكن مألوفة للمسلمين منذ القرن الثاني الهجري (=الثامن الميلادي) فالشرق لم يكن في صورته العامة في منأى عن تصور المسلمين، ولم يندهشوا باكتشافه كما حصل بشأن المناطق الأخرى. والحق فإن الشرق بالبلاد التي وقفنا عليها كان منذ وقت مبكر مزيجا من أقوام وعقائد متداخلة ومختلفة، ولم يكن العنصر الإسلامي ولا العرق العربي غريبا عنه، وتقدم لنا رحلة ابن بطوطة براهين لاتنتهي على وجود المسلمين والعرب من العراق ومصر والمغرب في أعماق الهند والصين، وهم يتولّون مهاما دينية كالوعظ والحديث والفقه والقضاء، ويمخر هذه البلاد التجار القادمين من دار الإسلام، التي ينظر إليها بوصفها رمزا للقوة والعدالة.

الهوامش

1. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1964)1: 83
2. السيرافي، رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي (أبو ظبي، المجمّع الثقافي، 1999) ص45
3. ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة (ليدن، بريل، 1893) ص135
4. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار صادر، 1960) 1: 94
5. الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بغداد، مكتبة المثنى) ص270

6. مروج الذهب 1: 135
7. رحلة السيرافي ص43
8. م. ن. ص40 و45
9. مروج الذهب 1: 146
10. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي (المغرب، 1997) 4: 32
11. رحلة السيرافي ص77
12. م. ن. ص40
13. رحلة ابن بطوطة 4: 129
14. م. ن. 4: 134
15. ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، دار صادر): 444
16. مروج الذهب 1: 136-137
17. م. ن. 1: 157
18. م. ن. 1: 158-159
19. م. ن. 1: 84
20. الأعلاق النفيسة، ص123
21. رحلة السيرافي، ص33
22. م. ن. ص 47
23. رحلة ابن بطوطة 4: 27
24. رحلة السيرافي، ص57
25. م. ن. ص84
26. رحلة ابن بطوطة 4: 17
27. م. ن. 4: 57
28. رحلة السيرافي، ص 49
29. البيروني، في تحقيق ماللهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذوله (حيدر آباد، 1958) ص471-472
30. رحلة السيرافي، ص78
31. الرام هرمزي، عجائب الهند: برّه وبحره وجزايره، تحقيق فان دي ليث (ليدن، بريل) ص133
32. مروج الذهب 1: 209
33. تاريخ اليعقوبي 1: 181
34. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص172
35. م. ن. ص174
36. في تحقيق ماللهند، ص481
37. رحلة ابن بطوطة 4: 100-101
38. عجائب الهند، ص143
39. رحلة السيرافي، ص 21-22
40. م. ن. ص30
41. عجائب الهند، ص145-150

42. رحلة ابن بطوطة 4: 20-21

43. القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (بيروت، دار الآفاق الجديدة) ص410

44. رحلة السيرافي، ص 30-31

45. م. ن. ص84

46. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص172

47. رحلة ابن بطوطة 4: 107-108

48. بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، 1981ص59

النصوص

حرصنا في هذا الكتاب، كتاب الشرق، أن نرتّب مادة متنوعة تحيط بالأبعاد التاريخية، والبشرية، والاقتصادية، والدينية، لشعوب هذه المناطق، وجاءت أولا النصوص التاريخية، وتلك الخاصة بالبشر وطبائعهم لكشف أحوال تلك البلاد، وذلك قبل أن ندرج الرحلات التي تبيّن خصب الملاحظات التي خلفها الرحالة المسلمون، وهم يجوبون البحار والبراري، وصولا إلى أقصى الحدود الشرقية للصين. وسوف تبرهن النصوص على طبيعة الصورة التي تشكلت لبلاد الشرق، وبخاصة عن الهند والصين في أعين المسلمين. فقد فتحت الحدود بين دار الإسلام وهذه الأصقاع، ومنذ وقت مبكر لعب طريق الحرير دورا بالغ الأهمية في توثيق العلاقات الاقتصادية بين الطرفين، كما أن موانئ المحيط الهندي المحاذية لشواطئ شبه الجزيرة الهندية، وجنوب شرق آسيا، وشرق الصين، فضلا عن الجزر المتناثرة في ذلك المحيط، سهّلت التواصل بأفضل أشكاله. وفي بدايات القرن الثاني الهجري مخر البحارة العرب هذا المحيط، وفي القرن الثالث تركوا رحلات مدوّنة تثبت معرفة مبكرة في تلك الأقاصي. ومن المؤكد أن العلاقة بالشرق كانت أوثق من غيرها، تؤكد ذلك المرويّات الغزيرة التي ظلت مثار عناية الرحالة والجغرافيين طوال القرون الوسطى.

1. أمم الهند، أبو الفداء، من كتاب (المختصر في أخبار البشر)

(وهم فرق كثيرة، قال الشهرستاني: ومن فرقهم الباسوية، زعموا أن لهم رسولاً ملكاً روحانياً، نزل بصورة البشر، فأمرهم بتعظيم النار والتقرب إليها بالطيب والذبائح، ونهاهم عن القتل والذبح لغير النار، وسنّ لهم أن يتوشحوا بخيط، يعقدونه من مناكبهم الأيامن إلى تحت شمائلهم، وأباح لهم الزناء، وأمرهم بتعظيم البقر والسجود لها حيث رأوها، ويتضرعون في التوبة إلى التمسيح بها. قال ومنهم اليهودية ومن مذهبهم أن لا يعافوا شيئاً، لأن الأشياء جميعها صنع الخالق، ويتقلدون بعظام الناس، ويمسحون رؤوسهم وأجسادهم بالرماد، ويحرمون الذبائح والنكاح، وجمع الأموال، ومنهم عبدة الشمس وعبدة القمر، ومنهم عبدة الأصنام، وهم معظمهم. ولهم أصنام عدّة، كل صنم لطائفة، ويكون لذلك الصنم شكل غير شكل الصنم الآخر، مثل أن يكون أحدها بأيد كثيرة، أو على شكل امرأة ومعه حيات، ونحو ذلك. ومنهم عبّاد الماء، ويقال لهم الجلهكينية، ويزعمون أن الماء ملك، وهو أصل كل شيء، وإذا أراد الرجل عبادة الماء تجرّد وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم فيه ساعتين أو أكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقيها في الماء وهو يسبح، ويقرأ، وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده ثم أخذ منه، فنقّط على رأسه ووجهه، ثم يسجد وينصرف. ومنهم عُبّاد النار، ويقال لهم الإكنواطرية، وصورة عبادتهم لها أن يحفروا في الأرض أخدوداً مربعاً ويؤججوا النار فيه، ثم لا يدعو طعاماً لذيذاً ولا شراباً لطيفاً ولا ثوباً فاخراً ولا عطراً فائحاً ولا

جوهراً نفيساً إلا طرحوه في تلك النار، تقرّباً إليها. وحرموا إلقاء النفوس فيها، خلافاً لطائفة أخرى. ومنهم البراهمة أصحاب الفكرة، وهم أهل العلم بالفلك والنجوم، ولهم طريقة في أحكام النجوم تخالف طريقة منجمي الروم، والعجم، وذلك أن أكثر أحكامهم باتصالات الثوابت، دون السيارات، وإنما سموا أصحاب الفكرة لأنهم يعظّمون أمر الفكرة، ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول، ويجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الفكر عن المحسوسات، فإذا تجرد الفكر عن هذا العالم، تجلى له ذلك العالم، فربما يخبر عن المغيبات، وربما يوقع الوهم على حي فيقتله، وإنما يصرفون الفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة المجهدة، وبتغميض أعينهم أياماً، والبراهمة لا يقولون بالنبوات وينفونها بالكلية..

ومن كتاب ابن سعيد المغربي، ونقله عن المسعودي: أنّ الهنود لا يرون إرسال الريح من بطونهم قبيحاً، والسعال عندهم أقبح من الضراط، والجشاء أقبح من الفساء، ومما نقله عن المسعودي أيضاً: إن الهنود يحرقون أنفسهم، وإذا أراد الرجل منهم ذلك أتى إلى باب الملك واستأذنه في إحراق نفسه، فإذا أذن له ألبس ذلك الرجل أنواع الحرير المنقوش، وجعل على رأسه إكليلاً من الريحان، وضربت الطبول والصنوج بين يديه، وقد أججت له النيران، ويدور كذلك في الأسواق وحوله أهله وأقاربه، حتى إذا دنا من النار أخذ خنجراً بيده وشق به جوفه، ثم يهوي بنفسه في النار. قال والزناء فيما بينهم مباح. قال ويعظمون نهر كنك، وهو نهر عظيم يجري في حدود الهند من الشرق إلى الغرب، وهو حاد الانصباب. وللهنود رغبة في إتلاف نفوسهم بالتغريق في هذا النهر، ويقتلون أنفسهم على شطه أيضاً، والهنود تتهادى ماء هذا النهر كما يتهادى المسلمون ماء بئر زمزم. وللهند ممالك فمنها: مملكة المانكير وهي من أعظم ممالك الهند، وهي على بحر اللان الذي عليه السند، ولا يدرك لهذا البحر قعر، وهو أول بحار الهند من جهة الغرب، وهذه المملكة أقرب ممالك الهند إلى بلاد الإسلام، وهي التي كان يكثر محمود بن سبكتكين غزوها، حتى فتح منها بلاداً كثيرة، ومن مدنها العظام مدينة لهاور (= لاهور)، وهي على جانبي نهر عظيم مثل بغداد. قال: ويلي مملكة المانكير، مملكة القنوح وهي مملكة بلادها الجبال، وهي منقطعة عن البحر، وكل من ملكها يسمى نوده، ولأهل هذه المملكة أصنام يتوارثون عبادتها، ويزعمون أن لها نحو مائتي ألف سنة. قال ويجاور هذه المملكة مملكة قمار وهي التي ينسب إليها العود القماري، وهي على البحر، وأهل هذه المملكة يرون تحريم الزناء من بين أهل الهند، قال ابن سعيد ورواه عن المسعودي أن الذي يملكها يسمى زهم، قال ويحاربه من جهة البحر ملك الجزر المعروف بالمهراج. قال وآخر ممالك الهند من جهة الشرق مملكة بنارس، وهي تلي بلاد الصين، وهي مملكة طويلة، وعرضها نحو عشرة أيام، وجزائر بحر الهند في نهاية الكثرة، وهي في البحر قبالة هذه الممالك، ولها ملوك، وقد أكثر المصنفون فيها الكلام..

2. أخبار الهند، المسعودي. من كتاب(مروج الذهب)

(ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة, فإنه لما تجيّلت الأجيال، وتحزّبت الأحزاب، حاولت



الهند أن تضم المملكة، وتستولي على الحوزة، وتكون الرياسة فيهم، فقال كبراؤهم: نحن كنا أهل البدء، وفينا التناهي، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنّا سرى الأب إلى الأرض، فلا ندع أحدا شاققنا ولا عاندنا وأراد بنا الإغماض إلا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا، فأزمعت على ذلك، ونصبت لها ملكا، وهو البرهمن الأكبر، والملك الأعظم، والإمام فيها المقدم، وظهرت في أيامه الحكمة، وتقدّمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت في أيامه السيوف والخناجر، وكثير من أنواع المقاتل، وشيّد الهياكل، ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة، وصور فيها الأفلاك والبروج الإثنى عشر والكواكب، وبيّن بالصورة كيفية العالم، وأرى بالصورة أيضا أفعال الكواكب في هذا العالم وأحداثها للأشخاص الحيوانية: من الناطقة وغيرها، وبيّن حال المدبّر الأعظم الذي هو الشمس، وأثبت في كتابه براهين جميع ذلك، وقرّب إلى عقول العوام فهم ذلك، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدأ الأول المعطى سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده، وانقاد له الهند، وأخصبت بلادها، وأراهم وجه مصالح الدنيا، وجمع الحكماء، فأحدثوا في أيامه كتاب "السند هند" و تفسيره "دهر الدهور" ومنه فرعت الكتب ككتاب "الأرجيهد" و"المجسطي" وفرع من "الأرجيهد" الأركند، ومن "المجسطى" كتاب بطليموس، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات، وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي. وكان أول من تكلم في أوج الشمس، وذكر أنه يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ستة وثلاثون ألف سنة. والأوج الآن على رأي البرهمن في وقتنا هذا – وهو سنة اثنتين و ثلاثين وثلثمائة – في برج الثور، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة، فصار العامر خرابا، والخارب عامرا، والشمال جنوبا، والجنوب شمالا، ورتب في بيت الذهب حساب الدور الأول والتاريخ الأقدم الذي عليه عملت الهند في تواريخ البدءة، وظهورها في أرض الهند دون سائر الممالك.

ومن الهند منْ يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة "هازروان"، وأن العالم إذا قطع هذه المدة عاد الكون، فظهر النسل، ومرحت البهائم، وتغلغل الماء، ودب الحيوان، وبقل العشب، وخرق النسيم الهواء. فأما أكثر أهل الهند فإنهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدىء القوى متلاشية شبيهة الشخص، موجودة القوة، منتصبة الذات، وحدوا لذلك أجلا ضربوه، ووقتا نصبوه، وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى، وسموا ذلك بعمر العالم، وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة في اثني عشر ألف عام، وهذا عندهم "الهازروان" الضابط لقوى الأشياء والمدبر لها، وأن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعاني التي تستودعها، وأن الأعمار تطول في أول الكر لانفساخ الدوائر، وتمكن القوى من المجال، وتقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدوائر، وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار، وذلك أن قوى الأجسام وصفوها في أول الكر تظهر وتسرح، وأن الصفو سابق الكدر، والصافي يبادر الثفل، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج، وتكامل القوى المدبرة لعناصرأخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات، وأن آخر الكر الأعظم وغاية البدء الأكبر تظهر الصورة متشوهة، والنفوس ضعيفة، والأمزجة مختلطة، وتتناقض القوى، وتبيد المواسك، وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار. وللهند فيما ذكرناه

علل وبراهين في المبادىء الأول، وفيما بسطناه من تفريعهم في الدوائر والهازروانات، ورموز وأسرار في النفوس في اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى إلى أسفل، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان. وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستين سنة، ووِلْده يعرفون بالبراهمة الى وقتنا، والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، ولا يغتذون بشيء من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف، فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند. وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور اليهم في بيت الذهب، فقال بعضهم لبعض: اجلسوا حتى نتناظر؛ فننظر ما قصة العالم؟ وما سره؟ ومن أين أقبلنا؟ وإلى أين نمر؟ وهل خروجنا من عدم إلى وجود حكمة أو ضد ذلك؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشيء لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة، أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة، أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا، أم هل هو غنى من كل وجه فما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا؟.

فقال الحكيم المنظور إليه منهم: أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك؛ فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة؟. قال الحكيم الثاني: لو تناهت حكمة الباريء عز وجل في أحد العقول كان ذلك نقصا من حكمته، وكان الغرض غير مدرك، وكان التقصير مانعا من الإدراك. قال الحكيم الثالث: الواجب علينا أن نبتديء بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهي أولى بنا، من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا. قال الحكيم الرابع: لقد ساء وقوع من وقع موقعا احتاج فيه إلى معرفة نفسه، قال الحكيم الخامس: من ههنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة. قال الحكيم السادس: الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك، لا سيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعا، والخروج منها واجبا. قال الحكيم السابع: أنا لا أدرى ما تقولون، غير أني أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرا، وعشت فيها حائرا، وأخرج منها مكرها.فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة، وكل قد اقتدى بهم، ويمّم مذهبهم، ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم، وتنازعوا في آرائهم، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة.

قال المسعودي: وقد رأيت أبا القاسم البلخيّ ذكر في كتاب "عيون المسائل والجوابات" وكذلك الحسن بن موسى النوبختيّ في كتابه المترجم بكتاب "الآراء والديانات" مذاهب الهند وآراءهم، والعلة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران، وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا، ولا يمّما نحو ما وصفنا. وقد تنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند، ومنهم من يقول: إنه كان ملكا على حسب ما ذكرنا، وهذا أشهر. ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديدا، وفزعت إلى نصب ملك عليها من أكبر ولده؛ فكان ولى عهده الموصول من ولده ابنه "الباهبود"، فسار فيهم سيرة أبيه، وأحسن النظر إليهم، وزاد في بناء الهياكل، وقدم الحكماء، وزاد في مراتبهم، وحثهم على تعليم الناس الحكمة، وبعثهم على طلبها، فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة. وفي أيامه عمل النّرد، وأحدث اللعب بها، وجعل ذلك مثالا للمكاسب، وأنها لا تنال بالكيس، ولا بالحيل في هذه

الدنيا، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق. وقد ذُكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد، ولعب بها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، واختلاف أمورها، وجعل بيوتها اثني عشر بيتاً بعدد الشهور، وجعل كلابها ثلاثين كلبا بعدد أيام الشهر، وجعل الفصين مثلا للقدر، وتقلبه بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القدر إياه في مراده باللعب بها ما يريد، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره، إلا إذا أسعده القدر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال إلا بالجدود. ثم ملك "زامان" بعد الباهبود، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة، ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين... ثم ملك فور، وهو الذي واقعه الإسكندر، فقتله مبارزة، وكان ملك فور إلى أن هلك أربعين ومائة سنة. ثم ملك بعده دبشليم، وهو الواضع لكتاب "كليلة ودمنة" الذي ينسب لـــ "ابن المقفع" وقد صنف "سهل بن هرون" الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتابا ترجمه "ثعلة وعفرة" يعارض به كتاب "كليلة ودمنة" في أبوابه وأمثاله، يزيد عليه في حسن نظمه، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وقيل غير ذلك. ثم ملك بعده "بلهيت"، وصنعت في أيامه الشطرنج؛ فقضى بلعبها على النرد، وبيّن الظفر الذي يناله الحازم، والبلية التي تلحق الجاهل، وحسب حسابها، ورتب لذلك كتابا للهند يعرف بـــ "طرق جنكا" يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه، وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين، وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب، ومثّل الشاه بالمدبّر الرئيس، وكذلك ما يليه من القطع، وأقام ذلك مثالا للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر، وأفرد كل قطعة منها بكوكب، وجعلها ضابطة للمملكة، وإذا كان عدو من أعدائه، فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتون، في عاجل وآجل.

وللهند في لعب الشطرنج سرّ يسرّونه في تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، وما إليه منتهى العلة الأولى... وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية في هذا العالم؛ لارتباط نفوس الناطقين بها، ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها. وقد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم، ممن تقدم منهم إلى "الصولى" و"العدلى"، واليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر. وكان مُلك بلهيت ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة. ثم ملك بعده "كورش"، فأحدث للهند آراء في الديانات، على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله من التكليف أهل العصر، وخرج عن مذاهب من سلف، وكان في مملكته وعصره "سندباد"، دوّن له كتاب "الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك" وهو الكتاب المترجم بـــ "السندباد"، وعُمل في خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات، وشكلت الحشائش، وصورت، وكان مدة ملك الهند هذا إلى أن مات عشرين ومائة سنة. ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند في آرائها، فتحزّبت الأحزاب، وتجيّلت الاجيال، وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك على أرض القنوج ملك، وتملك على أرض قشمير ملك، وتملك على مدينة المانكير- وهي الحوزة الكبرى- ملك يسمى بـــ "البلهري"، وهذا أول ملك سمي من ملوكهم بالبلهري؛ فصارت سمةً لمن طرأ بعده من الملوك لهذه الحوزة إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين



وثلثمائة. وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج (=أندنوسيا)، وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر، وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين، وتضاف إلى الهند، والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت، وبين هذه الممالك تباين وحروب، ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة، والأكثر منهم يقول بالتناسخ، وتنقّل الأرواح.. والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزّنج والدمادم وسائر الأجناس.

وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه، ولم توجد في غيره: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحديد الاسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب، قال جالينوس: وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله.وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان، وغلبة الفرح عليهم، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب أموراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا. ولقد كان طاوس اليماني صاحب عبدالله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي، ويقول: إنه عبد مشّوه الخلقة. وبلغنا أن أبا العباس الراضي بالله ابن المقتدر بالله كان لا يتناول شيئاً من أسود، ويقول: إنه عبد مشوه خلقه، فلست أدري أقلّد طاوسا في مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل. وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتابا في فخر السودان ومناظرهم مع البيضان. والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية؛ لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها، واستخفافا بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال المسعودي: ورأيت في بلاد سرنديب (= سيلان) – وهي جزيرة من جزائر البحر– أن الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده، وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار، ويذرّ رماده في الرياح، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم؛ لغرض يذكرونه، ولهج يتيممونه في المستقبل من الزمان، والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل. والهند تمنع من شرب الشراب، ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء



وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري. وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري صاحب مدينة المانكير، وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلواتها نحوه، وتصلي لرسله إذا وردوا عليهم، وتلى مملكة البلهري ممالك كثيرة للهند. ومنهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الراى صاحب القشمير وملك الطافن وغير ذلك من ملوكهم-أغنى ملوك الهند- ومنهم من بملكه بر وبحر؛ فأما البلهري فإن بين ديار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية، والفرسخ ثمانية أميال، وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها، وأكثر جيوشه رجّالة؛ لأن دار ملكه بين الجبال، ويساويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤورة صاحب مدينة القنوج، وهذا الاسم سمة لكل ملك يلي هذه المملكة، وله جيوش مرتبة على الشمال والجنوب والصّبا والدّبور؛ لأنه في كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاربا له..)

3. مملكة الحكمة، الحميري، من كتاب (الروض المعطار)

(ومملكة الهند عند جميع ملوك الكفار، بإجماع منهم، مملكة الحكمة، والحكمة من الهند مبدؤها. وزعموا أنهم أول من ضم المملكة ونصبوا لها ملكاً، وأولهم البرهمن الأكبر، وهو الذي أظهر الحكمة وطبع السيوف وآلات الحرب وصور الأفلاك والبروج، وجعل ذلك كتابة قريبة للعقول وأثبته في الأفهام، وأشار إلى المبدأ الأول، وذلك هو كتاب "السند هند" أي دهر الدهور، ومنه فرعت الكتب، المجسطي وغيره. وأعظم ملوك الهند البلهرا ومعناه ملك الملوك. والهند سبعة أجناس أحدها الساكهرية، وهم الأشراف منهم، والملك فيهم لا يكون في غيرهم، وجميع أجناسهم يسجدون له عند اللقاء وهم لا يسجدون لأحد، ثم البراهمة، وهم عباد الهند ولباسهم جلود النمور، وهم يعبدون الأصنام توسلاً إلى الله تعالى. ولأهل الهند اثنتان وأربعون ملة، فمنهم من يثبت الخالق وينفي الرسل، ومنهم من ينفي الكل، ومنهم من يعبد النار ويحرق نفسه، ومنهم من يعبد الشمس ويسجد لها ويعتقد أنها الخالقة المدبرة لهذا العالم، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الثعابين يحظرونها بحظائر ويطعمونها أرزاقاً، وهم يتوسلون بها، ومنهم من لا يتعب نفسه بعبادة شيء وينكر الكل.)

4. آراء أهل الهند، الشهرستاني (548هـ = 1153م) من كتاب (المِلل والنحل)

(..الهند أمة كبيرة، وملة عظيمة، وآراؤهم مختلفة. فمنهم البراهمة؛ وهم المنكرون للنبوات أصلاً، ومنهم من يميل إلى الدهر، ومنهم من يميل إلى مذهب الثنوية؛ ويقول بملة إبراهيم عليه السلام. وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها: فمن قائل بالروحانيات؛ ومن قائل بالهياكل؛ ومن قائل بالأصنام؛ إلا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها؛ وكيفية أشكال وضعوها، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين: علماً، وعملاً. فمن كانت طريقته على منهاج الدهرية والثنوية والصابئة فقد أغنانا حكاية مذاهبهم قبل عن حكاية مذهبه، ومن انفرد عنهم بمقالة ورأي فهم خمس فرق: البراهمة، وأصحاب الروحانيات، وأصحاب الهياكل، وعبدة الأصنام، والحكماء. ونحن نذكر مقالات هؤلاء كما قد وجدنا في كتبهم المشهورة.

البراهمة:.. من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لا نتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام وذلك خطأ؛ فإن هؤلاء القوم هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام؟. والقوم الذين اعتقدوا نبوة إبراهيم عليه السلام من أهل الهند فهم الثنوية منهم القائلون بالنور والظلمة على رأي أصحاب الاثنين..وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه. منها أن قال: إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً وإما أن لا يكون معقولاً؛ فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً؛ إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، ودخول في حريم البوهيمية. ومنها أن قال: قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً؛ وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا...وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما بالنا نتبع بشراً مثلنا! فإنه إن كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد استغنينا عنه بعقولنا، وإن كان يأمرنا بما يخالف ذلك كان قوله دليلاً ظاهراً على كذبه. ومنها أن قال: قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً؛ والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم، وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل: من التوجه إلى بيت مخصوص في العبادة والطواف حوله، والسعي ورمي الجمار والإحرام والتلبية وتقبيل الحجر الأصم، وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للإنسان، وتحليل ما ينقص من بنيته..

وكل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول. والنفس، والعقل؛ يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب؛ حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً؛ فأي تميز له عليك؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك؟ وما دليله على صدق دعواه؟ فإن اغتررتم بمجرد قوله فلا تمييز لقول على قول، وإن حسرتم بحجته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة، ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من ساوى خبره؛ قالت لهم رسلهم: إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده فإذا اعترفتم بأن للعالم صانعاً وخالقاً، وحكيماً؛ فاعترفوا بأنه آمر، وناه: حالك على خلقه، وله في جميع ما نأتي ونذر، ونعمل ونفكر... حكم، وأمر. وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره، ولا كل نفس بمثابة من يقبل عنه حكمه؛ بل أوجبت منته ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون؛ فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة. ثم إن البراهمة تفرقوا أصنافاً: فمنهم أصحاب البددة، ومنهم أصحاب الفكرة، ومنهم أصحاب التناسخ.

أصحاب البددة، ومعنى البد عندهم: شخص في هذا العالم: لا يولد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم، ولا يموت. وأول بدّ ظهر في العالم اسمه شاكمين وتفسيره السيد الشريف؛ ومن وقت

ظهوره إلى وقت الهجرة خمسة آلاف سنة. قالوا ودون مرتبة البد: مرتبة البوديسعية ومعناه الإنسان الطالب سبيل الحق وإنما يصل إلى تلك المرتبة بالصبر والعطية، وبالرغبة فيما يجب أن يرغب فيه. وبالامتناع والتخلي عن الدنيا، والعزوف عن شهواتها ولذاتها، والعفة عن محارمها. والرحمة على جميع الخلق، وبالاجتناب عن الذنوب العشرة: قتل كل ذي روح؛ واستحلال أموال الناس؛ والزنا؛ والكذب؛ والنميمة؛ والبذاء؛ والشتم؛ وشناعة الألقاب؛ والسفه؛ والجحد لجزاء الآخرة، وباستكمال عشرة خصال: إحداها الجود والكرم؛ والثانية العفو عن المسيء ودفع الغضب بالحلم؛ والثالثة التعفف عن الشهوات الدنيوية؛ والرابعة الفكرة في التخلص إلى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا العالم الفائي؛ الخامسة رياضة العقل بالعلم والأدب وكثرة النظر إلى عواقب الأمور؛ والسادسة القوة على تصريف النفس في طلب العلييات؛ والسابعة لين القول وطيب الكلام مع كل أحد؛ والثامنة حسن المعاشرة مع الإخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه؛ والتاسعة الإعراض عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق بالكلية؛ والعاشرة بذل الروح شوقاً إلى الحق ووصولاً إلى جناب الحق. وزعموا: أن البددة أتوهم على عدد الهياكل من نهر الكنك وأعطوهم العلوم، وظهروا لهم في أجناس وأشخاص شتى، ولم يكونوا يظهرون إلا في بيوت الملوك لشرف جواهرهم. قالوا: ولم يكن بينهم اختلاف في ما ذكر عنهم من أزلية العالم، وقولهم في الجزاء على ما ذكرنا. وإنما اختص ظهور البددة بأرض الهند لكثرة ما فيها من خصائص التربة والإقليم، ومن فيها من أهل الرياضة والاجتهاد. وليس يشبه البد على ما وصفوه إن صدقوا في ذلك إلا بالخضر الذي يثبته أهل الإسلام.

أصحاب الفكرة والوهم: وهؤلاء أعلم منهم بالفلك والنجوم وأحكامها المنسوبة إليهم. وللهند طريقة تخالف طريقة منجمي الروم والعجم؛ وذلك أنهم يحكمون أكثر الأحكام باتصالات الثوابت دون السيارات، وينشئون الأحكام عن خصائص الكواكب دون طبائعها، ويعدون زحل السعد الأكبر؛ وذلك لرفعة مكانه، وعظم جرمه، وهو الذي يعطي العطايا الكلية من السعادة، والجزئية من النحوسة. وكذلك سائر الكواكب لها طبائع وخواص؛ فالروم يحكمون من الطبائع، والهند يحكمون من الخواص. وكذلك طبهم؛ فإنهم يعتبرون خواص الأدوية دون طبائعها، والروم تخالفهم في ذلك. وهؤلاء أصحاب الفكرة يعظمون الفكر، ويقولون: هو المتوسط بين المحسوس والمعقول؛ فالصور من المحسوسات ترد عليه، والحقائق من المعقولات ترد عليه أيضاً؛ فهو مورد العلمين من العالمين. فيجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضات البليغة، والاجتهادات المجهدة حتى إذا تجرد الفكر عن هذا العالم تجلى له ذلك العالم؛ فربما يخبر عن مغيبات الأحوال، وربما يقوى على حبس الأمطار، وربما يوقع الوهم على رجل حي فيقتله في الحال ولا يستعبد ذلك؛ فإن للوهم أثراً عجيباً في تصريف الأجسام والتصرف في النفوس: أليس الاحتلام في النوم تصرف الوهم في الجسم؟ أليست إصابة العين تصرف الوهم في الشخص؟ أليس الرجل يمشي على جدار مرتفع فيسقط في الحال ولا يأخذ من عرض المسافة في خطواته سوى ما أخذه على الأرض المستوية؟. والوهم إذا تجرد عمل أعمالاً عجيبة؛ ولهذا كانت الهند تغمض عينها أياماً لألا يشتغل الفكر والوهم بالمحسوسات، ومع التجرد إذا اقترن به

وهم آخر اشتركا في العمل خصوصاً إذا كانا متفقين غاية الاتفاق؛ ولهذا كانت عادتهم إذا دهمهم أمر أن يجتمع أربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد في الإصابة؛ فيتجلى لهم المهم الذي يهضمهم حمله، ويندفع عنهم البلاء الملم الذي يكادهم ثقله. ومنهم البكر نتينية يعني: المصفدين بالحديد. وسنتهم: حلق الرؤوس واللحي، وتعرية الأجسام ما خلا العورة، وتصفيد البدن من أوساطهم إلى صدورهم؛ لألا تنشق بطونهم من كثرة العلم وشدة الوهم وغلبة الفكر، ولعلهم رأوا في الحديد خاصية تناسب الأوهام؛ وإلا فالحديد كيف يمنع انشقاق البطن؟ وكثرة العلم كيف توجب ذلك؟.

أصحاب التناسخ:.. ما من ملة من الملل إلا وللتناسخ فيها قدم راسخ، وإنما تختلف طرقهم في تقرير ذلك. فأما تناسخية الهند فأشد اعتقاداً لذلك؛ لما عاينوا من طير يظهر في وقت معلوم، فيقع على شجرة معلومة، فيبيض ويفرخ، ثم إذا تم نوعه بفراخه حك بمنقاره ومخالبه فتبرق منه نار تلتهب، فيحترق الطير، ويسيل منه دهن يجتمع في أصل الشجرة في مغارة، ثم إذا حال الحول وحان وقت ظهوره انخلق من هذا الدهن مثله طير فيطير ويقع على الشجرة، وهو أبداً كذلك. قالوا فما مثل الدنيا وأهلها في الأدوار والأكوار إلا كذلك. قالوا: وإذا كانت حركات الأفلاك دورية فلا محالة يصل رأس الفرجار إلى ما بدأ ودار دورة ثانية على الخط الأول: أفاد لا محالة ما أفاد الدور الأول؛ إذ لا اختلاف بين الدورين حتى يتصور اختلاف بين الأثرين فإن المؤثرات عادت كما بدأت، والنجوم والأفلاك دارت على المركز الأول وما اختلفت أبعادها واتصالاتها ومناظراتها ومناسباتها بوجه؛ فيجب أن لا تختلف المتأثرات الباديات منها بوجه؛ وهذا هو تناسخ الأدوار والأكوار. ولهم اختلافات في الدورة الكبرى: كم هي من السنين؟ وأكثرهم على أنها ثلاثون ألف سنة، وبعضهم على أنها ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة. وإنما يعتبرون في تلك الأدوار سير الثوابت لا السيارات. وعند الهند أكثرهم: إن الفلك مركب من الماء والنار والريح، وأن الكواكب فيه نارية هوائية؛ فلم تعدم الموجودات العلوية إلا العنصر الأرضي فحسب.

أصحاب الروحانيات: ومن أهل الهند جماعة أثبتوا متوسطات روحانية، يأتونهم بالرسالة من عند الله في صورة البشر من غير كتاب؛ فيأمرهم بأشياء، وينهاهم عن أشياء، ويسن لهم الشرائع، ويبين لهم الحدود. وإنما يعرفون صدقه بتنزهه عن حطام الدنيا واستغنائه عن: الأكل، والشرب، والبعال.

الباسنوية زعموا: أن رسولهم ملك روحاني نزل من السماء على صورة بشر، فأمرهم بتعظيم النار وأن يتقربوا إليها بالعطر والطيب والأدهان والذبائح، ونهاهم عن القتل والذبح إلا ما كان للنار، وسن لهم إن يتوشحوا بخيط يعقدونه من مناكبهم الأيامن إلى تحت شمائلهم، ونهاهم أيضاً عن الكذب وشرب الخمر؛ وأن لا يأكلوا من أطعمة غير ملتهم ولا من ذبائحهم، وأباح لهم الزنا لئلا ينقطع النسل. وأمرهم أن يتخذوا بالمعازف والتبخير والغناء والرقص، وأمرهم بتعظيم البقرة والسجود لها حيث رأوها؛ وأن يفزعوا في التوبة إلى التمسح بها، وأمرهم أن لا يجوزوا نهر كنك.

الباهودية زعموا: أن رسولهم ملك روحاني على صورة بشر واسمه باهود أتاهم وهو راكب على ثور، على رأسه إكليل مكلل بعظام الموتى من عظام الرؤوس. ومتقلد من ذلك بقلادة، وبإحدى يديه قحف إنسان، وبالأخرى مزراق ذو ثلاث شعب. يأمرهم بعبادة الخالق عز وجل وبعبادته معه، وأن يتخذوا على مثاله صنماً يعبدونه، وأن لا يعافوا شيئاً، وأن تكون الأشياء كلها في طريقة واحدة؛ لأنها جميعاً صنع الخالق عز وجل، وأن يتخذوا من عظام الناس قلائد يتقلدونها وأكاليل يضعونها على رؤوسهم، وأن يمسحوا أجسادهم ورؤوسهم بالرماد. وحرم عليهم الذبائح والنكاح، وجمع الأموال، وأمرهم برفض الدنيا، ولا معاش لهم فيها إلا من الصدقة.

الكابلية زعموا: أن رسولهم ملك روحاني يقال له شب أتاهم في صورة بشر متمسح بالرماد، على رأسه قلنسوة من لبود أحمر طولها ثلاثة أشبار، مخيط عليها صفائح من قحف الناس، متقلد قلادة من أعظم ما يكون، متمنطق من ذلك بمنطقة، متسور منها بسوار، متخلخل منها بخلخال.. وهو عريان. فأمرهم أن يتزينوا بزينة ويتزيوا بزيه، وسن لهم شرائع وحدوداً.

البهادونية قالوا: إن بهادون كان ملكاً عظيماً أتانا في صورة إنسان عظيم، وكان له أخوان قتلاه؛ وعملا من جلدته الأرض، ومن عظامه الجبال، ومن دمه البحار وقيل: هذا رمز، وإلا فحال إنسان لا تبلغ إلى هذه الدرجة. وصورة بهادون راكب على دابة، كثير شعر الرأس، قد أسبله على وجهه، وقد قسم الشعر على جوانب رأسه قسمة مستوية. وأسبله كذلك على نواحي الرأس قفاً ووجهاً. وأمرهم أن يفعلوا ذلك. وسن لهم أن لا يشربوا الخمر، وإذا رأوا امرأة هربوا منها، وأن يحجوا إلى جبل يدعى جورعن وعليه بيت عظيم فيه صورة بهادون. ولذلك البيت سدنة لا يكون المفتاح إلا بأيديهم فلا يدخلون إلا بإذنهم، وإذا فتحوا الباب سدوا أفواههم حتى لا تصل أنفاسهم إلى الصنم؛ من حجهم لم يدخلوا العمران في طريقهم، ولم ينظروا إلى محرم. ولم يصلوا إلى أحد بسوء وضرر؛ من قول وفعل.

عبدة الكواكب: ولم ينقل للهند مذهب في عبادة الكواكب إلا فرقتان توجهتا إلى النيرين: الشمس، والقمر. ومذهبهم في ذلك مذهب الصابئة في توجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الربوبية والإلهية عليها.
عبدة الشمس (الدينيكيتية) زعموا: أن الشمس ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور الكواكب وضياء العالم وتكون الموجودات السفلية، وهي ملك الفلك؛ فتستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء؛ وهؤلاء يسمون الدينتكيتية أي: عباد الشمس، ومن سنتهم أن اتخذوا لها صنماً على لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه، ووقفوا عليه ضياعاً وقرياناً، وله سدنة وقوام. فيأتون البيت ويصلون ثلاث كرات، ويأتيه أصحاب العلل والأمراض فيصومون له ويصلون ويدعون ويستشفون به. **عبدة القمر** (الجندريكينية) زعموا: أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي والأمور الجزئية فيه، ومنه نضج الأشياء المتكونة وإيصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، وهو تلو الشمس وقرينها ومنها نوره وبالنظر إليها تكون زيادته ونقصانه؛ وهؤلاء يسمون الجندريكينية أي: عباد القمر. ومن سنتهم أن اخذوا له صنماً على شكل عجل يجره أربعة، وبيد الصنم جوهر. ومن دينهم أن يسجدوا له

ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر ولا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن ثم يرغبون إليه، وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم، فإذا استهل الشهر علوا السطوح وأوقدوا الدخن ودعوا عند رؤيته ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا عليه إلا على وجوه حسنة. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار اخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر.

عبدة الأصنام: اعلم أن الأصناف التي ذكرناها مذاهبهم يرجعون آخر الأمر إلى عبادة الأصنام؛ إذ كان لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر: ينظرون إليه، ويعكفون عليه؛ وعن هذا اتخذت أصحاب الروحانيات والكواكب أصناماً زعموا أنها على صورها. وبالجملة: وضع الأصنام حيث ما قدروه إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيأته نائباً منابه وقائماً مقامه؛ وإلا فنعلم قطعاً: أن عاقلاً ما لا ينحت جسماً بيده ويصوره صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل؛ إذ كان وجوده مسبوقاً بوجود صانعه، وشكله يحدث بصنعة ناحته. لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى..كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها. وعن هذا كانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب.

المهاكالية: لهم صنم يدعى مهاكال له أربع أيد، كثير شعر الرأس سبطها؛ وبإحدى يديه ثعبان عظيم فاغر فاه، وبالأخرى عصا، وبالثالثة رأس إنسان، وباليد الرابعة قد دفعها؛ وفي أذنيه حيتان كالقرطين، وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التفا عليه، وعلى رأسه إكليل من عظام القحف، وعليه من ذلك قلادة. يزعمون: أنه عفريت يستحق العبادة لعظمة قدره، واستجماعه الخصال المحمودة المحبوبة والمذمومة من الإعطاء، والمنع، والإحسان، والإساءة؛ وأنه المفزع لهم في حاجاتهم. وله بيوت عظام بأرض الهند ينتابها أهل ملته في كل يوم ثلاث مرات: يسجدون له، ويطوفون به. ولهم موضع يقال له اختر فيه صنم عظيم على صورة هذا الصنم؛ يأتونه من كل موضع، ويسجدون له هناك، ويطلبون حاجات الدنيا. حتى إن الرجل يقول له فيما يسأل: زوجني فلانه، وأعطني كذا. ومنهم من يأتيه فيقيم عنده الأيام والليالي ولا يذوق شيئاً: يتضرع إليه، ويسأله الحاجة؛ حتى إنه ربما ينفق.

البركسهيكية: من سنتهم أن يتخذوا لأنفسهم صنماً يعبدونه، ويقربون له الهدايا. وموضع متعبدهم له: أن ينظروا إلى باسق الشجر وملتفه، مثل الشجر الذي يكون في الجبال فيلتمسون منها أحسنها وأطولها، فيجعلون ذلك الموضع موضع متعبدهم. ثم يأخذون ذلك الصنم، فيأتون شجرة عظيمة من ذلك الشجر فينقبون فيها موضعاً، فيركبونه فيها؛ فيكون سجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة.

الدهكينية من سننهم: أن يتخذوا صنماً على صورة امرأة، وفوق رأسه تاج، وله أيد كثيرة. ولهم عيد في يوم من أيام السنة، عند استواء الليل والنهار ودخول الشمس الميزان؛ فيتخذون في ذلك اليوم عريشاً عظيماً بين يدي

ذلك الصنم، ويقربون إليه القرابين من الغنم وغيرها، ولا يذبحونها، ولكن يضربون أعناقها بين يديه بالسيوف. ويقتلون من أصابوا من الناس قرباناً بالغيلة حتى ينقضي عيدهم، وهم مسيئون عند عامة الهند بسبب الغيلة.

الجلهكية: أي عباد الماء، يزعمون أن الماء ملك ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو، ونشوء، وبقاء، وطهارة، وعمارة..وما من عمل في الدنيا إلا وهو محتاج إلى الماء. فإذا أراد الرجل عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل الماء إلى وسطه، فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقي فيه بعضها بعد بعض وهو يسبح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف حرك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقط به: رأسه، ووجهه، وسائر جسده... خارجاً... ثم سجد وانصرف.

الأكنواطرية: أي عباد النار، زعموا: أن النار أعظم العناصر جرماً، وأوسعها حيزاً، وأعلاها مكاناً، وأشرفها جوهراً، وأنورها ضياءً وإشراقاً، وألطفها جسماً وكياناً. والاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع، ولا كون في العالم إلا بها، ولا حياة، ولا نمو، ولا انعقاد: إلا بممازجتها. وإنما عبادتهم لها أن يحفروا أخدوداً مربعاً في الأرض، ويؤججو النار فيه، ثم لا يدعون طعاماً لذيذاً، ولا شراباً لطيفاً، ولا ثوباً فاخراً، ولا عطراً فائحاً، ولا جوهراً نفيساً... إلا طرحوه فيها؛ تقرباً إليها، وتبركاً بها. وحرموا إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها؛ خلافاً لجماعة أخرى من زهاد الهند. وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها: يعظمون النار لجوهرها تعظيماً بالغاً، ويقدمونها على الموجودات كلها. ومنهم زهاد وعبّاد يجلسون حول النار صائمين يسدون منافسهم؛ حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صدر عن صدر محروم. وسنتهم: الحث على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها؛ وهي الكذب، والحسد، والحقد، واللجاج، والبغي، والحرص، والبطر؛ فإذا تجرد الإنسان عنها قرب من النار، وتقرب إليها.

حكماء الهند:.كان لفيثاغورس الحكيم اليوناني تلميذ يدعى قلانوس قد تلقى الحكمة منه، وتلمذ له، ثم صار إلى مدينة من مدائن الهند، وأشاع فيها مذهب فيثاغورس..وكان برخمنين رجلاً جيد الذهن، نافذ البصيرة، صائب الفكر، راغباً في معرفة العوالم العلوية. قد أخذ من قلانوس الحكيم حكمته، واستفاد منه علمه وصنعته. فلما توفي قلانوس ترأس برخمنين على الهند كلهم، فرغب الناس في تلطيف الأبدان، وتذهيب الأنفس، وكان يقول: أي امرئ هذب نفسه، وأسرع الخروج عن هذا العالم الدنس، وطهر بدنه من أوساخه..ظهر له كل شيء، وعاين كل غائب، وقدر على كل متعذر، وكان محبوراً، مسروراً، ملتذاً، عاشقاً، لا يمل ولا يكل ، ولا يمسه نصب ولا لغوب. فلما نهج لهم الطريق، واحتج عليهم بالحجج المقنعة: اجتهدوا اجتهاداً شديداً. وكان يقول أيضاً: إن ترك لذات هذا العالم هو الذي يلحقكم بذلك العالم حتى تتصلوا به، وتنخرطوا في سلكه، وتخلدوا في لذاته ونعيمه. فدرس أهل الهند هذا القول ورسخ في عقولهم..

ثم توفي عنهم برخمنين وقد تجسم القول في عقولهم؛ لشدة الحرص والعجلة في اللحاق بذلك العالم.. فافترقوا فرقتين: فرقة قالت: إن التناسل في هذا العالم هو الخطأ الذي لا خطأ أبين منه؛ إذ هو نتيجة اللذة الجسدانية، وثمرة النطفة الشهوانية؛ فهو حرام، وما يؤدي إليه من الطعام اللذيذ، والشراب الصافي، وكل ما

يهيج الشهوة واللذة الحيوانية، وينشط القوة البهيمية..فهو حرام أيضاً؛ فاكتفوا بالقليل من الغذاء على قدر ما تثبت به أبدانهم. ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضاً؛ ليكون لحاقه بالعالم الأعلى أسرع. ومنهم من إذا رأى عمره قد تنفس ألقى بنفسه في النار؛ تزكية لنفسه، وتطهيراً لبدنه، وتخليصاً لروحه. ومنهم من يجمع ملاذ الدنيا من الطعام والشراب والكسوة فيمثلها نصب عينيه؛ لكي يراها البصر وتتحرك نفسه البهيمية إليها فتشتاقها وتشتهيها، فيمنع نفسه عنها بقوة النفس المنطقية..حتى يذبل البدن، وتضعف النفس، وتفارق البدن؛ لضعف الرباط الذي كان يربطها به. وأما الفريق الآخر؛ فإنهم كانوا يرون: التناسل، والطعام، والشراب.. وسائر اللذات بالقدر الذي هو طريق الحق: حلالاً. وقليل منهم: من يتعدى عن الطريق، ويطلب الزيادة...

وكان قوم من الفريقين سلكوا مذهب فيثاغورس من الحكمة والعلم، فتلطفوا حتى صاروا يظهرون على ما في أنفس أصحابهم من الخير والشر، ويخبرون بذلك، فيزيدهم ذلك حرصاً على رياضة الفكر، وقهر النفس الأمارة بالسوء، واللحوق بما لحق به أصحابهم. ومذهبهم في الباري تعالى: أنه نور محض، إلا أنه لابس جسداً ما: يستتر به لئلا يراه إلا من استأهل رؤيته واستحقها، كالذي يلبس في هذا العالم جلد حيوان؛ فإذا خلعه نظر إليه من وقع بصره عليه، وإذا لم يلبسه لم يقدر أحد من النظر إليه. ويزعمون: أنهم كالسبايا في هذا العالم؛ فإن من حارب النفس الشهوية حتى منعها عن ملاذها فهو الناجي من دنيات العالم السفلى، ومن لم يمنعها بقي أسيراً في بدنها. والذي يريد أن يحارب هذا أجمع فإنما يقدر على محاربتها بنفي التجبر، والعجب، وتسكين الشهوة، والحرص، والبعد عما يدل عليها ويوصل إليها... ولما وصل الإسكندر إلى تلك الديار وأراد محاربتهم، صعب عليه افتتاح مدينة أحد الفريقين وهم الذين كانوا يرون استعمال اللذات في هذا العالم بقدر القصد الذي لا يخرج إلى فساد البدن فجهد حتى افتتحها، وقتل منهم جماعة من أهل الحكمة، فكانوا يرون جثث قتلاهم مطروحة كأنها جثث السمك الصافية النقية التي في الماء الصافي؛ فلما رأوا ذلك ندموا على فعلهم ذلك بهم، وأمسكوا عن الباقين.

والفريق الثاني وهم الذين زعموا: أن لا خير في اتخاذ النساء والرغبة في النسل ولا في شئ من الشهوات الجسدانية، كتبوا إلى الإسكندر كتاباً مدحوه فيه على حب الحكمة وملابسة العلم، وتعظيم أهل الرأي والعقل، والتمسوا منه حكيماً يناظرهم، فنفذ إليهم واحداً من الحكماء فنضلوه بالنظر، وفضلوه بالعمل؛ فانصرف الإسكندر عنهم، ووصلهم بجوائز سنية، وهداية كريمة. فقالوا: إذا كانت الحكمة تفعل بالملوك هذا الفعل في هذا العالم، فكيف إذا لبسناها على ما يجب لباسها، واتصلت بنا غاية الاتصال؟! ومناظراتهم مذكورة في كتب أرسطوطاليس.سجودهم للشمس، ودعاؤهم عند شروقها، ومن سنتهم: إذا نظروا إلى الشمس قد أشرقت سجدوا لها، وقالوا: ما أحسنك من نور، وما أبهاك، وما أنورك، لا تقدر الأبصار أن تلتذ بالنظر إليك. فإن كنت أنت النور الأول الذي لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح. وإياك نطلب، وإليك نسعى؛ لندرك السكن بقربك، وننظر إلى إبداعك الأعلى. وإن كان فوقك وأعلى منك نور آخر أنت معلول له، فهذا التسبيح وهذا المجد له؛ وإنما سعينا وتركنا جميع لذات هذا العالم؛ لنصير مثلك، ونلحق بعالمك، ونتصل



بساكنك. وإذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال؛ فكيف يكون بهاء العلة، وجلالها، ومجدها، وكمالها؟!. فحق لكل طالب أن يهجر جميع اللذات؛ فيظفر بالجوار بقربه، ويدخل في غمار جنده وحزبه.)

ويقودنا هاجس البحث عن المعرفة إلى الانتقال صوب ماتفتخر به الهند، إنها روح التهذيب الصارمة والتربية والطاعة الممزوجة بالتعاليم الدينية الهندية التي خبرها المسعودي، والتي تقوم على تعذيب الجسد تمجيدا للروح.

5. التهذيب الهندي، المسعودي. من كتاب (مروج الذهب)

(.. والهند تعذّب أنفسها... بأنواع العذاب من دون الأمم، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلا، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق وقد أُجّجت له النار العظيمة وعليها موقد وَكل بإيقادها، ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس؛ فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل. والتنبول في بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلا من الطين، ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك، وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة، وقوى عمود الأسنان، وطيب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهى الطعام، وبعث على الباه، وحمر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان، وأحدث في النفس طربا وأريحية، وقوى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة، والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا، فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا -ويدعى الجريء عندهم- فيضعه في لبته.

وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلثمائة، والمَلك يومئذ على صيمور المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى بن إسحاق الصندالوني، وعلى الهزمة يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا، وتفسير الهزمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه، ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، يدعون بهذا الاسم، واحدهم بيسر، وجمعهم بياسرة، فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر،

فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته، يدعون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجرى، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت؛ فيموت بموته، ويحيا بحياته.)

ويعدّ أبو الريحان البيروني أهم المختصّين في الهنديات، فقد أقام هنالك طويلا، وعرف عن كتب البلاد الهندية، وترك أهم مصنف أثنوغرافي عن الهند في القرون الوسطى، وهو الكتاب الشامل والعميق (في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) الذي كشف فيه القيمة الروحية للحضارة الهندية، وقدّم وصفا تفصيليا لكل جوانب الحياة، إلى درجة يمكن القول فيها بدون أي نوع من التردد إن كتاب البيروني يمثل موسوعة لا يمكن تخطّيها لكل مهتم بالهند.

6. حرق الأجساد، البيروني. من كتاب (في تحقيق ما للهند من مقولة)

(كانت أجساد الموتى فيما مضى من الأزمنة الأولى تدفع إلى السماء بأن تلقى في الصحارى مكشوفة لها، ويخرج المرضى إليها وإلى الجبال ويتركون فيها، فإن ماتوا كانوا كما قلنا، وإن بلوا رجعوا بأنفسهم إلى منازلهم، ثم جاء بعد ذلك من تولّى وضع السنن وأمر بدفعها إلى الريح، فاقبلوا على بناء بيوت لها مسقّفة بحيطان مشبّكة يهب الريح منها عليها على مثال الحال في نواويس المجوس، ومكثوا على ذلك برهة إلى أن رسم لهم"نارين" دفْعها إلى النار، فمنذ ذلك الوقت يحرقونها فلا يبقى منها شيء من وضر أو عفونة أو رائحة الاّ ويتلاشى بسرعة ولايكاد يُتذكّر. والصقالبة في زماننا يحرقون الموتى، ويتخيّل من جهة اليونانيين أنهم كانوا فيهم بين الإحراق والدفن، قال "سقراط" في كتاب "فادن" لّما سأله "اقريطن" على أي نوع يقبره، فقال: كيفما شئتم إن أنتم قدّرتم عليّ ولم أفرّ منكم، ثم قال لمن حوله: تكفّلوا بي عند اقريطن ضد الكفالة التي تكفّل هو بي عند القضاة، فإنه تكفّل على أن أقيم وأنتم فتكفّلوا على أن لاأقيم بعد الموت، بل أذهب ليهون على اقريطن إذا رأى جسدي، وهو يحرق أو يدفن فلا يجزع، ولا يقول: إن سقراط يخرج أو يحرق أو يدفن، وأنت يا اقريطن فاطمئن في دفن جسدي، وافعل ذلك كما تحب، ولاسيما بموجب النواميس. وقال "جالينوس" في تفسيره لعهود "بقراط": إن من المشهور من أمر "اسقليبوس" أنه وقع إلى الملائكة في عمود من نار كما يقال في "ديونوسس" و"ايرقلس" وسائر من عُني بنفع الناس واجتهد. ويقال إن الله فعل بهم ذلك كيما يفنى منهم الجزء الميت الأرضيّ بالنار ثم يجتذب بعد ذلك جزأهم الذي لايقبل الموت، ويرفع انفسهم إلى السماء. وهذه إشارة إلى الإحراق وكأنه لم يكن الاّ للكبار؛ وكذلك يقول الهند إن في الإنسان نقطة بها الإنسان إنسان، وهي التي تتخلص عند انحلال الأمشاج بالإحراق وتبدّدها، ورأوا في هذا الرجوع أن بعضه يكون بشعاع الشمس تتعلّق به الروح وتصعد, وأن بعضه يكون بلهيب النار ورفعها إياها كما كان يدعو بعضهم أن يجعل الله طريقه إليه على خط مستقيم لأنه أقرب المسافات، ولايوجد إلى العلو الاّ النار أو الشعاع.



وكان الأتراك الغزّية ذهبوا إلى مايشبهه في الغريق فإنهم يضعون جيفته على سرير في الشطّ ويعلقون حبلا من قائمته ويلقون طرفه في الماء ليُصعد به روحه للبعث، ثم قوّى عقيدة الهند في ذلك قول "باسديو" في علامة المتخلّص من الرباط: إن موته يكون في "اوتراين" في النصف الأبيض من الشهر فيما من سُرج مُسرجة، أي فيما بين الاجتماع والاستقبال في أحد فصلي الشتاء والربيع، وإلى ذلك ذهب "ماني" قي قوله: إن أهل الملل يعيّروننا بأننا نسجد للشمس والقمر ونقيمهما كالوثن، لأنهم لم يعرفوا حقيقتهما، وأنهما مجازنا وباب خروجنا إلى عالم كوننا كما شهد بذلك عيسى، وزعم. قالوا وقد أمر البدّ بارسال جثث الموتى في الماء الجاري، فلذلك يطرحها الشمّنية أصحابه في النهار؛ فأما الهند فيرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطّر وتكفّن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر "كنك" وتلقى فيه ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد "سكر" المحترقة فانقذهم من جهنم وحصّلهم في الجنة، وباقي رماده يطرح في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصّص، ولايحرق من الأطفال ما قصر سنّه من ثلاث، ثم يغتسل من يتولّى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميت، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الالقاء في الصحراء أو في الماء الجاري؛ وأما حقّ الحي في جسده فلا يميل فيه إلى الاحراق الاّ الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي ملّ حياته وتبرّم بجسده من مرض عياء، وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف، ثم لايفعله مع ذلك ذو فضيلة وإنما يؤثره "بيش" أو "شودر" في الأوقات المرجوة الفاضلة طلبا لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولايجوز ذلك بالنص لـــ "برهمن" أو"كتشر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف أو يستاجر من يغرقه في نهر "كنك" ويتولّى امساكه حتى يموت.وعلى ملتقى نهري"جمن" و"كنك" شجرة عظيمة تعرف ببرياك من جنس الشجر التي تسمّى "بَرُ" وخاصيتها أنه يبرز من فروعها نوعان من الأغصان أحدهما إلى فوق كما لسائر الأشجار، والآخر إلى أسفل على هيئة العروق غير مورق، فإن دخل الأرض صار للغصن بمنزلة العماد، وهيّيء ذلك لها لفرط انبساط فروعها، وعند هذه الشجرة المذكورة يقتل أولئك أنفسهم بأن يصعدوها ويرمون بانفسهم إلى ماء "كنك". وحكى يونس النحوي ان قوما في جاهلية اليونانييّن أنا اسمّيهم، زعم، عبدة الشيطان كانوا يضربون أعضاءهم بأسيافهم ويلقون أنفسهم في النيران، ولم يكونوا يألمون بها. وكما حكينا عن الهند فكذلك قال "سقراط" بالسويّة: لاينبغي لأحد أن يقتل نفسه قبل أن يسبّب الألهة له اضطرارا ما وقهرا كالذي حضرنا الآن، وقال أيضا: إنّا معشر الناس كالذين في حبس ما، وإنه لاينبغي أن نهرب، وأن نحلّ انفسنا منه ؛فإن الألهة تهتمّ بنا لأنا معشر الناس خدماء لهم..)

7. في المناكح والزنا، البيروني، من كتاب (في تحقيق ما للهند من مقولة)

(النكاح مما لا يخلو منه أمة من الأمم لأنه مانع عن التهارج المستقبح في العقل وقاطع للأسباب التي تهيج الغضب في الحيوان حتى يحمل على الفساد، ومن تأمل تزاوج الحيوانات واقتصار كل زوج منها بزوجة وانحسام

اطماع غيره عنهما استوجب النكاح واحتوى السفاح أنفة للقصور عن رتبة ما هو دونه من الحيوانات؛ ولكل أمة فيه رسوم وخاصة من ادعى منهم شريعة وأوامر له الاهية ، ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السن، ولذلك يعقده الأبوان لأبنائهم، فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ويبث فيهم وفي غيرهم الصدقات، وتظهر آلات الأفراح، ولا يسمى بينهما مهر، وانما يكون للمرأة صلة بحسب الهمة ونحلة معجلة لا يجوز ارتجاعها الا أن تهبها المرأة طيبة من نفسها، ولا يفرق بين الزوجين الا الموت اذ لا طلاق لهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة الى أربع، وما فوق الأربع محرم عليه الا أن تموت إحدى من تحت يده منهن فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه، وأما المرأة اذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج، وهي بين أحد أمرين –إما ان تبقى أرملة طول حياتها، وإما ان تحرق نفسها، وهو أفضل حاليها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها.

ومن رسمهم في نساء ملوكهم الإحراق شئن أو أبين احتراساً عن زلة تندر منهن، ولا يتركون منهن الا العجائز أو ذوات الأولاد إذا تكفل الابن بصيانة الأم وحفظها؛ والقانون في النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب، وما كان أبعد في النسب من الأقارب فهو أفضل مما قرب فيه، فأما ما جرى على استقامة الى أسفل أعني ابنة الأولاد وأولاد الأولاد والى أعلى من أم وجدة وأمهاتهن فمحرم أصلا، وأما ما انحرف عن الاستقامة وتفرع الى الجانبين من أخت وبنت أخت وعمة وخالة وبناتهما فكذلك في التحريم إلا أن يتباعد بالأنسال خمسة أبطن متوالية، فيزول التحريم حينئذ مع بقاء الكراهة. ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن أربع ولكشتر ثلاث ولبيش اثنتين ولشودر واحدة، ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج في طبقته وفيما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته، ويكون الولد منسوبا الى طبقة الأم دون الأب، فإن كانت امرأة البرهمن مثلا برهمنا كان الولد كذلك، وإن كانت شودرا كان شودرا، ولكن البراهمة في زماننا وإن حلّ لهم ذلك لا يفعلونه ولا يتجاوزون في التزويج غير طبقتهم، وأما الحيض فإن أكثره ستة عشر يوماً، وبالتحقيق هو الاربعة الايام الاولى، وإتيان المرأة فيها محظور بل قربها في البيت كذلك، فإنها حينئذ نجسة، فإذا انقضت الايام الاربعة واغتسلت، طهرت وحلّ إتيانها، وإن لم ينقطع عنها الدم فإن ذلك ليس بحيض وإنما هو مادة للأجنة.

وواجب على البرهمن إذا اراد إتيان النساء طلبا للولد أن يقيم قربانا للنار يسمى "كربادهن" وإنما لا يفعل لأنه يحتاج فيه الى حضور المرأة والحياء يمنع عن ذلك، فيؤخر ويجمع الى الذي يتلوه في الشهر الرابع من الحبل، ويسمى"سيمنتونن" فإذا وضعت المرأة حملها، أقيم قربان ثالث بين الولادة وبين الإرضاع يسمى"جات كرم" ولا يسمى باسم الا بعد انقضاء أيام النفاس، وقربان يسمى"نام كرم". وما دامت المرأة نفساء لم تقرب من آنية، ولم يؤكل في دارها شيء، ولم يوقد نارا فيها "برهمن" وتلك الأيام تكون لبرهمن ثمانية، ولكشتر إثني عشر، ولبيش خمسة عشر، ولشودر ثلاثين، ومن دونهم فغير معدود ليس له في الرسوم حد محدود، وأكثر الرضاع ثلاثة أحوال من غير وجوب، والعقيقة في الثالثة، وثقب الأذن في السابعة أو الثامنة. ويظن الناس بالزناء أنه مباح عندهم كما شرط "اصبهذ كابل" أيام فتحها وإسلامه أن لا يأكل لحم بقر ولا يتلوط، وليس

الامر عندهم كما يظن ولكنهم لا يشددون في العقوبة عليه، والآفة فيه من جهة ملوكهم، فإن اللواتي تكن في بيوت الأصنام هنّ للغناء والرقص واللعب ولا يرضى منهن "برهمن" ولا سادن بغير ذلك. ولكن ملوكهم جعلوهن زينة البلاد وفرحا وتوسعة على العباد. وغرضهم فيهن بيت المال، ورجوع ما يخرج منه الى الجند اليه من الحدود والضرائب، وهكذا كان عمل عضد الدولة وأضاف إليه حماية الرعية عن عزاب الجند.)

8. صفة بلاد الهند، وجزر قُمار (= كمبوديا)، وبلاد الزابج (= أندنوسيا) أبو عبدالله بن اسحاق (ارتحل في القرن 3 هـ = أواخر القرن 9م) من كتاب ابن رستة (الاعلاق النفيسة)

(ذكر أبو عبد الله محمّد بن اسحاق أن عامّة ملوك الهند يرون الزنا مُباحا ما خلا ملك قُمار، فإنّي دخلتُ مدينته، وأقمت عنده بها سنتين، فلم أر ملكا أغيَر ولا أشدّ في الأشربة منه، فانّه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فإنه بلغني أنه يشرب وهو ملك سرنديب ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها، ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ويَعافُون الخلّ من الأشربة فخلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمضونه حتّى يصير بمترلة الخلّ. ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأون به، ويزدَرُونه ويقولون: هذا رجل ليس له قدر في بلاده، وليس ذلك منهم ديانة. وذكر بعضهم، قال: "كنتُ ببلاد قمار فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة، لا يكلّم العرب، ومَن دخل بلاده فأهدى له شيئا كافأه بأضعاف ما أهدى له، يكافيء بالجزء مائة جزء". و لم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قُمار. والهند يقولون إن أصل كتب الهند من قُمار. ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن من شرب من قوّاده وجيشه يُحَمّي مائة حلقة من حديد بالنار ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب، فربَّما أتلفت نفسه. وهو ملك شديد الغيرة ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرة وعقوبة منه؛ ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند. وأصل العبّاد من بلاد قمار، يقال إن فيها مائة ألف عابد، ولملك قمار ثمانون قاضيا، لو ورّد عليهم وَلد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون ذكرا لهم جمال وهيئة يصلحون للملك. ويليه بلاد الأرمن ولهم جمال ويزوّجون أولادهم الذكورة صغارا ويزعمون أن ذلك خير واصدُّ من الزناء، وملك قمار مع غيرته يقول لأصحابه إذا خرجتم إلى الحرب فلا يصحبنكم النساء فدخل ذلك على انه قد أباح لهم ما لأعدائهم.

قال ورأيت ملك قمار، ورأيت العابدي وهو ملك رتيلا، وملكا يليه يقال له العارطي، وملكا يقال له الصّيلمان هذا أكبر من هذين وأكثر جيشا. يقولون إن جيشه نحو سبعين ألفا، وله فيلة قليلة إلاّ أن الهند يقولون إن فيلة الصيلمان أجرأ على القتال من جميع فيلة أهل الهند. ورأيت له فيلا يقال له النمران، ما رأيت لأحد من الملوك ببلاد الهند فيلا مثله أبيض منقّطا بسواد، ولا أجرأ على القتال والدماء منه، وذلك الهم يوقدون النار العظيمة ويحملون الفيلة عليها فاذا اجترأ عليها واقتحمها فانه جريء على القتال والدماء وما

جَبُنَ عن النار لم يصلح للقتال ولا للركوب، بل ينقل عليه المتاع كما ينقل على الإبل. ورأيت هذا الملك الذي يقال له العابدي، وليس في بلاده فيلة يشتري الفيلة ولا يشتري ما ارتفاعه خمس أذرع ويبتاع كلُّ ذراع تزيد على خمس أذرع بألف دينار إلى تسع أذرع، و لم أر منها شيئاً يزيد على تسع غير أنه بلغني أن ببلاد الأغباب بلادا تدعى أورفسين، وملكتهم امرأة يقال لها الرابيه، ويكون بمملكتها في موضع يدعى بَراز لها فيلة تكون عشرة أذرع إلى إحدى عشر ذراعا، فهذا ما بلغني من ارتفاع فيلة بلاد الهند.

وهؤلاء الملوك جميعا يرون الزنا مباحا غير أن من أحصن منهم بامرأة فعرض لها عارض وزنَيَا، قتل الرجل والمرأة، وبعده ملك من ملوك الهند يقال له بَلْهَرَا، ومعنى بلهرا أنه مَلك ملوك الهند، وهو في بلاده يقال له الكمكم، اسم هنديّ وبلاده بلاد الساج، ومنها يجلب. وهو ملك واسع المملكة كثير الجيش ومن حوله من الملوك يصلُّون له. ومن ورد من رسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلّوا له أعظاما لصاحبه. ويلي هذا الملك ملوك، أحدهم يقال له ملك الطافن، وهو قليل المملكة كثير المال عامر البلاد، وأهل مملكته سمر ولهم بياض وجمال مستفيض، وفي رقيق بلادهم جمال ليس يشركه في ذلك أحد من الملوك ممن يليه. وبعده ملك يقال به نجابه، وهو شريف فيهم، وبلهرا الملك يتزوَّج فيهم، وهم السلوقيون ولا يتزوّجون إلاّ فيهم لشرفهم، وهذه الكلاب السلوقيَّة يقال إنها وقعت من بلادهم، ولهم الصندل الاحمر في بلادهم وغياضهم. ويلي هؤلاء ملك يقال له الجُرْزة، العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحداً يأخذه من عَدلهم، وبلاده واسعة. والعرب يرحلون اليه في تجاراتهم فيبرُّهم ويشتري منهم ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري، عليها تمثال صورة الملك، وزنها مثقال فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك، ويحفظ متاعنا، فيقول "ليس في بلادي لصٌّ اخرجوا فان حدث بأموالكم حدث فخذوه مني، وأنا الضامن لكم" وهو ملك له جسم كبير، وليس حوله ملك أشجع منه في الحرب كثير المكيدة وهو يقاتل بلهرا وملك الطافن ونجابه.

والملتان البلد الذي ينشقُّ له نهر مهران وهو نهر مثل دجلة واكبر، وبالملتان قوم يزعمون انهم من ولد أسامة بن لُؤيّ، يقال لهم بنو منبّه، وهم الملوك على الهند فيها، وهم يَدْعون لأمير المؤمنين، وهي تلي المنصورة من السند، وبالملتان صنم له دَخل مال عظيم مُلك بني منبّه هؤلاء، وأموالهم من دخل هذا الصنم، ودخله فيما اخبرني به من أثق بقوله ممن دخل البلاد وأقام بها لا يحصى كثرة، وربَّما غزا ملوك الهند بني منبّه فيخرجون إلى الملتان في جيش عظيم فيقاتلونهم فتغلبهم بنو منبّه ليسارهم وقوَّتهم وكثرة أموالهم. وهذا الصنم أخبر عنه من أتاهم ونظر إليهم أن طوله أرجح من عشرين ذراعا على صورة رجل، وله بيت عليه سقف عظيم لا يدري من بناه. ويقال إنه بُني منذ ألفي سنة. والهند يقولون إن هذا الصنم نزل من السماء وأُمرنا بعبادته، وله سدنة يقومون عليه، وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجري على سَدَنَته، يطعمون ويُسقون ويكسون. والهند كلُّها ترى الحجَّ إليه، وإذا مات الرجل مُوسراً أوصى له بشطر ماله أو بماله أجمع. يتقرَّب إلى ذلك الصنم ويحجُّون إليه من مسيرة سنة واكثر ويحلقون رؤوسهم عنده ويطوفون سبعا على اليسار تقرُّبا إليه وتضرُّعا



ويتمرَّغون بين يديه ويخشعون، وله أربعة أوجه حيث ما دار استقبله وجهه ويقولون هذا آله يُعبد له إقبال ولا أدبار حيثما رايته استقبلك بوجهه، وإذا طافوا حوله سجدوا له عند كلّ وجه يستقبله، فمنهم من يقلع عينه فيضعها في كُمّه، فيقول أيُّها البُدُّ قد تقرَّبت إليك بها فأطل عُمُري وارزقني وافعلٍ بي كذا وكذا.

وفيما أخبرني من رأى منهم من يحمل قطعتي صندل أحمر على عاتقه كلّ واحدة حمل رجل من مسيرة سنة فيضع على قدر فرسخ من مخرجه واحدةً ويتقدَّم بأخرى فيضعها ويرجع إلى الأخرى فيحملها فيتقدَّم بها، فلا يزال يقدّم واحدة ويؤخر أخرى مسيرة سنة حتّى يصير بهما إلى هذا الصنم الذي بالملتان، ومنهم من يستأذن الصنم ويقول إئذن لي في الموت، فيعمد الى خشبة طويلة فيحدّد رأسها وينصبها في الأرض ثم يصعد إلى فوقها فيُدخل رأس الخشبة الحادة في بطنه حتى يخرج من ظهره فيموت، ويزعم أنه قد تقرَّب إلى الصنم، ومنهم من يأتي بالمال العظيم فيطرحه بين يدي الصنم ويقول يا آلهه وسيّده أقبل هذا معونة من مالي. ولهذا الصنم وغيره من الأصنام سدنة لا يأتون النساء ولا يأكلون اللحم ولا يذبحون الذبائح ولا يلبسون الثياب الدنسة، ويتطيّبون إذا صاروا إلى الأصنام، وليس يدخل عليها غيرهم ممن يطيبها بيده وينالها بكفّه، فإذا دخل عليها برك على ركبتيه وجمع كفَّيه وبسطهما وسأله أن ينظر إليه ويرحمه ويبكي ويتضرع إليه ويدعو، وله مطبخ يطبخ فيه الأرزُّ الأبيض الجيّد، ويُعمل له أطعمة من السمك والحشيش وتجوَّد وتطيَّب ثم يُعمد إلى ورق مَوز عندهم عريض مقدار ما يُلَفّ فيه الرجل والرجلان فيُبسط بين يدي الصنم ثم يصبُّ الأرزُّ عليه بقدر نصف قامة رجل، ويعمد أفضل هؤلاء القوم رجلا في نفسه فيأخذ ورقة مَوز فيروّح فور الأرزّ وحرارته في وجه الصنم، فيقول إنه قد أكل وإنه لا يطعم بكفّه وراحته وقبل أن يطعم يدار حول البيت الذي فيه الصنم بالصنوج والزمر والطبول وربَّما دارت حوله مائة جارية لهنّ أقدار فيقلن نحن نُرقصه ونترضّاه، ثم يطعم ويرى الطعام لا ينقص فيغلقون عليه الباب ثم يفتحونه، وينقل ذلك الطعام من بين يديه يقولون قد تصدَّق به فلا يبقى صنف مار ببيت ذلك الصنم إلاّ انتفع بذلك الأرزّ حتّى الطير والكلاب، ولا يمنعون منه أحدا، ويقولون هذه صدقته في كلّ يوم، وربَّما غُسل بدن الصنم باللب، وربَّما غسل بالسمن، فيغسل به بعد ذلك مرضاهم ويستشفون به. ومن ورائه ملوك حتى ينتهي إلى بلاد الزابج، فالملك الكبير يقال له المَهَراج وتفسير المهراج ملك الملوك، وليس يعدُّ في ملوك الهند أعظم منه لأنه في جزائر ولا يعلم أكثر خيرا منه ولا أقوى وأكثر دخلا ويقال إن دخل قمار الديوك يبلغ له في كلّ يوم خمسين منّا ذهبا وذلك إن عاقَر ديك مع ديك غيره له أخذ الديك الغالب فيفتديه صاحبه بمثقال ذهب أو أقلّ أو اكثر، وهذا في مملكته كثير.

وتليه جزيرة يقال لها سلاهوا يقع فيها العنبر الكثير الذي ليس في البحر أجود منه وبها يكون الكبّاية من الأفواه. ويليه جزيرة يقال لها هرلج، وإنَّما تسمَّى الجزيرة باسم قائدها وليس هذا اسمها، وهرلج هذا صاحب جيش المهراج، وله جزيرة يقال لها طواران منها الكافور وإنَّما ظهر بهذه الجزيرة كافور منذ سنة 220 للهجرة، ويتحالف أهل بلاد مهراج بالنار وبلد بالهند يقال له فَنْصور مستفيض فيه إذا خاصم الرجلُ الرجلَ عند السلطان أن يقول أنا حاصل النار، يقال للمدَّعي عليه في الدَّيْن أو الزنا بالمحصنة أو السَرِقة وما يجب فيه القتل فيأتون



السلطان فيأمر فيأخذ وزن رطل أو أكثر حديد فيحمى بالنار ثم يعمدون إلى ورق يكون عندهم يُشبه ورق الغار في الغلظ والمتانة فيوضع على كّفه منها سبع ورقات بعضها فوق بعض ثم توضع تلك الحديدة فوقها بكلبتين فيمضي به سبع مرّات ذاهبا وجايئا قدر مائة خطوة، فان أحرق يده والورق جميعا الزم الذنب فان كان عليه القتل قتل، وان كان عليه الغرم غرم يكن له مال كان عبدا للسلطان يبيعه وان لم تحرقه النار قيل للمدَّعى عليه إنك مبطل قد أخذ خصمك النار فيلزم ما كان يَّدعي عليه، وجملة أحكام الهند إن من ذَبَح بقرةّ ذُبح بها).

تبدو العدالة الهندية في مشاهدات ومرويات أبي عبدالله محمد بن اسحاق مثالية إلى أبعد درجة، وكنا رأينا المسعودي يعزز هذا التصور من قبل، الأمر الذي لانجد نقضا له، ولكن التنوع الهندي يلزمنا وقوفا من نمط آخر، الدعامة التاريخية التي تستند إليها، وهو أمر سيتكفّل اليعقوبي به.

9. أخبار ملوك الهند، اليعقوبي (284هـ = 897م) من كتاب (تاريخ اليعقوبي).

(قال أهل العلم: إن أول ملوك الهند الذي اجتمعت عليه كلمتهم برهمن الملك الذي في زمانه كان البدء الأول، وهو أول من تكلم في النجوم وأخذ عنه علمها، والكتاب الأول الذي تسميه الهند "السند هند" وتفسيره "دهر الدهور" ومنه اختصر "الارجيهد" و"المجسطي" ثم اختصروا من الارجيهد الاركند، ومن المجسطي كتاب بطليموس، ثم عملوا من ذلك المختصرات والزيجات وما أشبهها من الحساب، ووضع التسعة الأحرف الهندية التي يخرج منها جميع الحساب والتي لا تدرك معرفتها وهي 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9.. وجعلوا الدنيا سبعة أقاليم.. وقالت الهند إن الله عز وجل خلق الكواكب في أول دقيقة من الحمل، وهو أول يوم من الدنيا، ثم سيرها من ذلك الموضع في أسرع من طرفة العين فجعل لكل كوكب منها سيرا معلوما حتى يوافي جميعها في عدة أيام السند هند إلى ذلك الموضع الذي خلقت فيه كما كانت كهيئتها الأولى، ثم يقضي الله تبارك وتعالى ما أحب...

ثم اضطرب أمر الملك بالهند فأقام زمانا طويلا وهو ممالك مفترقة في البلاد لكل طائفة مملكه حتى غزهم الملوك، فخافوا أن يدخل عليهم الوهن، وكانوا أهل حكمة ومعرفة وعقول مجاوزين بها مقدار غيرهم من الأمم فاجتمعوا على تمليك رجل واحد فملكوا زارح، وكان عظيم الشأن جليل القدر فعظم ملكه وجلّ سلطانه حتى سار إلى أرض بابل ثم تجاوزها إلى ملوك بني إسرائيل، وهو الذي غزا بني إسرائيل بعد أن مات سليمان بن داود بعشرين سنة، وملك إسرائيل يومئذ رحبعم بن سليمان، فضجت بنو إسرائيل إلى الله تعالى فسلط الله على زارح وجيشه الموت فانصرف إلى بلاده. ومن ملوكهم فور، وهو الذي غزا بلاده الإسكندر لما قتل ملك الفرس وغلب على أرض العراق وما والاها مما كان فيه مملكة داريوش، وذلك أنه كتب إليه يأمره بالدخول في طاعته وكتب إليه فور أنه يزحف إليه بالجيوش فبدر الإسكندر فصار إلى بلاده، وخرج إليه فور فحاربه وأخرج فور الفيلة، وكان العلو على الإسكندر، فكانت لا يقف لها شيء. فعمل الإسكندر تماثيل من نحاس ثم حشاها بالنفط والكبريت وأشعل النار في داخلها ثم صيرها على عجل وألبسها السلاح ثم قدمها أمام



الصفوف، فلما تلاقوا دفعتها الرجال إلى الفيله فلما قربت حملت عليها الفيلة بخراطيمها فكانت تلف الخراطيم على ذلك النحاس وهو يلهب فتشتوي وتنصرف منهزمة؛ فتفل كراديس الهند وتهلكهم، ثم دعا الإسكندر فور ملك الهند إلى أن يبارزه فبرز له فقتله الإسكندر مبارزة بعدله، واستباح عسكره. ومن ملوكهم كيهن وكان رجلا حكيما ذكيا أديبا، فملّكه الإسكندر بعد فور على جميع أرض الهند، وكان كيهن قد استعمل الفكر فكان أول من قال بالتوهم، وان الطبيعة تنصرف إلى ما تتوهمه فما توهمت انه ينفعها نفعها، وان كان ضارا. وكان كيهن يأكل البيش، وهو السم القاتل ثم يتوهم أن على قلبه احمال ثلج فلا يضره ذلك البيش، حتى احترقت رطوبته، وكان من أصح خلق الله ذهنا وأحفظه وأذكاه.

ومن ملوكهم دبشليم وهو الذي وُضع في عصره كتاب "كليلة ودمنة" وكان الذي وضعه بيدبا حكيم من حكمائهم وجعله أمثالا يعتبر بها ويتفهمها ذوو العقول ويتأدبون بها... وقال بعض علماء الهند إن أهل بلاد الهند تواتر عليهم الموت حتى ذهب علماؤهم وضعف الملك، وانه لما ملك هشران طلب من يحيي له شرائع دين آبائه، فأتاه قفلان وكان داهية فقال له: إن الناس جزء من الحيوان، وإن الحيوان جزء من النامي، وإن النامي من الطبائع الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، وإن النامي ينقسم على ثلاثة أقسام: أحدهما النبات، وله النمو فقط. والثاني ما يكون في البحر من الأصداف، وما أشبهها، وله نمو وحس. والثالث الحيوان البري، وله نمو وحس وحركة، وان الحيوان أقل وأحقر من أن يدبرهم الخالق وإنما يدبرهم ويصرفهم الفلك. فقال له الملك: أرني صورة ما تقول وبرهانه، فوضع النرد، وقال: اتفق الناس على ان دور الزمان سنة، ومعناها اثنا عشر شهرا، ومعناها البروج الاثنا عشر، وعلى أن أيام الشهر ثلاثون يوما ومعناها لكل برج ثلاثون درجة، وعلى أن الأيام سبعة، ومعناها الكواكب السبعة السيارة، ثم جعل تشبيها لذلك فوضع عرصة شبيهه بالسنة، وصير فيها أربعة وعشرين بيتا عدد ساعات الليل والنهار في كل ناحية اثنا عشر بيتا تشبيها بشهور السنة والبروج، وصير لها ثلاثين كلبا تشبيها بأيام الشهر، ودرج البروج وصير الفصين تشبيها بالليل والنهار، وفي كل فص ست جهات لأنه عدد تام له نصف وثلث وسدس في كل فص إذا سقط من أعلاه وأسفله سبع نقط تحت الست واحدة وتحت الخمس اثنتان وتحت الأربع ثلاث تشبيها بعدد الأيام والكواكب السبعة السيارة: وهي الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة، ثم جعلها محنة بين رجلين وأعطى كل واحد فصّا، وقال: مَن أعطيته هذه السبع النقط من أعلاها أكثر من صاحبه بدأ فاجتمع له الفصّان فضرب، وما ظهر من الفصّين تقلب الكلاب عليه، وجعل ذلك تمثيلا للحظ الذي يناله العاجز بما جرى له الفلك والحرمان الذي يبتلى به الحازم على حسب ما يجري له الفلك، فلما ظهر ذلك قبله الملك وفشا في أهل المملكة، وصار أهل الهند تجري أمورها بما تدبره الكواكب السبعة السيارة.

وملك بلهيت، وقد غلب على أهل المملكة هذا الدين، وكان له عقل ومعرفة، فلما رأى ما عليه مملكته ساءه ذلك وبلغ منه، ثم سأل هل بقي رجل على دين البرهمية؟ فدُلّ على رجل له عقل ودين، فأرسل إليه، فلما أتاه أكرمه ورفع درجته، ثم ذكر له ما قد فشا في أهل مملكته، فقال: أيها الملك أنا أقيم برهانا أضطر به، ويعرف

به فضل الحازم، وموضع تقصير العاجز، وأجعلها صورة بين اثنين ليبيّن فضل الحازم على العاجز والمجتهد على المقصر والمحتاط على المضيع والعالم على الجاهل، فوضع الشطرنج، وتفسيرها بالفارسية"هشت رنج"وهشت ثمانية ورنج صفح، وصيّرها ثمانية في ثمانية فصارت أربعة وستين بيتا، وصيّرها اثنين وثلاثين كلبا مقسومة بين لونين كل لون ستة عشر كلبا، وقسم الستة عشر على ست صور: فالشاه صورة، والفرس صورة، والفيلان صورة، والرخان صورة، والفرسان صورة، والبيادق صورة، فاشتق ذلك من زوج الزوج وهو أحسن ما يكون من الحساب لأن الأربعة والستين إذا قسمتها كان لها نصف وهو اثنان وثلاثون وهي عدة جميع الكلاب، وإذا نصّفت الاثنين والثلاثين كان لها نصف وهو ستة عشر وهو ما لكل واحد من الكلاب، وإذا نصّفت الستة عشر كان لها نصف، وهو ثمانية وهي عدة بيادق كل واحد فإذا نصّفت الثمانية كان لها نصف، وهو أربعة وهو الرخان والفرسان من كل واحد، فإذا نصّفت الأربعة كان لها نصف وهو اثنان فقد انقسمت أزواجا، ولم يبق في القسم بعد الأزواج إلا الواحد الذي يقسمها كلها آحادا، وهو ليس بعدد ولا معدود ولا زوج ولا فرد لأن أول أعداد الفرد ثلاثة. ثم قال الحكيم ليس شيء أجلّ من الحرب؛ لأنه يبين فيها فضل التدبير، وفضل الرأي، وفضل الحزم، وفضل الاحتياط، وفضل المكيدة، وفضل الاحتراس، وفضل النجدة، وفضل البأس، وفضل القوة، وفضل الجَلد، وفضل الشجاعة، فمن عدم منه شيء من هذا عرف موضع تقصيره؛ لأن خطأها لا يستقال، والعجز فيها متلف للمهج والجهل مبيح للحمى، وترك الحزم ذهاب المُلك، وضعف الرأي جلب للعطب، والتقصير سبب للهزيمة، وقلة العلم بالتعبية داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلى الهلكة، وترك الاحتراس نهزة للعدو وجعلها على مثال الحرب، فإن أصاب ظفر وان أخطأ هلك.

فلما رأى الملك صحة البرهان، وتبيّن فضل حكمة الحكيم، وعلم أن قد أصاب وأحسن التمثيل، وأبان عمّا قد عمي عنه جمع أهل مملكته، فعرّفهم ما كشف الله عنهم من الغم، وأمرهم أن يقيموا ويتأملوا، وقال لهم: قد علمنا أن ليس في العالم حي ناطق مفكّر ضاحك عاقل إلا الإنسان، فالإنسان عليه مدار جميع ما في العالم؛ لان الفلك بجميع ما فيه خلقه الخالق للإنسان ليعرف به ما يحتاج إليه من زمانه وأوقاته، وكذلك ذلل له جميع ما في الأرض، وكل ما خلق الله مما في قعر البحر وجو السماء ورؤوس الجبال، فلما ملك الإنسان جميع ما خلق، قسّم ذلك الإنسان ثلاثة أقسام: فأكل ثلاثا، وسخّر ثلاثا، وقتل ثلاثا. فأكل الطير والسمك وما شاء من النعم والإبل. وسخّر البقر والحمير والدواب. وقتل السباع والحيات والهوام. ثم جعل فيه آلايات يعلم بها، ويعقل بها، ويدرك بها، ويفهم. ففضل الناس بعضهم بعضا بالعلم والعقل والفهم. وقد زعم علماء من علماء الهند أنه لما ملكت حوسر بنت بلهيت خرج عليها خارجي، وكانت جارية عاقلة، فوجهت ابنا لها، وكان لها أربعة أولاد، فقتلَ ذلك الخارجي ابنها فعظُم ذلك أهل مملكتها، وأشفقوا من إخبارها فاجتمعوا على حكيم من حكمائهم، يقال له قفلان، وكان ذا حكمة وفطنة ورأي، فذكروا ذلك له فقال: أنظروني ثلاثا، ففعلوا ذلك، وخلا مفكرا، ثم قال لتلميذ له: أحضرني نجارا وخشبا من لونين مختلفين أبيض وأسود، فأحضر نجارا فارها وخشبا من لونين مختلفين أبيض وأسود، فصوّر صورة الشطرنج، وأمر النجار فَنَجَرها، ثم قال له:

احضر بي جلدا مدبوغا، فأمره أن يخط فيه أربعة وستين بيتا ففعل ذلك، فنصب ناحية ثم تحاولا حتى فهماها واحكماها، ثم قال لتلميذه هذه حرب بلا ذهاب أنفس.

ثم حضره أهل المملكة فأخرجها لهم، فلما رأوها علموا أنها حكمة لا يهتدى لها أحد، وجعل يحاول تلميذه فيقع شاه مات وشاه غلب. فأُخبرت الملكة بخبر قفلان، فأحضرته وأمرته أن يريها حكمته، فأحضر تلميذه ومعه الشطرنج، فنصبها بينه وبينه فلعبا فغلب أحدهما صاحبه، فقال: شاه مات، فانتبهت، وعلمت ما أراده، وقالت لقفلان: اقتل ابني، قال: أنت قلت، فقالت لحاجبها: ادخل الناس يعزوني، فلما فرغت أحضرت قفلان، وقالت له: سل حاجتك، فقال أسأل أن أُعطى قمحا، بعدد بيوت الشطرنج، أُعطى في البيت الأول حبة، وفي الثاني اثنتين، ثم يضعف ذلك لي في البيت الثالث على الثاني، ثم على هذا الحساب إلى آخرها. قالت: وما مقدار هذا؟! ثم أمرت بالحنطة أن تحضر فلم يقيم لذلك شيء حتى انفدت قموح البلد، ثم قوّم القمح بالمال حتى فُني المال، فلما كثُر ذلك، قال: لا حاجة لي به إن قليل الدنيا يكفيني..

ومنهم كوش الملك الذي كان في زمان سندباد الحكيم وكوش هذا وضع كتاب "مكر النساء". والهند أصحاب حكمة ونظر وهم يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب "السند هند" الذي منه اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدم، ولهم فيه الكتاب الذي يسمى "سسرد" فيه علامات الادواء ومعرفة علاجها وأدويتها، وكتاب "شرك" وكتاب "ندان" في علامات أربعمائة وأربعة أدواء ومعرفتها بغير علاج، وكتاب "سند هشان" وتفسيره "صورة النجح" وكتاب"فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة"وكتاب "أسماء العقاقير" كل عقار بأسماء عشرة، ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم، منها كتاب "طوفا في علم حدود المنطق" وكتاب "ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم" ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها. ودين أهل الهند البرهمية، وفيهم عبدة الأصنام، ولهم ممالك مختلفة وملوك متفرقة لسعة البلد في طوله وعرضه. فأول ملوكهم مما يتاخم البلاد التي هي اليوم دار الإسلام دانق، وهو ملك عظيم القدر واسع المملكة كثير العدة، ثم من بعده رهمى وهو أعظم قدرا وأعز بلادا، وهو على بحر من البحور، وفي بلده الذهب وما أشبهه، ثم مملكة بلهري، ثم الكمكم ومن عندهم يأتي الساج، ولهم اتساع في البلاد، ثم مملكة الطافن وهم قوم بيض الوجوه، ثم مملكة كنباية، ومملكة الطرسول، ومملكة المرشة، ومملكة المايد. وهذه المالك تتاخم الصين، وهم يحاربون الصين، ثم مملكة سرنديب، ثم مملكة قمار وهي مملكة جليلة القدر عظيمة الأمر يتقدم لملكهم الملوك، ثم مملكة الديبل، ثم الفاربط، ثم مملكة الصيلمان. ولهم بعض ممالك يليها النساء.)

ويستعيد الحميري اخبارا متناثرة في المظان القديمة عن الصين، لكنها بجملتها تضع الصين تحت شلال هادر من الضوء.

10. بلاد الصين، محمد بن عبد المنعم الحميري، من كتاب (الروض المعطار).

(الصين: بلاد في مطلع الشمس، يقال إن فيها ثلثمائة مدينة ونيفاً عامرة كلها سوى القرى والرساتيق، ومن خرج إليها قطع سبعة أبحر، لكل بحر منها لون وريح وسهك ليس في غيره، أول بحورهم بحر فارس. وفي الصين عجائب كثيرة، والأصل في ذلك أن قوماً من بني عامور بن يافث قطعوا إلى ناحية الصين، وكان عامور قد عمل فلكاً حكى به سفينة جده نوح صلى الله عليه وسلم، فركب فيها هو وولده وأهله، وقطع البحار إلى الصين، فبنى هو وولده المدائن وعملوا الحكم ودقائق الصناعات، وملكهم ثلثمائة سنة، وملك ابنه صاين مائتي سنة وبه سميت الصين، ومدينتهم العظمى يقال لها انموا بينها، وبين خانقو التي تترل فيها مراكب التجار ثلاثون يوماً، وأهل الصين بيض إلى الصفرة فطس، يبيحون الزنا ولا ينكرون شيئاً منه، ويورثون الأنثى أكثر من الذكور، ولهم عند دخول الشمس في الحمل عيد كبير يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام. وأشرف حليهم من قرون الكركدن، لأنها متى قطعت قرونها ظهرت فيها صور عجيبة مختلفة، والكركدن دابة لها قرن واحد في الجبهة طوله ذراع، وغلظه قبضتان، فيه صور من أوله إلى آخره، وإذا شق رأيت الصورة بيضاء في سواد صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو غير ذلك، فيتخذه أهل الصين مناطق تبلغ المنطقة منه مائتين وثلثمائة دينار إلى ثلاثة آلاف دينار إلى أربعة آلاف. والذهب عندهم هين حتى يتخذون منه لجم دوابهم وسلاسل كلابهم، ووراءهم صين الصين وهم أمم عراة يلتفون في شعورهم ، ومنهم أمم زعر لا شعر لهم، وأمم حمر الوجوه شقر الشعور.

وبحر الصين بحر خبيث بارد، ريحه من قعره تغلي كغليان الماء على جاحم النار، ويخبر الثقات من ركابه أنه بحر مسكون له أهل في بطن الماء، وأنهم يرونهم إذا هاج البحر ليلاً كهيئة الزنج، ويطلعون المراكب. وفي بحر الصين سمكة مثل الحراقة يرمي بها الموج إلى الساحل، فإذا جزر الماء بقيت على الطين، فلا تزال تضطرب حتى تنسلخ في اضطرابها من إهابها، فيكون لها جناح تستقل به فتطير، وفيه سمكة تلتقم الناس، وربما مات الرجل من ركاب البحر فيرمى به في البحر فلا يخطئ فاهة السمكة، كأنما كانت له رصداً. وفي هذا البحر يرى وجه عظيم على صورة الإنسان إلا أنه مفرط الكبر مستدير يشبه لون القمر. وفي تخوم بحر الصين جزيرة النساء، ليس يسكنها أحد إلا النساء، وهن يلقحن من الريح ويلدن النساء، وقيل: إنهن يلقحن من شجر عندهن يأكلن منه. ويذكر أن الذهب عندهن عروق مثل الخيزران، وأنه وقع إليهن رجل فهممن بقتله فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة في البحر، فأدارته الأمواج حتى أتت به بعض بلاد الصين، فوصل إلى ملك الصين وعرفه حال الجزيرة، فجهز إليها المراكب، فأقاموا يطوفون في البحر ثلاثة أعوام يطلبونها فلم يقفوا لها على أثر.

وأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك وحفظ له، وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أباً إلى أن يتصل بعامور، وأكثر من ذلك وأقل، ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذه، مثل أن يكون الرجل من مضر ويتزوج في ربيعة، ومن ربيعة فيتزوج من مضر، ومن كهلان فيتزوج في حمير، ومن حمير فيتزوج في كهلان، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية وان ذلك أصح للبقاء وأتم للعمر. ولم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل، على حسب ما جرى، به الأمر فيما سلف من



ملوكهم، إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام وانتقضت به أحكام الشرائع، وهو أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدن الصين، يقال له باشموا، اجتمع إليه أهل الدعارة والشر، ولحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره، وأنه ممن لا يبالى به، فاشتد أمره وكثر عتوه وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه، فعظم جيشه، فشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقو.. وأبواب الصين اثنا عشر باباً، وهي جبال في البحر، بين كل جبل فرجة يسار منها إلى موضع تصيبه من مدائن الصين، وتصعد المراكب في مدائن الصين الشهر والأكثر والأقل، بين جنات وغياض وناس لهم أموال زاكية وأغنام ومياه، والمد والجزر يدخلاها من البحر كل يوم وليلة مرتين، وفي هذه المرافئ أسواق وتجار، ودخل وخرج ومراكب وبضائع تحمل وأخرى تجيء، وبها الأمن المتصل، وفي ملوكها العدل، وهي سنتهم وعليه يعولون، وبذلك اتصلت عمارتهم وحسنت في بلادهم، وقل جزعهم وعظم أمنهم، واتسعت أيديهم في الأموال.

وأهل الهند والصين يقتلون السارق، ويؤدون الأمانة، وينصفون من أنفسهم من غير احتياج إلى حاكم أو مصلح، طبعاً وسجية. وفي بحر الصين دابة لها جناحان تنشرهما في الجو، تحمل على المراكب فتقلبها، يكون طول الدابة مائة ذراع ونحوها، وإذا رأى أهل المراكب هذه الدابة ضربوا الخشب بعضه ببعض فتنفر منها تلك الدابة وتخرج لهم عن الطريق، وقد قيض الله سبحانه وتعالى لهذه الدابة سمكة صغيرة إذا رأتها هذه الدابة الكبيرة نفرت منها، فمرت على وجهها فلا يستقر بها مكان من البحر ما دامت السمكة تتبعها. ولملك الصين أربعمائة ألف مرتزق، وهو لا يكاد يبدو لأحد، ولا يصل إليه إلا وزيره أو حاجبه أو رسول ملك يرد عليه، ووجوه عسكره ورؤساء أصحابه يصلون إليه في كل أسبوع، فإن تعذر ذلك عليهم أكثر من هذه المدة ضجوا وسألوا الوصول إليه كيلا يكون قد مات وأخفي ذلك عنهم. وإذا أراد الملك أن يركب ضرب بجرس فيدخل الناس منازلهم ويخلون الطرقات. وسميت الصين بأول من نزلها، وهو صائن بن عامور بن يافث، وهو الذي أثار المعادن من الذهب، وعمل الحكمة ودقائق الصناعات، وملكهم أزيد من مائتي سنة، فلما مات جعلوا جسده في تمثال ذهب، وأقاموا يطوفون به على سرير من ذهب، فصار ذلك رسماً لكل من ملك منهم، فالملك منهم إذا مات أدخلوه في تمثال ذهب، وأجلسوه على سرير ذهب مرصع بالجوهر، وبنوا له هيكلاً يكون فيه، فيسجدون له، واتخذ لهم بعض ملوكهم سياسة شرعية وفرائض عقلية، وجعلها رباطاً، ورتب لهم قصاصاً وحدوداً ومستحلات للمناكح، وصلوات تقرب إلى معبودهم، إنما لا سجود فيها، وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن وأبخرة للكواكب، فهم باقون على ذلك، وملة الصين تدعى السمنية.

ومملكة الصين أعظم ممالك تلك الناحية وأكثرها جنداً وأموالاً، وبلاد الصين واسعة، والغالب على أهلها استدارة الوجوه وفطس الأنوف، ولباس رجالهم ونسائهم الديباج والحرير المرتفع، ولباس إمائهم وسفلتهم الحرير الدون، ودورهم واسعة مزوقة المجالس بالتماثيل، وهم يتباهون بنظافة الثياب ونبل الدور وكثرة الأواني، وإذا ورد على ملكهم رسول من بعض الملوك أدخل عليه في الوقت الذي يأذن له، فيقف أحد

وزرائه عن يمينه والآخر عن يساره، ويقف الرسول بالبعد منه، على حسب مرتبة مرسله، ولا يرفع رأسه حتى يؤمر بذلك، ثم يتقدم إلى الحاجب أو الوزير فيخبره عما وجه إليه، فيأمر الملك له بتخت ديباج وجام فضة مذهبة، ويعاد به كل يوم إلى دار الملك ليتغدى هناك، وإذا أراد الملك النوم أو الدخول على بعض جواريه صعد منجموه سطح البيت الذي هو فيه ورصدوا له الكواكب، واختاروا له وقت مباشرته إياهن. ومن سيرهم أن المرأة إذا لم تكن محصنة وأرادت الفجور رفعت رقعة إلى الملك تذكر حالها وما ذهبت إليه، فيبعث إليها حلقاً من نحاس فتجعله في عنقها، ولبست المصبغات، وعملت ما شاءت علانية، فإذا ولدت الذكور خصوا واستعملهم الملك في داره وأعماله، وإن كان الذي ولدت أنثى كانت على رسم أمها، ومن سنتهم أن يورثوا الإناث أكثر من الذكور ولهم عند حلول الشمس بالحمل عيد معظم يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام.

وبلاد الصين تجاور بلاد البرغز، فيها ملوك من ملوك الصين لهم أجناد وعدد وأموال طائلة، وحزم وجلادة على مكايدة الترك وغزوهم ومنعهم من أذية ديارهم. وأهل هذه الجهة من الصينيين زيهم زي الأتراك في اللباس والمركوب والآلات والحروب، وعندهم الفيلة يقدمون بها في صدور مراكبهم، والأتراك يهابون سطوتهم ويخافون شوكتهم، فيمسكون عن أذية بلادهم، ويحملون إلى الصين كثيراً مما عندهم من الصناعات والتمر والعسل وكثيراً من السلاح والشكة مثل الدروع والجواشن والأتراس والمقامع والنشاب والسكر ونحو ذلك مما يحتاجون إليه، وأهل الصين يهادنونهم بسبب ذلك، ويترفعون عن غزوهم، ولكنهم غير متغافلين في جانبهم. قالوا: وفي أقاصي بلاد الصين هيكل مدور له سبعة أبواب، في داخله قبة عظيمة الشأن، في أعلاها جوهرة أكبر من رأس العجل، تضيء منها جميع أقطار ذلك المكان، وقد رام جماعة من الملوك أخذها فلم يدن أحد منها على عشرة أذرع إلا مات، وإن رام أخذها بشيء من الآلات الطوال إذا بلغ ذلك المقدار انعكس، فليس يتأتى تناولها بشيء ولا سبب، وإن تعرض أحد لهدم شيء من الهيكل مات مكانه بقوة دافعة منفرة قد عملت من أنواع الأحجار المغنيطسية. وفي هذا الهيكل بئر مسبعة الرأس متى أكب امرؤ على رأسها تهور، وصار في قرارها على رأسه، وعلى البئر شبه الطوق مكتوب عليه، بقلم قديم، قلم السندهند: هذي البئر تؤدي إلى مخزن الكتب الأول من تاريخ الدنيا وعلوم السماء، وما كان فيما مضى وما يكون فيما يأتي، وتؤدي هذه البئر إلى خزائن وغرائب هذا العالم، لا يصل إلى الدخول إليها والاقتباس مما فيها إلا من وازت قدرته قدرتنا وساوى معلومه علمنا. وإن وقع البصر على هذا الهيكل وقع في قلب الرائي له جزع منه وحنين إليه مختلطان، وهو على جبل شامخ صلد لا يتأتى فيه نفوذ ولا حفر البتة.

والثمار كلها في الصين إلا النخل. وهم من أحذق عباد الله تعالى كسباً وصناعة ومما أعانهم على ذلك أن الملك إذا أوتي بمعجزة من الصناعات والرقوم والنقوش وضعه على باب دار مملكته حولاً، فإن ذكر أحد فيه عيباً يتبين وصل وحرم الصانع، وإلا أجزلت صلة الصانع، وإن رجلاً منهم صور سنبلة سقط عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر أنها سنبلة سقط عليها عصفور، فبقي الثوب مدة حتى اجتاز به رجل أحدب فعابها، وأدخل على الملك وحضر صانعها، فسئل عن العيب فقال: إنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وهذه

منتصبة قائمة، فصدق و لم يثب الصانع شيئاً، وقصدهم في هذا وشبهه الرياضة. وليس للجاني عندهم إلا القتل إلا جناية قذف، فإنه من قذف إنساناً ضرب بالخشبة ضرباً مبرحاً وخلي سبيله. ويذكر قوم ممن سكن الصين أنهم سمعوا أن وراء الصين أمة شقر الألوان حمر الوجوه والشعور، يسكنون أسراباً قد اتخذوها لشدة حر الشمس عندهم، فإذا طلعت دخلوا الأسراب، إلى أن تزول وتغرب فيخرجون. ولا أحد من الصينيين إلا وهو يحفظ أيام عمره، كان شيخاً أو صبياً، وكلهم يكتب، واليتيم أمره إلى السلطان في تعليم الكتاب، ينفق عليه من بيت مال السلطان، فإذا أدرك أخذ منه الجزية، وإذا بلغ الشيخ سبعين إلى الثمانين أجري عليه من بيت المال، وإذا أذنب الشيخ ذنباً يجب عليه فيه القتل، وهو ابن ثمانين سنة، صفح عنه لكبر سنه.)

إن التمايز بين الهند والصين قائم في تصورات المسلمين، وبالنسبة للثقافة العربية، فإن الصين رمز للبعد، إنها ذلك المكان القصي النائي الذي لم يتم اكتشافه بعد بصورة جيدة كما حصل للهند بفضل أبي الريحان البيروني، وقد اقترب المسعودي كثيرا من الصين، إنه بروحية الرحّالة – المؤرخ - الجغرافي أفضل من يعرّف هنا بتاريخ تلك البلاد. وكما سنرى فهو لايكتب تاريخا سرديا للأحداث فقط، وإنما يتوغل في التاريخ العرقي والاجتماعي والديني والثقافي، ونصوصه دائما مملوءة بالملاحظات القيّمة

11. أخبار الصين، المسعودي. من كتاب (مروج الذهب).

(قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم: فذكر كثير منهم أن ولد عابور بن سوبيل بن يافث بن نوح لما قسم فالغ بن عابر بن إرفخشذ بن سام بن نوح الأرضَ بين ولد نوح ساروا يسرةً في الشرق، فسار قوم منهم من ولد أرعو على سَمْت الشمال، وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك: منهم الدَّيلم، والجيل، والطيلسان، والتتر، وفرغان، فأهل جبل القبق من أنواع اللكز ثم اللان والخزر والأبخاز والسرير وكشك، وسائر تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع، إلى بلاد طواربزندة إلى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر إلى برغر ومن اتصل بهم من الامم، وعبر ولد عابور نهر بلخ، ويَمم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، فمنهم الجيل، وهم سكان جيلان، والأشروسنة والصغد، وهم بين بخارى وسمرقند، ، ثم الفراغنة والشاش وأستيجاب وأهل بلاد الفاراب، فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي: فمنهم الترك والخزلج والطغرغر، ومنهم أصحاب مدينة كوشان، وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين.

وليس في أجناس الترك وأنواعهم في وقتنا هذا– وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة– أشد منهم بأسا، ولا أكثر منهم شوكة، ولا أضبط ملكا، وملكهم أيرخان، ومذهبهم مذهب المانية، وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم، ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والبدية والجعرية، وأشدهم بأسا الغزية، وأحسنهم صورة وأطولهم قامة، وأصبحهم وجوها: الخزلجية، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك الصقع، وفيهم كان المُلْكُ، ومنهم خاقان الخواقين، وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك، وتنقاد اليه ملوكها. ومن هؤلاء الخواقين

كان فراسياب التركي الغالب على بلاد فارس، ومنهم سانة. ولخاقان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات، وهي في مفاوز سمرقند... ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك، ولحقوا بألوان الهند، ولهم حَضَرٌ وَبَواد، وسكن فريق منهم ببلاد التبت، وملكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ملك خاقان، فلما زال ملك خاقان... سَمَّى أهل التبت ملكهم بخاقان تشبيها بمن تقدم من ملوك الترك وهو خاقان الخواقين. وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين، فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد، وقطنوا الديار، وكَوَّروا الكُوَرَ، ومصَّروا الأمصار ومَدَّنوا المدن، واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة، وسمَّوْها انموا، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي - وهو بحر الصين- مسافة ثلاثة أشهر مدن، وعمائر متصلة.

وكان أول ملك تملك عليهم في هذه الديار وهي انموا "نسطرطاس"بن باعور بن مدتج بن عابور بن يافث بن نوح، فكان ملكه ثلثمائة سنة ونيفاً، وفرّق أهله في تلك الديار، وشَقَّق الأنهار، وقتل السباع، وغرس الأشجار، وأطعم الثمار. وهلك، فملك ولد له يقال له "عوون" فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعا عليه، وتعظيما له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مُرَصَّع بالجواهر وجعل مجلسه دونه، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة، هو وأهل مملكته، في طرفي النهار إجلالا له، وعاش بعد أبيه مائتي سنة وخمسين سنة، وهلك. فملك ولد له يقال له "عيثدون" فجعل جسد أبيه مخزوناً في تمثال من الذهب الأحمر، وجعله دون مرتبة جدّه على سرير من الذهب، وَرصَّعَهُ بأنواع الجواهر، وكان يسجد له، ويبدأ بجدّه الأول ثم بأبيه، وأهل مملكته يسجدون له وأحسن السياسة للرعية، وسَوَّاهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل، فكثر النسل وأخصبت الأرض، فكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتي سنة. ثم ملك بعده ولده "عيثنان" فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر وجرى فيه على ما سلف من أفعالهم من السجود والتعظيم، وطال ملكه، واتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه، فعاش أربعمائة سنة، واتخذ في أيامه كثير من المهن مما لطف في الدور من الصنائع.

وملك بعده ولده "حراتان" فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال، وحمل لطائف بلاد الصين، وصيرها نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك ؛مما قرب منها وبَعُدَ في البحر، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف من المآكل والمشارب والملابس وسائر الفُرُش، وأن يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة وشريعتها ونَهْجها الذي هي عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما في بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات؛ فتفرقت المراكب في البلاد، ووردوا الممالك لما أمروا به، فلم يردوا على أهل مملكة إلا وأعجبوا بهم، واستطرفوا ما أوردوه من أرضهم، فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكب، وجهزت نحوهم السفن، وحملوا إليهم ما ليس عندهم، وكاتبوا ملكهم، وكافأوه على ما كان من هداياه إليهم، فعمرت بلاد الصين، واستقامت له الأمور، فكان عمره نحواً من مائتي سنة، فهلك، فجزع عليه أهل مملكته، وأقاموا النياحة عليه شهرا.

ثم فزعوا إلى الأكبر من أولاده فصيروه عليهم ملكاً، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وسلك طريقَ مَنْ كان قبله في فعلهم مقتدياً بمن مضى من آبائه، وكان اسم هذا الملك "توتال" فاستقامت له الأمور، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل وحصن، وشرف، وتوج، ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً ليبني فيه هيكلاً، فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر تخترقه المياه فخطَّ الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان؛ فشيد الهيكل، وجعل على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوى النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل، فرتب لهم سياسة شرعية، وفرائض عقلية، وجعلها لهم رِباطاً، ورتب لهم قِصَاصاً في الأنفس والأعضاء، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان، وتصح بها الأنساب، وجعلها مراتب؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها، ومنها نوافل يتنفلون بها، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً لمعبودهم: منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة، ورسم لهم أعياداً، وجعل على الزُّنَاة منهم حدا، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة، وأن الا يستبحن النكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن، وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك عبيداً وجُنْدا، وما يكون من أولادهن إناثاً، فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن.

وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن، وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير، وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه، وكثر النسل، فكانت حياته نحوا من مائة وخمسين سنة، وهلك، فجزعوا عليه جزعا شديداً، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورَصَّعوه بأنواع الجواهر، وبنوا له هيكلا عظيما، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب، وأكثر أموالهم الفلوس الصفر والنحاس، فاستقرت هذه المدينة بدار ملك الصين، وهي مدينة انموا، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أشهر.. ولهم مدينة عظيمة نحوا ما يلي من أرضهم مغرب الشمس، يقال لها مد، وتلى بلاد التبت، والحرب بين بلاد التبت وأهل المد سجَالٌ.

فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع مَنْ قدمنا ذكرهم، وحروبهم على عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود دارٌ، والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز، ودينهم دين مَنْ سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون

الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعا. وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زُلْفَى، وأن مترلتهم في العبادة تنقص عن عبادة الباريء لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه. وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم، وهو رأى الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين. ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فتغيرت أحوالهم وبحثوا، وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة، ومن حيث إن مُلْكهم متصل بملك الطغرغر- على حسب ما تقدم- صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية والقول بالنور والظلمة، وقد كانوا جاهلية سبيلُهم في الاعتقاد سبيلُ الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية، فزخرف لهم كلاماً يريهم فيه تضاد ما في هذا العالم وتباينه: من موت وحياة، وصحة وسقم، وضياء وظلام، وغنى وفقر، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار، وغير ذلك من سائر المتضادات.

وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم، وما يعرض للأطفال والبُلْه والمجانين، وأن الباريء جل وعز غني عن إيلامهم، وأراهم أن هناك ضداً شديداً دخل على الخير الفاضل في فعله، وهو الله عز وجل، فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشبه عقولهم، فدانوا بما وصفنا، فإن كان ملك الصين ينتمي لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه وبين صاحب الترك أيرخان سجالا، وإذا كان ملك الصين متنافى المذهب كان الأمر بينهم في الملك مشاعاً، وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك.وأهل الصين شعوب وقبائل، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أبا إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك وأقل، ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم. مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة، أو من ربيعة فيتزوج في مضر، أو من كهلان فيتزوج في حمير، أو من حمير فيتزوج من كهلان، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء، وأتم للعمر. . .

فلم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام، وانقضت به الأحكام والشرائع ومنع من الجهاد إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وهو أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدائن الصين، يقال له يانشو، وكان شريراً يطلب الفتنة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر، فلحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه؛ لخمول ذكره، وأنه ممن لا يبالي به، فاشتد أمره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه، وعظم جيشه، فسار من موضعه، وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا، وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين، وبين هذه المدينة

وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبع، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز، وتقرب إلى مدينة خانقوا، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، وغير ذلك من أهل الصين؛ فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها، وأتته جيوش الملك فهزمها، واستباح ما فيها، فكثرت جنوده، وافتتح مدينة خانقوا عنوة، وقتل من أهلها خلقا لا يحصون كثرةً، وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي ألف، وإنما أحصي ما ذكرناه من هذا العدد؛ لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها، وكذا من جاورها من الأمم؛ ليصير ذمة لها في دووابن لها، بكتاب قد وكلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم، وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت؛ إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه، وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير، فكان ذهاب الشجر داعيا إلى انقطاع الحرير الصيني وجهازه إلى ديار الإسلام.

وسار يانشو بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه، وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه، وقصد مدينة أنموا، وهي دار الملك، فخرج إليه الملك في نحو مائة ألف ممن بقي معه من خواصه، والتقى هو ويانشو، وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من شهر، وصبر الفريقان جميعاً، ثم كانت على الملك فولّى منهزما، وأمعن الخارجي في طلبه، فانحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرضه، واستولى الخارجي على الحوزة، واحتوى على ديار الملك، وملك خزائن الملوك السالفة، وما أعدوه للنوائب، وشن الغارات في سائر العمارات، وافتتح المدن، وعلم أن لا قوام له بالملك؛ إذ كان ليس من أهله، فأمعن في خراب البلاد واستباحة الأموال، وسفك الدماء، وكاتب ملك الصين من المدينة التي انحاز إليها، المتاخمة لبلاد التبت، وهي مدينة مد المتقدم ذكرها، ملك الترك ابن خاقان، فاستنجده، وأعلمه ما نزل به، وأعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدها اخوانها من الملوك، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته، فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل، وقد استفحل أمر يانشو، فالتقى الفريقان جميعا، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة، وتفانى من الفريقين خلق كثير، ففُقد يانشو، فقيل: إنه قتل، وقيل: إنه أُحرق، وأُسر ولده والخواص من أصحابه. وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه والعامة تسميه يعبور، وتفسير ذلك ابن السماء، تعظيما له، وهو الاسم الأخص لملوك الصين، والذي يخاطبون به جميعا جحان، ولا يخاطبون بيعبور، وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته، كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الإسكندر بن فيلبوس المقدوني دارا ملك فارس، وكنحو ما نحن بسبيله في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – فرَضي ملك الصين منهم بالطاعة له، ومكاتبته بالملك، ولم يتأت له المسير إلى سائر أعماله، ولا محاربة من تغلب على بلاده، وقنع بما وصفنا، وامتنع من ذكرنا من حمل الأموال إليه فتاركهم مسالما لهم، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه؛ فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم. وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات للملك، وانقياد للعدل، على حسب ما توجبه قضية العقل...)



تبيّن لنا كيف أن المسعودي يحتفي بالعدالة الصينية، ويورد أخبارا تؤكدها، وكما اتضح فالصينيون على وعي بفلسفة العدالة، وبأهمية بعدها الاجتماعي في إدامة الملك. ومادمنا نتحرك في أفق التاريخ بمعناه الواسع، وبكل أبعاده الفكرية والاخلاقية، فسيكون من المفيد أن نردف النص السابق بآخر لليعقوبي، ولكن ما يجدر ذكره هو أن المسعودي وغيره يقدمون تاريخا للأفكار مختلفا عن التاريخ الخطي التقليدي. إنهم كما رأينا فيما يخص الهند والصين انهمكوا في عرض القيم الكبرى في إطار شامل من التصوير التاريخي، و لم يهملوا أبعادها على حساب التوثيق التاريخي المباشر الذي كان شائعا في المدونات التاريخية طوال ذلك العصر.

12. أخبار ملوك الصـــين، اليعقوبي. من كتاب (تاريخ اليعقوبي).

(.. ذكرت الرواة وأهل العلم ومن صار إلى بلاد الصين، فأقام بها الدهر الطويل حتى فهم أمرهم، وقرأ كتبهم، وعرف أخبار المتقدمين منهم، ورآوه في كتبهم، وسمعه من أخبارهم، ومكتوب على أبواب مدنهم وبيوت أصنامهم ومنقور في الحجارة قد أجري فيه الذهب: إن أول من ملك الصين صاين بن باعور بن يرج بن عامور بن يافث بن نوح بن لمك، فانه كان عمل فلكا حاكى به فلك نوح، فركب فيه ومعه جماعة من ولده وأهله حتى قطع البحر، فصار إلى موضع استحسنه، وأقام به فسمي ذلك الموضع الصين باسمه، فكثر ولده وتناسلت ذريته فكانت ذريته على دين قومه واتصل ملكه ثلاثمائة سنة. ومنهم عرون الذي شيد البنيان وعمل الصنعة واتخذ الهياكل المذهبة وعمل فيها صورة أبيه وجعلها في صدر الهيكل، فكان إذا دخل سجد لتلك الصورة تعظيما لصورة أبيه وكان لصاين اسم تفيسره بالعربية ابن السماء، فمن ذلك الزمان صارت الأوثان تعبد في بلاد الصين، وكان ملك عرون مائة وأربعين سنة. ومنهم عير الذي سار في بلاد الصين طولا وعرضا، وبنى المدن العظام وشيد القباب من الجزلان والنحاس المذهب، وعمل صورة أبيه من ذهب مكلل بالجوهر والرصاص والنحاس المزوق، فاتخذها أهل مملكته جميعا في مدنهم وبلدانهم، وقالوا ينبغي للرعية أن تعمل صورة ملك قد ملكها من السماء وعدل فيها، واتصل ملك عير مائة وثلاثين سنة.

ومنهم عينان الذي سام أهل مملكته سوء العذاب ونفاهم إلى جزائر البحر، فكانوا يصيرون من تلك الجزائر إلى مواضع فيها الثمار ليأكلوا منها فيجدون بها الوحوش. و لم يزالوا كذلك حتى انسوا بالوحوش وانست بهم، وكانوا ينزون عليها، وربما نزت تلك على نسائهم فتاتي بينهم الخلق المشوهة. وباد القرن الأول وأتى قرن بعد قرن فذهبت عنهم لغاتهم وصاروا يتكلمون ما لا يفهم. ففي الجزائر التي تجتاز منها إلى أرض الصين أمر عظيم من هذا الضرب، وأمم كثيرة، وكان يسمى عينان اسما تفسيره بالعربية خلقه الشر، وكان ملكه مائة سنة. ومنهم خرابات الذي ملك وهو حدث السن ثم احتنكت سنه فعلا أمره وحسن تدبيره، ووجه بوفد من قبله إلى أرض بابل وما اتصل بها من بلاد الروم يتعرفون ما فيها من الحكمة والصنعة وحمل معهم من صنعة الصين وما يعمل بها من ثياب الحرير وغيره، وما يؤتى به من تلك البلاد من الآلات وغيرها، وأمرهم أن يحملوا إليه كل صنعة وظريفة من أرض بابل وبلاد الروم، وان يتعرفوا شرائع دين القوم. فكان ذلك أول ما دخل من متاع

الصين إلى أرض العراق وما اتصل بها، وركب التجار بحر الصين للتجارة؛ وذلك أن الملوك استظرفت ما أتاهم من متاع الصين فعملوا المراكب وحملوا فيها التجارة، فكان ذلك أول دخول التجار إلى الصين وكان ملك الخرابات ستين سنة. ومنهم توتال وأهل الصين يقولون إنهم وجدوا مكتوبا على أبواب مدنهم أنه لم يملكهم ملك قط مثله ورضوا به رضا لم يرضوا مثله بأحد قط، وهو الذي سنّ لهم كل سنّة هم عليها في أديانهم وأفعالهم وصناعاتهم وشرائعهم وأحكامهم، وكان ملكه ثمانيا وسبعين سنة. فلما مات أقاموا يبكون عليه زمانا طويلا، ويحملونه على أسرّة الذهب وعجل الفضة، ثم جمعوا له العود والعنبر والصندل وسائر الطيب، وألهبوه بالنار وطرحوه فيها، وجعل خاصته يلقون أنفسهم في تلك النار أسفا عليه ووفاء له، وصار هذا سنة فيهم وجعلوا صورته على دنانيرهم، وهم يسمون الدنانير الكونج وعلى أبواب منازلهم الصور.

وبلاد الصين بلاد واسعة فمن أراد الصين في البحر قطع سبعة أبحر كل بحر منها له لون وريح وسمك ونسيم، ليس هو في البحر الذي يليه. فأولها بحر فارس الذي يركب فيه من سيراف وآخره رأس الجمحة، وهو ضيق فيه مغائص اللؤلؤ. والبحر الثاني الذي مبتدأه من رأس الجمحة يقال له لاروى، وهو بحر عظيم وفيه جزائر الوقواق وغيرهم من الزنج، وفي تلك الجزائر ملوك وإنما يسار في هذا البحر بالنجوم، وله سمك عظيم، وفيه عجائب كثيرة، وأمور لا توصف. ثم البحر الثالث الذي يقال له هركند، وفيه جزيرة سرنديب وفيه الجوهر والياقوت وغيره، ولها جزائر فيها ملوك ولهم ملك عليهم، وفي جزائر هذا البحر الخيزران والقنا. والبحر الرابع يقال له كلاه بار وهو بحر قليل الماء وفيه حيات عظام، وربما ركبت الريح فيه فقطعت المراكب، وفيه جزائر فيها شجر الكافور. والبحر الخامس يقال له سلاهط وهو بحر عظيم كثير العجائب. والبحر السادس يقال له كردنج وهو كثير الأمطار. والبحر السابع يقال له بحر صنجي ويقال له أيضا كنجلي وهو بحر الصين، وإنما يسار فيه بريح الجنوب حتى يصيروا إلى بحر عذب عليه المسالح والعمران حتى ينتهوا إلى مدينة خانفو (= خانقوا) ومن أراد الصين على البر سار في نهر بلخ وقطع بلاد السغد وفرغانة والشاش والتبت، حتى يصير إليها. والملك في حصن له منفرد، وصاحب شرطته خادم، وصاحب خراجه خادم، وصاحب حرسه خادم، وصاحب أخباره خادم، وأكثر أعوانه الخدم وهم ثقاته، وخراجهم من رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية؛ لأنهم لا يدعون رجلا بغير صناعة، فإذا تعطل عن العمل بعلّة أو هرم أنفقوا عليه من مال الملك. وهم يعظّمون أمواتهم، ويطول حزنهم عليهم، واكثر عقوباتهم القتل، فهم يقتلون على الكذب، ويقتلون على السرقة، ويقتلون على الزنا إلا قوما معروفين. ومن تظلّم من عامل الأعمال فصحت مظلمته قُتل ذلك العامل وإلا قُتل المتظلّم منه إن كان كاذبا مبطلا.

وحدود الصين من البر ثلاثة حدود، ومن البحر حد واحد. فالحد الأول الترك والتغزغز، و لم تزل بينهم حروب متصلة ثم اصطلحوا وتصاهروا. والحد الثاني التبت، وبين التبت والصين جبل عليه مسالح للصين يحترسون من التبت ومسالح للتبت يحترسون من الصين وهم ما بين حد البلدين. والحد الثالث إلى قوم يقال لهم المانساس لهم مملكة منفردة، وهم في بلاد واسعة ويقال إن سعة بلادهم طول عدة سنين في عرض مثل



ذلك لا يعرف أحد من ورائهم، وهم قوم يقاربون أهل الصين. والحد الواحد الذي يلي البحر فمنه يأتي المسلون على ما ذكرنا من عدد البحور. وديانتهم عبادة الأوثان والشمس والقمر، ولهم أعياد لأصنامهم أعظمها عيد في أول السنة يقال له الزارار يخرجون إلى مجمع ويعدون فيه الأطعمة والأشربة ثم يأتون برجل قد حبس نفسه على ذلك الصنم العظيم وعلى جميع شهواته وتمكن من كل ما يريد فتقدم إلى ذلك الصنم وقد صير على أصابع يده شيئا يشعل بالنار ثم يحرق أصابعه بالنار ويسرجها بين يدي ذلك الصنم حتى يحترق ويقع منها ميتا فيقطع فمن نال منه شظية أو خرقة من ثيابه فقد فاز ثم يأتون برجل آخر يريد أن يحبس نفسه للصنم للسنة المحدودة فيقف موضعه ويلبس الثياب ويضرب عليه بالصنوج ثم يفترقون فيأكلون ويشربون ويقيمون أسبوعا وينصرفون. وهذا الشهر الذي هذا العيد فيه تسميه جناح وهو أول يوم من حزيران وللصين حساب أيضا وتسمي الشهور بأسماء مختلفة على حساب قد فهموه فأولها جناح ورداح ورايح ومالح وكسران وبارد ونمرود وكنعان وزاغ وهواه وهرهر وباهر...)

13. الإسكندر في أقصى الشرق، أبو حنيفة الدينوري (282 = 895) من كتاب (الأخبار الطوال)

(ثم همّ (= الإسكندر) بالاجتياز إلى أرض الشرق، فقال له وزراؤه: كيف يمكنك الاجتياز إلى مطلع الشمس من هذه الجهة، ودون ذلك البحر الأخضر، ولا تعمل فيه السفن، لأن ماءه شبيه بالقيح، ولا يصبر على نتن ريحه أحد؟ فقال: لا بد من المسير، ولو لم أسر إلا وحدي. قالوا: نحن معك حيث سرت. فسار حتى قطع أرض الروم، يؤم مشرق الشمس، ثم جاوزهم إلى أرض الصقالبة، فأذعنوا له بالطاعة، فجازهم إلى أرض الخزر، فأعنوا له، فجازهم إلى أرض الترك، فأذعنوا له، فسار في أرضهم حتى بلغ المفازة التي بينهم وبين بلاد الصين، فركبها، وسار، حتى إذا قرب من أرض الصين أجلس وزيراً له يقال له فيناوس في مجلسه، وأمره أن يتسمى باسمه، وتسمى هو فيناوس، وقصد الملك حتى وصل إليه، فلما دخل عليه، قال له: من أنت؟ قال: أنا رسول الإسكندر المسلط على ملوك الأرض، قال: وأين خلّفته؟ قال: على تخوم أرضك، قال: وبماذا أرسلك؟. قال: أرسلني لأنطلق بك إليه، فإن أجبت أقرك في أرضك، وأحسن حباءك ؛ وإن أبيت قتلك، وأخرب أرضك، فإن كنت جاهلاً بما أقول، فسل عن دارا بن دارا ملك إيران شهر، هل كان في الأرض ملك أعظم ملكاً منه، وأكثر جنوداً، وأقوى سلطاناً، وكيف سار إليه، واغتصبه نفسه، وسلبه ملكه؟ وسل عن فؤر ملك الهند إلامَ آلَ أمره؟. قال ملك الصين: يا فيناوس، إنه قد بلغني أمر هذا الرجل، وما أعطي من النصر والظفر، وكنت على توجيه وفد إليه، أسأله الموادعة، وأصالحه على الهدنة، فأبلغه، أني له على السمع والطاعة، وأداء الإتاوة في كل عام، فليست به حاجة إلى دخول أرضي.

ثم بعث إليه بتاجه، وبهدايا من تحف أرضه، من السمور والقاقم، والخز، والحرير الصيني، والسيوف الهندية، والسروج الصينية، والمسك، والعنبر، وصحاف الذهب والفضة، والدروع، والسواعد، والبيض. فقبض ذلك الإسكندر وسار راجعاً إلى عسكره، وتنكب أرض الصين، وسار إلى الأمة التي قصّ الله جل ثناؤه



قصتها فـــ "قالوا: يا ذا القرنين، إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض" فكان من قصته وبنائه الردم ما قد أخبر الله به في كتابه ، فسألهم عن أجناس تلك الأمم، فقالوا: نحن نسمي لك من بالقرب منا منهم، فأما ما سوى ذلك، فلا نعرفه؛ هم يأجوج ومأجوج، وتاويل وتاريس، ومنسك وكمارى. فلما فرغ من بناء السد بينهم وبين تلك الأمم رحل عنهم، فوقع إلى أمة من الناس حمر الألوان، صهب الشعور، رجالهم معتزلون عن نسائهم، لا يجتمعون إلا ثلاثة أيام في كل عام؛ فمن أراد منهم التزويج، فإنما يتزوج في تلك الثلاثة الأيام، وإذا ولدت المرأة ذكراً، وفطمته دفعته إلى أبيه في تلك الثلاثة الأيام، وإن كانت أنثى حبستها عندها؛ فارتحل عنهم، وسار حتى صار إلى فرغانة، فرأى قوماً لهم أجسام وجمال، فأعطوه الطاعة؛ فسار من فرغانة إلى سمرقند، فنزلها وأقام شهراً؛ ثم رحل، فسلك على بخارى ، حتى انتهى إلى النهر العظيم، فعبره في السفن إلى مدينة آمويه، وهي آمل خراسان؛ ثم سلك المفازة حتى خرج إلى أرض قد غلب عليها الماء، فصارت آجاماً ومروجاً، فأمر بتلك المياه، فسدت عنها حتى جفت الأرض، فابتنى هناك مدينة، وأسكنها قطاناً، وجعل لها رساتيق، وقرى وحصوناً، وسماها مرخانوس، وهي مدينة مرو ، وتسمى أيضاً ميلانوس؛ ثم اجتاز بنيسابور، وطوس حتى وافى الري؛ و لم تكن أيامئذ، وإنما بنيت بعد ذلك في ملك فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور؛ ثم اجتاز من هناك على الجبل، وحلوان، حتى وافى العراق، فنزل المدينة العتيقة التي تسمى طيسفون ، فأقام حولاً، ثم سار يريد الشام حتى أتى بيت المقدس ...)

ومن المناسب أن نبدأ بدمج العالمين الهندي والصيني، لنراهما معا من منظور البلخي، إذ هما المكونان الأساسيان للشرق الأقصى طوال القرون الوسطى. وبدون اهمال التمايزات الطبيعية والثقافية بينهما، فكثيرا ما نظر إليهما كوحدة جغرافية وثقافية، وحدة تقبل التنوع الطبيعي المميز لكل منهما.

14. أحوال الهند والصين، أبو زيد البلخي (322هــ = 932م) من كتاب (صور الأقاليم).

(وأما الهند فصرود (= أرض حارة) وجروم، وأولها قشمير (= كشمير) وهي خمسة وأربعون مصرا ممصّرة، كل مصر تشتمل على حدود ومدن وكل مدينة لها سواد (= ريف) وقرى ومنها جبال وشعاب ومفاوز، وكل ذلك للملك خاصة والناس حراثوه واكرته. قالوا: وفي الملك للخمارين ستون ألف جارية حانية وموظف عليهم أن يكنسوا الميدان ويرشوه إذا أراد الملك الضرب بالصوالجة، ودينهم البرهمية، وزيهم تطويل الشعر الغالب عليهم البياض لبرد هوائهم، وفيهم علم النجوم والطب والشعبذة والسحر. قالوا: وشرق قشمير ختن وتبت والصين وجنوبها مملكة كور وشمالها بلور لوب ووخان وغربها كابل وغزنه، ولهم الأنهار والعيون والقني والأبار، وعندهم من أصناف الدواب والطير والألوان من الأطعمة والثمار. وأما جروم الهند فجزائر وسواحل حتى تتصل بأرض الصين، فمن مدنها الكبار قنوج وقندهار، وسرنديب وسندان ألف وثلاثمائة وسبعون جزيرة عامرة: فيها المدن والقرى غير السواحل، قالوا: وأول شرقي بحر الهند مكران، وآخره بلاد الصين، وأول غربيه عدن، وآخره بلاد الزنج، وهم قوم خلاف الزنج والهند يمطرون في

الصيف ولا يمطرون في الشتاء، وعامة طعامهم الأرز والذرة، ومشاربهم من مستنقعات يجتمع فيها ماء المطر يسمونها تلاج، وليس عندهم من الفواكه ما لأهل قشمير، والغالب عليهم السمرة والصفرة، ودينهم البرهمية والسمنية، وملكهم الأعظم يقال له: بلهرا تفسيره، ملك الملوك. وإن في الجزائر ملوكا لا يطيع بعضهم بعضا. ومشارق الهند الصين وقشمير وشمالهم السند، وجنوبهم بلاد محرقة مجهولة وبحار ومغاربهم الزنج والرانج واليمن. وأما تبت فهم صنف بين الترك والهند، زيهم زي أهل الصين لهم فطس الترك، وسمرة الهند، وفيهم الكتابة والحساب والنجوم، وأرضهم أرض باردة مشرقها الصين، وشمالها الترك، ومغربها وخان وراشت، وهي أعالي خراسان، وجنوبها قشمير، وأعظم مدنها ختن بلدتين غيرين فيه من ألوان الثمار والفواكه وعامة لباسهم وفرشهم القز وهم عبدة الأصنام. وبختن جماعة من ولد الحسين بن علي عليهما السلام ولهم بها مساجد.

وفي كتاب "البلدان والبنيان" مَنْ دخل تبت لم يزل مسرورا ضاحكا حتى يخرج. وأما ياجوج وماجوج فصنف بين الصين والترك الغالب عليهم خفش العيون وفطس الأنوف وقصر القامة جنوبهم الصين وشمالهم الترك، ومغاربهم مشارق قشمير وتبت، فلا يدرى ما في مشارقهم، وهم أسوأ الناس عيشا، وأخبثهم طعما، وأخرقهم خرقة، وأقلهم تمييزا وفطنة كما يزعمون... وأما الترك فهم عدد كثير وبلادهم واسعة وممالكهم متفرقة وقبائلهم لا تحصى، منهم أهل وبر وأهل مدر جنوبهم تبت وبعض الصين، ومشرقهم الصين وياجوج وماجوج، ومغربهم ما وراء النهر من منبعث جيحون إلى مغيضة، وشمالهم التغزغز وهم صنف منهم، وأصناف من الناس من أخلاق البهائم والسباع المتوحشة زغرة، ثم يلي شمال هؤلاء فيافٍ ومجاهيل وأراض باردة لا يعلم ما فيها إلا الله عز وجل.وحد بلاد الترك ينتهي إلى أحد جوانب بحر الروم وينتهي إلى بحر جرجان(= قزوين)وسمعت أبا عبد الرحمن الأندلسي بمكة حرسها الله يحدث أنها ركضت راكضة من الترك على بعض حدود الأندلس، وسبوا منه، واستاقوا السوائم، وأنه تبعهم الطلب فظفروا بواحد منهم، فقالوا فذاك أول ما رأينا من الترك، وكنا نكلمه ويكلمنا فلا يفهم ولا نفهم، والغالب على الترك البياض والفطس، وفيهم الثنوية والنصارى وعبدة الأوثان والشمس، وأكثر بلادهم باردة..).

15. الوصف التفصيلي لبلاد الصين والهند، الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(والغرض أن نبتدىء أبدا بذكر ما هو في الصين الداخل، وأقصى المشرق إلى آخر حده، وذكر ما يليه من مغربه نسقا في عرض بعد عرض، وإقليم بعد إقليم حتى نبلغ أقصى ساحل البحر المحيط المغربي، ثم نعود ونذكر ما في أقصى الشرق مما يلي أقصى المشرق المذكور من شماله وإلى أقصى المغرب من شماله، وكذلك أبدا حتى نصل بالذكر إلى حدود إقليم الظلمة التي هي وراء الأقاليم السبعة.. فمن البلاد التي نبدأ بذكرها، ووصف مدنها الأمصار الكبار، وكورها المشهورة بلاد صين الصين، وحمدان، وتاجه، وتبرى، وما هو داخل أبواب صين الصين وجبال بلهرا إلى حدود المعبر الكبير بساحل البحر الهند، وجبال جهكة الهنود، وبلاد

الخيزران. فالأقصى المشرقي من ذلك بلاد صين الصين الواغلة في الجنوب خلف خط الاستواء، وهي مدينة صينية المصر الجامع والقصبة، وهي على ساحل بحر الصنف والمحيط، وبها ملك حمدان ومستقر المملكة، وأهلها كفار يعبدون الأصنام ويعظمون صنما منها مصاغا بالذهب يسمونه تموز، ويقولون إنه عرس روحانية الشمس، ويزعمون أن له بيتا بأقصى وسط الأرض، يعنون بذلك بيت المقدس، وأن على بيت المقدس سبعة أسوار: سور من نار، وسور من ذهب، وسور من رخام، وسور من حجارة، وسور من فضة، وسور من حديد، وسور من نحاس. ويقولون إن في التوراة اسم هذا الصنم تموز وكذبوا، لعنهم الله بما قالوا أفكا كبيرا، يعرف اليهود ذلك، وإن اسمه باسم شهر تموز. وبساحل صينية مغاص الدر، ومنها يدخل من يدخل إلى المحيط من بحر جزائر السيلى (= كوريا) وراء أرض أصطيفون إلى جزائر الواقواق الواغلة خلفه بالمحيط المظلم، ومن مصبها على بحر حمدان وتوتيا وبركوه وعرمض وتغرغوه، ولكل مدينة كورة وسقع وكل هذه خلف خط الاستواء وإلى خمس درج عرضا في الشمال بعد الخط حيث الطول مائة وستون وإلى مائة وست وستين. ثم يلي ملك صينية شمالا ملك حمدان الأكبر من بلاد صين الصين، وقصبته العظمى حمدان، وهو على شاطيء نهر حمدان الغربي يحيط بها جزيرة مخالطة بنهر منه يكون سعته ثلاثة أيام في مثلها على ذلك النهر جسور من جهات، يعبر العابر عليها إلى حمدان ولها من المدن الكبار على نهر حمدان إلى ساحل بحر المحيط الزفتي وساحل بحر الصنف خان وخانوا وخلفار وداراب وكولا ورعلوا وصنطا وصقموا وصيرمه، وجميع هؤلاء كفار عباد أصنام صابية. ومعادن الذهب عندهم كثيرة، وصورهم ذميمة، وخلقهم قردية، ولهم من التخميل والصناعات ما لا لغيرهم من أهل صين الصين.

ثم يلي ذلك من الشمال بلاد الصنف، ومدينتهم الكبرى مدينة الصنف على ساحل البحر وأهلها مسلمون ونصارى وعباد أصنام، ووصلت دعوة المسلمين إليها في زمن عثمان رضي الله عنه. وفيها نزل العليون الفارون من بني أمية والحجاج ودخلوا البحر الزفتي، واستوطنوا بالجزيرة المعروفة بهم إلى الآن، وجزيرة صبح وجزيرة القلعة المضيئة. ومن مدن الصنف خلبا وثوبا وكروى وسحوتا وسمطار وخليفات، وببلادهم غالب الأفاويه والبهار، ويلي ذلك شمالا بلاد خالفور وهي أوسع بلاد صين الصين، وطولها من حدود بحر الصنف إلى آخر نهر حمدان، ثم إلى أذيال جبال النشادر بأقصى مشرق صين الصين، ومن مدنها ستة فوراب وعباب وسمقطر وطالق وبلقان وسلفار وأهل هذه البلاد أيضا مسلمون ونصارى وعباد أصنام، والمسلمون أقل عددا، وأقواهم مددا، ولهم العلو عليهم، والحكم لهم وبلادهم شبيهة ببلاد الهند في المزاج واللون والعيش، وغالب زرعهم الرز والماش، ويجمعون بينهما ويسمون المجموع منهما كشلى يأكلونه بالشيرج. ثم يلي هذا البلاد شمالا بلاد خانقو وهو متسع حدوده من ساحل بحر مهراج والصنف وإلى سواحل نهر حمدان الغربية، ومن مدن خانقو أربعة كبار أمهات، وهي: غابو وغينوا وملكان وقصيان. ومدينة خانقو بساحل نهر حمدان الغربي، وأهلها مسلمون وكفار ونصارى ومجوس، وبها معدن الياقوت الأصفر بجبل مطل على خانقو داخل طرفه الشرقي النهر، وعليه حصن منيع فيه الملك الحاكم عليهم، وبيوت الأموال والفيلة ببلادهم كثيرة . ويلي

بلاد خانقو من جهة الشمال والمشرق بلاد تبرى، وهم طائفة بين الخطا والترك والصين في الخلق والأخلاق، ولهم قوة وبأس وصناعة محكمة وهم كفار عباد أصنام جهلة، ولهم أربع مدن كبار، وهي: قرمزا وحرمزا وتبرما وعلفورا، ويحد بلادهم من جهة الشمال أذيال جبال بلهرا، ومن جهة المشرق البحر المحيط المشرقي، وذلك آخر الإقليم الأول.

ويلي بلاد تبرى من جهة المغربي بلاد حمدان الأصغر، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والطير والمعادن، ومدينتها الكبرى حمدان على بحيرة تسمى بها وأهلها ما بين مسلمين ونصارى ويهود والكفار بها أكثر عددا والمسلمون أشد قوة واستعلاء ولها من المدن ثلاثة جوجو وجماقا وخميروا ثم يليها من مغربها بلاد آخر صين الصين، وتسمى شين وماشين بالفارسية وقصبتها الكبرى مدينة تاجه يشقها نهر تاجه بها التجار المسلمون، ودار الملك شين وماشين، ولها من المدن بساحل بحر المهراج الشمالي أربع مدن، وهي: كله ولاروى ومهراج وبلهور. وتتصل هذه المملكة بأبواب الصين وهي جبال ودربندات وعقبات لا مسلك لأحد فيها إلا بنفسه مع صعوبة، ولها مجاز عليه باب وحراس بالبدل، كما على باب الحديد بين التتار وبلاد بركة الآن، وهي متاخمة لجزرات الهند وآخر بلاد الصين وبلاد بلهرا بحدها ونحو طولها من جهة الشمال، ثم يلي ذلك من الغرب بلاد الجزرات الهندية و فيها بساحل بحر المعبر والمهراج مدن ذوات أسقاع وكور وأعمال كبار، فمنها مدينة القص ساحلية فرضة لها عمل وسقع ومدن صغار ونحو عشرة آلاف قرية كلها هنود جهلة عباد البدود، ثم يليها مدينة كير ساحلية أيضا لها سقع كبير ثم يلي ذلك مدينة بزانة وسقعها نحو من ألف قرية ساحلية، ولها خور نحو نصف يمد ويجزر ويأتي من جبال بلهرا ثم مدينة ركله ساحلية ثم مدينة منجرورسه وسقعها مشترك وبه نحو من خمسة عشر ألف قرية، ولها حصون نحو من سبعين حصنا كلها بجبال بلهرا المتصلة من أبواب الصين إلى آخر بلاد الجزرات. ويلي سواحل الجزرات سواحل بلاد الار، وهي مملكة سومنات، وقصبة الار كلها السومنات مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهنود وعبادهم، وبها البد الذي تعبده الهنود، وهي في جهة البحر للقاصد اليها من عدن. والبد عبارة عن صنم من حجر عند طائفة الهنود صورته إحليل إنسان وفرج أمرأة مصنوعان من حجر أو من ذهب أو من حديد عند طائفة منهم، يسمون ذلك العلة القريبة في اتحاد نوع الإنسان، فأما الصنم فإنه يكون على كرسي من ذهب وهو مضمخ بالمسك في رأسه إلى الكرسي ومقلد بعقود الياقوت والجوهر، ويكون أمامه أطباق ذهب مملؤة من الأحجار الشريفة الثمينة والكرسي على مقعد مستدير يسع عشرة رجال ثم أسفله درجة طولها ذراع وعرضها ذراعان وهي مستديرة أوسع من المقعد، كأنها دائرة حوله ثم تحتها درجة ثانية وثالثة إلى تسع درج، وعلى كل درجة من الأصنام ما قد ملأها على صورة الرجال، وبين الدرج سلالم صغار يطلعون السدنة فيها ويترلون، وفي بعضها أبواب إلى الداخل مصنوعة من الحجارة ومن الخشب المدهونة.

وهذه الأصنام أكثرها تماثيل الملوك وعظماء الهنود، ولهذا البد في كل يوم ألف قد طعام يطبخ من الكشلى، ثم يوضع قدام البد سماط، وهي حارة كلها شديدة الحرارة تكشف أغطيتها ويضرب لها نوبة

بالطبول والصنوج والمعازف والأبواق من الصدف والقرن والنحاس بأيدي سدنات خادمات أبكار، وتغلق أبوابه على ذلك الطعام بمقدار ما ينقطع بخاره الذي يرتفع منه وهو حار. ويزعمون أن ذلك البخار غذاء أرواح موتاهم اللائذين بالبد بعد موتهم، وأن البد والأصنام لها روحانيات تغتذي بتلك الأبخرة التي للطعام، ثم يفتحون الأبواب ويغرقون الطعام على السدنة والسدنات وعلى الفقراء والضعفاء المرتبين على ذلك السماط.
ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمون الجوكية أصحاب مخارق وشعبذة وتخييلات، وطائفة يسمون بوكية أصحاب رياضات وتجريد يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر ولا يمشون حيث مشوا، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبدا إلا وهم أزواج صاحب ومصحوب، ومن خلتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طبا منه وإخراجا للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي، وفي رقبة المصحوب جرس معلق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البد ثم يحرك الجرس تحريكا مخصوصا فيتبادر إليه من سبق من سامعيه ويغرف له كشلي، ويناوله أياه فيأتي به إلى صاحبه فيضعه بين يديه ثم يتأخر عنه المصحوب، فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر، فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ثم يقوم ويترك الباقي فيأتي الدافع له فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله، ومن شأن البركة أيضا أنهم يتولون حرق جثث ملوكهم وعظامهم ويدخرون رمادهم في موضع حريز، فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم أثنان بيد كل واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد، ويذرون منه على وجوههم وأبدانهم شيئا فشيئا إشارة إلى أن هذا مصيرك أيها الملك ففكر فيه ولا تظلم ولا تفعل فيه إلا الخير.

ومن طوائفهم أيضا البراعمة (= البراهمة) عباد النار يزعمون أن إبرهيم عليه السلام رسول الله إليهم، وأن آدم رسول الله بشراً أولاً وأنهما جعلا قبلة السجود النار يتوجه المتوجه إليها بالعبادة والسجود والبراعمة من علماء الهنود، ومن شأنهم أنهم لا يغيرون شيئا من أبدانهم ما هو مخلوق فيهم كالأظفار والشعر النابت فيراهم الرائي كالوحوش. وحكى السمرقندي أن ملك بروص زار الصنم فرأى في عنقه عقدا فوق القيمة فنزعه منه ثم تقلد به فعارضوه السدنة فقال إنه خلعه عليّ فإن أنكرتم كسرته، وإن صدقتم فقد خلعه عليّ، فصدقوه ظاهرا. ومدينة كنباية كبيرة خطيرة، وبها جامع حسن للمسلمين، وكنيسة قديمة للنصارى، وبد كبير للهنود، وبيت نار للمجوس. ومدينة بروص، ولها سقع عظيم، ولها نحو من أربعة آلاف قرية، ولها خور طوله يومان يمد ويجزر وتعبر إليه المراكب من البحر، وبها الفلفل والخيزران كثير. والله أعلم.

فأول بلاد الساحل الهندي بعد مدينة بروص بلاد الكنك والكنونات يحدق بها الجبال، وهي على شرقي الكنج... ومدينة خورنل وهي حلة للمراكب الهندية والبحرية وتوسارى لها خور عظيم تعبر فيه المراكب من البحر، ومدينة دوق ساحلية وأكانتي ساحلية وسوباره ساحلية، وساهي ساحلية وتانه ساحلية وتانش ساحلية بها مسجد جامع للمسلمين، ثم فرضة كثيرة التجار والأموال ومدينة هبا جبلية ساحلية ولهذه البلاد نحو من عشرين ألف قرية ونحو ثلاثين حصنا.ويلي هذه البلاد من غربها بالساحل بلاد بلوان، وفيها من المدن ذنوه ساحلية ومدينة قرثالة وسكبيس ومدينة سندابور، وهي القصبة وبها بد للهنود وجامع للمسلمين ومدينة هنور

ساحلية، ولها سقع حسن ولهذه البلاد نحو عشرة آلاف قرية عامرة، ثم يلي ذلك مدينة منيبار وتسمى بلاد الفلفل، وفيها من المدن الأمهات فاكنور ساحلية كبيرة أهلها هنود وعجم وعرب مسلمون ومدينة صيمور ساحلية بها خور تعبره المراكب أكبر من خور فاكنور وأوسع وهما يمدان ويجزران ومدينة منجرور على نهر يعرف بها يصب في البحر ويمد ويجزر عندها، ولها الفلفل كثير ومدينة هرقلية ساحلية لها سقع كبير ونحو ألف قرية جبلية وساحلية، ومدينة هيلى ومدينة جرفتان ساحلية وأهلها كلهم كفار، ومدينة دهفتان ومدينة بدفتان ومدينة فندريته، وغالب أهلها يهود وهنود ومسلمون ونصاريها قليل، ومدينة شنكلى ومعظم أهلها يهود، ومدينة كولم وهي آخر بلاد الفلفل.

ويلي هذه البلاد بلاد الصوليان وفيها المعبر الصغير والمعبر الكبير وهما ساحلان يحمل إليهما البضائع من البلاد الغربية، والمعبر الصغير فرضة لمدينة كنكار ومدينة منكله ومدينة الليبور، وبها دار المملكة وبها بد صغير العمارة، ثم المعبر الكبير وعليه من المدن كبرى وكيبر وهي مدينة حسنة وأهلها يخلطون، ومدينة قيرة كبيرة، ومدينة قين، ومدينة أباطو ودفتن وتندا وقصبتها مدينة فاتني، وقد استولى عليها الخراب وبجبلها المسمى كاورد بركان عظيم يحذف بالنار ليلا ونهارا. ويلي هذه البلاد بلا كرورا، وهي آخر ما ينتهي إليه التجار وفيه من المدن كرورا وهي القصبة وجرام الذهب، وهو بد مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها، فمنهم من يمشي على ركبه زحفا أبدا من مكانه حتى يصل إليه، ومنهم من يلقى نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ثم يقوم ويفعل ذلك أبدا حتى يصل أو يموت في طريقه، ومنهم من يظفر شعره قرونا ملفوفة بالمشاق والقطن ويسقيها بما أمكن من السليط والسمن والدهن ويأخذ بيده خنجرا ماضيا ثم يقصد بيت النار ومعه جماعة من أصحابه ومحبيه ومن السدنة يزفونه إلى النار فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ثم يمد يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستا بالخنجر ويدخل يده إلى كبده ويخرجها ويقطع منها قطعة يعطيها لأخص أصحابه ويلقى نفسه في النار فتحرقه النار ثم إذا صار رمادا أخذوا رماده وذروه في نهر الكنج أو جعلوه في ماء من نهر الكنج وذروه على أجسامهم يتبركون بذلك، والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ والإسماعيلية كذلك والإلحادية كذلك والقرامطة والنصيرية كذلك يرون أنهم في سجن ضيق في حال حياتهم وأنهم إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى أجساد غير أجسادهم فتنشأ فيها كما نشأت من قبل وتكون أسعد مما كانت ويرون أن الموت هو الحياة فلذلك هان عليهم القتل.فأما بلاد السند الساحلية فإنها متاخمة من جهة المشرق لآخر بلاد كرورا، وهي مدينة مالوه وعمل نهاور، ولأهل السند لسان يختصون به عن غير لسان الهند. ومن بلاد السند الساحلية ديبل، ويقال له ذيبل لها خور يدخل إليها من بحر فارس تعبره المراكب، وبيرون وهي فرضة على خور لها متصل بنهر يأتيها من المشرق من بلاد كابلستان ويصب في البحر، ومن بلاد السند الجليلة البرية مدينة ملتان، ويسمى فرج الذهب، وبيت الذهب لكثرة ما أخذ المسلمون منها من الذهب حين فتحت والفرج النقر، وكان بها بد يخدمه سبعة آلاف سادن، وهذا البد صنم كانت السند تزعم أنه مثال أيوب عليه السلام.

وزعم المسعودي أن السند يشتمل على مائة ألف قرية وعشرين ألف قرية ومن مدنها وزو، وتسمى لاهور مقر الملك بها ولهذه من الأعمال والكور الغورية المحمدية والمنصورية مدينة بنيت في صدر الإسلام وتسمى بالهندية تاميران، وكان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران ويشتمل هذه الناحية على نحو من ثلاثين ألف قرية عامرة ومدينة أنرى ومدينة منحا نرى جميعهم على نهر مهران ومدينة بسمد، لها نهر ينبعث من جبل يلي أعمالها ويصب في مهران، ومدينة الثليمان بناها الإسكندر ومدينة القندهار وحيز جندروز وحيز روز ويشتملان على قرى مجتمعة ويحيط بهذا السقع بلاد المند وحيزهم من مفازة بين السند وبين الهند، وهم أصحاب إبل وغنم يرحلون في طلب الكلاء كالعرب. ويتاخم هذا بلاد طوران وهو واد بين جبلين طوله ثلاثة أيام كثير الفواكه، وفيه من المدن قصدار، ويقال بالزاء وهي القصبة ومدينة كيزكنان ومدينة سورجان ومدينة مستنج ومنها يدخل المفارة إلى الملتان، وأعلم أن جميع بلاد الهند الساحلية في الإقليم الأول وجميع بلادها البرية والجبلية في الإقليم الثاني وكذلك المنيبار، وأما السند فإنه في الأول وفي الثاني وأول الثالث، وأما طوران فإن واديها في الإقليم الثالث وكذلك بعض بلاد السند البرية.

ويلي هذا السقع بلاد كرمان ويضاف إليه حيز مكران، ويقال إنه منسوب إلى المكران بن المنذر، والغالب على ناحيته المفاوز، ومن مدنها الساحلية كانان والتيز، وتسمى تيز مكران، ومدينة كيز وكلها مرفأ للسفن، ومن مدنها البرية قندابيل وهي ممبار الهند وكتا البدعه، وحيزها في برية منفردة، وبنحور وتسمى بترور ودرك وراشك وقنبلى وقرنبوس وتسمى قرنبوز وهاسكان، وبكل هذه البلاد يصنع الفانيد ويحمل إلى بلاد خراسان والعراق، وتجتمع بأرض السند بين المنصورية وبين حد مكران بطائح من نهر مهران عليها طوائف يعرفون بالزط، فمن قارب منهم الماء فهم في أخصاص البربر طعامهم السمك وطير الماء، ومن بعد عن الماء أى الشط كان من الأكراد وكان غذاءهم اللبن والجبن وفي غربي مهران ناحية تسمى البدعة يسكنها قوم كفار في آجام وبطائح يجتمعون في مدينة قندابيل. وأما كرمان فأهل التنسب يقولون إن هذا السقع ينسب إلى كرمان بن فارس وقيل كرمان بن فلوج بن لطي بن يافث، ويحيط بها مائة وثمانون فرسخا لكنه غير متصل العمارة، وكان يشتمل على خمسمائة وأربعين منبرا يخطب عليها، وأمصاره أربعة وهي بردسير وتسمى كواشير ومدينة أشير وهي طرف المفارة ولها نهر شديد الجرية وهذا كله في الإقليم الثالث ومدينة بم وكان بها ثلاث جوامع وهي على طرف المفازة بين كرمان وسجستان والسيرجان، وفي بلاد كرمان دون ما ذكرنا من البلاد ولا شجرة ومدينة الفهرج وهي حد ما بين فارس وكرمان ومدينة زرند ومدينة بيمند. ومدينة روذان وكلها على سيف البرية التي بين كرمان وسجستان وفيه من الأحواز جبال القفص وهي سبعة جبال وجبال البارز يوجد فيها الحديد والفضة وكان يسكنها طوائف من الأكراد لا تحصى كثرة ولا يقبلون لمن ظفروا به عثرة من شدة بأسهم وبها آلان قوم يقال لهم البلوش أشد منهم بأسا وأصعب مراسا، وبهذا الإقليم ناحية تسمى الأحواز يسكنها عرب ذات إبل وغنم ومراعى يسكنون في أخصاص، وكل هذه الأحواز كانت معمورة بالأكراد ولهذا السقع فرضة على بحر فارس يسمى هرمز، يترلون بها التجار في أخصاص يصل إليها خور من البحر وهي آخر بلاد كرمان.

وأما الصين الخارج فهو من شمال جبال بلهرا وتبرى وتسمى عابور وسابور وبانيهم عابور بن شرميل بن يافث بن نوح نزل بولده وولد ولده في تلك الأرض، فبنوا المدن وأثاروا الأرض واستخرجوا المعادن وأجروا الأنهار وغرسوا الأشجار، وهم شعوب وقبائل حتى أن الرجل منهم يبلغ بنسبة إلى عابور وهم أحذق الناس بمهن الصناعات وحد بلادهم من المشرق البحر المحيط المشرقي، ومن القبلة جبال البلهرا وبلاد تبرى، ومن الغرب بلاد تبت وزرقيا، ومن الشمال بلاد قرقز ومشرق الخطا. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب"القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم"إن وراء الصين أمما منهم أمة اذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات فما يخرجون منها حتى تغرب الشمس، وأمة عور يلتحفون شعورهم، وأمة لا شعور لهم واكثر ما يأكلون سمك البحر وخشاش الأرض. ويلي هذه البلاد بلاد خارج الصين، وفيها من المدن أربع طناج وبها صنم منحوت من جبل متصل بالجبل وعليه قبة عجيبة البناء والارتفاع ومدينة هراجو ومدينة زعرة ولها دار الملك، وأهل براريها قوم بين الترك والخطا والصين يسمون زرقيا، يرحلون وينزلون كالعرب والتتار، ثم يليهم من مغربهم أبواب الصين الخارجة وهي جبال خارجة متصلة مسكونة بطوائف من الصين، وبها من الحصون مائة حصن وليس لهم مدينة ممصورة، ثم يلي ذلك من مغربه بلاد هندستان ومعناه بالعربية بلاد هند، وهي مملكة خطيرة يركب لملكها فيما بلغنا اربعمائة الف فارس ويقاد بين يديه ألف فيل وقصبة هذا السقع مدينة دلى، وهي معربة دهلة ولها جانبان أحدها يسكنه الملك وجنده وهم ترك ومسلمون والآخر يسكنه الرعية وهم هنود كفار، ولها من البلاد الجليلة بيتا ومدينة أوجاهي ومدينة بلاهور ومدينة كابور ومدينة بردان ومدينة أو ومدينة سبسار ومدينة نكبولي، وفي بر هذا السقع من البلاد الهندية البرية مدينة قشمير، ويقال إنها من بناء كي قاوس أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس ولها ناحيتان خارجة وداخلة فالخارجة تشتمل على نيف وسبعين ألف قرية والداخلة تشتمل على فوق مائة ألف قرية، وهي صرودية أى باردة داخلة في الإقليم الثالث. ومن أمصار الهند البرية الخطيرة مدينة قنوج وكانت مقر ملوك الهند. ذكر المسعودي أن مقدار عملها مائة وعشرون فرسخا سندية، في مثلها والفرسخ السندي ثمانية أميال تشتمل على مائة ألف وثمانية آلاف قرية وبين الناحيتين جبال شاهقة فيها أبواب الصين.

ثم يلي هذا السقع سقع زابلستان، وهو سقع عظيم واسع قصبته غزنة وكانت ثغرا تجاه الهند ومقر السلطان محمود بن سبكتكين، وفي حيز غزنة بوران مملكة واسعة واردلان مثلها ومدينة خواش ومدينة جروس ومدينة سكاوند ومدينة دسك ومدينة كابل ويسمى كابلستان وبجبالها الإهليلج، وهذه البلاد مجاورة لسجستان الجنوبي منها في الإقليم الثاني وأواخر الأول والشمالي منها في الإقليم الثاني وأوائل الثالث. وعمل سجستان فإنه يليها من جهة المغرب إقليم كثير الرياح والرمال، وأهله يصرفون الرياح في تدوير الأرحاء ونقل الرمال من مكان إلى مكان حتى كانت الرياح مسخرة لهم كما سخرت لسليمان عليه السلام ومن أوضاعهم الرحى الدائرة بالرياح إنهم يرفعونها كالمأذنة أو يتخذون قرنا عاليا من قرون الجبال أو تلا كذلك أو برجا من أبرجة الحصون فيصنعون فوقه بيتا فوق بيت والأعلى منها فيها الرحى تدور وتطحن والأسفل فيه دولاب

يديرها الريح المسخرة فإذا دار الدولاب من أسفل دارت الرحى على الدولاب من فوق وبأي ريح هبت دارت تلك الأرحاء ولا يكون إلا حجرا واحدا. فإذا رفعوا بناء البيتين جعلوا للبيت الأسفل منها أربع مرامى كما في الأصوار لكنها مقلوبة واسعها إلى الفضاء وضيقها إلى داخل مزرابا للهواء حتى يدخل فيها الهواء قويا إلى داخل مثل منفاخ الصائغ، يكون الواسع إلى فمه والضيق إلى داخل ليكون أقوى لدخول الهواء، يدخل إلى بيت الطحن من أي مهب هبت الريح فإذا دخل الهواء إلى ذلك البيت من الموضع المصنوع له إلى بيت الطحن وجد له سريسا كسريس الحاكة، التي يسدون عليها الغزل، ولها اثنا عشر ضلعا فما دونها إلى ستة اضلاع وعليها الخام مسمور كهيئة ثوب الفانوس ولكنه مستقيم على الأضلاع كل ضلع له ثوب وله عب يملأه الهواء منه ويدفعه فيملأ الذي بعده ثم يدفعه فيملأ الثالث، ويدور هذا السريس ويدور بدورانه الحجر فيطحن الحب، وقد يحتاج إلى مثله في الحصون العالية والأماكن التي مياهها قليلة وهواءها كثير الهبوب. وأما تصريفهم لرياح في نقل الرمل من مكان إلى مكان فإنهم يقيمون أخشابا طوالا ويربطون عليها بواري أو مثلهن وينصبونها بتعاريج مع مهب الرياح فتهب الريح شمالا أو نكبا فتحمل من الرمل ما تحمله وتصدم به البواري، ثم إذا امتلأت منه نصبوها منها وإلى حيث أرادوا صرفوه بعد نصب أخشاب وأبواب وبوارى، فيمر الريح بذلك المنقول من الرمل إلى حيث أرادوا حمله ونقله بتدريج ولو كان جبلا نقلته الريح بهذا المثال. ومن مدن سجستان ذوات الأعمال مدينة زرنخ، وهي في مفازة تجري فيها جداول من نهر الهندمند وقلعة الطاق لها سبعة أسوار ومدينة الزالقان وحيز رخاج وحيز أرق وحيز داور وحيز بالش وكل هذه الأحواز كانت ثغورا في وجوه الغور والخلج ومساكنهم جبال لهراة لهم بها حصون منيعة ومروج واسعة وبسجستان من الأفاعي والنواشر القاتلة ما لا تطاق، وقد بث الله في أرضها القنفذ وسلطه الله على الحيات يقتل ويأكل وكذا النمس المسى الغريرا..).

بلاد السند تحتاج إلى الوقوف قليلا عليها كونها تمثل تخوما للهند، وقد حظيت بأهمية لاغبار عليها من لدن المؤرخين والجغرافيين. وابن حوقل الجغرافي المعروف يقدّم لنا تعريفاً شاملاً بها، وهو تعريف يجاري في بعض جوانبه كتب (المسالك والممالك) فيشغل بالمدن والأنهار والقرى، لكنه لايهمل العادات والتقاليد.

16. وصف بلاد السند.ابن حوقل، من كتاب (صورة الأرض)

(وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام..فهي بلاد السند وشيء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة. وشرقي ذلك كله بحر فارس وغربيها كرمان ومفازة سجستان وأعمالها، وشماليتها بلاد الهند وجنوبيها مفازة ما بين مكران والقفص ومن ورائها بحر فارس، وإنما صار بحر فارس يحيط بشرقي هذه البلاد والجنوبي من وراء هذه المفازة من أجل أن البحر يمتد من صيمور على الشرقي إلى تيز مكران، ثم ينعطف على هذه المفازة إلى أن يتقوس على بلاد كرمان وفارس. والذي يقع من المدن في هذه البلاد فبناحية مكران التيز وكيز وفتربور ودزك وراسك، وهي مدينة الخروج وبه وبند وقصر قند واصفقه وفهلفهره ومشكى وقنبلى

وارمابيل، وبنواحي طوران من المدن مجاك وكيزكانان وسيوى وقصدار. وبنواحي البدهه من المدن قندابيل وهي أم الناحية، وأما نواحي السند وما يقع بها من المدن فالمنصورة اسمها باميراماں بالسندية، والديبل والنيرون وقالرى وانرى وبارى ومسواهي والفهرج وبانيه ومنجابرى وسدوستان والرور والجندرو. وأما مدن الهند فهي: قامهل وكنبايه وسوباره، ولها نواح جليلة واساول وجناول وسندان وصيمور وبني بتن إلى الجندرور والسندروذ، وهذه مدن الهند التي يملكها الإسلاميون. ولبلد الهند مواطن وأماكن وفجاج وأعماق كفرزان وقيوج في المفاوز، وأقطارها نائية وبراريها فسيحة لا يصل إليها تاجر من أهلها، ولا يمكن سافرة غيرها أن تردها لانقطاعها ونأيها وكثرة الآفات المعترضة على الطارئين إليها.

ومن كنبايه إلى صيمور هو بلد بلهرا صاحب كتاب الأمثال، ويدعى ملكهم باسم ناحيته كما قالوا غانه، وهو اسم الناحية ويتسمى الملك بها، وكذلك كوغه اسم المملكة واسم من يملكها والغالب على هذه الناحية الكفر، وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا إلا مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الأطراف التي يغلب عليها أملاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانه وكوغه. والمسلمون لا يقبلون أن يحكم عليهم إلا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا من في دعوتهم، وإن قل عددهم في بعض الممالك قبلوا من أهل الممالك المشار إليه في العفة، فإن جرحه الخصم وزكاه المسلمون أُمضيت شهادته وأُخذ الحق بقوله من المسلمين. وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات ويقام بسائرها الصلوات بالأذان في المنار والإعلان بالتكبير والتهليل، وهي مملكة عريضة. والمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله، ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه بالجزيرة، وأهلها مسلمون ملكها من قريش من ولد هبار بن الأسود وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم وإيثارهم على من سواهم غير أن الخطبة لبني العباس، وهي مدينة جرومية حارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثري، ولهم قصب سكر يعقد منه القند الغزير الكثير، وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنبج تقارب طعم الخوخ، وأسعارهم رخيصة وبها خصب، ونقودهم القندهاريات كل درهم منها خمسة دراهم، ولهم درهم يقال له الطاطري في الدرهم درهم وثمن، ويتعاملون بالدنانير أيضا وزيهم كزي أهل العراق غير أن زي ملوكهم يقارب زي ملوك الهند في الشعور والقراطق.

والملتان مدينة نحو المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر أصقاعها وتعظمه، ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين عليه منهم، وسميت الملتان باسم الصنم والصنم اسمه الملتان، ومكان هذا الصنم في قصر مبنى في أعمر موضع بسوق الملتان بينب سوق العاجين وصف الصفارين، وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيها ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه، وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الأوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم، وهذا الصنم صورة

على خلقه الإنسان مربع على كرسي من جص وآجر، وقد أُلبس الصنم جلدا يشبه السختيان أحمر فلا يتبين من جسده شيء إلا عيناه، فمنهم من يزعم ان بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك، غير انه لا يترك بدنه ينكشف وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وقد فرق أصابع يديه كمن يحسب أربعة. وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري أمير الملتان، وينفق على السدنة منه كفافهم، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على الملتان في انتزاع الصنم منهم، فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره وإحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخربوا الملتان. على الملتان حسن وبها منعة وهي خصبة رخيصة الأسعار، غير أن المنصورة أخصب وأعمر منها. وسميت الملتان بفرج بيت الذهب، لأنها فتحت في أول الإسلام وكان بالمسلمين إضافة وقحط، فوجدوا فيها ذهبا كثيرا فاتسعوا فيها بما وجدوه، وأهلها رغبة في القرآن وعلمه، والأخذ بالمقارىء السبعة والفقه وطلبة الأدب والعلم، وفيهم جساء وزعارة أخلاق، وبخارج الملتان على نصف فرسخ منها أبنية كثيرة تعرف بالجندرور، وهي معسكر الأمير ولا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلا في يوم الجمعة عند ركوبه الفيل، ويدخل فيصلي الجمعة بأهلها ويعود على الفيل إلى دار إمارته وهو من ولد سامة بن لؤي بن غالب، وليس في طاعة أحد وخطبته لبني العباس.

وأما بَسمد فمدينة صغيرة وهي الملتان دون الجندرور عن شرقي نهر الملتان، وهو نهر مهران وبين كل واحدة منهما وبين النهر نحو نصف فرسخ، وشربهم من الآبار، وبسمد هذه خصبة وتكتب بالباء والفاء. ومدينة الرور تقارب الملتان في الكبر وعليها سوران، وهي على شط نهر مهران أيضا وهي من حد المنصورة خصبة رفهة كثيرة التجارة. والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس، وليس لهم كثير شجر ولا نخيل وهو بلد قشف وإنما مقامهم للتجارة. والنيرون مدينة بين الديبل والمنصورة على نحو نصف الطريق وهي إلى المنصورة أقرب. وهي مقاربة في الحال لمنجابري على غربي مهران، وبها يعبر من جاء من الديبل إلى المنصورة وهي تجاهها. ومدينة مسواهي والفهرج وسدوستان كلها غربي مهران، وهي متقاربة في أحوالها، وانرى وقالرى فمن شرقي مهران أيضا على طريق المنصورة إلى الملتان، وهما بالبعد من شط مهران لهما عمل صالح، وهما متقاربتان في الحال والصلاح. فأما بللرى فعلى شط نهر مهران أيضا في غربيه وبقرب الخليج الذي ينفتح من مهران على ظهر المنصورة، وهي ناحية ومدينة مقتصدة صالحة الحال. وبانيه مدينة صغيرة ومنها عمر بن عبد العزيز الهباري القرشي الجواد الكريم المشهور حاله بالعراق في النبل والفضل، وهو جد المتغلبين على المنصورة ونواحيها. وقامهل مدينة من أول حد الهند إلى صيمور، ومن صيمور إلى قامهل فمن بلد الهند ومن قامهل إلى مكران فللبدهة، وما وراء ذلك إلى حد الملتان فجميعه من بلد السند.

والكفار في بلد السند هم البدهة وقوم يعرفون بالميذ، وهم قبائل مفترشة ما بين حدود طوران ومكران والملتان ومدن المنصورة، وهي في غربي مهران وهم أهل إبل والجمل الفالج الذي يرغب فيه أهل خراسان

وغيرهم من فارس وأشباهها لنتاج البخاتي البلخية والنوق السمرقندية. ومدينة البدهة التي يتجرون إليها ويقصدونها بحوائجهم قندابيل، والبدهة كالبادية من البربر، لهم أخصاص وآجام يأوون إليها وبطائح مياه يعيشون بينها. والميذ قوم على شطوط مهران من حد الملتان إلى البحر، ولهم في البرية بين مهران وقامهل مراع ومواطن ينتجعونها لمصيفهم ومشاتيهم وهم عدد كثير.وبقامهل وسندان وصيمور وكنبايه مساجد جوامع، وفيها أحكام المسلمين ظاهرة، وهي مدن خصبة واسعة وبها النارجيل ويستعملون منه الشراب فيسكرهم، وهو كالماء واللبن صفاء وبياضا ورقة يسمى الأطواق، والخل فيكون في غاية الحموضة ويستعملون المزر نبيذ أهل مصر، ولا والله ما أعرفه ولا أدري ما هو، إلا أني احسبه يجري مجرى العصيدة الرقيقة. والغالب على زروعهم الأرز ولهم العسل الكثير ولا نخيل لهم. والزاهوق وكلوان رستاقان متجاوران بين كيز وارمابيل. فأما كلوان ونواحيه فمن مكران، وأما الزاهوق فمن حد المنصورة ولها مباخس كثيرة وزروع واسعة وقرى غزيرة قليلة الثمر كثيرة المواشي والسائمة من كل نوع وجنس.

والطوران واد وقصبته تدعى طوران؛ وهو حصن في وسط الوادي وكان يلي عمله رجل من إخواننا يعرف بأبي القاسم البصري قضاء وإمارة وبندرة، وكان لا يعرف ثلاثة في عشرة بل كان رجلا من أهل القرآن. وقزدار مدينة لها رستاق ومدن والغالب عليها رجل يعرف بمعتز بن أحمد، يخطب لبني العباس ومقامه بمدينة كيزكانان، وهي ناحية خصبة الاسعار، وبها أعناب وفواكه الصرود ورمان حسن وليس بها نخيل. وبين بانيه وقامهل مفاوز، ومن قامهل إلى كنباية أيضا مفازة ثم يكون حينئذ من كنباية إلى صيمور قرى متصلة وعمارة للهند كثيرة واسعة. وزي المسلمين والكفار بها واحد في في اللباس وإرسال الشعر، ولباسهم الأرز والميازر لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زي أهل الملتان لباسهم الأرز والميازر، ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية. ومكران ناحية واسعة عريضة والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق، والمتغلب عليها رجل يعرف بعيسى بن معدان سهميا ومقامه بمدينة كيز، وهي مدينة نحو نصف الملتان وبها نخيل كثيرة وهي فرضة مكران، وبتلك النواحي التيز ويعرف بتيز مكران، وأكبر مدينة بمكران الفنجور وبه وبند وقصرقند ودزك وفهلفهره، وكلها مدن متقاربة في الاقتصاد وجميعها جروم، ولهم رستاق يدعى الخروج ومدينته راسك، ورستاق يدعى خرذان وبه فانيذ كثير وقصب سكر ونخيل، وعامة، الفانيذ الذي يحمل إلى الآفاق منها إلا شيء يحمل من ناحية ماسكان وبقصدار أيضا فانيذ، وسكان هذه الرساتيق الشراة وتتصل بنواحي كرمان من ناحية تسمى مشكى، وهي مدينة قد تغلب عليها رجل يعرف بمطهر بن رجاء ويخطب لبني العباس، ولا يذكر غيرهم ولا يطيع أحدا من الملوك الذين يصاقبونه وحدود عمله نحو ثلاث مراحل، وبها نخيل قليلة وفيها شيء من الفواكه الصرودية على أنها من الجروم. وارمابيل وقنبلى مدينتان كبيرتان وبينهما مقدار مرحلتين، وبين قنبلى والبحر نحو نصف فرسخ وهما بين الديبل ومكران ولهما سعة وفي أهلها يسار ومكنة. وقندابيل مدينة كبيرة وليس بها نخيل وهي في برية مفردة بذاتها وأعمالها وهي ممتار للبدهة. وبين كيزكانان وقندابيل رستاق يعرف بابل، وفيه مسلمون وكفار



وثنيون من البدهة، ولهم غلات وزروع وكروم ومواش واسعة وخصب وإبل وغنم وبقر، وأكثر زروعهم البخوس، وايل اسم رجل تغلب في القديم على هذه الناحية فهي تنسب اليه...

وأما أنهارهم فأعظمها نهر مهران ومخرجه من ظهر جبل يخرج منه بعض انهار جيحون، وتمده انهار كثيرة وعيون غزيرة ويظهر على توافره بناحية الملتان، فيجري على حد بسمد ويمر بالرور ثم على المنصورة حتى يقع في البحر شرقي الديبل وهو نهر كبير عذب جدا وفيه التماسيح كتماسيح النيل، وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الأمطار الصيفية ويرتفع على وجه الأرض ثم ينضب فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر. والسندروذ من الملتان على نحو ثلاثة أيام وهو نهر كبير عذب يفرغ إلى مهران قبل بسمد وبعد الملتان. ونهر الجندرور نهر أيضا كبير عذب طيب وعليه مدينة الجندرور ويفرع الى مهران دون السندروذ إلى نواحي المنصورة. والغالب على ارض مكران البوادي والزروع البخوس لأنها قليلة الأنهار جدا، وفيما بين المنصورة ومكران مياه من مهران كالبطائح عليها طوائف من السند يعرفون بالزط، فمن قارب منهم هذا الماء بهم بأخصاص كأخصاص البربر وطعامهم السمك، وطير الماء في جملة ما يغتذون به ولهم سموك كبار جليلة وليس اغذيتهم من السمك كأغذية اهل الشجر من سمك الورق الذي اكبر ما يكون منه كالإصبع ودونها. ومن بعد من الزط عن الشط في البوادي فهم كالأكراد يتغذون الألبان والاجبان وخز الذرة..)

وبلاد التبت التي تقع وسط البر الصيني الشاسع، وتتربع على نجود مترامية الأطراف، تدرج عادة ضمن تلك البلاد الشرقية. وياقوت الحموي يقدم خلاصة لما كان شائعاً في المرويَّات الإسلامية عن تلك البلاد، ويكاد يعتمد على المسعودي الشغوف بكل شيء، ولا ينسى البحث في أصول التبتيّن الذين يرجعهم إلى أصول حِميرية.

17. نجود التبت، ياقوت الحموي، من كتاب (معجم البلدان).

هي في الإقليم الرابع المتاخم لبلاد الهند.. وقرأتُ في بعض الكتب إن تبت سلكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة الشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك، ولهم مدُن وعمائر كثيرة ذوات سعة وقوة، ولأهلها حضر وبدو وبداويهم ترك لا تدرَك كثرة ولا يقوم لهم أحد من بوادي الأتراك، وهم معظمون في أجناس الترك لأن الملك كان فيهم قديماً. وعند أحبارهم أن الملك سيعود إليهم، وفي بلاد التبت خواص في هوائها ومائها وسهلها وجبلها ولا يزال الانسان بها ضاحكاً مستبشراً لا تعرض له الأحزان والأخطار والهموم والغموم يتساوى في ذلك شيوخهم وكهولُهم وشُبانُهم، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وأنهارها، وهو بلد تقوى فيه طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره. وفي أهله رقة طبع وبشاشة وأريَحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي وأنواع الرقص حتى إن الميت إذ مات لا يداخل أهله كثير الحزن كما يلحق غيرهم، ولهم تحنن بعضهم على بعض، والتبسّم فيهم عام حتى إنه ليظهر في وجوه بهائمهم، وإنما سميت تبت ممن ثبت فيه ووبث من رجال حِميَر.. وكان في حديث ذلك أن تُبّع الأقرن

سار من اليمن حتى عبر نهر جَيحون وطوي مدينة بخارى وأتى سمرقند وهي خراب؛ فبناها وأقام عليها، ثم سار نحو الصين في بلاد الترك شهراً حتى أتى بلاداً واسعة كثيرة المياه والكلإ، فابتنى هناك مدينة عظيمة، وأسكن فيها ثلاثين ألفاً من أصحابه ممن لم يستطع السير معه إلى الصين، وسماها ثبت... وأهلها فيما زعم بعضهم على زي العرب إلى هذه الغاية، ولهم فروسية وبأسٌ شديد، وقهروا جميع من حولهم من أصناف الترك وكانوا قديماً يسمون كل من ملك عليهم تُبّعاً اقتداء بأولهم ثم ضرب الدهر ضربه؛ فتغيرت هيآتهم ولغتهم إلى ما جاورهم من الترك، فسموا ملوكهم بخاقان.

والأرض التي بها ظِباءُ المسك التبتي والصيني واحدة متصلة، وإنما فضّل التبتي على الصيني لأمرين أحدهما أن ظباءَ التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاوية وظباءُ الصين ترعى الحشيش والأمر الآخر أن أهل التبت لا يعرضون لإخراج المسك من نوافجه وأهل الصين يخرجونه من النوافج فيتطرق عليه الغش بالدم وغيره، والصيني يقطع به مسافة طويلة في البحر فتصل إليه الأنداءُ البحرية فتفسده، وإن سلم المسك التبتي من الغش وأودع في البَرَاني الزجاج وأحكم عفاصها ورد إلى بلاد الإسلام من فارس وعُمَان وهو جيد بالغ، وللمسك حال ينقص خاصيته، فلذلك يتفاضل بعضه على بعض، وذلك أنه لا فرق بين غزْلاننا وبين غزلان المسك في الصورة ولا الشكل ولا اللون ولا القرون وإنما الفارق بينهما بأنياب لها كأنيابِ الفيلة فإن لكل ظبي نابين خارجين من الفكين منتصبين نحو الشبر أو أقل أو أكثر، فينصب لها في بلاد الصين وتُبت الحبائل والشرك والشباك فيصطادونها وربما رموها بالسهام فيصرَعونها ثم يقطعون عنها نوافجها والدم في سررها خام لم يبلغ الأنضاج، فيكون لرائحته زهوكة تبقى زمانا حتى تزول. وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا قطعت قبل النضج فإنها تكون ناقصة الطعم والرائحة، وأجودُ المسك وأخلصه ما ألقاه الغزال من تلقاء نفسه؛ وذلك أن الطبيعة تدفع سواد الدم إلى سرته فإذا استحكم لون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وأحدث له في سرته حِكة فيندفع إلى أحد الصخور الحادة فيحتك بها فيلتذ بذلك فينفجر ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الجِراح والدماميل إذا نضجت فيجد الغزال بخروج ذلك لذة، حتى إذا فرغ ما في نافجته وهي سرته..اندملت وعادت فدفعت إليه مواد من الله فتجتمع ثانية كما كانت أولاً، فتخرج رجال التُبت فيتبعون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال فيجدوا الدم قد جف على تلك الصخور وقد أمكن الانضاج، فيأخذونه ويودعونه نوافج معهم، فذلك أفضل المسك وأفخره فذلك الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بيني وتحمله التجار في النادر من بلادهم، ولتبت مُدُن كثير وينسبون مسك كل مدينة إليها ويقال: إن وادي النمل الذي مر به سليمان بن داود عليه السلام خلف بلاد التبت وبه معدن الكبريت الأحمر، قالوا: والتبت جبل يقال له: جبل السم إذا مر به أحد تضيق نفسه فمنهم من يموت ومنهم من يثقل لسانه).

ويقودنا الترحال إلى البحار والبراري حيث تتناثر الجزر والمدن، وسنختار منها أمثلة على ذلك أوردها الحميري.

18. جزر ومدن شرقية، الحميري، من كتاب (الروض المعطار)

(**جزيرة الكلب**: بالهند أو بالصين فيها معادن الذهب، ولا يتزوج الرجل منهم بامرأة إلا أن يكون صداقها قحف رأس قتله، فإن كان معه قحفان أو ثلاثة قيل هذا الرجل يرغب فيه ومثله يزوج فإنّ له بأساً وشدة وجَلداً، ولهم قتال بالحراب، وهم يصطادون الفيلة، ومن وراء هؤلاء الذين في هذه الجزيرة قوم يأكلون الناس يرمونهم بالسهام، فإذا قتلوا الرجل أكلوه، ومأواهم رؤوس الجبال، وهم عراة وألوانهم بيض ولهم جمال وحسن.

جالوس: جزيرة بالهند وأهلها قوم سود عراة يأكلون الناس وذلك أنه إذا سقط في أيديهم إنسان من غير بلادهم علقوه منكساً وقطعوه قطعاً. وذكر بعض رؤساء المراكب أن أهل هذه الجزيرة أخذوا رجلاً من أصحابه فنظر إليهم حتى علقوه وقطعوه قطعاً وأكلوه، وليس لهؤلاء القوم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيهة بالغياض والآجام وأكثر نباتهم الخيزران، وهم عراة لا يستترون بشيء وكذلك نساؤهم أيضاً، لا يستترون في النكاح بل يأتونه جهاراً ولا يرون بذلك بأساً، وربما فعل الرجل منهم بابنته وأخته، وليس يرى بذلك عاراً ولا قبيحاً، وهم سود مناكير الوجوه مفلفلو الشعور طوال الأعناق والسوق مشوهو الوجوه جداً.

ملاي: مدينة من جزيرة القمر من جزر الهند، وملكها لا يحجبه ولا يقوم بخدمته في طعامه وشرابه إلا المخنثون يلبسون الثياب النفيسة من الحرير الصيني والعراقي، وفي يمنى كل واحد منهم سوار ذهب، وهؤلاء المخنثون يتزوجون الرجال في عوض النساء، ويخدمون الملك بالنهار ويرجعون بالليل إلى أزواجهم، وفي هذه الجزيرة الزرع والنارجيل وقصب السكر، وبهذه الجزيرة من الخشب ما لا يوجد مثله في الأرض، وأهلها بيض قليلو اللحى يشبهون الأتراك، ويزعمون أن أصلهم من الترك. وملاي أيضاً جزيرة في البحر الصنفي كبيرة ممتدة من المغرب إلى المشرق ويسمى ملكها ملك الجزر ودراهمه فضة تسمى الطاطرية، وله أجناد وفيلة ومراكب كثيرة، وفيها موز ونارجيل وقصب سكر، وهي في آخر الصين.

الملتان: هي مدينة في آخر بلاد السند، وهي مجاورة لبلاد الهند، وهي نحو المنصورية في الكبر، وبعض الناس يجعلها من بلاد الهند، وبها صنم يعظمه أهل الهند ويحجون إليه من أقاصي بلدانهم ويتصدقون عليه بأموال جمة وحلي كثير وطيب تعظيماً له، وله خدام وعباد يأوون إليه وينفقون ويلبسون من ماله المتصدق به عليه، وسميت الملتان باسم الصنم، وهو على صورة الإنسان مربع على كرسي من جص وآجر، وقد ألبس جميع جسده جلداً أحمر فلا يتبين للإنسان من جسده شيء إلا عيناه، ولا يترك مكشوفاً، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرصع، والصنم متربع وماد ذراعيه على ركبتيه، وهو معظم عندهم جداً، وبيت هذا الصنم في وسط الملتان، وبأعمر سور فيها، وهو قبة عظيمة مزخرفة قد أتقن بنيانها وشيدت عمدها ولونت صنعتها وأوثقت أبوابها، والصنم فيها، وحول القبة بيوت يسكنها خدام هذا الصنم، وليس بالسند ولا بالهند قوم يعبدون الأوثان إلا هؤلاء الذين في هذا القطر مع هذا الصنم. والملتان مدينة كبيرة عامرة عليها حصن منيع، ولها



أربعة أبواب، وبخارجها خندق، ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة، وإنما سميت الملتان لأن معناها فرج بيت الذهب، وكان محمد بن يوسف أخو الحجاج أصاب فيها أربعين بهاراً من الذهب، والبهار ثلثمائة وثلاثة وثلاثون مناً، وكلها في بيت، فسمي ذلك فرج الذهب، والفرج الثغر؛ وللملتان نهر صغير عليه أرحاء ويصب في نهر مهران السند، والغالب على أهل الملتان أنهم مسلمون، والحكم فيهم لأهل الإسلام، ورئيسهم مسلم.

قمار: بلد أو جزيرة بالهند، إليها ينسب العود القماري، وهو جيد لكن العود الصنفي أجود منه، وبها الصندل والأرز، وأهلها يجالسون التجار ويعاملونهم، وفيهم عدالة ظاهرة وجودة مشهورة وإنصاف كامل، وعبادتهم الأصنام والبدود، وهم يحرقون موتاهم بالنار. قالوا: ومملكة قمار موازية لمملكة المهراج صاحب الجزائر. يحكى أن ملكاً من ملوك قمار تذوكر عنده يوماً عظم مملكة المهراج صاحب الجزائر وجلالتها، فقال لوزيره: في نفسي شهوة أحب بلوغها وكان حدثاً سفيهاً فقال: ما هي؟ قال: كنت أحب أن أرى رأس المهراج بين يديّ، فعلم الوزير أن الحسد أثار ذلك الفكر في نفسه، فأنكر الوزير ما سمع منه وقال: إنه لم يتقدم بين من سلف منا ومنهم خلاف ولا ترة فينبغي ألا يعيد الملك في هذا قولاً ولا يأخذ في هذا مع أحد، وبين موضع مملكة المهراج وقمار نحو عشرة أيام في البحر، فلم يسمع منه وأشاع ذلك في قواده حتى اتصل بصاحب المهراج، وكان محنكاً جزلاً، فأمر بإعداد ألف مركب بآلاتها وتجهيزها من حَمَلة السّلاح وأهل الغناء بما تحمله وأشاع أنه يريد التتره في جزائر مملكته، وكتب إلى ملوك الجزائر بما عزم عليه من زيارتهم وأمرهم بتلقيه مختلفين ليرهب على من والاه، فلما استتمت أموره أتى قاصداً إلى قمار، ويتصل بدار مملكة صاحبها نهر يصبّ في البحر فسيّر فيه رجاله فأتوه على حال غرة، وأخذ قواته واحتوى على مملكته، وأمر منادياً ينادي بالأمان في الناس، وقعد على سرير المملكة وقد أخذ صاحب السرير أسيراً فأحضره وأحضر وزيره وقرره على تمنيه فلم يحرْ جواباً، فقال له المهراج: أما أنك لو تمنيت مع الذي تمنيت إباحة أرض أو فسادها لأفسدت أرضك واستعملت ذلك كله فيك، ولكني لا أتعدى ما تمنيت لتكون عظة لمن بعدك، فضرب عنقه، وجعل رأسه في طست بين يديه، وقال للوزير: جزيت خيراً، فانظر من يصلح للملك بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه، وانصرف من ساعته راجعاً إلى بلده من غير أن يمد هو أو أحد من أصحابه يداً إلى شيء من بلاد قمار ولا ماله، وحمل الرأس معه، فلما قعد في مملكته أخبرهم خبره ثم أمر بالرأس فغسل وطيِّب وردَّه إلى الملك القائم ببلاد قمار، وكتب إليه: إنما حملنا على ما فعلناه بصاحبك بغيه علينا، وقد بلغنا منه ما أردنا، ورأينا ردّ رأسه إليك إذ لا درك في حبسه والسلام. واتصل الخبر بالملوك فعظم المهراج في أعينهم وصارت بعد ذلك ملوك قمار تؤم بوجوهها كل صباح إلى بلاد الزابج فتسجد تعظيماً للمهراج.

والهنود يمنعون من شرب الخمر المسكرة ويعيبون شاربها لا تديناً بل سياسة، وإذا صحّ عندهم ذلك في ملك من ملوكهم استحق الخلع، ولا يشربه من ملوكهم إلا صاحب جزيرة سرنديب، فإنه يحمل إليه من بلاد المغرب، وأشدهم ملك قمار فإنه يعاقب في السكر والزنا بالقتل، والزنا عند سائر ملوكهم مباح إلا في المحصنين، وملك قمار أشدهم غيرة، وهم يعافون الخل فيحمضون ماء الأرز ويستعملونه، والمُلْك مقصور في

أهل بيت وكذا القضاء والوزارة وسائر الرتب لا تغير ولا تبدل. قالوا: وأصل كتب الهند وسننهم من قمار، وحكمهم أن من ذبح بقرة ذُبِحَ بها، وعباد قمار لا يقربون المسلمين ويقولون إنهم أنجاس لأنهم يأكلون البقر، وسمع رجل من المسلمين رجلاً من كبار عبادهم يقول: كشرايدمشوق، ومعنى ذلك بالهندية: يا من ليس كمثله شيء، قال: فعجبت من ذلك وقلت له: أتعرف ما تقول؟ قال: أتعرفون أنتم ما تقولون؟ قلت له: فلم تعبدون الأصنام من دونه؟ قال: هذه قبلتنا يا جاهل. ومن عقوبة ملك قمار على شرب الخمر أن يحمي مائة حلقة من حديد بالنار ثم توضع على يدي الفاعل، فربما أتلفت نفسه، ومن رأوه من المسلمين يشرب فهو خسيس لا يعبأون به. ويقال إن في بلاد قمار، مائة ألف عابد وهم أصحاب تسبيح ومعهم سبح لا تفارقهم، ولملك قمار ثمانون قاضياً ولو ورد عليهم ولد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم ووجهوا عليه صريح الحكم، ولفراش ملك قمار أربعة آلاف امرأة.

جابة: جزيرة من جزر الهند.. ولها ملك اسمه جابة وقد تكون سميت به، وهو يلبس حلة الذهب وقلنسوة الذهب مكللة بالدر والياقوت، ودراهمه مطبوعة بصورته، وهو يعبد البد (= بوذا) والبدود هي الكنائس بلغة أهل الهند، وبد الملك حسن البناء والهيئة، وفي داخل البد أصنام من كل جهة مصنوعة من حجارة الرخام وعلى رؤوسها التيجان المكللة بالذهب، وصلاتهم في هذه الكنائس غناء وتلحين وتصفيق لطيف بالأكف وزفن الجواري الحسان ولعبهن فيكون ذلك كله بين أيدي المصلين والمجتمعين في البد، ولكل بد من تلك الجواري عدة يأكلن ويلبسن من مال البد، وإن المرأة إذا ولدت بنتاً حسنة الصورة جميلة القد تصدقت بها على البدود وإذا ترعرعت وشبت كستها أبلغ ما تقدر عليه من الثياب وأخذت أمها بيدها، وحولها أهلها نساء ورجالاً، وسيرتها إلى البد الذي تصدقت بها عليه وتدفعها إلى خدامه وتنصرف، فإذا صارت الطفلة بيد خدام البد دفعوها إلى نساء عارفات بالزفن وجمل اللعب مما تحتاج إليه، فإذا قبلت التعليم لبست أفضل الثياب وحليت بأرفع الحلى ولزمت البد ولم يكن لها خروج عنه ولا زوال، وكذلك سنة الهنديين الذين يعبدون البدود. وبهذه الجزيرة شجر النارجيل كثير والموز المتناهي طيباً وكثرة وبها قصب السكر والأرز.

خانقو: مدينة عظيمة في الصين على نهر عظيم أكبر من الدجلة أو نحوها يصب إلى بحر الصين، وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، تدخل هذا النهر سفن البحر الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائره بالأمتعة والجهاز، وبهذه المدينة خلائق من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس، وغيرهم من أهل الصين، وكان نزل بهذه المدينة في سنة أربع وستين ومائتين (هـــ) ثائر ثار على ملك الصين من غير بيت الملك تبعه أهل الدعارة والفساد، وكثر جنده فقصد هذه المدينة فحاصرها وأتته جيوش الملك فهزمها واستباح الحريم، وافتتح هذه المدينة عنوة وقتل من أهلها خلقاً لا يحصون كثرة، وأحصي من المسلمين واليهود والنصارى ممن قتل وغرق مائة ألف، وإنما أحصي ما ذكرناه من العدد لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها وممن جاورها من الأمم وصار ذمة لها في دواوين لها، وكتاب قد وكلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم، وقطع هذا الثائر ما كان حول مدينة خانقو من غابات التوت إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه من طعم لدود القز الذي ينتج منه الحرير.

ومدينة خانقو هي المرقى الأعظم من مراقي الصين، وهي على جون يصعد فيه إلى كثير من بلاد البغبوغ وهو ملك الصين بأسرها لا ملك فوقه بل كل ملوك ذلك المكان تحت طاعته، والذكر له، ويقال إن بالصين ثلثمائة مدينة كلها عامرة وفيها عدة ملوك كلهم تحت طاعة البغبوغ، ويقال له ملك الملوك، وهو حسن السيرة عادل في رعيته، رفيع في همته، قاهر في سلطانه، مصيب في آرائه، حازم في اجتهاده، لطيف في حكته، وهاب في عطائه، ناظر في الأمور القريبة والبعيدة، بصير بالعواقب، وله في قصره مجلس قد أتقن بنيانه وأحكم سمكه وأبدعت مجالسه، له فيه كرسي ذهب يجلس عليه ووزراءه حوله، وعلى أعلى رأسه جرس معلق تمتد منه سلسلة ذهب إلى خارج القصر ويتصل طرف السلسلة إلى أسفل القصر، فإذا جاء المظلوم بكتاب مظلمته اجتذب طرف السلسلة فتحرك الجرس فيخرج وزير الملك يده من الطاق كأنه يقول للمظلوم اصعد، فيصعد المظلوم إلى المجلس على درج مختص بصعود المظلومين عليه حتى يقف بين يدي الملك فيسجد المظلوم ثم يقف، فيمد الملك يده إلى المظلوم ويأخذ الكتاب فينظر فيه ثم يدفعه إلى وزرائه، ويحكم له بما يوجب له الحكم وبما يقتضيه مذهبه وشرعه من غير تسويف ولا تطويل ولا وساطة وزير ولا حاجب، ومع ذلك فإنه مجتهد في دينه مقيم لشريعته ديان محافظ كثير الصدقة على الضعفاء، ودينه عبادة البدود، وأهل الهند والصين كلهم لا ينكرون الخالق ويثبتونه بحكمته وصنعته الأزلية، ولا يقولون بالرسل ولا الكتب، وفي كل حال لا يفارقون العدل والإنصاف. وبخانقو ملك مهيب له مملكة شامخة وفيلة كثيرة وأجناده يأكلون الأرز والنارجيل والألبان وقصب السكر. ومدينة خانقو مرفأ الصين وهي على نهر عذب يخترقها قد عقد عليه الجسور وعلى أحد جانبيه أسواق العرب والفرس، ومن الجانب الآخر أسواق أهل المدينة، ولهم رواء وأمانة وصدق لهجة، وبها ضياع وقوم يتخذون الغضارات الصينية والحرير الصيني وإذا جن الليل قرع الطبل في الجانبين وانصرف كلا الفريقين إلى مواضعهم فمن وجد بعد ذلك في سوق أدب وغرم.

سرنديب: جزيرة بالهند في بحرهم المسمى هركند، وهي جزيرة كبيرة مشهورة الذكر، وهي ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً. وبجزيرة سرنديب هيكل عظيم من ذهب يفرطون في مبلغ زنته وقيمة الجوهر الذي عليه، وإليه يجتمع أهلها فيتدارسون سير آبائهم وقصص ملوكهم. وبهذه الجزيرة نزل آدم عليه السلام حين أهبط من الجنة، نزل على جبل الرهون منها وهو جبل سامي الذروة عالي القمة ذاهب في الجو، يراه البحريون من مراكبهم عن مسيرة أيام، وهو الذي ذكر أن آدم عليه السلام أهبط عليه، وعلى هذا الجبل يتلألأ نور يشبه البرق الدائري، عليه دائماً وحوله أنواع الياقوت الأحمر والأصفر والأكحل، والأحمر أشرفها وأنفسها لأنه إذا ألقي في النار ازداد حمرة وحسناً، وإن كانت فيه نكتة شديدة الحمرة وجعلت في النار انبسطت في الحجر تلك الحمرة فحسنته ولونته، ومبارد الحديد لا تؤثر في جميع ألوان الياقوت، والأصفر أقل صبراً على النار من الأحمر، وأما الأكحل فلا صبر له، قالوا: ومن تقلد حجراً أو تختم به من هذه الأصناف الثلاثة من الياقوت وكان في بلد قد وقع فيه الطاعون منع أن يصيبه ما أصاب أهل ذلك البلد. ويذكر البراهمة، وهم عباد الهند، أن على هذا الجبل أثر قدم آدم عليه السلام مغموس في الحجر، وطوله سبعون ذراعاً، وأن على هذا

الأثر نوراً يخطف شبيهاً بالبرق دائماً، وأن القدم الثانية منه جاءت في البحر عند خطوته، والبحر من الجبل على مسيرة يومين أو ثلاثة، وفي وادي هذا الجبل الماس الذي يحاول به نقش الفصوص من أنواع الحجارة، وعلى هذا الجبل أنواع من الطيب وضروب من صنوف العطر مثل العود والأفاويه ودابة المسك ودابة الزباد، وبه الأرز والنارجيل وقصب السكر، وفي أنهاره يوجد جيد البلور وكبيره. وبجميع سواحل هذه الجزيرة مغايص اللؤلؤ الجيد النفيس المثمن.

وفي جزيرة سرنديب قواعد كثيرة، وملك هذه الجزيرة يسكن أغنا، وهي مدينة القصر، وبها دار ملكه، وهو ملك عادل كثير السياسة ناظر في أمور رعيته حافظ لهم ذاب عنهم، وله ستة عشر وزيراً: أربعة من أهل ملته وأربعة نصارى وأربعة مسلمون وأربعة يهود، وقد رتب لهم موضعاً تجتمع فيه أهل الملل وتكتب حججهم وأخبارهم، ويجتمع إلى علماء كل ملة: الهندية والرومية والإسلامية واليهودية، جمل من الناس وعدة طوائف، فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وقصص ملوكهم في سائر الأزمان ويعلمونهم ويفهمونهم ما لا يعلمونه، وللملك في بده صنم من ذهب لا يدرى لما عليه من الدر والياقوت وأنواع الأحجار أثمان، وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس والياقوت الجليل وأنواع الأحجار لأن أكثر ذلك يوجد في جبال جزيرته وفي أوديتها وبحرها، وإليها تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له. وملك سرنديب تحمل إليه الخمر من العراق وفارس فيشتريها بماله وتباع له في بلاده، وهو يشرب ويحرم الزنا ولا يراه، وملوك الهند وأهلها يبيحون الزنا ويحرمون الشراب المسكر. ويجلب من سرنديب الحرير والياقوت بجميع ألوانه كلها والبلور والماس والسنباذج وأنواع من العطر كثيرة. ولأهل سرنديب نظر في زراعة النارجيل، ويقومون بحفظه ويبيحونه للصادر والوارد ابتغاء الأجر وطلب المثوبة، وأهل عمان وغيرها من بلاد اليمن ربما قصدوا إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل، فيقطعون من خشب النارجيل ما أحبوه ويصنعون من ليفه حبالاً يحرزون به ذلك الخشب وينشئون منه مراكب ويصنعون منه صواريها، ويفتلون من خوصه حبالاً، ثم يسقون تلك المراكب بخشب النارجيل ويمضون بها إلى بلادهم، فيبيعونه هناك ويتصرفون به.قالوا: ولما نزل آدم عليه السلام، على جبل الرهون من هذه الجزيرة وعليه الورق الذي خصفه فيبس فذرته الرياح في بلاد الهند، فيقال، والله أعلم، أن علة كون الطيب بأرض الهند من ذلك الورق، وقيل غير ذلك، ولذلك خصت أرض الهند بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب، وكذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت.قالوا: ولما أهبط آدم عليه السلام من الجنة أخرج معه منها صرة من الحنطة وثلاثين قضيباً من شجر الجنة مودعة أصناف الثمار، وقيل أهبط آدم عليه السلام قبل غروب الشمس من اليوم الذي خلق فيه بالهند على جبل يقال له مود، وقبل سرنديب.. وهو المشهور الذي لا يدفعه علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل.).

يخيّل لنا أن النصوص السابقة التي رتّبناها بحيث تضيء الأبعاد التاريخية والجغرافية والثقافية والدينية للهند والصين والمناطق المجاورة لهما، قد أفلحت في كشف الملامح العامة لبلاد متنوعة في كل شيء. لكنّ الأمر الذي يكتسب -من وجهة نظرنا- أهمية بالغة هو تقديم المدونات الارتحالية المشبعة بالمعلومات والتصورات،



والتي قام بها نخبة من الرحالة لأسباب مختلفة كالتجارة والتعلّم وحب الاستطلاع، وكما كان للرحلات البرية قيمة خاصة بها، فإن الرحلات البحرية إلى الشرق كانت ظاهرة متميزة في أدب الرحلات، ويحسن أن تكون البداية مع رحلة سليمان التاجر المتقدّمة زمنيا على غيرها، فقد ارتحل إلى تلك البلاد نحو عام 237هـ=851 وسنجد بعد قليل أن بلاد الهند والصين كانت مثار رغبة دائمة للرحالة والجغرافيين وغيرهم.

19. رحلة التاجر سليمان البحرية إلى بلاد الهند والصين، أوردها السيرافي في كتاب (رحلة السيرافي)

(البحر الذي بين بلاد الهند والسند..وفيه...غوز وماغوز (=لعله يقصد بلاد يأجوج ومأجوج)، وجبل قاف، وبلاد سرنديب، وفتح أبو حبيش، وهو الرجل الذي عاش من العمر مائتين وخمسين سنة وكان في بعض السنين نزل في الماغوز فرأى أبو حبيش الحكيم السواح فأتى به إلى البحر وروّاه سمكة مثل الشراع، وربما رفع رأسه عن الماء فتراه كالشيء العظيم (= الحوت)، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة، فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه، ثم يفتح فمه فيرى السمك في جوفه يغيض كأنه يغيض في بئر، والمراكب التي تكون في البحر تخافه فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن تتكيء على المركب فتغرقه. وفي هذا البحر سمكة اصطدناها يكون طولها عشرين ذراعا فشققنا بطنها فأخرجنا منها أيضا سمكة من جنسها، ثم شققنا بطن الثانية فإذا في بطنها مثلها، وكل هذا حي يضطرب يشبه بعضه بعضا في الصورة، ولهذا السمك الكبير الذي يدعي الوال (= البال، جنس من الحيتان الضخمة) مع عظم خلقه سمكة تدعى اللشك طولها قدر ذراع فاذا طغت هذه السمكة وبغت وآذت السمك في البحر، سلطت عليها هذه السمكة الصغيرة، فصارت في أصل إذنها ولا تفارقها حتى تقتلها. وتلتزق (= تلتصق) بالمركب فلا تقرب المركب هذه السمكة الكبيرة فرقا من الصغيرة. وفي هذا البحر أيضا سمكة يحكى وجهها وجه الانسان تطير فوق الماء، واسم هذا السمك الميج، وسمك آخر من تحت الماء يرصده حتى إذا سقط ابتلعه ويسمى هذا السمك العَنقتُوس والسمك كله يأكل بعضه بعضا. والبحر الثالث بحر هركند وبينه وبين بحر دلاروى جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة، وهي فرق ما بين هذين البحرين دلاروى وهركند. وهذه الجزائر تملكها امرأة ويقع في هذه الجزائر عنبر عظيم القدر، فتقع القطعة مثل البيت ونحوه، وهذا العنبر ينبت في قعر البحر نباتا، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة.وهذه الجزائر التي تملكها المرأة، عامرة بنخل النارجيل (= جوز الهند) وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلاثة وأربعة، وكلها عامرة بالناس والنارجيل، وما لهم الودع وهذه الملكة تذخر الودع في خزائنها، ويقال إن أهل هذه الجزيرة لا يكون أصنع منهم، حتى انهم يعملون القميص مفروغا منه نسجا بالكمين والدخريصين والجيب، ويبنون السفن والبيوت، ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة، والودع يأتيهم على وجه الماء، وفيه روح فتؤخذ سعفه من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع وهم يدعونه الكبتَج.

وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند، وهي رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الدبيجات وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ بحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام، وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر: في رأس هذا الجبل قدم واحدة. ويقال إنه عليه السلام خطا خطوة أخرى في البحر، ويقال: إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعا وحول هذا الجبل معدن جوهر الياقوت الأحمر والأصفر والاسمانجوني (= حجر قيل إنه يديم السرور في النفس). وفي هذه الجزيرة ملكان، وهي جزيرة عظيمة عريضة فيها العود، والذهب والجوهر، وفي بحرها اللؤلؤ والشنك، وهو هنا البوق الذي ينفخ فيه مما يدخرونه. وفي هذا البحر إذا ركب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة، غير أنها واسعة لا تضبط، منها: جزيرة يقال لها الرامني فيها عدة ملوك، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخا، وفيها معادن الذهب، وفيها معادن تدعى فنصور يكون الكافور الجيد منها. ولهذه الجزائر جزائر تليها منها: جزيرة يقال لها النيان لهم ذهب كثير وأكلهم النارجيل، وبه يتأدمون ويدهنون، وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوج اثنتين، وكذلك إن قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفا، وسب ذلك أن أعدائهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كان رغبتهم فيه أوفر. وفي هذه الجزائر أعنى الرامني فيلة كثيرة، وفيها البقم (= شجر شديد المرارة) والخيزران. وفيها: قوم يأكلون الناس، وهي تشرع على بحرين هركند وشلاهط. وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقا من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون إليه من كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد.ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما اندامان وأهلها يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، فرج أحدهم مثل الذراع، يعني ذكره، عراة ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم، وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفذ ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر.

وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق، يقال: إن فيها معادن فضة وليست بمسكونة، وليس كل مركب يريدها يصيبها، وإنما دل عليها جبل منها يقال له الخشنامي، مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له فلما أصبحوا انحدروا إليه في قارب ليحتطبوا وأوقدوا نارا فانسكبت الفضة فعلموا أنه معدن فاحتملوا ما أرادوا منه، فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه، ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه. ومثل هذا في البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون، فمنها مالا يقدرون عليه. وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيغلي له ماء البحر مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر، فلا أدري أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا؟ وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلى كغليان القدور، فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ويكسر المراكب،

ويقذف السمك الميت الكبار العظام، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم. وأما بحر هركند فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش فيغلي لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير، وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعرا كان العنبر أجود، وهذا البحر- أعني هركند- إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد. وفي هذا البحر سمك يدعى اللخم وهو سبع يبتلع الناس في أيديهم كل هذه فيقل المتاع، ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بـــ (خانقوا) وهو مرفأ السفن، ومجتمع تجارات العرب، وأهل الصين، فيأتي الحريق على المتاع، وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق، ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل فيبيعوا المتاع في غير بلاد العرب، وربما رمت بهم الريح إلى اليمن أو غيرها فيبيعون المتاع هناك، وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

وذكر سليمان التاجر أن في (خانقوا) وهو مجتمع التجار رجلا مسلما يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك، وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين، وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئا في أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام. فأما المواضع التي يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف (= مدينة على الساحل الإيراني من الخليج) وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيعبأ في السفن االصينية بسيراف؛ وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا فإذا عُبّى المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء، وخطفوا (= اقلعوا) إلى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عمل عمان، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ. وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن كاوان، وفي غربي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذي يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار، ولا تسلكه السفن الصينية، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير، فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان فيستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك جبل فيه غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملي (= مدينة في المليبار)، والمسافة من مسقط الى كولم ملي شهر على اعتدال الريح، وفي كولم ملي مسلحة لبلاد كولم ملي تجيء السفن الصينية، وبها ماء عذب من آبار فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى عشرين دينارا. وبين مسقط وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر، وبكولم ملي يستعذبون الماء، ثم تخطف المراكب إلى بحر هركند، فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات، وهم قوم لا يلبسون الثياب، بيضا كواسج، وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء، وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر والموز، وشراب النارجيل: وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل، فهو حلو مثل العسل، فإذا ترك ساعة صار شرابا، وإن بقى أياما صار خلا، فيبيعون ذلك بالحديد، وربما وقع

إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وانما يتبايعون بالإشارة يدا بيد إذ كانوا لا يفهمون اللغة، وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطوهم شيئا.

ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاة بار المملكة والساحل كل يقال له كلاه بار وهي مملكة الزابج متيامنه عن بلاد الهند يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط يلبس السرى والدني منهم الفوطة الواحدة، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر.ومسافة ما بين كولم وهي قريبة من هركند إلى كله بار شهر، ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له بتومة وبها ماء عذب لمن أراده، والمسافة إليها عشرة أيام. ثم تخطف المراكب الى موضع يقال له كدرنج عشرة أيام، وفيها ماء عذب لمن أراده، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد فيها الماء العذب، وبها جبل مشرف، وربما كان فيه الهراب من العبيد واللصوص. ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صنف مسيرة عشرة أيام، وبها ماء عذب، ومنه يؤتي بالعود الصنفي، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين، فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صندرفولات وهي جزيرة في البحر، والمسافة إليها عشرة أيام، وفيها ماء عذب، ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صنجى (= بحر الصين) ثم إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب ثم إلى الصين. فإذا سلم الله من صندر فولات خطف المراكب إلى الصين في شهر إلا أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام. فإذا جاوزت السفينة الأبواب ودخلت الخور صارت إلى ماء عذب إلى الموضع التي ترسى إليه من بلاد الصين، وهو يسمى خانقو: مدينة، وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق في كل ناحية. وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة، إلا أن المد يكون فيما يلي البصرة إلى جزيرة بنى كاوان إذا توسط القمر السماء، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه، والمد يكون بناحية الصين إلى قريب من جزيرة بني كاوان إذا طلع القمر، فإذا توسط السماء جزر الماء، فإذا غاب كان المد، فإذا كان في مقابلة وسط السماء جزر.

وذكروا: أن فيه جزيرة يقال له ملجان فيما بين سرنديب وكله، وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير، وهم في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيه بالغياض والآجام. وذكروا أن في ناحية البحر سمكا صغيرا طيارا يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء. وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر. وذكروا: أن في البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجرا، قال: يتخذ منه كحل لبعض علل العين. وذكروا أن بقرب الزابج جبلا يسمى جبل النار لا يقدر على الدنو منه، يظهر منه بالنهار دخان، وبالليل لهب نار، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة، وعين حارة عذبة. ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير، وفي الشتاء والصيف، فأما الملوك فالجيد من الحرير، ومن دونهم فعلى قدرهم، وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين، والثلاثة، والأربعة، والخمسة، وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم،

وإنما قصدهم أن يدفوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه، فأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك ولا يلبسون العمائم وطعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان فصبوه على الأرز فأكلوه، فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة، واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها.ولهم من الفاكهة التفاح، والخوخ، والأترج، والرمان، والسفرجل، والكمثرى، والموز، وقصب السكر، والبطيخ، والتين، والعنب، والقثاء، والخيار، والنبق، والجوز، واللوز، والجلوز، والفستق، والاجاص، والمشمش، والغبيراء، والنارجيل، وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة في دار أحدهم.وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف (= الحلوى) وما أشبه ذلك، وليس لهم نظافة ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية ويأكلون الميتة وما أشبهها مما يصنعه المجوس فإن دينهم يشبه دين المجوس، ونساءهم يكشفن رؤوسهم ويجعلن فيها الأمشاط فربما كان في رأس المرأة عشرون مشطا من العاج وغير ذلك، والرجال يغطون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس، وسنتهم في اللصوص أن يقتل اللص إذا أصيب.

أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة، فأول من يعدون من الأربعة: ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه أنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالا وأبهاهم جمالا، وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء، ثم يعدّ ملك الصين نفسه بعد الملك بلهرا ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهرا ملك المخرّمى الآذان. فأما بلهرا هذا فإنه أشرف الهند، وهم له مقرّون بالشرف. وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه غير أنهم مقرّون لهذا، فإذا وردت رسله على سائر الملوك صلّوا لرسله تعظيما له، وهو ملك يعطي العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة والمال الكثير، وماله دراهم تدعى الطاطرية، وزن كل درهم درهم ونصف بسكة الملك، وتاريخه في سنة من مملكة من كان قبله، ليس كسنّة العرب من عصر النبي عليه السلام بل تاريخهم بالملوك، وملوكهم يعمّرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة، ويزعم أهل مملكة بلهرا: إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبّتهم للعرب، وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه، وكذلك أهل مملكته. وبلهرا (= ملك الملوك) إسم لكل ملك منهم ككسرى ونحوه، وليس باسم لازم . وملك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر وهي بلاد تدعى الكمكم متصلة على الأرض إلى الصين وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم. فمنهم ملك يدعى ملك الجرز وهو كثير الجيش ليس لأحد من الهند مثل خيله، وهو عدّو العرب غير أنه مقرُ أن ملك العرب أعظم الملوك وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه، وهو على لسان من الأرض وأموالهم كثيرة وإبلهم ومواشيهم كثيرة، ويتبايعون بالفضة التبر، ويقال إن لهم معادن وليس في بلاد الهند آمن من السرقة منها، والى جانبه ملك الطافق وهو قليل المملكة ونساؤهم بيض أجمل نساء الهند، وهو ملك موادع لمن حوله لقلّة جيشه، وهو يحب العرب كحب بلهرا. ويلي هؤلاء ملك يقال له رهمي يقاتله ملك الجرز، وليس له شرف في الملك وهو أيضا يقاتل بلهرا كما يقاتل ملك الجرز، ورهمي هذا أكثر جيشا من ملك بلهرا ومن ملك الجرز ومن الطاقي (= الطافن)، ويقال: إنه إذا

خرج إلى القتال يخرج في نحو من خمسين ألف فيل، ولا يخرج إلا في الشتاء لأن الفيلة لا تصبر على العطش، فليس يسعه إلا الخروج في الشتاء، ويقال: إن قصارى عسكره نحو من عشرة ألف إلى خمس عشر ألفا . وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها، يدخل الثوب منها في حلقه خاتم دقة وحسنا، وهو من قطن، وقد رأينا بعضها، والذي ينفق في بلاده الودع وهو عين البلاد يعني مالها. وفي بلاده الذهب والفضة والعود والثياب الصمر الذي يتخذ منه المذاب (= المراوح).

وفي بلاده البُشان المعلم وهو الكركدن (= وحيد القرن) له في مقدم جبهته قرن واحد، وفي قرنه علامة، صورة خلقه كصورة الإنسان في حكايته، القرن كله أسود والصورة بيضاء في وسطه، وهذا الكركدن دون الفيل في الخلقه إلى السواد ما هو، ويشبه الجاموس، قوى ليس كقوته شيء من الحيوان وليس له مفصل في ركبته ولا في يده، وهو من لدن رجله إلى إبطه قطعة واحدة، والفيل يهرب منه، وهو يجتر كما تجتر البقر والإبل، ولحمه حلال قد أكلناه، وهو في هذه المملكة كثير في غياضهم وهو في سائر بلاد الهند، غير أن قرون هذا أجود، فربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور، وأهل الصين يتخذون منها المناطقة (= الأحزمة) وتبلغ المنطقة ببلاد الصين ألفي دينار وثلاثة ألف وأكثر على قدر حسن الصورة، وهذا كله يشترى من بلاد دُهرم بالودع وهو عين البلاد. وبعده ملك داخل ليس له بحر يقال له ملك الكاشبين وهم قوم بيض مخرموا الآذان، ولهم جمال، وهم أصحاب بدوٍ وجبال . وبعده بحر عليه ملك يقال له القيرنج وهو ملك فقير فخور، يقع إليه العنبر الكثير، وله أنياب فيلة وعنده فلفل يوكل رطبا لقلته. وبعد هذا ملوك كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى، منهم الموجه وهم قوم بيض يشبهون الصين في اللباس، ولهم مسك كثير، وفي بلادهم جبال بيض ليس شيء أطول منها، وهم يقاتلون ملوكا كثيرة حولهم، والمسك الذي يكون في بلادهم جيد بالغ.

ومن ورائهم ملوك المابد مدائنهم كثيرة، وهم إلى حيث الموجه وأكثر من الموجة غير أن المابد أشبه بالصين منهم، ولهم خدم خصيان مثل الصين عمال عليهم، وبلادهم تتصل ببلاد الصين وهم مصالحون لصاحب الصين، غير أنهم لا يسمعون له. وللمابد في كل سنة رسل إلى ملك الصين وهدايا، وكذلك ملك الصين يهدي إليه وبلادهم واسعة وإذا دخلت رسل المابد بلاد الصين حُفظوا مخافة أن يغلبوا على بلادهم لكثرتهم، وليس بينهم وبين بلاد الصين إلا جبال وعقاب. ويقال إن لملك الصين من أمهات المدائن أكثر من مائتي مدينة، ولكل مدينة ملك وخصى وتحت كل مدينة مدائن .فمن مدائنهم خانقو، وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة، وإنما تسمى مدينة إذا كان لها الجادم، والجادم مثل البوق ينفخ فيه وهو طويل وغلظة ما يجمع الكفين جميعا، وهو مطلي بدواء الصينيات وطوله ثلاث أو أربع أذرع، ورأسه دقيق بقدر ما يلتقمه الرجل، ويذهب صوته نحوا من ميل، ولكل مدينة أربعة، فعلى كل باب منها من الجادم خمسة تنفخ في أوقات من الليل والنهار، وعلى كل باب مدينة عشرة طبول تضرب معه، وإنما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك، وبه يعرفون أوقات الليل والنهار، ولهم علامات ووزن للساعات. ومعاملاتهم بالفلوس، وخزائنهم كخزائن



الملوك، وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم، وهي عين البلاد، ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج والحرير، كل ذلك كثير عندهم، غير أن ذلك متاع، والفلوس عين، وتحمل إليهم العاج واللبان وسبائك النحاس، والذبل من البحر وهي جلود ظهور السلاحف، وهذا البُشان الذي وصفنا، هو الكركدن يتخذون من قرونه مناطق، ودوابهم كثيرة، وليس لهم خيل عربية بل غيرها، ولهم حمير وإبل كثيرة لها سنامان، ولهم الغضار الجيد (= الخزف)، ويعمل منه أقداح في رقة القوارير يُرى ضوء الماء فيه، وهو من غضار.

وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم، وصيّروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين، ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي إلى التجار، وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجّله، ولم يظلم فيه، ومما يأخذون الكافور المنّ (= وزن رطلين) بخمسين فكوّجا، والفكوّج ألف فلس، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان يساوي نصف الثمن خارجا. وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يُدفن إلا في اليوم الذي مات في مثله من قابل، يجعلونه في تابوت، ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النورة (= الكلس)، فتمص ماءه ويبقى، والملوك يجعلون في الصبر والكافور، ويبكون على موتاهم ثلاث سنين، ومن لم يبك ضُرب بالخشب، كذلك النساء والرجال، ويقولون: إنه لم يحزنك ميتك، ويدفنون في ضريح كضريح العرب، ولا يقطعون عنه الطعام، ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئا، فيقولون قد أكل، ولا يزالون في البكاء والإطعام ما بقى الميت في مترلهم، فيفتقرون على موتاهم، فلا يبقى لهم نقد ولا ضيعة إلا أنفقوه عليه، وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته من ثياب ومناطق، ومناطقهم تبلغ مالا كثيرا، وقد تركوا ذلك الآن، وذلك أنه نبش بعض موتاهم وأخذ ما كان معه. والفقير والغني من أهل الصـــين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة.

واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن، فما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها طوسنج، ومعنى طوسنج أقام المدينة، وما كان من مدينة مثل خانقو قاسم ملكها ديفو، والخصى يدعى الطوقام وخصيانهم منهم مسلولون، وقاضي القضاة يقال له لقشى مامكون ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه، وليس يملك أحد منهم لأقل من أربعـــين سنة، يقولون: قد حنكته التجارب. والملوك الصغار إذا قعد أحدهم يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسي وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لينجون إذا زل الملك في شي مما يأمر به وأخطأ رده، وليس يعبئون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ ردّه، فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب في الكتاب: كتبه فلان بن فلان، فان كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط، وأرزاق كل ملك من بيت مال مدينته. فأما الملك الأكبر فلا يُرى إلا في كل عشرة أشهر، يقول إذا رآني الناس استخفوا بي، والرئاسات لا تقوم إلا بالتجبر، وذلك أن العامة لا تعرف العدل فينبغي أن يستعمل معهم التجبر لنعظم عندها. وليس على أرضهم خراج ولكن عليهم جزية على



الجماجم الذكور حسبما يرون من الأحوال، وإن كان بها أحد من العرب أو غيرهم أخذ منه جزية ماله ليحرز ماله . وإذا غلا السعر أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلاء، والذي يدخل بيت المال إنما هو من الجزية التي على رؤوسهم، وأظن أن الذي يدخل بيت مال خانقو في كل يوم خمسون ألف دينار على أنها ليست بأعظم مدائنهم. ويختص الملك من المعادن بالملح، وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له الساخ(= الشاي)وهو أكثر ورقا من الرطبة وأطيب قليلا وفيه مرارة فيغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شيء. وجميع ما يدخل بيت المال الجزية والملح وهذا الحشيش.

وفي كل مدينة شيء يدعى الدّرا وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط ماد على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك . ومن أراد سفرا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصّى، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأما كتاب الخصّى فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لان في طريقهم مسالح (= نقاط تفتيش مسلحة) ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد عليها فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعا، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، علم كيف ذهب، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده .

وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديوان، فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتابا، وكتب الذي عليه الدّين أيضا كتابا، وعلّمه بعلامة بين إصبعيه الوسطى والسبابة، ثم جُمع الكتابان فطويا جميعا، ثم كتب على فصلهما، ثم فُرق فأعطى الذي عليه الدين كتابه بإقراره، فمتى جحدا أحدهما غريمه، قيل له: أحضر كتابك، فان زعم الذي عليه الدّين انه لا شيء له ودفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق، قيل للجاحد الذي عليه الحق: أحضر كتابا بأن هذا الحق ليس عليك، فمتى ما بيّن عليك صاحب الحق الذي جحدته فعليك عشرون خشبة على الظهر، وعشرون ألف فكّوج فلوسا، والفكوج ألف فلس يكون ذلك قريبا من ألفي دينار، والعشرون الخشبة فيها موته، فليس يكاد أحد ببلاد الصين يُعطى هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، و لم نر أحدا أجاب إلى ذلك. وهم يتناصفون بينهم وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين. وإذا أفلس رجل بمال قوم فحبسه الغرماء بأموالهم عند السلطان، أخذ إقراره، فإن لبث في السجن شهرا أخرجه السلطان فنادى عليه: انّ هذا فلان بن فلان أفلس بمال فلان بن فلان فإن يكن له عند أحد وديعة أو كان له عقار أو رقيق أو ما يحيط بدينه أخرج في كل شهر فضرب خشبات على استه، لأنه أقام في الحبس يأكل ويشرب وله مال، فهو يُضرب أقر له أحد بمال أو لم يقر له فهو يضرب على كل حال،

يقال: ليس لك عمل إلا اخذ حقوق الناس والذهاب بها، ويقال له: احتل حقوق هؤلاء القوم فإن لم يكن له حيلة وصح عند السلطان أنه لا شيء له دُعي الغرماء فأعطوا من بيت مال البغبون وهو الملك الأعظم وإنما سمي البغبون ومعناه ابن السماء، ونحن نسميه المغبون، ثم ينادى: من بايع هذا فعليه القتل، فليس يكاد يذهب لأحد مال، وأن عُلم أن له عند أحد مالا و لم يقر المودع بالمال قتل بالخشب، و لم يقل لصاحب المال شيء فيؤخذ المال ويقسم على الغرماء ولا يبايع بعد ذلك.

ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقرا في الحجر ذكر الأدوية والادواء، داء كذا دواؤه كذا، فان كان الرجل فقيرا أعطى ثمن الدواء من بيت المال. وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم، وإذا ولد ذكر كتب اسمه عند السلطان فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا ونجرى عليه شيخا. وفي كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون، ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم. وبها قرية يقال لها تايوا في الجبل فهم قصر، وكل قصير ببلاد الصين ينسب إليها. وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي مشرب حمرة، وهم أشد الناس سواد شعور، ونساؤهم يجزون شعورهن. وأما بلاد الهند فانه اذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي: أتحامله النار؟ فيقول: نعم، فتحمى حديدة إحماء شديدا حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: ابسط يدك فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق ثم يمشي بها مقبلا ومدبرا حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود فيدخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاث أُتي بأرز غير مقشّر فيقال له افركه، فان لم يكن في يده أثر فقد فلح ولا قتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه منا من ذهب يقبضه السلطان لنفسه، وربما اغلوا الماء في قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنوا منه ثم يطرح فيه خاتم حديد، ويقال ادخل يدك فتناول الخاتم، وقد رأيت من ادخل يده وأخرجها صحيحة، ويغرم المدعي أيضا منّا من ذهب. وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صُير على عجلة قريبا من الأرض وعلق في مؤخرها مستلقيا على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذا فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا، وأخذ روحه ملك الموت، فلا تغتروا بالحياة بعده، وكلام نحو هذا ثلاثة أيام، ثم يهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به، ثم يرمي برماده في الريح، والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار. وسرنديب أخر الجزائر وهي من بلاد الهند، وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه، وان شئن لم يفعلن.

وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال وقل ما يعاشر الناس ويأكل أحيانا الحشيش وثمر الغياض، ويجعل في احليله حلقه حديد لئلا يأتي النساء، ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عريانا، إلا أن عليه شيئا من جلود النمور، فقد رأيت رجلا منهم كما وصفت، ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيته على تلك الحال، فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس. وأهل بيت



المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك ولهم ولاة عهود، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم . وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك بلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند، فأما الصين فليس لهم ولاة عهود. وأهل الصين أهل ملاه، وأهل الهند يعيبون الملاهي، ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفه، ويقولون: أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكا يقاتلونهم، فيقولون: كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران، وربما اقتتلوا على الملك وذلك قليل، لم أر أحدا غلب أحداً على مملكته إلا قوم تِلْوَ بلاد الفلفل، وإذا غلب ملك على مملكة ولى عليها رجلا من أهل بيت الملك المغلوب، ويكون من تحت يده لا يرضى أهل تلك المملكة إلا بذلك، فأما بلاد الصين فربما جار الملك الذي من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه، وكل من قتل بالسيف أكل الصينيون لحمه. وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان. وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده فان فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعا .والسرقة في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل، فأما الهند إذا سرق السارق فلسا فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحدد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقه، وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة.

وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وكذلك ربما كان بالصين أيضا، وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرش.ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء. وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة ولا يختتن الهند ولا الصين.وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين. والهند يطولون لحاهم ربما أربت لحية أحدهم ثلاث أذرع، ولا يأخذون شواربهم، وأكثر أهل الصين لا لحا لهم خلقة لأكثرهم. وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته. والهند إذا حبسوا رجلا أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون. ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند. والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعا، فأما الأسد فليست بكلى الولايتين. ويقتل قاطع الطريق، وأهل الصين والهند يزعمون أن البددة تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم. والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى الموت. ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة، وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغذاء ثم يأكلون. والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززا منهن. والصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن. وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل وليس يفعل ذلك أهل الصين.

وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين وهي أضعافها وعدد ملوكهم أكثر، وبلاد الصين أعمر، وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا، والهند لا عنب لهم، وهو بالصين قليل، وسائر الفواكه عندهم كثيرة والرمان بالهند أكثر .وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند

وضعوا لهم البددة، وإنهم هم أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم.والطب بالهند والفلاسفة ولأهل الصين أيضا طب، وأكثر طبهم الكي ولهم علم بالنجوم وذلك بالهند أكثر، ولا أعلم أحدا من الفريقين مسلما ولا يتكلم بالعربية. وللهند خيل قليل، وهي للصين أكثر، وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤما بها. وجنود ملك الهند كثيرة ولا يرزقون وإنما يدعوهم الملك إلى الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك من ذلك شيء، فأما الصين فعطاؤهم كعطاء العرب. وبلاد الصين أنزه وأحسن، وأكثر الهند لا مدائن لها، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وبلاد الصين أصح وأقل أمراضا وأطيب هواء لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهكذا كثير ببلاد الهند . وأنهار البلدين جميعا عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا، والأمطار بالبلدين جميعا كثيرة .وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة، وأهل الصين أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم في مواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقبية والمناطق وأهل الهند يلبسون فوطتين، ويتحلون باسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء. ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز وهم من الترك، وخاقان تبت هذا مما يلي بلاد الترك فأما ما يلي البحر فجزائر السيلا(= كوريا)وهم بيض يهادون صاحب الصين، ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تمطرهم السماء، و لم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكى عنهم، ولهـــم بزاة بيض..)

رأينا شمول ملاحظات التاجر سليمان التي غطّت مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية، والحق فإنها ملاحظات نادرة كادت تحيط بكل شئ، ومع أنها كانت تتعاقب باسلوب السرد التقليدي، ولكن بين حين وآخر يظهر المشاهد بنفسه ليؤكد صحة مروياته التي تعود إلى منتصف القرن التاسع الميلادي. ومادمنا في السياق نفسه فيحسن أَن ندرج رحلة ابن وهب، التي تنصرف فيها العناية إلى بلاد الهند على نحو واضح، وقام بها في حدود عام 260هــ = 873 وتعدّ إلى جانب رحلة سليمان من الرحلات المبكرة التي تعود إلى منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا.

20. رحلة ابن وهب إلى بلاد الهند، أوردها السيرافي في (رحلة السيرافي)

(قال أبو زيد الحسن السيرافي: إنني نظرت في هذا الكتاب (= يقصد رحلة سليمان التاجر التي أوردناها في الفقرة السالفة) الذي أمرت بتأمله وإثبات ما وقفت عليه من أمر البحر وملوكه وأحوالهم وما عرفته من أحاديثهم مما لم يدخل فيه، فوجدت تاريخ الكتاب في سنة سبع وثلاثين ومائتين وأمور البحر في ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليها من العراق. ووجدت جميع ما حكى في الكتاب على سبيل حق وصدق، إلا ما ذكر فيه من الطعام الذي يقدمه أهل الصين إلى الموتى منهم وإنه إذا وضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد وادعوا أنه يأكله، فقد كان بلغنا هذا حتى ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره فسألناه عن ذلك فأنكره، وقال: هي دعوى لا أصل لها كدعوى أهل الأوثان أنها تكلمهم. وقد تغير بعد هذا التاريخ أمر الصين (= يتحدث السيرافي في بداية القرن الرابع = العاشر الميلادي، فيكون قد مضى على رحلة التاجر سليمان التي

اطلع عليها مدونة في كتاب يعود إلى عام 237 أكثر من نصف قرن) خاصة وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز إليهم (= توقف الرحلات إلى الصين من دار الإسلام) وخرب البلد، وزالت رسومه وتفرق أمره. وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب في ذلك إن شاء الله: السبب في تغير أمر الصين عما كان عليه من الأحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف: إن نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببابشو وكان مبتدأ أمره الشطاره والفتوة وحمل السلاح والعيث واجتماع السفهاء إليه حتى اشتدت شوكته وكثر عدده واستحكم طمعه، فقصد خانقو من بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب، وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهي على واد عظيم وماء عذب، فامتنع أهلها عليه فحاصرهم مدة طويلة، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين إلى أن ظفر بها، فوضع السيف في أهلها، فذكر أهل الخبرة بأمورهم: أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرون ألف رجل كانوا تبؤوا بهذه المدينة فصاروا بها تجارا، وإنما عرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم وقطع ما كان فيه من شجر التوت وسائر الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصا لأعداد أهل الصين ورقه لدود القز حتى يلف الدود، فصار سبب لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب.

ثم قصد بعد تخريب خانقو إلى بلد بلد فأخربه، وعجز ملك الصين عنه إلى أن قارب مدينة الملك وتعرف بخمدان فهرب الملك منه إلى مدينةٍ بمذو متاخمة لبلاد التبت فأقام بها، ودامت أيام هذا النابغ وعظم شأنه، وكان قصده وكده خراب المدن وقتل أهلها إذ لم يكن من بيت ملك ومن يطمع في اتساق الأمر له، فبلغ من ذلك مبلغا فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا، ولم تزل تلك حال هذا النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك وبينهم مجاورة ومصاهرة ووجه إليه رسلا يسأله كشف هذا الرجل عنه فأنفد ملك التغزغز إبنا له إلى هذا النابغ في عدد كثير وجموع وافرة فأزاله بعد حروب متصلة ووقائع عظيمة، فزعم قوم أنه قتل، وزعم آخرون أنه مات، وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخمدان وقد أخربه عليه وعلى سبيل ضعف في نفسه ونقص في أمواله وهلاك قواده وصناديد رجاله وكفاته، وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلب منع من أموالها وتمسك بما في يده منها، فدعت ملك الصين الضرورة لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعاء له دون السمع والطاعة في الأموال، وما كان من الملوك ينفذ فيه.

فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الاسكندر لدارا الكبير وقسمته أرض فارس على ملوك الطوائف، وصار بعضهم يعضد بعضا للمغالبة بغير أذن الملك ولا أمره، فإذا أناخ القوى منهم على الضعيف تغلب على بلاده واجتاح ما فيه وأكل ناسه كلهم، وذلك مباح لهم في شريعتهم لأنهم يتبايعون لحوم الناس في أسواقهم، وامتدت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار، ولما حدث هذا فيهم التأم إليه ظهور الظلم والتعدي في نواخذة العرب وأرباب المراكب فألزموا التجار ما لا يجب عليهم وغلبوهم على أموالهم واستجازوا ما لم يجر الرسم به قديما في شيء من أفعالهم، فنزع الله جل ذكره البركات منهم جميعا ومنع البحر جانبه، ووقع الفناء بالمقدار الجاري من المدبر تبارك اسمه في الربابنة والادلاء بسيراف

وعمان. وذكّر في الكتاب طرف من سنن أهل الصين و لم يذكر غيره، وهو سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم في القتل، أن تشد يدا من يريدون قتله شدا وثيقا، ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعا من ورائه ويتقبض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه ويستغني عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها وتختلف وركاه ويتداخل بعضه في بعض ويضيق نفسه ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله.

وفيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع مترلها وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيط فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلسا، وإن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها. فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات، ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن. وأما تعاملهم بالفلوس، فالسبب فيه إنكارهم على المتعاملين بالدنانير والدراهم: أن لصا لو دخل مترل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة آلاف دينار ومثلها من الورق على عنقه، فيكون فيها عطب صاحب المال، وأن لصا لو دخل إلى رجل منهم لم يحمل أكثر من عشرة آلاف فلس، وإنما ذلك عشرة مثاقيل ذهب. وهذه الفلوس معمولة من نحاس وأخلاط من غيره معجونة به، والفلس منها في قدر الدرهم البغلي، وفي وسطه ثقب واسع ليفرد الخيط فيه، وقيمة كل ألف فلس منها مثقال من ذهب، وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل مائة عقدة، فإذا ابتاع المبتاع ضياعا أو متاعاً أو بقلا فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن، وهي موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم.

وأما الحريق ببلاد الصين والبناء وما ذكر فيه فالبلد مبني على ما قيل من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب، عندنا ويليّط بالطين وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج (= القنب) فيصير في بياض اللبن، تدهن به الجدر فيشرق إشراقا عجيبا، وليس لبيوتهم عتب لأن أملاكهم وذخائرهم وما تحويه أيديهم في صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإذا وقع الحريق دفعت تلك الصناديق بما فيها فلم يمنعها العتب من سرعة النفوذ. وأما أمر الخدم فذكر مجملا وإنما هم ولاة الخراج وأبواب المال، فمنهم من قد سبي من الأطراف فخصي، ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين ويهديه إلى الملك تقربا به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزائنه ومن يتوجه إلى مدينة خانقو التي يقصد إليها تجار العرب هم الخدم، ومن سننهم في ركوب هؤلاء الخدم وملوك سائر المدن إذا ركبوا: أن يتقدمهم رجال بخشب تشبه النواقيس يضربون بها، فيسمع من



بعد فلا يقف أحد من الرعية في شيء من ذلك الطريق الذي يريد الخادم أو الملك أن يمر فيه، ومن كان على باب دارٍ دخلها وأغلق الباب دونه، حتى يكون اجتياز الخادم أو الملك المملك على تلك المدينة، وليس في طريقه أحد من العامة ترهيبا وتجبرا، ولئلا يكثر نظر العامة إليهم ولا يمتد لسان أحد إلى الكلام معهم. ولباس خدمهم ووجوه قوادهم فاخر الحرير الذي لا يحمل مثله إلى بلاد العرب عندهم ومبالغتهم في أثمانه. وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره: أنه صار إلى خصي كان الملك أنفذه إلى مدينة خانقو لتخيّر ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب، فرأى على صدره خالا يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه، فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها فلما ألح في النظر، قال له الخصي: أراك تديم النظر إلى صدري فلم ذلك؟ فقال له الرجل: عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب، فضحك الخصي ثم طرح كم قميصه إلى الرجل، وقال له: أعدد ما علي منها، فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتهاِ. والذي هذه صفته من الحرير خام غير مقصور، والذي يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب.

وأهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا جازاه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج فيه عيب أطرحه و لم يجازه. وأن رجلا منهم صور سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة وأن عصفورا عليها، فبقيت مدة وأنه اجتاز بها رجل أحدب فعابها، فأدخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها فسأل الأحدب عن العيب، فقال: المتعارف عند الناس جميعا أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وأن هذا المصور صور السنبلة قائمة لا ميل لها، وأثبت العصفور فوقها منتصبا فأخطأ فصدق و لم يثب الملك صانعها بشيء، وقصدهم في هذا وشبهه رياضة من يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر فيما يصنع كل منهم بيده.

وقد كان بالبصرة رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هبار بن الأسود، خرج منها عند خرابها فوقع إلى سيراف، وكان فيها مركب يريد بلاد الصين فنزعت به همته بالمقدار الجاري على أن ركب في ذلك المركب إلى بلاد الصين ثم نزعت به همته إلى قصد ملكها الكبير، فسار إلى حمدان في مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانفو، وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة علته فيما يحتاج إليه، وكتب الملك إلى الوالي المستخلف المقيم بخانقو يأمره بالبحث ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم، فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه فأذن له ووصله بمال واسع عاد به إلى العراق، وكان شيخا فهما، فأخبرنا: أنه لما وصل إليه وسأله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم؟ فقال له: بالله جل ذكره وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله، فقال له: لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأوسعها ريفا وأكثرها أموالا وأعقلها رجالا وأبعدها صوتا، ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم فقال مالي بهم



علم، فقال للترجمان: قل له إنا نعد الملوك خمسة فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط للملكة من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا، وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند، ونجد عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتم خلقا من رجاله ولا أحسن وجوها، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم. ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك أن رأيته يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وكيف لي برؤيته وهو عند الله جل وعز، فقال: لم أُردْ هذا إنما أردت صورته، فقال أجل فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منه درجا، وقال للترجمان: أره صاحبه فرأيت في الدرج صور الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم، و لم يكن عنه أني أعرفهم، فقال للترجمان: سله عن تحريك شفته، فسألني، فقلت: أصلي على الأنبياء، فقال من أين عرفتهم، فقلت مما صوّر من أمرهم؛ هذا نوح في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه، فضحك وقال: أما نوح فقد صدقت في تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض و لم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند.

قال ابن وهب: فتهيّبت الرد عليه وإقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك، ثم قلت: هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل، فقال: نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه، فقلت: وهذا عيسى على حمار والحواريون معه، فقال: لقد كان قصير المدة إنما كان أمره يزيد على ثلاثين شهرا شيئا يسيرا، وعدّد من أمر سائر الأنبياء ما اقتصرنا على ذكر بعضه، وزعم أنه رأى فوق كل صورة لنبي كتابة طويلة قدر أن فيها ذكر أسمائهم، ومواقع بلدانهم، وأسباب نبؤاتهم، ثم قال: رأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم في أرجلهم نعال عربية وفي أوساطهم مساويك مشدودة، فبكيت، فقال للترجمان: سله عن بكائه فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام، فقال: صدقت لقد ملك هو وقومه أجل الممالك إلا أنه لم يعاين ما ملك وإنما عاينه من بعده.

ورأيتُ صور أنبياء ذوي عدد كثير، منهم من قد أشار بيده اليمنى وجمع بين الإبهام والسبابة كأنه يوميء في إشارته إلى الحق، ومنهم قائم على رجله مشير بأصابعه إلى السماء، وغير ذلك. زعم الترجمان أنهم من أنبيائهم وأنبياء الهند. ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها، ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟ فقلت: قد اختلف فيه فبعض يقول: ستة آلاف سنة وبعض يقول دونها، وبعض يقول أكثر منها إلا بيسير. فضحك ضحكا كثيرا ووزيره أيضا واقف دل على إنكاره ذلك، وقال: ما أحسب نبيكم قال هذا، فزللت وقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار في وجهه، ثم قال للترجمان: قل له: ميّز كلامك، فإن الملوك لا تكلم إلا عن تحصيل، أما ما زعمت أنكم تختلفون في ذلك فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه بل هو مسلّم فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه، وذكر أشياء كثيرة

قد ذهبت عني لطول العهد، ثم قال لي: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا دارا ونسبا؟ فقلت: بما حدث على البصرة ووقوعي إلى سيراف ونظري إلى مركب ينفذ إلى الصين، وما بلغني من جلال ملك الصين وكثرة الخير به فأحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادي وملك ابن عمي ومخبر بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد، وسأقول بكل حسن واثني بكل جميل، فسرّه ذلك وأمر لي بالجائزة السنية، وبحملي على بغال البريد إلى مدينة خانقو، وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على جميع من في ناحيته من سائر الملوك، وإقامة النزل لي إلى وقت خروجي، فكنت في أخصب عيش وأنعمه، إلى أن خرجت من بلاد الصين. فسألناه عن مدينة خمدان التي بها الملك وصفتها، فذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنه مقسوم على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وجنوده وقاضي القضاة وخصيان الملك وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه وما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شيء من الأسواق بأنهار في سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة ومنازل فسيحة. وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب: الرعية والتجار والميرة والأسواق، وإذا وضح النهار رأيت قهارمة الملك وأسبابه وغلمان داره، وغلمان القواد ووكلائهم من بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه الأسواق والتجار فأخذوا وظائفهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني. وإن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلا النخل فإنه معدوم.

ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم في أنفسهم حتى كان في عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام فدل هذا على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا وظهر بلاد الترك والخزر، ثم يصب في الخليج ويفضي إلى بلاد الشام، وذلك إن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام، والروم مسمورة غير مخروزة(=هذا توهم فبحر قزوين منقطع عن سواه). وبلغنا أيضا أنه وجد في بحر الشام عنبر وهذا من المستنكر وما لم يعرف في قدم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقا أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلا من بحر عدن والقلزم، وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزا، بل هو إن كان صحيحا مما يقذفه بحر الهند إلى سائر البحار واحدا بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام.

ثم نبتدى بذكر مدينة الزابج إذ كانت تحاذى بلاد الصين وبينهما مسيرة شهر في البحر وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح، وملكها يعرف بالمهراج (= الحاكم) ويقال: إن تكسيرها (= مساحتها) تسعمائة فرسخ، وهذا الملك مُملّك على جزائر كثيرة يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر، وفي مملكته جزيرة تعرف بسريرة تكسيرها على ما يذكرون أربعمائة فرسخ، وجزيرة أيضا تعرف بالرامى تكسيرها ثمانمائة فرسخ، فيها منابت البقم والكافور وغيره، وفي مملكته جزيرة كَلَه وهي المنصّف بين أراضي الصين وأرض العرب،

وتكسيرها على ما يذكرون ثمانون فرسخا، وبكَله مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعي والأبنوس والبقم والأفاويه كلها، وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه، والجهاز من عمان في هذا الوقت إليها، ومنها إلى عُمان واقع، وأمر المهراج نافذ في هذه الجزائر، وجزيرته التي هو بها في غاية الخصب وعمارتها منتظمة. وذكر من يوثق بقوله: إن الديكة إذا غردت في الأسحار للأوقات كتغريدها عندنا تجاوبت إلى مائة فرسخ وما فوقها يجاوب بعضها بعضا لاتصال القرى وانتظامها، وإنه لا مفاوز فيها، ولا خراب، وان المتنقل في بلادهم إذا سافر وركب الظهر سار إذا شاء، فإذا مل وكلَّ الظهر نزل حيث شاء. ومن عجيب ما بلغنا من أحاديث هذه الجزيرة المعروفة بالزابج أن ملكا من ملوكهم في قديم الأيام، وهو المهراج وقصره على ثلاج يأخذ من البحر، ومعنى الثلاج واد كدجلة مدينة السلام (= بغداد) والبصرة، يغلب عليه ماء البحر بالمدِّ وينضب عنه الماء العذب بالجزر، ومنه غدير صغير يلاصق قصر الملك، فإذا كان في صبيحة كل يوم دخل قهرمان الملك ومعه لبنة قد سبكها من ذهب فيها منًّا، قد خُفى عنّي مبلغها، فيطرحها بين يدي الملك في ذلك الغدير، فإذا كان المد علاها وما كان مجتمعا معها من أمثالها غمرها، فإذا كان الجزر نضب عنها فأظهرها فلاحت في الشمس، والملك مطّلع عليها عند جلوسه في المجلس المطل عليها، فلا تزال تلك حالة يطرح في كل يوم في ذلك الغدير لبنة من ذهب ما عاش ذلك الملك من الزمان لا يمس شيء منه، فإذا مات الملك أخرجها القائم من بعده كلها فلم يدع منها شيئا، وأحصيت ثم أذيبت وفرّقت على أهل بيت المملكة رجالهم ونسائهم وأولادهم وقوّادهم وخدمهم على قدر منازلهم ورسوم لهم في كل صنف منهم، فما فضل بعد ذلك فضّ على أهل المسكنة والضعف، ثم دوِّن عدد اللّبن الذهب ووزنه، وقيل إن فلانا مَلك من الزمان كذا وكذا سنة، وخلّف من لبن الذهب في غدير الملوك كذا وكذا لبنة، وإنها فرقت بعد وفاته في أهل مملكته، فالفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد اللّبن الذهب في تركته.

ومن أخبارهم في القديم أن ملكا من ملوك القمار، وهي الأرض التي يجلب منها العود القمارى، وليست بجزيرة بل هي على ما يلي أرض العرب وليس في شيء من الممالك أكثر عددا من أهل القمار، وهم رحّالة، كلهم يحرمون الزنا والأنبذة كلها، فلا يكون في بلادهم ومملكتهم شيء منه، وهي مسامتة لمملكة المهراج والجزيرة المعروفة بالزابج، وبينهما مسافة عشرة أيام إلى عشرين يوما عرضا في البحر إذا كانت الريح متوسطة . فقيل إن هذا الملك تقلّد المُلك على القمار في قديم الأيام، وهو حدث متسرّع، وإنه جلس يوما في قصره وهو مشرف على واد يجري بالماء العذب كدجلة العراق، وبين قصره والبحر مسيرة يوم، ووزيره بين يديه، اذ قال لوزيره: – وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وما تحت يده من الجزائر– "في نفسي شهوة كنت أحب بلوغها" فقال له الوزير:– وكان ناصحا وقد علم منه السرعة– "ما هي أيها الملك؟" قال: "كنت أحب أن أرى رأس المهراج ملك الزابج في طست بين يدي" فعلم الوزير أن الحسد أثار هذا الفكر في نفسه، فقال: "أيها الملك ما كنت أحب أن يحدّث الملك نفسه بمثل هذا، إذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا في فعل ولا في حديث ترة (= قول باطل)، ولا رأينا منهم شرّا، وهم في جزيرة نائية غير مجاورة لنا في أرضنا، ولا طامعين في ملكنا، وليس ينبغي أن يقف على هذا الكلام أحد، ولا يعيد الملك فيه قولا".

فغضب و لم يسمع من الناصح، وأذاع ذلك لقوّاده ومَن كان يحضره من وجوه أصحابه، فتناقلته الألسن حتى شاع واتصل بالمهراج وكان جزلا (= قويا سديد الرأي) متحركا محنّكا، قد بلغ في السن مبلغا متوسطا، فدعا بوزيره، وأخبره مما اتصل به، وقال له: "ليس يجب مما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنّيه ما تمناه بحداثة سنّه وغرّته وانتشار ذلك من قوله أن نمسك عنه، فإن ذلك مما يفت في عضد الملك وينقصه ويضع منه وأمره بستر ما جرى بينهما، وأن يُعدَّ له ألف مركب من أوساط المراكب بآلاتها، ويندب لكل مركب منها من جملة السلاح وشجعان الرجال من يستقل به. وأظهر أنه يريد التَنزّه في الجزائر التي في مملكته، وكتب إلى الملوك الذين في هذه الجزائر وهم في طاعته، وجملته بما عزم عليه من زيارتهم والتنزه بجزائرهم حتى شاع ذلك. وتأهب ملك كل جزيرة لما يصلح للمهراج، فلما استتبّ أمره وانتظم دخل في المراكب وعبر بها وبالجيش إلى مملكة القمار، وهو وأصحابه أهل سواكٍ دائم، يفعل الرجل منهم ذلك في اليوم مرات، وسواك كل وحد منهم معه لا يفارقه أو مع غلامه، فلم يشعر به ملك القمار حتى هجم على الوادي المفضي إلى دار ملك القمار، وطرح رجاله فأحدقوا به على سبيل غرة، فأخذه واحتوى على داره، وطار أهل المملكة من بين يديه، فأمر بالنداء بالأمان، وقعد على السرير الذي كان يجلس عليه ملك القمار، وقد أخذه أسيرا فأحضره وأحضر وزيره، فقال لملك القمار: "ما حملك على تمنّي ما ليس في وسعك ولا لك فيه حظ لو نلته، ولا أوجبه سبب يسهل السبيل إليه؟" فلم يحر جوابا، ثم قال له المهراج: "أما أنك لو تمنّيت مما تمنّيته من النظر إلى رأسي في طست بين يديك إباحة أرضي وملكها أو الفساد في شيء منها لاستعملت ذلك كله فيك، لكنك تمنّيت شيئا بعينه، فأنا فاعله بك وراجع إلى بلدي من غير أن أمدّ يدا إلى شيء من بلادك مما جلّ ودقّ لتكون عظة لمن بعدك، ولا يتجاوز كل قدره وما قسم له، وأن يستغنم العافية من لبسته، ثم ضرب عنقه.

ثم أقبل على وزيره، فقال له "جُزيت خيرا من وزير، فقد صحّ عندي أنك أشرت على صاحبك بالرأي لو قبل منك، فانظر من يصلح للمُلك من بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه". وانصرف من ساعته راجعا إلى بلاده من غير أن يمدّ هو ولا أحد من أصحابه يدَه إلى شيء من بلاد القمار. فلما رجع إلى مملكته قعد على سريره وأشرف على غديره ووضع الطست بين يديه وفيها رأس ملك القمار، وأحضر وجوه مملكته وحدثهم بخبره والسبب الذي حمله على ما أقدم عليه، فدعا له أهل مملكته وجزوه خيرا، ثم أمر بالرأس فغسل وطيّب وجعله في ظرف ورده إلى الملك الذي قام بالأمر ببلاد القمار من بعد الملك المقتول. وكتب إليه "إنّ الذي حملني على ما فعلناه بصاحبك بغيُه علينا وتأديبنا لأمثاله، وقد بلغنا منه ما أراده بنا، ورأينا رد الرأس إليك إذ لا درك لنا في حبسه ولا فخر بما ظفرنا به منه" وأتصل الخبر بملوك الهند والصين فعظم المهراج في أعينهم وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحت قامت وحولت وجوهها نحو بلاد الزابج فسجدت وكفرت للمهراج تعظيما. وسائر ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ ويدينون به. وذكر بعض من يوثق بخبره أن ملكا من ملوكهم جُدِّر فلما خرج من الجدري نظر في المرآة فاستقبح وجهه فأبصر ابنا لأخيه، فقال له "ليس مثلي أقام في هذا الجسم عليّ تغيره، وإنما هو ظرف للروح متى زال عنه عاد في غيره، فقم بالملك، فإني مزيل بين

جسمي وروحي إلى أن انحدر في جسم غيره"ثم دعا بخنجر له مشحوذ قاطع فأمر به فحز رأسه ثم أُحرق. كان أهل الصين من شدة التفقّد لأمرهم في قديم أيامهم وقبل تغيره في هذا الوقت على حالة لم يسمع بمثلها.

وقد كان رجل من أهل خراسان ورد العراق فابتاع متاعا كثيرا وخرج إلى بلاد الصين. وكان فيه بخل وشحّ شديد، فجرى بينه وبين خصي للملك كان أنفده إلى خانقو وهي المدينة التي تقصدها تجار العرب لأخذ ما يحتاج إليه مما يرد في المراكب – وكان هذا الخصي من أجلّ خدم الملك وإليه خزائنه وأمواله – مشاجرة في أمتعة العاج وغيره، امتنع عن بيعها حتى شرق الأمر بينهما، وحمل الخصي نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التي كانت معه واستهان بأمره، فشخص مستخفيا حتى ورد حمدان، وهو بلد الملك الكبير في مقدار شهرين من الزمان وأكثر، فخرج إلى السلسلة التي وصفت في الكتاب، وسبيل من حركها على الملك الكبير أن يباعد إلى مسيرة عشرة أيام على سبيل النفي، ويؤمر بحبسه هناك شهرين، ثم يخرجه ملك تلك الناحية، ويقول: إنك تعرضت لما فيه بوارك وسفك دمك إن كنت كاذبا، وإذ كان الملك قد قرب لك ولأمثالك من وزرائه وملوكه من لا يعوزك الانتصاف بهم، واعلم أنك متى وصلت إلى الملك فلم يكن ما تظلمت منه مما يجب في مثله الوصول إليه، فليس دون دمك شيء لئلا يقدم على ما أقدمت كل من يهم بمثله، فاستقل نقلك وامض لشأنك، فإن استقال ضربه خمسين خشبة ونفى إلى البلاد التي منها قصد، وإن أقام على تظلمه وصل، ففعل ذلك بالخراساني، فأقام على ظلامته والتمس الوصول، فبعث به ووصل إلى الملك، فسأله الترجمان عن أمره، فأخبره بما جرى عليه من الخادم وانتزاعه من يده ما انتزع. وكان الأمر فيه قد شاع بخانقو وذاع فأمر الملك بحبس الخراساني وإزاحة علته في مطعمه ومشربه، وتقدم إلى وزيره في الكتاب إلى العمّال بخانقو بالفحص عمّا ادّعاه الخراساني وكشفه والصدق عنه، وأمر صاحب الميمنة والميسرة وصاحب القلب بمثله، وهؤلاء الثلاثة عليهم يدور بعد الوزير أمر جيوشه ويثق بهم على نفسه، وإذا ركب بهم بحرب أو غيره كان كل واحد منهم في مرتبته، فكتب كل واحد منهم وقد كشف عن الأمر بما وقف به على صحة الدعوى من الخراساني فتتابعت به الأخبار عند الملك من كل جهة، فأشخص الخصي، فلما ورد قبض أمواله ونزع خزائنه من يده، وقال له: "كان حقك القتل إذا عرضتني لرجل قد سلك من خراسان، وهي على حد مملكتي، وصار إلى بلاد العرب، ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدي طلبا للفضل، فأردت أن يعود مجتازا بهذه الممالك ومن فيها فيقول:إني ظُلمت ببلاد الصين وغُصب مالي، لكني أتجافى عن دمك لقديم حرمتك، وأوليك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء، وأمر به فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها .

ومن عجيب تدبيرهم في قديم الأيام دون هذا الوقت أمر الأحكام وجلالها في صدورهم، واختيارهم لها من لا يخالج قلوبهم الشك في علمه بشرائعهم وصدق لهجته وقيامه بالحق في كل أحواله وتجنبه الإغماض عمن جلّ مقداره حتى يقع الحق موقعه، ويكون عفيفا عن أموال أهل الضعف وما يجري على يده، فإذا عزموا على تقليد قاضي القضاة أنفذوه قبل تقليده إلى جميع البلدان التي هي أعمدة بلادهم، حتى يقيم في كل بلد شهرا أو شهرين فيبحث عن أمر أهله وأخبارهم ورسومهم، ويعلم من يجب قبول قوله منهم معرفة يستغني بها عن

المسألة، فإذا سلك به هذه الأمصار، و لم يبق في المملكة بلد جليل إلا وَطيه، رحل إلى دار المملكة وولّى قضاء القضاة وجعل إليه اختيارهم، فيليهم. وعلمه بجميع المملكة، ومَن يجب أن يقلّد في كل بلد من أهله أو غيرهم علم من يستغني بعلمه عن الرجوع إلى مَن لعله أن يميل فيه أو يقول بغير الحق فيما يسأل عنه، ولا يتهيأ لأحد من قضاته أن يكاتبه بشيء قد علم خلافه أو يزيله عن جهته، ولقاضي القضاة مناد في كل يوم ينادي على بابه يقول: "هل من متظلم على الملك المستور عن عيون رعيته، أم من أحد من أسبابه وقوّاده وسائر رعيته، فإني أنوب في ذلك كله عنه، لما بَسط به يدي وقلّدني؟" يقول ذلك ثلاثا، لأن الملك في عقدهم أن الملك لا يزول عن موضعه حتى تنفذ الكتب من دواوين الملوك بالجور المصرح، وأن يهمل أمر الحكم والحكام، وأنه متى تحفظ من هذين الأمرين، فلم تنفذ الكتب من الدواوين إلا بالعدل، و لم يلِ الحكم إلا من يقوم بالحق فالملك منـــتظم. فأما خراسان ومتاخمتها لبلاد الصين فالذي بينها وبين الصغد مسيرة شهرين إلا أنه في مفازة ممتنعة ورمال منتظمة لا ماء فيها ولا أودية لها ولا عمارة بقربها، فهو السبب المانع من هجوم أهل خراسان على بلدهم. وأما ما كان من الصين يلي مغرب الشمس، وهو الموضع المعروف بمذو فهو على حدود التبت، والحروب بينهم متصلة.

وقد رأينا ممن دخل الصين ذكر: أنه رأى رجلا حمل على ظهره مسكا في زق وورد من سمرقند راجلا يقطع بلدا بلدا من مدن الصين حتى صار إلى خانقو، وهو مجتمع التجار القاصدين من سيراف.وذلك أن الأرض التي بها ظباء المسك الصيني والتبت أرض واحدة لا فرق بينهما، فأهل الصين يجتذبون ما قرب منهم من الظباء وأهل التبت ما قرب منهم، وإنما فضل المسك التبتي على الصيني بحالتين: إحديهما أن ظبي المسك يكون في حد التبت رعية من سنبل الطيب، وما يلي أرض الصين منها رعيه سائر الحشائش. والحالة الأخرى: ترك أهل التبت النوافج (= أكياس المسك في الظباء) في حالها وغش أهل الصين لما وقع إليهم منها، وسلوكهم أيضا في البحر وما يلحقهم من الأيذاء فإذا ترك أهل الصين المسك في نوافجه وأودعت البراني (= أواني خزفية سميكة)، واستوثق منها وورد أرض العرب كالتبتي في جودته، وأجود المسك كله ما حكه الظبي على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير في سرته ويجتمع دما عبيطا كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل، فإذا أدرك حكّه وأضجره فيفرع إلى الحجارة حتى يخرقه فيسيل ما فيه، فإذا خرج عنه جف واندمل وعادت المادة تجتمع فيه من ذي قبل. وللتبت رجال يخرجون في طلب هذا، ولهم به معرفة فإذا وجدوه التقطوه وجمعوه وأودعوه النوافج وحمل إلى ملوكهم، وهو نهاية المسك إذ كان قد أدرك في نوافجه على حيوانه، وصار له فضل على غيره من المسك كفضل ما يدرك من الثمار في شجرة على سائر ما يترع منه قبل إدراكه، وغير هذا من المسك فإنما يصاد بالشرك المنصوب أو السهام، وربما قطعت النوافج عن الظبي قبل إدراك المسك فيها، وعلى أنه إذا قطع عن ظبائه كان كريه الرائحة مدة من المدد حتى يجف على الأيام الطويلة، وكلما جف استحال حتى يصير مسكا، وظبي المسك كسائر الظباء عندنا في القد واللون، ودقة القوائم، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون، وانعطافها، ولها نابان دقيقان أبيضان في الفكين قائمان في وجه الظبي، طول كل واحد منهما مقدار فتر، ودونه على هيئة ناب الفيل، فهو الفرق بينهما وبين سائر الظباء.



ومكاتبات ملوك الصين لملوك أمصارهم وخصيانهم على بغال البريد مجهزة الأذناب على سبيل بغال البريد عندنا على سكك معروفة. وأهل الصين مهما وصفناهم من أمرهم يبولون من قيام، وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة فيقف على رجله إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها(=ترسّب الحجر)، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلا مع القيام لذلك . والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم أعني الرجال امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويه كما يستعمل العرب، وقولهم إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حالة التي خلق عليها، وأنه يفسد الحاسة المعروفة، فرؤوسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفى عليها. فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل كشعوب بني اسرائيل والعرب وبطونها يتعارفون ذاك بينهم، ولا يزوج أحد منهم قريبا ولا ذا نسب ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها، مثال ذلك أن بني تميم لا تتزوج في تميم، وربيعة لا تتزوج في ربيعة وإنما تتزوج ربيعة في مُضر، ومُضر في ربيعة، ويدعون أن ذلك أنجب للولد.

في مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم. وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئا يسيرا فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عن حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر. وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أججّت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ثم يعدوا، وبين يديه الصنوج دائراً في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلا من الريحان يملؤه جمرا، ويصب عليه السندروس (مادة صمغية) وهو مع النار كالنفط، ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتغتّر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رمادا، فذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار، إنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم، ثم زج بنفسه في النار إلى لعنة الله. وزعم هذا الرجل الحاكي: أن في جبال هذه الناحية قوما من الهند سبيلهم سبيل الكنيفية (= أصحاب السيوف) والجليدية (= المجالدون) عندنا في طلب الباطل والجهل وبينهم وبين أهل الساحل عصبية، وأنه لا يزال رجل من أهل الساحل يدخل الجبل فيستدعي من يصابره على التمثيل بنفسه، وكذلك أهل الجبل لأهل الساحل، وأن رجلا من أهل الجبال صار إلى أهل الساحل لمثل ذلك، فاجتمع إليه الناس بين ناظر ومتعصب،

فطالب أهل العصبية بأن يصنعوا مثل ما يصنع فإن عجزوا عنه اعترفوا بالغلبة، وأنه جلس عند رأس منابت القنا وأمرهم باجتذاب قناة من تلك القنا وسبيله سبيل القصب في التفافه، وأصله مثل الدن وأغلظ، وإذا حط رأس القناة استجابت حتى تقارب الأرض، فإذا تركت عادت إلى حالها، فجذب رأس قناة غليظة حتى قربت منه ثم شد بها ضفائره شدا وثيقا، ثم أخذ الخنجر وهو كالنار في سرعتها، فقال لهم: إني قاطع رأسي به فإذا بان عن بدني فاطلقوه من ساعته، فسأضحك إذا عادت القناة برأسي إلى موضعها، وتسمعوا قهقهة يسيرة، فعجز أهل الساحل عن أن يصنعوا مثل ذلك.

ولقد أخبرنا بهذا من لا نتهمه وهو اليوم متعارف إذ كانت هذه البلاد من الهند تقرب من بلاد العرب، وأخبارها متصلة بهم في كل وقت، ومن شأنهم إذا أخذت السن من رجالهم ونساءهم وضعفت حواسهم أن يطالب من صار في هذه الحال منهم أهله بطرحه في النار أو تغريقه في الماء ثقة منهم بالرجعة، وسبيل موتاهم الاحراق. وقد كان بجزيرة سرنديب وبها جبل الجوهر ومغاص اللؤلؤ وغيره، يقدم الرجل الهندي على دخول السوق ومعه الجربى وهو خنجر لهم عجيب الصنعة مرهف فيضرب بيده إلى أجلّ (= أكبر) تاجر يقدر عليه، ويأخذ بتلابيبه ويشهر الخنجر عليه ويخرجه عن البلد في مجمع من الناس لا يتهيأ لهم فيه حيلة، وذلك أنه متى أريد انتزاعه منه قتل التاجر وقتل نفسه، فإذا خرج عن البلد طالبه بالفدية وتبع التاجر من يفتديه بالمال الكثير، فدام ذلك بهم مدة من الزمان حتى ملكهم ملك أمر بمن فعل ذلك من الهند أن يؤخذ على أية حال كان، ففعل ذلك فقتل الهندي التاجر وقتل نفسه، فجرى هذا على جماعة منهم، وتلفت فيه أنفس الهند وأنفس العرب، فلما وقع البأس انقطع ذلك وأمن التجار على أنفسهم. والجوهر الأحمر والأخضر والأصفر مخرجة من جبل سرنديب وهي جزيرة وأكثر ما يظهر لهم في وقت المدود يدحرجه الماء عليهم من كهوف ومغارات ومسائل مياه لهم عليها أرصاد للملك، وربما استنبطوه أيضا كما تستنبط المعادن فيخرج الجوهر ملصقا بالحجارة فيكسر عنه.ولملك هذه الجزيرة شريعة ومشايخ لهم مجالس كمجالس محدثينا يجتمع إليهم الهند فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وسنن شرائعهم. وبها صنم عظيم من ذهب ابريز يفرط البحريون في مبلغ وزنه، وهياكل قد انفق عليها أموال عظيمة. وبهذه الجزيرة جمع من اليهود كثير، ومن سائر الملل، وبها أيضا ثنوية، والملك يبيح لكل فريق منهم ما يتشرع به. ومحاذى هذه الجزيرة أغباب واسعة ومعنى الغب الوادي العظيم إذا أفرط في طوله وعرضه، وكان مصبه إلى البحر، يسير المجتازون في هذا الغب المعروف بغب سرنديب شهرين وأكثر في غياض ورياض وهواء معتدل.

وفي فوهة هذا الغب البحر المعروف بهركند، وهو نزِةُ المكان، الشاة فيه بنصف درهم، وما يشرب جمع من الرجال من الشراب المطبوخ من عسل النحل بحب الداذى الرطب، بمثل ذلك. وأكثر أعمالهم القمار بالديكة والنرد والديكة عندهم عظيمة الأجسام وافرة الصياصي يستعملون لها من الخناجر الصغار المرهفة ما يشد على صياصيها، ثم ترسل وقمارهم في الذهب والفضة والأرضين والنبات وغير ذلك، فيبلغ الديك الغالب جملة من الذهب، وكذلك لعبهم بالنرد دائم علي خطر واسع، حتى أن أهل الضعف منهم ومن لا مال له ممن

يذهب إلى طلب الباطل والفتوة، ربما لاعب في أنامله فيلعب وإلى جنبه شيء قد جعل فيه من دهن الجوز أو دهن السمسم إذ كان الزيت معدوما عندهم وتحته نار تحميه وبينهما فاس صغيرة مشحوذة، فإذا غلب أحدهما صاحبه وضع يده على حجر وضرب القامر بالفأس أنملة المقمور فابانها، ووضع المقمور يده في الدهن وهو في نهاية الحرارة فيكويها، ولا يقطعه ذاك عن المعاودة في اللعب، فربما افترقا وقد بطلت أناملهما جميعا. ومنهم من يأخذ الفتيلة فينقعها في الدهن، ثم يضعها على عضو من أعضائه ويشعل النار فيها، فهي تحترق ورائحة اللحم تفوح وهو يلعب بالنرد لا يظهر منه جزع. والفساد في هذا الموضع فاش في النساء والرجال غير محظور، حتى أن تجار البحر ربما دعا الواحد منهم ابنة ملكهم فتأتيه إلى غياضهم بعلم أبيها، وكان مشايخ أهل سيراف يمنعون من الجهاز إلى هذه الناحية وخاصة الأحداث. وأمر اليسارة التي تكون ببلاد الهند وتفسيرها المطر، فإنه يدوم عليهم في الصيف ثلاثة أشهر تباعا ليلا ونهارا لا تمسك السماء عنهم بتة، وقد استعدوا قبل ذلك لأقواتهم، فإذا كانت اليسارة أقاموا في منازلهم لأنها معمولة من خشب مكنسة السقوف مظللة بحشائش لهم، فلا يظهر أحد منهم إلا لمهم، على أن أهل الصناعات يعالجون صنائعهم في هذه الأماكن هذه المدة، وربما عفنت أسافل أرجلهم في هذا الوقت، وبهذه اليسارة عيشهم وإذا لم تكن هلكوا لأن زراعتهم الأرز لا يعرفون غيره، ولا قوت لهم سواه، إنما يكون في هذا الوقت في حرامات لهم طريحا لا يحتاجون إلى سقي ومعاناة، ومعنى الحرامات منابت الأرز عندهم، فإذا انكشفت السماء عنهم بلغ الأرز النهاية في الريع والكثرة ولا يمطرون الشتاء .

وللهند عبّاد وأهل علم يعرفون بالبراهمة وشعراء يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان، وأهل زجر للغربان وغيرها، وبها سحرة وقوم يظهرون التخاييل ويبدعون فيها، وذلك بقنوج خاصة، وهو بلد عظيم في مملكة الجوز. وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته. وللهند ضروب من الشرائع يتقربون بها فيما زعموا إلى خالقهم جلّ الله وعزّ عمّا يقول الظالمون علواً كبيرا، منها: أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة، ويقيم فيه بقالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجريء عليها لينال منها المجتازون، وذلك عندهم مما يثابون عليه، وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البدّ، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرا وولد لها جارية جميلة أتت بها البدّ وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه سترا وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها باجرة معلومة وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل، والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به.

فأما الصنم المعروف بالمولتان وهو قريب المنصورة، فإنه يقصد من مسيرة أشهر كثيرة ويحمل الرجل منهم العود الهندي القامروني، وقامرون بلد يكون فيه فاخر العود حتى يأتي به إلى هذا الصنم فيدفعه إلى السدنة لبخور الصنم، ومن هذا العود ما قيمته المنّ منه مائتي دينار، وربما ختم عليه فانطبع الخاتم فيه للدونته (=المنشدون والمغنون في المعابد) فالتجار يبتاعونه من هؤلاء السدنة.وبالهند عباد في شرائعهم يقصدون إلى الجزائر التي تحدث في البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للأجر وأن يجتاز بها المراكب فتنال منها. وبعُمان من يقصد إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل ومعهم آلات النجار وغيرها، فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا فإذا جف قطع الواحا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب، ويستعملون منه مركبا، وينحتون منه أدقالا، وينسجون من خوصه شراعا. ومن ليفه خرابات (= العُرَى) وهي القلوس (=حبال) عندنا، فإذا فرغوا من جميعه شحنت المراكب بالنارجيل، فقصد بها عمان فبيع. وعظمت بركته ومنفعته إذ كان جميع ما يتخذ منه غير محتاج إلى غيره.

وبلاد الزنج واسعة، وكل ما ينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم، وقصب السكر وسائر الشجر فهو أسود عندهم، ولهم ملوك يغزوا بعضهم بعضا، وعند ملوكهم رجال يعرفون بالمخزّمين قد خزمت أنوفهم، ووضع فيها حلق وركب في الحلق سلاسل، فإذا كانت الحرب تقدموا، وقد أخذ بطرف كل سلسلة رجل يجذبها ويصده عن التقدم حتى تسفر السفراء بينهم، فإن وقع الصلح وإلا شدت تلك السلاسل في أعناقهم وتركوا والحرب فلم تقم له قائمة، ولم يزل أحدهم عن مركزه دون أن يقتل، وللعرب في قلوبهم هيبة عظيمة، فإذا عاينوا رجلا منهم سجدوا له، وقالوا: "هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر" لجلالة التمر عندهم وفي قلوبهم. ولهم الخطب وليس في الأمم كخطبائهم بألسنتهم، وفيهم من يتعبد فيستتر بجلد نمر أو جلد قرد ويأخذ بيده عصا ويقبل نحوهم فيجتمع إليه منهم جمع فيقف على رجله يوما إلى الليل يخطب عليهم ويذكرهم بالله جل ذكره ويصف لهم أمور من هلك منهم . ومن عندهم تحمل النمور الزنجية، وفيها حمرة وهجانة ولها كبر وسعة.

وفي البحر جزيرة تعرف بسقوطرا (=في بحر العرب تابعة لليمن) وبها منابت الصبر الاسقوطري، وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب، وأكثر أهلها نصارى، والسبب في ذلك أن اسكندر لما غلب على ملك فارس، كان يكاتبه معلمه ارسطوطاليس فيعرفه ما وقع عليه من الأرضين، فكتب إليه يؤكد عليه في طلب جزيرة في البحر تعرف بسقوطرا، وإن بها منابت الصبر وهو الدواء الأعظم الذي لا تتم الايارجات (=معجون مسهّل) إلا به، وأن الصواب أن يخرج من كان في هذه الجزيرة، ويقيم فيها من اليونانيين من يحوطها ليحمل منها الصبر إلى الشام والروم ومصر، فبعث أسكندر فأخرج أهلها عنها، وأنزل جمعا من اليونانيين فيها، وتقدم إلى ملوك الطوائف - إذ كانوا عند قتله دارا الكبير طوع يده - بالاحتفاظ بهم فكانوا في صيانة حتى بعث الله عيسى عليه السلام، فبلغ من بهذه الجزائر من اليونانية أمره فدخلوا في جملة ما دخلت فيه الروم من التنصر وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من سكنها من غيرهم، ولم يذكر في هذا الكتاب (=يعني الكتاب الأول الخاص برحلة التاجر سليمان) ما تيامن من البحر عند خروج المراكب من عمان وأرض

العرب وتوسطهم للبحر الكبير، وإنما شرح فيه ما تياسر منها إذ كان فيه بحر الهند والصين، وفيه كان مقصد من كتب ذلك الكتاب عنه. ففي هذا البحر الذي عن يمين الهند الخارج عن عمان بلاد الشحر، وهي منابت اللبان وأرض من أراضي عاد و حمير وجرهم، والتبابعة ولهم ألسنة بالعربية عادية قديمة لا يعرف أكثرها العرب، وليست لهم قرى، وهم في قشف وضيق عيش إلى أن تنتهي أرضهم الى أرض عدن وسواحل اليمن وإلى جدة، ومن جدة إلى الجار إلى ساحل الشام، ثم تفضى إلى القلزم وينقطع البحر هناك، وهو حيث يقول الله جل ذكره، وجعل بين البحرين حاجزا، ثم ينعرج البحر من القلزم على أرض البربر ثم يتصل بالجانب الغربي الذي يقابل أرض اليمن حتى يمر بأرض الحبشة التي تجلب جلود النمور البربرية منها، وهي أحسن الجلود وأنقاها، والزيلع وفيها العنبر والذبل وهو ظهور السلاحف.

ومراكب أهل سيراف إذا وصلت في هذا البحر المتيامن عن بحر الهند فصارت إلى جدة أقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم، إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه، وأنه لا ملوك في شيء من سواحله ولا عمارة، وأن المركب إذا سلكه احتاج في كل ليلة إلى أن يطلب موضعا يستكن فيه خوفا من جباله، فيسير النهار ويقيم الليل، وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير في بطنه ولا ظهره، وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب، وفي أفواه دوابه العاج وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبو والقرنفل والصندل وسائر الأفواه الطيبة الذكية وطيوره الفغاغي يعني الببغاوات، والطواويس وحرشات أرضه الزباد وظباء المسك وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره. فأما العنبر وما يقع منه إلى سواحل هذا البحر، فهو شيء تقذفه الأمواج إليه ومبدأه من بحر الهند، على أنه لا يعرف مخرجه، غير أن أجوده ما وقع إلى بربرا وحدود بلاد الزنج والشحر وما والاها وهو البيض المدّور الأزرق. ولأهل هذا النواحي نجب يركبونها في ليالي القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه، ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزنا كثيرا، وربما كان كهيئة الثور ودونه، فإذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه، فإذا حصل في جوفه قتله وطفا الحوت فوق الماء، وله قوم يراعونه في قوارب قد عرفوا الأوقات التي يوجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر، فإذا عاينوا منها شيئا اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب في ظهر الحوت فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه، فما كان يلي بطن الحوت فهو المند الذي فيه سهوكة وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقيا جدا، وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عمل من فقار ظهره كراسي يقعد عليها الرجل ويتمكن.

وذكروا أن بقرية من سيراف على عشرة فراسخ تعرف بالتاين بيوت عادية لطاف سقوفها من أضلاع هذا الحوت، وسمعت من يقول: إنه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة، فقصد للنظر إليها فوجد قوما يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف، والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرا يجتمع فيها الودك ويغرف من عينها إذا أذابت الشمس الودك (= الدهن) بالحرارة، ويجمع فيباع على



أرباب المراكب ويخلط بأخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد به خرزها، ويسد أيضا ما ينفتق من خرزها فيباع ودك هذا الحوت بجملة من المال. بدؤ خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عزّ وجلّ يقول (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) فاللؤلؤ يبتدى في مثل قدر الانجدانة (= نبات) وعلى لونها وفي هيئتها وصغرها وخفتها ورقتها وضعفها، فيطير على وجه الماء طيرانا ضعيفا ويسقط على جوانب مراكب الغاصة، ثم يشتد على الأيام ويعظم ويستحجر، فإذا ثقل لزم قعر البحر ويغذوا بما الله أعلم به، وليس فيه الا لحمة حمراء كمثل اللسان في أصله ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق. وقد اختلفوا في بدء اللؤلؤ، فقال قوم: الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حبا. وقال آخرون: إنه يتولد من الصدفة نفسها، وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد في الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيقلع، وهو الذي تسميه تجار البحر اللؤلؤ القلع والله أعلم.

ومن عجائب ما سمعنا من أبواب الرزق: أن إعرابيا ورد البصرة في قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوي جملة مال، فصار بها إلى عطار كان يألفه فأظهرها له، وسأله عنها، وهو لا يعرف مقدارها فأخبره أنها لؤلؤة، فقال: وما قيمتها قال مائة درهم فاستكثر الاعرابي ذاك، وقال: هل أحد يبتاعها مني بما قلت، فدفع له العطار مائة درهم فابتاع بها ميرة لأهله، وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من المال واتسع العطار في تجارته، فذكر العطار أنه سأل الأعرابي عن سبب اللؤلؤة، فقال "مررت بالصمان، وهي من أرض البحرين بينها وبين الساحل مديدة قريبة، فرأيت في الرمل ثعلبا ميتا على فيه شيء قد أطبق عليه، فنزلت فوجدت شيئا كمثل الطبق يلمع جوفه بياضا، ووجدت هذه المدحرجة فيه فأخذتها، فعلم أن السبب في ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق الريح، وذلك من عادة للصدف، فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة في جوفها، وهي فاتحة فاها وثب بسرعته فأدخل فاه في الصدف وقبض على اللحمة، فأطبقت الصدفة على فيه، ومن شأنها إذا أطبقت على شيء وأحست بيد تلمسها، لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد، ظنا منها باللؤلؤة وصيانة لها كصيانة المرأة لولدها، فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن في العدو يضرب بها الأرض يمينا وشمالا إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت، وظفر رزقا.

وملوك الهند تلبس الاقراط من الجوهر النفيس في آذانها المركب في الذهب، وتضع في أعناقها القلائد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره، وهو اليوم كنوزهم وذخائرهم، وتلبسه قوادهم ووجوههم. والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم، وعليه فوطة(= قطعة قماش)قد استتر بها وفي يده شيء يعرف بالجترة وهي مظلة من ريش الطواويس يأخذها بيده، فيتقى بها الشمس، وأصحابه محدقون به. ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم في غضارة واحدة ولا على مائدة واحدة يجدون ذلك عيبا فاحشا، فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا مائة نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدي كل رجل منهم طبقا فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه. وأما ملوكهم في بلادهم ووجوههم فإنه يتخذ لهم في كل يوم موائد، يسف خوص النارجيل سفا ويعمل منه كهيئة الغضار

والصحاف، فإذا أحضر الغذاء أكلوا الطعام في ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غذائهم رمى بتلك المائدة والغضار المسفوف من الخوص مهما بقى من الطعام إلى الماء واستأنفوا من غدهم مثله. وكان يحمل إلى الهند في القديم الدنانير السندية فيباع الدينار بثلاثة دنانير، وما زاد، ويحمل إليهم الزمرد الذي يرد من مصر مركبا في الخواتيم مصونا في الحقاق ويحمل البسد وهو المرجان وحجر يقال له الدهنج، ثم تركوه. وأكثر ملوكهم يظهرون نساءهم إذا جلسوا لمن دخل إليهم من أهل بلدهم وغيرهم لا يحجبن عن النظر إليهن.فهذا أجمل ما لحقه الذكر في ذلك الوقت على سعة أخبار البحر، مع التجنب لحكاية شيء مما يكذب فيه البحريون، ولا يقوم في نفس المرء صدقه، والاقتصار من كل خبر على ما صح منه وان قل أولى..).

على أنّ كتاب بزرك بن شهريار الرام هرمزي (عجائب الهند برّه وبحره وجزايره) المشهور، يكاد يقف بالتفصيل على كل المرويَّات الخاصة ببلاد الهند. إنه كتاب اخباري من الطراز الأول فيه سيل من المعلومات التي تبدو أحيانا أشبه بالغرائب. وهذا البحّار المحنّك كانت له قدرة كبيرة على وصف بحر الهند وجزائره، وقد استعان بذخيرة من المرويَّات التي تعود لشخصيات حقيقية أفنت أعمارها في الطريق البحري بين الخليج العربي والهند والصين. وتنهض مرويات الرام هرمزي دليلا على غزارة الأحداث الخاصة بعالم البحار.

21. عجائب الهند. بزرك بن شهريار الرام هرمزي (توفي بعد 340هـ = بعد 956م).

(إن الله تبارك وتعالى اسمه جل ثناؤه خلق العجائب عشرة أجزاء، فجعل تسعة منها في ركن المشرق وجزءا في ثلاثة أركان الأرض، التي هي المغرب والشمال والجنوب، ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها وجزءا في باقي المشرق.فمما في الهند ما حدثنا به أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويه بن حرام بن حمويه النجيرمي بالبصرة قال: كنت بالمنصورة في سنة ثمان وثمانين ومائتين وحدثني بعض مشايخها ممن يوثق به أن ملك الراء وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل وكان يسمى مهروك بن رائق كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية فأحضر عبد الله هذا رجلا كان بالمنصورة أصله من العراق حد القريحة حسن الفهم شاعرا قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرفه ما سأله ملك الراء، فعمل قصيدة، وذكر فيها ما يحتاج إليه وأنفذها إليه، فلما قرئت على ملك الراء استحسنها، وكتب إلى عبد الله يسأله حمل صاحب القصيدة فحمله إليه، وأقام عنده ثلاث سنين، ثم انصرف عنه. فسأله عبد الله عن أمر ملك الراء، فشرح له أخباره، وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام خوفا من بطلان أمره وذهاب ملكه.

وكان فيما حكاه عنه أنه سأله أن يفسر له القرآن بالهندية ففسره له، قال فانتهيت من التفسير إلى سورة يس. قال ففسرت له قول الله عز وجل: (قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)، قال فلما فسرت له هذا وهو جالس على سرير من ذهب مرصع بالجوهر والدر لا تعرف له قيمة قال لي: "أعد عليّ" فأعدت فترل عن سريره، ومشى على الأرض وكانت قد رشت بالماء

وهي ندية فوضع خده على الأرض وبكى حتى تلوث وجهه بالطين، ثم قال لي: "هذا هو الرب المعبود والأول القديم الذي ليس يشبهه أحد"وبنى بيتا لنفسه، وأظهر أنه يخلو فيه لمهمة، وكان يصلي فيه سرا من غير أن يطلع على ذلك أحد وأنه وهب له في ثلاث دفعات ستمائة منا من ذهب.وحدثني أن لأهل قشمير الأعلى يوم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ويصعد خطيبهم على منبر ومعه جرة من طين غير مطبوخ فيخطب ثم يقول: وقوا أنفسكم وأموالكم واحفظوها، ويعظهم ثم يقول انظروا إلى هذه الجرة من طين وقيت وحفظت فبقيت وأن لتلك الجرة على ما يقولون أربعة آلاف سنة.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن بابشاد بن حرام بن حمويه السيرافي، وكان أوجه النواخذة (= الربّان) الذين سافروا إلى بلاد الذهب وأعرف خلف الله بأمر البحر، ومن جلة البحريين ومستوريهم أن بأغباب (=أودية) سرنديب بلادا يقال لها إبرير، بلد عظيم فيه نيف وثلاثون سوقا كل سوق منها طوله نصف ميل وبه الثياب الغُبِّيَّة المرتفعة الحسنة، وهو بلد راكب على نهر كبير يصب في بحر الأغباب، ولأهل هذه البلدة نحو من ستمائة بد (=معبد) جليلة سوى الصغار، وهو نحو أربعمائة بريد، وبظاهر البلد جبل يجري تحته عين ماء، وإلى جانب الجبل شجرة من نحاس وصفر عظيمة فيها شوك مثل السفافيد أو المسال وبإزائها صنم عظيم في صورة زنجي عيناه من زبرجد ولهم يوم عيد في كل سنة عند ذلك الصنم فيخرجون إليه ويصعدون فوق الجبل، فمن أحب التقريب إلى ربه شرب وغنى وسجد للصنم مرارا ورمى بنفسه من فوق الجبل على تلك الشجرة فيتقطع منه قطعا، ومنهم من يرمي بنفسه على دماغه فوق حجر عظيم يجري عليه ماء العين تحت الصنم الأسود فيُطحن فوق الحجر إلى نار الله. وحدثني أن بقنوج من بلدان الهند من تأخذ الفوفلة (=ثمار صلبة كجوز الهند) بين شفريها فتكسرها قطعا من شدة ما تضغطها. وحدثني أنه سمع في حداثته أن مردويه بن زرايخت وكان أحد ربانية الصين وبلاد الذهب ذكر أنه كان مجتازا بناحية جزيرة الزابج وأنه سلك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر قدر أنهما جبلين في الماء وأنه لما جاوزهما غاصا في البحر فقدر أنهما ظفري سرطان. فقلت لأبي محمد أحكي عنك هذه الحكاية. فقال لي: قد سمعت بها وهو شيء عظيم ما أدري ما أقول فيه إلا أن السرطان يعظم في البحر جدا.

وحدثني إسماعيل بن إبراهيم بن مرداس الناخذاه وكان من بقية نواخذة بلاد الذهب وهو المعروف بإسمعيلويه ختن اشكنين أنه في بعض سفراته إلى بلاد الذهب كان قرب من البر بقرب لامري لعيب لحق المركب احتاج معه إلى أن يمسك المركب فإنه رمى بالأنجر (= المرساة) فلم يقف به المركب ومضى على حاله فلم يعرف السبب في ذلك. فقال للغايص تنزل مع حبل الأنجر وتعرف خبره، وأن الغايص لما أراد النزول نظر وإذا الأنجر بين ظفري سرطان، وهو يجر المركب ويلعب بالأنجر، فإنهم صاحوا وطرحوا في الماء الحجارة ورفعوا الأنجر ثم طرحوه في موضع آخر، وأن وزن الأنجر ستمائة منا أو أكثر. وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو أن بعض النواخذة حدثه أنه جهز مركبا له إلى الزابج فوقعوا إلى قرية من قرى جزائر الواقواق؛ لأن الريح طرحتهم إليها فلما رأوهم أهل القرية هربوا في الصحاري بما أمكنهم أن يهربوا به من أموالهم، وأن أهل



المركب أيضا تهيبوا النزول لأنهم لم يرفوا البلد ولا عرفوا سبب هرب القوم مما هو، ومكثوا في مركبهم يومين لا يجيئهم أحد ولا يخاطبهم على وجه ولا سبب، وأوجدوا رجلا من أهل المركب يعرف لغة الواقواقين ومضى مغررا، وخرج من القرية إلى الصحاري فوجد رجلا قد صعد شجرة وأخفى نفسه فيها وكلمه ورفق به فأطعمه قطعة تمر كانت معه، وسأله عن سبب هرب أهل القرية وآمنه على نفسه ووعده بشيء يهبه له إن صدقه، فقال: إن أهل القرية لما بصروا بالمركب قدروا أنهم يريدون أن يغيروا عليهم وهربوا مع ملكهم في الصحاري والغياض. قال فجاء بالرجل إلى المركب وأنقذوه مع ثلاثة نفر من أهل المركب إلى ملك القوم برسالة جميلة وأمنوه على نفسه وأهل بلده وحمّلوه إليه ثوبين وشيئا من التمر والسقط هدية، وطابت نفسه وعاد مع سائر أهل البلد وأقاموا معهم وتسوقوا بما في المركب من الأمتعة، ولم يمض عشرون يوما حتى وافى أهل قرية أخرى مع ملكهم لمحاربة هذا الملك فقال لهم الملك إعلموا أن هؤلاء القوم قد جاءوا لمحاربتي وأخذ مالي لأنهم قدروا أنه قد صار إلي من هذا المركب جملة، فعاونوني عليهم وادفعوا عن أنفسكم وعني. قال: وصبحنا القوم على باب القرية وخرج إليهم هذا الملك وسائر أهل القرية مع بانانية (=صغار الملاحين) المركب ومقاتلته ومن نشط للحرب من تجاره وأهله، وكان في جملة أهل المركب رجل أصله من العراق خبيث فلما اشتد الحرب بين القوم أخرج الرجل من حجرته ورقة كبيرة فيها حساب له ونشرها ورفعها بيده إلى السماء وتكلم بكلام يرفع به صوته، فلما رآه القوم تركوا الحرب وجاءت طائفة منهم إليه، وقالوا: لا تفعل هذا ونحن ننصرف عنكم ولا نأخذ شيئا، وجعل بعضهم يقول لبعض لا تحاربوا فإن القوم قد رفعوا أمرهم إلى ملك السماء والساعة يغلبونا ويقتلونا. ولم يزالوا يضرعون إلى الرجل حتى ردّ الرقعة إلى حجرته وانصرفوا بعد أن أثخنوا القول كأني والقوم يملكون القرية وما فيها.

قال هذا الناخذة ولما كفينا أمرهم رجعنا إلى بيعنا وشرائنا وتسوقنا على الرسم واستخدمنا ملك القوم، ولم نزل نحتال على أهل القرية ونسرق أولادهم ونشتري بعضهم من بعض بالفوطة والتمر والشيء اليسير حتى صار معنا في المركب نحو مائة رأس من الرقيق كبارا وصغارا، فلما مضت علينا أربعة أشهر وقرب وقت الرجوع قال لنا القوم الذي اشتريناهم وسرقناهم: لا تحملونا، واتركونا في بلدنا فإنه لا يحلّ لكم أن تستعبدونا وتفرقوا بيننا وبين أهلنا، فلم نلتفت إليهم وكانوا في المركب منهم مقيد ومنهم مشدود وصغارهم مطلقون، وفي المركب البانانية خمسة أنفس يرون أمر المركب ويقومون بإطعامهم، وبقية أهل المركب في القرية، فعمدوا إلى البانانية في بعض الليالي فشدوهم بالحبال ورفعوا الأنجر والشروع وسرقوا المركب في جوف الليل، وأصبحنا فلم نجد المركب فبقينا وقد طلع بنا ليس منا شيء ولا لنا حيلة إلا الشيء الطفيف الحقير الذي في القرية مما يخلف في الأيام، ولم يجئنا أحد بخبر للمركب، فأقمنا ضرورة شهورا إلى أن بنينا قاربا لطيفا يحملنا وخرجنا على أقبح صورة فقرا.

وحدثني أحمد بن علي بن منير الناخذاه السيرافي وكان أيضا من بقية النواخذة الذين سافروا البحار ومضى لهم الإسم والصيت في البحر أن بعض شيوخ الهند حدثه بسرنديب أن مركبا كسر له فسلم نفر من

أهله في القارب ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند فبقوا بها مدة إلى أن مات أكثرهم وبقي منهم سبعة وكانوا مدة مقامهم قد رأوا طيرا عظيما يقع في الجزيرة ويرعى فإذا كان وقت العصر طار فلم يدروا إلى أين يمضي، فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله لما ضاقت صدورهم وعلموا أنه لا بد من الموت، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر وإن كان يطرحهم بقرب بلد بهو الذي يتمنونه وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه. فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر وجاء الطائر على الرسم فرعي، فلما جاء وقت انصرافه تلطف الرجل في الدنو منه وتعلق أخذا برجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر فطار به في الهواء وهو متعلق بفخذيه وقد جعل رجليه مشتبكة برجليه فعبر بحرا وطرحه وقت غروب الشمس على جبل فحل نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ ومرّ به وما عاين من الأهوال، فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد فقام ينظر فإذا راعي غنم فسأله بالهندية عن الموضع فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبنا فتحامل حتى دخل القرية. و لم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب وركبوا في مركب وأنهم حدثوا بأمر كسر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ .

وحدثني أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي أنه رأى بعُمان في سنة ثلاثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان وجزَرَ الماء عنها فصيدت فسُحبت إلى البلد فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعِظمها، فإنها ذُرعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذرعا، وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم. وحدثني اسمعيلويه الناخذاه أن هذا السمك كثير ببحر الزنج وبلجّة سمرقند ويقالله الوال(= جنس من الحيتان)وهو بكسر المراكب مولع فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وضربوا الطبول، وأنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ويبين من بُعد مثل شرع المراكب، وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيُرى من بعد أيضا مثل شرع القوارب. وحدثني عن بعض المراقبين ممن يضبط أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحا، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني وكان حمل في سنة عشر وثلاثمائة من عُمان إلى المقتدر من ذلك السمك، وأن فك سمكة رُفع من الروشن و لم يدخل من الأبواب، وحدثني أن هذه السمكة التي حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمسمائة جرة أو زيادة عليها دهنا.

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو أنه سمع بعض البحريين يحكي أنه خرج في مركب من عدن إلى جدة وأن سمكة نطحت بحذاء زيلع المركب نطحة منكرة لم يشكك أهل المركب أنها قد كسرته، وانحدر الربانية إلى الجمّة (= قاع المركب) فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه فعجبوا من ذلك إذا كانت هذه النطحة العظيمة لم تؤثر فلما وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر فوجدوا رأس السمكة في جوف المركب قد سُجن وسد الموضع حتى ليس فيه خلل، وإذا هي نطحت المركب و لم يمكنها الخلاص فانقطعت من حلقها وبقي

رأسها في موضعه، وذكر أنه لم يزل يرى السمك الكبار والصغار يُصاد فيشق جوفه فيوجد فيه سمك فيشق جوفه فيوجد فيه سمك وهذا يتفق أن تأكل السمكة سمكة قد أكلت سمكا. ومن ظريف ما حدثني به محمد بن بابشاد بن حران أنه كان بسيراف وقد خرج منها مركب إلى البصرة ووقع فيها خبّ بعد خروجه بأيام فانقطعت المراكب وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخر المراكب، وكان في ذلك المركب خلق من كالركاب وغيرهم وأمتعة لها قدر، وأن امرأة اشترت سمكا وكانت تنظفه فوجدت في واحدة منهم خاتما فنظرت إليه فإذا هو خاتم أخيها وكان ممن ركب في ذلك المركب فارتفع الصراخ وشاع الخبر فصارت منازل جميع من كان له في المركب قريب أو حميم أو صديق مأتما، ثم جاء الخبر بعد أيام أن المركب انكسر و لم يسلم منها أحد.

وحدثني بعض الربانية أن سمكة سارت مع مركبة بنواحي اليمن يوما وليلتين وبعض أيام لم تفارقه و لم تتقدم عنه و لم تتأخر عنه قدر مسيرهم معها زيادة على مائة وسبعين فرسخا وأنها كانت بطول المركب سواء وكان طول مركبه خمسين ذراعا بذراع العمل من مشعر الإبط إلى طرف الإصبع الوسطى، فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر الجزيرة مع المراكب ومحاذاتها، فقال ذلك يختلف فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتلتقمه أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه فصارت إذا رأت مركبا حاذته طمعا أن يحدث منه ما حدث من غيره وظنا منها أن المراكب كلهم يكونون كما وجدت في الأول فصارت كأنها ضارية على ذلك، ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيوانا بعضه في الماء وبعضه في الهواء فيمرح معه ويجاريه عشقا له وتأنسا به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيا فيفارق، ولا صبر للحيوان على مضاهاة الحمار، ومنها ما يجاري المركب على سبيل المغايرة(= المنافسة) والمعاندة والمقاواة، فإذا أعيى وقصر ورأى المركب تتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة فإن سلم وإلا فنسأل الله العفو، ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب فتحمل عليه حملات حتى تقلبه فتلتقط ما فيه لعادة واستمرار، نسأل الله العافية، ومنها ما إذا رأى المركب يفر منه وهرب وذعر خوفا على نفسه واستيحاشا منه، وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر والجزائر والسواحل، وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين.

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذاه وكان من عظماء أهل سيراف وكان مجوسيا على دين الهند وكان عندهم أمينا يقبلون قوله ويستودعونه أموالهم وأولادهم فأسلم وحسن إسلامه وحج بمخاطبته امرأة من جزيرة النساء، وذلك أنه سافر رجل في مركب له عظيم ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد وهم يسيرون في بحر ملانو، وقد قربوا من أطراف أرض صين، وأبصروا بعض جبالها فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التي يقصدونها فلم يسعهم إلا الإنصراف معها حي توجهت وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم له، ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل (= النجم الجنوبي)، ومن اضطر في ذلك إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحرا لا رجعة له منه وتنكس في لجة هابطة إلى الجنوب مصوبة إلى تلك الجهة، فكلما



مرت المركب علا ما وراءها من جهتنا وهبط ما بين يديها من تلك الجهة فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره وهوت في لجج البحار المحيطة، فلما رأوا أمرهم يؤدي إلى الدخول تحت سهيل ودخل عليهم الليل وأظلم وأدلهم وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره بينهم وبين النجوة فلم يروا بما يهتدون به وهو البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب وهم يجرون في قار وضباب طول ليلهم، وأصبح عليهم فلم يشعروا به لشدة ظلمة ما هم فيه واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته، فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلكة قد حكم عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبهم ينط ويئن ويتقصع ويتتعتع (= يرتج)، توادعوا وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيهن بين الليل والنهار، فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم نارا عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا وفزعوا إلى ربانهم. وقالوا له يا ربان ما ترى هذه النار الهائلة التي ملأت الآفاق ونحن نجري إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق والغرق أحب إلينا من الحريق، فبحق معبودك ألا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة لا يرى أحد منا الآخر ولا يدري ما كانت ميتته ولا يتجزع لوعة صاحبه وأنت في حل وبل مما يجري عليها فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة، فميتة واحدة أروح، فقال لهم إعلموا أنه قد يجري على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر، ونحن معشر رباينة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها، فأصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء.

قال فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وندم كل منهم شجوة (= نوبة بكاء)، وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادي رجاله بجذب حبل أو إرخائه يُصلح شأن المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوي البحر وحسن تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشموع والحبال وضجيج الخلائق، فأشرف المركب على التلاف بعطلة الرجال وعدة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح. قال وكان في المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر و لم يشعر به ربان المركب وكان في زاوية من المركب مهجورة وهو مختف فيها خوفا أن يعلم به فيؤبث(= يغضب عليه)ويوبخ، فلما رأى القوم وما نزل بالناس وما هم عليه من الأخطار بأنفسهم ومركبهم وأنهم قد صاروا عونا مع أهوال البحار على نفسهم مسرعين لهلاكهم، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حاله معهم ما كان، فخرج إليهم وقال لهم: ما شأنكم انفتح المركب؟قالوا: لا. قال: فانكسر السكان. قالوا: لا. قال: نركبكم البحر؟ قالوا: لا. قال"فما شأنكم؟ قالوا له: كأنك ليس معنا في المركب، ما تنظر هول هذا البحر وأمواجه، وظلمة الهواء الذي لم تر معه نهارا ولا شمسا ولا قمرا ولا نجوما نهتدي بها وقد دخلنا تحت سهيل وحكمت البحار والرياح علينا، وأشد ما عاينا هذه النار التي نحن نجري إليها وقد ملأت الأفق، والغرق أهون علينا من الحريق، وقد سألنا الربان أن يقلب المركب بنا في البحر والظلمة لا يرى واحد منا إلى صاحبه ونموت غرقا ولا

نموت حرقا يرى بعضنا بعضا ونسمع ما تفعل النار فيه؟. فقال: أوصلوني إلى الربان، فأطلعوه إليه فسلم عليه بالهندية، فرد عليه ويعجب منه لإنظاره له. وقال: من أنت من التجار أم من أتباعهم، فلا نعرفك في رجال المركب؟ قال له: ما أنا من التجار ولا من أتباعهم، قال: فمن أطلعك وما بضاعتك؟ قال له: أما من أطلعني فإني طلعت في جمهور الناس ليلة الإسراء، وأويت إلى مكان في المركب، قال: من أين تأكل؟ ومن أين تشرب؟ قال: كان بنيان المركب يضع كل يوم قريبا مني صحفة أرز بسمن لملائكة المركب ومنشل المركب ماد، فكنت أتقوت بذلك وأما بضاعتي فقربة عجوة. قال: فتعجب الربان منها واشتغل الناس بسماع حديثه عن ما كان إليه من الضجيج، وأصلح الرجال أدوات المركب ومشى فيهم مناد بتدبير الإقلاع، واهتدى المركب. فقال الشيخ: يا ربان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون؟ قال له: أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التي ملأت الأفق؟ والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ ومع أبي، وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائي فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا خبر عنه. فقال يا: ربان لا بأس عليك ولا خوف نجوتم بقدرة الله، هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض فتنظر بالليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء، وهذه النار ترى من بلد الأندلس، وقد عبرت عليها مرة وهذه الثانية .

قال: فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم، وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف وتناقص الريح، وصار البحر رهوا، والريح رخوا، وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس، وأصبحت السماء، وأشرفوا على الجزيرة، وتخيروا مرسى كنينا، ووردوا الجزيرة بجملتهم، ويطرحون أرواحهم على الرمال، ويتمرغون على الأرض شوقا إليها. ولم يبق منهم في المركب أحد، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، فوقع على كل رجل منهم ألف امرأة أو أكثر، فلم يلبثوا أن حملوهم إلى الجبال وكلفوهم الاستمتاع بهن، قال: فلم يزالوا على ذلك وكل من قويت على صاحباها أخذت الرجل منهن، والرجال يتماوتون من الاستفراغ أولا فأولا، وكل من مات منهم يتواقعن عليه..لنتن رائحته فلم يبق منهم سوى الشيخ الأندلسي فإنه جاءته واحدة فكانت تزوره في الليل فإذا أصبح أكنّته في موضع قريب من البحر وجاءت له بشيء تقوته به، فلم يزل بذلك إلى أن انقلب الريح من تلك الجزيرة إلى الجهة التي خرج المركب منها من الهند، فأخذ الشيخ قارب المركب الذي يسمى الفلوك، ورفع فيه في الليل ماء وزادا، فلما فطنت به المرأة أخذت بيده وجاءت به إلى موضع فنبشت في التراب بيديها عن معدن تبر فنقلت هي وهو منه ما صبر به القارب وأخذها معه وأسرى عن عشرة أيام، وهو بالبلد التي خرج المركب منها فأخبرهم الخبر، وأقامت المرأة معه إلى أن تفصحت وأسلمت ورزق منها الأولاد، وسألها عن تلك النسوان التي في الجزيرة وانفرادهم دون الرجال، فقالت له نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها وكل من في أقاليمنا ومدننا

من الملوك والرعايا يعبدون هذه النار التي تظهر لهم في الليل في هذه الجزيرة يسمونها بيت الشمس لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي وتغرب في جانبها الغربي فيظنون أنها تبيت في هذه الجزيرة فإذا أصبح وشرقت الشمس من جانبها الشرقي خفيت نارها وماتت وارتفعت الشمس، فيقولون: هي هي، وإذا غربت في جانبها الغربي، وأمسى ظهرت النار فيقولون: هي هي فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات. ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكرا وثاني بطن أنثيين، وكذلك باقي عمرها فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النسوان، فلما كثروا وأرادوا يغلبون على الرجال صنعوا لهم المراكب وحملوا منهم آلافا وطرحوهم في هذه الجزيرة، ويقولون للشمس ياربهم أنت أحق بما خلقت وليس لنا بهم طاقة فيبقوا فيها ويتماوتون فيها بعضهم على بعض، وما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة، وإن بردنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع، ولا يجسر أحد يفارق الساحل والبر خوفا من أن تشربه البحار، وذلك تقدير العزيز العليم تبارك الله أحسن الخالقين.

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذاه عن خال له يسمى ابن انشرتوا قال: حدثني خالي عن أبيه وهو جد البرختي لأمه قال: أسريت في مركب لي كبير ونحن طالبين جزيرة قَنصور فأسقطنا الريح إلى جون (=خليج) أقمنا فيه ثلاثا وثلاثين يوما في ركود لا ريح فيه ونحن متخليين (=بلا حركة) على وجه البحر ولا تلحق شباكنا قرار البحر على عمق ألف باع والتيار يصبي بالمركب ونحن لا ندري، إلى أن أدخلنا التيار بين جزائر، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن فأنفعنا بهن وأسندنا إليهن فلما قربنا منهن هاربن في الجزيرة. وجاءنا رجال ونساء عقال عارفون فلم ندر لغتهم، فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا، فأشرنا إليهم أعندكم طعام تبيعونا؟ قالوا: نعم، فجاءونا بالأرز الكثير والدجاج والغنم والعسل والسمن والأدم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه، فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والسقط والثياب وأشرنا أعندكم بضائع نشتريها منكم؟ فقالوا: ما عندنا إلا الرقيق، فقلنا لهم مبارك: احضروا الرقيق، فأتونا بالرقيق ما رأينا أحسن منه ضحوك السن يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا غير أن رؤوسهم صغار وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة لا تغادر، فقلنا لهم: ما هذا؟ فتضاحكوا وقالوا: أهل هذه الجزائر كلهم كذلك، وما عليكم من ذلك، وأشاروا إلى السماء أي الله تعالى خلقنا كذلك، فأغضينا عن ذلك وقلنا هذه فرصة، ورأيناها غنيمة فاشترى كل منا بجهد ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وفرغنا المركب من البضائع وشحناه رقيقا وزادا، وكلما اشترينا شيئا جاءونا بما هو أنظف منه وأحسن، فشحنا المركب بخلق ما رأى الراؤون أحسن منه ولا أجمل، فلو أتم لنا لاستغنينا إلى عقب العقب، قال: فلما حان السفر، وعصفت لنا الرياح من صوب الجزاير إلى نحو بلادنا وشيعونا، وقالوا لنا: تعودوا لنا إن شاء الله، وطمعنا وطمع رباننا في العودة بمركبه وحده بغير تجار فكان ليله كله هو ورجاله يوقفهم على النجوم ويثبتهم على منازل الكواكب وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة، وفرحنا غاية الفرح والسرور وسرينا من الجزيرة بريح

عاصف من أول النهار، فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذي معنا فضاقت صدورنا على بكائهم، ثم قال بعضهم لبعض، وقالوا: تبكون لأي شيء قوموا بنا نرقص ونغني؟ فقام الرقيق جميعه يرقصون ويغنون ويتضاحكون، فأعجبنا ذلك منهم وقلنا هذا أصلح من البكاء، واشتغلنا كل واحد منا بشأنه فما لهؤلاء إلا أن أصابوا منا غفلة وتطايروا والله في البحر تطاير الجراد والمركب يجري في موج كالجبال كالبرق الخاطف، فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب بنحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون فعلمنا أنهم ما فعولا بنفوسهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول ذلك البحر، و لم يمكنا الرجوع إليهم وآيسنا منهم فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج(= قمرة المركب)، فلما مضوا هؤلائك نزل إلى محلها فوجدها تريد أن تثقب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقيدها. وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند فبعنا الأزواد التي كانت معنا وتقاسمنا أثمانها فصح لكل أحد عُشر رأس ماله.

فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير بعينها قد أُخذ صغيرا وبقي في الهند إلى أن هرم، فقال لنا: أنتم وقعتم إلى جزائر تسمى جزائر الحوت، وهي بلدي ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر واضطجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر فتنتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلائك، فيجتمع المشتبهة مشتبهة المشتبهة، وذلك في قديم الدهور فجئنا صابرون على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا، وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزايري الذي أخبرنا عن سر الذي فيهم قد قال لوالدي: لا تتخلّ عنها فتطرح نفسها في البحر وتمضي فلا تراها أبدا فإن نحن لا صبر لنا عن الماء، ففعل بها كذلك، ولما كبرنا نحن وتوفي والدنا وكنا نلومه في تقييدها بغير علم، فلما مات ما كان لنا بعده عملا إلا أن أطلقناها من القيد رحمة لها وإبرارا وحنوا عليها، فخرجت كأنها الفرس السابق وانطلقنا خلفها فلم ندركها. فقال لها بعض من قرب إليها: تمضي وتخلي أولادك وبناتك؟ فقالت"انشرتوا"معناه ما أعمل لهم؟ وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق البارىء المصور، تبارك الله أحسن الخالقين. قال أبو محمد الحسن بن عمرو: وشاهدت من أضلاع السمك ضلعا حمله إلينا بعض أرباب المراكب فقطع منه قطعة من جانبه الغليظة نحو خمسة أذرع فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة فقام مقـــام القنطرة وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعا. وفي البحر سمك تحارب السمك ولا يثبتون له وله خراطيم تعمل كالمناشير إلا انه من الجانبين مثل أسنان المنشار فإذا ضرب السمك قطعه فإذا مات هذا السمك أو صيد أخذ تلك الناحية هذه الخراطيم التي كالمناشير يستعملونها في الحرب بينهم فتعمل عملا عظيما أحدّ من السيوف.

وحدثني بعض أهل المراكب العارفين عن شيخ من شيوخ الربانية أنه كان خارجا من سيراف وكان معه في الكنبار رجل في مطيال (= ضرب من القوارب) فخاصم في بعض الأيام رجلا من أهل المركب وافترى عليه وأفرط وأمسك الرجل عنه لأنه كان غريبا لم ينصره أحد و لم يعاونه وكان المفتري قد ركب معهم بوسيلة شفاعة وعناية قوية، قال فما مضى بعد الخصومة ثلاث ساعات حتى طفرت من البحر كنعدة (= نوع من

الأسماك) فبقرت برأسها بطن الرجل الجالس في المطيال وتخلصت من الجانب الآخر، فسقطت في البحر وكفنوا الرجل ورموا به إلى الماء. وكنت أسمع بأمر السلاحف فاستظرفه وأنكره لما يحكى مما لا يقبله العقل، فحدثني أبو محمد الحسن بن عمر أنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدّث أن مركبا خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من يد صاحبه بقوة الشرتا (= الريح) وعاب المركب فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجرا ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها ففرغوا حمولة المركب إلى الجزيرة وأقاموا مدة حتى أصلحوا العيب وردوا الحمل إلى المركب وعزموا على الخطوف فاتفق لهم يوم نوروز فجمعوا من خشبيات معهم وخوص وقماش وأوقدوه فتحركت الجزيرة من تحتهم وكانوا بقرب الماء فرموا أنفسهم إلى الماء وتعلقوا بالقارب والدونيج (= زورق) وغاصت الجزيرة فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا على الغرق وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم وإذا بها سلحفاة نائمة على وجه الماء ولما أحست بحر النار ولدغها هربت، وسألت عن السبب في ذلك فقال: إن السلحفاة لها أياما في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال، وفي البحر غابات وشعارى (= شجر بحري) وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض فتخرج على وجه الماء تمكث أياما تسدر كالسكران فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هي فيه غاصت، وربما اجتمع الذكر بالأنثى فيكون بينهم السفاد وهم طائفي على وجه الماء.

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو عمن حدثه من شيوخ البحر أنه دخل الأغباب وجالس بعض ملوك الأغباب فقدم إليهم طعاما يأكلونه وكان فيما قدم غضارة فيها ألوان مطبوخة برؤوس وأيدي وأرجل تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم، قال فعفت نفسي ذلك الطعام ورجعت عن أكل طعامه بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن لذلك فأمسك، فلما كان من الغد حضرت عنده فكلم أصحابه بشيء فوافوا بسمك يحملونه لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدفة ما شككت في أنه ابن آدم، فقال لي الملك: الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا، هو أطيب من سمكنا وأعذب وأخف وأقل ضرا، قال فكنت أكله بعد ذلك. وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه بني آدم وأجسامهم لها الأيدي والأرجل وأن الصيادين المتغربين الفقراء المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك المعالجين فيها طول أعمارهم إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالدوا بينهم نسلا شبيها لبني آدم يعيش في الماء والهواء وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك ويتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البري فيتوالد فيهم القردة والنسانيس وغير ذلك مما يشبه ابن آدم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس وكان بينهما الفيلة، وكما يجتمع الكلاب والمعز وكان بينهما الخنازير، وكما يجتمع الحمير والخيل وكان بينهما البغال، ولو ذهبنا نعد ما تنتج من الاجتماع للأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة .ويقال إن سمكا يقال له الظلوم على صورة الآدمي وله فرج كفرج الناس الذكر والأنثى يصاد وله جلد

أثخن من جلد الفيل يدبغ ويستعمل للأخفاف، ويقال إن كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض في البحر من السمك مثله أو ما يشبهه. ولقد رأيت في جون إيلة (= العقبة) من البلاد الشامية سمكا صغيرا لونه يشبه لون الشقراق لا يغادر يطير من الماء ويغوص فيه.

ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل، فإن الأمواج إذا اضطربت وتكسرت بعضها على بعض إنقدح منه النار فيخيل إلى راكب البحر أنه يسير في بحر نار. وحدثني أن في البحر حيات يقال لها"التنين"عظيمة هائلة إذا مرت السحاب في كبد الشتاء على وجه الماء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه لما يجد في البحر من حرارة الماء، لأن ماء البحر في الشتاء يسخن كالمرجل فيسجن هذا التنين ببرودة السحاب فيها وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن الماء ويستقل التنين في السحاب وتتراكم وتسير من أفق إلى أفق، فإذا استفرغت مما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء وتفرقت وقطعتها الرياح فلا يجد التنين ما يتحامل عليه فيسقط إما في البحر وإما في البر، فإذا أراد الله تعالى بقوم شرا أسقطه في أرضها فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم ويبقى حتى لا يجد شيئا يأكله فيموت أو يهلكه الله. ولقد حدثني أهل البحر والسفارة تجار وربانية أنهم أبصروه غير دفعة في السحاب يعبر على رؤوسهم أسود ممدود في السحاب كلما تراخى هبط إلى أسفلها ورسب وربما تدلى طرف ذنبه في الهواء، فإذا أحس ببرد الهواء زح نفسه (=تنحّى) وتحامل في السحاب وغاب عن الأبصار، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وحدثني أبو الزهر البرختي عن حيات بلاد الهند فقال: حدثني رجل طبيب هندي من أهل سرنديب قال لي: هذه الحيات في أرض الهند ثلاثة آلاف ومائة وعشرين جنسا أخبثها جنس في أرض تاكا، إذا هبت الريح من جهتهم قتلت من تمر به من جميع الحيوان الطائر والداب والمنساب عن ثلاثة فراسخ، ولذلك أن أرض تاكا لا يعمرها الأقوام للرياح أياما معلومة إن هبت الريح أقاموا أيامها فإن جاءت هبوب الرياح من جهة أرض تلك الحيات تبادروا وركبوا الدونج ودخلوا إلى جزائر البحر، فإذا انقضت أيام تلك الرياح تنادوا وعادوا وحرثوا وزرعوا واستخرجوا المعادن، وذلك أن أرض تاكا هي معادن الذهب والفضة . وفي كل عام يأتيهم من داخل البرية الشرقية سيول تحمل إليهم طيبا. سوى بني آدم فرمته الرياح إلى بعض المراسي من بلاد البجم، فصعد هو وأصحابه إلى غيضة من تلك الجزائر فيها أخشاب قد مضت عليها الدهور مطروحة قد وقع بعضها على بعض فطاف في الغيضة يطلب دقلا (= سارية) لمركبه فوقع اختياره على دقل أملس حسن في نهاية الاستقامة والغلظة، والخشب فوقه مشوش كما قد وقع في طول الأيام فقدره فوجده زائدا على حاجته فأحضر المنشار ليقطع منه خمسين ذراعا بمقدار حاجته، فلما وضع المنشار عليه وابتدأ ينشر تحرك وانساب، وإذا هو حية فتبادروا إلى الماء فألقوا نفوسهم فيه ولحقوا المركب وسلموا منه .

وحدثني محمد بن بابشاد عن علاّمة أنه سافر من الهند إلى الصين، فبينما هو يسير في بعض البحر فحان وقت الصلاة الأولى فهبط إلى المتوضأ ليجدد الوضوء إلى الصلاة فنظر إلى البحر فلم يلبث أن قام وعاد ولم يتوضأ وكان كالمذعور وقال: يا رجال سوء إرخوا الشراع، ففعلوا. فقال: اطرحوا كل ما على ظهر المركب

في البحر، ثم نزل إلى قريب من الماء ثم طلع مذعورا، وقال: يا تجار أي شيء عندكم أحب لكم أموالكم التي منها ألف عوض أو نفوسكم التي لا عوض لها؟ فقالوا: وأي شيء جرى علينا حتى تقول لنا هذا القول؟ ريحنا رخو وبحرنا رهو ونحن سالمين في كنف رب العالمين، فقال لهم: ليشهد بعضكم على بعض، وليشهد لي رجال المركب على هؤلاء التجار إني قد نصحت لهم قبل الكون فلم يقبلوا وأنا استودعكم الله تعالى، وقال لصاحب القارب: قدمه لي، فترل فيه وأنزل معه فيه ماء ورجالا وزادا، فلما عزم على مفارقتهم قالو له: إرجع ونحن نفعل ما تأمرنا به، فقال: والله ما أرجع حتى تطرحوا كل ما معكم في البحر عن طيب أنفسكم بأيديكم، قال: فرمموا ما بأيديهم ما عزّ عليهم وهان، و لم يبق في المركب سوى بني آدم وزادهم ومائهم فقط، قال فرجع وطلع المركب، وقال لهم: لو عملتم ما يجري لكم وللمركب في جوف هذه الليلة فتطهروا وصلوا وأخلصوا توبة إلى ربكم واسألوه العفو، قال: ففعلوا فلما كان الليل فتح الله سبحانه أبواب السماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض ورفعت أمواج البحر إلى السحاب وحملتها إلى التراب وطمرت من السفن في البلاد والسواحل وفي وسط البحر وقل من سلم منها، ومركب القوم قد ألهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليها من ثقل وغيره، وكان كلما جاش البحر عليه خف وعلا على الأمواج وطفا على البحر وهم يقرأون ويدعون ويبتهلون ولا يأكلون ولا يشربون ثلاثة أيام بلياليها، فلما كان اليوم الرابع أمر الله عز وجل الرياح فسكنت والبحار فهدأت، وأذهب الله ذلك كما عرف من عوائد قدرته سبحانه، فطرحوا قارب المركب من جوفه وجعل فيه الربان المجاديف وقدمه بين يدي المركب يجرونه يوما وليلة فأشرفوا على جزيرة قد طرح إليها البحر كل ما أفسده ذلك الخب من المراكب والأزياء والبضائع والمتاجر من آفاق البلاد، فأرسوا بمركبهم فيها ووجدوا عدة مراكبهم فيها بعينها، فرفعوها وردوها إلى مواضعها من مركبهم واختاروا على أعينهم ما أحبوا من البضائع السالمة وواروا من وجدوه من الغرقاء واستقوا، فلما استوى لهم الإقلاع وهبت بموافقتهم الرياح اشرعوا نحو ديارهم وساروا معافين ووصلوا سالمين، فوجدوا فيما معهم من البضائع للدرهم عشرة، وربحوا الغنى والعافية والحمد لله رب العالمين.

وأخبرني شيخ من شيوخ البحر أن قرية كبيرة من أعمال الصنف انتقل أهلها من أجل حية كانت بالقرب منهم أكلت مواشيهم وجمعا من أهلها، وأن الحيل أعيتهم فيها فانتقلوا أهلها عنها وخربت القرية و لم يعد إليها أحد.وأخبرني أبو محمد الحسن بن عمر عن بعض النواخذة أنه كان يسير في مركب فاشتدت عليه الريح وأخذه الخب فلجأ إلى خور لاح له فدخله فأقام به يومه وليلته، فلما كان من غد اجتازت لهم في البر حيّة هائلة المنظر عظيمة لا تقاس بشيء لكبرها، ثم نزلت إلى الخور فعبرت الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها ثم صعدت إلى الناحية الأخرى، فلما كان بعد العصر عادت فعبرت الخور على رفق فلم تزل على هذا خمسة أيام تجيء في كل يوم غدوة فتعبر وتعود بعد العصر، فلما كان اليوم السادس قال الناخذاة للبنانية: إنزلوا إلى البر وانظروا إلى أين تمضي هذه الحية، فترلوا بعد انصرافها في اليوم السادس إلى البر ومشوا في تلك الأرض نحو ميل فإذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملوء بأنياب الفيلة كبارا وصغارا، فجاءوا بالخبر إلى الربان، فترل

معهم في غد ووقف عليه وعادوا إلى المركب و لم يزالوا في نقل الأنياب بعد انصراف الحية وإلى وقت مجيئها حتى حملوا شيئا كثيرا يعظم مقداره ورموا من المركب بمقدار ما حملوا مما لا يسأل عنه ولا قيمة له، وخرجوا من الخور بعد أن أقاموا فيه نحوا من عشرين يوما، وإذا بتلك الحية كانت تأكل تلك الفيلة وتبقي أنيابها.

وسألت إسمعيلويه الناخذاة عن هذا الحديث في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وقد كنت سمعت به فحدثني به، وقال: بلغني وهو صحيح. وفي البحر ألوان الحيات إلا أن فعلها في الماء ضعيف وأشد الحيات ما كان في الجبال والفيافي والأرض المعطشة والبعد عن المياه. وفي جبال عُمان حيات تقتل لوقتها. وفيما بين صحار وهي قصبة عُمان وبين جبال اليحمد موضع لا يسلكه أحد فيه واد يسمى وادي الحيات قيل إن فيه حيات مقدارها شبر ودون ذلك، تجمع الواحدة رأسها مع ذنبها وترتفع إلى الفارس فإن نهشت قتلت للوقت وإن ضخت أعمت وقتلت فإذا سلك المسافر تلك الطريق تقافزت عليه من كل جهة فلا تخطيه، وذلك طول الطريق، فتُرك سلوكُها والسلام. وحدثني بعض المنصوريين ممن سلك إلى ماركين وهي مدينة بينها وبين ساحل بلاد الأومئون فرسخا وبها لهوا ملك الهند أن ببعض جبالها حيات صغار رقطا وغبراء إذا نظرت الحية إلى إنسان قبل أن ينظر إليها ماتت وإذا نظرها الإنسان قبل أن تنظره مات وإذا نظرا بعضهما إلى بعض ماتا، وهي أخبث الحيات.وحدثني محمد بن بابشاد أن بناحية الواقواق عقارب تطير كالعصافير إذا ضربت الإنسان ورم جسمه واعتل وانقشر جلده ومات.

وحدثني إسمعيلويه وجماعة من البحريين أنه خرج من عُمان في مركب يريد قَنْبَلُه في سنة عشر وثلاثمائة فعصفت الريح وطرحت المركب إلى سفالة الزنج، قال الناخذاة فلما عاينت الموضع علمت أنا قد وقعنا إلى بلاد الزنج الذين يأكلون الناس فإذا وقفنا في هذا الموقع أيقنا بالهلكة، فتغسلنا وتبنا إلى الله تعالى وصلينا على بعضنا بعضا صلاة الموت، وأحاطت بنا الدوانيج، فأدخلوا بنا المرساة فدخلنا وطرحنا الأناجر ونزلنا مع القوم إلى الأرض فحملونا إلى ملكهم، فرأينا غلاما جميل الوجه من بني الزنج، حسن الخلق، فسألنا عن أخبارنا، فعرفناه أنا قد قصدنا بلده، فقال: كذبتم أنتم قصدتم قنبله غيرنا، فحملتكم الريح وطرحتكم في أرضنا، فقلنا: هكذا كان وإنما أردنا بقولنا التقرب إليك، فقال: حطوا الأمتعة وتسوقوا فلا بأس عليكم. قال: فحللنا الأمتعة وتسوقنا أطيب تسويق و لم تلزمنا ضريبة ولا مؤنة إلا ما أهديناه إليه، وأهدى إلينا مثله وأكثر منه، وأقمنا في بلاده شهورا، فلما حان وقت خروجنا استأذناه فأذن لنا، فحملنا الأمتعة وفرغنا أمورنا.فلما عزمنا على رواح عرّفناه ذلك فقام ومشى معنا إلى الساحل مع جماعة من أصحابه وغلمانه ونزل في الدوانيج وسار معنا إلى المراكب فصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه، فلما حصلوا في المركب قلت في نفسي: هذا الملك يساوي في عُمان في النداء ثلاثين دينارا، ويساوي السبعة مائة وستين دينارا، وعليهم ثياب تساوي عشرين دينارا، قد حصل لنا على الأقل منهم ثلاثة آلاف درهم ولا يضرنا من هذا الشيء، فصحت بالبنانية فشالوا الشرع ورفعوا الأناجر، وهو مع ذلك يسلم علينا ويؤانسنا ويسألنا الرجوع إليه ويعدنا بالإحسان متى عدنا إلى بلده، فلما رفعت الشروع ورآنا قد سرنا تغير وجهه، فقال: أنتم تسيرون استودعكم الله، وقام لينـــزل



إلى دوانيجه، فقطعنا حبال الدوانيج، وقلنا له: تقيم معنا فنحملك إلى بلدنا، ونجازيك على إحسانك إلينا ونكافئك ما فعلت بنا وصنعت، فقال: يا قوم لّما وقعتم إلي قدّرت، ثم إن أهلي أرادوا أن يأكلوكم ويأخذوا أموالكم كما قد فعلوا بغيركم فأحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئا وجئت معكم لأودعكم في مركبكم إكراما مني لكم فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي، قال: فلم نفكر في كلامه ولم نعبأ به، واشتد الريح فما مضت ساعة حتى غابت بلدته عن عيوننا وظللنا الليل ودخلنا اللج، وأصبحنا والملك وأصحابه في جملة الرقيق وهم نحو مائتين رأس، وعاملناه بما نعامل به سائر الرقيق. قال: وأمسك فما أعاد علينا كلمة ولا خاطبنا بشيء، تغافل عنا كأنه ما عرفنا ولا عرفناه، ووصلنا إلى عمان فبعناه، مع سائر أصحابه في جملة الرقيق .

فلما كان في سنة عشر وثلاثمائة خرجنا من عمان نريد قنبلة فحملتنا الريح إلى سفالة الزنج ولم نكذب ان وردنا ذلك الولد بعينه، ونظرونا فخرجوا وأحاطوا بنا الدوانيج، وإذا الذي نعرفه في تلك الكرة، فأيقنا على الهلكة حقيقيا، ولم يكلم أحد منا صاحبه من شدة الرعب، فاغتسلنا وصلينا صلاة الموت وتواعدنا، فوافونا وأخذونا فساقونا إلى دار الملك وأدخلونا وإذا بذلك الملك بعينه جالس على سرير كأنّا فارقناه الساعة، فلما رأيناه سجدنا وذهب قوانا ولم يكن بنا حركة للقيام، فقال لنا: أنتم أصحابي لا شك، فلم يستطع أحد منا أن يتكلم، وارتعدت فرائصنا، فقال لنا: إرفعوا رؤوسكم فقد آمنتكم على أنفسكم وأموالكم، فمنا من رفع ومنا لم يستطع أن يرفع ضعفا وحياء، قال: فلطف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعا ولم ننظر إليه حياء وخوفا وخجلا، فلما رجعت إلينا نفوسنا بأمانة قال لنا: يا غدارين فعلت لكم وصنعت لكم فكافأتموني بما فعلتم وصنعتم، فقلنا له أقلنا أيها الملك واعف عنا، فقال: قد عفوت عنكم فتسوقوا كما كنتم تسوقتم في تلك الكرّة فلا اعتراض عليكم، فلم نصدق من السرور فظننا أن ذلك على طريق المكر حتى تحصل الأمتعة في الساحل، فحملنا الأمتعة إلى البر وحملنا إليه هدية بمال له مقدار، فرده علينا، فقال: ليس مقداركم عندي أن أقبل لكم هدية ولا أحرم مالي بما آخذ منك فإن أموالكم كلها حرام، فتسوقنا وحان وقت خروجنا فاستأذنا في الحمل فأذن لنا، فلما عزمنا على الرحيل قلت له أيها الملك قد عزمنا على الرحيل، فقال امضوا في حفظ الله تعالى، فقلت له أيها الملك قد عاملتنا بما لا قدرة لنا عليه، غدرناك وظلمناك فكيف خلصت ورجعت إلى بلدك؟.

فقال لما بعتموني بعمان فحملني الذي اشتراني إلى بلده يقال له البصرة من صفتها كذا كذا، فتعلمت بها الصلاة والصيام وشيئا من القرآن، ثم باعني مولاي لآخر حملني إلى بلد ملك العرب الذي يقال له بغداد، ووصف لنا بغداد، فتفصحت بتلك البلد وتعلمت القرآن وصليت مع الناس في الجوامع ورأيت الخليفة الذي يقال له المقتدر، وبقيت ببغداد سنة وبعض أمرى حتى وافى قوم من خراسان على الجمال، فنظرت إلى خلق كثير فسألت عنهم في أي شيء جاءوا؟ فقالوا يخرجون إلى مكة، فقلت ومكة هذه ما هي؟ فقالوا فيها بيت الله الحرام الذي يحج إليه الناس، وحدثوني حديث البيت، فقلت في نفسي سبيلي أن أتبع هؤلاء القوم إلى هذا البيت، فعرّفتُ مولاي ما سمعت فرأيت ليس يريد أن يخرج ولا يدعني أخرج، فتغافلت عنه حتى خرج الناس فلما خرجوا تبعتهم وصحبت رفقة كنت أخدمهم طول الطريق وآكل معهم ووهبوا لي ثوبين فأحرمت فيهما،

وعلموني المناسك، فسهل الله تعالى إلي الحج، وخفت أن أرجع إلى بغداد فيأخذني سيدي فيقتلني، فخرجت مع قافلة أخرى إلى مصر فكنت أخدم الناس في الطريق فحملوني وأشركوني في زادهم إلى مصر، فلما دخلت مصر ورأيت البحر الحلو الذي يسمونه النيل فقلت من أين يجيء، فقالوا: أصله من بلاد الزنج فقلت: من أي ناحية، فقالوا: من ناحية مصر تسمى أسوان في تخوم أرض السودان، فلزمت ساحل النيل أدخل بلدا وأخرج من أخرى وأطلب من الناس فيطعموني، وكان ذلك دأبي، فوقعت عند قوم من السودان فأنكروني فقيدوني وذهبوا يكلفوني من بين الخدم ما لا أطيق فهربت، ووقعت عند قوم آخرين فأخذوني وباعوني وهربت، فلم أزل كذلك من خروجي من مصر حتى وصلت إلى البلد الفلاني من أطراف بلاد الزنج فتنكرت وأخفيت نفسي.

و لم أخف على نفسي من حين خروجي من مصر مع ما جرى عليّ من الأهوال كخوفي لما قربت من بلادي، وقلت إن بلدي قد جلس فيها بعدي ملك استولى على الملك وطاعته الجند ونزع الملك منه صعب عسر، فإن أنا ظهرت أو علم بي أحد حملت إليه فيقتلني أن يجسر بعض المتنصحين عليّ فيأخذ رأسي فيتنصح إليه به، فداخلني من الرعب ما ضقت به ذرعا، فكنت أسعى الليل وأمشي نحو بلدي واختفي في النهار إلى أن جئت في البحر فركبت مركبا وأنا متنكر إلى بلد كذا، ثم ركبت في البحر إلى بلد كذا، فرماني المركب في الليل إلى ساحل بلدي فاستخبرت من امرأة عجوز هل ملكهم هذا الذي جلس عادل؟ فقالت والله يا ولدي ما لنا ملك إلا الله تعالى، وقصت علي قصة الملك، وأنا أتعجب كأني لا أعلم بذلك ولا كأني إياه، ثم قالت اتفق أهل المملكة أن لا يُمَلِّكوا بعده عليهم أحدا حتى يعلموا ما كان من أمره وييأسوا من حياته فقد بلغتهم الأخبار من الكهنة أنه بأرض العرب حي سالم. فلما أصبحْتُ مضيتُ إلى بلدي هذه فدخلتها، وأتيت قصري هذا فدخلته، ووجدت أهلي على ما تركتهم غير أنهم مقيمون على بساط الحزن وأهل دولتي، فأعدت عليهم قصتي فتعجبوا وفرحوا ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الإسلام، فعدت إلى ملكي قبل مجيئكم بشهر، وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله علي به وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج، وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني، ولكن بقي علي شيء أسأل الله الخروج من إثمه، قال: فقلت ما هو أيها الملك؟ قال: مولاي الذي خرجت من بغداد إلى الحج من غير إذنه ورضاه و لم أعد إليه، ولو لقيت ثقة كنت أبعث له ثمني واستحللته، ولو كان فيكم خير ولكم أمانة لدفعت إليكم ثمني تردوه عليه ووهبت له عشرة أضعافه بدلا من صبره علي، ولكنكم أهل غدر وحيل. قال فودعناه. فقال امضوا فأن رجعتم فبهذه المعاملة أعاملكم وأزيد في الإحسان إليكم فعرّفوا المسلمين أن يأتونا فإنّا نحن قد صرنا إخوانا لهم مسلمون مثلهم، وأما تشييعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل، فودعناه، وسرنا.

وقيل إن ببلاد الزنج القافة الكهنة قافة حذاق فهماء. وحدثني إسمعيلويه عن بعض النواخذة أنه قال له دخلت بلاد الزنج في سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، فقال لي بعض القافة كم أنتم مركبا؟ فقلت ستة عشر مركبا، فقال يسلم منها إلى عمان خمسة عشر مركبا وتنكسر واحدة ويسلم منها ثلاث أنفس وتمضي عليهم شدة عظيمة ويتخلصون. قال فخرجنا كلنا في يوم واحد وكنت آخر من خرج منه، فأغذذت السير لألحق

من خرج منهم أولا، فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء، فلرغبتي في سرعة السير لم أنقص الشراع لأعدل عنها لأن السير في ذلك البحر شديد جدا، فما كذبت أن وصلت إليها فضربتني، وإذا هي دابة من دواب البحر، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر فسلمت أنا وابني والكارين(= كاتب المركب) في الدونيج، وقمنا إلى بعض جزائر الديبجات فأقمنا بها ستة أشهر إلى أن أمكننا الخروج فوصلنا إلى عمان بعد شدائد عظيمة مرت بنا وسلمت الخمسة عشر مركبا بأسرها بإذن الله. وحدثني الحسن بن عمرو وغيره عن جماعة المشايخ بالهند من أمر طيور الهند والزابج وقمار والصنف وغيرها من نواحي الهند بأمر عظيم. وأكبر ما رأيت من ريش الطيور قطعة من ريش طاير أسفل ريشة أرانيها أبو العباس السيرافي، طولها نحو ذراعين قدرنا أنها تسع قربة ماء. وحدثني إسمعيلويه الناخوذة أنه رأى أسفل ريشة ببعض بلاد الهند عند رجل من كبار تجارهم كانت إلى جانب داره يصب فيها كالدن العظيم فتعجبت من ذلك فقال لي لا تعجب من هذا. حدثني بعض نواخذتة الزنج أنه رأى عند ملك سِرَه أصل ريشة يسع خمسة وعشرين قربة ماء.

وحدثني أبو الحسن علي بن شادان السيرافي قال: إن بعض أهل شيراز حدثه أن بالقرب من شيراز قرية خربها الطائر، قال فقلت له كيف خربها؟ فقال حدثنا أن طائرا سقط في بعض الأيام على سطح دار في القرية فخف السطح وسقط إلى أسفل الدار، فصاح من في الدار وهربوا منه، فاجتمع أهل القرية فدخلوا فوجدوا الطير قد ملأ الدار فلم يتمكنوا من أخذه فأثخنوه بالضرب وكان ثقيلا في الأصل فلا يمكن النهوض، ثم ذبحوه وقطعوه في الدار واقتسموا لحمه، وأخذ كل من كان في القرية من الرجال نحو سبعين رطلا إلى نحو ذلك، وعزلوا من لحمه مائة رطل لوكيل القرية وهو نازل في تلك الدار التي وقع فيها الطائر وكان قد خرج عنها قبل ذلك بيوم مع ثلاثة نفر من أهلها ومضوا في حاجة لصاحب القرية، وطبخ أهل القرية اللحم في بقية يومهم وأكلوه مع عيالهم وصبيانهم، فأصبح جميعهم مرضى، ووفى الوكيل فعرف الصورة فتوقى هو ومن كان معه أكل اللحم، فلما مضت أربعة أيام أو خمسة ماتوا حتى لم يبق منهم أحد ممن أكل لحم الطائر إلا مات وفرغت القرية وخرج الوكيل عنها وخربت فلم يعد إليها، فوقع لنا أن هذا الطائر من طيور الهند أكل حيوانا من ذوات السموم فاشتعل السم في جسمه فحمل نفسه في الجو وسار في ليل فوقع إلى هذه القرية وقد ثخن و لم يبق فيه نهوض فسقط.

وحدثني غير واحد من الربانية أنه سمع أن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخاليبه ويحمله إلى الهواء ثم يرمي به ليموت وينكسر ثم يترل عليه فيأكله، ولقد سمعت أن في بلاد الزنج طائرا ينقض على السلحفاة الكبيرة فيخطفها ويرفعها إلى الجو ويرمي بها إلى الأرض على جبل أو صخرة فتنكسر فيسقط عليها فيأكلها، قال: فيأكل منها إذا وجد في النهار الخمسة والستة، وأن هذا الطائر إذا رأى الإنسان هرب منه وفر من صورته لبشاعة خلق الناس في تلك الأرض. وحدثني إسمعيلويه الناخوذة أن بأعلى بلاد الزنج معادن الذهب وهي خوارة، وأكثر المعادن خوارة، وأن الرجال يحفرون فيها لطلب الذهب فربما نقبوا على أرض ممخرقة مثل أرض النمل فيخرج عليهم نمل مثل السنانير كثير فيأكلونهم ويقطعونهم قطعا. وقد كان أحمد بن هلال أمير عمان حمل في



سنة ست وثلاثمائة في جملة هدية حملها إلى المقتدر نملة سوداء في قفص من حديد مشدودة بسلسلة في قدر السنور وماتت هذه النملة في الطريق بناحية ذي جبلة فجُعلت في الصبر، وحُملت إلى مدينة السلام صحيحة، ورآها المقتدر وأهل بغداد، وذكروا أنهم كانوا يطعمونها كل يوم منّين شرائح غدوة وعشاء.

وحدثني محمد بن بابشاد عمن حدثه ممن دخل الواقواق أن هناك شجرا كبارا له ورق مدور ومنه ما هو إلى الطول يحمل حملا على مثال القرع إلا أنه أكبر منه وصورته صورة الناس تحركه الرياح فيخرج منه صوت وأن داخله منفوخ مثل حمل العشر، فإذا قطع عن الشجر خرج الريح من ساعته وصار مثل الجلد، وأن بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت.وذاكرت محمد بايشاد في حديث القردة وما يحكى عنها، فحدثني بصفات كثيرة من أحاديثهم، فمما حدثني به أن بنواحي صنفين وبوادي قاقلتا قردة في نهاية الكبر وأن لكل فرقة منها أمير خلقته أعظم من خلق باقيها وأنهم ربما خرجوا من الغياض إلى الطرق والمسالك فتضرب السفارة فتمنعهم السبيل دون أن يعطوهم شيئا من الحيوان مثل الغنم والبقر وغير ذلك من المأكولات.

وذكر محمد بن بابشاد أنه حدثه غير واحد أنه اجتاز على قطعة منهم مع جماعة معه فمنعوهم من المشي فحاربوهم فمزقوا ثيابهم وتواثبوا عليهم من كل مكان وقطعوا قربهم وهم في مفازات بعيدة عن الماء، فأعطوهم شيئا فتركوهم ولا ماء لهم، فمات أكثر القوم عطشا ولم يصل منهم إلى الماء الثاني إلا القليل.وحدثني أن رجلا من بانانية مركب كان له حدثه أنه خرج في سنة تسع وثلاثمائة في مركب لبعض النواخذة إلى قاقلتا فإنهم وصلوا بالسلامة ونجلوا أمتعتهم إلى البر وحملوا بعض الأمتعة إلى بلد بينه وبين البحر مسيرة سبعة أيام ونحوها، فلما حملوا تلك الأمتعة إلى ذلك البلد رفعوا المركب في خور صغير على ثلاثة فراسخ من قاقلتا أو أربعة وسدوا بينه وبين البحر وجللوه وأقاموا الخشب حوله وسندوه. قال هذا الباناني وتركوا معي من الزاد حاجتي ومضوا بأسرهم إلى تلك المدينة فقاموا في بيعهم وشرائهم، فلما بعدوا عني جاءني عدة من القردة فطافوا حول المركب وراموا الصعود إليّ فرميتهم بالحجارة، ولاحقت المركب قردة لها خلق وجثة فطردتها فلم تبرح فسارقتني من بعض جوانب المركب، فصعدت إليّ فلما حصلت معي في المركب وكنت أكل فطرحت لها كسرة من خبز فأكلته وقامت عندي ساعة ثم نزلت فغابت عن عيني إلى العشي ثم وافت وفي فمها قنو (= عنقود) صغير فيه نحو من عشرين موزة، فصاحت فطلعت إليها فصعدت إلى المركب فوضعت الموز بين يدي فأكلت وأقامت عندي بعد ذلك فكانت تغيب وتجيء بالموز والفاكهة التي في تلك الغوطة، وصارت تبيت معي في المركب وإلى حانبي، فتاقت نفسي إليها فوطئتها، فما مضت ثلاثة أشهر في مقامي في الموضع حتى ثقلت وجعلت تمشي متحاملة وأومت إلى بطنها فعلمت أنها قد حملت مني، فورد عليّ من ذلك أمر عظيم وخفت الفضيحة متى جاء القوم وشاهدوا الأمر فحملني الحياء إلى أن أخذت دونيج المركب وحملت لها دقلا وشراعا وأنجرا وجعلت فيه قرب ماء وزادا وأخذت ثيابي وما كان معي وحملته فيه وتعمدت وقتا تغيب فيه القردة فنزلت إلى الدونيج ودخلت البحر على غرر عظيم وخطر شديد وتركت



المركب ليس معه أحد، فسرت نيفا وعشرين راما (الرام= خمسة فراسخ) ووقفت إلى جزيرة من جزاير اندمان بعد أن كدت إلى أن أتلف لعظيم ما مر بي من الشدة، فأقمت في تلك الجزيرة أياما حتى استرحت وأخذت من ماء عذب كان فيها ملوء قربة ومن ثمار فيها وموز وأصلحت أمري، ولم أكن رأيت بالجزيرة أحدا إلا الصيادين في قوارب يترلون بين الشجر، فسرت في البحر لا أدري أين آخذ ولا أهتدي نحو سبعين راما، فوقفت في جزيرة يقال لها بِدْفاركَلَه فأقمت بها إلى أن خرجت منها إلى كله، فخرجت منها فلقيت بعد ذلك بزمان صاحب ذلك المركب وقوم راكبون فيه، فقلت ما شأنكم؟ فقالوا إنهم وردوا الموضع فوجدوا في المركب قردة قد وضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم سواء وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود وظنوا أن القردة حملت من ذاك البناني، وأنه هرب في الدونيج لأنهم ما فقدوا شيئا غير الدونيج وآلته وأن بعضهم ظن أن القردة قتلته وأن الدونيج سرقه مجتاز أو صياد ورجموا الظنون ورموا بالقردة وأولادها. قال لي محمد بن بابشاد: وكان هذا البناني الذي حدثني ضعيف البصر جدا فسألته عن ذلك فقال ضعف بصري لما كنا أجامع القردة وزاد في ضعفه طول مكثي في البحر.

وحدثني بعض البحريين أن مركبا كان يمضي إلى صنف من عمان فأصيب وسلم من أهله نحو عشرة في قارب فحملتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدة ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدائد فمكثوا هناك بقية يومهم ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جروه إلى الساحل وباتوا ليلتهم معه فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة فوجدوا فيها ماء عذبا كثيرا وغوطة حسنة وأشجارا متكاثفة فيها ثمار شتى وموز كثير وقصب سكر ولم يروا فيها إنسا فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء وانصرفوا إلى قاربهم فجروه إلى البر وسنَّدوه بالخشب وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه وأحكموا أمره وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعا يسترهم. فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة فإذا هم بقطعة قرود قد أقبلوا يقدمهم قرد كبير جسيم، فوقفوا على القارب وفزع القوم منهم فصعدوا إلى القارب فلم يعرضوا لهم وأقاموا رئيسهم بمكانه فجعل يفرقهم يمينا وشمالا كما سنفذ العامل رجاله ثم عادوا إليه وجعل بعضهم يوما إلى بعض كأنهم يتحدثون بشيء، فلما أمسوا انصرفوا فورد على القوم من هذا أمر عظيم وخافوا على نفوسهم أن تقتلهم القردة، وجعلوا يفكرون في الخلاص ليلهم وهم بسوء حال لا زاد معهم ولا يعرفون الطريق ولا يهتدون لحيلة، فلما أصبحوا جاءتهم قردة فطافت بهم ثم مضت ثم عادت ومعها قردة أخرى فأومت إليها شيء، قال هذا الرجل فحدثت عن واحد من القوم أنه قال فتبعت القرود إلى أن دخلوا الغوطة ثم خفت على نفسي فرجعت بعد مدة مضت من النهار إلى أصحابي فسألوني فأخبرتهم، فلما كان من غد عاودت القرود على تلك الصورة الأولى وجلس رئيسهم مع القارب ونفّذهم في حوائجه على الرسم.

فلما مضت ساعة من النهار جاء قردان مع كل واحد منهما قطع ذهب في نهاية الجودة فطرحوها بين يديه ثم عادوا بأجمعهم فأومى بعضهم إلى بعض فانصرفوا ونزلنا إلى الأرض فأخذنا الذهب فإذا هو مثل العروق الغلاظ في نهاية الجودة، فورد علينا من السرور بذلك ما نسينا معه بعض ما نحن فيه، فلما أصبح



جاءت قردة طافت بنا ثم مضت فمضيت خلفها إلى أن أمعنت في الغوطة وخرجت من الغوطة إلى صحراء أرضها رملة سوداء فحفرت في الموضع فوجدت عروق الذهب مشتبكة فلم أزل أقلع إلى أن أدميت أصابعي وجمعت ما قلعته وحملته ورجعت فضللت عن الطريق لاشتباك الشجر فتعلقت ببعض ذلك الشجر وبت فيه ليلتي فلما أصبحت وإذا بالقردة وقد وافت على الرسم فتركتها حتى مضت ثم تبعتها إلى أن رأيت البحر وتعلقت بشجرة من الشجر فأقمت عليها إلى الليل، فلما انصرفت القرود نزلت فوافيت أصحابي فتلقوني وهم يبكون وقالوا إنّا لم نشك أنك قد تلفت فحدثتهم بالصورة وطرحت الذهب بين أيديهم فتجدد لنا هم وغم لأنّا لما استغنينا لم نجد سبيلا إلى حمل ذلك ولا طريقا ولا معنا ما نحمله فيه لأنا متى حملناه في القارب لم نأمن الغرق لصغره، وإذا حملناه لم نهتد الطريق ثم أجمع رأينا على أن نمضي إلى تلك الصحراء ونقتلع الذهب ونحمله إلى نحو قاربنا، ونتوكل على الله عز وجل فكنا نمضي في كل غدوة من الغدوات التي لم يجر للقرود أن يجونا فيها فنقلع الذهب ونحمله وحفرنا عند القارب ودفنا الذهب ولم نزل نقلع الذهب وننقله مدة سنة إلى أن حصل لنا شيء عظيم لا يعرف مقداره، والقرود مع ذلك تجيء يوما ويوما لا تجيء، ونأكل من ثمار تلك الجزيرة ونشرب من ذلك الماء.

فبينما نحن على حالنا تلك إذ مرَّ بنا مركب ماض إلى عمان أو إلى سيراف قد أسقطه الريح وركبه البحر فرمى كل ما في جوفه ومات أكثر رجاله غرقا وشرقا من شدة ما ركبهم البحر، فلما رأوا الجزيرة وأرادوا الانحياز إليها فلم يقدروا فبقوا متماسكين، فلما أحدُّوا النظر إلى البر رأونا ورأوا الدونيج فوق البر فتطارح لنا رجلان من رجاله بحبل، ولم يزالوا يعاندوا فلما رأيناهم أخذنا حبالنا وتطارحنا إليهم في البحر فتلقيناهم وربطنا حبالنا مع حبالهم، فلما صارت الحبال في البر استوثق بها حتى مضى إلى المركب منا اثنان فأشرفوا على المركب فإذا بالبنانية والربان وبعض التجار قد أشرفوا على الموت من شدة الهول وقد كلوا مما يمتحوا الماء وهو حينئذ في وسط اللجة فقالوا لأصحابنا إجذبونا إلى البر وخذوا ما بقي معنا من البضائع والمتاجر، وقال الربان يا إخواننا أجذبونا إلى البر وخذوا المركب لكم ملكا، فقال أصحابنا ما نفعل شيئا من ذلك بل نجذبكم إلى البر ولنا نصف هذا المركب ملكا، فقال: حبا وكرامة.وتعاقدوا على ذلك وشهد بعضهم على بعض ثم قال لهم أصحابنا: وعليكم شرط، قالوا: وما هو؟ قالوا: نشحن نصف هذا المركب لنا بملكنا لا يشاركنا فيه أحد ولا يعترضنا فيه أحد، قالوا لكم ذلك، قال أصحابنا ونوسقه وسق المتعارف لا يحيف عليه فيغرق، قال أصحاب المركب: هذا شيء قد جربناه وما تخلصنا منه إلى الآن فنناشدكم الله إلا ما خلصتم حشاشنا من هذا الهول الذي نحن فيه، فتطارح أصحابنا إلى البر وجاءت القرود فلما رأونا نجذب حبل المركب جذبوا معنا، فجاءت المركب في أسرع وقت، فتطارحت رجال المركب إلى البر شوقا إليها لما جرى عليهم، فلما أصبحنا عرفناهم موضع الثمار فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم فجاءت القرود من الغد بالذهب على الرسم فأثرناهم به على نفوسنا لأنا اكتفينا منه، وقدمنا المركب فأوسقنا وشحنا نصف المركب ذهبا وأوسق الربان النصف الثاني له ولتجاره ذهبا وتزودنا مما في الجزيرة، وأتت الرياح وأسرينا فدخلنا بلد الهند

ونقل كل واحد منا نايبه إلى موضعه، فكان الذي وقع لكل رجل منا ألف ألف مثقال ومائة ألف وأربعة وأربعون ألف مثقال، فلم نعد نركب بحرا إلى هلم. وهذا من أغرب ما سمعناه من نوادر القردة.

وحدثني من رأى قردا في مترل بعض التجار يخدمه يكنس مترله ويفتح الباب لمن دخل ويغلقه ويوقد النار تحت القدر وينفخ فيه حتى يوقد ويطاعمه الحطب وينش الذباب على المائدة ويروّح على مولاه بالمروحة. وحُدثْتُ أنه كان بظفار من مدائن اليمن حداد عنده قرد ينفخ على الكور طول نهاره، أقام عنده كذلك نحو خمس سنين وترددت إلى البلد سفرات وأنا ابصره عنده. وحُدثْتُ أن قردا كان في مترل رجل ببعض بلاد اليمن، وأن الرجل اشترى لحما وجاء به إلى مترله فأومى إلى القرد أن احفظ هذا اللحم، فجاءت حدأة فنشلت اللحم فبقي القرد متحيرا، وكان في الدار شجرة فصعد إلى رأسها ورفع إسته إلى السماء ودلى رأسه إلى أسفل وجعل يديه إلى جانبي إسته، فظن الحدأة أن إسته من جملة اللحم الذي اختطفت فانقض الطائر عليه فضربه فتلقاه القرد بيديه فقبضه وأنزله إلى الدار فوضعه تحت الجفنة وغطاه بشيء ثقيل فجاء صاحب المترل فلم يجد اللحم فقام إلى القرد ليضربه، فقام القرد إلى الجفنة وأخرج الحدأة فعلم الرجل وفطن لما جرى وأخذ الحدأة فنتف ريشها وصلبها على الشجرة، وللقرود أحاديث ظريفة.

حُدِّث عن رجل من أهل أصبهان شيخ كثير الأسفار أنه سار إلى بغداد قال وكان معه رفقة كثيرة فيهم شاب كأنه بغل من الشباب والقوة قال وكان الشيخ يسهر على الأمتعة ولا ينام إلا إذا سار الناس جملة قال فبينما هو ساهر كالعادة إذ نظر إلى الشاب قد سري إلى واحد جمّال فلما جلس الشاب بظهره ليجتمع به استيقظ له الجمال وأحنى عليه فداسه دوس الأدم فلم يعد الشاب إلى مكان وقد سكر من اللكم واللطم قال فأقام الشاب بمقدار ما تراجعت إليه نفسه ثم أخذ الجمّال النوم ثم عاد إليه قال فاستيقظ له فأحنى عليه فداسه أشد من الأولى فمات الشاب ولا حركة فيه ثم استجم وعاد إلى الجمال الثالثة ففعل الجمال به في الثالثة ما عاد منه وهو يسحب نفسه على الأرض يمينا وشمالا وقال له الجمال والله إن عدت الرابعة لأفقرنَّ بطنك فلما رأيت ذلك مرارا وسمعت قول الجمال عذرته وشفقت على مثل ذلك الشاب أن يقتل فدعوت الشاب إليّ بعد أن تراجعت إليه نفسه وقلت له يا ولدي ما حملك على ما رأيت منك في هذه الليلة ولقد سلمت من هذا الجمال فأحذر أن يقتلك واصبر فقال يا عم والله أن لي اليوم ليال لا أستطيع الغمض من شدة الشبق والنار وكلما هاج بي الأمر يهون عليّ ما يفعل بي لشدة ما أنا أقاسي قال فقلت: يا ولدي بقي بيننا وبين مدينة السلام مرحلتين ونرحل إلى بلد نجد فيها ما يسكن هيجانك قال فلم أزل أهديه وأشفق عليه بقية تلك المسافة.

لما وصلنا إلى بغداد أخذني عليه خوف كثير وقلت في نفسي هذا غريب وشاب وما دخل قبلها ربما يرى أحد من دون الخليفة والوزراء فيتهاجم عليه كما فعل مع الجمال فيهلك فلزمته وأخذت مترلا وضممته إليَّ و لم يكن لي شغل بعد أن حصل متاعنا في حرز إلا أني أخذته ومضيت به إلى الدلالة أنظر له امرأة تسكن غمته فما هو إلا أن عبرت به من بعض الأزقة وإذا به وقف وقال لي يا عم قد رأيت الساعة في تلك الطاقة وجها كالشمس ولا بد لي منه فدافعته عن ذلك. فقعد على الأرض وقال هنا أموت فقلت في نفسي قد حفظته في



البرية أتركه هنا، وبغداد دار البلايا فلما لم أجد منه موافقة فنظرت في الحارة فإذا دار تنذر أن أصحابها صعاليك فقرعت الباب فكلمتني عجوز فاستخبرت عن الدار التي نظر الشاب المرأة فيها، فقالت هذه دار الوزير فلان والتي بصرها الشاب زوجة الوزير، قال: فقلت للشاب يا ولدي ارجع عن هذا الرأي واحضر معي أعرض عليك بنات بغداد فإنك ستجد أحسن مما رأيت، فقال: والله لا برحت إلا أن أصل إلى هذه أو أقتل، قال: فقالت العجوز للشاب إن أوصلتك يا شاب ما يكون لي عليك فبادر الشاب وحل كيسا كان على وسطه وعدّ لها منه عشرة دنانير ففرحت العجوز والتحفت وخرجت فدقت باب الوزير ففتح لها الأستاذ فدخلت ثم خرجت فقالت له: قد قضيت حاجتك بعد الشروط قال لها: وما الشروط قالت خمسون مثقالا لها وخمسة لمقامها وخمسة لأستاذ الدار. قال: فأنقدها ستين مثقالا، قال: فدخلت ثم خرجت فقالت: امض ادخل الحمام وغيّر هذه الحلة فإذا كان بين صلاتي المغرب والعشاء قف عند بابي هذا حتى يؤذن لك. قال: فدخل الشاب الحمام وأصلح شأنه ووقف عند باب العجوز في الوقت فخرج الأستاذ فأذن له فدخل إلى مجلس قد كما من كل شيء تكمل به المجالس فقدم له طعام حسن فأكل ثم الشراب فشرب فلما انتهى مجلس الشراب، قام وقامت إلى السرير فلما تجردا من ثيابهما وإذا بقرد قد خرج من وراء ستر فضرب الشاب بأظافيره فجرحه في أفخاذه ومخاصيه وسالت دماه من كل مكان فأعاد ثيابه عليه وأثقله السكر فنام في ثيابه فلما أصبح نبهه الأستاذ وقال له: قم فأخرج قبل أن تترءى الوجوه فخرج حزينا كئيبا ولما أصبح الشيخ قال: أمض إلى الشاب فأنظر ما صنع لعله نال مناه وحسنت عقباه فلما جاءه الشيخ وجده جالسا عند باب العجوز ورأسه في طوقه سأله عن أخباره فأعلمه بقضيته، فاستدعى العجوز وأعلمها القضية فدخلت على المرأة وسألتها عن السبب في ذلك، فقالت: اعلمي أنّا نحن نسينا قرطاس قرد صاحب الدار ورسمه وهو قرطاس حلوى فيه رطل ولكن إن أحب المعاودة فنحن نأخذ منه الليلة شطر ما أخذناه البارحة قال فأعطاها ثلاثين دينارا، فقيل له إذا أتيت الليلة في الوقت المعلوم احمل معك قرطاسا فيه رطل من الحلوى لقرد صاحب الدار، قال: فأخذ معه قراطيس فأذن له فدخل وقدم الطعام فأكل والشراب فشرب، فلما انحرف إلى المرأة وثب القرد إليه فرمى له بقرطاس فأخذه القرد ورجع إلى مكانه فقضى الشاب حاجته ثم أراد الشاب المعاودة فخرج له القرد فرمي له بقرطاس ثان، فرجع إلى مكانه وكذلك دفع له عدة دفوع فلما تعب الشاب وأثقله السكر، خرج إليه القرد وأنبهه، وصار القرد يقبض على الشاب ويجذبه إلى المرأة ويجعل القرد إصبع نفسه في كف نفسه. المعني في هذا الحديث أن مصانعة الخدم تقضي الحوائج على رغم أنف الموالي أعني القرد، وهو يقول للشاب بالإشارة اعمل كذا، فلم يدع الشاب ينام مما يحثه على الفعل بالمرأة إلى الصباح فخرج الشاب ومضى لسبيله.

ومن أحاديث البحريين والنواخذة ما يُحكى عن عبهرة الربان وأصله من كرمان وكان ببعض عراها يرعى الغنم ثم صار صيادا ثم صار أحد بانانية مركب يختلف إلى الهند ثم تحول إلى مركب صيني ثم صار بعد ذلك ربانا وله في البحر طرائق وسافر إلى الصين سبع مرات و لم يكن سلك قبله إلى الصين إلا من غرر، و لم يسمع أن أحدا سلكه وسلم وعاد قط فإن سلم في المضي فهو عجب فلا يكاد يسلم في العودة، وما سمعت أن



أحدا سلم في الذهاب والمجيء سواه، فإنه جلس في مطياله وأخذ معه قربة ماء فمكث في البحر أياما فحكى عن شهرياري الربان – وكان أحد ربانية الصين – أنه قال: كنت أمضي من سيراف إلى الصين، فلما صرت بين الصنف والصين بالقرب من صيندل فولات وهو رأس بحر صنجي وهو بحر الصين ووقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر وطرحنا الأناجر وأقمنا بمكاننا يومين، فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئا في البحر، فطرحت الدونيج إلى البحر وأنفذت فيه أربعة من البانانية وقلت اقصدوا ذلك السواد فانظروا ما هو فمضوا وعادوا، فقلنا ما ذلك الشيء؟ فقالوا: عبهرة الربان على مطياله ومعه قربة ماء. قلت لهم: فَلِمَ لم تحملوه؟ فقالوا قد اجتهدنا به فقال لا أصعد إلى المركب إلا بشرط أن أكون الربان فأدير المركب وآخذ أجرتي عن قيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف وإلا لم أصعد، فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ونزلت وجماعة من المركب إليه وهو في البحر ترفعه الأمواج وتضعه، فسلمنا عليه وتضرعنا إليه في الصعود، فقال: حالكم أقبح من حالي وأنا إلى السلامة أقرب منكم، فإن دفعتم لي بقيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف ورددتم إليّ أمر المركب صعدت، فقلنا: هذا مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة وخلق من الناس ولا يضرنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأي بألف دينار، وصعد والدونيج والقربة معه إلى المركب.

فلما حصل فيه قال: سلموني متاعا بألف دينار، فسلمناه إليه، فلما أحرزه قال للربان: إجلس إلى ناحية، فتباعد ذلك عن موضعه، وقال: ينبغي أن تجدُّوا في أمركم مادام عليكم مهلة فقلنا: فبماذا؟ قال: إرموا الثقل كله إلى البحر فرمينا نحوا من نصف حمولة المركب أو أكثر، ثم قال: اقطعوا الدقل الأكبر، فقطعناه ورميناه ورمينا به إلى البحر، فلما أصبح قال: ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه، ففعلنا، فقال: اقطعوا الأنجر الكبير فقطعناه وبقي في البحر، ثم قال: إرموا بالأنجر الفلاني، فلم يزل كذلك حتى رمينا في البحر ست أناجر، فلما كان في اليوم الثالث ارتفعت سحابة مثل المنارة ثم تفرقت في البحر وأخذنا الخب فلولا أنا كنا قد رمينا بالحمولة وقطعنا الدقل لكنا قد غرقنا من أول موجة أخذتنا، و لم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها والمركب يصعد وينزل بقير أنجر ولا شراع لا ندري كيف تمضي، فلما كان في اليوم الرابع أخذت الريح في السكون وتم سكونها وصلاح أمر البحر في آخر النهار، وأصبحنا في اليوم الخامس والبحر طيب والريح مستقيمة، فأصلحنا المركب ودقلا، ورفعنا الشُرع وسرنا وسلم الله ووردنا الصين وأقمنا إلى أن بعنا واشترينا وأصلحنا المركب ودقلا بدل الدقل الذي رمينا به في البحر وخرجنا من الصين نريد سيراف، وقاربنا الموضع الذي قدرنا أن رأينا فيه عبهرة اجتزنا بجزيرة وجبال، فقال عبهرة: إطرحوا الأناجر، ففعلنا ثم طرحنا القارب إلى البحر ونزل فيه خمسة عشر رجلا وقال لهم: امضوا إلى تلك الموضع، وأومى إلى بعض الجبال فهاتوا الأنجر الفلاني فعجبنا من ذلك و لم نخالفه فمضوا وعادوا وهو معهم ثم قال: امضوا إلى ذلك الجبل الآخر وأومى إليه فهاتوا الأنجر الفلاني فمضوا وعادوا والأنجر معهم، ثم قال: إرفعوا الشراع فرفعنا وسرنا فقلنا له كيف عرفت أمر هذه الأناجر؟ فقال نعم لقيتكم في هذا الموضع في رأس الثلاثين وهو وقت مد الماء، وقد نقص الماء صدرا صالحا وكنتم في وسط الجبال والجزيرة فأمرتكم بطرح الثقل من الأمتعة ففعلتم، ثم فكرت في



أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها في الصين غير ماسة و لم يبق في المركب من الأمتعة إلا ما قيمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر فرميت بها كذلك لأنه لم يكن بد من تخفيف المركب فحصلت هذه الأناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة وحصلت الثلاثة تحت الماء، قلنا له كيف استدليت على هذا النقصان والخب؟ فقال: نعم قد جرب هذا البحر قبلي وجربته فوجدنا في رأس كل ثلاثين ينقص نقصا عظيما حتى تنكشف هذه الجبال ويكون في وقت النقصان خب عظيم أصله في قعر البحر فانكسر المركب الذي كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال لأنه النقصان لحقني وأنا أسير عليه ليلا وسلمت في ذلك المطيال ولو بقيتم في موضعكم لما بقيتم في البحر أكثر من ساعة لم يجنح مركبكم قبل الخب لأنكم كنتم على الجزيرة ان جنحتم عليها انكسرتم، وعبهرة هذا له طرايق وأخبار في البحر وهذا الخبر من أطراف أخباره .

وقد كان محمد بن بابشاد حدثني أنه كان يمضي في مركبه من فنصور يريد عُمان فلما قطع بحر هركند ودخل في بحر الهند وعزم على أن يعبر إلى بلاد الغرب، قال له ربان مركبه: أي مرسا من تعلق من مراسي الغرب؟ قال أعلق ريسوت أو فوقها بفرسخ أو دونها بفرسخ، فقال له الربان نحن نعلق المرسا الفلاني دون ريسوت بخمسين فرسخا، فتخاطروا في عشرين دينارا يتصدقون بها، وبين الموضع الذي هم فيه وبين ريسوت على الأقل أربعمائة فرسخ، فساروا خمسة عشر يوما إلى أن قدروا أنهم قد قاربوا جبال الغرب وأخذوا يتكلمون فيما كانوا تخاطروا فيه إلى الليل وساروا إلى غد ذلك اليوم، فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان إلى رأس الدقل فلم ير شيئا فنزلوا، فلما صلوا العصر قال محمد بن بابشاد أرى آثار الجبال، فقالوا ما نرى شيئا، فقال الديدبان إصعد، فلما صعد الديدبان واستقر على رأس الدقل صاح: رحم الله من كبر، فكبروا واستبشروا وبكوا من شدة الفرح والسرور وساروا طول ليلتهم إلى قرب السحر فلما كاد الفجر أن يطلع قال محمد بن بابشاد إطرحوا الأنجر فطرحوه وحطوا الشراع وقال للربان أين نحن؟ فقال في موضع كذا وذكر موضعا بينه وبين ريسوت أربعون فرسخا، فقال له محمد بن بابشاد نحن على ريسوت سواء إما أن تكون بين أيدينا برمية سهم أو بحذاء المركب أو دوننا برمية سهم فأصبحوا وهم على ريسوت سواء، وقال محمد بن بابشاد إذا كنت في البحر وأحببت أن تعرف هل أنت بقرب أرض أو جبل فانظر بعد العصر إذا انحطت الشمس فإنها إذا انحطت وكان في وجهها جبل أو جزيرة تبينت. وقال لي بعض البحريين أنه بين خانفوا وهي قصبة الصين الأصغر وبين خمدان-وهي قصبة الصين الأكبر وهو جبل الصينيين وبها بغبور الأكبر- نهر يجري جريانا شديدا بماء عذب وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة وفي مواضع منه جبال المغناطيس وأنه لا مسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها وأن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ولا يكون في سروجهم حديد وركبهم ولجم خيلهم.

وحدثني بعض الربانية يقال له عمران الأعرج أنه خرج من عمان في مركب مع عدة مراكب إلى جدة في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فوقع علينا في بعض الأيام ريح عظيم فرمينا بعض الحمولة وتخلف بعض المراكب وأصيب البعض وسرنا فلما صرنا بين كمران و.... وقع بنا خطب عظيم هائل مختلف فقطعت



الأناجر و لم يضبط المراسي وحملتنا الرياح، وكان معنا عدة مراكب من عدن وغلانقة وعثر، ومنها جلبة جديدة حسنة من غلانقة فرأيتها وقد طرحتها الريح والأمواج على جبل في البحر ونزلت الأمواج عنها فانقلبت، فعهدي بالأمتعة والناس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل وغرقت فما سلم منها أحد. من طريق أخبار البحريني ما هو مشهور معروف ما حدثني عن مرد أنشأه أحد نواخذة بلاد الفلفل وغيرها وعاش سبعين سنة ولا ولد له ثم ولد له ولد فسماه المرزبان، فاشتدت محبته له وسروره، وكان يحمله معه في المركب مع والدته، فإنه في بعض الأيام يسير في بحر بازبان يريد كو لم إذا التمس من والدة المرزبان وهي في البلنج ابنه فدفعته إليه فلم يزل يرقصه ويقبله إلى وقت المغرب، ثم اشتدت الريح واندق دقل القنو، فدهش وأراد أن يدفع الصبي إلى أمه فسقط من يده في البحر، واشتدت الريح واشتغل بأمر المركب إلى صلاة الغداة، فلما أسفر الصبح سكن البحر واستوى أمر المركب وجلس فقال لأم الصبي ناوليني المرزبان فقالت له: هو معك منذ أول الليل، فنتف لحيته ودق رأسه بالخشب وشاش المركب، فقال صاحب السكان اعلم أن السكان ثقيل على يدي من أول الليل فانظروا فيه فنظروا في سورة السكان مثل مسمار ليس يبرح، فهبط رجل وأصعد الصبي، فإذا هو صحيح لم يصبه شيء فدفعه إلى أمه فسقته لبنا فشرب وله من العمر خمسة عشر شهرا، فقال إسمعيلويه رأيت المرزبان هذا وقد نيف على السبعين سنة وقد تقدم إلى قاضي عمان في يوم واحد ثلاثة عشر كرة يحلف الناس على أموالهم إيمانا كلها كاذبة.

وحدثني خلق من الناس أنه لم يكن في ربانية البحر أظلم من المرزبان هذا وأنه كان يعامل التجار في مركبه ما يعامل به أصحاب الشروط. وحدثني جماعة من البحريين بأمر سعيد الفقير العدني وكيف كان سبب غنى أولاده وأجمعوا كلهم على ما أصفه ذكروا أن سعيد الفقير كان رجلا صالحا من أهل عدن يسفر أي يضفر الخفاف والغوص ويلزم مسجدا يصلي فيه سائر الصلوات، وكان له ثلاثة بنين يعيشون في معاش قريبا من معاشه، وأن بعض البحريين جهز مركبا إلى كَلَه وكان صديقا لسعيد، فلما عزم على المسير قال له أسألك أن تسألني حاجة فاشترى بنصف درهم جرة خضراء وبدانق ملحا جريشا، وجعله فيه ودفعه إليه. قال له فما اشتري لك؟ قال اشتري لي بركة كما تقول الناس، وخطف المركب ووصل إلى كَلَه ونجَّل وباع ما فيه وأُنسيَ صاحب المركب الجرة.فبينما هو ذات يوم في سوق كَلَه وقد قارب الخروج منها وحمل المركب إذا رأى رجلا يجر سمكة في حبل وينادي من يشتري بَرَكَة فلما سمع ذلك ذكر جرة سعيد الفقير فدعا صاحب السمكة وسأله عنها فقال هذه جنس من السمك يسميه الصيادون بركة، فقال في نفسه لعل الرجل أراد هذه السمكة بعينها فاشتراها على أن يعطيه بالثمن وزن أوقتي ملح وأجلسه وأرسل بعض أصحابه إلى المركب فجاء بالجرة كهيئتها وأعطى الرجل من الملك ما وافقه عليه وأمر بحمل السكة إلى المترل الذي يسكنه ووضعت السمكة لتُملح ببقية الملح، وهم يخرجون ما في جوفها إذا وجدوا عدة صدفة فشقوها فوجدوا فيها صدفة فيها درة، فقال الرجل هذا رزق ساقه الله إلى سعيد، وملح السمكة ببقية الملح ورفع الدرة، وساروا من كَلَه وسلموا إلى عدن ورفع الرجل الدرة إلى سعيد فعاش بعد حصولها في يده مدة يسيرة ثم مات، فأخذها ابنه



الأصغر وخرج إلى سُرَّمَنْ رأى إلى الخليفة وهو يومئذ المعتمد فباعها عليه بمائة ألف درهم، وكانت قيمتها أضعاف ذلك.

وقد قيل إن بعض ملوك الهند صّور محمد بن بابشاد لحالته في النواخذة، ومضّى اسمه في البحر، ومن رسمهم أن يصوروا كل من له نباهة وقدر ومحل سائر أصناف الناس. وان بعض السيرافيين ممن سافر البحار حدثه أنه ركب في بعض المراكب من سيراف إلى كَلَه فأصيب في اللج وتخلص على خشبة فمكث نيفا وعشرين يوما في البحر ووقع إلى جزيرة كثيرة الشجر والفواكه والموز، فصعد وأقام بها يأكل من فواكهها ويشرب من ماء عذب فيها، ثم ضاق صدره فمشى على وجهه أياما حتى وقع في أرض عامرة فيها زرع ذرة وأرز وغير ذلك وأنه رأى كوخة فقصد نحوها فوجد فيها خبًّا للماء فارغا فنام في الكوخة ليستريح، فإذا هو برجل يسوق ثورين عليهما إثنا عشرة قربة مملوءة ماء فصبها بأسرها في ذلك الخب حتى امتلأ وجلس الرجل يستريح، فقام الرجل يشرب من الماء وتأمل الخبَّ فوجده أملس حسن الصقال لا يشبه الخزف ولا الزجاج فسأل الرجل عنه، فقال هذا أصل ريشة طائر فلم يصدق الرجل حتى قام فمسح الخبَّ من داخل وخارج فوجده يشف ووجد في جنبيه آثار أسافل ريشة، وأن ذلك الرجل حدثه أن في الطيور ما ريشه أكبر من هذا بكثير.

ومما أجمع عليه جماعة البحريين و لم أجدهم ينكرون شيئا منه وهو أن بعض المراكب الخارجة إلى الصين أصيب في اللج وسلم منه ستة أنفس أو سبعة على الشراع ومكثوا أياما في البحر، ثم وقعوا إلى الجزيرة وأقاموا بها شهورا حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر، وأنهم في بعض الأيام يتحدثون على ساحل البحر إذ سقط طائر في قدر الثور أو نحوه، فقالوا: قد ضاقت صدورنا من الحياة، فقوموا بنا نجتمع على هذا الطير فنصرعه ونذبحه ونشويه ونأكل من لحمه، فإما أن يعطف فيقتلنا بمخاليبه ومنقاره وإما أن نظفر به فنأكله. فقاموا إليه وتعلق بعضهم برجليه وبعضهم بعنقه وبعضهم يضرب ساقه بالخشب وجاهدوا حتى صرعوه، فعمدوا إلى حجارة فضربوا بعضها ببعض حتى تكسرت وصارت كالسكاكين وذبحوه ونتفوا ريشه وأوقدوا نارا عظيمة وطرحوه فيها وقلّبوه حتى استوى ثم جلسوا فأكلوا منه حتى شبعوا وأكلوا منه بالعشي، فلما كان في اليوم الثالث وأصبحوا قاموا إلى البحر ليتطهروا للصلاة فجعلوا لا يمسون شيئا من أبدانهم إلا تساقط الشعر عنه حتى لم يبق على واحد منهم شعرة واحدة في سائر جسده، وصاروا مردا جردا، وقد كان فيهم ثلاثة شيوخ فورد عليهم ما حيرهم، وقالوا كان لحمه مسموما وقد تساقط الشعر واليوم نتلف كلنا ونستريح، فأمسوا وهم في عافية وأصبحوا وهم كذلك، فلما مضت عليهم خمسة أيام ابتدت شعورهم وخرجت، ولما مضى عليهم شهر كمل الشعر في نهاية السواد والبريق و لم تبيض بعد ذلك فمكثوا شهرا أو نحوه حتى اجتاز بهم مركب فأوموا إليه فجاء إليهم، وسَلِموا وتفرقوا في البلاد وحدثوا بحديثهم. وكان بعضهم يُعرف وهو شيخ فلا يصدقه حتى يعطيهم العلامات التي لا يعرفها سواه، وعاشوا بقية أعمارهم وشعورهم مسودة.

وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة سمرقند - وهو البحر الذي يلي هركند، ويقال إنه مصب ماء نهر سمرقند في هذا البحر وإنه سمي سمرقند لذلك - خلقا كثيرا من الفال وهو أكبر سمك في البحر، وأنه رأى سمكة منه قدر أن طولها مائتي ذراع وارتفاعها مائة ذراع وأنهم رأوها من بُعد وقد رفعت أجنحتها فظنوها شُرُعَ مراكب إلى أن حاذوها، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة الأرحية (= حجر الطاحون) مما قد تراكب



عليه طول السنين من الحشور والطين فاستحجر وصار لا يعمل فيه الحديد ولا غيره، وأنه يسير في البحر يمنة ويسرة وورائه وبين يديه - فراسخ - سمك لا يفارقونه، والذكر والأنثى منه على ما قيل يحمل البيض فيعظم في بطونها إلا أن الذي يحمله الذكر لا يكون منه شيء والذي تحمله الأنثى يكون منه الأولاد.

ومن عجيب أمر البحر أن طائرا بناحية مايط- وهي جزيرة في البحر بالقرب من الصنف وسريرة- قيل إنه يجمع عشا على الماء في خور من تلك الأخورة وتبيض عليه وتحضن البيض أربعين يوما فإذا كان بعد أربعين يوما رمى البيض في الماء وجلس على الساحل بإزائه لا يبرح عشرين يوماً يأكل السمك، فإذا مضى عشرون يوما خرج إليه من فراخه من ذلك البيض فيجتمعون حول أبويها فيلفونهم في ريشهم ثم يزقونهم إلى أن ينبت لهم ريش فإذا تحاملوا وأكلوا تركاهم، وأكثر ما يكون فراخهما ثلاثة. وأهل مايط على ما ذكروا ولا يدخلها مركب سالم لأن المركب تمضي إليها في وقت واحد من السنة فيتفق مجيء المركب إليها في وقت خب عظيم فإذا حصل المركب بإزاء البلد طرح أهله نفوسهم إلى البحر على الخشب وما يحملهم ولا يزال الموج يضربهم حتى يلقيهم على الساحل ويحمل الموج المركب ولو كان في مائة أنجر حتى تلقيه على الساحل فتكسره وتقذف بالأمتعة إلى الساحل فيأخذ الناس أموالهم ويستأنفوا مركبا للرجوع فجميع ما يُحمل إلى ذلك البلد يُجعل في الجلود ويُحكم صونه لئلا يهلك بالماء وقت انكسار المركب، وهي جزيرة فيها ذهب وقطن وعسل.

وحدثني الحسن بن عمرو أنه رأى بالمنصورة أهل قشمير الأسفل، وبينهم وبين المنصورة مسيرة سبعين يوما في البر ينحدرون في مهران من قشمير- وهو يجري كما يجري دجلة والفرات في وقت المدود- على أعدال القسط، وقال لي إنهم يعبون القسط في الأعدال (= كيل) في كل عدل سبعمائة وثمانمائة مناً ويجلّدونه ثم يجعلون فوق الجلد القار فلا ينفذه الماء ولا غيره، ويقرنون الاعدال ويشدونها ويوطئون عليها ويجلسون فيها وينحدرون في مهران فَيَصلون إلى فرضة (= ميناء) المنصورة في أربعين يوما ولم يلحق القسط شيء من الماء البتة. وحدثني من أقام بالهند زمانا أن فيهم كهنة وأن من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء فيخط في الأرض دارة تحت الطيور فلا تزال تدور في جو فوق الخلط إلى أن تقع فيه ثم لا تخرج عنه البتة، فيدخل إلى جوف الخط، ويأخذ منها ما يريد ويطلق عن بقيّتهم، وكذلك أيضا يرى في الصحراء طيورا ترعى فيخط حولها خطا بعيدا يدور عليها فما تبرح منه البتة ويدخل إليها فيأخذ منه حاجته .

وحدثني من رأى بعض هذه الطبقة بصندابورة وهو يجيء إلى خورها ومعه خشبة فيتكلم عليها بشيء ثم يرمي الخشبة في الخور فتمضي الخشبة إلى موضع ثم تقف فلا تبرح فيطلع في دونيج ويمضي هو إلى موضع الخشبة فيخرج تمساحا فيقتله، وخور صندابور فيه أمر عظيم من التماسيح، وقيل إن التماسيح لا تعقر بين الدور أحدا، فإذا خرج الإنسان إلى خارج لا يقدر أن يضع اصبعه في الماء إلا اختطفه التمساح، وأهل سريرة يقولون إن معهم طلسم للتمساح. وحدثني من رأى ببلاد الهند خلقا كثيرا يزجرون، وأن بعض التجار من أهل سيراف حدثه أنه أراد الخروج من صامور إلى سوبارة طريق البر، فقال لصاحب السلطان يضم إليه رجلا يخفره في طريقه، فضم إليه أحد من كان بين يديه من الباتك، وهو الرجالة، قال فخرجنا فلما صار بظاهر صيمور جلسنا عن ثلاج وهو بركة ماء وجرام وهو البستان نأكل شيء وفي جملته أرز، فنعق غراب، فقال الهندي للسيرافي: تعرف ما يقول الغراب؟ قال: لا، قال: يقول لا بد أن آكل هذه الأرز الذي أكلتموه، قال



فتعجبت من قوله لأنا كنا قد أكلناه جميعه حتى لم يبق منه شيء، ثم نهضنا وأخذنا نمشي فما سرنا فرسخين حتى لقيتنا خمسة أنفس أو ستة من الهند، فلما رآهم الهندي اضطرب وقال: إليَّ أن أقاتل هؤلاء، قلت: ولِمَ قال لأن بيني وبينهم عداوة، فلما كلمني بما أراد جردوا خناجرهم واجتمعوا عليه فقتلوه وشقوا بطنه حتى خرج ما فيه، ووقع عليّ من الفزع ما لا يمكّني معه المشي فسقطت كالباهت العقل، فقالوا لي: لا تفزع فإن هذا بيننا وبينه عداوة، وأنت لا بأس عليك، ومضوا وتركوني، فما تباعدوا حتى سقط غراب لا أشك في أنه ذلك الغراب، فجعل يلتقط الأرز الذي خرج من جوفه.

ومن طريف أخبار تجار البحر ومَنْ ركبه واستغنى فيه ما حُدِّث عن إسحاق ابن اليهودي وكان رجلا يتصرف مع الدلالين بعُمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة فهرب من عمان إلى بلاد الهند ومعه نحو مائتي دينار لم يكن يملك سواها، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة ولا يُعرف له خبر، فلما كان في سنة ثلاثمائة ورد عمان، فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين أنه ورد عمان من الصين في مركب لنفسه وجميع ما فيه له، وأنه قاطع أحمد بن هلال صاحب عمان عن المركب لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه على ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع عليّ أحمد بن مروان دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق، وقدر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار، فباع علي أحمد بن مروان بُرداً (= ثوبا مخططا ثمينا) بأربعين ألف دينار دفعة أخرى، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى، فاستقاله أحمد بن مروان فنقصه في كل مثقال درهما نقرة (=نسبة من الخصم) فكانت الحطيطة (= التخفيض) مائة ألف درهم، وكانت معه طريفة من طرف التجار فطار اسمه في البلاد وحسده الخلق وطلب منه بعض أهل الشر شيئا فلم يعطه، فخرج قاصدا إلى بغداد. وكان أبو الحسن علي بن محمد بن الفرت وزيرا فسعى باليهودي فلم يلتفت إليه فتسبب إلى بعض الأشرار من خواص المقتدر بالله وتنصح (= تشبّه بالنصحاء) في اليهودي، وحكى أن رجلا خرج من عمان ولا شيء معه وعاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار وثياب وحرير وصيني بمثلها وجواهر وأحجار ظريفة بمثلها.

ومن غرائب نوادر الصين ما لا يُحصى، وهو شيخ لا ولد له، وأن أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة خمسمائة ألف دينار فرُفع الخبر إلى المقتدر فاستعظمه وأنفذ في الوقت خادما يقال له الفلفل أسود مع ثلاثين غلاما إلى عمان، وكتب إلى أحمد بن هلال يأمر بحمل هذا اليهودي مع الخادم ورسول من جهته، فلما وصل الخادم إلى عمان، فقرأ أحمد بن هلال الكتاب فأمر أحمد بالاحتياط على اليهودي وقطع مصانعته لنفسه على أن يدافع عنه على مال جليل، ثم دس إلى التجار مَنْ عرَّفهم ما في حَمْل اليهودي عليهم وعلى سائر الغرباء والقاطنين ممن يتجر من سوء العاقبة والجرأة عليهم ودخول اليد وطمع الفقراء فيهم، وأهل الشر، وغلقت الأسواق وكتبت المحاضر وشهد فيها الغرباء والقاطنون بأنه متى حُمِل هذا اليهودي انقطعت المراكب عن عمان وهرب التجار، وأنذر الناس بعضهم بعضا أن لا يطرق أحد ساحلا من سواحل العراق أو لا يأمن ذو مال على ماله وأنه بلد فيه وجوه التجار وذوو اليسار من أقطار الآفاق، وإنما سكنت نفوسهم إلى المقام بعدل أمير المؤمنين وعدل أميره وحسن سيرته ورعايته للتجار وكف الطامع عنهم والباغي، فشغبوا على أحمد بن هلال وصاحوا عليه، واختصموه حتى همت نفس الخادم – يعني فلفل وأصحابه – بالخروج عنهم وتمنوا الخلاص. وكتب أحمد بن هلال بذكر ما جرى وأنه قد قامت نفوس التجار وقدموا مراكبهم وأعادوا أمتعتهم

التي جاؤوا بها ليردوها وأن التجار القاطنين في البلد توغرت صدورهم، وقالوا: إن بقينا انقطعت معايشنا وأرزاقنا بانقطاع المراكب عنا، وإنما هذا بلد رزق أهله من البحر وإنه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم، والسلاطين نار أينما توجهت أحرقت، ولا طاقة لنا بذلك والخروج من بين يديه أمثل، وأخذ الخادم ومن معه من اليهودي نحو ألفي دينار وانصرفوا. فخبثت نفس اليهودي ولم يزل يحتاج (= يتاجر) ويجمع ماله وبنى مركبا وخرج إلى الصين ومعه جميع ماله حتى لم يخلف درهما بعمان. فلما صار بسريرة التمس منه صاحب سريرة عشرين ألف دينار مصانعة ليتركه يجوز إلى الصين ولا يعوقه، فلم يعطه شيئا فدس عليه من قتله ليلا وأخذ مركبه وجميع أمواله، وكان مقامه بعمان ثلاث سنين، وخبرني من شاهده بعمان في يوم مهرجان وقد أهدى إلى أحمد بن هلال برنية (= إناء خزفي) صيني سوداء مضيئة الرأس بالذهب، فقال له: ما في هذه البرنية؟ فقال: سكباج (= لحم متبّل) أصلحتها بالصين لك، فتعجب من هذا، وقال: سكباج يُطبخ بالصين، وقد مضى عليه سنتين! كيف يبقى؟ فكشف الرأس، وفتحت البرنية فإذا فيها سمك من ذهب عيونه من الياقوت، وقد عبي في البرنية، وفي خلله المسك الفائق وإذا قيمة ما في البرنية خمسون ألف دينار.

ومما حدث به اليهودي أنه قال دخلت إلى بلد يقال له "لوبين" من بلدان الصين، والمسلك إليه بين جبال وعلى جبال شاهقة، ويُحمل المتاع إليه على الغنم لأنه صعود جباله مثل الدرج لا يستطيعه إلا الغنم، فوجدت بهذا البلد ملكا كبيرا له قدر، وجلاله عظيم الشأن، فدخلت إليه وهو جالس على سريره من ذهب مرصّع باليواقيت وعليه حلى مثل حلى النساء، وزوجته إلى جانبه عليها أكثر مما عليه، وفي رقبته أطواق من ذهب وزبرجد لا يقومون بقيمة ولا يكونون مثلها عند ملك من ملوك المشرق ولا المغرب، وعلى رأسه نحو من خمسمائة جارية من كل لون عليهم أنواع الحرير والحلى، فسلمت عليه فقال: يا عربي هل رأيت أحسن من هذا؟ يعني طوقا مرصعا من أطواقه، فقلت: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قلت: معي واحدة اشتريتها بمال عظيم، قصدتك أيها الملك بها، قال: فقالت له امرأته: بقي لك شيء هوذا قد جاءتك واحدة، فرد على هذه فقالا لي: عجل لنا بها الساعة، فقلت: بسببها جئت والليلة أجيئكما بها، فقال: لا إلا الساعة الساعة، وهو فرحا مستبشرا. قال اليهودي وكان عندي عشرة، فبادرت إلى الموضع الذي نزلته فأخذت تسعة فدققتها بحجر حتى صيرتها كالسويق (= مسحوق الدقيق) ودفنتها في التراب، وأخذت الواحدة فلفيتها في المنديل وجعلتها في تخت (= صندوق) وشددتها وأحكمته ثم حملته وقصدت الملك، ولم أزل أفتح وأنشر وهو يزحف إليّ وزوجته قائمة تستعجلني حتى أخرجت المُنية (= البُغية)، فسجد من ساعته لها وسجدت امرأته، ووهبا لي عليها مكافأة لها قدر عظيم.

وأجمع البحريون على أن بحر بربرا وهو سبعمائة فرسخ وهو في الطريق إلى بلاد الزنج من أعظم البحار خطرا، وللزنج في هذا البحر جزائر عظيمة من جانب واحد والماء فيه على ما يقال يجري جريانا شديدا والمركب تقطعه في سبعة أيام وفي ستة أيام، وإذا وقع المركب إلى بربر أخذوا أهل المركب وخصومهم، وإذا قصد التجار بربرا كان مع الواحد منهم بحسب مقداره وكثرة ماله جماعة يخفرونه لئلا يأخذوه بعضهم فيخصيه، والواحد منهم يجمع بيض من يخصيه ويحفظها فإذا تفاخروا أخرجوا ما عندهم ليقع الرغبة فيه لأن الشجاعة هو أن يخصي الرجل منهم الرجل من الغرباء. ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التي يقل السلامة

فيها بحر غباب سرنديب وهو ثلاثمائة فرسخ وفيه من التماسيح أمر عظيم، وفي ساحل هذا البحر النمور والبوارج (= القراصنة) الذين يقطعون في هذا البحر إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله وهم أشرّ قوم، وليس في سائر الأماكن من يقطع البحار مثلهم، فالمركب الذي يقطع هذا البحر متى أخذه البوارج أكلوا أهله، وإن غرق لم يمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح، وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمور في ساعة واحدة.

ومن أخبار الهند في سننهم الظريفة ما حدثني به الحسن بن عمرو أنه سمع شيخا عالما بسِيَر الهند يقول: إن بعض ملوك الهند الكبار كان جالسا يأكل وبإزائه ببغاء في قفص معلقة فقال لها: تعالي فكلي معي، فقالت: أنا أفزع من السنور، فقال لها: أنا بلا وجرك، وهو بكلام الهندي إني أفعل بنفسي مثل ما يصيبك، وتفسير هذه اللفظة ومعناها هو ما أذكره، وذلك أن الملك من ملوك الهند يجيء إليه من الرجال عدة على حسب محله وجلالة قدره فيقولون له: نحن بلا وجرك فيطعمهم الأرز بيده ويعطيهم التانبول (= نبات) بيده، فيقطع كل واحد منهم الخنصر من أصابعه ويضعها بين يديه، ثم يكونون معه حيث سلك يأكلون بأكله، ويشربون بشربه، ويتولون إطعامه ويستقضون سائر أحواله فلا تدخل إليه حظية ولا جارية ولا غلام إلا فتشوه، ولا يفرش له فراش إلا فتشوه، ولا يقدم له طعام ولا شراب إلا قالوا للذي أحضره كُلْ منه أولا، وما أشبه هذا من سائر الأشياء التي يخاف على الملوك منها، فإن مات قتلوا أنفسهم، وإن احرق نفسه أحرقوا أنفسهم، وإن مرض عذبوا نفوسهم لمرضه، وإن حارب أو حورب كانوا حوله ومعه، ولا يجوز أن يكون هؤلاء (البلاوجرية) إلا من علية أهل الموضع، ومن يرجع إلى نجدة وبسالة وشهامة وله رواء ومنظر فهذا معنى البلاوجرية، فلما قال الملك لها: أنا بلاوجرك أكل الأرز عنها، فلما رأته قد أكل الأرز عنها، وقال لها: أنا بلاوجرك، نزلت من القفص وجاءت فجلست على الخوان لتأكل، فقصد السنور فقطع رأسها فأخذ الملك بدن الببغاء فجعله في صينية وجعل عليه الكافور وحوله الهيل والتانبول والنورة والفوفل، وضرب الطبل ودار في البلد في عسكره والصينية على يده، ثم كان يوجه بالصينية كل يوم فيطوف بها في البلد مدة سنتين، فلما طال ذلك اجتمع عليه البلاوجرية وغيرهم من أهل مملكته فقالوا له: هذا قبيح، وقد طال الأمر فيه فإلى كم تدافع إما أن تفي وإلا فعرِّفنا حتى نعزلك، ونقلب ملكا غيرك لأن في الشرط أنه إذا قال بلاوجرك ثم وجب عليه حكم فدافع به (= أجّل) أو نكل عنه فقد صار بهند، والبهند عندهم هو الذي لا يجوز عليه الحكم لقلته ومهانته وسقوطه مثل المغني والزامر وما أشبه ذلك، والملك ومن دونه في ذلك سواء إذا نكل عن واجب. فلما رأى هذا جمع العود والصندل والسليط (= زيت فاخر) وحفر حفيرة وجعل ذلك فيها وأحرقه بالنار ثم رمى بنفسه فيها فاحترق واحترق بلاوجريته ثم بلاوجرية البلاوجرية يعني أتباع لاتباع فأرموا نفوسهم معه فاحترق في ذلك اليوم نحو ألفي نفس معه، وكان أصل ذلك قوله للبغاء أنا بلاوجرك .

وحدثني أن الملوك بسرنديب ومَن يجري مجراهم يُحملون في الهندول، وهو مثل محفة على أعناق الرجال، ومعه كرندة (= طبق) من ذهب فيه ورق التانبول وحوائجه يحملها غلام آخر، والغلمان والأصحاب معه ويطوف في البلد أو يمضي في حاجة وهو يمضغ التانبول ويبصق في المبصقة فربما جاءه البول وهو في مسيره ذاك فيخرج من الهندول ويبول في الطريق أو السوق أو حيث اتفق له، وهو مع ذلك سائر ليس يقف فإذا

فرغ من بوله رد إلى ثيابه و لم يمسحه. وحدثني قال رأيت بسندان رجلا من الهند قد اجتاز بدار فانصب عليه وعلى ثيابه بول من تلك الدار، فوقف وصاح بهم: هذا الذي صب عليّ ماء من غسل اليد أو عسل الفم؟ وهو عندهم أقذر ما يكون، فقالوا له: هذا بول صبي بال الساعة، فقال: كَنًّا، بمعنى جيد، ومضى. وعندهم أن البول أنظف من الماء الذي غُسل به اليد والفم. وحدثني أن الواحد من الهند يتغوط ويترل إلى الثلاج وهو بركة الماء المنصب من الجبال والصحاري في أوان الأمطار والسيول حتى يغتسل فيه ويستنجي، فإذا تنظف تمضمض بالماء وخرج من الثلاج فمج الماء من فيه إلى الأرض لأن عنده أنه إذا مج الماء من فيه إلى الثلاج أفسده. وحدثني عمن دخل سرنديب وخالط أهلها أن من رسوم سلطانها في معاملته أشياء منها أن له منظرة على الشط يضرب فيها على الأمتعة.

وحدثني بعض البحريين من أمر الحيات بكولَم مِلى ما يدهش وذكر أن منها حية تسمى الناغزان منقطة على رأسها مثل الصليب أخضر ترفع رأسها من الأرض مقدار ذراع وذراعين على قدر كبرها ثم تنفخ رأسها وأصداغها وتصير مثل رأس الكلب، وإذا سعت لم تُلحق، وإذا طلبت لحقت ما أرادت، وإذا نهشت قتلت. وأن بكولم مِلى رجل مسلم يسمى بالهندية "بنجي" وهو صاحب الصلاة يُرْقي نهشة هذه الحية فربما كان قد تمكن سمها فيه فلم ينفع، وفي الأكثر يعيش من يُرْقيه، ويُرقي أيضا من نهشتها وغيرها من الأفاعي والحيات. بهذه الناحية جماعة من الهند يُرقون إلا أن رُقْية هذا المسلم لا تكاد تخطيء، قال لي هذا الرجل: وشاهدته وقد جاءه برجل قد نهشته هذه الحية، وحضر رجل من الهند موصوف بالحذق بالرُّقْية ليبرأ وجعل المسلم يُرْقيه ليموت فمات، وأنه شاهده أيضا وقد رقى غير واحد ممن قد نهشته هذه الحية وغيرها فبرىء وسلم. وأن ببلاد خاصته حية صغيرة ولها رأسان أحدهما الأصغر صغير يقال لها بَطَر وإنما إذا فتحت فمها الأصغر كان مثل منقار العصفور، إذا نهشت بأيهما لم يمهل طرفة عين.

وحدثني أبو الحسن قال: حدثني محمد بن بابشاد قال: رأيت بغُبِّ سرنديب من أمر الحيات أشياء ظريفة ومن أصحاب الرقي أمر عجيب وشاهدتهم في بعض البلاد القريبة من بريين إذا نهشت أحدهم أفعى أو حية رقوه فإن نفعت الرُّقيا سَلِم وإلا جعلوه في سرير من خشب فتركوه على وجه الماء مع الجزر في نهر لهم يجري إلى البحر ودورهم أو دار أكبرهم على ذلك النهر طوله، وقد علموا أنه لا يوضع في مثل ذلك السرير إلا ملسوع، فمن كان منهم يحسن الرُّقي أخذ السرير ورقى من فيه، فإن نفعت رقيته قام الملسوع ورجع إلى مترله برجليه، وإن لم تنفع تركه مع الماء ولا يزال بطول البلد يأخذه واحد بعد واحد فيرقيه من يحسن الرقي، فإن نفعت رقيته قام الملسوع وإن لم تنفع سرحه، فلا يزال كذلك مع الماء حتى يبلغ إلى لآخر البلد، فإذا لم تنفع الرقية فيه حمله الماء حتى يرمي به في البحر ويغرق أو ينفق قبل أن يصل إلى البحر، لأنه ليس في الأمر أن يتركوه على الأرض ولا يتمسك به أهله رجاء أن يصلح، فإن سلم رجع برجليه وإن لم ينفع فيه الرقي فقد مضى.

وحدثني محمد بن بابشاد أيضا أنه قال: رأيت في نهر من أنهار الأغباب التي تجري إلى البحر تجري في الجزر جريا عظيما والمد يجري كذلك، فمررت في بعض الأيام بذلك النهر والماء قد نزل عن أكثره وظهرت حافتاه، وإذ بعجوز عليها ثيابها متربعة قاعدة على الرمل مع ضفة الماء فقلت لها: ما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت لي: أنا عجوز كبيرة وقد عشت مدة طويلة وأكلت من الدنيا قطعة، واحتجت أن أتقرب إلى خالقي

لأنجو، فقلت: فما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت: أنتظر الماء حتى يجيء فيحملني. فما زالت قاعدة موضعها حتى جاء الماء فحملها وغرقها، وقد ذكرتُ في هذا الجزء في غير موضع من أخبار الهند في قتلهم أنفسهم بضروب القتل ما فيه كفاية. وحدثني بعض من دخل الهند أنه رأى بكنبايَت الواحد بعد الواحد يجيء إلى الخور ليغرق نفسه فيعطي الأجرة لمن يغرقه يتخوف أن يدركه الخوف أو الجزع أو يبدو له في تغريق نفسه فيعطي الأجرة لمن يضع يده في قفاه ويغطه في الماء حتى يتلف، وإن صاح أو استعفى أو سأله أن يطلقه لم يفعل. وحدثني بعض من دخل بلاد السَّهال أنه رأى بجزيرة البقر- وهي بين جزيرة سرنديب وبين مندورين، وهي من الجزاير التي حوالي جزيرة سهيلان - بُدّاً للهند عظيما، وأن الهند يقولون إن هذا البُد كان بجزيرة سهيلان فعبر البحر حتى صار بجزيرة البقر، وأنه يقيم في كل جزيرة منها ألف سنة ثم يعبر إلى أخرى. وحدثني محمد بن بابشاد قال: رأيت بسريرة عند امرأة بها دابة على صورة بني آدم إلا أن وجهها أسود مثل وجه الزنج ورجليه ويديه طوال أزيد مما عليه الآدمي وله ذنب طويل، وعليه مثل شعر القرد وهو جالس في حجر المرأة قد تشبث بها فقلت لها ما هذا؟ فقالت: من أهل الغياض والأشجار، وكان يصيح صياحا ضعيفا لا يُفهم ما هو، وهو قريب من القرد إلا أن وجهه وجه بني آدم وخلقته مثل بني آدم .

وحدثني أن بجزيرة لامري من الزرافة ما لم يوصف كبره، وحكى عمن حدثه من أهل المراكب الذين كسرهم البحر أنهم اضطروا إلى المشي من نواحي فنصور إلى لامري وكانوا لا يمشون بالليل خوفا من الزرافة لأنها لا تظهر بالنهار، فإذا أقبل الليل صعدوا على شجرة عظيمة خوفا منها، فإذا كان الليل أحسوا بها تدور حولهم ويروا بالنهار آثار وطيها على الرمل، وأن بالجزيرة من النمل ما لا يوصف كثرة وخاصة بجزيرة لامري فإن النمل فيها عظيم. وحدثني أنه سمع بعض البحريين يحكى أن "بلو لوبيلنك" وهو جون في البحر فيه قوم يأكلون الناس لهم أذناب وهم فيها بين أرض فنصور وأرض لامري. وحدثني محمد بن بابشاد أن بجزيرة النيان، وهي جزيرة في البحر الخارج بينها وبين فنصور مقدار مائة فرسخ، قوم يأكلون الناس أيضا ويجمعون رؤوس الناس عندهم ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرؤوس، ويشترون سبايك صفر بالثمن الوافر ويذخرونه مكان الذهب ويبقى في بلادهم الدهر الطويل كما يبقى الذهب عندنا، والذهب عندهم لا مقام له بل يكون منه ما يكون من الصفر (= النحاس) عندنا. فتبارك الله أحسن الخالقين. وبعد جزيرة النيان ثلاث جزاير يقال لها براوة أهلها أيضا يأكلون الناس ويجمعون رؤوسهم فيتعاملون بها ويقتنونها.

وحدثني أن جميع أهل فنصور ولامري وكَلَه وقاقُله وصنفين وغيرهم يأكلون الناس إلا أنهم لا يأكلون إلا أعداءهم من طريق الغيظ عليهم، وليس يأكلونهم من طريق الجوع، ويقددون من لحم الإنسان ويصنعونه من أنواع الصنعة والألوان، وينتقلون به إلى الخمر. وحدثني أن أهل جزاير لجبالوس، وهي جزاير كثيرة طولها ثمانون فرسخا، يقصدون المركب ويشترون منهم المتاع يدا بيد، وأنه متى حصل مع أحدهم شيء قبل أن يُعطي بدلا منه، مضى ولم يقدر على استرجاعه منه، وربما انكسر المركب ووقع إليهم رجل أو امرأة فيسلم معه شيء من ماله أو ثيابه، فإن كان الذي سلم معه بيده لم يأخذوا منه شيئا كائنا ما كان لأنهم لا يأخذون من يد أحد يقع لهم شيئا، ثم يقعدونه في منازلهم ويطعمونه مما يأكلون، ولا يأكل الواحد منهم حتى يطعم ضيفه، فإذا أكل الضيف أكل ما يفضُل عنه ولا يزال عندهم من هذه صورته حتى يجتاز بهم مركب حملوهم

إليه وقالوا لأهل المركب: أعطونا شيئا وخذوه منا، فلا بد لأهل المركب أن يعطوهم شيئا عنه ويأخذونه، وربما كان الذي يقع لهم شهما فيخدمهم ويفتل الكنبار (= ألياف أشجار جوز الهند) ويبيعه عليهم بالعنب، ويجمع شيئا إلى وقت اجتياز المراكب فيجمع شيئا في مقامه عندهم.

وحدثني بعض من دخل بلاد الهند أنه سمع أن الإدماس (=الألماس) الجيد النادر المرتفع يُجلب من نواحي قشمير وأن هناك واد بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر ليلا ونهارا شتاءً وصيفا، والإدماس فيه وليس يطلبه إلا طائفة من الهند سفلة، يحملون أنفسهم على المهالك، فيجتمع الجماعة منهم ويقصدون هذا الوادي ويذبحون الغنم الهزلة ويقطعونها قطعا ويقذفون بالقطعة بعد القطعة في كفة منجنيق يعملونه لأن التقرب من الموضع لا يمكنهم لجهات شتى منها أو وهج النار يمنع من ذلك، ومنها أن حول النار من الأفاعي والحيات ما لا يوصف، وفيها ما لا يُمْهِل حتى يُتلف، فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور وهي كثيرة فتخطفه إن وقع بعيدا عن النار فترفعه فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي وربما سقط من قطعة اللحم التي أخذها شيء من الإدماس، وربما انحدر في موضع فيأكلها فيجدون في ذلك الموضع الإدماس، وربما سقطت اللحم في النار فتحترق، وربما وقع النسر على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويتشيط، وربما اختطفها النسر قبل سقوطها إلى الأرض على حسب ما يتفق، فهكذا يأخذ الإدماس، وفي أكثر يَتْلفُ طالبُه بالأفاعي والحيات والنار، وملوك الناحية يطلبون الإدماس ويشددون في طلبه وطلب من يلتمسه ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الإدماس وعظم خطره. وحدثني إسمعيلويه الناخذاة، قال: اجتمع لي في كرّة واحدة وردْتُ فيها من كَلَه إلى عمان، وذلك في سنة سبعة عشر وثلاثمائة، ما لم يجتمع لناخذا قبلي، خطفْتُ من كَلَه فلقيني في طريقي سبعون بارجة فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية، واحرقْتُ عدة منها، وقتلت جماعة، وتخلصت وقطعت من كلَه إلى أن وصلت إلى شط العرب يعني "شِحْر لُبان" في أحد وأربعين يوما، فأخذ السلطان بعمان من عشور الأمتعة التي في مركبي ستمائة ألف دينار وترك علي الناس من العشور في بضائع وغير ذلك مما سامحهم فيه ما لعله يكون مائة ألف دينار سوى ما سرق من العشور، و لم يوقف عليه، وهذه ثلاثة أشياء اجتمعت في كرّة واحدة تتفق لم تجتمع ولا متفرقة لأحد ورد من هذه الناحية قط.

وحدثني البلوجي المتطيب بعمان، قال: كنت بالتيز وقفنا إليها بالتواهية (= وصلناها ضالين)، فتركنا المركب ونجّلنا الحمولة وأقمنا ننتظر الشرتا، فبينما نحن كذلك يوما من الأيام إذ وافت امرأة لها قَدٌّ وتمامٌ وجسمٌ حسن، ومعها شيخ أبيض اللحية ضعيف الجسم نحيف، فقالت: أشكو إليكم هذا الشيخ، وكثرة مطالبته لي وإني ليس أطيقه، فلم نزل نرفق بها إلى أن وفّقناه أن يصطلح في اليوم دفعتين وفي الليل مثله، فلما كان بعد أيام عادت إلينا فشكت مثل ما شكت أولا، فقلنا: يا هذا الرجل أمرك عجيب فما خبرك؟ قال: كنت في مركب فلان في سنة كذا فأصيب وتخلصت مع جماعة من أهل المركب على الشراع: فوقعنا بجزيرة فمكثنا أياماً لم نطعم شيئا حتى أشرفنا على التلف، ثم وقعت سمكة ميتة قد قذفها الموج إلى الساحل فتعامى القوم من أكلها خوفا أن تكون أكلت شيئا من السموم، فحمل نفسي الجهد الذي بي على أكلها، وقلت: إن تلفْتُ استرحت مما أنا فيه، وإن عشت كنت قد شبعْت لوقت آخر، فأخذتها والقوم يمنعوني وجعلت آكلها غير مشوية فلما حصل لحمها في جوفي التهب في ظهري مثل النار ثم صار بطول ظهري كعمود من نار

وانتشر على بدني واتعبني، فأنا منذ ذاك الوقت وإلى يومي هذا على هذه الصورة، قال: وكان له منذ أكله السمكة سنين كثيرة. وتذاكرنا أمر إسمعيلويه بن إبراهيم بن مرداس فقيل لي إنه وصل في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وكان وصوله منذ خطف من كَلَه وإلى أن دخل بكلأ عمان ثمانية وأربعين يوما، وورد في تلك السنة كاوان من سرنديب وبلغ عشور مركبه ستمائة ألف دينار لا مركب إسمعيلويه.

حدثني عن كاوان هذا أنه قال: أدخلني بغبور (= امبراطور) ملك الصين إلى بستان بخانقو مقدار عشرين جريبا فيه نرجس ومنتور (= نوع من الأزهار) وشقايق وورد وسائر النوار، فعجبت من اجتماع نوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد، فقال: كيف ترى؟ فقلت: ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن !ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها! فقال لي: جميع ما ترى من الأشجار والنوار معمولة من الحرير الصيني، قد عُمِل وضُفِر وحُبِك ونُسِج وسُوِّي، ومنْ رآه لم يشك فيه أنه شجر ونوار لا يغادر شيئا .وبـــ "باندمان الكَبير" بيت كبير من الذهب فيه قبر يعظّمه أهل باندمان، ولشدة تعظمهم إياه بنوا عليه بيتا من الذهب، وأهل الجزيرتين يزورونه، ويقولون إنه قبر سليمان بن داود عليهما السلام وإنه كان دعا الله عز وجل أن يجعل قبره حيث لا يصل إليه أهل ذلك العصر، وإن الله تعالى خصَّهم به فجعل قبره عندهم، فإندمان لم يقع إليها أحد عاد إلينا، وإنما حكى لي بعض من دخل بلاد الذهب أنه رأى بصنفين رجلا ذكر أنه وصل إلى إندمان في جملة أهل مركب كانوا فيه وأُكلوا و لم يتخلص غيره، وأنه حدثه بهذا الحديث.

وحدثني غير واحد من البحرين بأمر الدرة المعروفة باليتيمة وإنما سُميت اليتيمة لأنه لم يوجد لها أخت في الدنيا وأجودهم شرحا للقصة، حدث أنه كان بعُمان رجل يقال له مسلم بن بشر، وكان رجلا مستورا جميل الطريقة (= حسن الأخلاق) وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ وكانت بيده بضاعة فلم يزل يجهز الرجال للغوص ولا يرجع إليه فائدة حتى ذهب جميع ما كان يملكه و لم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء يجوز بيعه إلا خلخال بمائة دينار لزوجته، فقال لها: إقرضيني هذا الخلخال؛ لأجهز به فلعل الله تعالى يسهِّل شيئا، فقالت له: يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شيء نعول عليه، وقد هلكنا وافتقرنا، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نتلفه في البحر، فتلطّف بها وأخذ الخلخال وصرفه وجهّز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم. ومن شرط الغواص أن يقيم الغوّاصة فيه شهرين لا غير وعلى هذا يتشارطون، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوما ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يحصل لهم شيء، فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم ابليس لعنه الله فوجدوا فيما أخرجوه صَدَفَة استخرجوا منها حبة لها مقدار كبي، ر لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان وإلى وقته، فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله فأخذها وسحقها ورمى بها في البحر. فقالوا له يا هذا الرجل لِمَ فعلت هذا؟ افتقرت وهلكت، و لم يبق لك شيء بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف دنانير، فتسحقها. فقال: سبحان الله كيف أن استحل أن أنتفع بمال استخرج على اسم إبليس، وإني أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك، وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي، ولئن انتفعت بها ليقتدينّ كل أحد بي فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به، إمضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وببركة الله، قال فغاصوا على ما رسم لهم فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم، وهو آخر يوم من الستين حتى حصل



بيده درتان إحداهما اليتيمة والأخرى دونها بكثير، فحملهما إلى الرشيد، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم وانصرف إلى عمان بمائة ألف، فبنى بها دارا عظيمة واشترى ضياعا واعتقر عقارا، وداره معروفة بعمان، فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة. وحدثني يونس بن مهران السيرافي التاجر وقد كان دخل الزابج قال: رأيت في البلد الذي فيه مهراجا الملك بالزابج من الأسواق العظيمة ما لا يُحصى، وعددتُ في سوق الصيارف بهذا البلد ثمانمائة صيرفي سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق. وحكى من أمر جزيرة الزابج وعمارتها وكثرة البلدان والقرى فيها ما لا يقع عليه وصف.

ومن طريف الأخبار ما حدثني به بعض أصحابنا، قال: ركبت في سفينة من الأُبلّة أريد بَيَان فأخذتنا الأمواج، وزاد الأمر علينا حتى نزعنا ثيابنا و لم يكن عندنا شك أننا تالفون، وكان في السفينة معنا امرأة معها صبي وكانت ساكتة قبل ذلك، فلما اشتد بنا الأمر أخذت ترقّص الصبي وتضحك و لم يكن فينا فضل لخطابها لأنّا يئسنا من الحياة، فلما صرنا في الشط وأمنّا للغرق قلت لها: يا هذه المرأة أما تتقين الله عز وجل، أنت ترى ما حل بنا من البلاء، وأنّا قد يئسنا الحياة ترقصين الصبي وتضحكين أما خفتِ الغرق كما خفنا؟ فقالت: لو سمعتم حديثي لتعجبتم وما أنكرتم عليّ صبري وتهاوني بالغرق، قلنا لها: حدثينا، فقالت: أنا امرأة من أهل الأُبلّة وكان لوالدي صديق من بانانية المراكب المختلفة من عمان إلى البصرة، وكان إذا ورد المركب الذي هو فيه من عمان نزل إلينا وأقام عندنا أياما وأهدى إلينا، وإذا أراد الخروج فعلنا مثل ذلك وأهدينا إليه ما يمكننا، وكان رجلا مستورا فزوجني أبي به، وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفي أبي، فقال لي: قومي حتى أحملك إلى عمان فإن لي بها والدة وأهلا، فخرجت معه إلى عمان وكنت مع أهله بها مقدار أربع سنين وهو يختلف بين عمان والبصرة، ثم توفي بعمان بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر، فلما قضيت العدة لم يطب لي المقام بعمان لأن مقامي إنما كان بسببه، فقلت لوالدته وأهله: أريد أن أرجع إلى أهلي بالأُبلّة، فقالوا لي: إن أقمتِ عندنا قاسمناك حياتنا، فليس لنا في الدنيا غير هذا الصبي، وسألوني فأبَيتُ، فلما عزمت على الخروج اشتريت للصبي سريرا وثيقا من خيزران وجعلت فيه ثيابا كنت قد جمعتها لي وللصبي وذخيرة كنت اذخرتها، وغطيت ذلك كله وأحكمته وجعلت الصبي فوقه وخرجت في مركب يريد البصرة، فبينما نحن إذ أخذنا الخبُّ فانكسر المركب نصف الليل وتفرقت الركاب والبانانية في البحر فلم يرد أحد منا صاحبه، وتعلقت بلوح من الألواح فضبطته، و لم أزل عليه إلى الغد نصف النهار حتى رآنا صاحب مركب مجتاز فجمع من رأس الماء نحو عشرة أنفس كنت أنا أحدهم، وحملنا إلى مركبه ونكسوا رؤوسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه في البحر وسقونا أدوية وعالجونا إلى من الغد بالغداة حتى رجعت نفوسنا إلينا، وأنا قد نسيت ابني لما أنا فيه وزال الفكر فيه عن قلبي، فلما كان من الغد قال صاحب المركب وأنا أسمع: أنظروا هذه المرأة لها إبن فإن هذا الصبي الذي وجدناه يموت، فقالوا لي: ألك إبنا؟ فتذكرت الصبي فقلت قد كان لي إبن، ومع ما مر بي فما أعلم أنه قد بقي منه شيء، فقالوا أبصري هذا الصبي قبل أن يموت فجاؤوني بالسرير وفيه الصبي بحاله ما فتحوه ولا أخذوا منه شيئا، فلما رأيته وقعت على وجهي وصرخت وغشى علي، فرشوا علي الماء وقالوا: ما أنت؟ فأفقت بعد ساعة وأقبلت أبكي وأضم الصبي، فقالوا: يا هذه المرأة ما لك؟ فقلت: هذا الصبي ابني، فقام صاحب المركب عليّ وقال: هذا ابنك فأي شيء الذي تحته؟ فأقبلت أعد عليهم ما تحته وجعلوا يخرجون شيئا بعد شيء كأنه إنما وضع الساعة، فما منهم أحد إلا بكى بكاء



عظيماً وحمدوا الله وشكروه، فأنا غرقت في ذلك البحر وفرق بيني وبين ابني فجمع الله بيني وبينه على تلك الصورة، أخاف من هذه الرحلة! إن كتب الله عليّ الغرق لم ينفعني الحذر.

وحدثني بعض تجار سيراف قال: ركبت في مركب من عمان يريد البصرة وكان في المركب جارية منصورية جميلة الوجه فارهة، ورأت أحد بانانية المركب يومي إليها في الوقت إذا قرب من البلنج، ولم يكن يقدر عليها لكونها في البلنج، فلما قربنا من خارك (= جزيرة خرج في الخليج العربي) تغير البحر وأخذنا الخب فأصيب المركب واتفق أن تعلقت بالشراع وقد تعلق به قبلي جماعة فيهم الجارية المنصورية، وذلك الباناني الذي كان يولع بها فجعل يراودها عن نفسها وهي ترفسه برجلها وتمنعه بقية نهارها والأمواج ترفعنا وتضعنا إلى أن وضعت الجارية وتمكن منه فوطئها وأنا أرى، وليس فينا فضل للقيام ولا خطاب ولا قدرة عل منعه ولا الفكر أيضا لأنا هالكون في البحر، وأصبحنا وقد تلفت الجارية وسقطت عن الشراع في البحر مع أكثر من سَلِم على الشراع. وحدثني أنه كان بصيمور رجل من أهل سيراف يقال له العباس بن ماهان وكان "هُنَرْمَن" (= الذي يمثلهم) المسلمين بصيمور ووجه البلد والمنضوي إليه من المسلمين فدخل بعض بانانية المراكب، وكان من أهل الفُجر فمرّ بصيمور فرأى فيه صنما على صورة جارية في نهاية الحسن فطلب غفلة من القوم وتقدم إليها فأنزل بين أفخاذها، واجتاز به أحد من القوم ففزع وتباعد وفطن به القيّم، فتقدم إلى الصنم فوجد بين أفخاذه ماء فتعلق بالرجل ورفع من ساعته إلى الملك بصيمور وعرف الصورة، وأقر الرجل بما فعل فقال: ما ترون؟ فقالوا: يطرح للفيلة حتى تدوسه، وقال آخر: يقطع قطعا فقال آخر: لا يجوز هذا فإنه من العرب وبيننا وبينهم شروط، ولكن يمضي واحد منكم إلى العباس بن ماهان هنرمن المسلمين فيقول: له ما حكم الرجل منكم إذا وجد في مسجد من مساجدكم بامرأة؟وانظروا ما يقول فافعلوا به. فمضى إليه أحد الوزراء واستفتاه فأحب العباس بن ماهان أن يعظم أمر الإسلام عندهم، فقال: إذا وجدنا أحدا على هذه الصفة قتلناه، فقتلوا الرجل فاتصل الخبر بالعباس، وكيف جرت هذه القضية فخرج عن صيمور سرا من الملك خوفا أن يمنعه من الخروج عن بلده لمحله وموضعه.

وحدثني داربزين السيرافي وهو أخ امرأة عبيد الله بن أيوب وعبيد الله خال عبد الله بن الفضل القاضي قال: كنت بخانقو وهي قصبة الصين الأكبر يوما إذ قيل في غد يدخل البلد أحد من حجاب بغبور قد وافى من بعض النواحي فدلس الناس من غد في الطريق الذي يجتاز للنظر إليه وابتدأ أصحابه يدخلون طلوع الشمس قطعة (= جماعات) إلى وقت العصر ثم أدخل الحاجب نفسه وإذا معه من الرجال نحو مائة ألف فارس. ومن الأخبار الطريفة ما حدثني به العباس بن ماهان هُنَرْمَن صيمور أن بعض التجار أخبره عن نفسه أنه جهز مركبا من سندان أو صيمور إلى عمان، وأنه سلم إلى وكيله في المركب خشبة طويلة من الساج عليها علامة، وقال له: بع هذه واشتري بثمنها كذا وكذا من السقط، وكتب له بذلك تذكرة وخطف المركب. فلما كان بعد شهرين أو زيادة عليها وأنا جالس في منزلي وإذ برجل قد وافى فقال لي: قد دخلت الخور خشبة طويلة عليها اسمك، فقمت أعدو وليس عقلي معي فأنظر فإذا الخشبة بعينها فلم أشك أن المركب انكسر في البحر لأنها خشبة طويلة تحت الخشب فلم يمكن إخراجها من المركب في وقت الخب وطرح المتاع إلى البحر وزال الشك عني في أن المركب أصيب، فجاء الناس فعزوني وتعزيت عن المركب وما فيه وعدت إلى شغلي وليس عندي

البتة شك في أنه تلف لأنه ما جاءنا من البحر أحد عنده خبر. فما مضى إلا شهران أو نحوهما حتى جاءني البشير فقال: مركبك قد طلع. فقمت مبادرا فإذا المركب قد شارف البلد، ونزل الوكيل منه، وجاءني فسألته عن الخبر فقال: سلامة وعافية، فقلت: هل ذهب منكم شيء أو طرحتم إلى البحر شيئا؟ فقال: لم يذهب منا خلاله، فحمدت الله كثيرا، فقلت له: ما فعلت بتلك الخشبة الفلانية؟ قال بعتها بنيف وثلاثين دينارا واشتريت لك بالثمن. وكثر تعجبي من ذلك، ثم تحاسبنا فحاسبني على ثمنها، فقلت: لا بد أن تصدقني عن هذه الخشبة وعزمت عليه (= ألححتُ عليه) فقال لي: إني لما حولت جميع ما في المركب إلى الساحل وقع بعمان خب عظيم في البحر فحملت الأمواج الأخشاب إلى البحر وقلب البحر الرمل على الساحل فغطى ما شاء الله أن يغطيه من الأخشاب، فلما كان من الغد جمعت الرجال وطلبنا الأمتعة فلم نفقد شيئا غير الخشبة الطويلة، فقلت لعل الرمل قد سفا عليها فغطاها فاستأجرت من حفر بالساحل ليطلبها فما وقعنا لها على خبر وإذا الأمواج قد قذفتها إلى البحر فعادت إلى صاحبها. وهذا من أظرف ما سمعته في هذا المعنى.

وخرج في سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة مركب لبعض التجار بالبصرة من عمان إلى جدة ولحقه الخب في بعض نواحي "شحر لُبان" وطرحوا إلى البحر شيئا من الحمولة وفيما طُرح خمسة أعدال قطن حليج، وسلم المركب، واتفق أَن خرج مركب لهذا التاجر في هذه السنة أيضا من البصرة يريد عدن وغلافقة، فلما صار إلى تلك الناحية من شحر لبان انقطع القارب أو الدونيج من خلف المركب وأخذته الأمواج فطرح البانانية نفوسهم في القارب أو الدونيج ومضوا خلفه ليأخذوه فدخل موضعا شبيه البطن في البحر فدخلوا خلفه فإذا على الساحل خمسة أعدال قطن حليج بعلامة صاحب المركب فحملوها في القارب ورزق الله السلامة، وقد كانوا قدروا أن مركبا انكسر فيه الأعدال، فعرفوا بعد ذلك الخبر أن هذه الأعدال من جملة ما طرح من ذلك المركب. وحدثني من أثق لقوله إنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين... وحفر كل واحد منهما بئرا (= في جسده) وملأها، بعد أن قام فيها على رجله سرجينا (= وقف بنفسه على وضع بَعر الجمال فيها)، وجعل فيه نارا، ووسَّطا بينهما نَردا وجعلا يلعبان بهما، ويمضغان التانبول ويغنّيان والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت النار إلى قلوبهما فطفيا، ولم يظهر منها تألم ولا تغير . وقال إنه لا يعلم هل حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبنا إلى اليوم الثاني وماتا فيه. وحدثني عبد الواحد بن عبد الرحمن الفسوي وهو ابن أخي أبي حاتم الفسوي وقد سافر سنين كثيرة في البحار أن الهند كانت تشد شعورها مثل القلانس على الرؤوس وكانت سيوفها مستقيمة قائمة، فوقع بين طائفة منها وبين طائفة أخرى حرب فاستظهرت إحداهما على الأخرى فتحكموا عليهم وقالوا ما نرجع عنكم إلا أن تجعلوا شعوركم ساجدة لشعورنا وسيوفكم ساجدة لسيوفنا فصارت الفرقة المستظهرة عليها تشد شعورها منكوسة وسيوفهم مقوسة وهو القارطل (=بالسنسكريتية كارتالا) فالرسم باق إلى اليوم على هذا في تلك الطوائف.

وحدثني علي بن محمد بن سهل المعروف بسرور وقد دخل تَبّه ودبابد، هذه الدور بها راكبة على الماء وسائر أهلها بهم الشيكرة صغيرهم وكبيرهم لكثرة أكلهم الغيلم، وهو ذكر السلاحف، وأن كل واحد منهم يشد من باب مترله إلى الماء حبلا في وتد فإذا أصفرت الشمس أخذتهم الشيكرة فيخرج الواحد من بيته ويمسك الحبل إلى الماء ليقضي حاجته ويتطهر ويعود إلى مترله، فلا يزال كذلك إلى من الغد ضحوة النهار حتى



تنبسط الشمس ويضيء النهار، وأن مُجّان الغرباء إذا دخلوا ببلادهم أخذوا حبل هذا فجعلوه مشدودا على باب هذا وحبل هذا على باب هذا فيخرج الواحد منهم إلى الماء ويعود إلى مترل الآخر فيدخله فيقع بينهما الشر ويقول له: دخلت بيتي متعمدا. وحدثت عن رجل يقال له أبو طاهر البغدادي أنه قال: دخلت الزابج، ومن بلاد جزيرة الزايج بلد يقال مزغاويد فيه عنبر كثير جدا، وأنه ما حمل أحد قط من ذلك العنبر في مركبه وخرج عن البلد إلا رجع إليه، وأنهم يحتالون في بيع العنبر على الغرباء. ومن لا يعرف خبر العنبر باع بأرخص سعر وأقل الثمن.وأن لأبي طاهر هذا كان في المركب شيء من العنبر قد حُمل سرا من صاحب المركب فرجعت الريح عليهم وردهم إلى البلد.

وحدثني يزيد العُماني ناخوذة الزنج قال: رأيت في نواحي بلاد الزنج جبلين عظيمين بينهما واد وفيه آثار النار وعظام نخرة وجلود محترقة، فسألت عنه، فقيل لي: هذا واد يجري فيه وقت في السنة نار فربما جاءت النار وفي الوادي غنم ومواشي ترعى ولم تشعر أربابها ورعاتها لذلك فتحرقهم، وأن النار تجيء في الوادي أياما مثل السيل إذا جرى في الأودية (= حمم البراكين). وببلاد الهند لصوص يجيء منهم جماعة من بلد إلى بلد فيعبثون على التجار الموسرين إما غريب وإما هندي فيقبضون عليه في بيته أو في السوق أو في الطريق ويجردون في وجهه السكاكين ويقولون له أعطنا كذا وكذا وكذا وإلا قتلناك، فإن تقدم إليهم أحد يمنعهم من الرجل، أو سلطان، قتلوه ولم يبالوا عنده أن يُقتلوا أو يَقتلوا هم أنفسهم بعده، كل ذلك عندهم سواء إذا طالبوا الإنسان لم يسع أحدا أن يكلمهم ولا يتعرّض لهم خوفا من نفسه ويمضي معهم فيجلس حيث شاءوا من سوقه أو داره أو دكانه أو في بستانه فيجمع لهم المال الذي قد قاطعوه عليه والمتاع وهم مع ذلك يأكلون ويشربون وسكاكينهم مجردة، فإذا جمع ما وافقوه عليه أحضر من يحمله معهم ومضى وهم محيطون به حتى يبلغوا أماكنهم التي يأمنون فيها على أنفسهم فيطلقونه من هناك ويأخذون المتاع والمال.

وحدثني محمد بن مسلم السيرافي وكان مقيما بتانه نيفا وعشرين سنة، وقد سافر إلى أكثر بلاد الهند وعرف أحوال أهلها ومعاملتهم معرفة جيدة، ثم إن اثني عشر نفسا جاءوا إلى صيمور فقبضوا على رجل من التجار هندي له أب يملك مالا عظيما والأب شديد المحنة به لا ولد له سواه، فقبضوا عليه في وسط مترله وطالبوه بعشرة آلاف دينار أو نحو ذلك، وكان هذا بعض ما يملكه أبوه، فوجه إلى أبيه من يعرفه ما نزل به، ويسأله أن يشتريه ويخلصه منهم، فجاء إليهم فكلمهم ورفق بهم ليأخذوا منه ألف دينار أو نحو ذلك، فأبوا وقالوا: لم نأخذ إلا عشرة آلاف دينار، فلما رآهم على هذه الحالة مضى إلى الملك وعرفه القضية، وقال: هذا شيء لا دواء له ومتى لم يقع بهؤلاء القوم نكاية لم يكد أحد أن يقيم عندكم، فقال له: كيف نصنع وإن كلمناهم قتلوا ابنك؟ فقال: كيف العمل؟ قال: قتلهم سهل عليّ وإنما أخاف أن يقتلوا ابنك ولا ولد لك غيره، فقال: ما أبالي، هؤلاء يطلبون مالا عظيما ولا يجوز لي أن أفقر نفسي وأخلص ولدي بأي وجه أيها الملك، نجمع الخشب حول الدار ونسد بابها ونضرمها بالنار عليهم، فقال له: يحترق ابنك وعيالك، فقال: احتراقهم أهون عندي من ذهاب مالي، فوجه الملك وسد باب الرجل وضرم الباب بالنار فاحترق القوم وولده وعياله وجميع من كان في الدار. قيل إن في بلاد الهند الأعلى الرسم في إحراق الشيوخ والعجائز باق. وكان من رسم ملوك الذهب والزابج أن لا يجلس أحد بين أيديهم من المسلمين والغرباء كائن ما كان وسائر أهل

ممالكهم إلا مربعا، ويسمى ذلك البرسيلا، فمن مد رجليه أو قعد غير تلك القعدة فعليه غرامة كله ثقيلة بحسب ما يملك . فاتفق أن كان عند ملك من ملوكهم يقال"سرناتا كَلَه"رجل من النواخذة يقال له"جهود كوتاه"له موضع ومحل وكان شيخا مسنا وجلس بين يديه فطال عليه الأمر و لم يقم سرناتا، وكانوا في حديث لهم فأخذ جهود كوتاه يحدثهم بحديث آخر فأدخل في حديثه ذكرا لكنعد، فقال: وعندنا بعمان سمك يقال له الكنعد تكون الواحدة كذا، ومد رجله وقبض على نصف فخذه، ومنه ما يكون مثل هذا، ومد الرجل الأخرى وقبض على حقوه. فقال لوزيره إن لهذا الرجل سببا، فإنا كنا في حديث وخرج منه إلى حديث السمك فما السبب في ذلك؟ فقال أيها الملك هذا رجل شيخ قد أسن وضعف ولا يحتمل أن يجلس هكذا فلما تعب جعل لاستراحته سببا ووجها. فقال الصواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة، فرُفع عنهم فهو إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون ويجلس غيرهم على الرسم الأول برسيلا، فإن غيّر جلسته كانت عليه الغرامة.

وذكرتُ في فصل قبل هذا أمر عباد الهند وزهادهم وهم عدة أصناف منهم البيكور (= طائفة من رهبان سيلان) وأصلهم من سرنديب وهم يحبون المسلمين ويميلون إليهم ميلا شديدا، وهم في الصيف عراة حفاة لا يُسترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك مشدودة بخيط في الوسط، وفي الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة . ومنهم من يلبسون الإزار مرقعا من كل لون على لون المرقعة للشهرة ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أُحرقوا، ويحلقوا رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم، و لم يحلقوا شعر العانة ولا شعر الإبطين، في الأكثر يقصون أظفارهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت يأكل فيه ويشرب على سبيل الاتّعاظ بذلك والتواضع. وكان أهل سرنديب وما والاها بلغهم خروج النبي صلى الله عليه وسلّم فأرسلوا رجلا فهيما منهم وأمروه أن يسير إليه فيعرف أمره وما يدعو إليه فعاقت الرجل عوائق ووصل إلى المدينة بعد أن قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، ووجد القائم بالأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فشرح له وبيّن، ورجع فتوفي الرجل بنواحي بلاد مكران. وكان مع الرجل غلام له هندي، فوصل الغلام إلى سرنديب وشرح لهم الأمر وما وقف عليه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، وأنهم وجدوا صاحب النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووصف لهم تواضعه وأنه كان يلبس مرقعة ويبيت في المساجد. فتواضعهم لأجل ما حكى لهم من ذلك الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر رضي الله عنه المرقعة، ومحبتهم للمسلمين وميلهم إليهم لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر رضي الله عنه. وفي مذهب أهل الهند أن الشراب على الرجال حرام، وهو للنساء حلال، ومن الهند من يشربه سرا. وبالهند كهنة وسحرة أمرهم مشهود.

وحدثني أبو يوسف بن مسلم قال: حدثني أبو بكر الفسوي بصيمور قال: حدثني موسى الصندابوري قال: كنت عند صاحب صندابور يوما ما أتحدث، إذ ضحك فقال: أتدري لِمَ ضحكت؟ قلت: لا فقال: على الحائط وزغة (من الزواحف) وتقول الوزغة الساعة يجيء ضيف غريب. قال: فعجبت من حماقته وأردت الانصراف بعد ساعة، فقال: لا تبرح حتى تنظر آخر أمر هذه . قال: فإنا لفي حديثنا إذ دخل بعض أصحابه،

فقال: وافى الخور من عمان مركب، ثم لم نلبث إلا ساعة حتى دخل جماعة ومعهم اقفاص فيها أسقاط وقماش وماورْد ففتح منها قفص فيه ماورْد (= ماء الورد)، فقفزت منه وزغة كبيرة وصعدت إلى الحائط تعدو إلى الوزغة الأولى فصارت الوزغة وزغتين وأنا أرى. وحكى أن هذا هو الذي رقى التمساح في خور صندابور فهو إلى الساعة لا يؤذي أحدا البتة في خور صندابور، وكذلك خور سريرة لا يؤذي فيه التمساح اليوم أحد، وقد كان قبل هذا لا يتمكن أحدا أن يدنو من الماء إلا أثبته التمساح وقد كان في الخور منه شيء عظيم يجاوز الحد. فوقع إليهم رجل هندي فقال لملك سريرة: أنا أرقي التمساح لا يؤذي أحدا في الخور: فقال له: إفعل حتى أعطيك كذا، ثم هرب الرجل فلم يقدر عليه. فلما كان بعد مدة دخل إلى سريرة رجل هندي صاحب رقي وكهانة وسحر فصادق بسريرة صديقا فقال له: أريك شيئا ظريفا، فقال: نعم، فجلس على الخور وتكلم بكلامه، ثم قال: إن شئت فادخل الخور، فإن التمساح لا يؤذيك وإن شئت فاحضر من يدخل، وإن شئت دخلت أنا. فقال له: تدخل أنت، فدخل هو ثم دخل آخر فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم ثم صعدوا فقال له: تحب أن أخلي عنهم، فقال: افعل. وطرحوا كلبا فقطعه التمساح. فبلغ الملك خبره فأحضره وقال: عندك كذا وكذا؟ فقال نعم. فركب الملك إلى الخور فأحضر معه رجلين يريد قتلهما فقال له: تكلم عن الخور، فتكلم فأدخل أحد الرجلين الخور فأطافت به التماسيح فلم تؤثر فيه البتة و لم تعرض له. ثم قال له: أطلق بينهم، فتكلم فقطعت التماسيح الرجل عضوا عضوا. ثم قال له: قد فعلت فعلا حسنا، ووجبت مجازاتك فخلع عليه ووهب له شيئا ووعده ومناه، فلما كان من غد، قال له: أحب أن تفعل اليوم مثل ما فعلت أمس، فقال: نعم، ثم دعا الملك بغلام من غلمانه جَلد جسور، و لم يكن معه مثله فقال له: إذا اومأت إليك بضرب عنق هذا الهندي الكاهن فاضرب عنقه من ساعتك. ومضى إلى الخور، وتكلم الهندي على الخور وطرح فيه أحد الرجلين فطافت به التماسيح و لم تعرض له ثم لم يزل يقوم من موضع ويتحول إلى آخر حتى لم يبق في الخور ناحية إلا دخلها ذلك اللص والتماسيح تطوف به ولا تعرض له، فلما علم الملك أنه رقي جميع الخور أومى إلى غلامه فضرب عنقه من ساعته. فخور سريرة إلى هذا الوقت لا يؤذي التمساح فيه أحدا.

والسرقة عند الهند عظيمة، فإذا سرق الهندي في بلاد الهند قتله الملك إن كان الهندي وضيعا أو لا مال له، وإن كان له مال أخذ الملك ماله بأسره أو غرمه غرامة عظيمة وكذلك إن اشترى شيئا مسروقا بعد علمه بذلك غُرم الغرامة العظيمة. ومجازاة السرقة عندهم القتل. وإن سرق مسلم ببلاد الهند رُدَّ الحكم في أمره إلى هُنَرمِن المسلمين ليعمل فيه بما يوجبه الإسلام. والهنرمن هو مثل القاضي في بلاد الإسلام، ولا يكون الهنرمن إلا من المسلمين. قال راشد الغلام بن بابشاد: كنت سائرا من سيراف أريد البصرة في ذي القعدة سنة خمس وثلاثمائة في قارب لطيف فوقع علينا الخَب بناحية رأس الكامل، وطرحنا بعض الحمول إلى البحر فكنت أرى الأمواج تظل على القارب حتى يقع لي أنها قد ظللته بأسره ثم تنكسر الأمواج تحته. وتفقدت غير مرة السماء إذا ظللتنا الأمواج فلا أراها لأن الأمواج قد حالت بيننا وبين السماء وغشينا من الأمواج ما يستر السماء عنا. وحدثني أن الجليل من تجار الهند والجند وغيرهم أو الجليلة من النساء وإن كانت حظية الملك يجتاز بروث البقر والجواميس، فإن كان معه من يحمله، وإلا جعل علامة ليعلم أن ذلك قد صار في حيز آخر (ملك لأخر)، فإذا وجد من يحمله أخذه. والهند يأكلون الميتة وذلك أنهم يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت،

فإذا مات أكلوه. وقيل لبعض كبارهم بصيمور وسوبارة: اجتاز بفأرة ميتة، فأخذها بيده ودفعها إلى ابنه أو غلامه وحملها إلى مترله وأكلها. والفأرة عندهم من أنظف ما يؤكل.

ومما يحكى لي عن بعض ملوك الصين وهو من الحكايات أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ، ثم يفتح الماء عنها فينضب كله وهي فارغة، فإذا أحب أن تملى ماء أمر الماء عليها من الموضع الذي يجيء منه ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء فيجري إلى البركة في نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلىء البركة من اللؤلؤ ويفيض الماء على جوانبها ثم يقطع عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى. وقد ذكرت في بعض هذه الأجزاء ظرائف من أخبار ديبجات الدم، وهي جزائر أولها بالقرب من ديبجات الكستج وآخرها عرضا بالقرب من جزائر الواقواق، ويقال إنهم نحو من ثلاثين ألف جزيرة والتجار يقولون إن العامر منها اثني عشر ألف جزيرة، وطول الجزيرة من نصف فرسخ إلى عشرة فراسخ وبين كل جزيرتين فرسخ فما دونها وكلها رمال. وأخبرني بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند قبيلة فيلة تتصرف في حوائج أربابها، وأن الفيل يُدفع إليه الوعاء الذي يشتري فيه الحوائج وفيه الودع وهو نقد القوم، وأنموذج الحاجة كائنا ما كانت، فيكون معه في الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد، ويمضي إلى البقال، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشتري منه كائنا من كان، وأخذ الوعاء من الفيل بعد الودع الذي فيه ونظر ما يريد بأنموذج متاعه، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر، ويستزيده فيزيده، وربما عد البائع الودع فغلط فيه فيشوشه الفيل بخرطومه فيعيد البقال عده ثانية . ويمضي الفيل بما اشتراه، فربما استقله صاحبه فيضربه فيعود إلى البقال فيشوش متاعه ويخلط بعضه ببعض فإما أن يزيده أو يرد عليه الودع. وأن الفيل الذي هذه صورته يكنس ويرش ويدق الأرز بمدقة يأخذها بخرطومه فيدق، ورجل يجمع على الأرز، ويطحن الأرز، ويستقي الماء وذلك أنه يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء وفي الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله، ويقضي جميع الحوائج ويركبه صاحبه في حوائجه البعيدة، ويركبه الصبي، ويمضي عليه إلى الصحراء فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ويدفعه إلى الصبي فيجمعه في وعاء معه ويحمله فيكون ذلك طعامه . وأنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيما وقيل عشرة آلاف درهم.

ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت (= ظلّ أثرها قائما) إلى يومنا هذا، ما حدثني به بعض التجار قال: خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلاثمائة يريد صيمور . وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا، وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر ومن المراكب الموصوفة في البحر ونواخذها مشهورون لهم قدر ومترلة في البحر، وفي المراكب ألف ومائتان رجل من التجار والنواخذة والبانانية والتجار وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يُعرف مقداره لكثرته. فلما سرنا أحد عشر يوما رأينا آثار الجبال ولوائح أرض سندان وتانه وصيمور، وما سار هذا السير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا . فاستبشرنا وسررنا وبشر بعضنا بعضا بالسلامة، وأخذنا في الاستعداد لأنا قدرنا أن نصبح من غد الأرض، ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع وأخذنا الخب والمطر والرعد والبرق، فقال الربانية والبانانية: نطرح الأمتعة، فمنعهم أحمد، وقال: لا أطرح إلا بعد أن يخرج الأمر عن يدي، وأعلم أني هالك، ونزل الرجالة يترِفون الجَمَّة من الجانبين، والمركبين على مثل حالنا كل واحد منهما ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره

فيفعل مثله . وضج التجار وقالوا له: إطرح الأمتعة وأنت في الحل فإنّا نهلك فقال: لا أطرح البتة . و لم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام . فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب أن يغوص في البحر قال: إطرحوا الحمولة فلم يمكن شيء لأن الخوابي (=الجرار) والأعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمسمائة فقد صار فيه ألف وخمسمائة منا بالمطر، وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى الماء، ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلا.

وقيل لأحمد: قم فانزل في القارب فقال: لا أبرح من مركبي فإنه أرجى (= أكثر أملا) في السلامة من القارب وإن تلف تلفت معه فلا حظ لي في الرجوع بعد تلف مالي، قال لي هذا التاجر: فمكثنا في القارب خمسة أيام ليس معنا ما لا يؤكل وما لا يشرب إلى أن لم يبق فينا فضل أن نتكلم بكلمة من الجوع والعطش والشدة التي مضت علينا في البحر، والقارب تقلبه الأمواج والرياح لا ندري هو في البحر أم لا. ولشدة الجوع وما نحن فيه أومينا إلى بعضنا بعضا أن نأكل واحدا منا، وكان معنا في القارب صبي سمين لا يبلغ، وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب، فعزمنا على أكله فأحس الصبي بذلك فرأيته وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه تحريكا خفيفا. فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض ثم لاحت لنا الأرض، ثم جنح القارب على البر وانقلب القارب ودخله الماء وليس لنا قوة للقيام ولا لحركة. وإذ برجلين قد نزلا إلى القارب فقالا لنا: من أين أنتم؟ فقلنا: نحن من مركب فلان، فأخذوا بأيدينا وأخرجونا إلى الأرض، فوقعنا على وجوهنا مثل الموتى ومضى واحد منهما يعدو على وجهه فقلت للآخر: أين نحن؟ فقال: هذا الدخان الذي نراه من التيز، وقد راح صاحبي إلى القرية فعندنا الزاد والماء والثياب، فحملونا إلى البلد وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم أحد إلا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربان المركب أحمد وكان اسمه بقى (= اشتهر). وكان قد زاد تلف هذا المركب وما فيها من المعايش في اختلال سيراف وصيمور لعظيم ما كان فيها من الأموال ووجوه النواخذة والربان والتجار.

ومن أعجب العجائب ما حدثني به بعض البحريين ممن أقام ببلاد الهند وغيرها سنين كثيرة أنه سمع غير واحد ممن دخل تخوم الهند أن بنواحي قشمير الأعلى في موضع يقال له ترنارابيين وادي فيه بستان وأشجار ومياه تجري وفيه سوق للجن يُسمع فيه ضجيجهم في البيع والشراء ولا نرى أشخاصهم، وأن ذلك لم يزل يُعرف على دوام الأيام بذلك الموضع. فقلت للرجل: سمعت أن بها سوقا قائما أبدا في وقت دون وقت؟ فقال ما سألت عن هذا. وقال لي بعض من دخل الصين أنه رأى هناك حجارة منها حجر يجذب الرصاص من وراء طست وأنه إذا جُعل تحت الحامل سهل عليها أمر الولادة. ومنها حجر يجذب الصفر، ومنها حجر يجذب الذهب، ومنها حجر المغناطيس المشهور الذي يجذب الحديد، وحجر يطفيء النار وفي جوفه آخر يتحرك. وقال لي: إنه رأى بناحية أغباب سرنديب حجر قد كسر فخرج منه دودة فلما ظهرت دبت مقدار عشرة أذرع ثم ماتت. وأنه كان على رأسها وذنبها زغب مثل زغب الفرخ. ومن العجائب جبل باليمن يقطر من رأسه ماء فإذا صار في الأرض جمد فصار هو هذا الشب اليماني. وقال لي من رأى شجر اللبان وهو الكندر(= بالسنسكريتية كوندورو)وهو نبات في أودية ومسايل الماء وليس له بذر وهو على قدر واحد منذ كان لا يعرفه أربابه إلا على صورة واحدة، وهو مع هذا يتفاضل في الحسن، وليس يوجد منه شجرة في الأرض إلا من حد حاسك إلى حدور خاريج. وقال لي من دخل الهند أنه رأى في عنقيه بنواحي مانكير، وهي قصبة بلاد الذهب، وبها شجرة عظيمة غليظة الساق

تكون مثل شجر الجوز لها ورد أحمر فيه بياض مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفي بحر الصنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة وهو حجر معروف يجلب إلى العراق وسائر الدنيا، وهو من الأدوية في جلاء البياض من العين، والصيادلة يسمونه السرطان النهري. وحدثني رجل من الرجال أن بالبُجَّة عين غزيرة عليها حجر من زبرجد عظيم يحمله أربعة أصنام من ذهب، فإذا طلعت عليه اخضرّت العين كلها بخضرته. وأن عبر- وهو ملك من الملوك المقاربة لتلك النواحي -غزاهم لأجل هذا الحجر طمعا أن يظفر بهم فيأخذه، فلا يقدر عليهم أحد. وأنهم قد جربوا وقال: إنهم ما زالوا يستبقون. وأن بعض ملوكهم عزم على أخذ الحجر فلحقه سوء منعه أو نحو هذا. وقال لي بعض أصحابي أن بناحية أغباب سرنديب طائر كبير إذا أفرخ على شاطيء البحر لم تهب الرياح في تلك الناحية إلا بعد أربعة عشر يوما.

وحدثني العماني محمد قال: رأيت ببريين من بلاد الهند غلاما من الهند قد أخذه الملك في سرق أو غير ذلك وقد أمر بسلخه وهو يتكلم ويغني ولا يتأوه إلى أن بلغ السلخ سرته فلما قطعها طفا (= مات). وحدثني أن بجزيرة من جزاير الواقواق طير ملون بحمرة وبياض وخضرة وزرقة على لون الشقراق (= طائر صغير زاهي الألوان)، وفي قد (= بحجم) الحمام الكبار يسمونه سمندل (= طائر شبه خرافي، قيل يوجد في الهند) يدخل النار فلا يحترق ويمكث الأيام لا يطعم إلا بالتراب فإذا أحضن بيضه لم يشرب الماء إلا حتى يفقس، فإذا خرجت فراخه تركه أياما لا يدنو منه، ويطوف بالفراخ الذباب والبق إلى أن يخرج ريشهم، فإذا ريّشوا وتحركوا زقهم (= أطعمهم بمنقاره) حينئذ. وحدثني أن بجزيرة من جزائر الواقواق دابة تشبه الأرنب تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكرا والأنثى كذلك . والذي حكى لي ذكر أن بعض الهند قال إن أهل سرنديب يحدثوا بهذا وما أدري ما أقول في بهذه الحكاية وقالوا إن الأرانب على هذه الصورة، وهو عندي يستحيل والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال لي بعض من سلك البحر أنه رأى بسفالة الزنج حيوانا قدر الضب (=من الزواحف) إلا أنه على نحو صورته ولونه، للذكر منه ذكران، والأنثى لها فرجان وأن هذه الدابة تعض فلا تبرأ عضتها، ولا يزال الجرح ينتقض (= يتجدد) على صاحبه ولا يعالجه فلا يبرأ أبدا. وأن هذه الدابة أكثر ما تكون في مزارع قصب السكر والذرة، وأكثر مضار أهلها الحيات والأفاعي، وإذا اجتمع منها على رجل واحد ثلاثة أو أربعة قطعوه و لم يطرقهم (= يتغلّب عليهم) وهم يثبون في وجه الإنسان.

وحدثني جعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس- وهو أحد ربانية بلاد الذهب ونواخذته المشهورين فيه-أن حية جاءت إلى خور صيمور فابتلعت تمساحا كبيرا، وبلغ صاحب صيمور الخبر فوجه من يطلبها، وأنه اجتمع عليها زيادة على ثلاثة آلاف رجل حتى ظفروا بها وشدوا في عنقها الحبال واجتمع عليها جماعة من أصحاب الحيات فقلعوا أنيابها وشدوها بالحبال وحصل لها شجة من رأسها إلى أذنها، وذرعوها وكانت أربعين ذراعا، وحملها الرجال على أعناقها وكان تقديرها آلاف أرطال. وكان ذلك في سنة أربعين وثلاثمائة. وقد حكى لي قوم أنهم رأوا مَنْ دخل الواقواق وأبحر فوصف سعة البلاد والجزائر، وليس أعني بسعة البلاد أن البلدان كبار، ولكن أهل الواقواق كثير، وفيهم مشابه من الترك وهم أحذق خلق الله بالصنائع، ثم إنه يتخرج في جميعها، وهم أهل مكر وخديعة وخبث وشدة بأس في كل شيء. وحدثني ابن لاكيس أنهم شاهدوا من أمر أهل الواقواق ما يدهش وذلك أنهم وافوهم في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في نحو ألف قارب فحاربوهم

حربا شديدا، و لم يقدروا عليهم لأن حول قنبله حصن وثيق وحول الحصن خور فيه من ماء البحر، وقنبله في ذلك الخور مثل القلعة الحصينة . وأنه وقع إليهم قوم منهم فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد، فذكروا أنهم إنما جاؤوهم لأن عندهم من الأمتعة ما يصلح لبلادهم والصين مثل العاج والذبل (=قحوف السلاحف) والنمور والعنبر، ولأنهم يريدون الزنج لصبرهم على الخدمة وجلدهم. وأنهم جاؤوهم من مسيرة سنة، ونهبوا جزائر بينها وبين قنبله مسيرة ستة أيام، وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة الزنج ما عرف خبره سوى ما لم يعرف. فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة أنه جاءوا من مسيرة سنة فهذا يدل على صحة ما ذكره أبن لاكيس من أمر جزائر الواقواق وأنها قبالة الصين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ذكرت أمر سريرة وأنها في آخر جزيرة لامري وبين سريرة وكله مسيرة مائة وعشرين زاما والله سبحانه وتعالى أعلم. وبلغني أن خور سريرة يدخل في الجزيرة خمسين فرسخا، وهو نهر أوسع من دجلة البصرة بكثير، ماؤه عذب مثل ماء دجلة البصرة، وليس في أخوار بلدان هذه الجزيرة أطول منه، والمد فيه اثنا عشرة ساعة. وفيه التماسيح إلا ما كان منه بين الدور لا يضر لأنه فيما قد حكى أنه قد رقي، وما كان خارج الدور فليس يمكن أحدا يدنو منه بسبب التمساح. ودور سريرة بعضها في البر وأعظمها في الماء مبني على خشب ملفق مثل الأطواف ويبقى طول الدهر، وكل ذلك بسبب النار فإن الحريق يقع كثيرا عندهم لأن الأبنية من خشب، فأدنى شيء يقع من النار فتحترق سائر الدور، فقد جعلوا هذه الدور في الماء استظهارا، فإن وقع حريق أمكن صاحب المترل أن يقطع الأناجر من مترله ويتحول إلى ناحية أخرى فيهرب من النار. وربما كره بعضهم جوار بعضهم فيتحول عنه إلى حارة أخرى. والدور صفوف في الخور مثل الشوارع والماء بين الدور غزير جدا، وهو عذب لأنه من فوق إلى أن يصب في الخور ويخرج إلى البحر على هيئة دجلة من البحر. وحكى لي أنه سمع بعض الربانية يقول إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس، وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلظ لأن الماء والريح يحدرانه (= يدفعانه) فلا يقدر الربان على ضبطه ويغلبهم فيقع إليهم. وبين قنبله وبين هذا الموضع الذي فيه الزنج الذين يأكلون الناس نحو ألف وخمسمائة فرسخ، والله سبحانه وتعالى أعلم. فأما الموضع الذي تمضي إليه المركب فهو بعد قنبله بنحو ألف فرسخ وأقله ثمانمائة، وهو مسيرة أثنين وأربعين زاما ونحوها .

وحدثني ابن لاكيس أنه كان بسفالة عند بعض ملوك الزنج إذ جاءه رجل فقال له: أيها الملك إن فرخا من فراخ طيور كذا، ونسي ابن لاكيس اسم الطير، قد وقع في الغوطة الفلانية وكان قد اقتنص فيلا وكسره وهو يأكل فيه وقد صيد . فقام ملك الزنج وخرج إلى الغوطة ومعه خلق كنت أنا فيهم، فوقفنا على الطائر وهو يضطرب والفيل مطروح قد أكل منه نحو ربعه، فأمر الملك بأخذ ريش جناحيه فإذا بالكبار منها اثني عشر ريشة في كل جناح ست، وأخذ من ريشه شيء غير ذلك وأخذ منقاره وشيء من مخالبه وشيء من جوفه وحمل معه. وكان في ذلك الريش الذي أخذ شيء قطع أسفله وكان تسع قربتين ماء أو أكثر. وحكوا أنه من فراخ طيور يكون بسفالة الزنج وأنه اجتاز بالغوطة فرأى الفيل فأخذه بمخاليبه ودفعه إلى الهواء ورمى به فقتله ثم نزل عليه فأكله وأحس به قوم كانوا هناك فأثخنوه بالسهام المسمومة والحراب حتى صرعوه وقتلوه. وقال لي ابن لاكيس أن بين ثيبه وجزيرة الغيلمى بحر صغير يقال له بحر صفيو طوله مسيرة ستة أيام

ويحتاج المركب إذ سلكه أن يأخذ ماء ثلاثين باعا، فإنه إن كان في عشرين باعا غاص، وذلك إن في هذا البحر وحلا رقيقا إذا وقع فيه المركب أتلفه، قليل أن يسلم منه أحد. ومن الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب، ويسمى سهيلان (= سيلان) وطولها نحو مائة فرسخ. ودورها ثلاثمائة فرسخ. وفيها مغاص اللؤلؤ النقي إلا أنه صغار ومهما كان منه ككبار فهو ردي، وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والإدماس (=الألماس). ويقال إن هذا الجبل هو الذي هبط عليه آدم عليه السلام وفيه أثر قدمه طوله نحو سبعين ذراعا. وأهل الجزائر يقولون إن هذا الأثر هو رجل آدم عليه السلام وأنه وضع رجل ها هنا والرجل الأخرى في البحر. وفيها تراب أحمر وهو هذا السنبادج (= الفيروز) الذي يخرط به البلور والزجاج. وقشور أشجارها القرفة المرتفعة، وهي القرفة السهيلانية الموصوفة. وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل، وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر، وبها من غرائب النباتات مما يطول شرحه ويتعجب منه. وقيل إن بجزيرة سرنديب نحو مائة ألف قرية.

وسمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش خرج من البصرة قبل الزابج أو ما قاربه .. فتخلص ووقع إلى جزيرة قال: فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواربت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي، فلما أصبحت رأيت غنما قد أقبلت نحو مائتي رأس في قدر العجاجيل (=العجول) يسوقها رجل لم أر مثله عظيم الخلقة طويل عريض بشع المنظر ومعه عصاه يسوق بها الغنم. فقعد على ساحل البحر ساعة والغنم ترعى بين ذلك الشجر ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار ثم قام فرمى بنفسه في الماء واغتسل وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه قد جعلها في وسطه كالميزر، ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ومصه إلى أن شرب ما فيه ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة، ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم يكذب فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني فأومى إليّ بيده أن أنزل، فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا. وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب، فلما نتفه أخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به رأسه وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه. فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد، وأوردهم خليجا في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربت، وقد أيقنت بالموت، ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولا وعرضا وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلتُ معها وإذا في وسط تلك الموضع مثل الغزالة (= ربما يقصد خيمة) في ارتفاع نحو عشرين ذراعا على خشب وثيق، والغزالة شبه بالبيت، فما عمل شيئا دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فدق رأسها بحجر ثم أجج نارا وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار، فأكل كل ما في جوف الشاة نيا، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخها، وهي تصيح ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك، ثم صعد فأخذ شيئا كان يشربه، ثم نام فجعل يغط (= يشخر) كما يغط الثور.

فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلا إلى موضع النار وتتبعت ما بقى من اللحم، فأكلت ما يمسك رمقي وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة وبقيت مطروحا إلى الغد. فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم ويوحي إليّ بكلام لا أفهمه، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني، وقد صار عليّ شعر عظيم. وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسه، وكان ذلك سبب تأخير أكلي، ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين، فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئا من الغنم، وإن اقتصرت (= قلّت) الطيور أكل شاة. وصرت أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهرين، وصلح جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور وفهمت أنه عزم على أكلي. وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمرا ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل، وكنت أرى في تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقه ما قد عمل، والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار.

فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من أغصانها إلى الأرض ومضيت على وجهي أطلب الصحراء، قد كنت قد أشرفت عليها من تلك الشجرة. فلم أزل أمشي إلى الصباح ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعمدتها وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه فإما أن أدافع عن نفسي وإما أن يقتلني فالموت لا بد منه. فمكثت يومي في شجرة فلم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها ونزلت، فمشيت ليلتي إلى الصباح فوجدت نفسي في صحراء وفيها أشجار متفرقة فمشيت وما أرى أحدا إلا الطيور ووحوشا لا أعرفها وحيات ورأيت ماء عذبا فأقمت بمكاني، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب، والطيور تطوف بالغوطة فعاينت طيرا منها فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال ولم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى، فشددت نفسي فلما فرغ من أكله شرب ماء وتحلق في الهواء فأشرفنا على البحر فاستسلمت للموت على أي حال كان لا محالة، فانحط على جبل في الجزيرة فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف فجعلت أجر نفسي خوفا منه، ونزلت من الجبل فتعلقت بشجرة وأخفيت شخصي فيها، فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس، فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان فما مشيت قليلا حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكلموني كلاما لم أعرفه فحملوني إلى القرية فأدخلوني إلى منزل وحبسوني مع ثمانية أنفس فسألوني عن خبري فحدثتهم، وسالتهم فخبروني أنهم أهل مركب فلان، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج فوقع عليهم الخب فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلا فوقعوا إلى هذه الجزيرة فأخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت . فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح، فجعلت أتأسى بالقوم وإن كنت أؤكل فقد كان عليّ الموت وبعضنا يتأسى ببعض.

فلما كان من الغد جاؤنا بسمسم أو بشيء يشبهه وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا فقالوا: هذا طعامنا منذ وقعنا ها هنا فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا، ثم جاءوا فنظروا إلينا وأخذوا أحسننا حالا في جسده فودعناه



وقد كان بعضنا أوصى ببعض فأخرجوه إلى وسط المترل ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا، ونحن نرى، ثم شووه وأكلوه وطبخوا بعضه وأكلوا بعضه نيا مملوحا ثم شربوا شرابا وسكروا فناموا، فقلت لهم قوموا فنقتل هؤلاء فإنهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة، فاختلف رأينا بقية يومنا، وأظللنا الليل وأصبحنا، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة، فلما كان في اليوم الخامس جاؤونا فأخذوا منا واحدا ففعلوا به مثل الأول فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم وأخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم. فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المترل وقد كنا ميزنا بالنهار (=عرفنا المكان خلال النهار) فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة أو ثمانية خوفا من القوم، فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب، وأخذنا نمشي الساحل الساحل يومنا ثم أمنا القوم فكنا الآن نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيط وهي كثيرة الموز زمانا طويلا، إلى أن وقعنا في غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب فعزمنا على المقام بها أبدا إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة وبقينا أربعة. فبينما نحن في بعض الأيام نمشي، وإذا بقارب خلق (= عتيق) قد قذف به الموج وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب في الطين والموج يضربه وهو مطروح فاحتلنا في رميهم إلى البحر، وغسلنا القارب، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغري (=الصلصال) وأصلحنا فيه دقلا من الشجر وسوينا حبالا من خوص النارجيل وشراعا ليفا، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء، وبعضنا يدري سفر البحر وسرنا نحن خمسة عشر يوما، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف. وخبّرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زوادا وخرج كل واحد منا يقصد بلدا. فرجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته، وقد مات أكثر أهله، ووجد لوالده وِلْدا فأنكروه. وقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسرا وحاله حسن فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك.

وحدثني بعض البحريين أنه كان ماض بين سريرة والصين في سنبوق قال: فلما سرنا من سريرة مقدار خمسين زاما وقع علينا الخب ورمينا بعض الحمولة إلى البحر ومكثنا أياما في الخب ثم وقعت علينا الريح و لم يمسك المركب وأشرفنا على الهلاك واردنا أن نرمي نفوسنا في البحر ونتعلق بجزيرة فرمينا الأناجر ونحن لا نصدق أن نتخلص وسكنت الأمواج، و لم تمض عنا ساعة حتى لاح لنا من الجزيرة جماعة، فانتظرنا أن يخرج إلينا قوم منهم فلم يخرج إلينا أحد، فأومأنا إليهم فلم يكلمونا و لم نعرف الموضع، وحققنا أنّا نحن متى نزلنا إليهم آذونا أو يكون وراءهم قوم فيقعوا بنا فلا نطيق لهم، فمكثنا في موضعنا أربعة أيام لا يترل منا أحد إلى الجزيرة ولا يعبر منهم أحد إلينا، فلما كان اليوم الخامس اجتمع رأينا إلى الترول إليهم لأنا احتجنا إلى الماء وإلى مسألتهم عن الموضع ونحن لم نعرف الطريق. فترل منا مقدار ثلاثين رجلا بالسلاح في القارب والدونيج فلما صعدنا إليهم تهاربوا كلهم و لم يبق منهم إلا رجلا واحدا فكلمنا فلم نعرف لغته إلا رجلا واحدا منا، قال لنا: هذه جزيرة من جزائر الواقواق. فسألنا عن الجزيرتين فحكى أنها من جزائر الواقواق وأن ليس بقربها

بلد إلا على مسيرة ثلاثمائة فرسخ، وهي جزيرة ليس فيها أحد سواهم وعدقم أربعين نفسا، وسألنا عن طريقنا إلى الصنف، فعرّفنا ودلّنا وملأنا الماء وشرعنا نحو الصنف على ما قال، فأقمنا خمسة عشر زاما، وأشرفنا سالمين إلى الصنف والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل.).

تعدّ رحلة أبي دلف إلى بلاد الصين والهند وأواسط آسيا من الوثائق المهمة والمبكّرة عن هذه المناطق، إذ أوفد إليها حوالي عام 331هـ = 943م مبعوثاً من نوح بن نصر، وفيها كما سيتضح وصف للمظاهر الاجتماعية والاقتصادية، كما أها تقدّم التفاصيل شبه الكاملة للمسالك التي توصل بين أواسط آسيا وبين والصين والهند. ومما تتصف به هذه الرحلة الكثافة والدقة وقوة الملاحظة، وهي تضفي على النص قيمة بوصفه وثيقة تعنى بالأحوال البشرية من حياة ودين وحكم.

22. رحلة أبي دُلف إلى الصين والهند، أوردها ياقوت الحموي في (معجم البلدان).

(قال ياقوت الحموي: قرأت في كتاب عتيق ما صورته: كتب إلينا أبو دلف مسعر بن مهلهل في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند قال: إني لما رأيتكما يا سيدي، أطال الله بقاءكما، لهجين بالتصنيف مولعين بالتأليف، أحببت أن لا أخلي دستوركما، وقانون حكمتكما من فائدة وقعت إلي مشاهدهما، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ويصبو إلى استيفاء قرائته القلب، وبدأت بعد حمد الله والثناء على أنبيائه بذكر المسالك المشرقية، واختلاف السياسة فيها، وتباين مُلكها، وافتراق أحوالها، وبيوت عبادتها، وكبرياء ملوكها، وحكوم قوّامها، ومراتب أولي الأمر والنهي لديها؛ لأن معرفة ذلك زيادة في البصيرة واجبة في السيرة، قد حض الله تعالى عليها أولي التيقّظ والاعتبار، وكلّفه أهل العقول والأبصار، فقال، جل اسمه "أفلم يسيروا في الأرض". فرأيت معاونتكما لماَ وشج بيننا من الإخاء وتوكّد من المودة والصفاء، ولما نَبا بي وطني ووصل بي السير إلى خراسان ضاربا في الأرض، أبصرت ملكها، والموسوم بإمارتها نصر بن أحمد الساماني، عظيم الشأن كبير السلطان، يستصغر في جنبه أهل الطول، وتخف عنده موازين ذوي القدرة والحول. ووجدت عنده رسل"قالين بن الشخير"ملك الصين راغبين في مصاهرته طامعين في مخالطته، يخطبون إليه ابنته فأبى ذلك واستنكره لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده ابنة ملك الصين فأجاب إلى ذلك. فاغتنمت قصد الصين معهم. فسلكنا بلد الأتراك، فأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الإسلام قبيلة في بلد يعرف بالخركاه، فقطعناه في شهر نتغذّى بالبر والشعير، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالطخطاخ تغذينا فيها بالشعير والدخن وأصناف من اللحوم والبقول الصحراوية، فسرنا فيها عشرين يوما في أمن ودعة يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه، ويؤدون الإتاوة إلى الخركاه لقرهم إلى الإسلام ودخولهم فيه، وهم يتفقون معهم في أكثر الأوقات على غزو من بعد عنهم من المشركين. ثم وصلنا إلى قبيلة تعرف بالبجا فتغذينا فيهم بالدخن والحمص والعدس، وسرنا بينهم شهرا في أمن ودعة، وهم مشركون ويؤدون الإتاوة إلى الطخطاخ، ويسجدون لملكهم، ويعظّمون البقر ولا تكون عندهم ولا يملكوها تعظيما لها، وهو بلد كثير التين والعنب والزعرور الأسود، وفيه ضرب من الشجر لا تأكله النار، ولهم أصنام من ذلك الخشب.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك طوال اللحى أُولو أسبلة همجٌ، يغير بعضهم على بعض ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط. فسرنا فيهم اثني عشر يوما وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال وبلد الصقالبة ولا يؤدون الخراج إلى أحد، ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط، ولا يذبحون الإبل، ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما. وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسا ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سهيلا وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدي ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، وهي بقر هناك، ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذا يسكر سكرا شديدا، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم، فقطعنا بلدهم في أربعين يوما في أمن وخفض ودعة.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى يعملون بالسلاح عملا حسنا فرسانا ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي وأنه من ولد يحيى بن زيد وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندهم إله العرب لا يملكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوي، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون: إن إله العرب يترل منها ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى وأنهم قيام الأنوف عيونهم واسعة وغذاؤهم الدخن ولحوم الذكران من الضأن، وليس في بلدهم بقر ولا معز. ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها، فسرنا بينهم شهرا على خوف ووجل، أدينا إليهم العشر من كل شيء كان معنا. ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بتبت، فسرنا فيهم أربعين يوما في أمن وسعة، يتغذون بالبر والشعير والباقلى وسائر اللحوم والسموك والبقول والأعناب والفواكه، ويلبسون جميع اللباس، ولهم مدينة من القصب كبيرة فيها بيت عبادة من جلود البقر المدهونة، فيه أصنام من قرون غزلان المسك، وبها قوم من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهند، ويؤدون الإتاوة إلى العلوي البغراجي ولا يملكهم أحد إلا بالقرعة، ولهم محبس جرائم وجنايات، وصلاتهم إلى قبلتنا.

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالكيماك، بيوتهم من جلود، يأكلون الحمص والباقلى ولحوم ذكران الضأن والمعز ولا يرون ذبح الإناث منها، وعندهم عنب نصف الحبة أبيض ونصفها أسود، وعندهم حجارة هي مغناطيس المطر يستمطرون بها متى شاؤوا، ولهم معادن ذهب في سهل من الأرض يجدونه قطعا، وعندهم ماس يكشف عنه السيل ونبات حلو الطعم ينوم ويخدر، ولهم قلم يكتبون به، وليس لهم ملك ولا بيت عبادة، ومن تجاوز منهم ثمانين سنة عبدوه إلا أن يكون به عاهة أو عيب ظاهر، فكان مسيرنا فيهم خمسة وثلاثين يوما. ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الغز، لهم مدينة من الحجارة والخشب والقصب ولهم بيت عبادة وليس فيه أصنام، ولهم ملك عظيم الشأن يستأدي منهم الخراج، ولهم تجارات إلى الهند وإلى الصين ويأكلون البر فقط وليس لهم بقول، ويأكلون لحوم الضأن والمعز الذكران والإناث ويلبسون الكتان والفراء ولا يلبسون الصوف، وعندهم حجارة بيض تنفع من القولنج، وحجارة خضر إذا مرت على السيف لم يقطع شيئا، وكان مسيرنا بينهم شهرا

في أمن وسلامة ودعة. ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم التغزغز، يأكلون المذكى وغير المذكى ويلبسون القطن واللبود، وليس لهم بيت عبادة، وهم يعظمون الخيل ويحسنون القيام عليها، وعندهم حجارة تقطع الدم إذا علّقت على صاحب الرعاف أو النزف، ولهم عند ظهور قوس قزح عيد، وصلاتهم إلى مغرب الشمس، وأعلامهم سود، فسرنا فيهم عشرين يوما في خوف شديد.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخرخيز، يأكلون الدخن والأرز ولحوم البقر والضأن والمعز وسائر اللحوم إلا الجمال، ولهم بيت عبادة وقلم يكتبون به، ولهم رأي ونظر، ولا يطفئون سرجهم حتى تطفأ موادها، ولهم كلام موزون يتكلمون به في أوقات صلاتهم، وعندهم مسك، ولهم أعياد في السنة، وأعلامهم خضر، يصلون إلى الجنوب ويعظمون زحل والزهرة ويتطيرون من المريخ، والسباع في بلدهم كثيرة، ولهم حجارة تسرج بالليل يستغنون بها عن المصباح ولا تعمل في غير بلادهم، ولهم ملك مطاع لا يجلس بين يديه أحد منهم إلا إذا جاوز أربعين سنة، فسرنا فيهم شهرا في أمن ودعة. ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس ويعملون الشراب من الدخن ولا يأكلون اللحم إلا مغموسا بالملح، ويلبسون الصوف، ولهم بيت عبادة في حيطانه صورة متقدمي ملوكهم، والبيت من خشب لا تأكله النار، وهذا الخشب كثير في بلادهم، والبغي والجور بينهم ظاهر ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادى ويفك فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد في نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه فإن أعجبها إنسان أخذته إلى مترلها وأنزلته عندها وأحسنت إليه وتصرف زوجها وأخاها وولدها في حوائجه، و لم يقربها زوجها ما دام من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها ثم تتصرف هي ومن تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج ومن لا يمكنه رقع ثوبه برقعة منه، ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق وإذا طلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظمونه ويحتكمون عنده ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقيّ، فسرنا بينهم خمسة وعشرين يوما في أمن ودعة.

ثم انتيهنا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البر وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة، و لم أر في جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأي وتدبير، ومن زنى في بلدهم أحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولي سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ، فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج فإن تزوج قتل. ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الختيان، يأكلون الشعير والجلبان ولا يأكلون اللحم إلا مذكى، ويزوجون تزويجا صحيحاً وأحكامهم أحكام عقلية تقوم بها السياسة، وليس لهم ملك، وكل عشرة يرجعون إلى شيخ له عقل ورأي فيتحاكمون إليه، وليس لهم جور على من يجتاز بهم، ولا اغتيال، ولهم بيت عبادة يعتكفون فيه الشهر والأقل والأكثر، ولا يلبسون شيئا مصبوغا، وعندهم مسك جيد ما دام في بلدهم فإذا حمل منه تغير



واستحال، ولهم بقول كثيرة في أكثرها منافع وعندهم حيات تقتل من ينظر إليها إلا أنها في جبل لا تخرج عنه بوجه ولا سبب، ولهم حجارة تسكن الحمى ولا تعمل في غير بلدهم، وعندهم بازهر جيد شمعي فيه عروق خضر، وكان مسيرنا فيهم عشرين يوما. ثم انتهينا إلى بلد بهي فيه نخل كثير وبقول كثيرة وأعناب ولهم مدينة وقرى وملك له سياسة يلقب بهي، وفي مدينتهم قوم مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة أصنام، ولهم أعياد، وعندهم حجارة خضر تنفع من الرمد وحجارة حمر تنفع من الطحال، وعندهم النيل الجيد القانيء المرتفع الطافي الذي إذا طرح في الماء لم يرسب، فسرنا فيهم أربعين يوما في أمن وخوف. ثم انتهينا إلى موضع يقال له القليب فيه بوادي عرب ممن تخلف عن تبّع لما غزا بلاد الصين، لهم مصايف ومشات في مياه ورمال، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام، وملكهم من أهل بيت منهم لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت، ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شراب جيد من التمر، وملكهم يهادي ملك الصين، فسرنا فيهم شهرا في خوف وتغرير. ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم، فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب.

ثم انتهينا إلى وادي المقام فاستؤذن لنا منه، وتقدمنا الرسل فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك، ثم عبرنا الوادي وسرنا يوما تاما فأشرفنا على مدينة سندابل، وهي قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعا وعرضه تسعين ذراعا وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرق على ستين جزءا كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد فكل شارع فيه نهران وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم، ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلا، ومن قتل منهم شيئا من الحيوان قتل، وهي دار مملكة الهند والترك معا. ودخلتُ على ملكهم فوجدته فائقا في فنه كاملا في رأيه فخاطبه الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر، فأجابهم إلى ذلك وأحسن إلي وإلى الرسل، وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور المرأة وتم ما جهزها به ثم سلمها إلى مائتي خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه، وحُملتْ إلى خراسان إلى نوح بن نصر فتزوج بها.

قال: وبلغنا أن نصرا عمل قبره قبل وفاته بعشرين سنة، وذلك أنه حُدَّ له في مولده مبلغ عمره ومدة انقضاء أجله، وأن موته يكون بالسل، وعُرف اليوم الذي يموت فيه، فخرج يوم موته إلى خارج بخارى، وقد أعلم الناس أنه ميت في يومه ذلك، وأمرهم أن يتجهزوا له بجهاز التعزية والمصيبة ليتصورهم بعد موته بالحال التي يراهم بها، فسار بين يديه ألوف من الغلمان الأتراك المرد وقد ظاهروا اللباس بالسواد وشقوا عن صدورهم

وجعلوا التراب على رؤوسهم ثم تبعهم نحو ألفي جارية من أصناف الرقيق مختلفي الأجناس واللغات على تلك الهيئة ثم جاء على آثارهم عامة الجيش والأولياء يجنبون دوابهم ويقودون قودهم وقد خالفوا في نصب سروجها عليها وسودوا نواصيها وجباهها حاثين التراب على رؤوسهم، واتصلت بهم الرعية والتجار في غم وحزن وبكاء شديد وضجيج يقدمهم أولادهم ونساؤهم، ثم اتصلت بهم الشاكرية والمكارون والحمالون على فرق منهم قد غيروا زيهم، وشهر نفسه بضرب من اللباس، ثم جاء أولاده يمشون بين يديه حفاة حاسرين والتراب على رؤوسهم وبين أيديهم وجوه كتّابه وجلة خدمه ورؤساؤه وقواده، ثم أقبل القضاة والمعدلون والعلماء يسايرونه في غم وكآبة وحزن، وأحضر سجلا كبيرا ملفوفا فأمر القضاة والفقهاء والكتاب بختمه فأمر نوحا ابنه أن يعمل بما فيه، واستدعى شيئا من حسا في زبدية من الصيني الأصفر فتناول منه شيئا يسيرا، ثم تغرغرت عيناه بالدموع، وحمد الله تعالى وتشهد وقال: هذا آخر زاد نصر من دنياكم؛ وسار إلى قبره ودخله وقرأ عشرا فيه واستقر به مجلسه ومات، رحمه الله. وتولى الأمر نوح ابنه؛ قلت ونحن نشك في صحة هذا الخبر لأن محدثنا به ربما كان ذكر شيئا لسأل الله أن لا يؤاخذه بما قال. ونرجع إلى كلام رسول نصر، قال: وأقمت بسندابل مدينة الصين مدة ألقى ملكها في الأحايين فيفاوضني في أشياء، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته في الانصراف فأذن لي بعد أن أحسن إلي ولم يبق غاية في أمري، فخرجت إلى الساحل أريد كَلَه، وهي أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب، لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت، قال: فلما وصلت إلى كله رأيتها وهي عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة الماء ووجدت بها معدنا للرصاص القلعي لا يكون إلا في قلعتها في سائر الدنيا، وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهي الهندية العتيقة، وأهل هذه القلعة يمتنعون على ملكهم إذا أرادوا ويطيعونه إن أحبوا، ورسمهم رسم الصين في ترك الذباحة، وليس في جميع الدنيا معدن للرصاص القلعي إلا في هذه القلعة، وبينها وبين مدينة الصين ثلاثمائة فرسخ، وحولها مدن ورساتيق وقرى، ولهم أحكام حبوس جنايات، وأكلهم البر والتمور، وبقولهم كلها تباع وزنا وأرغفة خبزهم تباع عددا، وليس عندهم حمامات بل عندهم عين جارية يغتسلون بها، ودرهمهم يزن ثلثي درهم ويعرف بالقاهري، ولهم فلوس يتعاملون بها، ويلبسون كأهل الصين الإفرند الصيني المثمن، وملكهم دون ملك الصين ويخطب لملك الصين، وقبلته إليه، وبيت عبادته له.

وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته، وهو شجر عادي لا يزول الماء من تحته فإذا هبت الريح تساقط حمله فمن ذلك تشنجه وإنما يجتمع من فوق الماء، وعليه ضريبة للملك، وهو شجر حر لا مالك له، وحمله أبدا فيه لا يزول شتاء ولا صيفا، وهو عناقيد فإذا حميت الشمس عليه انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق، وانتهيت منه إلى لحف الكافور، وهو جبل عظيم فيه مدن تشرف على البحر منها قامرون التي ينسب إليها العود الرطب المعروف بالمندل القامروني، ومنها مدينة يقال لها قماريان، وإليها ينسب العود القماري، وفيه مدينة يقال لها الصنف، ينسب إليها العود الصنفي. وفي اللحف الآخر من ذلك الجبل مما يلي الشمال مدينة يقال لها الصيمور، لأهلها حظ من الجمال وذلك لأن أهلها متولدون من الترك والصين فجمالهم لذلك، وإليها تخرج تجارات الترك، وإليها ينسب العود الصيموري وليس هو منها إنما هو يحمل إليها، ولهم بيت عبادة على رأس عقبة عظيمة وله سدنة وفيه أصنام من الفيروزج

والبيجاذق، ولهم ملوك صغار، ولباسهم لباس أهل الصين، ولهم بيع وكنائس ومساجد وبيوت نار، لا يذبحون ولا يأكلون ما مات حتف أنفه. وخرجت إلى مدينة يقال لها جاجلى على رأس جبل مشرف نصفها على البحر ونصفها على البر ولها ملك مثل ملك كله يأكلون البر والبيض ولا يأكلون السمك ولا يذبحون، ولهم بيت عبادة كبير معظم، لم يمتنع على الإسكندر في بلدان الهند غيرها، وإليها يحمل الدار صيني، ومنها يحمل إلى سائر الآفاق، وشجر الدار صيني حر لا مالك له، ولباسهم لباس كله إلا أنهم يتزينون في أعيادهم بالحبر اليمانية، ويعظمون من النجوم قلب الأسد، ولهم بيت رصد وحساب محكم ومعرفة بالنجوم كاملة، وتعمل الأوهام في طباعهم، ومنها خرجت إلى مدينة يقال لها قشمير وهي كبيرة عظيمة لها سور وخندق محكمان تكون مثيل نصف سندابل مدينة الصين، وملكها أكبر من ملك مدينة كَلَه وأتم طاعة، ولهم أعياد في رؤوس الأهلة وفي نزول النيرين شرفهما، ولهم رصد كبير في بيت معمول من الحديد الصيني لا يعمل فيه الزمان، ويعظمون الثريا، وأكلهم البر ويأكلون المليح من السمك ولا يأكلون البيض ولا يذبحون.

وسرت منها إلى كابل، فسرت شهرا حتى وصلت إلى قصبتها المعروفة بطابان، وهي مدينة في جوف جبل قد استدار عليها كالحلقة دوره ثلاثون فرسخا لا يقدر أحد على دخوله إلا بجواز ؛لأن له مضيقا قد غلق عليه باب ووكل به قوم يحفظونه فما يدخله أحد إلا بإذن، والإهليلج بها كثير جدا، وجميع مياه الرساتيق والقرى التي داخل المدينة تخرج من المدينة، وهم يخالفون ملة الصين في الذباحة، ويأكلون السمك والبيض، ويقتل بعضهم بعضا، ولهم بيت عبادة. وخرجت من كابل إلى سواحل البحر الهندي متياسرا فسرت إلى بلد يعرف بمندورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير، وذلك أن القنا إذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت فيه الحرارة للحركة فانقدحت منه نار فربما أحرقت منها مسافة خمسين فرسخا أو أكثر من ذلك فالطباشير الذي يحمل إلى سائر الدنيا من ذلك القنا، فأما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال أو أكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا إذا هز، وهو عزيز جدا، وما يفجر من منابت الطباشير حمل إلى سائر البلاد وبيع على أنه توتيا الهند، وليس كذلك لان التوتيا الهندي هو دخان الرصاص القلعي، ومقدار ما يرتفع منه كل سنة ثلاثة أمنان أو أربعة أمنان ولا يتجاوز الخمسة، ويباع المن منه بخمسة آلاف درهم إلى ألف دينار. وخرجت منها إلى مدينة يقال لها كولَم لأهلها بيت عبادة وليس فيه صنم وفيها منابت الساج والبقم، وهو صنفان، وهذا دونٌ، والأمرون هو الغاية، وشجر الساج مفرط العظم والطول ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، والخيزران والقنا بها كثير جدا، وبها شيء من السنْدَروس قليلٍ غير جيد والجيد منه بالصين، وهو من عرعر ينبت على باب مدينتها الشرقي، والسندروس شبه الكهربائية وأحلُها وفيها مغناطيس يجذب كل شيء إذا أُحميَ بالدلك، وعندهم الحجارة التي تعرف بالسندانية يعمل بها السقوف، وأساطين بيوتهم من خرز أصلاب السمك الميت ولا يأكلونه، ولا يذبحون، وأكثرهم يأكل الميتة، وأهلها يختارون للصين ملكا إذا مات ملكهم، وليس في الهند طب إلا في هذه المدينة، وبها تُعمل غضائر تباع في بلداننا على أنه صيني وليس هو صيني لأن طين الصين أصلب منه وأصبر على النار وطين هذه المدينة الذي يعمل منه الغضائر المشبه بالصيني يخمر ثلاثة أيام لا يحتمل أكثر منها وطين الصين يخمر عشرة أيام ويحتمل أكثر منها، وخزف غضائرها أدكن اللون وما كان من الصين أبيض وغيره من الألوان شفافا وغير شفاف فهو



معمول في بلاد فارس من الحصى والكلس القلعي والزجاج يعجن على البوائن وينفخ ويعمل بالماسك كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني.

ومن هذه المدينة يُركب إلى عمان، وبها راوند ضعيف العمل والصيني أجود منه، والراوند قرع يكون هناك وورقه السادج الهندي، وإليها تنسب أصناف العود والكافور واللبان والقُتار، وأصل العود نبت في جزائر وراء خط الاستواء، وما وصل إلى منابته أحد و لم يعلم أحد كيف نباته وكيف شجره ولا يصف إنسان شكل ورق العود وإنما يأتي به الماء إلى جانب الشمال، فما انقلع وجاء إلى الساحل فأُخذ رطبا بكَلَه وبقامرون أو في بلد الفلفل أو بالصنف أو بقماريان أو بغيرها من السواحل بقي إذا أصابته الريح الشمال رطبا أبدا لا يتحرك عن رطبه، وهو المعروف بالقامروني المندلي، وما جف في البحر ورمي يابسا فهو الهندي المصمت الثقيل ومحنته أن يُنال منه بالمِبرد ويلقى على الماء فإن لم ترسب بُرادته فليس بمختار وإن رسبت فهو الخالص الذي ما بعده غاية، وما جفَ منه في مواضعه ونخر في البحر فهو القماري، وما نخر في مواضعه وحمله البحر نخرا فهو الصنفي، وملوك هذه المرافيء يأخذون ممن يجمع العود من السواحل ومن البحر العشر، وأما الكافور فهو في لحف جبل بين هذه المدينة وبين مندورقين مطل على البحر وهو لب شجر يشق فيوجد الكافور كامنا فيه فربما وجد مائعا وربما كان جامدا لأنه صمغ يكون في لب هذا الشجر، وبها شيء من الإهليلج قليل والكابلي أجود منه لأن كابُل بعيدة من البحر، وجميع أصناف الإهليلج بها وكل شجر مما نثرته الريح فجا غير نضيج فهو الأصفر، وهو حامض بارد، وما بلغ وقطف في أوان إدراكه فهو الكابلي، وهو حلو حار، وما ترك في شجرة في أيام الشتاء حتى يسود فهو الأسود مر حار، وبها معدن كبريت أصفر ومعدن نحاس يخرج من دخانه توتيا جيد، وجميع أصناف التوتيا كلها من دخان النحاس إلا الهندي فإنه كما ذكرنا يخرج من دخان الرصاص القلعي، وماء هذه المدينة وماء مندورقين من الصهاريج المختزن فيها من مياه الأمطار، ولا زرع فيها إلا القرع الذي فيه الراوند فإنه يزرع بين الشوك، وكذلك أيضا بطيخهم عزيز جدا، وبها قنبيل يقع من السماء ويجمع بأختاء البقر، والعربي أجود منه.

وسرت من مدن السواحل إلى الملتان، وهي آخر مدن الهند مما يلي الصين وأولها مما يلينا وتلي أرض السند، وهي مدينة عظيمة جليلة القدر عند أهل الهند والصين لأنها بيت حجهم ودار عبادتهم مثل مكة عند المسلمين وبيت المقدس عند اليهود والنصارى، وبها القبة العظمى والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع وطول الصنم في جوفها مائة ذراع، وبين رأسه وبين القبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق من جوفها لا بقائمة من أسفله يُدعم عليها ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه؛ قلت: هذا هو الكذب الصراح لأن هذا الصنم ذكره المدائني في فتوح الهند والسند وذكر أن طوله عشرون ذراعا، قال أبو دلف: البلد في يد يحيى بن محمد الأموي هو صاحب المنصورة أيضا والسند كله في يده، والدولة بالملتان للمسلمين ومُلاك عُقْرها ولد عمر بن علي بن أبي طالب، والمسجد الجامع مصاقب لهذه القبة، والإسلام بها ظاهر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بها شامل؛ وخرجت منها إلى المنصورة، وهي قصبة السند، والخليفة الأموي مقيم بها يخطب لنفسه ويقيم الحدود ويملك السند كله بره وبحره، ومنها إلى البحر خمسون فرسخا، وبساحلها مدينة الديُل، وخرجت من المنصورة إلى بغانين، وهو بلد واسع يؤدي أهله الخراج إلى الأموي وإلى



صاحب بيت الذهب، وهو بيت من ذهب في صحراء تكون أربعة فراسخ ولا يقع عليها الثلج ويثلج ما حولها، وفي هذا البيت رصد الكواكب، وهو بيت تعظمه الهند والمجوس، وهذه الصحراء تعرف بصحراء زردشت صاحب المجوس، ويقول أهل هذه البلدان: إن هذه الصحراء متى خرج منها إنسان يطلب دولة لم يُغلب و لم يهزم له عسكر حيثما توجه؛ ومنها إلى شهر داور ومنها إلى بغنين ومنها إلى غزنين وبها تتفرق الطرق فطريق يأخذ يمنة إلى باميان وختلان وخراسان، وطريق يأخذ تلقاء القبلة إلى بُسْت ثم إلى سجستان، وكان صاحب سجستان في وقت موافاتي إياها أبا جعفر محمد بن أحمد بن الليث وأمه بانويه أخت يعقوب بن الليث، وهو رجل فيلسوف سمح كريم فاضل. له في بلده طراز تعمل فيه ثياب، ويخلع في كل يوم خلعة على واحد من زواره ويقوم عليه من طرازها بخمسة آلاف درهم ومعها دابة النوبة وولي الحمام والمِسند والمطرح ومِسورتان ومخدتان، وبذلك يعمل ثبت ويسلم إلى الزائر فيستوفيه من الخازن.)

وانحدر ابن بطوطة من وسط آسيا باتجاه الهند، ثم توغّل فيها إلى الجنوب، وأمضى في البلاد سنين طويلة، واستأنف بعد ذلك تجواله في الجزر الواقعة جنوب شبه القارة الهندية: جزر المالديف، وسيلان، وغيرهما، ثم اتجه صوب البنغال، وسرعان ما أخذ طريق البحر إلى جاوه، ومنها إلى الصين التي ظل يتوغل فيها من الجنوب باتجاه الشمال إلى ماكان يسمى بـــ (بلاد الخطا) قبل أن يعود أدراجه. وتوفرّ لابن بطوطة ما يندر أن يتوفّر لدى غيره: الزمن الكافي، والحيوية، والرغبة، ودقة الملاحظة. وهي مكونات اجتمعت في شخص هذا الرحالة الذي لايعرف الكلل واليأس والخوف، وكان مدفوعا بإصرار عجيب نحو هدف يبدو للمعاصرين غامضا.و لم نستطع، فيما يبدو لي، أن نتفهّم معنى أن يمضي رحّالة ربع قرن في ارتحال دائم يعايش خلالها شعوبا وثقافات وعقائد متنوعة ومختلفة، ثم فجأة بعد أن وطّن نفسه على كل ذلك، يقفل راجعا إلى مسقط رأسه، في أقصى غرب ديار الإسلام: المغرب. وماتضمنته الرحلة غاية من الأهمية على الصُعد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والدينية، فقد كان ابن بطوطة ذا عين راصدة، وعبر أسلوب حار ومتدفّق عما رأى وسمع، وتمكّن من الحفاظ على حرارة الوصف على الرغم من مسافة الإملاء التي يمثلها المدّون ابن جُزي. إنّ نص الرحلة طريّ، حديث، متمرّد على أساليب النثر العربي الكلاسيكي في القرون المتأخرة، تلك الأساليب التي ضربها التصنّع في الصميم. وكانت ملاحظاته مثل مساره الذي لا ينتهي، حاذقة، مختصرة، تُشبع الحالة الموصوفة ولا تختزلها، ولا تكاد تتكرر، وفيها تبصّر وثراء، ومسح معمّق للخلفيات الاجتماعية والتاريخية للشعوب التي يعيش بينها أو يمر بها. وسوف نتنحّى جانبا تاركين له فرصة كاملة لكي يقوم بعملية استكشاف فريدة لمجتمعات تعتبر حضاراتها من أعرق الحضارات في العالم. من المؤكد أن الصورة التي رسمها ابن بطوطة للشرق هي من أعمق وأوسع الصور التي ركّبها المسلمون للعالم الشرقي في القرون الوسطى.

23. الهند، والصين، وجنوب شرق آسيا.ابن بطوطة. من كتاب (تحفة النظّار في غرائب الأمصار)

(ثم سافرت من هذه المدينة (= بسطام، وهي مدينة بجوار سمرقند في خراسان) على طريق هند خير (=أندخوي غرب بلخ) إلى قندوس (= شمال أفغانستان) وبغلان، وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها



البساتين والأنهار، فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سيّاه، ومعنى ذلك "الأسد الأسود". وأضافنا بها والي تلك الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك، وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل، وبها مراعي طيبة وأعشاب كثيرة، والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطيه، وقد قدمنا أن أحكام الترك في مَن سرق فرسا أن يعطي منه تسعة مثله فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أحد أولاده، فإن لم يكن له أولاد ذبح مثل الشاة، والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يَسِمَ كل واحد دوابه في أفخاذها. وكذلك فعلنا في هذه البلاد. واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس، ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفا على أنفسهم من الأحكام وكنا نربط في كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل، ففقدنا الفرسين ذات ليلة، وسافرنا من هنالك، وبعد اثنتين وعشرين ليلة جاءوا بهما إلينا في أثناء طريقنا. وكان أيضا من أسباب إقامتنا خوف الثلج؛ فإن بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش (= في قلب أفغانستان إرتفاعه7000م) ومعناه "قاتل الهنود" لأن العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير، منهم لشدة البرد، وكثرة الثلج. وهو مسيرة يوم كامل. وأقمنا حتى تمكنا من دخول الحر (= وقع هذا في ربيع عام 735هـــ = 1335م) وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل، وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب، وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال تطأ عليها لئلا تغرق في الثلج.

ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأنبر (= اندراب) وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفي رسمها، ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروي، ونزلنا عنده وأكرمنا. وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله، وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور، ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك، ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير (= بنجهر) ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال، وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق، كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان، وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش، وخرب هذه البلاد تنكيز (= جنكيز خان) ملك التتر فلم تعمر بعده. وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي، وهو معظم عندهم. ووصلنا إلى جبل بشاي (= جوار كلبهار) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء، وأطا معناه بالتركية الأب، وأولياء باللسان العربي فمعناه أبو الأولياء، ويسمى أيضا سيصد صاله، وسيصد معناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله معناه عام، وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخمسون عاما، ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى، ويقصده السلاطين والخواتين، وأكرمنا وأضافنا، ونزلنا على نهر عند زاويته، ودخلنا إليه فسلمت عليه، وعانقني وجسمه رطب لم أر ألين منه. ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة، وذكر لي أنه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان، وأنه رأى أباهم الذي دفنهم بملتان من السند، وسألته عن رواية حديث، فأخبرني بحكايات شككت في حاله. والله أعلم بصدقه.

ثم سافرنا إلى بَروَن (= شمال كابول) وفيها لقيت الأمير برنطية، وأحسن إلي وأكرمني، وكتب إلى نوابه في مدينة غزنة في إكرامي...ثم سافرنا إلى قرية الجرخ، وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكه طيبة قدمنا في أيام الصيف، ووجدنا فيها جماعة من الفقراء والطلبة، وصلينا بها الجمعة، وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند. ثم سافرنا إلى مدينة غزنة (= جنوب غربي كابول) وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين (421هـ = 1030م) الشهير الإسم، وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة، وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند، وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذا المدينة عليه زاوية، وقد خرب معظم هذه البلدة و لم يبق منها إلا يسير. وكانت كبيرة وهي شديدة البرد، والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار، وهي كبيرة مخصبة و لم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث، ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها، وأكرمنا أميرها مرذك آغا ومرذك معناه الصغير وآغا معناه الكبير الأصل.

ثم سافرنا إلى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان، ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع طريق، وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان (=تخت سليمان) يذكر أن نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر إلى أرض الهند وهي مظلمة، فرجع و لم يدخلها فسمي الجبل به، وفيه يسكن ملك الأفغان. وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبارالأولياء. ومنها رحلنا إلى كرماش، وهي حصن بين جبلين تقطع الطرق بين الأفغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل، ونرميهم بالنشاب فيفرون، وكانت رفقتنا مُخِفّة، ومعهم نحو ربعة آلاف فرس، وكانت لي جمال انقطعتُ عن القافلة لأجلها ومعي جماعة بعضهم من الأفغان، وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التي أعيت بالطريق، وعادت إليها خيلنا بالغد فاحتملتها، ووصلنا إلى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار (= شمال شرق بيشاور) هي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك. ومن هنا دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند، وذلك في أوائل شهر يوليه، وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة الي تعفن الجسوم حتى إن الرجل إذا مات تنفسخ أعضاؤه. وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زادة قاضي ترمذ فمات لهم جماعة وخيل كثيرة. ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بنج آب، وهو ماء السند وبنج معناه خمسة وآب معناه الماء، فمعنى ذلك الأودية الخمسة، وهي تصب في النهر الأعظم، وتسقي تلك النواحي وسنذكرها إن شاء الله تعالى. وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة، واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربع وثلاثين وسبعمائة، ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند، وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا.

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب، ومعنى ذلك المياه الخمسة، وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا، وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل، وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند. ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون

بذلك، وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان، وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز، وهو عرض المماليك، وبين يديه تعرض عساكر السلطان، ومعنى اسمه الحاد الرأس لأن سر هو الرأس و تيز معناه الحاد، وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند، وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام، وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي (= دلهي) مسيرة خمسين يوما وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد.

والبريد ببلاد الهند صنفان: فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة (= الركض) والداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (= ثلث فرسخ) وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، وخرج يشتد بمنتهى جهده فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه. وهذا البريد أسرع من بريد الخيل، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان، وكذلك يحملون الكبار من ذوي الجنايات، يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا، وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها. وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر مَن يصل إلى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا في ذلك، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا، وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته، لا يغادرون من ذلك كله شيئا، فإذا وصل الوارد مدينة ملتان، وهي قاعدة بلاد السند، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجري له من الضيافة، وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه. ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة، ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء، ونفذ أمره بأن يسمي الغرباء في بلده بالأعزّة فصار لهم ذلك اسما وعلما، ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير.

ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ويخدمونهم بأموالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالحشم، فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم، وصار لهم ذلك عادة مستمرة. ولما وصلتُ إلى



بلاد السند سلكتُ ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك، ولقد اشتريت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب، فإنه مما يهدى إلى السلطان، وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند. وهنالك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة، وعاد من كبار التجار. ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبني الكفار ما كان بيدي فلم ألق منه خيرا.

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل، فيقال: الكركدن، رأس بلا بدن. وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر. ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصرعه، وعاد إلى الغيضة. فلم نقدر عليه، وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر، وهو يرعى نبات الأرض، فلما قصدناه هرب منا، ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة، ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة. وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني (= شمال سيوستان) مدينة كبيرة حسنة على نهر السند لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند.

وأخبرني الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين بن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين بن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الاسكندرية أني سألقاهم في رحلتي، فلقيتهم والحمد لله: أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق، وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد، وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى وُنار وسنذكر خبره. ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سيوستان (= شمال كراتشي) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غيلان، ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك، ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية، وأهلها يأكلون السقنقور، وهي دويبة شبيهة بأم حنين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها، ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه، ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم، وهم يسمونه زرد شوبه، ومعناه العود الأصفر وهو عندهم عوض الزعفران، ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها، ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى، وهكذا

أبدا. ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني، وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى، بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن، ونص الكتاب: هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده، على ما أخبرني الخطيب المذكور. ولقيت بها أيضا الشيخ المعمر محمد البغدادي، وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي، وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة، وأنه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون (=هولاكو) بن تنكيز التتري، وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه.

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري الذي تقدم ذكره، والأمير قيصر الرومي، وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس، وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتَن وهو من الحذاق بالحساب والكتابه، فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد، وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الأطبال والعلامات كما يعطي كبار الأمراء، فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على وُنار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فأجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليتطلع على أمورها، فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة، وزعموا أن السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه، وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا، واللك مائة ألف دينار، وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند، وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب، وقدموا على أنفسهم ونار المذكور وسمّوه ملك فيروز، وقسم الأموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي، واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان، وهو يومئذ أمير أمراء السند، وسكناه بملتان، فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند، وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة، وتحصنوا بالمدينة فحاصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم، فأعطاهم الأمان، فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم، فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسّط البعض ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور، فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر إليها، وجمع رؤوسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك.

ونزلت بتلك المدينة أثر هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة، وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها، ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة، فانتقلت عنها. وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري، وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل

أثقاله فسافرت معه. وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالأهورَة، وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها واقصر وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير، ويجلس أصحابه بين يديه، ويقف المماليك يمنة ويسرة، والرجال يقذّفون وهم نحو أربعين ويكون مع هذه الأهورة أربعة من السفن عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الأمير، وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات، وهي الغيطات، والآخران فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء، فإذا كان وقت الغداء انضمت المراكب واتصل بعضها ببعض، ووضعت بينهما الإصقالات (= ألواح) وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير فيغنون إلى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون، وإذا انقضى الأكل عادوا إلى مراكبهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم إلى الليل، فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى مضاربه ومُدَّ السماط، وحضر الطعام معظم العسكر فإذا صلوا العشاء الآخرة سَمَر السمّار بالليل نوبا فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال: يا خوند ملك، قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى، فإذا أتموا نادى مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات، فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصلت صلاة الصبح وأتي بالطعام، فإذا فرغ الأكل أخذوا في المسير فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب، وإن أراد المسير في البر ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه، ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صُرَّنايات فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا، فإذا كان وقت الغداء نزلوا.

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهري (= لارا بندر)، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلتقي بها بحران، ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم، وبذلك عظمت جبايتها وكثرت أموالها. أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجبى هذه المدينة ستون لكا في السنة. وقد ذكرنا مقدار الملك وللأمير من ذلك"نم نيم ده يك"ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطي السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر، وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا، فرأيت هنالك ما لا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله، فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما، ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس. وهنالك آثار سور وجدران دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة، وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي إلا أن رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف، وهنالك مياه شديدة النتن، وكتابة على بعض الجدران بالهندي. وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذي على الدكانة في

الدار التي ذكرناه وهي الآن تسمى دار الملك، وأن الكتابة التي على بعض الحيطان هنالك بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة. وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها. وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام، ثم أحسن في الزاد، وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (=جزيرة بخاهار) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر، عمّرها كَشلوخان أيام ولايته على بلاد السند، وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي، ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة، ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي، وهو من المعمرين ذكر لي أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاما.

ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أُوجَه، وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة، وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء، وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها من فرسه، ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي، فلما سافر السلطان إلى دولة أباد، كما سنذكره وأمرني بالإقامة بالحضرة، قال لي جلال الدين: إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى يعود، ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن الجزاء، ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي، وألبسني الخرقة، وهو من كبار الصالحين، ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر. ثم سافرت من أوجه إلى مدينة مُلتان وهي قاعدة (= عاصمة) بلاد السند (= حاليا في البنجاب) ومسكن أمير أمرائه، وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسرو أباد من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمراكب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم، وكانت عادتهم حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما، ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم، وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي، ولما أخذنا في إجازة هذا الوادي وفُتشت الرحال عظم علي تفتيش رحلي لأنه لم يكن فيه طائل، وكان يظهر في أعين الناس كبيرا فكنت أكره أن يُطّلع عليه، ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان، فأمر أن لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش، فكان كذلك، فحمدت الله على ما هيأه لي من لطائفه. وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادي، وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد، واسمه دهقان وهو سمرقندي الأصل، وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل إليها، فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان.

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلائهم، لما دخلت قام إلي وصافحني وأجلسني إلى جانبه، وأهديتُ له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز، وهو من أعظم ما يهدى إليهم لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من خراسان. وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي، ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه، وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه



والعساكر تعرض بين يديه، وهناك قسي كثيرة فإذا أتى من يريد أن يثبت في العسكر رامياً أعطي قوساً من تلك القسي يترع فيها وهي متفاوتة في الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه، ومن أراد أن يثبت فارسا فهناك طبلة منصوبة فيجري فرسه ويرميها برمحه، وهناك أيضا خاتم معلق من حائط صغير فيجري فرسه حتى يحاذيه فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم، ومن أراد أن يثبت رامياً فارساً فهنالك كرة موضوعة على الأرض فيجري فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر الإنسان في ذلك من الإصابة يكون مرتبة، ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بإنزالنا في دار خارج المدينة هي لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذي تقدم ذكره، وعادهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأمر السلطان بتضييفه. وممن اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند خذاوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ، قدم بأهله وولده ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين، ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند، ومنهم أُرن بغا أحد كبار بخاري، ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند، ومنهم بدر الدين الفصال، وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه. ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان، وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروي الكتوال، بعثهما السلطان لاستقبال خذاوند زاده، وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خذاوند زاده المذكور، وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود، وأتوا جميعا إلي وسألوني لماذا قدمت فأخبرهم أني قدمت للإقامة في خدمة خوند عالم، وهو السلطان وبهذا يدعى في بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند إلا إن كان برسم الإقامة فلما أعلمتهم أني قدمت للإقامة استدعوا القاضي والعدول وكتبوا عقدا علي وعلى من أراد الإقامة من أصحابي وأبى بعضهم من ذلك.

وتجهزنا للسفر إلى الحضرة وبين ملتان وبينهما مسيرة أربعين يوما في عمارة متصلة، وأخرج الحاجب و صاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا، وكان الحاجب يتقدم ليلا إلى كل مترل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خذاوند زاده حتى يكون الطعام متيسرا ويترل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه وربما حضروا الطعام الذي يصنع لخذاوند زاده، ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة. وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق (= الأرغفة)، ويقطعون اللحم المشوي قطعا كبيرة بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا ويجعلون أمام كل رجل قطعة ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشرّك (= المقطّع) ببلادنا، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي، ومعناه الأجُري مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية ثم يجعلون شيئا يسمونه سُموسك (= سنبوسة) وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير موضوع في جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعة ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسموها الهاشمي ثم يجعلون القاهرية. ويقف

الحاجب على السماط قبل الأكل ويخدم إلى الجهة التي فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته، والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع، فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل، ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات، وهو الجُلاب محلولا في الماء ويسمون ذلك الشّربة، ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب: بسم الله، فعند ذلك يشرعون في الأكل، فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقّاع (= عصير الفطر) فإذا شربوه أتو بالتنبول والفوفل.. فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون.

وسافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند، وكان أول بلد دخلناه مدينة أبو هَر (= حاليا على الحدود الهندية - الباكستانية، جنوب لاهور)، وهي أول تلك البلاد الهندية، صغيرة حسنة، كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار. وليس هناك من أشجار بلادنا شيء ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص، شديد الحلاوة، ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها، فمنها العنبة، وهي شجرة تشبه أشجار النارنج إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا، وظلها أكثر الظلال غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك، وثمرها على قدر الإجاص الكبير فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه، وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا، وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل، ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات، فإذا نضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح، فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصا، وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة، ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها. ومنها الشَّكي والَبركي وهي أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجر فما اتصل منه بالأرض فهو البركي وحلاوته أشد وطعمه أطيب، وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فإذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون، وبكل حبة نواة تشبه الفول الكبير وإذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول إذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى، وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند، ومنها التندو، وهو ثمر شجر الأبنوس وحباته في قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة، ومنها الجمون وأشجاره عادية ويشبه ثمره الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون، ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير، وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود، ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم، وهو طيب جدا، وكنت يعجبني أكله، ومنها المهوا وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز إلا أن فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الإجاص الصغير شديد الحلاوة، وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعا، ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان طعمها كطعم التين. وكنت أكلها عوضا عن التين إذا لا يوجد

ببلاد لهند، وهم يسمون هذه الحبة الأنكور وتفسيره بلسانهم العنب. والعنب بأرض الهند عزيز جدا ولا يكون بها إلا في مواضع بحضرة دهلي وببلاد أخرى، ويثمر مرتين في السنة، ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به. ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا يحفرون عليها الأرض وهي شديدة الحلاوة يشبه القسطل، وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان، ويثمر مرتين في السنة، ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار، وأظن هو الأصل في تسمية الجُلّنار فإن جل بالفارسية الزهر، و نار الرمّان.

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة، فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته، ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو، وهو نوع من الدخن. وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم، ومنها القال وهو شبه انلى، ومنها الشاماخ وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين، وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة، وحب هذا الشاماخ صغير جدا وإذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهارس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس، وهي أطيب من خبزه. وكنت أكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبني، ومنها الماش وهو نوع من الجلبان، ومنها المنج وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة، ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشري، وعليه يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب، ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول، ومنها المُوت وهو مثل الكذرو إلا أن حبوبه أصغر، وهو علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وإنما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب في تلك الأيام، وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه. وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزروعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة، وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات في السنة، وهو من أكبر الحبوب عندهم، ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها. ولنعد إلى ما كنا بسبيله؛ فأقول سافرنا من مدينة أبو هر في صحراء مسيرة يوم في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود، وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل (= الوالي) أو الخديم (= الوكيل) الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق. ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر خرج الناس منها أول النهار، واقمت بها إلى نصف النهار في لُمّة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان، وكان أصحابي ذوي نجدة وعتو،



فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا، وأصابتني نشابة واصابت فرسي نشابة ثانية، ومنّ الله بالسلامة منها؛ لأن نشابهم لا قوة لها. وجُرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا، وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بكهر فعلقناها على سوره، وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكهر المذكور.

وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودهن (= شرق البنجاب) مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالاسكندرية أني سألقاه، فلقيته. والحمد لله. وهو شيخ ملك الهند، وأنعم عليه بهذه المدينة، وهذا الشيخ مبتلي بالوسواس والعياذ بالله، فلا يصافح أحدا، ولا يدنو منه، وإذا الصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه. دخلتُ زاويته، ولقيته، وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب، وقال: أنا دون ذلك. ولقيتُ ولديه الفاضلين: معز الدين، وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده، وعلم الدين، وزرتُ قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوني منسوبا إلى مدينة بذاون بلد السنبل، ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة، قال لي علم الدين: لا بد لك من رؤية والدي، فرأيته وهو في أعلى سطح له، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذوابة وهي مائلة إلى جانب، ودعا لي، وبعث إلى بسكر ونبات. ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم: ما الخبر؟ فأخبروني: أن كافرا من الهنود مات، وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي، وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه. وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السلطان أستأذنوا السلطان في إحراقها، فيؤذن لهم فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأمجرى (= في إقليم ماديا- براديش) وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن. وأحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك، ونُسبوا إلى الوفاء، ومَن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على أحراق نفسها.

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطِّرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار، وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم، وتضحك إليهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار



متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها، ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهم من ثياب وحلي فتصدقن به، واتيت كل واحدة منهم بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض، وصبّ عليها "روغن كنجُت" وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها، فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم "مارا ميترساني أزاطش مَن ميدانم أواطش است رها كُني مارا" وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام "أبالنار تخوفوني، أنا أعلم أنها نار محرقة؟" ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها، وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الأخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أن أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي، وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك (= النهر المقدس عند الهندوس) وهو الذي إليه يحجون، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين. وهم يقولون: إنه من الجنة، وإذا أُتى أحدهم ليغرق نفسه، يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساى (= كريشنا)، وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم، ، ثم يغرق نفسه فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورمو برماده في البحر المذكور.

ولنعد إلى كلامنا الأول، فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة ايام منها إلى مدينة سرستي (= شمال غربي دلهي) مدينة كبيرة كثيرة الأرز وأرزها طيب، ومنها يحمل إلى حضرة دهلي، ولها مجبى كثير جدا. أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأُنسيتُه. ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسي، وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره، وله عندهم حكايات وأخبار، ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند، وأخوه قطلوخان معلم السلطان، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله و جاور بمكة حتى مات. ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد، وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي، وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسي ومسعود أباد هما للملك المعظم هو شنج بن الملك كمال كرك، وكرك معناه الذئب..وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام، وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان، وجهان اسم الدنيا. وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن أياس الرومي الأصل، فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا، وعيّن للقاء كل واحد منا مَن كان من صنفه، فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازنداراني، وهو

حاجب الـغرباء، والفقيه عـلاء الدين الملتاني المعـروف بقُنَّره. وكتب إلى السلطان بخبرنا، وبعث الكتاب مع الدواة، وهي بريد الرجالة، حسبما ذكرناه، فوصل إلى السلطان وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد. وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، وهم يسمون الأمراء ملوكا، فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك، وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان، ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم، وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحُظوة التامة.

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند، وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق. ومدينة دهلي كبيرة المساحة كثيرة العمارة وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات: إحداها المسماة بهذا الإسم دهلي، وهي القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة (= الصواب هو عام 588هـ = 1192م وفتحها قطب الدين أيبك) والثانية تسمى سيري (=أسست في عام 703هـ = 1303م)، وتسمى أيضا دار الخلافة وهي التي أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه، وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما، والثالثة تسمى تُغلق أباد (أسست في 720هـ = 1320م) باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه؛ وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدي السلطان قطب الدين فقال له: يا خوند عالم، كان ينبغي أن تبني هنا مدينة. فقال له السلطان متهكما: إذا أصبحت سلطانا فابنها، فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه، والرابعة تسمى جهان بناه (= ملاذ العالم بنيت حوالي 725هـ = 1325م) وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه، وهو الذي بناها، وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا، وفيه بيوت يسكنها السُمّار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات (= العنابر) ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات (= قاذفات صغيرة) ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد أسود لكن طعمه طيب، ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بلبَن منذ تسعين سنة، ويمشي داخل السور الفرسان والرجالة من أول المدينة إلى آخرها، وفيه طيقان (= نوافذ) مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء واسفل السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر، وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا، وهم يسمون الباب دروازة، فمنها دروازة بذاون وهي الكبرى، ودروازة المندوي وبها رحبة الزرع، ودروازة جل وهي موضع البساتين، ودروازة شاه اسم رجل، ودروازة بالم اسم قرية ذكرناها، ودروازة نجيب اسم رجل، ودروازة كمال كذلك، ودروازة غزنة نسبة إلى مدينة غزنة التي بطرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر، ودروازة البجالصة، وبخارج



هذه الدروازة مقابر دهلي وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وإن كان لا قبة له، ويزرعون بها الأشجار المزهرة مثل قل شنبه (= النرجس) وديبول (= الياسمين) والنسرين وسواها والأزاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول. وجامع دهلي كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ولا خشبة به أصلا، وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضا من الحجر وله اربعة صحون، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدرى من أي المعادن هو (= عمود أثري عريق يعود إلى القرن الرابع الميلادي أقتلع من معبد فيشنو). ذكر لي بعض حكامهم أنه يسمى هفت جوش (= العمود المسبّع) ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها، وقد جُلي من هذا العمود مقدار السبّابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد، وطوله ثلاثون ذراعا. وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثمانية أذرع. وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس مطروحان بالارض قد ألصقا بالحجارة ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه، وكان موضع هذا المسجد بُذَخانة (= بيت بوذا) وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جعل مسجدا.

وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام، وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافا لحجارة سائر المسجد فإنها بيض، وحجارة الصومعة منقوشة وهي سامية الإرتفاع وفحلُها من الرخام الأبيض الناصع، وتفافيحها من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة. حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها، وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بَلَبَن، واراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها، فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها، وأراد السلطان محمد اتمامها ثم ترك ذلك تشاؤما. وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها؛ بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة، وهذا الثلث المبني منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي. وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموِّها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار، ويظهر لناظرها من أسفلها أن أرتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها. وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضا مسجدا جامعا بسيري، المسماة دار الخلافة، فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب. وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر، ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد، وأراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه، فزعموا أنه يُنفق في اتمامه خمسة وثلاثون لكا، فترك ذلك استكثارا له. واخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا؛ لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قتل قبل تمامه. وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها، وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله، والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنيه بالحجاره مصنوعه أمثال الدكاكين بعضها أعلى من بعض، وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء، وبجانب كل دكان قبه حجاره فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين، وفي وسط الحوض قبه عظيمه من الحجاره المنقوشه مجعوله

طبقتين، فاذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب فإذا قل الماء دخل إليها الناس وداخلها مسجد، وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم.

وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد، ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيره. وأُخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤم بهن الأئمة، وعددهن كبير، وكذلك الرجال المغنون. ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنّى لكل واحد منهم مصلّى تحت ركبته فإذا سمع الآذان قام فتوضأ وصلى... ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان، ودخلنا الباب الاول ثم الثاني والثالث ووجدنا عليه النقباء.. فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجة جهان ينتظرنا، فتقدم ضياء الدين خداوند زاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوهم ثم تلاني أخوهم برهان الدين ثم الأمير مبارك السمرقندي ثم رن بغا التيكي، ثم ملك زاده ابن اخت خداوند زادة، ثم بدر الدين الفصال. ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون ومعنى ذلك الف سارية، وبه يجلس السلطان الجلوس العام، فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض، وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا، صابعنا إلى الاض وخدمتنا لناحية سرير السلطان، وخدم جميع من معنا، فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية: بسم الله، وخرجنا. وأمُّ السلطان تدعى المخدومة جهان، وهي من أفضل النساء، كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر ـ وهي مكفوفة البصر؛ وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا، فذهب بصرها للحين، وعولجت بانواع العلاج فلم ينفع، وولدها أشد الناس برورا بها، ومن بروره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة، فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجّل عن فرسه وقبّل رجلها، وهي في المحفة بمرأى من الناس اجمعين.

ولنعد لما قصدناه، فنقول: ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف، وهم يسمونه باب الحرم، وهنالك سكنى المخدومة جهان، فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله، ودخل معنا قاضي قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان، فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم، وكتب كاتب بابها هدايانا، ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سرا، ثم عادوا إلى القصر، ثم رجعوا إلى الوزير، ثم عادوا إلى القصر، ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك، ثم أتوا بالطعام، وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السُّين، وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك، وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب، وجعلوا الطعام سماطين، وعلى كل سماط صفان، ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين. ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب



والنقباء، وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا، وقال الحجاب: بسم الله، ثم أكلنا، وأتوا بالفقاع، ثم بالتنبول، ثم قال الحجاب: بسم الله، فخدمنا جميعا، ثم دعينا إلى موصع هنالك، فخُلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا إلى باب القصر فخدمنا عنده، وقال الحجاب: بسم الله، ووقف الوزير، ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تخت ثياب غير مخيط من حرير وكتاب وقطن فأعطي كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة، وبطيفورمثله في الجلاب، وطيفور ثالث فيه التنبول، ومن عادتهم أن الذي يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض، فأخذ الوزير الطيفور بيده قصدا أن يعلمني كيف افعل إيناسا منه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا، ففعلت كفعله، ثم انصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقربة من دروازة بالم منها (= جنوب غربي المدينة) وبعثت لنا الضيافة.

ولما وصلت إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد. وأسرّتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فإذا نام الانسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به لانه يعطي الرطوبة من ذاته، وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير، وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي ما في داخلها مصون. وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني، ويسمونه الخواص، والثاني الجزار ويسمونه القصاب. فقالوا لنا: خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم لأوزان لا أذكرها الآن. وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ها وصلتنا ضيافة السلطان.. ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان، وسلمنا على الوزير فأعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم، وقال لي: هذه سرششتي (= إكرامية) ومعناه لغسل رأسك، وأعطاني خلعة من المرعز، وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة أصناف: فالصنف الاول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار، والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا، والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار، والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين دينارا. وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا. وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا، وهو الدرمك، وثلثاها من الخشكار وهو المدهون، والف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها، والألف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلا من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر. وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه.

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة (كانت ولدت في رجب 733هـ = أذار/مارس 1333م، قبل وصوله الهند) فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها

خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوي، فدفناها بها، وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني، وكان بين متصيّد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام. وعادتهم ان يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الأزاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه وهي زهر أصفر، وريبول وهو أبيض، والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه للناس، ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول، وينصرفون. ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت، خرجتُ عند الصبح على العادة واعددتُ ما تيسر من ذلك كله، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة. فضُربت على القبر، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة و لم آت الا والقوم المذكورون قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرأون القرآن، فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة، قرأ القراء بأصوات حسان، ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة، وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا، ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات ثم فرقوا عليهم التنبول، ثم أتي بأحدى عشرة خلعة لي ولاصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت إلى منزلي. فما وصلت الا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ما ملأ الدار ودور أصحابي، واكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الاقراص والحلواء والنبات، فاقامت بقاياها أياما.

وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان، وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة، وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال، وهي شبه السرير سطحها من ضفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندي المغلوق، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين يستريح أربعة ويحمل أربعة، وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه، وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الاسواق وعند أبواب الناس للكري وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير، وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتي التي هي أم البنت المتوفاة، وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية، فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثاني، وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتمليلا من الذهب مرصعا ايضا وقميص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب، ولما جاءت بذلك كله أعطيته لاصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين محافظة على نفسي وصونا لعرضي؛ لان المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالي. وفي أثناء مقامي أمر السلطان أن يعين لي من القرى ما يكون عائده خمسة آلاف دينار في السنة، فعينها لي الوزير وأهل الديوان وخرجت إليها فمنها: قرية تسمى بدلي، وقرية تتسمى بسهي، ونصف قرية

تسمى بلرة. وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى، يعرف بصدى هندبت. والصدى عندهم مجموع مائة قرية وأحواز المدينة مقسومة أصداء كل صدى له جوطرى (= أشبه بالوكيل) وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذي يضم مجابيها وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار، فبعث الوزير إلي عشر جوار منه، فأعطيت الذي جاء بهن واحدة منهن، فما رضي بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغارا منهن، وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن. والسبي هنالك رخيص الثمن لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الأثمان فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي. والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين، والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والاوعار، ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضه على بعض، ولا تؤثر فيه النار، وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهي لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك.

وأطلّ عيد الفطر (= حزيران / يونيو 1334) والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة، فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مُهد له على ظهره شبه السرير، وركزت أربعة أعلام في أركانه الأربعة، ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها، وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى، ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط. واجتمع الناس ذاكرين الله تعالى ثم صلى بهم الخطيب وخطب وانصرف الناس إلى منازلهم، وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام فحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا. ولما كان في رابع شوال (= 8 حزيران) نزل السلطان بقصر يسمى تلبت (= شرق دلهي) وهو على مسافة سبعة أميال من الحضرة، فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الاتراك، فوصلنا إلى باب القصر، وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا جميعا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم، ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب، ولما وصلت إلي النوبة التي دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسي فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك النُدماء ناصر الدين الكافي الهروي، وكنت عرفته أيام غيبة السلطان، فخدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز، وخدمت ثانية لخدمته، ثم قال لي ملك الندماء: بسم الله مولانا بدر الدين، وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين، وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا، فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحني وأمسك يدي وجعل يخاطبني بأحسن خطاب، ويقول لي بالفارسي "حلت البركة، قدومك مبارك، اجمع خاطرك، اعمل معك من المراحم ونعطيك الانعام ما يسمع به أهل بلادك، فيأتون إليك" ثم سالني عن بلادي فقلت له بلاد المغرب، فقال لي بلاد عبد المؤمن، فقلت له: نعم. وكان كلما قال لي كلاما جيدا قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات، وخلع علي وانصرفت... وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب



السلطان لدخول حضرته، وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة أمام السلطان، وجعلت عليها الأعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة، ورفع على راس السلطان شطر منها وحملت أمامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعّادات صغار، فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة قذف في تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك و لم يزالوا ينثرون إلى أن وصلوا القصر، وكان بين يديه آلاف من المشاة على الاقدام، وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنّيات حسبما ذكرنا ذلك.

ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا في سقائف الباب الثالث و لم يكن الإذن حصل لنا بالدخول، وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي فأمر الكتاب أن يكتبوا اسماءنا وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معي ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا، ثم جاؤوا بالبِدَر والقَبّان، وهو الميزان، وقعد قاضي القضاة والكتّاب ودعوا مَن الباب من الأعزة هم الغرباء، فعينوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر فحصل لي منها خمسة آلاف دينار، وكان مبلغ المال مائة الف دينار، تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها. وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام. ولقد قال لنا في بعض الأيام: أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافاتكم، فالكبير منكم مقام والدي، والكهل مقام أخي، والصغير مقام ولدي، وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم إياها. فشكرناه ودعونا له.

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتّبات فعين لي اثني عشر الف دينار في السنة، وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل، أحداها قرية جوزة والثانية قرية ملك بور. وفي بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا: إن خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك، فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم. وتكلم أمير بخت بن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره، فقال أما الوزارة فميراثي وأما الكتابة فشغلي، وغير ذلك لا أعرفه. وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك، وقال لي خدواند زاده بالعربي: ما تقول أنت يا سيدي؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي الا بالتسويد، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب. فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، وأما الإمارة فتعلمون أن الاعاجم ما أسلمت الا بأسياف العرب. فلما بلغ ذلك إلى السلطان أعجبه كلامي بــ"هزار أُسطون" يأكل الطعام، فبعث عنا فأكلنا بين يديه وهو يأكل، ثم انصرفنا إلى خارج هزار أسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يمنعني الجلوس، فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي واعتذروا له عني، وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة، ثم خرج الحاجب فاستدعانا، فدخل خذواند زاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله السلطان أمير داد (= قاضي التحقيق) وهو من الأمراء الكبار فجلس بمجلس القاضي، فمَن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه وجعل

مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة، عين له مجاشر (= ضياع) فائدها ذلك المقدار فأمر له بخمسين ألفا عن يد وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير، ومعناه صورة السبع؛ لأنه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زُركِش فيها من الذهب، وأمر له بفرس من الجنس الأول. والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة. ثم دخل أمير بخت فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده ويقف على محاسبات الدواوين، وعين له مرتبا أربعين الف دينار في السنة أعطي مجاشر فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعين ألفا عن يد وأعطى فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذي قبله ولقّب شرف الملك. ثم دخل هبة الله بن الفلكي فجعله رسول دار (= ما يشبه منصب وزير الخارجية) ومعناه حاجب الأرْسال (= السفراء) وعين له مرتبا أربعين الف دينار في السنة أعطي مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك، وأعطي أربعة وعشرين ألفا عن يد وأعطي فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك.

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا إلى السرير والوزير خواجة جهان بين يديه، والملك الكبير قَبُولة واقف بين يديه، فلما سلّمتُ عليه، قال لي الملك الكبير: اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي، وجعل مرتبك اثني عشر الف دينار في السنة، وعين لك مجاشر بمقدارها، وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله، وأعطاك فرسا بسرجه ولجامه، وأمر لك بخلعة محاربيّ وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب، فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان، فقال لي السلطان: لا تحسب قضاء دلهي من أصغر الأشغال، هو أكبر الأشغال عندنا. وكنت أفهم قوله، ولا أحسن الجواب عنه. وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه، فقلت له: يا مولانا أنا على مذهب مالك، وهؤلاء حنفية، وانا لا أعرف اللسان، فقال لي: قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري، ينوبان عنك ويشاورانك، وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد، فقلت له: بل عبدكم وخديمكم. فقال لي باللسان العربي: بل أنت سيدنا ومخدومنا، تواضعا منه وفضلا وإيناسا. ثم قال لشرف الملك أمير بخت إن كان الذي رتبت له لا يكفيه لأنه كثير الانفاق فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال الفقراء. وقال: قل له هذا بالعربي، وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك، وفهم السلطان ذلك، فقال له "بروويكجا بخصبي وآن حكاية برا وبكوي وتفهيم كنى تا فردا إن شاء الله بيش من بيابي جواب أو بكرى" معناه "امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد، وفهّمه هذه الحكاية، فإذا كان بالغد إن شاء الله تجيء إلي وتعلمني بكلامه". فانصرفنا وذلك في ثلث الليل وقد ضُربت النوبة، والعادة عندهم إذا ضربت لا يخرج أحد، فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلي مسدودة، فبتنا عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرابورخان، وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان، ويشتري له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان، ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الأموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهلة ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالأفراس فقبّلنا حوافرها بعد أن جعلت عليها الخرق، وقدناها



بأنفسنا إلى باب دار السلطان، فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا. وأمر السلطان لاصحابي بألفي دينار وعشر خلع، و لم يعط لاصحاب أحد سواي شيئا. وكان أصحابي لهم رواء ومنظر فاعجبوا السلطان، وخدموا بين يديه وشكرهم.

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتي القضاء والاحسان إلي، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ فأتى بعض الحجّاب فدعا مولانا ناصر الدين فدخل إلى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر، ثم أتاني بعض الحجاب، فقال: اعطني شيئا وآخذ لك خط خرد باثني عشر الفا أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة علي وهو مجد في كلامه، فقال بعض الاصحاب: أنا أعطيه، فاعطاه دينارين أو ثلاثة جاء بخط خرد، ومعناه الخط الأصغر مكتوبا بتعريف الحاجب، ومعناه أمر خوند عالم أن يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء، وهم: الخان الأعظم قطلو خان معلم السلطان، والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والاقلام والامير نُكبية الداودار صاحب الدواة؛ فإذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم، ثم تثبت في ديوان الاشراف، ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البروانة، وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن في ديوانه ويكتب تلخيصا في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له، ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر الفا ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتي، وعادتهم إذا أمر السلطان باحسان لأحد يحط منه العشر فمن أمر له مثلا بمائة الف أعطي تسعين الفا أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف. وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا انفقته في طريقي، وما صنعت به الهدية للسلطان وما انفقته في إقامتي، فلما أرادوا السفر إلى بلادهم الحّوا علي في طلب ديونهم، فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها:

اليك أمير المؤمنين المبجّلا ... أتينا نجدّ السير نحوك في الفَلا

فجئتُ محلا من علائك زائراً ... ومغناك كهفٌ للزيارة أُهّلا

فلو انّ فوق الشمس للمجد رتبةً ... لكنتَ لأعلاها إماما مؤهّلا

فأنت الإمام الماجدُ الأوحدُ الذي ... سجاياه حتما أن يقول ويفعلا

ولي حاجةٌ من فيض جودك أرتجي ... قضاها، وقصدي عند مجدك سُهِّلا

أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم؟ ... فانّ حياكم ذكره كان أجملا

فعجّل لمن وافى محلك زائرا ... قضا دينه، إن الغريم تعجّلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي، فجعلها على ركبته وأمسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدي، وكنت إذا اكملت بيتا منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي بيّن معناه لخوند عالم فيبيّنه، ويعجب السلطان. وهم يحبون الشعر العربي فلما بلغت إلى قولي: فعجل لمن وافى... البيت، قال: مرحمة، ومعناه ترحّمت عليك، فأخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بي إلى موقفهم وأخدم على العادة، فقال السلطان: اتركوه حتى يكملها، فأكملتها وخدمت وهنأني الناس بذلك. واقمت مدة وكتبت رفعا، وهم يسمونه "عرض داشت" فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان، فقال له: امض إلى خواجه جهان فقل له يعطي دينه، فمضى اليه وأعلمه، فقال: نعم، وأبطأ ذلك أياما، وأمره السلطان في خلاها بالسفر إلى دولة آباد، وفي أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئا منها الا بعد مدة، والسبب الذي توقف به عطاؤها أذكره مستوفى، وهو أنه لما عزم الذين كان لهم علي الدين إلى السفر، قلت لهم: إذا أنا أتيت دار السلطان فدَرُهُوني على العادة في تلك البلاد لعلمي أن السلطان متى يعلم بذلك خلصهم، وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصة، وقف له بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول، قال: له دروهي السلطان (= التوسل للسلطان)، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني، فلا يمكنه أن يبرح من مكانه حتى يخلصه أو يرغب إليه في تأخيره. فاتفق يوما أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك، فقلت لهم: هذا وقتكم فلما أردت الدخول، وقفوا لي بباب القصر، فقالوا لي دروهي السلطان ما تدخل حتى تخلصنا، وكتب كتّاب الباب بذلك إلى السلطان، فخرج حاجب قِصّة شمس الدين، وكان من كبار الفقهاء فسألهم لأي شيء دَرُهتُموه؟ فقالوا: لنا عليه الدين، فرجع إلى السلطان فاعلمه بذلك، فقال له: اسألهم كم مبلغ الدين؟ فسألهم، فقالوا له: خمسة وخمسون الف دينار، فعاد اليه فأعلمه، فأمره أن يعود إليهم، ويقول لهم: إن خوند عالم يقول لكم المال عندي، وأنا أنصفكم، منه فلا تطلبوه به. وأمر عماد الدين السمناني وخداوند زاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار أسطون، ويأتي أهل الدين بعقودهم، وينظروا إليها ويتحققوها ففعلا ذلك، وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا إلى السلطان وأعلماه بثبوت العقود، فضحك، وقال ممازحا: أنا أعلم أنه قاض جهّز شغله فيها، ثم أمر خذواند زاده أن يعطيني ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك، وامتنع أن يكتب خط خرد، فبعثت إليه مائتي تنكة، فردّها ولم يأخذها، وقال لي عنه بعض خدامه إنه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك، وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك، فأعلم به أباه وعمله الوزير، وكانت بينه وبين خذاوند زاده عداوة، فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيرا من أفعال خذاوند زاده فغير خاطر السلطان عليه، فأمر بحبسه في المدينة، وقال: لأي شيء أعطاه فلان ما أعطاه؟ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطي خذاوند زاده شيئا إذا منعته أو يمنعه إذا أعطيته؟ فبهذا السبب توقف عطاء دَيني.

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربّص، وكنت قد أعددت ما يحتاج إليه، وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراجة (= خيمة كبيرة) وهي أفراج وضربها هناك مباح ولا بد منها لكبار الناس، وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق واشتريت الصيوان، وهو الذي يظلل به

داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم، ويقال لهم الكيوانية، والعادة هنالك أن يكتري المسافر الكيوانية، وقد ذكرناهم. ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن، ويكتري الكهارين (= حاملو القرب) وهم الذين يحملون أواني المطبخ، ويكتري من يحمله في الدولة، وقد ذكرناها، ويحملها فارغة. ويكتري الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الأحمال على الجمال. ويكترى الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل. فاكتريت أنا جميع من احتجت له منهم، وأظهرت القوة والهمة، وخرجت يوم خروج السلطان وغيري أقام بعده اليومين والثلاثة، فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس، ويعرف من تسارع إلى الخروج ومن أبطا، وجلس خارج السراجة على كرسي فجئت وسلمت، ووقفت في مواقفي بالميمنة، فبعث إلي الملك الكبير قبولة سرجا مدار (= الوصيف) وهو الذي يشرّد الذباب عنه، فأمرني بالجلوس عناية بي، و لم يجلس في ذلك اليوم سواي، ثم أُتي بالفيل وأُلصق به سُلم فركب عليه، ورُفع شطر فوق رأسه، وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد إلى السراجة.

وعادته إذا ركب أن يركب الأمراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلامته وطبوله وانفاره وصرناياته، ويسمون ذلك المراتب، ولا يركب أمام السلطان الا الحجّاب، وأهل الطرب والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار، والذين يضربون الصرنايات، ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير، وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة. وكنت أنا من أهل ميمنته، ويكون بين يديه المشّاؤون والأدلاّء، ويكون خلفه علاماته وهي من الحرير المذهب والأطبال على الجمال، وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته، وخلفهم الأمراء وجميع الناس. ولا يعلم أحد أين يكون النزول، فإذا مرّ السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول، ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته، ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد في منزله، وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجاره، وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمّنة والكراكي، وغيرها من أنواع الصيد، ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشتوون ذلك، ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان، ويجلس من معه من الخواص خارجها، ويؤتى بالطعام، ويستدعي من شاء فيأكل معه. وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها، فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهري أحد ندمائه، ثم فلان المغربي، وهو متغير، فقال: لماذا؟فقال: بسبب الدَّين الذي عليه، وغرماؤه يلحّون في الطلب، وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك، فان أمر مولانا أن يصبّر أهل الدَّين حتى يقدم الوزير أو أمر بإنصافهم، وحضر لهذا الملك دولة شاه، وكان السلطان يخاطبه بالعم، فقال: يا خوند عالم كل يوم هو يكلّمني بالعربي، ولا أدري ما يقول، يا سيدي ناصر الدين ماذا؟وقصد أن يكرر ذلك الكلام، فقال: يتكلم لاجل الدَّين الذي عليه، فقال السلطان: إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أُومار، ومعناه يا عم، إلى الخزانة فاعطه ذلك المال. وكان خذاوند زاده حاضرا فقال يا خوند عالم إنه كثير الانفاق، وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين. وبعد هذا الكلام

استحضرني السلطان للطعام ولا علم عندي بما جرى، فلما خرجتُ، قال لي السيد ناصر الدين: اشكر للملك دولة شاه، وقال لي الملك دولة شاه اشكر لخداوند زاده. وفي بعض تلك الأيام، ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة وكان طريقه على منزلي، وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة، وكان لي خباء عند السراجة فوقف أصحابي عندها، وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا لمن تلك الاخبية والسراجة؟ فقيل لهما: لفلان، فأخبراه بذلك فتبسم فلمّا كان بالغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح إلى البلد، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة.

وكان السلطان في تلك الأيام سألني عن الملك الناصر، هل يركب الجمل؟ فقلت: نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر في عشرة أيام، ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد، وأخبرته أن عندي جملا منها. فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر، فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من القير، وأريتها بعض النجارين فعمل الكور واتقنه وكسوته بالملف، وصنعت له ركبا، وجعلت على الجمل عباءة حسنة، وجعلت له خطام حرير. وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره، وبعثت الجمل والحلواء إلى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان، وقال يا خوند عالم: رأيت العجب، قال: وما ذلك؟ قال: فلان بعث جملا عليه سرج. فقال "ائتوا به، فأدخل الجمل داخل السراجة، وأعجب به السلطان، وقال لراجلي: اركبه فركبه ومشّاه بين يديه، وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة، وعاد الرجل إلي فأعلمني، فسرني ذلك وأهديت له جملين بعد عودته إلى الحضرة. ولما عاد إلي راجلي الذي بعثته بالجمل فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة، وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة، وجعلت لهما جلّين من زرد خانة مبطنين بالكمخا، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة، وصنعت أحد عشر طيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير. فلما قدم السلطان من الصيد، وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام، غدوت عليه بالجمال، فأمر بها فحرّكت بين يديه، وهرولت فطار خلخال أحدها، فقال لبهاء الدين بن الفلكي: بايل ورداري، معنى ذلك: ارفع الخلخال، فرفعه ثم نظر إلى الطيافير فقال: جداري درآن طبقها حلوا إست، معنى ذلك ما معك في تلك الاطباق؟ حلواء هي؟ فقلت له: نعم، فقال للفقيه ناظر الدين الترمذي الواعظ: ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها الينا ونحن بالمعسكر. ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه، فرفعت وقام إلى مجلسه واستدعاني، وأمر بالطعام فأكلت ثم سألني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له قبل فقلت له: يا خوند عالم تلك الحلواء أنواعها كثيرة، ولا أدري عن أي نوع تسألون منها، فقال ائتوا بتلك الأطباق، وهم يسمون الطيفور طبقا، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها، فقال: عن هذا سألتك، وأخذ الصحن الذي هي فيه، فقلت له: هذه يقال لها المقرضة (= حلوى شائعة في المغرب العربي وتسمى المقروض)، ثم أخذ نوعا آخر، فقال: وما اسم هذه؟ فقلت له: هي لقيمات القاضي، وكان بين يديه



تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري، وينتسب إلى آل العباس رضي الله عنه، وهو كثير المال، ويقول له السلطان يا والدي، فحسدني وأراد أن يخجلني، فقال: ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه، وأخذ قطعة من التي تسمى جَلْد الفرس (= الملبّن) وكان بازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي، وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان، فقال: يا خواجة أنت تكذب والقاضي يقول الحق، فقال له السلطان: وكيف ذلك؟ فقال: يا خوند عالم هو القاضي، وهي لقيماته فإنه أتى بها، فضحك السلطان، وقال: صدقت، فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك، وأخذنا التنبول وانصرفنا. فلم يكن غير هنيهة وأتاني الخازن، فقال: ابعث اصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب، فوجدت المال بها، وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة، وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دَّين علي، وصرف الاثني عشر ألفا التي أمر لي بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم، وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب.

وفي تاسع جمادى الاولى (= من عام 741 = 21 أكتوبر 1341) خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها، وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية، وقد تقدم ذكرهم. فخرج الأمر بإقامتي في جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له، وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلّغ وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم، وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف، وكذلك كل من أقام من الأعزة (= الغرباء) وأما البلديون فلم يعطوا شيئا، وأمرني السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين..وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لانه كان خديما له، ولقد رأيته إذا اتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة، وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته، وكان يعظم زوجته، ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمه وزوّجها بعد ذلك لابن قاضي مصر، واعتنى به من أجلها، وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة. ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع، فقام ابن قاضي مصر، فقال: أنا لا أوادع ولا أفارق خوند عالم، فكان له في ذلك الخير. فقال له السلطان: امض فتجهز للسفر. وقدمتُ بعدها للوداع، وكنت أحب الاقامة، ولم تكن عاقبتها محمودة، فقال: مالك من حاجة؟ فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل، فقال لي: تكلم بلسانك، فقلت له: إن خوند عالم أمر لي بالقضاء، وما قعدت لذلك بعدُ، وليس مرادي من القضاء الا حرمته، فأمرني بالقعود للقضاء وقعود النائبين معي، ثم قال لي: إيه، فقلت: وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيها؟فإني رتبت فيها أربعمائة وستين شخصا، ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامهم؟ فقال للوزير: بنجاه هزار، ومعناه خمسين ألفا، ثم قال: لا بد لك من غلة بديه، يعني أعطه مائة ألف من المغلّة، وهي القمح والأرز ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلة الروضة، والمنّ عشرون رطلا مغربية، ثم قال لي: وماذا أيضا؟ فقلت: إن أصحابي سجنوا بسبب القرى التي أعطيتموني فإني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها أو الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفع عني ذلك، فقال: كم وصلك



منها؟فقلت: خمسة آلاف دينار، فقال: هي إنعام عليك، فقلت له: وداري التي أمرتم لي بها مفتقرة إلى البناء؟فقال للوزير: عمارة كُنيد، أي معناه عمروها. ثم قال لي: ديكر نماند؟ معناه، هل بقي لك كلام؟ فقلت: لا. ثم قال لي: وصية ديكر هست، معناه أوصيك أن لا تأخذ الدّين لئلا تُطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلي: أنفق على قدر ما أعطيتُك، قال الله تعالى "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا وكان بين ذلك قواما "فأردت أن أقبل قدمه، فمنعني وأمسك رأسي بيده، فقبلتها وانصرفت.

وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أُعطيت منها من الديوان ستمائة دينار، وزدت عليها الباقي وبنيت بإزائها مسجدا، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين، وكان قد أمر أن تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق (= قبره في تبريز) وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها، وجعلها بيدي على أن يكون لي العشر من فائدها على العادة. وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة، ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة، فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك، ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين، وهم يسمونهم الختميين، ورتبت من الطلبة ثمانين، ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية، ورتبت لها مدرسا، ورتبت من الصوفية ثمانين، ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان، والمداحين، وكتاب الغيبة والمعرّفين، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب، ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية: وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والابدارية، وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشّربة، والتنبول دارية الذين يعطون التنبول، والسلحدارية، والنيزدارية، والشطردارية، والطشت دارية، والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين. وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق، ومثلها من اللحم، فرأيت أن ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير، فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول، وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد. وكان الغلاء شديدا (= وقع قحط شديد ابتداء من عام 736= 1336) فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح إلى السلطان بدولة آباد، فسأله عن حال الناس، فقال له: لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد أحد، فأعجب ذلك السلطان وبعث إلي بخلعة من ثيابه. وكنت أصنع في المواسم، وهي العيدان، والمولد الكريم، ويوم عاشوراء، وليلة النصف من شعبان، ويوم وفاة السلطان قطب الدين، مائة من الدقيق ومثلها لحما، فيأكل منها الفقراء والمساكين. وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه.

ولنذكر عادتهم في ذلك، وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السَّرا (= عاصمة خان قفجق) أنه إذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرقاق ورأس غنم مشوي وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة



بالحلواء الصابونية (= تصنع من النشاء واللوز والسمسم وتعجن بالزيت والعسل) مغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر، وطبقا صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك، ويغطي ذلك الوعاء بثوب قطن جديد، ومَن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم، ويسمونه الزلّة (= الطعام القليل) ومقدار النصف مما ذكرناه، ومَن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك، ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه، وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السَّرا حضرة السلطان أوزبك، فامتنعت أن يرفع رجالي ذلك إذ لم يكن لي به عهد، وكذلك يبعثون أيضا لدار كـــبراء الناس من طعام الولائم. وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف منّ، ونفّذ لي الباقي في هزار أمروها (= على مسافة 130كم شرق دلهي) وكان والي الخراج بها عزيز الخمّار، وأميرها شمس الدين البذخشاني، فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمّار، فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك. وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام. وكان ذلك في أوان نزول المطر، فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي واستصحبت معي أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لي في الطريق، فوصلنا إلى بلدة بجنور (= بين أمروها ودلهي) فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم، فكانوا يغنون لي نوبة والآخران نوبة. ثم وصلنا إلى أمروها وهي بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمّالها للقائي، وجاء قاضيها الشريف أمير علي، وشيخ زاويتها وأضافاني معا ضيافة حسنة. وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أفغان بور على نهر السرو، وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه، فأخذنا الأثقال في معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا في اليوم الثاني، وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه وضرب لنا سراجه، ثم جاء أخوه إلى الوالي، وكان معروفا بالظلم. وكانت القرى التي في عمالته ألفا وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكا في السنة له فيها نصف العشر. ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر، ولا تسقى منه دابة. ولقد أقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه أحد غرفة، ولا كدنا نقرب منه لأنه يترل من جبل قراجيل (= الهملايا) التي بها معادن الذهب، ويمر على الحشائش المسمومة فمن شرب منه مات. وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر ويترل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك.. وبهذا الموضع جاء إلي جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها، ولم تضرهم.

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين وإليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره، وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلي، فبعث إلى الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بأمروها وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان وإلى شهاب الدين الرومي أن ننظر في قضيتهما فمن كان على الباطل بعثاه مثقفا إلى الحضرة، فاجتمعوا جميعا بمترلي وادعىٰ عزيز على شمس الدين دعاوي منها أن خديما له يعرف بالرّضى الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن، فاستفهمت الرّضى عن ذلك فقال لي: ما شربت الخمر منذ خروجي من ملتان، وذلك ثمانية أعوام، فقلت له: أو شربتها بملتان؟قال: نعم، فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى لِلَوثٍ ظهر عليه. وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتي نحو شهرين، وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة، وتركت

أصحابي ليأتوا بالزرع المنفّذ على عزيز وحمله عليه، فوُزع على أهل القرى التي لنظَرهِ ثلاثين ألف منّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة. وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار، وركوب الحمير عندهم عيب كبير، وحميرهم صغار الأجرام يسمونها اللاشة (= الجثة) وإذا أرادوا اشهار أحد بعد ضربه أركبوه الحمار. وكان السيد ناصر الدين الاوهري قد ترك عندي لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها، فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خذواند زاده قوام الدين، وكان قدم نائبا على الوزير، فاستقبحت أن أقول له تصرفت في المال، فأعطيته نحو ثلثه، وأقمت بداري أياما وشاع في أني مرضت فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي، فلما رآني قال: ما أرى بك مرضا؟ فقلت له: إني مريض القلب، فقال لي:عرفني بذلك، فقلت له: ابعث إلي نائبك شيخ الإسلام أعرّفه به فبعثه إلي، فأعلمته فعاد إليه فأعلمه فبعث إلي بألف دينار دراهم، وكان له عندي قبل ذلك ألفا ثانية، ثم طلب مني بقية المال، فقلت في نفسي: ما يخلصني منه إلا صدر الجهان المذكور لأنه كثير المال، فبعثت إليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار، وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة، وقلت له: انظر قيمة الجميع، وابعث إلي ذلك، فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار، فبعث إلي ألفا واقتطع الألفين فتغير خاطري، ومرضت بالحمى، وقلت في نفسي: إن شكوت به إلى الوزير افتضحت، فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين، وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وهو فتيّ السّن، فردّ على ذلك وبعث إلي مائتي تنكة وأغزر، وخلصت من ذلك المال، فشتان بين محمد ومحمد.

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التّلِنك ووقع الوباء بعسكره فعاد إلى دولة آباد، ثم وصل إلى نهر الكنك، فنزل عليه وأمر الناس بالبناء، وخرجت في تلك الأيام إلى محلته، واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك، ولازمت السلطان في تلك الأيام وأعطاني من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه، وجعلني فيهم، وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه، وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالا رعود، وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها. وكان سبب ما همّ به السلطان من عقابي أني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجام بالغار الذي احتفره خارج دهلي، وكان قصدي رؤية ذلك الغار، فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمّن كان يزوره فذكروا أناسا أنا من جملتهم، فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور، وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة، فألهمني الله تعالى إلى تلاوة قوله"حسبنا الله ونعم الوكيل"فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة، وبتّ بالمشور وواصلت إلى خمسة أيام، في كل يوم منها أختم القرآن، وأفطر على الماء خاصة، ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعا، وتخلصت بعد قتل الشيخ. والحمد لله تعالى.

ولما كان بعد مدة انقبضتُ عن الخدمة ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغاري، وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة... وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ، ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين. وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين، فكنت أحب أن أواصل فكان ينهاني ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة، ويقول لي: إن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معي، فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير، وأعطيت ثياب ظهري لفقير، ولبست ثيابه، ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر. والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند. ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني، وهو يومئذ بسيوستان(=على نهر السند شمال حيرد أباد)فدخلت عليه في زي الفقراء، فكلمني أحسن كلام وألطفه وأراد مني الرجوع إلى الخدمة فأبيت وطلبت منه الإذن في السفر إلى الحجاز، فأذن لي فيه وانصرفت عنه. ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير، وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين (وسبعمائة =1341م) فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام، وافطرت بعدها على قليل أرز دون أدام، وكنت أقرأ القرآن كل يوم، وأتهجّد بما شاء الله، وكنت إذا أكلت الطعام آذاني، فإذا طرحته وجدت الراحة. وأقمت كذلك أربعين يوما ثم بعث عني ثانية، ولما كملت لي أربعون يوما بعث إلي السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها أيام اعتكافي، فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسي، وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورا في باطني، ولم تزل عندي إلى أن سلبني الكفار في البحر، ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين، فإني أعلم حبك في الأسفار والجولان، فجهزني بما أحتاج له وعين للسفر معي مَن يذكر بعد.

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية، وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التي تصنع بمدينة الزَّيتون، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، وخمسة من التراكش مزركشة، وخمسة سيوف. وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره، ويعرف الموضع الذي هو به بسمهل (= سمبهال) وإليه يحج أهل الصين وتغلّب عليه جيش الإسلام بالهند، فخربوه وسلبوه. لما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه: إن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام اسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية؛ فإن رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من اتبع الهدى. وكافأه عن هديته بخير منها، وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص، ومائة ثوب بيرمية، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجُزّ، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية، ومائة ثوب من الشيرين باف (= ثياب قطنية نفيسة) ومائة ثوب من الشان باف (= ثياب شفافة) وخمسمائة ثوب من المرعز، مائة منها

سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق، ومائة شقة من الكتان الرومي، ومائة فضلة من الملف وسراجة، وست من القباب، واربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيلة، واربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شواش من لباسه إحداهما مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة، وأحدها مرصع بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الغمد بالجوهر، ودشت بان وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان، وعيّن السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم، والفتى كافور الشُربدار (=الساقي)، وإليه سلّمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر، وتوجه صحبتنا أرسال (= سفراء) ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم تُرسي، وخدامهم نحو مائة رجل، وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده.

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين (وسبعمائة = 22 يوليو / تموز 1342) وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعة أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين، فكان نزولنا في أول مرحلة بمترل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي، ورحلنا منه إلى مترل هيلو، ورحلنا منه إلى مدينة بيانة (= غرب عليكرة) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة، والأمير بها مظفر بن الداية، وأمه هي داية السلطان... ثم رحلنا من بيانة فوصلنا إلى مدينة كول (= عليكرة) مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا، ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح، ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين، وهو مكفوف البصر معمّر، وبعد ذلك سجنه السلطان، ومات في سجنه..ولما بلغنا إلى مدينة كول بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي (= شرق عليكرة) وأحاطوا بها، وهي على مسافة سبعة أميال من كول، فقصدنا الجلالي، والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف. و لم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم، وهم في نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، فقتلناهم عن آخرهم، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا، واستشهد الفتى كافور الساقي الذي كانت الهدية مسلمة بيده، فكتبنا إلى السلطان بخبره، واقمنا في انتظار الجواب. وكان الكفار في أثناء ذلك يترلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالي، وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم.

وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه، وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالي، فاتبعناهم فتفرقوا، وتفرق أصحابنا في طلبهم، وانفردت في خمسة من أصحابنا، فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك، ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم، ثم انقطعوا عني إلى ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي، وتلك الأرض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسي بين الحجارة فترلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه. والعادة بالهند أن يكون

مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسرج ويسمى الركابي، والآخر في التركش، فسقط سيفي الركابي من غمده، وكانت حليته ذهبا فترلت فأخذته وتقلدته وركبت، وهم في أثري ثم وصلت إلى خندق عظيم، فترلت ودخلت في جوفه، فكان آخر عهدي بهم. ثم خرجت إلى واد في وسط شجراء ملتفة في وسطها طريق فمشيت عليه ولا أعرف منتهاها، فبينا أنا في ذلك خرج علي نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسي، فأحدقوا بي، وخفت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت منهم، وكنت غير متدرع فألقيت بنفسي إلى الأرض واستأسرت، وهم لا يقتلون من فعل ذلك، فأخذوني وسلبوني جميع ما علي غير جبة وقميص وسروال، ودخلوا بي إلى تلك الغابة، فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار، وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء، وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية، وسألاني عن شأني، فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما أني من جهة السلطان، فقالا لي:لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم، ولكن هذا مقدَّمهم. وأشارا إلى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين، وتلطّفت له، فوكل بي ثلاثة منهم أحدهم شيخ ومعه ابنه، والآخر أسود خبيث، وكلمني أولئك الثلاثة ففهمت منهم أنهم أُمروا بقتلي، فاحتملوني عشي النهار إلى كهف، وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه علي، ونام الشيخ وابنه، فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا إلي بالترول معهم إلى الحوض، وفهمت أنهم يريدون قتلي، فكلمت الشيخ وتلطفت إليه فرقّ لي، وقطعت كمي قميصي وأعطيته إياهما لكي لا يأخذه أصحابه فيّ إن فررت.

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم فأشاروا إلي بالترول معهم فترلنا، ووجدنا قوما آخرين فاشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم، فأبوا وجلس ثلاثتهم أمامي وأنا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليهم، وأقول في نفسي بهذا الحبل يربطونني عند القتل، وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم، وفهمت أنهم قالوا لهم لأي شيء ما قتلتموه، فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه، وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي: أتريد أن أسرّحك؟ فقلت: نعم، فقال: اذهب فأخذت الجبة التي كانت علي فأعطيته إياها وأعطاني مقّيرة بالية عنده، وأراني الطريق. فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونني فدخلت غيضة قصب، واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس. ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب فأفضت بي إلى ماء فشربت منه، وسرت إلى ثلث الليل فوصلت إلى جبل فنمت تحته، فلما أصبحت سلكت الطريق، فوصلت ضحى إلى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر، فكنت أجني النبق فآكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن، ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع، وهنالك باين، والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج يترل عليها إلى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها..ولما وصلت إلى الباين شربت منه، ووجدت عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فأكلت منها، وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع. فبينما أنا كذلك إذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل

بعضهم إلى المزرعة ثم ذهبوا، وطمس الله أبصارهم دوني، ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الباين وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي.

ودخلت إذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري، وأقاموا على الباين يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم، فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا، فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر، وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر عليه قبة فنزلت إليه وشربت من مائه، وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها، وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد، فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي إلى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها واقمت كذلك أياما، وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره، فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العمارة، ثم أني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرى الكفار، فاتبعت طريقا أخرى، فأفضت بي إلى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما، واقمت تحت أشجار هنالك، فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفي اسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها، ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت، وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين. وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت، وهو يوم السبت. وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني، فوجدت حول بئرها أوراق فجل، فأكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه، وقعدت إلى الأرض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به فلم ألتفت إليه لعظيم ما بي من الجهد، ففتشني فلم يجد عندي شيئا، فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كمية للشيخ الموكل بي.

ولما كان اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة، فاتبعت طريقا فأفضت بي إلى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها في الماء فلم يروني فربطت خفي واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك، فبينا أنا أربطها وأفكر في حالي إذ لاح لي شخص فنظرت إليه فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لي: سلام عليكم، فقلت له: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقال لي بالفارسية: جيكس؟ معناه، من أنت؟ فقلت له: أنا تائه، فقال لي: وأنا كذلك، ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء، فأردت أن أشرب، فقال لي: اصبر، ثم فتح جرابة فأخرج منه غرفة



حمص أسود مقلو مع قليل أرز فأكلت منه، وشربت. وتوضأ وصلى ركعتين، وسألني عن اسمي فقلت له: محمد، وسألته عن اسمه فقال لي القلب الفارح، فتفاءلت بذلك وسرت به، ثم قال لي: بسم الله ترافقني، فقلت: نعم، فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا في أعضائي و لم أستطع النهوض فقعدت، فقال: ما شأنك؟ فقلت له: كنت قادرا على المشي قبل أن ألقاك، فلما لقيتك عجزت، فقال: سبحان الله اركب فوق عنقي، فقلت له: إنك ضعيف ولا تستطع ذلك: فقال: يقويني الله لا بد لك من ذلك، فركبت على عنقه، وقال لي: أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثرت من ذلك وغلبتني عيني، فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض، فاستيقظت و لم أر للرجل أثرا، وإذا أنا في قرية عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين، فأعلموه بي فجاء إلي، فقلت له: ما اسم هذه القرية، فقال لي: تاج بوره، وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان، وحملني ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمني طعاما سخنا، واغتسلت وقال لي: عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول، فقلت له: هاتهما ألبسهما إلى أن أصل إلى المحلة، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول، فطال تعجبي من ذلك. وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي، حسبما ذكرناه في السفر الأول، إذ قال لي ستدخل أرض الهند وتلقي بها أخي دلشاد، ويخلصك من شدة تقع فيها، وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح، وتفسيره بالفارسية دلشاد، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه، وأنه من الأولياء و لم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكرت.

وكتبت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي فجاؤا إلي بفرس وثياب، واستبشروا بي، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار (= حامل الكأس) عوضا من كافور المستشهد، وأُمرنا أن نتمادى على سفرنا، ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها علي وعلى كافور وهم يريدون أن يرجعوا، فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر، أكدت عليهم وقوي عزمي، فقالوا: ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة، والسلطان يعذرك فلنرجع إليه، أو نقيم حتى يصل جوابه؟ فقلت لهم: لا يمكن المقام، وحيث ما كنا أدركنا الجواب. فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره (= بين عليكرة وكانّوج) وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لأنه لا يلبس عليه إلا ثوبا من سرته إلى أسفل، وباقي جسده مكشوف، وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به. وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجرد يلبس تنورة، وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل، ويُذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وأدام وماء وفرّق ذلك على المسلمين، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم، وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا، فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء، ويقول لمن أخذ منه ذلك: اقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا. ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دمشق ما عدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته،

ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع، وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين؛ فثبت الملك الناصر، وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه، ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها (= هي معركة مرج الصفّار التي وقعت في 2 رمضان 702هـ = 21 نيسان / أبريل 1303م). وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن. ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه (= النهر الأسود أحد روافد الكنج). ثم رحلنا إلى مدينة قنوج (= على الضفة اليمنى للكنج) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دهلي، وعليها سور عظيم... وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه إن لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة أباد عوضا منه. ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول، ثم بمنزل وزير بور، ثم بمنزل البجالصة، ثم وصلنا إلى مدينة موري، وهي صغيرة ولها أسواق حسنة... ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مره، وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس له مثل بسواها، ومنها يحمل إلى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة، ولم أر قمحا مثله إلا بأرض الصين. وتنسب هذه المدينة إلى المالوة، وهي قبيلة من قبائل الهنود ضخام الأجسام عظام الخلق حسان الصور، لنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة، ووفور الحظ من اللذة، وكذلك نساء المرهتة (= إقليم مهر شترا قرب بومباي)ونساء جزيرة ذيبة المهل (= جزر المالديف).

ثم سافرنا إلى مدينة علا بور (=قرب كواليور) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَم، وهو سلطان جَنبيل الذي حاصر مدينة كيالير وقُتل بعد ذلك. كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري (= على نهر يامونا) وهي على نهر الجون كثيرة القرى والمزارع. وكان أميرها خطّاب الأفغاني وهو أحد الشجعان، واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجُو، وبلده يسمى سلطان بور، وحاصر مدينة رابري، فبعث خطابا إلى السلطان يطلب منه الإغاثة فابطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة، ومثلهم من المماليك، ونحو أربعمائة من سائر الناس، وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم، وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت، وباعوا نفوسهم من الله تعالى، وتقدم خطّاب وقبيلته واتبعهم سائر الناس، وفتحوا الباب عند الصبح، وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم بإذن الله، وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو، وبعثوا برأسهما إلى السلطان. ولم ينج من الكفار إلا الشريد. وكان أمير علا بور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال، وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة، وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة ببلادهم، وكان له ابن

يدانيه في الشجاعة، فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة، واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة، والقتارة حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لاتبقي، فقتله بتلك الضربة وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وما فيها، واخرجوا الفرس من المطمورة سالما، فأتوا به ولده فكان من الإتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا.

ثم سافرنا إلى مدينة كاليور ويقال فيه أيضا كياليير وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيّال من الحجارة... ثم رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (= نرور) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة. وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا، وكانوا يعجبون في شأن دخوله. وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير، وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه، فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه، وذكروا أنه كذلك فعله بالناس. ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة. ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم به الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة، ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما، وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركّبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو شهر؛ فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة، والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون، والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته. وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب، ويقولون أُكل قلبه وأكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار.

ولما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التِّلنك (= مملكة هندية عاصمتها وارانكل) نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا اطعامهم، فكان عندي منهم خمسمائة نفس، فعمّرت لهم سقائف في دارين، وأسكنتهم بها. وكنت أعطيهم نفقة في خمسة أيام، فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم، وقالوا: إنها كفتار، وقد أكلتْ قلب صبي كان إلى جانبها وأتوا بالصبي ميتا، فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب



السلطان فأمر باختبارها؛ وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعُلم أنها كفتار. ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار، فأمر بإحراقها بالنار، وأتى أهل البلد رجالا ونساء، فأخذوا رمادها، وزعموا أنه مَن تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار. بعث إلي السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس أباطهم، فأمرني بالجلوس، فجلست، فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا، فعجبت منه وأدركني الوهم فوقعت إلى الارض، فأمر السلطان أن أسقى دواءا عنده، فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع، فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه، فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل، ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمر تهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت، فانصرفت عنه وأصابني الخفقان، ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني.

ولنعد لما كنا بسبيله، فنقول: سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا (= خَجُرة) وبه حوض عظيم طوله نحو ميل، وعليه الكنائس (= المعابد) فيها الاصنام قد مثّل بها المسلمون، وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الرابعة أربع قباب. ويسكن هنالك جماعة من الجوكية، وقد لبدوا شعورهم، وطالت حتى صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليه مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى. وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان، وكانوا نحو خمسين فحفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة، ولهم شبه القرن يضربونه اول النهار وآخره وبعد العتمة، وشأنهم كله عجب، ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوبا يأكلها تقوية على الجماع، وكان من أخلاطها برادة الحديد، فأعجبه فعلها فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات، وولي ابن أخيه ناصر الدين؛ فأكرم هذا الجوكي ورفع قدره. ثم سافرنا إلى مدينة جنديري (= في إقليم كونا) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتاني...ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار، وهي مدينة المالوة أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح، ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي، وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين، فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له إلى المنزل أو إلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الاعمدة فعرفه. ومدينة ظهار اقطاع للشيخ ابراهيم الذي من أهل ذيبة المهل. كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها، فأحيا أرضا مواتا هنالك، وصار يزرعها بطيخا فتأتي في الغاية من الحلاوة ليس بتلك الارض مثلها، ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله، وكان يعطم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى اليه هذا



الشيخ يطيخا فقبله واستطابه واقطعه مدينة ظهار، وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها فعمرها أحسن عمارة، وكان يعطم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر لكا، فقال: هذا فضل مما كنت أطعمه الناس، وبيت المال أحق به. فقبضه منه، و لم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال و لم ينفق جميعه في اطعام الطعام. وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجة جهان أن يفتك بخاله، ويستولي على امواله ويسير إلى القائم ببلاد المعبر، فنمي خبره إلى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء، ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير، ولما رد ابن أخت الوزير اليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه، وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها التنبول واطعمته وعانقها مودعا، ثم طُرح للفيلة، وسلخ جلده ومليء تبنا، فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها في بئر هنالك تقرب من الموضع الذي قتل فيه؛ فوجدت ميتة من الغد، فاخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد وسمى ذلك "قبور عاشقان" وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين.

وثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أُجين مدينة حسنة كثيرة العمارة، وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك... ثم سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد (= ديوجير، فتحها المسلمون في عام 693هـــ = 1294م) وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي في رفعة قدرها واتساع خطتها، وهي منقسمة ثلاثة اقسام: أحدها دولة آباد، وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره، والقسم الثاني اسمه الكتكة (= المعسكر الملكي) والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة، وتسمى الدُّويقير وبهذه المدينة سكنى الخان الاعظم قطلو خان معلم السلطان وهو أميرها والنائب عن السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما اضيف إلى ذلك، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الارض قد نحتت وبني بأعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا، ويسكن بها المفردون وهم الزمَّاميون (= جنود الزّمام) بأولادهم، وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جُبُوب بها، وبها فيران ضخام أعظم من القطوط، والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لانها تغلبها ولا تصاد الا بحيل تدار عليها، وقد رأيتها هناك فعجبت منها. أخبرني الملك خطّاب الافغاني أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران، قال: فكانت تجتمع علي ليلا لتاكلني فأقاتلها، وألقي من ذلك جهدا، ثم إني رأيت في النوم قائلا يقول لي: اقرأ سورة الاخلاص مائة الف مرة، ويفرج الله عنك. قال فقراتها فلما اتممتها أُخرجت، وكان سبب خروجي أن الملك ملّ كان مسجونا في جب يجاورني، فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه، فمات فبلغ ذلك السلطان، فقال: اخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك.. وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهَتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الأنوف والحواجب، ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن. وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه، وهم مثل الاكارم (= تجار عَدَن) بديار مصر. وبدولة آباد العنب

والرمان، ويثمران مرتين في السنة وهي من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا لكثرة عمارها واتساع عمالتها. وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا، وهي كما ذكرناه مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لكا والك مائة الف دينار، ولكنه لم يف بذلك فبقي عليه بقية، وأخذ ماله وسلخ جلده. وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الأسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه، وللدار باب سوى ذلك، والحانوت مزين بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بانواع الحلي وجواريها يحركن مهدها، وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه، وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف، وفي تلك السوق المساجد للصلاة ويصلي الائمة فيها التراويح في شهر رمضان. وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغني المغنيات بين يديه وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين ايضا.

ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الاتقان في الصنائع والاطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة، وهم الكتريون (= طائفة دينية) أيضا وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم، ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة، ولا ينكحون في أقاربهم الا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد، ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب، وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومَن شربها من مسلم حُد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه. ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صاغَر (= صونغارا) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها، وعليه النواعير والبساتين فيها العنبا والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحواله كلها مرضية، ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة، والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف. وثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كنباية (=كمباي) وهي على خور من البحر، وهو شبه الوادي تدخله المراكب، وبه المد والجزر. وعاينت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فاذا كان المدّ عامت في الماء، وهذه المدينة من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد؛ وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك. ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي اتفقت لي معه قضية الحلواء وكذّبه ملك الندماء. ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار، وبابها كانه باب مدينة وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه، ومنها دار ملك التجار الكازروني وإلى جانبها مسجده، ومنها دارشمس الدين كلاه نور، ومعناه خياط الشواشي. ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الافغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذة إلياس، وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا في حفر خندق عليها اذ لا سور لها، فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة، وخافوا أن

يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة..فمات اثنان منهم و لم يمت ملك الحكماء، وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها وأعطاه المراتب؛ فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله.

وكان أمير كنباية حين وصلنا اليها مقبل التلنكي، وهو كبير المترلة عند السلطان، وكان صحبته الشيخ زاده الأصبهاني نائبا عنه في جميع أمره، وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده، ويتحيّل في الفرار، وبلغ خبره إلى السلطان وذُكر عنه أنه يروم الهروب فكتب إلى مقبل أن يبعثه على البريد وأُحضر بين يدي السلطان ووكّل به. والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو، فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه وهربا جميعا. وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قلها (= في عُمان) وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده فحصل على أمواله وأمن مما كان يخافه. واضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر أن جلس قاضي المدينة، وهو أعور العين اليمنى، وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره الا أنه أعور اليسرى؛ فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويضحك، فزجره القاضي فقال له: لا تزجرني فاني أحسن منك، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك أعور اليمنى، وأنا اعور اليسرى، فضحك الأمير والحاضرون وخجل القاضي و لم يستطع أن يرد عليه لان الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم. وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا إليه وأكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنباية حين خلافه أنه أتاه وذُكر للسلطان أنه دعا له؛ فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري. وكان بها ايضا من الصالحين التاجر خواجة إسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين، وماله على هذا ينمّى ويزيد كثرة.

وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاوي (=كافا على مصب نهر ماهي) وهي على خور فيه المد والجزر وهي بلاد الريّ جالنَسي الكافر..وسافرنا منها إلى مدينة قندهار (= ميناء هام على مصب نهر داندار)، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي، وهو تحت حكم الإسلام ويعطي لملك الهند هدية كل عام، ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فأنزلنا به، وجاء الينا من عنده كبار المسلمين كأولاد خواجة بُهرة (طائفة دينية تتمركز في كوجرات وبومباي، وهم من الإسماعيلية) ومنهم الناخوذة إبراهيم له ستة من المراكب مختصة له. ومن هذه المدينة ركبنا البحر، وركبنا في مركب لإبراهيم المذكور يسمى الجَاكر وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لأخي إبراهيم المذكور يسمى مَنُورت، وأعطانا جالنسي مركبا جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهزه لنا بالماء الزاد والعلف، وبعث معنا ولده في مركب يسمى العُكيري وهو شبه الغراب الا انه أوسع منه، وفيه ستون مجذفا، ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة، وكان ركوبي أنا في الجاكر، وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة، وهم زعماء هذا البحر. واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم. ووصلنا بعد يومين إلى

جزيرة بيرم (= على خليج كنباية، وكانت معقلا للقراصنة) وهي خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال فترلنا بها، واستقينا الماء من حوض بها، وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها وجعل بها المجانيق وأسكن بها بعض المسلمين. ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة (= شمال بيرم) وهي مدينة كبيرة عظيمة الاسواق، أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشاري مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها فوحل العشاري في الطين؛ وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل، فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكأ على رجلين من أصحابي، وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي إليها وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر إلياس عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب. وسلطانها كافر يسمى دُنكُول وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو في الحقيقة عاص.

ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور (= في خليج كوا، فتحها المسلمون عام 712هـ = 1312م) وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور، واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب، واذا كان المد فهو ملح أجاج، وفي وسطها مدينتان: إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الاول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمّره الناخوذة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري... وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر (= جزيرة أنجيديف) فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا فيها أحد الجوكية، ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستندا إلى حائط بدخانة (= معبد) وهي بيت الأصنام وهو فيها بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم، ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما، وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها، وأتيناه بزاد فردّه، وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلّبتُها بيدي؛ فدفعها لي وكانت بيدي سبحة زيلع (= نوع من الودع) فقلّبها في يدي؛ فأعطيته إياها ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ثم إلى سمت القبلة، فلم يفهم أصحابي إشارته، وفهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من تلك الجوز. ولّما وادعناه قبّلت يده؛ فأنكر أصحابي ذلك، ففهم إنكارهم فاخذ يدي وقبّلها وتبسّم وأشار لنا بالانصراف، فانصرفنا. وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه فاعطاني عشرة دنانير، فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي: لم جذبك؟ فقلت لهم: أعطاني هذه الدنانير، وأعطيت لظهير الدين ثلاثة منها، ولسنبل ثلاثة، وقلت لهما: الرجل مسلم، الا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام، وأخذه السبحة يصدّق ذلك. فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه، وسافرنا تلك الساعة. وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنور (= هونافار، على مصب نهر شاراواتي) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر، وفي أيام البُشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه الا للتصيد فيه.

وفي يوم وصلنا إليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة، وأعطاني ستة دنانير،وقال لي: البرهمي بعثها إليك، يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة وأعطاني الدنانير، فاخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف، وأخبرت أصحابي بالقضية، وقلت لهما: إن شئتما فخذا نصيبكما منها فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه، وقالا لي: إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه، فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها. وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في البحر وقوة، وبذلك عرفوا حتى اذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور، وسنذكر ذلك. ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري أضافني بزاويته، وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام، ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى، وهو ورع حسن الخلق كريم النفس، والقاضي لها نور الدين عليا، والخطيب ولا أذكر اسمه. ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط (=الساري)، وانما يلبسن ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها، ولهن جمال وعفاف، وتجعل إحداهن خُرص (= ناث) ذهب في أنفها. ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن الكريم. ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد، ولم أر ذلك في سواها، ومعاش أهلها من التجارة في البحر ولا زرع لهم، وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة.

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم، وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هَرْيَب. السلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة وعادته أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر، فيصلي أول الوقت ثم يركب إلى خارج المدينة، وياتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل إلى قصره، وهو يصوم الأيام البيض. وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإفطار معه فاحضر لذلك، ويحضر الفقيه علي، والفقيه اسماعيل، فتوضع أربع كراسي صغار على الارض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسي، وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة (= خوان) ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الارز مغرفة واحد وتجعلها في الطالم، وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا، فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح، فاذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الارز وأفرغت دجاجة مطبوخة في سُكُرجة فيؤكل بها الارز أيضا فاذا تمت المغرفة الثانية، غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فاذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الارز أيضا، فاذا فرغت الوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فياكلون بها الارز، فاذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان، وهو اللبن الرائب وبهذا يختمون طعامهم، فاذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده، ثم يشربون على ذلك الماء الساخن لأن الماء البارد يضر بهم في فصل نزول المطر. ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرّة أُخرى أحد عشر شهرا لم آكل



خبزا، إنما طعامهم الارز. وبقيت أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الارز حتى كنت لا استسيغه الا بالماء. ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشد في وسط فوطة ويلتحف ملحفتين أحداهما فوق الأخرى ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة، وإذا ركب لبس قباء والتحف بلمحفتين فوقه، وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال. وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام، وزودنا وسافرنا عنه.

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار وهي بلاد الفلفل، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق في جميعها بين ظلال الاشجار وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر، وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها فمَن كان كافرا سقاه في الأواني ومَن كان مسلما سقاه في يديه، ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف. وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم، فان طعم فيها كسروها أو أعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين وطبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الأدام، وما فضل عنه يأكلونه الكلاب والطير، وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين يترل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه، ويطبخون لهم الطعام ولولاهم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة وكل إنسان له بستانه على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب، والطريق يمر في البساتين فاذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها، ودرج آخر يترل عليها إلى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين. ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل الا عند السلطان، وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين، ومَن لم يركب في دولة مشي على قدميه كائنا مَن كان، ومَن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون امتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زجٌّ حديد، وفي أعلاه مخطاف حديد فاذا أعيا و لم يجد دكّانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به. و لم أر طريقا آمن من هذا الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة؛ فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه. وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره إلى الحاكم فأمر بعود فركز في الارض وبرى طرفه الأعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه، ومُد الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره، وترك عبرة للناظرين، ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا ليراها الناس فيتعظموا. ولقد كنا نلقي الكفار بالليل في هذه الطريق فإذا راونا تنحوا عن الطرق حتى نجوز. والمسلمون أعز الناس بها غير أنهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم.

وفي بلاد المليبار اثنى عشر سلطانا من الكفار منه القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف. وبين بلاد

أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته، ويسمونه باب أمان فلان. وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الاخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وان كان القوي صاحب العدد والجيوش، وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون أولادهم (= لأن الانتساب للأم) ولم أر من يفعل ذلك الا مسوّفة أهل اللثام (= يقصد قبائل البربر من الطوارق غرب الصحراء الكبرى، وسيزورهم في رحلته إلى قلب إفريقيا) فإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحواتيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان، وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب وهم يغرسونها إزاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي الا انها ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالي، وأوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العليق، ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبي قُنَينَة (= نبات جبلي معروف في شمال المغرب) اذا كانت خضراء وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه، ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود، ثم يبيعونه من التجار. والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يغلونه بالنار؛ وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش، وليس كذلك؛ وانما يحدث ذلك فيه بالشمس، ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا.

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (= بارسيلور) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة، أحد الكرماء انفق أمواله على الفقراء والمساكين. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكنور (= باركور) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك البلاد، وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب وعمّر بها حسين المذكور مسجدا لإقامة الجمعة. وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمى لولا، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار. ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها إلينا ولده فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا اليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند، وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا. ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها وأعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم، ومنعوه عن السفر ما شاؤوا. وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام مدينة منجرور (= مانجالور) مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب، وهو أكبر خور ببلاد المليبار، وبهذه المدينة بترل معظم تجار فارس واليمن، والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا. وسلطانها هو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة، وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعبري، وهو يقرئ العلم. صعد إلينا إلى المركب ورغب في الترول إلى بلده، فقلنا: حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب، فقال: انما فعل ذلك سلطان فاكنور لانه لا قوة للمسلمين في

بلده، وأما نحن فالسلطان يخافنا، فأبينا عليه الا أن بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم واكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عنده ثلاثة ايام.

ثم سافرنا إلى مدينة هيلي (= إيلي) فوصلناها بعد يومين وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين، ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط. ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فانه عظيم البركة مشرق النور، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين، وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخة فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها، ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو (= في الصومال) يسمى سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم، ويذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة، وأدرك الأمير بمكة أبا نُمّي، والأمير بالمدينة منصور بن جماز، وسافر في بلاد الهند والصين.

ثم سافرنا من هيلي إلى مدينة جُرفتين، وبينها هيلي ثلاثة فراسخ.. وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقة شرعا. وسلطانها يسمى بكويل وهو من أكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن ومن بلاده دَه فتّن وبُدَّفتّن وسنذكهما. وسرنا من جرفتن إلى مدينة دَهْ فتّن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاس الكثير ويطبخون به اللحم، وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمن، وفيها الباين الاعظم (= الصهريج) طوله خمسمائة وعرضه ثلاثمائة خطوة، وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبة ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربع مجالس من الحجر، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربع مجالس. وذكر لي أن والد هذا السلطان كويل هو الذي عمّر هذا الباين وبازائه مسجد للمسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون. وحدثني الفقيه حسين أن الذي عمّر المسجد والباين أيضا هو أحد أجداد كويل، وأنه مسلما. ولاسلامه خبر عجيب نذكره. ورأيت أنا بإزاء هذا الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين الا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة، وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحد بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة"لا اله الا الله محمد رسول الله"، وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها. وأخبرني أنه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمين نصفها، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى، وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمّر المسجد والباين؛ فإنه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه. وحكايته عندهم متواترة.

وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت و لم يترك لها أثر، ثم إنها نبتت بعد ذلك، وعادت كأحسن ما كانت عليه، وهلك الكافر سريعا.

ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن، وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين لأنه لا مسلم بهذه المدينة، ومرساها من أحسن المراسي وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة، وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم، أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه؛ فاحترموا هذا المسجد و لم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير.ثم سافرنا من مدينة بُدفتّن إلى مدينة فندرينا (= بانتالايني) مدينة كبيرة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات وفي كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر، وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل، وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين. ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط (= كاليكوت) وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، وسلطانها كافر يعرف بالسَّامري، شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها.. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار، ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس، ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج الينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج، ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم، ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد؛ فكانت فرحة تتبعها ترحة. واقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة من مراكب الصين، ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار، وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر.

وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين، ولنذكر ترتيبها ومراكب الصين ثلاثة أصناف: والكبار منها تسمى الجنوك وأحدها جنك، والمتوسطة تسمى الزو، والصغار يسمى أحدها الككم. ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا فما دونها إلى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا, ويديرونها بحسن دوران الريح واذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح، ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية، وهم الذين يرمون بالنفط، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة: النصفي والثلثي والربعي، ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان، وهي صين الصين (= كانتون). وكيفية انشائها أنهم يصنعون حائطين من



الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة أذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الاسفل ودفعوهما في البحر وأتموا عمله، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء يترلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم، وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور، ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجارة، والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها، ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا بعض البلاد. والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب، ووكيل المركب كأنه أمير كبير، وأذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والاطبال والأبواق والانفار أمامه، وإذا وصل إلى المترل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه، ولا يزالون كذلك مدة إقامته. ومن أهل الصين مَن تكون له المراكب الكثيرة بعث بها وكلاءه إلى البلاد، وليس في الدنيا أكثر أموالا من اهل الصين.

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكا من الجنوك الثلاث عشرة التي بمرسى قالقوط، وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي، وبيني وبينه معرفة، فقلت له: أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لأجل الجواري، ومن عادتي ان لا أسافر الا بهن، فقال: إن تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ولصهري مصرية اعطيكها، لكنها لاسنداس فيها، وعسى أن تمكن معاوضتها، فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي من المتاع وصعد العبيد والجواري إلى الجنك، وذلك في يوم الخميس وأقمت لاصلي الجمعة وألحق بهم، وصعد الملك سنبل، وظهير الدين مع الهدية، ثم إن فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة، فقال: إن المصرية التي أخذنا بالجنك ضيقة لا تصلح، فذكرت ذلك للناخودة، فقال: ليست في ذلك حيلة، فإن أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك، فقلت: نعم، وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم، واستقروا به قبل صلاة الجمعة. وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه، وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا، والككم المذكور، فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم، ولا يستطيع مَن فيه الترول إلينا، ولم يكن بقي معي الا بساط افترشه، وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى، ورمى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فندرينا فتكسّر ومات بعض أهله وسلم بعضهم، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها، وكانت قد التزمت خشبة في مؤخرة الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهُرمُزيين، فاخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال: إنما فعلت ذلك لله تعالى، ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه، ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه، والملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه ونفذ من الآخر، وصلينا عليهما ودفناهما. ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفي

وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته، وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر. وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا في هذا البلد خاصة، فإن ذلك يأخذه أربابه؛ ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها. ولما رأى أهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري، وبقيت منفردا على الساحل ليس معي الا فتى كنت اعتقته، فلما رأى ما حل بي ذهب عني، ولم يبق عندي الا العشرة الدنانير التي اعطانيها الجوكي، والبساط الذي كنت افترشه. واخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم، فعزمت على السفر إليها وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك، فسافرت في النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط. وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر أن يترلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم الا الذي اكتريته، وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد عليّ فيزيد تغير خاطري.

ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كنجي كري، وهي بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود، ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم وجميع الاشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك، ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق. وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كولم (=كويلون) وهي أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصُّوليين (= مسلمون من الطائفة الإمامية) لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع، وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الآوجي من أهل آوة من بلاد العراق... وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد المليبار وإليه يسافر أكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون وسلطانها كافر يعرف بالتيروري، وهو يعظِّم المسلمين، وله أحكام شديدة على السراق والدعار. ومما شاهدت بكولم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر إلى دار الآوجي، وكان له مال كثير وأراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك، وقالوا: لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به، وتركوه في تابوته على باب الآوجي حتى انتن وتغير، فمكنهم الآوجي من القاتل ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا فأبوا ذلك وقتلوه، وحينئذ دفن المقتول. أخبرت أن سلطان كولم ركب يوما إلى خارجها وكان طريقة فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منها وترك عبرة للناظرين. ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخ للنائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك إلى ابن عمه فوعده بالنظر في أمره وقعد على باب داره فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف فدعاه، فقال: هذا سيف المسلم؟قال: نعم قال"اشتريته منه؟ قال: لا، فقال لأعوان امسكوه، ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف.

وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين بن الشيخ شهاب الدين الكزوروني شيخ قالقوط فلم أتعرف للككم خبرا، وفي أثناء مقامي بها دخل اليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا، وكانوا ركبوا في أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا فكساهم تجار الصين، وعادوا إلى بلادهم، ولقيتهم بها بعد، وأردت أن أعود من كولم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق على الهدية، ثم خفت أن يتعقب فعلي، ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري، وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الككم. فعدت إلى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميرا من العرب يعرف السيد أبي الحسن، وهو من البرددارية (= الحاجب السلطاني) وهم خواص البوابين بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته في العرب، فتوجهت إلى هذا الأمير ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب، فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك، فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه، فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد، ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية فخفنا منها ثم لم يعرضوا لنا بشرّ.

ووصلنا إلى مدينة هنور فترلت إلى السلطان، وسلمت عليه فأنزلني بدار، ولم يكن لي خديم، وطلب مني أن أصلي معه الصلوات. وكنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال، وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت فيها أربعين يوما. وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور، وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف؛ فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور، ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان أخته، فلما تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد ففتحت المصحف أنظر فيه فكان في أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرا "ولينصرن الله من ينصره" فاستبشرت بذلك وأتى السلطان إلى صلاة العصر فقلت له: إني أريد السفر، فقال: فأنت إذا تكون أميرهم، فأخبرته بما خرج لي في أول الصفح فأعجبه ذلك، وعزم على السفر بنفسه، ولم يكن ظهر له ذلك قبل، فركب مركبا منها وأنا معه، وذلك في يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين إلى سندابور ودخلنا خورها، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة، فلما أصبح ضربت الطبول والأنفار والأبواق وزحفت المراكب ورموا عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترسة والسيوف، ونزل السلطان إلى العكيري (= سفينة شراعية) وهو شبه الشلي (= مركب) ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس، وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج، ففعلوا ذلك وأذن الله في فتحها، وأنزل النصر على المسلمين. فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم، ثم إن السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف، وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته، وأعطاني جارية منهن تسمى



لَمْكي فسميتها مباركة، وأراد زوجها فداءها فأبيتُ، وكساني فرجية مصرية وجدت في خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان (= من 15 أكتوبر 1342 لغاية منتصف يناير 1343) وطلبت منه الإذن في السفر فأخذ علي العهد في العودة إليه.

وسافرت في البحر إلى هنور ثم إلى فاكنور ثم إلى منجرور ثم إلى هيلي ثم إلى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط، وقد تقدم ذكر جميعها، ثم إلى مدينة الشاليات (= شاليام) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها، وأقمت بها فطال مقامي، فعدت إلى قالقوط، ووصل إليها غلامان كانا لي بالككم، فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطري توفيت، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري، واستولت الأيدي على المتاع، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة، فعدت لما تعرّفتُ هذا إلى هنور إلى سندابور، فوصلتها في آخر المحرم وأقمت بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر (= من 24 حزيران لغاية 24 أغسطس 1343) وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب إليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى فانقطعوا عنا، وحصرنا الكفار وضيقوا علينا، ولما اشتد الحال خرجت عنها، وتركتها محصورة، وعدت إلى قالقوط وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل وكنت أسمع بأخبارها. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل، وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهي نحو ألفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي بإحداها عند الخروج من الأخرى فإن أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان (= جنوب الهند) وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهي منقسمة إلى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي، ومن أقاليمها: إقليم بالبور ومنها كنلوس، ومنها إقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها، ومنها إقليم تلاديب، ومنها إقليم كرايدوا، ومنها إقليم التيم، ومنها إقليم تلدمتي، ومنها إقليم هلدمتي، ومنها إقليم بريدوا، ومنها إقليم كند كل، ومنها إقليم ملوك، ومنها إقليم السويد وهو أقصاها. وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا أن في إقليم السويد منها زرعا يشبه أنلي (= نوع من الحبوب) ويجلب منه إلى المهل وإنما أكل أهلها سمك يشبه البيرون (= سمك التن) يسمونه قلب الماس ولحمه أحمر ولا زفر له إنما ريحه كريح لحم الأنعام، وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيرا، ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فإذا استحكم يبسه أكلوه (= تصبير السمك) ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل (=جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك.. وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثني عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا أبدا، ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل.. ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذي يتغذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها، ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك، ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن، فكنت أطوف على جميعهن



كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها واقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك. ومن أشجارها الجمون والاترج والليمون والقلقاص، وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الأطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب الطعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها.

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له: الله ربي، ومحمد نبيي، وأنا أميّ مسكين. وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء، ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس، ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة، وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم و لم يعرضوا لأحد منهم بسوء، وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم. وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة، وأكثر عمارتهم الخشب وهم أهل نظافة وتنّزه عن الأقذار، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها، وكثرة العرق. ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو. ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية، فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية (=مزيج العنبر والمسك) فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه، ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان (= الصداري) وهي شبه الأحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها، وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى مترله. ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى مترل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه، وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك. .

وبنياهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات لأن أرضهم ندية، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفا، ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يضعون الحيطان من الخشب، ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في أسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (= المضيف) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها، ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الولنج هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها. وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار، فالماشي بها كأنه في بستان، ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك

ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد. ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر، وهي القوارب الصغار واحدها كندرة وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة، وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب، ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن، ومن لم يتزوج فالمرأة التي يترل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابلة بأيسر شيء من الإحسان، وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب خطا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (= المستودع) يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشتري، وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست، وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوزالنارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي من القطن، ويحملون منها أواني النحاس فإنها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر، وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل إلى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن؛ لأن ذلك البحر كثير الحجارة فإن كان المركب مسمّرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر.

وصرف أهل هذه الجزائر الودع، وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه: سِياه، ويسمون السبعمائة: منه الفال، ويسمون الاثنى عشر ألفا منه: الكتي، ويسمون المائة ألف منه: بستوا. ويباع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم، وهذا النوع أيضا هو صرف السودان في بلادهم رأيته يباع بمالي وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي. ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ولا يلبسن أكثرهن الا فوطه واحده تسترها من السرة الى اسفل وسائر أجسادهن مكشوفه وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها. ولقد جهدت لمّا وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة، وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك، فكنت لا تدخل إلي منهن امرأه في خصومه الا مستتره الجسد، وما عدا ذلك لم تكن لي عليهن قدرة. ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطه، وقمصهن قصار الاكمام عراضها. وكان لي جوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلي تغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذ لم يتعدونه. وحليهن الأساور وتجعل المرأه منها جمله في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهي من الفضة ولا يجعل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدرد. ومن عجيب أفعالهن أنهن يستأجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها، وعلى مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا، ويفعله أكثر بناتهم، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشرة والعشرين، وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته. وإذا

أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرهّنة فيه فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر. والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء، وأكثر الناس يسمي صداقا إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا. و لم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن، ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده، وتأتيه بالماء للوضوء، وتغم رجليه عند النوم، ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المراة. ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل معي ولا أستطعت أن أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك.

حدثني الثقات من أهلها كالفقية عيسى اليمني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفار وكان يظهر لهم في شهر عفريت من الجن يأتي ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة، وهي بيت الأصنام، وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر إليه منه، ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة، ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم فمن اصابته القرعة أعطى بنته، ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها، وهن يبكين كأنهن في ماتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه، فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريب. فقال لها أبو البركات: أنا اتوجه عوضا من بنتك بالليل، وكان سِنَاطا لا لحية له، فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى بدخانه وهو متوضيء، وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة، فلما كان بحيث يسمع القراءة غاص في البحر. وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربي يتلو، فمضوا إلى ملكهم، وكان يسمى شنورازة، وأعلموه بخبره فعجب منه، وعرض المغربي عليه الإسلام ورغّبه فيه، فقال له أقم عندنا إلى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت. فاقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر إلى بدخانة، و لم يأتي العفريت فجعل يتلو حتى الصباح، وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الاصنام، وهدموا البدخانة، وأسلم أهل الجزيرة، وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبنى مسجد هو معروف باسمه، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب: أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي، وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل اذ كان إسلامه بسببهم، فسمي على ذلك حتى الآن، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام.



ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شأني سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الاولاد وعلى رؤوسهم المصاحف والنساء يضربون في الطسوت وأواني النحاس فعجبت من فعلهم، وقلت: ما شأنكم؟فقالوا: الا تنظر إلى البحر؟. فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوءسرجا ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة في الشهر، فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا. ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي، وكان الملك لجدها ثم لأبيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين، وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه، وغلب عليه، وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين.. فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر السويد، واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى علي كلكي، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد (= جزيرة على مقربة من خط الاستواء). وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل، فخلعوه لذلك ونفوه إلى إقليم هلدتني، وبعثوا من قتله بها، ولم يكن بقي من بيت الملك الا اخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة، فقدموا خديجة سلطانة، وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الامر، وقدم ولده محمدا للخطابة عوضا عنه، ولكن الاوامر انما تنفذ باسم خديجة، وهم يكتبون الاوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين، ولا يكتبون في الكاغد الا المصاحف وكتب العلم، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول: اللهم انصر أَمتك التي اخترتها على علم العالمين، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين الا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين...ولما وصلت إليها، نزلت منها بجزيرة كنلوس (= يغلب أنه وصلها في نهاية عام 1343م) وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها، وأضافني بها الفقيه علي، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم، ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحموض، فأضافني، وقال لي: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فإنهم لا قاضي عندهم، وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم إلى الصين، وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري، وهو من الحجاج الفضلاء. ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجها، فأردت السفر معه، فقال: لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك، فإن شئت السفر منفردا عنهم فدونك. فأبيت ذلك، وسافر، فلعبت به الريح وعاد إلينا بعد أربعة أيام، وقد لقي شدائد، فاعتذر لي وعزم علي في السفر معه بأصحابي، فكنا نرحل غدوة فنترل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنبيت بأخرى. ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التيم، وكان الكردوي يسمى بها هلالا فسلم علي وأضافني وجاء إلي ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان منهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات، وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل، فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير، فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال.



ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فأكرمنا وأضافنا، وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمدي، وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها، وأرسينا بمرساها وعادتهم أن لا ينزل أحد من المرسى إلا بإذنهم، فأذنوا لنا في النزول. وأردت التوجه إلى بعض المساجد، فمنعني الخدام الذين بالساحل، وقالوا: لا بد من الدخول إلى الوزير. وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني: لا أعرفه؛ خوفا من إمساكهم إياي، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفا بخبري، وأني كنت قاضيا بدهلي؛ فلما وصلنا إلى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه، وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي، وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة إبراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمى بثوب منها، ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر، ورمى بجميعها. وسئل عني فقال: لا أعرفه، ثم أخرجوا إلينا التنبول وماء الورد؛ وذلك هو الكرامة عندهم، وأنزلنا بدار، وبعث إلينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرز، وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك، ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمّرها الشيخ الصالح نجيب، وعدنا ليلا، وبعث الوزير إلي صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها، وهم يسمونه القرباني، ومعنى ذلك ماء السكر وأتوا بمائة ألف ودعة للنفقة. وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوني فعرفوا خدام الوزير بأمري فزاد اغتباطا بي، وبعث عني عند استهلال رمضان (= يوافق 16 يناير 1344) فوجدت الأمراء والوزراء وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فأجلسني الوزير إلى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملداري والوزير عمر دهرد، ومعناه مقدم العسكر. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ، ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاوية، وهو يهضم الطعام.

وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها، فردها أبوها لداره، وأعطاني دارها، وهي من أجمل الدور واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم (= من سيلان) فأذن لي في ذلك وبعث إلي خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو، وبعث الأرز والدجاج والسمن والابازير، فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك، فطبخ لي بها فأحسن في طبخه، وزاد فيه وبعث الفرش وأواني النحاس، وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة، فقال لي: وأنا أحضر أيضا، فشكرته وانصرفت إلى داري فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس في قبة خشب مرتفعة، وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها، فأخذها الفقراء، وقدم الطعام، فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان، ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤونها بالأقدام، ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت. ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه، فمررنا ببستان للمخزن، فقال لي الوزير: هذا البستان لك،

وسأعمر لك فيه دارا لسكناك، فشكرت فعله ودعوت له، ثم بعث لي من الغد بجارية، وقال لي خديمه: يقول لك الوزير أن أعجبتك هذه هي لك وإلا بعث لك جارية مرهتية، وكانت الجواري المرهتيات تعجبني، فقلت له: إنما أريد المرهتية فبعثها لي، وكان اسمها"قل أستان"ومعناه زهر البستان، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتني، وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه، ثم بعث إلي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبري، ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير إلي بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه، وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته، فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة، وهي شبه السبنية(=صرّة كبيرة من القماش)وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر وحلي فأعطاني ذلك، وقال لي: لو بعثته لك مع الجارية، لقالت: هو مالي جئت به من دار مولاي، والآن هو مالك فأعطه إياها، فدعوت له وشكرته. وكان أهلا للشكر رحمه الله.

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إلي أن أتزوج بنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا في ذلك فعاد إلي الرسول، وقال: لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عدتها، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها؛ لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول، وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها، ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحم (= حمى المالديف المشهورة) فقوي عزمي على الرحلة عنها، فبعت بعض الحلي بالودع، واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة؛ فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلي القاضي، فقال الوزير: يقول لك إن شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر، فقلت له: إن بعض الحلي اشتريت به الودع فشأنكم وإياه، فعاد إلي فقال: يقول إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع، فقلت له: أنا أبيعه وآتيكم بالذهب، فبعثت إلى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا، وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه، ثم بعث إلي أحد خواصه، وقال: الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت، فقلت: في نفسي أنا تحت حكمهم، وإن لم أقم مختارا أقمت مضطرا، فالإقامة باختياري أولى. وقلت لرسوله: نعم أنا أقيم معه، فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني، فلما دخلت إليه قام إلي وعانقني، وقال: نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا، فاعتذرت له، فقبل عذري، وقلت له: إن أردتم مقامي فأنا أشترط عليكم شروطا، فقال: نقبلها. فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك إلا الوزير. ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون مني حتى شكوت له، فضربت الدُّنقُرة وبرح في الناس أن لا يتبعني أحد، والدنقرة شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فإذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد، فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورمْكة، فاختر أيهما شئت، فاخترت الرمكة، فأتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة، فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة، فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك، فقال: نعم، فبعثت حيئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان، وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليّا، فاتفق أن هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقربة، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره، ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد، وقدم علي صاحبي أبو محمد بعد سنة، وقد زار القدم، وزارها مرة ثانية معي.



ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلى بكسوة، وخرجنا إلى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى، وفرشت الثياب فيها، وجعلت كتائب الودع يمنة ويسرة، وكل من له على طريقة دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز ومدَّ من شجر إلى أخرى شرائط، وعلق منها الجوز الأخضر، ويقف صاحب الدار عند بابها فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه ايضا، والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة، وهو متقلد فوطة حرير، وفوق رأسه أربعة شطور، وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى، فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة، و لم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك، ثم رفعه الرجال، وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء، ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي، ثم أتي بالطعام ثم بالفوفل والتنبول، ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم، وهو ببلاد المليبار كثير فاخذ الوزير سردينة، وجعل يأكلها، وقال لي: كل منه فإنه ليس ببلادنا، فقلت: كيف آكله وهو غير مطبوخ؟.فقال: إنه مطبوخ، فقلت: أنا أعرف به؛ فإنه ببلادي كثير.

وفي الثاني من شوال (= 16 فبراير 1344) اتفقت مع الوزير سليمان ماناياك على تزوج بنته؛ فبعث إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر، فأجاب إلى ذلك وأحضر التنبول على العادة والصندل، وحضر الناس، وأبطأ الوزير سليمان فاستدعي فلم يأت، ثم استدعي ثانية فاعتذر بمرض البنت، فقال لي الوزير سرا: إن بنته امتنعت، وهي مالكة أمر نفسها، والناس قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها، وهي التي ولده متزوج بنتها، فقلت له: نعم، فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة، ودفع الوزير الصداق، ورفعت إلي بعد أيام فكانت من خيار النساء، وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجتُ عليها تطيبني وتبخر أثوابي، وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير، ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء، وسبب ذلك اعتراضي على القاضي، ولكونه كان يأخذ العشر من التركات إذا قسمها على أربابها، فقلت له: إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة، و لم يكن يحسن شيئا، فلما وليت اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع، وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره، فحسمت علة ذلك، وأتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم الأسواق، وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتددت في إقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق أثر صلاة الجمعة؛ فمن وجدوه لم يصلّ ضربته وشهرته، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك، وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك.

وكنت قد تزوجت ربيبة بنت زوجة الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي، وأحببتها حبا شديدا، ولما بعث الوزير عنه ورده إلى جزيرة المهل، بعثت له التحف وتلقيته ومضيت معه إلى القصر فسلم على الوزير وأنزله في دار جيدة، فكنت أزوره بها، واتفق أن اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس إلا هو، وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة، فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلي أخوال زوجتي ربيبة أولاد الوزير جمال الدين السنجري فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله وأن مالهم باق بيده، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم، وكانت عادتي إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد مكتوبة أو غير مكتوبة فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي وإلا عاقبته، فبعثت إليه على العادة فأغضبه ذلك وحقدها لي وأضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه، وبلغني عنه كلام قبيح. وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين خدمتهم أن يواصلوا السبابة إلى الأرض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم، فأمرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الاشهاد أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد، وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته. وتزوجت أيضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة، ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير، وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها، وهي أحبهن إلي، فلما صاهرت من ذكرته هابني الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا مني لأجل ضعفهم، وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم، وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة.

وأتفق في بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته إلى الوزير وأعلمته أنه عنده سُرّية من سراري السلطان يزني بها، فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السُرّية فوجدوا الغلام نائما معها في فراش واحد، وحبسوهما، فلما أصبحت وعلمت بالخبر، توجهت إلى المشور وجلست في موضع جلوسي، ولم أتكلم في شيء من أمرها فخرج إلي بعض الخواص، فقال: يقول لك الوزير ألك حاجة؟ فقلت: لا، وكان قصده أن أتكلم في شأن السرية والغلام إذ كانت عادتي أن لا تقع قضية إلا حكمت فيها، فلما وقع التغير والوحشة قصرت في ذلك، فانصرفت إلى داري بعد ذلك، وجلست بموضع الأحكام، فإذا ببعض الوزراء، فقال لي: الوزير يقول لك أنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع، فقلت له هذه قضية لا ينبغي الحكم أن يكون فيها إلا بدار السلطان، فعدت إليها واجتمع الناس، وأحضرت السرية والغلام، فأمرت بضربهما للخلوة، وأطلقت سراح المرأة، وحبست الغلام، وانصرفت إلى داري. فبعث الوزير إلي جماعة من كبراء ناسه في شأن تسريح الغلام، فقلت لهم: أتشفع في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه، وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له؟ وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشد وقعا من السياط، وشهرته بالجزيرة وفي عنقه حبل، فذهبوا إلى الوزير فأعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا، وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئته، وكانت عادتي أن أخدم فلم

أخدم وقلت: سلام عليكم، ثم قلت للحاضرين اشهدوا علي أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه، فكلمني الوزير فصعدت وقعدت بموضع أقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب، وأذن مؤذن المغرب فدخل إلى داره وهو يقول ويقولون إني سلطان وهأناذا طلبته لأغضب عليه فغضب علي، وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحققوا مكانتي عنده، وإن كانوا على بعد منه فخوفه في قلوبهم متمكن، فلما دخل إلى داره بعث إلي القاضي المعزول، وكان جريء اللسان فقال لي: إن مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد، و لم تخدم له؟ فقلت له: إنما كنت أخدم له حين كان قلبي له طيبا، فلما وقع التغير تركت ذلك، وتحية المسلمين إنما هي السلام، وقد سلمت. فبعثه إلي ثانية فقال: إنما غرضك الرحيل عنا فأعط صدقات النساء، وديون الناس، وانصرف إذا شئت فخدمت له على هذا القول، وذهبت إلى داري فخلصت مما علي من الدين، وكان قد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها، وكان يعطيني كل ما أطلبه ويحبني ويكرمني ولكنه غير خاطره وخوف مني، فلما عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ما قاله، وتلكأ في الإذن لي في السفر فحلفت بالإيمان المغلظة أن لا بد من سفري، ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر، وطلقت إحدى الزوجات وكانت إحداهن حاملا فجعلت لها أجلا تسعة أشهر إن عدت فيها وإلا فأمرها بيدها، وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لاسلمها لأبيها بجزيرة ملوك، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطان.

وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على أن أمضي إلى بلاد المعبر وكان ملكها سلفي، فأتي منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه، وأنوب أنا عنه فيها. وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب، فإذا رأوها ثاروا في البر. و لم أكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير. وكان الوزير خائفا مني يقول للناس لا بد لهذا أن يأخذ الوزارة أما في حياتي أو بعد موتي، ويكثر السؤال عن حالي ويقول: سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها علي، وكان يخاف من سفري لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر، فبعث إلي أن أقيم حتى يجهز لي مركبا فأبيت وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معي فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك، فلما رأت عزمها على السفر، قالت لها: إن جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك وإلا فرديه، وكان حليا له خطر، فردته إليهم. وأتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم: لولا أني حلفت لعدت، فقالوا: تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك، وتعود فقلت لهم: نعم، إرضاء لهم، فلما كانت الليلة التي سافرت فيها أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي، وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا أن يثور عليه أصهاري وأصحابي.

ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير علي فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة وأحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك، وكتبت للوزير بذلك لانها أم زوجة ولده، وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل، وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم. وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي



واحد في صدرها ولها بنتان إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد والأخرى ذات ثديين إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه، فعجبت من شأنهن. ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس لها إلا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجه وأولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر، وفي جزيرته أيضا شجيرات موز و لم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا إلينا، لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت -والله- ذلك الرجل، ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لي، فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين. ثم وصلت إلى جزيرة ملّوك حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم، وهو الذي عزمت على السفر فيه إلى المعبر فجاء إلي ومعه أصحابه، وأضافوني ضيافة حسنة. وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة، وهي الودع وعشرين قدحا من الاطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم، وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما، وتزوجت بها امرأتين، وهي من أحسن الجزائر خضرة ونضرة، رأيت من عجائبها أن الغصن يقتطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة، ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة. وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك. وعدنا إلى المهل و لم ندخلها، وكتبت إلى الوزير معلما بذلك، فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح، وعدنا إلى ملوك وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين (وسبعمائة = 26 أغسطس 1344) وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله، وكانت السلطانة حاملا منه فولدت أثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله.

وسافرنا و لم يكن معنا رائس عارف، ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام، فسرنا نحن تسعة أيام، وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان، ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا في السماء كأنه عمود دخان، ولما وصلناها قال البحرية: إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين، إنما هذا مرسى في بلاد السلطان أيري شكروتي، وهو من العتاة المفسدين وله مراكب تقطع في البحر فخفنا أن نترل بمرساه، ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق، فقلت للناخوذة: نزلني إلى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان، ففعل ذلك، وأنزلني بالساحل، فأتانا الكفار فقالوا: ما أنتم؟فأخبرتهم أني سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته، وأن الذي في المركب هدية له، فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك، فاستدعاني، فذهبت له إلى مدينة بطالة (= بوطالام) وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي، ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن إلا أنهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه، وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة، وبها أيضا من خشب البقم كثير، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي إلا أنه ليس كالقماري والقاقلي(= أنواع من البخور). .

واسم سلطان سيلان أيري شكروتي وهو سلطان قوي في البحر، رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت إلى هنالك، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن،

فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه، فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالو: إنما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن، ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلي وأجلسني في جانبه وكلمني بأحسن كلام وقال: يترل أصحابك على الأمان، ويكونون في ضيافتي إلى أن يسافروا، فإن سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة. ثم أمر بإنزالي، فأقمت عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كل يوم، وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد، ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره، فقال لي: هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها؟ فقلت له: نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التي لابن السواملي، فقال: سمعت بها، ثم أخذ حبات منه، فقال: أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه؟فقلت له: رأيت ما هو دونها، فأعجبه ذلك، وقال: هي لك، وقال لي: لا تستحي واطلب مني ما شئت، فقلت له: ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام، وهم يسمونه بابا ويسمون حواء ماما، فقال: هذا هين نبعث معك من يوصلك، فقلت: ذلك أريد، ثم قلت له: وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا إلى المعبر، وإذا عدت أنا بعثتني في مراكبك، فقال: نعم، فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب، قال لي: لا أسافر حتى تعود، ولو أقمت سنة بسببك، فأخبرت السلطان بذلك، فقال: يقيم في ضيافتي حتى تعود، فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد، وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير. ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران، ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلي(=ميناري مانديل)مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا أهلها ضيافة حسنة، وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها أحياء، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن، ولم نر بهذه المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا إلى بندر سلاوات(=جيلام)بلدة صغيرة. وسافرنا في أوعار كثيرة المياه بها الفيلة الكثيرة إلا أنها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبي عبد اله بن خفيف رحمه الله، وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم. وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم، فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله..من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره، صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم، وهم إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كنكار، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت لأن الياقوت يوجد به، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش، وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه، وهو كان الدليل إلى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الادلّاء أولاده وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة، وحكمُ كفار الهنود أنه مَنْ ذبح بقرة ذُبح كمثلها أو جُعل في جلدها وحرق، وكان الشيخ عثمان معظما عندهم فقطعوا يده ورجله وأعطوه

مجبى بعض الأسواق. و سلطانها هو يعرف بالكنار، وعنده الفيل الأبيض و لم أر في الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة، واتفق له أن قام عليه أهل دولته وكحلوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى. والياقوت العجيب البهرمان (= الأحمر) إنما يكون بهذه البلدة، فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم، ومنه ما يحفر عنه، وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري الإنسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارا مشعبة، وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق ويسمونه النيلم (= الأزرق) وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فَنَم فهو للسلطان يعطي ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه، وصرف مائة فَنَم ستة دنانير من الذهب. وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنا على رؤوسهن. ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاج، ورأيت عند السلطان أيري شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود، فجعلت أعجب منها فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك.

ثم سافرنا من كنكار (= كورونكالا) فنزلنا بمغارة تعرف باسم أسطا محمود اللوري وكان من الصالحين، واحتفر تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك، ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنة، وبوزنة هي القرود، والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا، وهي سود الألوان لها أذناب طوال، ولذكورها لحى كما هي للآدميين. وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدّم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق أشجار، ويتوكأ على عصا ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصي بأيديها، وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه، وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم، وتأتي القرود فتقعد على بعد منه، ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونه أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة. وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب بعض القرود بالعصي، ثم نتفت وبره بعد ضربه، وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها. وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها، قال: ودخلنا عليها وهو بين رجليها، فقتلناه. ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة. ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز، وهو آخر العمارة، ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر وكان من الصالحين، ثم رحلنا إلى مغارة السبيك، وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك. وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزلو، ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء فإذا قرب الإنسان منه وثب عليه فحينما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير، والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم، ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب



معد لذلك، ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فأظهر الجلد و لم يعصر عليها الليمون، فنزف دمه ومات وكان اسمه بابا خوزي. وهنالك مغارة تنسب إليه.

ثم رحلنا إلى السبع مغارات، ثم إلى عقبة اسكندر، وثم مغارة الاصفهاني، وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان، وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابه، وهو من أعلى جبال الدنيا (= جبل آدم ارتفاع قمته 2243م) رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله، وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق والأزاهير الملونة والورد الأحمر على قدر الكف، ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام، وفي الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق بابا والآخر بطريق ماما؛ يعنون آدم وحواء عليهما السلام، فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا، ومَن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى، وفي أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضا للاسكندر، وعين ماء، ونحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده، وهي عشر سلاسل ثنتان في أسفل الجبل إلى حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها، والعاشرة هي سلسلة الشهادة لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط، ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال، وهي في موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضا ملأى بالحوت ولا يصطاده أحد، وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم، وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعا منخفضا وطولها أحد عشر شبرا. وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد، وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر، فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر، و لم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل، والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا.

ولما تمت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما بمغارة شيم، وهو شيث بن آدم عليهما السلام، ثم إلى خور السمك، ثم إلى قرية كرملة، ثم إلى قرية جبر كاوان، ثم إلى قرية دل دينوة، ثم إلى قرية آت قلنجة، وهنالك كان يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف، وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل في هذا الطريق درخت روان، وهي شجرة عادية لايسقط لها ورق، و لم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لأن الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل، والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك، ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن

التوصل إليها البتة، ولهم أكاذيب في شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخا، وذلك باطل، وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأي العين شديد الزرقة. ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور (= دوندره) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن، والمدينة ومجابيها وقف على الصنم، وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك، والصنم من ذهب على قدر الآدمي وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين. ثم رحلنا إلى مدينة قالي (= كالي) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه، ورحلنا إلى مدينة كلنبو (= كولومبو، عاصمة الجزيرة في الوقت الحاضر) وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جَالَسْتِي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة، ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة..

فسافرنا بقصد بلاد المعبر، وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب، ولم يكن لنا رائس عارف ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها، ثم دخلنا بحرا قصيرا فتجلّس المركب، ورأينا الموت عيانا، ورمى الناس بما معهم وتوادعوا، وقطعنا صاري المركب فرمينا به، وصنع البحرية معدية من الخشب، وكان بيننا وبين البر فرسخان فأردت أن أنزل في المعدية، وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي، فقالا: أتنزل وتتركنا؟ فاثرتهما على نفسي، وقلت: إنزلا أنتما، والجارية التي أحبها، فقالت الجارية: إني أحسن السباحة فأتعلق بحبل المعدية، وأعوم معهم. فنزل رفيقاي وأحدهما محمد بن فرحان التوزري، والآخر رجل مصري، والجارية معهم، والأخرى تسبح، وربط البحرية في المعدية حبالا وسبحوا بها، وجعلت معهم ما عزّ علي من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين؛ لأن الريح كانت تساعدهم، وأقمت بالمركب ونزل صاحبه إلى البر على الدفة، وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت إلى المؤخر وأقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنّا من أصحاب سلطانهم، وهم تحت ذمته، فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين في الغزو، وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتفق علي، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة فأتوا بفاكهة تشبه البطيخ، يثمرها شجرة المقل، وفي داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل، وهي تشبه السكر وأتو بسمك طيب واقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة فرسان ورجال، وجاؤا بالدولة وبعشرة أفراس، فركبت وركب أصحابي، وصاحب المركب وإحدى الجاريتين وحملت الأخرى في الدولة.

ووصلنا إلى حصن هركاتو، وبتنا به وتركت فيه الجواري وبعض الغلمان والأصحاب، ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان، وهو غياث الدين الدامغاني وكان أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين، ثم ولي الملك وكان يدعى



سراج الدين قبله فلما ولي تسمى غياث الدين، وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي، ثم ثار بها صهري الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام، ثم قتل وولي أحد أمرائه وهو علاء الدين أديجي، فملك سنة ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ لهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد إلى بلاده، وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم غرب، فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين، ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما، وولي بعده السلطان غياث الدين، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنت متزوجا أختها بدهلي.ولما وصلنا إلى قرب من مترل السلطان غياث الدين بعث بعض الحجاب، لتلقينا وكان قاعدا في برج خشب، وعادتهم بالهند كلها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف، و لم يكن عندي خف فأعطاني بعض الكفار خفا، وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم، ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين، وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام، وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا، ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة المهل، وأن يبعث الجيش إليها فأخذ في ذلك بالعزم، وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم، وفوّض إلي في عقد نكاحه مع مريم أخت السلطانة، وأمر بوثق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لي: يكون رجوعك بعد خمسة أيام، فقال له قائد البحر خواجة سرلك: لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن، فقال لي السلطان: أما إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فتَنّ حتى تقضي هذه الحركة، وتعود إلى حضرتنا مُتْرَة (= مادورا) ومنها تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجواري والأصحاب.

وكانت الأرض التي نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد، فأمر السلطان أن يكون لكل واحد ممن في الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك، فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال، ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي، وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ومعه امرأته وأولاده، ويؤتى بهم إلى المحلة، وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة ابواب ويسمونه الكتكر، ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب، فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء، وخرجت الفرسان في اتباع الكفار فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام وأتي إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت الخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم، ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات، ويذبح الأولاد الصغار في حجورهن، ويتركون

هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك، وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه. ولقد رأيته يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا، وقد أتي بكافر معه امرأته وولده سنه سبع، فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه، ثم قال له "وَزْنِ أو وَبَّسر أُو" معناه "وابنه وزوجته" فقطعت رقابهم، وصرفت بصري عنهم، فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالأرض، وحضرت عنده يوما وقد أتي برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فإذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام، فقال لي: إلى أين؟ فقلت أصلي العصر، ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجله، فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه.

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة ألف ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان (=كونور كوبام أقصى جنوب ولاية أندرابراديش) فهزمهم ورجعوا إلى حضرة مترة، ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يوما، فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان، ويتركوا له البلد، فقالوا له: لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوما، وكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا، وقالوا: نبيع أنفسنا من الله فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤوسهم وجعلوها في أعناق الخيل، وهي علامة من يريد الموت، وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة، وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار، وركب السلطان في القلب، ومعه ثلاث آلاف وجعل الثلاثة آلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي، وقصدوا محلة الكافر عند القائلة وأهلها على غرة، وخيلهم في المرعى فأغاروا عليها وظن الكفار أنهم سراق فخرجوا إليهم على غير تعبية وقاتلوهم، فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة، وأراد سلطانهم أن يركب وكان ابن ثمانين فأدركه ناصر الدين بن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده فأراد قتله، ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه: هو السلطان فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه في الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة والخيل، وكان يعده السراح فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه، ومُلِئ جلده بالتبن فعلق على سور مترة. ورأيته بها معلقا.

ولنعد إلى كلامنا فنقول: ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينة فتن وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة من الخشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد إليها على طريق خشب مسقف فإذا جاء العدو ضموا إليها الأجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة، وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة، وبها العنب الكثير والرمان الطيب، ولقيت بها الشيخ



الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون أكتافهم ومعه سبعٌ ربّاه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم، وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها، واقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع، وذكروا أن من جملة أخلاطها برادة الحديد، فأكل منها فوق الحاجة فمرض، ووصل إلى فتن فخرجت إلى لقائه، وأهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور، فقال له: لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر، وأراد أن يعطيني قيمة الهدية فأبيت ثم ندمت لأنه مات فلم أخذ شيئا، وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل إلى حضرته، وأقمت أنا بعده نصف شهر. ثم رحلت إلى حضرته وهي مدينة مترة مدينة كيرة متسعة الشوارع، وأول من اتخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها ولما قدمتها ووجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه، وإن أبطأ موته فإلى الرابع، فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا، واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر، ولقد جاءت إلي في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه، ومعها ابن لها سنَّه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة، وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا وإذا به قد توفي من حينه، وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهم لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة الكفار وخرجت إليه في يوم خميس فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي. فلما ضربت لي الأخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض فمن قائل أن السلطان مات ومن قائل أن ولده هو الميت، ثم تحققنا ذلك فكان الولد هو الميت، ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد في مرضه، وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان، وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة، ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده خارجا إلى المحلة قد وُجّه عنه إذ ليس للسلطان ولد فطلبني بالرجوع معه فأبيت، وأثّر ذلك في قلبه.

وكان ناصر الدين هذا خديما بدهلي قبل أن يملك عمه، فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء إليه فكان من القدر ملكه بعده، ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء، وأول من قام منشدا القاضي صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة، ثم الوزير المسمى بالقاضي فأعطاه ألفي دينار دراهم وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة، وبث الصدقات في الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم، ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل إنسان على قدره وأقاموا على ذلك أربعين يوما ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة. وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطلبه بالأموال وولي الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه إلي وأنا بفتن ليتلقاني فتوفي سريعا،

فولي الوزارة خواجه سرور قائد البحر، وأمر أن يخاطب بخواجة جهان كما يخاطب الوزير بدهلي، ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة، ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده، وبلغه أن الملك مسعودا زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا، وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء، وأمر لي بجميع ما كان عيَّنه عمه من المراكب برسم الجزائر، ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية، وألهمني الله إلى التمر الهندي، وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته فاسهلني ثلاثة أيام وعافاني الله من مرضي، فكرهت تلك المدينة، وطلبت الإذن في السفر فقال لي السلطان: كيف تسافر و لم يبق لايام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم، فأبيت وكتب لي إلى فتن لأسافر في أي مركب أردت. وعدت إلى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن فسافرت في أحدها ولقينا اربعة أجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت.

ووصلنا إلى كولم، وكان فيّ بقية مرض، فأقمت ثلاثة أشهر (= بداية رمضان 745هـــ = بداية يناير 1345م) ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري، فخرج علينا الكفار بين هنّور وفاكنور، ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار في اثنى عشر مركبا حربية، وقاتلونا قتالا شديدا، وتغلبوا علينا فأخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخره للشدائد، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزوادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء، و لم يتركوا لي ساترا خلا السراويل، وأخذوا ما كان لجميع الناس، وأنزلونا بالساحل فرجعت إلى قالقوط، فدخلت بعض المساجد فبعث إلي أحد الفقهاء بثوب، وبعث القاضي بعمامة، وبعث بعض التجار بثوب آخر، وتعرفت هنالك بتزوّج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين، وبأن زوجتي التي تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا، فخطر لي السفر إلى الجزائر، وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لي "تتزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا" فاستخرت الله وسافرت، فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذيبة المهل، ونزلت منها بكنّلوس، فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي، وأضافني وجهز لي كندرة، ووصلت بعد ذلك إلى هلّلي وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة وأخواتها إليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التّبحُّر ويلعبون في المراكب، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها، ووجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وأمها التي كانت زوجتي، فجاء الخطيب إلي وأتوا بالطعام، ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي، فسأل عن حالي وعمّن قدم معي، وأُخبر أني جئت برسم حمل ولدي، وكانت سنّه نحو عامين، وأتته أمه تشكو من ذلك، فقال لها: أنا لا أمنعه من حمل ولده، وأذن لي في دخول الجزيرة وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالي، وبعث إلي بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم، وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام فأخذوهما، و لم يخرج الوزير إلي ذلك اليوم، وأتى إلي بولدي فظهر لي أن إقامته معهم خير له فرددته إليهم وأقمت خمسة أيام، وظهر لي أن تعجيل السفر أولى، فطلبت الإذن في ذلك؛ فاستدعاني الوزير ودخلت عليه وأتوني بالثوبين

اللذين أخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة، وأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام، وغسلت يدي معه في الطست وذلك شيء لا يفعله مع أحد، وأتوا بالتنبول وانصرفت. وبعث إلي بأثواب وبساتي من الودع وأحسن أفعاله وأجمل. وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة، ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة (= البنغال) وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز و لم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها "دوز خست بور نعمة" معناه "جهنم ملأى بالنعم" رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلي عشرون رطلا مغربية، وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم.

وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندي بدهلي أنه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشتري الأرز في قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فإذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية، وهي عشرة قناطير، ورايت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين، ورطل السكر باربعة دراهم، وهو رطل دهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم، ورطل السمن باربعة دراهم، ورطل السيرج بدرهمين، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي، واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع، واشترى بعض أصحابي غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب.

وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان (= شيتا كونك جنوب شرق دكا في خليج البنغال) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم (= المحيط الهندي) ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج إليه الهنود ونهر الجون (= جومنا) ويصبان في البحر ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد للكنوتي. وسلطان بنجالة هو السلطان فخر الدين الملقب بفخره سلطان فاضل محب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة، وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولي ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله، والتقيا بالنهر وسمي لقاؤهما لقاء السعدين.. وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة، فأقام بها إلى أن توفي وولي ابنه شمس الدين إلى أن توفي فولي ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره، وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على أن يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتله وولي على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها علي شاه، وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتي فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسد كاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه، فإذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته

فيه وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها أغار علي شاه على بنجالة في البر لقوته فيه. وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائبا عنه في الملك بسد كاوان، وكان يسمى شيدا، وخرج إلى قتال عدو له فخالف عليه شيدا، وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولدا للسلطان فخر الدين لم يكن له ولد غيره، فعلم بذلك فكرّ عائدا إلى حضرته، ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سنركاوان (= جنوب دكّا) وهي منيعة فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شيدا، وبعثوه إلى عسكر السلطان فكتبوا إليه بأمره، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه، وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء، ولما دخلتُ سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لأنه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك.

وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو (= جزء من ولاية أسام الهندية) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر، وهي جبال متسعة متصلة بالصين، وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك، وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة، والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم، وهم مشهورون بمعاناة السحر والإشتغال به، وكان قصدي بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي، وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمرين. أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد، وكان بها حين قتْله. وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله، وكان نحيف الجسم طُوالا خفيف العارضين، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال، ولذلك أقام بينهم. أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد، وأوصاهم بتقوى الله، وقال لهم: إني أسافر عنكم غدا إن شاء الله، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط، فغلسوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله تعالى.

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه: قد جاءكم سائح من المغرب، فاستقبلوه، وأنهم أتوا لذلك بأمرالشيخ، ولم يكن عنده علم من أمري، وإنما كوشف به. وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها، وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون، وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه، ولما دخلت عليه قام إلي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته. قال لي: أنت مسافر العرب، قال له مَن حضر من أصحابه: والعجم يا سيدنا، فقال: والعجم، فأكرموه، فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام، ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رايت عليه فرجية مرعز فأعجبتني، وقلت في نفسي: ليت الشيخ أعطانيها، فلما دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة. فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية، وإنما لبسها عند قدومي، وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي، ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها

لأخينا برهان الدين الصاغرجي وهي له وبرسمه كانت. فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم. وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت إلى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية علي، فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي، ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه، فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان، فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبته ونظر إلى الفرجية فاستحسنها، فقال لي الوزير: جردها فلم يمكنني خلاف ذلك فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة، وتغير خاطري لذلك، ثم تذكرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك، ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي، فقال لي: لِمَ تقلبها وأنت تعرفها؟ فقلت له: نعم هي التي أخذها مني سلطان الخنسا، فقال لي: هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي، وكتب إلي أن الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ، وأعلمته بأول الحكاية، فقال لي: أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله، هو يتصرف بالكون، وقد انتقل إلى رحمة الله، ثم قال لي: بلغني أنه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة، وأنه يحج كل عام لأنه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد فلا يُعرف أين ذهب. ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حبنق، وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو، ويسمى النهر الأزرق ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر، وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك.

وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكنا نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب مالا يحصى كثره وفي كل مركب منها طبل، فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض، وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول (= ضريبة مرور) وأن يعطي الزاد لمن لا زاد له منهم، وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطي نصف دينار. وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا إلى مدينة سنركاوان، وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ إليها، ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر إلى بلاد الجاوة (= يرجح أنه يقصد سومطرة، أما جاوة فسيذكرها باسم مُل جاوة)، وبينهما أربعون يوما، فركبنا في الجنك ووصلنا بعد خمسة عشر يوما إلى بلاد البرهنكار (= جزر أندامان في بورما) الذين أفواههم كأفواه الكلاب، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير، ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب، وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبه من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر. ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة



والجاوة ساكنون في حارة على حدة خبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وأنهم لا يزنون، وإذا زنا رجل منهم فحد الرجل أن يصلب حتى يموت أو يأتي صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرّح هو، وحدّ المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت، ويرمون بها في البحر، ولأجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب يترل إليهم إلا إن كان من المقيمين عندهم وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لأنهن يطمحن إلى الرجال الحسان.

والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم يشتري منهم بالأثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم، ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة، وجاءوا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسمك. وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعزى، وقد جعل الوبر إلى خارج فوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات، وفي يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة، فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبه المهل، وأثوابا من بنجالة وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم، ولهذا السلطان على كل مركب يترل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها، ومَن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك. واتفق في ليلة من ليالي اقامتنا بمرساهم أن غلاما لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل، وعلم بذلك زوجها فجاء في جميع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به فحُملا إلى سلطانهم فأمر بالغلام فقطعت أنثياه وصلب، وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت، ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال: إنّا لا نجد بدا من إمضاء أحكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المصلوب.

ثم سافرنا عن هؤلاء، وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة (= في يناير 1346) وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي، رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور، وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك، والكثير من أفاويه الطيب التي بها إنما هو ببلاد الكفار منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك، ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل إنسان على قدره، وصعد إلينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد مَن معنا من التجار وأذن لنا في الترول إلى البر، فترلنا إلى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور اسمها السرحي، وبينها وبين البلد أربعة أميال، ثم كتب إلى بهروز نائب صحاب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومي فأمر الأمير دولسة بلقائي، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصبهاني وسواهم من الفقهاء، فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب السلطان

وأفراس سواه فركبت وركب أصحابي. ودخلنا إلى حضرة السلطان، وهي مدينة سُمُطرة مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب. وسلطان الجاوة هو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة، وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح.

ولما قصدنا دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة على جانبي الطريق هي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فترلنا عندها، ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك، فقام إلينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة، وقعدنا معه، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فأتاه الجواب على ظهرها، ثم جاء أحد ببقشة، والبقشة هي السبنية، فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمونها فردخانة، وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخر، وكذلك الوزراء والأمراء الكبار، وأخرج من البقشة ثلاث فوط إحداهما من خالص الحرير والأخرى حرير وقطن والأخرى حرير وكتان، وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط، وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمى الوسطانيات، وأخرج ثلاثة أثواب من الارمك أحدها أبيض، وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض عن السراويل على عادتهم، وثوبا من كل جنس، وأخذ أصحابي ما بقي منها، ثم جاؤا بالطعام أكثره الأرز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف، فأخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا، وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا، وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات ومنها مصبوغ وغير مصبوغ، وفي البيت أسرّة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت، فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي: يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد، ثم خرج النائب وبقي الأمير دولسة عندي، وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي، فقلت له: متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لي: إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاث ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه، فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم، وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا، فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دولسة، فقال لي: يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة.

فأتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران، ثم دخلت إلى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني، وسلمت عليه وأجلسني عن يساره وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري فأجبته، وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، ولم يزل كذلك إلى العصر، فلما صلاها دخل بيتا هنالك فترع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشيا، ثم

لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن، ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل عل بابه. والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة، ويكون أهل العلم عن يمينه، فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور، فترلنا حيث العادة ودخل السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب. ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك. ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس، ورفع فوق رأسه شطر مرصّع، وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة، ووقف بين يديه خواص الحجاب، ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه، وأتي بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند، ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره، وانصرف الناس إلى منازلهم. وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاّه بعض البلاد، وكان الفتى يتعشّق بنتا لبعض الأمراء ويريد تزوجها، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها فإن أعجبته صفتها تزوجها وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤا، والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف. ولما استأمر والد البنت التي تعشّقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها، واشتد شغف الفتى بها و لم يجد سبيلا إليها، ثم أن السلطان خرج إلى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ، وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا إليها، فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر، وأخذ الجارية التي تعشّقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوة، ولهذا بنى عمه السور على سمطرة. وكانت إقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوما. ثم طلبت منه السفر إذا كان أوانه إذ لا يتهيأ السفر إلى الصين في كل وقت، فجهّز لنا جنكا، وزودنا، وأحسن، وأجمل جزاه الله خيرا، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك، وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة.

ثم وصلنا إلى مل جاوة، وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاوية العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقاقلة وقمارة (= كمبوديا) من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وإنما معظم ذلك بمل جاوة. ولنذكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه. وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار، وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا

إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور داخل الأنابيب فإذا كسرت القصبة وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور، والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكون شيء منه، والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم الحردالة هو الذي يذبح عند قصبة الأدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار. وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد الإسلام من شجره فهو متملك، وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود، ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب. ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع، وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه، وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البساسة رأيت ذلك كله وشاهدته. ووصلنا إلى مرسى قاقلة فوجدنا به جملة من الجنوك معد للسرقة ولمن يستعصي عليهم من الجنوك فإن لهم على كل جنك وظيفة، ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة، وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة. وأول ما رايت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يوقدوه في بيوتهم، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم، وأما التجار فيبيعونه الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون وكل إنسان يربط فيلته على بابه، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره، وكذلك جميع أهل الصين والخِطا على مثل هذا الترتيب.

وسلطان مل جاوة كافر رايته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط، ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك إلا عند السلطان وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون، فعرف شأني فاستدعاني فجئت وقلت: السلام على من ابتع الهدى، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام، فرحب بي وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه، فقلت للترجمان: كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال: هكذا عادته، يقعد على الأرض تواضعا، وأنت ضيف وجئت من عند سلطان كبير فيجب إكرامك، فجلست وسألني عن السلطان فأوجز في سؤاله وقال لي: تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك. ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسعر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة إمساكه بالأرض فعجبت من شأنه، وقال لي السلطان: أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له: ما رأيت هذا قط، فضحك وقال: هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا، وأمر به فرفع وأحرق وخرج لإحراقة النواب، وأرباب الدولة والعساكر والرعايا



وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه وعظموا لأجل فعله. وأخبرني من كان حاضرا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقريرا لمحبته في السلطان وأنه يقتل نفسه في حبه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه وجده نفسه في حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث إلي بضيافة ثلاثة أيام.

وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما في البحر الكاهل، وهو الراكد وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع إتساعه، ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة من مراكب..تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبار كالصواري يجتمع على المجداف منها ثلاثون رجلا أو نحوها، ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر، وفي المجداف حبلان عظيمان كالطوانيس (= الدبابيس) فتجدف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجدّف الطائفة الأخرى وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان، وأكثر ما يقولون "لَعْلَي لَعْلَي" وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فإنهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين وهي أنهى ما يكون التيسير عليهم. ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي (= مختلف حولها بين الهند الصينية أو الفلبين أو اليابان) وملكها هو المسمى بطوالسي، وهي بلاد عريضة وملكها أيضا ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شيء، وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة أشبه الناس بالترك في صورهم، والغالب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء.

وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم، فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ونزل الناخوذة إليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه، فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيره وولى بنته بتلك المدينة واسمها أُردجا، ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكري استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب و الكراني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل، وهو مقدم الرجال وسباه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتها، ورغب الناخوذة مني أن أحضر معهم فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم، فلما حضروا عندها قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوذة: لم يبق إلا رجل واحد بخشي، وهو القاضي بلسانهم وهو لا يأكل طعامكم، فقالت ادعوه فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة، فقالوا: أجب الملكة فأتيتها، وهي بمجلسها الأعظم، وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمّة يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهنّ وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير، وعليه ستور حرير وخشبة من الصندل، وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل.أخبرني الناخوذة أنها مملوؤة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاوية يشربونه بعد الطعام، وإنه عطر الرائحة حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة، فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية "حسن مسن يخشى مسن"؟ من معناه "كيف حالك؟ كيف أنت؟" وأجلستني على قرب منها، وكانت تحسن الكتاب العربي، فقالت لبعض خدامها دواة و"بتك كاتوز" معناه الدواة والكاغد، فأتى بذلك



فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت: ما هذا؟. فقلت لها "تنضري نام" ومعنى ذلك: اسم الله: فقالت "خشن" ومعناه "جيد" ثم سألتني: من أي البلاد قدمت؟ فقلت لها من بلاد الهند، فقالت: بلاد الفلفل؟ فقلت: نعم، فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها فأجبتها، فقالت: لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسي، فإني يعجبني كثر مالها وعساكرها، فقلت لها: افعلي، وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبانات، وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر. وأخبرني الناخوذة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الأبطال. وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون؛ فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح فافتداه أهله منها بمال كثير، فلما عادت إلى أبيها ملّكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها. وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة أن غلبتهم.

ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين، واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من أقاليم الأرض، ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضا نهر السرو كاسم النهر بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق، تسمى كوه بوزنه، معناه جبل القرود ويمر في وسط الصين مسيرة ستة اشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة. وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري بل يفضله والأعناب والإجاص، وكنت أظن أن الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الإجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فأن بها ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جدا، ولم أر قمحا أطيب منه، وكذلك العدس والحمص. وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون (= تسوتونك) وبصين كلان (= كانتون،وعرفت عند المسلمين بـــ"خانقو" و"خان بالق") وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم .. ويضيفون إليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام، وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا، ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلاد بالمغرب، وهو أبدع أنواع الفخار. ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الأوز عندنا، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز عندنا، وأما الأوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد أشترينا دجاجة فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناه في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة، وربما انتتف ريشه فيبقى بضعة حمراء، وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم



فظننته نعامة وعجبت منه فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود، وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان، وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظّمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة، وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جدا لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلىكثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتما، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سموه الستي، وهو بمعنى الكارمي بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة. وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يأخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد. وجميع أهل الصين والخطا (= كاثي، مناطق شمال الصين) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهوأشد حرارة من نار الفحم وإذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارة سواه..

وأهل الصين أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا سواهم فإن لهم فيه اقتدارا عظيما، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه

بالحائط فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه. وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا، ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذه. وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتّابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر فإذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضا وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحدا مما قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فأما من يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه وإلا أخذ فيه، فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم يترل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن، وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه، وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم.

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في الترول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معّين أو في الفندق، فإن أحب الترول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيئا منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وإن أراد الترول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه، فإن أراد التسري اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وأنفق عليهما، والجواري رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه إن اختاروه، وكذلك إن أراد التزوج تزوج وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه. ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنها أرض فساد وحسن فائت. وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل مترل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المترل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم. وهكذا العمل في كل مترل ببلادهم من صين الصين في خان بالق، وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إلى المسافر من الأزواد وخصوصا الدجاج والأوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم.

ولنعد إلى ذكر سفرنا، فنقول: لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها، وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها

ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة إليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها. رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة، وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم، وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا، وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة. وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير الذي توجه إلى الهند رسولا بالهدية ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك فسلم عليّ وعرّف صاحب الديوان بي؛ فأنزلني في منزل حسن، وجاء إلي قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، وهو من الصلحاء، وجاء إلي كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذي استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ للقرآن مكثر للتلاوة، وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم، وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد وإليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي إسحاق الكازروني، ولما عرف صاحب الديوان أخباري كتب إلى القان(=الخان)وهو ملكهم الأعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني إلى بلاد صين الصين وهم يسمونها صين كلان لأشاهد تلك البلاد، وهي في عمالته بخلال ما يعود جواب القان فأجاب إلى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني.

وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المراكب والركاب في المقدم والمؤخر ويظلون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به، وهو أرق من القنب. وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما، وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج إليه، ونصلي الظهر ثم نترل بالعشي إلى أخرى، وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان، وهي مدينة صين الصين، وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضا، وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة، وكذلك فيما بين الأبواب كلها وفي داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الأغذية، وفيها الأطباء والخدام. وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا مال لهم، وعمّر هذه الكنيسة بعض ملوكهم، وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفا عليها، وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة، وهم يعبدونها. وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين

كلها راجعة إليه وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الأموال الطائلة، وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي، وكل يوم يصنعون دعوة جديدة، ويأتون إليها بالعشارين الحسان والمغنين، وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لي، يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم، ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها. و لم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور ولا من رأى من رآه.

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه؛ فتوجهت إلى الغار، فرأيته على بابه، وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له، فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها، وقال للترجمان: هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر، ثم قال لي: لقد رأيت عجبا، أتذكر قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟فقلت: نعم فقال: أنا هو، فقبلت يده، وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا، وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به، فتجهمنا ودخلنا عليه فلم نجده، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد، فقال: هذه ضيافتكم، فانصرفوا فقلنا له: ننتظر الرجل، فقال: لو أقمتم عشر سنين لم تروه فإن عادته إذا أطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك، فعجبت من ذلك وانصرفت، فاعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته، فقالوا: كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان، والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو. واخبروني أنه غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم، ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطي لكل أحد على قدره. وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر، وأنه يحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول لوكنت معه لنصرته، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب بأحسن الذكر، ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية.وحدثوني عنه بأمور كثيرة وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه الغار فأخذ بيدي فخيل لي أني في قصر عظيم وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هنالك وتخيلت أني أخذت تفاحة لآكلها، فإذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني. وأصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم أعد إليه، وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكن لم يره أحد يصلي، وأما الصيام فهو صائم أبدا. وقال لي القاضي: ذكرت له الصلاة في بعض الأيام، فقال لي: أتدري أنت ما أصنع إن صلاتي غير صلاتك؟وأخباره جميعها غريبة.

وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون وبعد وصولي إليها بأيام جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر والكرامة إن شئت في النهر وإلا ففي البر فاخترت السفر في النهر. فجهزوا لي مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء وبعث الأمير معنا أصحابه ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار

المسلمون أزوادا كثيرة. وسرنا في الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو، مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق، وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب، واتونا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدنيا لم يركب معنا غير القاضي والشيخ، وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة اسوار يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها يوسمون البصوانان، ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلد، ويسكن داخل السور الثالث المسلمون، وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون، وهوأعظم المدن الأربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة، ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه. وبينا أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتي فعجبت من اسمه ودخل إلي فلما حصلت المؤانسة بعد التحية سنح لي أن أعرفه فأطلت النظر إليه، فقال: أراك تنظر إلي نظر من يعرفني، فقلت له: من أي البلاد أنت؟ فقال: من سبته، فقلت له: وأنا من طنجة، فجدد السلام علي وبكى حتى بكيت لبكائه، قلت له: هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي: نعم دخلت حضرة دهلي، فلما قال لي ذلك تذكرت، وقلت له: أأنت البشري؟قال: نعم. وكان وصل إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ، وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبى وكان قصده في بلاد الصين فعظم شأنه بها، واكتسب الأموال الطائلة. أخبرني أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري وأهدى إلي منهم.

وكانت إقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوما وسافرت منها. وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها، فمتى خرجت عن مترلي رايت المناكير الكثيرة؛ فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المترل فلا أخرج إلا للضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي. ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة ايام ثم ودعت الفقيه وانصرفت. فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها إلى مدينة الخنسا، واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي؟. وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها ويترل وهي على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره وهي منقسمة إلى ست مدن سنذكرها، وعند وصولنا إليها خرج بالينا قاضيها فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والأبواق وخرج أميرها في موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ومحدق بالجميع

سور واحد. فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواه انهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم.

وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين، وبتنا عنده الليلة الثانية. وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري. وكان أحد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه لمدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقاف عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يحتلفون في أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للترهة في أقطار المدينة. وركبوا معي يوما فدخلنا إلى المدينة الرابعة، وهي دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير قرطي، ولما دخلنا من بابها ذهب عني أصحابي ولقيني الوزير وذهب بي إلى دار الأمير الكبير قرطي فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته، وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للترهة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الإمارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب.

أخبرني الأمير قرطي أن عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين وهم أجمعون عبيد القان، وفي أرجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الأمير مائة مائة فإن نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين أما أن يقيم في الخدمة غير مقيد وأما أن يسير حيث شاء من بلاد القان، ولا يخرج عنها وإذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الأحكام. والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد، والأمير الكبير قرطي هو أمير أمراء الصين أضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوى، وحضرها كبار المدينة، وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده، وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام، وبعث ولده معنا إلى الخليج. فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الأمير في أخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه (= هو لسعدي الشيرازي) وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو: تادل .بمهرت داده أم در بحر



فكر افتاده أم جون درنماز استاده كوبي بمحرابم دري). واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا بتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون، وعدنا بالعشي إلى دار الأمير فبتنا بها، وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب.

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد، فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثا فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم، فقبل الأرض بين يدي الأمير، وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء، ثم أنه أخذ أعضاء الصبي فألصق بعضها ببعض، وركضه برجله، فقام سويا، فعجبت منه، وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك، فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت، وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وإنما شعوذة. وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية، ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقا يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعة أبدع إلصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الأطباق عشرة واحدا في جوف آخر لرقتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطى جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا، ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول، وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها، ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها. وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان إلى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلامطة والنجارون ويدعون دودكاران والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة، وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير، وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهز لنا الأمير قرطي مركبا بما يحتاج إليه من زان وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا إلى بلاد الخطا (= شمال الصين) وهي أحسن بلاد الدنيا عمرة ولايكون في جميعها موضع غير معمور فإنه إن بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما، وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان خاطرا غير مقيم لأنها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر، ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة. وكنا كل ليلة نترل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق، وتسمى أيضا، خانقو، وهي حضرة القان، والقان (= الخان) هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد



الصين والخطا، ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا فأذنوا لنا في دخول مرساها، فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره، ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغيرجي وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه فأخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبى أن يسير إليه، وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان.

والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك: ملك الأقطار كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور، بأتابك واسمه باشاي وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أكبر من مملكته وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه، وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب: فالباب الأول منها يجلس به الكتوال، وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرد دارية، وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل، وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل، والباب الثاني يجلس عليه الأصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة، والباب الثالث يجلس عليه التردارية وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة، والباب الرابع يجلس عليه التغدارية وهم أصحاب السيوف والتروسة، والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وله سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كتاب الأشغال وتقابل هذه الساقئف سقائف أربع أحداها تسمى ديوان الإشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج، وأميرها من كبار الأمراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من اقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الأخباريين، والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم، والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف إحداهما سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين لكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائبا عنها إذ ذاك، وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس، وأميرهم يسمى أمير طومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفا زائدا إلى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة ألف، ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعة لأنه كان قد غير أحكام اليساق، وهي الأحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام فمضوا إلى ابن عمه القائم وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه، وتكون مدينة الخنسا إقطاعا له فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار واستعمل اللعب



والطرب مدة شهر، ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الأرض وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم أواني الشراب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد أن دخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء والمسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه، وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وادخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب، وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصة سلطانهم أنه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم: كيف تفعلون ذلك، وليس على دينكم ولا من ولدكم؟ثم فديته منهم بمال عريض، ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار أن تكون حضرته مدينة قراقرم لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان، وما وراء النهر ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن.

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار علي الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه و كتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنسا ثم إلى قنجفو ثم إلى الزيتون فلما وصلتهما وجدت الجنوك على السفر إلى الهند، وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي. وصادفتنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر واقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك واقمنا اثنين وأربعين يوما لانعرف في أي البحار نحن. ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا إلى صوبه، فعجب البحرية وقالوا: لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا إلى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي، وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه

وبين البحر فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا، فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا أهلكنا وبيننا وبينه آنذاك أقل من عشرة أميال، ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته.

وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة ونزلنا إلى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له وجاء بسبي كثير؛ فبعث لي جاريتين وغلامين وأنزلني على العادة وحضرت إعراس ولده مع بنت أخيه، وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشهور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير، وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان، وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن إلا في الأعراس خاصة، وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون، ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة (= محفة العروس) والتاج على رأس العروس المذكور، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة، وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على النسا عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها والخواتين يروحون عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فأخذه الزوج بيده وجعل منه في فمها ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمه ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها في فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هي كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جميع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب. وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت في بعض الجنوك وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل. وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما إلى كولم، فنزلت بها في جوار القزويني قاضي المسلمين، وذلك في رمضان وحضرت بها صلاة العيد في مسجدها الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون. ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط، وأقمنا بها أياما وأردت العودة إلى دهلي ثم خفت من ذلك. فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين (وسبعمئة = أبريل1347م).

كتاب

إفريقيا السوداء

مدخل
إفريقيا مزيج أسود، وموروث إغريقي

1. الجنس الأسود: صور موروثة وملتبسة

يقصد الجغرافيون المسلمون بالسودان أرض الجنس الأسود في إفريقيا (= يكتبها القدماء إفريقية) لكنّهم يفرّقون في الدرجة بين الزنوج، والسودانيين، والأحباش، والنوبيّين، وهو تفريق جغرافي أكثر ما هو تفريق ثقافي وعرقي. فيتحدثون عنهم، ويحدّدون مواقع استيطانهم في الأرض الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء بامتداد شبه مستقيم يبدأ من الحبشة شرقا، وينتهي بضفاف المحيط الأطلسي غربا، وكانت الأقوام المتساكنة حول خط الاستواء هي مثار عنايتهم. أقول بأنّ ذلك التفريق يستند إلى المناطق الموزعين عليها أكثر مما يستند إلى الخصائص المميّزة لكل جماعة بشرية من الجماعات التي ذكرناها، وليس ذلك بمستغرب؛ فكثيرا ما نظر إلى الآخر خارج دار الإسلام بأنه كتلة موحّدة متماثلة تفتقر إلى التمايز الضروري والطبيعي الخاص بالمجموعات البشرية. وكلّما عمّ جهل بالآخر غابت التفاصيل الدقيقة، وتحوّل الحديث إلى سلسلة من الأحكام المستندة إلى نسيج من المرويَّات العجائبية. ويقصد الجغرافيون بالزنوج تلك الأقوام التي تقع مناطقها على الأجزاء الشرقية من إفريقيا حول خط الاستواء وما خلفه، وهي المناطق التي يصطلح عليها بالزنج أو سُفالة، وأحيانا سفالة الزنج، وفيها يقع بحر الزنج الذي يفصل بين البر الإفريقي وجزر القُمر، ويعتقدون أن إفريقيا تنتهي هناك، وإن كان بعضهم يُلمح إلى أقوام مجهولة تتردّد أخبارها في أوساط بلاد السودان الواقعة إلى الشمال، وهي أخبار مشوبة بالمبالغات، والأحكام السريعة التي غالبا ما يكون مبعثها الجهل كما أشرنا. أما بلاد السودان، فتمتد من غرب النيل إلى المحيط الأطلسي جوار خط الاستواء، وشمال خليج غينيا، وهي التي تكوّن حاليا: النيجر ونيجيريا ومالي وغانا والسنغال ومالي وسيراليون وساحل العاج والكاميرون، كتلة بشرية ضخمة، تتكون من أمم كثيرة، وهي معروفة أكثر من غيرها للجغرافيين، فيما يشار إلى المناطق شرق النيل بالحبشة، وتحديدا ذلك النتوء الضخم من اليابسة المندفع شرقا، وهو القرن الإفريقي.

ويجري الحديث عن النوبة الواقعة بين الحبشة وبلاد السودان وبلاد الزنج، وباستثناء مناطق شمال الصحراء فكثيرا ما يفقد التمايز حدوده الواضحة والنهائية، فتتداخل أحيانا المناطق بسبب غياب التخوم. فالتماثل الجغرافي والعرقي والثقافي يتهدد الخصوصيات، ويعيد تشكيلها بين وقت وآخر، ولم تكن إفريقيا بمنأى عن ذلك. المرويّات التكرارية عن السودان تظهرهم جنسا يستوطن ممالك كثيرة، وتتوفّر معلومات جيدة عن الممالك الواقعة في شرق إفريقيا وغربيها، ولكن من الصعب الوثوق بالمعلومات التي تخص الأقوام الواقعة ضمن بلاد الزنج، على الرغم من ورود إشارات حول الشواطئ الشرقية المقابلة لجزر القمر، مثل زنجبار، وسفالة، وجبال القمر حيث التصور الشائع بوجود منابع النيل، كما يشار إلى ذلك عادة عند معظم

الجغرافيين. ويؤكد أندريه ميكيل بأن إفريقيا بقيت سرّا خفيا طوال العصور القديمة الكلاسيكية، إلا أنه كان سرا جذّابا استمال في الحد الأدنى الذين أرادوا الاتجار بالذهب، أو العاج، أو الرقيق، أو الحيوانات المتوحشة. وعندما ترسّخت دار الإسلام ورثت شكوك التقليد القديم المدوّن والمروي عن إفريقيا، فالمعلومات المتوارثة عنها زمنا طويلا، أرضا وبشرا، صاغها في الأصل بطليموس الذي رسم صورة ممتزجة بالخيال عن تلك البلاد، ثم جالينوس الذي وصف أثنوغرافية العرق الأسود على نحو يفتقر إلى الأصالة[1].

والحق فمعظم تصورات الجغرافيين المسلمين حول إفريقيا تدور في فلك بطليموس وجالينوس وأبقراط. فالأصول تمارس نفوذا بالغا في قوتها إذا لم يقع تصحيح لركائزها، ونقد لمسلماتها، وفيما يخص إفريقيا السوداء فإن صورتها مختلفة في أذهان المسلمين عن غيرها، ذلك أن المسلمين هم الذين شكّلوا الصور الأولى للشمال والشرق، سواء أكانت صوراً للأرض أم البشر، أما في حالة إفريقيا السوداء فقد ورثوا معظم عناصر تلك الصورة، وهي صورة بالغة التشويه، حجزت الجنس الأسود وراء حركة التاريخ، وظلت توجّه مواقف معظم المفكرين إلى وقت قريب، نجد ذلك بوضوح في الفكر الغربي الحديث الذي نظر إلى الجنس الأسود نظرة مشوبة باحتقار ودونية، ومن ذلك هيغل الذي قدم تصوراً انتقاصياً تتضح فيه بصمات جالينوس فيما يخص حديثه عن الإفريقيين السود، الذين وجدهم يرقدون وراء التاريخ، ويلفّ بلادهم حجاب الليل الأسود[2].

يعيد هيغل ونخبة من المفكرين في العصر الحديث بعث الصورة التقليدية القديمة التي تركّبت في ضباب الجهل، دون أية محاولة للتصحيح كجزء من نظرة الغرب إلى الآخر، وقد قدمنا من قبل نقدا موسعا لهذه الصورة التي تعبر عن رغبة أكثر مما تعبّر عن واقع مدعم بمعطيات حقيقية[3] ولم ينج معظم المؤرخين والرحالة المسلمين من الطوق المحكم الذي قُيّدتْ به إفريقيا السوداء من قبل. على أن الموجّه اليوناني القديم، والكامن في الأدبيات الجغرافية والفلسفية، والذي عرف وشاع في الثقافة العربية - الإسلامية في وقت مبكر، وبخاصة إثر الترجمات المتكررة لجهود بطليموس في هذا المجال، لم يكن ليكتسب هذه الأهمية التأصيلية في تثبيت الصورة الزنجية في المرويَّات والمدونات الجغرافية الإسلامية، وعموم الأدبيات الأخرى، لو لم يجد قبولا بدئيا مرتبطا بالآخر الذي، كما أشرنا كثيرا من قبل أكثر من مرة، قد ركّبت له صورة دونية لابتعاده عن الأفق العام لنسق القيم الإسلامية، ذلك الأفق الذي يضفي على الإنسان قيمته بوصفه منتمياً إلى دار الحق والصواب والإيمان، إلى ذلك فصورة الأسود كانت مثار تشويه، أحيانا بسبب وجوده المهمّش في دار الإسلام، وخضوعه لمقايضة دائمة حالت دون معرفة بعده الإنساني الطبيعي. إن التمايز القائم على المفاضلة ظهر في أفضل أشكاله في التصور المشوش للسودان، ولم يجر تعديل لذلك، فدعّم التصور اليوناني برغبة مبعثها الجهل والاختلاف، الاختلاف الذي فهم على أنه تناقض لا يحتمل، لا يقتصر على اللون والسلوك والشكل، إنما تعدّاه إلى غياب المنظومة القيمية.

2. البحث عن رحّالة مجهول.

تحدث ابن سعيد المغربي عن (المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب) وقصد بذلك بلاد الزنج. وفي حديثه حلّ الحكم محلّ الوصف، واستبدال حكم القيمة بالوصف أمر ينتهي إما بالانتقاص أو الاحتفاء، فتلك البلاد، بالنسبة له، إنما هي بلاد "العراة المهملين كالبهائم"[(4)]. وقد ورث ذلك عن غيره، لكنه فيما يخص المشاهدات العيانية ينقل عنه ابن فاطمة الذي يعتبر مصدره الرئيس. ولا تتوفر عن ابن فاطمة معلومات محققّة، فمروياته تشكل العمود الفقري للمادة التي يقدمها ابن سعيد في كتابه "الجغرافيا". ويمكن تتبّع مسار رحلاته في إفريقيا من فصول ذلك الكتاب، والغالب أنه تجوّل في وسط إفريقيا وغربيها، بما في ذلك المناطق الساحلية المأهولة، ومعلوماته ثمينة، ويوثّق مشاهداته، ولكنه حينما يكون راويا من الدرجة الثانية – أي يروي عن مصدر آخر– فإنه ينسب مروياته إلى مصادر فيها شئ من العمومية، بما يحول دون التحقق من مصداقيتها. ولكن المشكلة الأساسية أن مروياته تدمج بأحكام ابن سعيد، وليس لدينا القدرة على بيان الحدود الفاصلة بينهما، فعيوب التأليف القديم، ومنها دمج النصوص المتحدّرة من مصادر مختلفة في سياق جديد تحول أحيانا دون معرفة الوثائق الأصلية من السياقات التي يصطنعها الجغرافيون، وهو أمر لا تتفرّد به المصادر الخاصة بإفريقيا إنما هو ظاهرة عامة. فيما يتعلّق بابن سعيد فقد مرّ القول بأنه يأخذ من مصادر يفتقر بعضها إلى الدقة فيما له صلة ببلاد الشمال، إلى ذلك فالمصادر الأولى غالبا ما ينظر إليها بكثير من التبجيل والأهمية، وتصبح مع مرور الزمن ذخيرة للتصورات المتأخّرة دون النظر إلى قيمتها العلمية، وهو أمر شائع ومعروف في الأدب الجغرافي، وفي غيره من المجالات، و لم ينهض نقد جذري للمصادر القديمة إلا في حدود ضئيلة لم تنجح في تغيير التصورات، كما رأينا ذلك في نقد أبي الفداء للموروث الجغرافي – في مدخل الكتاب– لكنه نقد لا يتخطّى كونه مجموعة ملاحظات سرعان ما يقع إهمالها، ولا تنجح في تأسيس تصورات مغايرة.

إذا اخترنا ابن سعيد مثالا للحديث عن إفريقيا، فإنّ المصدر الأول له شبه مجهول، ويصعب التحقق الآن من وجود مدونة وصفية تنسب له، وعلى أية حال فليس هذا هو المهم، لكن الأمر المهم هو أن الموروث البطليموسي، والإغريقي بصورة عامة، حاضر بقوة لا تقل أهمية عن حضور ابن فاطمة، والحق فالتصورات اليونانية لعبت دورا خطيرا في حبس الإفريقيين السود ضمن إطار خاص وضيق يرشح بالانتقاص، وهدر القيمة البشرية، والتلاعب بالأوصاف بما يظهرهم أمام النظر والمخيلة كائنات مازال اتصالها بالرتبة الحيوانية أكثر قوة من الاتصال بالرتبة الإنسانية. و لم ينج ابن سعيد من ذلك. و لم ينجح الرحّالة في زحزحة تلك الصورة، إن لم يكن معظمهم قد ارتحل في ضوئها. يورد ابن سعيد على لسان ابن فاطمة وصفا للمناطق الواقعة على مشارف خط الاستواء من الجانبين بالصورة الآتية: و لم أر مَنْ رأى جانبها، وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي. ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس، ولا دين يذكّرهم بسكان الجانب الشمالي[(5)]... من الواضح أنّ ابن فاطمة يتحدث عن بلاد تقع في الوسط الغربي لإفريقيا، لكن صدى أخبار الزنج تصل إليها باعتبارهم عراة وثنيين كالبهائم، ومن

أكلة لحوم البشر، وهي صورة شديدة الشبه بالصورة التي يقدمها هيغل عنهم باعتبار أن أكل لحوم البشر "يتفق تماما مع المبادئ العامة للجنس الإفريقي. فاللحم البشري عند الزنجي الشهواني ليس الاّ موضوعا حسيا، إنه مجرد لحم فحسب" وسبب ذلك في رأيه، أن "المشاعر الأخلاقية عند الزنوج ضعيفة للغاية أو هي معدومة إن شئنا الدقة"[(6)].

تصلح مرويات ابن فاطمة ومشاهداته، فيما يخص الإفريقيين السود - وهي تعرض من خلال خطاب ابن سعيد- أن تكون مثالا لنوع التحيّز الشائع في المرويَّات والمدونات الجغرافية والتاريخية، فخطابه يتضمن أدلة على ذلك التحيّز، فهو من جهة يؤكد أن خط الاستواء يفصل بين كتلتين من الكائنات: كتلة أولى إلى الشمال منه، زارها ووقف على أحوالها، وهي ملحقة بدار الإسلام، وربما ينطبق عليها مصطلح "دار الصلح" و لم يهتم بشيء فيها سوى الحيوانات، وهم الكانميون وماجاورهم، وكتلة أخرى تقع جنوبه، لم يزرها، وينطبق عليها مصطلح "دار الحرب" إنما اكتفي بمرويات الكانميين عنها بوصفها مزيجا هلاميا من الكفرة الذين يأكلون الناس. وكونهم كفرة من أكلة لحوم البشر، فهذا يعني أنهم كالوحوش الذين لم يرتقوا بعد إلى مستوى الجنس البشري، الذي من أشد ما يتميز به العزوف عن لحم أخيه في النوع إقرارا بكرامته البشرية، إلى ذلك فهم بدونيتهم تلك أقل من أن يستودعهم الله كلمته، إنهم يتخبطون في خضم فوضى النوع والجهل الوثني، وهم أبعد ما يكونون عن الانتماء إلى جنس وعقيدة. ومن جهة ثانية، وهذا ما يضمره ابن فاطمة - عبر خطاب ابن سعيد - فإن هؤلاء هم الذين يستأثرون بحكم واضح ومعلن من طرفه، فالدونية الجنسية والدينية ينبغي دائما أن تُشهر، والا يجري أي نوع من التواطؤ على اخفائها وطمرها، ولهذا يأتي تأكيد ابن فاطمة قبل أي تأكيد آخر: كفرة يأكلون الناس. ولكن أين صورة الأقوام في الجانب الشمالي؟ أليس هم الذين يتصل بهم ابن سعيد برابطة خاصة تمنحهم المكانة المميزة مقارنة بأقرانهم في الجنوب؟. إن لاوعيه يقصيهم لمشاركتهم أولئك في كل شيء سوى الدين، الذي بالكاد عرف طريقه إلى بعضهم، ولهذا فهم هُمل وغُفل بالنسبة له، فبهم يستبدل حيوانتهم، فيتحدث عن: الطواويس، والببغاء، والدجاج الرقط، والغنم البلق التي على قدر الحمير الصغار.

3. إفريقيا السوداء: الصورة التكرارية.

هذه الأحكام المتوارثة والمتشكّلة تصلّبت وتماسكت فأجرت تنميطا ثابتا لصورة الإفريقيين ليس في أعين المسلمين لوحدهم، إنما في أعين العالم، وهي مازالت فاعلة، وتحتاج إلى نقد معمّق يعيد الاعتبار للقيمة الانسانية الكامنة في كل نفس بشرية. والواقع فإن تباين المنظومات الأخلاقية والعقائدية والثقافية بين السود والأمم الأخرى تدخّل مباشرة في صوغ الصورة المشوّهة للإفريقيين السود، ومادامت الصور تنبثق عن تلك المنظومات، فلايمكن تغييرها الا بنقد المنظومات نفسها. و لم يكن ابن فاطمة ولا ابن سعيد بمنجى من ذلك. يستبد الجهل بالأحكام كلما شحّت المعلومات الحقيقية، وقد لاحظنا ذلك في تشكيل صورة أهل الشمال ثم صورة أهل الشرق في أعين المسلمين من قبل، وهو أمر ينطبق على إفريقيا أكثر من غيرها؛ فالمناطق النائية والمنقطعة تتركّب

صورها استنادا إلى مرويات هي مزيج من المبالغات والرغبات والمواقف الثقافية العامة الموجهة لرأي العامة، وكنا بينّا كيف أن صورة الروم تأتي في مقدمة صورة أهل الشمال، ثم الإفرنج، والأقوام الأخرى وصولا إلى العماء شبه التام فيما يخص بلاد يأجوج ومأجوج، تلك البلاد التي أنتجتها مزيج متفاعل من التخيل والرغبة، وإسقاط تصورات على أقوام مجهولين. وبينّا أيضا كيف كانت صورة الهنود والصينيين أكثر وضوحا من غيرها في أعين المسلمين، بسبب المعرفة النسبية بأحوالهم العامة، لكنّ العتمة تظهر حول الأقوام الشرقية في الجزر النائية والمتناثرة في أقاصي الشرق، والأمر نفسه يظهر أمامنا فيما يخص الإفريقيين السود.

وفي جميع الحالات ليس المعرفة وحدها هي التي تضفي تقديرا على الآخر، ولا الجهل بذاته هو الذي يحبسه في نمط دوني، إنما الرغبة الواعية وغير الواعية في تحديد مكانة الآخر دون المكانة التي تكون عليه الذات، هذه الرغبة تمثل ضربا من القوة المتنامية داخل سياق ثقافي مشبع بالتمركز حول الذات، وهي ليست رغبة فردية، إنما تخيّل جمعي يوجّه مشاعر الأفراد وأفكارهم، فيشطر تصوراتهم شطرين، ففيما يخص الذات يقع احتفاء بكل أفعالها، وتجاوز لكل ما يجرح نسقها الثقافي العام، فتتركّز مع الزمن للذات صورة نقية، استعلائية، شفافة. أما الآخر بفعل تلك القوة فيصبح مرمى للرذائل، فصورته لا تغادر في أي حال من الأحوال مستوى الدونية. ومادامت التصورات تتنامى وسط مزيج هائل من المؤثرات الدينية واللغوية والعرقية والسياسية والأخلاقية، فليس من السهل أن تصبح جزءا من مكونات الشخصية العامة وأن يجري ضبط أخطائها، وكشف تحيّزاتها، ووقف سيل المصادرات المضمرة فيها تجاه الآخر، فذلك أعقد من أن يضبط، ويوقف، ويجري التخلص منه دفعة واحدة، كونه أصبح لصيقا بالتصور والشعور والثقافة.

ويحسن متابعة صورة الإفريقيين السود وتدرجها جنوب الصحراء الكبرى، ثم وسط إفريقيا وشرقها، بعد أن أوضحنا من خلال ابن سعيد نوع الحكم الصادر عن موروث مستقر جرى تلقيحه بتصور منبثق من اختلاف خاص بالقيم واللون والشكل. يذهب الدمشقي إلى أن الزنوج جنوب خط الاستواء، في غالبيتهم، متوحشون لا يدينون بدين، ولا يكادون يفقهون قولا، وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس[7]. وهو يجاري ابن فاطمة، فالعناصر المكوّنه للصورة مشتركة: غياب العقيدة، والتوحش، والجهل، والحيوانية. وهذه العناصر التكرارية متلازمة لا انفكاك فيما بينها؛ فالوحشية توضع في تعارض مع الدين، فليس لنفس متوحشة أي استعداد لإدراك هذه القيمة الرفيعة، ومن يكن وحشيا فهو بالضرورة في منأى عن أن تمس شغاف قلبه تلك القيمة الإلهية السامية، وسيفضي ذلك إلى السقوط في هوّة المجهولية الأبدية، حيث يظل الزنجي يحبو في عالم الحيوان المتوحش دون أن يستطيع اكتشاف الحقيقة المبهرة التي شعت في دار الإسلام. ولو تابعنا الفكرة المستخلصة من تلك الصورة، لوجدناها، في نهاية المطاف، تقف في وجه الرسالة التي يحملها الدين. أليس الدين، كما تشكّل شريعةً وقيماً في دار الإسلام، يهدف على تخليص الإنسان من دونيته وبدائيته وفطريته الأولى ليدرجه ضمن الأفق المشترك للجماعة الإسلامية؟. أليس هذا هو المطلب الذي يتقدم به دائما الفقهاء ورجال الدين؟. فلماذا اعتقل الأسود في نطاق الدونية التي تجعل منه إلى الأبد متوحشا جاهلا؟. ويستعير ابن

خلدون في الحديث عن الشعوب الاستوائية العناصر ذاتها، فيقرر بأن ساكني الجزء الأول من الإقليم الأول، كفار، يكتوون في وجوههم وأصداغهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران، يعتبر الاناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب، والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضا، وليسوا في عداد البشر[8]. أحكام ابن خلدون التي تتمّ في أفق أشمل تحدّدها فكرته عن العمران البشري، وهي فكرة أقامها في الأصل على نقد الموروث الذي تحدّر إليه من الأسلاف، تبدو غير خاضعة لمحدّدات فكرته عن المسار الحضاري للإنسان، وخارجة عن ذلك النقد، وهي تصدر عن خليط مركّب من آراء الإغريق ومرويات تجّار الرقيق، والرغبات التي وقفنا عليها قبل قليل، وتنأى عن أن تكون متسقة جوهر الفكرة، بل هي تضرب الرؤية النقدية لابن خلدون في الصميم. فهو لا يتحدث عن أقوام مجهولة في عصره خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إنما يتحدث عن سكان الإقليم الأول، وفي الوقت الذي يشير إلى وجود العمران لديهم لأنه غير موجود عند من يليهم صوب الجنوب كما يرى، فإنه ينكر ذلك عليهم، فهم حيوانات ضالة تسكن الصحارى والكهوف، وتعتاش على الأعشاب، ولاتعرف الزراعة، ويأكلون بعضهم، ومن ثمّ فهم لم يحوزوا بعد الشروط الأولى التي تدرجهم في عداد البشر.

ابن خلدون الذي يصدر عن تصور اجتماعي يفسر به التاريخ البشري لا يستطيع مقاومة ضغط التركة الثقيلة التي ورثها عن الجغرافيين والمؤرخين، وعن التصورات العامة التي صاغت منظوره للآخر، فضلا عن استبداد المؤثّر اليوناني به وبغيره. ولو دققنا النظر في وصف ابن خلدون لوجدناه أشد تعقيدا من وصف الدمشقي، فهو يكوّن متوالية يتضاعف فيها التبخيس كلما انتقلنا من عنصر من عناصر الوصف إلى آخر، تكون البداية التأسيسية في تحديد المكان الذي هو الإقليم الأول. هذا التحديد بحد ذاته يفرض تداعيا للموروث الوصفي الخاص بأهل هذا الإقليم، موروث يرجع إلى بطليموس، وهو تصوّر دعّم طوال القرون التي سبقت ابن خلدون، إلى درجة تحول فيها إلى كتلة صماء لايمكن زحزحتها، كتلة تبلورت فروضها عبر مشاهدات مختزلة، وأفكار مسبقة، ومرويات من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا العنصر يرسم أفق توقع لما سيأتي، والذي سيأتي هو حكم عقائدي بالغ الصعوبة: إنهم كفار لم يهتدوا إلى طريق الحق، وهذا يضعهم في درجة الحيوانية، والحيوان هو الذي لا سكن محدد له، ولا غذاء سوى الأعشاب، وهو الذي لم يرتق بعد ليكتشف أهمية الحبوب، فهذه الأقوام لا تعرف الزراعة التي هي مثال الاستقرار والاستيطان. ومادام الأمر على هذه الدرجة من البدائية، فإن الحس الإنساني لم يتأهل بعد في هذه النفوس، ومازال دون درجة الصوغ التي تدرجه ضمن النوع البشري، ويظهر بعد ذلك موضوع التوقع بكاملة: إنهم يفترسون بعضهم، فهم ليسوا في عداد البشر.

لقد أكدنا قبل قليل ثبات الصورة، وعدم تمكّن الزمن من خرمها، وتخريبها، والآن ينبغي وضع ابن خلدون بازاء هيغل، وكلاهما يرى الظواهر البشرية في سياق فلسفة التاريخ العام، سيظهر لنا عمق سوء الفهم المُدعم بجهل لايمكن السكوت عليه؛ فهيغل المتأخر بحوالي خمسة قرون يؤكد بأن أكل لحوم البشر يتفق مع مبادئ الجنس الأسود، فاللحم البشري، بالنسبة له، مجرّد لحم تغيب عنه صفة الإنسانية التي خلعتها عليه قيمة

النوع البشري، لأن المشاعر الأخلاقية عند الزنجي معدومة، وهو غير مدرك نوع الخطيئة التي يقترفها!. وينبغي التأكيد أن ابن خلدون وهيغل هما مجرد لحظتين في مسار تاريخ حافل بالأحكام المناظرة، بدأ ذلك بطليموس واستمرّ إلى الآن، وهي أحكام تصلّبت أركانها في ظل ثقافات تمركزت على ذاتها، ونبذت حضور الآخر، ومسخت قيمته الإنسانية، وبالغت في إسقاط الصفات الدونية عليه، لكي تضفي على نفسها نقاء مغايرا، وشفافية ملفقة في كثير من عناصرها، فليس ثمة عرق، ولا نسق ثقافي، مطلق الشفافية. وصم الآخر بالسوء والوحشية والدونية له وظيفة رمزية بالغة الأهمية: تنقية الأنا، وتطهيرها، وصونها، والحيلولة دون أن تكون موضوعا للبحث والنقد. هناك صراع ضمني في أنواع التمثيل بين الثقافات، يؤدي وظائف متعددة، تمثيل يقوم بمهمة صيانة القيم الخاصة بالذات، والذود عنها، وإبعادها عن حكم القيمة، وتمثيل يقوم بتخريب قيم الآخر استنادا إلى تضخيم مقصود لبعض نواقصه وسلبياته، وهذه الاستراتيجية القائمة على آلية من الاستحواذات والاستبعادات هي أخطر وجوه التمثيل الذي تقوم به مرويات كبرى تعدّ المغذي الخصب للمخيال الجماعي عند الأمم.

هذا بالنسبة للجزء الأول من الإقليم الأول، أما الجزء الثاني من ذلك الإقليم، فيتكفّل الإدريسي بوصفه: فيه أمم كثيرة، سودان عراة، لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق، وهم أكثر الناس نسلا، ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها، ويأكلون الحيتان المصيدة، ولحوم الإبل المقدّدة(9). يستعيد الإدريسي الأوصاف الشائعة عن الإقليم الأول: العري، الإباحية، والإعتماد على الحيوان، وليس ثمة إشارة إلى الجهد البشري. تعوم مرة أخرى صورة الحيوانات بديلا عن حضور البشر. هذه التفاصيل المتناثرة ذات المصادر المختلفة يأتي بعد ذلك من يقوم بجمعها وتعميمها، ويجعل منها حقيقة ثقافية يصعب تكذيبها. وسنجد أن الدمشقي- الذي مرّ بنا قبل قليل- يدمج كل المعطيات فيرسم الصورة الكاملة للحالة الأثنوغرافية في المناطق المحاذية لخط الاستواء شمالا وجنوبا، وفي كل ذلك يظهر ولاء لايخفى لنظرية الكيوف الطبيعية التي صاغت وعي معظم الجغرافيّين قبله بقرون، فيقول عن ذلك المجال الجغرافي: فيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود، سوادهم من قبل الشمس، فإنه لما كان حرّها شديداً، وطلوعها عليهم، ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ولا تزال قريبة منهم أسخنتهم إسخانا محرقا، وصارت شعورهم التي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة أشبه شئ بشعر أدني من النار حتى يشيط، وأدلّ دليل على أنه متشيّط؛ لأنه لا ينمو ولا يطول. جلودهم زعرة ناعمة؛ لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك. فلذلك كانت عقولهم خسيفة، وأفكارهم قصيرة، وأذهانهم جامدة. ولايوجد منهم الشئ وضده كالأمانة والخيانة والوفاء والغدر. ولم يوجد فيهم النواميس. ولم يُبعث فيهم رسول؛ لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدين. والشرعية إنما هي أمر ونهي، ورغبة ورهبة. فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلم، أُخرج ذلك الأمر منها من القوة إلى الفعل، كما توجد الشجاعة في الأسد، والحيل في الذئب، والخبث في الثعلب، والجزع في الأرنب، والملق في الكلب، والخيل في الفرس، وليس يوجد في هذه الحيوانات أضداد هذه الأفعال.

وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هو لإقامة الأحكام فيهم والسياسات، كما ترى ذلك في الوحوش[10] وهي صورة مستقاة من مصادر سبق لنا الوقوف عليها.

في كل ذلك نجد صياغة كلية بارعة للأوصاف والأحكام، تدعم بأدلة علمية مستعارة من نظرية الكيوف الطبيعية، ومعززة بأدلة تستند إلى ملاحظات مشتقة من طبائع الحيوانات، ومن تاريخ الأديان الأولى. وللبرهنة على هذه الدعوى يستعين الدمشقي بجالينوس الذي يقول:إن في الأسود عشر خصال لا توجد في غيره من البيض: تفلفل الشعر، ودقة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسوء الخُلق، وتشقّق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرب. والخصي متى خصي صلب عظمه، وعظمت رجلاه، وقصرت بشرته، وطالت فخذاه، واعوجّت أصابع كفيه، وأمن من السلع، وفي أي سنٍّ كان من أسنان عمره خُصي انحفظ عليه حال ذلك السن من الأفعال السياسية والحيوانية والطبيعية مع رقة صوته، وتأنيث شمائله، وشدة اغتلامه. وسواء في ذلك الأسود والأبيض. ولكن الأبيض يسوء خلقه أكثر، ويظهر عليه التأنيث بسرعة. ولما كان الإنسان شبيهاً بنخلة مقلوبة جذوعه، وطلعه وحمله في الأسفل إلى جهة الأرض، وذلك أنثياه وذكره الذي هو شبيه برأسه وعنقه وفمه ومنافذ رأسه، كان أصله وعروقه التي يتغذى منها ويمتص بها الهواء والماء في السماء إلى جهة العلو وهو رأسه ويداه ومنافذ رأسه من الفم والأنف والأذنين والعينين، وذلك شبيه النخلة الراسخة في الأرض، وبه تمتص غذاءها، وبها تعيش، ومتى قطع هذا منها عدمت الحياة، وتعطل حملها، وأكلها. وكأنّ الإنسان كذلك إن قطع رأسه الذي في الهواء مات، وإن قطع ذكره الشبيه برأسه عدم النسل، وكثير من الأخلاق الإنسانية والله أعلم[11].

يكشف الدمشقي الكيفية التي تترتّب فيها جملة من الفروض التي يبدو الاتساق فيما بينها قائما، لكنها لا تصمد أمام النقد لأنها مزيج من تصورات موروثة، وأحكام مبنية على أوهام وليست ملاحظات، ومن ذلك فإنها تصدر عن الفكرة الشائعة عن السود، وهذا أمر بنا كثيرا من قبل، لكنها تستند هذه المرّة إلى مبدأ الثبات الدائم والأبدي للطبع، فالجنس الأسود جُبل من سجايا قَبْلية لا يمكن تغيرها، إنها غير مكتسبة، بل هي خاصية ثابتة متوارثة في هذا الجنس. وبعبارة الدمشقي: فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلم، وذلك كما يكون الحيوان مميّزا بطبعه كالشجاعة في الأسد، والحيلة في الذئب، والخبث في الثعلب، والجزع في الأرنب، والملق في الكلب، والخيل في الفرس، وهذا إمعان في الخفض والدونية يستعين ببراهين في غير المجال الذي يصح الاستشهاد به، ويضاف إلى ذلك، نزعة سحرية في التقويم مستمدة من جالينوس. نصفها بالنزعة السحرية لأنها تعيد تكييف جملة من المكوّنات المنظورة لتأكيد نظرة قيمية – أخلاقية، فهي قريبة الشبه بالنزعة العلمية التي ظهرت في الفكر الغربي الحديث، والتي استعانت بوسائل العلم لتأكيد تفوّق الجنس الأبيض خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد ثبت بطلانها بعد أن تركت بصمات عميقة في تصورات الغربيين عن الأمم الأخرى. وهكذا فما يقوم به الدمشقي هو نوع من التلاعب في إعادة ترتيب عناصر متعارضة، تدرج في سياق يبدو منطقيا لأنه يتذرع بنزعة علمية، لكنه يتغيّا هدفا أخلاقيا،

ويبدو لنا أن هذا التصوّر عن الآخر كان مستبدا بنظام التفكير فيما يتصل بالإفريقيين السود، ومثاله الأكثر وضوحا:المسعودي، ابن خلدون، الدمشقي، ابن سعيد المغربي، وغيرهم. والمسعودي الذي تردّد ذكره كثيرا كان قد أورد الخصائص التي أسقطها جالينوس على الجنس الأسود، وهي نفسها التي أوردناها قبل قليل على لسان الدمشقي، لكنه يضيف ما يعتبر مسلّمة غير قابلة للنقاش خاصة بالزنوج: قال جالينوس: وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله. وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان، وغلبة الفرح عليهم، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب[12].

4. فوضى مشاعية.

ولكن ما الصورة التي ترتسم في أذهان الرحّالة والجغرافيين الآخرين عن هذه المجتمعات؟ يصف الحسن الوزان الفوضى الزنجية بطريقة بالغة في قسوتها، فيقول واصفا المناطق الوسطى الغربية من إفريقيا: يسكن هذه البلاد كلها قوم يعيشون كالبهائم، لا ملوك لهم ولا أمراء، ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل عشرة إلى اثني عشر رجلا وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج[13]. هذه الفوضى المشاعية لايمكن تصور خطرها إلا بالمقارنة مع مجتمعات تنتمي إلى نسق مختلف من العلاقات، وتمتثل لمنظومة قيم مغايرة، فالمفاضلة مستترة، وإن كانت فاعلة ضمنا في توجية الاهتمام صوب هدف محدد: دونية الأسود المستغرق في حيوانيته ووثنيته وبدائيته. يُكشف نقص الآخر من خلال تضخيم عيوبه، ووضعها في مستوى يقابل فضائل الأنا، فالفضائل تعبث بالرذائل في المنظومات الأخلاقية المختلفة. هذا معيار للحكم يفتقر إلى النزاهة والعدالة والموضوعية.

والصورة التي قدمها الحسن الوزان عن الجهة الغربية من إفريقيا، لها صورة مناظرة عن الجهة الشرقية، يقول الدمشقي: ومن طوائف السودان الحبوش المقاربة لزغاوة، ويقال إنهم الحبشة العليا، وهم كفار عراة ودينهم المجوسية، يعبدون الأوثان ويسمونها الدكاكير، ومن سنّتهم التي ينقادون إليها ويعتمدون في الحكومة عليها أنهم إذا مات أحد دفنوا معه أقرب الناس إليه، وأشد حبا له، وثيابه، وسلاحه[14]. هذه الصورة في ثباتها يلزمها تعليل يفسرها، يتقدّم ابن خلدون بذلك: قد رأينا من خلق السودان على العموم: الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور. ولما كان

السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسرورا، وأكثر انبساطاً. ويجيء الطيش على أثر هذه[15].

ما الذي يمكن استنباطه من نص ابن خلدون فيما يخص السودان؟ لو أنعمنا النظر مليّا لوجدناه يعرض تشخيصا أخلاقيا بالغ الأهمية للإفريقيين السود، إن موضوعه هو (خلق السودان) وتشخيصه لذلك يترتب في أربعة مظاهر أساسية، فهو يقدم أولا وصفا لذلك الخلق، فلا يرى فيه سوى الخفة والطيش والطرب، وهي أعراض مرضية شديدة الخطورة ينبغي الحذر منها، وهذه الأعراض- ثانياً- تتأدى عنها تجليات خاصة هي بمثابة مظاهر تدل على تلك الأعراض، منها: الحمق في السلوك والتصرف، والانفعال الجسدي الفوضوي الذي يعبر عنه بالحركات العنيفة الراقصة. وثالثا لابد أن يكون هناك سبب لذلك، وهذا السبب حسب ابن خلدون هو انتشار الروح الحيواني في هذا الجنس؛ بسبب الحرارة. وأخيرا يأتي التفسير، فالحرارة تزيد في تمدد الهواء والبخار، فتحدث فراغا في الروح، وهذا يحدث انتشاء سارا يحول دون أي تفكير جدي، فليس للمنتشي ما يعبر عنه، انتشاؤه بحد ذاته متعة تحول بينه والتفكير الجاد في أي شيء، فالمخمور يتيه في متعته فينفلت طبعه الحيواني غير المنضبط بصورة فرح عارم، ولتأكيد هذه التفسير يضرب ابن خلدون مثلا بالمستحمين الذين يغنون لسخونة أرواحهم بسبب الهواء الحار الذي يحررهم من رقابة الروح الإنساني الكثيف والمنقبض، فيتزايد لديهم الروح الحيواني المنفلت فيغنون لذلك.

هذا هو التشخيص الكامل للمرض الخلقي الزنجي الذي يتقدم به ابن خلدون في (المقدمة)، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، فهذه مجرد مقدمة وصفية ليس لها قيمة أن لم تبرّز أمام الأنظار من خلال المقارنة، والمقارنة هي التي تفسر وظيفة الوصف التي تقدّم بها ابن خلدون بكاملها، فإذا قارنا السود حسب وصف ابن خلدون بأهل الإقليم الرابع، وهو النطاق الجغرافي الذي يمر في قلب دار الإسلام، لتبين لنا ما يأتي: إن أهل الإقليم الرابع يتصفون بكل ما يعارض أوصاف السود، فلاخفة ولا طيش ولا طرب، ومن ثم فلا حمق ولا أي انفعال ولا فوضى، وتعليل ذلك شيوع الروح الإنساني فيهم، وهم لكل ذلك مشغولون أبدا في شان الحياة، لأن أرواحهم معتدلة، هادئة، وهم أهل تأمل وتفكير، ولهذا ففيهم الشرائع، ومنهم تستقى القيم الكبرى. وضع الأمر بهذه الصورة، وحسب هذه العناصر التي يتم التلاعب بها لصالح قيمة بشرية على حساب أخرى، سيرسخ تصورا يضخ أحكاما تحقيرية بحق الآخر. وفي النهاية يغلق تفسير ابن خلدون الدائرة على هذا الجنس، ويلتقي بمقدمة جالينوس المهيمنة على تفكير الجميع: ضعف العقل الأسود بسبب فساد الدماغ!.

5. استيهامات: نساء النوبة.

هذه هي ملامح الصورة العامة المتشكلة في أذهان الجغرافيين المسلمين عن الإفريقيين السود، ولكن الخطاب الذي قام بتمثيل هذه الصورة سيقوم بنقضها حينما يكون الموضع هو النساء. ينظر إلى المرأة دائما بوصفها موضوعا للمتعة واللذة، ويختفي كل حديث عن الخلق الذي رأينا كيف جرى التركيز عليه عند ابن خلدون والدمشقي والمسعودي، فالأدريسي المشغول بالتفاصيل الجغرافية الدقيقة وبالمسافات والأطوال والقبائل لن يتخطى هذه القضية المثيرة للاستيهام، يتعلق الأمر بنساء النوبة: فهن ذوات جمال فائق، مختتنات، ولهن أعراق طيبة ليست من أعراق السودان في شيء، فيهن كمال المحاسن، شفاههن رقاق، وأفواههن صغار، ومباسمهن بيض، وشعورهن سبطة، ولا أحسن للجماع منهن، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مائة دينار وأقل من ذلك، ولهذه الخِلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن. وذكر بعض الرواة أنه كان بالأندلس جارية من هؤلاء الجواري المتقدم ذكرهن عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي، فما أبصرت عيناه قط بأكمل منها قدّا، ولا أصبح خدّا، ولا أحسن مبسما، ولا أملح أجفانا، ولا أتم محاسن. وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها بخيلا بمفارقتها، ويذكر أن شراءها عليه مائتان وخمسون ديناراً من الدنانير المرابطية، وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها إذا تكلمت أسحرت سامعها لعذوبة ألفاظها، وحلاوة منطقها؛ لأنها ربيت بمصر، فكانت بذلك تامة الصفات[16].

فجأة تنقلب الصورة، وتصبح النوبيات من جنس آخر، جنس هو مثار لرغبة متحفزة تستثار فلاتدّخر وصفا شهوانيا الا وتورده، تستعيد المرأة الزنجية بصفاتها الجنسية المرغوبة قيمة الرجل الزنجي المهدورة؛ ففي الصراع بين قيم ثقافية ودينية مجردة، ورغبات جسدية استيهامية مكبوتة تكون الغلبة للرغبة، ولكن ليس هذا كل شئ، فتلك المرأة مثار الرغبة إنما هي مجرد جارية، يحرص الأدريسي على إبراز جمالها وإثارتها وأنوثتها بأسلوب لايختلف عن أسلوب تجار الرقيق: مائتان وخمسون ديناراً من الدنانير المرابطية. وليس هذا هو المثال الوحيد، فالبكري يسهم في دعم هذه المعطيات، ولكن الأمر لا يقتصر عليه، ومع ذلك يحسن التمهل قليلا معه، فهو يتحدث بشكل عام لكنه يرمي على غرض خاص. يتحدث عن السود باطلاق لكنه يقصد جنس النساء، والنوبيات على وجه التحديد اللواتي أغرين الأدريسي بوصف يشذّ عن اهتماماته في الجغرافية الطبيعية، والبكري لا يكتفي بالوصف إنما يدعو للتجربة: والزنج أطيب الأمم أفواها لرطوبة أفواههم وكثرة الريق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ له أن يجرب[17]. ثم يوثق مروياته لتكتسب مصداقية خاصة بالنوبيات: وقال مجاهد:ومن النوبة النساء المعروفات بالمقّورات لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهن ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهن بقدر ما يحتاج الوطء. وهن أطيب النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل (في شق) ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم. أخبرني بذلك جماعة من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكة، أنهن رأين ذلك وشاهدنه[18]. وما أن نترك المرأة السوداء الا وتعود الأوصاف

التقليدية، وتستعيد الصورة الموروثة موقعها بسبب المؤثر الثقافي، يظهر في الأفق الأقوام الذين يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم، ويأكلون الفار. وثمة أمة من السودان لا رؤوس لها[19]. وفي أقاصي بلاد الحبشة قوم يمشون على أربع كالدواب، لا تطول أعمارهم[20]. السرد العجائبي يتدخّل هنا لاستكمال الصورة.

6. مدارات مغلقة.

لو غادرنا قليلا عناية المرويَّات الجغرافية والتاريخية بالجانب الخلقي والجسدي، لنقف على الحالة العامة التي كانت مثار اهتمام الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، لوجدناها تنهل من النبع نفسه، فالوصف ينحبس في مدارات مغلقة؛ فالحسن الوزان الذي يعتبر من أهم المصادر العالمية الوسيطة عن إفريقيا، يرتب انطباعاته عن بعض الممالك السوداء في غرب إفريقيا، فيقول عن (زنفري) بانها مسكونة من عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن، وأهل زنفرى طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان[21]، أما بورنو الواقعة في الأراضي النيجيرية فيسير أهلها عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم، لا نصرانية، ولا يهودية، ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات[22]. تنبغي الإشارة إلى أن كل وصف لا يعتمد على مشاهدات مباشرة يكون عرضة للمبالغة، فالمرويَّات تستعيد صورا مختلفة عما هي عليه في الأصل، وكثيرا من الأوصاف إنما استندت إلى مرويات غير موثوق بها. ولقد تعرض هيرودتس من قبل لنقد قاس فيما يخص وصفه للشرق لأن كثيرا من أخباره الوصفية استندت إلى مرويات مضخّمة بعيدة عن الحقيقة إلى درجة اعتبر فيها ملفق أخبار[23]. وقد رأينا كيف أن ابن خلدون يدرج مرويات في مقدمته عن السود حول خط الاستواء، وهاهو الوزان يقوم بالأمر نفسه، ومع أن هذه قد تبدو ملاحظة ثانوية إلا أنها مهمة في سياق رسم صورة الآخر. من الصحيح أن أغلب أصحاب المرويَّات كانوا يصفون ويقوّمون الأمم الأخرى في ضوء المسبقات الثقافية الموجّهة لوعيهم وفكرهم وعقيدتهم، ولكن الوصف المباشر ينبغي عليه – لو أخذنا بالحسبان الحياد والموضوعية النسبية – أن يتخطى العماء الثقافي الذي كشف لنا كيف أن مفكرا كبيرا كابن خلدون يتواطأ معه.

إفريقيا الشرقية التي لا تبتعد كثيرا عن ديار العرب، ولاعن دار الإسلام، وطرف منها يقع ضمن دار الصلح، وهي مرتبطة بتجارة نشطة بين الخليج العربي ومقديشو نزولا إلى سفالة الزنج، لم تنصف في الوصف الخاص بالأعراق والعقائد والثقافات، فالدمشقي يعرض بعض المعلومات حول سكان هذه المناطق، فيقول: ومن طوائف السودان الزنج وهم الزاغوان، والزغو من ولد قفط بن مصر بن حام، وهم صنفان قبلية

وكنجوية، فقبلية اسم للنمل وكنجوية اسم للكلاب ومدينتهم العظمى مقدشوا، يأتونها التجار من سائر الأمصار ولها ساحل يسمى الزنجبار، ولهم ممالك وهم قبائل، وأكثرهم عراة وهم سباع بني آدم، ويقال إن مسافة أرضهم في الطول والعرض سبعمائة فرسخ وهي أودية وجبال وديس ورمال وهي متصلة ببلاد دغوطة وساحل بحر جزيرة القمر المسمى البحر الجامد، وفيه قبة "أرين" التي هي وسط الوسط من خط الاستواء، والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي محدّدون الأسنان يأكلون الناس لشدة توحشهم، وليس للكفار منهم ملة ولا نحلة؛ وإنما لهم رسوم تصنعها لهم ملوكهم، واسم ملكهم الكبير توقليم معنى الاسم ابن الرب، وهذه التسمية لملكهم في سائر الأمصار، والزنج الشماليون منهم من لهم في لسانهم فصاحة وبلاغة حتى أنهم يصنعون الخطب يضمنونها المواعظ المبكية يخطبون بها في المحافل أيام أعيادهم ومشاهدهم[24].

تتصاعد من تضاعيف القدح إشارة ملفتة للنظر، فهذه القبائل الطوطمية التي تتصل أنسابها بالنمل والكلاب، وهؤلاء الزنوج اللذين هم سباع بني آدم، ودونهم الواغلون في تلك الأصقاع، الكفار، أكلة لحوم البشر، الذين لا ملة لهم ولا نحلة، يظهر فجأة ما يتميزون به كبشر، لهم قوانين وأعراف، وملكهم إنما هو ابن الرب، ولهم لغة فصيحة وبليغة يخطبون بها، ولهم أيضا، شأن غيرهم، الأعياد والاحتفالات. وليس من الممكن التوفيق بين الحكم الأول عليهم، والوصف الثاني لهم، فالأول يقرر أنهم دون مرتبة الجماعة البشرية، فهم كتلة فوضوية من المتوحشين غير المترابطين في عقيدة أودين، والثاني ينتقل بنا إلى وصف جماعة متماسكة بأعراف وقوانين ترسمها ملوكهم، والملك بذاته يتحدّر عن الرب، إنه ابنه. ثمة إقرار لا يقبل اللبس بوجود رب، والملك شأنه شأن الملوك القدامى يقوم بدورين ديني ودنيوي، وهو متصل بقوة عليا يستمد منها قوته ومكانته، ولكنه يقوم بمهمته الدنيوية في تشريع الرسوم لرعيته، ولهم لسان بلغت فصاحته تدبيج الخطب المثيرة للانفعال في الكرنفالات الخاصة بهم والتي يرجح أنها أعياد دينية. فكيف تكون هذه الجماعات كذلك دون أن تنتظم في نسق ثقافي أو ديني مميز لها؟. ومثل هذه التعارضات القائمة في صلب المرويَّات المعنية بصورة الآخر يمكن العثور عليها هنا وهناك، لأن الخطاب الخاص بالآخر غالبا ما يكون مشوشا، لا يهدف إلى الدقة بذاتها، إنما إلى تكريس صورة مسبقة من نوع ما.

كل هذا يحتاج إلى تأكيد يكتسب قيمته من كونه يتصل بالثقافة التي بلورت هذه التصورات، والتأكيد هذه المرة مأخوذ من المسعودي، الذي لم يدخر شيئا، كما رأينا، من نعوت الانتقاص في سياق أوصافه للأقوام الأخرى، وهذا التأكيد يدعم الجزء الأخير من النص الذي أوردناه قبل قليل للدمشقي. يقول المسعودي: فأما تفسير اسم ملك الزنج – الذي هو وقليمى– فمعنى ذلك ابن الرب الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم، والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حكمه وحاد على الحق قتلوه، وحرموا عقبه الملك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض، ويسمون الخالق عز وجل "ملكنجلو" وتفسيره "الرب الكبير". والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغّبهم في القرب من بارئهم، ويبعثهم على طاعته، ويرهّبهم من عقابه وصولته،

ويذكّرهم بمن مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم[25]. هذا النسيج المتناقض من الأوصاف والأحكام شائع لدى كبار المؤلفين من جغرافيين ومؤرخين وغيرهم. وليس من أهدافنا - هنا- ترك النصوص تتضارب فيما بينها، بما يكشف فساد بعض الأحكام فيها، وفضح التناقضات الكامنة في بعضها، إنما الهدف هو استنطاق النصوص، وتوفير سياقات منهجية تسهم في كشف التحيزات المضمرة والعلنية، والأحكام الانتقائية، لتلك النصوص التي تصوغ الرؤى الجماعية. وقد لاحظنا شحة لايمكن تسويغها في النصوص المنصفة بالأمم الإفريقية السوداء.

7. حواة وأشرار

الخطاب الجغرافي والتاريخي الخاص بإفريقيا السوداء مملوء بالإشارات الضمنية التي تنقض أحيانا الاتساق الدلالي العام له. وكما مر بنا في استثناء النساء النوبيات من الحكم، فالنص الذي وقفنا عليه إنما يستقي مضمونه من مصادر متضاربة، يؤدي تحليلها إلى كشف التناقض فيها، والصورة الآتية التي يرسمها أبو حامد الغرناطي لقبائل تقع في الطرف الآخر من إفريقيا تماما يمكن أن تبين لنا كالمثال الذي وقفنا عليه نوع التناقض. فالنص يبدأ برسم الصورة النمطية الشائعة لأمم في غرب إفريقيا، وحينما يقف على التفاصيل يفقد تماسكه، فتعوم من وسط الأحكام التبخيسية صورة مختلفة: وأما قناوة، وقوقو، وملي، وتكرور، وغدامس، فقوم لهم بأس، وليس بأراضيهم بركة، ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم، ولا عقل. وأشرهم، قوقو قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسموم بدماء حيات صفر لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه، ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات والأفاعي، وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلا بالحية الصفراء التي في بلدهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم. وقسيّهم صغار قصار، رأيتهم في بلاد المغرب، ورأيت قسيهم، وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار، كل سهم شبر، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة قد شدّوه بلحاء شجرة، ويصيبون الحدق، وهم شرّ نوع في السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو، فلا خير فيهم إلا في الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون في تلك الثقب، فيصوتون بأصوات عجيبة فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه، كما يشد الحزام، ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل، ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات، فيعطونه شيئا حتى يخرج، وإن لم يعطوه، ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات[26].

كيف تتشكّل ملامح الصورة التي يرسمها أبو حامد الغرناطي لأقوام متاخمين لدار الإسلام، مثل أهل قناوة، وقوقو، وملي، وتكرور، وغدامس؟. في أول الأمر يجد المتلقي نفسه أمام تعميم، سرعان ما ينتهي بتخصيص، ولكن صورة التخصيص هي التي تنطبع في الذاكرة دون سواها، فهؤلاء في نهاية المطاف جملة من

الحواة والمشعوذين والأشرار غير المؤتمنين، ولكن إذا دققنا النظر فيما يظهر وفيما يتوارى نجد تلازما مترابطا بين نقائض يبنى على أساس مزدوج، فبعض هذه الأقوام تتصف بالبسالة والشدة والشجاعة الفائقة، ولكن تنقصها المثل والبصيرة فهي بلا دين ولا عقل، وأخرى كريهة المنظر، فطس الأنوف، أقزام، تأتي العجائب في قدرتها على أكل الحيات والثعابين كالأسماك، لكنها نافعة للخدمة والعمل، وأقوام أخرى هم محاربون أشداء، لكنهم مجرد حواة يثيرون الفزع بين المسالمين، ويبتزونهم. وهذه الإستراتيجية من تنضيد الصفات تحجب وتكشف:تحجب قوة القوم وبأسهم، وقدرتهم الحربية، ومنفعتهم في العمل والخدمة، وتكشف وثنيتهم، وكفرهم، وجنونهم، وشعوذتهم. وحينما توضع هذه الصفات المتكافئة معا، وينظر إليها بحسب تجاورها، تظهر لنا تلك الأقوام شأنها شأن غيرها، فيها من الرذائل ما يوازي الفضائل، ولكن حينما ينظر إليها في سياق خطاب الغرناطي، تتوارى الفضائل، وتتضخم الرذائل.

8. قيم متوارية: الإشهار والإضمار

لقد استأثرت ممالك غرب إفريقيا بدرجة واضحة من الاهتمام، إذ تمكّن كثير من الرحّالة المغاربة من الوصول إلى تلك البلاد، ويعتبر البكري من المصادر المهمة عن تلك المناطق إلى جانب الحسن الوزان وابن بطوطة، ويحسن بنا متابعة البكري وهو يقف بالتتابع على كثير من الأقوام هناك. فهو يبدأ بــ "تالوين" وهم قبائل أقرب إلى بلاد السودان، وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا، ولا يعرفون خبزاً، إنما أموالهم الأنعام، وعيشهم من اللحم واللبن، ينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان، فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنّة مجاهدون للسودان. وهنالك الطوارق الذين يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر العين، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقّب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعة لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم، وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم. وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن، وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء، وقوّتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة[27]. ثم زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب رأسه كرأس البختي وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب. وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاماً وصفروا صفيراً معلوماً فيبرز إليهم. وإذا هلك والي من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها فإذا نكزته

إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطيهم ذلك بزعمهم[28].

وتليهم بلاد الفرويين، وهي مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباه والعون عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر. وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئاً من هذا النبات. فعارضه على هديته وكتب إليه يقول:إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له. وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب[29]. ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة ويعرف أهله بالبكم، بينه وبين غانة مسيرة أربعة أيام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس. وحدث أبو عبدالله المكي أنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنّت أن يكون شعر لحيته في عانتها. فامتلأ العربي غضبا وأوسعها سبا. والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة. ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله[30]. ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزى تنبت في الرمان ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق. وأخبر الفقيه عبد الملك أن أهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الصنف. ومن هذا الجنس حجارة بوادي درغة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتي في قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار في شيء من ذلك. وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناته بسلجماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى "فرد لند" صاحب الجلالقة، وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من "فرد لند" وبذل له فيه غناه، وبعث به "فرد لند" إلى صاحب قسطنطينية ليوضع في كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وأمره بالتتويج. وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي فضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويـــكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان[31].

هذه الصور المتنوعة التي يختار منها البكري ما يثير العجب، يراد بها تركيز الاهتمام على الجانب الاستثنائي في سلوك شخصيات معينة، أو الوقوف على ظواهر سحرية بعينها، ولا يخلو مجتمع من ذلك، فالغرائب وأعمال الشعوذة والمهارات السحرية شائعة ومعروفة، ولكن صيغة الوصف هي التي تثير العجب، وتؤدي وظيفة غير عجائبية بالمعنى التخيلي، فالبكري يعتمد على منهجية الانتقاء، وهو يرصف جملة من المرويّات التي تتفاعل فيما بينها فتنتج صورة غرائبية لأقوام تعيش في غرب إفريقيا، تلك الأقوام التي ينتقي منها

البكري ما يثير العجب تتابع في نسق يبرز الغرائب فيها، والتركيز على الاستثناء في طرز الحياة، وإهمال القاعدة، يعبّر عن تحيّز من نوع ما في الوصف توجهه ثقافة تحبس الآخر في نطاق خاص، وتسقط عليه النقائص. ولكشف هذه النزعة الخفية في خطاب البكري، ينبغي علينا العودة ثانية إلى النص السابق، مركزين على البؤر الأكثر أهمية فيه، وكيف أنها تخفي أشياء كثيرة، وتطمرها وراء حالة الإبهار التي يثيرها النص! الأمم الست التي يشير إليها البكري بالتعاقب، هي: تالوين، الطوارق، زافقو، الفروبون، البكم، أهل اللامس. والنبرة العجائبية تتصاعد شيئا فشيئا، لتنتهي بنا، ونحن بصحبة أقوام يقترفون المحالات الخارجة على نواميس الطبيعة، وفي كل ذلك لا يؤكد البكري مروياته، وإن كان يستعين بالإسناد الذي فقد دلالته في ذلك العصر، فكيف به وهو يورد سلسلة من الأحداث التي تشذّ على الإسناد!

تتراكم الصور بتتابع الأقوام التي ذكرناها: أهل تالوين لا يعرفون حراثة، ولا زراعة، ولا خبزا، والطوارق منقبون، ملثمون، لا يعرفون الماء، وأهل زافقو يعبدون الحيات الكبيرة، ويقدمون لها الأطعمة والأشربة، وهي التي تختار ملوكهم، والفروبون يحتكرون نباتا منشطا للقوى الجنسية، والبكم عراة، تطيل المرأة عندهم شعر العانة، وتحلق الرأس، وأهل اللامس، يرتدون ملابس من ثمر أشجار التورزي، وهو صوف أبيض لا تؤثر فيه النار لو أوقدت عليه الدهر كله. ولديهم حجارة تحكّ فتلين فتنتج الكتان الذي يمتنع على النار، وتصنع منه مناديل أثارت عجب بابا القسطنطينية، فتوّج بسببها ملك الجلالقة، هذه المناديل تغسل بالنار، فتزداد بياضا ونصاعة!. إن هذا التدرج في انتقاء الأوصاف يشوش تماما على تلك الأقوام، فهو يستبعد كل القيم الإنسانية الطبيعية، ويعوم ما يناقضها، فوصف أهل تالوين بأنهم مجاهدون على السنة، والطوارق بأنهم محاربون أشداء، وأبدانهم صحيحة، وأهل زافقو بأنهم منتظمون في كيانات سياسية، ولهم ملوك يحكمونهم، ووصف الفروبين بأنهم يستقلون بمملكة خاصة بهم، والبكم الحاذقون في الرماية، ولهم تقاليد خاصة بالوراثة، وأهل اللامس المهرة بصناعة النسيج الذي يصدّر إلى ملوك زناتة وسلجماسة، وتجارتهم به التي تصل الأندلس، وتثير إعجاب "فردلند" ملك الجلالقة، كل ذلك يتوارى خلف الأوصاف الأولى، ويطمس أية فاعلية في إضفاء قيمة إيجابية على تلك الأقوام.

9. مركزية الأنوثة: احتجاجات ابن بطوطة

نصل أخيرا إلى ابن بطوطة الذي يتبوّأ مكانة خاصة في سفر الأدبيات الارتحالية، وعلى الرغم من أن رحلته إلى الأواسط الغربية من إفريقيا كانت خاطفة، إذا ما قورنت برحلته المشرقية، فإنها على غرار رحلته إلى شرق إفريقيا، كانت غنية بالملاحظات الأثنوغرافية، ولكنها لم تختلف عن الخطاب العام للرحّالة والجغرافيين والمؤرخين، ويبدو ذلك مثار عجب بالنسبة لرحّالة سلخ نصف عمره في الارتحال، وجاب معظم أصقاع العالم القديم، من الأندلس إلى شرق الصين، ومن جنوب روسيا، وشرق أوربا إلى جاوه وشرق إفريقيا، والأواسط الغربية للقارة السمراء، وفي كثير من أسفاره كان ينقطع أحيانا عن دار الإسلام، ويتوغل في دار الحرب.

وتتصاعد في رحلته صور متعددة للأقوام والثقافات واللغات والعقائد والتقاليد، وبذلك يمكن القول بأن مخالطته للأغيار يفترض أنها قد وسعت آفاق الرؤية لديه، ومع ذلك فملاحظاته وأحكامه الخاصة بالسود من الإفريقيين ظلت في عمومها أسيرة النزعة العامة المميزة لعموم الخطابات المتصلة بالآخر. يشرع ابن بطوطة بوصف أهل أيوالاتن قائلا: وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب؛ فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن، وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات، ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرون مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك. دخلت يوما على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن؛ فلما رأيتها إرتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني، ولم يدركها خجل، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي. فعجبت من شأنهما؛ فإنه من الفقهاء الحُجّاج، وأُخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته، لا أدري أهي هذه أم لا؟ فلم يأذن له. دخلت يوما على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان فقلت له: ما هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها، فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي:مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه[32].

يظهر ابن بطوطة استغرابا لايخفى، وهو يواجه بعلاقات اجتماعية غير معهودة في دار الإسلام، مع أنه قد عرف ما يناظرها خارج تلك الدار، وتتوزع تحفظاته على أحاسيس ذكورية واضحة، وأخرى عقائدية تحول دون أن يتقبل نمط العلاقات السائد بين الرجل والمرأة، وهو لايكتفي بالوصف، إنما يرفض تلك العلاقات، ويحكم عليها، وتستثيره على وجه التحديد حرية المرأة، ومركزيتها في نظام العلاقات الإجتماعية بشكل عام، وهو مبدئيا يدين رجال أيولاتن باعتبارهم فاقدين للغيرة الذكورية، وهي العلامة المميزة للرجل كما يفهم من ابن بطوطة، ولذلك فقد انفرط عقد الرباط المقدس بين المرأة والرجل؛ فالنساء لايحتشمن، ولايحتجبن، ويصاحبن من الرجال ما شاء لهن، فلا ينكر ذلك عليهن. قاضي أيولاتن، الذي يمثل الضابط الأخلاقي والقيمي للشريعة، يصاحب امرأة شابة دونما أي نوع من التعارض بين القيم التي يؤمن بها وهذا الضرب من العلاقات المثيرة لإنتباه ابن بطوطة. صديق له، ورفيق سفر، لايمانع من اختلاء زوجته بصاحبها. يقاطعهم ابن بطوطة محتجا، ويعتبر ذلك رعونة. هذا الموقف سلوك عملي على رفضه نمط الأعراف الإجتماعية السائد في أيولاتن. وتثير المرأة اهتمام ابن بطوطة، وتتركز ملاحظاته عليها، ولكن الخلاصة التي

يريد الإنتهاء إليها تتصل بالرجل ومركزيته، إنه بحسب تصوره دون ماينبغي أن يكون عليه، مركزية الذكورة تعرضت لتصدّع كبير لا يرتق في هذه الأنحاء بسبب ضمور الرجولة؛ فالنساء يعشن فوضى العلاقات، والإنتساب تحدده القرابة من الأم وليس الأب، والورثة هم أبناء الأخت، وليس أبناء الرجل نفسه. وهذا يعني أن النظام العام لمركزية الذكورة مخروم في صلبه، وهو مخالف للشريعة التي يؤمن ابن بطوطة بها، ولا نظير لها بالنسبة له الا عند كفار المليبار في الهند (وفي قبائل الخرلخ في أقصى الشمال، كما ذكر أبو دلف، وأشرنا إليه من قبل) لكن ينبثق عجب أكبر من ثنايا كل هذا، فأهل أيولاتن مسلمون محافظون على الشرائع، ونساؤهم مصليات، فكيف تتآلف النقائض فيما بينها؟. يمثل كل ذلك صدمة لابن بطوطة دونها الصدمات الثقافية التي مرّ بها في بلاد الشرق. لم يكن من المفهوم له التعايش والتفاعل بين القيم النصية السماوية، والقيم الاجتماعية الأرضية. أهل أيولاتن تقبلوا ذلك، ولكنه كان مثار استغراب ابن بطوطة، ففرّ هاربا عن البلاد. هذه الملاحظات المباشرة يمكن اعتبارها وثيقة مهمة ليس على نمط العلاقات التي وصفها ابن بطوطة، إنما على الفهم الخاص لها من قبله. وقد تبينت درجة اشمئزازه منها، ومقاطعته لأقرب الناس إليه بسببها، ولكن حينما يتعلق الأمر بموضوع آخر أشد خطورة، يغير ابن بطوطة وسائله وأحكامه، الموضوع هذه المرة أكل لحوم البشر، والوسيلة هي الأخبار والمرويّات. تظهر المرويّات حينما تصبح معرفة الحقائق مستحيلة.

10. لحوم نيئة، لحوم ناضجة.

ويمضي ابن بطوطة في روايته: أخبرني فربامغا أن منسى موسى كان معه قاض من البيضان يكنى بأبي العباس ويعرف بالدكالي؛ فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته، فلما وصلوا إلى ميمة شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره؛ فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعّده بالقتل إن لم يحضر مَن سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا، ولا سارق يكون بتلك البلاد، فدخل دار القاضي واشتد على خدّامه، وهدّدهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع، فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان وعرّفه الخبر، فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين ثم ردّه إلى بلده، وإنما لم يأكله الكفار لبياضه؛ لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم. وقدمتْ على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم أمير لهم، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا، وتكون فتحة القرط نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب. فأكرمهم السلطان، وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأُخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذُكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي[33].

أخبرني، وأُخبرت، وذُكر لي، صيغ شائعة حينما يتصل الأمر بقضية أكل لحوم البشر، ولكن ترتسم صورة تعمل خفية على إيقاظ الحذر في النفس، فما وراء هذه المملكة قطيع من الكفار أكلة لحوم البشر، لهم تقاليد خاصة بذلك، وأذواق متميزة: الأبيض لا يؤكل فهو نيئ، وأفضل ما في لحم بني آدم، لحم الأنثى:الكف والثدي. هكذا تتلوّن صورة الإفريقيين في أعين المسلمين، وتتحكم في أبعادها الموجهات الثقافية والعقائدية، وكما تبين لنا فقد ظلت صورة الإفريقي الأسود معتمة، قرينة جملة من النواقص العقلية والدينية والأخلاقية واللونية، وقد مخر تلك البلاد جملة من الرحالة، ولكن لم يتوغل في الأقاصي النائية أحد منهم، وحينما يتوقف رحالة في مكان ما فإنه قبل أن يعود القهقرى يحرص على تضمين خطابه صدى المرويَّات المخيفة عن عالم آخر يرزح تحت وحشية منقطعة النظير، عالم وثني، بهائمي، آكل للحم البشر، متخبط في بيداء الحيرة والفوضى، لم تمسه قيم الحق المطلقة بعد.

الهوامش

1. أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية،ترجمة إبراهيم خوري (دمشق، وزارة الثقافة 1985) 2: 183
2. هيغل، العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام (القاهرة، دار الثقافة، 1986) ص172
3. عبدالله إبراهيم، المركزية الغربية (بيروت، المركز الثقافي العربي، 1997) ص 229-27
4. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، المكتب التجاري) ص 79
5. م. ن. ص 94
6. محاضرات في فلسفة التاريخ 1: 178
7. الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بغداد، مكتبة المثنى) ص241
8. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حجر عاصي (بيروت، دار مكتبة الهلال، 1986) ص 63
9. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت، عالم الكتب، 1989) ص22
10. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص173-274
11. م. ن. ص173-174
12. المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة، المكتبة التجارية، 1964) 1: 83
13. الوزّان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر (الرباط، الجمعية المغربية) ص160- 159
14. نخبة الدهر، ص269
15. مقدمة ابن خلدون، ص63
16. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 30-31
17. البكري، المسالك والممالك، تحقيق فان ليوفن وأندري فيري (تونس، الدار العربية للكتاب 1992) ص321
18.. م. ن. ص ص324
19. الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الاعجاب،تحقيق اسماعيل العربي (بيروت، دار الجيل) ص41-42

20 . المسالك والممالك، ص ص328
21. وصف إفريقيا، ص174
22. م. ن. ص176
23. عبدالله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (بيروت، المركزالثقافي، 1999) ص 206-207
24. نخبة الدهر، ص269
25. مروج الذهب 1: 85
26. تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، ص39- 40
27. المسالك والممالك، ص865
28. م. ن. ص 869 - 870
29. م. ن. ص 870
30. م. ن. ص 876
31. م. ن. ص 878
32. رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبدالهادي التازي (المغرب، أكاديمية المملكة المغربية،1997) 4: 245-247
33. م. ن. 4: 268

النصوص

يصعب القول بأن إفريقيا المتاخمة لخط الاستواء كان لها تاريخ مدوّن معروف قبل أن يفرد لها الجغرافيون والرحالة المسلمون جانبا من اهتمامهم في وصف تلك الأصقاع المجهولة. ومن الواضح أن معرفتهم قد امتدّت الى ما وراء ذلك الخط بحوالى ست عشرة درجة. إلى ذلك فان ندرة المعلومات تركت أثرا لا يمحى في تركيب صورة خاصة للإفريقيين، إذ لعبت تلك الندرة في أشاعة أوصاف وأحكام مختزلة. وكما هو متوقّع فان التمايزات الثقافية والعقائدية أسهمت في صوغ تلك الصورة. وتكشف النصوص الأصلية التي تركها الجغرافيون والرحالة عن قيمة اثنوغرافية مهمة فيما يخص هذه المناطق من النواحي الاجتماعية والدينية الاقتصادية. ويلزم أن نبدأ بتقديم النظرة العامة لتلك البلاد حسب فكرة الأقاليم التي كانت شائعة آنذاك. ومن المفيد تقديم الأبعاد الجغرافية والبشرية لإفريقيا، ولعل كثيرا من الجغرافيين المتأخرين قد اعتمدوا على كتاب (الجغرافيا) الذي كتبه ابن سعيد المغربي، وهو مكرّس للأقاليم. وكان ابن سعيد مولعا بالتفاصيل، ولم يكتف برسم صورة مفصلة للأقاليم الجغرافية والبشرية المعروفة، إنما زاد نطاقين أحدهما جنوب خط الاستواء عن المعمور في الوسط الإفريقي، والآخر الى الشمال من الإقليم السابع، قريبا مما يعرف الآن بالقطب الشمالي.

1. إفريقيا الإستوائية، ابن سعيد المغربي، من كتاب (الجغرافيا)

(الأرض كروية يحيط بها الماء..والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات (= الكناري) التي بالبحر المحيط (= الأطلسي) بالغرب إلى جزائر السيلي (= كوريا) التي بالبحر المحيط (= الهاديء) بالمشرق.. وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ثمانون درجة، وما بعد ذلك في الجنوب لا يُسكن لقوة حرارة الشمس في الحضيض التي لها هناك. وما بعده في الشمال لا يُسكن لقوة البرد. ومجموع المعمور مقسّم على تسعة أقسام: المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب، والسبعة الأقاليم على التدريج من الخط. ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة في الشمال.

المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب.. وهو عشرة أجزاء. **الجزء الأول:** فيه من المدن السودانية مدينة كو، مدينة العراة المهملين كالبهائم كما نقلوا.. وغير ذلك رمال سائلة وطرق طامسة. **الجزء الثاني:** فيه من نوع ما تقدم ومنه زغنه.. وفيه أول نهر من أنهار النيل النازلة من عرض ست عشرة درجة إلى آخر العمارة.. **الجزء الثالث:** من أوله، ينابيع النيل الأربعة. وهي نابعة في البسيط. والخمسة الأخرى ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث، إلا أنها من جبل القُمَر. فالخمسة (الأنهار) الأولى تنصب في البطيحة الغربية الأولى. والبطيحة الشرقية الثانية والمركز في العرض واحد.. وكذلك القطر, ويخرج من كل بطيحة، كما يدخل إليها، خمسة أنهار من الجانب الشمالي، إلا أن الثاني والثالث من البطيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب، وينصب الجميع

في البطيحة الكبرى التي تركز في الإقليم الأول. وفي هذا الإقليم الأول من السودان رفلة، وهي بين النهرين الأوليين..وكوشة على عيون تمتد على آخر الأنهار من البطيحة. وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج في شمال الخط. ومحلات القمر بين البطيحتين، ومحلات أكر في شماليها إلى بحيرة كورا.

الجزء الرابع: فيه انتهاء جبل القمر على مذهب بطليموس. وفيه عمائر القمر التي يُنسب إليهم الجبل. وهم أخوة الصين. والمشهور عنهم في هذا الجزء من مدن السودان دمدمة التي خرج منها الدمدام على بلاد النوبة والحبشة سنة سبع عشرة وستمائة في طالع خروج التتر على بلاد العجم. وهم تتر السودان. وفيه قلجور التي تنسب إليها السيوف القلجورية. وبالقرب منها معدن حديد فائق يصنع منه ذلك، وبربرا قاعدة البرابر التي ذكر امرؤ القيس خيلهم. ورقيقهم مستحسن. وقد أسلم أكثرهم فلذلك عدموا في بلاد الإسلام .. وفي هذا الجزء من مدن بربرا- وهي أول مدنهم على ساحل البحر الهندي- قرفونة (=كرادوفي، على القرن الإفريقي) وموضوعها في أول ركن البحر. وشرقيها من مدنهم على جون مرتفع برمه. وفي شرقيها خافوني، الجبل المشهور عند المسافرين، ويظهر داخلاً في البر جنوباً نحو مائة ميل، ويدخل في البحر نحو مائة وأربعين ميلاً في الشمال بتعرج للمشرق. وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدها المسافرون على بعد ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف. وفي شرقيه من بلاد بربرا المشهورة على البحر مركة..وأهلها مسلمون، وهي قاعدة الهاوية التي تنيف على خمسين قرية، وهي شاطئ نهر يخرج من نيل مقدشو وينصب على مرحلتين من المدينة في شرقيها. ومنه فرع يكون حوض المركة. وفي شرقي ذلك مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على ألسن المسافرين وهي مقدشو. وهي على بحر الهند ومرساها غير مأمون الأنواء.

الجزء الخامس: في أوله مصب نيل مقدشو، وهو عابر على أرضها، ويبقى بينها وبينه نحو اثني عشر ميلاً، وينصب في بحر الهند، وهو في رأي العين أقل من نيل مصر بالقرب من مقدشو، ولكنه عميق ويخرج منه ما يضعف ماءه. قال ابن فاطمة: وخروج هذا النيل من بحيرة كورى تحت خط الاستواء من جبل المقسم شقيقاً لنيل مصر. وهو معوج ومستقيم، ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهات كالديار المصرية في السكر والموز وكالهند في المقل والنارجيل والفوفل، وبه يُسقى كل ذلك وغيره. وهم يزرعون مرتين عليه، وعلى المطر. وينصب من مقدشو في شرقيها ويكون طوله نحو ألفي ميل. وفي شرقي هذا النيل آخر حد البلاد البربرية وأول حد بلاد الزنج، ويكون في هذا الجزء الخامس من مدن الزنج المشهورة مَلَندة. وفي غربيها خور كبير يترل إليه نهر من جبل القمر وعلى شطّي هذا الخور عمائر كثيرة للزنج، وفي الجنوب عمائر القمر. وفي شرقي ملندة الحراني وهو جبل مشهور عند المسافرين في نحو البحر نحو مائة ميل آخذاً للشمال بتشريق ويظهر في البر آخذاً نحو الجنوب مستقيماً على نحو خمسين ميلاً. ومن غرائبه أن ما في البر منه فيه معدن حديد يعم بلاد الزنج ويسافر به إلى غيرها. وما في البحر منه فيه حجر المغناطيس الجاذب للحديد. وفي هذه المدينة سحرة الزنج وسكنى ملوكهم في مدينة ممبصّة..وفي غربيّها خور كبير تدخله المراكب نحو يومين ويمتد نحو ثلاثمائة ميل. وفي هذا الجزء المفازة التي بين الزنج وبين سفاله..من مدن سفاله بتينة، وهي على ذيل جون



عظيم يدخل في البحر من خط الاستواء، والمدينة في غربيّها داخل للشمال والمشرق عجرد، وهو جبل طوله في البحر نحو مائة ميل. وللموج فيه أصوات هائلة وهو يجذب لنفسه ما قاربه. والمسافرون يأخذون حذرهم منه. ولهذه المدينة خور طويل ينصب فيه نهر يأتي من جبل القمر وهو في شرقيها. وطول الخور والنهر شهر، وعليه الغياظ والعمائر وينزل البحر من هذه المدينة مسافة شهر إلى أن يكون ساحله عند خط الاستواء حيث قبة أرين (=نقطة التقاء خط الاستواء بخط الطول الرئيس، وهي مركز العالم في الفكر الهندي القديم) التي هي كفة الميزان في الأرض، وإليها من كل جهة تسعون درجة.

الجزء السادس: فيه على البحر الهندي عمائر السُفالين، وما لم يشتهر من مدنهم إلى أن يكون عليه قاعدتهم وهي صيونة، وهي على خور كبير ينزل فيه نهر من جبل القمر إلى غربيها في جون كبير هي في شرقيّه.. وفي هذه المدينة ملك السفالين، وهم الزنج الذين يعبدون الأوثان والحجارة ويصبون عليها دهن السمك الكبار. وأكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور. والخيل لا تعيش عندهم، فعسكرهم رجّاله. وذكر المسعودي أن الزنج يقاتلون على البقر كما تقاتل النوبة على المهارى. ومن شرقي هذه المدينة يدخل خليج القمر من بحر الهند إلى أقصى العمارة في الجنوب. واتساعه هناك نحو مائتي ميل. وعلى هذا المنزع وما قاربه يمر كالقوس إلى الجنوب والمشرق إلى أن يضرب في جبل الندامة..ومن شرقي صيونة جبل الملطم، وهو كبير يمتد مع ساحل الخليج نحو مائتي ميل وستين ميلاً، وكثيراً ما يلطم المركب التي تدفع بها الريح الشمالية إليه. فالمسافرون يتحفظون منه فإن شرقوا عنه فقد خلصوا، وإن دخلوا في الخليج جنوباً احتالوا في أن يخرجوا بالريح الجنوبية لكي لا تحملهم المياه والرياح إلى جبل الندامة فيهلكوا. وعمائر القمر في جنوب هذا الجزء متصلة مع الجبل المنسوب إليهم. ويقع فيه من مدن: جزيرة القمر الطويلة العريضة التي يُقال إن طولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها نيف وعشرين يوماً، وليرانة، ذكر ابن فاطمة أنه دخلها وأنها للمسلمين كمقدشو. وأهلها مجتمعون من الأقطار. وهي بلد حط وإقلاع، وأشياخها الذي يديرونها يدارون صاحب مدينة ملاي التي في شرقهم. وليرانة على البحر. وهي على خور كبير ينزل في الجزء السابع إلى غربيّها، فيها ملك من ملوك الجزيرة. وقد يكون سلطاناً مستولياً على جميع الجزيرة أو أكثرها، وذلك قليل لبعد المسافات وتشتت الآراء والفرق. وهي في عرض ليرانه وفي غربيها خور ينزل من النهر الكبير النازل إلى ليرانه.

الجزء السابع: فيه ينتهي برّ السودان المتصل من أقصى الغرب بجبل الندامة ثم يكون البحر عامراً لما في شرقه بطول جزيرة القمر. وأول جبل الندامة أول هذا الجزء. ويقال إن علوه في الجو نحو ثلاثة أيام وهو ممزوج بالغبرة والحمرة. ويمتد مع أول العمارة نحو عشرين يوماً. ويكون منه مع البحر نحو أربعة عشر يوماً. والبحر المحيط الداخل من المشرق والجنوب يضرب في ركنه الجنوبي، وفي شماليه خليج القمر. فإن زلّ المركب عن بحر الهند ودخل إلى هذا الخليج وحملته المياه والرياح إلى أن يرى هذا الجبل ندم على ما فرط فيه من حيث الاحتياط واستسلم للقضاء، فإما أن ينكسر عليه، وإما أن يدخل خلفه فلا يخرج له خبر ولا يعلم ما جرى له.



ويقال إن هناك دورات لا تزال تدور بالمركب حتى تغرقه. ويسمي المسافرون في بحر الهند ذلك المكان بحر الخراب وبحر سهيل، لأنهم إذا وصلوا إليه رأوا سهيلاً مقارنا لرؤوسهم. وتحت هذا الجبل من شماليه على خليج القمر مدينة دغوطة، وهي آخر مدن سفالة وآخر العمارة في البر المتصل بهذا البحر. ولها من شماليها خور ينزل له من نهر من جبل القمر. ويقال إن منبعه مشارك لمنبع نهر صيونه. ويقع في هذا الجزء السابع من مدن جزيرة القمر التي هي قواعد لملوكها دهمى. وينزل إلى شرقيها خور مادته من النهر الكبير ويتقوّس في دخوله البحر منها حتى يكاد يلاصق خط الاستواء إلى أن يكون على آخر القوس مدينة بلبق، وهي أيضاً من قواعد ملوك الجزيرة. وفي شرقيها جزيرة، وفي شرقي بلبق النهر الكبير المقوس، وهو نهر ليرانه ونزوله من جبل العيون، وهو جبل طوله ثمان مراحل من المغرب إلى المشرق. وينزل من عيونه خمسة أنهار صغار إلى قوس هذا النهر الكبير فيتقوّس وينصب في نهر ليرانه وبحر بلبق. وفي شرقي بلبق جزيرة سرنديب نصفها في هذا الجزء ونصفها الآخر في الثامن. ونصفها الجنوبي خلف خط الاستواء ونصفها الشمالي في الإقليم الأول. وهي مشهورة، وموضوع مدينتها التي يحل فيها ملكها واسمها أغنا. وفيها مدائن غيرها، ويشقها بالنصف في خط الاستواء الجبل الكبير الذي اسمه الرهون وهو عال جداً. ويقال إن آدم عليه السلام نزل عليه من الجنة. وفي شعابه وأوديته توجد أنواع الياقوت النفيسة وحجر الماس الذي يثقب به الياقوت. وفي بحرها مغاص لؤلؤ مشهور. وهي مستديرة الصورة. ويقال إنها ثمانون فرسخاً في مثلها. والعقاقير الهندية فيها كثيرة. وعلى قوس بحرها الجنوبي أغباب سرنديب المشهورة إلى الجنوب. وهي أربعة منحوتة، ينصب في كل غب منها نهر من أنهار جزيرة القمر. والغب المغربي في الجزء السابع والذي يليه مع خط الجزء الثامن ثم الرابع من آخر القوس المذكور.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك منه من قواعد جزيرة القمر مدينة خافورا. الجون الأخير للمشرق من أغباب سرنديب. وينصب في شماليها النهر الأعظم النازل من الجبل المطل على قمرية، وفي شرقها قاعدة ديملي وهي على البحر. وينصب في شرقيها نهر ينزل من النهر الأعظم. وفي هذا الجزء جبلان أحدهما في جنوب ديملي يخرج منه نهر طويل إلى الغب الثالث، والآخر قرب وسط المسافة بين القاعدتين بقرب البحر الجنوبي ويخرج منه ثلاثة أنهار صغار تنصب في هذا النهر الطويل.

الجزء التاسع: فيه مدن وعمائر من جزيرة القُمر غير مشهورة. والمذكور من ذلك قاعدة الجزيرة القديمة وقد يكون صاحبها في بعض الأحيان غالباً على معظمها وهي قمرية على جون عظيم يرتفع عن خط الاستواء ثلاث درجات ويتسع نحو ذلك. وهذه المدينة منسوبة إلى القمر وهم بنو عامور بن يافث ويشاركهم النسبة إلى عامور الصين. وكانوا يسكنون مع الصين في مشارق الأرض ثم تفاتنوا وأخرجهم الصين إلى الجزائر فكانوا بها مدة وكانت سِمة ملكهم قامرون. ثم تفاتنوا في تلك الجزيرة..فخرج منهم الأباعد من الملك إلى هذه الجزيرة العظمى وكَان سلطانهم في مدينة قمرية. ثم أنهم كثروا وتشعبوا على القواعد المذكورة وصاروا فرقاً وملوك طوائف ثم تفاتنوا لما كثروا وخرج منهم خلق عظيم عمروا الجنوب في أول العمارة مع طول الجبل المنسوب إليهم. ومن لا يعرف يسميه بجبل القمر بفتح القاف. وفي هذه الجزيرة الكبيرة التي طولها أربعة أشهر



وعرض أوسعها عشرون يوماً أنهار عظيمة، وأعظمها نهر خافورا. يسافر فيه من عمقه واتساعه سفن البحر الكبار للوسق. وطوله ما بين مصبه وآخر الجزيرة الشرقي ومصبه تحت خافورا نحو شهرين. وعلى شطيه أشجار كبار يصنع من الشجرة منها المركب التي تعرفون ويجدف فيه مائة رجل. وهو محفور والمائدة التي يجلس عليها مائة نسمة.. ويصنعون من هذه الأخشاب دياراً على مراكب ويرسونها بحبال، فإذا كره أحد منهم جوار جاره انتقل إلى جار آخر. وكذلك إذا وقعت النار في دار جاره حلّ حبال داره وخلص منها. وفيها الطائر الكبير المعروف بالرخ زعموا أنه يغطي بظله سرية، ويخطف بمخالبه فراخ الفيلة ويزقها فراخه. ويصنعون من قصبه قناطر على مياههم يجوزون عليها ومن قيعانها المجوّفة حباباً للماء. وعندهم بقر يجرون بها، العجل الواحد يكون قدر الثلاثة من بقر أرضنا يسع في كل قرن من قرونه ألف "منّ" من الزيت. وزيتهم التي يستصحبون بها إنما هي شحم الدواب العظام التي يصيدونها في بحرهم. وعندهم الحشيش الذي ينسجون منه التفاصيل الملونة الملاح وتجلب للعراق واليمن. وفيها الموز والسكر والنارجيل الذي يصنعون منه حبال مراكبهم ويجرون ألواحها به. وأكثر ما ينبت فيها التنبيل وهو كالعريش في التوائه، وكالرند في ورقه ويستعملون الورقة منه بقليل خبز وماء فيحدث لهم طيب نفس وسكر وعطرية يتلذذون بها وهو خمر بلاد الهند. وصورهم أميَل إلى أهل الصين منهم إلى أهل الهند وكذلك ملابسهم، وعبادتهم الأبداد (=تماثيل بوذا) كأهل الهند والصين. وعلى رأس مدينة قمرية الجبل المنسوب إليها وتنحدر منه أنهار كثيرة إلى نهر خافورا الأعظم وينصب طرفه الشرقي في آخر الجزيرة من جهة الشرق وطرفه الغربي تحت خافورا. والبحر الذي يمر مع طولها الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط. ويقال إنه لا يدخله أحد لا من أهل الجزيرة ولا من غيرها. ومن وقع إليه تلف في دوراته؛ وإنما سفرهم في البحر الشمالي الهندي وبحر الجهتين الشرقية والغربية.

الجزء العاشر: فيه جزيرة الموجه طولها من الجنوب إلى الشمال إثنا عشر يوماً. وموضوعها في أول الجزء وعرضها نحو يومين ورأسها الجنوبي في آخر العمارة، وهي مملكة مستقلة. وفي شمالها جزيرة المايد.. وهي أصغر من الأولى محسوبة من جزائر الصين المذكورة في الكتب، وحولها جزائر صغار يقال لها جزائر الشمسية أهلها من أوسخ خلق الله، وهم يجلبون العسل والشمع إلى الصين. وهناك ينتهي البحر الهندي ويمتزج مع البحر. ومدينة المايد، وإليها كان المسافرون يقصدون في القديم ثم عدلوا عنها جزيرة الجاوة. وباختلاط البحرين مصب خمدان، وهو أعظم أنهار الصين وعلى شرقيه وغربيه في هذا الجزء مدينة خمدان، وهي من أشهر مدن الصين التي خلف خط الاستواء، وعلى غربيه مدينة قيطاغور وهي من مشاهير مدن الصين وعرضها خلف خط الاستواء ست درجات.. وللصين في شرقي هذا المركز عمائر ومدن لكنها غير مشهورة. وعند اختلاط البحر الهندي بالبحر المحيط يأخذ منه ذراع إلى الجنوب ويفصل بينه وبين المحيط جبل السحاب الكبير وهو جبل لا يزال السحاب يعمه لعلوه. وقيل إنما سمي بذلك لأنه يخرج من جزيرة السحاب التي تحته سحب سوداء يهيج من رياحها البحر فيغرق ما عليه. والبحر في هذا المكان من آخر الجزء العاشر كأنه منفرد عن البحر الهندي والبحر المحيط ويقال له بحر الواق واق. وفيه جزائر أولها جزيرة السحاب بين طرفها الشمالي

وخط الاستواء. وفي جنوبها جزيرة الدجال طولها إلى جهة الجنوب. وجزيرة الواق واق في آخر عمارة هذه الجزيرة مع المشرق. ويفصل بين بحرها وبين البحر المحيط الجبل الكبير الرأس وهي كبيرة. حكى المسعودي أن فيها شجراً يخرج منه نبات كالابرنج ويولد منه جوار يتعلقن بشعورهن وتصيح الواحدة منهن واق واق فإن قطعن شعورهن وفصلن من الشجرة متْنَ، ويقال إن الذهب في هذه الجزيرة كثير. وهذه الجزائر محدقة بجبل الفتح الذي يسكنه السود المشوهون الذين يقطعون الطريق على الناس ويأكلونهم، ولا يدخل أحد من المجاورين إلى جزائر هذا البحر. والكلام عن ساكنيه وعن جزيرة الدجال بمنزلة الأحدوثات. فجلّ الخالق.

الإقليم الأول (= شمال خط الاستواء): سكانه سودان. وهو عشرة أجزاء:

الجزء الأول: فيه ظهور البحر المحيط على ما نقل عن بطليموس. ومن هناك الجزائر الخالدات على البحار المرسومة في الجغرافيا. وهي ست يستغرق جميعها سمت العرض من الإقليم الأول وقليل من سمت الثاني. ومن هذه الجزائر أخذ بطليموس الأطوال كما أخذ من خط الاستواء العروض. وهي ليست مسكونة ولكن وصل إليها الإسكندر ذو القرنين ورام السلوك في عرضها فلم يتمكن له ما أراد، إما لأعاصير وضباب متراكم أو خوفاً من الضلال والهلاك في غير شئ. ثم أنه وضع على كل جزيرة منها منارة يهتدي بها من ضل وكتب على كل واحدة منها "لا مسلك خلفي".. قال ابن فاطمة: وجزائر السعادة فيما بين الجزائر الخالدات والبرّ مبددة في الإقليم الأول والثاني والثالث. وهي أربع وعشرون جزيرة، والحديث عنها كالخرافات. والبحر المحيط يتدرج قليلاً قليلاً لارتفاع في هذا الجزء إلى أن يكون مصب النيل الذي يمر على غانا. وأمام مصب النيل في البحر المحيط جزيرة الملح. وفي طرفها الجنوبي على البحر مدينة أوليل .. وفيها كثير من أنواع القصب والنبات، وعيش أهلها من السمك والسلاحف وتجارتهم بالملح يصعدون به في المراكب إلى البلاد التي على شواطئ النيل. قالوا وليس في بلاد السودان ملاحة غيرها. وإلى جانب هذه الجزيرة جزيرة العنبر.. ويقال فيها أيضاً جزيرة السلاحف إذ فيها من ذلك الكثير. وأهل تلك البلاد يصطادونها ويقددون لحمها ويسافرون به. ويجدون أيضاً في هذه الجزيرة العنبر الكثير. وأول ما يلقاك على غربي النيل من مدائن التكرور مدينة قلنبو، وهي فرضة مشهورة، وكانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار (ق5هـ = ق11م). وأما في عصرنا (ق7هـ = ق13م) فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام وجميعها لسلطان التكرور. وقاعدتها على جانبي النيل، واسمها تكرور، وبها عرفوا. ونسلهم يقال له مغزاوه. وهم قسمان: قسم تحضّر ويسكن المدن، وقسم رجاله في البوادي. وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل، ومعظمه مجالات لَمْلَم، وهم كفار مهملون يأكلون الناس. وصاحبها يُسبي رقيق لملم، وهم بواد ولهم في الكتب مدينة كالقرية اسمها مويّة، وفيها بيت دكاكيرهم، وهي الأوثان.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه مدينة بريسا، وهي من أشهر بلاد التكرور. وإن ضعف سلطان التكرور انفرد صاحب بريسا بنفسه. والمسافرون يترددون عليها وهي آخر مدائن التكرور على شمال النيل. والغالب على لباس السودان التكرور وغيرهم الجلود. وإذا احتشم الواحد منهم كان الجلد مدبوغاً. ومن خالط البيض



وتخصص اتخذ لباسه من الصوف والقطن وذلك مجلوب له. والغالب على مأكلهم القطانيا (= عصايد غير مختمرة) والخبز عندهم لا يوجد إلا طرفة عند الملوك المتخلقين بأخلاق البيض. وخيلهم قصار غير سابقة، وسلاحهم دبابيس الأبانوس، وهو كثير على النيل ومنه يحتطبون، ولهم قسي وسهام من القصب الشوكي ومنه يصنعون أوتارها، وفي ديارهم شجر القطن. ولا يبني بالجبص والآجر إلا ملك أو مَن أذن له في ذلك من أهل الرفه والتخصص. وباديتهم عراة. المسلمون منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود والكفار لا يستترون. وفي شرقي بريسا وشمالها ينصب نهر لامي المنحدر من الجبال التي في جنوب مدينة لامي. وهذه المدينة كالقرية تحت طاعة كفار لملم. وأهلها يهود يعرف جنسهم في الرقيق ببلاد المغرب. وجبل لامي امتداده من الغرب إلى الشرق ثمان مراحل يخرج من طرفه الغربي نهر لامي المذكور فيمر في عمائرهم حتى ينصب في النيل. ويخرج من طرفه الشرقي نهر ملل ويتقوس حتى يمر على مدينة ملل، وهي من مدن الكفار المهملين. نهرها ينصب في النيل من سمت مدينة درهم من مدن الكفار المهملين. وهي في وسط المسافة بين لامي وملل. وفي شرقي ما ذكر نهر"الهو"وهو من الأنهار التي ذكرها بطليموس وينحدر من جبل الهو، الذي يمتد خلف خط الاستواء. وهذا الجبل رأسه خلف الخط، فيمتد من هناك إلى أن يجوز الخط ويخرج منه مع الخط شعبة يخرج من رأسها الغربي النهر المذكور ويلتوي إلى الشمال كالنون، ثم ينحدر إلى النيل. وعلى شطي هذا النهر من مبتدئه إلى قرب مصبه مجالات نمنم، وهم أخوة لملم في النسب وأشباههم في الأفعال. ومن شرقيه على أميال جبل سامقدي كبير مشرف، فيه عقاقير ونباتات من منافع تلك البلاد ويأوي إليه خلق من كفرة السودان المهملين المعروفين بسامقدي، وبهم عرفت مدينة سامقدي، وهي في رأس هذا الجبل. ومدينة غانا على ضفتي النيل وبها يحل سلطان غانا وهو من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما. وله كبيرة فيها ثقب يربط فيها فرسه ويفخر بذلك على سائر ملوك السودان. وهو كثير الجهاد للكفار وبذلك عرف بيته. وفي شرقي مدينة سامقدي جزيرة التبر. وفي هذه الجزيرة يجدون التبر الكثير يلمع بالليل إذا حسرت المياه الزائدة عن رملها. وعلى هذه الجزيرة مدن مشهورة منها مدينة سمغارة. وعلى هذا الذراع الشمالي في آخر هذا الجزء أشهر ما في هذا الجزء بعد غانا من مدن التبر وهي غيارو، وهي على خليج يخرج من جنوبي نيل الجزيرة. وعن جنوبي نيل غانا مجالات نمنم المتقدمة الذكر وعن شماليه مجالات وانقاره، ، وهم سودان البلاد وقد فشي فيهم الإسلام.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه جبل ثلا. رأسه الجنوبي في بحيرة كوري التي يخرج منها النيل ورأسه الشمالي يخرج منه نيل غانا. وفي شرقيه بلاد كوكو، وهي منسوبة إلى مدينة صاحب البلاد. وهو من كفار السودان. وجبل كوكو يضرب به المثل، وهو يقابل من غربيه مسلمي غانا ومن شرقيه مسلمي الكانم. ومدينة كوكو في شرقي النهر. ومنبع نهر كوكو المغرب عن النيل من جبل مقورس، وهو من الجبال التي ذكرها بطليموس. ويتصل به جبل بدى المتصل ببحيرة كوري التي يخرج منها النيل. وقد قيل إن نهر كوكو مادته من بحيرة كوري وإنه يغوص منه ماء كثير في هذا الجبل ثم يخرج منه نهر كوكو وهو شماليها مسامت لنيل غانا حتى يغوص في رمال في الجزء الثاني مسامتاً لوسط جزيرة التبر، وعليه مجالات كوكو في شطيه وهم عراة

مهملون. وفي طرفه الغربي مجالات نعامة وهم برابر السود من نوع كوكو. وبين كوكو ومدينة بدى التي يخرج من جنوبها نيل غانا وكوكو.

قال ابن فاطمة: فتكون مسافة جريه من بحيرة كوري إلى البحر المحيط بحسب تعريجاته نحو ثلاثة آلاف ميل. وفي هذا الجزء الثالث بحيرة كوري التي يخرج منها نيل مصر ونيل مقدشو ونيل غانا.. قال ابن فاطمة: ولم أر من رأى جانبها، وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي. ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس، ولا دين يذكرهم بسكان الجانب الشمالي، ومنهم بدى، ومدينتهم تعرف بهم ومن تحتها يخرج نيل غانا، ومدنهم حولها ويجاورها من الجانب الغربي جابي وهم الذي يبردون أسنانهم. وإذا مات لهم ميت، دفعوه إلى جيرانهم وكذلك يفعل معهم جيرانهم. وعلى جنوبي البحيرة انكرار، وعلى شرقيها كوري، الذين تنسب البحيرة إليهم. وفي شرقي مدينة بدى من الكانم المسلمين مدينة جاجة، وهي كرسي مملكة مفرده ولها مدن وبلاد، وهي الآن لسلطان الكانم. وهي موصوفة بالخصب وكثرة الخيرات وبها الطواويس والببغاء والدجاج الرقط والغنم البلق التي على قدر الحمير الصغار ولها صور تخالف صور كباشنا. والزرافة كثيرة في أرض جاجة، وفي شرقي مدينتها على ركن البحيرة المغزاة، حيث دار صناعة الكانم. وكثيراً ما يغزو من هنالك في أسطوله بلاد الكفار التي على جوانب هذه البحيرة ويقطع على مراكبهم فيقتل ويسبي. ومن مدن الكانم المشهورة مانان. وفي شرقيها وجنوبيها قاعدة الكانم جيمي وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، محمدي من ولد سيف ين ذي يزن. وكانت قاعدة جدود الكفرة قبل أن يسلموا مدنية مانان. ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم ولهذا السلطان هنالك مثل سلطنة تجوه ومملكة كوارو ومملكة فزان، وقد أيده الله وكثر نسله وعساكره. والثياب تحمل إليه من الحضرة التونسية. وعنده الفقهاء, وله في سمت جيمي على آخر هذا الجزء الرديني فيها سابين له ومستتره. وهي على غربي النيل الآتي لمصر. وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً. وفواكههم لا تشبه فواكهنا ويوجد عندهم الرمان والخوخ كثيراً، وقد عانوا قصب السكر فأنجب عندهم قليلاً ولا يستغله إلا السلطان وكذلك العنب والقمح. ومخرج النيل المصري في هذا الجزء من بحيرة كوري. وعند اندفاعه من البحيرة مدينة كوري للسودان الذي يأكلون الناس وهي في شماليه، حيث جبل المقسم الممتد من أول ركن البحيرة الشرقي الجنوبي ومن تحت هذا الجبل أيضاً يخرج نيل مقدشو بالقرب من خط الاستواء ومن خلف الخط، وقد ذكروا أن في بحيرة كوري جبل لوراطس وهو واقع في هذا الجزء الثالث. والسودان تزعم أن الذهب الذي يوجد على بلاد النيل عند مدّه إنما هو من معادن هذا الجبل. ولا يقدر أحد على قربه من كثره ما فيه من الثعابين والوحوش المهلكة. وجوانبه الساحلية ملأى بالتماسيح وخيل النيل. وقد قيل أن فرس النيل لا تصاد في هذه البحيرة، وإنما تصاد في نيل غانا ونيل النوبة. وفي شرقي جبل مقورس الفاصل بين الكانم وكوكو، مجالات الكانم وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا على يد سلطان الكانم، وهم له عبيد يغزو بهم وينتفع بجمالهم التي ملأت تلك الأقطار في مجالات مانان. وفي شرقي مانان



مجالات الزغاوين ومعظمهم مسلمون تحت طاعة الكانمي. وفي شمال مانان ومجالات الكانم مجالات الكوار. ومدينتهم المشهورة تقع في الإقليم الثالث وهم مسلمون تحت طاعة الكانمي.

الجزء الرابع: يمر من أوله النيل المغربي على بلاد بنته، وهم سود كفار يفصلون بين الكانم والنوبة، ثم يغوص في الرمال. ويمر تحت الأرض على زعمهم ملتوياً من الجنوب إلى الشمال فلا. ويلتوي كالقوس وظهره إلى المشرق فيقع في غربيه قاعدة النوبة دُنقُلة. وفي جنوبها من مدن النوبة، نوابه التي سموا بها. وفي جنوبها وغربيها مجالات زنج النوبة التي قاعدتهم كوشة خلف الخط. والنوبة نصارى. وفي غربي دنقلة وشماليها من مدنهم المذكورة في الكتب علوه، وهي في شرقي النيل وشماليه. وبينها وبين دنقلة مائة وسبعون ميلاً. وفي غربي علوه ينعطف النيل كثيراً فيعود إلى الغرب حتى يدخل الجزء الثالث الذي خرج منه فينتهي وينحدر من هنالك إلى الإقليم الثاني. وعلى شطيه عمائر النوبة ويبقى بين شرقيه الجنوبي وبين تاجوه قاعدة الزغاوين مائة ميل. وقد أسلم أهلها ودخلوا في طاعة الكانمي. وفي جنوبيها مدينة زغاوة. ومجالات التاجوين والزغاويين ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال. وهم جنس واحد، ولكن المُلك وحسن الصورة والأخلاق في التاجوين. وهم كفار عصاة على الكانمي يألفون الصحارى والجبال في الإقليم الأول والثاني.

وذكر ابن فاطمة أن الملوك من الكانم وتاجوه إنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فإنه يكثر من مجاورة النيل فيشتد أذاه على الآدميين والخيل. ولهم عيون في الرمال ومياه مشربة من النيل أيام الزيادة. وفي هذا الجزء الرابع من مدن الحبشة المذكورة في الكتب حُنْبية. وفي شرقيها بلاد كزله. وهم مشهورون في بلاد الحبشة مرغوب في جنسهم. والحبشة بالإطلاق أفضل أجناس السودان وخصيان الملوك والأكابر منهم. وهم نصارى وفيهم بالساحل مسلمون. وبلاد كزله من أول خط الاستواء في مجاورة زنج الحبشة إلى جنوب جبل موريس الذي زعموا أن أهل حنبية وتلك الجهات يعيشون مما فيه من معادن الذهب والفضة. وهو على أربعة أيام من حنبية، وفي شرقيها وشمالها يبدأ من هنالك ويمر مشرقاً منحرفاً إلى الشمال حتى يشق نيل الحبشة وينتهي إلى بحرهم. وفي شرقي كزله وجنوبها بحيرة الحاورس، وهي منسوبة إلى أمة من زنوج الحبشة عراة متوحشون، ويقال إن الذهب والرصاص القلعي في أرضهم كثير. قال ابن فاطمة: نقل عن بطليموس أن مركز هذه البحيرة في خط الاستواء. ويخرج منها نيل الحبشة الذي يشبه نيل مصر في زيادته أيام نقص الأنهار وفي وجود التماسيح وفرس النيل. وعلى شرقيه إلى جانب البحيرة من مدنهم المذكورة في الكتب النجاعه. ويمر إلى الشمال فيكون شمالها جبل المعادن المتقدم الذكر. والمدينة في شرقي النيل وفي شمال الجبل بلاد سحرته من أجناس الحبشة المذكورة وعمائرهم ممتدة مع هذا النيل من الجانبين. وفي شرقيه من مدن الحبشة المشهورة كلغور، وهي مجمع لهم في كل ناحية وبها ملتقى من يريد البحر أو النيل أو البرية. وفي شمالي سحرته من النيل إلى البحر بلاد الخاسة وهم مذمومون بين أجناس الحبشة وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم، ويدفعون ذكور الآدميين في صداقاتهم ويفتخرون بذلك. ومن شرقيهم إلى البحر سمهر، وهي أرض يكون فيها القنا الطوال السمهرية. ومن غريب شأنها أنها إذا احتك بعضها ببعض انقدحت منها نار تحترق بها كلها أو



طائفة منها على قدر الالتصاق ومساعدة الرياح. والغزلان في أرض سمهر كثيرة. ومن جلودها يشدون على الخيل عوض السروج ويركبون عليها، وقتالهم بالقنا السمهرية المذكورة ولهم بالطعن بها واللعب حذق، ويزعمون أنهم يصل إليهم من الجنوب قوم كالترك بيض ولهم شعور ويقاتلونهم. وإن صح هذا تكون الأقاليم بالجنوب مرتبطة كالأقاليم بالشمال..

وفي أرضهم الكركدن وله قرنان في جبهته أحدهما أطول من الآخر وهو حيوان مؤذ يصيده الفارس بأن يعدو خلفه فيضرب رجليه بالسيف فيقع، وإن لم يحترز منه وقع (الكركدن) عليه فقتله مع فرسه، وهم يأكلون لحمه. وأيضا على نيلهم الأسود والفيلة. وفي شرقي كلغور بانحراف إلى الشمال مدينة نجبة التي تُنسب إليها الجمال النجيبية. وفي غربيها جبل الخماهن ويوجد فيه هذا الحجر وكان عزيزاً عند الفرس وكانوا يختمون به ويتداوون بالماء إذا حك فيه من حرارة الخماهن. ويقال له الصندل المعدني وهو داخل مدخل الصندل في مداواة العلل الحارة. وطول هذا الجبل مائة ميل من الجنوب إلى الشمال باعوجاج عندما يمر شمالاً إلى المشرق، وأول ما يلقاك من مدن الحبشة على بحر الهند من ساحله الغربي. وحدّ بلاد بربرا المتقدمة الذكر، خلف خط الاستواء، مدينة بطا، وهي مشهورة على ألسن الحبشة الذين ببلادنا. وفي شمالها من مدنهم على مائة ميل باقصلي على جون داخل إلى المغرب نحو خمسين ميلاً. وفي شماليها منقوبه وهي جبل الدخلة المستمرة إلى الشرق. وفي طرفيها جبل مقورس داخل في البحر. وفي شماله من مدن الحبشة المشهورة بلاد الزيلغ، وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محل حط وإقلاع، ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الإسلام الساحلية..).

رأينا كيف أن ابن سعيد المغربي قد وفّر لنا أرضية مناسبة لتشكيل فكرة عن العالم الإفريقي الأوسط، ومكونات تلك الفكرة مزيج من المعلومات الطبيعية والبشرية، وقد بدأ من جنوب خطّ الاستواء - وفي هذا فأنه وسّع من مجال الأقاليم المعمورة-ثمّ اتبع التقسيم التقليدي في الوقوف على أجزاء الإقليم الأول الذي أكد بأن سكانه من السودان، وراح يصف أجزاء هذا الإقليم بالتعاقب. ومادمنا في سياق التعريف بالأبعاد الجغرافية لإفريقيا السوداء يحسن بنا أن نورد نصا للإدريسي الذي يضع بلاد السودان، وهي المناطق المجاورة لخط الاستواء، ضمن الإقليم الأول، ويقسمه الى أجزاء عدة جريا على العادة المعروفة، وبالنظر إلى أن كتاب الإدريسي يتصف بالشمول، فلا ينتظر منه أن يعنى بالتفاصيل الدقيقة.

2. الإقليم الأول، وهو بلاد السودان. الإدريسي (560 هـ = 1165م) من كتاب (نزهة المشتاق).

الجزء الأول: إن هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربي المسمى ببحر الظلمات، وهو البحر الذي لا يعلم ما خلفه، وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات، ومن هذه الجزائر بدأ بطلميوس يأخذ الطول والعرض، وهاتان الجزيرتان فيما يذكر في كل واحدة منهما صنم مبني بالحجارة، طول كل صنم منهما مائة ذراع، وفوق كل صنم منهما صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف. وهذه الأصنام فيما يذكر ستة،



إحداها صنم قادس التي بغربي الأندلس، ولا يعلم أحد شيئا من المعمور خلفها. وفي هذا الجزء من المدن أوليل وسلى وتكرور وبريسي ودو ومورة، وهذه البلاد من أرض مقزارة السودان، فأما جزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل، وبها الملاحة المشهورة، ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان، وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها إلى موقع النيل، وبينهما مقدار مجرى فتجري في النيل إلى سلى وتكرور وبريسي وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان، وأكثرها لا يكون لها مأوى ولا مستقر إلا على النيل بعينه، أو على نهر يمد النيل، وسائر الأرضين المجاورة للنيل صحار خالية لا عمارة فيها، وهذه الصحارى فيها مجابات مياه، وذلك أن الماء لا يوجد إلا بعد يومين وأربعة وخمسة وستة وأثنى عشر يوما، مثل مجابة تيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة وهي أربعة عشر يوما لا يوجد فيها ماء، وأن القوافل تتزود بالماء لسلوك هذه المجابات في الأوعية على ظهور الجمال، ومثل هذه المجابة كثير في بلاد السودان وأكثر أرضها أيضا رمال تنسفها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان فلا يوجد بها شيء من الماء، وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جداً؛ ولذلك أهل هذا الأقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة بضد ألوان أهل الإقليم السادس والسابع.

ومن جزيرة أوليل إلى مدينة سلى ست عشرة مرحلة، ومدينة سلى على ضفة نهر النيل وبشماله، وهي مدينة حاضرة وبها مجتمع السودان ومتاجر صالحة وأهلها أهل بأس ونجدة، وهي من عمالة التكروري وهو سلطان مؤمر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاده آمنة وادعة وموضع مستقرة والبلد الذي هو فيه مدينة تكرور، وهي في جنوب النيل، وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر، ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة، وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم وطعام أهل سلى وأهل تكرور الذرة والسمك والألبان وأكثر مواشيهم الجمال والمعز، ولباس عامة أهلها قداوير الصوف وعلى رؤوسهم كرازى الصوف، ولباس خاصتها ثياب القطن والمآزر. ومن مدينة سلى وتكرور إلى مدينة سجلماسة أربعون يوما بسير القوافل، وأقرب البلاد إليهما من بلاد لمتونة الصحراء أزكى، وبينهما خمس وعشرون مرحلة ويتزود بالماء فيها من يومين إلى أربعة إلى خمسة وستة أيام، وكذلك من جزيرة أوليل إلى مدينة سجلماسة نحو من أربعين مرحلة بسير القوافل. ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريسي على النيل مشرقا اثنتا عشرة مرحلة، ومدينة بريسي مدينة صغيرة لا سور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها متجولون تجار، وهم في طاعة التكروري. وفي الجنوب من بريسي أرض لملم وبينهما نحو من عشرة أيام، وأهل بريسي وأهل سلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار، وليس في جميع أرض لملم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى اسم إحداهما ملل، واسم الثانية دو، وبين هاتين المدينتين مقدار أربعة أيام، وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة وجميع أهل بلاد لملم إذا بلغ أحدهم الحلم وسم وجهه وصدغاه بالنار، وذلك علامة لهم، وبلادهم وجملة عماراتهم على واد يمد النيل وليس بعد أرض



لملم في جهة الجنوب عمارة تعرف وبلاد لملم تتصل من جهة المغرب بأرض مقزارة ومن جهة المشرق بأرض ونقارة ومن جهة الشمال بأرض غانة ومن جهة الجنوب بالأرض الخالية، وكلامهم كلام لا يشبه كلام المقزاريين ولا كلام الغانيين.

ومن بريسي المتقدم ذكرها إلى غانة في جهة المشرق اثنا عشر يوما، وهي في وسط الطريق إلى مدينة سلى وتكرور، وكذلك من مدينة بريسي إلى اودغشت اثنتا عشرة مرحلة واودغشت من بريسي شمالا وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب، وينبت على ضفتيه القصب الشركي وشجر الأبنوس والشمشار والخلاف والطرفاء والأثل غياضا متصلة، وبها تقيل وتسكن مواشيهم، وإليها يميلون ويستظلون عند شدة الحر وحمية القيظ وفي غياضة الأسد والزرائف والغزلان والضبعان والأفيال والارانب والقنافذ. وفي النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار، ومنه طعام اكثر السودان يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه، وهو في نهاية السمن والغلظ، وأسلحة أهل هذه البلاد القسي والنشابات وعليها عمدتهم والدبابيس أيضا من أسلحتهم يتخذونها من شجر الأبنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة، وأما قسيهم فإنها من القصب الشركي وسهامهم منه وكذلك أوتارها من القصب، وبناء أهل هذه البلاد بالطين والخشب العريض الطويل عندهم قليل الوجود، وحليهم النحاس والخرز والنظم من الزجاج والباذوق ولعاب الشيخ وأنواع المجزعات من الزجاج المؤلف. وهذه الأمور والحالات التي ذكرناها من المطاعم والمشارب واللباس والحلي يفعلها أكثر السودان في جميع أرضهم لأنها بلاد حر ووهج شديد، وأهل المدن منها يزرعون البصل والقرع والبطيخ ويعظم عندهم كثيرا ولا حنطة عندهم أكثر من الذرة ومنها ينتبذون ويشربون، وجل لحومهم الحوت (= السمك) ولحوم الإبل المقددة. .

الجزء الثاني: إن الذي تضمنه هذا الجزء الثاني من الإقليم الأول من المدن مدينة ملل وغانة وتيرقي ومداسة وسغمارة وغيارة وغربيل وسمقندة، فأما مدينة ملل التي هي من بلاد لملم فهي مدينة صغيرة كالقرية الجامعة لا سور لها، وهي على تل تراب أحمر منيع جانبه، وأهل ملل متحصنون فيه عمن يطرقهم من سائر السودان، وشربهم من عين خرارة تخرج من الجبل الذي في جنوبها وماؤها زعاق ليس بصادق الحلاوة، وبغربي هذه المدينة على ماء العين الذي يشربون منه ومع نزوله إلى أن يقع في النيل أمم كثيرة سودان عراة لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق، وهم أكثر الناس نسلا، ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها ويأكلون الحيتان المصيدة ولحوم الإبل المقددة، وأهل تلك البلاد المجاورة لهم يسبونهم في كل الأحايين بضروب من الحيل ويخرجونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار قطارا ويخرج منهم في كل عام إلى المغرب الأقصى أعداد كثيرة وجميع من يكون في بلاد لملم موسوم بالنار في وجهه وهي لهم علامة كما قدمنا ذكره.

ومن مدينة ملل إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودهاس لا ماء بها وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد

التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، وله قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج، وكان بنيان هذا القصر في عام عشرة وخمس مائة من سني الهجرة، وتتصل مملكته وأرضه بأرض ونقارة وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيبا والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علما يقينا لا اختلاف فيه أن له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبره واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك في نار ولا تطرق بآلة، وقد نفذ فيها ثقبا وهي مربطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربة التي ليست عند غيره ولا صحت لأحد إلا له وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان. وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه، ومن سيرته في قربه من الناس وعدله فيهم أن له جملة قواد يركبون إلى قصره في صباح كل يوم ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه فإذا وصل إلى باب القصر سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وصار يقدمهم ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدّى له فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته ثم يرجع إلى قصره ويتفرق قواده، فإذا كان بعد العصر، وسكن حر الشمس ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول إليه. وركوبه في كل يوم مرتين سيرة معلومة، وهذا مشهور من عدله ولباسه إزار حرير يتوشح به أو بردة يلتف بها، وسراويل في وسطه، ونعل شركي في قدمه، وركوبه الخيل، وله حلية حسنة وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده، وله بنود كثيرة وراية واحدة، وتمشي أمامه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش التي في بلاد السودان، ولهم في النيل زوارق وثيقة الإنشاء يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها، ولباس أهل غانة الأزر والفوط والأكسية كل أحد على قدر همته. وأرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مقزارة ومن شرقيها ببلاد ونقارة وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية وغيرها.

ومن مدينة غانة إلى أول بلاد ونقارة ثمانية أيام، وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة وهي جزيرة طولها ثلاث مائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا، والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة، فإذا كان في شهر أغشت (= أغسطس) وحمى القيظ وخرج النيل وفاض غطى هذه الجزيرة أو أكثرها وأقام عليها مدته التي من عادته أن يقيم عليها ثم يأخذ في الرجوع، فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر، وما يخيب منهم أحد، فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا، واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة، وهي أكبر غلة عند السودان وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم. وأرض ونقارة فيها بلاد معمورة ومعاقل مشهورة، وأهلها

أغنياء والتبر عندهم وبأيديهم كثير والخيرات مجلوبة إليهم من أطراف الأرض وأقاصيها، ولباسهم الأزر والأكسية والقداوير وهم سود جدا، فمن مدن ونقارة تيرقى وهي مدنية كبيرة وفيها خلق كثير لكن ليس لها سور ولا حظيرة، وهي في طاعة صاحب غانة وله يخطبون وإليه يتحاكمون، وبين غانة وتيرقى ستة أيام وطريقها مع النيل ومن مدينة تيرقى إلى مدينة مداسة ستة أيام ومدينة مداسة هذه مدينة متوسطة كثيرة العمارة صالحة العمالات وفي أهلها معرفة وهي على شمال النيل ومنه شربهم وهي بلد أرز وذرة كبيرة الحب طعمها صالح، وأكثر معايشهم من الحوت وتصيّده، وتجارتهم بالتبر ومن مدينة مداسة إلى بلد سغمارة ستة مراحل، وبين مداسة وسغمارة إلى جهة الشمال ومع الصحراء قوم يقال لهم بغامة، وهم بربر رحالة لا يقيمون في مكان يرعون أجمالهم على ساحل واد يأتي من ناحية المشرق فيصب في النيل واللبن عندهم كثير ومنه يعيشون. ومن مدينة سغمارة إلى مدينة سمقندة ثمانية أيام، ومدينة سمقندة هذه مدينة لطيفة على ضفة البحر الحلو ومنها إلى مدينة غربيل تسعة أيام، ومن مدينة سغمارة إلى مدينة غربيل جنوبا ستة أيام، ومدينة غربيل هذه على ضفة البحر الحلو وهي مدينة لطيفة القدر في سفح جبل يعلوها من جهة الجنوب، وشرب أهلها من النيل ولباسهم الصوف وأكلهم الذرة والحوت وألبان الإبل، وأهلها يتصرفون في تلك البلاد بضروب من التجارات التي تدور بين أيديهم ومن مدينة غربيل مع المغرب إلى مدينة غيارة إحدى عشرة مرحلة، ومدينة غيارة هذه على ضفة النيل وعليها حفير دائر بها وبها خلق كثير، وفي أهلها نجدة ومعرفة، وهم يغيرون على بلاد لملم فيسبونهم ويأتون بهم ويبيعونهم من تجار غانة. وبين غيارة وأرض لملم ثلاث عشرة مرحلة، وهم يركبون النجب من الجمال، ويتزودون الماء ويسرون بالليل ويصلونه بالنهار إلى أن يغنموا ويرجعوا إلى بلدهم بما يفتح الله سبحانه عليهم من السبي. من أهل لملم ومن مدينة غيارة إلى مدينة غانة إحدى عشرة مرحلة وماؤها قليل، وجملة هذه البلاد التي ذكرناها هي في طاعة صاحب غانة وإليه يؤدون لوازمهم وهو القائم بحمايتهم.

الجزء الثالث: إن الذي تضمنه هذا الجزء الثالث من الإقليم الأول من المدن المشهورة كوغة وكوكو وتملمة وزغاوة وماناان وانجيمي ونوابية وتاجوة، فأما مدينة كوغة فإنها مدينة على ضفة البحر الحلو، وفي شماله ومنه شرب أهلها وهي من عمالة ونقارة ومن السودان من يجعلها من بلاد كانم، وهي مدينة عامرة لا سور لها وبها تجارات وأعمال وصنائع يصرفونها فيما يحتاجون إليه، ونساء هذه المدينة ينسب إليهن السحر، ويقال إنهن به عارفات وبه مشهورات وعليه قادرات، ومن كوغة إلى سمقندة في جهة الغرب عشرة أيام ومن كوغة إلى غانة نحو من شهر ونصف، ومن كوغة إلى دمقلة شهر، ومن كوغة إلى شامة دون الشهر، ومن كوغة إلى مدينة كوكو في الشمال عشرون مرحلة بسير الجمال والطريق على أرض بغامة. وأهل بغامة سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رحالة وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة. ولقد أخبر بعض السفار الثقات، وكان قد تجول في بلاد السودان نحوا من عشرين سنة، أنه دخل هذه الأرض أعني أرض بغامة وعاين فيها رجلا من هؤلاء البربر فكان يمشي معه في أرض خالية رملة ليس بها أثر للماء ولا لغيره، فأخذ البربري غرفة من ترابها وقربه من أنفه

ثم اشتمه وتبسم وقال لأهل القافلة: انزلوا فإن الماء معكم، فترل أهل القافلة هناك، وعرسوا متاعهم وقيدوا الجمال وتركوها ترعى ثم عمد البربري إلى موضع، وقال: احفروا هاهنا فحفر الناس في ذاك الموضع أقل من نصف قامة فخرج الماء الكثير العذب، فعجب من ذلك أهل القافلة، وهذا مشهور معلوم يعلمه تجار أهل تلك البلاد ويحكونه عنهم. وفي هذه الطريق التي ذكرناها من كوغة إلى كوكو على أرض بغامة مجابتان لا ماء فيهما وكل مجابة منهما تقطع من خمسة أيام إلى ستة أيام، ومدينة كوكو مدينة مشهورة الذكر من بلاد السودان كبيرة وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال فيمر بها ومنه شرب أهلها ويذكر كثير من السودان أن مدينة كوكو هذه على ضفة الخليج.

وذكر قوم آخرون أنها على نهر يمد النيل والذي صح من القول إن هذا النهر يجري حتى يجوز كوكو بأيام كثيرة ثم يغوص في الصحراء في رمال ودهاس مثل ما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق وغوصه هناك في البطائح ثم إن ملك مدينة كوكو ملك قائم بذاته خاطب لنفسه وله حشم كثير ودخلة كبيرة وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة وهم يركبون الخيل والجمال ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم ولباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم وتجارهم يلبسون القداوير والأكسية وعلى رؤوسهم الكرازي وحليهم الذهب وخواصهم وجلتهم يلبسون الأزر، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة. وينبت في أرض كوكو العود المسمى بعود الحية، ومن خاصته أنه إذا وضع على جحر الحية خرجت إليه مسرعة، ثم أن ماسك هذا العود يأخذ من الحيات ما شاء بيده من غير أن يدركه شيء من الجزع ويجد في نفسه قوة عند أخذها والصحيح عند أهل المغرب الأقصى وأهل وارقلان أن ذلك العود إذا أمسكه ماسك بيده أو علقه في عنقه لم تقربه حية البتة وهذا مشهور وصفه هذا العود كصفة العاقر قرحا مفتولا لكنه أسود اللون. ومن مدينة كوكو إلى مدينة غانة شهر ونصف شهر ومن مدينة كوكو إلى مدينة تملمة شرقا أربع عشرة مرحلة، وهي مدينة صغيرة من أرض كوار جامعة فيها بشر كثير ولا سور لها وفيها رجل ثائر بنفسه وهي على جبل صغير لكنه جبل منيع بأجراف قد احاطت به من جميع جهاته ولها نخيل ومواش، وأهلها عراة شقاة، وشربهم من مياه الآبار وماؤها بعيد القعر عن وجه الأرض وبها معدن شب ليس بالكثير الجودة ويبيعونه في كوار ويخلطه التجار بالشب الطيب ويسافرون به إلى جميع الجهات.

ومن تملمة إلى مدينة مانان من أرض كانم اثنتا عشرة مرحلة، ومدينة مانان مدينة صغيرة وليس بها شيء من الصناعات المستعملة وتجاراتهم قليلة ولهم جمال ومعز، ومن مدينة مانان إلى مدينة انجيمى ثمانية أيام، وهي أيضا من كانم وانجيمى مدينة صغيرة جدا وأهلها قليل وهم في أنفسهم أذلة، وهم يجاورون النوبة من جهة المشرق، وبين مدينة انجيمى والنيل ثلاثة أيام في جهة الجنوب وشرب أهلها من الآبار، ومن انجيمى إلى مدينة زغاوة ستة أيام ومدينة زغاوة مدينة مجتمعة الكور كثيرة البشر وحولها خلق من الزغاويين يشيلون بإبلهم، ولهم تجارات يسيرة وصنائع يتعاملون بها بين أيديهم، وشربهم من الآبار وأكلهم الذرة ولحوم الجمال المقددة والحوت المصيد والألبان عندهم كثيرة ولباسهم الجلود المدبوغة يستترون بها، وهم أكثر السودان جربا، ومن



مدينة زغاوة إلى مانان ثماني مراحل وفي مانان يسكن أميرها وعاملها وأكثر رجاله عراة رماة بالقسي، ومن مدينة مانان إلى مدينة تاجوة ثلاث عشرة مرحلة وهي قاعدة بلاد التاجوين وهم مجوس لا يعتقدون شيئا، وأرضهم متصلة بأرض النوبة. ومن بلادهم سمنة ومدينة سمنة هذه مدينة صغيرة، وحكى بعض المسافرين إلى مدائن كوار أن صاحب بلاق توجه إلى سمنة وهو أمير من قبل ملك النوبة فحرقها وهدمها وبدد شملهم على الآفاق وهي الآن خراب ومن مدينة تاجوة إليها ست مراحل، ومن مدينة تاجوة إلى مدينة نوابة ثماني عشرة مرحلة، وإليها تنسب النوبة وبها عرفوا وهي مدينة صغيرة وأهلها مياسير ولباسهم الجلود المدبوغة وأزر الصوف. ومنها إلى النيل أربعة أيام وشرب أهلها من الآبار وطعامهم الذرة والشعير ويجلب إليهم التمر، والألبان عندهم كثيرة، وفي نسائهم جمال فائق، وهن مختتنات ولهن أعراق طيبة ليست من أعراق السودان في شيء وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن وشفاههم رقاق وأفواههم صغار ومباسمهم بيض وشعورهم سبطة. وليس في جميع أرض السودان من المقازرة ولا من الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة، ولا أحسن أيضا للجماع منهن، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مائة دينار وأقل من ذلك، ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن. وذكر بعض الرواة أنه كان بالأندلس جارية من هؤلاء الجواري المتقدم ذكرهن عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي فما أبصرت عيناه قط بأكمل منها قدا ولا أصبح خدا ولا أحسن مبسما ولا أملح أجفانا ولا أتم محاسن، وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها بخيلا بمفارقتها، ويذكر أن شراءها عليه مائتان وخمسون ديناراً من الدنانير المرابطية، وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها إذا تكلمت أسحرت سامعها لعذوبة ألفاظها وحلاوة منطقها لأنها ربيت بمصر فكانت بذلك تامة الصفات، ومن مدينة نوابة إلى مدينة كوشة نحو من ثماني مراحل خفاف.

الجزء الرابع: وفي هذا الرابع من الإقليم الأول بلاد النوبة وبعض بلاد الحبشة وبقية جنوب أرض التاجوين وقطعة من بلاد الواحات الداخلة، وفي بلاد النوبة من البلاد المشهورة والقواعد المذكورة: كوشة وعلوة ودنقلة وبلاق وسوبة، وفي أرض الحبشة مركطة والنجاغة، ومن أرض الواحات الداخلة وأعلى ديار مصر مدينة أسوان وأتفو والرديني. وفي هذا الجزء افتراق النيليين؛ أعني نيل مصر الذي يشق أرضها وجريه من الجنوب إلى الشمال، وأكثر مدن مصر على ضفتيه معا وفي جزائره أيضا، والقسم الثاني من النيل يمر من جهة المشرق إلى أقصى المغرب وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها. وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذي أوله فوق خط الاستواء بست عشرة درجة، وذلك أن مبدأ النيل من هذا الجبل من عشر عيون فأما الخمسة الأنهار منها فإنها تصب وتجتمع في بطيحة كبيرة وكذلك الخمسة الأنهار الأخر تنزل من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة، ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار فتمر بأجمعها إلى أن تصب في بطيحة كبيرة جداً، وعلى هذه البطيحة مدينة تسمى طرمى وهي مدينة عامرة يزرع بها الأرز، وعلى ضفة البطيحة المذكورة



صنم رافع يديه إلى صدره، يقال إنه مسخ وإنه كان رجلا ظالما ففعل ذلك به. وفي هذه البحيرة سمك تشبه رؤوسه رؤوس الطير ولها مناقير، وفيها أيضا دواب هائلة، وهذه البحيرة المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له، وفي أسفل هذه البحيرة التي بها تجتمع الأنهار جبل معترض يشق أكثر البطيحة ويمر منها إلى جهة الشمال مغربا فيخرج معه ذراع واحد من النيل فيمر في جهة المغرب، وهو نيل بلاد السودان الذي عليه أكثر بلادها، ويخرج مع شق الجبل الشرقي الذراع الثاني فيمر أيضا إلى جهة الشمال فيشق بلاد النوبة وبلاد أرض مصر، وينقسم في أسفل أرض مصر على أربعة أقسام: فثلاثة أقسام تنصب في البحر الشامي، وقسم واحد ينصب في البحيرة الملحة التي تنتهي إلى قرب الإسكندرية، وبين هذه البحيرة وبين الإسكندرية ستة أميال، وهي لا تتصل بالبحر بل هي من فيض النيل.. ومن تحت جبل القمر فيما بين الأنهار العشرة والبطيحات مارا مع جهة الشمال إلى أن يتصل بالبطيحة الكبيرة مقدار عشر مراحل، وعرض ما بين البطيحتين الصغيرتين من المشرق إلى المغرب ست مراحل، وفي هذه الأرض الموصوفة ثلاثة جبال مارة من المشرق إلى المغرب، فأما الجبل الأول فهو مما يلي جبل القمر ويسميه كهنة مصر جبل هيكل الصور، وأما الجبل الثاني الذي يلي هذا الجبل مع الشمال فإنهم يسمونه جبل الذهب؛ لأن فيه معادن الذهب، وأما الجبل الثالث الذي يلي الجبل الثاني مع الأرض فإنهم يسمون أيضا الأرض التي هو فيها أرض الحيات، ويزعم أهل تلك الأرض أن فيها حيات عظيمة تقتل بالنظر، وفي هذا الجبل الذي في هذه الأرض المذكورة عقارب على قدر العصافير سود الألوان تقتل في الحال.

وقد ذكر ذلك صاحب كتاب العجائب (= حسان بن المنذر) وذُكر أيضا في كتاب الخزانة لقدامة أن جرية النيل من مبدئه إلى مصبه في البحر الشامي خمسة آلاف ميل وستمائة ميل وأربعة وثلاثون ميلا وعرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد على ما حكاه صاحب كتاب العجائب أيضا، وعرضه في قبالة مصر ثلث ميل. وفي البطيحات الصغار وما بعدها من النيل الحيوان المسمى بالتمساح، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم أكبر من الجاموس، يخرج إلى الجهات المجاورة إلى النيل فيأكل بها الزرع ويرجع إلى النيل، وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها اللاش لا تظهر به إلا ندرة وهي كثيرة اللحم طيبة الطعم، وفيه أيضا سمك يسمى الأبرميس وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب، ويقال إنه ملك السمك وهو طيب الطعم لذيذ يؤكل طريا ومملوحا إلا أنه لطيف بقدر الفتر طولا ومثل نصفه عرضا وفيه الراي وهو سمك كبير لونه أحمر ومنه كبير وصغير وربما كان في وزن كبير ثلاثة أرطال وأقل، وهو طيب الطعم قريب من طيب السمك الذي يسمى الأبرميس، وفيه سمك يقال له البني وهو كبير عجيب الطعم والطيب وربما وجد في الواحد منه خمسة أرطال وعشرة أرطال وأكثر وأقل، وفيه أيضا من السمك قبيل يقال له البلطي وهو مدور في خلقة العفر الذي ببحيرة طبرية قليل الشوك طيب الطعم وقد يوجد منه الحوت الكبير الذي في وزنه خمسة أرطال وفيه سمك يقال له اللوطيس ويسميه أهل مصر بالفرخ، وهو حوت طيب الطعم كثير الشحم ويوجد منه في الندرة ما وزنه قنطار وأقل وأكثر، وفيه اللبيس وهو حوت طيب لذيذ شهي الطعم إذا طبخ لا يوجد فيه رائحة السمك ويصرف في جميع ما يصرف فيه اللحم من أنواع الطبيخ ولحمه شديد ويكون كبيرا وصغيرا

فمنه ما يكون وزنه عشرة أرطال ودون ذلك ولهذا السمك كله قشر وفيه أسماك لا قشور لها، ومنه الحوت الذي يسمى السموس وهو سمك كبير الرأس كثير السمن وربما بلغ وزن الحوت منه قنطاراً وأكثر وأقل ويباع لحمه مقطعا. وفيه سمك يسمى النيناريات وهو سمك مائل إلى الطول، طويل الفم كأنه منقار طائر، وفيه سمكة يقال لها أم عبيد تحيض ولا قشور لها، وفيه السمك الذي يقال له الحلبوة بغير قشر وربما كان في وزنه الرطل والأكثر والأقل وهو مسموم وفيه سمك يقال له الشال وله شوكة في ظهره يضرب بها فيقتل مسرعا، وفيه أيضا سمك في صور الحيات يقال لها الإنكليس مسمومة، وفيه أيضا سمك أسود الظهر له شوارب كبير الرأس دقيق الذنب يسمى الجرى، وفيه سمك مدور خشن الجلد يقال له القافو تمشط النساء به الكتان، وفيه أيضا السمكة المعروفة بالرعادة وهي مثل الكرة خشنة الجلد ذات سم إذا مسها الإنسان ارتعدت يده حتى تسقط منها وهذه الخاصة فيها موجودة ما دامت حية فإذا ماتت كانت كسائر السمك.

وفيه كلاب الماء وهي في صور الكلاب ملونات، وفيه فرس الماء وهو في خلقة الفرس لكنه لطيف وحوافره مثل أرجل البط تنضم إذا رفعتها وتنفتح إذا وضعتها وله ذنب طويل، وفيه أيضا السقنقور وهو صنف من التمساح لا يشاكل السمك من جهة يديه ورجليه ولا يشاكل التمساح لأن ذنبه أملس مستدير وذنب التمساح مسيف وشحمه يتعالج به للجماع وكذلك ملحه الذي يملح به، والسقنقور لا يكون بمكان إلا في النيل من حد اسوان والتمساح أيضاً لا يكون في نهر ولا بحر إلا ما كان منه في نيل مصر وهو مستطيل الرأس وطول رأسه نحو طول نصف جسده وذنبه ملوح، وله أسنان لا يقبض بها على شيء من السباع أو من الناس إلا ومر به في الماء، وهو بري ويجري لأنه يخرج إلى البر فيقيم به اليوم والليلة يدب على يديه ورجليه ويضر في البر لكن ضررا قليلا وأكثر ضرره في الماء، ثم إن الله سبحانه سلط عليه دابة من دواب النيل يقال لها اللشك، وهي تتبعه وترتصده حتى يفتح فمه فإذا فتحه وثبت فيه فتمر في حلقة ولا تزال تأكل كبده ومعاه حتى تفنيه فيموت. ويخرج أيضا إلى النيل من البحر الملح سمك يقال له البوري حسن اللون طيب الطعم في قدر الراي يكون وزن الحوت منه رطلين وثلاثة أرطال، ويدخل أيضا من البحر إلى النيل سمك يقال له الشابل وهو بقدر طول الذراع وأزيد على ذلك لذيد الطعم حسن اللحم سمين، ويدخل أيضا منه حوت يسمى الشبوط وهو ضرب من الشابل إلا أنه صغير في طول شبر ويدخله من البحر أنواع كثيرة. ويوجد أيضا في أسفل النيل بناحية رشيد وفوه ضرب من السمك له صدف يتولد عند آخر النيل إذا خالط الماء الحلو الماء الملح وهذا الصدف يقال له الدلينس وهو صدفة صغيرة في جوفها لحمة فيها نقطة سوداء وهو رأسها، وأهل رشيد يملحونه ويرفعونه إلى جميع بلاد مصر وللنيل في جريه أخبار وعجائب.

وأما بلاد النوبة التي قدمنا ذكرها فمنها مدينة كوشة الواغلة، وبينها وبين مدينة نوابة ستة أيام، وهي تبعد عن النيل يسيرا وموضعها فوق خط الاستواء وأهلها قليلون وتجاراتها قليلة، وأرضها حارة جافة كثيرة الجفوف جدا، وشرب أهلها من عيون تمد النيل هناك، وهي في طاعة ملك النوبة وملك النوبة يسمى كاسل وهو اسم يتوارثه ملوك النوبة وقرارته ودار ملكه في دنقلة. ومدينة دنقلة في غربي النيل وعلى ضفته ومنه



شرب أهلها، وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوها وأجملهم شكلا، وطعامهم الشعير والذرة والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم وشرابهم المزر المتخذ من الذرة واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة ويطبخونها بألبان النوق، وأما السمك فكثير عندهم جدا وفي بلادهم الزرائف والفيلة والغزلان. ومن بلاد النوبة مدينة علوة، وهي على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة وبينهما مسير خمسة أيام في النيل، وماؤهم من النيل وشربهم منه وبه يزرعون الشعير والذرة وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ، وحال علوة في هيأتها ومبانيها ومراتب أهلها وتجاراتهم مثل ما هي عليه حالات مدينة دنقلة، وأهل علوة يسافرون إلى بلاد مصر وبين علوة وبلاق عشرة أيام في البر وفي النيل أقل من ذلك انحدارا، وطول بلاد النوبة على ساحل النيل مسير شهرين وأكثر وكذلك أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب ويترلون أيضا إلى مدينة بلاق في النيل. ومدينة بلاق من مدن النوبة وهي بين ذراعين من النيل وأهلها متحضرون ومعايشهم حسنة، وربما وصلت إليهم الحنطة مجلوبة، والشعير والذرة عندهم ممكن كثير موجود وبمدينة بلاق يجتمع تجار النوبة والحبشة، وتجار أرض مصر يسافرون إليها إذا كانوا معهم في صلح وهدنة، ولباس أهلها الأزر والمآزر، وأرضها تسقي بالنيل وماء النهر الذي يأتي من بلاد الحبشة وهو واد كبير جدا يمد النيل وموقعه بمقربة من مدينة بلاق وفي الذراع المحيط بها وعليه مزارع أهل الحبشة وكثير من مدنها، وليس في مدينة بلاق مطر ولا يقع فيها غيث البتة وكذلك سائر بلاد السودان من النوبة والحبشة والكانميين والزغاويين وغيرهم من الأمم لا يمطرون ولا لهم من الله رحمة ولا غياث إلا فيض النيل وعليه يعولون في زراعة أرزاقهم ومعيشتهم الذرة والألبان والحيتان والبقول وجميع ذلك بمدينة بلاق كثير موجود.

ومن مدينة بلاق إلى جبل الجنادل ستة أيام في البر وفي النيل أربعة أيام انحدارا، وإلى جبل الجنادل تصل مراكب السودان ومنها ترجع لأنها لا تقدر على النفوذ في السير إلى مدينة مصر والعلة المانعة من ذلك أن الله جل اسمه خلق هذا الجبل وجعله قليل العلو من ناحية بلاد السودان وجعل وجهه الثاني مما يلي أرض مصر عاليا جداً، والنيل يمر من جهة أعلاه فيصب إلى أسفل صبا عظيما مهولا، وهناك حيث ينصب الماء أحجار مكدسة وصخور مضرسة والماء يقع بينها، فإذا وصلت مراكب النوبيين وغيرها من مراكب السودان وجاءت إلى هذا المكان من النيل لم يمكنها عبوره لما فيه من العطف المهلك فإذا انتهت المراكب بما فيها من التجار وما معهم من التجارات تحولوا عن بطون المراكب إلى ظهور الجمال وساروا إلى مدينة أسوان في البرية وبين هذا الموضع أعني الجبل وأسوان نحو من اثنتي عشرة مرحلة بسير الجمال. وأسوان هذه من ثغور النوبة إلا أنهم في أكثر الأوقات متهادنون وكذلك مراكب مصر لا تصعد في النيل إلا إلى مدينة أسوان فقط، وهي آخر الصعيد الأعلى، وهي مدينة صغيرة عامرة كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والدلاع وسائر البقول وبها اللحوم الكثيرة من البقر والحملان والمعز والخرفان وغيرها من صنوف اللحوم العجيبة البالغة في الطيب والسمن وأسعارها مع الأيام رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة وربما أغار على أطرافها خيل السودان المسمين بالبليين ويزعمون أنهم روم وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط وقبل الإسلام، غير



أنهم خوارج في النصارى يعاقبةٌ، وهم منتقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى.

وليس يتصل بمدينة أسوان من جهة الشرق بلد للإسلام إلا جبل العلاقي، وهو جبل أسفله واد جاف لا ماء به لكن الماء إذا حفر عليه وجد قريبا معينا كثيرا، وبه معدن الذهب والفضة وإليه تجتمع طوائف من الطلاب لهذه المعادن، وعلى مقربة من أسوان جنوبا من النيل جبل في أسفله معدن الزمرد في برية منقطعة عن العمارة ولا يوجد الزمرد في شيء من جميع الأرض إلا ما كان منه بذلك المعدن وبه طلاب كثيرة، ومن هذا المعدن يخرج ويتجهز به إلى سائر البلاد. وأما معدن الذهب فمن أسوان إليه نحو خمسة عشر يوما بين شرق وشمال، وهو في أرض البجة ولا يتصل بأسوان من جهة المغرب إلا لواحات وهي الآن خالية لا ساكن فيها وكانت في زمان سلف معمورة والمياه تخترق أرضها، وبها الآن بقايا شجر وقرى متهدمة لا تعمر وكذلك من ظهرها إلى ديار كوار وكوكو لا تخلو تلك الأرضون من جزائر نخل وبقايا بناء. وحكى الحوقلي أن بها إلى يومنا هذا معز وغنم وقد توحشت فهي تتوارى من الناس وتصاد كما يصاد الحيوان البري وأكثر الواحات نازلة مع أرض مصر وفيها بقايا عمارة. ومن مدينة بلاق إلى مدينة مركطة ثلاثون مرحلة، وهي مدينة صغيرة لا سور لها وهي مجتمعة الخلق متحضرة وبها شعير ويتعيشون به، والسمك والألبان عندهم كثير، وإليها يدخل التجار من مدينة زالغ التي على بحر القلزم.

الجزء الخامس: وهذا الجزء الخامس من الإقليم الأول تضمن من الأرضيين أكثر أرض الحبشة وجملة من بلادها، وأكبر مدنها كلها جنبيتة، وهي مدينة متحضرة لكنها في برية بعيدة من العمارات وتتصل عماراتها وبواديها إلى النهر الذي يمد النيل وهو يشق بلاد الحبشة ولها عليه مدينة مركطة ومدينة النجاغة، وهذا النهر منبعه من فوق خط الاستواء، وفي آخر نهاية المعمور من جهة الجنوب فيمر مغربا مع الشمال حتى يصل إلى أرض النوبة، فيصب هناك في ذراع النيل الذي يحيط بمدينة بلاق كما قدمنا وصفه، وهو نهر كبير عريض كثير الماء بطيء الجري، وعليه عمارات للحبشة وقد وهم أكثر المسافرين في هذا النهر حين قالوا إنه النيل وذلك لأنهم يرون به ما يرون من النيل في خروجه ومده وفيضه في الوقت الذي جرت به عادة خروج النيل، وينقص فيض هذا النهر عند نقصان فيض النيل ولهذا السبب وهم فيه أكثر الناس وليس كذلك حتى أنهم ما فرقوا بينه وبين النيل لما رأوا فيه من الصفات النيلية التي قدمنا ذكرها وتصحيح ما قلناه من أنه ليس بالنيل ما جاءت به الكتب المؤلفة في هذا الفن. وقد حكوا من صفات هذا النهر ومنبعه وجريه ومصبه في ذراع النيل عند مدينة بلاق وقد ذكر ذلك بطلميوس الأقلودي في كتابه المسمى بـــ "الجغرافية" وذكره حسان بن المنذر في كتاب"العجائب"عند ذكره الأنهار ومنابعها ومواقعها وهذا مما لا يهم فيه نبيل، ولا يقع في جهله عالم ناظر في الكتب باحث عن غرضه، وعلى هذا النهر يزرع أهل بوادي الحبشة أكثر معايشهم مما تدخره لأقواتها من الشعير والذرة والدخن واللوبيا والعدس وهو نهر كبير جدا لا يعبر إلا بالمراكب وعليه كما قلناه قرى كثيرة



وعمارات للحبشة ومن هذه القرى ميزة جنبيتة وقلجون وبطا وسائر القرى البرية، فأما المدن الساحلية فإنها تمتار مما يجلب إليها من اليمن في البحر.

ومن مدن الحبشة الساحلية مدينة زالغ ومنقونة واقنت وباقطى إلى ما اتصل بها من عمارات قرى بربرة، وكل هذه القرى ميرتها مما يتصيده أهلها من السمك ومن الألبان وسائر الحبوب التي يجلبونها من قراهم التي على ضفة النهر المذكور. ومدينة النجاغة مدينة صغيرة على ضفة النهر وأهلها فلاحون يزرعون الذرة والشعير وبه يتجهزون، ومنه يتعيشون، ومتاجر هذه البلدة قليلة، وصنائعهم النافعة لأهلها قليلة، والسمك عندهم كثير ممكن، والألبان غزيرة وبين هذه المدينة ومدينة مركطة السابق ذكرها ستة أيام انحدارا في النهر وفي الصعود أزيد من عشرة أيام على قدر الإمكان وزوارقهم صغار وخشبهم معدوم وليس بعد هاتين المدينتين من جهة الجنوب شيء من العمارات ولا شيء يعول عليه. وبين مدينة النجاغة ومدينة جنبيتة ثماني مراحل، وكذلك بين مركطة وجنبيتة مثلها وجنبيته كما حكيناه في برية منقطعة من الأرض، وشرب أهلها من الآبار وماؤها يجف في أكثر الأوقات حتى لا يوجد، والغالب على أهل هذه البلدة أنهم طلاب معادن الفضة والذهب، وذلك جل طلبهم وأكثر معايشهم منه وهذه المعادن في جبل مورس وهو على أربعة أيام من مدينة جنبيتة، ومن هذا المعدن أيضا إلى أسوان نحو من خمسة عشر يوما. ومن مدينة جنبيتة إلى مدينة زالغ التي على الساحل من أرض الحبشة نحو من أربع عشرة مرحلة، ومدينة زالغ على ساحل البحر الملح المتصل بالقزم، وقعر هذا البحر أقاصير كله متصلة إلى باب المندب لا تعبره المراكب الكبار وربما تجاسرت عليه المراكب الصغار فتتخطفها الرياح فتتلفها، ومن زالغ إلى ساحل اليمن ثلاثة مجار مقدرة الجري، ومدينة زالغ صغيرة القطر كثيرة الناس والمسافرون إليها كثير وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي يتصرف بها في بلاد الحبشة ويخرج منها الرقيق والفضة، وأما الذهب فهو فيها قليل، وشرب أهلها من الآبار ولباسهم الأزر ومقندرات القطن.

ومن مدينة زالغ إلى مدينة منقونة خمسة أيام في البر، وأما في البحر فأقل من ذلك، ويقابلها في البرية بلدة اسمها قلجون وبينهما اثنا عشر يوما في البرية، ومن منقونة إلى أقنت أربعة أيام في البر وهي على الساحل في الجنوب ويسافر إليها في الزوارق الصغار التي لا تحمل الشيء الكثير من الوسق لأن هذا البحر كله من جهة أرض الحبشة تروش وأقاصير متصلة لا تجري به المراكب كما قلناه، ومدينة اقنت صغيرة ليست بكبيرة ولا بكثيرة الخلق، وأكثرها خراب وأهلها قليل وأكثر أكلهم الذرة والشعير وسمكهم موجود وصيدهم كثير، وأما عامة أهلها فإنهم يعيشون من لحوم الصدف المتكون في تلك الأقاصير من البحر يملحونه ويصيرونه إداما لهم. ومن مدينة اقنت إلى باقطي خمسة أيام، وباقطي هذه مدينة صغيرة جدا كالقرية الجامعة ليست بمسورة لكنها على تل رمل، وبينها وبين البحر نحو من رمية سهم، وأهلها مقيمون بها قليل سفرهم منها وقليلا ما يدخل المسافرون إليها لضيق معايشها وكون متاجرها مجالبة وبواديها شاقة وجبالها جرد لا نبات فيها وليس فوقها مما يلي الجنوب عمارة ولا قرى إلا ما كان منها قريبا، ولهم إبل يتصرفون عليها ويتعيشون منها ويتجرون بها. ومنها على ثمانية أيام مدينة بطا وتتصل بها قرى بربرة وأولها جوة وهي منها قريبة. وجملة الحبشة يتخذون

الإبل ويكتسبونها ويشربون ألبانها ويستخدمون ظهورها وينتظرون لقاحها، وهي أجل بضاعة عندهم، ويسرق بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم إلى أرض مصر في البر والبحر.

وتجاور أرض الحبشة في جهة الشمال أرض البجة، وهي بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد، وليس بأرض البجة قرى ولا خصب وإنما هي بادية جدبة ومجتمع أهلها ومقصد التجار منها إلى وادي العلاقي وإليه ينجلب أهل الصعيد وأهل البجة وهو واد فيه خلق كثير وجمع غزير. والعلاقي في ذاته كالقرية الجامعة والماء بها من آبار عذبة، ومعدن النوبة المشهور متوسط في أرضها في صحراء لا جبل حوله وإنما هي رمال لينة وسباسب سائلة، وإذا كان أول ليالي الشهر العربي وآخره خاض الطلاب في تلك الرمال بالليل فينظرون فيها كل واحد منهم ينظر فيما يليه من الأرض، فإذا أبصر التبر يضيء بالليل علم على موضعه علامة يعرفها وبات هنالك فإذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته في كوم الرمل الذي علم عليه، ثم يأخذه ويحمله معه على نجيبه فيمضي به إلى آبار هنالك ثم يقبل على غسله بالماء في جفنه عود فيستخرج التبر منه ثم يؤلفه بالزئبق ويسبكه بعد ذلك فما اجتمع لهم منه تبايعوه بينهم واشتراه بعضهم من بعض ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، وهذا شغلهم دأبا لا يفترون عنه ومن ذلك معايشهم ومبادئ مكاسبهم وعليه يعولون. ومن وادي العلاقي إلى عيذاب من أرض البجة اثنا عشر يوما، ومن بلاد البجة مدينة بختة وهي ايضاً قرية مسكونة وبها سوق لا يعول عليها، وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معايشهم وهي أكثر مكاسبهم وإلى هذه القرية تنسب البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطا وهي بديار مصر معروفة بذلك. وبين أرض النوبة وأرض البجة قوم رحالة يقال لهم البليون، ولهم صرامة وعزم وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة، وأكثر أهل البجة نصارى خوارج على مذهب اليعاقبة. ويتصل أيضا بأرض الحبشة على البحر بلاد بربرة وهم تحت طاعة الحبشة وهي قرى متصلة وأولها قرية جوة ومنها إلى ياقطي ستة أيام، ومنها أيضا إلى بطا البرية سبعة أيام، ومدينة بطا المتقدم ذكرها فوق خط الاستواء في نهاية المعمور.)

تبدو ملاحظات الإدريسي منصرفة إلى المسافات واسماء المدن وأحوال الناس، وفي المظاهر الطبيعية والإقتصادية، وهي تكشف طرز المعيشة ومصادرها، ولكنها بسبب الطابع الشامل لكتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) كما أشرنا من قبل، تتراوح بين الشمول والتسرّع، وتحتاج الى نصوص أخرى تضيء بعض الجوانب فيها، وقد وجدنا من المفيد أن ندرج ملامسة المسلمين الأولى لإفريقيا، وأقصد بها إفريقيا الشمالية حيث كان ينصرف الاسم في المخيال الإسلامي أول الأمر، واخترنا لذلك نصا مكثفا للحميري من كتاب (الروض المعطار في الروض المعطار في خبر الأقطار) والمعلومات الواردة فيه تتردد في مصادر أخرى قديمة لكنها ترسم حالة التوجس المأثورة من هذه البلاد..



3. إفريقية، ابن عبد المنعم الحميري، من كتاب (الروض المعطار)

(إفريقية: سميت بافريقس بن أبرهة ملك اليمن لأنه غزاها وافتتحها، قيل كان بالشين المعجمة ثم عرب بالسين، وقال قوم: معنى إفريقية صاحبة السماء، وقيل سميت بافريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجه قطورا، وقيل أهل إفريقية من ولد فارق بن مصر. وطول إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً، وعرضها من البحر إلى الشرق. وبها يصاد الفنك الجيد. ورووا عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية ففصلوا فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم شدة البرد الذي أصابهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لكن إفريقية أشد برداً وأعظم أجراً " وفي رواية أخرى "إن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية" وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال: ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلا بموضع في المغرب يقال له إفريقية، فبينما القوم بازاء عدوهم نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون لله تبارك وتعالى سجداً فلا يترع عنهم أخفافهم إلا خدامهم في الجنة".

وغزا إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة سبع وعشرين، ومعه عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ومروان بن الحكم، رضي الله عنهم، وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسميت غزوة العباد أو العبادلة، وبرز جرجير ملك إفريقية لابن الزبير فقتله ابن الزبير رضي الله عنهما، وحوى المسلمون غنائم كبيرة، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وغلبوا على كل مدينة فيها وفتحوها عنوة، وكان سلطان جرجير من طرابلس إلى طنجة. وكان جرجير لما عزم على لقاء المسلمين أخرج ديدبانه، وهو منظر من خشب، وأمر ابنته فصعدت الديدبان وسفرت عن وجهها، وكان معها أربعون خادماً في الحلي والحلل، وقدم كراديسه، وهو تحت الديدبان وقال: والمسيح لأن قتل عبد الله بن سعد رجل منكم إلا زوجته إياها، وسقت إليه ما معها من الخدم والنعمة، وأنزلته مني المترلة التي لا يطمع فيها أحد عندي. وبلغ خبره عبد الله، فقال لأهل عسكره: وحق محمد النبي صلى الله عليه وسلم، لأن قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته وما معها، وكان في عشرين ألفاً وجرجير في عشرين ومائة ألف، وتزاحف الناس، ورأى ابن الزبير رضي الله عنهما عورة من جرجير- رآه خلف أصحابه منقطعاً عنهم على برذون أشهب معه جاريتان تظللانه بريش الطواويس- فدخل على عبد الله بن سعد من كسر خبائه وهو مستلق على فراشه يفكر في أمره، فقال له: عورة من عدونا وخشيت الفوت، فاخرج فاندب الناس، فخرج فقال: أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم، قال: فتسرع إلي جماعة أخذت منهم ثلاثين فارساً، قلت: إني حامل، فاصرفوا عن ظهري من أرادني فإني سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله تعالى. ثم حمل في الوجه الذي هو فيه، وذبوا عنه وابتغوه، فخرق الصفوف إليه فحسب أنه رسول، فلما رأى السلاح ثنى برذونه هارباً، وأدركته، قال: فطعنته، فسقط ميتاً, فرميت بنفسي عليه، وألقت جاريتاه أنفسهما فقطعت يد إحداها، وأجهزت عليه، ورفعت رأسه على رمحي، وجال أصحابه، وحمل المسلمون في ناحيتي، وكبّروا، فقتلوهم كيف شاءوا، وثارت الكمناء من كل ناحية، وسبقت خيول



المسلمين ورجالهم إلى حصن سبيطلة، فمنعوهم من دخوله، وركبهم المسلمون يميناً وشمالاً في السهل الوعر، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم، وأكثروا فيهم الأسر حتى لقد كنت أرى في الموضع الواحد ألف أسير.

وذكر أشياخ من أهل إفريقية أن ابنة جرجير لما أشرفت على العرب في عسكرهم، قالت لأبيها: لا تسرف في قتل هؤلاء ونفلنيهم، قال: قد نحلتك إياهم. فلما قتل أبوها تنازع الناس في قتله، وهي تنظر، فقالت: ما للعرب يتنازعون؟ قيل لها: يتنازعون في قتل أبيك، فبكت، وقالت: قد رأيت الذي أدرك أبي فقتله، فقال لها عبد الله بن أبي سرح الأمير: هل تعرفينه؟ قالت: إذا رأيته عرفته، فأخذ عبد الله الناس بالعرض فمروا بين يديها حتى مر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقالت: هذا قاتل أبي. فقال له ابن أبي سرح: كتمت عني قتلك أباها يا أبا بكر، فقال: قد علمه الذي قتلته له، فنفله ابن أبي السرح ابنة الملك، فاتخذها أم ولد. وكان ابن الزبير رضي الله عنهما في ذلك الوقت ابن بضع وعشرين سنة، ونزل ابن أبي سرح على باب المدينة فحصرها بمن معه حصاراً شديداً حتى فتحها، فأصاب فيها شيئاً كثيرا، وأصاب أكثر أموالهم الذهب والفضة، وهو الذي افترع إفريقية، فكانت توضع بين يديه أكوام الذهب والفضة، فقال للأفارق: من أين لكم هذا؟ فجعل رجل منهم يلتمس شيئاً في الأرض حتى جاء بنواة زيتون فقال: من هذا أصبنا الأموال لأن أهل هذا البحر ليس لهم زيت فكانوا يأتوننا يشترون الزيت منا.

وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار هرقلي، وسهم الراجل ألف دينار. وبث ابن أبي سرح السرايا والغارات من مدينة سبيطلة، فبلغت خيله قصور قفصة، فسبوا، وغنموا، وحازوها إلى مرماجنة، فأذلت تلك الوقعة الروم بإفريقية، وأصابهم رعب شديد، فلجأوا إلى الحصون والقلاع، واجتمع أكثرهم بقصر الأجم، فطلبوا من عبد الله بن أبي سرح أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار ذهباً على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون من قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه لهم. ودعا عبد الله بن سعد الأمير عبد الله بن الزبير، فقال: ما أحد أحق بالبشارة منك، فبشر أمير المؤمنين والمسلمين بالمدينة بما أفاء الله تعالى عليهم، فتوجه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فبعض الناس يقول: دخل المدينة من سبيطلة في ثماني عشرة ليلة، ومنهم من يقول: وافى المدينة في أربعة وعشرين يوماً من خروجه من سبيطلة. ثم انصرف ابن أبي سرح من إفريقية بعد إقامته بها ستة أشهر راجعاً إلى مصر ووصل إلى المدينة، فبيع المغنم، فصفق (= أمضاه، وحاز عليه) مروان بن الحكم على الخمس، وهي خمسمائة ألف دينار فوضعه عثمان رضي الله عنه، فكان ذلك من أسباب القول في عثمان رضي الله عنه، وآل الأمر إلى قتله وما تبع ذلك من الفتن، وأصاب الناس ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه من دخول إفريقية في عهده لأنها مفرقة غير مجمعة، وأن ماءها قاس ما شربه أحد من المسلمين إلا اختلفت قلوبهم، فلما دخلوها وشربوا ماءها قتلوا خليفتهم عثمان رضي الله عنه، ثم كانت الفتن.
وقال أبو عبيد: لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه طرابلس كتب إلى عمر رضي الله عنه بما فتح الله عليه وأنه ليس أمامه إلا إفريقية، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إذا ورد عليك كتابي هذا فاطو دواوينك ورد علي

جندي، ولا تدخل إفريقية في شيء من عهدي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول"إفريقية مفرقة لأهلها غير مجمعة، ماؤها قاس ما شربه أحد من المسلمين إلا اختلفت قلوبهم "فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه العسكر بالرحيل قافلاً. وفي رواية ان عمر رضي الله عنه كتب إليه: إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت).

4. ذكر السودان، وأجناسهم، وديارهم. المسعودي.من كتاب (مروج الذهب)

(قال المسعودي: لما تفرق ولد نوح في الأرض، سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا، فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج..وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام، وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج، وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند، وإن كانت مياههما متصلة، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف، وهو الذي تتخذ منه الأمشاط كالقرون، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش. وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة؛ فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الإبل، ومنهم من رأى أن ذلك كان بجمع بين الإبل والنمورة، وأن الزرافة ظهرت من ذلك، ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولّدة الخيل والحمير، وتدعى الزرافة بالفارسية اشتركاو، وقد كانت تهدى إلى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل إلى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بني العباس وولاة مصر، وهي دابة طويلة اليدين والرقبة، قصيرة الرجلين، لا ركبتين لرجليها وإنما الركبتان ليديها.

وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاماً كثيراً في نتاجها، وأن في أعالي بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة في حمارة القيظ إلى شرائع المياه، فتتسافد هنالك، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع منها ما يمتنع، فيجيء من ذلك خلق كثير مختلفون في الصورة والأشكال؛ منها الزرافة ذات الأظلاف، وهي دابة منحنية إلى خلفها، منصوبة الظهر إلى مؤخرها، وذلك لقصر رجليها، وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا في بدء نتاجها، وأن النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق، وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم، وأن ذلك كاتساع أرحام القلاص العربية، لفوالج كرمان وغيرها من إبل خراسان، فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البخت والجمازات، ولا ينتج بين بختي وبختية، وانما يصح هذا النوع من الإبل بين فوالج الإبل، وهي ذات السنامين، وبين قلاص الإبل، وهي النوق العربية، وكنتاج البخت بين البجاوية والمهرية، وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق في كتابه الكبير (في الحيوان) ومنافع أعضائها وغير ذلك



من سائر أعضاء الحيوان. والزرافة عجيبة الفعل في إلفها، وتوددها إلى أهلها، وهي كالفيلة: منها وحشية، ومنها مستأنسة أهلية، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحابش الذين صاروا عن يمين النيل، ولحقوا بأسافل البحر الحبشي، وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج، فسكنت الزنج في ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في (أسافل) بحر الزنج كما أن أقاصي بحر الصين متصل ببلاد السيلى.. وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة، وأقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة حارة. واتخذها الزنج دار مملكة، وملكوا عليهم ملكا سموه وقليمى، وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدمنا آنفاً، ويركب وقليمى- وهو يملك ملوك سائر الزنوج- في ثلثمائة ألف فارس، ودوابهم البقر، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل، ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد، ولا غيرهم من الأحابش، ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً. ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال.

والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وحشية كلها غير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها، بل تقتلها، وذلك أنهم يطرحون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم في الماء، ويختفي رجال الزنج، فترد الفيلة لشربها، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء أسكرها، فتقع، ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ما قدمنا، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها؛ فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة، في كل ناب منها خمسون ومائة مَن، بل أكثر من ذلك (والاثنان منها ثلاثمائة مَن، واكثر من ذلك) فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان، ومن عمان إلى حيث ذكرنا، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيرا، وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكنتها الأعمدة من العاج، ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج، ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة و لم يتقوس؛ لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا، ويستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها، كاستعمال النصارى في الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة، وأهل الصين لا يتخذون الفيلة في أرضهم، ويتطيرون من اقتنائها (عندهم) والحرب عليها؛ لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم...

ولنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها: فأما تفسير اسم ملك الزنج -الذي هو وقليمى- فمعنى ذلك ابن الرب الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حكمه وحاد على الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض، ويسمون الخالق عز وجل ملكنجلو، وتفسيره الرب الكبير، والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغبهم في القرب من بارئهم،



ويبعثهم على طاعته، ويرهبهم من عقابه وصولته، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم. وأكلهم الموز، وهو ببلادهم كثير، وكذلك بأرض الهند، والغالب على أقوات الزنج الذرة، ونبت يقال له الكلاري يقلع من الأرض: كالكمأة، والراسن، ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن، ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذي يكون بالشام ومصر، ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم، ومن هوى منهم شيئاً من نبات أو حيوان أو جماد يجده، وجزائرهم في البحر لا تحصى كثرة، وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج، ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين، فيها خلائق من المسلمين يتوارثها ملوك من المسلمين، يقال لها قنبلو. وأما النوبة فافترقت فرقتين: فرقة في شرق النيل وغربيه، وأناخت على شطية، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة، وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة، والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة، وبنوا مدينة عظيمة وسموها سرية.

قال المسعودي: وأنتهيت في تصنيفي إلى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة (وكنت بفسطاط مصر) فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلة للنوبة "كابل" بن سرور، وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدا، وملكه يحتوي على ماقرة وعلوة، والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس، وإليه تضاف الريح المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان. وأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشعبوا فرقا، وملكوا عليهم ملكا، وفي أرضهم معادن الذهب، وهو التبر، ومعادن الزمرد، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة، فيغيرون ويسبون، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة، إلى أن قوى الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة؛ فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعه، وقويت ربيعه بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، وصاحب المعدن في وقتنا هذا-وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة- أبو مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعه، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعه وأحلافها من مصر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية، وهم الحداربة، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنما لهم. وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر، وهي مدينة عظيمة، وهي دار مملكة النجاشي، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة، يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي، ولهم ساحل لهم فيه مدن فيها كثيرة، وهو مقابل لبلاد اليمن؛ فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع، وهذه مدن خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة، وبن ساحل الحبشة ومدينة غلافقة- وهي ساحل زبيد من أرض اليمن- ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي نواس، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن، وصاحب زبيد في وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب

الحرملى ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمتعة، وبينهم مهادنة وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين-أعني ساحل اليمن، وساحل الحبشة- أقل المواضع فيه عرضاً، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين: منها جزيرة العقل، يقال: إن فيها ماء يعرف بماء العقل، يستسقى منه أرباب المراكب، ويفعل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً، وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وماله من الخواص، وذكر علة ذلك، وقد أتينا على الخبر في كتابنا "أخبار الزمان" عند ذكرنا لأخبار المتطببين في تجارهم وما كان من قضاياهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الإسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة، وله في هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه.

وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقطري، ولا يوجد إلا فيها، ولا يحمل إلا منها، وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الإسكندر بن فيلبس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطرى الذي يقع في الأيارجات وغيرها، فصيَّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخس، وهي مدينة أسطاغر، في المراكب بأهليهم في بحر القلزم؛ فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند، وملكوا الجزيرة، وكان للهند بها صنم عظيم، فنقل ذلك الصنم في أخبار يطول ذكرها، وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها، ومضى الإسكندر فظهر المسيح فتنصر من كان بها إلى هذا الوقت، وليس في الدنيا-والله أعلم- موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يداخلهم في أنسابهم رومي ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة، وهم في هذا الوقت تأوى إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج، وهي المراكب، على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر، ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطرى وغيره من العقاقير، ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير. وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب- مثل الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة-فلكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك، ودار مملكة فيه...)

ومن المفيد أن نردف نص المسعودي بآخر للبكري يؤدي الوظيفة نفسها في التعريف بالأبعاد التاريخية والإجتماعية لإفريقيا، ويلاحظ أن المسعودي سرعان ماأصبح مصدرا معتمدا يأخذ عنه الجغرافيون، ومثال ذلك البكري في (المسالك والممالك) الذي نسج على منواله، ونقل أقواله، الأمر الذي دعانا إلى حذف الفقرات المكررة من نص البكري

5. بلاد السودان، البكري (توفي487هـ = 1094م) من كتاب (المسالك والممالك)

(زعموا أن بلاد السودان مسيرة سبع سنين، وأن أرض (مصر) كلها جزء واحد من ستين جزءا منها. ويتصل بالسوس الأقصى وبينه وبين السوس الأدنى عشرون يوماً رمال ومفاوز فيها المدينة المعروفة بمدينة



النحاس وقباب الرصاص التي صار إليها موسى بن نصير في مدة الوليد بن عبد الملك وما رأى فيها من العجائب. وفيها قوم من الأشبان عمّروا تلك الديار. والوصول إليها ممتنع، بل لا سبيل إليها.. والزنج أطيب الأمم أفواها لرطوبة أفواههم وكثرة الريق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ له أن يجرب. وقال يزيد بن أبي حبيب: إن النوبة ليس بينهم وبين المسلمين عهد ولا ميثاق، وإنما هو أمان لبعضهم من بعض على أن يؤدوا كذا وكذا رأسا، وذكر بعض المصريين أنه قرأ في بعض الدواوين بالفسطاط قبل أن تحرق عهودهم على ما يؤدونه الآن. وبدء اتصال مملكتهم بأرض أسوان موضع بمريس، ولما افتتحت مصر أمر عمر أن تغزى النوبة، فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة فأبى عمرو بن العاص من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبد الله بن أبي سرح سنة إحدى وثلاثين، فقاتلوه قتالاً شديداً فأصيبت عين معاوية بن حديج وعين أبي شمر بن أبرهة وأعين جماعة من المسلمين، فحينئذ سموا رماة الحدق. وقال الشاعر: (رجز):

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

ومنهم تعلم الرمي أهل الحجاز واليمن، فصالحهم عبد الله بن أبي سرح على رؤوس من السبي معلومة مما يسبيه هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرها من الممالك المجاورة له، وعدد ذلك ثلاثمائة وخمسة وستون رأساً، وإنما أرادوا عدد أيام السنة، وهي جارية إلى الآن، وللأمير بمصر عدد ولعامله بأسوان عدد وللحاكم بها عدد يبلغ نحو الثمانين رأساً. بلد أسوان أهله العرب من قحطان وربيعة ومضر وقريش ناقلة من الحجاز، وهو بلد خصيب كثير النخل، توضع النواة في تربته فتنبت نخلة تثمر لسنتين تمراً، وبلاد البصرة وغيرها لا تغرس النخل فيها إلا في الفسيل وما يخرج من النواة فليس يثمر. ولأهل أسوان في بلاد مريس من أرض النوبة ضياع كثيرة ابتاعوها منهم في زمن بني أمية يؤدون خراجها إلى ملك النوبة. .

وقال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود ذا مشافر. ومن النوبة النساء المعروفات بالمقّورات لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهن ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهن بقدر ما يحتاج الوطء، وهن أطيب النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل (في شق) ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم. أخبرني بذلك جماعة من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكة، أنهن رأين ذلك وشاهدنه. ومملكة الزغاوة تحاذي مملكة النوبة على ضفة النيل الثانية.)

6. ممالك الحبشة والسودان، اليعقوبي، من كتاب (تاريخ اليعقوبي)

(وكان ولد حام بن نوح قصدوا عند تفرق ولد نوح من أرض بابل إلى المغرب، فجازوا من عبر الفرات إلى مسقط الشمس، وافترق ولد كوش بن حام، وهم الحبشة والسودان، لما عبروا نيل مصر فرقتين، فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب، وهم النوبة، والبجة، والحبشة، والزنج، وقصدت فرقة الغرب، وهم زغاوه، والحسن، والقاقو، والمرويون، ومرندة، والكوكو، وغانه. فأما النوبة فإنها لما صارت في الجانب الغربي



من النيل جاورت مملكة القبط، وهم ولد بيصر بن حام بن نوح تملكوا هناك، فصارت النوبة مملكتين، فإحداهما: مملكة الذين يقال لهم مقرة، وهم في شرق النيل وغربه، ومدينة مملكتهم دنقلة، وهم الذين سالموا المسلمين، وأدوا إليهم البقط، وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع، واتساع المملكة شبيه بشهرين. والمملكة الثانية من النوبة الذين يقال لهم علوة، أعظم خطرا من مقرة، ومدينة مملكتهم يقال لها سوبة، ولهم بلاد واسعة شبيهة بثلاثة أشهر، والنيل متشعب عندهم في عدة خلجان.

مملكة البجة، وهم بين النيل والبحر، ولهم عدة ممالك، في كل بلد ملك منفرد. فأول مملكة البجة من حد أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس، ومدينة المملكة يقال لها: هجر، ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب، فمنهم: الحدرات، وحجاب، والعماعر وكوير، ومناسة، ورسفة، وعربرتعة، والزنافج، وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن. والمملكة الثانية من البجة، مملكة يقال لها: بقلين، كثيرة المدن، واسعة يضارعون في دينهم المجوس والثنوية، فيسمون الله، عز وجل، الزبجير الأعلى، ويسمون الشيطان صحي حراقة، وهم الذين ينتفون لحاهم، ويقلعون ثناياهم، ويختتنون، وبلادهم بلاد مطر.ثم المملكة الثالثة يقال لها: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة، ويحاربون هؤلاء، وزرعهم الذي يأكلونه، وهو طعامهم واللبن.والمملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له: باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بركات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له: حل الدجاج، وهم قوم يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل، ويقولون: لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم. والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له: فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب، جلد، مستعدون للحرب والقتال. ثم المملكة السادسة، وهي مملكة النجاشي، وهو بلد واسع، عظيم الشأن، ومدينة المملكة كعبر، ولم تزل العرب تأتي إليها للتجارات، ولهم مدن عظام، وساحلهم دهلك، ومن في بلاد الحبشة من الملوك، فهم من تحت يد الملك الأعظم يعطونه الطاعة، ويؤدون إليه الخراج، والنجاشي على دين النصرانية اليعقوبية، وآخر مملكة الحبشة الزنج، وهم يتصلون بالسند وما ضارع هذه البلدان، ويتصل أيضاً بما دون الزنج مما يتاخم السند والكرك، وهم قوم لهم حساب، واجتماع قلوب.

وأما السودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب فإنهم قطعوا البلاد، فصارت لهم عدة ممالك، فأول ممالكهم: الزغاوة، وهم النازلون بالموضع الذي يقال له: كانم، ومنازلهم أخصاص القصب، وليسوا بأصحاب مدن، ويسمى ملكهم كاكرة. ومن الزغاوة صنف يقال لهم: الحوضن، ولهم ملك هو من الزغاوه. ثم مملكة أخرى يقال لهم: ملل، وهم يبادون صاحب كانم، ويسمى ملكهم: ميوسي.



ثم مملكة الحشة، ولهم مدينة يقال لها: ثبير، ويسمى ملك هذه المدينة مرح، ويتصل بهم القاقو، إلا انهم معولون، وملكهم ملك ثبير. ثم مملكة الكوكو، وهي أعظم ممالك السودان، وأجلها قدراً، وأعظمها أمراً، و كل الممالك تعطي لملكها الطاعة، والكوكو اسم المدينة، ودون هذا عدة ممالك يعطونه الطاعة، ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلدانهم، فمنهم مملكة المرو، وهي مملكة واسعة، وللملك مدينة يقال لها: الحيا، ومملكة مردية، ومملكة الهربر، ومملكة صنهاجة، ومملكة تذكرير، ومملكة الزيانير، ومملكة أرور، ومملكة بقاروت، فهذه كلها تنسب إلى مملكة الكوكو. ثم مملكة غانة، وملكها أيضا عظيم الشأن، وفي بلاده معادن الذهب، وتحت يده عدة ملوك، فمنهم مملكة: عام، ومملكة: سامة، وفي هذه البلاد كلها الذهب.)

ويتابع الدمشقي أسلافه في المسار ذاته، فيكشف عن جوانب أخرى تضيء الأقوام الزنجية ومواطنها.

7. أخبار أولاد حام من السودان. الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة في السفينة فدعا عليه نوح عليه السلام أن يغير الله نطفه فجاءت بالسودان. وقيل إنه أتاه فوجده نائما وكشفت الريح عورته وذكر ذلك لأخويه سام ويافث فنهضا وستراه وهما مدبران وجوههما حتى لا يريا سؤته، فلما علم نوح عليه السلام بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث، وأما الحق فإن طبيعة بلادهم اقتضت أن يكونوا على ما هم عليه من الأوصاف المخالفة للبياض فإن غالبهم في جهة الجنوب والمغرب من الأرض...وأما السودان فطوائف كثيرة، ونبدأ منهم بمكان مساكنهم الواغلة في الجنوب، ويطلق عليهم التكرور. وليس هذا الاسم مما يعّم طوائفهم وإنما يطلق على طائفة منهم يسكنون بلدا يسمى بهذا الاسم وكلهم يرجعون إلى مغراوة وسفارة، وينقسمون إلى كفار ومسلمين فالمسلمون يسكنون المدن ويلبسون المخيّط، والكفار طوائف وهم لملم وتميم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون فروجهم بجلود ومن بُعد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم دمدم، والذهب في بلادهم كثير لكنهم لا يستعملونه وإنما يستعملون النحاس يحمل إليهم فيترك على أطراف أرضهم فإذا رأوه اشتغلوا بنهبه والقتال عليه فيأخذ جالبوه ما قدروا عليه من الذهب ويهربون، ومن طوائف المسلمين الخدمين غانم وغانة وكوكو وكوار وفزّان وزغوا وكل هؤلاء منسوبون إلى الأماكن التي يسكنون فيها.

ومن طوائف السودان الحبوش المقاربة لزغاوة، ويقال إنهم الحبشة العليا وهم كفار عراة ودينهم المجوسية، يعبدون الأوثان ويسمونها الدكاكير، ومن سنتهم التي ينقادون إليها ويعتمدون في الحكومة عليها أنهم إذا مات أحد دفنوا معه أقرب الناس إليه وأشد حبا له وثيابه وسلاحه..ومن طوائف السودان كناور وصورا وحجامى وقلجور وكلهم حبوش نصارى، وأما حبش فهو حبش بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وهم ستة أصناف أمحره ويقال أن النجاشي منهم والملك في عقبه وسحرت وجزل وهم حسان الصور وخومد ودامود، وهذه الأجناس أصول تتفرع منها شعوب وقبائل لا تحصى كثرة. ومن طوائف السودان النوبة

ويقال إنهم منسوبون إلى نوبى بن قفط بن مصر بن نيصر بن حام بن نوح، وهم أصناف على ما حكاه بعض تجار أسوان أنج وأزكرسا والتبان وأندا وكنكا، فأنج وأندا يسكنون بجزيرة عظيمة من جزائر النيل تسمى أندا وهم بها لا يستترون بشيء البتة، وأزكرسا بعيدون من النيل والتبان في أرضهم معادن الحديد، ولا يعيش بأرضهم حيوان لشدة حرها.. ومن طوائف السودان أيضا البجاة ببحر القلزم وإلى مجرى النيل وهم صنفان حذارية وملكهم يسكن مدينة هجر والزنافخة وملكهم يسكن مدينة نقلين، وكلهم ينتفون لحاهم ويدعون شعرات يسيرة، وهم عرايا من المخيط ملتحفون بثياب مصبغة ولهم مدائن أوتل وعدل وجزيرة دهلك وجزيرة سواكن ومدينة عيذاب فرضه التجار من اليمن ومصر ويتصل بهم طائفة من السودان تسمى خاسة السفلى كفار وخاسة العليا مسلمون وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط ولا يسكنون المدن.

ومن طوائف السودان الزنج وهم الزاغوان والزغو من ولد قفط بن مصر بن حام، وهم صنفان قبلية وكنجوية، فقبلية اسم للنمل وكنجوية اسم للكلاب ومدينتهم العظمى مقدشوا يأتونها التجار من سائر الأمصار ولها ساحل يسمى الزنجبار ولهم ممالك وهم قبائل وأكثرهم عراة وهم سباع بني آدم، ويقال أن مسافة أرضهم في الطول والعرض سبعمائة فرسخ وهي أودية وجبال وديس ورمال وهي متصلة ببلاد دغوطة وساحل بحر جزيرة القمر المسمى البحر الجامد وفيه قبة أرين التي هي وسط الوسط من خط الاستواء والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي محددّون الأسنان يأكلون الناس لشدة توحشهم وليس للكفار منهم ملة ولا نحلة وإنما لهم رسوم تصنعها لهم ملوكهم، واسم ملكهم الكبير توقليم معنى الاسم ابن الرب وهذه التسمية لملكهم في سائر الأمصار والزنج الشماليون منهم من لهم في لسانهم فصاحة وبلاغة حتى أنهم يصنعون الخطب يضمنونها المواعظ المبكية يخطبون بها في المحافل أيام أعيادهم ومشاهدهم. وأما باقي طوائف السودان الذين ببحر الهند وسواحله والهند والسند والمند فيقال إنهم أخوة، وأبوهم نوفير بن قفط ويقال بل كوش بن حام.)

فصّل الدمشقي في طوائف (السودان) حسب التوزيع الجغرافي للمناطق التي يستوطنونها، مستفيدا من المدونات التي سبقته، وبخاصة المسعودي، وكما يلاحظ فان أسلوب الإستطراد كان شائعا بين الرحالة والجغرافيين، وتوزع اهتماماتهم بين ملاحظات خاصة بطبائع البشر، وأخرى خاصة بالطبيعة الجغرافية، وثالثة متصلة بالحياة اليومية. ويوسع الغرناطي هذا الإتجاه في الوصف.

8. طبائع السودان، وأحوالهم. الغرناطي. من كتاب (تحفة الألباب)

(السودان وبلادهم مما يلي المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتدة على بحر الظلمات، وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال ملوك خمسة قبائل، أقربهم غانة، ينبت في رمالهم التبر الغاية وهو كثير عندهم، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدني، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة، آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبحار، ويكون معهم الادلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار، ويحملون معهم الزاد لستة



شهور. فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنين، أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم. وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً، سبط الشعور فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة، وأما قناوة وقوقو وملي وتكرور وغدامس، فقوم لهم بأس، وليس بأراضيهم بركة ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم ولا عقل، وأشرهم قوقو، قصار الأعناق فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسموم بدماء حيات صفر لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه، ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات والأفاعي، وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلا بالحية الصفراء التي في بلدهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم. وقسيهم صغار قصار، رأيتهم في بلاد المغرب، ورأيت قسيهم، وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار، كل سهم شبر، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة قد شدوه بلحاء شجرة، ويصيبون الحدق وهم شر نوع في السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو، فلا خير فيهم إلا في الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون في تلك الثقب، فيصوتون بأصوات عجيبة فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه، كما يشد الحزام، ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات، فيعطونه شيئا حتى يخرج، وإن لم يعطوه، ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجيء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز المدبوغة دباغة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظا كبيراً لينا محببا في لون البنفسج إلى السودان، يكون الجلد الواحد عشرين منا يتخذ منه الخفاف للملوك، ولا يبل بالماء ولا يفي مع لينه ونعومته وطيب رائحته، يباع الجلد الواحد بعشرة دنانير، تبلى خيوط الخف ولا يبلى هو ولا يتقطع، فيغسلونه في الحمام بالماء الحار، فيعود كأنه جديد يتوارثه الحفيد عن أبيه عن جده، وهذا من عجائب الدنيا. وعندهم حيوان يقال له اللمط، مثل الثور الكبير، له قرنان كالرماح، تطول بطول بدنه، ممدودة على ظهره، إذا طعن بها الحيوان أهلكه في الحال، عريض العنق، يتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية مضافة إلى ذلك الحيوان يكون ثلاثة أذرع، وهي خفيفة لينة لا ينفذها النشاب، ولا يؤثر فيها السيف، تكون بيضاء كالقراطيس، وهي من أحسن الترس، مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه. من أنواع السودان زيلع وهم أعف أهل السودان، مسلمون يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة. ومن بلاد السودان الزنج والبجة مسيرة أربع عشرة سنة، يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفار. وفي السودان أمة لا رؤوس لهم ذكرهم الشعبي في كتاب "سير الملوك"...)

يعدّ البكري أحد أهم الجغرافيين المسلمين الذين أهتموا بـــ (المسالك والممالك) وهو يستند الى تراث من الكتب التي تعنى بوصف البلدان والطرق والمسافات، ووصفه للبلاد الإفريقية على غاية من الأهمية، والنص الآتي يعنى بتتبع الطريق الصحراوي إلى بلاد السودان.



9. الطريق الصحراوي إلى بلاد السودان. البكري. من كتاب (المسالك والممالك)

(.. والمصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة، وهم آخر الإسلام خطة. وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة. بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النيل وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط. ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور أهلها سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فأهل تكرور اليوم مسلمون. وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلى، وهي مدينتان على شاطئ النيل أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يدي وارجابي رحمه الله. وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة. وملك سلى يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم إلا مسيرة يوم واحد، وهم أهل مدينة قلنبو، وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة. وتبايع أهل سلى بالدرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات. والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضأن ولا معز، وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون. وفيما يتصل ببلادهم من النيل في موضع يقال له صحابي حيوان في الماء يشبه الفيل في عظم خلقته وفنطيسته وأنيابه يسمونه قفوا، وهو يرعى في البراري ويأوي إلى النيل، وهم يميزون موضعه من النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدونه بمزاريق حديد، فصار في أسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة، فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب في أسفل النيل، فإذا مات طفا على الماء، فجذبوه وأكلوا لحمه وصنعوا من جلده هذه الأسواط التي تسمى السريافات، ومن هناك تحمل إلى الآفاق.

ويلي هذا البلد مدينة قلنبو بينهما مسيرة يوم على ما تقدم، وهي على النيل وأهلها مشركون. وتتصل بمدينة قلنبو مدينة ترنقة، وهو بلد عريض، وعندهم تصنع الأزر المسماة بالشكيات.. وهي أربعة أشبار في مثلها. وليس في بلدهم كثير قطن غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة قطن. وحكم أهل هذه البلاد والمذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة في بيع السارق أو قتله، وحكمهم في الزاني أن يسلخ من جلده. ومن ترنقة تصل العمارة بالسودان إلى بلد زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب رأسه كرأس البختي وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب. وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاماً وصفروا صفيراً معلوماً فيبرز إليهم. وإذا هلك والي من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها فاذا نكزته إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطيهم ذلك بزعمهم.

وتليهم بلاد الفرويين، وهي مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباه والعون عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر. وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئاً من هذا النبات. فعارضه على هديته وكتب إليه يقول: إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له. وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب. وغانة سمة لملوكهم، واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم – وهي سنة ستين وأربعمائة– تنكامنين، وولي سنة خمس وخمسين. وكان اسم ملكهم قبله بسي، ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محباً للعدل مؤثراً للمسلمين، وعمي في آخر عمره، فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يديه أشياء فيقول: هذا حسن وهذا قبيح وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول، فلا تفهمه العامة. وبسي هذا خال تنكامنين، وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به. وتنكامنين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان.

ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه، وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك. وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم. وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس ولا يمكن احداً دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن أحد فيها انقطع عن الناس خبره. وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه، ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده، وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم. وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن، وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة. وهو يجلس للناس والمظالم في قبة ويكون حوالي القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفروا رؤوسهم بأنواع الذهب وعليهم الثياب الرفيعة، ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الأرض وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض. وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، في أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة. وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا، وهو خشبه طويلة منقورة، فيجتمع الناس،

فإذا دنا أهل دينه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له. وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقاً باليدين. وديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير.

وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد. وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور. ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل. وأفضل الذهب في بلاده ما كان بمدينة غياروا، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوماً في بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة. وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الرقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون. والندرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم. وبين مدينة غيارو والنيل اثنا عشر ميلاً وفيها من المسلمين كثير. وغانة بلدة مستوية غير آهلة لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان في غربائها عند استحصاد الزرع. فأما الطريق من غانة إلى غيارو فإلى مدينة سامقندى أربعة أيام، وأهل سامقندى أرمى السودان بالنشاب. ومنها إلى بلد يسمى طاقة يومان، وأكثر شجر طاقة شجر يسمى تادموت، وهو شجر الأراك إلا أن له ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند تشوب حلاوته بحموضة نافع للمحمومين. ومن هناك إلى خليج من النيل يقال له زوغو مسيرة يوم تخوضه الجمال، ولا يعبره الناس إلا في القوارب. ومنه إلى بلد يقال له غرنتل، وهو بلد كبير ومملكة جليلة لا يسكنه مسلمون ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم، وتلد عندهم الفيلة والزرافات. ومن غرنتل إلى غيارو. وملك غانة إذا احتفل ينتهي جيشه مائتي ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألفا، وخيل غانة قصار جداً. وعندهم الأبنوس الجيد المجزع. وهم يزدرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عندهم وأخرى على ثرى أيضاً. وبغربي غيارو على النيل مدينة يرسنى يسكنها المسلمون وما حولها مشركون. وفي يرسنى معز قصار، فإذا وضعت الماعزة ذبحوا الذكور وأبقوا الإناث، وعندهم شجر تحتك بها هذه المعزة فتحمل من ذلك العود تلد من غير ذكر، وهذا معلوم عندهم غير منكر، وحدث به جماعة من المسلمين الثقات. ومن يرسنى يجلب السودان العجم المعروفون ببني نغمرانة وهم تجار التبر إلى البلاد. وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية أيام سمة ملكهم دو، وهم يقاتلون بالنشاب. ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة ويعرف أهله بالبكم، بينه وبين غانة مسيرة أربعة ايام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس.



وحدث أبو عبدالله المكي أنه رأى منهن إمرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنت أن يكون شعر لحيته في عانتها. فامتلأ العربي غضبا وأوسعها سبا. والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة. ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله. وبغربي مدينة غانة مدينة أنبارة، وملكها اسمه تارم وهو معاند لملك غانة. وعلى تسع مراحل من مدينة أنبارة مدينة كوغة وبينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة، وأهلها مسلمون وحواليها المشركون. وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس والفربيون، والودع والفربيون أنفق شيء عندهم. وحواليها من معادن التبر كثير، وهي أكثر بلاد السودان ذهبا. وهناك مدينة ألكن وملكها يسمى قنمر بن بسي ويقال إنه مسلم يخفي إسلامه. وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه الى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجوه. وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان. وببلاد غانة حكم الماء، وذلك أنه من ادعي عليه بمال أو دم أو غير ذلك عمد أمينهم الى عود فيه حرافة ومرارة ورقة وصب عليه من الماء قدرا معلوما، وسقاه المدعى عليه، فإن رماه من جوفه علم أنه بريء وهني بذلك، وإن لم يرمه وبقي في جوفه صحت الدعوة عليه.

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزى تنبت في الرمان ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق. وأخبر الفقيه عبدالملك أن أهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الصنف. ومن هذا الجنس حجارة بوادي درغة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتي في قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار في شيء من ذلك. وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسلجماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى فردلند صاحب الجلالقة، وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غناه، وبعث به فردلند إلى صاحب قسطنطينة ليوضع في كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث اليه صاحب قسطنطينة التاج وأمره بالتتويج. وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي فضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان. وإذا سرت من غانة تريد مطلع الشمس فإنك تسير في طريق معمورة بالسودان الى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم، ثم تسير من هناك أربعة أيام الى موضع يقال له رأس الماء، وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان، وعليه قبائل من البربر مسلمون يسمون مداسة، وبازائهم من الشط الثاني مشركو السودان. ثم تسير من هناك ست مراحل على النيل الى مدينة تيرقى، ويجتمع في سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تادمكة. وتعظم السلاحف بتيرقى وتتخذ في الأرض اسرابا ويمشي فيها الإنسان ولا يطيقون استخراج واحدة منها إلا بعد شد الحبال فيها واجماع العدد الكثير عليها.

وإخبرني الفقيه أبو محمد عبدالملك بن نخاس الغرقة أن قوما عرّسوا في طريق تيرقى، والارضة هناك تأتي على ما تجده، وتفسد من وصلت إليه، وتخرج من التراب أكواما كالروابي، ومن الغرائب أن ذلك التراب ثرّ



ند، والماء هناك غير موجود على أبعد حفر. فلا توضع الأمتعة إلا على الحجارة المجموعة أو الخشب الموضوعة، فارتاد كل واحد من القوم لمتاعه حرزا من الأرضة، وبدر أحدهم فيما ظن الى صخرة كبيرة فأنزل عليها وقر بعيرين كانا معه. فلما هب من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها، فارتاع ونادى بالويل والحرب. فاجتمعوا اليه يسألونه عن خطبه فأخبرهم فقالوا: لو طرقك لصوص لأخذوا المتاع وبقيت الصخرة. فنظروا فإذا أثر سلحفاة ذاهبة من الموضع، فاقتفوه أميالا حتى ادكوها، وحملا المتاع على ظهرها، وهي التي حسبها صخرة. ومن تيرقى يرجع النيل نحو الجنوب في بلاد السودان، فتسير عليه نحو ثلاث مراحل فتدخل بلاد سغمارة، وهم قبيل من البربر في عمل تادمكة، ويحاذيهم من الشط الثاني مدينة كوكو للسودان. فأما الجادة من غانة الى تامكة وبينهما مسيرة خمسين يوما، فمن غانة الى سفنقو ثلاث مراحل، وهي على النيل وهي آخر عمل غانة. إلى تادمركة، وبينهما مسيرة عشرين يوما. ثم تصحب النيل الى بوغرات فيه قبيل من صنهاجة يعرفون بمداسة.

وأخبر الفقيه (أبو محمد) عبدالملك أنه رأى في بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبيس: قتل الحسين قتل الحسين يكرر مرارا، ثم يقول: بكربلا مرة واحدة. قال عبدالملك: سمعته أنا ومن حضر من المسلمين معي. ومن بوغرات الى تيرقى. ثم تسير منها في الصحراء الى تامكة، وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة شرفها الله وزادها تشريفا وتعظيم. (ومعنى تاد عندهم هيئة إذ أنها على هيئة مكة)، وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو. وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبول كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال، ويجلب اليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ويلبسون الثياب المصبغة بالجمرة من القطن والنولي وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء. ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة. ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسنا، والزنا عندهم مباح، وهن يبادرن التجار أيتهن تحمله إلى منزلها. فإن أردت من تادمكة الى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما الى وارجلان، وهي سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن، أي حصن العهود. ومنها قسطنطينة أربعة عشر يوما، ومن قسطيلية الى القيروان سبعة أيام على ما تقدم. وبين وراجلان وقلعة أبي طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما. ومن تادمكة الى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء، والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة احساء. وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون. وبغدامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التي كانت بإفريقية. وأكثر طعام أهل غدامس التمر، والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الأرانب جحرة. وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء، وبين نفوسة ومدينة أطرابلس ثلاثة أيام..وطريق آخر من تادمكة الى غدامس: تسير من تادمكة ستة أيام في عمارة سغمارة، ثم في مجابة أربعة أيام الى الماء، ثم في مجابة ثانية أربعة أيام، وفي هذه المجابة معدن لحجارة تسمى تاسي النسمت، وهي حجارة تشبه العقيق وربما كان في الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض وربما وجد فيها في النادر الحجر الجليل الكبير، فإذا



وصل به الى أهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه الرغائب، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى، وهو يجلى ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس كما يجلى الياقوت ويقب بالسنباذج، لا يعمل فيه الحديد شيئا إلا بالتنتواس ولا يوصل اليه ولا يعلم موضعه حتى ينحر الإبل على معدنه وينضج دمه، فحينئذ يظهر ويلقط. وفي بونو معدن للتاسي أنسمت أيضا، ومعدن هذه المجابة أفضل. وتسير من هذه المجابة الثانية الى مجابة ثالثة، وفي هذه المجابة معدن الشب ومنه يحمل الى البلاد. وتسير من هذه المجابة الى مجابة رابعة أحد عشر يوما في رمال جرد لا ماء فيها ولا نبت، يتزود الرفاق الماء والحطب فيها كما يتزود الطعام والعلق، وعلى يسار السائر في هذه المجابة جبل الرمل الأحمر الذي يتصل بسجلماسة، وهو الذي يكون فيه الفنك والثعلب الدهي، وهو آخر حد أفريقية. وإذا سار السائر من بلاد كوكو على شاطيء البحر غربا انتهى الى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع إليهم، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده، وفي بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه.

وبين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل، والعرب تسمي أهلها البزركانين. وهي مدينتان مدينة للملك ومدينة للمسلمين، وملكهم يسمى قندا. وزيهم كزي السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم، وهم يعبدون الدكاكير كما يفعل السودان. ويضرب لجلوس الملك الطبل وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة، ولا يتصرف أحد منهم في مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه في النيل، فيجلبون عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه. وإذا ولي منهم ملك دفع اليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك اليهم. وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين، ويزعمون أنهم إنما سلموا كوكو لأن الذي يفهم من نغمة طبلهم ذاك، وكذلك أزور وهير وزيويلة يفهم من نغمة طبلهم زويلة زويلة. وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم، والملك يحمل من بلاد البربر يقال لها توتك من معادن تحت الأرض الى تادمكة، ومن تادمكة الى كوكو. وبين توتك وتادمكة ست مراحل.)

لم يقتصر الأمر على وصف البر الإفريقي، انما ترك لنا الجغرافيون والرحالة وصفا للبحار لسكان الجزر المحيطة بالقارة، قدمنا بعضها في الكتاب الأُول عند الحديث عن البحار، ونورد هنا ما كتبه الدمشقي عن جزائر بحر الزنج. ونردفه بنص عن جزر القمر.

10. جزر بحر الزنج.الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(قال أهل العلم بذلك سمّي بحر الزنج ومتاخمة بلادهم بحر بربرا لما على سواحله من طوائف السودان أهل البربرة، وهو الكلام السريع المسموع من غضب من قائله، والبحر الأحمر لشدة لجوجه وحرارة هوائه وظهور النار فيه بالليل. وبلاد الزنج في أقصى الجنوب تحت سهيل، والبحر المتصل من هذا البحر الجامد يظلم بظلمته، ومن رأى هذا البحر من جنوبه وهو على ظهره في لجته رأى القطبين الشمالي والجنوبي معا وإن توغل فيه إلى جهة الجنوب اختفى عنه القطب الشمالي مع بنات نعش وظهر له من كواكب القطب الجنوبي ما لا



يعرفه أحد غير من رأى رؤيته وفيه من الجزائر جزيرة قنبلو من جزائر الزنج عامرة بهم وبها الأبنوس والبهار ومعادن الذهب. وجزيرة طيسان بها بركان عظيم اللهب مهول الأصوات والهدات لا يستطيع أحد سكناها لاستيلاء الحريق عليها من هذا البركان وجزيرة بربرا معمورة بالسودان المسلمين ومذهبهم زيدية وشافعية.

وجزيرة القطربية يحيط بها ثلاثمائة ميل بها مدينتان للزنج وبها في ناحية منها بجبل عالي الشروع وهو الغول، ويسمى القطرب تشبيها بتوحشه، وجزيرة زنجا قال بطليموس إن في حدود بحر الزنج..سبعمائة جزيرة متقاربات متصل بعضها ببعض تسمى جزيرات زنجا مسكونة بالزنج كلها، وعيش أهل الجزيرات الحمص والذرة، وببعض هذه الجزائر مغاص اللؤلؤ الجيد. وأتفق أن التجار أرسوا إليها وكان مع تاجر منهم نحو نصف صاع حمص فأخذ منه قليلا وعرضه فشراه منه شخص بالعدد كل حمصة بلؤلؤة ثم أحضر التجار باقي ما معه من الحمص وأخذ بعدده لؤلؤا، ففعلوا ذلك باقي التجار بما معهم من الحمص ما أمكنهم وسافروا غانمين أي غنيمة، ثم إنهم عادوا إلى الجزيرة ومعهم من الحمص ما أمكنهم حمله، فلما اعرضوه على أهل الجزيرة أبو شرائه وعرفوهم أنهم زرعوه في أول مرة وأنجب معهم نجابة عجيبة، وهو كثير عندهم ولونه أسود والجزيرة المحترقة واغلة في الجنوب وقل أن يصل إليها، وسميت محترقة لأنها في كل ثلاثين سنة يطلع على أفقها كوكب ذو ذنب ولا يزال يرتفع حتى يتوسط السماء بالجزيرة في مدة نصف سنة فتبرز منه نار إلى الجزيرة تحرق ما بها، فإذا طلع رحلوا أهلها وهاجروها مدة ثم يعودون إليها، وجزيرة جانا مأهولة وبها حيات قتالة وجلودها بالخاصية تبرى من علة الدق والسل لمن يجلس عليها إذا اتخذها مفرشا، وهذه الحبات تصاد بدخان حصى اللبان وهو أن الصيادين لها يجمعون ما أمكنهم من حصى اللبان ما يجلبونه التجار إليهم، ثم إذا كان وقت مهب الريح الأزيب أو الشمال العاصف دخنوا بالقرب من بقاع تلك الحيات فيحمل الهواء ذلك الدخان ويمر به إلى الحيات فيسكرون منه، والصيادون يتتبعونهن بالقتل والجمع حتى ينفذ اللبان أو يسكن الريح. ذكر ذلك أحد الوراق في كتاب"المباهج"وجزيرة العور بها قوم صغار الجثث سودان يسكنونها ويزرعون زرعهم، فإذا كان أوان إدراكه يأتيهم الطير الذي يقال له الغرنوق يرعاه ويقاتلهم فيصيب أعينهم فيقلعها. وقال أرسطو في كتاب"الحيوان"إن الغرانيق تنتقل من خراسان إلى مصر حيث يجري النيل إلى أماكن على شاطئ النيل تقاتل هناك أقواما على زرعهم قدر قاماتهم ذراع.)

11. جزر القمر. الدمشقي. من كتاب (نخبة الدهر)

(فأما جزيرة القمر فتسمى جزيرة ملاى، وطولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها نحو شهر، وهي تحاذي جزيرة سرنديب من جنوبها فتكون سرنديب شمالا منها، وفيها بلاد كثيرة أجلها لقمرانه وملاى ودهما وخافور وبليق ودغلي وقمرية، وإليها ينسب الطير القمري وهو نوع من الحمام وبهذه الجزيرة من الخشب الغليظ الجافي الطويل ما تبلغ الشجرة مائتي ذراع وتبلغ سعة الساق دور مائة وعشرين ذراعا. وبها من جنوبها مما يلي بحر الظلمات صحارى وقفار. وبها طوائف من السودان زنوج الزنج عرايا الأبدان يلتحفون بورق



الشجر المعروف بورق الكتابة، وهو شبيه بورق الموز وأعرض وأسمك وأنعم وألين وأبقى يتخذونه الناس هناك دروجا يكتبون فيها حساباهم كالدفاتر. ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل بنيانا سكنوه في سفح جبل يعرف بهم ممتد متصل إلى أقصى بلاد السودان ومنابع النيل، ولهذه الجزيرة بجبال أولئك الزنوج معادن الذهب والياقوت وبها الأفيلة البيض والبلق وبأطرفها من جهة المحيط وحوش كالسباع لهم قرون لا يطاقون لشدة جرأهم على سائر الحيوان وسباع مستديرات الوجوه قريبات الشبه من وجوه بني آدم ولهم آذان دقاق طوال وجلودهم مخطوطة قضبان شبيه بنسج العنابى حمر وبيض لا يطاقون شرا. ويقال إن الطائر الذي يقال له الرخ بها يرى طائرا في الجو الأعلى ويجدون في شرق الجزيرة من ريشه تسقط فيخذ منها أوعية للماء يكون سعة القصبة أكثر من شبر ونصف وطولها نحو القامة سوداء وسمك جوفها غليظ بغلظ إصبع ويصل هذا الريش إلى عدن عند التجار يسمونه ريش الرخ ويزعم من دخلها وأقام بها أنه يرى للرخ بيضه من بيضه شبيهة بالقبة. وذكر التجار المسموعون القول أنهم في بعض أسفارهم في البحر عطشوا فنزلوا إلى الجزيرة يقصدون طلب الماء فوجدوا قبة فأتوا إليها طلباً للماء فلما أتوا إليها قال لهم بعض التجار: هذه بيضة الرخ فثقبوها كما تثقب البنائية، ففتحوها وأخذوا منها شيئا كثيراً وسدوها وطلبوا النجاة في المركب، فما كان إلا قليل حتى أقبل الرخ فوجد البيضة مكسورة فاحتمل الرخ في رجليه حجراً كبيراً وطلب المركب فوازهم في السماء ثم أرمى عليهم الصخرة التي حملها في رجليه فعملوا بالمقاذيف والريح فسقط الحجر في الماء فكاد الحجر موجه أن يغرق المركب فلا زال هذا دأبه إلى أن حال الليل بينهم والله أعلم.)

12. بربرَةُ، ياقوت الحموي من كتاب (معجم البلدان)

(هذه بلاد أخرى بين بلاد الحبش والزنج واليمنِ على ساحل بحر اليمن وبحر الزنج، وأهلها سودان جداً، ولهم لغة برأسها لا يفهمُها غيرهم، وهم بَوَادٍ معيشتهم من صيد الوحش. وفي بلادهم وحوش غريبة لا توجد في غيرها. منها: الزرافة، والببر، والكركَدنّ، والنمر، والفيل، و غير ذلك. وربما وُجد في سواحلهم العنبر، وهم الذين يقطعون مذاكير بعضهم بعضاً.. وذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني، فقال: ومن الجزائر التي تجاور سواحل اليمن، جزيرة بربرَة، وهي قاطعة من حد سواحل أبين ملتحقة في البحر بعَدَن من نحو مطلع سُهيل إلى ما شرق عنها، وفيما حاذى منها عدَن وقابله جبل الدخان، وهي جزيرة سُقُوطَرَا ما يقطع من عدَن ثابتاً على السمت. وأما صفة صيدهم فحدثني غير واحد ممن دخل بلادهم أن عندهم نوعاً من النبت يشبه الخُباز يجمعونه ويطبخونه ويستخرجون ماءه ثم يطبخونه حتى يَنعقد ويصير كالزفت، فإذا أرادوا اختبار إحكامه جرح أحدهم ساقه، فإذا سال دمه أخذ من ذلك السم قليلاً وقرّبه من الدم في آخر سيلانه، فإن كان قد أحكم طبخه تراجعَ الدم يطلب الجرح، فيبادر ويقطعه قبل أن يصل إلى الجرح، فإنه إن دخل في الجرح أهلك صاحبه، وإن لم يتراجع الدم عاودَ طبخه إلى أن يرضاه ثم يجعل منه شيئاً في حُق ويعلقه في وسطه، ويكمُنُ للوحش في شجر أو غيره، فإذا رأى الوحش جعل على رأس نصله منه قليلاً، ثم يرمي

الوحش، فكما يخالط هذا السم دمه يموت، فيجيءُ إليه فيأخذ جلده أو قرنه أو نابه فيبيعه، ويأكل لحمه فلا يضره. ويقال: لبلاد هؤلاء سواحل بربرة بربَرُوس: وبعضهم يقول بربَرِيسُ.)

واستأثرت منابع نهر النيل في عمق إفريقيا باهتمام معظم الذين وصفوا بلاد السودان، ويقدّم ياقوت الحموي في هذا النص أخبارا طريفة حول تلك المنابع، تشوبها لمسة عجائبية، يقرّ ياقوت نفسه بأنها أشبه بالخرافة، لكن هذا الأمر كان شائعا فكثير من المعلومات كانت في العصور الوسطى تقدّم في إطار يمزج بين الواقعي والخرافي.

13. منابع النيل. ياقوت الحموي.من كتاب (معجم البلدان)

(زعموا أن رجلاً من ولد العيص يقال له حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، عليهما السلام خرج هارباً من ملك من ملوكهم إلى أرض مصر فأقام بها سنين، فلما رأى عجائب نيلها وما يأتي به جعل الله نذراً أن لا يفارق ساحله حتى يرى منتهاه أو ينظر من أين مخرجه أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران ومثلها في غير العمران، وبعضهم يقول خمس عشرة كذا وخمس عشرة كذا، حتى انتهى إلى بحر أخضر فنظر إلى النيل يشقه مقبلاً فوقف ينظر إلى ذلك فإذا هو برجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به فسلم عليه فسأله صاحب الشجرة عن اسمه وخبره وما يطلب، فقال له: أنا حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، فمن أنت؟ قال: أنا عمران بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، فما الذي جاء بك إلى ههنا يا حائذ؟ قال: أردت علم أمر النيل، فما الذي جاء بك أنت؟ قال: جاء بي الذي جاء بك، فلما انتهيت إلى هذا الموضع أوحى الله تعالى إلي أن قف بمكانك حتى يأتيك أمري. قال: فأخبرني يا عمران أي شيء انتهى إليك من أمر هذا النيل؟ وهل بلغك أن أحداً من بني آدم يبلغه؟ قال: نعم بلغني أن رجلاً من بني العيص يبلغه ولا أظنه غيرك يا حائذ، فقال له: يا عمران كيف الطريق إليه؟ قال له عمران: لست أخبرك بشيء حتى تجعل بيننا ما أسألك، قال: وما ذاك؟ قال: إذا رجعت وأنا حي أقمت عندي حتى يأتي ما أوحى الله لي أن يتوفاني فتدفنني وتمضي، قال: لك ذلك علي، قال: سر كما أنت سائر فإنه ستأتي دابة ترى أولها ولا ترى آخرها فلا يهولنّك أمرها فإنها دابة معادية للشمس إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها فاركبها فإنها تذهب بك إلى ذلك الجانب من البحر فسرْ عليه فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها وشجرها وجميع ما فيها حديد، فإذا جزتها وقعت في أرض من فضة جبالها وشجرها وجميع ما فيها فضة، فإذا تجاوزتها وقعت في أرض من ذهب جميع ما فيها ذهب ففيها ينتهي إليك علم النيل.

قال: فودعه ومضى وجرى الأمر على ما ذكر له حتى انتهى إلى أرض الذهب، فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب وعليه قبة لها أربعة أبواب، وإذا ماء كالفضة ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة ثم يتفرق في الأبواب وينصب إلى الأرض، فأما ثلثاه فيغيض وأما واحد فيجري على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح ثم حاول أن يصعد السور فأتاه ملك، وقال: يا حائذ قف مكانك فقد انتهى إليك

علم ما أردته من علم النيل، وهذا الماء الذي تراه يترل من الجنة، وهذه القبة بابها، فقال: أريد أن أنظر إلى ما في الجنة، فقال: إنك لن تستطيع دخولها اليوم يا حائذ، قال: فأي شيء هذا الذي أرى؟ قال: هذا الفلك الذي تدور فيه الشمس والقمر وهو شبه الرحا. قال: أريد أن أركبه فأدور فيه، فقال له الملك: إنك لن تستطيع اليوم ذلك، ثم قال: إنه سيأتيك رزق من الجنة فلا تؤثر عليه من شيئاً من الدنيا فإنه لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فبينما هو واقف إذ أنزل عليه عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف كالزبرجد الأخضر، وصنف كالياقوت الأحمر، وصنف كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حائذ هذا من حصرم الجنة ليس من يانع عنبها، فارجع فقد انتهى إليك علم النيل.

فرجع حتى انتهى إلى الدابة فركبها فلما أهْوت الشمس إلى الغروب أهوت إليها لتلقمها فقذفت به إلى جانب البحر الآخر فأقبل حتى انتهى إلى عمران، فوجده قد مات في يومه ذلك، فدفنه وأقام على قبره، فلما كان في اليوم الثالث أقبل شيخ كبير كأنه بعض العبّاد فبكى على عمران طويلاً وصلى على قبره وترحم عليه، ثم قال: يا حائذ ما الذي انتهى إليك من علم النيل؟ فأخبره، فقال: هكذا نجده في الكتاب، ثم التفت إلى شجرة تفاح هناك فأقبل يحدثه ويطري تفاحها في عينيه، فقال له: يا حائذ ألا تأكل؟ قال: معي رزقي من الجنة ونهيت أن أوثر عليه شيئاً من الدنيا، فقال الشيخ: هل رأيت في الدنيا شيئاً مثل هذا التفاح؟ إنما هذه شجرة أنزلها الله لعمران من الجنة ليأكل منها وما تركها إلا لك، ولو أكلت منها وانصرفت لرفعت، فلم يزل يحسنها في عينه ويصفها له حتى أخذ منها تفاحة فعضها ليأكل منها فلما عضها عض يده ونودي: هل تعرف الشيخ؟ قال: لا، قيل: هذا الذي أخرج أباك آدم من الجنة، أما إنك لو سلمت بهذا الذي معك لأكل منه أهل الدنيا فلم ينفذ، فلما وقف حائذ على ذلك وعلم أنه إبليس أقبل حتى دخل مصر فأخبرهم بخبر النيل، ومات بعد ذلك بمصر.)

يعتبر وصف الحسن الوزان لإفريقيا الوسطى أشهر الأوصاف لتلك المناطق على مستوى العالم خلال القرون الوسطى، وكثيرا مااعتمد بوصفه مرجعا أساسيا في المعلومات التي جاءت بعده، لكن الملاحظ أنه يستفيد من الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين سبقوه ممن وصفوا الأجزاء المحاذية لخط الاستواء. على أن الحسن الوزّان يبدي براعة وتدقيقا لاينكران وهو يخص إفريقيا السوداء بجزء من كتابه المشهور (وصف إفريقيا).

14. إفريقيا السوداء. الحسن الوزان (956هـ = 1548م) من كتاب (وصف إفريقيا)

(لم يكتب الجغرافيون القدماء مثل البكري والمسعودي شيئاً عن بلاد السودان باستثناء الواحات وغانة، إذ لم يكن يعرف شيء عن غيرهما من بلاد الزنوج في ذلك العصر؛ ولكنها اكتشفت بعد سنة 380 هـ، لأن لمتونة وجميع سكان ليبيا أسلموا على يد داعية حملهم بالإضافة إلى ذلك على فتح بلاد البربر كلها. فبدأ الناس، منذ ذلك الوقت يختلفون إلى هذه البلاد ويتعرفون عليها. يسكن هذه البلاد كلها قوم يعيشون كالبهائم، لا ملوك لهم ولا أمراء ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم



يجتمعون في الليل، عشرة إلى اثني عشر رجلا وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج. لا يحارب هؤلاء القوم أحداً، ولا يخرجون من بلادهم، بعضهم يعبدون الشمس ويسجدون لها بمجرد ما يرونها تبرز في الأفق، وبعضهم يعبدون النار كأهل ولاتة، والبعض الآخر مسيحيون على طريقة المصريين، وهم سكان كاوكاو.

وقد حكم هؤلاء الزنوج يوسف(بن تاشفين)ملك مراكش ومؤسسها، ومعه شعوب ليبيا الخمسة، فعلموهم الشريعة الإسلامية والمبادئ الضرورية لسلوكهم في الحياة. فاعتنق الكثير منهم الإسلام، وبدأ تجار بلاد البربر حينئذ يذهبون إلى هذه البلاد ليتجروا فيها حتى تعملوا لغاتهم. واقتسمت شعوب ليبيا الخمسة هذه البلدان خمس عشرة قسمة، فنال كل شعب ثلاث قسم منها. والحقيقة أن ملك تمبكتو الحالي، وهو أبو بكر أسكيا من الجنس الأسود، كان قد عين قائداً أعلى من قبل ملك تنبكتو وكاغو سني علي الذي هو من أصل ليبي (= حكمت هذه السلالة خلال المدة 735 - 898هـ = 1335 - 1493م) وبعد موت سني علي ثار أبو بكر على أبنائه وقتلهم، ثم خلص جميع الشعوب السود من ربقة رؤساء قبائل ليبيا، بحيث إنه استولى على عدة ممالك في ظرف ست سنوات. ولما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته رغب في الحج إلى مكة، وانفق في هذا الحج كل ماله، واقترض خمسين ألف مثقال. تمتد هذه الممالك الخمس عشرة المعروفة كلها لدينا على طول ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر في الجنوب يمتد إلى البحر المحيط. وهناك مناطق كثيرة جداً، لكن معظمها غير معروفة لدينا، سواء بسبب طول السفر وصعوبته، أو بسبب تنوع اللهجات والمعتقدات؛ وذلك ما يمنعها من إقامة علاقات مع البلدان المعروفة عندنا، ويمنع هذه البلدان كذلك من إقامة علاقات معها. ومع ذلك فإن هناك بعض العلاقات مع الزنوج الذين يعيشون على ساحل المحيط.

مملكة ولاتة (= إيولاتن): مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، فليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل. وتبعد هذه القرى بنحو ثلاثمائة ميل جنوب نون، وخمسمائة ميل شمال تنبكتو، ومائة ميل من المحيط (= دُققتْ هذه المسافات وصوابها هو: 1900كم جنوب نون، و450 كم غرب تمبكتو، و900كم من المحيط الأطلسي) ولما كانت شعوب ليبيا، تسيطر على هذه الناحية، جعلوها مقر البلاد الملكي، فأدى ذلك بالكثير من تجار بلاد البربر إلى الوفود عليها؛ لكن التجار تركوا ولاتة شيئاً فشيئاً منذ عهد سني علي الذي كان رجلاً عظيماً وذهبوا إلى تنبكتو وكاغو، بحيث إن أمير ولاتة أصبح فقيراً لا سلطة عليها. يتكلم أهل هذه البلاد لغة تسمى سنغاي (= نسبة إلى قبيلة سنغاي قدمت في القرن السابع الميلادي من الغابات الاستوائية) وهم أناس في غاية السواد والخسة، لكنهم ظرفاء جداً لا سيما مع الأجانب. يؤدي الأمير الذي يحكمهم الخراج إلى ملك تمبكتو، لأن هذا الملك جاء مرة إلى البلاد بجيشه ففر أمير ولاتة في الحين راجعاً إلى أهله في القفار. ورأى ملك تمبكتو أنه لا يستطيع ضبط البلاد كما يجب، لأن هذا الأمير سيخلق له متاعب بمساعدة أهله الصحراويين، فاتفق معه على أن يؤدي إليه خراجاً معيناً، ورجع الأمير



إلى ولاتة، كما عاد الملك إلى تنبكتو. ونمط معيشة أهل ولاتة وعاداتهم كنمط وعادات جيرانهم القاطنين بالصحراء. لا تنبت هذه البلاد إلا القليل من الحبوب، كالدخن، وحب آخر مستدير أبيض يشبه الحمص ولا يوجد بأوربا، واللحم نادر الوجود جداً. ومن عادة النساء والرجال أن يتلثموا ويغطوا وجوههم. ولا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في البؤس الشديد.

مملكة غينيا: مملكة يسميها التجار الأفارقة كناوة، والأهليون جيني، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في أوربا غينيا. تتاخم المملكة السابقة مع وجود مسافة نحو خمسمائة ميل بينهما عبر الصحراء. تقع ولاتة في الشمال، وتنبكتو في الشرق، ومالي في الجنوب. وتمتد طول النيجر على مسافة نحو مائتين وخمسون ميلاً، ولها جزء على المحيط حيث يصب النيجر في البحر. أما الشعير والرز والماشية والسمك والقطن فتوجد بكثرة كاثرة. ويحقق أهل البلاد أرباحاً هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوربية والنحاس والصفر والسلاح مثل الخناجر. والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعسل. وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو ربعه. ولا تنبت في هذه الناحية أية شجرة مثمرة، فلا وجود لأية فاكهة غير التمر المستورد من ولاتة أو نوميديا. ولا مدينة فيها ولا قصر ما عدا قرية واحدة كبيرة يسكنها الملك والأئمة والفقهاء والتجار والأعيان، وجميع الدور التي يسكنونها كالأكواخ، مملوطة الحيطان بالطين ومغطاة بالتبن. يرتدي أهل هذه القرية لباساً حسناً، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض. وأخيراً فإن هذه القرية تشكل شبه جزيرة خلال ثلاثة أشهر في العام، في يوليوز وغشت وشتمبر، لأن النيجر يفيض في هذه المدة تماماً كما يفيض النيل. ويأتي تجار تنبكتو في هذه الفترة حاملين بضائعهم في زوارق صغيرة ضيقة جداً مصنوعة من نصف جذع شجرة مجوفة، تجري بهم نهاراً، ويربطونها ليلاً في الضفةليناموا على الأرض. كانت هذه المملكة في القديم خاضعة لأسرة من أصل ليبي، لكن في عهد الملك سني علي أصبح صاحب هذه المملكة خاضعاً له. ولما فقد سني علي مملكته على يد خلفه أسكيا، أخذ وسجن في كاغو حتى مات، وصار يحكم هذه المملكة أحد نواب أسكيا.

مملكة مالي: تمتد هذه المملكة على طول أحد فروع النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة المملكة السابقة من جهة الشمال، والقفر مع جبال وعرة من جهة الجنوب. وتحدها غرباً غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون وتسمى مالي أطلق اسمها على سائر المملكة. يسكنها الملك وحاشيته، ويكثر في البلاد الحب واللحم والقطن. ويوجد في هذه القرية عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين، والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم. والسكان أغنياء بفضل تجارتهم، إذ يزودون غينيا وتمبكتو بكثير من المنتجات. ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم وجود المدارس. وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق

الإسلام، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف(بن تاشفين)ملك مراكش. ودام الحكم في عقبه إلى عهد أسكيا، فأصبح آخرهما خاضعاً له ومثقلاً بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته.

تنبكتو: اسم هذه المملكة حديث، وتنبكتو اسم مدينة بناها ملك يدعى منسا سليمان عام 610 للهجرة، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر. ودور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن. وفي وسط المدينة مسجد مبني بالحجر المركب بالطين والجير على يد مهندس أندلسي من مدينة المانا، وقصر كبير من بناء نفس المعلم (= المهندس) يسكنه الملك، ودكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما دكاكين نساجي أقمشة القطن. وتصل أيضاً إلى تنبكتو أقمشة أوربا يحملها تجار بلاد البربر. ما زالت نساء المدينة محتجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن كل المطعومات. والسكان أغنياء مترفون، لا سيما الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك الحالي زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما. وتوجد بتنبكتو عدة آبار ماؤها عذب، بالإضافة إلى ما يصل إلى المدينة من ماء في قنوات عند فيضان النيجر؛ والحبوب والمواشي كثيرة جداً، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة؛ لكن الملح قليل جداً، لأنه يستورد من تغزة البعيدة عن تنبكتو بنحو خمسمائة ميل.

كنت في هذه المدينة عندما كان الملح يساوي هناك ثمانين مثقالاً. ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، تزن الواحدة منها ألفاً وثلاثمائة رطل. والبلاد الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة. فإذا ذهب الملك من مدينة إلى أخرى مع حاشيته ركب جملاً، وسيقت الخيل أمامه بأيدي السيافين، وفي الحرب يعقل السيافون الإبل ويمتطي جميع الجنود الجياد. وكلما أراد شخص أن يخاطب الملك جثا بين يديه وأخذ التراب وحثاه على رأسه وكتفيه، وهذه طريقة الإجلال عندهم، لكنها لا تفرض إلا على من لم يسبق لهم أن خاطبوا الملك قط، أو على السفراء. وللملكة قرابة ثلاث آلاف فارس، وعدد لا يحصى من الراجلين الحاملين لقسي مصنوعة من خشب (الفُنوي) البرية، تمرق منها سهام مسمومة. وإنما يحارب هذا الملك الأعداء من جيرانه، ومن يمتنعون من أداء الخراج إليه. وإذا انتصر باع في تنبكتو كل من أسره في القتال حتى الأطفال.

لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة. أما الجياد فتأتي من بلاد البربر، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوماً على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمناً مناسباً. هذا الملك عدو لدود لليهود، لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة. وإذا علم أن تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله. وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً. وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع. تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة، والودع لشراء الأشياء التافهة، وهو صدف مستورد من بلاد فارس، تساوي أربعمائة منه مثقالاً واحداً، وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال. وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح، وتعودوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة



صباحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون. ولأهل المدينة عدد كثير من الرقيق ذكوراً وإناثاً يعملون في خدمتهم. وكثيراً ما تتعرض تنبكتو لخطر الحريق، فقد احترق نصفها في ظرف خمس ساعات أثنا إقامتي بها في رحلتي الثانية. كانت الريح عاتية، وبدأ سكان النصف الآخر للمدينة ينقلون أثاثهم خشية أن يحترق النصف الآخر. ولا يحيط بتنبكتو أي بستان أو حديقة.

كبرة: مدينة كبيرة على شكل قرية مسورة، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً من تنبكتو على النيجر. ومنها تنقل البضائع في السفن إلى غينيا ومالي. ولا تختلف دورها وسكانها عن الدور والسكان الذين ذكرناهم آنفاً. والسود بها من مختلف الأجناس، لأنها الميناء الذي يقصدونه بزوارقهم من مختلف الجهات. وقد أرسل إليها ملك تنبكتو نائباً عنه ليسهل على السكان الاستقبالات الملكية، ويعفيهم من عناء قطع مسافة اثني عشر ميلاً. كان هذا النائب عندما كنت في كبرة (= حوالي 918هـ = 1512م) أحد أقارب الملك، يدعى أبا بكر ويلقب بركما. وكان شديد السواد إلا أنه جليل القدر بذكائه وكثرة إنصافه. والشيء الذي تتضرر منه هذه المدينة كثيراً هو الأمراض المنتشرة الناتجة عن حالة الأطعمة المتناولة فها، كالسمك واللبن والزبد واللحم الممزوج بعضها ببعض. ونصف المواد الغذائية الموجودة بتنبكتو مستورد تقريباً من كبرة.

كاغو: كاغو مدينة عظيمة كسابقتها، أي غير مسورة، بعيدة بنحو أربعمائة ميل عن تنبكتو إلى جهة الجنوب الشرقي. دورها قبيحة على العموم، إلا أن البعض منها جميل جداً حيث يسكن الملك وحاشيته، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائماً في المنطقة بسلعهم. ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر وأوربا، لكنهم لا يجدون أبداً ما يكفي منها لإنفاق ذهبهم، فيعودون دائماً إلى بلادهم بنصفه أو ثلثه. والمدينة متحضرة جداً بالنسبة لتنبكتو. الخبز واللحم فيها كثيران جداً، لكن الخمر والفواكه منعدمان. حقاً إن البطيخ والخيار والقرع الجيد والأرز توجد فيها بكميات ضخمة، وآبار الماء العذب عديدة. وهناك ساحة يباع فيها أيام السوق عدد لا يحصى من الرقيق ذكوراً وإناثاً، تساوي الفتاة بنت خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريباً؛ ولا يساوي الأطفال الصغار إلا نصف هذا الثمن بالتقريب، وكذلك العبيد المسنون. وللملك قصر خاص معد لعدد عظيم من النساء والجواري والعبيد، والخصيان المكلفين بحراسة هؤلاء النساء. وله أيضاً حرس كثر مؤلف من الفرسان والراجلين المسلحين بالقسي. وبين الباب العام والباب الخاص ساحة كبيرة مسورة، في كل جانب من جوانبها رواق مخصص للاستقبالات. ورغم أن الملك يفصل بنفسه في جميع قضاياه فإن له عدداً من المساعدين الموظفين، كالكتاب والمستشارين والقواد والأمناء. إن موارد المملكة عظيمة لكن مصارفها أعظم، فالحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بأوربا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالاً، وأبسط قماش أوربا يباع بأربعة مثاقيل للكنة (= حوالي مترين) والقماش الرفيع مثل "المنتشينو" و"المينمو" يباع بخمسة عشر مثقالا، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً. وأقبح سيف أوربي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال، يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل، وكذلك المهاميز والأعنة، وجميع أدوات الخياطة



والعطارة باهظة الأثمنة، تسوي "دسيمة" (= عشرة أرطال) الملح مثقالاً محلياً. ويتكون باقي المملكة من مداشر وقرى يعيش فيها الفلاحون والرعاة مرتدين جلود النعام في الشتاء. أما في الصيف فيمشون عراة حفاة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير. يعيش هؤلاء القوم في جهالة جهلاء، حتى لا تكاد تعثر في مسافة مائة ميل على واحد منهم يعرف القراءة والكتابة، لكن الملك يعاملهم بما يستحقون، فلا يترك لهم إلا ما يسدون به رمقهم لكثرة ما يثقل به كاهلهم من الضرائب.

مملكة كوبر: تقع هذه المملكة(=جوار النيجر)على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق مملكة كاغو (= الصواب نحو 1000كم) ويقطع المار بين هاتين المملكتين مفازة لا يوجد فيه إلا القليل من الماء لبعدها عن النيجر بنحو أربعين ميلاً. وتوجد هذه المملكة بين جبال شاهقة تضم عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام لكنها قصيرة القامة. والناس متحضرون جداً على العموم، فيهم عدد كبير من نساجي القماش، ولا سيما الإسكافين الذين يصنعون أحذية كالتي كان ينتعلها الرومان في القديم؛ وتصدر هذه الأحذية إلى تنبكتو وكاغو. ويكثر فيها العسل والارز، ونوع من الحب لم أره قط في إيطاليا، وأظن أنه موجود بإسبانيا. وعندما يفيض النيجر يغمر جميع السهول ويحيط بهذه الأماكن المسكونة، فيزرعون حسب عادتهم الحب على الماء. ومن بين هذه الأماكن قرية عظيمة تضم ستة آلاف كانون، ويسكنها التجار الكوبريون أو الأجانب، كانت من قبل دار مقام الملك وحاشيته، ذلك الملك الذي أسره وقتله في أيامنا هذه أسكيا تنبكتو، كما أنه خصى أحفاده وجعلهم خدمة في قصره. فاستولى على هذه المملكة وعين والياً عليها من قبله وأثقل كاهل السكان بالضرائب، وكانوا قديماً يحققون أرباحاً تجارية طائلة، فأصبحوا الآن فقراء، ونقص عددهم أكثر من النصف؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عدداً كثيراً من الناس، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له.

أغدس: أغدس مدينة مدرة مسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا. وهي مدينة السود التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض باستثناء ولاتة. دورها متقنة البناء جداً على نمط دور بلاد البربر، لأن جميع سكانها تقريباً من التجار الأجانب. وأهل البلاد فيها قليلون جداً، يعملون صناعاً أو جنود لملك المدينة. ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمونه كحراس له في الطريق المؤدية من كانو إلى بورنو التي تعيث فيها فساداً قبائل لا تحصى ضاربة في الصحراء. وهو قوم يشبهون أفقر البوهيميين ويهاجموا التجار على الدوام ويفتكون بهم، لذلك يأخذ التجار معهم عبيداً مسلحين كما يجب بالرماح والسيوف والقسي، وبدؤا اليوم يستعملون الأسلحة النارية (= طبقا لهذه الإشارة تكون الأسلحة النارية عرفت في هذه المناطق منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي) وبذلك لا يتمكن هؤلاء اللصوص من عمل أي شيء ضدهم. وبمجرد ما يصل تاجر إلى المدينة يستعمل هؤلاء العبيد في مختلف الأشغال ليكسبوا معاشهم، ويحتفظ بعشرة أو اثني عشر منهم لخدمته الخاصة وحراسة بضائعه. ينفق ملك أغدس على حرس مهم، ويعيش في قصر بوسط المدينة، لكن جيشه مؤلف من البدويين والصحراويين، لكونه في الحقيقة من هذه الشعوب الليبية، وقد يخلعه هؤلاء أحياناً ويعوضونه بأحد

أقربائه، إلا أنهم لا يقتلونه. ويعين ملكاً لأغدس من يرضي أهل الصحراء أكثر من غيره. وفي باقي المملكة، أي سائر المنطقة الجنوبية، يقبل الناس على تربية الماعز والبقر، ويعيشون في أكواخ من أغصان الأشجار ومن حصر يحملونها على الثيران عند ارتحالهم لينصبوها في مراعي ماشيتهم كما يفعل الأعراب. ويحصل الملك على مورد هام من الإتاوات التي تؤدي على البضائع الأجنبية ومنتجات البلاد، لكنه يؤدي نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج لملك تنبكتو.

كانو: كانو إقليم كبير على بعد نحو خمسمائة ميل شرقي النيجر، يضم عدة شعوب يسكنون القرى ويعيشون من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضي التي تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن. وفيه جبال خالية من السكان مكسوة بالغابات مليئة بالعيون. وفي هذه الغابات كثير من شجر البرتقال والليمون البري، ينتج فواكه لا يختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس. وفي وسط الإقليم مدينة استمد الإقليم منها اسمه، يحدق بها سور مبني بالركائز والطين، والدور مبنية بنفس المواد. والسكان صناع متحضرون وتجار أغنياء. كان ملكهم في القديم ذا شوكة قوية له حاشية هامة وعدة فرسان، بحيث إنه أخضع لسلطته ملك زكزك وملك كاتسينا، إلا أن أسكيا ملك تنبكتو تظاهر بإنجاد هذين الملكين وأمر بقتلهما غيلة واستولى على مملكتهما. ثم بعد ثلاث سنوات أعلن الحرب على ملك كانو وأرغمه بعد حصار طويل على أن يتزوج إحدى بناته ويؤدي له ثلث مورده كل سنة، ويترك في المملكة عدداً من الأمناء والجباه لاستيفاء حقه من الضرائب.

كاتسينا: كاتسينا مملكة مجاورة للسابقة من جهة الشرق مشتملة على عدة جبال، وأراضيها وعرة لكنها جيدة للشعير والدخن. والسكان شديدو سواد البشرة، أنوفهم كبيرة شنيعة، وشفاههم غليظة. وجميع الأماكن المسكونة في هذه البلاد قرى من أخصاص قبيحة المنظر، لا يتعدى سكان أي واحد منها ثلاثمائة كانون، وهنا يجتمع الفقر والدناءة. وكان لهؤلاء القوم في القديم ملك يحكمهم، لكن أسكيا قتله وأفنى نصف الشعب، وتمكن من المملكة.

زكزك: هذه بلاد تتاخم كانو من جهة الجنوب الشرقي، لكنها تقع على بعد نحو خمسين ميلاً من كاتسينا. سكانها أغنياء يتعاطون التجارة في المنطقة كلها. قسم من هذا الإقليم شديد الحر، والقسم الآخر شديد البرد إلى حد أن السكان لا يطيقون تحمل الشتاء. فيتخذون في أرض أكواخهم مواقد كبيرة يوقدون فيها كثيراً من الجمر يضعونها تحت أسرتهم المرتفعة فينامون عليها. ومع ذلك فإن الأرض تنتج الثمار، وتكثر فيها المياه والحبوب. وتشبه الدور والقرى مثيلاتها المذكورة آنفاً. وكان في هذه البلاد ملك مستقل إلا أن أسكا قتله واستولى على ملكه هو الآخر.

زنفرى: هذه ناحية متاخمة لسابقتها من جهة الشرق، تسكنها عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن. وأهل زنفرى طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان، وقد سم أسكيا ملكهم، وأباد قسماً منهم.



مملكة وانكرة: أقليم متاخم للإقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي، يسكنه شعب كبير يحكمه ملك يستطيع أن يعبئ سبعة آلاف رجل مسلح بالقسي وحوالي خمسمائة فارس من الغرباء، ويستخرج مورداً كبيراً من رسوم السلع والضرائب التجارية. وجميع الأماكن المسكونة قرى من أخصاص، باستثناء واحد هو أكبر وأجمل من الأخرى. والسكان أغنياء جداً لأنهم يذهبون بسلعهم إلى البلدان النائية، ويجاورون من الجنوب البلاد التي يوجد فيها الذهب بكمية وافرة. أما الآن فلا يستطيعون القيام بتجارة خارجية لوجود عدوين قويين شرسين، هما أسكيا في الغرب، وملك بورنو في الشرق. ولما كنت في بورنو حشد ملكها إبراهيم جيشه كله لمهاجمة ملك وانكرة، لكنه لما اقترب من هذه المملكة علم أن عمر أمير كاوكا يستعد للزحف على بورنو، فعدل حيناً عن مشروعه وقفل راجعاً إلى مملكته. وكان ذلك من حسن حظ ملك ونكرى. ويضطر تجار ونكرى عندما يتوجهون إلى بلاد الذهب إلى اجتياز جبال عالية وعرة لا تستطيع الدواب أن تمر بها. فيتخذون الطريقة الآتية، وهي أن يحمل الخدم على رؤوسهم البضائع وما يحتاجون إليه في قشور قرع عريضة عميقة، ويستطيع كل خادم أن يقطع عشرة أميال وأكثر حاملاً على رأسه مائة رطل. ورأيت منهم من يقطع هذه المسافة مرتين في نفس اليوم، ولم يبق على رأسهم شعر بسبب الوزن الثقيل الذي تعودوا على حمله، وينقلون زيادة على البضائع المؤن لسادتهم ولجميع العبيد المسلحين لحراسة التجار.

بورنو: بورنو إقليم كبير (= حاليا في نيجيريا) يتاخم وانكرة غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسمائة ميل، ويبعد بنحو مائة وخمسين ميلاً عن منبع النيجر؛ كما يتاخم جنوباً صحراء سات وشمالاً الفلوات المقابلة لبرقة. ولهذا الإقليم مواقع متنوعة، فبعض النواحي جبلية، والأخرى مؤلفة من سهول حيث توجد قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض. أما الملك فيسكن أعظم هذه القرى مع جنوده. يسكن الجبل رعاة يرعون الماعز والبقر. ويزرع فيه أيضاً الدخن وبعض الحبوب الأخرى المجهولة عندنا. يسير أهل البلاد عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم لا نصرانية ولا يهودية ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات.

يحكم هذا الإقليم أمير شديد البأس من برداوة الشعب الليبي، له زهاء ثلاثة آلاف فارس وما يشاء من الراجلين، لأن الشعب كله في خدمته، يقوده حيثما شاء، ولا يفرض عليه أي خراج ما عدا عشر ما تنتجه الأرض. ولا مورد لهذا الملك غير ما يحصل عليه من نهب وقتل الأعداء من جيرانه القاطنين فيما وراء قفر ساو، وعددهم لا يحصى. وكانوا قديماً يقطعون هذا القفر مشياً على الأقدام ويجتاحون مملكة بورنو بأسرها، لكن الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل، ويترك التجار ينتظرون إلى عودته. وربما مكثوا



في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحياناً يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن، فهذه الغاره لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة. ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبداً لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة. ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التي يملكها. وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز وأعنّة وشكيمات كلها من الذهب، وكذلك القصع والأواني التي يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب. والسلاسل، حتى سلاسل كلاب الملك، كلها من الذهب الخالص، ومع ذلك فإن هذا الرجل -كما قلنا- شديد البخل يفضل دفع الثمن رقيقاً على دفعه ذهبا. يسيطر على ممالك عديدة، لكن البيض يسمون جميع البلدان التي يحكمها بورنو، وذلك لقلة الخبرة الكافية التي تمكن من معرفة خاصة بهذه البلاد، وذلك ما حدث لي بالأخص، لأنني لم أقض في هذا الإقليم أكثر من شهر تقريباً.

كاوكا: يتاخم هذا الإقليم بورنو غرباً، ويمتد شرقاً إلى حدود مملكة نوبيا الواقعة على النيل، وينتهي جنوبا بصحراء تتاخم أيضاً منعرجاً للنيل، ويسير شمالا إلى صحراء سرت وتخوم مصر، ثم يمتد من الغرب إلى الشرق على طول نحو خمسمائة ميل، وعلى نفس المسافة عرضاً بالتقريب. لا توجد هناك حضارة ولا معرفة بالآداب ولا حكومة، والسكان أغنياء لا سيما الجبليين منهم، يسيرون حفاة في الصيف ولا يرتدون أي لباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم. دورهم أكواخ من أغصان الشجر، كثيراً ما تحترق عند هبوب أدنى ريح خفيفة، ولهم عدد وافر من الغنم والبقر يقومون على تربيتها. وقد عاش هؤلاء القوم أحراراً مدة طويلة، إلا أن عبداً زنجياً من هذه البلاد سلبهم حريتهم منذ مائة سنة، كان قد جاء به سيده إلى هناك، وهو أحد التجار الأغنياء. فلما وجد العبد نفسه قريباً من منزله قتل سيده بينما كان نائماً مطمئناً، واستولى على أمواله المؤلفة من أحمال عدة جمال وثياب وأسلحة، وعاد إلى بيته وقسم كل ذلك بين أهله وأصدقائه. وبعد أن اشترى بعض الخيل من تجار بيض، أخذ يقوم بشن الغارات على بلد أعدائه، وكان ينتصر عليهم دائماً لأن رجاله كانوا مسلحين بأسلحة حديثة، بينما لم يكن لأعدائه غير قسي رديئة من الخشب. فجمع عبيداً كثيرين استبدلهم بخيل مجلوبة من مصر، وتضاعف عدد جنوده. فأطاعوه جميعاً وعدوه رئيساً وأميراً لهم. وخلفه ابنه بعد موته، ولم يكن أقل منه شجاعة وإقداماً. ثم جاء بعده أحد اخوته المسمى موسى، وخلفه أحد أحفاده المدعو عمر، وهو الأمير الحالي، فوسع كثيراً رقعة أملاكه، ونال صداقة سلطان القاهرة ورعايته بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه على الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعف ثمنها متظاهراً بالسخاء، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه. ويفد عليه عدد كثير من فقراء القاهرة حاملين بعض الهدايا الجميلة النادرة فيدفع إليهم ضعف ثمنها، وكان لا يخرج من عنده أحد إلا وهو به مغتبط جذلان؛ ويعامل المثقفين، لاسيما آل البيت، بكثير من الاعتبار والإعزاز. وكنت حاضراً عندما وفد عليه رجل من دمياط وأهدى إليه فرساً في غاية الجمال وسيفاً تركيا، وزردا وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض



السكاكين، يقدر ثمنها كلها في القاهرة بخمسين مثقالاً. فأعطاه الملك في مقابل ذلك خمسة عبيد وخمسة جمال وخمسمائة مثقال من سكة البلاد، بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل العظيمة.

النوبة: تتاخم مملكة النوبة (= مملكة مسيحية في أعالي مصر) المملكة السابقة، أي مفازاتها نحو الغرب. وتمتد على طول النيل متاخمة قفر القرعان جنوباً وأراضي مصر شمالاً. لا يمكن الذهاب في السفن من النوبة إلى مصر، لأن ماء النيل ينتشر في السهول وهو قليل العمق بحيث يعبره الناس والبهائم خوضاً بالإقدام. في هذه المملكة مدينة رئيسية تدعى دمقلة (= دنقلة) وهي كثيرة السكان، يبلغ عدد كوانينها قرابة عشرة آلاف. لكن دورها كلها قبيحة مبنية بأعمدة طويلة وبالطين. والسكان أغنياء متحضرون، لأنهم يزاولون في القاهرة وسائر مدن مصر تجارة القماش والسلاح وغير ذلك من البضائع المختلفة. وفي باقي المملكة قرى على ضفتي النيل يسكنها الفلاحون. وتكثر الحبوب في بلاد النوبة كلها، وكذلك السكر، إلا أنهم لا يحسنون طبخة فيعود أسود كريهاً. ويكثر في دمقلة قطاط الزباد وخشب سانغو، وكذلك العاج، لأنهم يصطادون كثيراً من الفيلة. ويوجد بها أيضاً كثير من السم الزعاف، حتى إن مقدار حبة واحدة منه إذا اقتسم على عشرة أشخاص قتلهم في ظرف ربع ساعة، وإذا تناول الإنسان حبة واحدة مات بعدما ينطق بالشهادة. ويساوي هذا السم مائة مثقال للأوقية، ولا يباع للأجانب إلا بالضامن، وحتى باليمين أنهم لن يستعملوه في النوبة. ويؤدي المشتري إلى الملك مبلغاً يعادل ثمن السم، لذلك لا يستطيع أحد بيعه سراً خشية عقوبة الإعدام.

وملك النوبة في حرب دائمة، تارة ضد القرعان الذين هم من جنس شبيه بجنس البوهيميين الذين يعيشون عيشة ضنكاً في الصحراء ولا يفهم أحد لغتهم، وتارة ضد نوع آخر من قوم يعيشون أيضاً في الصحراء لكن في القسم الشرقي مما وراء النيل. ويمتد القفر حتى البحر الأحمر نحو تخوم السواكن. ويتكلم هؤلاء القوم لغة أظن أنها ممزوجة بالكلدانية وقريبة جداً من اللغة التي يتكلم بها في السواكن وإيثوبيا العليا حيث يوجد مقام الراهب يوحنا. وهذا الجنس يدعى البجة، وهم رعاع يرتدون لباساً رديئاً، وفقراء يعيشون من ألبان إبلهم ولحومها، ومن الصيد الوحشي. ويتقاضون أحياناً بعض الإعانات المالية من أمير السواكن أو أمير دمقلة. وكان لهم في القديم على البحر الأحمر مدينة عظيمة اسمها زبيد لها ميناء يقابل مباشرة ميناء جدة الواقعة على بعد أربعين ميلاً من مكة. لكن هؤلاء القوم منذ مائة سنة مضت نهبوا قافلة كانت تحمل سلعاً ومؤناً لمكة، فاغتاظ ملك مصر وبعث في البحر الأحمر أسطولاً استولى على مدينة زبيد ومينائها ودمرهما. وكانت المدينة وميناؤها تعطيانه دخلاً قدره مائتا ألف (دينار) أشرفي. ففر البجة والتجأوا إلى دمقلة والسواكن حيث حصلوا على بعض معاشهم؛ إلا أن ملك السواكن بعد ذلك هزمهم هزيمة شنعاء، بمعونة أتراك مسلحين بالبنادق والقسي، بحيث إنه قتل من هؤلاء الرعاع الذين كانوا يعيشون عراة أكثر من أربعة آلاف في معركة واحدة. وسيق ألف منهم إلى السواكن حيث قتلهم النساء والأطفال. هذا كل ما استطعت أن أكتبه ملخصاً عن بلاد السودان، ولا يمكن إعطاء تفاصيل أكثر عنها، لأن كل واحدة من هذه الممالك الخمس عشرة تشبه الأخرى من حيث طبيعة البلاد والحضارة والعادات وأسلوب العيش، ويحكمها أربعة ملوك.)



15. أودغشت، الحميري، من كتاب (الروض المعطار)

(مدينة بين صحراء لمتونة والسودان، وهي مدينة عظيمة آهلة لكنها صغيرة، وفي صحرائها ماء قليل، وهي بين جبلين شبه مكة في الصفة، وليس بها تجارة كبيرة، ولأهلها جمال منها يعيشون، ومنها إلى غانة اثنتا عشر مرحلة، وكذلك من أودغشت إلى مدن واركلان إحدى وثلاثون مرحلة، وفي أودغشت أمم لا تحصى، ولها بساتين كثيرة ونخل كثير، ويزدرعون فيها القمح بالحفر بالفؤوس ويسقونه بالدولاب، وكذلك يسقون بساتينهم، وإنما يأكل القمح عندهم الملك وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقاثي تجود عندهم، والبقر والغنم عندهم أكثر شيء وأرخصه، فيشترى في أودغشت عشرة أكبش بدينار وأكثر من ذلك، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة، ولهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله لا يكاد يسمع الإنسان فيها صوت جليسه لكثرة غوغاء الناس، وتجاراتهم إنما هي بالتبر ليست عندهم فضة. وبأودغشت مبان حسنة رفيعة، وأهلها أخلاط من جميع الأمصار قد استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجاراتها.. وحريم أودغشت لا يوجد مثله في بلد، يجلب منها جوار بيض الألوان رشيقات القدود لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقات الفروج، المستمتع بإحداهن كأنما يستمتع ببكر أبداً من غير أن ينكسر لإحداهن ثدي طول عمرها. وأخبرني من رأى امرأة منهن بمدينة أودغشت راقدة على جنبها، وكذلك يفعلن في أكثر أحوالهن اشفاقاً من الجلوس على أردافهن، ورأى ابناً لها طفلاً يلعب حواليها، وهو يدخل تحت خصرها ويخرج من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له، وذلك لعظم ردفها ودقة خصرها.

وبين مدينة بريسي وأودغشت اثنتا عشرة مرحلة، وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة ولا اليابسة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل واركلان الصحراء. والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب وينبت على ضفتيه شجر الأبنوس والشمشار والخلاف والطرفاء والأثل غياضاً متصلة، وبها يستظلون عند شدة الحر وحمارة القيظ، وفي غياضها الأسد، والزراريف، والغزلان، والضبعان، والأرانب، والقنافذ، وفي النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار، ومنه طعام أكثر السودان يتصيدونه ويملحونه، وهو في غاية الحسن والغلظ. وأسلحة أهل هذه البلاد القسي وعليها عمدتهم ويتخذون الدبابيس من شجر الأبنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة، وأما قسيهم فمن القصب وحليهم النحاس وخرز الزجاج. وهي بلاد حر ووهج شديد، وأهل المدن منها يزرعون البصل والقرع والبطيخ، ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد لحسن عمل الأطعمة الطيبة، ولا سيما أصناف الحلاوات مثل الجوزينيات واللوزينجات والقاهرات والكنافات والقطائف والمشهدات وأصناف الحلاوات، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن. ومنها تجلب الدرق الجيدة فإن اللمط بأرض أودغشت كثير جداً ويجلب أيضاً منها العنبر الطيب لقربها من البحر المحيط، ويجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتلة، وذهب أودغشت أطيب ذهب الأرض وأصحه، وكان صاحب أودغشت في عشر خمسين وثلاثمائة (هـ) رجلاً من صنهاجة، وكانت له جيوش كثيرة فدانت له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدون إليه



الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة متصلة، وكان يعتد في أزيد من مائة ألف نجيب، فإن الخيل في تلك البلاد قليلة، فيقال إنه غزا ملكاً من ملوك السودان فدخل بلده وأحرقه وقتل جنده، والملك في قصره ينظر إليه، فلما رأى ما حل ببلده هان عليه الموت فخرج ورمى بدرقته إلى الأرض، وقاتل حتى قتل، فلما عاين نساؤه ذلك تردين في الآبار وقتلن أنفسهن بضروب القتل أسفاً على ملكهن وأنفة أن يملكهن البيضان. وبين أودغشت وسجلماسة نحو خمسين مرحلة، ومنها إلى غانة نحو عشرين مرحلة.)

ينتهي الوصف الجغرافي والتاريخي والبشري لإفريقيا ليحلّ مكانه الإرتحال المباشر اليها، وعلى نقيض الرحلات الى الشرق والشمال، تلاحظ ندرة الإرتحال الى العمق الإفريقي، ولعلّ رحلة سليّم الإسواني تعد من الرحلات المبكرة الى تلك الأصقاع، فقد ارتحل بين الأعوام 351 - 355هـــ = 969 - 973م، ومايؤسف له أن النص مازال مفقودا، وفيما يلي النبذ المتبقية منه كما وردت في (الخطط المقريزية) للمقريزي.

16. وصف بلاد النوبة، وأعالي النيل، سُلِّيم الأسواني، أورده المقريزي في (الخطط المقريزية)

(.. اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل، فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام، وبين أول بلدهم وبن أسوان خمسة أميال ويقال إن سلها جد النوبة، ومقرى جد المقرة من اليمن، وقيل النوبة ومقرى من محير. وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح، وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية، وأول أرض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر مراحل من أسوان، ويقال إن موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في أيام فرعون فأخرب نافة، وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ثم تنصروا جميعاً، والنوبة والمقرة ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم وأول بلاد علوة قرى في الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب، ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح. والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار، فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق كدر الماء يجف في الصيف حتى يسكن بطنه فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء وزادت البرك التي فيه، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد فوقعت الزيادة في النيل، وقيل إن آخر هذا النهر عين عظيمة تأتي من جبل.

قال مؤرخ النوبة، وحدثني سميون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد في بطن هذا النهر حوت لا قشر له ليس هو من جنس ما في النيل يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج، وهو كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن. قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذين عندهم وعن لونه فذكر أنه يخرج من جبال الرمل أو جبل الرمل وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ثم ينصب إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض فأما أن يكون اكتسب ذلك اللون بما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب إليه وعليه أجناس من جانبيه ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتي من القبلة



مما يلي الشرق شديد الخضرة صافي اللون جداً يرى ما في ثغره من السمك وطعمه مخالف لطعم النيل يعطش الشارب منه بسرعة وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء وخشب له رائحة كرائحة اللبان وخشب غليظ ينحت ويعمل منه مقدام وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضاً. وقيل إنه وجد فيه عود البخور. قال وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التي تأتي فيه وقت الزيادة علامة غريبة ويجتمع النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما. قال: وأخبرني من نقل النيل الأبيض وصبه في النيل الأخضر فبقي فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا وبين هذين النهرين جزيرة لا يعرف لها غاية وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأولهما يعرف عرضه ثم يتسع فيصير مسافة شهر ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لأن فيهما أجناساً كثيرة وخلقاً عظيماً.

قال: وبلغني إن بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين وإن في طرفها القبلي جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة والأنهار الأربعة الباقية تأتي أيضا من القبلة مما يلي الشرق أيضا في وقت واحد ولا يعرف لها نهاية أيضا وهي دون النهرين الأبيض والأخضر في العرض وكثرة الخلجان والجزائر وجميع الأنهار الأربعة تنصب في الأخضر وكذلك الأول الذي قدمت ذكره ثم يجتمع مع الأبيض وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها وأحد هذه الأربعة يأتي مرة من بلاد الحبشة. قال: ولقد أكثرت السؤال عنها واستكشفتها من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار والذي انتهى إليه علم من عرفني عن آخرين إلى خراب وأنه يأتي في وقت الزيادة في هذه الأنهار آله مراكب وأبواب وغير ذلك، فيدل على عمارة بعد الخراب، فأما الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتي من ذاتها والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة ومن عجائبه أن زيادته في أنهار مجتمعة وسائر النواحي والبلدان في مصر وما يليها والصعيد وأسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك في زمان واحد، وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلا بأسوان ولا توجد بقوص، ثم تأتي بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم واتصلت السيول علم أنها سنة ري وإذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ.

قال: وأما من طرق بلاد الزنج فانهم أخبروني عن مسيرتهم في بحر الصين إلى بلاد الزنج بالريح الشمالي ساحلين للجانب الشرقي من جزيرة مصر حتى ينتهوا إلى موضع يعرف برأس حفري، وهو عندهم آخر جزيرة مصر فينظرون كوكبا يهتدون به فيقصدون الغرب ثم يعودون إلى البحري ويصير الشمال في وجوههم حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج، وهي مدينة ملكهم ونصير قبلتهم للصلاة إلى جدة. قال: وبعض الأنهار الأربعة يأتي من بلاد الزنج لأنه يأتي فيه الخشب الزنجي وسويه مدينة العلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنه، وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبسلتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك



علوة أكثر مالا من متملك المقرة، وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقري، وبلده أخصب وأوسع والنخل، والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز منها خبزهم ومزرهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة العظيمة السعة حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام، وعندهم خيل عناق وجمال صهب عراب، ودينهم النصرانية يعاقبه وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم، وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش، فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير في بلده. ومما في بلده من العجائب أن الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنسا يعرف بالكرنينا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرا وجعل البذر في وسط الخطة وشيئاً من المزر وانصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فإذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فإذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك، وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ يقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع، وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب.

قال: وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا أن اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثل لا يجوز التواطؤ على مثل لما ذكرت شيئا منه لشناعته، فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وأن السحاب يطيعهم. قال: ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة إنهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الأرض، وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر، قال: وقد رأيت جماعة وأجناسا ممن تقدم ذكر أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري، ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة، وذكر أنه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلّه، وسأله عن دينه فقال: ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد، وأنه قال له: فأين يكون؟ قال في السماء وحده، وقال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجاتهم قبل أن يترلوا. وسأله: هل أرسل فيكم رسول؟ قال: لا، فذكر له بعثه موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وما أيدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا، ثم قال صدّقتهم إن كانوا فعلوا..)

تأتي رحلة ابن بطوطة الى وسط إفريقيا لتكشف عن مدى مصداقية بعض المعلومات التي دونها الرحالة والجغرافيون السابقون، وهي تدعم بعض تلك المعلومات وتتقاطع مع بعضها الآخر، لأنها تقوم على المعاينة المباشرة، وتأخذ هذه الرحلة التي اختتم بها ابن بطوطة حياته كرحالة، منحى تفصيليا في استقصاء العادات والطبائع، وهو الأمر الذي برع فيه ابن بطوطة.

17. أواسط إفريقيا. ابن بطوطة، من كتاب (تحفة النظّار).

من سبته إلى أيوالاتن: .. وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان (= يرجّح أن الرحلة جرت بتكليف من السلطان أبي عنان). فوصلت إلى مدينة سجلماسة (=بنيت في 140هـــ=757م) وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر؛ لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرارمنه لا نظير له في البلاد. ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا أشد ما تباعدا! فأكرمني غاية الإكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر.ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين (وسبعمائة = 18 شباط/فبراير 1352م) في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسُّوفي رحمه الله تعالى، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازّي (=مملكة تغازي في عمق الصحراء) وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسّوفة (= قبيلة من صنهاجة) الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة (= وادي درعة) وسجلماسة، ومن لحوم الجمال ومن أنلي المجلوب من السودان، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا.

وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به، وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر، وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا. ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا، والكمأة بتلك الصحراء كثير، ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها. وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به، و لم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري؛ فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت. وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدي منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل، فلما نزل الناس لم يظهر له خبر، فأشرت على ابن خاله بأن يكتري من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فأبى، وانتُدب



في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجره لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة و لم يقع له على خبر، ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه، وفي يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه. ثم وصلنا إلى تاسرهلا، وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنالك يبعث التكشيف.

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائم بالماء مسيرة أربع، ومَن لم يكن له صاحب بأيوالاتن كتب إلى من شُهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك، وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم، وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكي. ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية، وهو أعرف الناس بالطريق، واكترينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك، وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي آمنة من السراق، والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولّد أكله العطش؛ فيتحاماه كثير من الناس لذلك. ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد في كروشها الماء. ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذي فيه. والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة. وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان ومن عادته أن يقبض على الحيات ويعبث بها، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي، فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فأخذها بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى واصابه وجع شديد فكويت يده وزاد ألمه عشي النهار فنحر جملا وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل. وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه. ولو لم تكن شربت لقتلته. ولما وصل إلينا الين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا، وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله ونترل عند الصباح وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع.

من أيوالاتن إلى مالي: ثم وصلنا إلى مدينة أيوالاتن(=شمال مالي)في غرة شهر ربيع الأول (= نيسان/أبريل 1352م) بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة، وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين، وفربا معناه النائب، ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة، وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفربا، وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي، وكبراء مسوفة من ورائه، ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم؛ فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم



واحتقارهم للأبيض، وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل "سلا" كنت كتبت له أن يكتري لي دارا ففعل ذلك. ثم إن مشرف أيوالاتن، ويسمى منشاجو استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته فأبيت من حضور ذلك، فعزم الأصحاب علي أشد العزم فتوجهت فيمن توجه، ثم أتي بالضيافة وهي جريش أنلي مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيّروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا، فقلت لهم: ألهذا دعانا الأسود، قالوا: نعم، وهو الضيافة الكبيرة عندهم. فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم، وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاتن، ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم، وكانت إقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوما، وأكرمني أهلها وأضافوني: منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر، وأخوه الفقيه المدرس يحيى.

وبلدة أيوالاتن شديدة الحر، وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من أحساء بها، ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال. وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه؛ وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن، وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات، ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرون مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك. دخلت يوما على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن؛ فلما رأيتها إرتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني، ولم يدركها خجل، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟إنها صاحبتي. فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحُجّاج، وأخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته، لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له. دخلت يوما على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان فقلت له: ما هذه المرأة؟فقال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها، فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه.

ولما عزمت على السفر إلى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمُجِّد اكتريت دليلا من مسوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق، وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها (= شجر الباوبا الاستوائي) وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعض النخل

والعسل فيشتاره الناس منها، ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلا حائــكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه. وفي أشجار هذه الغابة التي بين إيوالاتن ومالي ما يشبه شجرة الإجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها، وفيها أشجار تثمر شبه الفقوص فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها، وطعمها كطعم الحمص المقلو، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج، وقلوه بالغرتي والغرتي هو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الإسفنج، ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير، وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا، والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا.وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع، والمسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا أداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت (=جذور عطرية) وهو بخورهم فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهن ما أحب من ذلك إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه.

وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراته، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الأباضية من الخوارج ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري، ومن هذه القرية يجلب انلي إلى إيوالاتن. ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل (= وادي النيجر، وكثير من الأنهار الإفريقية في ذلك العصر كانت تسمّى بالنيل) وعليه بلدة كارسخو، والنيل ينحدر منها إلى كابرة، ثم إلى زاغة، ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي، وأهل زاغة قدماء في الإسلام لهم ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو وسنذكرها، ثم إلى بلدة مولي من بلاد الليمين، وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفي، وهي من أكبر بلاد السودان وسلطانها من أعظم سلاطينهم، ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها، ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة، وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كتر الدين أسلم على أيام الملك الناصر، ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير، ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح، فحال بينك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي وعادتهم أن يمنع

الناس من دخولها إلا بإذن، وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري ليكتروا لي درا، فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعدية و لم يمنعني أحد.

فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان فترلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لي دار إزاء داره، فتوجهت إليها.. وسلطان مالي هو السلطان منسى سليمان (= حكم للفترة 741-761هـ =1341- 1360م) ومنسى معناه السلطان وسليمان اسمه، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء. اتفق أني أقمت هذه المدة و لم أره بسبب مرضي، ثم إنه صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبي الحسن (= المريني) رضي الله عنه واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وحضرت معهم فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسي سليمان، ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان، وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فأجابهم بلسانهم، فقالوا لي: يقول لك السلطان أشكر الله، فقلت: الحمد لله والشكر على كل حال. ولما انصرفت بعث إلي الضيافة، فوجهت إلى دار السلطان القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي، وقال: قم قد جاءك قماش السلطان، وهديته. فقمت، وظننت أنها الخلع والأموال فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي، وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير.

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلي فيهما شيء من قبل السلطان، ودخل شهر رمضان (=بداية من 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1352م) وكنت خلال ذلك اتردد إلى المشور وأسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان، فقال: تكلم عنده وأنا أعبر عنك ما يجب، فجلس في أوائل رمضان، وقمت بين يديه وقلت له: إني سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، و لم تضفني ولا أعطيتني شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين، فقال: إني لم أرك ولا علمت بك، فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه، وقالا: إنه قد سلم عليك، وبعثت إليه الطعام، فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري علي، ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة، وأعطاني ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا، وأحسن إلي عند سفري بمائة مثقال ذهبا. وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الأوقات، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب أو هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم أنه يجلس فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق، ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين، وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى، وتأتي الفرارية وهم الأمراء (= في



الجيش)، ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنه ويسرة المشور، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة (= مطرّزة بالحرير) وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة، وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفي رجليه الخف والمهاميز، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد، ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور. وفي شارع هنالك متسع فيه أشجار، وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والأطبال والأبواق وبوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطّاعة ولها صوت عجيب، وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده، وهو راكب فرسه وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان.

ويجلس السلطان أيضا في بعض الأيام بالمشور، وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (= منصّة) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر، وأكثر لباسه جبة حمراء موبّرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس، ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر (= آلات وترية) الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح، ويمشي مشيا رويدا ويكثر التأني، وربما وقف فإذا وصل إلى البنبي وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار. والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم واشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون: منسى سليمان كي (= الأمر للملك سليمان)فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقه، ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذله ومسكنة وضرب الأرض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه، وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء. وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم، وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله في خدمته، ويقول: فعلت كذا يوم كذا، وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك، وتصديقهم أن ينزع أحدهم وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى فإذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترّب. وذلك عندهم من الأدب.



وحضرت بمالي عيدي الأضحى والفطر (= 10تشرين الثاني/ نوفمبر1352 و17 كانون الأول /يناير 1353) فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان إليها وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى، فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان، وتكلم بكلام كثير، وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه، ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البنبي ويأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج، ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة، وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه، ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر بمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله ويغني النساء والجواري معه، ويلعبن بالقسي، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف والحمر وفي رؤوسهم الشواشي البيض، وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه، ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي، ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة، ويلعبون بالسيوف أجمل لعب، ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان، فيوتى بصُرَّة فيها مائتا مثقال من التبر، وينثر ما فيها على رؤوس الناس، وتقوم الفرارية فيترعون في قسيهم شكرا للسلطان، وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره، وفي كل يوم جمعة بعدالعصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه.

وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجُلا، واحدهم جالي (= المنشد)، وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم، وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ، يقولون فيه للسطان: إن هذا البنبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من أحسن أفعاله كذا، وفلان وكان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك، ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي، ويضع رأسه في حجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البنبي فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن، ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم، ثم يترل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه. وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام فأتى أحد فقهائهم، وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان، وتكلم كلاما كثيرا، فقام القاضي فصدقه، ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن راسه وترب بين يديه، وكان إلى جانبي رجل من البيضان فقال: أتعرف ما قالوه؟



فقلت: لا أعرف، فقال: إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها، فقال هذا جراد كثير، فأجابته جرادة منها، وقالت: إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها، فصدقه القاضي والسلطان، وقال عند ذلك للأمراء: إني بريء من الظلم، ومَن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم و لم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله، ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبّرؤوا من الظلم.

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبي حفص، فقال: يا أهل المسجد أشهدكم أن منسى سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيئا؟ فقال: منشاجو إيوالاتن، يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال، واراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة. فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد أيام، وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه، فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله. واتفق في يوم إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا، ومعنى قاسا عندهم الملكة، وهي شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو، و لم تكن من بنات الملوك، فأكثر الناس الكلام في ذلك وأنكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة فجعلن الرماد على أذرعهن و لم يتربن رؤوسهن، ثم إن السلطان سرح قاسا من ثقافها، فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح، وترَّبن على العادة فشكت بنجوا إلى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا ففعل ذلك ورضي عنهن، وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام، وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان، وسارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب، وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها، وأكثر الأمراء الكلام في شأنها، فجمعهم السلطان في المشور، وقال لهم دوغا على لسانه: إنكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاسا، وإنها أذنبت ذنبا كبيرا، ثم أتي بجارية من جواريها مقيدة مغلولة، فقيل لها تكلمي بما عندك فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه، وقالت له: أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك، قالوا: إن هذا ذنب كبير، وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب، وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد، وإن لم يتمكن فبدار الخطيب، وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسى مغا منسى موسى، وكان كريما فاضلا يحب البيضان، ويحسن إليهم وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال. وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد، وكان جده سارق جاطه أسلم على يدي مدرك هذا.

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبي غير معتبر، ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة وهو



سلطان فعرفه وادعاه وأدناه منه حتى جلس معه على البنبي ثم قرره على فعله معه، وقال للأمراء: ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟ فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها فاعطه سبعين مثقالا، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما، وأمره أن لا ينقطع عنه. وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالي. فمن أفعال السودان الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقة، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة و لم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلى قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظون. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد تثقيل. فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن.

ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم الجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة؛ فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه، وهن عرايا، ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناته. ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا، ومنها ما ذكرته من الاضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير. وكان دخولي إلى مالي في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاثة وخمسين وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين (= من 29 حزيران /يونيو 1352 لغاية 28 شباط/فبراير 1353م)

من مالي إلى ميمة: ورافقني تاجر يعرف بأبي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة (= قرب نامبالا) وكان لي جمل أركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوي أحدها مائة مثقال، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل لا يجاز إلا في المراكب، وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل، والليل مقمر ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك، ثم أني رأيتها دخلت في النهر، فقلت لأبي بكر بن يعقوب: ما هذه الدواب؟ فقال: هي خيل البحر خرجت ترعى في البر، وهي أغلظ من الخيل، ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة، ورأيت

هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو، وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ، وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم، ولهم حيلة في صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحا مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه، ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج.

أخبرني فربامغا أن منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بأبي العباس ويعرف بالدكالي فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته، فلما وصلوا إلى ميمة شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه، وهددهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان وعرفه الخبر، فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين ثم رده إلى بلده، وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم. قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أمير لهم وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا وتكون فتحة القرط نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان واعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهم يقولون أن أطيب ما في لحوم الأدميات الكف والثدي. ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قري منسى، ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه فأخبرني راعيه بذلك فخرجت لأنظر إليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف، فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملا بزاغري وهي على مسيرة يومين، وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة، فأقمت سبعة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل، وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لي: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم، فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر. ثم رحلت إلى بلدة ميمة فنزلنا على آبار بخارجها.

من تنبكتو إلى برادمة: ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو، وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فربا موسى، حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم، وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن، وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين



هذا ببركة الحبش خارج مصر، وبها يترل السلطان واحتاج إلى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضا، وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال، فأقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافة أبو إسحاق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس في ذلك، واقموا أنه سمّ، فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سمٌّ لقتلنا جميعا لكنه انقضى أجله، ووصل الولد إلى مالي، واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر.

ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، وكنا نترل كل ليلة بالقرى، فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات، وبحلي الزجاج ثم وصلت إلى بلد انسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة، لا يتعاطى أحد الترع في قوسه، و لم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسما، واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلمت عليه، وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له، فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه: يا فقيه قل لهذا الأمير إنا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد والسلام. وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا، ويكلم الأمير في ذلك بلسانه، فقرأه جهرا وفهمه الأمير، فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح، ووجدت عنده كتاب "المدهش" لابن الجوزي فجعلت أقرأ فيه، ثم أتي بمشروب لهم يسمّى الدقنو، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض الماء لأنهم إن شربوا الماء خالصا أضرّ بهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتي ببطيخ أخضر، فأكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه، وقال لي: هذا ضيافتك، واحفظه لئلا يفر، فأخذته، واردت الانصراف، فقال: أقم حتى يأتي الطعام، وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية، فكلمتني بالعربي، فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخا بداره، فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك، فعادت إليه فأعلمته أن بنتا له قد توفيت، فقال: إني لا أحب البكاء، فتعال نمش إلى البحر يعني النيل، وله على ساحله ديار، فأتى بالفرس فقال لي: اركب، فقلت: لا اركبه وأنت ماش، فمشينا جميعا، ووصلنا إلى دياره على النيل، وأتي الطعام فأكلنا، وودعته وانصرفت، و لم أر في السودان أكرم منه، ولا أفضل والغلام الذي أعطانيه باق عندي إلى الآن.

ثم سرت إلى مدينة كوكو (= على نمر النيجر شرقي تنبكتو) وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقوص العناني الذي لا نظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع، وكذلك أهل مالي، وأقمت بها نحو شهر، وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا، وتوفي بها بعد خروجي عنها، وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان. ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين، ومعناه الذئب بلسان السودان، وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد، فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه



على أصحابه فتوزعوا حمله، وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره، وعطش غلامي يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به.

من برادمة إلى فاس: ثم وصلنا إلى بلاد بردامة، وهي قبيلة من البربر ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم والمرأة عندهم في ذلك شأنا أعظم من الرجل، وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل ويقيمون أعوادا من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعوادا مشتبكة، وفوقها الجلود أو ثياب القطن، ونساؤهم أتم النساء جمالا وابدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن، ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن، وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح، ومن أراد التزوج منهن سكن بهن في أقرب البلاد إليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا إيوالاتن، وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء. واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا، ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزول، وأضافني قاضيها أبو إبراهيم اسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل، وأضافني جعفر بن محمد المسوفي.

وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدا من امداداهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا، وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب، وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ، وأما الرجال فقلما تقتلهم، ولقد لدغت يوما وأنا بها ولد للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته، ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وإيوالاتن، ولا يبيعون المعلمات منهن إلانادرا وبالثمن الكثير. أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلّمة فلم أجدها، ثم بعث إلي القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا، ثم أن صاحبها ندم ورغب في الإقالة، فقلت له: إن دللتني على سواها أقلتُك، فدلني على خادم لعليّ أغيول، وهو المغربي التادلي الذي أبى أن يرفع شيئا من أسبابي حين وقعت ناقتي، وأبى أن يستقي غلامي الماء حين عطش، فاشتريتها منه، وكانت خيرا من الأولى، وأقلتُ صاحبي الأول، ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم، ورغب في الإقالة والح في ذلك فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله، فكاد أن يجن أو يهلك أسفا ثم أقلته بعد. ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الارض وياتون به الي البلد فيسكبونه في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فاذا سكبوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع القلاظ منها بحساب اربعمائه قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب، وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذره والسمن والقمح، ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاري وإلى بلاد برنو، وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم



ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب، ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب الجيدة، ويحمل النحاس أيضا منها إلى جوجرة وبلاد المورتبين وسواها.

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تكدا، وهو بربري يسمى إزار، وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركري، وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة، فذهبوا إلى الإصلاح بينهما. فأردت أن ألقاه فاكتريت دليلا وتوجهت إليه، وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء إلي راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم، وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق، ومعه أولاد أخته، وهم الذين يرثون ملكه فقمنا إليه وصافحناه، وسأل عن حالي ومقدمي، فأعلم بذلك وأنزلني ببيت من بيوت اليناطبين، وهم كالوصفاء عندنا، وبعث برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوارنا بيت أمه وأخته فجاءتا إلينا وسلمتا علينا، وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعدالعتمة وهو وقت حلتهم ويشربونه ذلك الوقت بالغدو، وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام، وفي كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء، وأحسن إلي بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب، وانصرفت عنه وعدت إلى تكدا. ولما عدت إلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا لي الوصول إلى حضرته العلية، فقبلته وامتثلته على الفور، واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث، وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب.

وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين (وسبعمائة= 12 سبتمبر/أيلول 1353م) في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبدالله قاضي تكدا، وفي الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري، وهي كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها، ويحمله أهل توات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام. ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما في برية لا عمارة بها إلا أن بها الماء. ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات وهنالك أحساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض إسود لونه. وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار (=الطوارق) وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها. وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان، وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر، وسرنا في بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة، طريقها وعر، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء، فأخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت، من توات فخاف أهل القافلة من ذلك. ثم وصلنا إلى بودا، وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها



كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر، ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذاك لأجل البرد وأقمنا ببودا أياما. ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أوسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة. وخرجت منها في ثاني ذي الحجة، وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير، ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة، ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطمع، فأقمت هنالك يوم عيد الأضحى. ثم خرجت فوصلت إلى حضرة فاس، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله..)

لم تحظ المناطق الشرقية من إفريقيا بالاهتمام، قبل ابن بطوطة، مع أن كثيرا من البحارة يشيرون إليها، وهم ينطلقون صوب الهند والصين، وتأتي رحلة ابن بطوطة الى (بلاد السواحل) لكشف هذه المناطق التي ترتبط تجاريا بالبحر الهندي والخليج العربي وبلاد الهند والصين.

18. السواحل الشرقية لإفريقيا. ابن بطوطة. من كتاب (تحفة النظّار)

(..وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام (= في مطلع عام1331م) ووصلت إلى مدينة زيلع (=ميناء في الصومال) وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن، وأهل زيلع سود الألوان واكثرهم رافضة، وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقذر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة، ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله و لم نبت بها لقذرها. ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة، ووصلنا مقدشو (= العاصمة الصومالية، أسست في القرن العاشر الميلادي من المهاجرين العرب) وهي مدينة متناهية في الكبر، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم، ولهم أغنام كثيرة، وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها، ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها، ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابيق، وهي القوارب الصغار إليه، ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول: هذا نزيلي، وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد وحصلت له معرفة أهله، فإنه ينزل حيث شاء فإذا أنزل عند نزيله باع له ما عنده، واشترى له، ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك.

ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إلي بعضهم، فقال له أصحابي: ليس هذه بتاجر، وإنما هو فقيه، فصاح بأصحابه وقال لهم: هذا نزيل القاضي، وكان فيها أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة، وبعث إلي أحدهم فنزلت أنا وأصحابي، وسلمت على القاضي وأصحابه



وقال لي: بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ، فقلت: ومن الشيخ؟ فقال: السلطان، وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ، فقلت له: إذا نزلت توجهت إليه، فقال لي: إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا يترل حتى يرى السلطان، فذهبت معهم إليه كما طلبوا. وسلطان مقدشو كما ذكرناه، إنما يقولون له الشيخ، واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر، وهو في الأصل من البرابرة، وكلامه بالمقدشي، ويعرف اللسان العربي، ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم؟ ومن صاحبه؟ ومن ربانه، وهو الرئيس، وما وسقه؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم؟. فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن يترل عنده أنزله. ولما وصلت مع القاضي المذكور، وهو يعرف بابن البرهان المصري الأصل إلى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي، فقال له: بلغ الأمانة وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز، فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل، فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل، وأعطى للقاضي كذلك وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق، وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضي، وقال: إن مولانا أمر أن يترل بدار الطلبة، وهي دار معدة لضيافة الطلبة، فأخذ القاضي بيدي، وجئنا إلى تلك الدار، وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه، ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه، وهو الموكل بالضيوف، فقال: مولانا يسلم عليكم، ويقول لكم قدمتم خير مقدم. ثم وضع الطعام فأكلنا. وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان، وهو الأدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول، ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن والحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنبا وهي مثل التفاح ولكن لها نواة وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل، وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة، وهم في نهاية من ضخامة الأجسام وسمنها ثم لما أطعمنا انصرف عنا القاضي.

وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم، فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة، جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة، وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل فإنهم لايعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من المقدسي مبطنة، وعمامة مصرية معلمة، وأتو لاصحابي بكسى تناسبهم، وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة، فلما خرج الشيخ من باب المقصورة، سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانه مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا. وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هناك فقرأ ودعا، ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا، وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها على رأسه، ويقول: أدام الله عزك. ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل، وأمرني أن أنتعل وتوجه إلى مترله ماشيا، وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم

حفاة، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب، وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان، وهو متقلد بفوطة حرير معتم بعمامة كبيرة، وضربت بين يديه الطبول والأبواق والانفار وأمراء الأجناد أمامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه، ودخل إلى مشورة على تلك الهيئة، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك، وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه، ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم، ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه، ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام فإذا فرغ من ضرب الطلبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا، وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة.

وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون، وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون، ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم، ويأكل سائر الناس بدار الطعام، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ إلى داره ويقصد القاضي والوزراء، وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والامراء وما كان مفتقرا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجها إلى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا (= بلاد السواحل الشرقية جنوب الصومال) من بلاد الزنوج فوصلنا إلى جزيرة منبسى (جنوب خط الاستواء) وهي كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والأترج، ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولها نواة كنواه إلا انها شديدة الحلاوة، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة، وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيسقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع، والأرض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد

غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام، وبتنا بهذه الجزيرة ليلة.

وركبنا البحر إلى مدينة كلوا (= كيلوا كيزواني في تترانيا) وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم، كما هي في وجوه الليميين من جناوة (= غينيا). وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة (= مدينة يشار إليها كثيرا في المؤلفات الجغرافية تقع على الخط 10 °20 جنوبا والخط 42 °34 شرقا) على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا، وأن بين سفالة ويوفي (مقر مملكة النوبة في إفريقيا الغربية) من بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة. ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها خشب وسقف بيوتها الديس. والأمطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب، وكان سلطان كلوا في عهد دخولي إليها ابو المظفر حسن، ويكنى أيضا أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم، فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة، فإذا جاء الشرفاء دفعه إليهم. وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيد بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي، ولقيت بمقدشو أتيل بن كبش بن جماز، وهو يريد القدوم عليه، وهذا السلطان له تواضع شديد، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم، ويعظم أهل الدين والشرف. حضرته يوم جمعة وقد خرج إلى الصلاة قاصدا إلى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له: أبا المواهب، فقال له: لبيك يا فقير ما حاجتك؟ قال: اعطني هذه الثياب التي عليك، فقال له: نعم أعطيكها، فقال: الساعة، قال: نعم الساعة، فرجع إلى المسجد، ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها، وخلع تلك الثياب، وقال للفقير: أدخل فخذها، فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه، وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه، وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنا بعشرة من العبيد، وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك، فأمر للفقير أيضا بعشرة رؤوس من الرقيق، وحملين من العاج، ومعظم عطاياهم من العاج، وقلما يعطون الذهب، ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه، ولي أخوه داود فكان على الضد إذا أتاه سائل يقول له: مات الذي كان يعطي و لم يترك من بعده ما يعطى. ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة، وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه..)

كشّاف المصادر والمراجع

1. المصادر

الإدريسي، محمد بن محمد الصقلّي (560 = 1165)

– نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، 1989

أسامة بن منقذ، أبو المظفر محبّ الدين (584 = 1188)

– الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، دمشق، 1980

الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم الكرخي (346 = 957)

– المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، 1937

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد (779 = 1377)

– رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبدالهادي التازي، المغرب، 1997

– رحلة ابن بطوطة، تحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر

البكري، أبو عبيد عبدالله (487 = 1094)

– المسالك والممالك، تحقيق فان ليوفن، أندري فيري، تونس، 1992

البلاذري، أبو جعفر أحمد بن يحيى (279 = 892)

– فتوح البلدان، القاهرة، 1959

البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل (322 = 932)

– المسالك والممالك، ليدن، بريل، 1937 (ملحق بكتاب الاصطخري)

البيروني، أبو الريحان محمد بن احمد (440 = 1048)

– في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر آباد، 1958

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (614 = 1217)

– رحلة بن جبير، بيروت، دار صادر

أبو حامد الغرناطي، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي (565 = 1170)

– تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت – المغرب.

أبو حكيمة، راشد بن إسحاق (240 = 853)

– ديوان أبي حكيمة، تحقيق محمد حسين الأعرجي، ألمانيا، كولونيا 1997

الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم (900 = 1495)

– الروض المعطار في خبر الأقطار،تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980

ابن حوقل، أبو القاسم محمد (توفي بعد 367 = بعد 977)

– صورة الأرض، بيروت، دار صادر، 1939

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبد الله (توفي بين 280 و300 = حوالي 892 – 913)

– المسالك والممالك، بعناية م. ج. دي خويه، ليدن، بريل، 1889

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن (633 = 1235)

– المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الإيياري، القاهرة، 1954

أبو دلف، مسعر بن مهلهل (390 = 1001)
– الرسالة الثانية، تحقيق بولغاكوف وخالدوف، ترجمة محمد موسى، بيروت
الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (282 = 895)
– الأخبار الطوال، بغداد، 1970
ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (808 = 1406)
– مقدمة ابن خلدون، بيروت، مؤسسة الأعلى للمطبوعات.
الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (727 = 1327)
– نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى.
الرام هرمزي، بزرك بن شهريار (توفي بعد 340 = بعد 950)
– كتاب عجائب الهند، تحقيق فان دي ليث، ليدن، بريل، 1883– 1886
ابن رسته، ابو علي أحمد بن عمر (توفي حوالي 300 = حوالي 912)
– كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، بريل، 1893
الزركشي، بدر الدين بن عبد الله (794 = 1392)
– البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، القاهرة
ابن سعيد المغربي، علي بن موسى الأندلسي (685 = 1286)
– كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت.
السيرافي، أبو زيد (القرن 4 الهجري = العاشر الميلادي)
– رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي، أبو ظبي، 1999
الشهرستاني، أبو الفتح عبد الكريم (548 = 1153)
– الملل والنحل، القاهرة، 1968
ابن العبري، ابو الفرج غريغوريوس (586هـ = 1286)
– تاريخ مختصر الدول، تحقيق انطوان صالحاني، بيروت، 1958
أبو الفداء، إسماعيل بن علي (732 = 1331)
– تقويم البلدان،اعتنى به رينود وديسلان، باريس، 1840
ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد (749 = 1348)
– مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة
ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بن حمّاد (ق4 هـ = ق10م)
– رسالة ابن فضلان، جمع وتقديم حيدر محمد غيبة، بيروت، 1994
قدامة بن جعفر، أبو الفرج (377 = 948)
– نبذ من كتاب الخراج، وصنعة الكتابة (ملحق بكتاب ابن خردابه)
القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري (682 = 1283)
– آثار البلاد وأخبار البلاد، بيروت، 1969
– عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بيروت، 1981
المسعودي، علي بن الحسين بن علي (346 = 957)
– أخبار الزمان، بيروت، 1978
– التنبيه والإشراف، بيروت، 1968

- مروج الذهب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964
المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله (حوالي 380 = 990)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه (ليدن)
ابن النديم، أبو الفرج محمد (380 = 990)
- الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971
الهمداني، ابو محمد الحسن بن يعقوب (334 = 945)
- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن الأكوع، صنعاء، 1990
ابن الوردي، أبو حفص عمر بن مظفر (749 = 1348)
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة
الوزّان، الحسن بن محمد الفاسي (956 = 1548)
- وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980
ياقوت الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين (626 = 1229)
- معجم البلدان، بيروت، دار صادر
اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر (بعد 292 = بعد 905)
- كتاب البلدان، بريل، ليدن
- تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر

2. المراجع

إبراهيم (عبدالله)
- الثقافة العربية المرجعيات المستعارة، بيروت، 1999
- المركزية الغربية، بيروت، 1997
أرسطو
- السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، القاهرة ، 1979
أركون (محمد)
- نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ترجمة هاشم صالح، لندن، 1997
أفاية (محمد نور الدين)
- الغرب والمتخيّل، بيروت، المركز الثقافي العربية، 2000
بارتولد (فاسيلي)
- تركستان ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت، 1981
بلاشير (ريجيس)
- أبو الطيب المتنبي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1985
بولو (ماركو)
- رحلات ماركوبولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة،1995
بيرك (جاك)
- حينما كنت أعيد قراءة القرآن، ترجمة وائل غالي، مجلة القاهرة ع 154



تودروف (تزفتيان)
- نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دمشق، دار المدى، 1998
خدوري (مجيد)
- القانون الإسلامي، بيروت الدار المتحدة للنشر، 1975
خصباك (شاكر)
- في الجغرافية العربية، بيروت، دار الحداثة، 1988
خصباك (شاكر) وآخرون
- موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، 1995
شاخت (جوزيف)
- تراث الإسلام، شاخت وبوزوت، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، الكويت، 1978
الطهطاوي (رفاعة رافع)
- الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، بيروت، 1973- 1974
العظمة (عزيز)
- العرب والبرابرة، لندن، 1991
علوي (س. م. ضياء الدين)
- الجغرافيا العربية، تعريب عبدالله الغنيم وطه جاد، جامعة الكويت، 1980
الفندي (محمد ثابت، مترجم) وآخرون
- دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب
كراتشكوفسكي (اغناطيوس)
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة
كيليطو (عبد الفتاح)
- لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، 1995
لومبار (موريس)
- الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المغرب، 1990
لويس (برنارد)
- اكتشاف المسلمين لأوربا — ترجمة ماهر عبد القادر
معلوف (أمين)
- الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دمشق، 1999
ميكيل (أندريه)
- الإسلام وحضارته، ترجمة زينب عبدالعزيز، بيروت، 1981
- جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة إبراهيم الخوري، دمشق ، 1985
هيغل (فريدريك)
- العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، 1986

فهارس
عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين

كتاب
أقاليم، وبحار، وبشر

كتاب
الشمال

كتاب
الشرق

كتاب

إفريقيا السوداء

كشّاف

المصادر والمراجع

المؤلف
الدكتور عبدالله إبراهيم

مفكر، وناقد، وأستاذ جامعي من العراق، حاصل على جائزة شومان للعلوم الإنسانية عام 1997 متخصص في الدراسات الثقافية والسردية. شارك في موسوعة Cambridge history of Arabic literature وفي عشرات المؤتمرات والملتقيات النقدية والفكرية. عمل أستاذا في الجامعات العراقية، والليبية، والقطرية.

من مؤلفاته

1. المطابقة والاختلاف، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004
2. موسوعة السرد العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005
3. المركزية الغربية، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1997 والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003
4. المركزية الإسلامية: صورة الآخر في المخيال الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2001
5. الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، بيروت ، المركز الثقافي العربي، 1999
6. التلقي والسياقات الثقافية، بيروت، دار الكتاب الجديد، 2000 وط2 دار اليمامة، الرياض، 2001
7. السردية العربية، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1992، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2000
8. السردية العربية الحديثة، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2003
9. المتخيّل السردي، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1990
10. معرفة الآخر ، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1990، ط 2، 1996
11. التفكيك: الأصول والمقولات، الدار البيضاء ،1990
12. تحليل النصوص الأدبية، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 1999
13. النثر العربي القديم، الدوحة، المجلس الوطني للثقافة، 2002
14. الرواية والتاريخ، الدوحة، المجلس الوطني للثقافة، 2006


مكتبة
التنوير

دراسات
STUDIES

عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين

أنتجت القرون الوسطى الإسلاميّة مرويّات كبرى شبه ثابتة عن الأعراق والثقافات والعقائد خارج دار الإسلام ؛ والصور المتخيّلة للآخر ، في المخيال الإسلاميّ ، كرّستها الخلافات الدينيّة ، والصراعات السياسيّة ، وتباين المنظومات القيميّة والثقافيّة ؛ وما دامت تلك المرويّات توجّه أفكار المؤرّخين ، والجغرافيّين ، والرحّالة ، والمفكّرين ، والفقهاء ، وكلّ من يصوغ الصور الجماعيّة الذهنيّة الخاصّة بالآخر ، فمن المنتظر الحصول على سلسلة من الأحكام غير المنصفة بحقّه ؛ فالعالم خارج دار الإسلام - كما قامت تلك المرويّات بتمثيله - غفل ، ومبهم ، وبعيد عن الحقّ ، وبانتظار عقيدة صحيحة لإنقاذه من ضلاله ؛ وفيما يخصّ الذات أنتج « التمثيل » ذاتًا نقيّة ، وحيويّة ، ومتضمّنة الصواب المطلق ، والقيم الرفيعة ، والحقّ الدائم . أمّا فيما يخصّ الآخر ، فقد أنتج التمثيل « آخرَ » يشوبه التوتّر والالتباس والخمول والكسل ، وذهب ، بالنسبة للأقوام الثانية ، إلى ما هو أكثر من ذلك ، حينما وصفها بالضلال والتوحّش والبوهيميّة . وتمثّل المرويّات ذاكرة يصار إلى استعادة حمولاتها طبقًا لحاجات الوعي الجماعيّ في ظروف تاريخيّة محدّدة من أجل أهداف عامّة ؛ والبحث في الصور المتشكّلة للآخر ، في المخيال الإسلاميّ ، ليس موضوعًا أغلق وانتهى ، بل هو قضيّة تتصاعد بفعل التحدّيات المعاصرة ، إذ يدفع بالماضي ليكون جزءًا من نزاعات الحاضر ؛ واستخدام المرويّات يجعلها وسيلة للرهان في كلّ موضوع يستعصي على الحلّ ، وذلك ، فيما نرى ، يحجب النظر عن القضايا الحسّاسة ، ويتسبّب في عماء دائم يحول دون التفكير الموضوعيّ في الواقع القائم .

يطمح هذا الكتاب إلى عرض الرواية الإسلاميّة للآخر ، مؤكّدًا على فكرة أساسيّة ، هي أنّ المركزيّات تصاغ استنادًا إلى نوع من التمثيل الّذي تقدّمه المرويّات الثقافيّة (الدينيّة ، والأدبيّة ، والتاريخيّة ، والجغرافيّة ، والفلسفيّة ، والأنثروبولوجيّة) للذات المعتصمة بوهم النقاء ، والآخر المدنّس بالدونيّة ، فالتمركز نوع من التعلّق بتصوّر مزدوج عن الذات والآخر يقوم على التمايز والتراتب والتعالي ، ويتشكّل عبر الزمن بناءً على ترادف متواصل ومتماثل لمرويّات تلوح فيها ، بوضوح ، صورة انتقيت بدقّة لمواجهة ضغوط كثيرة . ولعلّ أكثر ما حرص هذا الكتاب على صونه : إيراد نصوص متكاملة ، ومتنوّعة ، ومطوّلة ، ومستوفية الشروط ، تضافرت فيما بينها لكشف مختلف الأوجه للعالم خارج دار الإسلام طوال القرون الوسطى ، وكان ذلك العالم يحيط بدار الإسلام من جميع الجهات تقريبًا ، وقد خصّت أقوام الشرق والشمال والجنوب بأجزاء خاصّة بها ضمن هذا الكتاب ، لأنّ نظرة المسلمين إليها تباينت تبعًا لتباين المنظومات الثقافيّة الّتي تنتمي إليها ، وتبعًا لمناطقها الجغرافيّة . ويهدف الكتاب إلى توفير المادة الأصليّة الّتي يمكن الاعتماد عليها في رسم صورة الآخر في أعين المسلمين خلال تلك الحقبة الطويلة والمتقلّبة .



ISBN 978-9953-36-966-6



